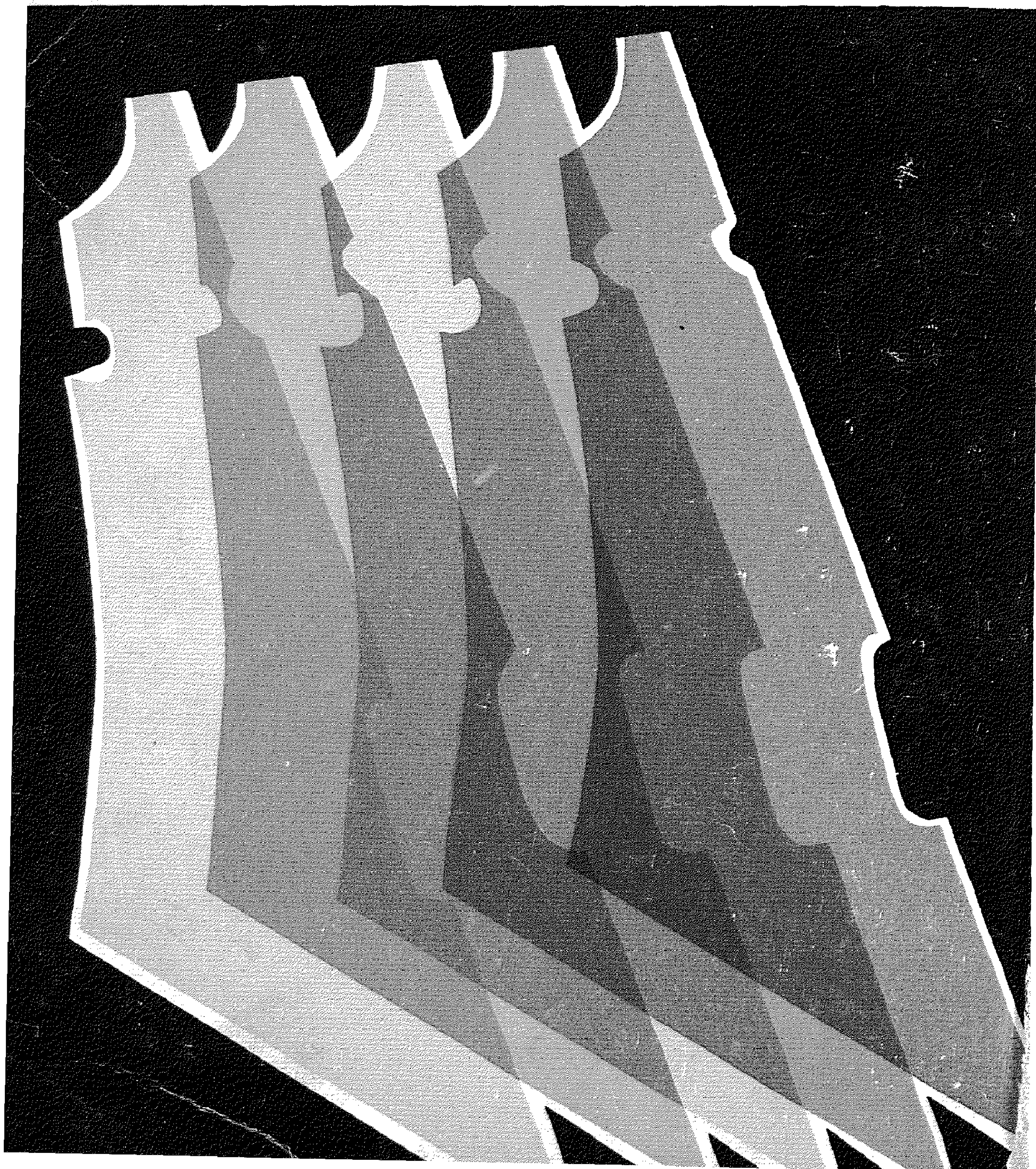
شؤون فلسطينية

٣٥
تموز (يوليو) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

٣٥ — تموز (يوليو) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣½ ل.ل. في لبنان ، ٤½ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في أميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

مكونات القرار
في المجلس الوطني الفلسطيني «الدورة الثانية عشرة»

عصام سخنيني

القرار الفلسطيني كان دائما — منذ ان كانت القضية الفلسطينية — محصلة لعوامل عدة فلسطينية وعربية ودولية . فخصوصية القضية الناتجة عن دخول اطراف مختلفة في الصراع ، والناشئة كذلك عن تشابك المصالح والتحامها من جهة، وتعارضها بل تناقضها من جهة ثانية ، جعلت القرار الفلسطيني تركيبا دائما لعناصر يتفاوت كل واحد منها في الاهمية والتأثير باختلاف الظروف الموضوعية التي تحيط بكل مرحلة من مراحل القضية ، كما يتحكم في صياغة التركيب المستند اليه القرار الفلسطيني زخم كل عنصر من عناصر التركيب ، وهو زخم — اذا اخذ كل عنصر على انفراد — خطه البياني غير متسق المسار ، يعلو ويهبط تبعا لمعطيات الصراع الموضوعية والذاتية التي تحدد اقتحام هذا العنصر أو اتحامه ، خروجه او اخراجه من حلبة الصراع . واذا اخذت مصلحة الشعب الفلسطيني متميزة ضمن اتساق المصلحة القومية العربية ، فان القرار الفلسطيني يظل اقرب الى مصلحة هذا الشعب كلما كان العنصر الفلسطيني اكثر فعلا في التركيب واكثر حسما في دائرة الفعل . وليس هذا الحكم ناتجا عن شعور باقليمية وانما هو النتيجة المنطقية لحاكمة مقدمتها الاولى تنبثق من طبيعة الصراع الذي يمثل الفلسطينيون مادته الاولى وبذلك فهم المعنيون مباشرة بالصراع والمنخرطون اكثر التحاما به مما يستتبع انهم الاكفأ من غيرهم — وغيرهم هنا هم كل الاخرين — في استشراف مصلحتهم الحقيقية ومواطن هذه المصلحة . اما المقدمة الثانية فمشتقة من تراكم الممارسات التاريخية المضنية التي فرض فيها على الفلسطينيين ان يكونوا غائبي التأثير عن دائرة صنع القرار واوكل هذا الدور لغيرهم بالانابة فانتفت بذلك مصلحة الشعب الفلسطيني الحقيقية واغتيلت احيانا وكانت في احسن احوالها مصلحة تابعة ومشتقة غير اصيلة .

اذن ، فالقرار هو اقرب الى مصلحة الشعب الفلسطيني ان كان فيه العنصر الفلسطيني اكثر فعلا في التركيب ، وربما هذا هو ما اصطلح على وصفه في ادبيات الثورة « أن القرار يجب ان يكون فلسطينيا » بمعنى ان الارادة الفلسطينية الحرة المستقلة غير المعرضة لضغوط هي التي يجب ان تكون صاحبة القرار وفي موقع التصرف به . وينبغي التأكيد هنا ان هذه « الارادة الحرة » كانت قضية بحد ذاتها منذ ان كانت المسألة الفلسطينية ، ودارت حولها معارك خسرت الارادة الفلسطينية في بعضها حريتها الجزئية واحيانا الكلية ، وكسبت جولات في بعضها الاخر . وكانت نتائج هذه الجولات تنعكس انعكاسا مباشرا على مصلحة الشعب الفلسطيني ، ايجابا وسلبا ، وعلى مصير نضاله ومستقبله . وقد كان تغييب الارادة الفلسطينية عن ساحة الصراع، العسكرية والسياسية ، في الفترة ما بين حربي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ سببا في ان مصلحة الشعب الفلسطيني كانت تتعثر مع تعثر مراحل الصراع العربي — الاسرائيلي ، بينما

كان تفجر الارادة الفلسطينية وانطلاقها بعد حرب ١٩٦٧ عاملا رئيسيا وحاسما في ميلان كفة الميزان الى جانب مصلحة الشعب الفلسطيني في المدى التاريخي. وقد تمكنت هذه الارادة في فترة من الفترات — ما بين الكرامة في العام١٩٦٨واواسط العام ١٩٧٠ — من ان تكون كلية السلطة في فرض تصوراتها وفي ان ترفض او تقبل نظرا لعجز الارادات المعطلة التي هزمتها حرب حزيران وجعلتها عاجزة عن التصدي للارادة الفلسطينية واحتوائها بشكل سافر ومباشر . وقد ظلت هذه الفترة من تاريخ النضال الفلسطيني علامة رصيدية بارزة يستذكرها هذا النضال ، يستذكر امكاناتها وصدق تجربتها وجدواها ، كلما واجهت المقاومة الفلسطينية حتمية اتخاذ قرار في الشأن الفلسطيني ، فيجري تركيز الوعي على حرية الارادة ، وعلى القرار المبرأ من الضغوط.

بجانب ذلك فقد تميز القرار الفلسطيني في مرحلة الثورة الفلسطينية المعاصرة بانه أكثر استجابة لجدل الواقع والتصورات الذي كان يفرز دائما موقفا ليس هو تنازلا عن ثوابت التصورات المسبقة ولا خضوعا لمتغيرات الواقع المؤقتة ، وانما هو محصلة بمعناها الرياضي — المنطقي تشكلت خصائصها من الاطروحات والنقائض ولكنها تجاوزتها في النوع بالتأكيد ، وكانت في الوقت نفسه شكلا لفعل الارادة الفلسطينية في الواقع ، مؤثرة فيه ومتأثرة به .

هكذا نستطيع ان نقول ان البرنامج السياسي المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية (ما اصطلح على تسميته بالنقاط العشر) الذي اقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورة انعقاده الثانية عشرة في الفترة من ١ — ٨ حزيران ١٩٧٤ كان تركيبا لعناصر عدة اختلطت مكوناتها الفلسطينية بالعربية والدولية ولكن ضمن ناظم واحد (بدا من خلال الحوار الجاد والمسؤول وهما صفتان ارتقت بهما الدورة الاخيرة للمجلس عن كل ما سبقها من دورات) ، هو محاولة اكتشاف مواطن المصلحة الحقيقية للشعب الفلسطيني فيكون القرار الى جانبها . وبذلك فان القرار هنا فلسطيني بمعنى واحد هو تمثل المكونات العربية والدولية بالاضافة الى الفلسطينية وفهم معطيات الواقع الراهن للاستفادة منها في اخصاب التصورات والخروج من ذلك كله بموقف يضمن مصلحة الشعب الفلسطيني . ومن خلال متابعة الحوار في جلسات المجلس وذلك الذي دار في أروقته الخلفية يمكن رسم خارطة لهذه المكونات التي شكلت في تركيبها التصور الفلسطيني الجديد الذي خرج به المجلس كما يلي :

ان المكون الاول الذي بدا من خلال النقاش كان يصدر عن التأكيد على ان تستثمر الثورة الفلسطينية نتائج حرب تشرين لمصلحتها . فالثورة شاركت في صنع النصر الذي تحقق في حرب تشرين ، شاركت في انها حملت عن الامة العربية اعباء النضال خلال أكثر من ست سنوات (وقفت وحدها في ممر الماراثون بتعبير الاخ ابو عمار) ، وهكذا ابقت جذوة النضال العربي متقدة في الوقت الذي كانت فيه الجيوش العربية تعيد بناء نفسها وتنظم صفوفها وتهيء لجولة اخرى . كما شاركت الثورة في صنع النصر المباشر بفتحها جبهة ثالثة في قلب العدو وعلى جبهته الشمالية . وبذلك ، فاذا كانت الثورة قد تعاملت رفضا مع سلبيات حزيران ، فان من حقها ومن واجبها ان تتعامل مع ايجابيات تشرين ، فتغتنم فرصة اختلال ميزان القوى نسبيا لغير مصلحة اسرائيل لتحقق مكاسب تتناسب مع حجم الاختلال النسبي . وعلى الرغم من صدق مقولة ان الثورة شاركت في النصر ، الا ان العنصر العربي في صنع القرار الفلسطيني كان واضحا هنا لا لبس فيه . فمع ان الرئيس السادات اكد للمجلس لدى افتتاح دورته ان « ليس من حق اي طرف عربي ان يمارس عليكم اي ضغط » ، فان الواقع العربي الجديد هو نفسه الذي يلعب دورا في تشكيل التصور الفلسطيني . فقد خرجت الارادة العربية من

اسارها في حرب تشرين ودخلت بذلك دائرة الفعل بعد ان كانت ضمن دائـرة ردود الفعل ، وحققت نصرا عربيا لا مرية فيه بفضل تضحيات كثيرة لا تقـل شـأوا عـن تضحيات الفلسطينيين انفسهم في ثورتهم المعاصرة . وهكذا فان شكل المكاسب التـي تسعى المقاومة الى تحقيقها في ظل اختلال موازين القوى لا بد ان يتقرر ليس فقط من خلال انتصارات الفلسطينيين وتضحياتهم ـ والانتصارات والتضحيات كانت ميـزات الفلسطينيين عندما كانوا يقفون وحدهم في فترة ما بين الحربين ـ وانما ايضا من خلال انتصارات العرب الذين قاتلوا معركة تشرين وضحوا فيها .

المكون الثاني في صنع القرار الفلسطيني كان ينبع من ضرورة اتخاذ موقف فلسطيني ازاء احتمالات التسوية. واذا كانت بعض الاراء حاولت في المجلس ان تخفف من احتمالات التسوية فما ذلك الا لمحاولة وضع البدائل لمواجهة فشل التسوية ، ان فشلت . كمـا ان الدعوة الى تخريب التسوية هي اقرار معكوس باحتمالها الارجح . وقد تشكلت هذه القناعة بالتسوية من عناصر عدة بعضها متعلق بنتائج حرب تشرين وما خلفته من وقائع جديدة على جانبي الصراع ، وبعضها اقترن بمحاولة فهم الاثار التي تتركها العلاقـات الدولية على منطقتنا . فعلى الجانب العربي من الصراع كان هناك فهم لاهداف حـرب تشرين : تحريك الركود الذي ران على مسألة الاحتلال ، تحرير جزء من التراب العربي وفرض تسوية بفعل النتائج العسكرية للحـرب . وعلى الجانب الاسـرائيلي ، فان الاطلالة الفلسـطينية على ما يجـري هنـاك كانت جليـة ومدركة تفاعـل المـأزق الذي ولدتـه الهزيمة العسـكرية الاسرائيلية ، وعلى وعي بحجمهـا الحقيقي الذي وان كان جـرى احيانـا تهويل بشـأنه ، فان مقاييسـه الفعلية لا تعني الهزيمة المطبقة لاسرائيل ، وانما تعني الهزيمة ـ في حدود التسوية . بجانب ذلك فقد بـرز العامل الدولي في تشكيل القناعة الفلسطينية بالتسوية تحت عنوان سياسة الانفراج الدولي التي تحكم علاقات الدولتين العظميين ، الولايات المتحدة الاميركية والاتحـاد السوفياتي . وعلى الرغم من انه لم يظهر في جلسات المجلس تحليل دقيق لدوافع هذه السياسة* فان آثارها التي كانت تسيطر على جو الحوار الفلسطيني كـانت تتجه في المجرى التالي : ان سياسة الانفراج هي نهاية للحرب العالمية الثالثة (الحرب الباردة والحروب المحلية الصغيرة التي وراءها الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة) ، وبذلك فان تسوية المسائل العالقة بين المعسكرين قد دخلت في حيز التنفيذ (ظهرت آثارهـا في فيتنام وتبدو الآن في المانية وكوريه) ، وبذلك فلا بد ان تنعكس آثار هذه السياسة على منطقتنا ـ على قضيتنا ـ كما انعكست في مناطق اخرى ، في شكل تسوية مـا ، ملامحها غير مصممة سلفا وانما تقررها موازين القوى الراهنة .

هذه التسـوية ، لن تكون في مصـلحة اسـرائيل باطلاق نتيجـة موازين القوى الراهنـة . فاسرائيل نظرا لهزيمتها العسـكرية سـتجد نفسـها مضطـرة الى تقديم « تنازلات » على شـعبنا ان يحسن استثمارها . كما ان المراهنة على الجهـد العربي الذي خرج بحرب تشرين من اسار قيود الخوف والشعـور بالنقص اللذيـن ولدتهما حرب حزيران هي مراهنة مجدية . وبجانب ذلك فان موقف الاتحاد السوفياتي من نضال شعبنا ـ والموقف السوفيـاتي عنصر فعال في التسويـة ـ والتفسـير السوفياتي للقرار ٢٤٢ ، وهو ما سوف تقوم عليه التسوية ، سيكونان من الضمانات

---

* ظهر في العدد ٣٤ من مجلة **شؤون فلسطينية** الذي صدر لدى افتتاح المجلس دراستان من وجـهتي نظر مختلفتين عن سياسة الانفراج الدولي .

الرئيسية في الا تكون التسوية في مصلحة اسرائيل في اطلاق . ولا بد هنا من الاشـارة بشيء من التفصيل الى هذا المكون الدولي في القرار الفلسطيني . فهذا التفسير الذي ورد في الخطاب الذي القاه ليونيد بريجنيف في مؤتمر السلم العالمي الذي عقد في موسكو في تشرين الاول ١٩٧٣ والذي حدد الفهم السوفياتي لـ « مشكلة اللاجئين » بأنها « ضمان الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني » ، هذا التفسير طرح امكانية احداث تعديلات في القرار ٢٤٢ تأخذ في الاعتبار حقوق الشعب الفلسطيني ولا تعتبرها « مشكلة لاجئين » فقط . وقد انعكس هذا في النقطة الاولى من النقاط العشر والتي رفضت القرار ٢٤٢ مع تخصيص انـه « يتعـامل مع قضيـة شـعبنا كمشـكلة لاجئين » . الا انه في الجلسـات العامـة المجلـس قـدم تفسـير لهـذه النقطـة مع تعديـل ظهر للوهلة الاولى انه تعـديل في الصياغـة واللغة الا ان مضمونـه السيـاسي يكتسب دلالة خاصة . فقد وردت النقطـة من لجنة الصياغـة المنبثقة عن اللجنـة السياسية بالنص التالي : « تأكيد موقف منظمة التحرير السابق من ان قرار ٢٤٢ الذي يطمس الحقوق الوطنية والقومية لشعبنا ويتعامل مع قضية شعبنا كمشكلة لاجئين ، ولذا يرفض التعامل مع هذا القرار على هذا الاساس في اي مستوى من مستويـات التعامل العربية والدولية بما في ذلك مؤتمر جنيف » وقد تم التعديل الذي جرى بحذف حرف « أن » لانه من ناحية لغوية تظل الجملة مفتوحة باستعمال « أن » التي لا خبر لها في الجملة . بيد ان المدلول السياسي في التعديل كما تبدى في التفسير الذي قدمـه صاحبه يتجاوز مسألة الصياغة بكثير ، فهو يؤكد موقف المنظمة السابق من القـرار ٢٤٢ ، وهذا الموقف معروف ومؤضح في البرنامج السياسي لمنظمة التحرير وقـرارات مجالسها السابقة ، الذي يرفض القرار ليس فقط لانه « يتعامل مع قضيـة شعبنـا كمشكلة لاجئين » ولكنه بالاضافة الى ذلك لانه ينهي حالة الحرب ويؤدي الى الاعتراف بحق اسرائيل في العيش بسلام ضمن حدود آمنة . وهكذا فان « يتعامل مع قضية شعبنا كمشكلة لاجئين » جاءت هنا في هذه النقطة عطفا تفصيليا وجزئيا على الموقف الكلـي السابق للمنظمة . وقد تأكد هذا الشرح عندما قدم صاحب الاقتراح تفسيره لتعبيـر « لذا يرفض التعامل مع هذا القرار على هذا **الاساس** » ، اي اساس موقف المنظمة السابق من القرار . وقد فاز اقتراح التعديل « اللغوي » باجماع المجلس ولكنا نظـن ان هذه النقطة بالتحديد ستظل موضع اجتهادات تفسيرية في المستقبل .

بجانب هذا المنطق الذي كان يتوصل من محاكمة نتائج حرب تشرين ايجابيا ومـن معطيات الواقع الدولي الى استخلاص ان التسوية لن تكون كليا في مصلحة اسرائيل ، برز هناك منطق اخر ينطلق من التسليم بايجابيات حرب تشرين وتأثيراتها في اسرائيل وفي اختلال ميزان القوى لغير مصلحتها ، بيد انه يتوصل بالاضافة الى ذلك الـى ان الامبريالية الاميركية قد حققت بفضل هجمتها السياسية السريعة التي أعقبت الحرب بعض النجاحات التي تكاد تقلب ايجابيـات الحرب الى سلبيات في محاولة منها لبسط النفوذ الامبريالي على كامل المنطقة العربية من خلال الوساطة والتسوية . فقد نجحت الولايات المتحدة حتى الان في الامور التالية : • وقف اطلاق النار . • استئناف ضخ البترول . • ظهور اميركه بمظهر الصديق للعرب . • تخريب العلاقات مع الاتحـاد السوفياتي . • الهجمة الاقتصادية التي أعقبت الحرب . • استئناف بعض الـدول العربية علاقاتها مع اميركه . • وضع حركة المقاومة الفلسطينية في مأزق بالنسبـة للقرار ٢٤٢ . وعـلى هذا الاساس فانه قول يجـافي الحقيقة ذلك الذي يؤكد اننـا الان في موقع القوة ، وبالتالي اننا قادرون على ان نفرض على اسرائيل التسليم ببعض حقوق شعبنا بحيث نصل الى درجة تحقيق حل مرحلي لا يتعارض مع حقوقنا الاساسية

ولا مع أهدافنا النهائية . والاستخلاص الوحيد من هذه المحاكمة هو رفض المشاركة في التسوية لانها لن تحقق ادنى طموحات شعبنا .

لم يستطع هذا النمط من التفكير فرض استنتاجاته وان كان هذا المنطق قد روعي في البيان السياسي الصادر عن المجلس الذي نص على ان « يتصدى شعبنا لكل تسوية تمس حقوقه وقضيته » ، غير انه في ظل شعار المرحلية تظل هذه العبارة عرضة للاجتهادات المتعددة . لم يستطع هذا النمط من التفكير فعل ذلك بسبب القناعة الكبيرة التي أشرنا اليها بأن الاطراف المشاركة في التسوية مصممة على بلوغها وان قدرتنا على مقاومة هذه الاطراف وعلى تخريب التسوية هي قدرة محدودة بالقياس الى ضخامة حجم هذه الاطراف ، وهكذا فان اعلاننا رفض التسوية صريحا لا يحتمل غير بديل واحد هو سحق الثورة وحرمان الشعب الفلسطيني من تحقيق بعض المكاسب المرحلية . وكان هذا المنطق يقود بالتالي من هذه المقدمات الى نتيجة حتمية هي ان على الثورة الفلسطينية ان يكون لها دورها الفعال والمؤثر في جعل التسوية أقرب ما يمكن الى مصلحة الشعب الفلسطيني . والحوار الذي دار حول مؤتمر جنيف ، وهو العنوان المكثف للتسوية ، يشير الى ذلك بغير ريب . فقد اقترن رفض مؤتمر جنيف في فترة واحدة (هي النقطة الاولى من البرنامج المرحلي) مع رفض القرار ٢٤٢ بالتفسير الاول الذي اعطي له « يتعامل مع قضية شعبنا كمشكلة لاجئين » . مما مكن الاعتقاد بان حضور المؤتمر مرهون بتغيير الاساس الذي يقوم عليه المؤتمر وهو القرار ٢٤٢ ، بحيث يعدل هذا القرار فلا « يتعامل مع قضية شعبنا كمشكلة لاجئين » ، او كما طرح في أحد الاراء ان الذهاب الى جنيف مرهون بتحقيق شرطين : الاول توجيه الدعوة الى منظمة التحرير بصفتها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ، والاخر ان يوضع ملف كامل للقضية الفلسطينية على جدول أعمال المؤتمر . بل كان التأكيد يجري على حضور المؤتمر بحجة تقول انه لا بد ان نكون موجودين في كل مكان يذكر فيه اسم فلسطين باعتبار اننا القائمون على التحدث باسم الشعب الفلسطيني ، فان على منظمة التحرير وهي التي انتزعت بنضالها حق التمثيل الوحيد للشعب الفلسطيني ان تمثل مصالح هذا الشعب وتدافع عنها على كل صعيد ، واكثر من ذلك فقد برز رأي يعتبر ان حضور المنظمة مؤتمر جنيف هو « مطلب نضالي » ، فالصهيونيون والاميركيون يسعون الى ابعادنا عن المؤتمر بينما الاشقاء العرب والسوفيات يصرون على اشتراكنا ، ويجب ان يكون هناك شرط لحضورنا يتمثل في الاعتراف بأن قضيتنا هي قضية تحرر وطني وليست مسألة لاجئين . ويتمكن هذا الاعتقاد مرة اخرى من عدم الاشارة الى مسألة المفاوضات في البرنامج السياسي المرحلي . فعلى الرغم من الحجة التي تؤكد ان المفاوضات ليست مرفوضة كمبدأ ، فأي جهة مقاتلة ستجد نفسها في نهاية المطاف على طاولة واحدة مع خصمها لتفاوضه في شروط التسليم ، ولكن المفاوضات في ظل ميزان القوى الراهن الذي هو ليس لمصلحتنا كليا لن تنتج الا الاعتراف الواقعي بالعدو ، والتسليم بوجوده وبحقه في القيام على جزء من ترابنا الوطني دون ان يحقق الشعب الفلسطيني من خلال المفاوضات اية مكاسب وطنية له . وبجانب ذلك فان مجرد قبولنا بمبدأ التفاوض وممارستنا له سينعكس سلبا على جبهة الاصدقاء الذين تعاطفوا مع قضيتنا وقطعوا علاقتهم مع اسرائيل وحاصروها في عزلة دولية ، بحيث يجد هؤلاء الاصدقاء انفسهم امام واقع جديد فيه الفلسطينيون انفسهم يتخلون عن « مقاطعتهم » لاسرائيل فتنكسر بالتالي جبهة الحصار هذه من الاصدقاء .

على الرغم من هذه الحجة فان النص في البرنامج السياسي على رفض المفاوضات يعني حرمان المنظمة من حريتها في التحرك السياسي والنضال من اجل تغيير الاسس

التي يقوم عليها مؤتمر جنيف ليصبح هذا المؤتمر جهة صالحة لبحث القضية الفلسطينية من جذورها بما في ذلك حقوق الشعب الفلسطيني كما تقررها منظمة التحرير نفسها وبذلك يفتح الامكانية لمشاركة المنظمة في اعماله . بجانب ذلك فينبغي ان يلاحظ هنا — والملاحظة مشتقة من الحوار الذي جرى — تأثير العنصر العربي في صنع القرار في هذا الشأن . وقد توضح هذا التأثير في ان مصر وسوريا ، وقد صنفتا على انهما الحليفتان الاقرب الى حركة المقاومة ، قد قبلتا بمبدأ التفاوض وفق الشروط التي أعلنتها كل منهما ومارستاه عمليا . وبذلك فان اي رفض ، بقرار فلسطيني ، للمفاوضات لا يعني سوى ادانة الموقف المصري — السوري واحراج الدولتين معا .

باجمال ، فقد تبدت في هذا المكون الذي ادرجناه تحت العنوان الرئيسي ، «التسوية» ، الابعاد العربية والدولية في صنع القرار الفلسطيني ، غير أننا يجب ان نضيف مسألة لا تقل أهمية عن ذلك ، وقد وردت عرضا فيما سبق ، هي مسألة التمثيل الفلسطيني في هذا الشأن . فقد استطاعت منظمة التحرير الفلسطينية بنضالها السياسي والكفاح المسلح للفصائل المنضوية في اطارها ، ان تنتزع اعترافا من العالم ، سواء اعترافا قانونيا ام واقعيا ، واحيانا اعترافا ضمنيا ، بأنها الممثلة الوحيدة للفلسطينيين والناطقة باسمهم والمعبرة عن مصالحهم وحقوقهم . وبذلك فليس لاحد غير المنظمة ان يدلي برأي في الحق الفلسطيني ان طرح هذا الحق على بساط البحث على أي صعيد كان . وعلينا هنا ان نستدرك فنقول ان هذه الحجة استعملت سلاحا كذلك بيد رافضي التسوية والقائلين بضرورة تخريبها . فأن رفض المنظمة المشاركة في التسوية سيوقع الاطراف الاخرى في مأزق ما دام الطرف الاصيل في القضية الفلسطينية غائبا عنها وغير ملتزم بنتائجها . غير أن شبح النظام الاردني ، وهو البديل الوحيد للمنظمة في حال امتناعها عن اقحام نفسها في تقرير مصير الشأن الفلسطيني في التسوية ، كان وسيظل مسيطرا — علينا أن نعترف بذلك — على آلية صنع القرار الفلسطيني وموقفه من التسوية . فالنظام الذي ادانته جماهيرنا ليس هو الذي يمثل مصالح الجماهير الفلسطينية ولا هو الذي في موقع الدفاع عن الحقوق الفلسطينية او بذل الجهود لاستعادتها أو بعضها . ومع هذا فهو يتشبث بـ « مسؤوليته » عن هذه الحقوق ، وهذا التشبث لا يحتمل غير تفسير واحد هو ان النظام الاردني يجهد — من خلال هذا التشبث — في سبيل المساومة على هذه الحقوق وانتهاكها . اذن ، فان « مزاحمة » النظام هنا من جانب المنظمة من أجل الدفاع عن الحق الفلسطيني وعدم التنازل عنه ليصبح من « مسؤولية » النظام الاردني ، تصبح مبررة ، وبالتالي تؤدي الى تمسك المنظمة بحقها في ان يكون صوتها هو المسموع لدى البحث في الشأن الفلسطيني بعد أن تكون قد تمكنت من طرد النظام الاردني وعزله عن دائرة التقرير في هذا الشأن. ان العامل الاردني — هو سلبي — واضح هنا في تكوين الموقف الفلسطيني من مسألة التسوية ومن مسألة أخرى سيرد ذكرها لاحقا .

من المكونات الرئيسية الاخرى في صنع القرار الفلسطيني في المجلس الوطني كان مصير الاراضي الفلسطينية التي « سوف تنسحب منها اسرائيل » . فالتسوية ، ان كان الجهد الفلسطيني فاعلا فيها ومؤثرا ليس بالجهد السياسي فحسب وانما باستمرار النضال المسلح بالاضافة الى التأثيرات العربية والدولية ، ستجعل اسرائيل تواجه حتمية انسحابها من الاراضي الفلسطينية المحتلة في العام ١٩٦٧ او بعضها . ومع ان النقطة الثانية من البرنامج السياسي المرحلي نصت على أن « تناضل منظمة التحرير بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الارض الفلسطينية واقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها،

وهذا يستدعي احداث المزيد من التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله » ، مع هذا النص فأن الارض المعنية هنا في القرار الفلسطيني هي تحديدا الضفة الغربية وقطاع غزة او اجزاء منهما، فليس مطروحا الان الجليل ولا النقب وانما الضفة والقطاع. وقد أثار ذلك تساؤلا عن معنى النضال **بكافة الوسائل** وعلى رأسها الكفاح المسلح واقترانها باقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة علـى **كل جزء من الارض الفلسطينية** التي يتم تحريرها ، وان لم تكن « كافة الوسائل » تعني الوسائل السياسية ويستخلص هذا التساؤل اجابة تنفي امكانية اقامة هذه **السلطة الوطنية المستقلة المقاتلة** بتلك الوسائل ، دون ان تنقض هذه الاجابة **حتمية** اقامة هذه السلطة على كل جـزء يتم **تحريره** من التراب الفلسطيني بوسائل اخرى لا تمر عبر جنيف وانما من خلال الكفاح المسلح وحده . عندها ، ومع هذا المنطق ، يصبح « كل جزء يتم تحريره » امرا غـير مرتهن بالضفة او القطاع بل تقرره العمليات العسكرية وحدها شمالا او جنوبا بموازاة النهر او على ساحل البحر . لكن هل فعلا هكذا هي معطيات الواقع أم هو مصير ما « تنسحب » منه اسرائيل او « تجلو » عنه او « يتم تحريره » ؟

لقد طرحت بدائل خمسة لهذا المصير : الوصاية الدولية ، الوصاية العربية ، بقـاء الاحتلال الاسرائيلي ، عودة النظام الاردني ، اقامة السلطة الوطنية . وبمنهج الحذف فان السلطة الوطنية هي الخيار الفلسطيني الاوحد . غير ان هذا الخيار ليس عمـلا انتقائيا بحتا تعمل فيه الرغائب وفق مشيئتها الانتقائية الحرة ، وانما هو — مـرة اخرى — محصلة لعوامل عدة تفاعلت موضوعيا تتجاوز التفكير الرغائبي وشهية ان تكون لنا دولة او الترفع عن الا تكون . ونستعرض هنا هذه العوامل مع استحضـار ان هذا العرض يبغي التوصل الى اكتشاف مكونات القرار وليس امكانات التنفيـذ او جدواه .

ان القناعة ، الناتجة عن تحليل المعطيات العربية والدولية ، بأن دول المواجهة سائرة قدما في طريق التسوية ولدت قناعة اخرى بأن استمرار الثورة المسلحة في المنفى سوف يصبح احتمالا في درجة الصفر . وهذه القناعة لا تشمل دول المواجهة التي قاتلت فحسب وانما دول المواجهة الاخرى التي لم تشترك في القتال. اذن وفي هذه الحالة على الثورة ان تواجه واحدا من اربعة خيارات : ان تنتحر انتحارا احتفاليا بمواجهتها لهذه الدول مجتمعة فتسجل بذلك مواقف رصيدية للجماهير لا يعرف متى يمكن ان تكون حـافزا ومفجرا لثورة اخرى ، او ان تكمن او تلبد في فصل شتائي طويل متحينة ظروفا موضوعية أكثر نضجا لصحوها ، او ان تكون ثورة لاجئة في احدى « دول المساندة » فتتحول الى حركة سياسية تصرخ من بعيد ، والخيار الرابع ان « تغامر » بالنضال لتأمين « قاعدة آمنة » على أرض هي ملكها فتقيم عليها سلطتها الوطنية . واذا كان الخياران الاول والثالث غير جادين ، فان الخصائص الذاتية لحركة المقاومة (التضخم وتحول المؤسسات الى تلك الشبيهة لدى الدول ولامركزية القيادة) تجعل الخيار الثاني أمرا مشكوكا في فاعليته . وهكذا يبقى الخيار الاخير **هدفا نضاليا** لا يقف — باعتباره هدفا — عقبة في سبيل استمرار الكفاح بل مفروضا فيه ان يشحذ ادوات هذا الكفاح ، ويمكن ان يحشد من حوله — أيضا باعتباره هدفا — حلفاء مرحليين واستراتيجيين ، وفي حال وضعه موضع التنفيذ (ان القناعة السائدة في المجلس هي ان اقامة السلطة الوطنية تتطلب شهداء بقدر ما استشهد في كل مراحل النضال السابقة) يتحقق الكسب المرحلي بانتزاع جزء من الحق الفلسطيني . اذن فالتسوية هنا ونتائجها المرتقبة هي احد العوامل في تقرير الموقف الفلسطيني من السلطة الوطنية .

هناك عامل آخر ثنائي العلاقة بين النظام الاردني والفلسطينيين وارضهم المحتلة .

فالممارسات العذابية الطويلة التي عانى منها الفلسطينيون على أيدي هذا النظام بنت سدودا لا يمكن اختراقها بين النظام الهاشمي وعودته الى حكم «الفلسطينيين في أرضهم»، والنظام الهاشمي الذي تخلى عن الارض الفلسطينية في حزيران دون حرب تقريبا والذي في تشرين « لم يكتف برفض الاشتراك في الحرب فحسب [كما جاء في البيان السياسي الصادر عن المجلس الوطني] بل منع قوات الثورة الفلسطينية ايضا من اداء دورها العسكري عبر الارض الاردنية وقام بقتل واسر العديد من مقاتلينا » ، ليس من حقه ولا من « مسؤوليته » العودة الى الضفة الغربية (ربما الاصطلاح الصحيح تاريخيا وسياسيا والذي يجب ان يسود وينهي اصطلاح الضفة الغربية هو **فلسطين الوسطى**) والتسلط من جديد على سكانها . اذن ؟ هو القرار بأن تواجه منظمة التحرير مسؤوليتها فتحشد جماهير فلسطين الوسطى وقطاع غزة خلف هدف نضالي يدعو الى منع الالحاق واقامة السلطة الوطنية المستقلة .

هذا ، واذا كانت المرحلية تعني اكتشاف معطيات المرحلة الراهنة واستشراف آفاق المرحلة الاتية في المدى المنظور وتعيين اهداف قابلة للتحقق ضمن هذه المعطيات والافاق بحيث لا تتناقض مع الهدف الاستراتيجي الابعد بل تكون خطوة او خطوات في سبيل تحقيقه ، فان شعار « اقامة السلطة الوطنية على كل جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها » يعتبر شعارا مرحليا منسجما مع معطيات المرحلة الراهنة وآفاق المستقبل المنظور . والمحاكمة هنا تنطلق من المقدمات التالية : ان المقاومة الفلسطينية ، على الرغم من الانتصارات الكبيرة التي حققتها ، غير قادرة وحدها على الحـاق الهزيمة النهائية بالعدو ، بل كانت مراهنتها منذ البداية على أن تكون الطليعة التي ترود آفاق النضال العربي والصاعق الذي يفجر حرب التحرير الشعبية العربية . وبعـد ست سنوات من التضحيات المتواصلة كانت حرب تشرين المحدودة والتي لم تضع هدفا لها ، لا معلنا ولا ضمنيا ، تحرير كامل التراب الفلسطيني . اذن فان أوضاع العالم العربي لن تفرز في أحسن الاحوال الا حربا أخرى شبيهة بحرب تشرين ، ان حدثت . وهكذا فأن المراهنة على الجهد العربي يجب أن تنطلق من فهم هذه الحقيقة . ومن جانب اخر فاذا كانت موازين القوى في العالم يمكن ان تسمح او تجبر اسرائيل على الانسحاب من الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ وبضمنها الاراضي الفلسطينية المحتلة ذلك العام ، او اجزاء منها ، فان مسألة وجود اسرائيل نفسها غير قابلة للنقاش . وبذلك فان الجدار الدولي ، بكل ما في اساسات هذا الجدار من دعم عسكري وسياسي لاسرائيل ، هو السد الذي ترتطم عنده أقصى الطموحات العربية ، حتى حلفاؤنا في العالم يشكلون جزءا من هذا الجدار ، وعلى العكس فهم يسيرون معنا حتى الوصول الى هذا الجدار . هل هو اليأس من امكانات تحقيق الهدف الاستراتيجي ؟ ان المعادلة ليست نفسية بقدر ما هي فهم معطيات الواقع وتعيين الهدف المرحلي في ضوئها . والهدف المرحلي هنا والذي لا يمكن ان تفرز المعطيات الراهنة شكلا ارقى منه هو النضال من اجل اقامة السلطة الوطنية على الاجزاء التي يتم اجلاء اسرائيل عنها بحيث يرصد هذا الهدف ، بوعي كامل بمرحليته ، لخدمة الهدف الاستراتيجي ضمن جهد فاعل ، عسكري وسياسي ، لتغيير موازين القوى لمصلحة قضيتنا .

وبعد ، فاذا كانت هذه هي بعض مكونات القرار الفلسطيني فأن تنفيذه في شكل يكون اقرب الى مصلحة الشعب الفلسطيني يتطلب ان يكون العنصر الفلسطيني في التنفيذ هو الاكثر حسما في المحصلة ودائرة الفعل .

من المنشورات الجديدة
لمركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

وداعا ايتها الحرب وداعا ايها السلام	محمود درويش
تجربة البحث عن أفق	الياس خوري
التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني ١٩٠٠ــ١٩٧٠	عنان العامري
الحكاية الشعبية الفلسطينية	نمر سرحــان
العمل والعمال في المخيم الفلسطيني	هاني مندس
مقالات في الدعاية الصهيونية وحرب اكتوبر	محمد علي العويني والسيد عليوه حسن وسمير كنعاني
الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية	ناجي علوش
أسلحة الجيش الاسرائيلي	هشــام عبدالله
تمييز الطائرات والمدرعات	الهيثم الايوبي وهشام عبدالله
ميزان القوى العربي الاسرائيلي	الهيثم الايوبي وهشام عبدالله
اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٥	رئيس التحرير : عصام سخنيني
احصاءات فلسطينية	الياس خوري
منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة الفلسطينيين (بالانجليزية)	عصام سخنيني
مقابلات مع قادة المقاومة الفلسطينية (بالانجليزية)	باشراف محمود درويش

الأبعاد العسكرية لفصل القوات في الجولان

المقدم الهيثم الايوبي

في الساعة ١٩،٣٠(١) من يوم ٢٩ ايار (مايو) ١٩٧٤ ، أعلن الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون عن نجاح مهمة وزير خارجيته في الشرق الاوسط والتوصل الى اتفاق فصل القوات في الجولان . واعلن الناطق الرسمي الاسرائيلي النبأ في اليوم نفسه ، ولكن سورية اجلت اعلان النبأ بشكل رسمي الى ما بعد توقيع الاتفاق في جنيف في الساعة ١٣،٤٥ من يوم ٥/٣١ ، واكتفت وسائل الاعلام السورية في يوم ٢٩ بتكرار اعلان الرئيس الاميركي .

ولم يتوقف اطلاق النار فور اعلان الاتفاق (٥/٢٩) ، واستمرت الاشتباكات بنيران القوات البرية على هضبة الجولان وجبل الشيخ حتى الساعة ١٤،١٥ من يوم ٥/٣١ . دون ان يشترك طيران أو بحرية الطرفين في هذه الاشتباكات . ولقد ضم الوفد السوري الذي حضر توقيع الاتفاق في جنيف اللواء عدنان وجيه طياره والعقيد ابراهيم العمر والدبلوماسي السوري صلاح الدين الطرزي ، وضم الوفد الاسرائيلي الجنرال هرتزل شافير والعقيد دوف زيون والدبلوماسي الاسرائيلي مئير روزين. وشهد التوقيع الجنرال انزيو سيلاسفيو قائد قوات الطوارىء في الشرق الاوسط ، واللواء طه المجذوب من الوفد العسكري المصري في جنيف ، والسفير السوفييتي فلاديمير فينوغرادوف ، والسفير الاميركي الزورث بانكر، وممثل سكرتير الامم المتحدة كورت فالدهايم السيد روبرتوغويير .

وهكذا انتهت حرب الاستنزاف التي دامت ٨١ يوما وامتدت من ١٢ آذار (مارس) ١٩٧٤ حتى ٣١ ايار (مايو) ، واشتركت فيها القوات البرية والجوية ضمن اطار « مبارزة بالنيران » تخللتها بعض عمليات الدوريات ، كما انتهت جولة الدكتور هنري كيسنجر الخامسة في الشرق الاوسط ، ووساطته التي دامت ٣١ يوما قطع وزير الخارجية الاميركية خلالها ٣٥ الف كيلومتر ، واجرى ١٧٠ ساعة محادثات مع المسؤولين في عواصم المنطقة ، ختمها بقبلة على خد غولدا مائير وسط حفل تبادل انخاب الشامبانيا .

ولقد وصف الرئيس نيكسون الاتفاق في ٥/٢٩ بأنه « انجاز ديبلوماسي مهم » ، واعتبره السوريون والسوفييت « خطوة اولى وجزء لا يتجزأ من الحل الشامل »(٢). ولم يكتف غروميكو بذلك بل أوضح طبيعة هذا الحل « الذي لا يمكن تحقيقه الا على اساس الانسحاب التام لاسرائيل من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني » ، ووصفه شمعون بيرس عند اعلانه في ٥/٢٩ بأنه « اتفاق تاريخي » و « خطوة نحو السلام » . ويقول البيان الحكومي الرسمي الذي أعلنه الوزير شمعون بيرس « ان حكومة اسرائيل تعبر عن أملها بأن يشكل هذا الاتفاق خطوة اخرى لتهدئة الشرق الاوسط ، وتوجيه المجهود الوطني لدى شعوب المنطقة كافة لمصلحة سكانها ، وتنمية المنطقة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا(٣) » . ولقد جاء اسحاق رابين رئيس الحكومة الجديدة على ذكر الاتفاق خلال اجتماع طرح الثقة

بحكومته في ٦/٣ ووصفه بأنه « مرحلة واحدة في الطريق لاحلال السلام » .

وفي يوم ٥/٣٠ نشرت صحيفتا « البعث » و « الثورة » السوريتان النص الرسمي للاتفاق . ولا بد لنا هنا من ذكر هذه الوثيقة لتكون أساسا لمناقشتنا العسكرية حول بنودهـــا .

نص الاتفاق

« أ ـــ تراعي اسرائيل وسوريا مراعاة دقيقة وقف اطـــلاق النار في البر والبحـــر والجو وتمتنعان عن كل الاعمال العسكرية ضد بعضهما بعضا منذ توقيع هذه الوثيقة تطبيقا لقرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة ذي الرقـــم ٣٣٨ المؤرخ في ٢٢ تشرين الاول ١٩٧٣ .

ب ـــ تنفصل القوات العسكرية لاسرائيل وسوريا وفقا للمبادىء التالية :

١ ـــ تكون كل القوات العسكرية الاسرائيلية غربي الخط المسمى بخط (أ) عـــلى الخارطة المرفقة بهـــذا الاتفـــاق باستثناء منطقة القنيطـــرة حيث تكون غـــربي غرب هذا الخط .

٢ ـــ تكون كل الاراضي شرقي الخط (أ) تحت الادارة السورية ويعود المدنيـــون السوريون الى هذه الاراضي .

٣ ـــ تكون المنطقة بين الخط (أ) والخط (ب) على الخارطة المرفقة منطقة فصل ، وترابط في هذه المنطقة قوة مراقبي فصل القوات التابعة للامم المتحدة المنشأة وفقـــا للبروتوكول المرفق .

٤ ـــ تكون كل القوات العسكرية السورية شرقي الخط المسمى بخط (ب) علـــى الخارطة المرفقة .

٥ ـــ تكون هناك منطقتان متساويتان لتحديد الاسلحة والقوات واحدة غرب الخط (أ) وواحدة شرق الخط (ب) حسبما اتفق عليهما .

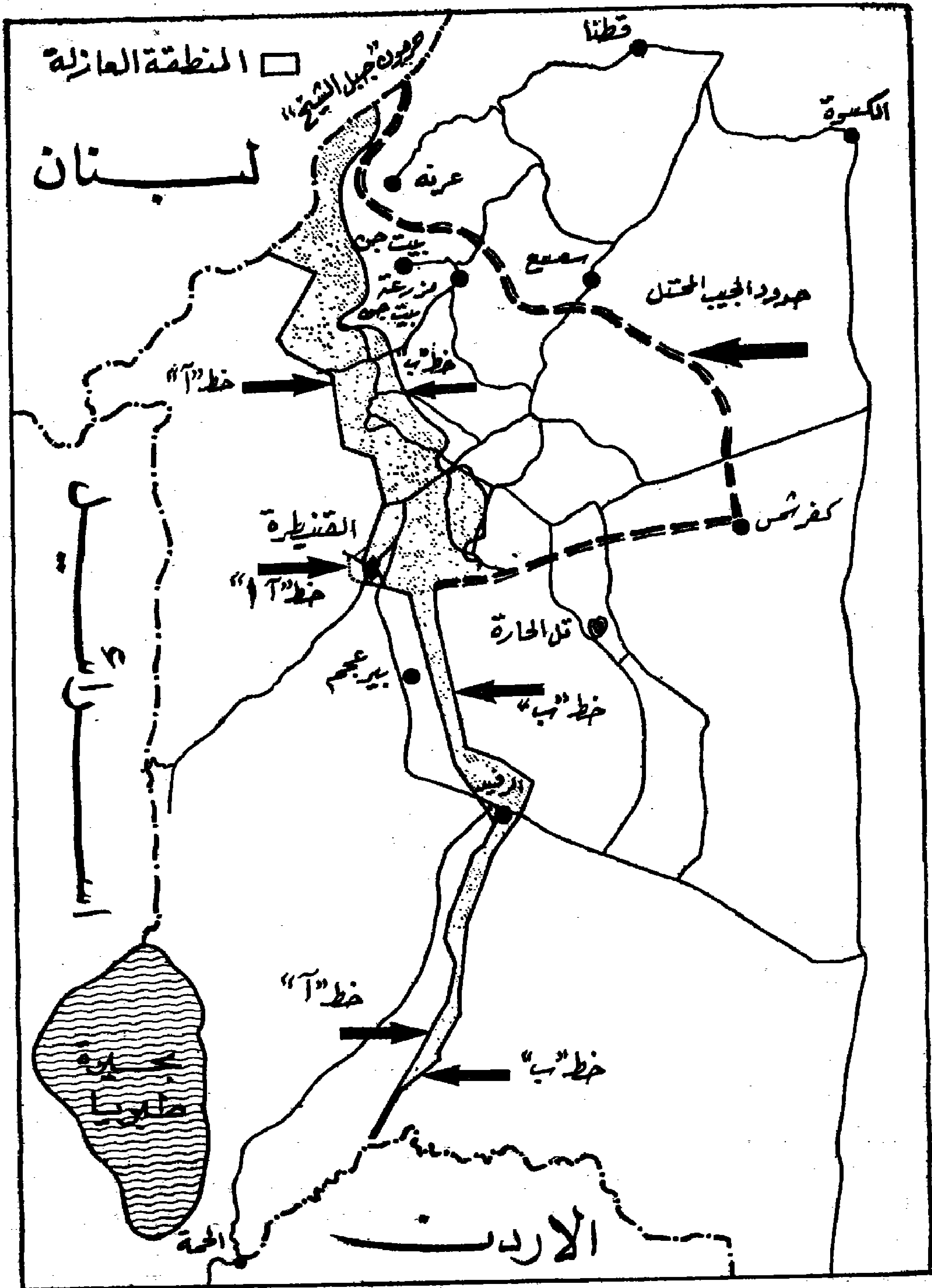
٦ ـــ يسمح لسلاحي جو الجانبين بالعمل حتى خط كل منهما بدون تدخل من الجانب الاخر .

ج ـــ لن توجد قوات عسكرية في المنطقـــة بين الخط (أ) والخط (أ ـــ ١) عـــلى الخارطة المرفقة .

د ـــ يوقع هذا الاتفاق والخارطة المرفقة من قبـــل الممثلين العسكريين لاسرائيـــل وسوريا في جنيف في موعد لا يتعدى ٣١ ايار ١٩٧٤ في مجموعة العمـــل العسكريـــة المصرية ـــ الاسرائيلية لمؤتمر جنيف للسلام ، تحت رعاية الامم المتحدة ، بعد ان يكون قد انضم الى هذه المجموعة ممثل عسكري سوري وباشتراك ممثلين للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . ويتولى الرسم الدقيق للخطوط على خارطة مفصلة ووضع خطة لتنفيذ فصل القوات الممثلون العسكريون لاسرائيل وسوريا في مجموعة العمل العسكرية المصرية ـــ الاسرائيلية الذين سيتفقون على مراحل هذه العملية . وتبدأ مجموعة العمل العسكرية الموصوفة اعلاه عملها لهذه الغاية في جنيف تحت رعاية الامـــم المتحدة في غضون ٢٤ ساعة بعد توقيع هذا الاتفاق ، وتنهي هذه المهمة في غضون خمسة ايام . ويبدأ العمل في غضون ٢٤ ساعة بعد اتمام مهمة مجموعة العمل العسكرية . وتكتمل عملية الفصل في مدى لا يتجاوز ٢٠ يوما بعد بدئها .

هـ ـــ سيجري تفتيش احكام الفقرات أ و ب و ج من قبل اشخاص الامم المتحـــدة الذين سيشكلون قوة مراقبة فصل القوات التابعة للامم المتحدة بموجب هذا الاتفاق .

خارطة المنطقة العازلة لفصل القوات



و ـــ في غضون ٢٤ ساعة بعد توقيع هذا الاتفاق في جنيف يعاد جميع أسرى الحرب الجرحى الذين يحتفظ بهم كل من الجانبين من الجانب الاخر بشهادة اللجنة الدولية للصليب الاحمر . وفي صباح اليوم الذي يلي اتمام مهمة مجموعة العمل العسكرية يعاد جميع من تبقى من أسرى الحرب .

ز ـــ تعاد جثث جميع الجنود الموتى المحتفظ بها من قبل اي من الجانبين للدفن في البلد الذي تنتمي اليه هذه الجثث في غضون عشرة ايام بعد توقيع هذا الاتفاق .

ح ـــ هذا الاتفاق ليس اتفاق سلام بل هو خطوة نحو سلام عادل ودائم استنادا الى قرار مجلس الامن ذي الرقم ٣٣٨ المؤرخ في ٢٢ تشرين الاول ١٩٧٣ » .

١٩٧٤/٥/٢٩

ولقد الحق بالاتفاق بروتوكول يتعلق بتشكيل « قوات مراقبي فصل القوات التابعة للامم المتحدة » (U.N.D.O.F.) وعددها ١٢٥٠ رجلا من بلدان أعضاء في الامم المتحدة ولكنها لا تملك عضوية دائمة في مجلس الامن ، وستكون مدة عملها ٦ أشهر قابلة للتجديد ، ومهمتها مراقبة تنفيذ بنود الاتفاقية ، وتفتيش مناطق تخفيض القوات .

ولقد وافقت الحكومة السورية والمؤتمر القطري الاستثنائي لحزب البعث وقيادة الجبهة الوطنية التقدمية على الاتفاق ، كما وافقت عليه الحكومة الاسرائيلية وبدأ تنفيذ البنود بدون صعوبات . ولقد بدأ التنفيذ بالبند « و » اذ تم تبادل الاسرى الجرحى في يوم ١ حزيران (يونيو) . وتابعت مجموعة العمل العسكرية المصرية ـــ السورية ـــ الاسرائيلية مهمتها في جنيف حتى يوم ٦/٥ حيث وقع الجانبان الخرائط والجداول الزمنية الخاصة بالانسحاب والتمركز . وفي السادس من حزيران (يونيو) تم تبادل جميع الاسرى المحتجزين لدى الطرفين . وفي اليوم التالي بدأ الانسحاب الاسرائيلي من المنطقة الواقعة شرقي الجيب ، تحت اشراف قوات الامم المتحدة بقيادة الجنرال غونزالو بريسينو .

ولقد تقرر اجراء الانسحاب على اربع مراحل تنتهي في ٢٦ حزيران (يونيو) ، وتنسحب اسرائيل خلالها من ٦٦٣ كيلو مترا مربعا ، هي عبارة عن الجيب الذي احتلته في حرب ١٩٧٣ (٥٥١ كيلومترا مربعا) بالاضافة الى اجزاء من الارض وراء الخط البنفسجي (١١٢ كيلومترا مربعا) بما فيه مدينة القنيطرة والرفيد و ٢١ موقعا استراتيجيا محصنا(٤). وفي يوم ٢٦ حزيران (يونيو) سيصبح الوضع كما يلي :

١ ـــ تتمركز القوات الدولية (١٢٥٠ رجلا) التابعة للنمسا وكندا وفنلنده وبيرو وبولونيا في المنطقة العازلة الممتدة بين الخطين (أ) و (ب) والتي تضم القنيطرة والرفيد ومرتفعات جبل الشيخ الثلاثة (قمة جبل الشيخ ، والمرتفع الذي كان بيد السوريين بعد حرب ١٩٦٧ ، والمرتفع الذي احتله الاسرائيليون في حرب ١٩٦٧) .

٢ ـــ يعود حوالي ٥٠ الف سوري الى المنطقة العازلة الخاضعة لادارة محلية سورية ، على ان يحفظ الامن في هذه المناطق شرطة سورية مسلحة باسلحة خفيفة .

٣ ـــ تقام على جانبي المنطقة العازلة منطقتان بعرض ١٠ كيلومترات يحتفظ فيهما الطرفان بقوة مؤلفة من ٦ آلاف رجل و٣٦ مدفع ميدان قصير المدى (١٠ ـــ ١٢ كيلو مترا) و٧٥ دبابة . ويحظر فيهما وجود المدافع بعيدة المدى (١٢ ـــ ٣٢ كيلومترا) او الصواريخ ارض ـــ جو .

٤ ـــ تقام الى شرق وغرب هاتين المنطقتين منطقتان ثانيتان بعرض ١٠ كيلومترات يحتفظ فيهما الطرفان بقوات غير محدودة من المشاة والمدفعية ، و ٤٥٠ دبابة ، شريطة

ان لا يكون فيهما مدفعية بعيدة المدى ، او صواريخ ارض — جو .

مناقشة الاتفاق

● لقد تم توقيع هذا الاتفاق بعد وساطة دولية مكثفة لايجاد حل وسط للمعضلات الجزئية الناجمه عن تماس القوات ، والتوصل الى ابعاد قوات الطرفين المتحاربين لمنع الاشتباكات المقصودة او العرضية ، وخلق الجو الملائم لانعقاد مؤتمر جنيف الذي سيدرس المسائل الاساسية الخاصة باحلال السلام في المنطقة .

ولا يمكن الحديث عن « سلام جنيف » المنتظر دون الاشارة الى ان الوصول اليه سيكون عملية طويلة صعبة يمكن ان يتخللها كثير من العقبات والصدامات المسلحة المحدودة او الشاملة . ولن يكون هذا « السلام » حتى في حالة التوصل اليه اكثر من « السلام الممكن » لا « السلام العادل والدائم » المذكور في البند (ح) من الاتفاق ، لاننا لا نتصور ان مؤتمر جنيف سيكون قادرا ، في ظل موازين القوى الدولية الراهنة ، على حل المعادلة المستحيلة التي يتطلبها « السلام العادل والدائم » ، اذ كيف يمكن تأمين الحل « العادل » — وبالتالي الدائم — الذي يضمن اعادة الحق الى اصحابه الشرعيين ، وحصول الفلسطينيين على حقهم في التحرير والعودة ، ويضمن في الوقت نفسه بقاء سيطرة الدولة الصهيونية على ارض فلسطين او على جزء منها ؟ .

ولو افترضنا ان مؤتمر جنيف استطاع التوصل — بعد صعوبات — الى حل يقسم الارض بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، فان هذا الحل لن يكتسب صفة الدوام ، لان الفلسطينيين اصحاب الارض الاصليين (أو معظمهم على الاقل) سيعتبرون هذا التقسيم غير عادل لانه يجزىء بلادهم ويقتطع قسما منها لحل مشكلة اليهود المشردين في مختلف ارجاء العالم والذين يبحثون عن أرض لبناء دولة لهم . كما ان الصهاينة (أو القسم الاكبر منهم) سيعتبرون هذا التقسيم اقتطاعا لجزء من « أرض الميعاد » وتهديما لحلم دولة صهيون . الامر الذي يجعل الحل الذي ينجم عن مؤتمر جنيف « غير عادل » من وجهة نظر الشعبين المعنيين مباشرة بأرض فلسطين ، وبالتالي « غير دائم » .

● لقد تم التوصل الى الاتفاق بعد حرب استنزاف ثابتة كانت اطول من حرب الاستنزاف المصرية واشد منها عنفا ، ولكنها كانت مثلها اداة عسكرية ضاغطة خلال الحوار السياسي . ولقد نصت الفقرة (آ) من الاتفاق على « وقف اطلاق النار في البر والبحر والجو » « والامتناع عن الاعمال العسكرية » . ولكن هذا البند لا يشمل « نصا أو روحا » ضرورة قيام السوريين بمنع قوات الثورة الفلسطينية من متابعة حربها الاستنزافية بوسائلها الخاصة وبأساليبها الخاصة . ولقد امتنع السوريون عن اعطاء مثل هذا التعهد بشكل علني او سري لانه يعني التدخل في شؤون الثورة الفلسطينية ، وحرمان الشعب الفلسطيني من حقه المشروع في مقاومة المحتلين .

ولقد اثارت المعارضة الاسرائيلية هذه النقطة خلال مناقشة الاتفاق في الكنيست (٥/٣٠) ، وكان رد رئيسة الحكومة غولدا مائير هو ان الولايات المتحدة أبلغت اسرائيل موقفها ازاء البند الاول من الاتفاق ، وهذا الموقف هو : « ان قيام مجموعات معينة ، او افراد باعمال تسلل « تخريبية » ، هو عمل مناقض لوقف اطلاق النار ، ولاسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها لمنع عمليات كهذه ، بجميع ما تملكه من وسائل »(٥). ولكن وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، جوزيف سيسكو قال في ٦/١٣ في شهادته امام اللجنة الخارجية في الكونغرس ان الضمانات التي قدمتها الولايات المتحدة لاسرائيل في ما يتعلق بمقاومة الفدائيين الفلسطينيين لا تشكل « ورقة بيضاء » للقيام باعمال انتقامية من قبل اسرائيل بدون حساب . وان الولايات المتحدة تعتبر

العمل الفدائي المنطلق من سورية بمثابة خرق لاتفاق فك الالتحام . لكنه اكد مرتين انه تم ابلاغ اسرائيل انها لا تستطيع « الانتقام بدون تمييز »(٦).

ولكن أين تستطيع اسرائيل توجيه ضرباتها الانتقامية عندما سيتابع مقاتلو الثورة الفلسطينيه حربهم ضد قوى الاحتلال ؟ لقد كانت اسرائيل تمارس دائما « الرد الاعنف » ضد قواعد الثورة ومعسكراتها ومخيمات اللاجئين في الاراضي العربية المجاورة ، كما كانت تصعد الرد في بعض الحالات حتى يشمل اهدافا عربية عسكرية او مدنية ، وكانت غايتها من هذا الرد هو الردع ورفع معنويات مواطنيها وتبديد الاثر المعنوي الجيد داخل المعسكر العربي . بيد ان موازين القوى الجديدة ستجعلها عاجزة عن استخدام سلاح ردعها الاول (الطيران) للقيام بعمليـة « الرد المحدود » ضد اهـداف سورية او فلسطينية تقع على الارض السورية ، لان هـذا الرد سيجعلها تتعـرض لخسائر لا تتناسب مع النتائج المحققة ، كما سيصعد حدة التوتر في المنطقة من جديد . كما ان الرد الشامل يتطلب حشد القوى وتعبئة الاحتيـاط واستنفـار الجيشين المصـري والسوري والصدام معهما بمجابهة شاملة غير مضمونة العواقب ولا تحظى بأي دعـم دولي ، وقد لا تحظى بدعم الولايات المتحدة الراغبة في تهدئة المنطقة . ويدفعنا كـل هذا الى الاعتقاد بأن اسرائيل ستوجه « الرد التنفيسي » نحو لبنـان ، سواء انطلق الفدائيون عبر حدوده ام عبر حدود سورية ، كما انها ستلجأ الى الرد على الـثورة الفلسطينية مباشرة باساليب « الارهاب المضاد » وفق مخطط طويل الامد . ولقـد عبر رئيس اركان العدو الجنرال مردخاي غور عن هذا الخط عندما حمل لبنان في ٦/١٤ مسؤولية العمليات الفدائية الاخيرة ، وهدد بالاغارة على قواعد الثورة الفلسطينيـة الموجودة في المدن اللبنانية رغم صعوبة هذا العمل ، ثم أشار الى ان اسرائيل « تملـك وسائل أخرى » لشن مثل هذه الاغارات ، دون ان يحدد ماهية هذه الوسائل(٧).

● ينص البند (أ) من الاتفاق على تطبيق القرار رقم ٣٣٨ ، الذي لا يخرج في جوهره عن القرار رقم ٢٤٢ . وهذا يعني ان الطرفين ملتزمان بالقرار ٢٤٢ . ولا يتناقض هذا الالتزام مع الموقف العربي ، ولكنه يتناقض بشكل كامل مع الموقف الاسرائيلي . ففي الوقت الذي يعتبر به المسؤولون في مصر وسوريه أن الاتفاق عبارة عن خطوة اولية لا بد وان تتبعها خطوات تالية ، نرى أن رئيس الحكومة الاسرائيلية الجديدة يقول في بيانه الوزاري (٦/٣) : « بعد المرحلة الحالية من الفصل بين القوات ، والالتزام التام بالاتفاق المبرم لن يكون هناك مجال لمرحلة جديدة مؤقتة ، وبعد ان نحقق تقدما في علاقاتنا مع مصر ينبغي ان نطرح السؤال التالي : هل سوريه مستعدة لتوقيع معاهدة سلام مـع اسرائيل ؟ » ثم يضيف قائلا : « من الضروري ان يعلم قادة الدول المجاورة ان اسرائيل لها الحق في حدود قابلة للدفاع عنها . ولن تعـود اسرائيل ــ حتى في اطار معاهدة سلام ــ الى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ »(٨). فاذا ما أخذنا اقوال رابين بشيء من الجدية ، وجدنا انها **اعلان للحرب خلال الحديث عن السلام** . ولقد كشف وزير الخارجية السوري عبدالحليم خدام ديماغوجية رئيس حكومة العدو عندما صرح للصحفيين في لبنان في مساء الثالث من حزيران (يونيو) ، بعد اجتماعه مع الرئيس سليمان فرنجيه « ان رابين يعرف أن على اسرائيل ان تنسحب من جميع الاراضي المحتلة » . وفي السابع من حزيران (يونيو) صرح وزير الخارجية السوري خلال زيارته الرسمية للكويت ، ان القوات السورية مستعدة لاستئناف القتال اذا لم تنسحب اسرائيل من الاراضي العربية، ولم يستعد الشعب الفلسطيني حقوقه(٩).

ولقد جاء الرد المصري على أقوال رابين في الخطاب الذي القاه الرئيس أنور السادات أمام الجيش الثالث بالقرب من مدينة السويس في الرابع من حزيران ، وأكد فيه أن مهمة

القوات المسلحة « لن تنتهي الا بخروج آخر جندي أجنبي من أرضنا العربية ، والا اذا عادت الحقوق المشروعة لشعب فلسطين »(١٠). ثم كرر الرئيس تأكيداته أمام الجيش الثاني في الخامس من حزيران عندما قال : « ان المعركة لم تنته بعد ، ولن تنتهي الا بتحرير كل شبر من الاراض العربية وبعودة الحقوق الكاملة لشعب فلسطين »(١١).

وتعرف حكومة اسرائيل قبل غيرها ان الطريق السياسي المسدود الذي سارت عليه منذ حرب ١٩٦٧ قد أوصلها الى حرب ١٩٧٣ ، وان العرب الذين اكتشفوا خلال حرب ١٩٧٣ كل قواهم — وان كانوا لم يستخدموها كليا — لن يقبلوا بانقلاب الوضع الجديد الى وضع راهن متجمد ، وأنهم سيحطمون حالة الجمود دون أن يجدوا دوله واحدة تشجب عملهم . ومهما كانت نتيجة الصدام الجديد فانها لن تكون في صالح اسرائيل . لان انتصار القوات العربية حتى ولو جزئيا ، سيحطم الجمود ، ويعيد المسألة الى بساط البحث ، ويعيد الضغوط من اجل الانسحاب ، وستضطر اسرائيل الى الانسحاب آنذاك وجسمها مغطى بجراح جديدة . أما انتصار القوات الاسرائيلية فانه عاجز ، في حالة وقوعه ، عن تحطيم ارادة العرب ومنعهم من اعادة بناء قواهم ودخول معركة جديدة . لذا فهو يبقى في اطار الانتصار التكتيكي المحروم من الافق الاستراتيجي . ذلك لان طبيعة القوى المشتركة في الصراع العربي الاسرائيلي ، والعوامل البشرية والاقتصادية والجغرافية التي تلعب فيه ، تدفع الى الايمان بأن اسرائيل عاجزة عن الحاق هزيمة استراتيجية (على المستوى التاريخي) بالعرب ، وأن العرب قادرون على الحاق مثل هذه الهزيمة باسرائيل . لذا فان أية هزيمة تصيب العرب تبقى مؤقتة وتكتيكية ، على حين ان الهزيمة الاسرائيلية يمكن ان تكون استراتيجية وحاسمة (تاريخيا) .

ومهما تكن مصلحة واشنطن في دعم اسرائيل وانقاذها كبيرة ، فان دورها في المنطقة معرض للتبدل الكلي او الجزئي . ولا ينجم ذلك عن ان الامبريالية الاميركية ستخون طبيعتها ، ولكنه ينجم على العكس من أنها ستبقى مخلصة لهذه الطبيعة ، وستبقى مخلصة لمصالحها،مع تبديل أساليب ووسائط تحقيق هذه المصالح. ولقد أشارت صحيفة «**يديعوت أحرونوت**» الى موقف الولايات المتحدة الجديد بقولها:«لا يجب تجاهل الحقائق، ولا ينبغي أن ننكر أن الولايات المتحدة تضغط علينا ... ان اسرائيل تعيش في حالة غسيل دماغ تقوم به الولايات المتحدة بالاتفاق مع السوفييت والمصريين والسوريين»(١٢). وفي ١٢ حزيران (يونيو) قال رابين في خطاب ألقاه في حفلة تخرج طلاب معهد وايزمان للعلوم « قد تنشأ ، نتيجة للتقارب الاميركي — المصري خلافات في الرأي بيننا وبين الولايات المتحدة ، لكنني أفضل الحوار والكفاح السياسي على الحرب »(١٣). والحقيقة أن الخلاف المحتمل وقوعه لن يكون خلافا في الراي ، بل خلافا في المصالح . فعندما كانت مصالح الامبريالية الاميركية متطابقة مع مصالح الاستعمار الصهيوني ، وعندما كانت الولايات المتحدة تعتمد على « الدركي » الاسرائيلي لحماية مصالحها ، كان هناك اتفاق في الراي ، ولكن ما ان اكتشفت الامبريالية الاميركية بعد حرب ١٩٧٣ ان « الدركي » عاجز عن لعب الدور الذي قام به منذ عام ١٩٤٨ ، وعاجز عن تأمين حماية النهب الامبريالي ، حتى غدا هذا « الدركي » عبئا على الامبريالية التي لا يهمها سوى تأمين مصالحها مهما كان الاسلوب المستخدم في ذلك .

وتشير دلائل تحولات السياسة الاستراتيجية الاميركية في الشرق الاوسط ، ان واشنطن ستتابع السير على سبيل **خلق « اسرائيل قوية » خاضعة لضوابط ومفاتيح موجودة بيد الولايات المتحدة** . ولن تكون الغاية من وجود هذه الدولة استخدامها كقوة ضاربة مجلية لاخضاع العرب — ما دام اخضاع العرب بالقوة متعذرا — بل استخدامها كعامل ضغط يدفع الدول العربية الى الاتجاه نحو واشنطن اكثر فأكثر . وهذا ما يفسر

باعتقادنا المساعدات العسكرية الاميركية المستمرة لاسرائيل رغم سياسة التقارب التي تنتهجها ازاء الدول العربية .

وليس من المستبعد ان تقدم الولايات المتحدة في الفترة المقبلة مزيدا من الاسلحة لاسرائيل(١٤) لتطمينها على امنها بعد انسحابها من الاراضي العربية ، ولكن طبيعة الاشياء تدفعنا الى الاعتقاد **بأن القوة العسكرية الاسرائيلية الجديدة ستكون بيد الولايات المتحدة أداة لتسريع التقارب العربي ــ الاميركي ، لا أداة لردع القوة العربية .**

● لقد أدى اتفاق فصل القوات (على الجبهتين المصرية والسورية) الى انسحاب الاسرائيليين من جميع الاراضي التي احتلوها في حرب ١٩٧٣ ، بالاضافة الى الانسحاب من مناطق تقع وراء الخط البنفسجي . وهذه نقطة تحول في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، لانها تمثل اول تراجع عن مناطق احتلتها اسرائيل وقررت البقاء فيها باسم « الامن » ، وخلقت فيها وضعا راهنا أكسبه الزمن والعجز العربي في الماضي اعترافا دوليا ضمنيا ، وشبه شرعية .

ويتمتع هذا التراجع الاسرائيلي ، رغم صغره جغرافيا ، بقيمة تاريخية كبيرة لانه يحدد نهاية مرحلة التوسع الاسرائيلي ، وبداية عصر انحساره . ولقد كان التراجع في الحملات العدوانية مقتل هذه الحملات ، وليس هناك ما يدفع الى الاعتقاد بأن مصير الحملة الصهيونية سيكون مغايرا لمصير ما سبقها من حملات .

● تدل الخريطة المرفقة باتفاق الفصل ان النقاط الاستراتيجية الواقعة وراء الخط البنفسجي ، والتي انسحبت اسرائيل منها (مرتفعات جبل الشيخ ، المرتفع الواقع شرقي القنيطرة) وضعت تحت تصرف قوات الامم المتحدة ولم تسلم الى القوات السورية ، كما ان المرتفعات المحيطة بمدينة القنيطرة ومرتفع تل فرس بقيت بيد القوات الاسرائيلية . وكما عملت اسرائيل على تحصين الخطوط التي انسحبت اليها في سيناء اثر فصل القوات على الجبهة المصرية(١٥)، فقد بدأت اسرائيل تحصين الخط الجديد على الجبهة السورية منذ بداية تخفيض القوات والانسحاب من الجيب . الامر الذي يدل على ان اسرائيل تنوي استغلال عدم امكانية شن حرب استنزاف ثانية بعد تباعد القوات ، والافادة من مواقعها الجديدة لتقوية موقفها خلال المباحثات المقبلة في جنيف ، والاعتماد على هذه المواقع اذا ما تضافرت الظروف التي تجعل الدول العربية تخرج الى الهجوم من جديد .

ومن المؤكد ان الدول العربية لن تخرج الى الهجوم الا بعد ربح « المناورة الخارجية »، وهذا بالضبط ما فعلته في حرب ١٩٧٣ ، وما لم تستطع تحقيقه في حرب ١٩٦٧ . وسيكون محور « المناورة الخارجية » العربية القرار رقم ٢٤٢ بشكله السابق او بشكله الجديد المعدل . وستكون الفكرة الاساسية المطروحة هي : **ضرورة الانسحاب من الاراضي المحتلة ، وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه** ، وهي فكرة تلاقي قبولا في العالم أجمع وتلقى تأييد الاتحاد السوفييتي المطلق ، وتأييد الولايات المتحدة الى حد ما . لذا فهي تتمتع بكل السمات اللازمة لنجاح « المناورة الخارجية » التي لا يمكن بدونها تحطيم الوضع الراهن والانتقال الى الهجوم .

وقد تحاول اسرائيل مرة أخرى السباحة عكس التيار ، والبدء بهجوم اجهاضي مبكر . وستحاول دون شك ربح « المناورة الخارجية » قبل الخروج الى الهجوم معتمدة على فكرة « الحدود الآمنة » والاحتفاظ بالاراضي المحتلة او بعضها للوقوف على أرض يمكن الدفاع عنها . ولكن هذه الفكرة قابلة للنقض في الحرب الحديثة ، وفي ظل استخدام الاسلحة المتطورة (الطيران ، الصواريخ أرض ــ أرض بعيدة المدى ، القطعات الكبيرة المحمولة جوا . . . الخ) . ولقد طرحت الدول الكبرى أمام اسرائيل «الضمانات الدولية»

كبديل عن « الحدود الآمنة » ، ولكن اسرائيل رفضتها لاخفاء أطماعها التوسعية التي لا يمكن للصهيونية العيش بدونها .

وبالاضافة الى ذلك فان فكرة الحدود الآمنة الممتدة داخل الاراضي العربية لا تلاقي تأييدا عالميا ، لانها متعارضة مع القرار ٢٤٢ ، ومتعارضة مع عدم شرعية احتلال اراضي الغير بالقوة ، ولا يمكن للعالم ان يقبل بها الا اذا اراد فتح الباب أمام كل دولة لتحديد « مجالها الحيوي » ومكان « حدودها الآمنة » حسب هواها ، حتى لو تعارض ذلك مع سيادة الدول المجاورة وسلامة اراضيها . الامر الذي يقلب التوازن القائم في العلاقات الدولية ، ويتعارض مع ميثاق هيئة الامم المتحدة، ويثير خلافات الحدود الكامنة في كل نقطة من العالم .

واذا تركنا مجال الاستراتيجية العليا والاستراتيجية وعدنا الى مسارح العمليات لتصور طبيعة القتال الذي يمكن أن يتم بعد فصل القوات وجدنا أن قوات الطوارىء الدولية .U.N.F التي تفصل الطرفين في سيناء قد تشكل حاجزا معنويا أمام القوات المتحاربة ، لان تخطيها يعني الاعتداء على المجتمع الدولي بأسره . ولكن الآثار السلبية للتخطي المصري اقل بكثير من الآثار السلبية للتخطي الاسرائيلي . لان الهجوم المصري الذي سينطلق بعد ربح « المناورة الخارجية » سيكون **اعتداء على قوات الامم المتحدة في سبيل انقاذ كرامة ومقررات وارادة المجتمع الدولي** ، على حين أن أي هجوم اسرائيلي ينطلق رغم خسارة « المناورة الخارجية » سيكون **اعتداء على قوات الامم المتحدة لتكريس رفض مقررات وارادة المجتمع الدولي** .

والمهم في المعركة المنتظرة في سيناء انها قد تأخذ في مرحلتها الاولى شكل تراشق بنيران الصواريخ ارض — أرض التكتيكية والاستراتيجية ، كما قد تأخذ شكل عمليات جوية وبحرية مختلفة . ولا يستبعد ان يرافق هذه العمليات سباق مصري اسرائيلي لاحتلال خط المرتفعات الذي يبعد ١٠ كيلومترات شرقي القناة والسيطرة على الطريق العرضانية الموازية له . وستتمتع القوات الاسرائيلية في هذا السباق بميزة الاندفاع من الممرات الى مسرح القتال دون أن تعترضها حواجز تحدد وتيرة اندفاع القوات ، على حين سيكون اندفاع القوات المصرية محكوما بوتيرة التقدم على جسور معرضة لقصف جوي (محدود) او صاروخي (غير محدود) . وستحدد نتيجة هذه المرحلة طبيعة المرحلة التالية اذا لم تتدخل الدول العظمى ثانية لايقاف القتال في وقت مبكر .

أما على الجبهة السورية ، فان قوات مراقبة الفصل التابعة للامم المتحدة .U.N.D.O.F لا تخرج عن كونها قوات مراقبة لا تملك اية حصانة دولية . ومن الممكن تخطيها دون ان يشكل ذلك اعتداء على المجتمع الدولي . ويبقى شكل المرحلة الاولى للقتال على الجبهة السورية مماثلا لشكل المرحلة الاولى للقتال على الجبهة المصرية (عمليات جوية وبحرية، تراشق بنيران الصواريخ أرض — أرض التكتيكية والاستراتيجية)(١٦) ثم تليها أو ترافقها مرحلة الصدام البري على السطح المستوي لهضبة الجولان . وهنا لا بد من الاشارة الى نقطتين : ١ — ان استخدام الصواريخ أرض — أرض التكتيكية على الجبهة السورية لا يؤثر على القطعات المحاربة فحسب (كما هي الحالة على الجبهة المصرية) ولكنه يشمل أيضا لدى الطرفين أهدافا مدنية وتجمعات سكانية ، ٢ — ان اندفاع القوات البرية السورية الى مسرح المعركة سيتم على ارض منبسطة جرداء تسهل مراقبتها ، على حين ان اندفاع الاسرائيليين سيتم عبر منطقة مخفية (المنحدر المعاكس للهضبة) فيها بعض الاحراش . ومقابل هذه الميزة التي تتمتع بها القوات الاسرائيلية ، فان هناك سلبية تتمثل في ان هذه القوات ستضطر الى السير على محاور محددة ضيقة خلال الحركة من مناطق التجمع

الى خطوط الانتشار ، على حين أن بوســع القوات السورية ــ وخاصة المدرعات ، والمدافع ذاتية الحركة ، والمشاة الميكانيكية ــ الحركة على محاور غير محدودة ، وعبر مختلف الاراضي .

مرة ثانية يعود « هدف الحرب » ليفرض نفسه ويحدد طبيعة القتال ونتيجته . ان الهدف الاسرائيلي المحتمل هو : **تحطيم القوة العسكرية للدول العربية ، لاجبارها على الخضوع للسلم الاسرائيلي** . ويتطلب تحقيق هذا الهدف شن الحرب الشاملة وتعبئة القوات المسلحة الاسرائيلية كلها وجمع الاحتياط الامر الذي يحــرم الاسرائيليين مــن امكانية تحقيق المفاجأة الاستراتيجية البرية ، وان كان لا يحرمهم من امكانيـــة تحقيق المفاجأة الجوية التي لن تكون على اي حال مماثلة للمفاجأة التي تحققت خلال حــرب ١٩٦٧ ، نظرا لقوة شبكات الصواريخ أرض ــ جو العربية ، وحماية الطائرات العربية داخل ملاجيء من الاسمنت المسلح ، وارتفاع مستوى وحدات المهندسين المكلفة بصيانة مدارج المطارات واصلاحها .

وحتى في حالة الحرب الشاملة ، فان اسرائيل لا تستطيع قهــر ارادة العرب مهما حققت قواتها المسلحة من انجازات على مسرح العمليات ، لان الحرب ستتوقف خلال مرحلة معينة ــ بسبب التحديدات الدولية ــ وسيتابع العرب رفض الخضوع للارادة الاسرائيلية ، وسيعدون العدة من جديد لخوض الحرب السادسة . وسيلعب قانونا « القوة تخلق القوة المعاكسة » و« التحدي المصيري يدفع الى الاستعداد الاقصى » دورهما من جديد للاعداد لصراع مسلح مقبل . وسيعود الوضع العسكري الاسرائيلي الى الطريق المسدود الذي وصل اليه بعد حرب ١٩٦٧ ، وستؤدي مبادرة اسرائيل بشن الحرب الى طرح المسألة من جديد بشكل أعنف ، وهذا ما لا تريده الحكومة الصهيونية . ولا يمكن للمرء أن يتصور قيادة سياسية ــ عسكرية تقدم على شن حرب تعرف أنها بلا هدف ، وانها ستؤدي الى فشل سياسي ، حتى لو حققت الغرض العسكري .

أما بالنسبة للدول العربية المعنية ، فان هدفها سيكون **تحطيم حالة الجمود التي تريد اسرائيل فرضها** . ولا يتطلب مثل هذا الهدف سوى شن حرب محدودة بالقوات المسلحة العاملة المتوفرة والمستعدة دائما للانتقال من الدفاع الى الهجوم دون تعبئة او حشد او اعدادات مسبقة . الامر الذي يجعل تحقيق المفاجأة الاستراتيجية من قبل العرب ممكن في كل لحظة . ولن يفيد اسرائيل في مثل هذه الحرب وجودها على مواقع استراتيجية حصينة الا لتخفيف خسائرها وزيادة مدة صمود قواتها العاملة ريثما تتم تعبئة قواتها الاحتياطية ، ولكن هذه الفائدة تبقى سلبية ، لانه حتى لو استطاعت اسرائيل ايقاف القوات العربية عند هذه الخطوط او قبلها فان ذلك لن يعني خسارة العرب للحرب ، لان هدف الحرب المحدودة سيتحقق ، وسيتحطم الجمــود الذي تريد اسرائيل فرضه ، وستجابه الحكومة الاسرائيلية سؤال العالم : لماذا لا تنفذين القرار ٢٤٢ الذي يخفف حالة العداء ويجمد النزاع ؟ كما ستجابه في داخل البلاد النقمة الناجمة عن الخسائر الفادحة ، وستتعرض الى السؤال الملح : الى متى ستستمر الحروب ما دامت لا تؤدي الى السلام ، وما دامت كل حرب مقدمة لحرب أشد عنفا وأكثر هولا ؟ والى متى سنبقى وكأننا نعيش في قلعة محاصرة ؟

وهنا لا بد من التذكير بأن وجود القوات الاسرائيلية في مواقع استراتيجية حصينة لا يعني بالضرورة انه سيجعلها قادرة على ايقاف القوات العربية ، وهل كان هناك خطوط افضل من خط بارليف وتحصينات الجولان لمجابهة الاندفاع العربي في حرب ١٩٧٣ ؟ ولكننا ذكرنا هذه الحالة للتأكيد على ان الخلل السياسي ــ الإستراتيجي الاسرائيلي سيبتلع اي انجاز تحققه قوات العدو في المعركة . ومن الطبيعي أن فشل قوات العدو في

تحقيق أي انجاز تكتيكي سيزيد حدة الخلل السياسي ــ الاستراتيجي بشكل ملحوظ ، كما ان ضخامة الخسائر التي ستصاب بها هذه القوات ستعمق الشرخ الذي فتحته حرب ١٩٧٣ داخل معسكر المعتدين .

● يعتقد البعض أن مناطق الفصل التي حددها البند (ب) من الاتفاق ستلغي امكانات تحقيق المفاجأة . ولقد رأينا في السطور السابقة كيف انها لا تستطيع الغاء المفاجأة الاستراتيجية البرية أو الجوية(١٧) . وتتمثل فائدتها في منع نوع واحد من المفاجأة التكتيكية هو « المفاجأة بالزمان » ، دون ان تستطيع منع الانواع الاخرى من المفاجأة مثل « المفاجأة بالمكان » ، و« المفاجأة بنوع السلاح » ، و« المفاجأة بتكتيك القتال » . . . الخ. أما بالنسبة لقمم جبل الشيخ ، والتي ستكون المعركة عليها معركة قوات محمولة بالهليكوبتر ومدعومة بالطيران ، فان من الممكن تحقيق المفاجأة التكتيكية بكل اشكالها ، بما في ذلك « المفاجأة بالزمان » .

● تقول الفقرة ٦ من البند (ب) : « يسمح لسلاحي جو الجانبين بالعمل حتى خط كل منهما بدون تدخل من الجانب الآخر » . ولقد أبعدت بطاريات الصواريخ أرض ــ جو عن المنطقة العازلة مسافة ٢٠ كيلومترا فغدت على بعد ٢٢ ــ ٢٧ كيلومترا (حسب عرض المنطقة العازلة) عن الخطين (أ) و (ب) ، بغية اعطاء طيران الطرفين حرية التحليق بحرية بعيدا عن خطر اعتراض الصواريخ أرض ــ جو . ومن المؤكد ان هذا التدبير سيؤدي الى منع الاشتباكات الجوية المقصودة او غير المقصودة ، ولكنه لن يمنع أي طرف من رصد وتصوير خطوط الطرف الآخر ، لان ارتفاع المستوى التكنولوجي لاجهزة التصوير الجوي قد جعل من الممكن تصوير شريط عريض من عمق ارض الخصم، كما جعل من الممكن رصد قطعات الخصم دون ان يكون الطيران مضطرا الى التحليق فوق أرضه .

وبالاضافة الى الرصد والمراقبة اللذين يمكن القيام بهما من قبل الطرفين فان بوسع وسائل الاستطلاع السوفييتية والاميركية (طائرات استطلاع ، أقمار صناعية) كشف خطوط الطرفين وتصويرها من ارتفاعات عالية . وتذكر صحيفة **نيويورك تايمز** ان الولايات المتحدة « وافقت على ان تقوم طائراتها برحلات استطلاعية فوق الجولان للتحقق من حسن تطبيق الاتفاق السوري ــ الاسرائيلي »(١٨).

● وتتعلق النقطة الاخيرة ، التي نود طرحها ، بمراحل الانسحاب المقبلة . وتأخذ هذه النقطة في الجولان أهمية كبيرة نظرا **لطبيعة هضبة الجولان الطبوغرافية ، وعرضها الجغرافي ، ووجود ١٧ مستوطنة اسرائيلية جديدة فيها** .

١ ــ ان التكوين الطبوغرافي للهضبة يعطيها شكل مرتفع ذي سطح منبسط تقريبا . وتنتهي حدود هذا السطح عند خط المرتفعات الذي يمتد من جبل الشيخ حتى شمال القنيطرة ، ثم يرسم حلقة حول المدينة ليتجه بعد ذلك باتجاه الجنوب حتى وادي الرقاد . وهكذا يأخذ خط المرتفعات ــ الذي احتفظت به اسرائيل بناء على اتفاق الفصل ــ شكل حرف اوميغا (Ω)تقع القنيطرة في منتصف لسانه . ثم تنحدر الارض بعد هذا الخط باتجاه الغرب حتى سهلي الحولة وطبريا . لذا فان كل تراجع اسرائيلي مقبل عن هذا الخط سيجعل الخطوط الاسرائيلية على المنحدر المعاكس في وضع استراتيجي غير ملائم. وسيضع المستوطنات الواقعة في هذين السهلين ضمن مدى رمايات المدفعية السورية .

٢ ــ ان ضيق العمق الجغرافي لهضبة الجولان وقربها من مناطق حيوية وتجمعات سكانية اسرائيلية يجعلان اسرائيل تتردد أمام أي انسحاب مقبل ، لان هذا الانسحاب يعني تقليص هامش مناورتها في المكان ، كما يعني تقليص هامش المناورة بالزمان اللازم

لتعبئة الاحتياط وزجه في المعركة . واذا كانت اسرائيل قادرة على التراجع خطوات اخرى في سيناء(١٩)، دون أن يحرمها ذلك من العمق الجغرافي اللازم لمناورتها في المكان والزمان، فان مثل هذا التراجع غير ممكن بالنسبة اليها في الجولان ، اذا مـا اصرت على بناء نظريتها الامنية على قواها الذاتية لا على الضمانات الدولية .

٣ ــ ان اي انسحاب مقبل من الجولان سيشمل مستوطنات بنتها اسرائيل واعلنت انها غير مستعدة للتخلي عنها . وترتبط هذه المسألة بجوهر الفكرة الصهيونية المبنية على التوسع والاستيطان واستيعاب مهاجرين جدد ، في سبيل اعداد الظروف الملائمة لتوسع مقبل . وتدل دراسة عرض المنطقة العازلة الذي يتراوح بين ٢ و٧ كيلومترات ، على أن اسرائيل عملت ما في وسعها لابعاد الخطر عـن المستوطنات ، وعن الاراضي الزراعية التي يستعملها المستوطنون الجدد .

ولقد طمأنت الحكومة الاسرائيلية سكان هـذه المستوطنات خلال مباحثات فصـل القوات ، وأكدت لهم أنها لن تتخلى عنهم ، ولن تحرمهم من الاراضي التي يستثمرونها . وعندما تم توقيع الاتفاق ركزت وسائل الاعلام الصهيونية على هذه النقطة ، وأكدت ان المستوطنات لم تخسر سوى ٣٨٠ دونما دخلت في المنطقة العازلة(٢٠) التي سيعـود الفلاحون السوريون اليها . كما ان مؤتمر اتحاد الكيبوتسات والكيبوتسيم وافـق في السابع من حزيران (يونيو) وبعد اتفاق فصل القوات علـى ان يضم للحركة اربـع مستوطنات جديدة ، منها مستوطنتان في الجولان .

وتدل هذه النقاط الثلاث على مدى الصعوبات التي ستعترض اية مباحثات مقبلة لبحث خطوات الانسحاب التالية ، كما تكشف احتمالات العودة الى السلاح لاجبـار اسرائيل على تنفيذ هذه الخطوات .

*

ان اتفاق فصل القوات في الجولان انجاز عسكري لا يحمل اي معنى سياسي . ولا يمكن تحديد قيمته العسكرية الصحيحة الا بعد تحديـد مدى التصميم العربي علـى استخدام مختلف الوسائل والاساليب ــ بما فيها الاسلوب العسكري العنيف ــ لجعل الاتفاق مرحلة واحدة على طريق الانسحاب الشامل . وتشير كل الدلائل على ان هذا التصميم موجود ، وانه اليوم أقوى من أي وقت مضى .

وينظر بعض الاسرائيليين الى الاتفاق كآخر ما يمكن أن تقدمـه اسرائيل دون ان يتعرض أمنها للخطر ، على حين ينظر البعض الآخر اليه كخطوة ستليها خطوات . دون ان يتمكنوا من تحديد الخط الاحمر « الذي لا انسحاب بعده » . ويدافع قسم مـن الصهاينة عن الاتفاق ويؤكدون انه منع الصدام الحاد مع الولايات المتحدة ، وفتح الطريق امام ابعاد السوفييت عن المنطقة ، والغى احتمالات اندلاع القتال في الشمال على نطاق واسع يجبر المصريين على خرق اتفاق وقف القتـال في السويس ، وأعطى القـوات المسلحة الاسرائيلية الفرصة لاعادة تنظيم نفسها واصلاح اخطائها والتقاط انفاسها (خاصة بعد ان تم استبعاد بند يحدد الجدول الزمني للانسحاب من الاراضي المحتلة) وخلص الجيش الاسرائيلي من القتال داخل الجيب في ظروف غير ملائمة(٢١).

وهناك صهاينة آخرون يهـاجمون الاتفاق ويرون انه « يمثل فوضى لا مثيل لها » (ميناحيم بيغن) وانه « انجاز سيىء ومقلق » (د. ريملط) و « انجاز كبير للسوريين » (شموئيل تمير) .

ويميل الاتجاه الثالث الى اعتباره « اهون الشرين » . ويعبر العميد الاحتياطي حاييم

هرتسوغ عن هذا الاتجاه عندما يقول بأن الاتفاق « لا يحل بصورة نهائية اية مشكلة ، بل يؤجل حل المشكلات » ، ثم يؤكد رغم ذلك « انه أفضل من البقاء في الوضع السابق ، وافضل من البديل الآخر الذي هو الحرب »(٢٢).

ورغم تباين آراء الاسرائيليين حول اتفاق فصل القوات ، فان أقوالهم وتصريحاتهم تعكس ان لديهم احساسا عاما بأن الحرب الخامسة مقبلة حتما ، وأن اندلاعها ممكن في كل لحظة . وان طريق السلام ـ كما يقول اسحاق رابين ـ « مزروعة بالكثير من الالغام »(٢٣). ونحن نشارك الاسرائيليين احساسهم بأن فصل القوات مرحلة مؤقتة سيجعلها التعنت الاسرائيلي مدخلا الى الحرب الخامسة ، كما نشارك رابين رأيه حول طريق السلام « المزروعة بالكثير من الالغام » ، ولكننا نلفت النظر الى ان كل هذه الالغام اسرائيلية الصنع . وانه ليس هناك ما يمنع الألغام من الانفجار تحت أقدام واضعيها .

---

١ ـ ان جميع التوقيتات المذكورة في هذا المقال هي توقيتات دمشق .

٢ ـ البيان السوري ـ السوفييتي المشترك بعد انتهاء زيارة وزير الخارجية السوفييتي لدمشق ٥/٢٩ (النهار ٥/٣٠).

٣ ـ من بيان الحكومة في ٥/٢٩ (رصد اذاعة اسرائيل ر.١٠١٠ ، عدد ٥٤٦) .

٤ ـ الثورة السورية ١٩٧٣/٦/١ .

٥ ـ ر.١٠١٠ ، عدد ٥٤٧ .

٦ ـ **النهار** ، ١٩٧٤/٦/١٤ .

٧ ـ **النهار** ، ١٩٧٤/٦/١٥ .

٨ ـ رويتر ، ٦/٣ .

٩ ـ **النهار** ، ٦/٨ .

١٠ ـ **انباء الشرق الاوسط** ، ١٩٧٤/٦/٤ .

١١ ـ **انباء الشرق الاوسط** ، ١٩٧٤/٦/٥ .

١٢ ـ **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/٦/١٠ .

١٣ ـ **النهار** ، ١٩٧٤/٦/١٤ .

١٤ ـ للاستزادة في الاطلاع على الاسلحة الجديدة المنتظر تسليمها لاسرائيل ، راجع ملحق الشهريات العسكرية ، مجلة **شؤون فلسطينية**، عدد ٣٤ ، والشهريات العسكرية في هذا العدد من مجلة شؤون فلسطينية .

١٥ ـ خصصت اسرائيل مبلغ ١٠٠ مليون دولار لتحصين خط المرات في سيناء . وتذكر صحيفة **بمحانې** (١٩٧٤/١/٣٠) ان الاسرائيليين اقاموا في الخط الاسرائيلي الجديد تحصينات قوية ، وزرعوا امامها ٧٥٠ الف لغم .

١٦ ـ تحاول اسرائيل الحصول على صاروخ أرض ـ أرض من طراز « لانس » لمجابهة الصواريخ أرض ـ أرض السورية من طراز « فروغ ـ ٧ » و « سكود » . ومن الواضح ان الطيران الاسرائيلي سيفقد جزءا كبيرا من حرية عمله بعد ان حصل الطيران السوري على طائرة تفوق سوفييتية الصنع من طراز « ميغ ـ ٢٣ » .

١٧ ـ تستطيع القوات المحتشدة في منطقة تخفيض القوات الثانية (٤٥٠ دبابة وقوات غير محدودة من المدفعية والمشاة والقطعات الاخرى) قطع المسافة التي تفصلها عن العدو والالتحام معه خلال ساعة واحدة على أبعد تقدير ، وتكون مهمة رمي التمهيد في هذه الحالة ملقاة على عاتق الطيران والصواريخ أرض ـ أرض التكتيكية .

١٨ ـ **نيويورك تايمز** ، ١٩٧٤/٥/٢١ .

١٩ ـ من الطبيعي ان اسرائيل ستحاول ان لا تشمل هذه الخطوات انسحابا من منابع البترول على الساحل الشرقي لخليج السويس حتى لا تخسر البترول الذي يدر عليها الان حوالي مليار ليرة اسرائيلية سنويا .

٢٠ ـ كانت هذه الدونمات الـ ٣٨٠ من الاراضي التي يزرعها مستوطنو مروم غولان .

٢١ ـ تدعي صحيفة **معاريف** (٧٤/٢/١٣) انسلاح المهندسين الاسرائيلي «غير وجه خارطة الجيب»، ولكن هذا لم يمنع ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق من الاعتراف في مقابلة مع **دافار** (٧٤/٥/٢١) بضعف وضع القوات الاسرائيلية داخل الجيب عندما قال : « يجب ان نذكر بأن وضعنا في الجيب لا يسمح لنا بالصمود في حرب استنزاف دون ضحايا كثيرة » .

٢٢ ـ ر.١٠١٠ ، عدد ٥٤٦ .

٢٣ ـ ر.١٠١٠ عدد ٥٥٢ .

الصهيونية واليهود واسرائيل والعرب والعالم

(نظرة بالجملة الى المواقف والعلاقات)

الدكتور حسام الخطيب

في غمرة الابحاث التفصيلية والاحصاءات ورصد التطورات كثيرا ما يتعرض جوهر أية قضية للوقوع في الظل . فهنا محاولة بسيطة لاستعادة الانتباه الى جوهر القضية الفلسطينية من خلال افكار عتيقة متجددة .

ح٠خ

[١]

اغرب ما في القضية الفلسطينية أن تاريخها لا يبدأ على أرض فلسطين ولا تتداخل وقائعه مع وقائع التاريخ العربي المعاصر الا في وقت متأخر نسبيا ، وبعد ان تكاملت المؤامرة الاستعمارية على الارض العربية في أوربا وأصبحت جاهزة للتنفيذ . ان جذور القضية الفلسطينية نشأت في أوربا ، ونمت هناك ، وما زالت تستمد نسغها من العالم الغربي الراسمالي سواء في أوربا أو أميركا .

وتبدأ القصة في القرن التاسع عشر ، أي في أوج تصاعد حملة الاستعمار الاستيطاني (الكولونيالي) الذي كانت الرأسمالية الاوربية تهدف من ورائه الى زرع السكان الاوروبيين في مناطق افريقيه وأميركا اللاتينية واستراليا بوجه خاص من اجل ضمان السيطرة المستمرة على تلك الاقطار وتأمين احتكار مواردها الطبيعية وخيراتها لخدمة الصناعة الرأسمالية الاحتكارية .

ويبدو أن الرأسماليين اليهود فكروا في ذلك الحين بالمشاركة في هذه الحملة ، ولكن على طريقتهم الخاصة ، وقد وجدوا أن في مقدورهم أن يلعبوا بورقتي الدين والاضطهاد من اجل توجيه يهود أوربه الى المشاركة في الحملة الاستيطانية . ولتحقيق هذا الغرض سارعوا الى دعم وتطوير الافكار (القومية) التي كانت قد بدأت تصادف هوى لدى اليهود المتعضين من أوضاعهم في بعض المجتمعات الاوربية . وقد أدى ذلك الى تبلور هذه الافكار في (الحركة الصهيونية) التي قدمت نفسها في أواخر القرن التاسع عشر على اساس انها حركة سياسية تقدم حلا (قوميا) لما عرف أحيانا باسم (المسألة اليهودية) اي مسألة شعور اليهود بالاضطهاد والغربة في اوربا .

و(المسألة اليهودية) بهذا المعنى لها بعض الجذور في القديم ، ولكنها كانت تتخذ اشكالا مختلفة خلال التاريخ حسب مراحل التطور الاجتماعي الاقتصادي في كل بلد من البلدان الاوربية ، وتفاوتت طبيعتها من قطر الى قطر ومن فترة الى فترة ، واذا دل ذلك على شيء فانه يدل على ان المسألة ليست مسألة اضطهاد فئة من المجتمع تدين بدين معين، أو تنتمي الى قومية مغايرة (أقلية دينية أو قومية) كما تزعم الدعاوى الصهيونية،

بل ان المسألة تتلخص في أن اليهود منذ البدء انصرفوا الـى المهن التجارية والماليـة واشتغلوا بالوساطات المالية والمراباة في المجتمعات الاوربية وبالتدريج اصبح يجمعهم نوع من التكتل الطبقي مصحوب بأحلام دينية وعاطفية (مفهوم التعالي وشعب الله المختار) مما أدى الى انعزالهم عـن المجتمعات وحشرهم بالاحياء الخاصـة المغلقة (الجحور) «Ghetto» ، وجعلهم عرضة للنقمة من الجماهير المحرومة من جهة وكذلك من الطبقات العليا المحتاجة الى التعامل معهم من جهة اخرى، وكانت هذه النقمة تبلغ أوجها وتتمثل في الاضطهاد والمذابح أحيانا خلال مراحل التغـير السياسي والاقتصادي بوجه خاص ، فمثلا في سنة ١٨٨١ تعرض اليهود في روسيا لموجة مـن الاضطهاد الرسمي والشعبي على اثر حادثة اغتيال القيصر ، وعلى الرغم من ان هذه الموجة تمت بتوجيه من الطبقة الحاكمة لغرض امتصاص النقمة الشعبية فان ذلك لم يكن ممكنا لولا ان المجتمع الروسي في أواخر القرن التاسع عشر كان على أبواب مرحلة تطور جديدة من شأنها ان تهز دور الطبقة التجارية اليهودية التي كانت تبنـي مصلحتها على اساس استغـلال اوضاع الظلم والتخلف في المجتمع الروسي(١).

ويشير تاريخ أوربا الغربية الى أن اليهود كانوا في طريقهم الى الاندماج ابتداء من عصر النهضة وان هذا الاندماج كاد يكون تاما في القرن التاسع عشر لولا ظهور عوامل جديدة في شرق اوربا . ويذكر ابراهام ليون أنه حين بدأت مرحلة الراسمالية الصناعية في عصر النهضة كان اليهود يمثلون رأسمالية بدائية تجارية وربوية . ولم يكن بمقدورهم الاحتفاظ بهذا الدور ، واخذوا بالاندماج السريع في مجتمعاتهم ، وأدت تطورات الحياة الرأسمالية فيما بعد الى تسهيل هذا الاندماج وعجل نمو الرأسمالية الصناعية في دخول اليهود الى صفوف البرجوازية وفي اندماجهم الثقافي ، وكان الاستيعاب اكبر كلما كان التقدم الاقتصادي اكبر . ففي نهاية القرن الثامن عشر مثلا ، وخلال ثلاثين سنة تحول نصف يهود برلين الى المسيحية ، بينما صدرت تأكيدات مستمرة عن الباقين على اليهودية بأنهم لا يشكلون قومية خاصة وانهم (المان ، المان فقط فيما يختص بالقومية)(٢). ومن المعروف ان يهود ميونيخ رفضوا عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينتهم خوفا من أن يفسر ذلك بالخروج عن القومية الالمانية .

وقد عملت الثورة الفرنسية والثورات الديمقراطية البرجوازية في اوربا على ازالة الحواجز التي اقامها الاضطهاد الديني ضد اليهود ، ودخلت اليهودية الغربية مرحلـة الاندماج التام ابتداء من القرن التاسع عشر .

ولكن (المسألة اليهودية) لم تختف تماما ، وذلك بسبب الهجرة من اوربا الشرقية التي كانت قد بدأت تتجاوز مرحلة الاقطاع . ففي مطلع القـرن التاسع عشر كانت السيطرة التجارية اليهودية شاملة في أوربا الشرقية ، وكانت المدن اليهودية الصغيرة منتشرة في كل مكان ، وهي تجمع لتجار صغار وخمارين وصيارفة ووسطاء من جميع الانواع (كومبرادور) . الا ان المجتمع الاقطاعي في اوربا الشرقية أخذ منذ منتصف القرن التاسع عشر يفسح المجال للملكية الفردية وللاهتمام بالصناعة ، ومع بروز بوادر الرأسمالية الصناعية بدأ دور اليهود الاقتصادي بالتضاؤل ورافقت ذلك موجـة من البطالة أدت الى انتشار نفور عام بين اليهود (اللاسامية) ، مما دفع بأعداد كبيرة من اليهود الى الهجرة الى اوربا الغربية .

وبين سنتي ١٨٨١ ــ ١٩١٤ أي خلال ٣٣ سنة هاجر ٣ ملايين يهودي من أوربه الشرقية الى أوربه الغربية واميركا ، حسبما يذكر ليون(٢).

وهكذا يتضح ان مفاهيم التعالي والعزلة اليهودية التـي كانت تشكل عائقا نسبيا

للاندماج اليهودي في المجتمعات القديمة رغدت منذ بدء القــرن التاسع عشر في أوربا بعوامل اقتصادية اجتماعية كان من نتيجتها ظهور نقمة شعبية ضد اليهود حالت دون اندماجهم المنتظر في المجتمعات الاوربية المتطورة . وقد وجد الرأسماليون اليهود في ذلك الوضع فرصة مواتية لتكتيل يهود اوربا، فعملوا على استغلال اوضاع اليهود وتضخيمها من جهة، وعملوا من جهة ثانية على الاستفادة من النزعة القومية التي كانت قد بلغت اوجها آنذاك، وقاموا بتعبئة اليهود الاوربيين بأوهام القومية اليهودية، وتغذية خيالهم بأحلام « الارض الموعودة » ، والتشوق الى صهيون ، وصرفهم عن النضال في مجتمعاتهم ومن خــلال نضال الطبقات الواقعة تحت الاستغلال لتغييــر واقعهــم الاقتصادي والاجتماعي .

وبطبيعة الحال ساعدت الحركة الصهيونية على استمرار (المسألة اليهودية) لا على حلها ، بل انه في مراحل عديدة كان على القــادة الصهيونيين أن يشجعوا الاضطهاد الاوربي لليهود وأن يعطوه أبعادا جديدة حتى يضطروا الجماهير اليهودية الى الهجرة الى فلسطين والتجاوب مع المخططات الاستعمارية . وكان الفكــر الصهيوني البراغمي (النفعي) يعي ذلك منذ القديم ، وقد جــاء في يوميات هرتزل : « سوف يصبح أعداء السامية أفضل اصدقائنا المقربين ، والبلدان المعادية للساميين من حلفائنا » .

ودعا هرتزل نفسه ــ كما دعا وايزمن فيما بعد ــ الى الاستفادة من تيار (اللاسامية) من اجل خلق الفردية اليهودية . ودلت ممارسات الصهيونيين خلال فترة الحكم النازي على انهم لا يمانعون في اضطهاد اليهود أملا في ان يؤدي ذلك الى تعبئة يهودية شاملة باتجاه الهجرة . بل ظهرت مجددا دلائل تشير الى أن بعض زعمائهم كانوا ضالعين في عملية الاضطهاد من أجل اهدافهم السياسية(٣) .

[٢]

ومنذ ظهور الافكار الصهيونية قام مفكرون في أوربه وأميركا من خلال زوايا مختلفة ، باظهار بطلان الدعوى الصهيونية ، وكشف الاستغلال الاستعماري الصهيوني لاوضاع اليهود ، والتأكيد على أن الصهيونية لا تقدم حلا لما يسمى (بالمسألة اليهودية) بل تعقد مشكلة عدم الاندماج اليهودي وتزيدها خطورة . الا ان هناك شيئا جديدا طرأ بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ وهو بدء ظهور بوادر (اعادة نظر) عند الاسرائيليين واليهود فيما يتعلق بالمبدأ الصهيوني للدولة وبطبيعة الفكر الصهيوني . وعلى الرغم من أن هذا الامر لا يعني بالنسبة للموقف العربي اية نتائج عملية في المستقبل المنظور، فانه يعتبر ذا أهمية خاصة من الناحية النظرية لانه يتضمن فيما يتضمن تأكيدا جديدا على صحة الفهم العربي للقضية ، ذلك الفهم الذي أصر دائما على أن الصهيونية حركة استعمارية قامت على اساس استغلال (المسألة اليهودية) وليس على اساس ايجاد حل لها .

ولنستعرض أولا بعض المواقف الفكرية في أوربا واميركا ، ثم نقرنها ببعض المواقف الجديدة عند يهود واسرائيليين . وبالطبع لسنا هنا في معرض استقصاء هذه الاراء ، انما نحاول تقديم عينات لها دلالاتها .

ــ في منتصف القرن التاسع عشر اكد (كارل ماركس) الذي لفت نظره التضخيم المصطنع (للمسألة اليهودية) أن هذه المسألة من شأنها ان تنتهي بانتهاء النظام القائم على الاستغلال وان « التحرير اليهودي في معناه الاخير يقوم على تحرير الانسانية من اليهودية » . وان « التحرر الاجتماعي اليهودي انما هو تحرير المجتمع من اليهودية » . ذلك ان «المال هو اله اسرائيل المطماع» ويعتقد اليهود انه « لا ينبغي معه لاي اله ان

يعيش ... ان المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعا » وبالتالي فان اشتغال اليهود بالمال هو الذي يخلق (المسألة اليهودية) ، والحل الطبيعي لهذه المشكلة هو تغيير النظام الاجتماعي والغاء دور المال كقيمة عامة ومكونة في ذاتها لجميع الاشياء .

« والتنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة وبالتالي يلغي امكانية المتاجرة سوف يجعل وجود اليهود مستحيلا » . ذلك ان « قومية اليهودي الوهمية هي قومية التاجر ، قومية رجل المال »(٤).

وبعد كارل ماركس بحوالي مئة سنة ، وبالضبط عندما اخذت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، قام البروفسور ويليام هوكنغ ، أستاذ كرسي الفلسفة في جامعة هارفرد، بارسال رسالة (٢٢ آذار ١٩٤٤) الى « نيويورك تايمز » جاء فيها : « ان الصهيونيين السياسيين هم الاعداء الرئيسيون لمصلحة اليهود في عالم الغد » . وتساءل : « ما الذي يأملون كسبه بانتشال اخوتهم من تحزبات أوربا عن طريق بناء مجتمع في فلسطين عليه أن يظل محتاجا لحماية القوى الغربية لانه مزروع في بيئة مفعمـــة بالخوف منه وعدم الثقة به ؟ »(٥).

وبعد الحرب العالمية الثانية ، وعلى اثر تصاعد الاستغلال الصهيوني لمعاناة بعض يهود أوربا على يد النازيين ، من جهة ، وانكشاف الجرائم الصهيونية ضد عرب فلسطين من جهة أخرى ، انبرى المفكر البريطاني أرنولد توينبي لتفنيد الفكرة الصهيونية واظهار التماثل في الموقف من اليهود بين الصهيونيين وبين النازيين واللاساميين ، ولعله ادق وأوضح من عالج هذه النقطة بالذات اذ اعتبر الصهيونية و(اللاسامية) متساويتين في نظرتهما الى اليهود : « الصهيونية والعداء للسامية انما هما تعبيران عن وجهة نظر متماثلة ، والفكرتان تقومان على فرضية واحدة ، هي انه يستحيل على اليهود وغير اليهود التعايش في مجتمع واحد ، وبالتالي فان الانفصال المادي هو المخـــرج العملي الوحيد ، فشعار العداء للسامية هو : « عودوا الى تشرد القرون الوسطى » ، وشعار الصهيونية هو « عودوا الى جحر (غيتو) القرون الوسطى » . على ان تجمع كل هذه الغيتو ـــ القواقع ـــ المنتشرة في العالم في بقعة واحدة من الارض هي فلسطين لخلق غيتو واحد راسخ الدعائم »(٦).

ومن الواضح ان كارل ماركس الشيوعي الالماني ، والبروفسور هوكنـــغ الاميركي اللبرالي ، والمؤرخ أرنولد توينبي البريطاني المتدين ، يلتقون ـــ على الرغم من تباعد الزمن وتباعد المنطلقات الفكرية ـــ في نقاط أساسية بالنسبة لفهم الحل الصهيوني لما يسمى (المسألة اليهودية) ، واهم هذه النقاط :

١ ـــ ان « المسألة اليهودية » مشكلة مصطنعة تنبثق من وضع اليهود في مجتمعات أوربية معينة ، وليس من وجود (للقومية اليهودية) المزعومة .

٢ ـــ ان الحل الطبيعي لهذه المشكلة ـــ متى وجدت ـــ كامن في المجتمع الذي توجد فيه ، أي (الاندماج لا الصهيونية) .

٣ ـــ أن الصهيونية تعني مزيدا من البؤس لليهود ، ومزيدا من تعريضهم للاخطار . (وتتضح هذه الفكرة بشكل افضل عند هوكنغ وتوينبي نتيجة ادراكهما لطبيعة التجربة الصهيونية المعاصرة) .

ان هذه الاقوال ليست الا نماذج لفكر غربي وعى المشكلة جيدا . وقد كثرت هذه النماذج بعد الهزة الفكرية والنفسية التي ولدتها حرب تشرين الاول ١٩٧٣ في مستويات عالمية وصهيونية واسرائيلية . ولنأخذ نموذجا يهوديا خارج اسرائيل، وآخر من داخلها :

— وجه مجددا الدكتور عمانوئيل جاكوبوفيتش ، كبير الحاخامين اليهود في بريطانيا ، انتقادا شديدا الى ما وصفه بالاسس الوهمية لدولة اسرائيل . وقال : ان حرب يوم الغفران أبرزت انهيار الوضع العقلي والفلسفة الخاصة باسرائيل انهيارا لا يقل عن انهيار الاستراتيجية العسكرية والسياسية الخارجية الاسرائيليـــة . وأكد الحاخـــام جاكوبوفيتش ان « منشأ الازمة الروحية لاسرائيل يعود الى الاسس الواهية التي بنى عليها الصهيونيون الاوائل أحلامهم ، وقد اعتقدوا هم وخلفاؤهم ان الاستقلال القومي اليهودي في صهيون من شأنه ان يحل المشكلة اليهودية » . واضاف الحاخام اليهودي : « ولكن سرعان ما تبين ان ذلك حلم تافه حتى في دولة اسرائيل . اذ أن اليهود ما زالوا هناك مختلفين وغربيين ومنعزلين ، كما كانوا دائما من قبل . وبدلا من ان تحل الدولة المشكلة اليهودية ابرزتها الى حيز العيان »(٧).

ان هذا الرأي اليهودي الديني لا يحتاج الى توضيح في التقاء دلالاته مع الدلالات التي أفصح عنها ماركس وهوكنغ وتوينبي . وفيما يلي رأي (اسرائيلي) صميمي يكاد يكون أفصح وأقوى تعبير من كل ما قيل في هذا الشأن حتى الآن ، ربما لانه ينبثق من حرارة الاكتشاف بعد التجربة التشرينية . يقول الكاتب بوعاز عبرون في (يديعوت أحرونوت)، ١٩٧٤/٢/٨ : « انني اشك في أن الصهيونية سوف تحل مشكلة اليهود ، وأنها سوف تمنحهم ملجأ آمنا . فاسرائيل اليوم هي أحدى المناطق الاقل أمنا بالنسبة لليهود ، وأنبياء الاحلام على كل انواعهم يعدوننا أن اسرائيل سوف تظل مكانا غير آمن على امتداد أجيال اخرى ، بدون أن يعطينا واحد من هؤلاء الانبياء تعهدا أنه في النهاية سوف « ينتهي كل شيء على أفضل وجه » . والمعتقد أنه ، من حيث الامن المادي المجرد ، أفضل لليهودي أن يبقى في (بروتكس) و(جيرالدز غرين) من أن يهاجر الى هنا . وهذا هو ما يحدث فعلا . لذلك فان أولئك الذين يريدون « صهيونية كبرى » هم أيضا يجب ان يكونوا راغبين بالسلام . والا فانه فقط اليهود الذين لا يوجد أمامهم مكان آخر ، فقط اليهود المثاليين المتعصبين سوف يهاجرون الى البلاد التي تعيش ظروف الحرب الدائمة »(٨).

اذا فقد امتد خط الارتياب في صحة الحل الصهيوني لمشكلة اليهود من منتصف القرن التاسع عشر حتى هذا اليوم ومن وسط أوربا حتى وســط اسرائيل ، وزادته تجربة تشرين حدة ووضوحا . والسؤال المطروح اليوم بقوة : هل حلت (المسألة اليهودية) أو على الاقل هل نستطيع القول انها في طريق الحل ؟ طبعا لا ، ذلك ان غالبية يهود اوربا وامريكا ما زالوا يقيمون في مجتمعاتهم الاصلية ، وان مغامـــرات اسرائيل العسكرية والدولية تزيدهم بالتدريج غربة عن مجتمعاتهم وتعقد مسألتهم وتضعهم بين فكي كماشة الولاء المزدوج ، وكثيرا ما تضطرهم الى الاختيار بين التصرف بوحي من مصلحة اوطانهم وبين التصرف بتأثير من مصلحة اسرائيل ، وهو اختيار يومي لا بد من أن يتعرض له كل يهودي .

أما أولئك اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل ، فقد انتقلوا ببساطة من (الغيتو) الصغير الى (غيتو) أكبر ، والخطر الذي ينتظرهم — بسبب غطرسة السياسة الاسرائيلية ومغامراتها العدوانية — اقسى من اي خطر سبق ان تعرض له اليهود في مجتمعاتهم الاصلية .

وصحيح ان المسألة لم تنته بعد — كما يمكن ان يجيب الصهيونيون على مثل هــذا التساؤل — ولكن من الواضح ان جميع المؤشرات تدل على أن القسم الاكبر من يهود العالم قانعون بالبقاء في مجتمعاتهم، اما القسم الذي اقام الدولة الصهيونية على اساس القومية اليهودية المزعومة فانه خلق لنفسه مشكلة جديدة، تختلف نوعيا عن الاوضاع التي حاول ان يعالجها باقامة الدولة ، وتحمل له اخطارا مختلفة ايضا ، على نحو مـــا

أثبتت حلقات الصراع المستمرة والتي بلغت ذروتها في سنوات ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ ، وعلى نحو ما أثبتته ظاهرة بروز المقاومة الفلسطينية ، ووجود تصميم عربي واضح على عدم الاستسلام .

ومن وجهة النظر العربية الخالصة يبدو واضحا أن العرب زجوا — نتيجة الاطماع الاستعمارية — في مشكلة أوربية خالصة لا شأن لهم بها من قريب او من بعيد . فلقد كان على الاوروبيين أن يحلوا المشكلات المتعلقة باليهود في مجتمعـاتهم الخاصة لا أن ينقلوها الى الارض العربية حيث حملت معها الدمار والاضطراب والفوضى والحروب . ان مشكلة اليهود لم تحل لان الحل الذي تم تنفيذه اتخذ من مشكلة اليهود ذريعة لمآرب أخرى ولانه — من جهة ثانية — تم على حساب شعب آخـر ، هو الشعب العـربي الفلسطيني الذي أدت به الاحداث الى خسارة ارضه وسيادته ودمـاء ابنائه وكيـانه الاجتماعي ، وأصبح اليوم نصفه مشردا ونصفه واقعا تحت الاحتلال ، دون أن يكون له أية علاقة باضطهاد اليهود أو الشعوب الاوربية التي ينتمون اليها . بل الاغرب من ذلك أن العرب كانوا في أوج حضارتهم متسامحين مع اليهود وأفسحوا لهم مجال الاسهام الحضاري والثقافي ، وهم آخر شعب يجب أن يدفع ثمن اضطهاد اليهود الذي لم يفق في واقع الامر تلك الانواع من الاضطهاد التي كانت تحل بالاقليات الدينية هنا وهناك في التاريخ القديم والحديث . ولقد كان بود العرب لو يتاح لهم مجـال الاسهام في حـل المشكلات التي يعاني منها اليهود في بعض المجتمعات الاوربية لو طلب اليهم ذلك ، ولكنهم لا يمكن أن يقبلوا بأن يكون الحل — وهو وهمي كمـا أسلفنا — على حساب أرضهم وسيادتهم واستقرارهم . ان الحل (الجزئي) لمشكلة اليهود كلف العرب حتـى الآن خسارة فلسطين واجزاء مهمة من سورية ومصر ، فكيف لـو اكتمل الحل واستوعبت الدولة الصهيونية سائر يهود العالم ؟

ان الموقف العربي ازاء الصهيونية واضح وسليم ، فكل امـة لها الحق في اتخـاذ الاجراءات الكفيلة بالحفاظ على ترابها وسيادتها ، وما ذكر هنا ليس من باب تسويغ هذا الحق ، ولكنه تأكيد على عنصري الخطأ الاخلاقي والتزييف اللذين قامت على أساسهما الفكرة الصهيونية ومن ثم الدولة الصهيونية ، وانه لخطأ اخلاقي بحـق العرب أولا وآخرا ، ولكنه أيضا خطأ اخلاقي بحق العالم المعاصر وتزييف لحقائقه ، وكذلك تزييف لمشكلة اليهود في بعض المجتمعات وتعميم لها بل خطأ أخلاقي بحقهم أيضا . ومن هذه الاعتبارات جميعا كان العالم بقواه المختلفة طرفا في الصراع العربي الاسرائيلي ومـا يزال ، بل ان أهمية العامل العالمي ، تزداد يوما بعد يوم ، ولكن وزنه الضاغط يختلف من مرحلة الى مرحلة ، وبوجه عام يدل الخط البياني لتطور ثقل هذا العامل انه ظل حاسما لمصلحة الصهيونية طالما ان طبيعة العلاقات علـى جانبي الصراع كانت غـير واضحة : الصهيونية في علاقتها مع اليهود ومع اسرائيل ، والعرب في علاقتهم بالقضية الفلسطينية ، وانه يظهر بالتدريج ميلا لصالح الطرف العربي بعد اتجاه علاقات الصراع المختلفة نحو الاتضاح بنتيجة تعاقب الاحداث وما تستتبعه من تساؤلات جـادة حول طبيعة الصراع .

---

١ — يقدم ابراهام ليون في « المفهوم المـادي للمسألة اليهودية » عرضا لتطور وضع اليهود خلال التاريخ يمكن الاستعانة به لفهم العوامل الرئيسية التي حركت دائما هذه المسألة . راجع ليون ، ابراهام : **المفهوم المادي للمسألة اليهودية** ، ترجمة وتقديم عماد نويهض ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٢ — **المصدر السابق** ، ص ١٥١ — ١٥٤ .

٣ — انظر : رزوق ، د. اسعد : **اسرائيل الكبرى ، دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني** ،

منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥ .

وانظر : ايفانوف : **احذروا الصهيونية** ، منشورات وكالة انباء نوفوستي ، ١٩٦٩ ، ص ٥٠ — ٥١ .

٤ — انظر : ماركس ، كارل : **المسألة اليهودية**، ترجمة محمد عيتاني ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٥٥ — ٦٤ .

٥ — انظر ص ٤٢ — ٤٣ من
Hadawi, Sami, *Bitter Harvest (Palestine between 1914-1967)*, New York, 1967.

٦ — انظر : الغالي ، د. كمال : **النظام السياسي الاسرائيلي**، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٦١ .

٧ — نقلا عن : عصام حماد : « لتطلعات تشرينية في الغيتو الصهيوني » ، مجلة **صوت فلسطين** ، دمشق، ع ٧٤ ، ص ٦، ١ اذار ١٩٧٤، والنص منقول عن *Jewish Chronicle* ، ٨ شباط، ١٩٧٤ .

٨ — انظر : **الارض** ، دمشق ، س ١ ، ع ١٢، ٧ آذار ١٩٧٤ ، ص ٢٩ . وقد آثرت عدم اجراء التعديلات اللازمة على لغة الترجمة توخيا لامانة النقل .

ورقة الى مؤتمر طوكيو

الكتابة في درجة الغليان

محمود درويش

● تعقد في طوكيو ، من ٢٥ حزيران الى ٦ تموز ، ندوة ادبية بين ادباء عرب ويابانيين عن التضامن الثقافي الياباني العربي ، بدعوة من اللجنة اليابانية لكتاب آسيا وافريقيا بالتعاون مع المكتب الدائم لادباء افريقيا وآسيا .

يشترك في هذه الندوة الزميل محمود درويش . ويسر « شؤون فلسطينية » أن تنشر هذه « الورقة » التي أعدها للندوة .

جئت أروي قصتي ، لاوسع دائرة العلاقة .

هل هذا ممكن ؟

محاولة . ولكن هذه المحاولة ذاتها هي سيرة الادب .

أن تسألني : من أنت ؟ دفعة واحدة ، معناه ان تضعني في حالة الارتباك التي توسع دائرة الفارق . ولكن الادب ، لانه يروي قصة الانسان ، يتجاوز هذه الصعوبة . كأنه يتابع حوارا سابقا . وكأنه على ما يبدو سعي انساني مشترك ومتنوع للوصول ، عبر سياقات مختلفة ، الى أقرب منطقة من التجريد .

لم تصل الى هذه المنطقة بعد ، لان الحالة الكونية ليست واحدة ، ولان تفاصيل قضايا وجودنا متفاوتة ، ولان اللغة الواحدة ما زالت تبحث عن تكونها عبر صراعات متعددة الاشكال والمستويات . وما زالت قضايا امتلاك الانسان لصفاته واختياراته قيد الصراع . ومع ذلك ، يظل الادب طموحا الى تجسيد المشترك من قضايا الانسان ، لاقامة الصلة الانسانية .

انني لا أكتب لاعيش ، ولا اعيش لاكتب . انني اكتب لاكون حاضرا . وان هذا الالحاح الى الحضور توق حيوي للتجانس مع الحضور الانساني الشامل ، ومع الحياة ذاتها .

لم نحضر جميعا . لماذا لم نحضر ؟ لماذا لم نحقق الانسجام المنشود ؟ ان لكل منا قصة وتاريخا ، ومحاولة . ولعل قصصنا ومحاولاتنا ، نحن ابناء شعوب آسيا وافريقيا ، اكثر الحالات الانسانية تشابها . فما زالت شعوب كثيرة في قارتينا موضوعة خارج المشاركة الابداعية في تشكيل حياتها كما تشاء وفي التأثير الفعال على مضمون العصر ولغته . وما زالت مدفوعة الى مجابهة التحدي الخارجي الذي يأخذ تجليات شديدة السلبية في الداخل . وما زالت الامبريالية احد أبرز المعوقات التي تصرفنا عن الانصراف الاكمل نحو اختبار قدراتنا على ابداع حياتنا الجديدة وثقافتنا المتحررة والحرة .

ما هي قصتنا ؟

ان التحرر والحرية هما الجوهران الاساسيان اللذان يتمحور حولهما نشاطنا الادبي

في بلادنا الواسعة . هذه هي القصة التي نرويها في كتاباتنا ونشاطنا العملي . وان التحدي الكبير يعيق ولادتنا الجديدة من جهه ، ويصوغها من جهة اخرى . ففي سعينا الى التحرر عبر الصراع نحرر ذواتنا مما تراكم عليها من مظاهر القديم الذي لم يعد صالحا ، ومن « الجديد » الذي يريد التحدي الاجنبي فرضه علينا لبعث الحياة في القديم الذي لا ينفع .

لقد عثرنا على أنفسنا في حالة اغتراب . كيف حدث ذلك ؟ ومتى حدث ؟ ليس مهما هذا السؤال . الاكثر اهمية هو أن نعي هذه الحالة . لان ادراكها يحدد نقطة التقاطع بين اتجاهات واختيارات . كيف نعيد الالفة بين الجذور والاماد ؟ كيف نكون كما نريد أن نكون ؟ كيف نغتصب الحياة من الذين اغتصبونا من الحياة ؟ كيف أكون أنا أنت وأنت أنا، وصوتي صوتك ؟

كانت الارض .. كان المكان ، ولا يزال عندنا ، اكثر من علاقة امتلاك ، واكثر من وراثة لا دخل لنا بها . الارض العربية ، التربة العربية ، المكان العربي كاد يتحول — بسبب تحدي فرض الاغتراب بينه وبين انسانه — الى اختيار درامي .. والى اختبار الارادة والجدارة . صرنا نتساءل : هل نحن جديرون بهذا التراب ؟ من هنا تبدأ نطفة الوجه العربي الجديد . والهجرة التي ترونها كثيرة في الادب العربي الحديث ليست وداع الراحلين لارض كفت عن أعطائهم هويتهم وخبزهم ، انها — الهجرة — مسيرة البحث العربي عن الارض التي تختصر من ايديهم واجسادهم . انه السفر الذاتي العنيف الى اعادة صياغتها كما تحددها الارادة الحرة . لم نألف الغزو ولم نسلم بشرعيته — كما حدث لغيرنا — لاننا لا نؤرخ واقعة وقعت . اننا نواصل الصراع في الواقعة التي تتعدد اسماؤها ويتحدد جوهرها .. الاحتلال العثماني دام أربعة قرون . وقد استطاع ان يجرد العربي من مواصلة الانبعاث او اعاقة استمرار دوره في التاريخ . ولكن ارادة شعوبنا التي تعيش في الفة المكان الواسع ساهمت في كسر هذا الظلام ، لتواجه صراعا آخر مع الاستعمار البريطاني والفرنسي والايطالي ، فالصهيوني .

من نحن ؟ اننا لا نكتب في درجة الصفر . اننا مولودون في درجة الغليان . ان الانسان العربي الجديد الذي لم تكتمل ولادته ، ما زال يحاول — بجهد خلاق لا حد له — الوصول الى الولادة في قرون من المخاض الطويل . لقد عاش قرونه الاخيرة في صراع الغزو مع المحتلين الاجانب — بجيوشهم تارة ونفوذهم تارة وثقافتهم تارة — ليخرج من دائرة الاغتراب بينه وبين تاريخه .. بينه وبين مكانه .. بينه وبين العصر .

المكان العربي مليء بالرموز التي تسجل هذا الصراع في منطقتنا التي يسيل عليها لعاب الغزاة في التاريخ البعيد والقريب ، حصون وقلاع وكتابة على الحجر ، توقظ زمن الصراع المتشابه بين الامس والغد: طريق الشام التي أصبحت رمز الهداية غطت أعشابها آثار الرومان : وآثار الغزاة الجدد . ورسائل المقاتل المصري في العريش تسجل اصراره على حذف المحتل القديم ، وتواصل الان تسجيل الاصرار على طرد الغزو الجديد . والانسان المصري الذي كتب الخلود على الصخر يواصل تسجيل الارادة على الرمل والفولاذ . والمسيح المصلوب في فلسطين غير طريقته في نشر المحبة والنور الى العالم: ترجل عن صليبه ليقاوم محاولة تجديد الصلب . وما زالت غابات الزيتون الفلسطينية الشهيرة بمعاني السلام تتطابق مع مضمون الكفاح الفلسطيني من اجل السلام . وما زالت الصخرة التي اطاعت محمد واقفة بين الارض والسلام في القدس لتشرح مضمون الطموح العربي الاصيل .

لم يكرر التاريخ نفسه . ولكن تاريخ الغزو ما زال حاضرا في المكان العربي . من هنا ، اننا نكتب في درجة الغليان . اننا نواصل محاولة الحضور الى الارض ومنها كما

نريدها .. والى الذات كما نحررها . والى العصر كما يعاملنا . ومن هنـا ، يتبلور المحتوى الاساسي لادابنا الحديثة . انه أدب محاولة الحضور الذي يأخذ شكل المقاومة، لان الاطراف الثانية من الصراع ارغمتنا على تحديد طريقة اختبار الجدارة بالصراع . واولى حالات هذا الحضور في المكان المحدد .

ان حائط الاغتراب الذي أقامه التحدي والغزو الخارجيان آخذ في الانهيار ، ولكن آثاره او بعض اثاره ما زالت باقية فينا وفي مكاننا .

ان نعلن ونصرخ بأننا عرب ليس مباهاة بوراثة ، وليس نفيا للغير . انه شكل من اشكال محاولة نفي ما ينفينا . انه مد لتجديد حضورنا في التاريخ وفي الذات معا . لقد واجهنا هذه الوقيعة بيننا وبين الينبوع .. بيننا وبين أسمائنا . لقد تعرضنا لمحاولات سحق ، أخذ أحد أشكالها هذه التجزئه الباقية للشعب العربي الواحد في الوطن العربي الواحد . ان العالم يسعى نحو الوحدة ، وحدة الامة ، ووحدة الجنس البشري . وهذا العالم الرأسمالي الغربي المدجج بالسلاح والحماقة والتهم يشترط وحدتــه بتفتيت شعوبنا ، للحيلولة دون مساهمتنا في بناء العصر ، كجزء من محاربته للعرب والاسيويين بشكل عام ، ليبقي على سطوته السياسية والاقتصادية والثقافية ، ولتبقى شعوب آسيا خارج منطقة التأثير في العصر ، محصورة في ساحة التأثر الذي ينتقيه الغرب : سوقا لاستهلاك منتجات الحضارة الاستهلاكية وأدب النموذج الغربي .

الخروج من الاغتراب ينفي الخارج والداخل معا . لان آثار الخارج الذي ما زال موجودا تمتد الى الداخل الذي ما زال شبه ممزق . ممزق بآفة الاستلاب وبكثير من مظاهر الركود التي ألفت هذا الاستلاب ، وهي مفاهيم وقيم تم التعاون المباشر او الضمني على سيادتها بين العدو الخارجي وحليفه الداخلي . ان الاعداء ، دائما ، لا يحملون الهدايا لضحاياهم . وثقافة « العالم الاول » المؤسسة ــ العالم الذي يحارب مداراة الشعوب للشقاء على أدنى مستوى من الرفض ، تحاصر الاديب العربي الثوري باختيارين شاقين ناجمين عن حالة رد الفعل ، لا الفعل . وهما : الرفض الكلي للثقافة البرجوازية الغربية . او اللجوء الكلي الى الثقافة القومية الماضية بكل عناصرها . وكلا الاختيارين قادر على ابقاء الاديب العربي في حـــالة اللاتلاؤم مع طموحه الى اصطياد لحظة الزمن النشط .

ولعل ضيق هذا الاختيار واحد من أهم عذابات الاديب العربي في بحثه عن مكانه ودوره في تضييق المساحة بين التخلف والتقدم . هنا تطرح مشكلة الاصالة والتقليــد . والثقافة الغربية تلح على ان يكون بديل رفضها عودة الى النسخ عبر زمن الموات الذي توقفت فيه ثقافتنا عن التجدد . وقد تكون أصلح الوسائل للخروج من هذه المحاصرة هو رفض الاختيار الناتج عن دائرة رد الفعل والدفاع السلبي ، بفعل بناء يهدم ما «تجدده» سلبية رد الفعل من بدائل . ولعل هذا الفعل البناء يقتضي رفض الخضوع لكلية الثقافة والسيطرة البرجوازية ورفض الخضوع التام لحرفية ثقافتنا الماضية التفصيلية ، لان بعض محتوياتها لم يعد قادرا على انقاذنا الايجابي من تحديات العصر ومتطلبـــات نمونا . هل يعني ذلك ان نرفض كل ما قدمه سوانا من ثقافة قومية لاعمت درجة تطوره؟ كلا ، ان بعض جوانب الثقافة قد تجاوز صدفته القومية ليذوب مسهما في عملية الابداع الانساني الشامل بعدما انفصل عن مبدعه . هكذا تغنى الثقافات والاداب ، بمساهمات شتى الشعوب في أثرائها ، جانب المطلق من قيم الانسان . ومن هنا يكون رفضنا لما يفرض علينا من الخارج او من الماضي ــ وهو شكل من اشكال الخارج ــ تجليا مـــن تجليات المساهمة في الادب الانساني .

وان الشرط لهذا المستوى هو أن نحرر ثقافتنا القومية من محاولات طمسها الخارجية

ومن محاولات تحنيطها الداخلية . ومن هنا ، حين نصرح بأننا عرب فاننا لا نعبر عن غرور بقدر ما نبحث عن دور .. بقدر ما نستأذن العالم في الاعلان عن أن فينا ما يسهم في رفع مستوى انسانية الانسان . وفي الاعلان عن أن لدينا تجربة ذات خصوصية قومية نريد أن نضيفها للتجارب الانسانية ليزداد التنوع وتقل الفضيحة والسيطرة .

أننا لا نبشر الا بحقنا في أن نشارك بالحرية . كلما اتسعت الحرية كلما اتسع العدل، وانطلقت التجارب للمشاركة في تغيير المصير الراهن للانسان . وان جرائم الامبريالية لا تعد فقط بالنهب الاقتصادي وتشويه جسد الحرية . انها تحصي ايضا بالحيلولة دون مساهمة الطاقات الروحية لمائة مليون انسان، كانوا ورثة حضارة من اغنى الحضارات ونقلة حضارات غنية، ودون تقديم خدماتهم الابداعية في اثراء الروح الانسانية .

دعونا نتكلم ! ماذا يحدث لو مارسنا حق الكلام ؟ سنوسع مساحة وطن الانسان . أليس هذا ما يفعله الادب في اخر الامر . هكذا نقيم العلاقة الانسانية .

اننا نشق طريقنا الى هذا الدور بجهد وعذاب ، عبر الحروب المفروضة علينا ، وعبر المجاعات ، وعبر الامية ، وعبر افتتاحيات الصحف الغربية التي تعاملنا نفطا لا بشرا ، وغيرها من الاسلحة الرامية للحيلولة دون بلوغ الشعوب حالة الانسانية الحقيقية . وان أدبنا الحديث هو نتاج هذا المخاض الطويل . ومفرداته تحمل هذه الاصوات . ان نحضر .. ان نحضر . هذا هو السؤال . وحين يعلن هويته القومية يسجل انتماءه الانساني بلغة تفجر اغترابها وتتجدد . اننا نأتي الى العالم من سجن العالم الرسمي . دعوتنا لنا ولكم هي التغيير . كان شاعرنا القديم يشكو سوء الطالع . ونحن انتقلنا من البكائيات القديمة التي أعجبت مؤرخي الادب الغربيين ، الى التفجير والتغيير .

نبحث عن حلم ؟ كلا !

نبحث عن بطل ؟ كلا !

اننا نبحث عن فاعلية . نبحث عن تجسيد . لم تكتمل ملامح وجه الادب العربي الحديث بعد ، لانه ما زال يتكون وسط المعركة . وما زال يخوض معارك تحدي الاخر واختبار الذات ، بما يرافقه من بلورة لسان جديد ، وموقف جديد ، ووجود جديد . لانه — باختصار — ما زال في مرحلة الانتقال من التبعية للماضي الذي انقطع ومن قيم ومفاهيم السيطرة الخارجية والداخلية الى التحرر الوطني والقومي . لقد تطورت أشكال النموذج : من الجاهز في التعاليم العامة ، الى الحالم ، الى الواقعي الميكانيكي ، الى الواقعي الناقد ، الى المقاوم والثوري ، الى ذوبان النموذج الفردي ومحاولة الاستغناء عنه وفقا لدرجة حركة الفاعلية . لم يعد الحلم فرديا ، لان نمو الصراع والمستويات وامتداد معارك التحدي وبلورة فكرة الانبعاث العربي جعلت الحلم جماعيا .. حلم امة . وصار السعي لتطبيق الحلم الذي لا يسمى ، والذي حاولت السياسة أن تسميه بشعارات : « حرية ، وحدة ، واشتراكية » ، استقطابا لروح تشردت قرونا . وكان البحث عن حدودها لايجاد مرتكزات هو مصدر التنوع الشاق في الاجتهادات العربية لتحديد وجهة السير نحو امتلاك المصير ، وهو أيضا مصدر التنوع المتناقض — أحيانا — في اجتهادات الادباء لتحديد المحتوى الجديد للثقافة العربية القومية ، او تحديد المضمون الثوري الجديد للدعوة العربية ، ومكانتها في حركة شعوب آسيا وافريقيا ، وحركات التحرر في هذا العصر .

لا يسأل العربي نفسه : أكون ، أم لا أكون . لانه عميق الاحساس بالطمأنينة التي يخلقها المكان الواسع ، والتاريخ القديم ، والكنوز المادية والروحية الكبيرة . انه يسأل نفسه : كيف أكون ؟ ولعل هذا السؤال هو واحد ، الفاعليات التي يتمحور حولها

نشاطه . وكيف أكون — سؤالا يتضمن اجابة فورية في بنية السؤال ذاته ، لانه يعني ادراك الحاجة الى التغيير ، والى الحداثة . التغيير هو الممارسة الذهنية والعملية التي يعيشها العربي اختبارا وتجربة واجتهادا . في الادب ، والادب الثوري اعني ، تحدث للواقع فضيحة ، يكتشف بأنه نقيضه وهو متآلفان . لقد حدث شيء ما بدل الواقع في الاحتمال . تلك هي ميزة الادب او دوره او مكانته في عملية التغيير .

في البداية ، لا اكتب شعرا لاغير الواقع . ولكن الواقع ارغمني علــى الكتابة . استعبدني من شدة ما اذلني ، من كثرة ما كان واقعا وقعت فيه . ولكن هذه العبودية منحتني الحرية ، فحين كتبت وجدته يختلف عن نقيضه ، ولكن نقيضه ليس الا هــو متحولا . اي : انه هو يمكن أن يكون هو بشكل أفضل ، حين اتدخل انا فيه . حين احضر أنا بين هو وهو . وهذه هي وقفتي الحرة . هذه هي علاقتي بمعادلة الواقــع التي استخرج منها حريتي من جهة ، وقابلية الواقع للتحرر والتغيير من جهة اخرى .

متى حدث ذلك ، وكيف ؟ حين لم اكن شاهدا على الواقع ولا شهيده . فهل أنا بينهما؟ كلا . لان هذه الحالة شكل مخادع من أشكال المراقبة .

واجب الاديب هو وهمه . خاصة عندما يكون وهمه هو واجبه ، ولكن لهذا التناقض مغزى ودلالة خاصة حين يكون الاديب نتاج شعوب في مثل مستوى تطور او تخلــف شعوبنا .

ليست له مثل قضيتنا ذلك الشاعر الذي قال : اريد ان أغير العالم . كان سلاحه الى ذلك الذهنية او متعة التفرد في الهرب من دخان المصانع الى الازهار البرية بعدما القت الكلاسيكية بعتادها ، وهرب الواقع من معلباتها . كان طموح الشاعر «شاعريا» خالصا اذا جاء التعبير ، ولكن الشاعر الثوري الجديد في آسيا وافريقيا ليس «شاعريا» بالمفهوم الرومانسي للكلمة .

ولكن ، ما أشد واقعية الشاعر الاسيوي — الافريقي ، في هذه المرحلة من مستوى تطور القارتين ، في تفاوته ، حين يندمج في هذا الوهم . ان هذا الوهم واجبه والتزامه الذي لا ينتقيه كما تنتقي اللوحة او الاسطوانة . وهذا ما يفعله به الواقع .

ليس بوسع الادب أن يغير الواقع الا فرديا . اي ليس بوسعه ان يغيره للجميع . ولكن هذه الفتحة من التحول او الخرق الذي يقود الى التحول تصبح ممرا جماعيا حين يندمج الشاعر — أو لنقل حلمه — في حركة القوى القادرة على التغيير ، او حين يدمجها في عناصر الثورة . تحتاج المسألة الى فاعلية كل الاطراف . ولكن الاديب لا ينتظر هذه الفاعلية ، والا اندمج في الجمود .

هكذا ، اذن ، نعدد المراحل : ليس بوسع الادب أن يغير العالم . ولكن يجب أن نضيف كلمة « وحده » ، انه يغير « مع » سواه ، حين يجسد وهمه حلما شعبيا . انه في مرحلة الفاعلية السلبية يبشر بالتغيير . وفي مرحلة الفاعلية الايجابية يندمج نتاجه في قوى التغيير .

والادب العربي الحديث يمارس هذا الحلم — اذا جاز التعبير — ويسميه الثورة . وبين الحلم واسم الحلم تعلو انفاق كثيرة ، وحروب كثيرة ، وخيبات امل كثيرة ، ويكون الموت الذي لا يميت . الموت — الاسطورة ، الموت الدال . هذا الموت الخاص يكاد ان يتحول — بعد المكان — الى البطل الابرز في الادب العربي . او بوسعي ان أدعي بأنه النموذج الحي في أدبنا . هل هي مفارقة أن يكون الموت بطل الحيــاة او نموذجها في الحاضر العربي ؟ كلا ! لانه يحمل جوهر التحول ، المتمثل في الفــداء ورفض الواقع المفروض والمخاطرة من اجل تجسيد الحلم . ان الشهيد وتمجيده في حياتنا الحاضرة ليس

ارثا دينيا فحسب . انه تواصل تاريخي وكفاح مستقبلي . كان النبي محمد يعد الشهداء بالجنة اذا سقطوا في معركة الدعوة . وكان المسيح نفسه شهيدا . والعربي وهو يقاتل غزاة العصر من الاتراك حتى الصهيونيين ، لا يذهب الى الموت لتسديد ضريبة او طاعة لوعد . ان هذا الذهاب هو الاختيار الحر الوحيد — الذي بقي له — لتحقيق الانسجام الكلي بالارض ، واعلان جدارته بها . وأول شروط هذه الجدارة هي الكرامة .

وقد توفرت معالم التطابق بين الموت والحياة على ارض فلسطين بشكل ناصع . انه ليس موت الفناء والنهاية . انه تجلي الانبعاث . الشعر خاصة يلتحم برمز الصليب الذي يتحول الى قطعة سلاح ، الصليب الفعال . قطعة العذاب البشري الطويل التي انتقلت من مشاهدة المذبحة الى مقاومتها . وهكذا كان الموت الفلسطيني العربي سياقا للبحث عن الحياة ، او افتتاحية لبداية الانسان الجديد ، لان هذا الموت ليس حلا لمشكلة الحياة الشاقة ، لا هو موت ذهني ولا هو تآكل الاعضاء من الخمول والسأم . انه طريقة في السفر للبحث عن الجانب الحي في الحياة . او هو فداء لتخليص الانسان من الموت في الحياة الى الحياة في الموت .

وهذا ما أصاب الفلسطينيين . .

وقبل أن أواصل سرد قصتي ، دعوني أرسم جغرافية هذا البلد — الامرأة ، التي تحولت بعذاب لا حدود له الى الحلم الممتاز لابطال وشخصيات وهموم الادب العربي الحديث . واحتلت — بعدما احتلوها — وسط اللوحة الدامية في أدبنا . وصارت عشيقة العشاق المعذبين ، وأم الضحايا ، وقلب المكان ، وحاملـــة الموت والانبعاث ، وأخت المقاتلين والمدافعين ، وجارة السماء . لن نفهم الادب العربي الحديث — أدب مرحلة الانتقال ، أدب الرؤيا الحديثة ، الا اذا تعرفنا على هذه الجميلة الاسيرة : فلسطين . احفظوا هذه الاماكن في الفقرة التالية لتتعرف على واحدة من أجمل خرائط العالم : « ان الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الابيض المتوسط مع خاصرة جبل الكرمل ، في الوسط ، تنتهي بولادة بحيرة طبريا ، في الشمال . وهناك بحر سموه البحر الميت لانه ينبغي ان يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملة . ومن شدة ما ازدحم الجليل الاعلي بالغابات ، كان لا بد ان تبرهن القدس علـــى ان الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة ، هذا هو وطني » .

هذا هو شكلها الجغرافي . ولكنها ليست لنا لانها مجرد بلاد جميلة الى حد القتل . انها لنا لانها ، ببساطة ، لنا . لان سفر تكويننا بدأ فيها ، ولاننا ولدنا فيها . قبل ربع قرن من الزمان تمكنت الصهيونية ، بالتواطؤ مع الانتداب البريطاني ، وبخيانة الرجعية العربية ، من اقتلاع شعب فلسطين من وطنه التاريخي والواقعي وشردوه خارج هذا المكان . . خارج الانسانية . وما زال يعيش في الشتات وفي المخيمات . وما زالت أسلحة الموت الصهيونية والامبريالية تلاحقه في منفى البؤس للقضاء عليه ولابادته ، لصيانة أمن الاحتلال الاسرائيلي من مطالبة الحق ، ولكي تشرع الصهيونية جريمتها الكبرى بمرور الوقت وبسيطرة الامر الواقع .

لم يحدث لشعب من شعوب آسيا وافريقيا مثل هذا البؤس ، مثل هذا المصير . ان شعب فلسطين يتعرض لعملية ومحاولة الغاء من الوجود ، ومن دفتر القانون الدولي ، ومن الضمير العالمي . كيف يحدث هذا في النصف الثاني من القرن العشرين ! في الوقت الذي يحقق فيه الانسان الحق في الوصول الى القمر ، لا يعطى الحق للقدم الفلسطينية بأن تطأ أرضها في مسافة اقرب من بعد القلب عن العينين ؟ في حين تستصرخ الصهيونية الاسرائيلية كل يهود العالم في الهجرة الى فلسطين لتمارس مزيدا من صناعة الالغــاء الفلسطيني ! ومن محطة الانطلاق على البلدان العربية لتوفير مزيد من التوسع الصهيوني

على حساب شعوب المنطقة ، للحيلولة دون نهوض هذه الشعوب والسير في مسيرة الانسانية . لقد وضعت الامبريالية الامريكية كل منتجات عبقرية الشر سلاحا في أيدي الاحتلال الصهيوني لقمع شعوب المنطقة ولمنعها من السيطرة على مصيرها وثرواتها ، فكانت اسرائيل ، بكل هذه المعاني ، هي الوجود الاستعماري الجديد الذي يقوم بخدمة حراسة المصالح الامبريالية ، وتقوم الامبريالية بدورها بمكافأتــه بتقديم مخالبها له ، وبتغطية احتلاله وتوسعه .

لقد انتظر الشعب الفلسطيني المشرد ، صحوة الضمير العالمي ليعيد اليــه حقوقه القومية العادلة . انتظر في المخيمات وعلى أبواب وكالة الغوث وأمام لجــان حقوق الانسان ، وبكى طويلا امام الملفات الكبيرة التي تحمل وعودا باسترجاع حقوقه . وكان الوقت يمضي فتزداد الآلة العسكرية الاسرائيلية جبروتا ، ويزداد المصــير الفلسطيني بؤسا ، ويتكاثر عدد اللاجئين ، وتنفتح أبواب فلسطين أمام الهجرة الصهيونية التي لا تنتهي .

ليست هنالك قضية أكثر عدالة من عدالة لجوء الفلسطينيين الى سلاح اكثر فعالية من فعالية الشكوى والانتظار السلبي لاسترجاع حقوقهم ووطنهم . هذه هي المعادلة في هذا الزمان : من يملك حقا ولا يملك قوة لحماية الحق يبقى حقه مجانيا وضائعا . ومن يملك قوة دون حق يستلب حقا من الآخرين . ومنــذ عشر سنين ، منذ اعلان الثورة الفلسطينية على البؤس الذي لا مثيل له في العالم الثالث ، وعلى الخطيئة الصهيونية انتي لا مثيل لها في العصر ، والفلسطينيون يحمون الطريق الى وطنهم وحقوقهم بالقوة . وصار هذا الفلسطيني المقهور الخارج من الخيمة الــى خندق العدالة ، هو النموذج العربي الجديد لاعادة ترتيب عناصر المصير العربي وفقا لارادة الشعوب العربية . ومن هنا ، كانت الحالة الفلسطينية العربية الثائرة واحدة من أنبل حالات الدفاع العادل في التاريخ البشري . وان مدى المشاركة الانسانية في تجذير الوعي العالمي بجوهر القضية الفلسطينية قد تحول الى أحد المقاييس الاخلاقية العامة لاهلية الانتماء الى قيم الانسان. وان هذه المشاركة التي هي ، في الوقت ذاته ، اسهام الضمير في مقاومة الخطيئة ، تعتبر امتحانا قاسيا لمصداقية ما توصل اليه الجهد البشري من اقرار قيم التعامل المتساوي بين الشعوب .

هذه الارض الفلسطينية العريقة التي كانت رحم انبل الدعوات الى الحرية والعدل والسلام ، تستحق من الانسانية التي حظيت بعطاياها العظيمة ان تسدد بعضا من أثمن الديون . وان الكفاح المقدس فعلا من أجل أن يكون مصير هذه الارض بعض الامتداد لعطائها التاريخي الكبير هو مهمة انسانية شاملة ، لننظر الى صلب الصراع . انه ليس صراعا بين حدود حقين كما يزعم بعض مثقفي الغرب الليبراليين ، لان الحق لا يصارع حقا . فاذا كان احد الطرفين حقا فلا بد من أن يكون الطرف الثاني باطلا . وهو ليس صراعا بين أديان وطوائف . انه صراع بين محاولة لاعادة التاريخ الى سن الظلمات والتقفز على ألفي سنة من التطور التاريخي من جهة ، وصراع بين امتداد هذا التطور واحترام قوانين التاريخ والانسان . ان الصهيونية التي تمثل الطرف الاول من الصراع تحاول تجريد التكوين الانساني الشامل من مقوماته الفلسطينيـــة ، وتسعى الى طرد الفلسطيني من الاقامة في صلب المنجزات الروحية والانسانية التي أبدعها الانسان عبر التاريخ ، بعدما اقتلعته من الارض وكسرت تجمعه وكيانه .

عم يدافع الصهيوني ؟ عن سيادة التعصب الديني والاستعمــار في أبشع صوره . يدافع عن « حقه » في التنفس من رئات شعب آخر . يدافع عن أنانيته الضيقة في ان يكون وحده ، ويشترط حضوره بغياب الآخرين . ويدافع عن سابقة البناء العدواني على

أشلاء شعب فلسطين صاحب الحق والارض والتاريخ معا . أما الفلسطيني الذي عرض على اليهودي العيش معا في مجتمع ديمقراطي ، فانه يدافع عن قيم الحق والعدالة . ويقاتل من أجل أن يقضي على القضاء عليه . انه لا يحارب شعبا ، ولكنه يحارب خطيئة . انه لا يسعى للاحتلال ، ولكنه يموت من اجل ان يحرر وطنه ويحرر اعضاءه من وظيفة مفروضة عليه . انه يحارب الحرب التي جعلتها الصهيونية قانون التعامل الوحيد في منطقة الشرق العربي .

هذا هو الجوهر المصفى من الصراع الدائر منذ اكثر من ربع قرن بين الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية وبين حركة التحرر العربية شقيقة حركات التحرر في العالم الثالث . ان جوهر المعركة التي نخوضها هو : هل يحق للانسان ان يكون في هذا العصر، أم لا يكون ؟ وهل يحق للنهب والخطيئة والجريمة أن تكافأ أم تعاقب . والكتابة العربية المعاصرة تأتي من هذا السؤال ومن هذه السخونة . وتقف فلسطين في صميم هذه الدائرة حتى تحولت الى الرمز الاكبر والى الدلالة الاهم . وصار الانجراف في تيارها الشكل الاقوى لتجسد حلم الانسان العربي في اسم — في نموذج — في بطل . . في مكان، حتى كادت فلسطين ان تختصر هذه المعاني جميعا .

أما زال بوسع الارادة الانسانية ان تتحرر وتنتصر على انتعاش الروح في التنين الامبريالي ؟ أما زال القلب الانساني العالمي قادرا على تبني قضايا الانسان ؟ أما زال بوسع شمولية الضمير البشري ان يتسع لهذا الانتهاك الوحشي الممارس على ارض فلسطين ؟ هذه الاسئلة تأخذ الظاهرة الفلسطينية الى مساحتها الشمولية الواسعة ، فلا تكون حادثا ما يجري في منطقة ما في مرحلة ما من هذا العصر وهذه الكرة الارضية . تصبح قضية الانسان الذي يعنيه ان تمتحن فيه هذه الصفة .

ان فلسطين الارض — الشعب — المعنى — الرمز — الدلالة — الصراع هي الحلم العربي الشامل . وقد تتساءلون : هل هي يوتوبيا العرب ؟ هي هي فردوسهم المفقود الذي أثرى أدبهم وشعرهم ؟

اننا نستمرىء هذه المشابهة ونخشاها ، نستمرئها لانها بلورة مطامح أمة في اسم موحد ، لانها اقرار بالاسم الواحد للحلم الجماعي ، لانها مبايعة الضياع للرمز العظيم .

ونخشاها لان مصطلح الفردوس المفقود يتضمن تسليما بحالة وجودية بلغت حد النهاية . ان علاقة الشعوب بفردوسها المفقود هي علاقة ارتباط بالماضي الذي يحده القدر : حنين مجاني وبكاء للذكرى والعزاء ، وفرح بقدرة ماضية على انجاز جميل مضى. اما الفردوس الفلسطيني المفقود ، فانه علاقة بالماضي والحاضر والمستقبل . وما زالت ساحة الحاضر ملتهبة بالصراع الذي يقرر مدى دينامية العلاقة بين الماضي والمستقبل . لقد اندلعت اربع حروب على ساحة هذا الحاضر ، ونما الشعب الفلسطيني ونمى الصراع من أجل ان يكون هذا الحاضر عتبة للمستقبل لا سقفا للماضي . ومن هنا ، فان فردوس العرب مفقود مؤقتا . انه محتل وقابل للاستعادة وممكن الاستعادة . ومن هنا ايضا ، تأتي حيوية الادب العربي وفاعليته في احتواء فلسطين له . لانه يحلم بجنة ممكنة، ولا يحلم بيوتوبيا .

بدون هذا الحلم الذي يستقطب أمة ، لن يكون بوسعنا ان نفهم واقعية الادب العربي الحديث . وبدون هذا الحلم لن يكون بوسعنا ان نفهم خلاص الادب العربي الحديث من الحوار حول نظريات الادب . . هل يكون الادب للادب ام يكون ملتزما ؟ وغيرها من الاسئلة المفتعلة التي تقذفها الينا ترف الثقافة الغربية الرسمية ، انا احلم اذن انا ملتزم. وما دامت الكتابة هي احد تجليات الحلم ، فان المسألة تأخذ شكلها التالي : انا اكتب — اذن انا ملتزم .

هل نسأل بعد الان : ما هو دور الاديب في العالم العربي ؟ ما هي مهمة الاديب في العالم الثالث ؟

أظن ان حالة الغليان التي نعيشها والحالة التاريخية التي أنتجنا ، وتتخذ شكلا آخر افضل حين ننتجها كلاما ، ونؤسسها كتابة تحول التساؤل الى اجابة . اننا نفضح . ندين . نقاوم ، ونقيم علاقة انسانية .

ان بلادنا تقدم أدبها ، وأدبها يقدمها اليكم ، وهكذا نعقد لقاء انسانيا . بالسمات الوطنية الخاصة لاداب شعوبنا ، نقدم مساهماتنا المتفاوتة في الجوهر الانساني الواحد. ان شعوب آسيا وافريقيا الناهضة والتي في طريقها الى النهوض تشكل ، عبر صراع التحرر والحرية ، آدابها ذات المذاق الحار . ولعل هذه الاداب تقـدم للعصر المنهك بالفوارق الشاسعة من مستويات التطور وعدا جميلا بفاعلية جديدة للعلاقات بين الادب والواقع ، بعدما اصاب هذه العلاقة شيء من الركود بسبب سيطرة قيم آداب الاستهلاك والسأم وتعكير العلاقة بين الانسان والاشياء ، وكان شكلا من اشكال الاحتلال الادبي المرافق لسيطرة النفوذ الامبريالي .

ولعل حميمية آداب شعوبنا القادمة الى الحياة من كهوف الاغتراب والقهر والبؤس تحمل حداثة الفرح البشري الجديد في لقائه بالحرية ، وتتقدم اضافة غنية الى الادب الانساني الشامل ، وبديلا حيويا لاداب نزع الصفة الانسانية عن سلوك الانسان في نماذج تقديس العنف وقياس الجدارة بمعايير القوة والعنف .

اننا لا ننفي من اجل النفي ، ولكننا نواصل البناء على أسس التقاليد الانسانية الحية للادب ، والقيم الانسانية المطلقة . اننا لا نؤسس على الفراغ او التقليد ، ولكننا ننمو على الجذور ، جذورنا في امتدادها بالتاريخ . ولا نغلق ابوابنا امام الرياح ، ولكننا لا نترك الريح تقتلع جذورنا . لقد ظلم هذا الشرق كثيرا ، وما زال معرضا للظلم . لقد ظلم الى درجة التشكيك بقدرته على المساهمة في الثقافة العالمية . وصارت الثقافة الرأسمالية النموذج السائد . ولكننا ماضون في استرداد الثقة بالنفس ، وفي تطوير آدابنا الوطنية لتأخذ المكان الذي تستحق من منجزات الابداع الانساني الشامل .

ها نحن نحقق الحضور في ذواتنا ، بالالتحام في نضال شعوبنا . وفي هذا الحضور الوطني نؤسس الخطوات الاولى في الحضور العالمي . لقد عاد العرب الى العالم بعد عملية نفي طويلة مارستها الاشكال والمراحل المختلفة من الاستعمار . وما زالت شعوبنا تكدح لتحرير نفسها وأوطانها من الداخل والخارج ، لتخلق الفرصة الاكمل لتعمير ثقافتها وتطورها الاجتماعي . اننا في بداية الحضور ، وبقدر ما تتعمق الرؤيا الثورية والممارسة الثورية فينا بقدر ما نقترب من الحضور والوصول .

ويبدو ان القضية واحدة . ان مساهمة كل شعب في الثقافة العالمية تأتي من تجربة ثقافته القومية التي يمتد منها الجوهر . ومن هنا ، فان ما يعيق تطور ثقافة شعب مـا نتيجة عقبات التطور الاجتماعي لهذا الشعب هو ذاته الذي يعيق اثراء الثقافة العالمية ووحدتها . ويبدو ان الطريق ما زال طويلا لبلوغ هـذه الوحدة ، لان الثورة لم تحقق حلمها ، بعد ، في ان تكون عالمية . والقوى الجديدة ، قوى الثورة الكفيلة بانتاج ثقافة كونية ، لم تبلغ في البلدان كلها السيطرة على امكانياتها العظيمة . ومن هنا ، ما زالت الفروق باهظة . ومن هنا ايضا ، يبقى دور الاديب كبيرا في عالمنا ، لانه يقرب مناطق العالم في الحلم الانساني المتعدد الاشكال ، والمتوحد في الجوهر .

ما زال الطريق طويلا . وما زال دورنا كبيرا . وما زالت شعوب آسيا وافريقيا تقدم نضرة الموعد بالانعاش ، وهي على طريق الحضور .

يوم في بيت المقدس

أحمد الشقيري

فيما يلي فصل من مذكرات الاستاذ احمد الشقيري التي ستصدر قريبا في بيروت بعنوان « ما اشبه الليلة بالبارحة » .

عرفت بيت المقدس في طفولتي وصباي ، من بعيد ، فلم يشرفني الله ان تكون مسقط راسي ، وحرمت ان أحبو على ترابها الطهور ، وان ارتع في حاراتها وساحاتها ، وان اتفيأ ظلال أسوارها وابراجها . وما أسعد الذين ولدوا في اكنانها ، فقد قـدر لهم ان يترعرعوا في مهد التاريخ وان يكونوا من سدنة معالمها الخالدة .

ولقد عرفت بيت المقدس ،وأنا في عكا ، وكانت يومذاك تبعد عني مسيرة ثلاثة ايـام على ظهور الجياد ، ولكنها مع ذلك كانت اقرب الي من حبل الوريد ، اقرب من اذني الى سمعي ، فقد كان اسمها يتردد من حولي في البيت ، وفي الجامع ، وفي المدرسة ، وفي كل مكـان .

في البيت كانت حلقة العلماء في بيتنا لا تفتر عن ذكر بيت المقدس عند كل مناسبة دينية ، وكان الحديث عن « بركاتها وفضل الصلاة في المسجد الاقصى » يطغي علـى كل حديث .

وفي المسجد كانت خطب الجمعة ، لمناسبة الاسراء والمعراج ، تشير الى فضائل بيت المقدس ، وينهي الخطيب كلامه وهو يرتل بصوت خاشع الاحاديث النبوية عـن بيت المقدس ومنها : «من زار بيت المقدس محتسبا اعطاه الله اجر الف شهيد» . «ومن زار بيت المقدس محتسبا حرم الله لحمه وجسده على النار » . « ومن صلى في بيت المقدس غفرت ذنوبه كلها »ـ

وفي المدرسة كان استاذنا يتحدث بافاضة عن بيت المقدس ، وعن أسوارها وابراجها وابوابها ، وعن تاريخها ابتداء بالفتح العمري ، الى عهد الامويين والعباسيين ، وحروب الافرنج مع صلاح الدين ، الى عهد العثمانيين فالاحتلال البريطاني .

ولكننا في المدرسة لم نكن نعرف بيت المقدس بهذا الاسم ، فلقد شاع هـذا الاسم فيما بعد ، فقد كان الاسم الرائج « القدس الشريف » ، ولذلك حكاية جرت بيننا وبين معلم الجغرافيا .

في ذلك الوقت ، وهو على التحديد في عام ١٩١٩ ، كان معلمنا يدرسنا الجغرافيا من غير كتاب ولا خريطة ، فلم تكن الكتب المدرسية قد طبعت ، ولم تكن الخرائط قد ظهرت، فالاحتلال البريطاني بعد العهد العثماني لم يكن قد اعد شيئا من برامج التعليم .

وكان معلمنا يدرسنا من « عقله » ، ويتحدث عن جغرافية فلسطين وسهولها وجبالها ومدنها مستعينا من حين الى حين برسم خارطة على اللوح ، يبين فيها مناطق فلسطين الطبيعية . ويتعمد ان يرسم عكا وحيفا والخليج بينهما باتقان وروية .

وقد كان معلمنا يذكر لنا كل شيء عن فلسطين الا امرا هاما كان يلفت انتباهنا ويثير حيرتنا . انه لم يكن يذكر لنا عاصمة فلسطين . وهل من المعقول ان تكون بلادنا من غير عاصمة وللبلاد الاخرى عواصم ، اصبحنا نحفظها عن ظهر قلب . وغدونا نحن التلاميذ في حيرة من أمرنا وجمعنا شجاعتنا مرة ، وقلنا لمعلم الجغرافيا : خوجة افندي : وما هي عاصمة فلسطين ؟

وكلمة « خوجة افندي » تعبير تركي معناه « يا حضرة المعلم » ، وقد بقي هذا التعبير على السنتنا ، ننادي به معلمنا بعد زوال العهد العثماني بعام او عامين .

فأجاب المعلم : في السابق كنا تابعين لبيروت . أما اليوم فان عاصمتنا هي « القدس الشريف » ، ثم سألناه أين هذه « القدس الشريف » فرسم لنا خريطة لفلسطين ، ووضع نقطة كبيرة في وسط فلسطين كتب عليها « عاصمة فلسطين » وحدد على الشاطىء المدن الساحلية : عكا ــ حيفا ــ يافا ــ غزة .

وهكذا عرفنا أن عاصمتنا لم تعد شمالا في بيروت ، وانما اصبحت جنوبا في القدس الشريف .

والقدس الشريف مثل الشام الشريف ، تعابير تركية اطلقها الرعيل الاول من العثمانيين المتدينين ، غضموا الى القدس والشام كلمة شريف تكريما وتشريفا .

وذات يوم ، في عطلة الجمعة ، تأكد لنا أن ما يقوله معلم الجغرافيا صحيح ، فقد ذهبنا الى محطة السكة الحديد للنزهة . فلم يكن عندنا شيء من وسائل التسلية سوى الخروج الى المحطة للتفرج على القطار وعرباته ، والمسافرين وهم يركبون وينزلون ، ونحن في عجب كبير ، كيف يسير القطار بالبخار . فذلك علم لم نتعلمه الا بعد ذلك بسنين .

وكنا نطوف حول العربات ذهابا وايابا ، من خلف وقدام ، لنتفرس بالعجلات والقضبان والابواب والنوافذ ، ثم نقرأ ما هو مكتوب على هذه العربة او تلك .

وكان بين هذه العربات ، وهي من مخلفات الدولة العثمانية ، عربات مكتوب عليها : سكة حديد الحجاز ــ « قدس شريف » ــ « شام شريف » الى غير ذلك من العبارات . ويومها تأكد لنا معلمنا بارع في علم الجغرافيا ، ومَن أصدق من القطار علما ؟!

ومضينا مع معلمنا في علم الجغرافيا وهو يملي علينا دروسه ونحن نكتب . عن فلسطين ، وعن مساحتها وعدد سكانها ومدنها ، وجبالها ، وكان يركز على « قدس شريف » فيشيد بقيمتها الدينية ، وحصانة أسوارها ومناعة أبراجها ، ويسرد أسماء ابوابها ، ثم يصف لنا بالتفصيل المسجد الاقصى وقبة الصخرة الشريفة .

وكان معلمنا متدينا ، يذكر « قدس شريف » بكل خشوع واجلال ، على حين كان يذكر أسماء المدن الاخرى في سرد عادي ، لا تشوبه مسحة من التقدير .

ومن يومها ، وعلى يد معلم الجغرافيا ، انغرس حب « قدس شريف » في فؤادي . وأصبحت اتوق لرؤيتها وان اقضي اياما في ربوعها .

ولكن معلم القرآن الكريم قد ذهب بعيدا الى أعمق من ذلك ، فقد غرز حب المدينة في جوارحي ، وانتقل الحب من الجغرافيا الى التاريخ الى الدين .

ومضى معنا معلم الدين ، يسرد علينا من خزائن ذاكرته سيرة « قدس شريف » ومقامها في الاسلام ، مستعرضا تاريخها القديم منذ ملكي صادق ، اليبوسي الكنعاني العربي ، اول من اختط مدينة القدس ليتعبد فيها هو وعشيرته واطلق عليها اسم قرية السلام .

وكان معلمنا شيخا مهيبا يروي لنا تلك الحكايات بالتجلة والاحترام ، ولا يفتر عن عبارات الحمد والتسبيح كلما جاء على ذكر المدينة ، واحداثها ، ومقابرها ، واكابر الصحابة الذين دفنوا بها ، والملوك والامراء الذين بنوا فيها المدارس والرباطات والمستشفيات والاوقاف الخيرية .

وازددت حبا بالقدس الشريف ، فلم تعد عندي عاصمة لفلسطين فحسب ، ولكنها أصبحت دينا وحضارة ، وتجسيدا حيا لتاريخ العروبة والاسلام . ولكن حبي اصبح هياما وغراما في أيام الاسراء والمعراج ، وفي المسجد الجامع المعروف بجامع الجزار ، أحد ولاتها الطغاة .

وكان مفتي عكا وقاضيها ، الشيخ عبدالله الجزار ، ولا صلة له بالحاكم الجزار ، عالما جليلا مهابا ، ربى جيلا من العلماء في عكا ، واشتهر بالتقوى والورع ، وكان الناس يتهافتون على يده يقبلونها مثنى وثلاث ، وهو يسير من المسجد الى داره ، والناس من حوله في موكب فخيم .

وقبل صلاة الجمعة ، كان الشيخ الجزار يجلس على مصطبة دكان كبير ، يملكه احد وجهاء النصارى اسمه « الخواجه » عيسى العيسى ، فيقبل عليه الفلاحون القادمون من قراهم للصلاة والتجارة ، ويتزاحمون عليه يلثمون يده ، وينقضي الوقت وصاحب الدكان لا يبيع من بضاعته شيئا ، وهو يتهلل بشرا ان بركة المفتي قد حلت على دكانه في ذلك اليوم السعيد . بركة فقط ، من غير ربح ولا تجارة !!

وفي يوم الاسراء والمعراج كان الشيخ الجزار يتولى تلاوة « القصة » بصوته العذب الخشوع . ولم يكن يسمح لغيره من العلماء ان يتلوها نيابة عنه ، فقد أصبح ذلك الواجب جزءا من حياته ، يمنحه سرورا دافقا وسعادة عظمى ، ويبدو كأنه في مطلع الشباب .

وكنا في ذلك اليوم نسارع الى المسجد ونزاحم في الصفوف ، حتى نجد مكانا قريبا من الشيخ الجزار لننعم بصوته الشجي ووجهه البهي . وكان يحمل على كتفيه وجها ناصعا مشربا بالحمرة ، يجلله شيب نقي ، وفوق ذلك كله عمامة بيضاء كأنها هالة من نور . وهكذا كان يبدو لنا . وما ضر أن يكون الخيال احسن من الحقيقة ، ما دام يبعث في نفوسنا الرضا والسرور .

وتشرئب الاعناق ، ويسود المسجد هدوء وخشوع ، ويبدأ الشيخ الجزار تلاوة قصة المعراج ، من كتاب امامه . انه يقينا يحفظها عن ظهر قلب ، ولكنه يصر ان يتلوها من الكتاب بين يديه . فان الكتاب طاهر ، والصفحات مقدسة . ويجب أن يتلو من الكتاب ، ويقلب الصفحات بين يديه ، فذلك اكثر بركة . وتلك حلاوة الايمان لاولئك الذين نشأوا على الايمان .

ويمضي الشيخ الجزار في التلاوة ، بعبارات عذبة ، من سجع الى سجع ، فهذا البراق الشريف الذي يمتطيه الرسول (ص) فينقله من مكة الى بيت المقدس ، حيث يربطه ، ومن ثم يعرج الى السموات العلى ، الى سدرة المنتهى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، الى الحضرة الالهية .. الى اخر القصة التي تعود بالرسول (ص) من السماء الى الارض في بيت المقدس ثم الى مكة ، واهلها نيام ، ويحكيها لهم ، ويقولون له اضغاث احلام .

والقصة ، بالصيغة التي كان يتلوها الشيخ الجزار في ذلك العهد ، مليئة بالصور الرائعة عن الطيور العسجدية ذات المناقير الزبرجدية السابحة في الافلاك العلية .. او الحوار الرائع الذي دار بين الرسول (ص) والانبياء الذين التقى بهم في كل سماء ..

او غير ذلك من السرد الديني الذي يأخذ بجامع القلوب ، فيسمو بالناس ، ولو الى ساعة من الزمن الى صفاء النفس ، والراحة من متاعب الحيـــاة ، واشتعال الامل والرجاء بالقدرة الخفية العليا ، ويمتلىء القلب بالسكينة ، كأنه يستقر من قلقه وحيرته وشكوكه ومتاعبه ، في قرار مكين .

وهكذا كنا نخرج من المسجد ، والسرور يفعم قلوبنا ، ونحن نتزاحم بالمناكب والاقدام حتى نصل الى الشيخ الجزار ونلثم يديه الطاهرتين ، والمؤذنون من حوله يرشون ماء الورد على يديه من حين الى حين .. ونحن لا نخشى العدوى ، فلا عدوى في الاسلام ، وهكذا تعلمنا ، وهكذا آمنا .. وما عليك أن تخاف اذا آمنت .

ونعود الى بيوتنا ، كأننا رجعنا من مصح جميل وجدنا فيه الشفاء والعافية ، لنبدأ الحياة من جديد ، انتظارا ليوم الاسراء ، او يوم آخر من الايام الدينية .

وكانت « القصة » بكل ما فيها من أساطير وحقائق ونفحات روحية تشحن المدنية كلها بالرضا والسرور ، ولا تكلفهم الا الايمان فقط .. وما أرخصه وأغلاه ثم ما أيسره وما أعسره !!

واليوم وقد مضى على هذه الصورة الحلوة ما يقرب من خمسين عاما ، جاء فيه العلم بالعجائب ، ومعه أحمال من الارق والقلق والعذاب ، فلا تنفع فيه دور الشفا، ولا احمال العقاقير ... اليوم هذا ، أسائل نفسي : وما ضرنا ان نؤمن بتلك الصورة المشرقة .. انها حلوة عذبة ، فيها شفاء الروح وعافية النفس ، واشراقة الحياة .. ومـــا طعم الحياة اذا غاب الرضا ، وحل محله القلق والعذاب .

ومضت الايام تتلوها الايام ، ونحن في كل عام نذهب الى الجامع الكبير نستمع الى قصة الاسراء والمعراج يتلوها الشيخ الجزار ، فننعم بصوته العذب ، ونخشع لعباراته وعبراته .. فبقدر ما كان كثير البكاء في المسجد ، كان طلق المحيا ، خارج المسجد ، وهو يتصدر حلقة العلماء من حوله .

ومنذ صباي ، كنت ولوعا بالتسلل الى هذه الحلقات اجلس في طرفها ، واستمع الى احاديثها ...

وذات مرة ، رأيت الشيخ الجزار يغضب لاول مرة .. فقد كان الحديث يدور حول الاسراء والمعراج .. وكان في الحلقة أحد العلماء ، وهو الشيخ جمال السعدي .. وكان هذا يقرأ كتب التاريخ ويعنى بالشؤون المدنية اكثر من عنايته بالقضايا الدينية .

فاستأذن الشيخ السعدي في الكلام عن الاسراء والمعراج .وبعد مقدمة طويلة حافلة بالاعتذار ، بدأ الشيخ السعدي كلامه بأنه « مستفسر لا مستنكر » عما اذا كان اسراء الرسول (ص) بالروح والجسد ، ام انه بالروح دون الجسد .

ولم يكد الشيخ السعدي يفرغ من سؤاله حتى انتفض الشيخ الجزار غاضبا هائجا وهو يصيح « الله اكبر ، الله اكبر ، اما تخاف الله ، يا جمال . وهل تنكر الاسراء والمعراج ، وقد جاء بنص القرآن، انه بالروح والجسد معا . وهذا هو ما اجمع عليه السلف الصالح وجمهور العلماء » .

وراح الشيخ الجزار يستشهد بآيات القرآن ، التي تتحدث عن الاسراء والمعراج ، ولا يكاد لسان الشيخ الجزار يطاوع نبراته وكلماته ، والشيخ جمال السعدي ، يتضاءل في مقعده ، يضمر شيئا فشيئا ، دون ما هو عليه من ضمور ونحول ، حتى أصبحت جبهته وعمامته ما تحتهما شيء .

والشيخ الجزار يمضي زاجرا وهو يكرر : يا جمال ، اتق الله في دينك ، وكان الشيخ الجزار ينادي العلماء من حوله بأسمائهم ، من غير لفظة شيخ . فان معظمهم تلاميذه ، واين هم من علمه وفضله .

ولم يهدأ الشيخ الجزار الا بعد ان نهض « جمال » وقبل يديه ظهرا وبطنا ، وهـو يقول ، والله يا مولانا انا مستفسر لا مستنكر . والله سبحانه وتعالى يقول « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » .

وانفض المجلس على خير . ولكن الامر اصبح حديث المدينة كلها ، واصبح الشيخ جمال السعدي اشهر من نار على علم ، كما يقولون ، مع انه كان قصـيرا بحيث لا يراه احـد ؟ !

ومضت الايام ، وانا اتطلع الى ان ازور بيت المقدس ، واقضي فيها بضعة ايام . وشاء القدر أن تتحقق رغبتي وان اقضي فيها بضعة اعوام . تتلوها فيما بعد اعوام واعـوام .

كان ذلك في عام ١٩٢٤ حين تخرجت من المدرسة الثانوية في عكا ، واتجه الراي في عائلتنا ان أتم دراستي في احدى مدارس بيت المقدس ، ففيها العلوم العالية ، وفيهـا اللغة الانجليزية . وهذه اصبحت لغة الحياة والمستقبل بديلا عن اللغة التركية البائدة. ولكل زمان دولة ورجال ولغة ولسان .

وسافرت الى بيت المقدس بالقطار ، والتحقت بمدرسة صهيون الانجليزية ، القائمة على جبل صهيون ، وكانت لي مع القطار ، والمدرسة والتلامذة والاساتذة طرائب فريدة، ذهبت حلاوتها مع زمانها ، فلم تعد تتكرر احداثها ، وقد اسعفتني ظروفي ، فدونتها ونشرتها ، لتكون تراثا لاجيالنا اللاحقة وصفحة من تاريخ وطننا (راجع كتابي : اربعون عاما في الحياة العربية والدولية) .

ولم تكن الدراسة قد انتظمت في الاسبوع الاول من وصولنا ، فاغتنمتها فرصة لازور مكان البراق حيث ربط النبي (ص) جواده ، فقد كانت قصة الاسراء والمعراج التـي سمعتها مرات ومرات تلح علي بأن ارى موضع البراق في بيت المقدس ، قبل ان أتعرف على أي مكان اخر .

وذهبنا مجموعة من الطلاب ، على غير هدى ، نعبر باب الخليل ، ثم نسير في تلـك الشوارع المبلطة وهي تنزل بنا من سوق الى سوق ، ونحن نسأل المارة عن « البراق »، وهم يشيرون : الى اليمين، الى الامام ، الى اليسار . واخيرا وصلنا الى البراق . وكان ذهول عجيب ومشهد عجاب .

كان المشهد عجيبا عجابا حقا . لقد رأينا انفسنا في زقاق ضيق لا يكاد عرضه يتجاوز ثلاثة امتار ، يمر منه الناس رائحين وغادين من حي الى حي ، وجماعة مـن اليهود ينوحون ، ووجوههم الى حائط قديم عال ، مبني من الحجارة الضخمة .

وقفنا مشدوهين امام المشهد ، وقد انعقد لساننا ، وتسمرت ابصارنا ، ولا ندري ما هذا الذي نراه . واحسسنا بارتباك ، ولم نعد ندري ما نفعل .

وانحلت عقدتنا ، حينما تقدم الينا رجل في مقتبل العمر ، وسأل « وهـل تريدون ترجمان » ؟

قلنا له : ترجمان من اجل ماذا ؟ نحن عرب .

قال : أنا أشرح لكم عن المبكى .

قلنا له : ايه المبكى . نحن نريد البراق .

قال : انتم هنا في البراق ، وهذا هو حائط المبكى . وانا أشرح لكم كل شيء ، احسن من الكتب ، ومن المدارس .

وكان « الترجمان » مغريا في حديثه فأذعنا اليه ، وأسلمنا عقولنا واذاننا الى حديثه.

قال : هل انتم مسلمون ؟

قلنا له : فينا المسلم ، وفينا المسيحي .

قال : يعني عرب . ومضى في حديثه يسرد لنا حكاية الاسراء والمعراج كما سمعتها في بلدي عكا وفي جامع الجزار . وان « البراق الشريف » قد ربط في هذا المكان . وان الرسول (ص) قد ربطه ، عند هذا السور ، ومن هنا عرج الى السماء ، والى هنا عاد ، وركب البراق الشريف ورجع الى مكة .

قلنا له : الى هنا فان القصة معروفة ، ولكن ما شأن هؤلاء اليهود .

قال : اليهود ، كما ترون ، يأتون للصلاة والدعاء امام هذا الحائط وهم يبكون على خراب الهيكل ويدعون الله ان يسهل لهم بناء الهيكل مرة ثانية .

قلنا له : وهل هذا المكان لهم .

قال : ابدا . اعوذ بالله . هذا الحائط هو الجدار الغربي للمسجد الاقصى ، وهو جزء من الحرم الشريف. وهذا الزقاق نفسه مع الاحياء المجاورة كلها اوقاف اسلامية ، فيها زوايا وتكايا ومساجد . ان كل شبر في هذه البقعة وما حولها هي املاك اسلامية ، وليس لليهود ملك اطلاقا في هذا المكان ولا في هذا الحي .

قلنا : وما جاء باليهود الى هذا المكان ، ولماذا نسمح لهم بذلك ؟ .

قال : هذه عادة قديمة . اليهود يأتون الى الحائط ويبكون ويمسحون أيديهم بأحجار الحائط ، ويرطنون بعض الدعوات ، ثم يذهبون . ولا يمكث الواحد منهم اكثر من بضع دقائق . نحن سمحنا لهم في الماضي . فليبكوا الى يوم القيامة .

قلنا : ولكن هؤلاء يريدون ان يعود اليهم الهيكل . انهم يدعون ملكية المسجد الاقصى اذن !!

قال : هذه خرافات وخزعبلات . المسجد الاقصى لنا . وهيهات هيهات ان يملكوه . والله نحن في القدس سنموت عن اخرنا قبل ان يصيبوا منه حجرا واحدا .

ودنونا من الحائط قليلا واقتربنا من اليهود . كانوا رجالا ونساء في اخريات العمر، وكانت ملابسهم المهلهلة وسوالفهم المجدولة ، وقلانسهم المقوسة ، ورائحتهم الزنخة النتنة ، كل ذلك كان يدل انهم من اليهود ، كما كنا نعرفهم يومذاك .

وكان بعض اليهود يبكون في نحيب ، واخرون في صمت ، ورايت احدهم يضرب رأسه بالحائط ، واحسب انه عصر عينيه فلم يبك ، فراح يرطم الحجارة برأسه ليبكي !!

ولم يكن احد من المارة يحفل بهؤلاء اليهود الباكين ، فالناس العابرون ، والحمالون ، والاولاد ، والنساء ، والدواب يغدون ويروحون امام الحائط دون ان يكترث احد لعويل اليهود وصراخهم . وكل شيء هادىء، حتى الحمير تعبر بلا نهيق ، والخيل بلا صهيل !!

وكانت امرأة طاعنة تقف في طرف الحائط ، وبيدها كتاب تقرأ منه الادعية . فقلت للترجمان : ماذا تقول هذه المرأة في دعائها .

فاخرج الترجمان كتابا من جيبه وقال : دعاء اليهود امام حائط المبكى يردد ما يأتي ، بالترجمة العربية :

من أجل الهيكل العظيم نقف بذلة وحدنا وننوح

من أجل اسوار هذه المدينة نقف بذلة وحدنا وننوح

من أجل مملكتنا التي بادت نقف بذلة وحدنا وننوح

آه .. تحنن يا رب على صهيون واجمع شتات ابناء اورشليم

وانتهت زيارتنا « للبراق الشرق » كما هو عندنا ، ولحائط المبكى كما شاع اسمه في العالم ، ولكن رفاقتنا للترجمان لم تنته . فقد عرضنا عليه أن يرافقنا الى المسجدِ الاقصى وكنيسة القيامة ، ويعلمنا من علمه الغزير .

ومضينا معه في شوارع بيت المقدس وزقاقاتها الضيقة المتعرجة حتى وصلنا الى ساحات الحرم الشريف . وقد انفتحت صدورنا لرحابتها ونسماتها الحلوة الصافية ، وما حولها من اسوار وقباب ومآذن ، تأخذ بالالباب .

واقبلنا على مسجد الصخرة ، فاذا بنا أمام تحفة رائعة من الحسن والجمال ، يبهرك بتنسيقه الهندسي الرائع ، وبجدرانه الثمانية الفاتنة ، وقبته الساحرة ، وكأنها تنقل دعوات المؤمنين الى السماء من غير حجاب .

وخلعنا نعالنا ، ودخلنا . وانبهرت ابصارنا بما رأينا ، ونحن ننتقل في موكب من الجمال والجلال من عمود الى عمود ، ومن نافذة الى نافذة ، كلها ذات ألوان عجيبة ، وظلال غريبة ، يزيد ذلك كله الخط الجمالي الذي كتبت به الايات القرآنية . وكانما اسبغ عليه القرآن جماله وجلاله .

وقادنا الترجمان الى درج نزل بنا الى « الصخرة المشرفة » ، التي تقول الروايات الاسلامية انها تعلقت بقدم الرسول (ص) وهو يعرج الى السماء ؛ وكنت قد سمعت الكثير عنها في عكا ، ونحن نستمع الى قصة الاسراء والمعراج . وكانت الصورة الذهنية أروع من المشاهدة الحقيقية . فلم أجدها معلقة كما سمعت . وآثرت ما سمعت على ما رأيت .

وبجانب الصخرة ، رأيت شيخا طاعنا في السن ، يتعبد ؛ كما كان يتعبد الاجيال والاجيال من قبله . لقد كان هيكلا ساكنا لا يتحرك ، انه يتمتم في دعة وسكون هنا حيث الصفاء والهدوء ؛ خلع الدنيا مع نعليه خارج المسجد ، وجاء هنا يقرقص بين يدي ربه ، يلتمس العفو والسكينة والرضا . انها ساعة وجد مع الله . وما أسعد اهل الوجد اذا كانوا قد بلغوا محرابه .

وروى لنا الترجمان ، ونحن نسير في جنبات المسجد ، عن جده ، وكان أحد سدنة المسجد ، انهم كانوا كل يوم اثنين وخميس يطحنون الزعفران والمسك والعنبر ، ويمزجونه بماء الورد ، ويتركونه طول الليل ؛ وفي الصباح يذهب الخدم الى الحمام فيغتسلون ويرتدون الثياب النظيفة ، ثم يحملون اواني الزعفران فيغسلون الصخرة، ثم يبخرونها بمباخر من الذهب والفضة ، وفيها عود الند مخلوطا بالمسك والعنبر . وبعد الفراغ من ذلك كله يخرج المنادون الى الاسواق ، فيدعون الناس الى مسجد الصخرة . ويظل المسجد طيلة الاسبوع وهو يفوح بروائح البخور معطرا بالمسك والعنبر .

قلت للترجمان : ولماذا لا تفعلون ذلك في هذه الايام ؟

قال : الاوقاف فقيرة هذه الايام ، وهذا العمل يحتاج الى نفقة كبيرة . بل ربما لان اجدادنا كانوا يحبون مسجد الصخرة اكثر منا . الله يرحمهم ماتوا . ومات معهم الخير والبركة .

وخرجنا من مسجد الصخرة ، وافئدتنا مبهورة قبل ابصارنا ، وفي طريقنا الى المسجد الاقصى ، أشار الينا الترجمان الى قبة تلاصق سور الحرم من جهة الشرق ، وقال : هذه قبة الغزالي . هناك كان الغزالي يعطي الدروس لتلامذته حين زار القدس قبل حروب الافرنج ببضعة سنوات . وهناك وضع الغزالي كتابه الشهير احياء علوم الدين.

قلت للترجمان : انت عالم ايضا ، ولست ترجمان فقط ..

قال : والله يا اخي انا من بيت علم . ولكن الزمان حط بنا . لقد تعلمت علوم الدين كلها . والدين لم يعد يعطي خبزا . ولذلك تعلمت صنعة الترجمان وانا اعرف كل اللغات الاجنبية . والسياح لما يأتون الى المسجد أنا اترجم لهم . والعجيب ان الواحد منهم يقضي ساعات وساعات يتأمل في محاسن المسجد . وانتم تخرجون بعد بضعة دقائق .

قلت : نحن طلاب مدارس ، ولا بد أن نعود بسرعة الى مدرستنا .

قال : وفي أي مدرسة ؟

قلت : في مدرسة صهيون .

قال : ولماذا في مدرسة صهيون؟ هذه مدرسة تبشيرية . وليس فيها الا اللغة الانجليزية وكرة القدم . ولماذا لا تنتسبون الى روضة المعارف انها كلية وطنية راقية .

قلت : نحن نريد ان نتعلم اللغة الانجليزية ، ولا نهتم بالكرة .

واتجهنا نحو المسجد الاقصى . واين هو من مسجد الصخرة عمارة وفناء وجمالا ؛ ومع هذا فقد بهرتنا رحابته واعمدته وقناطره . ووقف بنا الترجمان عند المحراب ، والتفت الى المنبر وهو يقول : — هذا هو منبر نور الدين الشهيد ، قضى عمره وهو يجاهد الافرنج ليخرجهم من بيت المقدس . وكان قد أعد المنبر ، وهو في حلب ، وقضى العمال بضعة سنين في زخرفته حتى جاء آية في الجمال ، وقد حرصوا في صنعه ، دون ان يدخلوا فيه مادة من غير الخشب . وقد توفي نور الدين ، والمنبر جاهز في حلب، قبل تحرير بيت المقدس . وجاء من بعده صلاح الدين فتم على يديه طرد الافرنج من بيت المقدس ، وأمر صلاح الدين فنقل منبر نور الدين من حلب وركب في مكانه في المسجد الاقصى . وهو كما ترونه الان .

وكان المنبر حقا تحفة رائعة في جمال الفن ، ودقة الصنعة ، اضافت عليه سيرة نور الدين وصلاح الدين هالة قدسية رفيعة ، تجللها أمجاد النصر . وهل بعد النصر من أمجاد .

وخرج بنا الترجمان من ساحة المسجد الاقصى عبر بوابات يفضي بعضها الى بعض ، وزقاقات معتمة الى اخرى مضيئة ، والتعب قد أخذ منا مأخذه ، وعرج بنا الترجمان الى مطعم صغير ، فكان اول عهدنا بالماكل القدسية ، فالتهمنا اطباق اللحم والارز والباذنجان البتيري نسبة الى بتير احدى قرى القدس ؛ واتبعناها بحلوى « زلاطيمو » نسبة الى صاحبها الذي اشتهر بصنعها ؛ ولم يكن الطعام فاخرا ، ولا الحلوى ممتازة ، ولكن مع التعب والجوع والصبا التهمنا الطعام بشهية لاهبة . وتركنا الصحون خاوية خالية .

ومن المطعم ، انصرفنا في الشوارع من حي الى حي . الى ان بلغنا حارة النصارى وكانت تنبىء عن ذاتها شكلا ، وموضوعا . فقد كانت معظم الدكاكين فيها تعج بالسياح يشترون التماثيل والصلبان . وكانت الشموع تتدلى من سقوفها ، بأحجام مختلفة والوان متباينة . وكان بخور الكنائس يفوح منها ليملأ الازقة من حولها .

وسار بنا الترجمان الى ان بلغنا كنيسة القيامة . ووقف بنا وقفة طويلة وهو يشرح لنا تاريخ الكنيسة ، وبناءها على مر العصور . وشرح بالتفصيل وصول الخليفة عمر بن الخطاب الى المكان ، وان البطريق صفرنيوس سلمه مفتاح الكنيسة ودعاه الى الصلاة فيها ، وان الخليفة رفض ذلك ، وصلى في الساحة المقابلة حيث المسجد القائم . وكيف أعطى الخليفة الى نصارى بيت المقدس عهد الامان على ارواحهم وكنائسهم الى اخر القصة .

وكان معظم ما ذكره لنا معروفا عندنا ، لكثرة ما قرأناه وسمعناه . ولكن الذي لم نكن نعرفه قد تعلمناه عند باب الكنيسة . فقد اصابتنا الدهشة ، ونحن نقترب من مدخل الكنيسة لنرى على يسارنا « مصطبة » عالية يجلس عليها شيخان جليلان مسلمان ، يتبادلان التحية مع الداخلين الى الكنيسة ، سواء منهم القساوسة ام الناس العاديين .

وقد عجبنا لهذين العالمين المسلمين يجلسان عند باب الكنيسة ، وتجلس معهما على رأسيهما عمامتان كبيرتان ، وعلى كتفيهما جبتان فضفاضتان ، كأنهما قدما من حلقة الدرس في المسجد الاقصى قبل هنيهة .

وسلم الترجمان على الشيخين الجليلين سلام العارف . ثم بادرنا بالقول : الاستاذان احدهما من آل نسيبة والثاني من آل جودة ، وهما من أقدم عائلات القدس الاسلامية . ان بيدهما مفاتيح كنيسة القيامة ، يتوليان فتح ابوابها واغلاقها . وهذا التقليد متوارث في هاتين العائلتين منذ الفتح الاسلامي الى يومنا هذا .

وتكلم احد الشيخين وقال : ان جدنا نحن آل نسيبة كان مع سيدنا عمر حينما فتح بيت المقدس ، ومنذ ذلك العهد ومفاتيح كنيسة القيامة بأيدينا ، نعطيها لآل جودة ويفتحون أبواب الكنيسة ثم يعيدوها الينا . وقد توارثنا هذا التقليد عن اجدادنا . ولم ينقطع هذا التقليد الا زمن الحرب الصليبية .

قلت : وبعد ذلك ؟

قال : بعد أن استرد صلاح الدين الايوبي بيت المقدس ، عاد الينا هذا التقليد . واستمر في عهد الدولة العثمانية ، ومن بعده في عهد الاحتلال البريطاني .

قلت : وهل الطوائف المسيحية راضية بهذا التقليد ؟

قال : الطوائف المسيحية ليست راضية فحسب ، ولكنها لا ترضى عنا بديلا . ولا توافق اية طائفة ان تكون المفاتيح بيد طائفة اخرى .

وكان ان ازدحم باب الكنيسة بالداخلين ، وكان يوما من الاعياد الدينية ، على ما يبدو . فمشى الترجمان امامنا ونحن وراءه كأننا على موعد مع الجموع الوافدة الى الصلاة .

وكانت ساعة رائعة حقا . فريدة حقا . فقد ساقتني اسفاري في مراحل عمري المتقدمة الى كثير من الكنائس في العالم . ولكن كنيسة القيامة كانت شيئا اخر .

وكان اكثر ما يسترعي الاهتمام ان كنيسة القيامة هي مجموعة من الكنائس . لكل طائفة مسيحية كنيستها وقساوسها واعلامها ومحاربها وتماثيلها وقبورها ومباخرها ومقاعدها واخيرا مكانسها . واقول « مكانسها » فان وراء الامر ، كما شرح لنا الترجمان ، تقاليد طائفية أصبحت لها قوة القانون ولا يمكن تجاوزها . ذلك أن كل طائفة مستقلة بالعناية بكنيستها او جناحها ، وان احدا لا يتجاوز على أحد في شبر واحد ، حتى في التنظيف والكناسة . وكم وكم حدثت مشاحنات ومشاجرات بكل الادوات الموجودة في الكنائس ، اذا تجاوز راهب خطأ او عمدا على نصيب راهب اخر ، اثناء النظافة والكناسة .

وكنيسة القيامة هي برج بابل ، القائم الدائم . فالرهبان فيها من كل اقطار العالم ، ويصلون بكل لغات العالم ، وكثير منهم لا يعرف بعضهم بعضا ، ولكن جمهور المصلين هم من عرب بيت المقدس ، ومعظمهم من اتباع الطائفة الاورثوذكسية .

وبقدر ما كانت كنيسة القيامة توحي الوقار والاجلال كانت صفوف الفتيان والفتيات في غاية الروعة والجمال ، بملابسهم الزاهية ووجوههم الوادعة ، يحملون الشموع بأيديهم ؛ وبهجة العمر عندهم عيدهم في كنيسة القيامة .

واشتد الزحام فلم نعد نرى معالم الكنيسة ، وخرجنا ، والترجمان يفسح لنا الطريق برفق وروية ، ولولاه لما عرفنا طريقنا الى الخروج .

وقلت للترجمان : وهل الجمهور الذي شاهدناه اليوم من كل الطوائف .

قال : الا الطائفة البروتستانتية . ومعظم الناس من الارثوذكس ثم يأتي بعدهم المسلمون !!

قلت : المسلمون ؟!

قال : نعم . الشباب المسيحيون يدعون اصدقاءهم من الشباب المسلمين لهذه الاعياد ، ويشتركون معا في الاعياد والمواسم . وخاصة في عيد الفصح .

قلت له : واليهود . وما حالكم معهم ؟

قال : والله اقول لك الحقيقة . نحن هنا في بيت المقدس كنا مع اليهود بألف خير ، في زمن الاتراك . كنا نتزاور ونتعامل مع بعضنا بعضا . وكثير من اولاد المسلمين كانوا يرضعون من السيدات اليهوديات ، والعلاقات بيننا على ما يرام . ولكن منذ أنْ جاء الانجليز اختلف الحال . واليهود أنفسهم بدأوا يتنمرون ، وخصوصا المهاجرين الجدد .

وانتهت زيارتنا مع الترجمان ذلك اليوم ، فكانت درسا تاريخيا ودينيا وسياسيا ، وودعناه ، بعد أن مد كل واحد منا يده الى جيبه واعطاه ما تيسر . وهو بدوره مد يده الى جيبه ليعطينا بطاقته ويقول : هذا اسمي وعنواني ، اعطوه لاخوانكم .

ومن كنيسة القيامة سلكنا طريقنا الى باب الخليل ، ومنه الى طلعة صهيون ، الى مدرستنا حيث اقضي فيها ثلاث سنوات ، اصبحت فيها بيت المقدس بعض حياتي .

ثم تشاء الاقدار بعد ذلك ان يصبح بيت المقدس كل حياتي ، فقد عملت فيها صحافيا ومحاميا ، وانتهى بي المطاف حين جندت نفسي في ميدان النضال الوطني، على الصعيدين العربي والدولي . الى أن سقط بيت المقدس جريحا بيد اسرائيل ، وسقط معه التاريخ .

دمي يراوح في الرياح

أحمد دحبور

للجرح خيل هاجمهْ
وأنا وخيلي رحلتنا حلم وصحوٍ ،
طفتُ من صحو عدائيّ الى حلم فدائيّ ،
وبينهما وقفتُ هنيهة أحصي بلادي ،
لم تكن تُحصى –
فذبتُ على حصاها واختلجتُ :
لكل نبض يا بلادي حالة تأتيك من عصب لديّ ،
وكل خيط من دم يفضي إليّ ،
وهكذا أعلنتُ قلبي عاصمهْ

ووقفتُ أصغي :
إنهم يتناوبون الشرحَ ،
هل سمنتْ خراف العيد أم أجَلي هناك ؟
وشكّني قلبي فصحتُ :
بمنكر تستقبلون الفصح ،
فانفجر الصدى والصوتُ :
أين يداك ؟
إن القلب لا يكفي فأين يداك ؟
أم أرسلتَ باسمها لسانكَ ؟
(لو يخضْ البرق ذاكرتي فتندلع الشرارةُ)
كانتا زاد الرماحِ ،
ويوم واريتُ الرماح نسيتُ بين حرابها الجوعى يديّ ،
وها أنا – في ما يرى الصاحي – أرى وطناً يمرُّ بلا أيادٍ أو عتادٍ غير ذاكرةٍ

محاصرة بريحٍ آثمـهْ

– هل طال ظلك تحت شمس الحربِ ؟
– طالت قامتي واستُبدلتْ بالظلّ
– من رافقتَ ؟
– أهـلي ،
كانت الطرقات ضيقـة ،
وعلمني هوى الفقراء كيف أرى الصراط الضيّق المعوجّ أوسع من فلاةٍ ،

فانتسبتُ إلى هواي ،
(غزالة بيضاء تنصع كلما اشتدت خطايَ)

– وهل وصلتَ ؟
– دمي يراوح في الرياح ،
– لم اكتفيتَ ببعض شوطٍ ؛
واكتويت ببعض نارٍ ،
(لا احترقت ولا انبعثتَ)
وكيف واريت الرماح بغير شرطٍ ؟
– دلني تعبي على الدرب الفقيرهْ
– هل يتعب الفقراءُ ؟
– تتعب فورة العصب الفقيرهْ
وأنا وريث القهر والأعصابِ ،
كان النبع محترقاً فجئتُ النار قبل الماءِ ،
لم أنقل عن الفقراء غير النار ،
أما الوهجُ ،
أما النهجُ ،
أما العشق والنفَسُ الطويلُ ،
فإن تجار العواصم جاهزون ،

(غزالتي في البرّ حافية وألهثُ)

كلهم يتشاورون الآن ،
يا دميَ المراوح في الرياح بأي حق لم تضيء ؟
وبأي حق لم تجيء ؟
سمنتْ خراف العيد والمطلوب أنتَ ،
لكل سكّين مقاطعة ويجتمعون ،
تحترق الأيادي حين تحترق الرماحُ ،
وينثرون رمادها بين البلادِ —
قطيعةٌ
وعجزتُ أن أحصي بلادي ، قلتُ : هل يحصي الشقيُّ هزائمه ؟
وسمحتُ لليـأس المؤقت أن يراجعني ، فقلتُ : لم الغزالة نائمـه ؟
الآن يبتدىء الحوار .. دمي يغطيني
والأرض تلبسني
يا قهر يا زمني
إن كان حدك راعفاً .. فأنا فلسطيني
ويداي مدرجتان في الشرر المبكّـر ،
حين صادفني الشهيد فزعتُ ،
فانعتق الرصاص من الحجارة والغبار ،
وقال : في الزمن المسوّر يولد العربيّ ،
فاستبدل رفاتك بالخليّةِ ،
واتّحدْ بالبندقيةِ ،
قال : تبدأ دورة الفقراء بالنفَسِ الطويل ،
فكنْ كليم المـاءِ —

(لم تنم الغزالةُ)

قال : بعد الضيق تتسع الخلية ،
والرماح تفزُّ من صُلب النخيل ،
وقال : حريك دائمـهْ

ونقلتُ عن حـلم جميل رغبتي في الحب والوقت الجميلِ ،

●●

معي العصافير المعتقة التي لم تنطلقْ
وقصيدة لم تنعتقْ ،
وأخذتُ من حلم جوابيٍّ هوايَ ،
عرفتُ كيف يثبّتُ الأطفال وجهي في خريطتهم ليأخذ شكل حيفا —
كيف تنصع في مسافاتي الغزالةُ ،

نهم يتشاورون ،
وأطلب الفقراء ،
تطلبنا طريقٌ ،
ثم يجمعنا حريقٌ
ثم تصهرنا رؤى متلاحمهْ

— هل كان وجهك مشرقاً من قبلُ ؟
— تلك شرارتي في البرّ تسطعُ

— هل يموتُ الوعلُ ؟
— بل تلد الغزالةُ

— هل دخلتَ القصر من باب النجاةِ ؟
— خرجتُ قبل بناء هذا القصر من باب النجاةِ
— وكيف ؟
— أعلن أنّ هذا الفصح موتُ
وأظلُّ أصغي ،
إن صوتي وحده يأتي وتذهب كل موجات المحطات القصيرة ،
قلتُ للبطل الشهيد :
ليتسني دمك الطريُّ على ثيابي لو وقفتُ .

المفهوم الاجتماعي لحرب التحرير الشعبية الفلسطينية

نبيل الرملاوي

تتعرض الثورة الفلسطينية في هذه المرحلة الى محاولات تصفية تختلف كل الاختلاف عن محاولات التصفية التي تعرضت لها في الماضي ، ولهذه المحاولات اهدافها السياسية ووسائلها وأدواتها ، وبالتالي فان طبيعة الامور تفرض على الثورة وهي محددة الهدف الاستراتيجي أن تحدد وسائلها وادواتها لتتوظف جميعها في مواجهـة طبيعة المرحلة الحالية الخطرة .

وان كانت الثورة الآن بحاجة لبلورة بعض المفاهيـم الاساسية ، فان مفهوم حرب التحرير الشعبية التي حددت في الماضي كوسيلة لتحرير الارض الفلسطينية كلها هو أكثر المفاهيم الحاحا للتبلور على المستوى الاجتماعي . ففي اطار المفهوم الاجتماعي لحرب التحرير الشعبية تتحدد الوسائل والادوات لهذه الحرب . ولقد درجت الاجهزة المختصة بالدعاية والاعلام في الماضي على الخلط بين ما هو اجتماعي وما هو سياسي نظرا لطغيان التوجه السياسي في مهماتها دون ادنى اكتراث لما يترتب على ذلك من اهمال واغفال لنتائج التفريق بين ما هو سياسي وما هو اجتماعي والضرورة الملحـة لاستخدام هذه النتائج والتقدم بها نحو تحقيق الصورة القصوى لحرب التحرير الشعبية لدى المجتمع العربي الفلسطيني .

فبعد الاول من يناير عام ١٩٦٥ الذي بدأت معه العمليات المسلحة معلنة تفجر الثورة الفلسطينية لتحرير فلسطين ، خضعت هذه العمليات لتحليلات سياسية عديدة على الصعيدين الداخلي والخارجي ، فكان الجانب السياسي هو محور تفسير معنى اطلاق الرصاصة في مسيرة الثورة التي ترتكز في الواقع على أكثر من جانب يتساوى كل واحد منها مع الآخر من حيث الاهمية والخطورة والتأثير على صيرورتها وغاياتها .

ويشكل الجانب الاجتماعي أحد الجوانب المذكورة في تفسير معنى العمليات المسلحة في الثورة وانعكاس مفعولها وآثارها الهامة على المستوى الاجتماعي سواء على الفرد أم الاسرة ، ام الطبقة ان وجدت ام المجتمع برمته . وبالرغم من هذه الاهمية للتفسير الاجتماعي ، فانه اغفل منذ البداية ولم يحظ بالاهتمام المطلوب ، الامـر الذي تفرضه ضرورة التوعية الاجتماعية لما يمكن أن ينشأ عن فعل الثورة في مجتمعها مـن تحولات اجتماعية واهتزازات وتغيير في طبيعة وظائف الأنساق الاجتماعية ، والادوار والعلاقات الاجتماعية وانماط السلوك الاجتماعي والتي هي بطبيعة الحال مرتبطة بقيم المجتمع واعرافه وتقاليده المتوارثة . وهذا بلا شك يرجع الى انعدام الوعي الاجتماعي العام ، وفي أفضل الحالات الى الوهن والضعف بهذا الوعي وما يترتب عليه من ضعف بامكانية التوعية الاجتماعية على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية وظاهراتها وانماط سلوكها التي

لا بد أن تولدها الثـورة الشعبية لدى المجتمع ومـا يمكن ان تحدثه مـن تغييرات اساسية فيه .

صحيح ان حرب التحرير الشعبية البعيدة المدى تتضمن المعنى الاجتماعي المقصود الا ان ذلك لا يعدو كونه عنوانا لموضوع خطير يتطلب الاهتمام والشرح والتفصيل على مستوى الافراد والجماعات ليدفع كل من موقعه عجلة الثورة الى الامام عند مواجهة احد الاختيارين : الاجتماعي الثوري الجديد ، والاجتماعي التقليدي القديم .

ان الهدف السياسي لهذا الشعار هو الوصول الى حالة كاملة مـن تحديد الادوار وممارستها للشعب والمجتمع العربي الفلسطيني ضمن اطار الثورة وحربها الشعبية في مواجهتها للعدو وفي سبيل تحرير فلسطين . أما المضمون الاجتماعي له ، فينطوي على المنهجية الخاصة بتحويل المجتمع العربي الفلسطيني عبر حالات متكيفة مع متطلبات مراحل التطور نحو حالة تحديد الادوار الكاملة وممارستها . وبالتالي فان الصيغ القائمة للعلاقات الاجتماعية والقيم الموروثة والمفاهيـم السائدة ووظائف الأنساق الاجتماعية كالاسرة والطبقات الاجتماعية والبناء الاجتماعي برمته تخضع لهذه المنهجية وتتأثر بها .

انه لما لا ريب فيه أن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي كان سائدا المجتمع العربي الفلسطيني عشية النكبة عام ١٩٤٨ ، كان يشكل المناخ الملائم لكي يحقق العدو الصهيوني والامبريالي أهدافه ، وكان قابلا عنوة عنه للغزو والتقهقر ، فكانت النتيجة التي نعرفها جميعا . فالعدو لم يستهدف الوطن فحسب ، ولكنه استهدف الوطن والمجتمع معا ، استولى على الوطن في الماضي وما زال يلاحق المجتمع في الحاضر . واذا كانت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع العربي الفلسطيني آنذاك عاملا من عوامل وقوع النكبة ، فان هذا يعني أن مجتمعا جديدا آخر بمفاهيمه وقيمه وعلاقاته وثقافته وشكل بنائه لا بد ان يوجد لينطوي على خصائص القدرة والقوة لدحر العدو واحباط مخططاته وتحرير الارض وتحقيق النصر . وهذا المجتمع الجديد لن يكون الا ثمرة لحرب التحرير الشعبية البعيدة المدى ، بل ان علاقة جدلية تشد الوثاق بين هذا المجتمع وتلك الحرب ، فهو الذي ولدها .. وهي التي تصيغه الصياغة الجديدة ، ليرتقيا بتفاعل مستمر الى قمة التكامل الذي يتمثل في تحرير الارض والانسان في وقت معا. ومن هنا جاء مفهوم حرب التحرير الشعبية البعيدة المدى لما تضمنه من معنى عميق لتحرير الانسان، انسان هذه الحرب، من كل عوائق الماضي سواء ما اتصل منها بالقيم المتخلفة عن طبيعة التطور ، أو التقاليد والمفاهيم والعلاقات الاجتماعيـة التي كونت بمجموعها مجتمعا فاقدا للقدرة على مواجهة عدو غاز ومستوطن عنصري بشع مدعم بامكانيات أعتى القوى الامبريالية في العالم ، وبصورة أخرى ، تغيير هذا الانسان على مختلف مستويات حياته الاجتماعية تغييرا جذريا بحيث يتلاءم في اوضاعه الجديدة مع متطلبات الغاية النهائية اي التحرير والعودة .

ان طبيعة العدوان الاستعماري الاستيطاني الاقتلاعي الذي تعرض له المجتمع العربي الفلسطيني كله قد جعل من قضية هذا المجتمع قضيـة ذات خصوصيـات سياسية واجتماعية واقتصادية تختلف عن طبيعة قضايا المجتمعات التي تعرضت لاشكال العدوان الاستعماري التقليدي . فبعد عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ أصبحت بالنسبة للمجتمع العربي الفلسطيني قضايا البنية التحتية وهي البنية المادية ، وفوقياتها الاجتماعية والسياسية والتشريعية والثقافية الخ .. لم تعد هي المحرك الاساسي في الصراع كما هو الحال بالنسبة للمجتمعات التي تمارس حياة عادية وتخوض الصراعات التي تنشأ عادة عن واقع البنية التحتية المادية وطبيعتهـا الاقتصادية ومـا يصاحبها من علاقات انتـاج

استغلالية . بمعنى ان تحطم البنية الاجتماعية(١) والتوزع الجغرافي الذي أصاب المجتمع العربي الفلسطيني اثر الحربين المذكورتين ، وانتفاء أي شكل من أشكال العلاقات الانتاجية على مستوى الطبقات فيه بعد أن أفقدت هاتان الحربان الغالبية العظمى من أبنائه أهم وسيلة من وسائل الانتاج وهي الارض بفعل الاستيطان وقوانين التهويد والسلب داخل الكيان الصهيوني ، وتحول المجتمع بالتالي من مجتمع زراعي الى مجتمع خدمات في غالبيته ، وتحول المواجهة بينه وبين العدو من مواجهة استعمار تقليدي على أرضه الى مواجهة عدو استيطاني عنصري بعيدا عن ارضه ، كل هذا أدى الى بروز الخصائص المميزة المذكورة . وبالتالي فان التغييرات الاجتماعية التي وقعت في هذا المجتمع والتي هي في طريقها الى الوقوع نتيجة للممارسة الثورية تتميز عن غيرها من التغييرات الاجتماعية التي تنشأ لدى الشعوب والمجتمعات التي تخوض حروب تحرير ، من حيث كون التغييرات في المجتمع العربي الفلسطيني بواقعه الراهن أكثر ايجابية واقل توليدا للمشاكل الاجتماعية وما يترتب عليها من سلبيات تحول دون تقدم الثورة ونموها. غير ان هذا لا يعني بطبيعة الحال ، انعدام المشاكل الناتجة عن فعل الثورة في المجتمع العربي الفلسطيني ، بل ان هنـاك مشاكل نشأت وتنشأ كردود فعـل للممارسات الاجتماعية الجديدة المتوافقة مع الواقع الثوري الجديد . وهنا يواجه المجتمع حالتين : الحالة الاولى : المشكلة من حيث هي واقع اجتماعي جديد . والحالة الثانية : انعدام التوعية الاجتماعية على هذا الواقع وكيفية مواجهته له وللمشاكل المترتبة عليه بحيث تخدم هذه الكيفية تكريسه والمحافظة عليه .

ان التراكم الناتج عن حلول المشاكل الاجتماعية يساهم مساهمة كبرى في الحد من ظهور مشاكل أخرى ، كما يقلل من اعتبار التطور الثوري الجديد لدى المجتمع معضلات ومشاكل . ومن ناحية أخرى فان التراكمات الناتجة عن فعل التوعية الاجتماعية تؤدي الى تجنيد العناصر الاجتماعية المتكيفة معها في مواجهة الجديد من المشاكل الاجتماعية في المستقبل .

واذا كان الامر كذلك فان اهمال المشاكل الاجتماعية وتركها للحلول الكيفية الذاتية ليس فقط يعد عاملا من عوامل تكريس هذه المشاكل وتعقيدها ، ولكنه يسهم اسهاما مباشرا في تراكمها بحيث تصبح بحد ذاتها مصدرا جديدا لتوليد مشاكل من نوع آخر لتقف في يوم ما عقبة اجتماعية في وجه التطور المطلوب نحـو مجتمع حرب التحريـر الشعبية ، أي الوصول الى تحويل المجتمع العربي الفلسطيني الى حالة تحديد الادوار الكاملة وممارستها على صعيد الفرد والجماعة والمجتمع العام .

فقد يسمع المرء ان الثورة تهدف الى تغيير الاسس التي يستند اليها النظام الاجتماعي وبناؤه ، ومن ثم تتغير الابعاد الاجتماعية بين الناس ، وما يترتب على ذلك من تغير في ادوارهم ومراكزهم في المجتمع ، والعمليات الاجتماعية ، والترتيب الطبقـي ، والقيم الاساسية التي توجه السلوك الاجتماعي . وبهذا تكون الثورة سياسية واجتماعية في آن واحد . وفي غالب الاحيان يعبر عن واقع الثورة بهذا الاسلوب في سياق الحديث عن تطلع الثورة نحو أهدافها البعيدة ، في حين يهمل كليا الجانب الآخر للثورة ، وهو الظاهرات الاجتماعية الجديدة التي تنشأ عن فعل الثورة وممارساتها اليوميـة داخل مجتمعهـا الخاص ، سواء كان على مستوى الطبقة الاجتماعية التي تناضل الثورة مـن أجل مصالحها او مجموعة الطبقات التي تشكل تحالفا طبقيا في حالة ما ، او المجتمع العام

---

١ ــ للاستزادة في هذا المجال راجع : شحادة يوسف ، **الواقع الفلسطيني والحركة النقابية** ، مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ .

في حالة كون الثورة على درجة من الشمول الوطني . تلك الظاهرات التي تحمل ملامح المجتمع المقبل والجديد وصوره المصغرة كنماذج كيفية ورائدة وما يحدثه هذا التشكل الجديد في محيطه الاجتماعي الخارجي عن طريق الاحتكاك والتنافر والتفاعل من ردود فعل وصراعات اجتماعية ونفسية بين الماضي الاجتماعي والحاضر الاجتماعي ، بين القائم المحافظ والجديد المتطور تؤثر في مجملها على وتيرة النظام الاجتماعي السائد وتعمل على تغييره .

واذا كانت هذه العملية من شأنها أن تغير النظام الاجتماعي في النهاية فان عملية التوعية الاجتماعية المرافقة لهذه العملية من شأنها أن تختزل المدة الزمنية نحو هذا الهدف ، وهذه مهمة أساسية من مهمات الثورة التي لا تقل خطورة عن أية عملية أخرى تضطلع بها الثورة نفسها .

ومما لا شك فيه أن أي تغيير يقع في المجتمع يعتبر تغييرا اجتماعيا وثقافيا من حيث هو تغيير في المفاهيم والقيم وأنماط السلوك باعتبار ان هذه كلها تشكل جزءا من الجانب اللامادي من التراث الثقافي .

اذن العملية التغييرية الاجتماعية هي عملية تراثية ثقافية ايضا اذا جاز لنا الزعم بأن العنصر الاجتماعي الجديد هو عنصر ثقافي نضالي كمثل العنصر التراثي الثقافي الذي يغزو المجتمع عن طريق الاحتكاك او الانتشار او الاختراع والابداع ، من هنا تكتسب الثورة صفتها الثقافية التي لا بد أن ترافقها مجهودات التوعية الاجتماعية على طبيعة التغييرات التي وقعت وضرورة ربطها مع الغاية النهائية للثورة من اجل تغيير الذهنية على المدى الطويل بما يتوافق مع هذه الغاية ، وهذه هي المرحلة الاساسية التي تشكل نقلة المجتمع النوعية نحو طور أرقى في اطار حرب التحرير الشعبية البعيدة المدى .

الطبيعة الميكانيكية للظاهرات الاجتماعية الجديدة

تأخذ الظاهرات الاجتماعية الجديدة او العناصر التراثية الثقافية طريقها الى المجتمع عن طريق الاحتكاك التراثي او الانتشار او الاختراع والابداع . والاحتكاك والانتشار يكونان محور الحديث عندما يدخل العنصر الاجتماعي الثقافي الجديد المجتمع المستهدف قادما من مجتمع آخر . اما الاختراع والابداع فهو ما يبدعه المجتمع نفسه من عناصر جديدة تنشأ عنها ظاهرات اجتماعية غير مألوفة لدى المجتمع بالقياس الى قيمه وعاداته وتقاليده ونظمه وتشريعاته القائمة . وهذا هو محور حديثنا الآن باعتبار ان الثورة هي من ابداع المجتمع نفسه وما يترتب عليها من ظاهرات اجتماعية جديدة تعتبر بالتالي ضمن اطار الابداع والاختراع الذي يقوم به المجتمع ذاته .

مرحلة الاحتكاك : تبدأ الظاهرة الاجتماعية الجديدة المتولدة عن ممارسة الثورة بالاحتكاك مع الظاهرات الاجتماعية التقليدية المعروفة ، وفي غالب الاحيان يتعاظم هذا الاحتكاك بحيث يصل الى مستوى النفور والصدام ، ليس مع الظاهرات الاجتماعية التي هي في نفس المستوى ، بل مع النظم والقوانين والاعراف السائدة ، ويختلف الامر هنا عن نفس الحالة التي يتعرض لها مجتمع يمارس حياته العادية عندما يواجه غزو الظاهرات الاجتماعية او العناصر التراثية الثقافية بحيث يحمل الصراع الناتج عن هذا الغزو امكانية كبيرة لرفض هذه العناصر او قبولها قبولا جزئيا . وذلك لان التركيب الاجتماعي والطبقي الذي يتسم به المجتمع العادي يمنح القوى المحافظة والطبقات العليا صاحبة المصالح المرتبطة بالواقع الراهن والفئات المؤلينة التي تشيأت الواقع وتخشى

تغييره ، يمنحها الفرصة للدفاع عن وجودها وبقائها امام اي تطور او تقدم يحمل في مضمونه تعريض هذا الوجود والبقاء للخطر او الاهتزاز او التغيير .

في حين تلقي الثورة في الحالة الاخرى على ثقلها الى جانب العناصر الجديدة وتدعمها وتعممها لما تنطوي عليه من صورة المستقبل التي تفجرت الثورة من اجل تحقيقه .

ولئن كان هناك من رفض في مجتمع الثورة لاي من العناصر الثقافيــة الجديدة او الظاهرات الاجتماعية الناشئة عن طبيعة المرحلة الثورية الراهنة ، فان ذلك يعود الى الصعوبة في تقبل الجديد والتأقلم معه ، والتقصير الواضح فيما يجب ان تقدمه الاجهزة المختصة في مجال المحافظة على ظواهر التطور الجديدة واستمرارها وانتشارها ، وذلك بعيدا عن الاسباب التي ترفض الجديد من خلالها الطبقات الاجتماعية صاحبة المصالح المرتبطة فيما هو قائم ، والفئات المؤلينة(٢) في المجتمعات التي تمارس حياتها العادية . اذ انه ليس في المجتمع العربي الفلسطيني في اوضاعه الراهنة طبقات اجتماعية بالمفهوم العلمي لهذا الاصطلاح تربط مصالحها الاقتصادية بمجمل الاوضاع التي يعيشها الشعب والمجتمع العربي الفلسطيني وتقوم على اساس الاستغلال الاقتصادي لطبقات اجتماعية اخرى(٣)، وبالتالي فان مصلحة مشتركة يجتمع حولها المجتمع كله الآن تتمثل في تحرير فلسطين وعودة ابنائها لها .

مرحلة التفاعل : تبدأ مرحلة التفاعل مع نهاية مرحلة الاحتكاك وهي المرحلة التي تثبت الظاهرات الجديدة وجودها بالفعل ، وذلك في البحث لها عن مكان بين الظاهرات القديمة والتعايش معها بطريقة تحفظ لها البقاء والتأثير . والتفاعل هنـا هو تفاعل اجتماعي ، والتفاعل الاجتماعي هو الذي يؤدي الى انماط سلوك عامة ومشتركة بين الجميع بحيث ينتج عنه في النهاية تكوين الاتجاهات العامة .

مرحلة القبول : وهي المرحلة التي تتشكل فيها الاتجاهات حول الظاهرات الجديدة في المجتمع ، وهذه الاتجاهات تنطوي عادة على تغييرات توافقية تتم كيفيا لتتكامل وتتحد مع الظاهرات الجديدة . ومما لا شك فيه ان هذه المرحلة قد تضم فيما تضم تيارات الرفض الضعيفة التي ما تنفك تتلاشى من حيث تأثيرها امام تيارات واتجاهات القبول الجارفة .

مرحلة التكامل : هذه المرحلة هي المرحلة النهائية ، وهي التي تنتقل فيها الظاهرات الجديدة من طور المتغيرات الى طور العموميات ، ويتم هذا بتغيير القوانين والتشريعات والانظمة بما يتفق مع طبيعة هذه الظاهرات الجـديدة ، وبذلك تتمتع المتغيرات بقوة القانون والنظام العام .

الهوة الثورية او التخلف الثوري : اذا كان المجتمع العادي الذي يصيبه التغيير نتيجة تعرضه لعناصر ثقافية او تكنولوجية جديدة يعاني من تفاوت في درجة القبول حيال هذه

---

٢ ــ المؤلينة : من الينة . وهي مصطلح عرب بمعنـى الاستغراب تارة والاستلاب تارة اخرى . والفئات المؤلينة لمصطلح في علم الاجتماع تعني الفئات تحت البنية التحتية الاجتماعية ، وهي الفئات المسحوقة التي تشيأت واقعها واصبحت جزءا منه ولهذا تخشى التغيير وتحافظ علـى الواقع رغم ان مصالحها مرتبطـة بالتغيير ذاته .

٣ ــ لا يعني ذلك ان فئات متناثرة ومتمايزة اقتصاديا في المجتمع العربي الفلسطيني غير موجودة وغير قائمة . واعتمادنا على تحديد معنى الطبقات الاجتماعية مأخوذ من الماركسية التي عرفت الطبقة الاجتماعية على ضوء واقع الانتاج العام والعلاقات الانتاجية المنبثقة عنه وهي علاقات استغلالية تقوم بها طبقة معينة على حساب الطبقات الادنى في المجتمع (وهذا ما هو غير موجود بالنسبة للمجتمع العربي الفلسطيني في ظل اوضاعه الراهنة) .

العناصر ، بحيث تتخلف عن قبولها مجموعات من اعضائه او طبقة من طبقاته او فئة من فئاته ، ويطلق على المرحلة الواقعة ما بين دخول العناصر الجديدة الى المجتمع ومرحلة التكامل النهائية اسم الهوة الثقافية او التخلف الثقافي، فان بامكاننا أن نطلق على المرحلة المشابهة في مجتمع الثورة اسم الهوة الثورية او التخلف الثوري .

فالاب الذي يقف مشدوها امام تحول ولاء ابنه الى الثورة بعد أن عجز ذلك الابن عن اقناعه بضرورة انتمائه والتزامه ، وما يتبع ذلك من تصادم مع رغبة وارادة ومفاهيم الاب ، والزوج الذي فوجيء بزوجته عضو في صفوف الثورة وما يفرضه هذا الوضع من التزامات ومهمات وجهود على حساب العلاقة الزوجية التقليدية التي اهتزت بسبب الاوضاع المتغيرة فرفض الزوج ما جاءت به الزوجة وآل أمرهما الى الطلاق ، الى آخر هذه المشاكل التي ترافق انعكاسات الثورة وفعلها في المحيط الذاتي بين مرحلة الانطلاق في العمليات المسلحة وحتى مرحلة التكامل ، وهي ما أسلفناه بالوصول الى أعلى مراحل التطور نحو تحديد الادوار الكاملة للشعب والمجتمع العربي الفلسطيني في اطار حرب التحرير الشعبية تعتبر هوة ثورية وتخلفا ثوريا يحتم على الثورة وأجهزتها المختصة مضاعفة الجهود في هذا المجال البالغ الاهمية لتقليص مرحلة الهوة الثورية هذه بالتوعية والتخطيط الاجتماعي للتعريف بطبيعة الثورة ومستلزماتها والزاماتها ازاء كل فرد من ابناء المجتمع العربي الفلسطيني ، أبا كان أم ابنا ، زوجة كانت أم زوجا ، بهدف صياغة عقلية ثورية جديدة تشمل كل أبناء المجتمع . ولا شك أن هذا التغيير سوف ينطوي على تغيير في المفاهيم والقيم التي سادت المجتمع نفسه عشية النكبة ، بل انه التربة الخصبة لنقيضها الذي سوف تنبت في احضانه خصائص المجتمع القادر على الاستمرار في الثورة وتحقيق النصر .

ملامح من التجربة النضالية الفلسطينية

حرب العصابات في مدن ومخيمات قطاع غزة

علي زين العابدين الحسيني

لمحة ديمغرافية عن القطاع :

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، برز قطاع غزة كمنطقة من أكثر المناطق توهجا واشتعالا بالنضال . وجذبت غزة — بحربها الخاصة — اهتماما عالميا طغى في احيان كثيرة على الاهتمام بمناطق اخرى يحتدم فيها أيضا النضال . فلماذا انفرد قطاع غزة ، قطاع الموت والجحيم — عن سائر المناطق الاخرى بوضع نضالي متميز ؟

للاجابة على هذا ، لا بد من الالمام بالمعطيات الديمغرافية الاساسية للقطاع ، وعلينا أن نعود سنوات الى الوراء حيث عام النزوح الاول (١٩٤٨) حين تدافعت جموع النازحين — قهرا — جنوبا لتتوقف ، تلك الوقفة التي استمرت اكثر من عشرين عاما .

لقد اعاد هؤلاء القرويون (الجنوبيون) تشكيل المجتمع الغزي الجديد ، فمنذ بداية وصولهم كان واضحا انهم يرفضون ان يعمقوا جذورهم في القطاع « لان هذا الرحيل رحيل مؤقت » . وكانت عبارة « بكره بنروح » هي الاغنية التي يغمعونها بحزن وشوق لا يوصفان ويرددونها في مجالسهم ويحلمون بها . وكانوا يرفضون شراء الارض ، يرفضون تشييد منازل حجرية ، حتى لا يعني هذا انهم قد تخلوا — ولو لفترة — عن التصاقهم الابدي بقراهم وبيوتهم التي ارغموا على النزوح منها .

لقد سادت روح المخيم القطاع الذي أصبح يضم ثمانية مخيمات ضخمة للاجئين هي مخيمات : جباليا ، الشاطىء ، المغازي ، النصيرات ، البريج ، دير البلح ، خان يونس ، رفح . يقطنها ١٧٢ الفا فضلا عن ٨٧(١) الفا يقيمون في مدن وبلدان القطاع . اي أن الغالبية العظمى لسكان القطاع البالغ عددهم ٣٦٠ الفا هم من اللاجئين (٢٧٥ الف نسمة) المطحونين تحت تروس البؤس ، والشقاء ، والبعد عن الوطن . والى جانبهم يعيش ابناء القطاع المواطنون ، وهم أيضا اما صغار ملاك او فلاحون يملكون أرضا في المناطق التي احتلت ، او صيادو سمك ، او من صغار الشغيلة ، او صغار الحرفيين في صناعات الفخار ، والنسيج ، والصابون ، وقطف وتغليف البرتقال . كلهم يقيمون على رقعة من الارض لا تتجاوز مساحتها الـ ٣٦٠ كيلومترا مربعا اي بمعدل ١٠٠٠ نسمة (تقريبا) للكيلومتر المربع الواحد . من هؤلاء تشكلت عجينة البارود التي راحت تنضج ببطء على نار سنوات النزوح والمعاناة والصراع من أجل البقاء .. وما أن جاء المحتلون الاسرائيليون في حزيران عام ١٩٦٧ حتى كانت عجينة البارود قد نضجت تماما . وتذكر صحيفة **دافار** الاسرائيلية :

« ان اللاجئين هم خميرة الشعب العربي في القطاع . ولقد شكل هذا الشعب (اللاجئون والمواطنون معا) خلال سنوات الارهاب القريبة (المقاومة بعد الاحتلال)

عدوا واحدا .. كانوا جميعا متطرفين في عدائهم لنا . . ولكن كان هناك من هو أقل تطرفا ، ومن هو اكثر تطرفا »(٢).

هذه لمحة سريعة عن القطاع ، كان من الضروري ان نتعرض اليها ، قبل ان نجمل الاسباب التي جعلت للقطاع وضعا نضاليا متميزا . وتتمثل هذه الاسباب فيما يلي :

السبب الاول : البنية الاجتماعية للقطاع ، حيث ان معظم سكانه ، اما من اللاجئين (اكثر من الثلثين) واما من مواطنين تتشابه ظروفهم الاجتماعية مع ظروف أبناء المخيمات ، أي أن غالبية سكان القطاع هم من المسحوقين التي ليس لها ما تخسره سوى الذل او هذه « الخيمة » . ويصف ايف كيو حالة سكان القطاع بقوله : « لقد كانوا يعملون في السنوات الماضية من أجل ان يصبحوا واعين لشخصيتهم ، فمشاكلهم ليست من النوع الذي يمكن أن يحل بمرور الزمن . لقد كان في مقدورهم وهم في مخيماتهم التعسة ان يطلوا على بيوتهم وحقولهم التي طردوا منها »(٣). وتصف **معاريف** جيل غزة الجديد بقولها :

« لقد نشأ في غزة جيل يمثل الدافع القومي لديه عامل حياة حيوي »(٤). **أما دافار** فهي تقول عنهم :

« انهم بآمالهم الشخصية وبأسهم القديم (!!!) ، واحلامهم الجماعية ، قد عبئوا بأمل مستمر « ليوم العودة » . ولقد مكنوا الجيل الجديد من بلوغ العلوم الاكاديمية في الدول العربية . وساهموا بين الحين والحين في الاعمال العسكرية ضد «الصهيونيين». وكانت نشاطاتهم هذه بمثابة مكبس الضغط الذي نشأ في المخيمات ، فلم يكن لدى هؤلاء اللاجئين ما يخسرونه »(٥).

السبب الثاني : ان اللاجئين لم يندمجوا طيلة السنوات الماضية في الحياة الاقتصادية للقطاع . وقد شكل المخيم وحدة اقتصادية واجتماعية مستقلة عن المدينة ، كذلك فهم لم يحصلوا على اية امتيازات ، مما الصقهم بقوة بالارض وبالمخيم ، فضلا عن أن الكرامة الريفية كانت تأبى عليهم الرحيل عن المخيم (وطن الغربة) ، لانهم كانوا واثقين من أنهم سينطلقون من المخيم الى طريق العودة . لقد ظلوا طيلة سنوات النزوح ، منتمين فلسطينيا ، بكل ما حمله ، ويحمله هذا الانتماء من مصاعب ، وهموم ، تحملوها في جلد وصبر ترقبا « ليوم المرواح للبلاد » .

السبب الثالث : يفتقر القطاع الى القيادات والزعامات ، فخلال سنوات النزوح فقدت الزعامات التقليدية (الدينية ، السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية) تأثيرها على الجماهير . كذلك فانه بعد حرب حزيران لم يعد قطاع غزة .. « محكوما » من قبل الادارة المصرية . ولذا فان بروز شخصية « الفدائي البطل » ، « ابن الجماهير » ، « والمقاتل من أجل حرية الوطن » جعل الجماهير تتقبل في ارتياح الزعامة الجديدة باعتبارها (زعامة الفدائيين) تمثل السلطة الفلسطينية الشرعية الوحيدة التي عرفها القطاع .

السبب الرابع : اقر قانون قبل حرب حزيران بالتجنيد الاجباري .. (وهو احد مطالب مظاهرات ٢٨ شباط ١٩٥٥) . وقد اتاح هذا القرار لجيش التحرير الفلسطيني فتح معسكرات تدريب للمواطنين من أبناء القطاع . وقبل الحرب مباشرة تسلم عدد من المواطنين المدربين قطعا مختلفة من الاسلحة . كما قام عدد من أهالي القطاع بالبحث عن الاسلحة المتروكة على ارض المعارك حيث قاموا بتخزينها في مستودعات مموهة .

السبب الخامس : التربية القومية التي نشأ عليها ابناء القطاع ، وارتباط القطاع منذ عام ١٩٥٤ بزعامة عبد الناصر واثر هذه الزعامة عليهم . وتذكر صحيفة **معاريف** :

« ان سكان قطاع غزة هم العرب القوميون اكثر من غيرهم ، فقد نشأ جيل في المنطقة بمثل الدافع القومي لديه عامل حياة حيوي . فاسم فلسطين يظهر في كل بيت من بيوت القطاع تقريبا .. وحتى زجاجات الكوكا كولا التي تصنع في غزة لم تكن تخلو من اسم فلسطين »(٦) وهذا ما أدى الى « ان يصبح المخيم ليس مجرد مساحة من الارض تضم مجموعة من اللاجئين التعساء وانما مصنعا لتفريخ الجماعات التخريبية »(٧).

السبب السادس : التجارب النضالية التي خاضها ابناء القطاع عبر اطر الاحزاب السياسية السرية . فلقد صقلت هذه الممارسات الانسان الفلسطيني ، وبلورت روح النضال لديه ، ووضعته على عتبات الثورة .

واذا كنا لا نستطيع ان نقصر أسباب انفراد القطاع بوضعه النضالي المتميز على الاسباب السابقة فقط ، الا اننا نجد ان هذه الاسباب قد شكلت الظروف الموضوعية التي أدت الى دفع القطاع من كونه « قطاع لمخيمات اللاجئين » ، الى « قطاع الموت للاسرائيليين المحتلين » .

ولقد عكف الخبراء الاسرائيليون على دراسة اوضاع القطاع في محاولة لوضع أيديهم على الاسباب الرئيسية « لنشاط حركة التخريب واتساعها » ولوضع الخطط الكفيلة — على ضوء تلك الدراسات — بمعالجة هذا الوضع والقضاء عليه ، وخلص هؤلاء الخبراء الى ان المشكلة الاساسية تتمثل في مشكلة اللاجئين وكثافتهم السكانية الكبيرة في المخيمات . ويقول داني تسدقوني في مقال (بداية الحل لمشكلة اللاجئين) :

« ان عدم العناية بمشكلة اللاجئين ، وعدم البدء في توطينهم ، ثم عدم ايجاد الامل بالمستقبل لديهم ، كل هذه خلقت مناخا مناسبا لنمو تنظيم عدائي ارهابي وسلبي على حد سواء . ولو اننا عالجنا — بشكل جدي — مشكلة اللاجئين عقب الاحتلال مباشرة، لما ولد « الارهاب » العربي في قطاع غزة . **ولما كان قد وصل الى هذه الدرجة المخيفة التي وصل اليها . لقد أصبح قطاع غزة احدى الجبهات العسكرية الاكثر مضايقة لنا من اية جبهة عربية اخرى** »(٨).

فكيف توصل القطاع الى أن يصل « بارهابه » الى هذه « الدرجة المخيفة » ؟ وكيف اصبح الجبهة العسكرية الاكثر مضايقة لاسرائيل من اية جبهة عربية ؟ والاجابة على هذا ، تكمن في طبيعة الحرب الخاصة التي توصلت اليها الحركة الثورية المسلحة في القطاع .

المفهوم الفلسطيني لحرب عصابات المدن والمخيمات :

« ليست هناك دراسة محددة حول حرب العصابات في المدن ، وبالتالي ليست هناك نظرية عامة يمكن ان تطبق في اي زمان وأي مكان .. فما يمكن ان يطبق في مكان قد يطبق او لا يطبق في مكان اخر »(٩). هذه هي الحقيقة التي واجهت الحركة الثورية المسلحة في قطاع غزة : ان عليهم — اذن — أن يخلقوا او يشكلوا حربهم الخاصة ضد العدو المحتل، وان يصوغوا — عبر ممارساتهم النضالية — نظريتهم وتكتيكاتهم القتالية.

لقد أطلق الخبراء على حرب العصابات في المدن تعبير « حرب الانهاك والاستنزاف »(١٠). ولقد نظر الثوار الفلسطينيون الى هذه المقولة نظرة شمولية . واعتبروا أن حربهم ضد العدو ، هي حرب تهدف الى تصفية الكيان الاحتلالي عبر الكفاح المسلح والعنف الثوري ، وهي حرب متصلة الانفاس مع الحرب التي يشنها الثوار في المنظومة الثورية ، سواء كانوا يقاتلون في العراء ، او في الجبال ، او في العمق الاستراتيجي للعدو ، او خلف خطوطه الامامية ، او داخل المدن .

ولقد حققت الحركة الثورية المسلحة في قطاع غزة اهدافها عبر السبل التالية :

اولا ــ تحويل الحركة الطليعية الى حركة جماهيرية .. وتوليد جيل من المقاتلين الثوار :

كانت العمليات العسكرية الاولى التي نفذها ثوار القطاع ، بمثابة **« الاعلام المسلح »** عن وجود الحركة المسلحة واهدافها ، او بتعبير أدق عن قدرة الثورة الفلسطينية المسلحة على التمدد لتصل حتى المناطق المعزولة . ولم يكن قرار البدء بالعمليات العسكرية قرارا سهلا ، فقد تطلب مثل هذا القرار دراسات ، واستعدادات وجمع معلومات ، وتوفير شبكات اتصال ، ومخابىء ، ومصادر تمويل ، الى اخر ذلك .. وكانت احدى المشكلات الاساسية التي واجهتها قيادة « حرب العصابات » في القطاع ، ان هناك من ممثلي الاحزاب السياسية ومن الوطنيين المستقلين من يعارض تنفيذ عمليات عسكرية ضد القوات والاهداف الاسرائيلية داخل نطاق الاماكن المأهولة بالسكان العرب وذلك « خشية ان يمتد بطش السلطة الاحتلالية الى السكان الابرياء (!!!) » .

وقد رفض القادة المقاتلون هذا التحفظ بشدة ، على اساس **ان العمل بعيدا عن المناطق المأهولة بالسكان انما سيعزل الحركة المسلحة عن جماهيرها ، وبالتالي سيبعد الجماهير عن حلبة الصراع ــ وهو صراع مصيري ــ وعلى أساس أن الانتقام الارهابي من قبل السلطة ضد الجماهير سيدفع بها الى بؤرة النضال لتتحمل بدورها اعباءه ومسؤولياته ، ولترفد الحركة الثورية بالمقاتلين ، ولتتحول الحركة الطليعية الى حركة جماهيرية** . وتؤكد صحف العدو صحة موقف المقاتلين وسلامة قرارهم عندما تقول : « ان حركة التخريب اكتسبت قدرتها العسكرية بفضل كونها أصبحت حركة شعبية »(١١) « أخذ المخربون يزيدون من قوتهم من شهر لشهر ، وكلما نجحنا في وضع أيدينا على الكثيرين منهم ، كان السكان المحليون يدركون ما يحدث فيزودون صفوف المخربين برجال اكثر »(١٢). « ان تعاون السكان مع المخربين لا يتم قهرا وانما طواعية »(١٣). « لدى سلطات الامن اثباتات واضحة جدا عن تعاون فعلي من جانب السكان مع المخربين .. وهنا تكمن الصعوبة الاساسية لكبح عمليات الفدائيين. وعلى الرغم من عمليات القتل المتعددة تعتقد عناصر الامن أنه لا ينتظر حدوث مواجهة (!!!) بين السكان والمخربين »(١٤).

ولقد عبر الكثيرون من أبناء القطاع عن ذلك بقولهم : « كنا نترقب سماع صوت الانفجارات كل ليلة ، وحين كنا نسمع صوت انفجار قريب نصعد الى اسطحة بيوتنا لنشاهد ما يمكن مشاهدته ... وكنا نشعر بالحزن والقلق الشديدين اذا ما خلت ليلة من الانفجارات »(١٥). ثم جاءت **دافار** لتؤكد ذلك بقولها : « وفي الازقة في مخيمات اللاجئين ترى بقعا مغطاة على الطريق ، وهو دليل على اشعال المشاعل كتعبير عن حداد الاهالي على موت مخربين مشهورين ، وترى قبور المخربين مزينة ، فهم أبطال الجماهير في نظر الاهالي » (دافار ٧٢/١٢/٢٨) .

وهكذا ، استطاعت الطليعة الثورية عبر ممارساتها النضالية الشجاعة ــ شبه اليومية ــ وعبر بطولاتها التي أصبحت متداولة جماهيريا ، ان تتحول الى حركة جماهيرية مولدة جيلا من المقاتلين الذين اندفعوا لتزويد الحركة بالثوار مما ادى الى ان **يجد الجيش الاسرائيلي نفسه لا يحارب مجموعات متناثرة من الفدائيين وانما « عليه أن يحارب شعبنا »**(١٦). ولم يعد من الممكن كبح جماح العمل الفدائي « لقد سقط هذا

الشعار عبر نضال الثوار الملتحم بالجماهير التي أصبحت **مؤمنة بأن الحرب مع اسرائيل لن تنتهي الا بعد تحرير فلسطين** »(١٧).

ثانيا ــ اضعاف العدو ، وارباكه واستنزاف قواه البشرية والمادية ودحر معنوياته وعدم اتاحة الفرصة له للاستقرار والتجذر في المناطق المحتلة ، وارغامه على مسمرة جانب من قواته في المدن لتخفيف العبء على المناطق الاخرى التي يقاتل فيها الثوار . ان القاء نظرة على عدد ونوعية العمليات العسكرية التي نفذها الثوار في القطاع ، سواء كانت العمليات التي اعترف بها الناطق العسكري الاسرائيلي او التي اذيعت على لسان الناطق العسكري الفلسطيني ، يتيح لنا الالمام بمدى فعالية العمل العسكري وتأثيره على مجمل الوضع الاحتلالي من حيث ضعف سلطته ومن حيث عدم تمكنه من تنفيذ مخططاته الاستيطانية والتعايشية والتهويدية . وتقول نوفيل اوبسرفاتور : « هذه هي غزة بعد أكثر من ثلاث سنوات من الاحتلال الاسرائيلي ، انها تشبه أكثر من أي وقت مضى « دولة » احتلت حديثا ، تحاول فيها القوات البحث عن الارهابيين المختبئين في المنازل ، كما تحاول القضاء على اخر معاقل المقاومة »(١٨).

« ما العمل في غزة ؟ » وكيف يتم استئصال هذا السرطان من جسم الدولة ؟ وكيف نوقف تدفق الجحيم على اسرائيل من القطاع ؟ كان الشعار الذي رفعته السلطة العسكرية الاحتلالية في بداية الاحتلال ، يحمل الكثير من التفاؤل والثقة بالنفس : « ينبغي كبحهم في القطاع »(١٩). لكن المتفائلين صدموا بقسوة عندما وجدوا ان القمع العسكري ، وقانون الجوار (قانون دايان) وقوانين نفي اسر الفدائيين والمتعاونين معهم الى معسكر ابو زنيمه في صحراء سيناء ، وابعاد المواطنين بالجملة الى الضفة الغربية .. وعمليات النسف المتواصل لمنازل المواطنين والتي وصلت الى رقم قياسي (حوالي الفي منزل) .. ان كل هذه لم تكبح جماحهم .. بل أنهم جمحوا اكثر ، واتسع نطاق عملياتهم لتشمل كل مناطق القطاع ، بل أن الامر تعدى ذلك الى ما هو أبعد من القطاع حيث أصبحوا يتسللون الى مناطق المستعمرات الاسرائيلية القريبة من غزة مما دفع بالسلطات الاسرائيلية الى الاعلان عن بناء حاجز امن حول المستعمرات تحسبا من تسلل ثوار القطاع الى هذه المستعمرات(٢٠). وفي ٧١/٤/٢١ صرح المشرف على امن المستوطنات المحيطة بالقطاع : « ان وضع الامن في المستوطنات المجاورة لقطاع غزة خطير اليوم ، اكثر مما كان عليه قبل حزيران . فمنذ حرب حزيران حتى شهر شباط ١٩٧١ زرع في المستوطنات حوالي ١٥٠ لغما انفجر معظمها وتسبب في وفاة اربعة عشر شخصا (!!!) كما وقع ٥٠ حادث اتلاف ممتلكات في هذه المستوطنات »(٢١).

وللمرة الاولى منذ اقامة الكيان الصهيوني ، يشاهد المستوطنون الاسرائيليون لافتات لم تكن موجودة قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، اي قبل احتلالهم لقطاع غزة ، تحذر من السير في الطرق الترابية لاحتمال وجود الغام فيها . وتقول احدى هذه اللافتات مثلا : « انك تدخل الى منطقة يشك ان طريقها الترابية ملغومة .. يجب عدم النزول عن الشارع الرئيسي »(٢٢). واصبح المطلب الدائم للمستوطنين الاسرائيليين في اي لقاء لهم مع احد المسؤولين المزيد من المخابيء بسبب كثرة اعمال « المخربين » ومطلوب حزام امن حول منطقتنا لحمايتنا منهم(٢٣).

وفي ٧١/٧/٢٧ اجتمع الكنيست لمناقشة الحالة الخطيرة التي تعيشها المستوطنات القريبة من غزة .. ازاء هذا الوضع اتضح عجز القيادة الاسرائيلية عن وقف تدفق النشاط الفدائي ، فقد سبق لدايان أن اصدر قرارا في ٦٩/٧/٧ باخراج الدوريات الاسرائيلية ومراكز الشرطة من المخيمات حفاظا على أرواح الجنود الاسرائيليين(!!) . وفي ٦٩/٨/٥ اغلقت السلطات الاسرائيلية الطريق العام (غزة ــ رفح) في وجه

الاسرائيليين من أجل حمايتهم من الهجمات المتزايدة للفدائيين في المنطقة(٢٤) . **وبرر القادة الاسرائيليون ذلك بشعار جديد : « ليقتل العرب بعضهم البعض !! »** . اشارة الى عمليات الاعدام التي ينفذها الثوار في حق العملاء والمتعاونين مع العدو .

وكان في تصور السلطة الاحتلالية ان ترك الجماهير تحت « رحمة الفدائيين » « وفوضى العنف » سيؤدي في النهاية الى تفكيك التكتل الجماهيري المتلاحم بالثوار . لكن ما حدث هو العكس تماما ، حيث توسعت الحركة الثورية لتكتسب المزيد من القوة لكنها لم توجه قوتها الى الجماهير ، — كما توقع الاسرائيليون — **وانما هم خرجوا من المخيمات ليهاجموا الطرق الرئيسية ومركز مدينة غزة وليتوسعوا في قتل الاسرائيليين .** وهكذا ، وفي الوقت الذي هدأ القتال في الجبهات العربية ، كانت غزة هي الجبهة التي تحتدم بالقتال . « وفي الوقت الذي انتكس فيه العرب على جبهات القتال ، **اجتذبت غزة قوات كبيرة من جيش الدفاع ومجد اسم مخيم جباليا في قطاع غزة وفي العالم العربي كمخيم للحرية** »(٢٥) .

وارتفعت اصوات اسرائيلية تندد بالسياسة العسكرية والمدنية في قطاع غزة وتهاجم دايان مباشرة لعجز الذراع العسكرية عن القضاء على النشاط الفدائي في القطاع . وبدأ الكثير من الاسرائيليين يتخلون عن تفاؤلهم بالنسبة للقطاع .. فقد اتضح لهم بعد خمس سنوات من الاحتلال « انه ليس هناك احتمال لحل في قطاع غزة »(٢٦) . واتضح ايضا من نتائج الاستفتاءات التي تجريها المؤسسات الاحصائية الاسرائيلية « ان اكثر من ٥٠ بالمئة من المستفتين لا يمانعون في التخلي عن القطاع في حين أن ٩٥٪ يرفضون الانسحاب او التخلي عن القدس واكثر من ٨٠ ٪ يرفضون التخلي عن المرتفعات السورية » . (اوبزيرفر البريطانية ١٩٧١/٨/١) .

وعقب احداث ايلول ١٩٧٠ ، ووقف اطلاق النار على الجبهة المصرية تسنى للجيش الاسرائيلي ان ينفرد بالقطاع للمرة الاولى منذ العام ١٩٦٧ ،وحشدت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية امكانيات ضخمة ، للسيطرة على القطاع ، وجلبت جنود حرس الحدود وقوات خاصة للقيام بعمليات قمع واسعة ضد الجماهير والثوار . لقد وفر لهم النظام الملكي في الاردن فرصة نادرة اشار اليها زئيف تشيف بقوله : « ان محاربة الملك حسين للمخربين ساعدت على حدوث تغير في مخيمات القطاع »(٢٧) .

ثم فتحت مجازر ايلول وضرب الجيش الاردني لمخيمات اللاجئين في الاردن ، مجالا رحبا امام الاسرائيليين للتصرف بحرية أكبر ودون خشية ردود فعل الرأي العام العالمي، لدرجة دفعت د. أوري لان يكتب « لماذا لا نقصف نحن ايضا مخيمي الشاطىء وجباليا بقنابل الشظايا التي تحملها طائرات سكاي هوك .. مثلما فعل الاردنيون بالمخيمات الموجودة لديهم ؟ ولكن حكومتنا لن تفعل مثلهم فبدلا من محو مخيم الشاطىء (كم٢) من على وجه الارض قرر الجيش وجوب احتلال المخيمات من الداخل »(٢٨) .

وهكذا اصبحت الظروف مواتية للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية للعمل بحرية وحشد قوات أكبر في القطاع . وتمركزت جهود الخبراء والجنرالات من أجل « حل مشكلة الامن في القطاع » . وقرر الجيش الاسرائيلي انه ينبغي احتلال المخيمات من الداخل (!!) والسيطرة عليها لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا.ويدل هذا القرار على **انه بعد خمس سنوات ونصف السنة من دخول القوات الاسرائيلية قطاع غزة ، فان هناك اعترافا صريحا بأن احتلال القطاع لم يتم حقيقة** ، وان على جيش الدفاع ان يتولى تنفيذ مهمة احتلال المخيمات ليفرض عليها سيطرته ، الامر الذي يعكس مدى حجم الحركة الثورية المسلحة في القطاع والنتائج التي حققتها على صعيد قتالها الشجاع وعنفها الثوري

المتصل . ولقد اعترفت صحافة العدو بهذه الحقيقة عندما كتبت : « ان الفلسطينيين في قطاع غزه لم ينحنوا على الرغم من الخسائر التي انزلناها بهم ، لقد فقدوا كثيرا من عناصرهم وقياداتهم ، لكنهم لم ييأسوا ، انهم يطورون يوما بعد يوم وسائلهم واساليبهم القتالية ، **وهم الوحيدون الذين يحولون دون امكانية الوصول الى تسوية بين الدول العربية واسرائيل** »(٢٩) . « لقد بادروا الى اقامة حركة ارهابية شعبية كبيرة الزمتنا بجمع موارد عسكرية جدية لقمعها »(٣٠) .

ثالثا ـ خلق سلطة ثورية موازية للسلطة الاحتلالية :

استطاعت الحركة الثورية المسلحة في القطاع ان تتوصل الى خلق سلطتها الثورية على جماهير القطاع . ففي عام ١٩٧٠ كتب آمنون كابليوك : « ان الفدائيين يسيطرون على المواطنين بينما يسيطر الجيش الاسرائيلي على الارض »(٣١) . وفي عام ١٩٧١ كتب د. أوري : « أصبح المخرب الآن هو الزعيم والبطل في غياب قدرة السلطة على ضمان حياة المتعاونين معها »(٣٢) .

ولقد تمثلت مظاهر السلطة الثورية داخل القطاع في :

١ ـ **افشال المخططات السياسية** التي تهدف الى اقامة مجتمع التعايش والدمج .

٢ ـ **عقد محاكمات ثورية للعملاء** واعدامهم في وضح النهار .

٣ ـ **استجابة الجماهير لدعوة قادة الحركة الثورية للاضراب والتظاهر**، وقد وصلت الاستجابة الجماهيرية الى حد الاضراب الشامل في جميع انحاء القطاع (٧١/١/١٣ ، ١٩٧١/٨/١٤) او كما أسمته صحيفة مانشستر جارديان (١٩٧١/١/١٦) « المقاومة الشامله على شكل عصيان مدني حيث توقف العمال والموظفون وطلبة المدارس عن الذهاب الى أعمالهم احتجاجا على ابعاد اللاجئين من المخيمات استجابة لدعوة المنظمات . » بالاضافة الى المشاركة الجماهيرية التلقائية لتشييع جنازات الشهداء والتي غالبا ما كانت تتحول الى مظاهرات صاخبة مثلما حدث في جنازة الشهيد يوسف الخطيب الذي ودعته الجماهير على أصوات الرصاص حسب تحية الوداع التقليدية للشهداء .

٤ ـ **التحكم في مناطق المخيمات** وارغام العدو على اخراج قواته ومراكز الشرطة من هذه المناطق . ولقد حاولت السلطة الاحتلالية اكثر من مرة خلق سلطة محلية متعاونة لتحكم القطاع من خلالها ، ولتنفذ بواسطتها مشاريعها الاستيطانية والتوسعية والسياسية . . الا انها عجزت بسبب مبادرة الحركة الثورية للتصدي للمتعاونين والعملاء واعدام بعضهم مما أدى الى احجام المتعاونين والعملاء عن القيام بأية مهام توكل اليهم من قبل السلطة . ولقد كتب زئيف تشيف حول ذلك :

« لقد أدرك المتعاونون ان الذي يحسم الامور هنا هم المخربون »(٣٣) ثم ذكرت **معاريف** هذا الامر بقولها : « اصبح المخاتير ادوات فارغة عديمة التأثير »(٣٤) . وعلقت **المرصاد** على الوضع القائم في غزة بقولها : « وفقدت المؤسسة التقليدية لسكان القرى قوتها وتأثيرها في واقع الحياة الجديدة الذي نتج في المخيمات (دافار ١٩٧٣/١/٨) ولم يعد هناك من يجرؤ على التقاط « الجوز » من بين الجمر خدمة للسلطات الاسرائيلية ، اذ انه بعمله هذا سيعتبر خائنا لدى أبناء شعبه . . أن المنظمات هي القوة الصاعدة التي تمثل الفلسطينيين وبدون موافقتهم لا نفوذ لاية اتفاقية »(٣٥) .

وفي اعقاب اعدام ذيب الهربيطي سكرتير لجنة الانتخابات في معسكر الشاطىء بغزة يوم ١٩٧٣/٢/١١ ، ومحاولة اعدام رشاد الشوا رئيس البلدية السابق لمدينة غزة

وتوجيه تحذيرات حاسمة للمتعاونين ، تعاقبت استقالات اعضاء لجان الاحياء المحلية واعلن عن تجميد نشاطها . كما اعلن المستقيلون : « انه لم يعد في مقدورهم مواصلة أعمالهم بسبب تهديدات الفدائيين »(٣٦) . وفي ١٩٧٣/٢/١٤ أعلن موشيه ديان انه وافق على السماح لبعض المواطنين العرب في القطاع بحمل أسلحة من أجل ما أسماه بالدفاع عن النفس .

ولكن العملية الجدلية بين ارادة الاحتلال وارادة الحركة الثورية الشعبية لم تتوقف، فكلما تفننت السلطة الاسرائيلية في ابتداع اساليب وتكتيكات قتالية جديدة ، تفنن الثوار بدورهم في ابتكار تكتيكات وأساليب قتالية مضادة لتكتيكات العدو وخططه . وتطويرها حسب ضرورات الوضع المتبدل .

التكتيكات القتالية لحرب العصابات في مدن ومخيمات القطاع :

كان لدى الثوار اعتباران اخذوا بهما عند مناقشتهم للتكتيك القتالي الواجب اتباعه عند مهاجمة الاهداف الاسرائيلية : الاعتبار الاول يتصل بالمرحلة الزمنية ، والاعتبار الثاني يتصل بطبيعة المكان والهدف المقصود .

بالنسبة للاعتبار الاول (المرحلة الزمنية) ، كان من الصعب مثلا أن تبدأ الحركة الثورية المسلحة عملياتها داخل القطاع بعمليات هجومية داخل المدن او المخيمات في وضح النهار ، فقد كان هذا النوع من العمليات يحتاج الى **ضمان غطاء جماهيري للثوار المهاجمين** . وعلى هذا فقد كان على الحركة الثورية ان تنشط عقب الاحتلال في اقامة علاقات وثيقة مع الجماهير دون ان تتخلف عن العمل المسلح، وذلك بهدف **تهيئة الجماهير واعدادها اعدادا ثوريا لكي تتحمل نصيبها من التضحية .**

وبالنسبة للاعتبار الثاني (طبيعة المكان) فقد كان يتعلق بضرورة استخدام الاساليب والتكتيكات القتالية الملائمة مع العمل في المخيمات وفي الشريط الساحلي الضيق الذي يشكله قطاع غزة . وسنحاول فيما يلي تتبع التكتيكات القتالية التي استخدمها الثوار في قطاع غزة (زمانا ومكانا) .

اولا — **حرب الالغام والمتفجرات** : بث الالغام في طرق الدوريات العسكرية ووضع الحشوات الناسفة أسفل خطوط السكك الحديدية وتحت ابراج الكهرباء وعلى الطرق الترابية المؤدية للمستوطنات المحيطة بقطاع غزة .

تميزت باكورة النشاط العسكري في القطاع بما يمكن ان نطلق عليه « حرب الالغام والمتفجرات » حيث انتشر هذا النوع من العمليات انتشارا واسعا ، وكان يتلاءم مع طبيعة المرحلة الزمنية التي تتمثل في اعداد الجماهير وتهيئتها ثوريا للاسهام بالكفاح المسلح وتحمل مسؤولياتها في مواجهة اعمال القمع والارهاب . ولقد واصل الثوار استخدامهم لهذا التكتيك القتالي فيما بعد ، بعد ان ادخلوا عليه بعض التعديلات لدرجة دفعت قيادة القوات الاسرائيلية في القطاع الى تحذير جنودها « بعدم لمس اي جهاز ترانزستور في الطريق او في اي مكان اخر لان فدائيي غزة قد ابتكروا جهازا جديداً لايقاع الناس »(٣٧) . وكان شعار المرحلة النضالية : « لا تدع الاسرائيليين ينظفون البيت » و« لا تترك لهم حرية العمل في القطاع » . لذا تركزت عمليات التلغيم والنسف على المنشآت الحيوية التي يهدف العدو من ورائها ربط القطاع بالاحتلال ، وخلق مجتمع التعايش . كما كان لضرب ونسف اهداف في المستوطنات القريبة نتائج سلبية على نشاط حركة الاستيطان في قطاع غزة . حيث عدلت السلطة الاحتلالية — مؤقتا — عن بناء مستوطنات او التوسع في بناء مستوطنات في القطاع .

وقد ساهم في الاعلام عن هذه العمليات نشرات المقاومة السرية التي تصدر داخل القطاع (الجبهة الوطنية المتحدة) بالاضافة الى اذاعة الثورة والاذاعات العربية . كما ان ضيق رقعة القطاع جعل انباء اية عملية عسكرية تنتشر بسرعة بين السكان ويتداولها الصغار بكثير من الاعتزاز والزهو ، وقد ادى هذا الى تولد علاقة حميمة بين الفدائيين والصغار من أبناء القطاع الذين قاموا بدور هام في جمع المعلومات للفدائيين، وفي فضح تحركات العدو المضادة وفضحها في الوقت المناسب .

ثانيا — **الكمائن** : كانت المجموعات الصغيرة التي تضم ثلاثة مقاتلين او أكثر تكمن لسيارة دورية او لقطار حسب خطة عسكرية موضوعة مسبقا يكلف على اساسها أفراد المجموعة بمهام محدودة . وكان مثل هذه العمليات يتطلب جمع المعلومات اللازمة عن تسليح الدوريات وعدد افرادها ونوع السلاح الذي يجب ان يستخدم .. الى اخر ذلك. وكان افرادها يعتمدون على التنفيذ السريع والانسحاب السريع من المنطقة بسبب توفر النجدات السريعة للعدو . وتحديد مكان الاختفاء مسبقا . واستخدام اكثر من نوع للسلاح ، والاجادة والكفاءة في الاستخدام . ومن الامثلة العملية على ذلك . هو انه صدرت في احدى العمليات تعليمات الى مجموعتين بالقضاء على دورية اسرائيلية (آلية وسيارة جيب) اثناء مرورها ليلا على الطريق المسفلت بين رفح وغزة . ولما كانت هذه الطريق تمر بمدينتين بخان يونس ، ودير البلح وفيهما مراكز رئيسية للقوات الاسرائيلية يمكن لها ارسال نجدات دورية الى مكان الاشتباك ، فقد رؤي مهاجمة الدورية عند المكان الذي تكون فيه (الدورية) على أبعد مسافة من أي مركز عسكري للعدو مع مراعاة الطبيعة الجغرافية لموقع الاشتباك . وحدد المكان بين دير البلح — غزة في نقطة تبعد ١٢ دقيقة بالسيارة عن غزة وثماني دقائق عن دير البلح . وعلى هذا الاساس قدر قائد العملية على أن النجدة ستأتي من المركز العسكري للعدو في بلدة دير البلح والطريق من هذه البلدة الى مكان الاشتباك يتميز بطبيعة تمكن مجموعة اخرى من نصب كمين لقوات نجدة العدو والاجهاز عليها بسرعة .ولقد حدد قائد المجموعة خمس دقائق لانهاء العملية والقضاء على الدورية الاسرائيلية .. وحدد خمس دقائق اخرى للمجموعة الثانية التي كمنت على بعد خمس دقائق من بلدة دير البلح ..

وهكذا وفي الوقت الذي اوشكت فيه المجموعة الاولى على الانتهاء من العملية .. كانت المجموعة الثانية تتعامل مع قوات النجدة التي ارسلها مركز دير البلح .. والتي فوجئت بالكمين المتقدم . وقبل أن تهرع النجدات الاسرائيلية من غزة .. ودير البلح بعد الاستغاثات التي صدرت من الدورية وقوات النجدة كان جميع افراد المجموعتين قد اختفوا تماما .

ثالثا — **الهجمات المفاجئة على أهداف في أماكن عامة وفي وضح النهار** (حسبة السمك — ميدان فلسطين — ساحة التكسيات — الكازينو — سوق المخيم ، مركز الشرطة) . وكان هذا النوع من العمليات يتميز بأنه يتم في أماكن مكتظة بالجماهير ويكون الهدف أما شخصية اسرائيلية كرجل مخابرات مثلا أو ضابط واما شخص عميل او خائن . ويحتاج هذا النوع من العمليات الى مهارة عالية في استخدام الاسلحة الخفيفة . ويقوم بتنفيذه شخص او اثنان.ويتوقف نجاحه على قدرة الثائر على الاختفاء وسط الجماهير .

وتعتبر هذه العمليات الهجومية المفاجئة من أخطر العمليات ، ونتائجها المعنوية هامة للغاية لانها : تتم في وضح النهار ، فاذا كانت اعدام عميل ، فهي تؤكد قدرة فعل الثورة

على الوصول الى العملاء في وضح النهار وامام الجماهير مما يثير رعب بقية العملاء والخونة . واذا كانت العملية الهجومية تستهدف ضابطا او شخصية اسرائيلية فانهـا تتيح للجماهير فرصة مشاهدة كفاءة الفدائي ، وتحرم العدو من فرصة اخفاء خسائره . كما أنها تفقد جنود العدو وضباطه الثقة بأنفسهم وتصيبهم بحالة من الهلع والرعب من كل ما يحيط بهم . وفي لقاء لمراسل مجلة لايف الاميركية ــ بيتر يونغ ــ مع احد الجنود الاسرائيليين في مدينة غزة ، قال الجندي للمراسل الامريكي : « لا تغادر سيارتك علـى الاطلاق ، واصل السير دون توقف، ولا تحاول البقاء في أي مكان فترة طويلة، ان هناك لوحة تحمل ارقاما اسرائيلية على سيارتك . ولذلك **سيتصورونك** اسرائيليا وستكـون سيارتك **هدفا جيدا لرصاصهم** » .

لقد اخذ هذا النوع من العمليات العسكرية طـابع التنفيـذ الفوري فـي القطاع ، وكان الثائر يتسلح بقنبلة او اثنتين يخفيهمـا بمهـارة وبمدفع رشاش امـا يحملـه بين طيات ملابسه او يخبئه بمساعدة شخص اخر . ولم يكن الهدف محددا في جميع الاحيان ، فكان يحدث ان « يتسوق » الفدائي الهدف الاسرائيلي المناسب اثناء تجواله ليضرب ضربته ثم يختفي وسط الجماهير .

وابتكرت الجماهير ــ التي وصلت الى درجة عظيمة من الوعي والمشاركة النضالية ــ وسيلة تخابر لتحذير الفدائيين من عمليات المداهمة والتطويق للمخيمات . الامر الذي جعل الفدائيين يعملون علانية بعد أن وفرت لهم الجماهير غطاء الحماية . وهكـــذا اخضع الثوار قطاع غزة الخالي من الغابات والجبال الى واقعهم النضالي .

رابعا ــ **مهاجمة مكاتب العمل وباصات نقل العمال العرب في مدن القطاع** : قامت السلطات الاحتلالية بفتح مكاتب للعمل في المؤسسات والمزارع الاسرائيلية داخل الارض المحتلة قبل عام ١٩٤٨ . لربط الجماهير مصلحيا باقتصاد العدو بغية تدجينها ، وكان لا بد للحركـة الثورية من القيـام باجراء ثوري مضاد بدأته بحملات توعية بالمنشورات وتوجيه تحذيرات الى العمال ثم انتقلت بعد ذلك الى دائرة العنف الثوري .

خامسا ــ **تصفية العملاء والمتعاونين** ، وتوجيه انذارات كتابية لهم ثم اختطـافهم ومحاكمتهم في محاكم للثورة داخل المخيمات ، واعدامهم علنا امام الجماهير .

ممارسات خاطئة :

ان من مبادىء العمل الثوري (وكل عمل) ، تبادل الخبرات والتجارب بين الثورات بوجه عام ، وبين ثوار البلد الواحد بوجه خاص . وهذه هي الوسيلة الاساسية لكي يتفادى الثوار الوقوع في اخطاء سبق الوقوع فيها ولتجنب الممارسات الخـاطئة او تقليصها ما أمكن في المستقبل . لذا فان من الضروري طرح الممارسات الخاطئة لعمل ثوار القطاع لتكون منطلقا لاي نضال مقبل . وتتمثل هذه الممارسات في :

اولا : **ان التنظيم الثوري في قطـاع غزة اعتمـد فـي بدايـاته علـى نظريـة الدورية** ، اي أن كل دوريـة هي بمثابة خليـة عمل ثوريـة وبذلـك نشـأ التنظيم المقاتل وسيطرت نظرية الدورية على التنظيم . وكان لهذا نتائجه السلبية علـى مجمل الوضع النضالي في مرحلة متقدمة عندما انحصرت قدرة الثورة القتاليـة ، وتقلصت امكانيات التسليح في الداخل ، خاصة بعد احداث ايلول في الاردن عام ١٩٧٠ ، وتفرغ الجيش الاسرائيلي لمواجهة النشاط الفدائي ، عندئذ فقد التنظيم نظريته .

ثانيا ــ **التخلي عن السرية والامان والعمل بشكل علني في مرحلة المد النضالـي .** ولقد أصبح بوسع الكثيرين من أبناء القطاع ان يشيروا الى أحد المارة بقولهم « انـه

الفدائي فلان » . واذا كان الثوار في القطاع قد نجحوا في غطاء جماهيري يحمي الثوار، الا ان هذا النجاح ما كان ليبرر لهم التخلي عن قاعدة السرية والامن لحماية الثائر والحركة الثورية . (أحيانا كان يصل الامر بالمدنيين الى التجمهر حول مجموعة من الثوار) ولقد كان من اسباب ضعف السرية والامن عدم التزام الجماهير بعامل السرية والكتمان — بسبب ضعف التنظيم السياسي — .

ثالثا — **عدم تحري الدقة في اختيار المخبأ الامين**: على الرغم من أن الثوار الفلسطينيين قد نجحوا في ابتكار مخابىء قتالية نموذجية للاختفاء (اسفل قواعد المراحيض ، خنادق تحت أشجار الصبار ، انفاق ، بيوت بعيدة عن الشبهات ..) الا انه حدثت عدة اخطاء قاتلة بسبب افتضاح امر هذه المخابىء للسلطة مثل ترك ادلة بسيطة تشير الى تواجد الثوار في مكان ما ، او داخل احد المنازل (لقد تسبب عدد من فناجين القهوة التي تركها الفدائيون على مائدة صاحب المنزل الذي يختفون فيه الى افتضاح امر احدى المجموعات واستشهادها بالكامل) .

رابعا — **استطاعت بعض الشخصيات العميلة ان تكسب ثقة بعض قيادات وكوادر الحركة الثورية المسلحة** في الداخل والخارج ، واوكل لهذه الشخصيات مهام نضالية (كاخفاء السلاح في بياراتها) .

خامسا — **عدم تبادل الخبرات والتجارب والمعلومات في جميع المجالات**، وهذا ما أدى الى وقوع الثوار في اخطاء سبق لرفاقهم ان وقعوا فيها ، فضلاً عن ان توقف هذه العملية أدى الى اصابة الحركة بشلل نسبي وعجز عن مواجهة الاساليب المتطورة التي تستخدمها السلطة ضد الثوار والجماهير .

سادسا — **ضعف المستوى العسكري لعدد من المقاتلين** ، لقد كان مجرد حيازة الشخص لقطعة سلاح كافيا لان يقوم هذا الشخص بعمليات عسكرية واعتبار نفسه واحدا من الفدائيين . وكان هذا النوع من المقاتلين يكتفي بالتدريب داخل الغرف . واغتنام فرصة قد لا تكون مناسبة لتنفيذ عملية ما. الامر الذي أدى الى ازدياد عدد الشهداء .

سابعا — **التردد في بعض الاحيان في معاقبة العملاء والخونة** . لقد وفرت هذه الممارسة الخاطئة الفرصة لعدد من المنحرفين للتعاون مع السلطات الاحتلالية دون خوف من عقاب رادع .

ثامنا — **انعدام التعاون والتنسيق بين مختلف فصائل المنظمات الفدائية الموجودة داخل القطاع ، وعدم وضع استراتيجية عمل موحدة ومتكاملة للقطاع .**

تاسعا — **عدم تعويد ذاكرة الثائر على نسيان الاسماء** ، والاعتماد على الاوراق ، والاحتفاظ بها في حوزة الثائر، والتوسع في معرفة عناصر التنظيمات ببعضها البعض ، بحيث ان اكتشاف بضعة افراد من تنظيم ما ، كان يؤدي الى انكشاف عشرات آخرين .

عاشرا — **التخلي عن بعض القواعد الاساسية في حرب العصابات** . والمهاجمة في اوقات غير مناسبة ، واهمال التخطيط والدراسة المسبقة والتنسيق بين مجموعات الثوار في المناطق المختلفة مما ادى الى العمل بصورة ارتجالية .

سياسة « الذراع المدنية » و« الذراع العسكرية » :

عقب الفشل الذي منيت به السلطة الاحتلالية في القطاع في معالجتها لموضوع «الامن» طالب الكثير من المسؤولين وكبار المعلقين العسكريين والسياسيين الاسرائيليين بضرورة هيمنة الذراع العسكرية على القطاع وتنحية الذراع المدنية :

والواقع انه منذ بدء الاحتلال في حزيران عام ١٩٦٧ حتى الان، لم يحدث ان حكم قطاع غزة من قبل سلطة مدنية، فالحكم عسكري يترأسه حاكم عسكري يتبع مباشرة قيادة جيش الدفاع الاسرائيلي ، ولكن عقب توقف اطلاق النار على الجبهة الشرقية وجبهة قناة السويس،واحداث أيلول ١٩٧٠ في الاردنلم يعد بوسع الاسرائيليين تحمل خسائرهم في القطاع وبدأوا يتساءلون عن حقيقة ما يجري في القطاع ، وطالبت الصحف الاسرائيلية — عقب مقتل اسرة اسرائيلية في غزة — بالحاق النشاط العسكري بقيادة المنطقة الجنوبية مباشرة بدلا من قيادة جيش الدفاع .

ونشطت السلطة العسكرية الاحتلالية في جلب جنود حرس الحدود ، والفرق ذات التدريب الخاص والكفاءة القتالية العالية والتي درب افرادها « **على خوض هذه الحرب التي تختلف عن كل ما عرفه الجيش الاسرائيلي** في حروبه ضد الجيوش العربية النظامية، والتي تختلف أيضا عن الحرب التي يشنها المخربون في مناطق اخرى كغور الاردن والحدود الشمالية »(٣٨).

فما هو مدى النجاح الذي حققته السلطة الاحتلالية « لاقرار الامن » ، وللقضاء على « فوضى العنف » في القطاع ؟ . منذ بداية الاحتلال نشطت السلطة الاحتلالية لاخضاع القطاع عن طريق عدة اجراءات في مقدمتها محاولة خلق سلطة محلية متعاونة تمرر — السلطة الاحتلالية — من خلالها مشروعاتها ومخططاتها الاستيطانية والتهويدية والتصفوية والتعايشية . الا ان بروز الحركة الثورية المسلحة في القطاع وقوتها المتصاعدة أحبطا هذه المحاولة . . وارغما العديد من المتعاونين على الاحجام عن القيام بأية مهام من قبل السلطة الاحتلالية خوفا على حياتهم .

الى جانب ذلك ركزت السلطة الاحتلالية على محاولة تغيير البنية الاجتماعية والاقتصادية للقطاع ، وخاصة في منطقة المخيمات وذلك عن طريق « الانتضاض على المشكلة وحل قضية اللاجئين »(٣٩). نظرا لان « المصلحة الاسرائيلية الاساسية تقتضي تقديم قضية توطين اللاجئين واستيعابهم في أحياء للاستيطان المديني عن سائر القضايا الاخرى حتى على افتراض ان سكان المخيمات سيبقون — في المستقبل — خارج حدود اسرائيل »(٤٠).

وهكذا تحركت السلطة في البداية لخلق وضع اقتصادي غير محتمل لدفع المواطنين الى مكاتب العمل الاسرائيلية خارج القطاع ، وحتى لا يكون هناك مجال واسع لتعويض الثوار عن خسائرهم في الرجال . ويقول عامير شابيرا في شرح هذه الفكرة : « ان سياسة الجسور المفتوحة والتداخل في الاقتصاد الاسرائيلي ساعدا على الرخاء في المنطقة وقد حظي سكان المخيمات بقسط من هذا الرخاء »(٤١). بيد أن العمال الذين عبروا الجسور المفتوحة ، كانوا يستغلون اجازاتهم الاسبوعية — كما اعترفت صحيفة هآرتس — في القاء القنابل على الدوريات الاسرائيلية(٤٢). لذا كانت سلطات الاحتلال تقوم في أعقاب حدوث عمليات نسف او اتلاف في المزارع او المؤسسات الاسرائيلية بتوقيف العمال العرب في المنطقة (كما حدث عندما نسفت محطة الوقود في عسقلان في اوائل تموز ١٩٧٠) .

وفي الوقت نفسه بدأت السلطة الاحتلالية في تنفيذ مخطط توطين اللاجئين في مناطق خارج القطاع (حي رفح سيناء — العريش . .) لكن لم يتسن للسلطة ان تحقق اي نجاح في مخططاتها هذه الا في عامي ٧١ ، ٧٢ (حين انفرد الجيش الاسرائيلي وقواته الخاصة بالقطاع) ، وبدأ عمليات النسف والتهجير بالقوة وشق الطرق في المخيمات .

وكان الباعث الاساسي والوحيد ايضا من وراء القضاء على المخيم « وقطنه » ان

الخبراء الاسرائيليين عزوا اسباب انفراد القطاع بوضعه النضالي المتميز عن سائر المناطق المحتلة الاخرى الى الكثافة السكانية والى وجود اللاجئين في مخيمات تكتظ بهم وان حل المشكلة برمتها يتطلب تغيير خارطة الكثافة السكانية وتغيير مظهر المخيمات حسب قرار اللجنة الوزارية الاسرائيلية وذلك بواسطة عدة تدابير اهمها : ١ ــ اقامة مساكن خارج القطاع بمقياس مديني . ٢ ــ توطين زراعي محدود لابناء المخيمات المبعدين . ٣ ــ تحويل المخيم الى مجتمع مديني . ٤ ــ التعويض المالي .

وساد الاقتناع بين جميع خبراء المؤسسة العسكرية على أن حل مشكلة الامن مرتبط عضويا بحل مشكلة اللاجئين في القطاع، وان مدننة المخيم، وتحويل ابناء المخيمات الى طبقة من العمال والموظفين تعيش في احياء جديدة مزودة بالكهرباء والماء ، وفي جو من الرخاء الاقتصادي (المصطنع) ، سيحرم « حركة التخريب في القطاع من قدرتها على توسيع قواعدها». بل ان الوضع قد يدفع الى « وقوع تصادم بين حركة التخريب وبين الجماهير فيتفكك التكتل الجماهيري للمخربين »(٤٢).

وصاحبت عملية هدم المخيمات وشق الطرق الواسعة فيها حملة ابادة منظمة للمواطنين فلم يكن يمضي يوم دون ان يعلن المتحدث العسكري الاسرائيلي عن « قتل أحد المخربين » او أحد المشتبه بهم او قتل « مواطن رفض الامتثال لتعليمات الدورية » الى اخر هذه السلسلة الدموية التي عاشها قطاع غزة عدة اشهر خلال العامين ١٩٧١ ، ١٩٧٢ بوجه خاص .

وبالاضافة الى ذلك لجأ العدو الى الاجراءات القمعية الاخرى كالترحيل الاجباري للضفة الغربية والعريش، التوسع في تنفيذ قانون دايان (معاقبة الجوار) ، والابعاد الى معسكرات الاعتقال الصحراوية (ابو زنيمة ، قصيمه ، نخل ، الطور ، العريش) ، وحصار المخيمات لفترة طويلة نسبيا وتجويعها لارغام الاهالي على النزوح منها ، وحرب الابادة ضد الثوار ، ومحاولة استعداء الجماهير على الثوار عن طريق التنكر بزي الفدائيين واساءة معاملة الناس وتوجيه تهمة التعامل والخيانة لهم، ودخول البيوت في الليل والنهار بحجة طلب المساعدة والاختباء ثم التنكيل بأصحاب البيوت فيما بعد، والقاء قنابل على تجمعات الاهالي في الشوارع والادعاء بأن الفدائيين هم وراء ذلك . وتسليح المتعاونين وتحريض القبائل بعضها على بعض . . .(٤٤).

ان جدول العمليات العسكرية منذ بداية الاحتلال (حزيران ١٩٦٧) حتى منتصف العام ١٩٧٠ يشير الى ارتفاع مستمر في العمليات الفدائية، وان الانكسار النسبي في الخط البياني جاء عقب احداث ايلول ١٩٧٠ وقرار وقف اطلاق النار على الجبهات العربية . ورغم ذلك فان أمر «معالجة وضع الامن في القطاع» احتاج الى اكثر من عامين ليصبح الانخفاض النسبي في العمليات الفدائية انخفاضا ملحوظا ــ رغم كل الاجراءات والظروف المشار اليها .

على ضوء ما سبق ، هل يمكن التنبؤ باستمرار الانخفاض النسبي في العمليات العسكرية في القطاع ؟ لقد اقيم التنظيم بالنسبة لعدد من المنظمات الفدائية في القطاع على أساس وجود القاعدة الارتكازية الامنة في الاردن(٤٥) وزوال هذه القاعدة لا بد وان يؤثر على النشاط العسكري للثوار خلال اعادتهم لبناء التنظيم على اساس الواقع الجديد.

ان عملية البناء التنظيمي ، وبلورة الخلايا ، تتطلب جهدا متفوقا وفترة زمنية طويلة نسبيا ، الا انه يمكن أن نتنبأ ــ ليس من قبيل التفاؤل المجرد وانما من قبيل التيقن الموضوعي ــ انه على ضوء الممارسات النضالية للثوار ، وعلى ضوء النضال الجماهيري الشجاع، فان النضال المسلح سيحتدم بخبرة اوسع ، وحنكة أعظم، واقتدار أعم، لان

جذور النضال الضاربة في اعماق القطاع ستنمو من جديد وتمتد الى جميع انحاء القطاع. وهناك من الاسرائيليين من يعتقد مثلنا بأن جذور النضال الصلبة في القطاع ستبقى قوية تمد الثوار بالعزم والقوة . ولقد كتب داني تسدقوني محذرا الاسرائيليين مما ينتظرهم في قطاع غزة بقوله : « ومع ان « الارهاب » قد حصد في القطاع الا ان جذوره ما تزال وسوف تبقى طالما بقيت هناك مشكلة عربية — يهودية »(٤٦).

---

١ — احصائية **يديعوت احرونوت** ١٩٧٢/١٢/٨.

٢ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٦ (عمليات التوطين والاسكان هدأت قطاع غزة ..)

٣ — كتاب « **اسرائيل تهاجم** » للصحفي الفرنسي ايف كيو .

٤ — **معاريف** ١٩٦٨/٨/٩ (معسكر جباليا بطل الاضطرابات) .

٥ — **دافار** ١٩٧٢/٢/٢٦ . داني تسدقوني .

٦ — **معاريف** ١٩٦٨/٨/٩ .

٧ — **المصدر السابق** .

٨ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٨ داني تسدقوني (بداية الحل لمشكلة اللاجئين) .

٩ — **موجز حرب العصابات في المدن** ، ماركوس ماريجويلا .

١٠ — **المصدر السابق** .

١١ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٦ داني تسدقوني (عمليات التوطين والاسكان هدأت قطاع غزة).

١٢ — **هآرتس** ١٩٧١/٩/٣٠ (غزة : حرب عصابات ضد ارهاب) زئيف تشيف .

١٣ — **المصدر السابق** .

١٤ — **هآرتس** ١٩٧١/٧/١٤ .

١٥ — مقابلات شخصية .

١٦ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٨ داني تسدقوني .

١٧ — **معاريف** ١٩٧٣/٢/٦ المحرر العسكري .

١٨ — **نوفيل اوبسرفاتور** ١٩٧١/١/٣١ .

١٩ — **هآرتس** ١٩٧١/٩/٣٠ .

٢٠ — **وكالات الانباء** ١٩٧١/٩/٨ .

٢١ — تصريح للمشرف على شؤون أمن المستوطنات المحيطة بالقطاع ١٩٧١/٤/٢١ اذاعة اسرائيل.

٢٢ — **هآرتس** مقال زئيف تشيف ، ابريل ١٩٧١ .

٢٣ — تصريح للمشرف على شؤون الامن في المستوطنات المحيطة بالقطاع ٧١/٤/٢١ اذاعة اسرائيل .

٢٤ — **لانفورماسيون** ١٩٦٩/٨/١٥ .

٢٥ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٦ داني تسدقوني .

٢٦ — **المصدر السابق** .

٢٧ — **هآرتس** ١٩٧٢/٩/٣٠ زئيف تشيف .

٢٨ — **دافار** ٧٢/١٢/٢٨ (بداية الحل لمشكلة اللاجئين) .

٢٩ — **معاريف** ١٩٧١/٨/٦ السيطرة تنتقل الى الذراع العسكرية د. اوري .

٣٠ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٦ داني تسدقوني .

٣١ — **عل همشمار** ١٩٧٠/١٢/١١ امنونكابليوك.

٣٢ — **معاريف** ١٩٧١/٨/١٦ السيطرة تنتقل الى الذراع العسكرية د. اوري .

٣٣ — **هآرتس** ١٩٧١/٩/٣٠ زئيف تشيف .

٣٤ — **معاريف** ١٩٧١/٨/٦ .

٣٥ — **المرصاد** ١٩٧٠/٣/١٢ .

٣٦ — **اذاعة اسرائيل** ١٩٧٣/٢/١٤ .

٣٧ — **لانفورماسيون** ١٩٦٩/٨/١٤ .

٣٨ — **معاريف** ١٩٧١/٨/٦ .

٣٩ — **حوتام** ١٩٧٢/١٢/١ عامير شابيرا .

٤٠ — **المصدر السابق** .

٤١ — **المصدر السابق** .

٤٢ — **هآرتس** ١٩٧١/٧/١٤ .

٤٣ — **دافار** ١٩٧٢/١٢/٢٨ .

٤٤ — **دراسة عن الاوضاع في غزة** — مكتب الارض المحتلة — فتح ١٩٧٢/٢/١٦ .

٤٥ — من محاضرة للشهيد كمال عدوان دورة مدرسة الكوادر الاولى ٧٢/٨/١٤ — ١٩٧٢/٨/٢٤ .

٤٦ — **دافار** ١٩٧٢/٢/٢٨ داني تسدقوني .

الموقف الاردني تجاه التسوية السياسية

حسين ابو النمل

لعب النظام الاردني طيلة الحقبة التاريخية الماضية دورا أساسيا في الاحداث المصيرية التي مرت بها المنطقة ، وساهم بقسط وافر ، في تنفيذ مخطط الامبريالية بتوجيه العديد من الضربات القاصمة لحركة التحرر الوطني العربية وبالذات الحركة الوطنية الفلسطينية ، مما أكسبه خبرة فعلية في كيفية قمعها واجهاضها . لكن هذا الدور الثابت للنظام الاردني كان يتعرض في فترات معينة الى اهتزاز عنيف تحت وطأة ظروف موضوعية حادة ، كانت تفرض على هذا النظام الركود والاستكانة والابتعاد عن واجهة الاحداث ، حيث كان يعرف كيف يلوي عنقه بنفسه وينحني أمام العاصفة . وفي الوقت نفسه يعد العدة للضربة القادمة ، بعد ان يسترد قواه من ناحية ، وبعد أن يتم امتصاص زخم الظروف الموضوعية من ناحية ثانية .

ان النظام الذي انحنى أمام زخم الحركة الوطنية ومدها المتعاظم في فترة ١٩٥٦ ، وقام بتسليم رئاسة الحكومة الى سليمان النابلسي ، وامتص بموقفه التراجعي هذا ، الموقف المتفجر في الاردن ، الذي كان من الممكن أن يؤدي الى اسقاط النظام في ذلك الحين وتمكن مقابل ذلك من التقاط أنفاسه واستجماع قواه لاسترداد التنازلات التي كان قد قدمها .

ان النظام الذي أقدم على انحناءة الـ ٥٦ ، هو نفسه الذي أقدم موضوعيا على نفس الانحناءة في العام ٦٧ حيث تراجع ، لكن بخطى منظمة وبسياسة مرسومة . وقد واجهت القوى الوطنية هذا التراجع بالاكتفاء بالنصر غير الكامل الذي حققته دون ان تواصل النضال لانتزاع السلطة . والنظام الذي رضي بازدواجية السلطة وحكم البلد من خلال « أصدقاء » المقاومة ، هذا النظام (من ضمن مخطط الامبريالية) ركد بانتظار ان تكتمل خطة اجهاض الوضع الذي فرض عليه التراجع . وكانت سلسلة المشاريع السلمية التي تقدمت بها الامبريالية الاميركية لحل أزمة الشرق الاوسط ، كفيلة بزعزعة مواقف بعض الانظمة العربية الوطنية التي كانت متضامنة مع حركة المقاومة، فتزعزعت مواقفها لدرجة أصبحت ترى في وجود حركة المقاومة خطرا على مصالحها وعلى امكانية تحقيق التسويات المطروحة .وبالاضافة الى ذلك فان القوى الرجعية وبالذات في المنطقة العربية واصلت دعمها للنظام الاردني ، ومحاولاتها لاجهاض اي تحرك فلسطيني ثوري باتجاه اسقاط النظام حتى تمكن النظام من توجيه ضرباته القاصمة للمقاومة وتصفيتها في الاردن .

ان استعادة هاتين التجربتين للنظام الاردني مع الحركة الوطنية ، مؤشر هام يمكننا من فهم دور الاردن في المرحلة القادمة ، ومن ادراك الاسلوب الذي يتم به كمون النظام الاردني وتراجعه . واذا كان « كمون » النظام الاردني في بعض المراحل لا يعني انتهاء دوره في المستقبل ، فان ارتباط النظام الاردني بعجلة الامبريالية ومخططاتها لا يعني بالمقابل ان لا تبرز تعارضات بين مصلحة النظام وبين تلك المخططات . ولكن تلك التعارضات تبقى في اطار المعسكر الواحد من ناحية ومن ناحية اخرى فانها تحسم في

النهاية لصالح مخطط الامبريالية وليس لمصلحة الاردن . ولعل هذه المسألة تبدو جلية في هذه المرحلة من مراحل تمرير التسوية الشاملة لمشكلة الشرق الاوسط ، والتي قد تؤدي الى انتزاع الضفة الغربية من الاردن .

ان التسوية السلمية لازمة الشرق الاوسط وبالذات مشروع الدولة الفلسطينية الذي يعني انتزاع الضفة الغربية من الاردن ساهم في تكثيف الظلال التي بدأت تحيط بمستقبل المملكة ودورها ، ولقد عززت هذه الصورة التي ارتسمت في أذهان الكثيرين عن مستقبل الاردن .تضاؤل الدور الذي احتله في الاتصالات الجارية للتسوية السياسية،مقارنة بدور الاطراف الاخرى عربية كانت ام غير عربية . خصوصا وان اتجاه الامور كان يدل على ان التسوية ستكون بشكل او بآخر على حساب الاردن .

ان الحديث عن التسوية السياسية وأثرها على الاردن لا بد وان يتضمن معالجة لما يمكن أن يكون عليه مستقبل الاردن ككيان وهل سيختلف دور هذا الكيان عن الدور الذي رسم له وسار على هديه منذ تأسيسه ؟

كان انشاء امارة شرق الاردن المفاجىء في العام ١٩٢١ في اطار التنافس البريطاني ــ الفرنسي على اقتسام المنطقة العربية ، وبسبب رغبة بريطانيا في المحافظة على مصالحها الحيوية في المنطقة وضمان سيطرتهــا على النفط العراقي مــن منابعه حتى مصبه في فلسطين . كما جاء انشاء الامارة متوافقا مع المخطط الامبريالي الصهيوني لاقامة كيان صهيوني في فلسطين بحيث تكون الامارة « الاسفنجة » التي تمتص عرب فلسطين حين يبعدون عن أرضهم حسب تعبير تشرشل مهندس الاستعمار البريطاني آنذاك . وقد سار النظام الاردني منذ انشائه وحتى اليوم في اطار المخطط الاستعماري الذي رسم له وأدى دوره المطلوب داخليا وفلسطينيا وعربيا .

الاردن في سياق التسوية السلمية :

تحتل القضية الفلسطينية دورا مركزيا في المحاولات الجارية لوضع تسوية شاملة ونهائية لازمة الشرق الاوسط وتجمع الاطراف المعنيــة على أهمية وجــود العنصر الفلسطيني لضمان نجاح أية تسوية بالرغم أن لكــل طرف أسبابه الخاصة به . وقد عبرت الاطراف المختلفة عن ضرورة وجود الطرف الفلسطينــي في التسوية بمراحلها المتعددة بمشاريع متعددة ، من بينها مشروع الدولة الفلسطينية من الضفة والقطاع ، والذي طرح بشكل واضح اثر حرب تشرين . من هنا فان نقطة التماس المباشرة بين الاردن والتسوية السلمية تتركز في مسألة انتزاع الضفة الغربية منه لا بل انها النقطة الاكثر حساسية للنظام الاردني الى درجة أصبحت تشكل بالنسبة له هاجسا . فهي في احسن حالاتها تفقد المملكة الاردنية أحد اجنحتها بل « الدجاجة التي تبيض ذهبا » كما يسمونها وفي أسوأ الحالات تفتح الباب واسعا لاهتزاز صورة الاردن السياسية وبالتالي اهتزاز مستقبل وجوده ككيان سياسي .

ان تصاعد الدعوات لقيام كيان فلسطيني في الضفة والقطاع قد زاد مــن المشاكل السياسية أمام الاردن ، خاصة وان الموقف الاميركي المتبني التسوية بحماس قد زاد من حدة مشاكل الاردن السياسية وجعله يدخل اللحظة الحرجة المتمثلة باتساع الفجوة بين موقف الاردن ومصالحه وموقف حليفته الرئيسية ، الولايات المتحدة الاميركية ومصالحها. الاردن يريد عودة الضفة الغربية الى سيطرته ، والولايات المتحدة الاميركية ، مصلحتها في انجاح التسوية الشاملة . وهذه التعارضات التي نشأت بين الاردن وبين الولايات المتحدة ، هي التي جعلت الموضوع يأخذ طابعا جديا بالنسبة للاردن، بسبب دور الولايات المتحدة الكبير في تثبيت وجود الاردن وعدم قدرته على الذهاب بسياسته بعيدا عــن

شباكها ، حيث حاولت الاداة التملص من قدرها المحتوم ، ومحاولة التملص هذه كانت عنوان تحرك الاردن في المرحلة الماضيـــة ، وبالمقابل فان دور الولايات المتحدة كان في تطويع اداته تناسبا مع مصلحة التسوية . ومن هنا كان التعارض بين الاردن واميركا ومن داخل مخطط الامبريالية الواحد ، في محاولة من كل طرف لتحقيق اقصى قدر من ضمان مصالحه . وهذا هو مدخلنا لفهم التحركات الاردنية في الفترة الاخيرة ، بل منذ طرح مشروع المملكة العربية المتحدة .

وان شهدت علاقات الطرفين عمليات شد وجذب صامتة أحيانا ، وصاخبة أحيانـــا اخرى ، فان الامور بقيت في اطار (التحالف) الوثيق بين السيد والاداة . . . بالرغم من التعارض الذي طبع علاقتهما حيث تكمن هنا صعوبة المعادلة السياسية التي تحكمت تلك العلاقة ، الاردن تتعارض مصالحه تماما مع المصالح الاميركية ، أي التسوية ، ولكن لا مستقبل له خارج دائرة السياسة الاميركية ، وأميركا في المقابل مصلحتها في هذه المرحلة في تمرير التسوية ، والتي قد تكـــون على حساب الاردن ولو رغمـــا عـــن المصلحة الحقيقية للولايات المتحدة التي تقوم على دعم النظام الاردني القائم . ولعل هذا ما يفسر لنا التحركات الاردنية التي كانت تستهدف اثبات الوجود لاميركا بالدرجة الاولى ، ويفسر من ناحية ثانية (التآمر) الاميركي على الاردن الذي بقي محكوما بمنطق (الترويض) فقط ، ومن هنا رحلة العلاقات الاميركية الاردنية من محاولة الانفلات ، الى الترويض الى الرضوخ . ومن محاولة الاقناع الهادىء الى التلويح بالعصا الغليظة ، من مشروع بورقيبة ، الى تحريك الجيش الاردني في حركة تمرده الشهيرة .

كان مشروع المملكة العربية المتحدة محاولة مبكرة من الملك حسين للالتقاء مع مشروع الدولة الفلسطينية في منتصف الطريق بعد أن تمكن من تصفية المقاومة في الاردن وهي التي كانت تعتبر آخر العقبات امام التسوية السياسية . ومع ذلك بدأت الدعوات للدولة الفلسطينية تتصاعد . ولم يكن من الضروري ان يتقدم الملك حسين بمشروع المملكـــة المتحدة، الذي يعتبر « تنازلا كبيرا » بالمقارنة مع وضعه السابق في علاقة الضفة الشرقية بالغربية الا ان ذلك (التنازل) من الملك يؤكد أن مشروع الدولة الفلسطينية وأهمية دور الفلسطينيين في التسوية مطروح على بساط البحث بشكل جاد لدى المعنيين بموضوع التسوية وعلى رأسهم الحلفاء التقليديين للملك حسين .

ان تجميد ذلك المشروع خلال الفترة السابقة لان حركة المقاومة الفلسطينية تمكنت من المحافظة على تماسكها السياسي رغم الضربة العسكرية القاسية التي وجهت لها لا يلغي حقيقته كمحاولة أردنية لتطويق مشروع الدولة الفلسطينية واستيعاب بعض الحيثيات التي تقف وراءها . وما كان للاردن ان يتقدم على مثل ذلك التنازل لولا ادراكه ومعرفته بحقيقة موقف حلفائه الذين يعتمد عليهم في تقريـــر موافقته . وبعد ذلك طرح الرئيس التونسي مشروعه لتشكيل دولة فلسطينية من الضفتين الشرقية والغربية وكان هـــذا المشروع بنظر الكثيرين مجرد بالون اختبار جديد لقياس رد فعل المقاومة ونموذج آخر لمشاريع عدة سبق أن طرحت ، وكانت المقاومة هي المعنية بها ، بالدرجة الاساسية . بحيث تفتح تلك المشاريع المجال لانقسام وجهات النظر بشأنها ، وتكون مجالا لقياس مقدار التبدلات التي طرأت على المفاهيم السياسية لحركة المقاومة تجاه المشـــاريع المطروحة أمامها .

لقد بلغت ردة الفعل الاردني على ذلك المشروع درجة عالية من الحدة وصلت الى ان الاردن سحب سفيره من تونس . ولقد كان الملفت للنظر ان ذلك التصريح قد أتى في وقت تزايدت به الانباء عن تفرغ كيسينجر لحل مشكلة الشرق الاوسط ، بعد ان قاربت قضية فيتنام حينذاك على الانتهاء .

ان السؤال الذي يطرح ، هو لمصلحة من ، كان طرح بورقيبة لمشروعه ؟ كان مشروع بورقيبة بالونا لاختبار موقف المقاومة وان كونه يمثل مشروعا متقدما بالمقارنة مع المشاريع السابقة وبالتالي فان درجة « الاغراء » التي به ، قد تنشط من حالة الجدل الايجابي بشأنه في أوساط المقاومة ، بالمقدار نفسه يمكن لنا اعتباره بالونا تحذيريا موجها للنظام الاردني ووضعه أمام اختبار صعب ، بين « خسارة » الضفة الغربية ، وبين خسارة المملكة بضفتيها ، لتقام عليها دولة فلسطينية .

لقد كان في هذا المشروع اشارة واضحة للنظام الاردني كي يتفهم ما كان يجري في الكواليس السياسية حول موضوع التسوية الشاملة لمشكلة الشرق الاوسط ودور الفلسطينيين بها وما يفرضه هذا الامر من انشاء كيان سياسي لهم . ان هذا الوضع يعطي تفسيرا للبرود الذي بدأ يطبع العلاقات الاميركية الاردنية ، في فترة ما قبل حرب تشرين وما بعدها ، وكذلك فانه في الوقت نفسه يعطي تفسيرا لعدد من السياسات والمواقف التي اتخذها الاردن ، داخليا ، وفلسطينيا ، وعربيا ، ودوليا ، في محاولة من النظام للتملص من موقف بدا وكأنه أمر واقع ، وقد استمرت هذه المحاولات الى حين التمرد العسكري الشهير في الاردن ، حيث كان محطة رئيسية في لعبة « التطويع » الاميركية للنظام الاردني .

لقد قام النظام الاردني ، وفي الفترة ما بين مشروع بورقيبة وحرب تشرين بجملة من الخطوات ، محاولا ربط الاردن بخيوط جديدة . وهو يواجه المرحلة التي بدت كحقيقة حتمية . لقد سلك النظام الاردني سياسة الانفراج الداخلي ، وذلك بالافراج عن المعتقلين السياسيين ، والعفو عن المحكومين في الخارج والسماح لهم بالعودة الى الاردن . وكذلك فلقد حاول ، ان يجدد الاتصال بحركة المقاومة حين بدأ يتحدث عن موافقته المشروطة على عودة حركة المقاومة (الشريفة) الى الاردن ، ضمن الدعوة التي نشأت ذلك الحين لاحياء الجبهة الشرقية . ولكن هذه المحاولة لم تؤد الى النتيجة المرجوة .

ولقد حاول النظام ان يلعب ورقة الانفراج الداخلي ، لفك عزلته العربية التي كانت تحيط به ، ومن هنا سعيه لزيارة القاهرة متصورا ان تلك الزيارة يمكن أن تكون مفتاح فك عزلته العربية . وبالاضافة لهذا فلقد « كابد » النظام لفتح الطريق الى موسكو وتأمين زيارة للملك حسين الى الاتحاد السوفييتي . ولقد بلغت اللهفة الاردنية على تأمين الدعوة الى حد أصبح خبر تذكير الحكومة الاردنية للسفارة السوفييتية في عمان ، حول رغبة الملك حسين في زيارة موسكو ، يحتل ركنا ثابتا تتناقله أجهزة الاعلام .

حرب تشرين وتحرك الاردن لمواجهة مشروع الدولة الفلسطينية :

اثر حرب تشرين وتصاعد احتمالات التسوية السلمية الشاملة ، أصبح موضوع الدولة الفلسطينية ومسألة اشتراك الفلسطينيين في التسوية أمرا مطروحا على كافة الاصعدة العربية والدولية وبدأ الاردن يعيش نسبيا حالة من الانزواء السياسي ، في الوقت الذي كانت به منظمة التحرير الفلسطينية تكسب الاعتراف ، تلو الاعتراف ، بأنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، وما لهذه المسألة من اثر كبير على دور الاردن السياسي ، ولعل الملفت للنظر في هذا الصدد ، هو شبه الاجماع الذي أعطاه مؤتمر القمة العربي الاخير الذي انعقد في الجزائر ، بالنسبة لمسألة تمثيل الشعب الفلسطيني . واذا كان متوقعا موقف عدد من الدول العربية المتعاطفة مع المقاومة والتي عرفت بعلاقتها التضامنية والوثيقة معها ، فان الذي ما كان متوقعا هو موقف عدد من الدول العربية ، ذات العلاقات التاريخية بالنظام الاردني والتي عرف عنها ترابط

مصالحها مع مصالح الاردن ودوره في المنطقة ، وما عرف عن تلك الدول من علاقة وثيقة بالسياسة الاميركية . ولا يمكن الفصل بين هذا الوضع والبرود الذي استمر يطبع العلاقات الاردنية ـ الاميركية .

ان النظام الاردني لم يستسلم للوضع الجديد الذي فرض نفسه على المنطقة ، وبدأ مبكرا بنشاط كثيف وعلى كافة الاتجاهات محاولا ربط الاردن بخيوط سياسية جديدة ووصل ما انقطع منها . لقد حاول النظام الاردني استكمال سياسة الانفراج الداخلية التي بدأها ما قبل حرب تشرين ، وعاد الى سياسته القديمة ، محاولة الالتقاء في منتصف الطريق مع مشروع الدولة الفلسطينية وحركة المقاومة ، اذ تقدم بسلسلة من العروض لتقاسم السلطة في الاردن مع حركة المقاومة ، ولقد كشف الاخ ابو عمار رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، جانبا من هذه العروض ، اذ أشار الى ان الملك حسين قد عرض عليه رئاسة الوزارة ، ولكنه رفضها ، وذلك بتصريح شهير له في الكويت . ولقد صعد النظام حديثه عن استعداده لاجراء تبديل حكومي بحيث يؤتى بحكومة ذات صبغة وطنية ، وبرئاسة أحد الاشخاص الشرق أردنيين المحسوبين على الحركة الوطنية . ولقد كان النظام يصعد من وعوده واستعداده « للتنازل » أمام حركة المقاومة ، مستغلا كل خبرته في اتقان فن التراجع في اللحظات الخطرة والحرجة ، والتي تعلمها جيدا في تجربته مع الحركة الوطنية في عامي ٥٦ و ٦٧ . وذلك بترويجه لدعوة تناقلتها الانباء عن استعداده لترك السلطة الى حركة المقاومة وان يصبح ملكا دستوريا فقط . في محاولة منه لاستدراج حركة المقاومة لعقد صلح معه على الطريقة التي استدرج بها الحركة الوطنية عام ٥٦ ،لكن المقاومة هذه المرة لم تقع في الفخ الذي نصبه النظام لها .

ان سياسة النظام بالالتقاء مع حركة المقاومة الفلسطينية في منتصف الطريق بعروضه لتقاسم السلطة مع حركة المقاومة . هذه السياسة اقترنت بنشاط على الصعيدين العربي والدولي في محاولة من النظام للاتكاء على تلك النشاطات لتعزيز موقفه في لعبة التسوية ، ومن هنا كانت زيارته الدراماتيكية لسوريا في وقت كان فيه تمايز الموقف السوري عن مثيله المصري قد بلغ الذروة . زيارة الملك حسين لسوريا في تلك الفترة كانت محاولة ذكية للعب الورقة السورية في وجه أميركا ، ولكن (تضامن) الاردن مع سوريا لم ينته لشيء يذكر وبقيت الزيارة في أطار بروتوكولي محض . ولم يكن ثمة مجال لنتائج أفضل ، اذ أن الافق الاردني لتلك الزيارة ، كان في حدود اثارة (غيرة) اميركا كي تمنحه دورا في التسوية السياسية المطروحة .

في الوقت نفسه فقد حاول النظام الاردني أن يلعب ورقة المعسكر الاشتراكي ، متخذا بوابة له رومانيا ، التي قام الملك بزيارتها ، ولكن تلك الزيارة لم تسفر عن نتيجة ، بل على العكس من ذلك فان موقف تشاوشيسكو رئيس وزراء رومانيا ، كان جليا في تأييده لمشروع الدولة الفلسطينية ، اذ صرح بذلك علانية اثر لقائه مع بعض اركان حركة المقاومة الفلسطينية خلال زيارته الاخيرة لبيروت .

سبقت هذه التحركات المكثفة ، داخليا ، فلسطينيا ، عربيا ، ودوليا ، زيارة الملك حسين لبريطانيا في طريقه للولايات المتحدة الاميركية ، محاولا اضافة الورقة البريطانية ، لجملة الاوراق التي اعتقد انها بيده كأداة ضغط على الولايات المتحدة الاميركية ، كدليل حسي على انه يستطيع اللعب بعيدا عنها !!

ان النظام الاردني بخطواته هذه ، كان قد تحرك بعيدا عن الدور المرسوم لاداة امبريالية . لقد حاول أن يتصرف بدرجة من الاستقلالية وان يجري اتصالاته بوحي من هذا الشعور ، ولكن الولايات المتحدة الاميركية ، لم تتعود ان تمنح الانظمة التابعة لها

هذا المدى من الاستقلالية ، ومن هنا كان يجب حدوث شيء ما قبل وصول الملك واشنطن حتى يجرد من كل الاوراق التي ظن انه امتلكها . وكان ان قطعت زيارته للولايات المتحدة قبل وصوله اليها ، اذ وهو يستعد للاقلاع اليها من مطار لندن ، وصلته انباء التمرد العسكري في لواء الاربعين . . والذي امتد ليشمل قطاعات اخرى من الجيش الاردني .

هناك العديد من التفسيرات والتعليقات حول طبيعة التمرد العسكري في الاردن مستوحاة من البيانات التي صدرت عن قادة المجموعة المتمردة ، والتي تتحدث عن مستوى المعيشة ، وفارق الرواتب والامتيازات بين الضباط والجنود وكذلك الفساد المستشري بين كبار الضباط ، وغيرها من الاسباب الاجتماعية .

لقد سيس البعض حركة التمرد تلك اذ عللوها بالاحتكاك بين الجيش الاردني ، والجيشين السوري والعراقي في معارك تشرين واثر هذا في اطلاع الجنود الاردنيين على حقائق جديدة ولدت في نفوسهم الرغبة في التمرد ، وعبروا عن هذه الرغبة بحركة التمرد الاخيرة . ولا يمكن التقليل من اهمية هذه العوامل في خلق حالة تمرد ، بالنسبة لاي وضع بشكل عام ولكن بالنسبة لحركة التمرد الاردنية ، فلا يمكن تجاهل عنصر أساسي كان له دوره ، وان حركة التمرد لم تكن لتخدم تحقيق قضايا مطلبية فحسب ، بل كانت جزءا من سياق الصراع السياسي ونوع من هز العصا للنظام الهاشمي ، ولكن كيف ؟

١ — ان حركة التمرد تلك والتي شملت قطاعات واسعة من الجيش الاردني ، لا يمكن الا ان تكون مسيسة ، وخلفها قوة كبيرة تنظم بينها وتنسق أمورها . وبالتأكيد فان القوة السياسية لا يمكن ان تكون تقدمية ، والا لكانت دفعت الامور في الاردن الى درجة اعلى من التغيير تستهدف كل بنية النظام .

٢ — لقد أصبح من الثابت ان تأخر تحرك اللواء ٦٠ واللواء ٩٠ قد كشف طبيعة التحرك اذ ان السفارة الامريكية في عمان كانت قد أبرقت للخارج بتحركهما قبل التحرك الفعلي لهما ، ولقد التقطت الخارجية الاردنية تلك البرقية ، وكانت عنصر الاتهام للولايات المتحدة الامريكية والتي ادلى بها الملك في لقائه المغلق مع بعض من الشخصيات والرسميين في الاردن .

٣ — يفيد شهود عيان ان أجهزة الامن الاخرى وبالذات المخابرات والتي يتزعمها محمد رسول الكيلاني ، لم تحرك ساكنا لمواجهة التمرد .

٤ — ان طلبات المتمردين السياسية ، باقصاء عدد من الشخصيات السياسية والعسكرية الاردنية وجهت لاشخاص عرف عنهم ارتباطهم التقليدي ببريطانيا . وغاب عن قائمة الطلبات شخص كالشريف ناصر ، والذي يشكل نموذج الفساد السياسي في الاردن بالمقارنة مع بقية الاشخاص ، وارتبط اسمه تاريخيا بالتهريب والرشاوى وتجارة السلاح والحشيش . ولم تمر فضيحة في الاردن من هذا الطراز الا وللشريف ناصر دور فيها .

٥ — ان حالة التمرد تلك التي شلت المؤسسة العسكرية الاردنية ، كانت أكبر من ان تلبس لقضايا مطلبية فقط . وحركة في هذا الحجم انتهت بعد مدة وجيزة على طريقة لا غالب ولا مغلوب . بالرغم من حساسية النظام تجاه اي تخلخل يصيب هذه المؤسسة والاجراءات القمعية الشديدة التي تواجه بها عادة .

اخيرا : ان تصريح الملك حسين في الاجتماع المشار اليه سابقا ، والملاحظات السابقة ، تؤكد ان حركة التمرد كانت عملية امريكية **تستهدف هز العصا وبعنف هذه المرة في وجه الملك حسين ، وبطريقة تتمايز عن الطريقة التي لوحت بها عبر مشروع**

بورقيبة ، بدولة فلسطينية من الضفتين ، وكأنها تضع الملك حسين في خيار صعب بين ان يخسر الضفة ، او ان يخسر الضفتين معا . ونتيجة لتحرك الملك بعيدا عن المخطط الامريكي ، كان تحريك الجيش لافهام الملك حقيقة قدرته على اللعب بعيدا عن اميركا . وكان هذا الدرس ضروريا للملك حسين وبالذات وهو على وشك الاقلاع من لندن الى واشنطن . كان الامر ضروريا ليعود الملك حسين الى عمان ... وليمهد مرة أخرى لزيارة واشنطن ، في ظل ظروف مناسبة من وجهة النظر الاميركية ، بعد ان افهم حقيقة الاوراق التي حاول ان يلعبها . وانتهت الزيارة بمضاعفة المساعدات العسكرية للاردن الى ثلاثة اضعاف وسط اخبار متزايدة عن نجاح الزيارة !!

ان الفتور الذي اصاب العلاقات الاميركية ــ الاردنية كان مدخلا للحديث عن استغناء الولايات المتحدة عن الاردن ، وان الضفة الشرقية ستكون في النهاية ملحقا للضفة الغربية ، لان مصدر حياة الاردن هو بالضفة الغربية . ولعل هذا ما يستدعي وقفة مطولة لمحاولة تصور المرحلة القادمة من العلاقات الاميركية ــ الاردنية . وما هو الدور الذي يمكن للاردن ان يلعبه في ضوء التطورات السياسية المحتملة في المنطقة وبالذات في ضوء امكانية انتزاع الضفة الغربية .

ان الخلاف بين الاردن واميركا يبقى في اطار الخلاف بين الامبريالية وادواتها . ووصول الامور الى درجة تحريك الجيش ، لا يعني ان علاقاتهما قد انتهت ، ولا يعني من الناحية الاخرى ان دور الكيان ــ الاداة قد انتهى هو الاخر . لقد هزمت فكرة الكيان من الضفتين ، وبعد عملية الترويض الاخيرة ، وصل النظام الاردني الى هذه النتيجة واصبح أكثر مرونة في تقبل دوره كاحتياطي جاهز ليمثل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف . والامبريالية في موقفها هذا تضحي بمصلحة جزئية لعميل من الدرجة الثانية ــ الاردن ــ لكي تمر التسوية السلمية كما تفهمها على انها انتهاء لحالة التوتر في المنطقة وذلك بتصفية القضية الفلسطينية .

ان طبيعة الوضع الجديد الذي يعيش الاردن احتمالاته ، الا وهو احتمال انفصال الضفة الغربية ، ولتشكيل دولة فلسطينية عليها ، يجعل من حاجة الامبريالية للاردن ، وحاجة الاردن للامبريالية حاجة ماسة وضرورية اكثر من اي وقت مضى . ان انتزاع الضفة الغربية سيزيد من ضعف مقومات الحياة للنظام الاردني ، وسيزيد من اعتماده على المساعدات الخارجية لضمان قدرته على الحياة ، وفقط دعم الامبريالية السياسي والاقتصادي هو الذي يمكن ان يجعل الاردن قادرا على البقاء والوجود .

وبالمقدار الذي تحتاجه الاردن لدعم الولايات المتحدة ، فان احتمالات المستقبل تبقى عاملا هاما في ذهن مخططي السياسة الاميركية . فبالاضافة الى الدور التقليدي الذي اداه هذا الكيان في وجه رياح التغيير في المنطقة ، وكموقع انطلاق للتآمر على سوريا والعراق بالذات ، فان كيانا عازلا كالكيان الاردني هو الكيان المناسب تماما للامبريالية لاجهاض اي تنازلات نسبية قد تقدمها الامبريالية . وبالذات على صعيد الدولة الفلسطينية المقترحة على الضفة . ان كيانا سياسيا للفلسطينيين ترتبط درجة خطورته بالشروط الموضوعية التي تحيط به ، والتي تحدد بالتالي الدور الذي يستطيع ان يلعبه . وان الامبريالية تعمل جاهدة وتخطط لاجهاض الاحتمالات التي قد تؤدي الى أن يكون هذا الكيان كيانا ثوريا .

ان تخلي الامبريالية عن الكيان الاردني في الضفة الشرقية سيضعه في موقع المنفعل بما يجري في الضفة الغربية ، وتطورات الأحداث ستجعل من الضفة الشرقية بعدا جغرافيا للضفة الغربية ، واحتمال ابتلاع الضفة الشرقية يصبح عندها امرا واردا مما

يفتح المجال واسعا لوحدة جديدة بين الضفتين بحيث تمتلك الدولة الفلسطينية عندها حدا معينا من المواصفات التي يجب ان تتوفر لاي كيان سياسي .

ان الامبريالية ليست من الغباء بحيث تترك المجال لتحقيق فكرة طالما نادى بها الثوريون الفلسطينيون والعرب ، بتحويل عمان الى هانوي العرب . وبالرغم من ان هذا احتمال بعيد ولكن تخلي الامبريالية عن الضفة الشرقية سيجعلها موضوعيا بعدا اقتصاديا وسياسيا للضفة الغربية ، لانه معروف جيدا ان امكانات الضفة الغربية تؤهلها لهذا الدور ، لو جردنا الضفة الشرقية من العوامل السياسية التي تجعلها هي المتحكمة بالضفة الغربية .

ان الكيان الاردني في الضفة الشرقية سوف يلقى كل مساعدة من الامبريالية ، لكي يكون هذا الكيان قادرا على أن يشكل سدا في وجه الدولة الفلسطينية المقترحة ولكي يبقى قادرا على الدوام على التأثير في مجريات الامور في الضفة الغربية . وقدرة شرق الاردن على القيام بهذا الدور الضروري والحيوي جدا للامبريالية ، رهن بخلق الكيان النموذجي في الضفة الشرقية ، وذلك بجعله قلعه عسكرية جاهزة للضرب في الاتجاه الذي تريده الامبريالية ، وبخلق وضع اقتصادي جيد للمواطنين الاردنيين لتمييع اي مظهر من مظاهر الصراع الطبقي ، وللحفاظ على ارقى درجات التماسك لهذا الكيان . وليس صعبا او مستحيلا على الامبريالية الصرف على دولة من مليون مواطن مقابل الدور الذي ستؤديه ، وجعلها تعيش اوضاعا اقتصاديا كالتي عاشتها اسرائيل في مراحل حياتها الاولى ، اي (منطق الكعكة الكبيرة) الذي يسمح لكل مواطن ان يأخذ نصيبا من هذه الكعكة .

ان احتمالات المستقبل تجعل من الدور الذي يمكن ان يؤديه الكيان الاردني دورا ضروريا ، سواء على صعيد الدور التقليدي الذي اداه منذ انشائه ، في العشرينات ، او دوره الضروري جدا ، في مواجهة احتمالات تطورات الدولة الفلسطينية ، ولابقاء ذلك الدور في الاطار الذي تتصوره الامبريالية .

ان استمرار مصالح الامبريالية في المنطقة سيعنى قطعا استمرار تدعيم الامبريالية الكيانات التي تخدم هذه المصالح . بعد ان اثبتت التجارب ان الانظمة العميلة هي أداة اقل ضمانا من الكيانات العميلة ، ولنا في النظامين الهاشميين في العراق وسوريا ، والدور الذي اريد لهما في خدمة مخططات بريطانيا منذ العشرينات ، حيث سقط النظام الهاشمي في العراق بالرغم من وجود سلطة عميلة حاكمة ، بسبب امتلاك العراق لمواصفات الدولة . وعدم اختلاق الكيان كما هو الامر بالنسبة للاردن ، حيث تناسب دور الكيان مع دور النظام في خدمة مخططات الامبريالية .

النظام الاردني يحتفظ بدور الاحتياطي لمنظمة التحرر

بالرغم من قبول النظام الاردني بفكرة انفصال الضفة الغربية ، بعد فشل كافة تحركاته لتجنب هذه النتيجة ، فان الاردن لم يقدم على اعلان موقف قاطع ونهائي بالتنازل نهائيا عن حقه بتمثيل الفلسطينيين ، بالرغم من ان هذا الاعلان كان متوقعا منه بعد كل عمليات الترويض ، وبالذات بعد زيارته الاخيرة للقاهرة .

ان عدم اعلان الاردن عن هذا الموقف هو نوع من تجنب اي موقف مفاجيء من قبل المقاومة بعد حرق الورقة الاردنية نهائيا . اذ ما زال هنالك شك من قبل المعنيين بموضوع التسوية بأن تذهب المقاومة الى جنيف . وحرق الورقة الاردنية سيحرر المقاومة من أداة ضاغطة عليها وسيزيد من قدرتها على املاء شروطها . لذا فان عدم اعلان الاردن عن تنازله عن مسألة تمثيل الفلسطينيين تبقي النظام الاردني ولآخر

لحظة ، احتياطا جاهزا لمنظمة التحرير . وفي الوقت نفسه ، تبقى الورقة الاردنية في يد اطراف عديدة كأداة ضغط على حركة المقاومة لكي تشترك في المؤتمر المذكور ضمن الحد الادنى من الشروط .

ان عدم اعلان النظام الاردني عن موقفه بالتنازل عن حقه بتمثيل الشعب الفلسطيني بالمقدار الذي ينسجم مع دوره كاحتياطي لمنظمة التحرير ، ان هي رفضت الذهاب الى جنيف ، فبالمقابل ، فان هذا الوضع يبقي المجال مفتوحا امام مراهنة النظام على احتمال فشل التسوية الشاملة ، وامكانية عقد تسويات ثنائية بين اسرائيل والدول العربية ، وهذا ما يجعل من مسألة عودة الضفة الغربية للاردن أمرا محتملا أكثر . ولعل مراهنة النظام الاردني على هذا الاحتمال ، هو سبب تبدل طبيعة العلاقات بين النظام في عمان، والضفة الغربية . اذ استأنف النظام دفع المرتبات للموظفين في الضفة الغربية ، وعاد لتنشيط علاقاته مرة اخرى مع ركائزه هناك . حيث عادت الدنانير الملكية للظهور مرة اخرى في الضفة .

النزعة شرق اردنية وتمهيد الاجواء لتقبل فكرة الانفصال

بالرغم من المحاولات المستميتة التي اقدم عليها النظام الاردني للاحتفاظ بالضفة الغربية . ولكنه كان يدرك ، ان امكانية خسارته للضفة الغربية ، مسألة واردة بدرجة عالية في ضوء الجهود الضخمة التي تبذل لنجاح التسوية الشاملة ، وفي ضوء التأييد الذي كسبته المنظمة ، ولعل هذا هو السبب وراء سياسة النظام الاردني التي أخذت جانب المحافظة على المملكة في الضفة الشرقية ، في الوقت الذي كانت تجري فيه محاولاته لاستعادة الضفة الغربية . وتصب نزعة الشرق اردنية في صلب هذا السياق ، حيث بدأت الاحاديث السياسية تكثر عن خلافات الاسرة الحاكمة بشأن مستقبل الضفة الغربية ونغمة المشاكل التي تولدت عن عملية الارتباط هذه ، وذلك لتصوير فكرة الانفصال بين الضفتين ، كتخليص للضفة الشرقية من المشاكل التي خلقت لها نتيجة لارتباطها بالضفة الغربية !

ان تصعيد هذه النزعة الاقليمية ، باتجاه الانفصال ، انما هي توطئة ذهنية للراي العام الاردني لقبول فكرة الانفصال ، بدون ان تولد ردود فعل لدى الناس تجعلهم يشكون بجدية دولة من الضفة الشرقية فقط . وقد لا يكون مستغربا وجود نزعة أقليمية في الاردن لطبيعة تشكيل المملكة الاردنية . ولكن نزعة التعصب الاقليمي ، لا تبلغ حدود التبشير بالانفصال . ان الدعوة للانفصال عادة تأتي من المضطهدين وليس من المستفيدين كما هو الحال بالنسبة للضفة الشرقية . وان كان عامة الناس لا يعرفون هذه الحقيقة ، ولكن المسئولين على الاقل يعرفون اهمية الضفة الغربية بالنسبة للاردن ، حيث منح دمجها مع الضفة الشرقية لملكة الاردن ، الحد الادنى المطلوب من مؤهلات الدولة . وبالذات على الصعيد الاقتصادي حيث ان اطلاق وصف (الدجاجة التي تبيض ذهبا) على الضفة الغربية معبر تماما عن الحقيقة ويعرفها المسؤولون الاردنيون اكثر من غيرهم . ولذا فلا يمكن لنا اعتبار تنشيط النعرة الشرق اردنية الا كمحاولة من النظام للحفاظ على (دولته) في الضفة الشرقية .

اسرائيل : بين الرأسمالية والاشتراكية

كين ميير كورد

« هل يمكن أن تتعايش الرأسمالية والاشتراكية في اسرائيل ؟ » كان هذا هو السؤال الذي طرحه مؤخرا السكرتير العام لمنظمة العمل الاسرائيلية ، الهستدروت . وهو بذلك قد طرح السؤال الذي أزعج اسرائيل عبر تاريخها ، الا انه اليوم يشكل ازعاجا حادا اكثر من أي وقت مضى . ان الحلم الصهيوني المبكر ، في اقامة دولة الرفاه لليهود على أرض فلسطين ، مطروح ضمن البرنامج السياسي لحزب العمل الاسرائيلي الحاكم، والذي يدعي بأنه حزب اشتراكي . ولكن قادة العمل الصهيونيين في اسرائيل قد فشلوا، برغم نياتهم الحسنة ، في اقامة دولة اشتراكية . فمع أن القطاع العام يسيطر على الاقتصاد الاسرائيلي ، الا ان الحرية متاحة للمشروعات الخاصة في سعيها من اجل الربح . ومع ان الخدمات العامة مؤمنة الان لقطاع كبير من السكان ؟ الا ان الفروقات الاجتماعية ما زالت قائمة ، ومآسي المجتمع الراسمالي التي تأخذ تعبيرها في الاضطراب الاجتماعي لا زالت تجتاح البلاد . '

ان فشل اسرائيل في تحقيق دولة الرفاه التي تخيلها الصهيونيون الاوائل مرتبط بفشل اسرائيل في تحقيق حلم صهيوني آخر ، الحلم بوطن قومي يهودي مستقل اقتصاديا . فاسرائيل تعتمد على الدعم المالي من البلدان الراسمالية الغربية ، وهذا الاعتماد يحبط محاولاتها في الوصول الى اهدافها الاشتراكية . ولم يكن القادة الاسرائيليون وحدهم الذين تعين عليهم ان يكيفوا معتقداتهم الاشتراكية مع الايديولوجية الراسمالية السائدة في الغرب ، بل تحتم على الاقتصاد الاسرائيلي ايضا ان يتقولب بقالب راسمالي وذلك بفعل سياسات الحكومات الغربية ومطالب الراسماليين الاجانب . ان المساعدات التي تقدمها الحكومة الاميركية والمؤسسات المرتبطة بها ، مثل البنك الدولي ، الى الدول النامية ترمي ، كهدف اولي لها ، الى تشجيع الاقتصاد الحر والاستثمار الاجنبي الخاص بصورة خاصة(١) . ولهذا السبب ، فان القرض الذي قدمته الوكالة الاميركية للتنمية الدولية في العام الماضي لاسرائيل ، وهو قرض من اجل الاسكان بلغ ٥٠ مليون دولار ، لم يقدم الى الحكومة الاسرائيلية وانما اعطي لبنك خاص هو بنك تيفاحوت . والراسماليون الاجانب الذين يقدمون الدعم السياسي والمالي لاسرائيل لا يفعلون ذلك من أجل لا شيء. فحين كان آل روتشيلد مثلا ، يسهمون في زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين اثناء الانتداب ، كانوا يضمنون نجاح استثماراتهم الموظفة في الصناعات الرئيسية في فلسطين مثل شركة نيشر للاسمنت ، والمطاحن الكبرى ، وشركة كهرباء فلسطين . واليوم هناك الاشخاص امثال الاميركي سام روتنبرج ، رئيس شركة « البوندرايف » ومؤسسة الاستثمار الاسرائيلية ، الذين يجمعون بذكاء بين العمل الخيري وجني الارباح .

ان الراسماليين اليهود ، كغيرهم من الراسماليين ، هم مخلوقات تسعى وراء الربح، واسرائيل بالنسبة للكثيرين منهم ، مثل اية مستعمرة اخرى ، موجودة لكي يجري استغلالها . وطالما ظلت اسرائيل معتمدة على الراسماليين الاجانب وحكوماتهم، فستظل

مرغمة على ان تبقي ضمن نظامها الاقتصادي على قدر من الرأسمالية يسمح بتحقيق الارباح .

منذ ١٩٦٧ تضاعفت ديون اسرائيل ثلاث مرات ، مما يؤكد ان اعتمادها على الدعم الخارجي قد ازداد بشكل كبير منذ ذلك الوقت . ومن ثم كانت اسرائيل مضطرة ان تمنح امتيازات كبيرة للمستثمرين الاجانب . وحتى قبل حرب حزيران كان الركود الاقتصادي الكبير الذي شهدته اسرائيل قد دفع الحكومة لكي تعدل قانونا قديما « لتشجيع استثمار رأس المال » في عام ١٩٦٦ ، من اجل تأمين التسهيلات المالية للمستثمرين الاجانب ، الذي تضمن بالاضافة الى الاعفاء من الضريبة ، تعويض رأس المال ، وامتيازات اخرى كان قد تم الاتفاق عليها . وبهذا التعديل قدمت الحكومة للمستثمرين الاجانب منحة تغطي ٣٣ ٪ من استثماراتهم في مجال المعدات و٢٠ ٪ من استثماراتهم في الاراضي والمباني . وبالاضافة الى قروض التنمية التي قدمتها الدولة للاستثمارات « الموافق عليها » ، أصبح بامكان أي مستثمر اجنبي بفعل المنح المقدمة ان يباشر مشروعا اذا أمن ٢٠ ٪ فقط من رأس المال فقط اذ تأتي الـ ٨٠ ٪ الباقية من الحكومة(٢). وفوق ذلك فالقروض التي تقدمها الحكومة هي قروض « غير مربوطة » بمعنى انها لا تتعدل عند حدوث ارتفاع في الاسعار ، مما يجعلها في الواقع قروضا بدون فوائد . وقامت الحكومة في السنوات الاخيرة بخطوة اخرى لتجعل الاقتصاد مفتوحا امام الاستثمارات الاجنبية . ففي عام ١٩٧٠ تبنت الحكومة سياسة بيع الشركات العامة الى اصحاب الاستثمارات الخاصة . وحتى عام ١٩٧٢ كانت ٣٢ شركة قد بيعت ، بل ان الحكومة ، في حالات كثيرة ، ضمنت للمشترين ايرادات عالية على استثماراتهم . وفي عام ١٩٧٠ أيضا استبدلت الحكومة سياسة سابقة بسياسة مناقضة لها وبدأت تبحث عن قروض أجنبية . ونتيجة لذلك قفزت القروض الخاصة من الخارج من ٥٠ مليون دولار عام ١٩٦٩ الى ٢٠٠ مليون دولار في عام ١٩٧١ . وفي العام الماضي حصلت الاستثمارات الاجنبية العاملة في بناء الفنادق على اعفاءات من الضريبة ومعونة على رسوم الواردات وذلك للمرة الاولى(٣).

ولكن بالرغم من هذه الاغراءات ، أظهر المستثمرون الاجانب ترددا واضحا في اقدامهم على الاستثمار في اسرائيل . فمن أصل ٤٠٠ مليون دولار من الرأسمال الاجنبي الذي وظف في اسرائيل بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٠ كان هناك ٢٠٠ مليون دولار فقط تمثل استثمارات مباشرة . وفي عام ١٩٧٠ كان صافي الاستثمار الاجنبي ٥٤ مليون دولار فقط، وهو اقل بكثير من الاموال التي كانت موظفة في عام ١٩٦٣ والتي بلغت انذاك ١٦٢ مليون دولار(٤). وفي بعض الحالات ، كما حصل في شركة « عراد » للكيماويات ، كانت الحكومة مرغمة ان تؤمن للمستثمرين الاجانب كل ما دفعوه عندما خسر المشروع المشترك الذي قاموا به مع الحكومة . ان الرأسمال الاجنبي الذي دخل البلاد قد وظف بالطبع في قطاعات الاقتصاد المربحة ، وهي اجمالا ليست القطاعات التي ترغب الحكومة في تطويرها . فالشركات الاجنبية مثلا هي التي تسيطر الان على تطوير العقارات المدينية . ففي العام الماضي باعت شركة اسرالوم ، وهي شركة مختصة في بناء شقق فخمة لليهود في الخارج ، « بيوتا ثانية في اسرائيل » لاشخاص غير اسرائيليين بما قيمته ١٢ مليون دولار . وتقوم الشركة في الوقت الحاضر بتشغيل اكثر من ٢٥٠ مليون دولار لبناء شقق تشكل ٢٠ ٪ من مجموع المنازل الاسرائيلية التي يجري اعدادها للاجانب . وفي العام الماضي اشترت مجموعة سترن اللندنية اكبر شركة بناء اسرائيلية هي شركة بان — لون والتي كان يملكها اسرائيلي . ومن المجالات الاخرى التي يقدم عليها الاستثمار الاجنبي ، بناء الفنادق حيث ارتفعت الاستثمارات فيه من ٧٩ مليون ليرة اسرائيلية

في الاشهر الستة الاولى من عام ١٩٧١ الى ١٩٣ مليون ليرة اسرائيلية في الفترة المماثلة من العام الماضي . وهذا ، بينما يبحث المستثمرون عن اكثر المجالات ادرارا للربح ، يبقى على الحكومة ان توظف اموالها في المناطق ذات الاولوية الاولى في التنمية ، مثل النقب والجليل الاعلى ، وهذه التوظيفات تنتهي عادة بنتائج مدمرة . مثال ذلك الخسائر التي لحقت بشركتين حكوميتين في النقب حيث خسرت شركة عراد للكيماويات ٩٠ مليون ليرة وشركة ارون للفوسفات ٧٠ مليون ليرة اسرائيلية(٥).

الى جانب الاهمية التي يتمتع بها الاستثمار الخاص ، ادت حاجة اسرائيل المتزايدة الى المساعدات من العالم الرأسمالي ، الى دفع البلاد بعيدا عن الاقتصاد الاشتراكي . ومن الادلة على ذلك انخفاض دور المصالح الاقتصادية شبه الحكومية التي يسيطر عليها الهستدروت . فبين عامي ٦٦ و١٩٧٠ انخفض نصيب مشروعات الهستدروت في صافي الانتاج المحلي من ٤ر٢١ ٪ الى ٩ر١٨ ٪ . وفي بعض القطاعات كان الانخفاض على النحو التالي : في الصناعة من ٥ر١٩ ٪ الى ٤ر١٦ ٪ ، في البناء من ٩ر٢٨ ٪ الى ٤ر٢٢ ٪ وفي النقل من ٥ر٢٤ ٪ الى ٧ر٢٠ ٪(٦). من الصعب تحديد نصيب القطاع العام في الانتاج الكلي وذلك لان الدولة تدخل طرفا في ملكية عدد كبير من الشركات الخاصة . ولكن التغييرات التي حدثت مؤخرا في ملكية عدد من المشروعات الرئيسية والتي يمكن تسميتها باعمدة الاقتصاد الاسرائيلي ، تؤكد ان ملكية الدولة وسيطرتها في الاقتصاد تتناقص باستمرار . من هذه الشركات مصفاة النفط في حيفا وشركة تسيم للملاحة البحرية ، وكلاهما اشترتهما الحكومة في الخمسينات عندما كانت اسرائيل اقرب الى كونها دولة اشتراكية . وقد قامت الدولة في عام ١٩٧٠ ببيع ٢٦ ٪ من المصفاة و٥٠ ٪ من شركة تسيم الى شركة اسرائيل كوربوريشن التي يملك الاجانب معظم اسهمها . واثار بيع شركة التكرير ضجة في الاوساط التجارية الاسرائيلية . ولم تكن هذه الضجة لان الحكومة ضمنت « لاسرائيل كوربوريشن » ربحا بعد دفع الضريبة قدره ١٠ ٪ واعطتها سلطة الفيتو ، وانما ايضا لان ثلث رأسمال الشركة لا يخص مستثمرين يهود بل اناسا هم اكره الناس بالنسبة لجميع اليهود ، اي يخص مستثمرين المان . لم تبال الحكومة بهذه الضجة على أي حال ، بل وسمحت في العام الماضي لاسرائيل كوربوريشن ، بأن تزيد حصتها في مصفاة حيفا الى ٥٠ ٪(٧). ولقد حدثت تغييرات مشابهة في القطاع المصرفي . فبنك الانماء الصناعي ، وهو المحرك الرئيسي للصناعة الاسرائيلية ،قد وقع تدريجيا بيد المستثمرين الاجانب . ففي عام ١٩٥٨ أسهمت الحكومة بمقدار ٩٣ ٪ من راسماله ، لكن حصتها انخفضت الى ٥٤ ٪ عام ١٩٦٧ اما اصواتها فيه فانخفضت الى ٢٦ ٪(٨). بالاضافة لذلك سمحت الحكومة في العام الماضي بافتتاح بنك أجنبي جديد ، هو بنك « فيرست انترنشنال بنك اوف اسرائيل » مما يلحق الضرر بالبنوك الاسرائيلية الثلاثة الكبرى الموجودة منذ وقت طويل. وكما حدث بالنسبة لعملية المصفاة كان منح الامتياز للبنك الجديد مثار انتقاد واسع للحكومة الاسرائيلية ، خاصة وان مالكي اسهم البنك الرئيسيين غير يهود . ومن المشروعات العامة او شبه العامة الهامة الاخرى التي بيعت كليا او جزئيا منذ ١٩٦٦ ، شركة باز للنفط ، ستيل سيتي (مدينة الفولاذ) في عكا ، خط انابيب ايلات ـــ عسقلان ، وشركة راسكو للبناء . بل انه جرى مؤخرا اعادة تنظيم الوكالة اليهودية لكي يصبح للمتبرعين الاجانب اشراف اكبر على عملية صرف الاموال في الوكالة(٩). لم تقتصر المسألة على التضحية بالاشتراكية باعتماد اسرائيل المتزايد على الرأسماليين الاجانب . ذلك انه مع السير باتجاه بنية رأسمالية للاقتصاد ، كانت اسرائيل تتحول تدريجيا الى ضحية للاستعمار الجديد . يود الاسرائيليون ان يعتقدوا بأن يكون العكس هو الحاصل ، اذ أن ازدياد دور الاجانب

في المصارف والصناعة باسرائيل انما يحول اسرائيل الى « المركز المالي لليهودية العالمية » ، ولكنهم يخطئون في تحديد من الذي يحرك الاخر . فالناقلات الجديدة التي اوصت عليها الشركة البحرية لنقل الفواكه في حيفا ، والتي تكلف عدة ملايين من الدولارات ، وهو الامر الذي فاخر به عدد كبير من الاسرائيليين ، لا يدل مطلقا على قوة اسرائيل المالية . اذ أن هذه الشركة لا تعتبر اسرائيلية اكثر مما هي شركة ارامكو عربية . والاموال التي رصدت لشراء الناقلات اتت اساسا من مصادر غير اسرائيلية وغير يهودية ، احدها شركة جنرال داينمكس الاميركية . ولقد كشفت حقيقة ملكية الشركة في شهر شباط عندما اعيد تنظيم الشركة وانتقل مركزها الى بنما حيث تبين ان ١٥ ٪ فقط من راس المال الموظف للشركة جاء من التجارة مع اسرائيل(١٠). وفي حالات كثيرة تقوم الشركات العالمية بانشاء فروع لها في اسرائيل لاغراض ضريبية ، ولا يستفيد منها الاسرائيليون اكثر مما يستفيد اهالي بهاماس من الشركات الاميركية التي تقيم مراكزها في بهاماس لكي تتجنب دفع الضرائب في الولايات المتحدة . كذلك فان ارتفاع تحويلات رأس المال الخاص الى اسرائيل ، من أقل من ١٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٨ الى ٢٠٠ مليون دولار عام ١٩٧١ انما هو دليل على زيادة الاستغلال ، وليس على التمركز . فقسم كبير من هذا الرأسمال يذهب الى المضاربة في الاراضي رافعا بذلك اسعار أراضي البناء بحيث أصبح الاسرائيليون انفسهم غير قادرين على بناء البيوت . ان القانون الاسرائيلي الخاص بالاستثمار الخيري يمكن المضاربين الاجانب من استرجاع رأسمالهم وارباحهم من خلال افراغ البلاد من ثرواتها على المدى البعيد . او ان معدلات الفائدة العالية في اسرائيل (تصل الى ٢٠ ٪) هي التي تجنب الرأسمال الذي لا يؤدي الا الى تفاقم ضغوطات التضخم في الاقتصاد الذي يولد مثل هذه المعدلات العالية للفائدة بالدرجة الاولى(١١). ومثل هذه « الاستثمارات » ليس لها سوى قيمة ضئيلة سواء بالنسبة للمواطن الاسرائيلي العادي او للاقتصاد الاسرائيلي .

ان احدى علامات ظهور الوضع الكولنيالي الجديد لاسرائيل تتمثل بوجود نخبة حاكمة والتي أصبحت فاسدة بابتعادها عن الشعب الذي تزعم انها تمثله . ان اخصائيي حزب العمل وشركاءهم في المؤسسة الحاكمة ، بتخليهم عن واجباتهم تجاه الشعب الاسرائيلي، انما يحكمون باسم طبقة الكومبرادور الصغيرة التي هم جزء منها، والراسماليين الاجانب حيث الروابط معهم لا تنفصم . ولقد كشفت الروابط الوثيقة بين النخبة وضامنيهم الاجانب بالصدفة ، وذلك عندما استقال المدير العام لوزارة الدفاع في شهر آب الماضي ليصبح نائب رئيس الشركة الاميركية العالمية ، جنرال تلفون ، مما ينم عن احتمال وجود فساد . وفي العامين الماضيين اهتزت اسرائيل عندما كشفت مجموعة من الفضائح عمق الفساد في المؤسسة الاسرائيلية . ففي عام ١٩٧١ أتهم وزير الدفاع باقتناء وبيع اثريات اسرائيلية بصورة غير شرعية . وبعد ذلك بعدة اشهر تبين انه كان للحكومة ضلع في انهيار شركة اوتوكارز الاسرائيلية لتجميع السيارات والذي الحق خسائر جسيمة بالاف الدائنين الصغار . وفي الوقت ذاته كشف التحقيق في عمليات شركة نتيفي نفت الحكومة عن قصة وضيعة حول النفاق وسوء استعمال اموال الحكومة وسرقة الاملاك العامة من قبل موظفي الدولة ، انتهت باستقالة المدير العام للشركة . ولما علم ان وزير العدل دفع لمحامي التحقيق اجورا باهظة بمعدل ٢٦٥٠ ليرة اسرائيلية في اليوم الواحد ، ثار الجمهور مما ادى الى استقالة وزير العدل يعقوب شابيرا . لكن بعد ذلك بثلاثة اشهر فقط كان لدى رئيسة الوزراء الوقاحة الكافية لتعيد تعيين صديق حياتها الى وظيفته السابقة ، وهو الامر الذي وصفه احد الصحفيين الاسرائيليين بأنه « صفعة وقحة في وجه الرأي العام »(١٢). لم تكن هذه الفضائح اكثر اثارة من التحقيق

الذي جرى في شركة عامة اخرى هي شركة فيرد فقد كشف هذا التحقيق عن اهمال من قبل السلطات يكاد يصل الى مستوى الجريمة ، اذ بلغت الخسائر التي سببها هذا الاهمال ٨٤ مليون ليرة اسرائيلية . ثم صدرت دراسة عن بنك اسرائيل في شهر كانون الاول الماضي ، لتزيد من شك المكلف الاسرائيلي في انه انما كان يدفع من أجل عدم كفاية وفساد الحكومة . فقد وجدت الدراسة انه من الشركات الاسرائيلية السبع عشرة التي تعرضت لخسائر متتالية بين عامي ١٩٦٤—١٩٦٨ كانت اثنتا عشرة منها شركات حكومية او تابعة للهستدروت ، اما الخمس الباقية فكانت غارقة في ديون حكومية مما يجعلها عمليا شركات عامة . كذلك اظهرت الدراسة ان الحكومة لا زالت مستمرة في ادارة بل وتوسيع عدد كبير من الشركات التي تتعرض للخسارة(١٣). لم يقدر التقرير مجموع الخسائر التي تسببت بها الدولة ولكنه من الواضح لمعظم الاسرائيليين ان ما دفعوه من ضرائب يزيد كثيرا على المبالغ التي اعترفت الحكومة بأنها شطبتها منذ عام ١٩٤٨ والبالغة ٤٠ مليون ليرة اسرائيلية(١٤).

ولكن المواطن الاسرائيلي ليس بحاجة الى الفضائح او الدراسات الاحصائية لكي يقتنع بأنه مستغل (بفتح الغين) . اذ يكفي ان ينظر حوله ليرى ان « تطوير » الاقتصاد الاسرائيلي انما يعني تلبية حاجات الاثرياء الاجانب ، وتمويل الشركات المفلسة التي تنتج مواد غالية للتصدير ، وتدفئة جيوب مالكي ثروات البلاد ، الاجانب والمحليين ، وتقوية آلة الحرب . وتتزايد شبكات الشقق الفخمة باستمرار ولكن ليس العامل الاسرائيلي هو الذي ينتقل اليها بل المهاجر الجديد او اليهودي الثري المقيم في الخارج . وبتزايد « أصحاب العقارات المقيمين في الخارج » ينجم وضع شاذ يتمثل بوجود حوالي ١٢ الف شقة جديدة غير مباعة وتظل مقفلة الابواب فارغة في حين تعيش ٤٥ الف اسرة اسرائيلية بمعدل ثلاثة افراد أو اكثر في الغرفة الواحدة(١٥). ولا يستطيع غير نفر يسير من الاسرائيليين ان ينزل في الفنادق الجميلة التي تمتد على طول الساحل ، كما انه يتوجب على هؤلاء ان يدفعوا اسعارا أعلى مما يدفعه السائح الاجنبي في الفنادق ذاتها . ويزداد الانتاج القومي العام في البلاد بشكل ملحوظ سنة بعد اخرى ، ولكن مستوى معيشة المواطن الاسرائيلي العادي لم يتحسن وذلك لان قسما كبيرا من الدخل القومي يذهب للرأسماليين الاجانب على شكل فوائد للقروض او ارباح للاستثمارات . وبحسب المكتب المركزي للاحصاء في اسرائيل فان الاجور الفعلية للعامل الاسرائيلي انخفضت بمعدل ١ ٪ في عام ١٩٧١ على الرغم من ارتفاع الانتاج بمعدل ٧ ٪(١٦).

من الممكن توقع رد فعل الطبقة العاملة الاسرائيلية تجاه الكولنيالية الجديدة ، اذ ان هذه الظاهرة قد حدثت قبلا في كوبا والشيلي والفليبين ومناطق اخرى ، كما انها تظهر اليوم في البلدان المتقدمة في العالم الراسمالي . ان بعض الاسرائيليين ، اليائسين من امكان الحصول على « العدالة » من خلال النظام ، يتحولون الى الجريمة وهو ما تؤكده المعدلات المرتفعة للجريمة في اسرائيل . ويحاول قسم اخر ، من أصحاب الافكار السياسية ، الاطاحة بالنظام بالوسائل الثورية ، ولذلك يتحالفون مع الفلسطينيين العرب الذين يعتقدون انهم واياهم ضحايا الاستغلال الامبريالي ذاته . ومن الدلائل على مثل هذه الحركة ، المحاكمات التي جرت في اسرائيل مؤخرا لعدد من سكان اسرائيل اليهود والعرب بتهمة القيام باعمال تخريبية . ولكن في مجتمع موحد كالمجتمع الاسرائيلي تلجأ الطبقة العاملة الى الاضرابات للتعبير عن عدم رضاها ، كما حدث في السنوات القليلة الماضية . منذ عام ١٩٧٠ ، وهو العام الذي اتخذت فيه الحكومة عدداً من القرارات الهامة التي تقلل من استقلال البلاد الاقتصادي ، بدات سلسلة الاضرابات التي أصبحت تحدث يوميا في اسرائيل . ففي ذلك العام حدث ١٦٣ اضرابا مقابل ١٠٠

اضراب في عام ١٩٦٩ ، وارتفع عدد الايام الضائعة نتيجة لذلك من ١٠٢ الف عام ٦٩ الى ٣٩٠ الف يوم في العام التالي(١٧). ونتيجة للاضراب الذي حدث في العام الماضي في شركة عيليت للشوكولاته وحدها ودام ٥٣ يوما ، زاد عدد الايام الضائعة على عدد جميع الايامالتي ضاعت باضرابات عام ١٩٦٩ . وفي شهر كانون الاول الماضي كان موظفو انجمارك في اللد، وعمال الصيانة في شركة ال ـــ عال ، وعمال شركة ميكوروت الحكومية للمياه ، و٥٠ الف معلم ، و١٠ الاف مهندس ، و٢٠ الف فني ، كانوا جميعهم اما مضربين او يخططون للاضراب . وحتى المستهلك الاسرائيلي اضرب ليوم واحد في شهر كانون الثاني احتجاجا على الزيادة الفاحشة في الاسعار . ومن الدلائل على تزايد النضال العمالي في اسرائيل ان ٦٠ ٪ من الاضرابات التي نفذت في العام الماضي قد تمت بدون موافقة الهستدروت(١٨).

أدى عدم الرضى والاحساس بالاغتراب ، وانتشار ذلك صعودا حتى المستويات الوسطى في المجتمع الاسرائيلي ، الى قيام دعوة للتغيير الجذري من قبل جناح يساري داخل المؤسسة الحاكمة نفسها . تزعم هذه الدعوة السكرتير العام للهستدروت ، يتسحاق بن اهرون ، الذي يقول بشكل جازم ان « لا صهيونية بدون اشتراكية » . ولقد واجه بن اهرون معارضة عنيفة من قبل زملائه في حزب العمل أدت الى استقالته من منصبه في شهر ايار الماضي ، وذلك عندما شعر بأن الحكومة لم تلتزم جانب الحياد اثناء نزاع حصل بين عمال التعليب وجمعية الصناعيين . لكن التأييد الشعبي الذي اعقب ذلك مكن بن اهرون من العودة الى منصبه ، وقد تدعمت قوته داخل الهستدروت بشكل كبير . وبذلك اصبح بن اهرون ، وهو الذي يلقب الصناعيين « بالافندية » يطرح مطالبه بقوة اكبر ، تلك المطالب من أجل اسرائيل اكثر اشتراكية وتخطيط الاقتصاد وفرض القيود على تدفق رأس المال . حذرت النخبة الحاكمة من ان الاقتصاد الذي يريده بن أهرون لا يشجع الاستثمارات الاجنبية ، فكشفت بذلك عن ادراكها للعلاقة السببية بين تبعية اسرائيل الاقتصادية وعدم قدرتها على أن تصبح دولة اشتراكية(١٩).

هنالك قول ماركسي مؤداه « ان تعيش في ظل الرأسمالية يعني ان تعيش في وقت مستدان » وليس هناك بلد في العالم الرأسمالي ينطبق عليه هذا القول اكثر مما ينطبق على اسرائيل . فالقيادة الاسرائيلية على مفترق طرق . فهي تستطيع ان تنتقل الى مجتمع اكثر عدالة اذا ما تخلت عن التوسع وقللت من حاجتها للدعم الغربي ، والا فستستمر في طريقها الحالي وتزداد معاناتها من الانقسامات الداخلية والقلق الاجتماعي. ومن الممكن ان يتوضح اي من الطريقين سوف تسلكها اسرائيل ، في المؤتمر الاقتصادي الذي سيعقد في القدس في شهر ايار . كان رجال الاعمال اليهود من مختلف انحاء العالم يلتقون في السابق في الاوقات الطارئة ، وقد حدث الاجتماع الاول في ١٩٥٠ وتم الاجتماع الثاني عام ١٩٦٨ . وتدل التجربة الماضية على ان المؤتمر سيتجه نحو اعطاء المزيد من الامتيازات للرأسماليين الاجانب من أجل الحصول على تأييدهم . واذا ما حدث ذلك فستنصب مساوىء المجتمع الرأسمالي على اسرائيل بشكل لم تعرفه من قبل . لانه مهما كثرت الاحاديث الاشتراكية التي تصدر عن جولدا مئير في اجتماعات الاممية الاشتراكية ، لن يكون بامكان مئير ان تقيم دولة اشتراكية في اسرائيل ، طالما هي مضطرة ان تتجه الى المراكز المالية في العالم الرأسمالي بهدف الحصول على دعمها . وسيكون على السياسة الاسرائيلية في النهاية ان تنقلب بطريقة او باخرى ، لان السؤال النهائي هو السؤال الذي طرحه بن اهرون محذرا وهو « الى اي مدى يستطيع مجتمع رأسمالي جشع ان يكبح اتجاه الانسانية في المساواة »(٢٠).

الحواشي :

١ — راجع تيريزا هايتر ، **المساعدات في صورتها الامبريالية** ، بنجوين ، ١٩٧١ ، الفصل الثاني .

٢ — **الدليل الاسرائيلي للمستثمرين** ، حكومة اسرائيل ، ١٩٦٨ ، ص ١٨ .

٣ — **الايكونوميست الاسرائيلية** ، ١٩٧٢ ص ٤٤ ، ٩٣ ، ١٨١ ، ٢٨٧ .

٤ — **التقرير السنوي** ، بنك اسرائيل ، ١٩٧٠ ، ص ٧٢ .

٥ — **الايكونوميست الاسرائيلية** ، ١٩٧٢ ، ص ٢٢ ، ١٦٣ ، ١٨٢ ، ٢٢٥ ، **والجيروزاليم بوست** (عدد دولي) ، ٢٠ حزيران و٣١ تشرين الاول ، ١٩٧٢ .

٦ — **الجيروزاليم بوست** (عدد دولي) ، ٢١ آذار ، ١٩٧٢ .

٧ — **الايكونوميست الاسرائيلية** ، ١٩٧٠ ، ص ١٩٥٨ ، و ١٩٧٢ ، ص ٧٥ .

٨ — **التقرير السنوي** ، بنك اسرائيل للانماء الصناعي ، ١٩٦٧ .

٩ — **الجيروزاليم بوست** (عدد دولي) ١٣ شباط و ٣ تشرين الاول ١٩٧٢ .

١٠ — المصدر السابق ، ٢٠ شباط ١٩٧٢ .

١١ — **الايكونوميست الاسرائيلية** ، ١٩٧٢ ، ص ٢٨٧ .

١٢ — المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

١٣ — المصدر السابق ، ١٩٧٣ ، ص ٦ .

١٤ — **الجيروزاليم بوست** ، (عدد دولي) ، ١٩ كانون الاول ، و ١٥ آب ١٩٧٢ ، و ٩ كانون الثاني ١٩٧٣ .

١٥ — المصدر السابق ، ١٨ نيسان ١٩٧٢ ، و**الايكونوميست الاسرائيلية** ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤ .

١٦ — **الايكونوميست الاسرائيلية** ، ١٩٧٣ ، ص ١٣ .

١٧ — **التقرير السنوي** ، بنك اسرائيل ، ١٩٧٠ ، ص ١٩٢ .

١٨ — **الجيروزاليم بوست** (عدد دولي) ، ١٩ كانون الاول ١٩٧٢ ، و**الايكونوميست الاسرائيلية**، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٣ و ٣٠٥ .

١٩ — **الجيروزاليم بوست** (عدد دولي) ، ١٦ أيار ، وأول آب ، و٢٢ آب ، ١٩٧٢ .

٢٠ — **المصدر السابق** ، اول آب ، ١٩٧٢ .

الكيبوتز :
تقييم نقدي

اياد القزاز

تعني كلمة كيبوتز بالعبرية جماعة . وعبر التطبيق العملي أصبحت الكلمة تعني جماعة من الناس تعيش وتعمل مجتمعة في مزرعة جماعية . فالكيبوتز هي مستوطنة جماعية ذات نظام فريد نشأت في اسرائيل . وهي من الناحية المثالية والنظرية ، مشروع جماعي قائم على الملكية العامة لمصادر الثروة وعلى تجميع العمل والدخل والمصروف . ينتظر من كل عضو ان يعمل قدر طاقته ، وهو لا يتقاضى اجرا وانما تؤمن له الكيبوتز جميع السلع والخدمات والحاجات . ومن المفترض ان الكيبوتز تقوم على العمل الطويل والالتزام المتبادل والحقوق المتساوية لجميع الاعضاء ، وتتحمل مسؤولية مادية كاملة تجاههم .

في عام ١٩٦٨ كان في اسرائيل حوالي ٢٣٣ كيبوتزا يبلغ عدد سكانها ٧٢٫٠٥٢ نسمة وتمتلك ٢٨٧٫٠٠٠ فدان من الاراضي الزراعية . وكان ذلك يشكل حوالي ٣٠ ٪ من عدد سكان الريف اليهود و ٥٠ ٪ من الاراضي الزراعية . وتتجمع هذه الكيبوتزات في عدد من الاتحادات ، ثلاثة منها كبيرة وثلاثة صغيرة . والاتحادات الكبيرة هي كيبوتز ميوحاد، وكيبوتز ارتزي ، واتحاد الكيبوتزات . اما الاتحادات الصغيرة فهي هابوعيل هاميزراحي واغودات اسرائيل ، وهاعوفيد هاتزيبيوني .

تجتاز حركة الكيبوتز ككل ، فترة حرجة في تاريخها . اذ ان هناك فروقات عديدة بين ايديولوجية الكيبوتز وبين التطبيق العملي . وهذه الفروقات هي التي تؤثر في التغييرات الحاصلة اليوم والتي ربما كانت تهدد وجود حركة الكيبوتز من أساسه . وفيما يلي نعرض بايجاز لاعراض هذه الازمة واسبابها :

(١) القولبة الجامدة للحياة ، والتي تعتبر احدى الخصائص الاساسية للكيبوتز ، تدفع أناسا كثيرين الى ترك الكيبوتز . فالمرأة التي تريد ثوبا جديدا لا تستطيع اختيار النموذج الذي تريده اذ أن اختيارها محدود بنموذجين او ثلاثة توجد في غرفة الخياطة . وبكلام آخر فان القرارات الشخصية قد أخضعت لموافقة الجماعة او احدى لجانها المنتدبة .

(٢) من المفترض بالكيبوتز انها تملك وتدير جميع وسائل الانتاج . كما يفترض ان تكون الجهة الوحيدة التي تؤمن كافة الحاجات الاستهلاكية للاعضاء وعائلاتهم . فهي ضد تراكم الممتلكات الخاصة لدى الاعضاء . ولكن يبدو ان التطبيق العملي ، في العقد او العقدين الماضيين ، كان يتناقض مع القيم الاساسية للكيبوتز . من بين هذه التطبيقات كانت عملية الادخال التدريجي للملكية الفردية والعجز الظاهر لدى الكيبوتز في التصدي لهذه المشكلة . وتشمل الملكية الفردية الكتب وأقلام الحبر والراديوات والملابس والاثاث، والتي كانت ستحول الى الكيبوتز لو ان الامور هي كما كانت في السابق .

وهناك نوع آخر من الملكية الفردية نشأ عن مدفوعات التعويضات الالمانيـــة الى الافراد . في البداية كانت جميع الكيبوتزات تعارض بشدة اتفاقية التعويضات مع المانيا. الا انها لم ترفض المدفوعات الفعلية . وقـــد اعتمدت اتحادات الكيبوتزات سياسات مختلفة حول المقدار الذي يمكن ان يسمح به للعضو للانتفاع الشخصي من التعويضات.

(٣) ومن الدلائل على الازمة ، تردد عدد كبير من الاعضاء في المشاركة الفعالة في العملية السياسية للكيبوتز وفي قبول مسؤوليات رسمية . في السابق كان حجم الكيبوتز صغيرا ، وكان جميع الاعضاء تقريبا يحضرون الاجتماعات العامة بصورة منتظمة ، كما كانت الفرصة متاحة لكل فرد لكي يساهم ويحس بأن له وزنا في اتخاذ القرارات . أما اليوم فقد كبر حجم الكيبوتز وأصبح بعضها يضم الفي شخص . وأصبح معدل الحضور أقل من ٥٠ ٪ . ومن الذين يحضرون ، هناك نسبة ضئيلة تشارك بحيوية في حين يشكو الآخرون من ان الاجتماعات مملة . ولقد ادى هذا التراخي الجماعي الى ظهور ونمو طبقة جديدة من الاشخاص مهمتهم تنظيم وادارة الكيبوتز . ولهذه الطبقة نمط متميز من العمل يباعد بينها وبين المجموع . ومثل هذه الظاهرة تشكل تناقضا مع مثل المساواة الكليـــة .

(٤) وكان التقدم في السن أحد الاسباب التي أدت الى ظهور الازمة . فالكيبوتز في أساسها هي حركة شباب . وشكلت الكيبوتز في البداية متنفسا لشباب متمرد كان يبحث عن عالم أفضل . ولكن مع تقدم الاعضاء الاوائل بالسن ، أصبحت وظيفة المؤسسة التي أوجدوها لتلبي حاجة الشباب بحكم المنتهية . وثقافة الكيبوتز تجعل من هم في منتصف العمر والكبار في السن عديمي النفع ما داموا لا يستطيعون جسديا مجاراة الشباب .

(٥) وتعتبر المراة سببا هاما في أزمة الكيبوتز الحالية . فجميع الاستقالات تقريبا تتم بتحريض من النساء ، ووراء كل هروب امرأة . فالطلب المتزايد على الملكية الفردية ومن أجل مزيد من الحرية البيتية بوجد بشكل قوي لدى النساء ، وهو ما يسبب توترا شديدا في الكيبوتز . وليس صدفة ، على أي حال ، انه باستثناء السياسة ، ليس هناك ما يشغل اهتمام الكيبوتز بقدر ما تفعل مشاكل النساء(١).

يذكر العديد من النساء أنهن يجدن حياة الكيبوتز مضنيـــة بسبب صعوبة البيئـــة الطبيعية . وهن ، لاسباب بيولوجية ، لم يقدرن على القيام بعدد كبـــير من الاعمال الجسدية مثل قيادة التراكتور والحصاد وغير ذلك ، وكن مرغمات على اخذ اجازات مؤقتة من اي عمل جسدي يمكنهن القيام به . والمرأة الحامل كان يفرض عليها ان تترك هذا الفرع من الاقتصاد وتعمل في فروع الخدمات مثل الطبخ والتنظيف والغسيل والتعليم وتربية الاطفال . اي أن المرأة لم تتحرر من عبودية الوظائف المنزلية(٢). وينظر الـــى اعمال الخدمات باحتقار لانها لا تعطي أي مردود ولانها تستهلك معظم مصروفـــات الكيبوتز . أن الكيبوتز تجعل القيمة العليا لتلك الفروع التي تعطي مردودا اقتصاديا اكبر . ولهذا السبب تنظر النساء الى انفسهن كمواطنات من الدرجة الثانية(٣).

ولدى النساء شعور بعدم الطمأنينة ، وخصوصا عندما يكن في منتصف العمر لان المناخ والعمل الشاق يجعل المرأة تصل الى مرحلة منتصف العمر في وقت اقل مما هو لدى نساء الطبقة الوسطى الامريكيات . ويشعرن بأنهن يفقدن جاذبيتهن الجنسية . وهذه المسألة أخطر في الكيبوتز منها في أي مكان آخر لان رابطة الزواج تقوم على الحب، والجاذبية الجسدية أحد عناصره . وفي الكيبوتز لا توجد عقبات كثيرة تحد مـــن فسخ الزواج ، مثل الممتلكات وتربية الاطفال وغير ذلك ، ونتيجة لعدم الطمأنينة هذه أعادت النساء المتقدمات في السن من جديد رغبتهن في الملابس . كن في الماضي يقنعن بارتداء

الشورت او بنطلونات واسعة تصلح للجنسين أو تنانير وبلوزات ، امـــا اليوم فانهن يصرن على ارتداء الفساتين(٤).

يمقت كثير من النساء فصلهن عن أطفالهن في الليل وفي الصباح الباكر . لقد كان هذا الفصل تجربة مثبطة بالنسبة للكثيرات اذ ينظرن الى ذلك على انه حرمان آخر لهن من حقوقهن الانثوية الطبيعية(٥).

ثم ان عدد الرجال يزيد كثيرا على عدد النساء وخاصة في الكيبوتزات الحديثة التي أقيمت منذ عام ١٩٤٨ . في خمسة من هذه الكيبوتزات يبلغ عدد الرجال ضعف عدد النساء واحيانا أكثر، وفي ٢٢ كيبوتزا يزيد عدد الرجال بنسبة ٥٠٪ الى ١٠٠٪ على عدد النساء ، وفي ٢٥ كيبوتزا يزيد عدد الرجال بنسبة ٢٥٪ الى ٥٠٪ على عـــدد النساء . وهذه النسبة المنخفضة لها مدلولات سلبية عديدة بالنسبة للنساء . وأهم هذه الامور ان دور النساء هو دون دور الرجال في رسم وتقرير سياسة الكيبوتز وادارتها ، سواء بالنسبة لعدد الاصوات في الجمعية العمومية أو بالنسبة للمناصب في اللجان المختلفة التي تدير شؤون الكيبوتز .

(٦) والعمل المأجور مؤشر آخر على وجود هذه الازمة . ان جميع الكيبوتزات تقريبا تستخدم الآن عمالا مأجورين من خارجها ، وفي بعضها يزيد عدد مثل هؤلاء العمال على عدد أعضاء الكيبوتز ! وبعضها تستخدم عمالاً من الخارج فقط في الزراعة أثناء مواسم الحصاد ، أو في بعض الحالات الطارئة . ان استخدام عمال من الخارج يتعارض تماما مع فلسفة وتقاليد ومعايير الكيبوتز . فذلك يتضمن وجود الاستغلال ويؤدي الى نشوء نظام من التمايز ضمن النظام . ويبرر استخدام العمل المأجور من خارج الكيبوتز على أنه ناجم عن تحول العديد من الكيبوتزات نحـــو التصنيع الذي يتطلب أعمالا ماهـــرة ومهارات متخصصة لا تتوفر اجمالا في الكيبوتز . كما ان المسؤوليات العامة للكيبوتز تسهم الى حد كبير في نقص الطاقة البشرية وفي الكيبوتز وفي زيادة استخدام العمـــل المأجور . ويقدر أن ١٠ ٪ من الاعضاء يعملون ويعيشون خارج الكيبوتز ، ولانه يفترض بها أن تؤمن عمالة كاملة لاعضائها ، فيتوجب على الكيبوتز ان تختار بين العمل المأجور وتخفيض وظائفها الاقتصادية وغير الاقتصادية الى حد كبير .

(٧) ومشكلة اخرى تواجه الكيبوتز هي تدني الرغبة في الالتحاق بالكيبوتز . ففي عام ١٩٦٤ كان يوجد باسرائيل ٢٣٣ كيبوتزا ، ٥٩ ٪ منها (تضم ٧٦ ٪ من مجموع سكان الكيبوتزات) كانت قد أنشئت قبل قيام الدولة .

لم يكن النمو وحده بطيئا ، بل ونسبة تبدل الاعضاء كانت عالية جدا . ويعترف حتى أخلص المؤيدين للكيبوتز بأنه ليس بمقدور أي كان ان يكيف نفسه جسديا ونفسيا مع متطلبات الكيبوتز غير العادية . بين عامـــي ١٩٥٦ — ١٩٦١ انضم الى الاتحـــادات الرئيسية الاربعة للكيبوتز ١١٫٦١٤ عضوا جديدا ، وغادر الكيبوتز ٣٫٨١٩ عضوا ، وبذلك بلغت نسبة التبدل في العضوية ٣٢ ٪(٦).

لقد فقد الكيبوتز جاذبيته بعد انشاء دولة اسرائيل . فالمهاجر الجديد الذي أتى في الخمسينات من بلدان اسلامية ، كان يفتقد كليا الى التدريب الايديولوجي الذي تميز به المهاجرون الاوائل . والمهاجرون الذين جاءوا من أوروبا الشرقية تولدت لديهم كراهية للحياة الجماعية ، على الرغم من انهم كانوا واعين للنظريات الاشتراكية التي تقوم عليها الكيبوتز . فالذين جاءوا من الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية يتطلعون الآن الى حياة لا تخرج عن اطار تحقيق الرغبات الفردية .

كذلك أدى انشاء دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ الى تغيير جذري في اتجاه شباب المدن

من « الصابرا » نحو حركة الكيبوتز . لقد فقدت الكيبوتز فجـأة سحرها وجاذبيتها . فالنشاطات الجديدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتعددة التي أوجدتها الدولة الديناميكية النامية بشكل سريع قد فتحت آفاقا جديدة وفرصا جديدة لابناء «الصابرا»(٧).

(٨) ليس للتمايز الاجتماعي مكان ، من الناحية النظرية ، في حركة الكيبوتز . ومع ذلك فالتمايز قائم في هذا المجتمع اللاطبقي . لقد استطاعت الكيبوتز والى درجة كبيرة ، من خلال بنيتها كوحدة اجتماعية ازالة الفروقات الاقتصادية التي تشكل قاعدة التمايز ، الا أن السلطة والمكانة الاجتماعية استمرتا في الكيبوتز كأساس للتفريق بين الشرائح العليا والدنيا . يقوم مفهوم الرتبة على الاقدمية وعلى المراكز الادارية . والرتبة الاعلى في مجتمع الكيبوتز هي ما يعرف بالشخصية المهمة . وتكون هذه الشخصية عادة قائد محلي ممن أسهموا في انجاح المشروعات الخاصـة بمجتمع الكيبوتز . وجميع هذه الشخصيات الهامة من الاعضاء القدامى وبعضهم من الرواد أو مؤسسي الكيبوتز . وفي المرتبة الثانية يأتي أيضا أعضاء قدامى ممن يشغلـون مناصب ادارية مثل رئيس عمال الحقل، رئيسة ممرضات وما شابه ذلك، ويعرفون بأنهم عمال ثابتون ومسؤولون. وفي المنزلة الدنيا يأتي العمال غير المهرة او المتنقلون ، ويتألف هؤلاء من القادمين الجدد ، والاعضاء القدامى الذين يعتبرون كسالى ولا يتحملون المسؤولية ، او أولئك الذين لا يرغب الآخرون في العمل معهم . ويكلف هؤلاء عادة للعمل في الخدمات المختلفة او في الحدائق .

من هذا العرض الموجز نرى ان الكيبوتز تجتاز مرحلة حرجـة ، وقد تنتهي هـذه التجربة الاجتماعية اذا لم تتوفر لها المساعدات من قبل الحكومة والمنظمات الخاصة .

ان للحكومة والهيئات العامة الاخرى مصلحة كبيرة في الابقاء والمحافظة على الكيبوتز.

صحيح ان الكيبوتز لم تعد تشكل العمود الفقري للقوة العسكرية كما كانت قبل عام ١٩٤٨ ، الا انها لا زالت تؤدي وظائف عسكرية عديدة تعتبر اساسية ومهمة بالنسبـة للجيش . قبل حرب ١٩٦٧ كان عدد كبير من الكيبوتزات يقوم في المناطق البعيدة القريبة من الحدود مما أعطاها وضعا دفاعيا فريدا . كذلك قدمت الكيبوتز الى سلك الضباط عددا يزيد نسبيا عن حجمها بكثير . فحوالي ثلث الضباط هم من الذين عاشوا في الكيبوتزات، وحوالي ٦٠٪ من الطيارين الجدد هم من مواليد الكيبوتزات(٨). وعدم التناسب هذا ناجم عن كون الكيبوتز مؤسسة كلية ، لها العديد من خصائص الجيش ، مثل الانضباط والنظام . فجميع اشكال النشاطات اليومية يتم تحديدها بشكل دقيق بموجب نظـام واضح من القوانين الرسمية المفروضة من فـوق . ان الكيبوتز مثل الجيش تقمـع الاهداف الفردية وتخضعها لاهداف المؤسسة خالقة بذلك ولاء قويا للمؤسسة ومشجعة على الروح القومية العدوانيـة والشخصية الجسمية القوية . وهـذا التشابه بين الكيبوتز والجيش يجعل من الكيبوتز المكان الذي يعطي ضباطا وجنودا أفضل .

وتقوم وسائل الاعلام بتصوير الكيبوتز على أنه مجتمع مثالي حيث تتحقق المساواة الكاملة للجنسين وحيث الممتلكات تعود للاعضاء مجتمعين . ومثل هذه الصورة تشكل دافعا قويا لاجتذاب الشباب والاشخاص الحالمين بالمثل .

من جهة أخرى تستطيع اسرائيل ، من خلال الكيبوتز ، ان تجعل نفسها ، ولو جزئيا، في صف البلدان الاشتراكية . واسرائيل بذلك ، تحاول الحصول على عطف وتأييد هذه البلدان لسياستها الخارجية وكذلك لسياستها على الصعيد الداخلي .

هناك عدد من أعضاء الحكومة ممن ولدوا أو نشأوا في الكيبوتز مثل الون ، نائب رئيسة الوزراء ، ودايان وزير الدفاع ، وغيرهم . وهؤلاء الاشخاص يحتفظون بعضويتهم

في كيبوتزاتهم ، ومع انهم لا يقومون بنشاطات تتعلق بشؤون الكيبوتــز مثلما كانوا في السابق ، الا انهم يستمرون في وضع برامج الكيبوتز ، داخل الحكومة وخارجها ، مثل برنامج المساعدات للكيبوتزات الجديدة ، وتشجيع المهاجريــن الجدد على الالتحـــاق بالكيبوتز . ويعتقد العديد من هؤلاء الاشخاص انه فقط عبر طريقة الحياة القائمة في الكيبوتز تستطيع اسرائيل ، كدولة ، ان تنمو وتحافظ على ذاتها في وسط بيئة معادية .

---

١ — Spiro, Melford, *Kibbutz : Adventure in Utopia,* Cambridge, Harvard University Press, 1956, p. 221.

٢ — المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

٣ — المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

٤ — المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

٥ — المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

٦ — Stern, Boris, «The Kibbutz That Was», *Washington Public Affairs Press,* 1965,.p. 92.

٧ — المصدر نفسه ، ص ٩١ .

٨ — Leslie Y. and Rabkin, Waren, «Children of the Kibbutz,» *Psychology Today,* Vol. 3, No. 4, Sept. 1969, pp. 40-48.

تطور مشروع نهر الاردن

طمان صعب

يتكون نهر الاردن* من نهرين فرعيين يعرف أحدهما بالشريعة والاخر بالاردن ، وهي نفس تسمية النهر الكبير . يتشكل الشريعة ، وهو يعرف بهذا الاسم قبل دخوله الى بحيرة طبريا ، من التقاء روافد عند سفح جبل الشيخ وأهمها الحاصباني والدان وبانياس . يجري الحاصباني ، الذي يقع منبعه العلوي في لبنان ، من حاصبيا في جنوب غرب جبل الشيخ ويمر في الزاوية الغربية من الاراضي السورية شمال جسر الغزار ، ويدخل من ثم في الزاوية الشمالية الشرقية من فلسطين . وينبع الدان في داخل اسرائيل قرب تل القاضي . اما بانياس ، الذي يقع منبعه في شمال غرب سوريا ، فانه يجري من مدينة بانياس الى جبل الشيخ ثم يدخل الى اسرائيل في أقصى الزاوية الشمالية الشرقية في نفس الحدود ، تقريبا ، التي تفصل سوريا عن اسرائيل . تلتقي الروافد الثلاثة على مسافة تسعة اميال شمال منطقة الحولة ، وينساب الشريعة من أدنى نقطة التقاء الروافد الى بحيرة الحولة حيث تزداد مياهه من الينابيع .

يطلق أسم الاردن على الفرع الاخر من النهر فيما بين بحيرة طبريا والبحر الميت . يحقق الاردن اول هبوط بارز له على بعد ميلين من أدنى الحولة وبعد تجاوزه جسر بنات يعقوب . من هذه النقطة واثناء جريانه بين بحيرة الحولة وبحيرة طبريا وعلى مسافة ١١ ميلا يهبط النهر ٩١٥ قدما ويتحول الى تيار هائج الى ان يدخل الى بحيرة طبريا . وبعد خروجه من بحيرة طبريا ، يهبط ٥٩١ قدما في وادي الاردن حتى يصل الى البحر الميت .

ان أهم روافد الاردن هي اليرموك والزرقاء والكبير . يجري اليرموك ، الذي يبلغ طوله ٢٥ ميلا ، مسافة ١٠ اميال بمحاذاة الحدود الشرقية لفلسطين ويرسم على امتداد مجراه الحدود بين سوريا والاردن ، ومن ثم يشكل الحدود بين الاردن واسرائيل على مسافة ٦ أميال الى ان يتصل بنهر الاردن . ينبع اليرموك في سوريا وتغذيه روافد عديدة تلتقي معظمها عند محطة المقارن المتاخمة للحدود الاردنية بجوار موقع السد انعالي . ويلتقي غربا بالروافد الاخرى لنهر الاردن عند جسر المجامع في نقطة تقاطع الحدود السورية والاردنية والاسرائيلية . وتعرف هذه المنطقة التي تقع على بعد اربعة أميال جنوب بحيرة طبريا بمثلث اليرموك .

يجري الرافد الثاني ، الزرقاء ، من بلدة الزرقاء شمال عمان الى مدينة السلط الاردنية حيث يلتقي بالنهر الرئيسي . ويجري الرافد الثالث ، الكبير ، من عين جالود في اسرائيل الى نهر الاردن .

يبلغ الطول الاجمالي لنهر الاردن ١٥٧ ميلا ، يقع ٧٣ ميلا منها في المناطق الخاضعة للاحتلال الاسرائيلي ، والباقي في سوريا ولبنان والاردن . ويبلغ حجم منسوب مياه

* تعالج هذه الدراسة مشاريع تحويل نهر الاردن المختلفة حتى العام ١٩٦٧ .

النهر ١٨٨٠ مليون متر مكعب سنويا ينبع ٧٧٪ منها (أي ١٤٨٨ مليون متر مكعب) في الاراضي العربية والباقي (أي ٤٣٢ مليون متر مكعب) في اسرائيل(١) .

تتميز الدول المجاورة لنهر الاردن بأمر واحد مشترك ، فهي ليست من بلدان الشرق الاوسط المنتجة للنفط ، كما انها تعتمد بشكل رئيسي على مياه النهر في تحقيق تنميتها الاقتصادية . وتبدو الحاجة الى مياه النهر اكثر الحاحا بالنسبة لاسرائيل والاردن لان وجود هذين البلدين يعتمد على الاستخدام الكلي للمصادر المائية . وهذا الحال ينطبق ايضا والى حد كبير بالنسبة الى سوريا ولبنان . والملاحظ ان التزايد السكاني الكبير في لبنان والاردن قد وصل الى معدلات بات معها الاستغلال الكامل للاراضي والمصادر المائية غير كاف لوقف الكثافة السكانية الكبيرة في المستقبل القريب(٢) .

وفي حين يحتاج لبنان والاردن الى المياه لتنفيذ مشاريع الري بصفة رئيسية فان توليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية يأتي في المقام الاول بالنسبة الى سوريا واسرائيل . من الواضح ، اذا ، ان لنهر الاردن ، وهو نهر دولي ، أهمية حيوية بالنسبة للاقطار الاربعة التي يمر في اراضيها ، وبالتالي فان قيام أحد او كل هذه الاقطار باستغلال مياهه يثير مشاكل معقدة تزداد تفاقما في ظل الوضع السياسي القائم .

وضعت عدة مشاريع* ، خلال السنوات الخمسين الماضية ، في موضوع استغلال مياه نهر الاردن . ومع ان تلك المشاريع كانت متشابهة من ناحية المقومات الهندسية الاساسية الا أن اختلافات أساسية قامت فيما بينها ، وقد عكست هذه الاختلافات الهدف الكامن وراء كل مشروع والاغراض السياسية والاقتصادية للجانب الذي رسم المشروع لصالحه . واذا لم يكن هدف هذه الدراسة ان تعالج تفاصيل مختلف المشاريع التي قدمت الا انه لا يمكن فهم المشاريع الاقليمية فهما كاملا الا من خلال دراسة التطور التاريخي لعملية التخطيط من اجل استغلال المصادر المائية في حوض نهر الاردن .

المشاريع الصهيونية لاستغلال مياه نهر الاردن

شرع المخططون الصهيونيون ، ببعد نظرهم ، بحث الحكومة البريطانية في مطلع عام ١٩١٦ على المطالبة بالسيادة الكاملة على كل نهر الاردن كجزء من الانتداب على فلسطين ، واثناء تصفية ممتلكات الدولة العثمانية في الشرق الاوسط في عام ١٩١٨ ، أرسل الرئيس الاميركي ولسون لجنة كنغ — كراين الى المنطقة . اشارت هذه اللجنة في تقريرها الى الحجة الصهيونية الخاصة بانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين على النحو التالي : « ليس من الضروري اقتلاع السكان الحاليين لانه يمكن للاراضي ان تستوعب أكثر من عددهم بعدة أضعاف عن طريق التحريج ووسائل الزراعة الحديثة واستغلال الطاقة المائية واستصلاح الاراضي والري على أسس علمية وما شابه »(٣) .

تصادف في ذلك الوقت ان آمال الصهيونية في انشاء « فلسطين الكبرى » قد احبطت بسبب اصرار الفرنسيين على جعل حدود سورية ولبنان الى جنوب غرب منحدرات جبل الشيخ ، وترتب على هذا الامر ان أصبحت منابع الحاصباني وبانياس في داخل المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

لقد درست الحكومة البريطانية عدة مشاريع بشأن استغلال مياه نهر الاردن

---

* حيث لا يرد الحديث عن مشروع محدد ، فان الاشارة الى « مشروع نهر الاردن » تعني مجمل عملية التخطيط لاستغلال مياه النهر . وتشمل المياه مجرى النهر الرئيسي والاحواض الشتوية التي تغذي المجرى والجداول الجانبية الخ... أو ما يعرف بنظام نهر الاردن « Jordan River System » . وهذا ما ذهب اليه عنوان هذه الدراسة .

وأرسلت لجنة « بيل » الى فلسطين ، في عام ١٩٣٧ ، لهذا الغرض . افادت هــذه اللجنة بأنه يمكن استخدام مياه النهر لزيادة الاراضي الصالحة للزراعة في البلاد وانــه يمكن ري الوادي بواسطة قنوات مكشوفة تمتد اليه من النهر(٤). ونتيجة لاعمال هذه اللجنة ، وضعت اول دراسة مائية شاملة خلال المدة من ١٩٣٧ الى ١٩٣٩ من قبــل م. س. ايونايدز ، مدير التنمية في الاردن في تلك الفترة .

مقترحات لاودرميلك : كلفت الوكالة اليهودية في فلسطين ، في عام ١٩٣٨ ، السيد والتر لاودرميلك ، وهو أميركي متخصص في صيانة الموارد الطبيعية ، بدراسة مشاريع الري في البلاد . وبالنتيجة ، رسم لاودرميلك في كتاب بعنوان « فلســطين ــ ارض الميعاد » خطة استقدام اربعة ملايين مهاجر يهودي جديد الى فلسطين ، بالاضافة الى عدد سكان البلاد البالغ ١٫٨٠٠٫٠٠٠ نسمة في عام ١٩٤٤(٥).

اقترح لاودرميلــك جر الميــاه من الاردن العلوي واليرموك والزرقاء لري الغــور على جانبي وادي الاردن ، ونقل المياه الفائضة المتوقعة بواسطة أنابيب واقنيــة الى الاراضي الشاسعة في النقب ، وبناء خزانات للاحتفاظ بمياه الامطار . وبما ان تنفيذ هذه المقترحات قد يؤدي الى قطع المياه عن البحر الميت ومن أجل التعويض عن خسارة هذه المياه ، أوصى لاودرميلك بأن توصل مياه البحر الابيض المتوسط بالبحر الميت عن طريق نظام أقنية وأنفاق طولها ٢٥ ميلا وأن تستخدم القناة الجديدة في توليد الطاقــة الكهربائية لفلسطين . ودعا مشروع لاودرميلك الى ري الاراضي الفلسطينية في الشمال والوسط والمساحات الشاسعة في النقب والى صيانــة المصادر الكيمائية فــي البحر الميت(٦).

مشروع هايز : يعتبر كتاب لاودرميلك الذي ظهر في عام ١٩٤٤ بمثابة الاساس الذي بني عليه مشروع هايز المنشور في عام ١٩٤٨ . يشتمل مشروع هايز ، المكون من ثماني مراحل ، على تطوير ينابيع المياه الباطنية ، استخدام مياه الاردن العلوي الصيفية في ري الاراضي المجاورة ، تحويل وتخزين مياه اليرموك ، مشروع المتوسط ــ البحر الميت للطاقة ، تخزين مياه الفيضان الشتوية العلوية في خزان في سهل البطوف لتنفيذ الري على طول السهول الساحلية ، تجفيف مستنقعات الحولة ، واخيرا ، استخدام ميــاه الفيضانات في ري النقب . وقدر للمشروع ، في حال اتمام كافة مراحله ، بأن يزيد مساحة الاراضي المروية بمقدار ٢٫٤٢٦٫٠٠٠ دونم وبأن يؤمن ٥٦٠ مليون كيلووات ساعة من الطاقة الكهربائية سنويا(٧).

في حين أن المقترحات السابقة تناولت أراضي في فلسطين والاردن فان مشروع هايز تضمن بناء سد على نهر الحاصباني في لبنان ، وتحويل المياه عبر سوريا ولبنان لري أراضي واقعة في داخل فلسطين ، مع عدم اشراك هذين البلدين في ثمار المشروع . وكما هو الحال في مشروع لاودرميلك ، قضى مشروع هايز بأن تتقاسم اسرائيل والاردن مياه اليرموك علما بأن اسرائيل ليس لها حدود مع هذا النهر الا على مسافة ستة أميال ، وذهب الى أبعد من هذا بأن اقترح عدم اعطاء نصف مياه النهر الى الاردن الا في مرحلة متأخرة . ويقول هايز في هذا الصدد « مهما يكن من أمر فان استرداد مياه الاردن الباقية يجب أن ينتظر اتمام أعمال الري السابقة الذكر ، وهذا يساعد على تحديد باقي مياه الاردن بصورة أكثر دقة » . من هذا ، يبدو جليا ان الصهيونيين كانوا ينوون تحويل المياه الى خارج وادي الاردن لري صحراء النقب في أقصى الجنوب حينما كانوا يروجون لآراء لاودرميلك وهايز بشأن استخدام مياه الاردن ، على نطاق واسع ، خارج حوض النهر .

ان لمشروع هايز ــ لاودرميلك اهمية بالغة من حيث كونه حجر الزاوية في المشاريع

الاسرائيلية اللاحقة . نشر المشروع فيما بين صدور قرار التقسيم عن هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ والحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ . فصل المشروع بعناية بهدف ري ثلثي الاراضي من دون الحاجة الى تعاون الدول العربية. وجدير بالملاحظة ان الصهيونيين وضعوا هذا المشروع في البال حينما اعربوا عن آرائهم في مشروع التقسيم بدليل أنهم أصروا على أن تنال اسرائيل مساحات واقعة في مناطق أوردها المشروع . وفي هذا ، كتب الدكتور عمانويل نيومن في مقدمة « تقرير هيئة وادي تانسي عن نهر الاردن » أنه بموجب قرار التقسيم « نالت الدولة اليهودية مساحات من الاراضي تشمل المشارف العلوية لنهر الاردن في الشمال ، وحوض الحولة ، وبحيرة طبريا والسهول المجاورة لها ، وكثيرا من أراضي النقب الصالحة للري برغم كونها قاحلة . وعلى ذلك، اصبحت الفرصة مواتية لتنفيذ فحوى مشروع هايز ــ لاودرميلك وهو نقل مياه الشمال ، عبر شبكة من الخزانات والاقنية ، الى السهول الخصبة في الجزء الجنوبي من البلاد »(٨).

مشاريع السنوات السبع والعشر الاسرائيلية : وضع مشروع السنوات السبع الاسرائيلي ، وهو يرتكز بصورة رئيسية على مقترحات هايز ــ لاودرميلك في عام ١٩٥٣ ثم أدمج في مشروع السنوات العشر في عام ١٩٥٦ . استهدف المشروع الاول تأمين ٥٤٠ مليون متر مكعب من مياه نهر الاردن من المصادر التالية(٩):

ــ تجفيف وري منطقة الحولة	١٢٠ مليون متر مكعب
ــ تحويل من نهر الاردن ، عند جسر بنات يعقوب ، لري الاراضي باتجاه الجنوب الى النقب	٣٤٠ مليون متر مكعب
ــ تحويل من بحيرة طبريا ، بواسطة قناة كتريت ــ بيسان ، باتجاه الجنوب الى مقاطعة بيسان	٨٠ مليون متر مكعب

وفي المقابل ، فان مشروع السنوات العشر تطلع الى تأمين ٧٠٠ مليون متر مكعب من مياه نهر الاردن وبحيرة طبريا على أساس التوزيع التالي(١٠):

ــ مياه الحولة	١٠٠ مليون متر مكعب
ــ تحويل مياه الينابيع المالحة من بحيرة طبريا الى نهر الاردن نزولا مع المجرى الى النهر	٣٠ مليون متر مكعب
ــ تحويل من بحيرة طبريا بواسطة قناة كتريت ــ بيسان	٧٠ مليون متر مكعب
ــ تحويل تحت جسر بنات يعقوب لري الاراضي باتجاه الجنوب الى النقب	٥٠٠ مليون متر مكعب

وعلى ذلك ، فان مشروع السنوات العشر يؤمن الـ ٧٠٠ مليون متر مكعب من مصدرين رئيسيين على النحو التالي :

ــ تموين من نهر الاردن عند بحيرة طبريا وما فوق	٦٠٠ مليون متر مكعب
ــ الكمية اللازمة من مياه اليرموك لتنفيذ المشروع	١٠٠ مليون متر مكعب

كان أبرز ما تميز به مشروع السنوات السبع هو اقتراح تحويل مياه نهر الاردن الى خارج حوض النهر باتجاه النقب في الجنوب ، وقد اجريت على هـذه الناحية تغييرات رئيسية في مشروع السنوات العشر المعدل بالنسبة للانشاءات ونظام اخذ المياه وحجمها.

كان يقضي مشروع السنوات السبع بأن تحول مياه الاردن عند جسر بنات يعقوب ، وان تنقل بواسطة قناة الى خزان سهل البطوف ، ومن هناك بواسطة أنبوب رئيسي قطره ١٠٨ انشات ، يتجه جنوبا الى الفالوجا ، ومن ثم عبر خطوط أنابيب تربط المشاريع المحلية على طول الطريق .

ارتأى مشروع السنوات العشر تحويل مياه الاردن وطبريا عند أيشدكتروت ، وهو

مسرب للمياه يقع في الزاوية الشمالية الغربية من بحيرة طبريا ، وتقدر كمية المياه التي تؤخذ من هذه النقطة بـــ ٥٠٠ مليون متر مكعب ، أي بزيادة ١٦٠ مليون متر مكعب عن مشروع السنوات السبع — وجعل بحيرة طبريا مركز التخزين الرئيسي بدلا من خزان البطوف الذي تبين ان المياه كانت تتسرب منه .

يرجع السبب في اختيار المسرب البديل الى قصة تستحق السرد . فمن المعروف ان اسرائيل ابتدات بتجفيف مستنقعات الحولة في مطلع عام ١٩٥١ ؛ وما ان وسعت اشغالها الى المنطقة المجردة من السلاح حتى أثارت سوريا احتجاجا لدى كبير مراقبي هيئة رقابة الهدنة التابعة لهيئة الامم المتحدة ، وامام مجلس الامن ، على اساس خرق اسرائيل لاتفاقية الهدنة المعقودة بينها وبين سوريا . وبتاريخ ١٢ آذار قدم كبير المراقبين تقريره عن الشكوى السورية المتعلقة بمشروع اسرائيل تسوية قاع نهـــر الاردن في الطرف الجنوبي من بحيرة الحولة . وافضى التقرير بأن اسرائيل لن تجني ميزة عسكرية تتفوق بها على سوريا من جراء تجفيف بحيرة الحولة ، وبأن أي من الطرفين الموقعين على اتفاقية الهدنة لم يتمتع بحقوق السيادة في داخل المنطقة المجردة من السلاح . واضاف التقرير أنه الى حين التوصل الى اتفاق آخر ، فان شركة فلسطين لتحسين الاراضي ليست محقة في متابعة العمل ، وعليه ، يجب انذارها بوقف جميع عملياتها في داخل المنطقة المجردة من السلاح(١١).

توقف العمل بالفعل لمدة سنتين بسبب عدم امكان سوريـــا واسرائيل التوصل الى اتفاقية ، وحينما استأنفت اسرائيل العمل عند جسر بنات يعقوب ، اشتكت سوريا مرة اخرى لدى مجلس الامن واتخذ المجلس قرارا بالاجماع يدعو الى وقف العمل مؤقتا في المنطقة المجردة(١٢). وبتأثير من ضغط الولايات المتحدة التي هددت بارجاء مساعدتها المالية الى اسرائيل ، رضخت اسرائيل لقرار مجلس الامن وتعهدت بايجاد مسرب بديل على بحيرة طبريا بهدف تحويل مياه الاردن الى النقب(١٣).

المشاريع العربية

مشروع ماكدونالد : اعد السير ماردوخ ماكدونالد وشركاه في عام ١٩٥١ ، بطلب من الحكومة الاردنية ، تقريرا عن امكانيات ري جانبي الوادي بين بحيرة طبريا والبحـــر الميت . راجع ماكدونالد الدراسة التي وضعها ايونايدز خلال مدة الانتداب ، لرســـم المواصفات اللازمة لها . كان ايونايدز قد اقترح ري وادي الاردن بواسطة قناة واحدة تمتد على طول الضفة الشرقية من النهر وان تغذى من تحويل مياه اليرموك بخط تغذية يأتي من بحيرة طبريا التي تصبح مخزنا للمياه ؛ وبواسطة قناة اخرى مماثلة تمتد على طول الضفة الغربية(١٤).

اتبع ماكدونالد الخطوط العامة لمشروع ايونايدز ، واقترح شق اقنية على جانبي النهر لتحقيق ري الغور . وعلى افتراض انه سيكون هناك مشروع عربي — اسرائيلي مشترك في نهاية الامر ، اقترح استخدام بحيرة طبريا كخزان لتجميع ميـــاه الفيضان الزائدة في اليرموك والاردن للاستفادة منها في فصل الصيف .

لم ترد فكرة التحويل عند ماكدونالد استنادا الى مبدأ اساسي قام عليه مشروعه الذي يقضي بأن «مياه الحوض يجب ان لا تحول الى خارجه الا اذا اشبعت بالفعل حاجات الذين يستفيدون من المياه او الراغبين حقا في الاستفادة منها في داخل الحوض »(١٥). أصبح هذا المبدأ ، مبدأ أولوية الحوض ، الذي صاغه ماكدونالد في مشروعه ، مسألة رئيسية في النزاع اللاحق بشأن استغلال مياه الاردن . وعليه ، لقد عارض ماكدونالد ، كما

عارض سلفه ايونايدز ، المشاريع الاسرائيلية القاضية بنقل أكبر كمية ممكنة من المياه الى خارج الوادي ، أي الى السهل الساحلي والنقب .

مشروع بانجر : وضع هذا المشروع في عام ١٩٥٢ من قبل الدائرة التعاونية لتطوير الموارد المائية التابعة للحكومة الاردنية بالتعاون مع وكالة التعاون الفني في عمان . اقترح المشروع بناء سد في المقارن على اليرموك لري وادي الاردن جنوب طبريا ولتوليد الطاقة ، بموجب الاتفاقيات السورية ـ الاردنية المؤرخة في ٣٠ تموز ١٩٥٢ و٣٠ آذار ١٩٥٧ . ويعني اكتشاف مكان آخر مناسب لتخزين مياه اليرموك فيه بدلاً من بحيرة طبريا بأن الخطط الرامية الى الاستفادة من مياه اليرموك على أوسع نطاق يمكن أن تنفذ من دون الحاجة الى تعاون بين الاردن واسرائيل . وتقدر سعة الخزان المقترح بـ ٥٠٠ مليون متر مكعب ، يجر ٦٥ مليون متر مكعب منها الى المزاريب في سوريا ، ويستغل الباقي في ري الاراضي في المملكة الاردنية الهاشمية . ويزود معمل الطاقة البلدين بالكهرباء بنسبة ٧٥٪ الى سوريا و٢٥٪ الى الاردن . ويبنى خزان صغير في العدسية على مسافة قصيرة من أدنى الحدود الاسرائيلية ـ الاردنية من أجل تسهيل ضخ المياه من النهر الى قناة في الغور الغربي تصل الى أريحا(١٦) .

وبالاتفاق مع الحكومة الاردنية ، خصصت وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين (الانروا) مبلغ ٤٠ مليون دولار من اعتمادات برامج التأهيل من اجل بناء سد المقارن ، وقدرت تكاليف المشروع بحوالي ٧٠ مليون دولار . وبالفعل ، قدمت الوكالة الاموال اللازمة في نيسان لبدء الصرف على المشروع(١٧)، الا أن حكومة الولايات المتحدة الاميركية أوقفت المشروع عند هذا الحد ، علما بأنها كانت قد وافقت عليه ، واقترحت ابداله بمشروع « مين » .

التخطيط الاقليمي

مشروع « مين » : لما كانت وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين (الانروا) قد أخفقت في تحقيق أي تقدم نحو اعادة توطين اللاجئين ، فقد دعت شركة شارلز مين الاميركية بأن تتولى ، تحت رقابة « هيئة وادي تانسي » ، اعداد دراسة عن كل التقارير المستندة الى التحقيقات الهندسية والخرائط الطوبوغرافية التي قدمت الى الجهات الصهيونية من جانب جايمز هايز ووالتر لاودرميلك ، والى المملكة الاردنية الهاشمية من جانب م.س. ايونايدز وماردوخ ماكدونالد وميلز بانجر .جمعت نتائج الدراسة في تقرير بعنوان « الاستغلال الموحد للموارد المائية لاقليم وادي الاردن » وقدم التقرير الى كل من الدول العربية واسرائيل في عام ١٩٥٣ من قبل السيد اريك جونستون ، مبعوث الرئيس ايزنهاور الخاص الى الشرق الاوسط(١٨) .

يتكون مشروع « مين » من العناصر الرئيسية التالية بحسب تحديدها الجغرافي من الشمال الى الجنوب :

١ ـ بناء سد وخزان على الحاصباني بهدف تخزين وضبط مياه النهر الفائضة في الشتاء .

٢ ـ تركيب « قناة طاقة » تمتد من سد الحاصباني ومركز توليد طاقة قرب تل الحي للاستفادة من مياه الري في توليد الطاقة الكهربائية .

٣ ـ تحويل مياه سد بانياس ونهر الحاصباني وينابيع تل القاضي الواقعة في أعلى الوادي ، الى قناة مهمتها ان تنقل المياه بدفع الجاذبية لري الاراضي في حوض الحولة العلوي ومقاطعة حشاشار وتلال الجليل ووادي جزنيل .

٤ — تجفيف بحيرة الحولة ومنطقة المستنقعات الى الشمال للاستفادة من أراضي الحولة في الزراعة ومن تخزين المياه المستردة من الترشح والتبخر ، اللذين يصيبان المياه بشكل حاد أثناء جريانها ، حاليا ، الى بحيرة طبريا .

٥ — اقامة التجهيزات اللازمة لتوليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية على نهر اليرموك ، وتتكون من سد في المقارن وقناة طاقة ومركز لتوليد الطاقة قرب العدسية ، على ان جزءا من المياه في قناة الطاقة يمكن ان يستخدم للري في وادي اليرموك .

٦ — تحويل مياه اليرموك في أدنى مركز توليد الطاقة في العدسية الى قناة الغور الشرقية وبحيرة طبريا حيث تخزن هذه المياه مع مياه نهر الاردن لاستخدامها في ري الاراضي الصالحة للزراعة في الغور .

٧ — شق قناتين رئيسيتين على الجانبين الشرقي والغربي لنهر الاردن ، وتركيب اجهزة ضبط على بحيرة طبريا لتأمين نقل المياه بقوة الجاذبيـــة لري الاراضي بعيدا في الشرق الى وادي راما وفي الغرب الى وادي القلط ، تبعا لازدياد ارتفاع علو مياه البحيرة بمعدل مترين حتى لا تزداد ملوحة المياه فيها .

٨ — تركيب أجهزة رقابة وأقنية لتحقيق استخدام افضل للمياه الجارية على مدار السنة في الجداول جنوب بحيرة طبريا ، وانشاء خزانات لحفظ مياه الفيضان من الجداول الى الحد المعقول . ويمكن زيادة الطاقة التخزينية لهذه الخزانات عن طريق زيادة علو سد المقارن الى أعلى مما كان مقررا له مبدئيا اذا أجازت التحقيقات الاضافية بذلك .

٩ — استخدام الآبار للري الاضافي ، وذلك في المناطق التي يكون فيها هذا الاستخدام ملائما كما هو الحال في الغور وفي وادي بافنيل(١٩) .

أجمل جوردون كلاب ، رئيس مجلس هيئة وادي تانسي ، جوهر تقرير « مين » في الكلمات التالية : « بما أن القضية ذات طابع هندسي ، فان أسرع وسيلـــة وأكثرها اقتصادا لتحقيق اكبر فائدة من استغلال مياه نهر الاردن تتطلب قيام تنظيم افضل لمنابع المياه في الحاصباني ومنطقة الحولة بهدف ري الاراضي في ذلك الجزء من حوض نهـــر الاردن بقوة الجاذبية ، كما تتطلب استخدام بحيرة طبريا كخزان لمياه الفيضان من نهري الاردن واليرموك . ويمكن تأمين وصول هذه المياه بقوة الجاذبية لري الاراضي على الجانبين الشرقي والغربي لوادي الاردن الى الجنوب . وفي حين ان تدفق المياه بقوة الجاذبية يلغي تكاليف الضخ الباهظة فان الخزانات توفر مياه الفيضان لاستخدامها في شهور الجفاف . بالاضافة الى ذلك فان بحيرة طبريا تقدم فائدة كبرى باعتبارها خزانا طبيعيا للمياه . ولا يوجد هناك ، مهما غلا الثمن ، موقع آخر بديل يمكنه ان يخزن ويضبط بفاعلية ، كبحيرة طبريا ، تدفق مياه الفيضان في نهر الاردن ورافـــده الرئيسي ... اليرموك . ويقترح تخصيص كمية من المياه المتوفرة الى كل مساحة صالحة للزراعة تقع في حدود دفع الجاذبية »(٢٠) .

ويضيف السيد كلاب بأن تقرير « مين » ، وهو يشرح عناصر قيام تنظيم فعال في داخل حوض نهر الاردن ، « لا يأخذ في الاعتبار العوامل السياسية ولا يحاول ان يضع مشروع نهر الاردن في اطار الحدود الوطنية القائمة حاليا » . ويرى ، في الاخير ، أن توزيع المياه الى مختلف المناطق لا يقصد منه تخصيص المياه الى تلك المناطق(٢١) .

يظهر عند حصر مختلف المساحات وكميات المياه المتوفرة في داخل حوض النهر ، التي توزع بموجب مشروع « مين » على أساس الحدود السياسية القائمة ، أن ٤١٦٫٠٠٠ دونم من الاراضي تقع في داخل اسرائيل ، و ٤٩٠٫٠٠٠ دونم في الاردن ، و ٣٠٫٠٠٠ دونم

في سوريا ؛ وان اسرائيل تنال ٣٩٤ مليون متر مكعب من المياه ، والاردن ٧٧٤ مليون متر مكعب ، وسوريا ٤٥ مليون متر مكعب(٢٢).

لم يكن المشروع مقبولا من جانب اسرائيل أو من الدول العربية على حد سواء . لقد انتقدت اسرائيل المشروع لانه دعا الى استغلال الموارد المائية لنهر الاردن في وادي الاردن والى عدم ادخال نهر الليطاني ، وهو نهر لبنان الوطني ، فيه . وأصرت اسرائيل على أنه اذا كان لا بد من اعتماد مشروع اقليمي فانه يجب أن يشمل كل الموارد المائية للمنطقة بدلا من حصر المشروع في نظام نهري واحد ؛ وبديهي ان هذين الامرين كانا سيمنعان اسرائيل من تنفيذ مشاريعها الوطنية لري السهل الساحلي والنقب بمياه نهر الاردن طبقا لمقترحات لاودرميلك ـ هايز . واعتبرت اسرائيل ، أيضا ، ان حصتها من المياه من مشروع « مين » غير كافية وتذرعت في ذلك بالمبالغة في تقدير مساحة الاراضي الصالحة للري في وادي الاردن السفلي .

أما الدول العربية ، فقد عارضت مشروع « مين » لاسباب فنية بالاضافة الى الاسباب السياسية . اعترضت الدول العربية ، بصفة رئيسية ، على حصة اسرائيل من المياه وانتقدت تخزين مياه اليرموك في بحيرة طبريا لانها تخوفت من أن هذا التخزين قد يجعل الاردن معتمدا كليا على اسرائيل ، خصوصا بالنسبة لجريان المياه المخزونة ، بدون انقطاع او عائق ، في اقنية الغور الشرقية والغربية . وعلى ذلك ، وبدلا من استخدام بحيرة طبريا للتخزين ، فضل الاردن أن يباشر بمفرده ببناء سد بارتفاع ٥٠٠ قدم في المقارن على نهر اليرموك على أساس المقترحات التي تضمنها مشروع بانجر(٢٣). وابانت الدول العربية الى هذا بأن مشروع « مين » تجاهل الحدود السياسية واعطاها كمية قليلة جدا من المياه ، علما بأن المنابع الرئيسية لنهر الاردن تقع في الاراضي العربية. فالمشروع اياه ، مثلا ، لم يفد لبنان على الرغم من ان الحاصباني يجري في الاراضي اللبنانية وبدليل انه دعا الى اقامة سد وخزان على هذا النهر لصالح اسرائيل ، وفي هذا تجاهل واضح لحق لبنان في الاستفادة من مياه النهر في ري الاراضي الواقعة في حوضه . وبنفس الاسلوب ، فان المشروع لم يعترف بحقوق سوريا كاملة في استغلال مياه بانياس استغلالا كبيرا في داخل الاراضي السورية .

الى جانب اعتراضاتها الفنية على المشروع فان الدول العربية لم تقبل بالمشروع على الصعيد السياسي أيضا . فمنذ البداية ، رأت الدول العربية في تقرير « مين » محاولة لتصفية قضية فلسطين من خلال الوصفات الاقتصادية . وكانت الخطيئة الكبرى للتقرير، في نظر العرب، في كونه نبذ جانبا الطبيعة السياسية للنزاع العربي الاسرائيلي الى درجة أن خطوط الهدنة والحدود لم تظهر على الخرائط المرفقة بدراسة المشروع ، وفي نظرته الى الكيانات السياسية في المنطقة على اساس انها مجرد اقاليم في حوض وان تحسين ظروفها الاقتصادية يستدعي استغلال مياه الحوض بصرف النظر عن الحالة السياسية القائمة .

رفض العرب مشروع « هيئة وادي تانسي » المشترك بادىء ذي بدء ، وعبر رئيس وزراء الاردن السيد فوزي الملقي عن وجهة النظر العربية هذه في مقابلة ، فقال بأن حكومته « سوف لن تنظر في أي مشروع يؤدي الى الانحراف عن سياستها القاضية بعدم الصلح مع اسرائيل وان الاردن سوف يستمر في تحمل المشقات السياسية بدلا من أن يشارك في أي مشروع يفضي الى تعاون مباشر أو غير مباشر مع اسرائيل »(٢٤).

حمل أريك جونستون ، مبعوث الرئيس ايزنهاور الخاص ، مشروع « مين » وزار عواصم الشرق الاوسط في تشرين الاول ١٩٥٣ بهدف تأمين دعم العرب والاسرائيليين

لمشروع موحد يتعلق بتنمية وادي الاردن . حدث هذا في وقت اختلطت فيه الاوراق على نحو مناهض لرحلة السيد جونستون . ذلك انه لم يصل الى الاردن مباشرة بعد الغارة على قرية قبيه التي قتل فيها الاسرائيليون ما يزيد على خمسين أردنيا وحسب ، بل انه واجه شعورا بالاستياء بسبب تخلي الانروا المفاجيء عن مشروع بانجر(٢٥). لقد ثارت الشكوك في العالم العربي بأن الضغط الصهيوني في هيئة الامم المتحدة وواشنطن ساهم في هذا التغيير ، خاصة وان اسرائيل لم تخف معارضتها لمشروع بانجر ولرعايته من قبل وكالات تابعة للولايات المتحدة الاميركية وهيئة الامم المتحدة . أضف ان اسرائيل حملت على المشروع بحجة انه يحول دون استغلال الطاقة المائية الكاملة لنهر الاردن ، واصرت على حقوقها المائية في نهر اليرموك . وادعت بالسيطرة الفعلية على كل المياه الجارية الى بحيرة طبريا من الشمال . وبالنتيجة ، فلقد أثيرت امام مجلس الامن ، وخلال رحلة جونستون ، امكانية قيام اسرائيل منفردة بتحويل مياه نهر الاردن الى داخل اسرائيل عن طريق قناة جديدة تمتد في المنطقة المجردة من السلاح . ولم يكن في وسع السيد جونستون ، في ظل هذه الظروف ، أن ينجح الى ابعد من اقناع اسرائيل والاردن وسوريا ولبنان بالموافقة على دراسة مقترحاته وتقديم تعديلات عليها ، اذا ارتأت ذلك ، وعلى استعدادها للنظر فيها مجددا في وقت لاحق .

المشروع العربي : تقدمت اللجنة الفنية التابعة للجامعة العربية بمشروع مضاد فيما بين رحلتي جونستون الاولى والثانية الى الشرق الاوسط ، وكان هذا المشروع بمثابة نقطة الارتكاز لوجهة النظر العربية خلال المفاوضات التي عقدت مع جونستون . ومن بين الملامح البارزة لهذا المشروع انه اعترف بمبدأ مشاركة اسرائيل للدول العربية في مياه الاردن وقبل بجعل بحيرة طبريا موقعا لتخزين المياه الفائضة ، الا انه رفض اعتبارها المركز الرئيسي للتخزين . وسبب ذلك ان وادي الاردن كان سيقع تحت رحمة اسرائيل بالنظر لسيطرتها الكاملة على البحيرة ولان مياه البحيرة كانت سترتفع مترين آخرين تقريبا فتغمر المقدسات المسيحية القائمة على شواطئها . والى هذا ، فان نسبة التبخر العالية في مياه البحيرة وملوحة مياهها جعلتا موضوع استخدامها كمركز رئيسي للتخزين غير مرغوب فيه .

أستهدف المشروع العربي الاستفادة من مياه اليرموك في الري وتوليد الطاقة الكهربائية لمصلحة سوريا ولبنان . وعلى ذلك قضى المشروع بتحقيق ما يلي :

١ ــ بناء سد للتخزين على اليرموك اما في المقارن او في وادي خالد ومعمل لتوليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية في نفس المكان .

٢ ــ حفر قناة تمتد من السد في أعلى المجرى الى العدسية حيث يقام معمل آخر لتوليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية .

٣ ــ بناء سد في العدسية لتحويل المياه والتحكم بها . وتكون مهمته تحويل جزء من المياه الى قناة الغور الشرقية بهدف الري في الاردن وكمية اخرى قليلة الى بحيرة طبريا من أجل التخزين .

٤ ــ بناء قناة شرق الغور على طول الجانب الشرقي من نهر الاردن ، تمتد من العدسية جنوبا الى البحر الميت تقريبا . تغذي هذه القناة من مياه التحويل في العدسية ومن قناة تغذية تأتي من بحيرة طبريا . ويركب سيفون قريبا من أدنى حدود الاردن واسرائيل لتوصيل مياه الغور الشرقية الى قناة الغور الغربية لري وادي الاردن الغربي .

٥ ــ استخدام معملي الطاقة للمنفعة المتبادلة لسوريا والاردن .

٦ ـ يبلغ حجم منسوب المياه في اليرموك ٤٥٧ مليون متر مكعب يخصص منها ٣٣٠ مليون متر مكعب للاردن و ٩٠ مليون متر مكعب لسوريا . ويبلغ مجموع ما يحصل عليه الاردن لمشروع الغور الشرقي والغربي ٨٩٨ مليون متر مكعب ، يدخل فيه حصة الاردن من اليرموك مضافا اليها ٣٦٨ مليون متر مكعب تأتيه من بحيرة طبريا .

أوصى المشروع بانجاز الانشاءات التالية لتأمين المنفعـــة من مياه الاردن العلوي للبلدان المجاورة للنهر :

١ ـ بناء سد للتخزين على نهر الحاصباني في لبنان على بعد ١٢ ميـــلا من نقطـــة اتصاله بنهر الاردن .

٢ ـ شق قناة من سد الحاصباني لري الاراضي اللبنانية الواقعة في حوض النهر ولتوليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية عند النقطة التي تسقط فيها القناة في ميـــاه الحاصباني في الفاجار ، وانشاء معمل لتوليد الطاقة في هذه النقطة .

٣ ـ شق قناتين من نهر بانياس لري الاراضي السورية على ضفتي النهر .

٤ ـ شق قناة من بانياس تتجه جنوبا عبر نهر الاردن الى نقطة في ادنى الشاطىء الغربي من بحيرة الحولة ، وتغذي هـــذه القناة قنوات فرعية بهـــدف ري الاراضي الاسرائيلية .

علاوة على ذلك ، نص المشروع على استخدام ٢٢ مليون متر مكعب من مياه نهـــر الاردن لري اراضي محافظة البطيحة السورية شمال غرب بحيرة طبريا . وتحصـــل اسرائيل ، بدورها ، على ٩٦ مليون متر مكعب من مياه الاردن العلوي عن طريـــق القناة التي تمر في اراضيها ، ويحصل لبنان عـــلى ٣٥ مليون متر مكعب مـــن ميـــاه الحاصباني ، وتحصل سوريا على ٤٢ مليون متر مكعب من مياه بانياس والاردن .

ويقضي المشروع ، في النهاية ، بأن تخـــزن المياه الباقية من نهـــر الاردن وروافده الواقعة الى الشمال من بحيرة طبريا في هذه البحيرة لتوفير الحاجات المائية اللازمـــة لري وادي الاردن الجنوبي ، وابرز الملامح الاساسية لهذه الناحية من المشروع هـــي الآتية :

١ ـ تزود قناة تغذية ، تمتد بين بحيرة طبريا وقناة الغور الشرقية ، الاردن بـــ ٤٢٨ مليون متر مكعب من المياه ، ٣٦٨ مليون متر مكعب من مياه نهر الاردن و ٦٠ مليون متر مكعب من مياه اليرموك المخزونة في بحيرة طبريا ، كما سبقت الاشارة .

٢ ـ تزود قناة بيسان (التي تمتد من الرأس الجنوبي الغربي لبحـــيرة طبريا الى بيسان والتي تصل الى الحدود الاردنية تقريبا) اسرائيل بـ ٤١ مليون متر مكعب من مياه نهر الاردن . ويحتفظ لاسرائيل ، ايضا ، بـــ ٤٥ مليون متر مكعب من مياه هذا النهر لاستخدامها في مثلث اليرموك(٢٦) .

وعلى أساس هذا المشروع ، نجد ان سوريا قد خصت بـــ ١٣٢ مليون متر مكعب لري ١١٩٫٠٠٠ دونم ، والاردن بـــ ٦٦٨ مليون متر مكعب لري ٤٩٠٫٠٠٠ دونـــم ، واسرائيل بـــ ١٨٢ مليون متر مكعب لري ٢٣٤٫٠٠٠ دونم ، ونال لبنان (الذي لم يعتبره تقرير « مين » من بين الاقطار المستفيدة) ٣٥ مليون متر مكعب لري ٣٥٫٠٠٠ دونم .

مشروع كوتون : اختلف المشروع الاسرائيلي المضاد ، المعروف بمشروع كوتون ، اختلافا جذريا عن مشروع « مـــين » والمشاريع العربية بسبب اصراره عـــلى تحويل ٤٠٠ مليون متر مكعب من مياه الليطاني الى اسرائيل(٢٧) واقتراحه ري النقب عـــن

طريق ايصال المياه من نهر الاردن العلوي ، شمال بحيرة طبريا ، الى خزان في بيت نيتوفا ، على بعد ٥ أميال شمال الناصرة ، ونقلها من هناك بواسطة قناة الى النقب ، وشق قناة أخرى من بحيرة طبريا الى وادي بيسان . على أن تؤمن حاجة الاردن الى مياه الري عن طريق قناتين مهمتهما نقل مياه اليرموك الى الغور مع المحافظة على التخزين الرئيسي في بحيرة طبريا . واقترح المشروع ، في سبيل ازالة المخاوف الاردنية ، بأن يصار الى اقامة نظام سيفون في داخل الاراضي الاردنية لنقل مياه اليرموك ، عبر مجرى نهر الاردن ، الى الجانب الغربي . وهكذا ، فان تموين الاردن بمياه الري على الضفاف الجنوبية لن يكون خاضعا للسيطرة الاسرائيلية الا بالنسبة لمياه الفيضان الشتوية التي ستخزن في البحيرة وتطلق فيما بعد عبر قناة تغذية الى الجانب الشرقي من مجرى نهر الاردن(٢٨).

ذهب مشروع كوتون ، الذي تضمن المقومات الرئيسية لمشروع لاودرميلك ــ هايز ، الى ابعد مما ذهب اليه مشروع « مين » ، هذا الذي تجاهل خطوط الهدنة والحدود السياسية ودعا الى ادخال المياه الموجودة خارج حوض الاردن ــ اليرموك في المشروع الموحد « لان الحدود المائية ــ الهيدروغرافية ــ ليس لها معنى حقيقي » . أن المصادر المائية محل البحث هي ، بالطبع ، تلك التي تخص نهر الليطاني الذي تفصل حوضه عن حوض نهر الاردن سلسلة من الجبال . لقد زعم مجلس اسرائيل الاستشاري لشؤون الري والطاقة الكهربائية المستمدة من القوة المائية بأنه « لا يستطيع ان يفهم لماذا حذف استخدام مياه الليطاني كليا من أي مشروع اقليمي حقيقي سواء من ناحية التحليل او البرنامج »(٢٩).

بينما يوزع مشروع « مين » ما مجموعه ١٢١٣ مليون متر مكعب من مياه الاردن واليرموك على الدول المجاورة للنهر، فان مشروع كوتون يخصص ما مجموعه ٢٣٤٥٫٧ مليون متر مكعب لري ٣٠٫٠٠٠ دونم في سوريا و ٣٥٠٫٠٠٠ دونم في لبنان و ٤٣٠٫٠٠٠ دونم في الاردن و ١٫٧٩٠٫٠٠٠ دونم في اسرائيل ، والفارق في كميات المياه يغطى من مياه الليطاني . ونتيجة لذلك « تقول خلاصة المكتب الاسرائيلي للاعلام » فان الصعوبات التي تتراءى كبيرة في مشروع « مين » ، كصعوبة التوفيق بين حاجة كل دولة من دول الاحواض الى الري وبين الوجود الفعلي للمياه في داخل هذه الاحواض ، تصبح ثانوية في ظل مشروع كوتون(٣٠).

وترى وجهة النظر الاسرائيلية ان مهمة المياه التي حددت على أساسها التوزيعات خاضعة للتجربة الفعلية في استهلاك المياه ، هذا بالنسبة الى لبنان وسوريا والاردن . أما بالنسبة لاسرائيل ، فأن تقرير كوتون طرح مقولة مؤداها « بأن المياه المخصصة لاسرائيل هي فائض لا يستفاد به في دول الحوض الاخرى . وعلى خلاف الوضع في تلك الدول ، فان مساحة الاراضي الصالحة للري في اسرائيل ، خاصة في السهل الساحلي والنقب ، تزيد على كمية المياه المتاحة لها »(٣١).

وتدعيما لمقولتهم أدعى الاسرائيليون بان الجزء الاكبر من منسوب مياه نهر الليطاني لا يستغل في الري في داخل لبنان و « أن تحويل الفائض من مياه هذا النهر لن يعوق ابدا تطوير الري في لبنان على اعتبار ان القسم الاكبر من منسوب المياه سيبقى مهدورا في البحر الابيض المتوسط ما لم يحول باتجاه الجنوب »(٣٢).

يرمي مشروع كوتون ، في الواقع ، الى السيطرة على منابع المياه في حوض الاردن ، كالحاصباني وبانياس ، توصلا للمياه العذبة ، ويتطلع المشروع شمالا ، الى خارج حوض النهر ، أي الى نهر الليطاني ، سعيا وراء منابع أخرى للمياه العذبة . كان هذا

المشروع ، في نظر الاسرائيليين ، نتيجة طبيعية للمشاريع التي تقدم بها الصهيونيون الاوائل الذين توقعوا بأن ديمومة الدولة اليهودية في فلسطين يعتمد في نهاية المطاف على امكانية اجتذاب المياه الشمالية ، من الاقطار المجاورة ، باتجاه الجنوب الى فلسطين .

أظهرت المشاريع التي تقدمت بها الدول الاربع المجاورة للنهر ، خلال زيارة السيد جونستون الثانية للشرق الاوسط في عام ١٩٥٤ ، بأن كل واحدة من هذه الدول اعترفت بالحقوق الشرعية للدول الاخرى في المشاركة في استغلال مياه الاردن . لقد حاول السيد جونستون التوصل الى تسوية ما فيما بين مشروعه والمشاريع العربية ومشروع كوتون غير القابلة للتوفيق ، فألغى أكبر المراحل التوسعية في مشروع كوتون ، وهي التي تتعلق بنهر الليطاني ، على اعتبار أن هذا النهر لبناني مئة بالمئة ، ولذا فلا يجوز ادخاله في مشروع دولي . ونبذ المشاريع الاسرائيلية الخاصة بتحويل المياه الى السهل الساحلي والنقب على أساس ان مياه نهر الاردن يجب ان تتوفر ، قبل أي شيء آخر ، لسد حاجات الاراضي الواقعة في حوض الاردن ، آخذا بعين الاعتبار ، في نفس الوقت ، الاعتراضات العربية ضد تخزين المياه في بحيرة طبريا .

بات واضحا اثناء المفاوضات ان نقاط الخلاف تركزت أكثر ما تركزت على حصة المياه التي ستنالها كل دولة ودرجة الرقابة الدولية التي يجب ان تفرض على اي مشروع عربي — اسرائيلي مشترك خاصة بما يتعلق بالرقابة على المياه المخزونة تحت السيطرة الاسرائيلية .

تركزت جهود السفير جونستون ، طوال المرحلة الباقية من مهمته ، على ايجاد بعض الاسس المشتركة من التفاهم ، وقد نجح بالفعل في نهاية حزيران سنة ١٩٥٤ في التوصل الى بعض الاتفاقات العامة مع المندوبين العرب بصدد المواضيع التالية :

١ — الحاجة الى تنمية اراضي حوض نهر الاردن ووضع مشروع رئيسي لوادي الاردن .

٢ — الحاجة الى رفع مستويات المعيشة للاقطار المعنية وللاجئين العرب من دون المساس بحقوق الاخرين .

٣ — توزيع المياه الى بلدان النهر على أساس امكانية الاستفادة من استخدامها في حوض الاردن .

٤ — الاخذ بمبدأ تخزين المياه على نهر اليرموك بالاضافة الى بحيرة طبريا .

٥ — واخيرا ، الرقابة الدولية على السحوبات المائية(٣٢).

استند موقف اسرائيل في ذلك الوقت الى مبدأ يقضي بأن توزع المياه الى حيث يمكن استخدامها وليس على اساس ما اسمته « بالرشوة السياسية » . ان ادعاءات الكفاية والمنفعة هيمنت على النقد الحكومي الاسرائيلي لمشروع جونستون واعتبروا المشروع غير قابل للتبرير من الناحية الفنية . وعارضت اسرائيل اقتراح رقابة هيئة الامم المتحدة على السحوبات المائية كما انها لم تستسغ احتمال تدخل هيئة دولية في المشروع . على انها ، بالرغم من ذلك ، أيدت اسلوب العمل الاقليمي بشرط ان يكفل هذا الاسلوب حقوقها المائية ويسهل اعادة توطين اللاجئين العرب بصفة دائمة .

مشروع بيكر/هارزا : على الرغم من ان مسألة الرقابة الدولية بقيت بدون حل خلال زيارة جونستون الثانية الا ان بعض المكاسب قد تحقق بالنسبة لتوزيع المياه ، خصوصا عندما اظهر مشروع بيكر/هارزا أن مساحة الاراضي الصالحة للزراعة في الاردن تزيد

على التقديرات السابقة ، وان زراعة الفدان الواحد من هذه الاراضي يتطلب كمية مياه أقل مما كان متوقعا . وتبين انه اذا استخدمت المملكة الاردنية الهاشمية ٦٠٥ ملايين متر مكعب من مياه اليرموك وجداول نهر الاردن ، بالاضافة الى ١٥٥ مليون متر مكعب من مياه الاردن عن طريق بحيرة طبريا ، أمكنها ان تروي ٥١٣٫٧٠٠ دونم من الاراضي في مقابل ٤٩٠٫٠٠٠ دونم كانت ستروى بموجب مشروع جونستون والمشاريع العربية . من جهة أخرى فان المقومات الفنية لمشروع بيكر/هارزا ، وتتضمن بناء سدين في المقارن والعدسيه وشق قناة من العدسية تتصل بطبريا شمالا وبالغور جنوبا، تنسجم مع المشاريع العربية ومشروع « مين » . ويقضي هذا المشروع بتوليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية بواسطة اربعة معامل كبيرة على نهر اليرموك ، ومعملين صغيرين على قناة الغور الشرقية ، وشق قنوات صغيرة على امتداد اليرموك بين معامل الطاقة بدلا من قناة طاقة واحدة بين المقارن والعدسية كما هو الحال في مشروع بانجر والمشاريع العربية(٢٤).

يتصل المشروع بعلاقة وثيقة جدا بالتخطيط الاقليمي الموحد وان كان يتعلق بالاردن في المقام الاول . وسبب ذلك هو أن المشروع افاد بمعلومات عن الاراضي الصالحة للزراعة ، ومهمة المياه المطلوبة ، ونوعية التربة ، والخصائص المائية ، والامكانات الزراعية للاراضي الواقعة في حوض النهر في الاردن . وبناء على هذا الاساس العلمي ، امكن القول بأن كمية المياه التي خصصها المشروع الموحد للاردن يمكنها ان تروي بفاعلية الاراضي الواقعة في الجانب الاردني من الوادي .

شهدت زيارة السيد جونستون الثالثة الى الشرق الاوسط تقريب المسافة بين مواقف الاطراف المعنية في المفاوضات . فقد قدمت الدول العربية تنازلا كبيرا بموافقتها على اتخاذ بحيرة طبريا موقعا رئيسيا لتخزين مياه اليرموك بشرط أعداد الترتيبات اللازمة لقيام رقابة دولية على التخزين . ووافقت الى هذا على المطالبة بكميات من المياه تقل عن تقديراتها الاصلية . وبالنسبة لاسرائيل ، فقد وافقت من جانبها على استبعاد مياه الليطاني من المشروع الموحد الا انها استمرت في معارضتها لرقابة هيئة الامم المتحدة على تخزين المياه .

لم يكن في وسع العرب ان يركنوا الى غير الرقابة الدولية ، ولم يكونوا مستعدين أن يأتمنوا اسرائيل بمفردها على تخزين المياه . من جهة أخرى ، فان مسألة تحديد حصص المياه للاقطار المعنية بقيت عائقا آخر بدون حل .

المشروع الموحد : حينما عاد السيد جونستون الى الشرق الاوسط كانت اسرائيل قد اكتشفت رشحا في خزان البطوف وبما انها أصبحت بحاجة الى بحيرة طبريا لتخزين مياه الاردن العلوي ، لذا فقد وافقت ، في الاخير ، على تخزين مياه اليرموك في المقارن .

أعد السيد اريك جونستون ، بعد دراسته لمشروع بيكر/هارزا ، ومشروع «مين» ، والمشروع العربي ، ومشروع كوتون ، مجموعة مقترحات منقحة تقدم بها الى الجانبين العربي والاسرائيلي خلال زيارته الرابعة الى المنطقة في ايلول سنة ١٩٥٥ . تضمن مشروعه الذي عرف بالمشروع الموحد كافة المقترحات السابقة ، واعتمد في تكوينه على مبدأ مؤداه ان حوض نهر الاردن يجب ان يستأثر بالاولوية بالنسبة لاستغلال مياه النهر وأن المياه المتبقية بعد اشباع الحاجات في داخل الحوض يمكن ان تستخدم ، عندئذ ، خارج الحوض .

افترض جونستون ان حصة الدول العربية في المياه تؤمن كل المتطلبات المائية في داخل الحوض ، لذا فقد أعطى لاسرائيل حرية استخدام حصتها من المياه خارج وادي

الاردن ، أي على امتداد سهل اسرائيل الساحلي وفي النقب ، واقترح بأن توكل رقابة السحوبات المائية وجمع البيانات الى جهاز محايد(٣٥).

تضمنت المقومات الفنية الاساسية للمشروع الموحد بناء سد في اليرموك العلوي بهدف تخزين ٣٠٠ مليون متر مكعب من المياه وانتاج ١٥٠ مليون كيلووات ساعة من الطاقة الكهربائية سنويا ، وتخزين مياه فيضان اليرموك التي تراوح ٨٠ مليون متر مكعب سنويا في بحيرة طبريا ، ومن ثم تحويل هذه الكمية الاخيرة ، مضافا اليها حصة الاردن من مجرى نهر الاردن الرئيسي ، عن طريق قناة تمتد من بحيرة طبريا الى العدسية ، لري الاراضي في الغور(٣٦).

وبموجب التوزيع المعدل الذي جاء به جونستون ، يحصل لبنان على ٣٥ مليون متر مكعب من مياه الحاصباني ، وتحصل سوريا على ٢٠ مليون متر مكعب من مياه بانياس الى جانب ٢٢ مليون متر مكعب من المجرى الرئيسي لنهر الاردن العلوي ، بالقرب من بحيرة طبريا ، واعطيت سوريا حصة اضافية مقدارها ٩٠ مليون متر مكعب من مياه اليرموك . وبالنسبة لما يتبقى من مياه المشروع فانه يوزع على النحو التالي : يحصل الاردن على ٧٢٠ مليون متر مكعب : يأتي ٣٧٧ مليون متر مكعب منها من مياه اليرموك و ١٠٠ مليون متر مكعب من الاردن و ٢٤٣ مليون متر مكعب من جداول الاردن الجانبية ، وتحصل اسرائيل على ٢٥ مليون متر مكعب من مياه اليرموك بالاضافة الى كل الباقي من الاردن العلوي(٣٧). للتعرف على الاختلافات بين المشاريع الاقليمية ، راجع الخلاصة في الجدول (١).

بصرف النظر عن النجاح الذي تحقق ، بقيت العقبتان الرئيسيتان ، وهما الرقابة الدولية وتحديد حصص المياه ، بدون حل . اذ ان اسرائيل اصرت خلال المفاوضات على معارضتها للمشروع الموحد بالنسبة لتوزيع حصص المياه وطالبت بـ ١٥٠ مليون متر مكعب اكثر من الكمية التي خصصت لها بموجب هذا المشروع . فضلا عن ذلك ، فلقد اعتبرت اسرائيل ان أي نوع من أنواع الرقابة من جانب هيئة الامم المتحدة هو انتهاك لسيادتها . وفضلت ، بدلا من هذه الرقابة ، بأن يصار الى اشراف مباشر من جانب مجموعة من مهندسي المياه المحايدين ، لقد مثل هذا الرفض رغبة اسرائيل في « التفاوض المباشر مع الدول العربية أملا في تغيير موقف هذه الدول من عدم الاعتراف بها »(٣٨).

من ناحية أخرى ، ابتدأ العرب يشكون في الاهداف السياسية لمقترحات جونستون ، خاصة بعدما أكد وزير الخارجية الاميركية الراحل ، السيد جون فوستر دالس ، في خطاب القاه في ٢٦ آب سنة ١٩٥٥ ، امام مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك ، استعداد حكومة الولايات المتحدة الاميركية للاسهام في تحقيق مشاريع التنمية المائية والري التي من شأنها ان تساعد على اعادة توطين اللاجئين ، ورغبة الولايات المتحدة الاميركية في توطيد حدود دائمة بين اسرائيل وجيرانها بدلا من خطوط الهدنة ، كوسيلة لتحقيق السلام والهدوء في المنطقة(٣٩). جاء هذا الخطاب ليؤكد مخاوف العرب من اهداف سياسة الولايات المتحدة الاميركية في الشرق الاوسط وادرك العرب بأن قبول المشروع يعني الوقوع في شرك اميركي يستهدف تصفية قضية اللاجئين . ان هذا الاسلوب هو واحد من محاولات عديدة لحل النزاع العربي الاسرائيلي عن طريق التدابير الاقتصادية . وعلى ذلك لم يقبل العرب بالمشروع(٤٠).

وفي النهاية ، أتخذت اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية خطوة اجرائية تقضي بأحالة المشروع الموحد الى اللجنة الفنية التابعة للجامعة لمزيد من الدراسة الى

حين التوصل الى اتفاقية ، وكانت هذه الخطوة بمثابة اعلان عن انتهاء المفاوضات .

كان يبـدو في صيف ١٩٥٥ بأن التوصل الى اتفاقية بات امرا ممكنا ، غـير انه في تشرين الاول من تلك السنة ، أصبح واضحا ان مهمة جونستون محكومة بالفشل بدليل ان المفاوضات توقفت في تلك السنة ولم تستأنـف ابدا بعد ذلـك . كما ان التدهور السريع في الوضع السياسي أدى الى وقوع حوادث غزه في عام ١٩٥٥ وبالتالي الـى ازدياد التوتر في المنطقة بسبب حلف بغداد ، والتسابق على التسلح بين اسرائيل والدول العربية ، والنزاع على قناة السويس ، والحرب الساخنة الباردة بين الشرق والغرب. وان نشوب حرب السويس ، نتيجة لهذا كله ، الغى اي احتمال في قيام تعاون أقليمي بين الدول العربية واسرائيل(٤١).

وما ان انتهت مهمة جونستون الى ما انتهت اليه وانقطعت المفاوضات حتى عـاد الاسرائيليون والعرب الى التخطيط ، كل من جانبه ، في جو مشحون بالعداء والتوتر الحاد .

المشاريع الاسرائيلية والعربية الحالية

نظام نقل المياه الوطني : تبنت اسرائيل مفهوما اساسيا كان هايز ولاوسرميلك قـد فصلاه في مقترحاتهما ، وظهر هذا المفهوم في مشاريع اسرائيل الاولى وفي مشروعهـا الحالي المعروف بنظام نقل المياه الوطني . يقضي المشروع الجديد بتركيب أنبوب طوله ٦٥ ميلا واقامة خزانات تتصل به مباشرة ومحطات ضخ وتقوية . وبأن تقوم ثـلاث مضخات ، عند المسرب الواقع في ايشد كنروت ، بضخ المياه الى مستوى الانبوب وذلك عبر بوابة تغذي قناة متصلة بخزان عمليات في بيت نيتوفا . وبأن تنقل المياه من هـذه النقطة ، عبر ثلاثة انفاق تمتد تحت تلال ميناسا والجليل وبواسطة خـطوط أنابيب ، الى منابع المياه التي تغذي مشروع يرقون ــ النقب في راس العين ، شرق تل أبيب . وبأن تتجه المياه ، اخيرا ، الى الجنوب بواسطة انبوبي يرقون ــ النقب الموجوديـن حاليا في المشروع المحلي(٤٢).

يختلف المشروع الحالي عن مشروع السنوات العشر من حيث اعادته النظر في كميـة المياه التي ستنالها اسرائيل . لقد اعلنت اسرائيل انها ستحول ١٨٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا لمدة خمس سنوات بينما تقوم ببناء محطتي الضخ الاضافيتين وأن كمية المياه التي ستحول بحلول عام ١٩٧٠ تقدر بـ ٣٢٠ مليون متر مكعب .

مشروع الغور الشرقي الاردني : بعد فشـل الجهود في التوصـل الى اتفاقية مع اسرائيل بشأن استغلال مياه نهر الاردن ، سعت المملكة الاردنية الهاشمية الى بناء قناة طولها ٤٣ ميلا لتأمين ١٤٠ مليون متر مكعب سنويا من مياه اليرموك والزرقاء ومن سبعة جداول موسمية ، بهدف ري ٣٠,٠٠٠ فدان من الاراضي في شريط يتراوح طوله بين ٣ الى ٥ أميال ، على امتداد المنحدر الشرقي لوادي الاردن ، الى الجنوب من نقطة التقاء نهري الاردن واليرموك . على ان تكون هيئة لقناة الغور الشرقية مهمتها ان تدير المشروع ، وتوزع المياه ، وتنظم حجم المزارع التي تتلقى المياه وفقا لمعايير الزراعـة الناجحة والملكية الزراعية المتعددة الاطراف .

لقد دخل هذا المشروع حيز التنفيـذ الفعلي بفضل التمويـل المشترك من جانب الحكومة الاردنية وادارة التعاون الفني الاميركية في عمان . ومنذ الشروع في بنـاء القناة ساهمت الولايات المتحدة الاميركية بـ ١٨ مليون دولار والحكومة الاردنية بـ ٥ ملايين دولار في سبيل تنفيذها . يتسع نفق القناة الى ضعفي كمية المياه الجارية حاليا

ويسمح بناؤها بادخال توسيعات عليها في المستقبل . من هذا ، يتضح ان القناة يمكن ان تلائم بسهولة اي مشروع اقليمي لاستغلال مياه نهر الاردن(٤٣).

مشروع الجامعة العربية الجديد : وافقت الجامعة العربية ، في غضون ذلك ، على تدابير استغلال مياه الحاصباني وبانياس واليرموك . اقترح المشروع الجديد ، الذي اقرته الجامعة في كانون الثاني عام ١٩٦٤ ، انشاء سد على الحاصباني ، وتحويل ما بين ٤٠ الى ٦٠ مليون متر مكعب من مياه هذا النهر الى الليطاني لري الاراضي في جنوب لبنان ، بالاضافة الى ١٦ مليون متر مكعب سيحصـــل عليها لبنان من نبع الوزاني . يستخدم جزء من منسوب الوزاني الصيفي لتلبية حاجات الري في ســـوريا ويحـــول منسوبه الشتوي ، مضافا اليه ما بين ٢٠ الى ٣٠ مليون متر مكعب سنويا من ميـــاه الحاصباني ، شرقا الى بانياس ، ثم جنوبا الى سد المخيبة على نهر اليرموك . وتنقل المياه من المخيبة الى قناة الغور الشرقية ومن هنـــاك ، بواسطة سيفون ، عبر نهر الاردن ، الى قناة الغور الغربية لري الاراضي باتجاه الجنوب نحو اريحا(٤٤).

ان محصلة هذه التحويلات المائية هي استبقاء ما بين ٢٠٠ الى ٢٥٠ مليون متـــر مكعب من مياه الاردن لتنفيذ الري في الاراضي العربية ، وترك حوالي ١٠٠ مليون متر مكعب تجري الى داخل اسرائيل. ان هذه الكمية الاخيرة، مع ما يضاف اليها من مياه نبع الدان الواقع تحت السيطرة الاسرائيلية ، تؤمن لاسرائيل ١٨٠ مليون متر مكعب مـــن منسوب المياه في انبوب طبريا ــ النقب في مرحلته الاولية . وبكلمات اخرى ، فـــان النتيجة الحقيقية لهذه التحويلات هي الحد من اقبال اسرائيل على سحب كميات كبيرة من المياه كما يتطلب مشروع نقل المياه الوطني في مراحله الاخيرة(٤٥).

الجدل العربي الاسرائيلي الراهن

تطالع المرء ، في غمرة النزاع العربي الاسرائيلي على مياه نهر الاردن ، سلسلة من النقاط التي تستند اليها حجة كل من طرفي النزاع . واذا ابتدأنا باسرائيـــل ، فاننـــا نجد ان كتاب الحكومة السنوي لعام ١٩٥٨ ينص على ان « اكبر عامل يوجه التخطيط لمشاريع المياه الوطنية هو نشر الاستيطان في طول البلاد وعرضها لاسباب سياسيـــة وأمنية »(٤٦). وعلى نحو اكثر تعميمـــا ، أصر القـــادة الاسرائيليون على النواحـــي الاقتصادية التي تسبب ، في نظرهم ، ضررا للدول النهرية الاخرى(٤٧). ويتلخص موقف اسرائيل الاساسي في انها دولة مستقلة تمتد سيادتها الى المنطقة المجردة من الســـلاح وبحيرة طبريا ، وانها بموجب هذه السيادة تتمتع بالحق الكامل في تنفيذ مشاريعهـــا المائية ومشاريع توليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية ، من غير التزام من جانبهـــا بالحصول على موافقة اي كان قبل البدء باشغال التحويل(٤٨).

وبالنسبة لمسألة التزام اسرائيل باتفاقيات مياه الاردن المعقودة في السنوات ١٩٢٢، ١٩٢٣ و ١٩٢٦ ، فان اسرائيل دفعت بعدم التزامها على اساس انهـــا لم تقبل بتلـــك الاتفاقيات اطلاقا وان الاتفاقيات المذكورة ، التي كان من المكـــن ان يكون لها قيمـــة الزامية لو قامت علاقات جيدة بين الاقطار المعنية ، لم تعد سارية المفعول(٤٩). لقـــد لخص المندوب الاسرائيلي وجهـــات نظر حكومته في هـــذا الشأن على النحو التالي : « ان القول بأن علينا ان نكون ملزمين ، ازاء موقف سوريا العدائي من **الحرب والنزاع**، بالاعتراف باتفاقية ميتة كانت تنظم فيما مضى علاقات جوار جيدة بين المملكـــة المتحدة وفرنسا ، لهو تفكير في منتهى الهزل»(٥٠).

وفيما يتعلق بحجم الحصة الاسرائيلية من المياه ، اصرت اسرائيل على ان مطالبتها بـــ ٣٢٠ مليون متر مكعب تتفق مع ما خصص لها بموجب مشروع جونستون . وزعمت

انها على استعداد للتفاوض بهذا الشأن مع الدول العربية الشريكة بالمياه علما بأن هذه الدول لم تكن مستعدة للدخول معها في ايه مفاوضات . وتــذرعت اسرائيــل بغياب المفاوضات لتعطي لنفسها الحق في سحب المياه طالما ان المملكة الاردنية الهاشمية كانت قد سحبت كميات كبيرة من مياه اليرموك من دون موافقتها . وترى اسرائيل ، من أجل تعقيد الامور ، بان لها حق ابداء الراي في هذا الموضوع استنادا الى ان اليرموك يجري في اراضيها مسافة ٦ اميال قبل دخوله الى الاردن(٥١).

بالاضافة الى ما سبق ، طرحت اسرائيل مشروع التحويل على اساس انه مشروع اقتصادي بناء يستند الى مبرر قانوني متمثل في التوزيعات المائيه المحدده في المشروع الموحد ، وان الدول العربية تعارض المشروع لاسبــاب سياسية وحسب مع عــدم اكتراثها بالسلام والهدوء في المنطقة : « ان استغلال اسرائيل لحصتها العادلة من مياه المشروع ، باعتبارها شريكة بالمياه ، لا يحرم أي من جيرانها من حصته المشروعة من مياه الاردن ــ اليرموك ولا ينتهك أو يهدد اي من مصالحهم . وان المعارضـة العربيــة لمشروع اسرائيل ليس لها أساس من الانصاف اذ ان المشروع لا يؤثر ابدا على المصالح الحقيقية والحاجات المائية للدول النهرية الاخرى . وان الناطقين العرب يتجاهلــون كلية الطبيعة البناءة للمشروع ويشوهون صفته وقصده وآثاره»(٥٢).

فندت الدول العربية ، من الجهة المقابلة ، ادعاءات اسرائيل بالقول ان التصريحات الاسرائيلية تكشف الدوافع السياسية والعسكرية الكامنة وراء سعيها لتحويل نهــر الاردن ، وان هذا الامر يشكل تهديدا خطيرا بالهجرة اليهودية الواسعة الى اسرائيل . وان هذه الهجرة سوف لن تقضي فقط على اية فرصة في استعادة اللاجئين الفلسطينيين لبيوتهم واراضيهم ، بل انها ستضيف قدرات جديدة الى طاقة اسرائيل الحربية الامــر الذي سيشجعها على تنفيذ سياساتهــا التوسعية في الاراضي العربية المجاورة(٥٣). وترى وجهة النظر العربية بأنه ليس لسوريا او لاسرائيل أية سيادة على المنطقة المجردة من السلاح ، لان اتفاقيات الهدنة كانت قد تركت مسألة السيادة الى حين التوصــل الى اتفاقية سلام نهائية . وأنكرت ، بذلك ، على أي من الطرفين بأن يأتي عملا منفردا من شأنه أن يؤثر على الملكية العربية في المنطقة ، من دون اذن لجنة الهدنة المشتركة والفريق الاخر(٥٤).

وبالنسبة لقضية بحيرة طبريا ، انكر العرب بأن تكون البحيرة بكاملها واقعة في داخل القطاع الخاضع للسيطرة الاسرائيلية بدليل ان لسوريا « سيطرة واقعية منذ عام ١٩٤٨ على امتداد طوله ٤ أميال من شاطىء البحيرة الشمالي الشرقي ، وقد أكدت سوريــا عن طريق هذه السيطرة حقوقها التقليدية القديمة في الوصول الى البحيرة عبر خــط الهدنة(٥٥). وفيما يتعلق بتحويل المياه ، ترى وجهة النظــر العربية انــه بينما تدعو المشاريع الاسرائيلية الى سحب ٣٢٠ مليون متر مكعب ، فان المضخات الثلاث التي تنوي اسرائيل تركيبها لها طاقة ضخ تصــل الى ٧٢٠ مليون متر مكعب . لــذا فان اسرائيل ، بعد ما تجد حلا لمشكلة تخزين المياه ، سيكون في مقدورها ان تسحب كمية المياه طبقا لمشروع السنوات العشر السالف الذكر .

وبشأن تذرع اسرائيل بمشاريع الري الصغيرة التي نفذها العرب ، فان العــرب لم يقبلوا على هذه المشاريع الا بعد ما فشلوا في تحقيــق اي مشروع اقليمي بسبب الاعتراض الاسرائيلي وتحويل المياه المنفرد من جانب اسرائيل . كما أن اسرائيل التي طالبت بحصتها على أساس مشروع جونستون المعدل ، كانت هي نفسها قد أصرت خلال مفاوضاتها مع المبعوث الاميركي على تزويدها بــ ١٥٠ مليون متر مكعب اكثــر

من الحصة التي حددها لها مشروعه . بالاضافة الى هذا ، فان الاعتراض العربي على مشروع التحويل الاسرائيلي الحالي يرجع الى أن هذا المشروع يخرق المبدأ الذي يقضي بأن لا تحول مياه حوض الى حوض آخر الا بموافقة الدول الشركاء في مياه الحوض . وبما أن التفاوض بهدف التوصل الى موافقة من هذا القبيل مستحيل بالنظر لتعقيدات مشكلة فلسطين ، لذا فان مسألة توزيع المياه التي تعتبر جزءا من تلك المشكلة يجب أن تعالج في اطار حل شامل للمشكلة الاساسية .

لقد ساق العرب ، على اي حال ، حجة أساسية أخرى مؤداها ان قيام اسرائيل بتحويل مياه الأردن سوف يلحق ضررا فادحا بالمصالح الاقتصادية الاردنية والسورية ، ولهذا الضرر وجهان ، اولهما : ان كمية المياه المتوفرة للدول النهرية الاخرى ستنخفض انخفاضا كبيرا ، وثانيهما : ان المياه المتبقية ستكون مالحة جدا وبالتالي غير صالحة لري الاراضي الواقعة في وادي الاردن السفلي . أضف الى ذلك بان انخفاض منسوب المياه في النهر قد يلحق بالصناعات القائمة على شواطئه خسائر فادحة لا يمكن تعويضها(٥٦) .

ان العرب لم ينكروا حق اسرائيل في الحصول على كمية من المياه سوف تحرمهم من الحصة التي يستحقونها وحسب ، بل أنهم يرفضون ، في الاساس ، الاعتراف باسرائيل ككيان شرعي استنادا لمبادىء القانون الدولي . ذلك أن : « سند اسرائيل في ملكية أراضيها يقوم على نظرية حق المنتصر التي أصبحت زائلة ويستمد من الصلاحية والاهلية القابلتين للجدل التي أعلنت بموجبهما الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة تقسيم بلد ضد ارادة شعبه»(٥٧) .

تمسك العرب بهذا الموقف بسبب رفض اسرائيل تنفيذ قرار هيئة الامم المتحدة القاضي بتخيير الفلسطينيين بين العودة الى بلادهم او التعويض عليهم . لقد أكدت آخر المقترحات التي تقدمت بها لجنة التوفيق لفلسطين ضرورة اعطاء اللاجئين الفرصة للتعبير عن تفضيلهم الحقيقي بين العودة الى اسرائيل او التعويض والاستيطان في أي مكان اخر . غير أن مقترحات هذه اللجنة قضت ، في نفس الوقت ، بأن يكون لاسرائيل القول الفصل بالنسبة لقبول اللاجئين الذين يختارون العودة الى ديارهم ، وذلك ضمانا « لحق اسرائيل في رفض اعادة المخاطر الامنية الى اراضيها » .

ان هذه العروض التي تقدم بها في عام ١٩٦٢ ممثل خاص للجنة التوفيق ، هو السيد جوزيف جونسون ، رئيس مؤسسة كارنيجي الخيرية من أجل السلام العالمي ، لاقت الرفض الكامل من جانب الحكومة الاسرائيلية(٥٨) .

خاتمة

على الرغم من اعلان كل من اسرائيل والدول العربية بان تحويل المياه من جانب الطرف الاخر يعتبر عملا عدوانيا وانه سيقمع بالقوة اذا اقتضى الامر ، فان كلا الجانبين باشرا بتنفيذ مشاريعهما في جو سياسي خيمت عليه اخيرا الحرب العربية الاسرائيلية لعام ١٩٦٧ . وبالفعل فان توقعات جونستون في عام ١٩٥٤ تحققت بأكثر من حذافيرها في عام ١٩٦٧ : « ان المحاولات الرامية الى التحكم بمجرى النهر من طرف واحد يمكنها فقط ان تخلق توترا في المستقبل وقد تؤدي بسهولة الى اصطدام مكشوف . وما لم يوضع مشروع ما للتنمية يحقق مصلحة الطرفين ، فان الوضع سيتطور حالا الى درجة ان من يملك قدرة السيطرة على المياه يستطيع الحصول عليها . ولست بحاجة ان افصل النتائج التي قد تنجم بسبب ذلك »(٥٩) .

جدول (١)

مقارنة بين المشاريع الاقليمية(١)

موقع الاراضي التي ستروى (بالدونمات)	مشروع «مين»	المشروع العربي	مشروع «كوتون»(أ)	المشروع الموحد
اسرائيل	٤١٦ر٠٠٠	٢٣٤ر٠٠٠	١ر٧٩٠ر٠٠٠	
الاردن	٤٩٠ر٠٠٠	٤٩٠ر٠٠٠	٤٣٠ر٠٠٠	الارقام غير متوفرة لاجراء المقارنة بها .
لبنان	—	٣٥ر٠٠٠	٣٥٠ر٠٠٠(ب)	
سوريا	٣٠ر٠٠٠	١١٩ر٠٠٠	٣٠ر٠٠٠	
كمية المياه بملايين الامتار المكعبة سنويا				
اسرائيل	٣٩٤	١٨٢	١٢٩٠ (ج)	الباقي بعد تنفيذ السحوبات من قبل الدول النهرية المشاركة(د)
الاردن	٧٧٤	٦٩٨	٥٧٥	٧٢٠
لبنان	—	—	٤٥٠ر٧	٣٥
سوريا	٤٥	١٣٢	٣٠	١٣٢
المجموع	١٢١٣	١٠٤٧	٢٣٤٥ر٧	—

(١) كاترين دوهرتي : « النزاع على مياه الاردن » : **الاتفاق الدولي** ، عدد ٥٥٣ (آيار ١٩٦٥) ص ٢٧ .

(أ) يشمل هذا المشروع مياه نهر الليطاني بالاضافة الى مياه حوض الاردن .

(ب) يشمل الاراضي خارج وادي الاردن .

(ج) يشمل ٦٢٠ مليون متر مكعب من مياه نهر الليطاني سنويا .

(د) يشمل حصة محددة مقدارها ٢٥ مليون متر مكعب من مياه نهر اليرموك .

الحواشي :

١ — ج. هـ. جانسن ، « مشكلة مياه الاردن » المجلد ٢٠ ، عدد ٢ (شباط ١٩٦٤) ص ٦١ .

٢ — دون بيرتز ، « مشاريع النهر وتأثيرها على التنمية الاقتصادية في الاردن وسوريا ولبنان »، **مجلة الشرق الاوسط** ، مجلد ١٨ ، عدد ٣ (صيف ١٩٦٤) ص ٣٠٥ .

٣ — جورجيانا ستيفنس ، «وادي نهر الاردن»، **التوفيقات الدولية** ، عدد ٥٠٦ (كانون الثاني ١٩٥٦) ص ٢٣٤ .

٤ — نفس المرجع ، من ص ٢٣٦ الى ص ٢٣٩ .

٥ — والتر كلاي لاودرميلك ، « فلسطين — أرض الميعاد » (نيويورك ، هاربرز واخوانه ١٩٤٤) ، ص ١٦٩ .

٦ — نفس المرجع من ص ١٧٠ الى ص ١٧٥ .

٧ — جايمز هايز « تقرير هيئة وادي تانسي عن نهر الاردن » ص ٥ .

٨ — هايز من ص ١٥ الى ص ١٦ .

٩ — وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين (الانروا) — « تقرير خاص عن الاردن » **نشرة التنمية الاقتصادية** ، عدد ١٤ (تموز ١٩٥٦) ص ٩٦ .

١٠ — نفس المرجع من ص ٩٦ الى ص ١٠٠ .

١١ — الكتاب السنوي لهيئة الامم المتحدة ، سنة ١٩٥١ ، من ص ٢٨٥ الى ص ٢٨٦ .

١٢ — الوثائق الرسمية لمجلس الامن ، سنة ١٩٥٣ ، السنة الثامنة ، ملحق خاص عدد ٨ لتشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاول (وثيقة رقم ٣١٢٨ — ص ٣٧) .

١٣ — كاترين دوهرتي «النزاع على مياه الاردن» **التوفيق الدولي** عدد ٥٥٣ (ايار ١٩٦٥) ص ١٩.

١٤ — « النزاع على مياه الاردن » **مجلة الشرق الاوسط** ، مجلد ٧ ، عدد ٢ (ربيع ١٩٥٣) ص ١٥٥ .

١٥ — السير ماكدونالد وشركاه «تقرير عن توسيع الري في وادي الاردن » (وستمنستر ، كوك ، هاموند وكيل ، ١٩٥١) ص ١ .

١٦ — الانروا ، « تقرير خاص عن الاردن » ص ٨٤ .

١٧ — عمر غوباشي ، « تطور مشروع نهر الاردن » — نشرة اعلامية ، عدد ١٨ (نيويورك : مركز الاستعلامات العربي ، تشرين الثاني ١٩٦١) ص ١٥ .

١٨ — قررت ادارة الرئيس ايزنهاور ارسال السيد جونستون الى الشرق الاوسط ، نتيجة لتعرضها ، في ذلك الوقت ، لضغط شديد من جانب الكونغرس الذي اعتبر تصفية قضية اللاجئين مطلبا أساسيا من اجل تحقيق السلام والهدوء في المنطقة .
ستيفنس ، « وادي نهر الاردن » ص ٢٦٠ .

١٩ — شارلز مين ، « الاستغلال الموحد للموارد المائية لاقليم وادي الاردن » — (بوسطن : شارلز مين ، ١٩٥٣) من ص ٣٥ الى ص ٣٦.

٢٠ — نفس المرجع ، رسالة تمهيدية بقلم جوردون كلاب (٣١ اب سنة ١٩٥٣) .

٢١ — نفس المرجع .

٢٢ — نفس المرجع .

٢٣ — يضيف مشروع « مين » اقتراح بانجر بانشاء سد بارتفاع ٥٠٠ قدم في المقارن بأنه غير عملي وباهظ التكاليف . نفس المرجع من ص ٦١ الى ص ٦٣ .

٢٤ — نيويورك تايمز ، ١٥ تشرين الثاني ١٩٥٣، ٢:٢٤ .

٢٥ — دانا آدمز شميدت ، « احتمالات الحل للنزاع على وادي نهر الاردن » ، **شؤون الشرق الاوسط** ، مجلد ٦ ، عدد ١ (كانون الثاني ١٩٥٥) ص ٦ .

٢٦ — الانروا ، « تقرير خاص عن الاردن » من ص ٩١ الى ص ٩٤ .

٢٧ — نشأت فكرة استخدام مياه نهر الليطاني ، وهو نهر لبناني وطني ، لري الاراضي في فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى حينما رفضت بريطانيا وفرنسا ، وهما الدولتان المنتدبتان على فلسطين وسوريا ، الطلب الصهيوني باعتبار ذلك الجزء من النهر الذي يجري من الشرق الى الغرب هو الخط الذي يرسم الحدود بين فلسطين وسوريا . وأكدت دراسة ، وضعت في عام ١٩٤٣ من قبل مصلحة مياه فلسطين

ومهندسين لبنانيين ، بان سبع مياه الليطاني فقط يمكن الاستفادة بها فعلا في داخل لبنان واما الباقي فيتوجب تحويله الى فلسطين وان لبنان سوف يحصل ، في مقابل ذلك ، على معظم أو كل الطاقة المنتجة . « كان واضحا للاسرائيليين بأن احلامهم في أعمار النقب لا يمكن أن تتحقق عمليا بغير مياه الليطاني » .
دانا آدمز شميدت ، « احتمالات الحل للنزاع على وادي نهر الاردن » ص ٤ .

٢٨ — دون بيرتز ، «تطور مياه وادي الاردن» ، مجلة الشرق الاوسط ، مجلد ٩ ، عدد ٤ (خريف ١٩٥٥) من ص ٤٠٤ الى ص ٤٠٥ .

٢٩ — « مشروع كوتون لتطوير واستغلال المصادر المائية لحوضي الاردن والليطاني » (نيويورك : المكتب الاسرائيلي للاعلام ، شباط ١٩٥٤) ص ٢ . ورد ذكر العبارة في «**مشكلة مياه الاردن**»: **تحليل وتلخيص الوثائق المتاحة** (واشنطن : أصدقاء الشرق الاوسط الامريكيون ، ١٩٦٤) ص ٧٢ .

٣٠ — نفس المرجع .

٣١ — نفس المرجع .

٣٢ — نفس المرجع ، توصل خبراء مكتب الولايات المتحدة لاستصلاح الاراضي في عام ١٩٥٤ الى أنه يمكن استغلال مياه الليطاني والاستفادة منها كاملة في داخل لبنان . دانا آدامز شميدت « احتمالات الحل للنزاع على وادي نهر الاردن » ص ١٠ .

٣٣ — **نيويورك تايمز** ٢٦ حزيران ١٩٥٤ — ٤:٣ — وجورجيانا ستيفنس (**تقسيم نهر الاردن**) ودراسات معهد هوفر عدد ٦ (الولايات المتحدة الاميركية : معهد هوفر للحرب والثورة والسلام، جامعة ستانفورد ، ١٩٦٥) ص ٢٩ .

٣٤ — ميخائيل بيكر (الابن) وشركة هارزا الهندسية : «مشروع وادي اليرموك ـــ الاردن، تقرير المشروع الرئيسي » (روشستر ١٩٥٥) — وردت في كتاب « مشكلة مياه الاردن » من ص ٧٥ الى ص ٨٠ .

٣٥ — ستيفنس : «وادي نهر الاردن» ص ٢٧٤ .

٣٦ — دوهرتي : « النزاع على مياه الاردن » ص ٢٨ .

٣٧ — بيرتز : « مشاريع النهر وتأثيرها على النمو الاقتصادي في الاردن وسوريا ولبنان » ص ٢٩٧ . « من الملاحظ ان حصة اسرائيل لم تحدد بوضوح ، بل أن التقرير نص على انه باستثناء السحوبات والتوزيعات المائية الى سوريا والاردن ولبنان فان مياه نهر الاردن ستكون بتصرف اسرائيل . ويرى دون بيرتز أن معدل كمية المياه التي ستتاح لاسرائيل على هذا الاساس قد يصل الى حوالي ٤٠٠ مليون متر مكعب » .

٣٨ — دوهرتي : « النزاع على مياه الاردن » . ص ٢٩ .

٣٩ — ستيفنس : « وادي نهر الاردن » . من ص ٢٧٦ الى ص ٢٧٩ .

٤٠ — ادوارد رزق : نشرة اعلامية عدد ٢٣ (نيويورك : مكتب الاعلام العربي ، تشرين الاول ١٩٦٤) من ص ١٩ الى ص ٢١ .

٤١ — سمحا فلابمان : « الصراع على مياه الاردن » — « نيو اوت لوك » مجلد ٣ ، عدد ٤ (٢٦) (شباط ١٩٦٠) ص ٦ — وردت في كتاب « مشكلة مياه الاردن » ص ٥١ .

٤٢ — موريس جاريل : « مشروع وادي الاردن» — « **الاميركي العلمي** » .
و س جـ سميث : « تحويل مياه الاردن » — « **العالم المعاصر** » ، مجلد ٢٢ ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٩٤ .

٤٣ — بيرتز : « مشاريع النهر وتأثيرها على النمو الاقتصادي في الاردن وسوريا ولبنان » ص ٢٩٧ .
وجوزيف ل. ديز : « مشروع الغور الشرقي الاردني » — **مجلة الشرق الاوسط** من ص ٣٥٧ الى ص ٣٧١ .

٤٤ — دوهرتي : « النزاع على مياه الاردن » ص ٣٤ .

٤٥ — بيرتز : « مشاريع النهر وتأثيرها على النمو الاقتصادي في الاردن وسوريا ولبنان » ص ٢٩٨ .

٤٦ — **كتاب حكومة اسرائيل السنوي** ٥٧ — ١٩ (١٩٥٨) — (القدس : المطبعة الحكومية ١٩٥٨) ص ٦١ .

٤٧ — دوهرتي : « النزاع على مياه الاردن » ص ٤٧ .

٤٨ — فرد خوري : « الصدام والنزاع على الجبهة الاسرائيلية — السورية » ، **مجلة الشرق الاوسط** مجلد ١٧ ، عدد ١ (شتاء ١٩٦٣) من ص ١٦ الى ص ١٧ ومن ص ٢٣ الى ص ٢٤ .

٤٩ — أشترطت المذكرات المتبادلة بين فرنسا وبريطانيا وجوب عدم التعرض للحقوق القائمة لسكان سوريا في استخدام مياه الاردن . وبعبارة اكثر تحديدا ، لقد منح سكان سوريا نفس حقوق الملاحة وصيد الاسماك في بحيرتي الحولة وطبريا على قدم المساواة مع سكان فلسطين . ومنحوا ، كذلك ، حق رعاية الماشية والتزود بالمياه (أو حقوق العناية بالتربة والمزروعات) وحق عبور الحدود بحرية لممارسة جميع هذه الحقوق . نفس المرجع ، ص ٢٣ .

٥٠ — غوباشي : « تطور مشروع نهر الاردن » ص ٣٢ .

٥١ — جانسن : « مشكلة مياه نهر الاردن » ص ٦٤ .

٥٢ — مشاريع اسرائيل المائية ص ١ و ٦ كما ورد في دوهرتي « النزاع على مياه الاردن » ص ٤٨ .

٥٣ — رزق : « **نهر الاردن** » ص ٣٣ .

٥٤ — خوري : « الصدام والنزاع على الجبهة الاسرائيلية — السورية » ص ١٧ .

٥٥ — جانسن : « مشكلة مياه نهر الاردن » . ص ٦٥ .

٥٦ — رزق : « نهر الاردن من ص ١ الى ص ٤ ومن ص ٣٠ الى ص ٣٥ و ص ٤٣ .

٥٧ — غوباشي : « تطور مشروع نهر الاردن » ص ٣٢ .

٥٨ — جورجيانا ستيفنس : «تقسيم نهر الاردن» ، ص ٨٣ .

٥٩ — أريك جونستون : **مهمة الى الشرق الاوسط** (نيويورك : المؤتمر السنوي الثاني لاصدقاء الشرق الاوسط الاميركيين ، ٢٨ كانون الثاني سنة ١٩٥٤) ص ٢ ، مدونة في كتاب « مشكلة مياه الاردن من ص ٨٣ الى ص ٨٤ .

« تمثلت صورة الوضع المتفجر قبل عام ١٩٦٧ في الاصطدامات الاسرائيلية — السورية التي وقعت على طول خطوط الهدنة في عام ١٩٦٥ اذ ان القوات الاسرائيلية قصفت مواقع العمل السورية لتحويل المياه على نهر بانياس خلال ثلاثة حوادث حدود منفصلة في هذا العام . وفي حادثة اخرى وقعت في فترة اقرب ، اي في ١٢ تموز سنة ١٩٦٦ ، قام سلاح الجو الاسرائيلي بقصف اشغال البناء في قناة بانياس — اليرموك حتى مسافة بعيدة في الجنوب ، قرب الشواطىء الشمالية لبحيرة طبريا .

سميث ، « تحويل مياه الاردن » ص ٤٩٧ .

مراجعات

Olivier Carré, **L'idéologie Palestinienne de Résistance**
(Ed. Armand Colin, Paris 1972).

المقاومة الفلسطينية كانت ومـا زالت موضوع العديد من المؤلفات في لغات مختلفة . الا ان هذا الكتاب يتميز عنها كلها بتوجه ظريف . فهو يركز على تحليل نصوصها ، ولكـن ليس بالاساليب المعهودة . انما باللجوء الى الطرق الحديثة التي دخلت على فقه اللغة ، والتي يغطيها احيانا مفهوم البنيانية . وقد ركزت النظريات الحديثة في هذا المجال على أهمية ادوات التعبير — الكلمـات والمعاني — في تحديد الهوية الاجتماعية لاية مجموعة بشرية وتاريخ تطورها .

ويذكر الكاتب ، اوليفييه كاريه (الـذي يجيد اللغة العربية) ، ان تحليله هذا للنصـوص الفلسطينية (التي تضم الشعر الفلسطيني المقاوم ونصوص الحركات الوطنية الفلسطينية) هو الثالث — على حد علمه — من التجارب الشبيهة علـى نصوص عربية بعد « تحليل مفاهيمي للقرآن » نشره عدد من الباحثين الفرنسيين عـام ١٩٦٣ وتحليل مفاهيمي تركيبي نشره الكاتب نفسه عـن كتـب التدريس الديني في مصر عام ١٩٧٠ [صفحة ١٣٧].

وقد اختار الكاتب في دراسته نصوصا مـن الكتابات المقاومة — على حد تعبيره — داخـل اسرائيل وخارجها ، فلا يقتصر حديثه اذا عـن المقاومة المسلحة . واعتنى باختيار عدد محدود من النصوص الاساسية التي اعتبرهـا ذات طـابع تمثيلي لمجمل الكتابات ولجأ الى اسلوبين « يراهما علميين » ووضع المجموع في اطار تاريخ «فلسطيني» لفلسطين منذ بروز الصهيونية السياسية وحتـى نهاية عام ١٩٧٠ [ص ٦] .

يبدأ كاريه بتحديد بعض الاصطلاحات تمهيـدا لتطبيقها على الواقع العربـي — والفلسطينـي خاصة — واحدى الاصطلاحات الاساسية هـو اصطلاح «الاسطورة»* . ويقصد به — في تعريف سوريل « التعبير التعبدي لمجموعة بشرية ما ». ويرى الكاتب ان « الاساطير » العربية المعاصرة يمكن ان تحدد هكذا [صفحة ١١] :

— « اسطورة » العدوان الديني على الاسلام والامة الاسلامية .

— اسطورة القومية العربية .

— « اسطورة » اليسار المناهض للامبريالية .

و« الاساطير » العربية برأي كاريه قديمة قدم الشخصية العربية ، ولكن الصدمـة الفلسطينية أصبغت عليها صبغة العصر الحالي . ويضيـف الكاتب ان الايديولوجية الناصرية حاولت مراعـاة « الاساطير » الثلاث باعتدال ، بينمـا ركـزت الايديولوجية البعثية بشكل خاص على «الاسطورة» القومية العربية والايديولوجية الفلسطينية المقاومة ركزت على العداء للامبريالية [صفحة ١٣] . وربما احتاج هذا الطرح الى توضيح وتعديل .

وفي استعراضه الموجز للتاريخ « الايديولوجي » الفلسطيني ، يعتبر كاريه ان الايديولوجية الحالية التي تتسم بالطابع الوطني الفلسطيني وطابـع الثورة القومية العربية وطابع ثورة الطبقـات الكادحة هي حصيلة عملية نضوج تاريخية امتدت منذ بدء الهجمة الصهيونية . واختار لتوضيح عملية النضوج هذه سلسلة مـن النصوص الوطنيـة الفلسطينية منذ بدء الاحتلال البريطانـي وحتـى المقاومة المعاصرة . والنص الاول هو الميثاق المنبثق

* mythe الترجمة ليست دقيقة لهذه الكلمة الا انها اقل المرادفات ايذاء للمعنى .

عن المؤتمر الفلسطيني الاول عام ١٩١٩ الـــذي عقدته الروابط الاسلامية والمسيحية في فلسطين . ويسجل الكاتب فيه التركيز على **الوطن والقومية والامة العربية** وضرورة وحدتها . [صفحة ١٤].

والنص الثاني هو المذكرة المرفوعة من المؤتمر الفلسطيني الرابع عام ١٩٢١ لحكومة لندن مطالبة **بحكومة وطنية** منتخبة من كل المواطنين الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين ويهود) . ويبرز فيه بالاضافة الى الملامح السابقة التأكيد على **وحدة الوطن** ورفض التقسيم . [صفحة ١٥] .

اما النص الثالث فهو الفتوى التي أصدرهـــا الحاج امين الحسيني في آذار ١٩٢٤ مبايعا فيهـــا الشريف حسين بن علي ملكا للعرب وخليفة علـــى المسلمين . ويركز كاريه على تأثير الفكر العروبي والاتجاه **الاصلاحي الاسلامي** على المفتـــي الـــذي فرض نفسه كشخصية قيادية منذ ذلك التاريـــخ تقريبا . [صفحة ١٧] .

والنص الرابع هو الدستور التأسيسي لحـــزب الاستقلال المقر عام ١٩٣٢ والذي يركز ايضا علـــى **استقلال** الارض العربية **الواحدة** بالاضافة الـــى التجديد السياسي الاقتصادي الاجتماعي . [صفحة ١٨] .

ويعطي الكاتب أهمية خاصة للدور المميز الذي قام به الشيخ عز الدين القسام الذي عبر اكثر من أية شخصية فلسطينية الاتجاه الجذري والمعادي للاستعمار لدى جماهير الفلاحين والعمال ، ويعيد لتلك الفترة ميلاد **حرب الغوار** الفلسطينية . كمـــا يسجل الانطباع العام الذي تركه عند الفلسطينيين **الملوك والرؤساء العرب** الذيـــن طالبـــوا بوقـــف الاضراب ، والذي نتج عنه التفريق الدائم بين الدور السلبي لهؤلاء مقابل الثقة الدائمة **بالامـــة العربية** [صفحة ٢١] .

والنص الاخير الذي يستعرضه الكاتب في هـــذا المجال هو الميثاق الوطني الفلسطيني المعدل في صيف ١٩٦٨ ، والذي يشكل استمرارا للنصوص السابقة وفي نفس الوقت بداية لتبلور الايديولوجية الفلسطينية المعاصرة . ويسجل تكـــرار لفظتـــي **الوطنية والقومية** في هذا الميثاق ، والتأكيد بشكل خاص على **الشخصية الوطنية** الفلسطينية المرتبطة **بالقومية العربية** ، كما يشير « لاسطورة » مـــن الاساطير التي يعتبرها أساسية في الفكر المقاوم والتي تتكرر في مجمل الادب الفلسطيني المعـــاصر السياسي وغير السياسي وهي اسطورة « الانبعاث من خلال الموت » . [صفحة ٢٢] .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك وضع الفلسطينيين تحت الاحتلال الاسرائيلي [عام ١٩٤٨] الذيـــن عاشوا التحول المفاجيء من اغلبية الى اقليـــة في وسط سكان غرباء ، والذين عبروا عن رد فعلهم من خلال الحركات الوطنية مثل « الارض » والحزب الشيوعي « ركاح » ومن خلال الادب المقاوم .

وتعكف الدراسة بعد ذلك على تحليل لعينة من هذا الادب (وبالتحديد شعـــر محمود درويش) بالاضافة الى تقرير حركة الارض الموجه الى الامم المتحدة عام ١٩٦٤ واربعة نصوص اخرى مـــن المقاومة « الخارجية » المعاصرة وهي :

— البيان الصادر عن حركة فتح في ١٩٦٩/١/١ (في باريس وهذا ما لا يذكره الكاتب) والذي يحدد الخطوط الرئيسية للحركة واهدافها .

— تقرير الجبهة الشعبية لتحريـــر فلسطـــين لمؤتمرها المنعقد في مطلع ١٩٦٩ والصادر تحت عنوان « الاستراتيجية السياسية والتنظيمية » .

— كتاب نايف حواتمه الصادر في نفس العام تحت عنوان « حول أزمة حركـــة المقـــاومة الفلسطينية » .

— واخيرا البيان المشترك لكـــافة التنظيمات الصادر عن المؤتمر الوطني السابع في مطلـــع حزيران ١٩٧٠ .

(ويقع الكاتب في استعراضه لتاريخ الحركات الفلسطينية في بعض الاخطاء — الثانوية — خاصة في ما يخص الجبهة الشعبية [صفحة ٣٠]) .

*

الفصل الثاني من الكتاب يخصصه كاريه **لتحليله البنياني** لشعر محمود درويش الذي يعتبره « أعمق الشعراء الفلسطينيين » في الارض المحتلة ، دون ان ينسى ذكر توفيق زياد [الذي يكتب « شعرا نديا ، ذا سهولة شفافة »] وسميح القـــاسم وحنا ابو حنا وراشد حسين وسالم جبران والادباء اميل حبيبي وتوفيق فياض .

أما التحليل بحد ذاته لشعر درويش الذي يعتبره

كاريه معبرا عن مجمل شعر الارض المحتلة ، فيعتمد على الانماط البنيانية التي وضعها رولان بارت وليفي ستروس وغيرهما ويلجأ بالتالي الى اصطلاحات غير مألوفة للقارىء العادي ويحددها الكاتب الى حد ما في سياق دراسته او في ختامها.

ويضع كاريه شعر درويش في اطار « حكاية اسطورية واسعة ، مأساة (دراما) يتلوها الشاعر باسم شعبه ، لان كلا منهما مشغول بها كأبطال لولادة جديدة » [صفحة ٣٨] .

ويشرح كاريه مجموعة من قصائد درويش التي قام هو نفسه بترجمتها ونشرها بالفرنسية ، محاولا تطبيق المعطيات فيها شكلا ومحتوى على التعريفات البنيانية [الرسم البياني صفحة ٤٢] ، اذ يرى ان مجموعة قصائد درويش ... (عاشق من فلسطين ، آخر الليل ، حبيبتي تنهض من نومها) تشكل حكاية اسطورية كاملة . [صفحة ٤١] . فدرويش « من خلال الحكاية الدرامية للبطل — المغني ازاء حبيبته فلسطين* يعبر خاصة عن الاسطورة الاساسية للموت والانبعاث ، ويحاول من خلال ذلك ايصال الرسالة السياسية للمقاومة، أي الرفض (القاتل) للاسس السياسية والاجتماعية الحالية لاسرائيل ، من أجل الانبعاث في نظام اجتماعي وسياسي منعكس » ... « ففلسطين الجديدة تلد من خلال الموت الذي تصبه الدولة الاسرائيلية » [صفحة ٤٣] ويمسك كاريه ببعض القصائد [مثل شهيد الاغنية ، وجندي يحلم بالزنابق البيضاء**، وعاشق من فلسطين ...] ليبرز من خلالها الصور المترابطة لاسطورة درويش — فلسطين ويشير مشددا الى تكرار استعمال التعابير والصور التوراتية والانجيلية في شعر درويش ومجمل شعراء الارض المحتلة (وخاصة صورة الصليب والمصلوب) ويلخص كاريه « معنى الشعر الفلسطيني — الاسرائيلي » — على حد تعبيره — بأنه رفض ثلاثي واعادة تقييم ثلاثي :

— رفض الادب (وخاصة الشعر) المرتبط بقيم قديمة .

* وكل قصيدة من قصائد درويش يمكن ان تحمل برأي كاريه عنوان « عاشق من فلسطين » [صفحة ٤٠] .

** التي يقدرها الكاتب بشكل خاص .

— رفض لغة خانعة امام « السلطان » .

— رفض واعادة تقييم للفلكلور والاساطير التقليدية .

وفي مجال استعراضه لردود الفعل العربية خارج الارض المحتلة لهذا الادب ، يرمي الكاتب بعض شعراء الخارج بأسهم خفيفة (فينال نزار قباني وسام « المقلد ثم العائد الى الحظيرة ») [صفحة ٥٠] .

سجل فلسطينيو الارض المحتلة اذا اسطورة جديدة وغير عادية في الاساطير الاسلامية (السنية) والعربية المعاصرة، ويعني بذلك اسطورة «الانبعاث من خلال الموت »*، وحتى بين ادباء المهجر الفلسطيني . فلا فدوى طوقان ولا معين بسيسو ولا غسان كنفاني حملوا الفكرة المتسلطة ذاتها . فالتجربة مختلفة [صفحة ٥٤] .

*

ويخصص الكاتب الفصل الثالث لتحليل شبيه وانما على نمط اخر (وهو ما أسماه التحليل المفاهيمي التركيبي) لنصوص سياسية من المقاومة المعاصرة عددناها سابقا . ويتلخص هذا الاسلوب بفرز المفاهيم الاساسية في أي نص (مثل مفهوم الدولة الاسرائيلية ومفهوم العرب في اسرائيل ومفهوم الامم المتحدة ومفهوم الدولة الديمقراطية الخ ...) وموقعها بالنسبة لمفهوم أساسي (كفلسطين او الشعب الفلسطيني هنا) وعلاقاتها بين بعضها البعض .

وقد أبرز الكاتب بين المفاهيم الخارجية التي تحيط بالشعب الفلسطيني الدائرة « الدولة الاسرائيلية ، الصهيونية واليهود » التي تشكل عنده الدائرة الاولى التي تحيط بالمشكلة الفلسطينية (ويضاف اليها في تقرير حركة الارض مفاهيم الحكومة الاسرائيلية والحكم العسكري وقوانين الطوارىء) . اما الدائرة الثانية فتشمل : الدول العربية ، الامة العربية ، الامبريالية والامم المتحدة [صفحة ٥٥] .

بالنسبة لدائرة « الضغط » الاولى ، فعناصرها تظهر في النصوص الخمسة وكأنها غير متأثرة

* مع انه يرى بعض الاثار ذات المعنى في احاديث ميشيل عفلق .

بالوقائع الفلسطينية المرئة . وهذا ما يعتبره الكاتب احدى مميزات الايديولوجية الفلسطينية : الاتجاه نحو التجريد والتحليل [صفحة ٥٧] . وعرض كاريه التفصيلي يظهر بعض الفروق في توجه البيان الداخلي (مذكرة حركة الارض) عن بيانات المقاومة الخارجية : ففي الاول تظهر **اسرائيل** واجهزتها وادواتها (**الحكومة ، الحكم العسكري، قوانين الطوارىء ومصادرة الاراضي**) في دور فاعل مباشر تجاه الشعب الفلسطيني (او « العرب في اسرائيل ») بينما تظهر في دور سلبي في البيانات الاخرى . وبالمقابل تركز الاخيرة على الصهيونية اكثر من بيان الارض . اما « اليهود » فمصيرهم غير واضح المعالم في فتح ومنظمة التحرير واكثر وضوحا (مع فروق) في البيانات الاخرى [صفحة ٦٢] .

في الدائرة الاخرى هناك **الدول العربية** من جهة **والامة العربية** من جهة اخرى . النظرة العامة سلبية نحو المفهوم الاول وايجابية نحو الثاني ، وتبدو هذه الجدلية للكاتب من اهم مميزات ايديولوجية الرد الفلسطيني . ووجودها يكاد يكون معدوما في بيان الارض واكثر الحاحا في مؤلف حواتمه [صفحة ٦٨] . ويدخل الكاتب هنا في بعض تفسيرات غير دقيقة عن مواقف بعض المنظمات [تفسيره لموقف الجبهة الشعبية مثلا من « سيطرة رأس المال المحلي » على الدول العربية صفحة ٦٩] .

وهناك **الامبريالية والامم المتحدة** أهم مفهومين متعلقين بالقوى العالمية في البيانات الفلسطينية . الارض تكاد لا تذكر الامبريالية وفتح تعطيه معنى محليا بينما الجبهتان الشعبية والديموقراطية تعطيانها حيزا واسعا . الامم المتحدة موجودة خاصة في بيان الارض الذي يتوجه اليها عاتبا وشاكيا . المنظمات الفدائية لا تذكرها الا في صدد اعلانها لرفض قرارات ١٩٤٧ — ١٩٤٨ (في بعض البيانات) و١٩٦٧ في جميعها . الا انه يلمس في بيان فتح (الصادر كما ذكرنا في مطلع ١٩٦٩) مرونة خاصة بالنسبة « للحلول السياسية » . فبيان فتح « يرفض كل حل سياسي يتجاهل وجود *الشعب الفلسطيني* » . ويستنتج الكاتب من هذا اللاتوافق وجود توافق ضمني : وهو أن فتح سترضى بحل يأخذ بعين الاعتبار وجود الشعب الفلسطيني [صفحة ٧٣] .

في الدوائر الداخلية (أي التي لها علاقة مباشرة بالشعب الفلسطيني) نجد المفاهيم التالية : **فلسطين، العرب في اسرائيل، الجماهير الفلسطينية او الشعب الفلسطيني ، البورجوازية (الكبيرة والصغيرة) الفلسطينية ، المقاومة والثورة ، الاستقلال ودولة فلسطين الغد .**

في تركيزه على هذه المفاهيم وعلاقاتها بعضها ببعض في كل من النصوص الخمسة ، تبرز عند الكاتب ملاحظات كالتالية :

— « الارض » تؤكد على الاراضي المغتصبة والعودة الى التقسيم لصالح الشعبين . والتناقض كامن اذا في هذه المعادلة : المطالبة بالاراضي ثم بتقسيمها . [ص ٧٦] .

— في بيانات اخرى (وخاصة تقرير الجبهة الشعبية) تناقض آخر غير محلول : المطالبة بالمساواة بين العرب واليهود في فلسطين المحررة وفي نفس الوقت الاندماج في الامة العربية . [ص ٧٧] .

— في بيان فتح ، تبرز الحركة في دور مميز . فالشعب الفلسطيني ليس هو الحقيقة الاولى وانما فتح التي « تنظمه وتقوده » . [صفحة ٨١] .

— في نص المجلس الوطني ، يتخذ الشعب الفلسطيني دورا أكثر فعالية ويرد ذكر تركيبه الطبقي . ولكن الجبهتين الشعبية والديموقراطية تركزان اكثر على دور « العمال والفلاحين » في صفوفه ، الى جانب « الطبقة المستغلة » — على حد تعبير الجبهة الشعبية — في اسرائيل . [صفحة ٨٢] .

— البورجوازية تحظى باهتمام هاتين الجبهتين كذلك . ولكن بعض الاختلاف يظهر في نظرة كل منهما لدور الشرائح المختلفة منها وخاصة البورجوازية الصغيرة . وحواتمه يشدد اكثر على تصفية الرجعية الفلسطينية من صفوف المقاومة . [صفحة ٨٦] .

— الجبهة الشعبية تركز على **الثورة** . الجبهة الديموقراطية بالمقابل تركز على **المقاومة** . ودراسة حواتمة *غنية جدا في وصف المقاومة . اختيار بيان* فتح المقتضب جعل الكاتب يهمل استعمال فتح لهذين المفهومين بشكل مكرر .

— الجبهتان كذلك تركزان على اهمية **الايديولوجية والنظرية** . الجبهة الشعبية تشير باصرار الى اهمية **الحزب** القائد ، بينما تؤكد الديموقراطية على اهمية دور الجماهير (حواتمة يكاد لا يذكر الحزب) : وهذا ما يرى فيه الكاتب اهم التناقضات بينهما .

— دولة المستقبل تبدو غائمة الملامح عند المنظمات الفدائية . كتابات حواتمة دخلت في التفاصيل اكثر من الكتابات الاخرى بشكل « يروق للغربيين » (اليسار الغربي طبعا) اكثر مما يجاري الحساسيات العربية . [صفحة ٩٤] .

وفي معرض جمع استنتاجاته يشير الكاتب (الذي انهى دراسته في أواسط عام ١٩٧١) الى « خصب الايديولوجية الفلسطينية المقاومة حتى بعد هزيمة ١٩٧٠ » [صفحة ٩٧ وصفحة ١١٢] ملخصا ملاحظاته هكذا :

— تقرير الارض يعبر عن شعور عارم بالضغط ويركز على تجارب تابعة اكثر مما يتجه الى مثال عال في اطار ايديولوجي عام . وفي هذا المعنى يلتقي مع الشعر المقاوم في تحديد الخصم : الدولة الاسرائيلية مع حكومتها وحكمها العسكري . ويبرز الكاتب تركيز « الارض » على اسطورة (بمعناه المذكور اعلاه) الامة العربي « بتأثير ناصري » في رأيه .

— بيان فتح كذلك قليل التركيز ايديولوجيا ولكنه يترك المجال مفتوحا لمواقف اشد تصلبا او اكثر اعتدالا . البيان يؤكد على الحتمية التاريخية للتحرير من سيطرة الامبريالية وهذه النبرة الوحيدة التي تتسم بالماركسية اللينينية في البيان بنظر كاريه ، الذي يرى بالمقابل ضعفا كبيرا في طرح الحل المستقبلي العام لمصير « المسلمين والمسيحيين واليهود » . [صفحة ١٠٠] .

— بيان المجلس الوطني اكثر « أدلجة » ربما لتأثير المنظمات اليسارية على صياغته . وبالفعل يلمس كاريه تأثيرا ماركسيا واضحا في مجمل الطرح خاصة فيما يخص العلاقة بين المصدر [الشعب الفلسطيني ، الثورة الفلسطينية ، المقاومة الفلسطينية] و« المعول به » [الثورة، الامة العربية ، الامبريالية] . فالبيان اذا اكثر تصلبا وأممية من بياني الارض وفتح ، ولا يحتوي على اي تناقض . [صفحة ١٠١] .

— تقرير الجبهة الشعبية يبرز ثلاثة مفاهيم أساسية في موقع الجذر وهي الامبريالية ، الرأسمالية والمقاومة الفلسطينية . ومنها تنبع ايديولوجية الجبهة . والبيان يتضمن ثلاث نقاط حساسة وصعبة الطرح : دور البورجوازية الصغيرة ودور الطبقة الاسرائيلية المستغلة (بفتح الغين) ومحتوى فلسطين المثالية .

— في مؤلف حواتمة ، تماسك شديد . ثلاثة مصادر أساسية كذلك : فلسطين ، الصراع الطبقي ، الثورة . وبين المقولات الثلاث التي وجد فيها الكاتب تناقضا في طرح حواتمة ، واحدة فقط لم تحل لا منطقيا ولا جدليا : وهي اعطاء الحقوق لليهود في فلسطين مندمجة في العالم العربي . [صفحة ١٠٤] .

ورغم كل هذا التباين في تحاليل ومواقف المنظمات الوطنية الفلسطينية ، يرى كاريه ان نقاط الالتقاء بينها جميعا اكبر بكثير من نقاط الاختلاف . فهناك تلاق تقريبا في الموقف من : الدولة الاسرائيلية ، فلسطين ، الشعب الفلسطيني (او العرب في اسرائيل) ، الامبريالية ، الصهيونية ، الاستقلال، الامة العربية .

ويستخلص الكاتب عددا من « الاساطير » الاساسية في الايديولوجية الفلسطينية المعاصرة :

— الانبعاث من خلال الموت .

— الامة العربية الاشتراكية والمناهضة للامبريالية .

— المقاومة / الثورة / الحرب الشعبية .

— مفاهيم البورجوازية وخاصة الصغيرة منها التي تلعب دورا هاما .

— الدولة الفلسطينية الديموقراطية ، التي يعتبرها الكاتب اطرف اكتشاف فلسطيني .

ومما لفت انتباه كاريه غياب الاشارة الى الاسلام (رغم ورود بعض النصوص الاسلامية في منشورات فتح) . وهذا برأيه يشير الى تحول عن الدور السابق للدين (دور المفتي والشيخ القسام الخ ...)

فالايديولوجية الفلسطينية تتغذى اذا أساسا من الايديولوجية الكونية للثورة العالمية ضد الامبريالية (وخاصة الماركسية اللينينية) وتعود لتثبت جذورها

في الواقع العربي . وفي هذا الدور « نجحت اكثر من الناصرية والبعث والشيوعيين العرب » ، الا ان نجاحها الكلي ليس مؤكدا . [صفحة ١٠٨] .

ويتحدث كاريه عما يسميه فشل المقاومة ازاء اسرائيل وازاء الدول العربية ويعتبرهما مترابطين. ويستعرض في هذا المجال بعض المعلومات من كتاب جيرار شاليان التي ليست دقيقة تماما (يعتبر ان المقاومة مثلا جندت حوالي ٤٠ الف مسلح ككل عام ١٩٧٠ ويرى ان هذا الرقم قليل جدا (!!!) بالنسبة لتعداد الشعب الفلسطيني) ، وكذلك الحال في كلامه عن اخطاء المقاومة عشية مجزرة ايلول (فهو يخطىء المقاومة لمحاولتها اغتيال الملك حسين قبل المجزرة بأيام معطيا بهذا وزنا للمصدر الهاشمي لهذا الخبر) [صفحة ١١٠] .

ويشير كاريه مرة اخرى الى احتمال الرضى عن دولة فلسطينية في القطاع والضفة الغربية [صفحة ١١٢] . ويؤكد على استمرارية تأثير الفكر القومي على سكان الشرق العربي (بمن فيهم الفلسطينيون) مما يعطي برأيه نجاحا اكثر لفكر الجبهة الشعبية من الفكر الاممي للجبهة الديموقراطية ، الا اذا طرأ تحول في البناء الفكري لسكان « الشرق الادنى » في نهاية « هذا الزمن من البؤس الشوفيني » . [صفحة ١١٧] .

هكذا يستعرض كاريه الايديولوجية الفلسطينية . ولا بد من الاقرار بسعة اطلاعه للادبيات الفلسطينية السياسية وغير السياسية ، مما يُعطي طابع الصدق لجزء كبير من تحليله . الا ان هذا التحليل — الذي استعرضناه مع شيء من الاسهاب نظرا لطرافته بالنسبة للقارىء العربي لا يغني — كما يظهر لكل من واكب من الداخل الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة — عن معرفة دقيقة لمجمل المعطيات والتناقضات التي تزخر بها الاوضاع في منطقتنا .

داود تلحمي

جميل غنوم ، من حارب العرب في حرب ١٩٧٣ ؟

(سلسلة حقائق عن الماركسية — بيروت — كانون الاول ١٩٧٣)

هذا الكتاب وزع في الاسواق ما بعد حرب تشرين مباشرة . وهو عبارة عن كتاب جيب . يقع في حوالي ستين صفحة . ويمكن لنا اعتباره نموذجا لكتابات تلقى بكثافة في السوق والتي لا يمكن للقارىء المحترف ان يعيرها اهتماما يذكر لان مجرد تصفح عناوينه الرئيسية يمكن له الحكم على مضمونه . ولكن ما يجب الاشارة اليه ان هذا النمط من الكتب ليس موجها للقارىء المحترف والواعي بل انه موجه الى جمهرة القراء العاديين والذين يمتلكون قدرا محدودا من المعرفة والثقافة السياسية ، ومن هنا خطورته .

يعيد الكتاب طرح افكار قديمة تدور حول مسؤولية الاتحاد السوفييتي في التخطيط لخلق اسرائيل ومدها بكل سبل الحياة « انسجاما مع مخططات اليهودية العالمية التي تهدف الى جر *العالم الى الاشتراكية والشيوعية* » كما يقول في الصفحة السابعة . و(يتصدى) لكشف هذه الحقيقة وبالذات في فترة ما بعد حرب ٧٣ حتى « لا تحجب مساعداتهم الحالية اهدافهم المبيتة » و«كون المساعدات لا تعدو كونها لعقة عسل ستعقبها اطنان من العلقم » كما يقول في الصفحة الثالثة . وهو انما يقوم بهذا العمل ايمانا منه بالمثل الشعبي الدارج « احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة » و« ربي انقذني من اصدقائي اما اعدائي فانا كفيل بهم » (ص ١١) . واذ كانت هذه هي الفكرة الاساسية التي يروج لها الكتاب في الجزء الاول منه فالاوضاع الداخلية في المعسكر الاشتراكي تحتل القسم الثاني من هذا الكتاب ، حيث يتحدث عن « المجاعة » في الاتحاد السوفييتي (ص ٣١) وعن ان « مغادرة الاراضي السوفييتية محظورة بصورة عامة على جميع المواطنين السوفييت » وذلك خوفا من « يطلبوا حق اللجوء *السياسي في الخارج* » ناهيك عن ان « *الانتقال* من موسكو وكييف والمدن الرئيسية السوفياتية

الاخرى واليها محظور ولا يتم الا بموجب تأشيرة يصعب الحصول عليها قبل عدة شهور » (ص ٣٢). كل هذا مضافا الى « متاعب اقتصادية ومناخ القمع والارهاب والاضطهاد الديني » (ص ٣٨) .

ان الاتحاد السوفييتي مسؤول ايضا عن « الاعتراف بحدود دولية لاسرائيل من قبل العرب » « كنتيجة لمسؤوليته عن استمرار احتلال اسرائيل للاراضي العربية » لانه لم يعمل على « اقناع اسرائيل وزحزحتها قيد أنملة عن عنفها وصلفها » في الوقت « الذي لم يأذن للعرب ان يشنوا حرب تحرير » (ص ٥) . كما انه مسؤول كذلك عن « اسقاط لاءات الخرطوم الثلاث » لان هذا يصب في مخططات اليهود العالمية » حيث « سترتمي الدول العربية في احضان الاتحاد السوفياتي » وهذا الاحتضان من قبل الاتحاد السوفييتي لخلق مبرر كي « تنشط الدول الغربية لاغداق المعونات على اسرائيل » ومسؤولية الاتحاد السوفييتي عن كل شيء حتى عن مساعدات الدول الغربية لاسرائيل بسبب « ان الصهيونية والشيوعية حركة واحدة ، ولينين هو عميل للصهيونية » (ص ١٥) . وذلك باعتبار « ان مخططات اليهودية العالمية تهدف الى جر العالم الى الاشتراكية والشيوعية » (ص ٧) .

هذه الاطروحة عن وحدة الشيوعية والصهيونية واليهودية سرعان ما يضطر الكاتب الى نقضها عندما يتحدث عن « الاضطهاد الديني » و« النقمة التي تنصب عليهم من السلطات الحزبية التي تتهمهم بميولهم الصهيونية ورفضهم الاندماج في الحياة العامة » وحيث تنجح هنا « الصهيونية في تحريك الشعور القومي والديني لهم » . ويصل الكاتب الى ذروة التناقض في اطروحته التي تقوم على وحدة الشيوعية والصهيونية ، ووحدة اليهودية والاشتراكية ، وحديثه في مكان آخر عن النقمة التي تنصب على ذوي الميول الصهيونية واضطهادهم دينيا والتي هي سبب هجرتهم من الاتحاد السوفييتي ، خاصة « وان الوقائع قد اثبتت ان الطلاق يحدث بين هؤلاء وبين مبادىء ماركس ولينين عندما يبرحون الاتحاد السوفييتي الذي يعمل على التخلص من العناصر اليهودية التي تثير القلاقل والمتاعب » (ص ٤٠). ولا ينسى الكاتب « فضل » امريكا التي تلعب دور المنقذ لمنطقة الشرق الاوسط والتي استطاعت — اي امريكا — وبالرغم من « السرية التامة التي احاطت بالخطة الصهيونية الشيوعية » من ان تحذر عبر مؤتمر صحفي عقده ناطق بلسان الخارجية الامريكية ، « اتهم فيه موسكو بالتعاون مع الصهيونية بتشكيل طابور خامس سينشط لقلب الانظمة في الشرق الاوسط » (ص ١٦) . « وسادة الكرملين خلقوا دولة اسرائيل وحافظوا عليها بشتى الوسائل » وسادة الكرملين —أي الشيوعيين— الذين تسلموا السلطة عام ١٩١٧ مسؤولون بأثر رجعي حتى عن « الفوج من المهاجرين الروس عام ١٨٨١ » وروسيا ايضا مسؤولة عن « الكتاب الابيض » الصادر عن بريطانيا ، قانون الهجرة اليهودية الى فلسطين باعتبار « أنه قد هاجر من روسيا فوج من المهاجرين عام ١٩٢٠ » (ص ٢٦) . وهنا يكاد يخيل للقارىء وكأن الكتاب الابيض هو كتاب روسي وليس بريطانيا لانه لم يرد لها ذكر على الاطلاق خاصة و« قد تنعم اليهود بحياة الرخاء في الغرب » (ص ٢٦) . ويعفي الكاتب نفسه من الحديث عن الاعداء ، لانه لا يخافهم عملا بالقول المأثور الذي يثبته في المقدمة « ربي نجني من اصدقائي اما اعدائي فأنا كفيل بهم » .

وفي معرض حديث الكاتب عن موضوع الهجرة ومسؤولية الاتحاد السوفييتي يتذكر مسؤولية مصر على هذا الصعيد وهي « التي نزح منها واحد وعشرون الف يهودي » (ص ٢٦) . وعندما يخص مصر بالاسم وفي حمى تركيزه على هذه المسألة يعود لمسألة عودة « المسيح المنتظر » (ص ٢٦) وحيث يكرر هذا التعبير وفي اكثر من مكان على هامش حديثه المتكرر عن الالحاد ومصلحة المسلمين ... وعندما يريد أن يستخلص توجيهات فلا يجد سوى النصيحة بأن « الحرب يجب ان توجه ضد هؤلاء لهدمهم واستئصال شرورهم من الجذور ، وعندما ننجح نطمئن الى أننا قطعنا أشواطا في الدفاع عن حقنا وكرامتنا » (ص ١٢) .

ان الافكار والمعلومات الواردة في الكتاب لا تحتاج الى تعليق كبير لانها تدحض بعضها بعضا وذلك لتناقض الهدف الذي تتوخاه الفكرة الاولى والتي تقوم على وحدة (التخطيط والعمل والهدف بين الصهيونية واليهودية من ناحية والشيوعية من ناحية اخرى) ، والفكرة الثابتة التي تقوم على (الطلاق الكامل بين الصهيونية واليهودية المؤمنة

والتي تتعرض لاضطهاد الشيوعية السوفييتية (الملحدة) .

ان خطورة الكتاب لا تكمن في القيمة العلمية التي يعتقدها ، ولم يهدف كاتبه لهذا على الاطلاق، وهو بالاساس ليس موجها الى نمط القراء القادرين على محاكمة المسائل المطروحة بأفق واع ويمتلكون قدرا معينا من المعرفة . ان الكتاب موجه الى جمهرة القراء العاديين جدا الذين لا يجدون حرجا في قراءة هذا النمط من الكتب بعنوانه المثير من حارب العرب في حرب عام ١٩٧٣ ؟ والاسلوب الذي كتب به مناسب تماما منخلال بساطة اسلوبه وصغر حجمه وسعره الزهيد نسبيا الذي غالبا ما يكون رمزيا ويقل بكثير جدا عن السعر المكتوب عليه كما جرت العادة بالنسبة لهذا المستوى من الكتب .

وطبيعة القراء الذين يتوجه اليهم الكاتب يتضحون من خلال طبيعة المواضيع التي يتطرق اليها والمعلومات التي يستند عليها . انه يستثير مرة ثانية كل الاكاذيب السياسية منذ ربع قرن حتى الان ، والتي تحولت في اذهان بعض الناس الى ما يشبه الحقائق كنتيجة لتكرارها في أكثر من مناسبة ، ضمن المنطق (الغوبلزي) في الاعلام . المنطق الذي يقول ان تكرار الكذبة يجعل تصديقها امرا ممكنا ويحولها الى حقيقة ، وعندما يستثير الكاتب مرة اخرى كل ذلك (التراث) من الفكر السياسي (الشعبي) فانه يحاول مرة اخرى تصعيد موجة الكراهية للاتحاد السوفييتي . وتحميله كل المسؤولية في أي هزيمة تلحق بنا . وذكر (الحقائق) يكون بداية صحيحة دائما للانطلاق في مجرى (منطقيا) ينحرف رويدا رويدا ليصل الى نتائج خاطئة لا يستطيع الكاتب العادي التملص منها ، ويعلق في ذهنه بضع تفصيلات تكون سببا (لتراكم) مشاعر الكراهية على طريق صنع الرأي العام بما يتناسب ومخططات القوى المعادية، حيث المستفيد الوحيد من هذا المناخ هي الامبريالية الاميركية .

ومن الملفت للنظر تاريخ صدور الكتاب كانون الاول ديسمبر ١٩٧٣ بالرغم من أن التاريخ الحقيقي لصدوره هو شهر تشرين الثاني وسرعة نزول الكتاب دليلا اخر يفضح الجهة التي أصدرته ، والذي يتناسب ومناخ حرب ١٩٧٣ بعد أن افتضح مرة ثانية الدور الامريكي القذر في الحرب الاخيرة. وعودة « الثقة » بالسلاح وبالدور السوفييتي في وجه المشككين . وصدور الكتاب في هذا الوقت محاولة لخدش هذا المناخ بالطريقة التي تسيء للصديق وتخدم مخططات العدو بالرغم ان الكاتب في مقدمته يستهجن هو نفسه صدور الكتاب قائلا « هل يعقل ان يصدر الكتاب في هذا الوقت وفي أعقاب عدوان اسرائيلي جديد على العرب القى الاتحاد السوفييتي بثقله فيه واغدق على مصر وسوريا فيضا من المساعدات العسكرية والدعم؟» .

ح. أ.

بلال الحسن ، **الفلسطينيون في الكويت**
(مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت : ١٩٧٤)

تناول الكثيرون من الكتاب والباحثين العديد من الجوانب السياسية والتاريخية والقانونية المختلفة للقضية الفلسطينية بالدرس والتحليل ، الا أنهم اغفلوا جانبا هاما منها ، هو ما يتعلق بالواقع الاجتماعي الاقتصادي للفلسطينيين في مهاجرهم المختلفة والذي يخفي جانبا انسانيا هاما للقضية .

ازداد الإهتمام بالفلسطينيين ومطالبهم بعد انطلاق ثورتهم المسلحة ، الا ان اسئلة عديدة تثار حولهم بقيت بلا اجابة صحيحة . فما هي الاعداد الحقيقية لهم ؟ وما هي اوضاعهم القانونية في مهاجرهم ؟ ما هي مستوياتهم التعليمية والمهنية والاقتصادية ؟ ما هي انواع الانشطة الاقتصادية التي يمارسونها في تلك المهاجر وفي ظل قوانينها واوضاعها ، وهل لتلك الانشطة اثر على اقتصاد تلك الدول ، وما مدى ذلك ؟ وبخلاف غيرهم من الشعوب التي اقتلعت من اوطانها ، فقد كان على الفلسطينيين ان يواجهوا ويحلوا مشاكل فريدة من

نوعها الى حد كبير ، فما هي أبرز هذه المشاكل وكيف واجهوها ؟ .

عدم اقدام الدارسين على خوض هذه المواضيع بالتشدد العلمي اللازم دفع بمركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية المدرك لضرورة واهمية فهم هذا الواقع الفلسطيني الذي نشأ بعد نكبة عام ١٩٤٨ ، والمدرك لافتقار المكتبة العربية الفاضح للكثير الكثير من الدراسات الموضوعية والبحوث العلمية المتعلقة بالشعب الفلسطيني في مهاجره المتعددة ، دفعه في بداية عام ١٩٧١ الى اضافة قسم رئيسي جديد لاقسامه العديدة هو « قسم الدراسات الفلسطينية » بهدف دراسة واقع الشعب الفلسطيني المشتت في بقاع مختلفة من الارض من مختلف الجوانب العددية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ودراسة حركة النضال الفلسطيني ماضيا وحاضرا ، وجمع التراث الوطني الفلسطيني وحفظه ، لتحويل هذه المعرفة العلمية الى واقع عملي يكون قادرا على الاسهام في دفع وتلبية حاجات الجانب الاخر لهذا الواقع ، اي الثورة المسلحة واعداد الجماهير وتعبئتها للاستمرار في خوض النضال الطويل انطلاقا من خلفية واعية وتصور ناضج مدروس .

والدراسة التي نحن بصددها « الفلسطينيون في الكويت » واحدة في سلسلة من الدراسات الجادة والموضوعية التي أعدها ويعدها باحثو « قسم الدراسات الفلسطينية » في المركز أملا في سد النقص الكبير في معلوماتنا عن شعبنا واهلنا . والسيد بلال الحسن كاتب هذا البحث هو من أبرز الباحثين المتخصصين الاكفاء بالقضية الفلسطينية وبالواقع الفلسطيني وكان في نفس الوقت رئيس « قسم الدراسات الفلسطينية » بالمركز .

تقع هذه الدراسة في ١٢٨ صفحة من القطع الصغير موزعة على ثمانية فصول هي : الهجرة ، التركيب السكاني الداخلي للفلسطينيين ، التركيب الاجتماعي للفلسطينيين في الكويت ، العاملون في القطاع الحكومي ، العاملون في القطاع الخاص ، الاجور ، التعليم ، وملاحظات ختامية .

كون هذه الدراسة عبارة عن بحث احصائي يدفعني الى لفت النظر الى تحفظين يخصان الارقام الواردة في صفحاته . ان هذه الارقام مصدرها التقارير الرسمية ، لكن ينبغي ان تؤخذ في معظمها بشيء من الحذر ، فالاحصاء في مثل هذه الدول لم يبلغ دقته الكافية ، وينبغي ان تؤخذ تقديرات السكان والتعليم بالذات بمزيد من الحذر والحيطة في بعض البلاد ومنها الكويت . والتحفظ الثاني هو ان الارقام الواردة حول التعليم تقدم لنا صورة واضحة نسبية عن كم التعليم ولكنها لا تعطينا ما يكفي لرؤية كيفه خاصة وان فصل التعليم قد استهلك اكثر من ثلث صفحات البحث .

والكتاب يبدأ بالتحدث عن هجرة الفلسطينيين نحو مناطق الخليج العربي وخاصة الكويت سعيا وراء العمل بعد نكبة عام ١٩٤٨ بسبب ما شهدته صناعة النفط فيها من غد واسع ، حيث كان حجم الفلسطينيين داخل الاطار السكاني العام في الكويت يقفز قفزات متسارعة فتضاعف عددهم اكثر من مرة ، ففي عام ١٩٦١ كان عدد الفلسطينيين ٣٧٣٢٧ نسمة بنسبة ١١٫٦١ ٪ الى مجموع السكان العام بينما ازداد عددهم في احصاء عام ١٩٧٠ الى ١٤٧٦٩٦ نسمة بنسبة ٢٠ ٪ الى عدد السكان العام ، وهذه النسب توضح المكانة الخاصة التي يحتلها الفلسطينيون في الكويت . ويذكر السيد بلال ان عدد الفلسطينيين المهاجرين الى الكويت والقادمين من الاردن يبلغ خمسة اضعاف عدد الفلسطينيين من البلاد العربية الاخرى مبرزا عددا من الاسباب لعبت دورها في ذلك . الا انني اعتقد بأن السيد بلال قد اغفل سببا هاما لعب الى جانب تلك الاسباب ابرز دور في تكثيف الهجرة من الاردن اكثر من بقية البلاد العربية الى الكويت ، وهو سماح السلطات الكويتية لفلسطينيي الاردن بالسفر الى الكويت دون الزامهم بالحصول على تأشيرة دخول (فيزا) مسبقة الى الكويت كما كان ولا يزال مفروضا على فلسطينيي البلاد العربية الاخرى ، خاصة اذا علمنا ان تأشيرة الدخول المسبقة لا تعطى الا بعد الحصول على عمل في الكويت قبل الوصول اليها وبعد الحصول على جواز سفر صالح من السلطات العربية التي يقيم الفلسطيني على اراضيها . وكم كان شاقا على الفلسطينيين في البلاد العربية الاخرى غير الاردن الحصول على جواز سفر فكيف بالحصول على عمل مسبق في بلد لم تطأه قدمه بعد ! هذا هو ابرز سبب وليس توفر فرص العمل امام الفلسطينيين في سوريه ولبنان

هو الذي جعل مجال الهجرة امامهم محدودا كما يذكر السيد بلال .

وفي الفصل الثالث الخاص بالتركيب الاجتماعي للفلسطينيين في الكويت يذكر السيد بلال ان الارقام تبين ان هجرة غير المتعلمين هي الطابع المميز على عكس الشائع في اذهان الناس من ان الفلسطينيين الذين يهاجرون الى الكويت هم النخبة المتعلمة . هنا أعود للتذكير بتحفظاتي على دقة الارقام الواردة في هذا البحث لانني أختلف مع السيد بلال حول صوابية اعتماده الكامل على تلك الارقام وحول صحة استنتاجه القائل في الصفحة ٢٨ « وهي ارقام تكفي لتوضيح ان الهجرة تتوزع اساسا بين غير المؤهلين علميا وبين المؤهلين بالشهادات الدنيا ، أما ذوي الاختصاص فيشكلون قلة واضحة » . وذلك لان الاحصاء الاردني العام للسكان عام ١٩٦١ يشير الى ان ٢٢٫٦ ٪ من عائلات لواء نابلس افادت بأن لها افرادا خارج الاردن بينما لا تتجاوز هذه النسبة ٣٫٥ ٪ في لواء الخليل ، وهذا يعود الى نوعية الفرص التي تتوفر للعمل في الخارج والتي تتطلب بشكل عام حدا أعلى من المهارات والتأهيل العلمي ، خاصة اذا ما علمنا ان مستوى التعليم في لواء الخليل ينخفض بشكل واضح عن مثيله في لواء نابلس وعن المعدل العام للاردن . ويدعم هذا التفسير كون المستوى العلمي للاردنيين المهاجرين الى الخارج يفوق كثيرا المستوى العام للاردن بأكمله حيث بلغت نسبة من حصل سنة جامعية او اكثر من الفلسطينيين الاردنيين في الخارج ٨٫٣ ٪ بينما هي للسكان في الاردن ٣٫٠ ٪ ونسبة من لم يدخل صفا للسكان في الاردن ٦٢٫٩٪ ولمن هم في الخارج ٢٧٫٤ ٪ ، وقد انعكس هذا الوضع على التوزع المهني للعاملين في الخارج وبالتالي على مستوى الدخل لديهم حيث بلغت نسبة من مارس من الفلسطينيين الاردنيين في الخارج اعمالا ومهنا فنية وعلمية وادارية وكتابية اكثر من ٢٠ ٪ منهم بينما لم تتعد هذه النسبة ٩ ٪ من مجموع العاملين في الاردن في نفس السنة . وفي الفصول الثلاثة التالية وهي الرابع والخامس والسادس يتحدث الكاتب عن العاملين من الفلسطينيين في القطاعات المحددة التي يعملون فيها سواء من حيث مستوياتهم المهنية والاقتصادية وظروف العمل التي يعيشونها ومستويات الاجور التي يتقاضونها، بشيء من العجالة والاستخدام المتعسف لاحصاءات لا تمكننا من اجراء مقارنات واستنتاجات علمية دقيقة ولا تزيد قيمة تلك الاحصاءات عن كونها مؤشرات عامة يكون التعميم المبني عليها في الكثير من النقاط محتملا بالكاد او هو غير محتمل بالمرة. خاصة وان دراسة هذا الجانب من حياة الفلسطينيين في الكويت تقتضي عرضا اوسع لكثير من المعلومات التي كان لا بد من جمعها من اكثر من مصدر دون الاعتماد على المصادر الرسمية فقط ويقتضي كذلك تحليلا أعمق وذلك من خلال بحث واقع التنمية الصناعية في الكويت من حيث تطورها ومشاكلها ومن خلال دراسة سوق العمل القلق وغير المستقر والحركة العمالية في الكويت . ولا شك ان دراسة قانون الصناعة رقم ٦ الصادر في الرابع من آذار (مارس) ١٩٦٥ والذي يعد من اهم التشريعات الصناعية يعطي تفسيرا لعدد من الملاحظات التي تركها المؤلف معلقة بلا اجابة . فقد نص هذا القانون بالمادة الثامنة منه على انه « اعتبارا من نفاذ هذا القانون ، لا يجوز منح الترخيص الصناعي الا للكويتيين افرادا او شركات مؤسسة طبقا لاحكام قانون الشركات التجارية وبشرط ان يكون المدير المسؤول كويتي الجنسية او يكون مجلس ادارتها مؤلفا من اعضاء غالبيتهم من الكويتيين . أما غير الكويتيين الذين يملكون منشآت صناعية قائمة وقت نفاذ هذا القانون ولم يكن لهم شركاء كويتيون يملكون ٥١ ٪ من رأس مال المنشأة الصناعية فيجب عليهم ان يتموا تصفية أعمالهم خلال سنتين من وقت العمل بهذا القانون ما لم يستوفوا الشروط المنصوص عليها في هذه المادة خلال مدة التسجيل المنصوص عليها في المادة ٦ منه » . هذا النص يفسر سبب ارتفاع نسبة الاداريين بين العاملين الكويتيين ويتعارض مع قول المؤلف من ان هناك مؤسسات اصحابها من العرب فقط او من الاجانب فقط سواء بصفة مفردة او بصفة مشتركة . عدم دقة الارقام التي يوردها المؤلف يتوضح بشكل جلي اذا ما علمنا ان المؤلف يؤكد في الجدول رقم ٢٦ على ان هناك نشاطات اقتصادية لا يوجد بها كويتيون وهي الزراعة والصيد والكهرباء والغاز والمياه بينما الارقام المأخوذة عن المجموعة الاحصائية لعام ١٩٧٢ صفحة ٤٩ — ٥٠ تشير الى ان هناك في قسم الكهرباء والماء والغاز ٢١٣٠ عاملا وثلاث عاملات.

ويتناول المؤلف موضوع تعليـم الفلسطينيين في الكويت في الفصل السابع من الكتاب بشكل غير مكتمل مع ان هذا الفصل غطى اكثر من ثلث الكتاب حجما . فالحقيقة ان تعليم ابناء فلسطين في الكويت تحول فعلا الى مأساة ، وهناك ضرورة ملحـة لاعداد دراسة متكاملة حول هذا الموضوع . ففي أغنى دولة في العالم وفي القرن العشرين يحـرم الالوف من ابناء فلسطين في الكويت من ابسط حقوق الانسان في عالمنا المعاصر وهـي مجانية التعليم الابتدائي حيث يمارس علـى هؤلاء نوع جديد من أنواع التمييز العنصري المحدث. يقول السيد توفيق ابو بكر عضو المجلس الوطني الفلسطيني في مقال له نشرته مجلة الطليعة الكويتية في العام الماضي « حين تنام الافاعي في الكويت من شدة الحر يذهب الاطفال الفلسطينيون الى مدارس منظمة التحرير الذين تعرضهم قلة المواصلات لمخاطر كثيرة صيفا وشتاء » . وخوف الاهلين من المخاطر التي تتعرض لها الفتيات في استعمالهن لوسائط النقل العمومية اثناء تنقلهن ما بين المدرسة والبيت نظرا لانعدام وسائط النقل الرسمية هـو السبب الحقيقـي لانخفاض نسبة الطالبات الى الطلاب في المرحلة الاعدادية وليس كما يقول السيد بلال من ان هناك أسبابا تتعلق بالظروف الاجتماعية التي تتيح فرص الزواج للفتيات في هذه المرحلة . وانهـا لمفارقة عجيبة ان تمنح حكومة العراق والجزائر وسوريا وغيرها مئات المنح للطلبة الفلسطينيين سنويا في وقت لا تعطي فيه الكويت لاكثر من ١٨٠ الف فلسطيني يعيشون فوق ارضها ويبنون مـع أبنائها مجتمع الغد الا اربع منح فقط . فكما ذكرت فصور هذه المأساة متعددة ولا بد من تخصيص دراسة مستقلة متكاملة لها وبشكل سريع . ولا شك ان معالجة علمية رائدة لموضوع مثل هذا لا بد الا ان تثير الكثير من الملاحظات والا ان تساعد على تبين المسائل التي ينبغي ان يكون لها السبق في البحث عن طريق اجراء دراسة اكثر دقة وعمقا وهذا لا يعيب مثل هذه الدراسات الصياغيـة او الاستطلاعية لانها بحوث تقتحم مناطق معتمة لتجلو خوافيها وتكشف عن طبيعتها . فما أقل الطرق المعبدة امام الباحث الجاد فيمـا يتعلق بالواقع الاجتماعي والاقتصادي للفلسطينيين ، ودراسـة السيد بلال الحسن مساهمة مشكورة في تمهيد احدى هذه الطرق .

وانا على يقين من انني لا ابخس كتاب بلال الحسن حقه ولا أحط من قدره ان قلنا انه على تميزه لم يسلم من الهنات التالية: (١) ان الكتاب يعوزه التنظيم والتبويب الجيدين . (٢) من غير الممكن فهم واقع الفلسطينيين في الكويت ومحاكمته وبلورة آفاقه بمعزل عن فهم الواقع الكويتي الذي نشأ فيه ويعمل في وسطه لان هذا الواقع يترك آثاره الواضحة عليه . وهذا ما افتقرت اليه هذه الدراسة . (٣) افتقار البحث ولو لفقرة تعرفنا بالمؤسسات غير المنظمة من حيث حجمها وطبيعة أعمالها وتوزعها الجغرافي في الكويت . (٤) خطأ التفريق بين الموظف والمستخدم على اساس ان الموظف هو الذي يقوم بعمل ذهني من اي نوع كان ، اما المستخدم فهو الذي يقوم بعمل عقلي من اي نوع كان كما ورد في الصفحة ٤٤ والصحيح ان المستخدمين هم الذين يعتمدون في عملهم على المجهود البدني أساسا كما ورد في الصفحة ٥٣ من نفس الكتاب . (٥) افتقار الدراسة لبعض التعريفات الضرورية والخاصة بالدراسة مثل من هو الفلسطيني المعني ، هل الفلسطيني الذي يحمل الجنسية الكويتية او اللبنانية او السورية او المصرية ضمن هذه الارقام كما هو الحال مع الفلسطيني الذي يحمل الجنسية الاردنية ، وكذلك الحال بالنسبة للكويتي خاصة واننا نعلم ان آلافا من بدو السعودية والعراق يعتبرون انفسهـم من الكويتيين على الرغم من انهم لا يحملون الجنسية الكويتية ، فكيف عاملتهم الاحصاءات الواردة في هذه الدراسة . (٦) ملاحظات اخيـرة تتعلق بالنواحي الفنية لاخـراج الكتاب أهمها ضيـق الهوامش الداخلية للصفحات بشكل عام واختلاف مساحتها من صفحة لاخرى وخاصة في الهـوامش السفلى للصفحات بالاضافة الى ان طباعة بعض الصفحات جاءت مورربة غير مستقيمة .

سمير أيوب

غادة السمان ، **رحيل المرافيء القديمة**
(منشورات دار الآداب ، بيروت – ١٩٧٣)

انها ليست المرة الاولى التي اقرأ غـادة السمان . اتابعها منذ كنت أحشر مع زملائي الطلبة في أحد مقاعد ثانوية مدينتي . كانت غادة حينها رمزا لحبنا المستحيل ، نجد في كلمات رواياتها الجسر الذي نعبر فوقه علنا نصل الى ذلك الحب . هذا في الماضي . أما في مجموعة قصصها الاخيرة « رحيل المرافيء القديمة » لا بد من شهادة نسجلها لغادة – علما بأنها ليست بحاجة لمثل هذه الشهادة ، وانما نحن – وهي انها حققت قفزات نوعية ليس في وقاحتها الفظة ، او شراستها المتفجرة ، او حريتها الحالمة وحسب ، وانما بدرجة التزامهـا السياسي والاجتماعي ايضا . انها في « رحيل المرافيء القديمة » تنقلب الوقاحة – كما يتصورها البعض عند غادة السمان – الى جرأة، والشراسة الى صلابة ، وتترجم حريتها الى الواقع – واقع ما بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ – الذي ينزف ابـدا .

ان من يقرأ لغادة السمان يشعر وكأنه يلتقـي مجددا مع انفعالاته الاولى تلك التي تثور من تأثير لحن موسيقي خاص ، ويجد نفسه يهذي من فعل هذا اللحن حتى يكاد يعتقد ان لوثة اصابته . ان قلمها مغني غريب يحمل في حنجرته غرائز ارض الواقع ، الارض المهجورة ، الارض التي هاجرها الانسان في غادة الى فيينا (الدانوب الرمـادي اول قصص المجموعة) ، ويدفن في قلبه انفعالات الاجسـاد المرتخيـة التـي تـدرك الارتعاشات اللامحدودة، وتتحفز في عقله رغبة قاتلة في مصارعة الاخرين الذين تحولوا الى جيف نتنة واستسلموا لغبار الافكار – لسياسة الامر الواقع – الذي يعمي بصرهم وبصيرتهم في آن ، وتتفجر في عضلاته قوة صاعقة للبطش بمن اصابهم استرخاء شبـه ابدي مقيت بعد عملية تخدير كاملة رسمت نهايات فعاليتهم كتوى حية .

« رحيل المرافيء القديمة » ست قصص تتمـم الواحدة منها الاخرى . وتنساب قصص المجموعة كلها في خيطين نسج الثاني منها وتشعب بفعل وتأثير الخيط الاول : الاول سياسي والثاني اجتماعي . ويأتي هذا الانسياب في اخراج بديع تنقل غـادة القارىء عبره من عالم واقع الانسان الممزق الـى عالم الماضي القريب ، عالم الاوهام – والالم . وبالاعتماد على هذا الاخراج البديع تقوم غـادة السمان في أول قصص المجموعـة (الدانـوب الرمادي (بعملية مراجعة لمجمل ممارسات ومفاهيم مذيعة جميلة ومواطنة ملتزمة جذابة (بطلة القصة)، وبتصوير خيبة الامل حين يصل اثرها الى الاعماق وانعكاسات هذه الخيبة على الانسان العربي وما تفعل به من تشويه وتمزيق . المذيعة الملتزمة هـي الاعلام العربي قبل هزيمة حزيران (يونيو) ، وهي التي علمها والدها « **السفير ست لغات** » ، ولكنها بالرغم من ذلك تجد نفسها عاجزة « **عن التفـاهم الكامل مع انسان واحد فقط ...** » ولذلك يتحرك الانسان المهزوم في المذيعة هاربا الى فيينا بعد أن اختارت المذيعة « المجيء اليها مع (جورجي) – صديقها – لانه اخرس ! » لقـد دفعت مرارة الهزيمة الانسان في المذيعة للاصرار على التفاهم مع (جورجي) ومع سواه بلغة الاشارة . « لغة العصور الحجرية . لغة ما قبل اختراع اللغـة والكذب والزيف ... » .

وتتابع غادة السمان عرضها المؤلم لمرارة الهزيمة ولدور الاعلام العربي الكبير الذي كذب وزيف وزور .. في أول قصص المجموعة « الدانوب الرمادي » – اذ لكل منا دانوبه – بازدواجية صبغت قصص المجموعة الست وتجرنا للدخول فيها دون اقنعة . فصوت المذيعة (بطلة القصة) « – **اجمل الاصوات الاذاعية كما كانوا يصفونه – كان اداة الجريمة .. كان فحيح الافعى ...** » وفي الايام الاولى لحـرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كانت تذيع انشودة « امجاد يا عرب امجاد » وكلها سعادة لانها تخيلت « **اخيها الفـدائي ورفاقـه الاخرين على مشارف القـدس يدخلون نصفها المحتل ...** » عندمـا لاحظت اثناء اذاعة الانشودة « **وجوه الملايين التي كانت تجيء زجاج نافذة الستوديو تنصت للاخبار بعيونهـا الفضولية الطفولية الفاغرة قد تجمدت وهرمت الف سنة** » .

الرحلة مع غادة السمان الى دانوب (شتراوس) الرمادي – الذي هو دانوبها – هي رحلة هروبية

من واقع اليم يتسابق فوق ارضه المتاجرون بالوطن. وقد يخيل لمن يعاشر « الدانوب الرمادي » ان بطلة القصة تطرح ذاتها كرمز للعهر الجنسي وحسب ، وهذه غلطة فاحشة يقع فيها كل من يقترب من أدب غادة السمان متسرعا ويلتقط من مجموعة قصصها الست الوجه الجنسي الذي طالما اتهمت به صفحاتها الروائية . صحيح ان المذيعة تهرب في جسد انسانها من واقع الهزيمة ، الا ان طرح ذاتها كرمز للعهر الجنسي يفرض — بالمقابل — سؤالا أساسيا الذي هو الوجه الآخر للعهر ، وهو عهر الاعلام العربي ، من عاهر اكثر : المرأة التي تهرب في جسدها من واقع سياسي أصغر (علاقتها مع حازم مدير الاذاعة) ، أم المسؤول العربي الذي يبيع وطنه في أية لحظة في سبيل احتفاظه بكرسي الحكم ، والذي ينسج قصص الانتصارات ويفبرك روايات الانجازات في الوقت الذي يكون يلهث خلاله هاربا من ارض المعركة !! لقد عرفت المذيعة انها تسببت في مقتل سبعة من الفدائيين ، بينهم اخيها، وفواز — الفدائي الثامن — وحده نجا بأعجوبة . فقد روى لها فواز ما حدث : « **سمعنا صوتك وكنت تذيعين بلاغا فهمنا منه ان احد الجيوش العربية قد وصل الى مشارف القدس وسيبدأ هجومه لتحرير نصفها السليب . كنا نعسكر تجاه بعض الجيوب الاسرائيلية والمراكز ، قررنا تطهيرها ووقتنا ذلك بحيث تصل القوات العربية في الوقت اللازم ... وهجمنا دون أن ندري اننا سنكون وحدنا ... طوقنا ... صمدنا ... لم يصل احد . صمدنا حتى نفدت ذخيرتنا . صمدنا حتى لم تبق فينا اصبع تشد زنادا . وطبعا لم تصل الجيوش العربية كما وعدتنا البلاغات الكاذبة على انغام (امجاد يا عرب امجاد) ... وحدي هربت** » . فأخوها وغيره من الرفاق ماتوا ضحية التوريط ... « ضحية العهر الاعلامي » .

عندما ذهبت المذيعة الى حازم الذي كان بالنسبة اليها التجسيد الحي للسلطة والنظام اللذين كانت تقدسهما وتؤمن بأن « **وطنها دائما على حق** » تسأله : « **لماذا خدعنا الناس ؟ لماذا اذعنا بلاغات كاذبة ؟ لماذا نموه الان الهزيمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟** صرخ بها وقال : **انت عميلة** ». انها أصبحت تعيش في زمن بات التفكير فيه مرادفا للعمالة . « **انا افكر ، فانا عميل !؟.. لماذا ؟** » وكررت المذيعة الاسئلة بحرقة ، لكن حازم لم يرد وانما اكتفى باغلاق فمها بشفتيه . « **يا لتفاهة الجواب !** » لكنها قبلت . في صبيحة اليوم التالي للهزيمة دهشت المذيعة حين ذهبت الى الاذاعة ولم تجدها مغلقة . هذه الدكان التي « **استنفدت اغراضها وباعت بضاعتها ووزعت مورفينها . وانتهى الامر ... (ترى ما الذي يتابعون بيعه ؟)** » ناولها حازم تعليقا يبين « **فضائل الهزيمة للعرب** » وكم كانت ضرورية لاذاعته . قرأته .. بصوت « **بين النشيج وآهة رجل يحتضر** » . أنبها حازم على قراءة التعليق الرديئة : « **ماذا دهاك اليوم ؟.. كانت قراءتك في غاية السوء** » . اجابته بقولها : « **لانني كنت اقرأ اشياء لم أعد قانعة بها** » . الا ان تحرك الانسان المتمرد في المذيعة على هذه الصورة لم يرض حازم ، مدير الاذاعة ، فصرخ بها : « **راسك الصغير لم يخلق ليفكر وانما لينتظرني في فراشي . اذهبي الى هناك وانتظريني ...** » . وتصل ثورة غادة السمان ذروتها عندما ينتفض الانسان في المذيعة بحازم قائلا: « **يا سيدي المحترم ... حولت حنجرتي الى مومس ، وشاركت في تحويل مؤسسات الاعلام في بلادي الى بيوتات للعهر ... انكم لا ترون في (العهر) فظاعته الا حينما يتجسد في جسد امرأة ... اما عهركم في السياسة والاخلاق والممارسات كلها فانكم تمرون به دون ان يرف لكم جفن يا سيدي المحترم ... تجنون أمام جسد المرأة المستباح ، ولا تحسون بشيء امام جسد الوطن المستباح ... وطني غانية التاريخ ...** » .

ان ذلك كله جزء من واقع داعر مزق الانسان في المذيعة ودفعه الى الهروب ، الى فيينا ، الى بلاد لا يعرف اهلها بصحبة (جورجي) الاخرس . لقد هربت المذيعة بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ الى بلاد نهر « الدانوب الازرق » ، الا أنها لم تصدم — « مثل غيرها من السياح » — حين رأت ان الدانوب رمادي وليس ازرق . فقد خاطبت سائق السيارة التي قادتها الى الدانوب : « اسمع يا سائقي العزيز ، كل منا حزين من أجل (دانوبه) الذي كان يظنه أزرق الضياء واكتشف انه نهر من رماد كهذا النهر ... اننا في الحقيقة نقف امام نهركم لاننا نرى عبره انهار اعماقنا التي جفت والتي استحالت دما مخثرا ... وفي مياهه الرمادية المطفأة نرى منفضة سجائر عمرنا الميتة برماد

ايامنا واوهامنا ... اننا لا نعتب على كذبة مواطنك شتراوس ... لا ... اننا نعتب على الحياة واكاذيبها الكبيرة ... فاحلامنا الزرقاء كبحر بكر ، واحلامنا الوردية كبشرة طفل ولد للتو ، كلها كلها تحالفت عليها قوى الشر ... وما لم يفسده الموت المتربص بنا والغدر في الولادة والموت ، افسده الغدر في طبيعة من حولنا ... اسمع يا سائق التاكسي ... اريد ان اقول لك ان بلادي تطبع من الجلادين الاذكياء وتطبع من المواشي الاغبياء امثالي ... » .

كلمة اخيرة لا بد من قولها . اننا نكتشف عبر الازدواجية الموجودة في قصص المجموعة التي تشدنا غادة السمان الى الدخول فيها دون اقنعة : ضمير المرأة التي تعي مأساتها لانها تدرك جيدا لامعنى وجودها في بيئة متخلفة من ناحية ، ثم ضمير المجتمع السياسي والثقافي والانساني الذي يتصدع ازاء « الاكذوبة الكبيرة » التي تحياها المجتمعات العربية من ناحية ثانية، نكتشف عبر هذه الازدواجية قيمة المعاني الانسانية لدى غادة السمان . وتتمكن غادة السمان من التفاعل ضميريا مع الواقع بعد أن ترفع عنه حجاب كذبة الحياة الكبيرة ، اذ أن حرية الكلمة عندها ليست نابعة من حرية الفكر وحسب ، بل من حرية الجسد ايضا . وتأتي « عذراء بيروت ١٩٧٣ » — « عذراء التكنولوجيا » — (وهي اخر قصص المجموعة) كي تؤكد وتتمم صورة رخص المرأة في مجتمع يحترف شراء تفاهتها ويلح على ربط مصيرها الكامل بمصير بكارتها . فالجسد عند غادة السمان وسيلة للمعرفة، والحب طريق للخلاص ، والمتعة نافذة للهروب ، والرجل حالة من تأنيب الضمير او ليلة بلا اسم ولا تاريخ ولا عنوان .

عند قراءة قصص المجموعة « رحيل المرافىء القديمة » يتحول القارىء الى اسير ، او الى خادم ، بطلاتها . ان غادة السمان في الواقع لا تكتب قصة ، انها تتذكر وحسب قصة المرأة العربية من خلال ضمير انساني له ذلك الجسد الحر .

مصطفى كركوتي

Michael Brecher, **The Foreign Policy System of Israel,** (London, Oxford University Press, 1972).

يعتبر هذا الكتاب من احدث الكتب التي تناولت سياسة اسرائيل الخارجية في اطار نظامي وهو على حد علمنا اول كتاب باللغة الانجليزية في هذا الموضوع ، وكان مؤلف هذا الكتاب رئيسا لقسم العلوم السياسية بجامعة ماكجيل بكندا ، وهو في الوقت الحالي استاذ زائر في العلاقات الدولية بالجامعة العبرية بالقدس . ويقول الكتاب انه جاء نتيجة خمس سنوات من البحث ، قضى المؤلف ثلاث سنوات منها في اسرائيل ، واعتمد على المصادر الاولية والثانوية واستفاد من مقابلات مع اكثر من ٢٠٠ شخص من البارزين في المجالات المختلفة ، ويقع الكتاب في حوالي ٧٠٠ صفحة من الحجم الكبير .

منهج البحث

من المعروف ان العلاقات الدولية تعاني من اختلافات في مناهج البحث ، وصمم المؤلف بحثه على أساس : **اولا** ، المداخل : وهي مداخل خارجية ومداخل داخلية ، أما المداخل الخارجية فهي النظام الشامل ، النظام التابع ، اما المداخل الداخلية فهي المقدرة العسكرية والاقتصادية ، والبنيان السياسي وجماعات المصالح والنخبة ، بالاضافة الى الاتصال وهو نقل المعلومات عن طريق وسائل الاعلام الجماهيري والتقارير والاتصال المباشر ... الخ ، وهذا في مجموعه يكون الابعاد العملية للبيئة. أما الابعاد السيكولوجية للبيئة فهي مكونات الموقف أي الايديولوجية والميراث التاريخي وسمات الشخصية ، بالاضافة الى الانماط التصورية للنخبة . **ثانيا** ، العملية: وتتعلق بتكوين السياسة وتنفيذها . **وثالثا** ، المخارج : أي خلاصة الاعمال او القرارات .

تعرض المؤلف لاسرائيل وعلاقتها بالتحول في النظام الدولي والاتفاق الامريكي السوفيتي بشأن قيام اسرائيل ، وظاهرة الصراع الدولي والتصارع في التسلح ، ومظاهر عناصر القوة ودورها في الصراع الدولي ، وتناول تطور الوضعية الدولية من ثنائية محكمة الى ثنائية مفككة الى تعدد المراكز مما اشاع ظاهرة عدم المغامرة بحرب نووية ، الامر الذي أدى الى توازن مستقر في النظام الدولي ، وضرب امثلة لحدود تدخل القوى الكبرى مثل الموقف السوفيتي ابان حرب يونيو ١٩٦٧ وعدم التدخل بشكل مباشر ، وتتميز اسرائيل بكبر حجم تمثيلها الدبلوماسي في الخارج اذا قورنت بأي دولة اخرى في حجمها نتيجة لوجودها وعزلتها وحاجتها للتأييد الدولي ، وتعد الجاليات اليهودية رصيدا لاسرائيل في الخارج .

وتميزت السياسة الخارجية الاسرائيلية عند البداية بعدم الارتباط نظرا للظروف الدولية التي صاحبت تأييد قيام اسرائيل ، حتى ان ذلك قد تجسد في برنامج الحكومة المعلن في ٨ مارس ١٩٤٩، ووصل بالبعض الى وصف هذه السياسة بأنها سياسة حياد ، ثم كان الاعلان الثلاثي في مايو سنة ١٩٥٠ وانتقد الاتحاد السوفيتي هذه السياسة ، وشهدت الحرب الكورية انقساما كبيرا في السياسة الاسرائيلية تجاه الكتل ، فنظرا لاهمية الدعم الامريكي لاسرائيل ايدت اسرائيل قرار مجلس الامن في يونيو — يوليو سنة ١٩٥٠ ، كما أيدت عمل الجمعية العامة في خريف وشتاء ١٩٥٠ — ١٩٥١ حول المسألة الكورية وبالتالي ظهر الارتباط الاسرائيلي بالغرب. وتعرض المؤلف لموقف الاتحاد السوفيتي من اسرائيل ، والازمات التي تعرضت لها .

تناول الكتاب النظام التابع في الشرق الاوسط والنظم القائمة فيه ، وحلل المقدرة العسكرية لاسرائيل ، ووضح أسباب انتصار اسرائيل ، كما تناول الوضع الجيوبوليتيكي لاسرائيل ، والسكان، وهنا قال ان عدد السكان ليس دليلا مطلقا على التفوق العسكري فهناك مقاييس اخرى كالتعليم والمهارات ومستوى التحديث، واثار الكاتب مستوى التسليح ، ومقدرة اسرائيل الاقتصادية ، والعجز المزمن في المعاملات الجارية لميزان المدفوعات ، وتناول دور الدعم الخارجي الاقتصادي الاسرائيلي.

واثيرت في البنيان السياسي قضايا النظام الحزبي والحكومات الائتلافية والانتخابات وعلاقة ذلك بالسياسة الخارجية ، ودور لجنة الشؤون الخارجية والامن في هذا الصدد ، كما تناول الجماعات المصلحية كالمؤسسة العسكرية واليهودية ودور الموظفين ، والهستدروت ... الخ .

وتعرض المؤلف للجماعات الاكاديمية ودورها في السياسة الخارجية كالجمعية الاسرائيلية للعلوم السياسية وجمعية السياسة الخارجية ، ومعهد المشكلات الدولية بتل ابيب ، ويتميز اساتذة الجامعات في اسرائيل بأنهم اكثر نشاطا في الناحية السياسية .

وتناول الكاتب الابعاد السيكولوجية للبيئة في نخبة السياسة العليا في مجلس الوزراء ودور (اللجنة الوزارية للدفاع) ومدى تأثير الماباي في هذا الصدد ، وتتحدد مكونات الموقف بالنسبة لصانع القرار في (اليهودية) ويرى أنها مظهر من مظاهر الثقافة السياسية بالنسبة لنخبة السياسة العليا ، كما تؤثر على سياسة اسرائيل الخارجية، مثل مراعاة وضعية اليهود عند تحديد موقف اسرائيل من الفصل العنصري في جنوب افريقيا ، كما تعرض لتأثير ذلك على الموقف من الاتحاد السوفيتي .

وتعرض الكاتب لمدى تأثير (المثل الاشتراكية) على سياسة اسرائيل الخارجية ورأى أن ذلك تحول الى عمل في سياسة اسرائيل تجاه الدول الجديدة مثل العلاقات مع بورما وغانا . وتناول المؤلف مدى تأثير الميراث التاريخي ، وانماط شخصية حكام اسرائيل ، وفي هذا الصدد تعرض لوجهات النظر المتناقضة بين بن جوريون وشاريت حول المسائل الدولية ، كما تناول الانماط التصورية لاشكول ومائير وسابير ، والون ، وديان ، وايبان، وبيريز . أي ان مكونات الموقف لصانعي القرار في اسرائيل تحدد في الكون الاساسي وهو (اليهودية) ثم القيم الاشتراكية ، والميراث التاريخي ، وانماط شخصية الحكام .

تناول البرفسور بريتشر في عملية السياسة الخارجية لاسرائيل تشكيل قرارات السياسة العليا ، أي التعرض لانواع القرارات ، ودور رئيس الوزراء ووزير الدفاع ووزير الخارجية ودور لجنة الدفاع التابعة لمجلس الوزراء، والدائرة

الداخلية للنخبة الفنية في وزارة الخارجية وتعرض لتنفيذ بعض المهام المساعدة وهنا تناول دور رئيس الدولة واذاعة اسرائيل والهستدروت واليهودية، وعمل وزارة الخارجية الاسرائيلية من حيث الاصل والتكوين ونموها ودور وزير الخارجية والمدير العام ومساعد المستشار ورئيس الادارة ورئيس البعثة ومكتب وزير الخارجية والمدير العام .

قسم المؤلف القرارات السياسية الى قرارات استراتيجية ، وقرارات تكتيكية ، وقرارات منفذة. ومن أمثلة القرارات الاستراتيجية جعل القدس مقرا للحكومة ، وتأييد عمل الامم المتحدة في كوريا، وقيام حملة سيناء ، وقيام حرب ١٩٦٧ ومن امثلة القرارات التكتيكية مثل الموافقة على اتخاذ عقوبات ضد روديسيا وتأخير العمل العسكري ضد مصر ، فاتخذ مجلس الوزراء القرار في ٢٧ مايو ١٩٦٧ في اعقاب زيارة وزير الخارجية الاسرائيلي لباريس ولندن وواشنطن ، ومن أمثلة القرارات المنفذة ارسال اسرائيلي لمهمة معينة .

وهناك مجموعة من الاشخاص في قمة صناعة القرارات في العشرين سنة الاخيرة منذ قيام اسرائيل وهم بن جوريون وشاريت ومائير واشكول وايبان . وفي ص ٤٠٦ من الكتاب اورد المؤلف احصاءات حول توزيع النخبة الفنية حسب التخصصات وذلك في وزارة الخارجية ١٩٤٨ — ١٩٦٨ حسب مجالات الدراسة بالنسبة للتعليم العالي ووجد ان ١٧ شخصا (اقتصاد) ، ١٧ (علوم سياسية) ، ١٤ (دبلوماسية وعلاقات دولية) أي ٤٨ في الاقتصاد والعلوم السياسية والعلاقات الدولية ، ٣١ في العلوم السياسية والعلاقات الدولية . اما التخصصات الاخرى فكانت ٢٨ (قانون) ، ١٢ (تاريخ) ، ٤ (فلسفة) ، ١٠ (دراسات شرقية)، ٥ (انسانيات) ، أما التخصصات الاخرى وهي التجارة والادب الانجليزي والتربية والاجتماع والصحافة والدراسات الكلاسيكية وعلم النفس والدراسات الدينية .. الخ فبلغ العدد الكلي ١٣٠، كما يلاحظ ان منهم من كان من أساتذة الجامعات كما تناول المؤلف دور رئيس الاركان ومدير المخابرات العسكرية وبعض الشخصيات في وزارة الدفاع .

ويرى الكاتب أن اذاعة اسرائيل تقوم بوظيفتين من وظائف السياسة الخارجية وهي نقل تصورات الابعاد العملية للبيئة لصانعي القرار في اسرائيل، وتنفيذ السياسة الخارجية الاسرائيلية عن طريق اذاعات اللغات الاجنبية باثنتي عشرة لغة ولا سيما البرنامج العربي ويرى المؤلف ان هذا البرنامج وسيلة لكسر الحاجز الخاص بالعلاقات مع العرب. وقامت الجماعات اليهودية في انحاء العالم بدور بارز في مساعدة وتحقيق اهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية .

تناول المؤلف عند الكلام عن نظام السياسة الخارجية الاسرائيلية ١٩٤٨ — ١٩٦٨ دور القوى العظمى في اصدار قرار تقسيم فلسطين ١٩٤٧ ، والمساعدة العسكرية من الكتلة الشرقية الى اسرائيل ابان حرب ١٩٤٨ ، وقيام الكتلة السوفيتية بتأييد مصر ١٩٥٥ — ١٩٥٦ وتطور هذا التأييد حتى حرب ١٩٦٧ ، وتميز تأثير الامم المتحدة على قرارات السياسة الخارجية الاسرائيلية بالدور المحدود قاعدا ١٩٤٨ — ١٩٤٩ .

ويرى الكاتب ان السياسة الخارجية الاسرائيلية حققت عدة منجزات في الفترة محل البحث ١٩٤٨ — ١٩٦٨ وهي : ١ — اعتراف وتأييد الدول العظمى في المرحلة الحرجة ١٩٤٨ — ١٩٤٩ . ٢ — الدخول دون تأخير في عضوية الامم المتحدة في وقت استثنيت فيه كثير من الدول القديمة الجديدة . ٣ — اقامة علاقات دبلوماسية مع أغلبية الدول . ٤ — قيام وجود اسرائيلي في افريقيا . ٥ — تأييد دبلوماسي وعسكري من فرنسا في شكل تحالف واقعي من ١٩٥٥ — ١٩٦٦ . ٦ — الدعم الامريكي العسكري والاقتصادي لا سيما بعد حرب ١٩٦٧ وهذا الجزء يعتبر استنتاجا للنقاط الاساسية في هذا الكتاب وردت في الاجزاء الثلاثة السابقة .

وفي نهاية الكتاب اورد المؤلف عدة ملاحق خاصة بالسياسة الخارجية في برامج الحكومة الاسرائيلية، وتصريحات زعماء الاحزاب الاسرائيلية في الحملات الانتخابية ، ووزراء الحكومة الاسرائيلية ١٩٤٨ — ١٩٦٨ ، وتحليل مضمون للانماط التصورية للنخبة الاسرائيلية صانعة القرارات ، وبعض المؤلفات التي تعرضت لقرارات السياسة الخارجية ، ومعلومات اضافية عن النخبة الفنية في وزارة الخارجية الاسرائيلية .

يعتبر الكتاب اضافة جديدة من حيث المنهج في دراسة السياسة الخارجية، فرغم ان الكاتب يدخل

في مجموعة كبار السن من علماء السياسة الا ان هذا لم يمنعه من مسايرة المناهج الحديثة ، وقضاء خمس سنوات في تأليف كتاب ، وهذا يوضح أن العبرة ليست بالكم ولكن بالكيف ، اي انه لـم يعوق استخدام المناهج المتطورة بل سايرها .

ويحتوي الكتاب على معلومات مفيدة حول نظام السياسة الخارجية الاسرائيلية من حيث الابعـاد العملية للبيئة وكذلك الابعاد السيكولوجية للبيئة، وعملية السياسة الخارجية الاسرائيلية ، ومخارج نظام السياسة الخارجية الاسرائيلية ، وهـذا أمر هام بالنسبة لصانعي السياسة العرب وعلمـاء السياسة والمتخصصين في الدراسات الاسرائيلية .

ويؤخذ على الكاتب انحيازه الى وجهة النظـر الاسرائيلية ، وهذا لا يحتاج الى جهد لاثباته فقد اعترف صراحة بذلك في تقديمه للكتاب وينظر الـى تحيزه على انه انساني وحتمي ، وانه لامر مؤسف ان يقول هذا الكلام استاذ في العلوم السياسيـة متناسيا ان الموضوعية وعدم التحيز وتجريد الذات بشكل كبير هي سمة أساسية لطلبـة العلـوم السياسية .

ويعتبر هذا الكتاب خير عمل دعائي عن اسرائيل، ومن هنا يظهر فعالية الدور الذي يقوم به علمـاء السياسة ، واهمية توطيد العلاقات بينهم وبـين مؤسسات السياسة الخارجية ، وقد اعتمد المؤلف على مراجع وبيانات دقيقة تعتبرها بعض الـدول خطرا على امنها القومي واخلالا بالسرية ، في عصر تغير فيه مفهوم السرية ، ومن المسـائل التي تستدعي الدراسة ان اسرائيل تنشر اكبر قدر مـن المعلومات عنها في كافة المسائل .

ومن الاهمية بمكان تشجيع المؤلفين العرب على التأليف في نظام السياسة الخارجية العربية نظـرا لاهمية ذلك سياسيا واعلاميا وعسكريا .. الخ .

ولم يعتمد المؤلف على مراجع عربية او علـى الاقل لكتاب عرب باللغة الانجليزية وهناك دراسات عربية علمية حول هذا الموضوع واعتمد اساسـا على المراجع الاسرائيلية الذي ساعد بدرجة كبيرة على تحيزه لصالح اسرائيل ، وهذا في رأينا نقص خطير في الكتاب ، وان كان قد اعتمد بشكل نادر على بعض المراجع العربية ولكن بشكل ثانـوي للغايـة .

وعندما تعرض المؤلف للنظام التابع في المنطقـة تعرض للنظام التابع في الشرق الاوسط مدخلا بذلك اسرائيل وعدة دول غير عربية ومحاولا ادخـال عناصر متعددة للنظام وبالطبع لم يتعرض للعـالم العربي في حد ذاته كنظام تابع لان ذلك من الممكن ان يساعد في فهم عناصر هذا النظام المنسجم بشريا باستثناء الوضعية الاسرائيلية .

وعندما تعرض الكاتب لمكونات الموقف ذهب الى أن اليهودية هي الكون الاساسي ولكن الحقيقة تقول انها الايديولوجية الصهيونية فكثير من اليهود يرون في اسرائيل اساءة لمعنى اليهودية .

وردد الكاتب المفاهيم الصهيونية الخاصة بـأن اليهود (شعب الله المختار) (والحق التاريخي)، (قرب الاستقلال عام ١٩٤٨) ولم يناقش هـذه المفاهيم او على الاقل يظهر الآراء الاخرى في هذا الصدد وبالتالي اسقط كل اعتبار لدراسته للعلوم السياسية ، ويبدو ان اتصاله برجال السياسـة الاسرائيلية افقدته صفة الموضوعية .

واعتبر المؤلف ان المثل الاشتراكية احد مكونات الموقف وان المثل تحولت الى عمل في سياسـة اسرائيل تجاه الدول الجديدة مثل بورما وغانـا ، فالاشتراكية في اسرائيل غير موجودة والواقع ان سياسة اسرائيل تجاه الدول الجديدة مثل بورما تمليها عدة اعتبارات خاصة بالمصلحة الاسرائيلية ، أما (المثل الاشتراكية) فهي على اكثر تقديـر كاموفلاج للسياسة الخارجية .

واعترف الكاتب في وصف الانماط الشخصيـة لحكام اسرائيل والاعتبارات السيكولوجية بشكـل مفرط مما اخرجه عن دائرة اختصاصه ، كمـا ان عرضه لهذه المسائل تميز بالانطباعات .

ويوضح الجزء الخاص بالاستنتاجات ان المؤلف يردد المنطق الاسرائيلي الخاص بحل قضية فلسطين دون تفنيد وتحليل .

وفي النهاية لا يسعنا الى ان نعترف بالقـدرة المنهجية للمؤلف على ابراز الحقائق ولو انه توخى الدقة والموضوعية لوصل الى وضع افضل ، ولكنه تحيز الى حد الاعتراف بذلك صراحة في مقدمـة الكتاب ، الامر الذي يؤسف له . كما ان هذا الكتاب يمكن ان تستفيد منه الجهات المعنية باتخاذ القرارات في الدول العربية الامر الذي يجب النظر اليه بعين الجد .

محمد علي العويني

حديث ينشر لاول مرة :
مع الشهيد غسان كنفاني

حصلت « شؤون فلسطينية » على النص الكامل لحديث خاص غير منشور ، أجراه كاتب سويسري ، يتخصص في أدب غسان كنفاني ، مع شهيد المقاومة الفلسطينية قبل استشهاده بأسابيع قليلة . ونحن ننشر الترجمة الحرفية لهذا الحديث غير المنشور ، في الذكرى الثانية لاستشهاد غسان ، وسوف يكون الحديث جزءا أساسيا من دراسة علمية يعدها الكاتب عن أدب غسان كنفاني .

غسان ، هل لك ان تخبرني شيئا عن خلفيتك الشخصية ؟

ــ أظن ان قصتي تعكس خلفية فلسطينية تقليدية للغاية . فقد غادرت فلسطين عندما كنت في الحادية عشرة من العمر وكنت أنتمي الى عائلة من الطبقة الوسطى . كان والدي محاميا ، وكنت أدرس في مدرسة فرنسية تبشيرية . وفجأة ، انهارت هذه العائلة المتوسطة وأصبحنا لاجئين فتوقف والدي فورا عن العمل بسبب جذوره الطبقية المتأصلة . فالاستمرار بالعمل بعد مغادرتنا فلسطين لم يعد أمرا منطقيا بالنسبة له . اذ ان ذلك كان سيفرض عليه التخلي عن طبقته والانتقال الى طبقة ادنى . وهذا ليس بالامر السهل . اما نحن ، فقد باشرنا بالعمل كصبية ومراهقين كي نعيل العائلة . وقد استطعت ان اتابع تحصيلي العلمي بنفسي من خلال عملي كمعلم في احدى المدارس الابتدائية في القرية ، الامر الذي لا يتطلب كفاءة علمية عالية . وكانت تلك بداية منطقية ساعدتني على متابعة المرحلة الثانوية التي انهيتها في تلك الاثناء . وبعد ذلك انتميت الى الجامعة [جامعة دمشق] ، قسم الادب العربي ، لمدة ثلاث سنوات ، فصلت بعدها لاسباب سياسية. عندها سافرت الى الكويت حيث مكثت طوال ست سنوات . وقد باشرت القراءة والتأليف هناك .

ابتدأت حياتي السياسية عام ١٩٥٢ عندما كنت في الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من العمر . وفي العام نفسه ، او في عام ١٩٥٣ قابلت الدكتور جورج حبش في دمشق صدفة ، لاول مرة . كنت اعمل يومها مصححا في مطبعة . ولست اذكر من الذي عرفني على الدكتور ، غير ان معرفتي به ابتدأت آنذاك . وعلى الفور انخرطت في صفوف حركة القوميين العرب وهكذا ابتدأت حياتي السياسية . وخلال اقامتي في الكويت ، مارست نشاطات سياسية ضمن حركة القوميين العرب التي تتمثل الان بأقلية لا بأس بها في الحكومة الكويتية . وفي عام ١٩٦٠ طلب مني ان انتقل الى لبنان لاعمل في صحيفة الحزب . وفي عام ١٩٦٧ طلب مني ان اعمل مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وهي عبارة عن فرع فلسطيني لحركة القوميين العرب . وفي عام ١٩٦٩ باشرت عملي في صحيفة « الهدف » وما زلت .

هل باشرت الكتابة نتيجة لدراستك الادب العربي؟

ــ كلا ، اعتقد ان اهتمامي بالادب العربي ابتدأ قبل دراستي . وأظن ان اهتمامي هذا كان نتيجة لعقدة ، ان لم تخني الذاكرة . فلقد كنت أدرس في مدرسة فرنسية تبشيرية ، كما سبق ان ذكرت ، قبل ان نغادر فلسطين . لذلك ، لم أكن متملكا من اللغة العربية كعربي . وقد سبب لي ذلك كثيرا من المتاعب . فطالما هزأ بي اصدقائي لانني لم أكن أجيد العربية . ولم يكن ذلك القصور واضحا عندما كنا في فلسطين بسبب طبقتي الاجتماعية . ولكن عندما خرجنا من فلسطين اصبح اصدقائي من طبقة مختلفة ولاحظوا فورا بأن لغتي العربية ركيكة وبأنني ألجأ الى التعابير الاجنبية في أحاديثي. وبالتالي ، انصب اهتمامي على اللغة العربية كي

اداري مشكلتي هذه . وكان ذلك في عام ١٩٥٤ على الاغلب . أظن انني كسرت ساقي في ذلك العام في حادثة . وكان علي أن الازم الفراش طوال ستة شهور . عندها ابتدأت المطالعة بالعربية بصورة جدية .

أظن ان باستطاعتنا ان نورد أمثلة عديدة عبر التاريخ عن اناس « ضيعوا » لغتهم وهم بالتالي يحاولون استردادها . هل تظن ان هذه العملية تطور الانسان سياسيا ؟

— لا أدري . قد يكون الامر كذلك . أما بالنسبة لي شخصيا فقد تم « تسييسي » بطريقة مختلفة . اتجهت نحو السياسة في مرحلة مبكرة لاننا كنا نعيش في المخيم . ولذا ، كنت على اتصال مباشر مع الفلسطينيين ومشاكلهم من خلال ذلك الجو المحزن والعاطفي الذي عشته كطفل . ولم يكن من الصعب علي اكتشاف الجذور السياسية للجو الذي عشته.

وعندما باشرت بالتدريس ، واجهت مصاعب جمة مع الاطفال الذين درستهم في المخيم . فقد كنت أغضب دائمـا لدى مشاهدتي طفلا نائما اثناء الصف . وببساطة اكتشفت السبب : لقد كـان هؤلاء الاولاد يعملون في الليل ، يبيعون الحلوى او العلكة او ما شابه في دور السينما والطرقات . وبالطبع ، كانوا يأتون الى الصف وهم في غايـة التعب . ان حالة كهذه ، تقود الانسان فورا الى جذور المشكلة . فقد تبين لي ان نوم الطفل ليس ناجما عن استخفافه بي او عن كرهه للعلم ، كما لم يكن للامر علاقة بكرامتي كمعلم ، بل كان مجرد انعكاس لمشكلة سياسية .

اذن ، ساهمت تجربتك هـذه في تطوير وعيك الاجتماعي والسياسي .

— نعم ، وأذكر بأن ذلك حدث ذات يوم بصورة مباشرة . كما تعلم ، يتولج معلمو التلاميذ الصغار تعليمهم كافة المواد بمـا فيها الرسم والحساب والانكليزية والعربية وغيره . وذات يوم ، كنت أحاول تعليم الاولاد ان يرسمـوا تفاحة وموزة تمشيا مع البرنامج الذي أقرته الحكومة السورية ، اذ أنني كنت أمارس التعليم هناك . وكان علي أن أتقيد بالكتاب . وفي تلك اللحظة ، عندما كنت أحاول أن أرسم هذين الرسمين على اللوح بأكمل وجه ممكن ، انتابني شعور بالغربة والغرابة وعدم الانتماء واذكر جيدا بأنني شعرت في تلك اللحظة بأن علي ان اقوم بعمل ما اذ انني أدركت بوضوح ، قبل أن أستطلع وجوه الاطفال الجالسين ورائي ، بأنه لم يسبق لهم ان شاهدوا تفاحة او موزة . وبالتالي كانت هذه الاشياء آخر ما يثير اهتمامهم . لم يكن هناك ارتباط بينهم وبين هذين الرسمين . وفي الواقع ، كانت العلاقة بين احاسيسهم وهذه الرسوم علاقة متوترة لا علاقة جيدة . كانت تلك نقطة تحول حاسمة ، اذ انني اتذكر بوضوح تلك اللحظة بالذات من بين جميع الاحداث التي مرت بحياتي . ونتيجة لذلك ، محوت الرسوم عن اللوح وطلبت من الاطفال ان يرسموا المخيم . وبعد بضعة ايام ، عندما جاء المفتش الى المدرسة ، قال بأنني حدت عن البرنامج الحكومي المقرر مما يبرهن على انني معلم فاشل . وقد حملني اضطراري للدفاع عن نفسي الى [خضم] القضيـة الفلسطينية مباشرة . أن تراكم خطوات صغيرة كهذه يدفـع الناس الى اتخاذ قرارات من شأنها ان تترك طابعها على حياتهم بأكملها .

تعليقا على هذه النقطة ، أظن انها تهمك انت بالذات [فانت] ، عندما تتناول الفن ، كاشتراكي على اي حال ، فانك تربط الفن مباشرة بالبيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . لقد لمست انت ذلك من خلال رسم تفاحـة وموزة . ولكن بالنسبة لمؤلفاتك ، هل لهذه المؤلفات علاقة بالواقع وبالزمن الحاضر او هل هي مستقاة من التراث [الادبي] ؟

— لقد نشرت قصتي الاولى عام ١٩٥٦ وكان عنوانها « شمس جديدة » . وتدور [حوادثها] حول طفل من غزة . عندما استعرض مجمـل القصص التي كتبتها عن فلسطين حتى الان ، يتبين لي ان كل قصة ترتبط بطريقة مباشرة او غـير مباشرة وبخيط دقيق او متين بتجاربي الشخصية في الحياة . غير ان اسلوبي الكتابي تطور خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٠ او ، على وجه التحديد ، عام ١٩٦٢ . في البداية ، كنت اكتب عن فلسطين كقضية قائمة بحد ذاتها ، وعن الاطفال الفلسطينيين ، عن الانسان الفلسطيني ، عن آمال الفلسطينيين بحد ذاتها ، كأشياء منفصلة عن عالمنا هذا مستقلـة وقائمة بذاتها كوقائـع

فلسطينية محضة . ثم تبين لي اني اصبحت ارى في فلسطين رمزا انسانيا متكاملا . فانا عندما اكتب عن عائلة فلسطينية ، فانما اكتب في الواقع عن تجربة انسانية . ولا توجد حادثة في العالم غير متمثلة في المأساة الفلسطينية . وعندما اصور بؤس الفلسطينيين ، فانا في الحقيقة استعرض الفلسطيني كرمز للبؤس في العالم اجمع . وبامكانك القول بأن فلسطين تمثل العالم برمته في قصصي . ففي وسع الناقد [الادبي] الان ان يلاحظ بأن قصصي لا تتناول [الفرد] الفلسطيني ومشاكله فحسب ، بل تتناول حالة انسانية لانسان يقاسي من المشاكل اياها . ولكن ربما كانت تلك المشاكل اكثر تبلورا في حياة الفلسطينيين .

هل رافق تطورك الادبي تطورك السياسي ؟

ــ نعم ، في الواقع ، لا أدري ما الذي سبق الاخر . قبل البارحة ، كنت اشاهد احدى قصصي التي انتجت كفيلم سينمائي . كنت قد كتبت هذه القصة عام ١٩٦١ . وقد شاهدت الفيلم بمنظور جديد اذ اكتشفت فجأة بأن الحوار بين الابطال وخط تفكيرهم وطبقتهم [الاجتماعية] وطموحاتهم وجذورهم في ذلك الحين كانت تعبر عن مفاهيم متقدمة عن افكاري السياسية . [اذن] باستطاعتي القول بأن شخصيتي كروائي كانت متطورة أكثر من شخصيتي كسياسي ، وليس العكس ، وينعكس ذلك في تحليلي للمجتمع وفهمي له .

هل تعكس كتاباتك تحليلا لمجتمعك ، أم هل تتلون تحليلاتك بصبغة عاطفية ايضا ؟

ــ اظن ان قصصي القصيرة كانت تستند الى موقف عاطفي في بادىء الامر . ولكن يمكنك القول بأن كتاباتي ابتدأت تعكس الواقع منذ اوائل الستينات . ان مراقبتي لهذا الواقع وكتابتي عنه قادتاني الى التحليل السليم . ان قصصي نفسها تفتقر الى التحليل . ولكن هناك الاسلوب الذي يتصرف به ابطال القصة والقرارات التي يتخذونها والاسباب التي تدفعهم لاتخاذ هذه القرارات وامكانية بلورة تلك القرارات الخ ... اني اعبر في رواياتي عن الواقع ، كما افهمه ، دون تحليل . أما ما عنيته بقولي بأن قصصي كانت اكثر تطورا [من آرائي السياسية] فهو عائد الى دهشتي الصادقة لدى متابعتي تطور الابطال في القصة التي كنت اشاهدها كفيلم ، والتي لم اكن قد قرأتها خلال السنين الماضية . لقد دهشت عندما سمعت [مجددا] حوار ابطالي حول مشاكلهم واستطعت ان اقارن حوارهم بالمقالات السياسية التي كنت قد كتبتها في الفترة الزمنية ذاتها فرأيت بأن ابطال القصة كانوا يحللون الامور بطريقة اعمق واقرب الى الصواب من مقالاتي السياسية .

ذكرت بانك بدأت عملك السياسي بانضمامك الى حركة القوميين العرب يوم قابلت حبش عام ١٩٥٣ . متى اعتنقت المبادىء الاشتراكية [اذن] ؟ ان حركة القوميين العرب لم تكن حركة اشتراكية في بادىء الامر .

ــ كلا ، لم تكن كذلك . كانت حركة القوميين العرب [موجهة] ضد الكولونيالية والامبريالية والرجعية . ولم يكن لها خط ايديولوجي [معين] في ذلك الحين . غير ان هذه الحركة تبنت خطا اشتراكيا خاصا بها خلال السنوات التي عاشتها. فمناهضة الامبريالية تعطي دفعة نحو الاشتراكية ذلك ان لم يتخل المرء عن القتال في وسط المعركة وان لم يتوصل الى تسوية مع الامبريالية . ففي هذه الحالة لن يتسنى لتتطور هذه الحركة الى حركة اشتراكية . ولكن اذا استمر المرء في القتال [فمن الطبيعي] ان تتطور الحركة [المناهضة للامبريالية] الى موقف اشتراكي . ولقد أدرك القوميون العرب هذه الحقيقة في أواخر الخمسينات . أدركوا بأنه ليس في وسعهم ان يكسبوا الحرب ضد الامبريالية ما لم يستندوا الى طبقات [اجتماعية] معينة : تلك الطبقات التي تحارب الامبريالية لا من اجل كرامتها فحسب، بل من أجل رزقها ومعيشتها . وكان هذا [الطريق] هو الذي سيؤدي مباشرة الى الاشتراكية . ولكنا كنا في مجتمعنا وحركتنا [أي حركة القوميين العرب] حساسين جدا فيما يتعلق [بالمبادىء] الماركسية ــ اللينينية ، ولم يكن موقفنا هذا ناجما عن عدائنا للاشتراكية بل كان نتيجة للاخطاء التي ارتكبتها الاحزاب الشيوعية في العالم العربي . لهذا كان من الصعب جدا على حركة القوميين العرب ان تتبنى الماركسية اللينينية قبل عام ١٩٦٤ . ولكن في عام ١٩٦٧ ، في شهر تموز على وجه التحديد ، اعتنقت الجبهة الشعبية [مبادىء] الماركسية ــ اللينينية فكانت بذلك [الجبهة] الوحيدة ضمن حركة القوميين العرب التي اتخذت خطوة كهذه . اما حركة القوميين العرب فقد غيرت اسمها الى « حزب

العمل الاشتراكي ». اما الفرع الفلسطيني لها فقد دعي « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » . وهكذا نشأت هذه الحركة [الجبهة الشعبية] . طبعا ، هذا تبسيط للمشكلة . فقد كنا نحن قد تطورنا ضمن حركة القوميين العرب . كان هنالك صراع دائم داخل الحركة بين ما يدعى باليمين واليسار . وفي كل جولة ، كان اليسار الجهة الرابحة لان موقفنا فيما يتعلق بمناهضة الامبريالية والرجعية كان افضل [من موقف اليمين] . وقد نتج عن ذلك اعتناق الماركسية ــ اللينينية . اما انا فلست اذكر الان ما اذا كان موقفي من الصراعات التي دارت داخل الجبهة مائلا الى اليمين او الى اليسار اذ ان الحد بين اليمين واليسار لم يكن فاصلا آنذاك كما هو الان ، مثلا ، في الاحزاب السياسية المتطورة. ولكن يمكنني القول بأن حركة القوميين العرب كانت تشمل بعض العناصر الشابة ، وكنت من ضمنها ، التي كانت تسخر من حساسية الكبار في السن تجاه الشيوعية . وبالطبع ، لم نكن يومهـا شيوعيين ، ولم نكن نحبذ الشيوعية . غير ان حساسيتنا ضد الشيوعيـة كانت اقل نسبة مـن حساسية المتقدمين في السن . وبالتالي ، لعب الجيل الجديد دورا بارزا في تطوير حركة القوميين العرب الى حركة ماركسية ــ لينينية. وكان العامل الاساسي في ذلك كون غالبية اعضاء حركة القوميين العرب من الطبقة الفقيرة . اما الاعضاء المنتمون الى البرجوازية الصغيرة او البرجوازية الكبيرة فقد كان عددهم محدودا . كما انهم لم يستمروا في هذه الحركة اذ انهم كانوا يتركونها بعـد مرور سنتين من انضمامهم اليها . كما انضم اليها اعضاء جدد [من هذه الطبقات] تركوها بدورهم [بعد فترة وجيزة] . أما الطبقات الفقيرة فقد كانت تستمر وتستمر ولم تلبث ان شكلت قوة ضاغطة داخل حركة القوميين العرب .

متى ابتدأت بدراسة الماركسية ــ اللينينية ؟ هل تذكر ذلك ؟

ــ لا اعتقد ان تجربتي الخاصـة في هـذا الخصوص تجربة تقليدية . اولا ، لقد كنت ولم أزل معجبا بالادباء السوفيات . غير ان اعجابي بهم كان مطلقا آنذاك . وقد ساعدني ذلك في اذابة الجليد بيني وبين الماركسية . وقد اطلعت علـى الماركسية في مرحلة مبكرة من خلال قراءاتي واعجابي بالكتاب السوفيات . ثانيا ، كان زوج شقيقتـي قائدا شيوعيا بارزا . وكانت شقيقتي قد تزوجت عام ١٩٥٢ . وقد أثر زوج شقيقتي على حياتي في تلك المرحلة المبكرة . وايضا ، عندما ذهبت الى الكويت اقمت مع شبان اخرين في بيت واحد وكان مجموعنا سبعة أشخاص . وبعد بضعة اسابيع من وصولي اكتشفت بأن الستة الاخرين كانـوا يشكلون خلية شيوعية . اذن باستطاعتي القول بأن اتصالاتي كانت ممتازة . وبالتـالي باشرت بالقراءة عن الماركسية في مرحلة مبكرة جدا . ولا أدري كم استوعبت في ذلك الحين وفي تلك المرحلة، تحت تأثير تلك الانفعالات في ظل حركة القوميين العرب . ليس في وسعي ان اتيس مدى فهمي او استيعابي للمادة التي كنت اقرأها . غـير ان المضمون لم يكن غريبا علي .

قد تكون هذه التأثيرات المبكرة هي التي جعلت قصصك [الاولى] متقدمة [بالنسبـة لافكارك السياسية في حينها] . فاطلاعك علـى الادب السوفياتي واتصالاتك بالماركسيين انعكست علـى كتاباتك على ما أعتقد .

ــ لا أظن ان لهذه العوامل أسبقية . أظن أن التأثير الاكبر على كتاباتي يرجع الى الواقع نفسه: ما اشاهده ، تجارب اصدقائي وعائلتي واخوتي وتلامذتي ، تعايشي في المخيمات مع الفقر والبؤس. هذه هي العوامل التي أثرت في . ربما كان ولعـي بالادب السوفياتي عائدا الى ان ذلك الادب يعبر عما كنت اشاهده في الواقع ، ويحلله ويعالجـه ويصفه . ان اعجابي ما يزال مستمرا ، بالطبع . غير اني لا اعرف ما اذا كان للادب السوفياتي تأثير على كتاباتي . لا اعرف حجم هذا التأثير . غير اني افضل ان اقول بأن التأثير الاول لا يعود له ، بل يعود الى الواقع نفسه . لقد استوحيت كافة ابطال رواياتي من الواقع الذي كان يصدمني بقوة وليس من الخيال . كما انني لم أختر ابطالي لاسباب فنية [ادبية]. لقد كانوا جميعهم من المخيم وليس من خارجه . أما الشخصيات الفنية في قصصي الاولى فقد كانت دائما شريرة . وذلك عائد الى [تجربتي مع] مرؤوسي من العمل. اذن كان للحياة نفسها التأثير الاكبر [على كتاباتي].

كنت تنتمي الى الطبقة المتوسطة ولكنك انضممت الى البروليتاريا عندما كنت ولدا صغيرا .

— نعم ، طبعا ، خلفيتي مرتبطة بالطبقة الوسطى اذ ان والدي كان ينتمي اليها قبل ان نذهب الى سوريا كلاجئين . وكان التصاق عائلتي بجذورها [الطبقية] بعيدا عن الواقع الذي لم تكن بينه وبين تلك الجذور اية صلة . وكان علينا ، نحن الاولاد ، ان ندفع ثمن هذا التناقض [بين الماضي والواقع] . وبالتالي ، أصبحت علاقتي [مع افراد طبقتي] علاقة عدوانية بدلا من أن تكون علاقة ودية . ولن ادعي باني انضممت الى البروليتاريا. لم أكن بروليتاريا حقيقيا، بل انضممت الى ما نسميه في لغتنا بـ « البروليتاريا الرثة » التي لا يشكل افرادها جزءا من الجهاز المنتج فهم [يعيشون] على هامش البروليتاريا . غير أن ذلك ساعدني بعدها ، بالطبع ، على تفهم ايديولوجية البروليتاريا ، ولكن ليس بامكاني القول بأني كنت أشكل جزءا من البروليتاريا في ذلك الحين .

الا انك استطعت ، منذ البداية ، ان ترى الواقع في منظور المغلوبين على امرهم .

— نعم ، بوسعك ان تقول ذلك . غير ان مفهومي هذا لم يكن متبلورا بطريقة تحليلية علمية بل كان [مجرد تعبير عن] حالة عاطفية .

لننتقل الان الى عام ١٩٦٧ عندما ولدت «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» . ماذا كانت معتقدات هذه المنظمة وما هي الاسباب التي دعت الى خلق منظمة جديدة ؟

— كما تعلم ، لم تكن الجبهة الشعبية منظمة جديدة . فهي تشكل أساسا الفرع الفلسطيني لحركة القوميين العرب التي كنت عضوا فيها . وقد تطورت في البدء من خلال الحركة كما تطورت الحركة مع جميع اعضائها في عام ١٩٦٧ لقد انشأنا « الجبهة الشعبية » لان العالم العربي [اخذ] يحتل مركز الصدارة [في المعترك السياسي] . كما ان حجم الفرع الفلسطيني لحركة القوميين العرب توسع جدا وطرأت تغييرات على قيادته وعقلية اعضائه . لذا انضممنا الى الجبهة الشعبية . وبالطبع ، انضممت انا شخصيا الى الجبهة لانني اعتقد بأن الجبهة كحزب تمثل مرحلة متقدمة نسبيا عن التنظيمات [السياسية] الاخرى في مجال العمل الفلسطيني . واعتقد ان بامكاني تحقيق تصوراتي المستقبلية من خلال هذا التنظيم . هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني الى الانضمام للجبهة الشعبية .

كيف تنظر الى دورك كرئيس تحرير صحيفة « الهدف » في هذا التنظيم ؟ هل لك ان تخبرني شيئا عن الطريقة التي تتبعونها لتعبئة الجماهير ؟

— انا عضو في هذا التنظيم الذي يشكل في الواقع حزبا له نظامه الداخلي واستراتيجيته السياسية. كما أن له استراتيجية تنظيمية وقيادة تستند الى مبادىء ديمقراطية مركزية . لهذا ، عندما تسند لي القيادة هذا المركز بالذات ، فأن علي ان انجز برنامجا معينا . فانا عضو في اللجنة المركزية للاعلام في الجبهة الشعبية . « والهدف » تشكل جزءا من البنية الاعلامية للجبهة حسب مفهومنا للاعلام الذي لا يقتصر على الدعاية فقط بل يتعداها الى التثقيف والتعليم الخ... وانا لست مسؤولا عن الهدف ، فهذه المهمة مناطة باللجنة المركزية للاعلام ، وانا امثل هذه اللجنة في الصحيفة . عمليا ، يتوجب علي أن أعنى بالوجه التنظيمي لهذه المؤسسة [الهدف] . ولكن لدينا لجنة تقرأ « الهدف » وتقيمها وتكتب المقالات وتناقش الافتتاحيات . ويوجد داخل الجبهة عشر مؤسسات ودوائر مشابهة . وقد تكون مؤسستنا اصغر من المؤسسات الباقية . ولكن هناك دوائر ضمن الجبهة الشعبية تمارس نشاطات اجتماعية وسياسية داخل المخيمات . كما أن لدينا من يعمل في المجال العسكري وغيره . ويشكل كل منا جزءا مكملا للاخر . وبالطبع يستفيد العاملون في المجال التنظيمي ، اي في ترتيب المحاضرات والبرنامج التعليمي واللقاءات والاتصالات مع الجماهير من صحيفتنا للتعبير عن وجهة نظر الجبهة الشعبية . كما انهم يستشيروننا فيما يتعلق بالجماهير . اذن ، تقوم كافة الدوائر سوية ، نتيجة لهذه العلاقات الديلكتيكية بينها ، بحملة التعبئة الجماهيرية .

هل بامكانك ان تخبرني شيئا عن الصحيفة نفسها ؟

— ان العمل [في الصحيفة] مرهق جدا . هذا هو شعوري الان وقد أتممت عدد هذا الاسبوع . انني أشعر بالارهاق وانه لامر مروع لاي كان أن يعمل في صحيفة كهذه . ففي اللحظة الذي تنهي بها آخر جملة من العدد الاخر تجد نفسك فجأة تجاه عشرين صفحة فارغة عليك ان

تملأها . كما أن كل سطر وعنوان وصورة فـي الصحيفة تناقش من قبل [اعضاء] الجبهـة ويرصد اقل خطأ كان . فالصحيفة اذن عرضـة للنقد والعمل بها لا يشبه العمل في صحيفة عادية. ففي الصحيفة العادية عليك فقط ان تنجز عملك أما في صحيفتنا فأن ادق التفاصيل توضع موضـع النقاش من قبل الدوائر [المختلفة داخل الجبهة] اذ أنها تقرأ بأمعان . وبالتالي من الصعب جدا على الانسان ان يقوم بعمل متكامل امام هـذه المحكمة الكبيرة التي تتألف من [سائر] اعضاء الجبهة . وبالتالي يشعر الانسان بأن عليه ان يبذل جهدا اكثر .

علاوة على ذلك ، نحن نعيش الان في بلد من البلدان النامية . وفي حركة المقاومة ، وفي تنظيم كتنظيمنا ، تحاول كـافة الدوائر ان تستقطب « ذوي » المواهب والكفاءات ، مهما كانت ضئيلة، كي تنجز الاعمال التي تترتب عليها اذ أن انجاز الاعمال وتطبيق البرامج التي يكلف بها الانسان هي اشياء أساسية بالنسبة للفرد . ونحن ، فـي « الهدف » ، لدينا عدد ضئيل من الموظفـين . وعندما نطلب من الجبهة ان تفرز لنا عددا أكبر من العاملين فان الجواب الذي نسمعـه هـو : « اعطونا اثنين او ثلاثة من موظفيكم ليعملوا في القواعد لان العمل في القواعد اهم من العمل في الصحيفة » . وبالتالي نخلد الى الصمت ، لئلا يسحبوا الموظفين منا . وانه لمن الصعب ان يصدق الاخرون بأن ثلاثة اشخاص فقط يقومون بتحريـر الهدف . وهذه الحالة قائمة منذ ثلاث سنوات . ونحن نحصل على مساعدة [اضافية] من شخص رابع احيانا . غير انه يسحب منا ثم نحصل على غيره وتعاد الكرة من جديد . وبالتالي نحن لـم نحصل في احسن الحالات على أكثر مـن اربعة أشخاص كان عليهم ان يملأوا عشرين صفحة .

اذن ، عليكم ان تعملوا نهارا وليلا .

ــ نعم ، لا أظن ان أيا من الرفاق يعمل اقل من ١٣ ــ ١٤ ساعة في اليوم . وذلك بلا توقف وبلا عطلة وبلا شفقة من الناقدين . فالناس فـي منظمتنا وفي الحكومة وفي الصحف الاخرى كانوا يوجهون النقد الينا .

هل تعتبر الهدف صحيفة متقدمة ، هل تعتقد بأنها تقرأ كصحيفة متقدمة من زاوية سيـاسية نظريـة ؟

ــ نعم ، واعتقد ايضا بأن ذلك يسبب مشكلة. وأنا لا احاول ان اثني على الصحيفة . ولكـن من الصعب جدا ان يعبر المرء عن افكار سياسية ونظرية عميقة بأسلوب بسيط . وقليل من الناس يملكون هذه المقدرة . في الجبهة الشعبية لدينـا شخصين باستطاعتهما التعبير عـن افكار عميقـة بأسلوب سهل بحيث يستوعبها جميع من يقرأها : احدهما جورج حبش . اما الاخر فهو احد القادة العسكريين الذي كتب كتابات بديعة . اما بالنسبة للباقين ، فالامر صعب وخصوصا اذا لم يكونوا قد مارسوا [الكتابة] من قبل . ونحن دوما نواجه انتقادات من القواعد مفادها ان استيعاب ما تكتبه صحيفتنا صعب جدا وان علينا ان نبسط الامور وان نكتب بطريقة سهلة .

لهذا يتطلب تحضير المقال وقتا طويلا اذ أن علي أن اراجع المقال وان أبسط بعض النقاط التي يطرحها بعد أن تتم كتابته . واظن ان انشاء صحف اخرى داخلية في الجبهة من شأنه ان يسهل علينا مهمتنا واستمرارنا في هذا الخط . فالصحيفـة الداخلية بامكانها أن تعبر عن أشياء سهلة وافكار بسيطة . اما بالنسبة لصحيفة مركزية علنيـة معروفة كصحيفتنا فأنه من الصعب علينا ان نتمثل بالصحف الداخلية لان علينا ان نتبنى خطا جديا . ولكننا نحاول [الان] ان نحدد من عدد المقالات التي تتناول افكارا سياسية معقدة بحيث تحتـل هذه المقالات عددا قليلا من الصفحات ، ونركز على الحملات السياسية المباشرة .

هل تنشرون اعمالا ادبية : شـعر وغيره في صحيفتكم ؟

ــ نحن نخصص صفحتين للادب والنقد السينمائي والفن المسرحي والرسم وغيره . واظن ان هاتين الصفحتين هما الاكثر رواجا لان الكثيرين من أعضاء الجبهة يتعرفون على خط التفكير اليساري من خلال هذه الصفحات .

هل نشرت انت شخصيا قصصا قصيرة ؟

ــ لم أجد الوقت الكافي للكتابة منذ مباشرتي العمل في « الهدف » . وفي الواقـع ، لم انشر [مؤخرا] سوى قصتين عن امرأة مسنة اكتب عنها دائما [أم سعد] . لا أملك الوقت لممارسة الكتابة الادبية وهذا امر مزعج للغاية .

هل تحب الكتابة لانك تحبها ؟

ـــ عادة ، عندما افرغ من عملي في المكتب وأعود الى البيت ينتابني شعور بالارهاق مما يمنعني من ممارسة الكتابة . لذلك افضل القراءة . وطبعا يتوجب علي ان اقرأ مدة ساعتين يوميا اذ انه ليس بامكاني الاستمرار دون ذلك . ولكن بعد الانتهاء من القراءة أشعر بأن الاخلاد الى النوم او مشاهدة فيلم سخيف أفضل [بالنسبة لي] اذ أنني لا استطيع ان اكتب [بعد انتهائي من عملي].

هل تعتقد بأن آخر التطورات داخل الجبهة تنعكس في انها اصبحت تجمعا تكثر فيه المناظرات اكثر منها تجمعا يقوم بنشاطات عسكرية ؟

ـــ كلا ، لا أوافقك الرأي . والواقع اننا في الجبهة كنا نصر دائما على خط استراتيجي معين شعاره ان كل سياسي هو ايضا مقاتل وكل مقاتل هو سياسي . اما الظاهرة التي تشاهدها الان فهي ليست مقصورة علينا [على الجبهة] . فهذه الظاهرة مردها ان حركة المقاومة الفلسطينية تعيش الان حالة انحسار بسبب ظروف موضوعية تعمل على تحطيمنا في هذه الفترة من الزمن . ونحن نعيش حالة الانحسار هذه منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ مما يمنعنا من تصعيد نشاطاتنا العسكرية . ولكن ذلك لا يعني اننا سنتوقف عن العمل العسكري . هذا بالنسبة لحركة المقاومة عامة . اما بالنسبة للجبهة الشعبية بوجه التحديد ، فان عملياتنا العسكرية في غزة والضفة الغربية واسرائيل نفسها تصاعدت خلال السنتين الاخيرتين. ولكن اسرائيل تحاول طمس هذه العمليات . ولكننا نشيطون . كما ان لنا قواعد في جنوب لبنان ونحن نعد لحرب شعبية سرية ضد الرجعيين في الاردن . غير ان حالة الانحسار التي نعيشها والجو القمعي العام الذي تفرضه الحكومات العربية يؤثران على الرأي العام فيحسب الناس اننا توقفنا عن ممارسة النشاطات العسكرية . ولكن هذه النتيجة هي نتيجة خاطئة .

كيف أثرت حالة الانحسار ، في رأيك ، على الفرد الفلسطيني دون الاشارة الى خط سياسي معين ؟

ـــ الحركات السياسية شبيهة بالانسان . فعندما يكون الانسان معافى ومشهورا وغنيا يلتف حوله الاصدقاء ويسانده الجميع . ولكن عندما يشيخ ويمرض ويخسر أمواله ينفض الاصدقاء من حوله . ونحن الان [كحركة مقاومة] نمر في هذه المرحلة ـــ مرحلة الفتور ـــ ان صح التعبير . فالفرد الفلسطيني يشعر بأن الاحلام التي بناها في السنين القليلة الماضية قد تقوضت . وهذا شعور مؤلم ، كما تعلم . وانا أعتقد ، وأظن ان الكثيرين من الرفاق يشاطرونني الرأي ، بأن هذه المرحلة مؤقتة . فعندما يكتشف الفرد الفلسطيني بأننا نحارب عدوا كبيرا ليس بامكاننا ان نهزمه في بضع سنوات ، وبأن حربنا طويلة الامد ، وبأننا سنهزم مرارا ، عندها لن يكون ولاء الفرد الفلسطيني للثورة الفلسطيني هشا وعاطفيا كما هو الامر الان . اظن انه بوسعنا ان نعبيء الجماهير ثانية عندما نحقق اول نصر جديد لنا . وأنا واثق بأن هذا النصر قادم . ونحن لا نخشى « فترة الفتور » هذه كما يحلو لي أن أسميها . فهذا أمر طبيعي اذ ان القادة العرب ورجال الاعلام العربي قطعوا وعودا كثيرة للجماهير ومنوها بنصر سهل المنال . أما الان فقد اكتشف الكثيرون من العرب بأن هذه الوعود كانت خداعة . وبالتالي ، لا اظن ان هذه الظاهرة [أي الفتور لدى الفرد الفلسطيني] ظاهرة متأصلة مستمرة . فنحن نعلم بأننا سنجتاز هذه المرحلة في المستقبل وبأن ولاء الجماهير للثورة سيكون اقوى مما كان عليه .

هل كنت انت او هل كانت قيادة الجبهة متفائلة أكثر من اللزوم في عام ١٩٦٧ أو ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ ؟ هل أعطيتم انتم وعودا اكبر من اللازم ؟ هل كنتم تنظرون الى هذا الصراع كصراع سهل ؟

ـــ كلا ، في الواقع كانت الجبهة الشعبية تحذر الجماهير من خلال وثائقها المكتوبة بأن المشكلة ليست مشكلة سهلة . كما انها كانت تنبههم الى انهم سيهزمون مرارا وسيواجهون حمامات الدم وكثيرا من المآسي والمذابح . طالما ذكرنا ذلك . ولكن عامة كانت قيادة الثورة الفلسطينية تلوح للجماهير بنصر سهل . أما فيما يتعلق بالتفاؤل ، نحن متفائلون جدا وأستطيع القول بأن وضعنا الان ، بالرغم من كوننا في الحضيض بالنسبة لنضالنا الصعب الان ، هو افضل مما كان عليه عام ١٩٦٧ او ١٩٦٨ او ١٩٦٩ وذلك من زاوية علمية وكحركة مقاومة تقيم من خلال حركتها التاريخية وليس من خلال ظواهرها الاستعراضية السطحية .

حديث مع يسرائيل شاحاك

الدكتور طالب يونس

في اليوم العاشر من نيسان (ابريل) ١٩٧٤ أجرى الدكتور طالب يونس ، الباحث العربي في لندن ، الحديث التالي مع الدكتور يسرائيل شاحاك ، رئيس لجنة حقــوق الانسان الاسرائيلية . وقد خص د. يونس شؤون فلسطينية بالحوار الذي تلخر نشره لضرورات الطباعة . وتود شؤون فلسطينية ان تشير الى ان د. شاحاك لا يمثل ، بين يهود الارض المحتلة ، الا جماعة صغيرة جدا ، عدديا ونسبيا ، وانها تقصد ، في نشر الحديث معه ، اعطاء القارىء العربي صورة عما يفكر به هذا الرجل المعارض لسياسة «اسرائيل» والذي يعبر عن معارضته عادة بنشاطات ومواقف جريئة وصريحة.

ـ لم اعد اسئلة معينة . ولكن هل بالامكان ان نبتدىء بحــرب تشرين الاول (اوكتوبــر) ومضاعفاتها ؟ والذي يهمني بوجه التحديد هو رايك بالنسبة لتاثيرات الحرب على اسرائيل من النواحي التالية : أولا : ردة الفعل داخل اسرائيل . مثلا : سلوك الحكومة اثناء الحرب ، ردات الفعــل النفسية ، التطلعــات الطويلة الامــد والمطاليب [المطروحة] ، كاستقالة دايان .

● هل تعتقد فعلا بأن لهذه [الامور] أهمية بالغة ؟ انها تكون قد اصبحت في طي النسيان عندما يحين الوقت لنشرها في « شؤون فلسطينية » . انني أعير اهتماما اكبــر لتطلعات الفلسطينيين الطويلة الامد وأوضاعهم في الاراضي المحتلة الخ...

ـ في الحقيقة ، كنت على وشك ان اطرح هذا الموضوع ولكن ، كما تعلم [نحن] نسمع الكثير عن ردة الفعل [بالنسبة للحرب] داخل اسرائيل وعن الشعب الاسرائيلي وعن الحرب ذاتها . غير اننا لا نعرف ما اذا كان ذلك مبالغا فيه أم لا .

● الحرب لم تبدل شيئا هذه المرة . وردة الفعل بالنسبة للحرب كما هي ، والبنيان الداخلي لحزب العمل الاسرائيلي يتصدع . ولكن أساسا لــم يتحسن موقف الاسرائيليين بالنسبة للفلسطينيين بل ازداد سوءا . انني لا اتوقع في الوقت الحاضر ان يقوم بين غالبية اليهود اي تحرك كان تجاه تسوية معقولة للفلســطينيين . فالحالة أســوأ من هذه الناحية وليست أفضل [مما كانت عليه] قبل حرب تشرين الاول (أوكتوبر) .

ـ اذا انتقلنا الى قضية الاراضي المحتلة فماذا يمكننا أن نستنتج بالنسبة لموقف غالبية الاسرائيليين من التسوية ؟ هل ازداد موقفهم تصلبا ؟ هل بقي كما هو ؟ هل لان ؟

● المناطق المحتلة [لا تطرح] مشكلة واحدة بل مشكلتين ، في وجهة نظر غالبية الاسرائيليين . أولا : هناك الاراضي التي تشمل ، في نظرهم ، ما يسمونه « بأرض اسرائيل » والتي تغطي سائر [أراضي] فلسطين ومرتفعات الجولان والجزء الشمالي من سيناء والاراضي السورية التي احتلت مؤخرا . بالنسبة لهذه الاراضي ، ان الاغلبيــة الساحقة من الاحزاب الصهيونية لن توافق ، في تقديري ، على تسوية معقولة . والفلسطينيون الكثيرون الذين يضعون في حسابهــم انه بالامكان التفاهم مع « الحمائم » أمثال الون وايبان يرتكبون خطأ واضحا . وهم يجهلون ما يجري . فقــد [يوافق الاسرائيليون] على تسوية ما ، ولكن فيما يتعلق بجنوب سيناء [فقط] .

ـ وهذا لن يرضي الفلسطينيين .

● ليس ذلك فحسب ، بل انه لا يشكل حتى خطوة رمزية تجاه [الوصول الى تسوية] مع

الفلسطينيين . فقبل اسبوع فقــط كان ديان في واشنطن حيث صرح بأن الاستيطان اليهودي في الاراضي المحتلة يجب ان يستمر . فالمسألة اذن لا تنحصر في عدم امكانية الوصول الى تسوية [مع الاسرائيليين] بل تتعلق ايضا بأوضاع الفلسطينيين السيئة جدا في الاراضي المحتلة ، الامر الذي يجب ان يطلع عليه الفلسطينيون في الخارج . فالبنيان القومي للفلسطينيين [داخل الاراضي المحتلة] ينهار تدريجيا . فالمفكرون يضطهدون ، والفلاحون يجردون من املاكهم ويتحولون الى عمال في اسرائيل . والاراضي تصادر . وهذا يشكل في الحقيقة حربا ضد الامة [الفلسطينية] . ولن يتغير هذا الوضع في المستقبل القريب .

— هنالك اذن مشكلة ليس فقط بالنسبة لمطاليب الفلسطينيين القصــوى فحسب ، بل بالنسبــة لمطاليبهم المعقولة حيث ان الاسرائيليين غير مستعدين للقبول بحل وسط يقدم حدا ادنى من التنازلات . الاسرائيليون ليس عندهم استعداد للنظر في هذا الامر .

● الحكومة الاسرائيلية ومعظم الاحزاب غــير مستعدة لتقديم اية تنازلات معقولة في رأيي . فهذا الوضع ما زال قائما منذ عشرين سنة ، ولم يطرأ عليه أي تغيير فعلي . واني لاتساءل ما الذي يدفع مجموعة معينة من الفلسطينيين فجاة الى الاعتقاد بأن أولئك المعروفين بالصهاينة المعتدلين مستعدون لان [يعطوا] تنازلات أكثر . هذا في رأيي خطأ .

— اذن ما وراء فكرة ايجــاد دولة فلسطينية صغيرة في الضفة الغربية تحت اشراف الولايات المتحدة أو الدول الكبرى ، لقد اصبحت هذه الفكرة موضع التداول مؤخرا . ونحن لا نعرف ما هو موقف الفلسطينيــين ، ولكــن ما هــو موقف الاسرائيليين — لا أعني الحكومة فقط بل الشعب ؟

● هنالك قطاع صغير من الشعب الاسرائيلي يتراوح بين ١٠ — ١٥ بالمئة من مجموع السكان يرغب في الوصول الــى تسوية مع الفلسطينيين ويساند الدولة الفلسطينية . ولكن ما يعنينا هنا هو الاقلية ونحن هنا في صدد الاقلية لا الاغلبية وتشكل الاقلية الان فئة ضعيفة وصغيرة عدديا . والحق ان غلطة الفلسطينيين تكمن هنا . اذ ان على الفلسطينيين ان لا يتعاونوا مع الاغلبية ومع « الحمائم » [المشاركين] في الحكم . بل يتوجب عليهم ان يعيروا انتباهم للاقلية من الاسرائيليين الذين يكافحــون الان وأبدا ضــد تدمير بيــوت الفلسطينيين على سبيل المثال . ولكــن بعض الفلسطينيين يرغبون في دخول اللعبة السياسية والتعامل مع ما يسمى الصهيونية المعتدلة . وأنا أقول لهم انهم على خطأ فهم يرتكبون حماقة .

— ما الخيار اذن ، في رأيك ؟

● على الفلسطينيين ان يتعاونوا مع الاسرائيليين الذين كانوا يدافعون باستمرار ، خلال الاعوام الستة او السبعة الماضية ، عن حقوق الفلسطينيين [بصفة خاصة] وحقوق الانسان بصفة عامة ، اولئك الذين عارضوا ، وما زالوا يعارضون الاعمال التعسفية التي تتبناها الحكومة الاسرائيلية . ذلك بالرغم من ان هذه الفئة تشكل أقلية عددية . ثم ان على الفلسطينيين أن يتجنبوا التعاون مع الذين يشاركون في الحكم في اسرائيل والذين اسهموا في كافة الجرائم [التي ارتكبت] ضــد الشعب الفلسطيني . فهم سيصابون بخيبة أمل ان فعلوا ذلك . ومن الجنون ان ينتظر الفلسطينيون ان يمنحهم ألون أو ايبان أو دايان ايا من حقوقهم . فهؤلاء لن يعطوهم شيئا .

— غير اننا نعرف بان السادات يشدد بوضوح على ان فك الارتباط يعتبــر مرحليا ما لم تحقق مطالب الفلسطينيين . فهو بالتالي ليس ملزما ابديا بالاستمرار في مفاوضات السلام [ما لم يحقق هذا الشرط] . والسادات يردد دائما : « الفلسطينيون، كما نردد دائما ، كانوا وسيبقون جوهر المشكلة » . فاذا افترضنا ان القيادة الاسرائيلية أساسا ليست مستعدة لتقديم تنازلات للفلسطينيين ، فهل بالامكان ان ترغمها الظروف على ذلك ؟

● لن يتحقق هذا الامر ما لم يطرأ تغيير فعلي وعلني على سياسة الولايات المتحدة . ولا توجد الان اية مؤشرات من هذا القبيل . وسيحدث تغيير [في وجهة النظر الاميركية] عندما تعلق الولايات المتحدة على تدمير البيوت وطرد الاهالي منهــا . وسيحدث تغيير عندما تعلن الولايات المتحدة ان المناطق المحتلة غير تابعة لاسرائيل . وحتى الان لم يصدر عنها اي تصريح من هذا النوع .

— ولكن رسميا ، عفوا لمقاطعتك ، رسميــا (وأشدد على « رسميا ») لم تقر الولايات المتحدة

الوضع [الراهن] للاراضي المحتلة .

● أنت مخطىء . فمنذ حرب تشرين الاول (اوكتوبر) دأبت الولايات المتحدة على استعمال كلمة « اسرائيل » في تصريحاتها الرسمية وذلك اشارة الى الاراضي المحتلة . ومن السهل التحقق من ذلك منذ تشرين الاول (اوكتوبر) وصاعدا . فالاصطلاح الجغرافي « اسرائيل والمناطق المحتلة » لم يرد قط [في التصريحات الاميركية التي صدرت بعد الحرب] .

— هذا يشكل معضلة اذن . فموقف القيادة الاسرائيلية لم ولن يتبدل . كذلك الامر بالنسبة لاميركا .

● قد يتبدل الوضع في غضون سنة او ما يقارب ذلك .

— قد يتبدل الوضع . الا انك تتنبأ بان التحول في المستقبل القريب سيكون قليلا ؟

● نعم .

— توجد جماعة من الفلسطينيين الان ممن يشعرون بان عصفورا في اليد خير من عشرة على الشجرة .

● بشرط ان تحصل عليه .

— بشرط ان تحصل عليه. واقامة دولة فلسطينية ليس ضمن تصورات الاسرائيليين ، في رأيك ، فهم لن يأخذوا هذا الحل بعين الاعتبار .

● ان غالبية الاحزاب الاسرائيلية ، ستعارض ، بالطبع ، [اقامة] اية دولة فلسطينية على الاطلاق . فضم غزة [مثلا] أقر من قبل سائر الاحزاب الصهيونية ، بل سائر الاحزاب الممثلة في الحكم . وحتى الشروط المطروحة بالنسبة للضفة الغربية تستثني الدولة الفلسطينية . فالاحزاب الصهيونية [مستعدة] لان تعيد فقط جزءا من الضفة الغربية للملك حسين . لنتناول ، مثلا ، الشروط الفعلية التي وضعها السيد رابين ، الذي يفترض الكثيرون خطأ انه من « الحمائم » . يقول رابين ان الشرط المسبق لتحقيق اي نوع من السلم مع العرب (ولم يقل الفلسطينيين) يوجب على العرب القبول باستمرار الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية لفترة قد تبلغ الثلاثين عاما . وقد صرح رابين بذلك في أوائل آذار (مارس) .

والحقيقة ، هذا البند موجود هنا وبامكانك ان تتحقق من [صحة] هذه المعلومات بنفسك .

— دكتور شاحاك ، انت تستعمل الاصلاحين « الصقور » و « الحمائم » اشارة الى السياسيين الاسرائيليين . ولكن هل يوجد فعلا فرق مميز وواضح بين الفريقين فيما يتعلق [بموقفهم] من الفلسطينيين ؟

● نعم . [هنالك فرق] ليس بالنسبة للفلسطينيين بل بالنسبة للعرب بشكل عام . فالفريقان اجمالا متفقان فيما يتعلق بالفلسطينيين . [اما فيما يتعلق بباقي العرب] فهنالك موقفان : من الاسرائيليين من يرغب في الاستيلاء على المزيد [من الاراضي] . فالسيد بيغن والسيد شارون يشيرون الى اسرائيل الحالية والاراضي المحتلة بعبارة « أرض — اسرائيل الغربية » وهذا يعني انهم يعتبرون الضفة الشرقية للاردن ، وبالمناسبة ، جنوب سوريا أيضا ، جزءا مكملا من « أرض اسرائيل » . وبالتالي يجب الاستيلاء على هذه الاراضي في اقرب فرصة سانحة .

— أليس ذلك دليلا على قصر نظر من الجانب الاسرائيلي ؟

● ان الكثير من اعمال الاسرائيليين تبرهن عن قصر نظر . ان آخر صهيوني كان يتحلى بشيء من الواقعية ، بن غوريون ، توفي . اما السياسيون الباقون ، فكثير منهم يتصفون بقصر النظر .

— يقول البعض ان ضعف الحكومة العمالية بالذات ، أي [ضعف] التحالف العمالي القائم يشكل عقبة في طريق ايجاد حل وسط بالنسبة للاقتراحات المطروحة لايجاد كيان جغرافي للفلسطينيين .

● هذا صحيح الى حد ما . انني في الحقيقة لا أعتقد بأن لاي حزب اسرائيلي له أهميته ، اي حزب يشارك في الحكم — او يميل نحو اليمين له استعداد لاجراء « تنازلات » فعلية للفلسطينيين ما لم تجبره الولايات المتحدة على ذلك .

— هذا محزن جدا . فقد نشبت حتى الان اربع حروب [بين العرب والاسرائيليين] . ولقد كانت الحرب الاخيرة هي الاشد ضراوة ، في رأيي . ولا يسعنا هنا الا ان نتساءل هل الحرب هي المخرج الوحيد لهذه المشكلة ؟ فالذي دفعني الى اثارة

موضوع موقف الاسرائيليين من الحرب يعود الى رغبتي بالافصاح عما سمعته . اما بالنسبة للعرب فقد كان شعورهم بهذا الصدد بان عليهم ان يخوضوا الحرب بغية استرجاع حقوقهم اذا كان ذلك ضروريا ، كما قال السادات . فقد يكون المرء ضد الحرب مبدئيا الا انه قد يلجأ اليها كحل أخير . وقد برهنت الحرب [الاخيرة] على ان اعتماد اسرائيل على القوة وحدها ان اسرائيل كانت على خطا . أليس بوسع القيادات الاسرائيلية التي تثير موضوع الامن وغيره دائما ان تنظر الى المستقبل وتدرك ان ميزان القوى يتغير ؟

● لا أظن . ان كنت تعني « بالقيادات » الاحزاب الكبرى التي تشارك في الحكم ، لا أظن ان هؤلاء سيعون ان ميزان القوى يتغير . وهم بالتأكيد لا يدركون ذلك في الوقت الحاضر . وبالطبع يجب عمل شيء ما ، تحرك سياسي ، وانا لا اقول ان ذلك بديل للحرب . لست أكيدا بأن هذا يشكل خيارا . غير ان العمل السياسي قد يحسن الاوضاع على الاقل . [يجب ان يتمثل هذا التحرك السياسي] بتحالف الفلسطينيين مع أصدقائهم ، الذين ذكرتهم ، أي اولئك الذين يدافعون عن حقوق الفلسطينيين الانسانية والسياسية ضمن اطار حركة سياسية حيث يعمل اليهود والفلسطينيون كجبهة مشتركة من اجل تحقيق مطالب الفلسطينيين، مثل الحق في تقرير المصير ، والعمل ضد اضطهاد الفلسطينيين داخل الارض المحتلة — أي مبادىء عامة . عندها سيتمكن الفلسطينيون من معرفة أصدقائهم وأعدائهم . وعندها عليهم ان يتحالفوا مع اصدقائهم .

— انا واثق من ان الفلسطينيين يدركون [اهمية] الجهود التي يبذلها الاخرون ، أمثالك ، في سبيلهم . كما انني واثق بانهم يقدرون هذه الجهود . ولكن ، هل هذا كاف بحد ذاته ؟ ذلك لان دايان سيستمر في خلق « حقائق جديدة » في الاراضي المحتلة ، بضم مزيد من الاراضي وطرد المزيد من الفلسطينيين وتدمير عدد اكبر من القرى .

● غير ان العمل السياسي أفضل. فالفلسطينيون غير قادرين الان على عمل اي شيء بالنسبة لدايان او بيغن او شارون لان حكومة الولايات المتحدة وجيوشها النظامية فقط يخيفان دايان وبيغن وشارون . أما بالنسبة لقوات الفلسطينيين الان او تلك التي سيحصلون عليها في المستقبل ، فهي لن تضاهي قوات الجيش السوري او المصري عسكريا وبالتالي يتوجب على الفلسطينيين ان يستغلوا طاقاتهم الكامنة ، ومنها قدرتهم على شن حملات سياسية واستصراخ الرأي العام العالمي والتحالف مع اصدقائهم في اسرائيل . هذه هي امكانياتهم ، وعليهم ان يستغلوها . صحيح ان العمل السياسي بطيء كما انه قد لا يغني عن نشوب حرب جديدة . لكنني لا أجد مخرجا آخر . وأكرر ، بالنسبة لضرورة التركيز على العمل السياسي ، الفلسطينيون في الخارج لا يساعدون اخوانهم في الارض المحتلة بما فيه الكفاية . فاخوانهم في رام الله ونابلس وغزة وطبعا في قرى اخرى عديدة يضطهدون ويتعرضون للظلم في هذه اللحظة بالذات . كما ان بيوتهم تهدم . وبالاضافة الى ذلك ، يتعرضون هم شخصيا للضرب . فلماذا لا تنظمون مظاهرة كبيرة من أجل كل بيت يهدم من بيوت اخوانكم ومن اجل الاطفال الفلسطينيين الذين يلقى بهم في الشارع يوميا . فبدلا [من الاكتفاء] بالتكلم والاعتراض ، على الفلسطينيين خارج الارض المحتلة ان يتظاهروا من اجل كل بيت فلسطيني يفجر وكل طفل يلقى في الشارع .

— هذا يعني ان على الفلسطينيين ان يقوموا بتظاهرة يوميا .

● هذا ما أرمي اليه بالضبط . في رأيي ، على الفلسطينيين ان يقوموا بمظاهرة دائمة في مكان معروف مثل مقر الامم المتحدة او ساحة البيكادلي [في لندن] دفاعا عن حقهم في تقرير المصير . وباستطاعة الفلسطينيين ان يرفعوا لافتة جديدة كل يوم . فهنا تكمن قوتهم .

— من البديهي ان هذه احدى الطرق [لمعالجة الوضع] . ولكن هل تظن ان هذا وحده ...

● هذا يشكل منطلقا . وهو هام للفلسطينيين في رام الله ونابلس [مثلا] من الناحية النفسية والسياسية . فعندما يهدم بيت في رام الله ، يتساءل الفلسطينيون هناك : ترى ماذا يفعل اخواننا في لندن احتجاجا على ما حل بهذا البيت . وانتم عليكم ان تبرهنوا لهم بأنكم تحتجون باستمرار ضد كل عمل تعسفي [يرتكب في حقهم] .

— الفلسطينيون يتظاهرون في لندن . ولكن ، كما تعلم ، على الاجنبي ان يتقيد بقوانين البلد الذي

يقيم به . لنعد الان الى موضوع الفلسطينيين في الشرق الاوسط ، داخل الاراضي المحتلة او خارجها . لقد قر قرارهم على ان الكفاح المسلح هو المخرج الوحيد بعد ان لجأوا الى الراي العام العالمي ووسائل اخرى عديدة دون جدوى . هل تظن ان لجوء الفلسطينيين الى حمل السلاح هو الشرارة الوحيدة التي فجرت الوضع الراهن ؟

● لقد لجأ الفلسطينيون الى الكفاح المسلح منذ فترة طويلة . ان باستطاعتي تفهم هذا الجانب من الكفاح المسلح . وانا أقر كليا حق الفلسطينيين في حمل السلاح . وكما اعترف بحق شعب فيتنام الشمالية والشعب الجزائري بالتحرير كذلك أقر هذا الحق للفلسطينيين .

ـ ان لم تسفر مساعي السلم الحالية عن نتيجة ملموسة ، فما هي تقديراتك الشخصية فيما يتعلق بمستقبل المنطقة ؟

● أن الاحتمال المرجح ، في رأيي ، هو اندلاع الحرب مجددا في المستقبل القريب ـ في غضون سنة ، قبل ربيع ١٩٧٥ .

ـ بين الان وذلك الحين، هذا يعني ان مصر...

● لا أستطيع التكهن بالشكل الذي تتخذه هذه الحرب . ولكنها ستتخذ شكلا ما . وما علي الا ان اردد مقتطفات من المقالات العديدة التي وردت في الصحافة الاسرائيلية مطالبة باسترداد اسرائيل « لقوتها الرادعة » ، كما اشير اليها [في هذه المقالات] . ان المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة ترغب في شن حرب ما . وتبقى ماهية هذه الحرب موضع التساؤل .

ـ والغرض من هذه الحرب هو اعادة الوضع الى ما كان عليه حيث كانت اسرائيل متفوقة عسكريا على البلدان العربية ؟

● كلا . [فقط] استرجاع قوة اسرائيل الرادعة . فليس بامكان اي شخص في اسرائيل اليوم الادعاء بأن اسرائيل خرجت من الحرب الاخيرة منتصرة . فقد حاول الاسرائيليون ترويج هذا الادعاء في تشرين الثاني (نوفمبر) غير انهم يعرفون الان بأن الحرب كانت ، في افضل الاحتمالات ، ورطة [بالنسبة لهم] . وكثير من الاسرائيليين، بالاضافة الى معظم الذين ينتمون الى المؤسسة الحاكمة يرتأون انه من الضروري ان تخوض اسرائيل حربا اخرى كي تظهر بمظهر المنتصر ـ كي تتاح لها الفرصة لان تحرز انتصارا قاطعا .

ـ انتصارا شاملا ؟

● نعم .

ـ وماذا سيكون موقف الدول الكبرى في هذه الحالة ؟

● لقد قدمت لتوي من واشنطن ، كما تعلم . ان السلطة الحالية ، في رأيي ، موافقة اجمالا . فالدكتور كيسينجر سيوافق . اما اذا أراد ان يتفادى هذه الحرب ، ففي وسعه تحقيق ذلك ببضع كلمات . غير انه لن يحاول تفادي الحرب . وانا أعتقد بأن الاستعدادات لها قائمة وكيسينجر يعرف ذلك تمام المعرفة .

ـ اذن ، ماذا يمكننا ان نستنتج بان كيسينجر خدع المصريين ، او انه كان مخلصا ؟ فما قاله الرئيس السادات مفاده انه [اي السادات] يعتقد بان على كيسينجر ان يكون صادقا في محاولاته لاحلال السلم في الشرق الاوسط ، وذلك مراعاة للمصالح الاميركية المهددة ، نتيجة لحظر النفط بوجه خاص .

● ربما كان السادات قد صرح بشيء ما بينما صرح حسنين هيكل ، الذي اكن له قسطا وافرا من الاحترام بتصريح مختلف (بهذا الصدد) . قد تكون على حق . فمن الصعب معرفة الحقيقة في السياسة . ربما يحاول السادات ان يتيح فرصة امام مساعي كيسنجر . وقد لا يكون السادات نفسه مقتنعا بتلك المساعي . ربما كان محقا ـ اما فيما يتعلق بنوايا كيسنجر ، فانا أميل الى تصديق ما تقوله رئيسة وزراء اسرائيل، غولدا مئير ، بهذا الصدد ، اكثر مما يقوله السادات . وذلك لان لديها فرصا اكثر للاطلاع على النوايا الحقيقية لحكومة الولايات المتحدة . وما صرحت به غولدا مئير يختلف عما قاله السادات . فقد صرحت بان كيسنجر يدعم تعزيز قوة اسرائيل وضمان امنها ، وانا اميل الى تصديق مئير اكثر من السادات فيما يتعلق بموضوع كيسنجر .

استنتج انها صرحت بما اشرت اليه علنا ؟

● نعم ، لقد رددت نفس الكلام الذي قاله

السادات : كيسنجر الى جانبنا وهو يساعدنا الخ ... لا بد ان احدهما على خطأ . وبالتالي ، اذا قلنا ان السادات لم يخدع فلا بد ان غولدا مئير خدعت ، لان كيسنجر قطع لهما عهودا متناقضة . واظن ان الوعود الحقيقية قطعها كيسنجر لمئير .

ـ اذا كان الامريكيون سيتبعون الخطالسياسي الذي تتحدث عنه فسوف يسبب ذلك ردة فعل كبيرة ضدهم في العالم العربي . وكما اشرت ، الاراء تختلف بصدد نوايا امريكا . واذا وجد العرب ان امريكا قد غررت بهم مجددا ، اظن انهم سيعيدون النظر كليا في تنظيمهم السياسي ، ولن يكون ذلك في صالح امريكا . هل تظن ان ذلك سيروق للامريكيين ؟

● لا أظن ان ذلك سيروقهم . ولكن ، وارجو ان لا تعتبر ما سأقوله اهانة للعرب ـ الاميركيون يقولون بان العرب تقبلوا الكثير في الماضي ـ خطة روجرز مثلا . فأميركا قد غررت بالعرب فعلا عدة مرات في السابق ليس فقط اثناء حرب الايام الستة وبعدها بل طوال فترة المناورات التي اجراها روجرز . كما ان اتفاق وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية عام ١٩٧٠ كان عبارة عن تنفيذ لخطة روجرز . فما الذي حدث بعد ذلك ؟ اظن ان التاريخ يعيد نفسه .

ـ هذه المرة تعاد الكرة بحذاقة بالغة .

● نعم ، فعلا بحذاقة اكثر ـ فكيسنجر اذكى من روجرز بكثير . ولكن ، اساسا ، تتكرر اللعبة ذاتها . واظن ان العرب ، واستميحك عذرا لهذا القول ـ سيخدعون مرة اخرى . وقد يثير ذلك ضجة في بادىء الامر ، فرض حظر النفط او شيء من هذا القبيل ـ ولكن ...

ـ كنت على وشك ان اثير موضوع حظر النفط. لقد اختلفت الاراء بالنسبة لرفع الحظر عنالولايات المتحدة او الاستمرار به الى ما لا نهاية . وقد اجمعت الاكثرية هذه المرة على ضرورة رفع الحظر لان الولايات المتحدة قد اتخذت ، على الاقل ، مبادرة [لحل الازمة] بينما ارتأت الاقلية بان هذه المبادرة غير كافية اذ انه يجب ان يتم انسحاب كامل من الاراضي المحتلة . اولا . والولايات المتحدة وحدها قادرة على تحقيق ذلك . وانا ، من جهتي ، اوافقك على آرائك بشأن روجرز والماضي الخ ... لكنني اعتقد بانه اذا كانت الجولة المقبلة على غرار الجولة السابقة فسيكوناستعمال سلاح النفط اشد فعالية وتأثيرا من السابق .

● انني لا اشاطرك الرأي . وقد يثير ذلك عجبك . غير ان هذا لن يتكرر . فسيفرض الحظر وستقطع امريكا الوعود ثانية وستعاد الكرة من جديد .

ـ ما هي المكاسب التي يمكن ان يحققها الاسرائيليون نتيجة لحرب اخرى ، بصرف النظر عن الاعتبارات الجغرافية والسياسية .

● اذا خرجت اسرائيل منتصرة من الحرب فسيحقق الصهيونيون مكاسب وافرة .

ـ ماذا لو هزمت اسرائيل ـ عمليا ؟

● هذا احتمال يرد في خواطر اشخاص مثلي فقط.

ـ غير انه احتمال وارد ـ ذلك بالرغم من انه من المتوقع ان يحاول شخص كدايان غرض نفسه عندما يجد ان مركزه مهدد بسبب الحرب الاخيرة .

● دايان في طريقه الى الزوال . فلا داع اذن لان نضيع الوقت بالتحدث عنه . غير ان المؤسسة العسكرية [في اسرائيل] تحسب بان الحرب لم تجر على ما يرام بسبب اخطاء فنية بالامكان تداركها في الجولة القادمة وبالتالي ، ستنتصر اسرائيل . وهذا الموضوع ، في رأيي ، قابل للنقاش . لكنه يمثل وجهة نظر الاسرائيليين . اما الحرب ـ من الصعب التكهن بالنسبة للحرب . الا ان المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة ما زالت تؤمن بفرضيتها السائدة منذ اكثر من عشرين عاما ، وهي فرضية بسيطة مفادها ان « العربي يظل ابدا عربيا » . وهذا الموقف العنصري هو اساس كل شيء . وهو لا يزال قائما . وعلى الفلسطينيين والعرب ان يعوا ذلك .

ـ ماذا بالنسبة لموقف الاقليات ـ اليهود الشرقيين وغيرهم ؟

● هؤلاء ايضا ينتهجون المنهج نفسه .

ـ غير انهم مظلومون ومضطهدون ؟

● انهم مظلومون ، لكنهم يظلمون الاخرين . فالاغنياء من البيض في الولايات الجنوبية فيالولايات المتحدة يضطهدون الفقراء من البيت . وهؤلاء ،

بدورهم ، يضطهدون السود اكثر . اما الوضع الان فهو يتلخص بان اليهود الشرقيين يشغلون المركز الوسط ، فهنالك اكثر من مليون فلسطيني في الاراضي المحتلة ، واليهود الشرقيون يضطهدونهم . كما ان اليهود الشرقيين ألفوا ظروف القهر التي يعيشونها . واظن ان اقناعهم سيتطلب وقتا .

ــ اقناعهم بتغيير موقفهم ؟ ما يتبادر الى ذهني الان هو حركة الفهود السود .

● نعم ، حملهم على تغيير موقفهم . فحركة الفهود السود وما يشابهها تنبع عن الاقلية .ونحن هنا بصدد الاغلبية وليس الاقلية .

واسمح لي ان احيد عن الموضوع هنا ، ان اللائمة تقع على بعض العرب ايضا . فقسم كبير من اليهود الشرقيين هم أصلا يهود عراقيون . وانها لحقيقة ثابتة بان الحكومة العراقية ، بالتواطؤ مع الحركة الصهيونية ، طردت هؤلاء اليهود من العراق اثناء حكم نوري السعيد عام ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ . فاذا حاولت الحكومة العراقية الحالية ان تقدم ترضيات (ولو كلامية) لهؤلاء اليهود ، لو اعلنت الحكومة بان طرد الصهيونيين ونوري السعيد لليهود كان خطأ وانهم يشعرون بان ذلك خطأ ، عندها ...

ــ ماذا سيكون موقف الصهيونيين من ذلك ؟ ماذا سيقولون اذا اعلنت الحكومة العراقية بانها اخطات بحق اليهود وانها ستكفر عن ذلك بصرف مبلغ معين من التعويضات .

ــ لن تتخذ هذه الترضية شكل تعويضات . فالغرض من ورائها ليس التعويض فحسب بل الاجهار بان الحكومة العراقية تعترف بهؤلاء اليهود كزملاء عراقيين . وعندها سيستعيد الكثير من اليهود الذين كانت لهم ذكريات حلوة وسعيدة في العراق ايامهم الماضية وسيحملون اللائمة للرجعيين العرب ، امثال نوري السعيد ، الذين تواطأوا مع الصهيونيين لطردهم اليهود .وسيعرف هؤلاء ، عندها ، بان تغيرا طرا على الحكومة والشعب العراقي .

ــ هل يعني هذا ان بعض اليهود العراقيين قد يقررون العودة الى العراق .

ــ ربما ، فمنعهم من ذلك هو اجحاف بحقوقهم الانسانية ، فأنا ان قلت في اسرائيل او اي مكان اخر ان لكل فلسطيني حق العودة الى مسقط رأسه ، فيجب ان يطبق المثل على اليهودي العراقي . فاذا كانت بغداد مسقط رأسه ، فيجب ان يكون له الحق الكامل بالعودة اليها ان رغب في ذلك . وهذا ، بالمناسبة ، موضوع يرد في جميع لقاءاتي مع اليهود الشرقيين . فهم يقولون لي : « حسنا » ، انت ترغب بعودة الفلسطينيين الى يافا . فلم لا يمنح لنا حقا مماثلا بالرجوع الى بغداد اذا ما رغبنا الرجوع ؟ وبالفعل ، يجب ان يكون لليهود العراقيين هذا الحق .

ــ ولكنهم يقولون ذلك حتما من باب الجدل فقط .

ــ قد تعود اقلية ضئيلة في تقديري . وما يلي ذلك سيعتمد على وضعية الافراد العائدين .

ــ ولكن بالتاكيد ، ليس بالامكان تطبيق القانون نفسه على الحالتين . فنحن بصدد طرد شعب برمته عندما نتحدث عن الفلسطينيين . اما عندما نتحدث عن مواطنين يهود في العراق او تونس او المغرب فنحن بصدد افراد .

ــ لا اوافقك الرأي . اظن انه بالامكان تطبيق هذا القانون على الحالتين . فالشعوب مؤلفة من افراد ، وللافراد الافضلية ، فانا شخصيا ، اعطي الافراد اسبقية بالرغم من تفرغي للحقوق القومية . وأحد الامور الايجابية التي يمكن للفلسطينيين والحركة الفلسطينية القيام بها لاقناع الاسرائيليين [بحسن نواياهم تجاه اليهود] هي الاجهار بدون تحفظ بانهم يدعمون حقوق اليهود الشخصية والبرهان عن ذلك باقتناع اخوانهم العراقيين بوجهة نظرهم .

ــ ولكن هدف الفلسطينيين النهائي ، وقد يكون ذلك هدفا مثاليا ، يتلخص في ان الحل الوحيد للمشكلة الفلسطينية يتمثل في اقامة دولة علمانية ، دولة مقصورة على فئة مصطفاة ...

ــ انا لا اتحدث عن هذا الجانب . هنالك صلات وثيقة بين القيادة الفلسطينية والاوساط العراقية . وعلى القادة الفلسطينيين ان يصرحوا علنا اثناء زياراتهم العديدة لبغداد : كما ان للفرد الفلسطيني حقوقه الوطنية التي تشمل حقه في

العودة الى مسقط رأسه ، كذلك الفرد اليهودي، وانتم في نظرنا ، مخطئين لمنعكم اليهود من العودة الى بغداد او البصرة اذا ما رغبوا في ذلك .

● انني غير متاكد قط مما اذا كان اي يهودي اسرائيلي قد قدم فعلا طلبا للرجوع الى العراق ورد طلبه .

— اولا ، لا يمكن لليهودي الاسرائيلي ان يقدم طلبا بهذا الخصوص لان تبعيته العراقية الغيت . فهو اجنبي [بالنسبة للحكومة العراقية] . وكما ترى ، يعني ذلك ان الحكومة العراقية قد عاملت الاسرائيلي اليهودي تماما كما تعامل الحكومة الاسرائيلية الفلسطينيين . فاذا اراد فلسطيني ان يعود الى يافا ، نوضعه القانوني شبيه بوضع اي اجنبي — صيني في بكين ، مثلا والمثل يسري على يهودي من بغداد. فاذا تاق فرد يهودي لاسباب عاطفية وانسانية ، وبغض النظر عما اذا كان يسكن في اسرائيل او فرنسا ، للعودة الى بغداد لانه ولد فيها ، فيجب ان يمنح هذا الحق غير ان تبعيته الاسرائيلية تلغي حقه في العودة لان الفلسطينيين في حالة حرب مع اسرائيل .

— حسنا ، هذا يسري على الفلسطينيين ايضا.

● لكن الفلسطينيين يحاربون من اجل حقوقهم القومية . لذلك ، يتردد الفلسطينيون في اعتناق جنسيات الدول المضيفة .

— وفي رايي ، يجب ان تراعى حقوقهم هذه لكن من الضروري ان نتذكر انه اذا لم يتخذ الفلسطينيون هذا الموقف بالنسبة لحقوق اليهود الشخصية في الدول العربية ، فسيكون المجال لتاليف جبهة مشتركة من اليهود والفلسطينيين ضيقا . فعلى الفلسطينيين ، بغض النظر عن العمل السياسي ، ان يفكروا في المستقبل . ويستوجب ذلك القيام بتحركات على غرار الاقتراحات التي طرحتها . وهذه ليست اعمال طوباوية . انها ستساعد على بناء المستقبل .

● قد يكون هذا موضع بحث بين الفلسطينيين في مختلف الاقطار الان . فنحن لا نعلم ...

— يجب ان يكون ذلك علنيا . فالمداولات السرية لا معنى لها .

ولننتقل الان الى فلسطين الديمقراطية العلمانية. بالامكان تصور عدة خيارات بهذا الصدد . بالنسبة للفلسطينيين الذين يهمهم اقامة دولة موحدة علمانية ديمقراطية ، على هؤلاء اقناع اليهود في اسرائيل بان يضعوا دستورا وان يجيبوا على اسئلة معينة تتعلق بالاسس التي ترتكز عليها دولتهم . لنفترض بان موافقتي على هذه الدولة او عدمها مرهونة بسؤال بسيط : هل ستكون هناك لغة واحدة او لغتان ؟ او ثلاث لغات ، كما هو الامر في لبنان او سويسرا .

— حسنا ، انا اقول بان حتى هذه الفكرة ستثير اهتماما كبيرا ولو بين اقلية صغيرة في اسرائيل . وذلك ليس اذا طرحت لتصريح منفرد ولكن اذا طرحت كصيغة من صيغ الدستور المقترح وطبعا ، ان الدستور [الموضوع] خارج البلاد لا يمكن ان يعتبر بديلا للدستور الحقيقي . ولكن على الفلسطينيين ان يقدموا ، على الاقل، اقتراحات محددة عن تركيب الدولة الفلسطينية ، كما عليهم ان يتناولوا موضوع اللغات وموضوع فصل الدين عن التعليم . فهذه الامور تؤثر على حياة الافراد . فعندما يتناول الفلسطينيون هذه الامور عندها نستطيع ان ندخل معهم في حوار فعلي حول برنامجهم .

● لقد اظهر الفلسطينيون قبولا بهذا الصدد بينما لم يكن هنالك تجاوب من الجانب الاسرائيلي.

— يوجد تجاوب من قبل أقلية من الاسرائيليين امثالي . فاذا اعطيك جوابا : ليكتب كاتب او قارىء فلسطيني مقالا في « شؤون فلسطينية » يحدد فيه بكلمات قليلة ، بثلاث صفحات ، تركيب الدولة الفلسطينية العلمانية .

● لقد سبق للدكتور يوسف صايغ ان غطى هذا الموضوع في محاضرة القاها هنا قبل ثلاث سنوات.

— لقد قرأت هذه المحاضرة بامعان . وهي لا تحتوي على اجوبة لاسئلة محددة .

— غير ان الاسئلة المحددة تتطلب وقتا لصياغتها ومعالجتها .

— كلا ، ان العمل السياسي البناء يستوجب طرح اقتراحات في هذه المرحلة ، لان من شأن الاقتراحات ان تؤثر على الاشخاص . فالكثيرون، ومنهم انا ، يخشون ان يمنع التعليم العبري في الدولة الفلسطينية الموحدة . وانا منصرف للعبرية .

● لم يخاف الناس ذلك ؟ اذا نص الدستور على ان ...

ــ يذكر الدكتور صايغ شيئا من هذا القبيل.

ــ ليس بالامكان استباق الامور .

ــ على المرء ان يستبق الامور في السياسة . فبالامكان التأثير على الاشخاص بواسطة استباق الامور والاعلان عما يقاتل الفلسطينيون من اجله. وما يهمني بوجه التحديد ناحيتان من الدولة الفلسطينية الموحدة . اولا ، انا اؤيد فصل الدين عن الدولة في اية دولة اقيم فيها ، كما هو الامر في الولايات المتحدة ودول اخرى عديدة . ثانيا ، يجب ان لا يكون هنالك دعم مادي قط لاي طائفة دينية كانت . ويجب عدم خلط الدين مع السياسة. ولا يوجد في الشرق الاوسط الان بلد واحد قائم على هذا الاساس [اي فصل الدين عن الدولة]. فاذا كان في نية الفلسطينيين ان يفصلوا بين الدين والدولة فعليهم ان يعلنوا عن ذلك . كما انني اؤيد حرية التعبير في الامور الدينية في دولة علمانية كهذه . غير اني لم انس المتاعب التي لاقاها صادق العظم من جراء كتابه عن الاسلام .وبالرغم من ان هذا الكتاب نشر اخيرا سأخبرك بأمر قد يهم الفلسطينيين : فعندما وصل الكتاب الى القدس حيث اقيم ووزع على المكتبات ، كتب احد رجال الدين ، وهو مفتي يدعى الشيخ محتسب ، رسالة الى السلطات الاسرائيلية للمرة الاولى طالبا منها ان تمنع هذا الكتاب . [وجدير بالذكر] انه ليس للشيخ المحتسب صلات مع السلطات الاسرائيلية في الاحوال العادية . الا انه لم يفلح في منع الكتاب . ولكن الجعبري ، في الخليل ، افلح في ذلك اذ ان الكتاب منع هناك . وانا اريد الفلسطينيين ان يعلنوا للملأ ، بانه ستكون للاشخاص الحرية التامة لانتقاء اي دين من الاديان في الدولة العلمانية الموحدة ، وذلك من اجل التأثير على شعبي . كما انني اريد الفلسطينيين ان يعلنوا بان الدين سيكون منفصلا عن الدولة . ليس هذا فحسب ، بل سيكون في استطاعة اي فرد ان يقول : هذا الجانب من اليهودية او الاسلام او المسيحية غير مرض . وهذا مهم جدا بالنسبة للشرق الاوسط .

● انه [حقا] امر في غاية الاهمية ، وفي بعض الاحيان في غاية الصعوبة . اوروبيا لناخذ مثلا تاثير الكنيسة الكاثوليكية على السياسة في ايطاليا: فمن الصعب فصل الاثنين حتى في يومنا هذا . اما في اسبانيا ، فالامر اسوأ . وهذان بلدان اوروبيان . وانا ، بالطبع اوافقك الرأي . وانا واثق من ان معظم المفكرين الفلسطينيين والعرب يوافقون معك ايضا . وبالرغم من ان الصورة غير مطابقة كليا للتصور الذي طرحته ، فان الوضع في لبنان ، حيث يتعايش المسيحيون والمسلمون في تآلف ووئام وحيث يهيمن التفكير الديمقراطي ، اقرب ما يكون للتصور الذي طرحته (بفتح التاء) .

● ولكن عليك ان تضع قدوة حديثة ، ثورية ملهمة (بكسر الهاء) نصب اعين الناس . وأخشى ان الوضع في لبنان (ولن اخوض في التفاصيل) لا يعكس تجربة ملهمة للشباب الاسرائيليين المفكرين والمتفانين ، ولا حتى الفلسطينيين ، تدفعهم الى التضحية والمحاربة من اجل اقامة دولة مماثلة . لقد لفتت عدة أمور في لبنان انتباهي ، بما فيها معاملة الجالية اليهودية هناك . وانا طالما اردد أمام اليهود في اسرائيل وخارجها : راقبوا معاملة اللبنانيين لافراد جاليتهم اليهودية فهي أفضل بكثير من معاملتنا للفلسطينيين في اسرائيل ، ناهيك في الاراضي المحتلة . ولكن ليس في مقدوري ان احث اي شاب من اجل اقامة [بلد مشابه] للبنان على ارض فلسطين . فعلينا ان نقدم مثلا افضل .

ــ سؤال اخير ، دكتور شاحاك ، هل تدهورت اوضاع الفلسطينيين المتعلقة بحقوقهم الانسانية والمدنية منذ حرب تشرين الاول (اوكتوبر) ؟

● لقد ساءت اوضاع الفلسطينيين جدا في الاراضي المحتلة وخصوصا في الضفة الغربية . فهنالك أحياء لاعمال العنف وحملة اعتقالات واسعة النطاق . ففي غضون اسبوع واحد في نابلس وحدها ، اعتقل حوالي ٥٥٠ شخصا ، معظمهم من الذكور الشبان ، وأودعوا السجن . كما ان هنالك احتجاجات شديدة ومشروعة بالنسبة للتعذيب والضرب . وهذا مرتبط بما قلته سابقا : فأنتم لا تعملون الكفاية يوميا من اجل مساعدة اخوانكم في الارض المحتلة . وهذه ، حقا غلطتكم . فان بامكانكم ان تحققوا نتائج أفضل اذا ما لجأتم الى طرق عملية يوما بعد يوم .

– لنفترض ان الفلسطينيين لجأوا الى هـذه السبل واطلعوا الرأي العام العالمي على مـا يجري ، هل تعتقد ان ذلك سيسبب تغييرا في الرأي العام العالمي ضد اسرائيل ؟

● نعم ، واكثر من ذلك ، سيخفف ذلك عن الفلسطينيين الذين يعانون [من الاوضـاع القائمة في الارض المحتلة] . وقد لا ينجح الفلسطينيون في ايقـاف عمليات نسـف البيوت والقاء الناس في الشوارع ، غير ان اولئك الذين يسمعون عبـر الاثير بأن اخوانهم عرفوا ذاك المساء او في اليوم التالي ما حل بهم وانهم احتجوا بسبب بيقـي وظروفي فسيشعرون حالا بالراحة حتى ولو كانوا في خيمة او خنـدق آنذاك . ان مـن واجبكم ان تواسوهم من وجهة نظر انسانية . وهذا بحـد ذاته مساعدة لهم .

– قد تستثنى اخبار المظاهرات مـن الصحف العبرية لو قامت تلك المظاهرات .

● الامر ليس محصورا بالصحافة العبرية . انا على اتصال تليفوني مع لندن ، وسأخبرهم . كما ان هنالك عدة محطات اذاعية في الشرق الاوسط . فعلى محطات الاذاعات العربية ان تنقل هذه الانباء ولا بد ان يسمعها المعنيون بالامر . وقد تنقـل الاذاعات العبرية انباء هذه المظاهرات ايضا. ولكن لا يوجد عدد كبير من المظاهرات . انا احس بذلك وهم ايضا يشعرون به . كما ان الجميع يشعرون بأن التحركات قليلة في هذا المجال . اذ ان فلسطيني واحد او مظاهرة مستمرة امام مبنى الامم المتحدة ترافقها تفصيلات عن كل عمل قمعي جديد [تقوم به السلطات الاسرائيلية] من شأنها ان تحقق شيئا ما . وسأعطيك مثلا عن النتائج الفعلية التي يمكن أن يؤدي اليها ذلك : عندما اغلقت كليـة بيرزيت في رام الله ! احتج الكثير من الافراد ، وأنا منهم ، لدى الامم المتحدة ، كما كتب العرب في الولايات المتحـدة رسائل الى اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي بهذا الصدد ، فأثاروا ضجـة كبيرة حول الموضوع . وبعد اربعـة او خمسة اسابيع أعيد فتح الكلية . وهي لا تزال قائمة . وأؤكد لك بأن اعادة فتح الكلية لم يكن راجعا لحسن نوايا الاسرائيليين بل كان مرده الضغط . اذن ، بالامكان تحقيق شيء ما ، كما ترى .

– الضغط يحقق نتائج معينة . اني اعلم بانك مرتبط بموعد سابق فهل لي بسؤال اخير ؟ ما هو انطباعك الشامل عن الوضع الراهن في الشرق الاوسط ؟ هل انت متفائل بالنسبة للمستقبل ؟

● بالنسبة للمستقبل القريب ، كلا . اما بالنسبة لفترة تتراوح بين الخمس سنوات والخمس عشرة سنة فان تفاؤلي كبير جدا . كما انني متفائل جدا بأنه ستتم تسوية حقيقية بين الفلسطينيين واليهود وكذلك بأن اوضـاع الجاليات اليهودية في البلدان العربية ستتحسن .

– ولكن في الوقت الحاضر ، من الصعب جدا ان نتنبأ بما قد يحدث .

● ليس في امكاننا التنبؤ الان . غير ان ذلك سيتم حتما . وهذا هو ما اعمل من اجله . فانا مقتنع تماما وبامكان الفلسطينيين ان يتعاونوا في الطريقة التي ذكرتها .

– والآخرون كذلك ؟

● والآخرون كذلك .

– شكرا جزيلا .

تقرير خاص :
اجهزة الامن وادوات القمع في الاردن

م٠س٠

تلقت « شؤون فلسطينية » هذا التقرير الخاص من محرر قضى في معتقلات الاردن فترة من الزمن .

لم يعتمد النظام الهاشمي على الجيش فقط كأداة لتنفيذ السياسة الاستعمارية في المنطقة وقمع الحركة الوطنية في الاردن ، بل اعتمد ايضا وبالدرجة نفسها على اجهزة امن متقدمة ، اشرف على تأسيسها وتطويرها ، خبراء أمن بريطانيون ثم امريكيون ، وحشد لها الكثير من الكفاءات التي تدربت بشكل خاص على يد المخابرات المركزية الاميركية .ويمكن القول ، انه منذ مطلع الستينات، وفي ضوء تعاظم الدور الاميركي في الاردن ، فقد جرى تطوير اجهزة الامن الاردنية بشكل يجعلها قادرة على مواجهة الحركة الوطنية الاردنية وملاحقة نشاطاتها ومجالات عملها المختلفة ، وليس هذا فقط ، بل ان تكون قادرة على تلبية الحاجات الامنية لبلدان عربية اخرى ، فالاردن الان ، يشكل مركزا لتصدير الخبرات والتجارب في مواجهة وقمع الحركات الوطنية الى العديد من البلدان ، وبشكل خاص بلدان الخليج العربي .

وحيث ان ما يجري داخل هذه الاجهزة يخضع لسرية مطلقة ، مما يجعل من الصعوبة بمكان التعرف بدقة على ما يجري داخلها ، الا انه على ضوء معرفتي الشخصية يمكن ايراد بعض المعلومات عنها ، وان كانت ذات طابع عام .

تتكون اجهزة الامن الاردنية من عدة اجهزة ، تتفاوت في ادوارها ، ومهام كل جهاز منها ، كما تتفاوت في اهميتها ، ومدى اعتماد « النظام » — أمنيا عليها وهذه الاجهزة هي :

١ — المخابرات العامة :

وهي من أقوى اجهزة الامن واهمها في الاردن، ويعتمد عليها النظام في معرفة الاوضاع الداخلية ، حيث ترفع تقريرا يوميا الى القصر عن الحالة الامنية في البلد ، كما انها ترفع للقصر بين فترة واخرى وعلى ضوء الظروف ، تقارير بتقديراتها السياسية للاوضاع بشكل هام ، وتلعب هذه التقارير دورا في تقرير سياسة النظام الداخلية والخارجية — الى حد ما — . والمخابرات العامة هي التي تحكم البلد في كثير من الاحيان ، وتزداد اهميتها ودورها في ضوء الحالة الامنية السائدة في البلد ، فكلما اضطرب الامن ، يكبر دورها وتأثيرها ، وهي تتمتع بصلاحيات مطلقة من حيث الاعتقال ووضع القيود على المواطنين « السفر والعمل .. الخ » وفي مرحلة ما بعد ايلول سنة ٧٠ الى الان ، شكلت اقوى مركز قوة داخل النظام ، بحيث ان مدير المخابرات العامة كان كأنه الملك غير المتوج ، بالاضافة الى ذلك فان ضباطها يتمتعون بوضع اقتصادي واجتماعي متميزين ، حيث ان ضباط المخابرات العامة يتمتعون بامتيازات اقتصادية واجتماعية كبيرة ، تفوق ما يتمتع به الضابط العادي في الجيش الاردني .

تتبع المخابرات العامة — رسميا — قيادة الجيش ، حيث ان العاملين فيها يحملون رتبا عسكرية الا انها من الناحية العملية ، مستقلة عن قيادة الجيش ، وتتبع القصر مباشرة ، اما

من خلال مستشار الملك لشؤون الامن القومي ، او من خلال الملك مباشرة .

يقع المبنى الرئيسي للمخابرات العامة في منطقة العبدلي ، حيث تحيط بها الثكنات العسكرية من اكثر من جهة ، ويشرف على حراستها المباشرة سرية من الجيش مزودة بقوة ضاربة من رشاشات ال ٥٠٠ والسيارات المصفحة ، اضافة الى الحراسات غير المباشرة . ويلاصق المبنى الرئيسي دارا للتحقيق تتألف من طابقين الاول من ٨ زنازن، متفاوتة في حجمها اصغرها بعرض ١٦٠ سم وطول ٢٤٠ سم ، وهذه الزنازن الصغيرة بدون «طلاقات» خارجية ، بل مجرد فتحة صغيرة في الباب الحديدي تكون مغلقة طول الوقت، وتستخدم هذه الزنازن الصغيرة للحبس الانفرادي . اما الطابق العلوي، فيتألف من ثلاث غرف للتحقيق ، تتوسطها ساحة للتعذيب ،اضافة الى اربع زنازن اخرى ، وجدران الغرف والساحة مبطنة بعازل للصوت . بالاضافة الى هذه الزنازن ، توجد ١٢ زنزانة اخرى في الطابق الارضي للمبنى الرئيسي ، وهي اكثر اتساعا وافضل تهوية من الاولى ، كذلك توجد ١٢ زنزانة اخرى في قبو تحت الارض في الساحة المقابلة للمبنى الرئيسي ، وهذه الزنازن عبارة عن صف طويل واحد ، جدرانها الامامية المواجهة للممر عبارة عن حديد مشبك من اجل التهوية ، حيث انها بدون شبابيك داخلية ولا تدخلها الشمس اطلاقا .

تعتبر الزنازن الموجودة بدار التحقيق ، من اقسى الزنازن ، فهي مصممة بطريقة تبعث على الرهبة والكآبة والضيق ، فجدرانها الداخلية ذات نتوءات ولونها كاتم ، اضافة الى ان كل زنزانة لها باب حديدي سميك عليه قفلان ، وقسوتها ناتجة عن ملاصقتها لساحة التعذيب ، فقاطنها لا يشعر بأدنى درجة من الراحة ، ذلك ان اصوات المطارق والعصي وانات المعذبين وصراخهم ، تملأ اذنيه ليل نهار ، واطلق بعض المعتقلين على الزنازن القريبة جدا من الساحة اسم « زنازن الموت » . بالاضافة الى هذا المبنى الرئيسي ، فانه يوجد مركز للمخابرات العامة في كل لواء ، يشرف عليه ضابط من المخابرات برتبة رئيس او رائد .

الحياة داخل زنازن المخابرات : تعتبر الفترة التي يقضيها المعتقل داخل هذه الزنازن ، من أقسى الفترات . اذ الزيارات ممنوعة ، بالاضافة الى انه يحرم من الحمام حتى ولو امتد وجوده اشهرا ، وتخضع لنظام صارم وقاس ، وفي كثير من الاحيان كان المعتقلون داخل الزنزانة نفسها يمنعون من الكلام مع بعضهم ، اضافة الى ذلك ، فانها كانت مكتظة بشكل كبير ، وذلك لكثرة عدد المعتقلين ، لدرجة ان الزنزانة التي لا تتسع لاكثر من اثنين او ثلاثة ، كان يتواجد بها باستمرار ما بين ٨ — ١٠ ، ان كثرة الرطوبة نتيجة عدم وجود الشمس بالاضافة الى هذا الاكتظاظ ، كان يسمح بانتشار القمل بكثرة ، وغالبا ما يؤدي الى اصابة المعتقلين بامراض الرئة ، ولا سيما الذين يمكثون اشهرا طويلة ، كذلك فان التدخين ممنوع ، الا بعد مضي فترة من التحقيق ، وباذن من المحقق نفسه ، حيث يسمح بعدها للمعتقل بعلبة دخان في اليوم ، وعلى حسابه .

محمد رسول ينظم المخابرات العامة : ان تنظيم المخابرات الحالي ، وتنظيم اسلوب عملها ، يعود بشكل رئيسي الى محمد رسول الكيلاني ، الذي اشرف عليها منذ البداية ، بعد ان كانت تعرف باسم المباحث العامة ، لقد اتجه محمد رسول الى اختيار مجموعات من الضباط المثقفين وخريجي الجامعات ليشكلوا هيئة التحقيق الاساسية ، ومن الضباط الاوائل الذين ساهموا معه في تنظيمها طارق علاء الدين ، احمد عبيدات ، ورجائي الدجاني ، وكل منهم الان برتبة عقيد ، كذلك فقد نظم محمد رسول في سلك المخابرات بعض ضعاف النفوس من المتساقطين من الحركة الوطنية .

لقد ادخل محمد رسول ، اسلوب التنظيم الاميركي الى المخابرات العامة ، فسياسته لا تقوم على القهر فقط ، ولكن على الترغيب المادي والافساد السياسي للوطنيين بشراء ضعاف النفوس منهم وتجنيدهم معه ، وله اسلوب خاص ومميز في مواجهة القوى الوطنية ، فهو يركز على جمع المعلومات عن نشاطات القوى الوطنية ومجالات عملها والاشخاص الفاعلين فيها، وفي هذه الناحية، فانه يستخدم بشكل واضح اسلوب زرع العملاء وشراء ضعاف النفوس في صفوف الحركة الوطنية، بالاضافة الى ذلك ، فانه يعتمد على الدراسة

الشخصية للقيادات والعناصر الفاعلة في الحركات الوطنية ، ولذا ، فانه يحرص باستمرار على عقد لقاءات او جلسات مطولة معهم عند اعتقالهم ، يتبادل خلالها احاديث متنوعة ، والهدف من ذلك، هو دراسة مباشرة لنمط وطبيعة تفكيرهم ، ولكي يخرج بتقييم عام عن طبيعة شخصية كل واحد فيهم ، والدور الذي يمكن ان يلعبه في الحركة الوطنية ، ثم استكشاف الثغرات الممكنة فيهم لاستخدامها ضدهم في التحقيق ، ولذلك فهو يحرص في هذه اللقاءات ان تتم ضمن جو من الشعور بالحرية النسبية في الحديث المتبادل ، وهذا ستار يستخدم في الحصول على بعض المعلومات احيانا. ان محمد رسول يعتبر من اخطر ضباط المخابرات في الاردن ، وان المظهر اللين الذي يبديه احيانا، يخفي وراءه شخصية عنيفة وعنيدة ، والذين لا يعرفونه ينخدعون بمظهره اللين هذا .

بعض اقسام المخابرات العامة : تتألف المخابرات العامة من عدة اقسام ، اهمها :

أ ــ القسم السياسي والامن الخارجي ، ومسؤول عنه مباشرة ، العقيد احمد عبيدات ، وهو المساعد الاول لمدير المخابرات العامة . ب ــ قسم التحقيقات والامن الداخلي ، ومسؤول عنه مباشرة العقيد طارق علاء الدين ، وهو مساعد لمدير المخابرات العامة . ج ــ قسم اسرائيل والتجسس ، ومسؤول عنه العقيد رجائي الدجاني د ــ قسم الاجانب ومسؤول عنه العقيد عصمت ابو السعود .

ويعتبر قسم التحقيقات والامن الداخلي من الاقسام الهامة جدا ومن اكبرها ، ومهمته متابعة نشاط القوى الوطنية في الاردن ، والاشراف على التحقيق معها ، وحيث ان الحركة الوطنية تتكون من العديد من القوى والمنظمات ، فقد نظم القسم، على هذا الاساس ، بتقسيمه الى شعب ، كل شعبة تشرف على مجال محدد ، اي انه يقوم على مبدأ التخصص . ويمكن رسم هيكل مبسط لهذه الشعب على الشكل التالي :

مسؤول قسم التحقيقات
وهو مساعد المدير

شعبة « فتح » والمنظمات الصغيرة القريبة منها	شعبة المنظمات المتفرعة عن حركة القوميين العرب	شعبة المنظمات المتفرعة عن حزب البعث العربي	قوات الانصار والشيوعيون

التنسيق مع الفروع في الالوية

٢ ــ الاستخبارات العسكرية :

تأتي في الدرجة الثانية من حيث الاهمية بعد المخابرات العامة، مهمتها مراقبة ومتابعة النشاطات الوطنية داخل الجيش ، ولا تتدخل في القضايا السياسية للمدنيين الا اذا كانت متعلقة بنشاطات داخل الجيش. يجري التنسيق بينها وبين المخابرات العامة في الكثير من الحالات ، وهي تشرف على سجن الزرقاء العسكري ، لعبت دورا كبيرا في قمع الوطنيين من افراد الجيش الاردني بعد معارك ايلول ١٩٧٠ .

٣ ــ الامن الوقائي او المكتب الخاص :

انشىء هذا الجهاز بعد حوادث ايلول ١٩٧٠ ، ليكون بمثابة مكتب تنسيق بين المخابرات العامة والامن العام ، وهو باشراف ضباط من الامن العام ، الا ان هذا الجهاز تجاوز مهمته المحددة ، وتحول الى جهاز قمع قائم بذاته ، حيث أوجد له مجموعة من مكاتب التعقيب في كل احياء عمان وبعض المدن الاردنية الاخرى وبشكل خاص اربد ، بحيث اصبح يقف منافسا للمخابرات العامة .

لقد كان هذا الجهاز من أشرس اجهزة الامن في

تعذيب المناضلين ، فكان يمعن في تعذيبهم وبأساليب وحشية جدا ، ولم يكن من صلاحيته الاحتفاظ بمن يعتقلهم لفترة طويلة او تحويلهم للمحاكمة او السجن ، بل كان يحولهم الى المخابرات العامة لاستكمال التحقيق معهم .

٤ ــ الامن العام :

أنشىء جهاز الامن العام منذ أن تأسست أمارة شرق الاردن ، وكان تابعا منذ تأسيسه لقيادة الجيش ، ولم يجر فصله عنها والحاقه بوزارة الداخلية الا في العام ١٩٥٦ .

ان مهمة الامن العام في الاردن ، هي مهمة قمعية ، ويشكل احد اجهزة القمع الرئيسية . ولقد جرى تطويره منذ تأسيسه على أساس ان يكون أداة قمع وارهاب للوطنيين ولكل الجماهير ، وبعد معارك أيلول ١٩٧٠ ، جرى تدعيمه بتحويل عدة وحدات من الجيش اليه ، عرفت باسم لواء الامن العام ، وقد اختير أفراد هذا اللواء من العناصر الحاقدة والمشبعة بالحقد على الجماهير وحركة المقاومة الفلسطينية ، ودربوا تدريبا خاصا، وزودوا بسيارات للمطاردة مزودة برشاشات ٥٠٠ و١٠٠٦ ، كما زود معظم افراده ببنادق ام ١٦ الامريكية . لقد كانت مهمة هذا اللواء ، التحرش بالمواطنين واهانتهم ، حيث انه اشغل عدة مخافر افتتحت بعد حوادث أيلول في كل الاحياء ، كما ان افراده كانوا يقومون بمهمة الدوريات الراكبة في شوارع عمان ، بالاضافة الى اشرافهم على نقاط التفتيش المتعددة التي اقيمت على مداخل الاحياء وفي داخلها . كما قام أفراد هذا اللواء مع قوى الامن العام الاخرى بممارسة ابشع انواع التعذيب ضد المعتقلين . لقد تم تطوير جهاز الامن العام ، خلال السنوات الاخيرة ، بتقوية قواه القمعية ، حيث زود بمعدات حديثة ومتطورة لمقاومة الاضطرابات والتظاهرات ، كما زود بسيارات مصفحة و« سكاوتات » مزودة برشاشات متوسطة، من أجل أعمال المطاردة ، بالاضافة الى ذلك فقد جرى تطوير اجهزته المختلفة وافراده العاملين في التعقيب وجمع المعلومات . وعلى الرغم من وجود العديد من العناصر البدوية في الامن العام ، وبشكل خاص في لواء الامن العام ، فان الغالب عليه هو ابناء الريف والمدن ، وهذا يجعله اكثر عرضة للتأثيرات الوطنية من اي جهاز آخر ، ومن هذه الزاوية بالذات ، فان السلطة الاردنية لا تعتمد عليه كثيرا في حفظ الامن ، بقدر اعتمادها على الاجهزة الاخرى والمضمونة الولاء ، ولذلك فان السلطة تعمد منذ فترة الى تطعيمه بعناصر بدوية ، ليكون اكثر ضمانة واقل اهتزازا .

٥ ــ قوات خاصة للقمع :

وتعتبر بمثابة أداة ضاربة بيد النظام في فترات الاضطرابات السياسية ، وتتألف من « **قوات البادية** » وهي بمثابة القوة الضاربة الاولى بيد النظام استخدمها باستمرار لقمع الجماهير ، وقمع انتفاضاتها الوطنية . ثم « **القوات الخاصة** » وهي قوات استحدثت قبل معارك ايلول ، وتضخم عددها بعدها ، ويجري توسيعها الان بشكل كبير تحت ستار انها قوات صاعقة ، لتشكل أداة القمع الرئيسية بيد النظام ، ذلك ان عناصرها تنتقى من العناصر المضمونة الولاء والمشبعة بالحقد ، وتدرب تدريبات خاصة ، لقد كان معظم الجنود الذين يقومون بتعذيب وجلد الوطنيين في المخابرات العامة من أفراد هذه القوات ، حيث يجري هناك تغذيتهم بالسادية والحقد على كل الوطنيين .

أجهزة الامن واساليبها في مواجهة الحركة الوطنية:

منذ أن وجد النظام الهاشمي في الاردن ، وهو يعيش في حالة صراع دائم مع القوى الوطنية ، وتاريخ الاردن المعاصر ، هو تاريخ هذا النظام الهاشمي في اضطهاد وقمع الوطنيين والتقدميين ، ولقد ازداد دور النظام القمعي ، ودور اجهزة أمنه ، بعد الحاق الضفة الغربية من فلسطين به ، حيث ان وجود الوطنيين الفلسطينيين جنبا الى جنب مع الوطنيين الاردنيين ، زاد من قوة الحركة الوطنية وقدرتها على مواجهته ، اضافة الى ان وجود قسم كبير من الشعب الفلسطيني تحت سيطرته ، قد ألقى عليه مهمة اخرى ، وهي قمع هؤلاء الناس ، ومنعهم من النضال في سبيل استرداد وطنهم المغتصب . كل ذلك دفع «بالنظام» والقوى الامبريالية التي تدعمه ، الى تطوير اجهزة الامن لتكون بمستوى هذه المهمة .. وليس ذلك فقط بل تطوير اساليبه ووسائله في مواجهة الحركة الوطنية النامية ، فبالاضافة الى اعتماده على التفريق بين فلسطيني واردني ، وتغذية النعرة الاقليمية لخلق شرخ في الحركة الوطنية ، فانه

اعتمد اساليب عديدة اخرى للتضييق على القوى الوطنية وشل فعالياتها وقمعهـا ، ومن هـذه الاساليب :

١ — التضييق الشديد على الحريات العامة للمواطنين ، ووضع الكثير من القيود على حريتهم في التنقل والعمل ... الخ . ان من عاش فترة من الزمـن في الاردن ، يلمس الدور الذي تلعبه المخابرات العامة في التضييق على الحريات العامة للمواطنين ، فالامر لا يقتصر على مراقبة المطبوعات ووسائل النشر من صحافة وغيرها، ومنع ومصادرة الكتب التي يشتم انهـا مخالفة لسياسة النظـام بل يتعداه الى اكثر من ذلك بكثير ، حيث تتدخل اجهزة الامن في كل صغيرة وكبيرة مـن شـؤون المواطنين ، وحتى العادية منها . ولقد مرت فترة على الاردن ، كانت الراديوات تصادر ويعتقل أصحابها ، لانهم يستمعون الى اذاعات معينة لا يريد النظام الاستماع اليها . وكان من المناظر المألوفة ان تجد اعدادا كبيرة من الراديوات في اي مخفر شرطة .

ان التدخل في حياة المواطنين يشمل كل الامور ، فهناك قيود على السفر خارج الاردن ، حيث انه لم يكن يسمح لاي مواطن بالسفر الا بتصريح رسمي من المخابرات العامة ، وبالرغم من ان هذا الاجراء الغي في العام الماضي ، الا ان الغاءه كان شكليا ، ذلك ان قوائم الممنوعين من السفر والمطلوبين لاجهزة الامن تملأ أدراج نقاط الحدود .

ان القيود ليست فقط على السفر ، بل هناك مضايقات كثيرة على حرية المواطنين في التنقل داخل الاردن نفسه ، سواء في المدينة نفسها ، او بين مدينة واخرى ، فعلى مدخل كل حي نقطة تفتيش ، وعلى مدخل كل مدينة او قرية نقطة تفتيش ، وعلى مفارق الطرق نقاط تفتيش . وهذه النقاط لا تبحث عن الهويات والمطلوبين فقط ، ولكن تمارس بعض هواياتها في اذلال المواطنـين وشتمهم وامتهـان كرامتهم . ان من اخطر هذه القيود ، هي القيود على العمل ، حيث انه لا يسمح لاي مواطن بالعمل في أي مؤسسة حكومية كانت ام خاصة الا باذن من المخابرات العامة ، فعلى كل مؤسسة او مصنع او شركة أن ترسل اسماء من تريد استخدامهم الى المخابرات العامة ، لتنظر في الامر ، وغالبا مـا تستدعي المخابرات اصحاب الاسمـاء المرسلة ، لتحقق معهم ، وتمارس عليهم بعض الضغوطات . ان هذا الاسلوب يقصد منه الضغط على المواطنين وتهديدهم في عملهم واشعارهم ان كسب رزقهـم وقوت أولادهم مرهـون برضاء المخابرات عنهم ، وانهم عرضة للفصل لدى اي بادرة لا تنم عـن سلوك حسن !! ، ومـن البديهي ان تحـرم المخابرات من العمل أي انسان له علاقة بالعمل الوطني ، ومؤخرا صدر تعميم يؤكد على منع اي مواطن كان له علاقة بالعمل الوطني من العمل في وزارة التربية والتعليم او مؤسسة الاذاعـة او التليفزيون . ان منع العمل لا يقتصر في بعـض الحالات على الشخص المعني ، بل يشمل بعض اقاربه ومعارفه ، والقصد من ذلك فرض نوع من العزلة الاجتماعية على أي مواطن له اهتمامات وطنية .

ولا يقف الامر عند هذا الحد فقط ، بل تمارس المخابرات العامة القيود نفسها علـى المعاملات الرسمية للمواطنين ، فان الحصول على جـواز سفر او شهادة حسـن سلوك لا يتم الا بعـد الاستدعاء للمخابرات العامة لاكثر مـن مـرة ، والتحقيق مع صاحب الطلب .

ان الهدف من كل هذه القيود هي ربط المواطنين بعجلة المخابرات العامة ، بكل شؤونهم الحياتية ، وتهديدهم — باستمرار — بسيف المخابرات المسلط فوق رؤوسهم ، وبالتالي التأثير على اتجاهاتهم السياسية ، وعلى علاقاتهم بالحركة الوطنية .

٢ — التغلغل وزرع العمـلاء داخل الحركات الوطنية : يعتبر هذا الاسلوب من أخطر الاساليب وأكثرها تأثيرا على الحركة الوطنية ، حيث ان نجاح المخابرات العامة في زرع عميل داخل تنظيم ما ، يتيح لها الاطلاع على آلية عمل هذا التنظيم من الداخل ، كما يتيح لها معرفة العناصر العاملة والفاعلة فيه ، وفي بعض الحالات ، قد تستطيع التأثير على مدى نشاطات هـذا التنظيم وعلـى اتجاهاته السياسية بهذا الاسلوب . ان اجهزة الامن بالاضافة الى انهـا تستهدف قمع القـوى الوطنية ، فانها تستهدف ايضا تخريب الحركات الوطنية من الداخـل والتشويش عليها ، بخلق صراعات ذاتية داخلها ، وخلق حالة من الارتباك الداخلي فيها . ويمكـن رصد بعـض اساليب المخابرات الاردنية في هذا المجال :

أ — تسريب معلومات مغلوطة ومضللة الى التنظيم حول بعض القضايا ، مثلا حول الوضع السياسي في البلد ، حول بعض نشاطات اجهـزة أمنه ، وطبيعة المعلومـات المتسربة تحدد طبيعة الهدف منها ، فقد تكون بقصد التأثير على التقديرات السياسية لهذا التنظيم حول الوضع السياسي ، وقد تكون بهدف اشعار التنظيم بحالة خطر من درجة معينة ، تقتضي اتخـاذ بعض الاجراءات الامنيـة الوقائية ، وذلك لمعرفة مدى فعاليـة الاجراءات الامنية الطارئة لهذا التنظيـم ، ومعرفة مخابئه السرية . ويتم تسريب هذه المعلومات المغلوطة ، اما من خلال اشاعتها بشكل غير مباشر في اوساط قريبة من هذا التنظيم ، او من خلال بعض العملاء المندسين فيه .

ب — زرع عنصر او اكثر لفترة محددة ولمهمة محددة ، ويكون ذلك اما بهدف معرفة بعض أوجه نشاط هذا التنظيم في مجال معين ، او لجمع اكبر ما يمكن من المعلومات عنـه ، استعدادا لضربة قادمة ضده . ومن الوسائل التي تتبعها المخابرات في هذه الحالة ، دفع أحد عملائها غير المكشوفين للتقرب من هذا التنظيم والانضمام اليه ، او بتوجيه ضربة جزئية للتنظيم وذلك باعتقال مجموعة مـن أعضائه للتحقيق معهم ، فبالاضافة الى المعلومات التي يمكن أن تجمع من خلال التحقيق ، فان احد الاهداف من هذه العملية ، يكون محاولة شراء احد المعتقلين وتجنيده ليقوم بالمهمة المحددة ، واذا نجحت المخابرات في ذلك ، فانها تطلق سراح عميلها الجديد مع كل افراد المجموعة التي اعتقلت ، وذلك حتى لا يثير اطلاق سراحه اية شكوك او التباسات. أن امثال هؤلاء ، سرعان ما تلفظهم المخابرات وتهملهم بعد ان يقوموا بالمهمات الموكولة اليهم ، وبالتالي يخسرون انفسهم ويخسرون قضيتهم .

جـ — زرع عنصر من نوع معين بهدف الوصول الى وضع قيادي داخل التنظيم . ويعتبر هذا الاسلوب من أخطر ما يواجه الحركة الوطنية ، لان نجاح المخابرات في ايصال احد عملائها الى وضع قيادي في تنظيم ما ، يجعل من هذا التنظيم مكشوفـا بالكامل تقريبا للمخابرات العامة ، ويؤثر تأثيـرا كبيرا على أمن التنظيم وسلامته . وبالرغم من ان نجاح المخابرات في مثل هذه الحالة نـادر جـدا ، الا انه ممكن ، وهو مرهون بطبيعة الاجـراءات الأمنية الداخلية التي يتبعها كل تنظيم . ان نجاح المخابرات في زرع عميل كهذا ، يجعلها تحـرص عليه ، من خلال تأمين التغطية الكافية او اللازمة له حتى لا ينكشف امره ، الا انها تكون علـى استعداد للفظه واهماله عندمـا ينكشف امـره او تنتهي الفائدة منه . ومن الاساليب التي تتبعها المخابرات في هذا المجال ، استكشاف ضعـاف النفوس وذوي القناعـات المهزوزة من خـلال التحقيق ، حيـث تعمد الى شرائهم،وتجنيدهـم لخدمتها بوسائل كثيرة من التهديد والترغيب ، او بتوجيه احد عملائها الموثوقين للدخول في تنظيـم معين ، وحتى تؤمن له تغطية كافية في البدايـة ، فانها قد لا تطلب اي معلومات الا عند الضرورة ، وبعد الوصول الى وضع معين داخـل التنظيـم ويعتبر محمد رسول من المحبذين جدا لهذا الخط .

٣ — جمع المعلومات عن القوى الوطنيةومراقبة عناصرها الفاعلة : ان من الامور الهامة لاجهـزة الامن الاردنية ، وبشكل خاص المخابرات العامة، ان تجمع اكبر ما يمكن من المعلومات عن القوى الوطنية الاردنية سواء في الداخل او الخارج ، والمعلومات التي تجمعها ، لا تتناول جانبا معينا ، بل تتناول كل الجوانب صغيرها وكبيرها ، وسواء كانت معلومات سياسية او تنظيمية او شخصية ، لانه يهمها ان تعرف وتقدر حجم كل تنظيم وفعاليته ونشاطه السياسي وتأثيره الجماهيري وبرامجه ، كذلك آلية عمله واسلوب علاقـاته الداخليـة وخلافاته ومشاكلـه الداخليـة ، وان امكن — العناصر والقيادات الفاعلة فيه ، اهتماماتهـم العامة والشخصية ، طبيعة حياتهم الخاصـة ، معارفهم واصدقاؤهم . ان اساليب المخابـرات في جمع مثل هذه المعلومات متعددة ، منها ما يتم اثناء التحقيق مع المعتقلين ، ومنها ما يتم مـن خلال المراقبة ، ومنها ايضا من خلال بعـض المتساقطين ، ضعاف النفوس ، الذين يكونون على استعداد لان يدلوا بما لديهم من معلومات مقابل الحصول على جواز سفر او اذن بالعمل .. الخ. ومنها من خلال العملاء والمندسين . ويتم تصنيـف هذه المعلومات ودراستها ، والحصول من خلالها على استنتاجات معينة تساعد في ضرب القـوى الوطنية وقمعها .

٤ — البطش والقمع بالقـوى الوطنية : ان

البطش والقمع والارهاب للقوى الوطنية هو الهدف الرئيسي لاجهزة الامن الاردنية ، والاساليب السابقة هي لمساعدتها حتى يكون بطشها اكبر ، وقمعها اكثر ايلاما وفعالية ، وكم تفننت اجهزة الامن وادوات القمع الاردنية في البطش في الوطنيين وتعذيبهم ، وفي ارهاب واضطهاد كل الجماهير ، فمن قمع حركة الجماهير بالسلاح والنار وارتكاب المجازر ، الى سراديب التعذيب وزنازن الموت ، من قوانين الطوارىء التي لا تقف عند حد ، الى المحاكم العرفية الصورية ، والعديد من السجون والمعتقلات .. ان تاريخ النظام هو تاريخ ملطخ بالدماء تاريخ قمع وارهاب وعنف رجعي .

٥ ـ سياسة الترغيب والافساد السياسي للوطنيين : ان سياسة القهر ، وان كانت تستهدف قهر أوسع الجماهير وتكبيل ارادتها وشل حركتها وارهابها باستمرار ، فانها تستهدف ايضا التأثير على بعض ضعاف النفوس من الوطنيين ، الذين ما ان يواجهوا تجربة الاعتقال والسجن حتى تنهار عزائمهم وتخور قواهم ، وتهتز قناعاتهم ، ان أمثال هؤلاء وان ، كانوا قلة ، الا ان المخابرات يهمها التأثير عليهم والاستفادة منهم ، والامعان في افسادهم سياسيا ، ليقدموا نموذجا سيئا عن الوطنيين امام الجماهير ، ان سقوط امثال هؤلاء ، ان دل على شيء ، فانما يدل على هشاشة ارتباطهم بالحركة الوطنية .

أساليب التحقيق

في الفترة ما بعد ايلول سنة ٧٠ ، تحول النظام بكل اجهزة امنه وقواه العسكرية ـ كما هي الحال في السابق ـ الى مراكز للاعتقال والارهاب لكل الوطنيين ولكل الجماهير ، فمخافر الشرطة تعتقل وتعذب كيف شاءت ، والامن الوقائي يعتقل ويعذب كما يحلو له ، والجيش اينما تواجد يعتقل من يشاء ، والمخابرات العامة تحولت الى « غول كبير » تلتهم الجماهير وكل الوطنيين ، تنطلق سياراتها ليل نهار بحثا عن « الفريسة » ، عن الوطنيين في بيوتهم واماكن عملهم ، واينما كانوا . مراكز الحدود تحولت الى مراكز اعتقال ، هكذا كانت الاردن سجنا كبيرا ، بداخله وحواليه حراس مدججون بالسلاح، وكلاب مسعورة تنتقل هنا وهناك .

لقد كانت الاعتقالات تتم بصورة كيفية ، الم تكن كل الجماهير مقاومة ؟ ألم تكن تدافع عن المقاومة؟ اذن كلها مطلوبة ، كلها يجب ان تعتقل ، الذي تبرع يوما للمقاومة ـ ولو بضعة قروش ـ يجب ان يعتقل ، الذي كان يؤيد المقاومة ـ ولو بالكلام ـ يجب ان يعتقل ويهان ، ارهاب اسود كأنه الطاعون ينتشر في كل مكان ... مراكز الاعتقال الكثيرة ، والكثيرة جدا كانت غاصة بالمعتقلين ، المحققون لا فراغ لديهم .. مشغولون ٢٤ ساعة بالكامل..لا ينامون ! كأنهم لا يشعرون بتعب وارهاق ، كانوا يشعرون بنشوة .. نشوة سادية ، نشوة الوحش الذي تمكن من فريسته بعد طول عناء .

لقد كانت المخابرات العامة ، بمثابة « قطب الرحى » في هذه العملية ، فكل القضايا تصب في طاحونتها ، وتمر من تحت عجلاتها ، حيث ان الاجهزة الاخرى ـ باستثناء الاستخبارات العسكرية ـ كانت تحول من تعتقله الى المخابرات العامة لاستكمال التحقيق والبت في الامر ، ومن هنا فان التحقيق الذي كان يجري في المخابرات العامة هو الاساس ، هذا في حين ان التحقيق الذي يجري في الامن العام او مراكز الاعتقال الاخرى لا يقل قسوة عما يجري في المخابرات ان لم يكن أقسى وأشد ، ولكن التحقيق في المخابرات يتخذ طابعا يختلف عما يجري في اجهزة الامن الاخرى ، وهو الاساس ، ولذلك سأتحدث هنا عن اساليب التحقيق في المخابرات العامة ،وسأبدأ منذ البداية .

لحظة الوصول : ما ان يدخل المعتقل الى مبنى المخابرات العامة ، حتى يواجه بجو ارهابي ، الجنود منتشرون ، ضربة من هذا او ذاك، شتيمة من هنا وهناك ، وسوق بالعصا الى ساحة التعذيب ، هناك يطلب منه الوقوف ووجهه الى الجدار ويداه الى اعلى ، وان كانت الساحة مشغولة او غاصة ، فيحول للوقوف بالطريقة نفسها تحت الدرج .. مع استمرار اللكم والشتيمة ... الهدف من كل ذلك ، اعاشة المعتقل منذ البداية بجو ارهابي للتأثير على معنوياته ، ونفسيته ، وهز ارادته .

بعد ذلك ، يحول الى غرفة الامانات ، يسلم ما بحوزته من فلوس او ادوات معدنية او اوراق

.. ثم يحول الى احدى الزنازن ، بحيث لا يتواجد اثنان من قضية واحدة في زنزانة واحدة ، وان امكن ، ان لا يتواجدا في زنزانتين متقاربتين ، حتى لا يتم تبادل المعلومات .

فرز الحالات : بعد ان يتم فرز المعتقلين للشعب المختصة ، حسب الانتماء التنظيمي للمعتقل ، يتم فرزهم بعد ذلك على اساس وضع كل معتقل وطبيعته ، وما يمثله ، وهنا تميز المخابرات بين ثلاث حالات اساسية :

أ ــ **حالات عادية :** والمقصود بالحالات العادية ، المعتقلون من الجماهير الوطنية العادية ، اي الذين ليس لهم نشاط فاعل وعلاقتهم بالعمل الوطني علاقة عادية ، وربما غير تنظيمية ، ومثل هؤلاء المعتقلين ، لا يهتم المحقق ، بالتحقيق معهم سريعاً ، لان معلوماتهم عادية ، وبالتالي فانهم يتطلبون تحقيقا بسيطا ، وامثال هؤلاء يتعامل معهم المحقق في البداية بنوع من الغلظة والقسوة للارهاب والتأثير المعنوي ، وما ان ينتهي التحقيق معهم حتى يفرج عنهم ، او يحولوا الى السجن كنوع من التأديب ، ومع هؤلاء يستخدم المحقق ــ بالاضافة الى الضرب التأديبي ــ ما يمكن من التهديد والزجر الكلامي .

ب ــ **حالات تستدعي التحقيق السريع والفوري :** المقصود بهذه الحالات ، المعتقلون الذين يعتقلون خلال قيامهم بمهمة ، او كانوا مطلوبين سابقا ، واختبأوا فترة من الزمن ، او الذين لدى المخابرات معلومات انهم يعرفون اماكن سرية ومخابىء السلاح ، او لهم علاقة مع مجموعات اخرى ، امثال هؤلاء يجري التحقيق معهم بسرعة وبقسوة متناهية .. الهدف من ذلك يكون الحصول منهم على معلومات بأسرع ما يمكن من الوقت ، قبل ان يتاح للذين بقوا في الخارج ، اتخاذ اجراءات أمنية احتياطية ، في حال معرفتهم بالاعتقالات التي تمت ان التحقيق مع هؤلاء يكون مركزا جدا خلال الـ ٤٨ ساعة الاولى ، يخف تدريجيا خلال الايام التالية ، وعلى ضوء وضعية المعتقل ومدى صموده ، ويكون المحقق حريصا مع امثال هؤلاء ، ان لا يترك لهم اي مجال ــ ولو جزئي ــ للشعور بالراحة خلال الاسبوع الاول .

جـ ــ **الحالات الكادرية والقيادية :** والمعتقلون من هذا النوع ، يعاملون بقسوة متناهية في الايام الاولى ، حيث يوضعون في زنازن انفرادية ، ويخضعون لتحقيق قاس يستمر بين اسبوع الى اسبوعين ، وعلى ضوء النتائج التي يصل اليها المحقق ، يتحدد الوضع ، فان حصل على اعتراف ، يحول المعتقل الى السجن والمحاكمة بعد فترة ليست طويلة من الوقت ، وان لم يقتنع المحقق بالنتائج التي توصل اليها ، يستمر الحجز في زنازن المخابرات لفترة قد تمتد عدة اشهر ، يخضع خلالها المعتقل الى التحقيق بين فترة واخرى ، اما على ضوء توفر معلومات جديدة من خلال التحقيق مع معتقلين اخرين ، او للتأثير على ارادته ومعنوياته .

د ــ **حالات خاصة :** والمقصود بها ، المعتقلون الذين لا يتوفر للمخابرات معلومات محددة عنهم ، ويشكون بأنهم يمثلون وضعا غير عادي في الحركة الوطنية ، امثال هؤلاء يتعرضون لتحقيق مستمر بين فترة واخرى ، وتطول فترة اعتقالهم .

المجرى العام للتحقيق :

ان المجرى العام للتحقيق ، قسوته ، مرونته ، مدته ، يعتمد على عاملين اساسيين : مدى نجاح المحقق مع المتهم ، وهذا يعتمد على شخصية المتهم ومدى صموده وقوة ارادته ، وصلابة قناعاته الوطنية . طبيعة ومصدر المعلومات المتوفرة لدى المحقق عن المتهم ، ويمكن التمييز هنا بين نوعين من المعلومات :

أ ــ **معلومات عامة ،** أي ان المحقق يواجه متهما لا يعرف عنه الا معلومات عامة ، وبالتالي لا يعرف من أين يبدأ معه ، وما نوع الاسئلة التي يوجهها له ، لذلك فان هدف المحقق في هذه الحالة هو الوصول الى بعض المعلومات المحددة من خلال التحقيق ، فينطلق من افتراض اولي ، ان المتهم الذي امامه يعرف عن كل شيء ، ولذلك يوجه له اسئلة من كل نوع وفي شتى الامور مع تركيز في الضرب والمعاملة القاسية عله يصل الى طرف خيط ، فان نجح في الامر ، يتجه المحقق الى التركيز على ما وصل ، مع العمل على التشعب به ، من خلال المعلومات الممكن توفرها عنده . وان لا ، هنا يترك المتهم ، بعد عملية تحقيق قاسية ، مع استمرار احتجازه في المخابرات ، ويتجه المحقق الى معرفة معلومات عنه من خلال معتقلين اخرين.

ب ــ **معلومات محددة** : أي ان المحقق يمتلك معلومات محددة عن المتهم الذي يحقق معه ، وهذه المعلومات وان لم تكن هي كل شيء ، ولكنها تساعد المحقق في توجيه التحقيق وجهة معينة ، بهدف التوسع بهذه المعلومات المحددة . وعلى ضوء مصدر المعلومات هذه ، تتحدد طبيعة التحقيق ، ويمكن التمييز هنا بين ثلاثة أنواع : ١ ــ معلومات بناء على اعتراف من معتقلين اخرين : ينطلق المحقق في البداية من خلال هذه المعلومات ، دون الكشف عنها او عن مصدرها ، وذلك على أمل ان يصل الى غيرها او الى اوسع منها ، فاذا لم يعترف المتهم بعد مرور يومين او ثلاثة من التحقيق المستمر والقاسي ، او اقل ــ حسب الظروف ــ هنا يكشف المحقق للمتهم هذه المعلومات ، في البداية يكشفها من خلال الاسئلة التي يوجهها للمتهم باسلوب استنكاري ، فاذا لم يصل الى نتيجة ، يعمد الى المواجهة بين المعترف « بكسر الراء » والمعترف « بفتح الراء » لوضع المتهم امام الامر الواقع وان لا مناص له من الانكار . ٢ ــ معلومات واردة عن طريق عميل مخابرات : في هذه الحالة يستخدم المحقق المعلومات التي لديه اثناء التحقيق كما ورد في البند الاول ، فان لم يصل الى نتيجة يتبع احدى طريقتين :

● اذا كان العميل من النوع الذي لا يهم امره للمخابرات كثيرا ، يواجه المتهم بهذه المعلومات ، دون ان يكشف مصدرها طبعا ــ ● وان كان من النوع الذي يهم امره المخابرات ، فان المحقق هنا يمارس ضغطا اكبر من خلال تكثيف التعذيب وجعله اكثر قسوة ، فان لم يصل الى نتيجة ، يترك المتهم فترة من الوقت حتى تتوفر هذه المعلومات من مصادر اخرى اما من خلال التحقيق مع اخرين ، او من خلال اجبار اخرين على الاعتراف بها ولو زورا ، ٣ ــ معلومات من خلال الحصول على وثائق او مستندات اثناء الاعتقال. في هذه الحالة يستند المحقق على هذه المعلومات بشكل مباشر ويواجه بها المتهم ، ويعمل على توسيع اطار التحقيق بالاستناد اليها وعلى ضوء طبيعتها . ومدى ما تحويه من معلومات .

الاطار العام لتصرف المحقق : بالرغم من ان اسلوب التحقيق يختلف ــ نسبيا ــ من محقق لاخر ، ويعتمد على براعة المحقق ونكائه في كثير من الحالات ، فهناك محققون يعتمدون التعذيب الجسدي كأسلوب وحيد ، وهناك اخرون بالاضافة الى اعتمادهم هذا الاسلوب ، فانهم يستخدمون ايضا براعتهم في توجيه الاسئلة وفي دراسة شخصية المتهم واكتشاف ثغراته ونواحي ضعفه النفسية . الا انه بالرغم من هذه الفوارق ، فان هناك شبه قواعد عامة يتبعها كل المحققين وهذه هي :

أ ــ يتصرف المحقق امام المتهم ، وكأنه يعرف كل شيء ، وان لديه معلومات كثيرة ، وبالتالي لا فائدة من الانكار ، وان الانكار لن يفيد في شيء، وتستخدم هذه المعزوفة دائما . ب ــ اعتماد المفاجأة من خلال البوح للمتهم بمعلومات جزئية جدا ، والتي لا تتعلق في كثير من الحالات بالتحقيق الذي يجري مع المتهم ، بل تتعلق بأمور اخرى خارج مجرى التحقيق ، الهدف من ذلك هو ايهام المتهم انه يعرف كل شيء ، او ان تكون هذه المعلومات الجزئية متعلقة بسير التحقيق مع المتهم، ويكون الهدف من البوح بها ، ارباك المتهم وشل تفكيره ، وخلق حالة اضطراب ذهني لديه ، تساعد في التأثير عليه .

جـ ــ اتباع سياسة تشكيكية بالقضية الوطنية واهدافها ، والاشخاص القائمين عليها ، وتهديد المتهم بمستقبله وحياته ، وان اعترافه سيعني انقاذه من هذا الوضع ، وبالتالي صون شبابه ومستقبله ، في حين ان انكاره سيعني السجن واستمرار التعذيب ، وهذه معزوفة تتكرر مع كل معتقل .

د ــ اعتماد المواجهة في حال وجود اعترافات متبادلة بين معتقل واخر للتوفيق بين الاعترافات .

الاساليب المتبعة في انتزاع الاعترافات : بالاضافة الى ما ذكرت عن اساليب التحقيق وتصرف المحقق اثناء التحقيق ، فان هناك اساليب اخرى جسدية ونفسية ، تستهدف نزع الاعتراف بالقوة .

١ ــ التعذيب الجسدي : ان التعذيب الجسدي من الاساليب الرئيسية المتبعة في التحقيق لدى المخابرات العامة واجهزة الامن الاخرى ، ويمكن القول انها الاسلوب شبه الوحيد الذي ساد في الفترة التي اعقبت ايلول سنة ١٩٧٠ ، ان

التعذيب الجسدي بالاضافة الى ان المقصود منـه هو اهانة المعتقل واذلاله ، فانه يستهدف انتزاع الاعترافات بالقوة .. ذلك ان الانهاك الجسـدي الناتج عن التعذيب المتواصل ، يؤدي بالمعتقـل — في كثير من الحالات — الى فقدانه توازنـه النفسي والفكري ، وشل تفكيره ، واضطـراب اعصابه ، ان الهدف من تكثيف التعذيب الجسدي وتواصله هو الوصول بالمعتقل الى حالة انهيار ، بحيث يصل الى حالة من انعدام التحكم بـالارادة الذاتية ، او فقدان الثقة بالنفس وقدرتها علـى الاحتمال ، ولهذا فان الايام الاولى من التحقيق ، تكون اياما شاقة على المعتقل ، حيث يحرم مـن التمتع بأدنى درجة من الشعور بالراحة،ويستدعى يوميا ولاكثر من مرة للتحقيق خلال النهار والليـل وفي كل الاوقات ، والتعذيب الجسدي علىانواع: ● اللكمات بالايدي والضربات بالارجل من قبـل الجنود ، ● الفلق ، وهي معروفة ، « وحفلة » الفلق تمتد لاكثر من اربع ساعات متواصلة في كثير من الحالات ، ● الضرب بالعصا على راحة اليد وعلى قفاها ، وبشكل خاص على مفاصل الاصابع، ● الفروج ، وهو عبارة عن ربط اليدين بالقيـد ، وشد القيد على الرجلين بعد جلوس القرفصـاء ، ثم ادخال ماسورة في الفتحة بين ساعد اليديـن والرجلين ، حيث يتم رفع المعتقل بتركيز الماسورة على كرسيين ، وبالتالي بالامكان لفه على طريقة الفروج المشوي على السيخ ، حيث توجهالضربات في كل مكان ، والمقصود من هذه الحالة ، هـو تحديد حركة اليدين والرجلين وتوجيه اكبر ما يمكن من الضغط والضيق على المعتقل في هذهالوضعية، ان استخدام الفروج لمرات عديدة قد يؤدي الـى شلل اليدين من جهة الرسغ ، بسبب ضغط القيد عليهما ، ● الشبح من اليدين ، او الرجلـين في بعض الحالات ، وهي نادرة . ● الكهرباء ، لا تستخدم الا نادرا ، ذلك انها تحدث هبوطـا في القلب ، قد يؤدي الى الوفاة ، ولا يمكـن استخدامها الا لدقائق في كل مرة .

التعذيب النفسي : والمقصود بالتعذيب النفسي هو ارهاق المتهم نفسيا ، وجعله يعيش اجـواء الرعب والارهاب باستمرار للتأثير على معنوياته وعلى صموده ، في الوقت الذي فشلت فيه معـه كل وسائل القهر الجسدي ، وهو على انواع : ● اعاشة المعتقل باستمرار في اجواء التحقيق ، ووضعه قريبا من ساحة التعذيب للتأثير على حالته النفسية ، وعلى قدرته على الاحتمال ، ● العزل والحبس الانفرادي لفترة طويلة ومنع الدخـان عنه ، ● ابقاؤه في زنازن المخابرات لفترة طويلة جدا دون أن يرى الشمس ، ودون ان يغتسل ، يعيش مع القمل والرطوبة ، ● في الايام الباردة، صب الماء عليه وفي ارضية الزنزانة ، مع حرمانه من الغطاء الكافي ، ● الاهانات المستمـرة ، والشتائم البذيئة .

هذه صورة عامة عن اجهزة الامـن وادوات القمع الاردنية ، ووسائل واساليب التحقيـق ومواجهة القوى الوطنية التي تمارسها هـذه الاجهزة ، وتبقى هناك جوانب اخرى لا مجـال لذكرها الان ، والقصد من هذه الصورة ، هـو اعطاء كل مناضلينا ، وكل جماهيرنا ، صورة عن هذه الاجهزة ، حتى تتم لهم معرفتها ، وحتـى يعرفوا كيف يواجهون التجربة بكل صلابة وقـوة اذا ما تعرضوا لها .

ثلاثة تقارير

[١]
ردود الفعل الاسرائيلية على عملية معلوت

في الفترة التي سبقت حرب حزيران (يونيه) ١٩٦٧ ، وفي ذروة حالة البطالة التي شهدتها اسرائيل في تلك الفترة ، نشأت الظاهرة التي يطلق عليها الاسرائيليون اسم « الحركة » . ومفهوم « الحركة » هذا الذي شاع في تلك الفترة ، هو تعبير حالة القلق والتمزق التي عمت اوساط المهاجرين الشرقيين واحياء اليهود الفقيرة، حيث كان الشباب فيها يقومون باعمال احتجاجية استعراضية على حالة الفقر والبطالة التي استشرت في صفوفهم . وكان من ابرز تلك الاعمال الاحتجاجية ، قيام الشباب بخطف السيارات ، ليس بقصد سرقتها او بيعها ، وانما بقصد التنزه بها . فكانوا يخطفون السيارات ويسيرون بها في الاحياء الارستقراطية بسرعة هائلة مطلقين زماميرها . وكانوا يخطفون الفتيات ويسيرون عكس اتجاه السير في شوارع المدن ومنعطفات ميادينها الرئيسية .

جاءت حرب حزيران وما تبعها من انتعاش اقتصادي وعمالة كاملة في اسرائيل لتقضي على هذه الظاهرة الاجتماعية التي بلغت ذروتها خلال الاسبوعين الاخرين السابقين على حرب حزيران . الا انه بعد عملية معلوت ، وبعد اقتحام الجيش الاسرائيلي لمدرستها بست ساعات ، قام اربعة جنود باختطاف اربع سيارات والسير بها بسرعة جنونية في شوارع القدس ، مكررين ظاهرة « الحركة » بين اوساط الجنود هذه المرة .

لم تكن ردود الفعل التي احدثتها معلوت واهتزت بها الحالة النفسية — السياسية الاسرائيلية ، لتتوقف عند حادث الجنود الاربعة بما يمثله هذا الحادث من دلالات هامة . فحالة الانحطاط المعنوي والتردي السياسي — النفسي التي وصلت الى « البيت الاسرائيلي » من كريات شمونه الى ايلات ، جاءت مترافقة مع مجموعة من الاجراءات الرسمية وغير الرسمية ، لتعمق جميعها من تردي الحالة المعنوية والسياسية للمستوطنين الاسرائيليين .

وفي عرضنا لردود الفعل الاسرائيلية ، الرسمية منها وغير الرسمية ، على عملية معلوت التي نفذها ثلاثة من الفدائيين التابعين للجبهة الديمقراطية في ذكرى اغتصاب فلسطين يوم ١٩٧٤/٥/١٥ ، سوف نتوخى عرض الاجراءات الامنية والعسكرية التي اتخذت في اسرائيل ، وكذلك رصد الحالة النفسية — السياسية التي أشاعتها العملية في الاوساط الاسرائيلية ، تاركين لغيرنا من المهتمين باستخلاص العبر والدروس التي تخدم زيادة تأثير الفعل الثوري الفلسطيني وتعميق نتائجه على الصعيد الاسرائيلي ، مهمة صياغة وتعميم تلك الخلاصات والنتائج على الاجهزة المختصة .

اجراءات الاستنفار والتدابير الامنية الوقائية

لجأت اسرائيل بعد عملية معلوت الى مجموعة من الاجراءات والتدابير الوقائية لمنع دخول الفدائيين من لبنان الى شمالي فلسطين . وهدفت القيادة السياسية والعسكرية الاسرائيلية الى اعطاء الجمهور شعورا بأن مصدر تلك العمليات الفدائية جنوب لبنان وليس من الخلايا السرية للمقاومة داخل فلسطين المحتلة . فنقلت جريدة عل همشمار الاسرائيلية عن المجلة الاسبوعية

العسكرية « بماحانية » التي تصدرها وزارة الدفاع الاسرائيلية ، ان سلاح الهندسة الاسرائيلي شرع في تنفيذ اعمال عديدة ، تهدف الى اغلاق محكم لقطاعات مختلفة على الحدود اللبنانية ، « وتشمل نشاطات السلاح عددا من العناصر الرئيسية : أ ــ تحسين جهاز الانذار على امتداد الحدود بواسطة أعمال هندسية على الطرق الترابية وطرق الدوريات . ب ــ اغلاق خط الحدود بوسائل مختلفة ، كالاسيجة والالغام وغيرها . جـ ــ اقامة اجهزة انذار حول مستوطنات حساسة ، تشمل أسيجة وطرقا ووسائل اخرى . د ــ تعزيز جهاز الرصد واقامة مواقع محصنة في نقاط حساسة للتسلل » (عل همشمار ١٩٧٤/٥/٢٢) .

وكانت الاذاعة الاسرائيلية ، قد نقلت في برامجها باللغة العبرية ، انباء كثيرة ومتواصلة حول الاجراءات الامنية والتدابير الوقائية التي اتخذت في اسرائيل . فذكرت ثاني يوم العملية ــ ٥/١٦ ــ ان الشرطة الغت جميع اجازات رجالها ، بغية تعزيز الطاقة البشرية ، اثر الاستنفار الذي اعلن بعد حادث معلوت . وقال مراسل وكالة الانباء الاسرائيلية « عيتم » ، ان الغاء المأذونيات زاد عدد افراد الشرطة بنسبة ٣٠ ٪ . وقال الناطق بلسان شرطة لواء النقب (بئر السبع) ان افراد الشرطة والجيش يقومون بدوريات عسكرية بين تجمعات السكان الكبرى في كل المدن والبلدان في المنطقة (رصد اذاعة اسرائيل ٧٤/٥/١٦) .

وفي اليوم التالي ذكرت الاذاعة ، ان المجلس المحلي في مستعمرة « شلومي » الواقعة في الجليل الغربي ، عقد جلسة بحث فيها قضايا الامن ، « وقرر ان يطالب فورا باستكمال الملاجىء واقامة جهاز امن حول البلدة ، وتعزيز قوات الامن في المنطقة . وارسل المجلس برقية الى وزير الدفاع تطالب بزيارة «شلومي» حالا » (ر.أ.أ. ٥/١٧/ ٧٤) . وجاءت حالة الاستنفار في هذه المستعمرة، بعد أن اكتشف في اليوم السابق اثار اقدام للفدائيين قرب مستعمرة « كريات شمونه » حيث أعلنت حالة الاستنفار فيها ، « وتجولت سيارة مزودة بمكبر للصوت في شوارع البلدة ، وطلب من السكان عدم الخروج من منازلهم وعدم فتح الابواب الا للاشخاص الذين يتعرفون على هويتهم . كما تعطل التعليم في مدارس البلدة كافة وطلب من الاهلين عدم ارسال اولادهم الى المدارس » . وبعد اكتشاف اثار الفدائيين توجهت على الفور قوات معززة من الجيش الاسرائيلي ، ووضعت مفارز من قوات الامن في النقاط الحساسة وعلى مقاطع الطرق . وقالت الاذاعة وهي تنقل هذه التفاصيل « ان ما اتخذ من استنفار واحتياطات صباح اليوم في كريات شمونة ، لم يسبق لها مثيل ابدا » (ر. أ.أ. ٧٤/٥/١٦) .وامتدت الاجراءات الامنية وحالة الشعور بالرعب من مستوطني المناطق الشمالية الى المناطق الداخلية. فقد طلب رؤساء المجالس المحلية في منطقة خليج حيفا ، رئيس مركز السلطة المحلية ، باجراء مناقشات عاجلة حول تعزيز الامن في مستوطناتهم . وطالب عضوا كنيست بأن تطرح على جدول أعمال الكنيست مناقشة الاوضاع الامنية في المؤسسات العامة ومؤسسات التربية والتعليم . وقررت ادارة مدينة حيفا وضع دوريات في المدارس والاسواق وفي المراكز الجماهيرية وفي نوادي الشباب وغيرها من اماكن التجمع (ر.أ.أ. ٧٤/٥/٢٠) . واتخذت في مدينة القدس وخاصة القطاع الشرقي منها تدابير امن مشددة ، فاقيمت حراسة مشددة بشكل خاص في المدينة القديمة . كما قررت وزارة المعارف اعطاء الاوامر لتصليح وتحسين الاسيجة في المدارس واقامة الاسيجة في الاماكن التي توجد فيها . وقد تفاهمت الوزارة في هذا الامر مع الشرطة والجيش، خاصة فيما يتعلق بتعزيز دوريات الدفاع المدني . واقترح رئيس لجنة التربية والتعليم التابعة للكنيست ، القيام بتدريبات تأهب في المدارس والاطلاع على كيفية تنفيذ التعليمات السارية المفعول (ر.أ.أ. ٧٤/٥/٢٠).

وفي نطاق التدابير الوقائية الاحتياطية هذه، ولتهدئة خواطر المستوطنين، قام الجيش الاسرائيلي بتعيين قادة مدن في صفد ومعلوت وحتسور لمدة شهر ، بالرغم من ان هذه المستوطنات ليست مستوطنات حدودية وان الشرطة هي المسؤولة عن حماية المواطنين فيها . وبعد حادث معلوت عين الجيش قادة في هذه المدن ولكن التعيين الغي لعدم المس بصلاحيات الشرطة . ثم تقرر استئناف التعيينات لغاية نهاية الشهر ، وعندها يعاد النظر بالموضوع (٧٤/٥/٢٠) .

ويذكر أن اجراءات الامن والاحتياطات التـي تركز الجانب الاكبر منها في مناطق الشمال الحدودية والموانيء والمدن في مختلف انحاء فلسطين ، قـد امتدت الى مناطق الاغوار الشمالية ، التي لم تشهد تقريبا نشاطا فدائيا بعد مجازر ايلول — تموز ١٩٧١/٧٠ . فذكرت الاذاعة ان حملات تمشيط قد جرت في مناطق الاغوار وفي منطقة الناصرة وفي مناطق مجدال هاعيمق ويوكينعام وبيسان وفـي المناطق المحاذية للحدود الاردنية (ر. أ.أ. ٢٠/٥/٧٤) . ونشرت الاذاعة ايضا تقريرا عن حالة الامن في مناطق الحدود قالت فيه ان قائد المنطقة الشمالية العسكري وقائد المنطقة ذاتها في الشرطة قاما بجولة على الحدود وزارا عدة مستوطنـات شملت نهاريا للوقوف على اجراءات الامن فـي المستوطنات . واضاف التقرير « سمعنا عـن تحسينات في جهاز التحذير أجرتها وحدات مـن سلاح الهندسة على طول الحدود ووضع حواجـز والغام على طول الحدود واقامة اجهزة تحذير حول المستوطنات الواقعة في اماكن حساسة وزيادة عمليات الدورية واقامة مراكز في المناطق التـي يتوقع تسلل « المخربين » منها ... وفي طريق عكار — نهاريا — يجـري تفتيش السيـارات المشبوهة . وعززت الحراسة على المـدارس والمؤسسات العامة والمصانعفي القرى والمستوطنات القريبة من الحدود اللبنانية ... وفي مراحل معينة قامت طائرات هليكوبتر بالتحليق في سماء الجليل » (ر. أ. أ. ٢٢/٥/٧٤) . واصدر مفوض الشرطة في اللواء الشمالي امرا لتجنيد جميع رجال الشرطة في المنطقة ووضعهم على أهبة الاستعداد التام . وقال المفوض ان قواته تقوم بوضع حواجز عديدة على الطرق كما تقوم بحراسة مؤسسات التعليم (ر. أ. أ. ٢٢/٥/٧٤) . ونقلت الاذاعة على لسان احد المستوطنين في الشمال قوله : « اننا نشعر بخوف كبير في منطقتنا ، ولدينا حراسة قوية تحيط بالمستوطنة ، ونقوم بتوقيف كل سيـارة داخلة الى المستوطنة كما نقوم بتفتيشها والتدقيق برخصة السائق » . وقال احد الطلاب : « الطلاب يذهبون الى المدرسة ، وهناك حراسة شديدة على هذه المدرسة . والواقع ان المدرسة تبدو كمعسكر للجيش اكثر مما تبدو كمدرسة . اننا لن نغادر المستوطنة ، اذا بقيت عندنا حراسة قويـة » (ر. أ. أ. ٢٢/٥/٧٤) .

وفي تقرير اخر ذكر مراسل الاذاعة الاسرائيلية انه « اتضح لي انه تم اغلاق عدد من الطرق في الجليل الغربي كما وضعت في طرق اخرى حواجز للتفتيش . وسمح للسيارات بالتحرك باعـداد ضئيلة . وتركزت قوات الامن في نقاط مختلفة من الجليل ، وتساعد في اعمـال الدورية طـائرات الهليوكبتر ... وفي خلال الليل استخدمت في خليج حيفا قنابل مضيئة لانارة المنطقة » . وقد وصف التقرير حالة الاستنفار بأنها لم يسبق لها مثيل منذ عدة اعوام (ر. أ. أ. ٢٤/٥/٧٤) . وفي معرض وصفه لصعوبة الارض وتضاريسها الطبيعيـة ذكر المراسل العسكري للاذاعة من شمال فلسـطين تفاصيل بعض الاجراءات العسكرية التي وضعـت لكشف اثار الفدائيين . فقال : « على طول الحدود توجد طريق عريضة ، وهذه الطريق مؤلفة من ثلاثة أشياء : سياج من الاسلاك الشائكة بارتفاع ٢٥ر٢ متر ، وطرق ترابيـة ، وبجانبها طريق معبدة . وتقوم قوات جيش الدفاع الاسرائيلي باعمال الدورية بصورة يومية على طول الطريق . وعندما تكون هناك عمليات تسلل ، يمكن عادة رؤية آثار اقدام المتسللين على الطريق الترابية . كمـا ان اقتحام السيـاج يترك اثارا يشير الى عمليـة التسلل الى اراضينا . واما الصعوبـات في اكتشاف المجموعة التي تتسلل ، فهي بصورة خاصة فـي عمق المنطقة ، بسبب ما ذكرناه آنفا .. ومـن يتحرك في شوارع وطرق الجليل الغربي ، يشهد الحركة اليقظة هنا ، وطائرات الهليوكبتر وهـي تحلق فوق المنطقة طوال ساعات النهار والتي تقوم بتمشيط كل رقعة وبقعة . ان عمليات التمشيط لا تنطوي على الحركة فقط ، وفي مناطق معينة حيث المراقبة صعبة بصورة خاصة ، يتم التمشيط عن طريق اطلاق النار والقاء القنابل ، وذلك للتغلب على الادغال ... وفي مناطق معينة كان يبدو النور كضوء النهار (عين يعقوب ، معونا ، كابري) ، وفي طرق عديدة لا يسمح التنقل بسيارة منفردة ويمكن التحرك فقط بقوافل سيارات ، بحيث ترافق كل قافلة مجموعة من الحرس من جيش الدفـاع الاسرائيلي » (ر. أ. أ. ٢٤/٥/٧٤) .

والسؤال الان ، هل تحـول جميـع هـذه الاجراءات دون تكرار عملية معلوت ؟ . ان وزير الدفاع الاسرائيلي السابق ديان يجيب على هذا السؤال بقوله : « لا يوجد أي شيء محمي حماية

مطلقة ، لا الرحلات ولا الحوانيت الكبرى ، ولا المستشفيات . فليس هناك أي شيء محروس بصورة كافية » . ثم يعلق ديان على اجراءات الامن هذه محذرا من نتائجها العسكرية بقوله : « هل نحن على استعداد لنتجند جميعا ونحمل السلاح من الصباح حتى المساء امام كل مكان يحتمل ان يقتحموه ؟ . هذا هو الانجاز الذي يريد ان يحققه المخربون ، والدول العربية . فهل حقا ينبغي القيام بذلك ؟ لا اعتقد ذلك » (ر. أ. أ. ٢٠/٥/٧٤) .

الحرس المدني

في حفل تخرج الدورة الثالثة والعشرين لضباط البحرية الاسرائيلية ، قال رئيس الاركان مردخاي غور ان « الدولة بحاجة الان بعد الحرب ، الى جيش قوي ، جيد وكبير » (ر. أ. أ. ٢٣/٥/٧٤) . وقال المعلق العسكري في جريدة هآرتس زئيف شيف ، ان هدف العمليات التي هي على غرار معلوت « حمل الجيش الاسرائيلي على توزيع جهوده وقواته وعدم تمكينه من ترميم نفسه بعد حرب الغفران ، والاستعداد للمستقبل ، اي ابعاد الجيش الاسرائيلي عن مهمته الاساسية ، وكذلك فرض الخوف على سكان اسرائيل وادخال الدولة الى ما يشبه الجيتو المسيج ، ومضاعفة الارتباك الى درجة كبيرة جدا بعد الحرب ... وعلى أي حال ، فالخطر هو في ان يعمل الجيش الاسرائيلي بحسب السيناريو العربي ، فيوزع قواته ، ويتحول الجيش النظامي الى شرطة كبيرة » (هآرتس ٢٦/٥/٧٤) .

وقد يكون النقص الهائل في القوى البشرية في الجيش الاسرائيلي والخوف من ان يتحول هذا الجيش الى شرطة ومن ثم يبتعد عن مهامه الاساسية ، هما السببان الرئيسيان والمباشران للدعوة الى قيام حرس أهلي ينوب عن الجيش في مهمات الحراسة وحماية المستوطنين . لذلك ومن تتبعنا لردود الفعل الاسرائيلية على عملية معلوت ، نجد أن اولى الافكار التي طرحت للمداولة ومن ثم التنفيذ العملي ، هي فكرة انشاء وتكوين حرس أهلي . ففي صفد بادر رئيس البلدية الى تنظيم الافراد المسرحين من الجيش ومنظمات المقاومة السرية والى تزويدهم بالاسلحة كي يقوموا بالحراسة . كذلك اعلن في اجتماع ضم ممثلي مدير للمدارس المتوسطة في الشمال وحيفا ، عن مطالبة وزارة المعارف وليس الشرطة ، تدابير الامن سوية مع المعلمين الذين اخذوا على عاتقهم مهام الحراسة جنبا الى جنب مع اولياء الطلبة . كما نشرت لجنة الكنيست لشؤون الداخلية قرارا بحقها في تنظيم المدنيين ممن ليسوا في الخدمة بالجيش ، لاعمال الحراسة والدفاع والخدمات الخاصة (ر. أ. أ. ١٧/٥/٧٤) . وفي « رامت جن » تطوع المسرحون من الجيش في حراسة المدينة . كما تمَّ تأليف حرس مدني في هرتسلية واخر في ايلات (ر. أ. أ. ١٧/٥/٧٤) . وفي « رامت جن » تطوع المسرحون المدني حوالي ٣٠٠ شخص ويتوقع زيادة العدد الى ٦٠٠ (ر. أ. أ. ١٨/٥/٧٤) . وفي حيفا ، فتح مركز لتسجيل المدنيين الراغبين في التطوع بالحرس (ر. أ. أ. ٢٠/٥/٧٤) .

وفي مقابلة مع وزير الشرطة شلومو هليل حول احتياطات الشرطة واجراءات وزارته الاحتياطية قال : استطيع ان اؤكد دون ادنى شك أننا نخطط منذ مدة لزيادة قوة الشرطة . ولقد تحدثت حول هذا الموضوع قبل مدة ، حول تجنيد حرس مدني متطوع ، يشارك في حماية المواطنين في هذه الفترة، لان هناك بالاضافة الى الحرب الدائرة على الحدود، حرب اخرى مع « المخربين » . واضاف هليل حول فكرة الحرس المدني قائلا : « ثمة جزء من هذا الحرس قد نظم ، ونحاول حاليا القيام بخطوات لتوسيعه، وفي هذه الايام بالذات نحن على استعداد لاستيعاب عدد أكبر من المتطوعين ... ولقد تحدثنا أيضا عن موضوع تجنيد اشخاص بالاجرة ، حتى لو تجاوزت اعمارهم السن القانوني . ولقد وافقت الحكومة على دفع رواتب لهم على الرغم انهم يحصلون على معاش تقاعد ، وكل ذلك لتشجيعهم للعودة الى الخدمة . اننا ندرس امكانية سن قانون ، لكننا نحاول اولا عن طريق التطوع .ولذا لم يكن هناك عدد كاف من المتطوعين ، فسنعالج الامر عن طريق سن قانون » (ر.أ.أ. ١٨/٥/٧٤) .

أما المجالس البلدية في مختلف المدن ، فقد أخذت على عاتقها تجنيد حرس مدني بالرغم من تصريحات وزير الشرطة حول هذا الموضوع . فبعد صفد قامت بلدية القدس باقامة حرس مدني في المدينة بالتعاون مع وزارة الشرطة (ر. أ. أ.

٧٤/٥/٢٢) . أما في صدد ذاتها فقد الحق الحرس المدني بالشرطة واصبح قائد الشرطة قائدا للحرس. والصفة الغالبة على المتطوعين التقدم في السن « فأغلبهم من قدماء المحاربين في حركات المقاومة السرية ، الهاجانا واتسل ولحي ... وثمة عدد من المتطوعين تفوق أعمارهم الـ ٩٠ ومن بينهم من لديه احفاد في جيش الدفاع الاسرائيلي ... وسيعتبرون كرجال شرطة اعتياديين ، وسيتمتعون بجميع الحقوق الاجتماعية التي يتمتع بها رجال الشرطة » (ر.أ.أ. ٧٤/٥/٢٣) . وفي طبريا قررت البلدية تجنيد حرس مدني ايضا . وسيشترك في الحرس نحو ٢٠٠ شخص تتراوح اعمارهم بين ٢١ الى ٥٥ عاما (ر. أ. أ. ٧٤/٥/٢٢) . وفي حيفا أقسم اليمين ٧٠ من قدماء الهاجانا تطوعوا للعمل في صفوف الشرطة . وقال مراسل « عيتم » ان ٣٠ مدنيا فقط استجابوا حتى الان لنداء البلدية والشرطة للانخراط في الحرس المدني (ر. أ. أ. ٧٤/٥/٢٣) .

وبعد حوالي عشرة ايام من عملية معلوت ودعوة المستوطنين للتطوع بالحرس المدني ، سجلت تقارير الشرطة في جميع انحاء اسرائيل نحو ٢٠٠٠ متطوع ، منهم ٤٠٠ في تل ابيب ، ١١٠٠ في القدس والجنوب ، ٥٠٠ في حيفا والشمال . وتأمل الشرطة بزيادة العدد الى ٦ ــ ٧ الاف متطوع . ويذكر ان استجابة سكان المدن كانت قليلة وان اغلبية المتطوعين جاءوا من المستوطنات والكيبوتسات ومن منظمات قائمة مثل منظمة اعضاء الهاجانا ومجلس مكافحة حوادث السير (ر. أ. أ. ٧٤/٥/٢٥).

توزيع الاسلحة

اضافة الى الاجراءات السابقة ، وجنبا الى جنب مع نشوء فكرة اقامة حرس مدني ، وفي اطار تخفيف الاعباء الداخلية على الجيش ، والنقص الواضح في القوى البشرية خاصة في جهاز الشرطة ، وفي اجواء القلق العام الذي عاشه المستوطنون بحدة عقب عملية معلوت ، بدأت المطالبات بتوزيع اسلحة فردية على المستوطنين وقامت الاجهزة المختصة بالفعل بدراسة هذه المطالبات وصرفت لعدد من المتقدمين بها قطع اسلحة خفيفة .

ان السرعة التي تم بها تنفيذ فكرة توزيع الاسلحة على المدنيين ، تحت ضغط الوضع النفسي والانحطاط المعنوي الشامل في اسرائيل ، جوبهت بمعارضة قوية ولكنها غير واسعة ، كما حذر بعض السياسيين والمعلقين من المخاطر الناجمة عن توزيع الاسلحة على المدنيين ، خوفا من استعمالها في قضايا ثأرية بين اليهود انفسهم او ضد العرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل اسرائيل .

ولقد شرح وزير الشرطة شلومو هليل السياسة التي تتبعها الشرطة بشأن حمل السلاح فقال : « اننا ننظر بايجابية الى طلبات الحصول على اسلحة ، وليس لانه بدون هذا السلاح لا يمكن العيش . ولكننا نعيش في مرحلة ينبغي السماح فيها لكل شخص قادر على حمل السلاح ، وليست له سوابق بمخالفة القانون ، ويحسن استخدام السلاح ، ويرغب بحمله ، فاننا نوافق على منحه رخصة لحمل السلاح ، ولكن الى جانب ذلك فاننا نحاول زيادة قوة الشرطة بعدة اساليب » (ر.أ.أ. ٧٤/٥/١٨) .

وبالرغم من عدم نشر اية تفاصيل حول توزيع الاسلحة على المدنيين ، الا ان الصحف الاسرائيلية حذرت من عواقب انتشار الاسلحة . فقد حذرت صحيفة معاريف ، من الاخطار التي ينطوي عليها توزيع السلاح على السكان ، بسبب التوترات السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة ، ولاحتمال استعمال هذا السلاح ضد اشخاص ابرياء من ابناء الاقلية العربية في اسرائيل (معاريف ٧٤/٥/٢٠) . وحذت حذوها صحيفة هاتسوفيه محذرة من ان يجد وضع السلاح في يد السكان تعبيرا له في يوميات الشرطة وفي التخطيط لعمليات السرقة ، ومن الانتقام من العرب في اسرائيل . (هاتسوفيه ٧٤/٥/٢٠) .

غير ان هذه التحذيرات لم تحل دون قيام الشرطة وغيرها من الاجهزة المختصة ، من توزيع السلاح على المدنيين . والدليل على ذلك هو قيام الحرس المدني وعودة افراد المنظمات الارهابية السابقة للعمل في اطار ذلك الحرس . ولا يعقل ان يقام حرس كهذا دون ان يكون مزودا بالاسلحة. ولكي تأخذ الافكار العامة حول مسألة توزيع السلاح شكلا قانونيا محددا ، فقد منحت رئاسة الكنيست يوم ٥/٢٨ ، صفة الاستعجال ، لاقتراح

طرحه على جدول الاعمال عضو الكنيست « ابراهام ميلاميد » من المفدال ، حول موضوع حيازة الاسلحة . ومن الجدير بالذكر ان عضو الكنيست هذا يستنكر تشجيع المدنيين جميعهم على اقتناء الاسلحة . (ر.١٠١٠ ٧٤/٥/٢٨) .

اعدام الفدائيين

في محاولة لاعادة التوازن النفسي ، وفي ظل الحالة العصبية الشديدة التي عصفت بأعمدة المجتمع الاسرائيلي عقب عملية معلوت ، قام المستوطنون الصهاينة بالمطالبة باعدام الفدائيين . وقد سار في هذا الخط غير المتوازن بعض السياسيين الاسرائيليين وبعض رجال الحكم ايضا، من عسكريين ومدنيين وأعضاء كنيست . وكان أبرز واول من طالب بانزال عقوبة الاعدام هذه ، عضو الكنيست « يهودا شمعري » من الاحرار المستقلين (ر.١٠١٠ ٧٤/٥/١٧) . كما طالب وزير الاحرار المستقلين في حكومة اسحاق رابين الحالية بانزال عقوبة الاعدام بالفدائيين ، مبررا حجته بالقول : « اذا نفذنا العقوبة القصوى بأشخاص يستحقون هذه العقوبة ، بسبب اعمال ارتكبوها ، نكون قد وفرنا دماء بريئة » (ر.١٠١٠ ٧٤/٥/١٧) .

بعد هذه التصريحات ، انتقلت مطالبات الاعدام الى اوساط الجمهور الاسرائيلي . فحضر يوم ٥/٢٠ الى مبنى الكنيست وفد عن طلاب جامعة تل ابيب يحمل عريضة موقعة من عشرة آلاف شخص ، يطالبون بانزال حكم الاعدام بالفدائيين . وقال عضو الكنيست موشي شاحل من المعراخ انه يسعى للحصول على تواقيع ٦١ عضو كنيست على مبادرة لمشروع قانون خاص لانزال حكم الاعدام بالفدائيين (ر.١٠١٠ ٧٤/٥/٢٠) . وقام سكان معلوت بمسيرة في القدس وفي ايديهم لافتات تؤيد عقوبة الاعدام وسار الى جانبهم متظاهرون من صفد يحملون نفس اللافتات . وصرح رئيس بلدية معلوت بعد ذلك ، انه أرسل دعوات لطلاب الجامعات للعمل من اجل خلق حركة جماهيرية تأييدا لتعديل القانون وتطبيق احكام الاعدام على الفدائيين . وقد أيد عضو الكنيست مناحيم بيجن فرض عقوبة الاعدام ودعا الى تأليف منظمة رسمية تتخصص بمحاربة الفدائيين (ر.١٠١٠ ٧٤/٥/٢٠) .

وتقدم عدد من أعضاء الكنيست من مختلف الاحزاب بمشروع قانون الى الكنيست ، يدعو الحكومة الاسرائيلية الى الغاء الاوامر التي أصدرتها الى النيابة العامة بعدم المطالبة بفرض عقوبات الاعدام . وجاء في مشروع القانون هذا : « ان من يقتل يهوديا او يلحق به ضررا خطيرا ، او يحرض ضد اليهود ، او يحتجز اولا كرهائن ، يكون مجرما تجاه الشعب اليهودي وعقوبته الاعدام » . وتعززت هذه المطالبة ، بعريضة قدمها الى رئيس الكنيست ، رؤساء اتحادات الطلاب الجامعيين ، وموقعة من ١٠٠ ألف شخص ، بوشر بجمع التواقيع عليها منذ حادث ميونخ عام ١٩٧٢ . (ر.١٠١٠ ٧٤/٥/٢٣) .

في معرض تزايد المطالبات باعدام الفدائيين ، أعلنت الحكومة الاسرائيلية عن وجهة نظرها في هذا الموضوع بشكل رسمي ، على لسان وزير العدل فيها حاييم تسادوك الذي قال : « ان تنفيذ احكام الاعدام لن يكون له تأثير رادع » ضد الفدائيين ، « بل قد يكون له تأثير معكوس » . وشرح ان عدم تنفيذ العقوبة يوفر حياة الجنود الاسرائيليين ، وقال ان عدم تنفيذ العقوبة ايضا يقصد به عدم « الاساءة » الى العلاقات مع سكان المناطق المحتلة . (ر.١٠١٠ ٤/٥/٢٣) .

وضع العرب تحت الاحتلال

ظلت اسرائيل طوال سنوات الصراع العربي — الاسرائيلي الطويلة ، تحاول ان تخرج السكان العرب الواقعين تحت احتلالها ، من دائرة الصراع هذه . وحرصا منها على عدم فتح جبهة داخلية ، كانت تجنب العرب هؤلاء اية ردود فعل انتقامية من جانب المستوطنين عقب العمليات الفدائية الكبيرة التي يقوم بها الفدائيون . الا ان السلطات الاسرائيلية لم تنجح دائما في ذلك . فعقب عملية كريات شمونة في نيسان (ابريل) الماضي ، تعرض المواطنون الدروز العرب الى عمليات انتقامية من قبل المستوطنين الصهاينة خاصة في صفد وكريات شمونة . وعقب عملية معلوت ، توقعت سلطات الاحتلال ان تتسع حملات الانتقام ضد المواطنين العرب سواء داخل اسرائيل او داخل المناطق المحتلة . ولم تقم تخوفات الحكومة الاسرائيلية هذه في الفراغ . فقد بدرت عدة محاولات للاعتداء على المواطنين العرب عقب عملية معلوت وبعد تنفيذ عمليات سابقة عليها .

لقد كانت ردة الفعل الاولى لدى السكان العرب، امتناع ألوف العمال منهم عن الحضور للعمل في المستوطنات اليهودية . وعلى الاثر بدأت السلطات الاسرائيلية بالاعداد لحملة اعلامية في اوساط السكان اليهود والعرب « سيجري التركيز فيها على عدم الاقدام على اعمال تضر بمصالح المواطنين » . وتشرح كيف ان امتناع العمال العرب عن الذهاب الى عملهم « سيضر بالدولة فقط ويزعج علاقات الجوار الطيبة » كما وصفها مستشار رئيسة الحكومة للشؤون العربية شموئيل توليدانو. (ر.١٠١ ٧٤/٥/٢٠) . وكان قد تعرض عدد من اليهود لبعض المواطنين الدروز ، الامر الذي حدا بزعماء الطائفة الى عقد اجتماع ضم وجهاء ورؤساء المجالس المحلية الدرزية من قرى الجليل والكرمل لمناقشة هذا الموضوع . واشترك في الاجتماع شموئيل توليدانو . وقال جبر داهش معدي — نائب وزير الاعلام الاسرائيلي — ان الذين « تحرشوا بالدروز ليسوا الا اشخاصا قلائل من مرضى العقول ، لكن مثل هذه الاعمال قد تؤدي مع هذا الى تشويش العلاقات الودية بين اليهود والدروز». وروى معدي انه بعد حادث معلوت ايضا ، اعتدي على مواطن درزي اقل بسيارته مواطنين درزيين ، واوقفت سيارته قرب معلوت، وانهال عليه بالضرب بعض المستوطنين اليهود (ر.١٠١ ٧٤/٥/٢٠) . وعلى اثر ذلك منع دخول العمال العرب الى صفد ، تحسبا من وقوع اعمال عنف ضدهم . وقد تغيب بعض العمال عن العمل بمبادرتهم الشخصية، وفي بعض الحالات قامت الشرطة بمنعهم ، حيث اقامت حواجز على مداخل صفد لتنبيه العمال العرب الى حالة الهيجان والغضب التي تسود سكان المدينة ، خاصة بعد ان وزعت مناشير في صفد موقعة ممن يسمون انفسهم « الرابطة لاجل عدم تشغيل ابناء الاقليات في صفد » (ر.١٠١ ٧٤/٥/٢٠) .

اما على صعيد المناطق المحتلة ، اصدرت قيادة الحكم العسكري في الضفة الغربية ، أمرا خاصا يفرض قيودا على الحركة من المناطق الواقعة ضمن دائرة نصف قطرها ١٦ كم ومركزها القدس . وقد منع في هذه المنطقة دخول السيارات عدا حركة السيارات داخل حدود البلديات ، وذلك من الساعة العاشرة ليلا وحتى الساعة الثالثة صباحا . أما على طريق أريحا القدس فمنعت السيارات من السادسة والنصف مساء وحتى السادسة والنصف صباحا . واعلنت صحف الضفة الغربية في نفس الوقت عن اعتقالات واسعة بين صفوف العرب . (ر.١٠١ ٧٤/٥/٢٣) .

والى جانب هذه الاجراءات ، بدأت المطالبات الرسمية وغير الرسمية بتكثيف الاستيطان العبري في الجليل . فقد لجأت لجنة الداخلية في الكنيست الى تعزيز الاستيطان في الجليل (ر.١٠١ ٥/٢٣/ ٧٤) . وفي الذكرى السابعة لضم القطاع الشرقي من مدينة القدس الى اسرائيل ، كان شمعون بيرس وزير الدفاع الحالي قد قال : « مقابل الكلاشينكوف السوفياتي ، واليد الفلسطينية ، ستضيف اسرائيل مستوطنات اكثر واكثر في اراضيها ... ومقابل التعويض لمستوطناتنا ستبني مستوطنات جديدة وصامدة ، وسوف نستوطن الجليل اكثر فاكثر ونوسع القدس ونحصن جنوب اسرائيل » (ر.١٠١ ٧٤/٥/٢٠) .

عيسى الشعيبي

[٢]

سلطات ماليزيا والقضية الفلسطينية

في حزيران (يونيو) ١٩٧٠ ، عندما كان التونكو عبد الرحمن ما يزال رئيسا لوزراء ماليزيا ، قام الملك فيصل ، عاهل المملكة العربية السعودية ، بزيارة رسمية الى كوالالومبور . واعلنت نتائج المباحثات التي اجراها مع الحكومة الماليزية في عنوان توج الصفحات الاولى من الصحف يؤكد التزام ماليزيا بقضية فلسطين حتى نهاية النضال. وكان التنكو عبد الرحمن نفسه ، منذ نيسان (ابريل) ١٩٦٩ ، بعد المؤتمر الاسلامي في كوالالومبور ، قد قبل باقامة ممثل دائم لفتح في كوالالومبور.وقام مسؤولون من فتح بزيارة التونكو (الامير) وسلموه هدية رمزية من الحركة . وبعد حريق المسجد الاقصى اقيمت في كوالالومبور لجنة رسمية معينة من الحكومة تجمع سنويا في آب (اوغسطس) من الجماهير الملايوية المسلمةالفقيرة نحو ١٠٠ الف دولار ماليزي كانت تعطى لفتح . وبدا ان ماليزيا صديقة لقضية تحرير فلسطين .

ولدى تقاعد التونكو كرئيس للوزراء في ١٩٧١ ، اسند اليه منصب الامين العام الاول للامانة الاسلامية ، المؤلفة حديثا ، ومركزها جده . وبدا ظاهريا ان هناك حكومة ائتلافية تحكم ماليزيا — لكن رئيس الوزراء الحالي ، التون عبد الرزاق (أحد الرؤساء التقليديين الاربعة لولاية باهانغ)، قد نجح في اضعاف المعارضة غير العقائدية عن طريق تقاسم المقاعد (الاقل اهمية من الوزارات) في الحكومة ، وفي غير السلطة الفعلية . فالسلطة تبقى حكرا على « آمنو » UMNO (منظمة الملايويين الوطنية المتحدة) التي تعتمد على الجماهير الملايوية المسلمة لوجودها .

ليس ثمة وعي للامبريالية بين الجماهير الملايوية. فلم يكن النضال المناهض للامبريالية هو الذي حمل السلطة الاستعمارية البريطانية على تسليم السلطة السياسية الى « آمنو » في « تحالف » مع الاحزاب الطائفية النظيرة التي تمثل المتحدرين من المهاجرين الهنود والصينيين.على العكس تماما، فقد شجع البريطانيون تأليف وتطوير هذه الجماعات الطائفية غير العقائدية لمناهضة المقاومة المسلحة للاستعمار البريطاني بقيادة الحزب الشيوعي الملايوي .

والجماهير الملايوية التي تقطن شبه جزيرة تبعد ٣٠ دقيقة بقاذفة القنابل عن الفيتنام ، لم تظهر في اي وقت من الاوقات اهتمامهـا بالسياسات المبيدة للشعوب التي كان الامبرياليون الامريكيون ينتهجونها في الفيتنام . أما فلسطين فقد كانت مسألة اخرى — ولكن بعد حرق المسجد الاقصى فقط . فالجماهير الملايوية تفهم قضية فلسطين بوصفها جهادا — وتجاوبها هو امتداد لكونها تعتبر نفسها مسلمة . والتحديد المصنف قانونيا للملايوي (في ماليزيا) هو مسلم — واذا ما تحول عن دينه، واعتنق دينا اخر ، فانه يتخلى أيضا عن هويته العرقية ، ويقال لها « بانفسا » . وكذلك الامر، عندما يهتدي المرء الى الاسلام ، فانه « يدخل الملايويين » ، او « ماسوكس ميلايو » .

ولذلك ، عن طريق النضال الفلسطيني ، يمكن جعل الملايويين يفهمون الامبريالية ، ولهذا السبب عينه استولت الحكومة بواسطة لجنة فلسطين التي عينتها هي رسميا على قضية فلسطين واحتوتها وكبحتها . وقد رفضت الحكومة في كل الاوقات طلب « الحزب الاشتراكي لشعب الملايو » احتلال مقعد في هذه اللجنة . وفي الوقت ذاته تجنبت اللجنة عمدا اي شكل من اشكال زيادة الوعي حول القضايا الحقيقية التي ينطوي عليها تحرير فلسطين.

وبعد نشاط ايلول الاسود صارت هذه اللجنة حتى اقل حماسة لفلسطين . وقد تحدث أمينها العام ، السيد ناصر ، المتحدر من اصل عربي ، الى كاتبة هذه الرسالة عن « الارتباك » الحاصل الان فيما « العرب يقتلون عربا » . ومع تنفيذ حكم الشعب في وصفي التل ، تصلب « الارتباك » ، وتضاءل النشاط الذي جرى فيه السعي الى جمع التبرعات السنوية . ورفضت السلطات اعطاء ترخيص من الشرطة للتقدميين الذين أرادوا ان يعقدوا ندوات عامة كعملية تعليم متواصلة « لازالة الارتباك » عن الحالة .

ثم جاء تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ . ففي

الثالث عشر منه استولت الشبيبة ، وهي في الدرجة الاولى ملايوية ، دون ترخيص ، على الباصات من « الجامعة الوطنية » الناطقة باللغة الملايوية ، وتجمعت عناصرها في مركز لينكولن (خدمة اعلام الولايات المتحدة USIS) في كوالالومبور لتطالب بوجوب اغلاق هذا المركز الذي يبث الدعاوة الاميركية ، وبالتالي الموالية لاسرائيل ، والا فجرت فيه القنابل . وقد سارع للذهاب الى المركز وزير الشؤون الداخلية شخصيا ، وقد تعلم امثولة انتفاضة بانكوك بقيادة الطلبة ، التي وقعت ايضا في الشهر نفسه ، وكذر الشرطة بموافقته على اغلاق المركز في انتظار اجتماع ممثلي الطلبة برئيس الوزراء .

ووفقا لما يقوله انور ابراهيم ، الذي قاد التظاهرة ووفد الطلاب الى التون عبد الرزاق ، فان رئيس الوزراء شرح قائلا ان ماليزيا « محايدة » وبالتالي لا تستطيع اغلاق مركز لينكولن الذي هو امتداد للسفارة الاميركية في كوالالومبور . ودافع التون عبد الرزاق عن موقفه قائلا ان هذا الحياد (الخط الذي رسمه غزالي شافعي ، وزير الشؤون الداخلية حاليا) هو الذي رفع ماليزيا الى المركز الذي تتمتع فيه باحترام العالم ولا يمكن التضحية به . وبعد وقف النار على الجبهة المصرية الاسرائيلية ، اعيد افتتاح المركز «للعمل كالعادة»، مجهزا بنوافذ بلورية جديدة .

وفي بينانغ ، على مسافة ست ساعات بالسيارة الى الشمال من كوالالومبور ، وقعت احتجاجات مماثلة قادتها فاطمة شام بنت حميد تواح ، رئيسة اتحاد الطلبة في « الجامعة العلمية » في بينانغ . ثم جاءت الندوة العامة الحاسمة حول «الحرب وفلسطين» التي نظمتها فاطمة شام في جامعة بينانغ في الرابع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، فانكشفت مواقف سلطات ماليزيا.

ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، لما عاد التونكو عبد الرحمن ، الامين العام للامانة الاسلامية ، من العربية السعودية ليمضي عطلة في ملايو ، واثناء اجتماع له مع كاتبة هذه الرسالة حول موضوع ميندناو ، الفلبين ، تكلم عن فلسطين على النحو التالي : « لماذا تثيرون انتم المتاعب ، لا اعتقد ان اليهود اذكياء الى الحد الذي تحتاجين معه الى الخوف منهم . اعطيهم ذلك البلد، ثم راقبيهم». نقلت له في استفزاز مقصود : « ان الملك فيصل يا تونكو ، يدعم تحرير فلسطين » . وكانت ردة فعل التونكو فورية اذ قال : « انك لا تدرين ، فالزعماء العرب يحدثونني عما يدور في خلدهم . وهم مستعدون للاعتراف باسرائيل — غير انكم انتم تبتزونهم بالتهديد فيضطرون الى اعطاء المال . بوسعي ان اخبرك الان : **ان دولتي كانت اول دولة مسلمة تعترف باسرائيل — قبل ايران وتركيا ، ولكنني كنت ذكيا ، فلم اتبادل السفراء معها »** .

في آب (اغسطس) ١٩٧٠ ، بعد العنوان الرئيسي الداعي الى دعم فلسطين ، عندما كان التونكو ما يزال رئيسا للوزراء ، طلبت منه كاتبة هذه الرسالة في اجتماع لها معه حظر السلع الاسرائيلية . وكانت ردة فعل التونكو هي : « هل يشترون مطاطنا ؟ » وكان رفض التونكو تبني القضية بغيضا اكثر فأكثر لانه قبل ذلك بأعوام قاد الحظر التام لسلع جنوب افريقيا ، وما كان بوسع احد يحمل جواز سفر جنوب افريقي ان يدخل البلاد باستثناء حالات معينة ، في حين ان مسؤولا اسرائيليا يحمل جواز سفر اسرائيلي جاء في آب ١٩٧٢ الى كوالالومبور لحضور اجتماع « اتحاد كرة القدم الاسيوي » او الالعاب الاسيوية .

ان السلع الاسرائيلية في السوق الملايوية ، نتيجة لتجارة **مباشرة** ، كانت مسؤولة عن النسبة المئوية التالية من الاستيرادات للمواد التالية في ١٩٧٣ :

السلع الاسرائيلية :
نسبة مجموع السلع المستوردة
الى ماليزيا بين كانون الثاني (يناير)
وأيلول (سبتمبر) ١٩٧٣

السلعة	حصة السلع الاسرائيلية من الاستيرادات (النسبة المئوية من الحجم)
عصير فواكه وخضار للاستهلاك الفوري	٤٠ر٠
بن القهوة	٢٨ر٠
فواكه وحمضيات أخرى طازجة أو مجففة	٢٢ر٨
برتقال ، مندرين ، يوسف أفندي ، طازج	٢٠ر٧

فواكه وخضار	
مركز للاستعمال الصناعي	١٢٫٠
عصير بندوره	٩٫٣

ملاحظة (أ) كانت حصة استيرادات « عصير الفواكه والخضار للاستهلاك الفوري » مرتفعة على الدوام: ١٩٧٠ (٣٤٫٨٪)، ١٩٧١ (٤٢٫٩٪)، ١٩٧٢ (٣٠٫٥ ٪) ، ١٩٧٣ (٤٠٫٠ ٪) .

(ب) ان حصة استيرادات « بن القهوة » من حيث القيمة هي أعلى من حصتها بالنسبة الى الحجم المبينة في الجدول اعلاه : ١٩٧٠ (٧٫٤ ٪) ، ١٩٧١ (٢١٫٢ ٪) ، ١٩٧٢ (٣٨٫١ ٪) ، ١٩٧٣ (٣٢٫٨ ٪) .

في الندوة التي عقدت في تشرين الاول ١٩٧٣ ، كشفت الكاتبة عن كل الامور سالفة الذكر وطالبت بسحب الاعتراف ، وبحظر السلع الاسرائيلية مهما كان البلد الصادرة عنه ، وباقامة « لجان مواطنين للمقاطعة » لتنفيذ الحظر . وكانت هذه مفاجأة مذهلة فعلا بالنسبة الى شعب لم يكن يدري قط بموقف حكومته . وصدرت الصحيفة الناطقة بلسان الطلبة ، غراسيسوا (عدد تشرين الاول (اكتوبر) — تشرين الثاني (نوفمبر)) بالعنوان الرئيسي التالي : « الملايو تعترف باسرائيل ؟ » وأرسلت نسخا الى منظمات في جميع انحاء البلاد ، وأحست الحكومة بالخطر ، التي كانت تحضر للانتخابات في ايار (مايو) ١٩٧٤ — وقد أرجئت هذه الانتخابات فيما بعد حتى ١٩٧٦ .

وفي محاولة لدحض هذه الحقائق (التي لم ينكر التونكو ابدا انها حقائق) استخدمت الحكومة صحيفة « مينغوان ماليزيا » التي تملكها امنو والناطقة باللغة الملايوية ، وزاوية « كابارينا » التي يكتبها كل يوم احد « اوانغ سيلامات » ، وهو الاسم المستعار لمازلان نور الدين ، الذي كان ذات مرة رئيس القسم الملايوي في صوت اميركا ، ولا يتورع اليوم من تلقي ما يمليه عليه هاتفيا مكتب رئيس الوزراء ، وربما زين ازراي(١).

وعلى الاثر جرى انتاج سلسلة من التسويفات. وفيما يلي ترجمة لبعض ما جاء في زاوية « كابارينا » بـ « اوانغ سيلامات » في مينغوان ماليزيا ، بتاريخ التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ بعنوان: « ماليزيا تعترف باسرائيل ؟ » :

« هل صحيح ان التونكو كان يقول كذا وكيت كما ذكر آنفا ؟ أليست سياسة ماليزيا (المتينة) وغير المنحرفة ازاء العرب ، من قبل وحتى الان ، من الوضوح بحيث لا يجب ان تثير المزيد من الشكوك ؟ ومن الراهن ان العرب كانوا يدلون بتعليقات ، لو ان السياسة الماليزية نحو العرب ، حتى الى درجة صغيرة ، تميل الى اسرائيل . ولكن العرب ، قبلا وحتى الان ، قد اعربوا عن امتنانهم من تأييدنا المتين . وبالنظر الى موقفنا الواضح من تأييد النضال العادل للعرب ، فاننا نستمر في التمتع بتدفق النفط — خلافا لبعض البلدان الاخرى التي قطعت امدادات النفط عنها . انه يستحيل على طلبة الجامعة ان يفاجئهم الاستماع الى تصريحات يدلى بها على ذلك النحو في ندوة معينة. ومما لا ريب فيه انهم سيسألون : من قال ذلك فيما يتعلق بسياسة بلدنا ؟ هل صحيح ان التونكو كان يقول ما ورد ذكره آنفا ؟ يقينا ، ان الطلبة الجامعيين لن (يفاجأوا) بمثل هذه السهولة » .

رغم هذا التصريح المنطوي ، ظاهريا ، على

---

١ — زين أزراي هو مستشار رئيس الوزراء حول الشؤون الخارجية — وهذا منصب رئيسي . وهو متزوج من « ضون » ، وهي يهودية جنوب افريقية . وأبوها الذي يعيش في جنوب افريقيا يعطى اعفاء خاصا لزيارة ماليزيا بجواز سفره الجنوب افريقي — علما بأنه لا يسمح للجنوب افريقيين بدخول البلاد . وقد التقى زين وضون عندما كانت ضون تعمل في الامم المتحدة بنيويورك — وهي خريجة احدى الجامعات ومولعة بالعلوم السياسية ، وتزوجا خارج الملايو — ولم تعتنق ضون الاسلام ، والشرع الاسلامي في الملايو (الذي يلزم المسلمين) لا يسمح الا بزواج مسلمين اثنين ، ولا يعترف بأي شكل آخر من اشكال الزواج للمسلم . ولذلك فانهما من الناحية الشرعية مذنبان « بالقرابة الحميمة » — او (BERKHALWAT) ، التي يصار بسببها الى اعتقال الاقل قوة ونفوذا. وتعي ضون « يهوديتها » على نحو دفاعي — « انا يهودية » تقول — وتظهر عداء مكشوفا لاشخاص مثل كاتبة هذه الرسالة ، اذ انها تعتبر تأييد تحرير فلسطين عملا مناهضا لليهود .

ثقة بالنفس ، فقد سارعت الحكومة الماليزية الى ارسال وزير النفط طيب محمود الى بعض العواصم العربية للحصول على تعهدات تعاقدية تؤمن لماليزيا النفط الذي تحتاجه للاستعمال المحلي . وتنتج ماليزيا نفطها الخاص ، ولكنه ذو محتوى منخفض جدا من الكبريت بحيث ان استعماله للغايات الداخلية سيكون من الناحية الاقتصادية منطقيا بقدر ما هو استخدام الشمبانيا ليغسل المرء بها سيارته منطقي . كما ان ماليزيا تكسب بالعملة الاجنبية من نفطها ذي المحتوى المنخفض من الكبريت اكثر بكثير مما تنفقه على استيراد النفط للاغراض الداخلية . والى ذلك فان مصافي النفط التي شيدتها الكارتل (شيل) في ماليزيا ليست مصممة لتكرير النفط الماليزي .

وفيما كانت القضايا تنتشر بين الجماهير ، يدعمها التصريح الصحافي الذي أدلت به كاتبة هذه الرسالة وكررت فيه الاتهامات ، اصدر (اوانغ سيلامات) ، في السادس عشر من كانون الاول (ديسمبر) ، المسوغ النهائي . وفيما يلي ترجمة لما جاء في « كابارينا » بصحيفة مينغوان ماليزيا في ذلك التاريخ :

« في الواقع ليس لدى ماليزيا اية علاقات تجارية باسرائيل — الا اذا كان هناك تجار بالطبع [وهذا ، بالنسبة الى الجماهير الملايوية ، سيعني تجارا صينيين ، غير مسلمين ، قادرين على خيانة الوطن] او عملاء اجانب هربوا السلع الاسرائيلية من بلدان نائية او مجاورة [يعني سنغافورا التي يسيطر عليها الصينيون] . اننا نعترف بدولة اسرائيل التي أنجبتها الامم المتحدة . ولكننا لا نعترف بحكومة اسرائيل وليست لنا علاقات دبلوماسية او تجارية معها » .

لقد اثبتت المسوغات انها اعترافات واستيقظ الشعب . وفي الرابع من كانون الاول (ديسمبر) اجتمع سفراء البلدان العربية (كان لمصر والعربية السعودية منذ عهد بعيد تمثيل دبلوماسي في ماليزيا، وقد اقام العراق سفارة منذ وقت قصير) برئيس الوزراء الماليزي ليطلبوا منه حظر التجارة الاسرائيلية — ولكن لا ليطلبوا منه ، على ما قيل لنا ، سحب الاعتراف ، الذي ربما لم يكن كل السفراء يدرون به .

وبحلول التاسع عشر من كانون الاول (ديسمبر) أقدمت برينا هاريان ، وهي صحيفة اخرى ناطقة باللغة الملايوية ، كانت تتلقى تصاريحنا الصحافية، ودون ان تستشهد بالكاتبة او تذكر مباشرة مسوغات اوانغ سيلامات ، على نشر افتتاحية تطلب فيها فرض حظر تام على السلع الاسرائيلية مهما كان بلد المنشأ ، وتقول بحزم ما كان صحيحا على نحو جلي ، ان بوسع المرء في اية سوق ان يجد سلعا اسرائيلية . ولكنها هي ايضا لم تطلب سحب الاعتراف .

وبحلول العشرين من كانون الاول كان قد طفح كيل المنظمات الطالبية الرئيسية بأكاذيب « اوانغ » الدعائية . وصدر بيان مشترك عن المسؤولين الذين يمثلون المنظمات الاربع ، وهم محمد ادريس جوسي رئيس « الاتحاد الوطني للطلبة الماليزيين » ، حليم عبدالله الامين العام « لمجلس الشبيبة الماليزية » ، حليم أرشات رئيس « اتحاد الطلبة » في الجامعة الوطنية ، وصدق حاجي فاضل رئيس « الاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الماليزيين » . وأشار البيان المشترك الى تصريح الكاتبة ، وبعد ان أورد اقتباسات مباشرة من شرك السفسطات الذي نصبه « اوانغ » ، طالب الحكومة بتوضيح موقفها : « ماذا يعني اننا نعترف بالدولة ولكننا لا نعترف بالحكومة ؟ واذا جاءت الى السلطة حكومة اخرى في ظل رئيس وزراء آخر فهل سنعترف بها ؟ ماذا يعني اننا لا نقيم علاقات تجارية مع اسرائيل — مع انه يمكن شراء قهوة اسرائيل والبرتقال اليافاوي من اسرائيل في « سوبر ماركت ويلد وثرينتي » وغيره من المتاجر . ومما لا ريب فيه ان هذه البضائع تغرق السوق الماليزية » .

هذا البيان تجاهلته الصحف « الوطنية » . ووردت الاشارة الوحيدة اليه في الطبعة الجاوية (خط عربي معدل) من الصحيفة عينها التي تسيطر عليها أمنو ، حيث تحدث « باك اوانغ » هذه المرة عن لا جدوى المقررات التي يجمعها هو في ملف !

ومع ان البيان المشترك منع من الصدور في الصحف الوطنية ، فقد حمله انور ابراهيم الى الجماهير في اجتماعات عقدت في كل انحاء البلاد ، وكان « الحزب الاشتراكي للشعوب الملايوية » يحول علاقات ماليزيا باسرائيل الى احدى القضايا الرئيسية في الانتخابات — التي ارجئت الان . وفي الوقت ذاته اشترينا عينة من السلع الاسرائيلية

من اثنين من اكبر متاجر السوبر ماركيت ، وجرى تصويرها فوتوغرافيا للنشر :

سلع اسرائيلية مشتراة في كوالا لومبور في ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ :

سوبر ماركيت ويلد

عصير غريبفروت يافاوي « فينا » ج. بلوتكين وأبناؤه ليمتد ، رامات غان ، اسرائيل .

عصير غريبفروت يافاوي (اكسلسيور) : غان شموئيل ، الخضيرة ، اسرائيل .

عصير برتقال طبيعي يافاوي « عسيس » : عسيس ليمتد ، تل ابيب ، اسرائيل .

القهوة الجاهزة لبير مومنتو : كوفي مومنتو ليمتد ، بيتَ — شيميش ، اسرائيل .

سوبر ماركيت فيتز باتريك

عصير غريبفروت طبيعي يافاوي « عسيس » : عسيس ليمتد ، تل ابيب ، اسرائيل .

عصير غريبفروت من نوع « سانليت » اليافاوي: باخين كانينغ كومباني ليمتد ، تل ابيب ، اسرائيل.

في السنوات ١٩٦٤ — ١٩٦٦ كان لاسرائيل ممثل تجاري في كوالالومبور ، اسمه موشيه بيغار ، يعمل في ظل شركة « انتراشيان ترادنج كومباني » المؤسسة في اسرائيل . وفي مقابلة مع صحيفة ستريتس تايمز الصادرة في سنغافورا ، في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦ ، رفض موشيه بيغار ان يسمح بتصويره هو او اولاده وزوجته . وكان موشيه بيغار قد جاء الى ماليزيا من بورما حيث لم يكن بحاجة الى ستار كهذا ، ووضع دراسة عن المسلمين في بورما للجامعة العبرية . وعندما غادر الملايو صار القنصل الاسرائيلي في لوس انجيلوس ثم في فيلادلفيا ، بالولايات المتحدة . وفي عدد مينغوان ماليزيا الصادر في السادس عشر من كانون الاول ١٩٧٣ ، على الصفحة الثانية ، جرى فضح هذه الحقائق كجزء من تصريح ادلت به فاطمة شام في سياق نقاش متزايد القوة .

وبالاضافة الى التجارة المباشرة ، يسمح بتأسيس شركات اجنبية تنتمي الى الرأسماليين الصهاينة الرئيسيين في كوالالومبور.واحد الامثلة هو Dutch Van Leer Containers .وصاحب هذه الشركة (ابن برنارد فان لير الراحل الذي كان احد اليهود القلائل الذين استطاعوا ان يشتروا الحرية لانفسهم عندما كانوا ضبوطا على الغستابو) ، هو مستشار شخصي لغولدا مئير . والارباح من شركات فان لير في كل انحاء العالم تذهب الى « مؤسسة فان لير » التي تركز على تمويل مشاريع تعليمية صهيونية ، والكثير من هذه المشاريع موجود في اسرائيل. وقد وهبت « مؤسسة فان لير » وزارة التربية التابعة للحكومة الماليزية ترابة مليون دولار للمساعدة في انماء مشروعات كهذه في ماليزيا . وبعد ١٩٦٧ كانت الحلقات الدراسية السنوية لهذه المؤسسة تعقد بصورة ثابتة في القدس المحتلة .

ولتتويج سياسة الاعتراف والتجارة والشركات الصهيونية والممثلين الاسرائيليين ، فان ماليزيا تلعب كرة القدم مع اسرائيل ، وخسرت مقابلها ٣ — ٠ ، وقد قاد ماليزيا الى هذه المباراة المشينة داتو هارون ادريس ، المنتري بيسار (أي كبير وزراء) ولاية سيلانغور التي تقع فيها العاصمة كوالالومبور.وداتو هارون هو رئيس شبيبة أمنو ، وقد وصل الى هذا المركز القوي عن طريق موقفه الملايوي القومي .

وقد استبق « أوانغ سيلامات » في الثالث والعشرين من كانون الاول ١٩٧٣ ، في مينغوان ماليزيا ، الصفحة الرابعة ، احتمال اثارة هذه القضية في ذروة النقاش الدائر خلال تشرين الاول — كانون الاول — وقد اثيرت القضية فعلا — رغم كبت الصحف الواقعة تحت تأثير الحكومة لها ، وكتب في زاويته « كابانيا » ما ترجمته : « الحقيقة الواضحة هي أن اسرائيل انجبتها الامم المتحدة . وقد أيد هذا القرار كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وفي ندوة الامم المتحدة كان الممثلون العرب والاسرائيليون احيانا يشتركون في معارك شفهية . والان يقف الممثلون العرب والاسرائيليون وجها لوجه في جنيف للعثور على طرق لاعادة استتباب السلام في الشرق الاوسط. ويدفعنا حب الاستطلاع الان الى التساؤل عن احتمال لعب العرب كرة القدم ضد الاسرائيليين » . وقد حملت الزاوية توقيع : « اوانغ — غير المتعصب » .

عبر الطريق من الملايو توجد جزيرة جمهورية سنغافورا التي اضحت مستقلة عندما طردها

ـ بالمعنى الحرفي ـ التونكو عبد الرحمن في ١٩٦٥. وسكان سنغافورا هم ٧٥ بالمئة صينيون ، ١٤ر٥ بالمئة ملايويون ، و١٠ بالمئة هنود . ويكن رئيس الوزراء ، لي كوان يو ، احتقارا شديدا للشعب المحلي الملايوي ـ البولينيزي المحيط بجزيرته . وثمة تصريح كلاسيكي ادلى به لي معلنا قوله « نحن الشرق اسيويين (شاملا بذلك الصينيين واليابانيين ومستثنيا الملايويين) مختلفون » . وان فطرسته العنصرية ، وشعوره بالتفوق ، تربويا وثقافيا ، وخوفه من ان تبتلعه الشعوب « الاقل قيمة » المحيطة ببلاده ، تشبه عقلية الاسرائيليين . وهو ايضا يعلن نفسه « اشتراكيا » فيما يفتح باب « جزيرته » واسعا للتثمير الاجنبي الى ان اضحت سنغافورا « القاعدة » للشركات المتعددة الجنسيات في جنوب شرقي آسيا .

من المفهوم ، اذن ، ان تكون الامة التي يجب ان يعتمد عليها لبناء جزيرته القلعة هي اسرائيل . وطوال اعوام ثمانية ، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٣ ، عمل في سنغافورا ما لا يقل عن ٤٥ ضابطا ـ مستشارا اسرائيليا (وأرجح ان عددهم ٦٠) . وابقيت هذه الحقيقة طي الكتمان الى ما بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وفي احتفالات عيد الاستقلال في تموز (يوليو) ١٩٦٧ تعمد لي لو كوان يو ان يقدم بفخر كبير الضباط الاسرائيليين الذين كانوا يدربون ويبنون قوة دفاع سنغافورا . هذا الاعلان المتعجرف فهم على انه انذار للشعوب المحيطة بأن اقلية سنغافورا ـ « المتفوقة » ايضا ـ يمكنها ان تسحق الشعوب المحلية « الاقل قيمة » منها اذا ما اعتبرت ذلك ضروريا .

وقد ساعدت « بعثة من قوة الدفاع الاسرائيلية » في تصميم معهد تدريب القوات المسلحة لسنغافورا ، المسمى اختصارا (سافتي) ، وفي اعداد دروس المدربين ، وفي مخطط المنهج الدراسي ، وفي برنامج التدريب . وقدم الاسرائيليون استشاراتهم حول تأسيس نظام الخدمة الوطنية لسنغافورا . وقالت صحيفة ستريتس تايمز ، طبعة سنغافورا ، في عددها الصادر في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٧٤ : « الى جانب المساعدة في اقامة (سافتي) ، قدمت البعثة ايضا خبرتها حول مسائل مثل مدارس التدريب وقواعد الصيانة والطاقة البشرية والاركان العامة و«المعهد التقني للقوات المسلحة».

وأرسلت اسرائيل مستشارين لكل سلاح وكذلك لوظائف متخصصة معينة ، وفي ١٩٦٩ بلغ مجموع عدد المستشارين الحد الاقصى ، نحو ٤٥ » .

وبالاضافة الى دور اسرائيل في بناء القوات المسلحة السنغافورية ، فقد ارسلت احد ضباط البالماخ السابقين ، اسمه ليفي ، لانشاء « مركز بوينا فيزتا لتدريب الشبيبة » ومن ثم لادارته ، وكان الاسرائيليون ملحقين « بمجلس الانماء الاقتصادي » ، ان لم يكن بجهاز الامن .

وكل هذا هو جزء من « سياسة البلد الثالث » التي تنتهجها الامبريالية الاميركية ، وهي السياسة التي حللتها تحليلا مستفيضا « جماعة دراسة افريقيا» في كامبريدج بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة*. ويجري الان تدريب الفلبينيين فيسنغافورا على السيطرة المضادة للاضطرابات ومناهضة الثورات الخ ... ورمزيا ، يحمل جميع افراد الحرس الخاص للرئيس ماركوس رشاشات عوزي الاسرائيلية !

كل هذا مهم جدا لفهم كيفية تحرك سلطات ماليزيا ـ فتؤيد فلسطين ، ظاهريا ، لاسترضاء الجماهير الملايوية المسلمة ـ بينما هي تتعاون مع الاسرائيليين .

وتتعاون (استخبارات) الفرع الخاص لماليزيا وسنغافورا . ويجري تبادل المعلومات ، وربما لتدمير القوات التي لا تريد ماليزيا ، نظريا ، تدميرها . واذا كان المرء من التهور بحيث يتحدث الى احد ضباط الفرع الخاص الماليزي ـ سواء كان ملايويا او صينيا ـ فانه يتحدث الى الفرع الخاص السنغافوري ، وبالتالي الى الاستخبارات الاسرائيلية . وعن طريق « المعلومات » التجارية ، عرف انه كان في مقدور سنغافورا ان تحضر قضايا ضد اشخاص في ماليزيا تريد سنغافورا تدميرهم لاسباب خاصة بها. ومثل هذه الاضبارات لا يحملها الى وزير الشؤون الداخلية الماليزي ، غزالي شافعي ، موظف سنغافوري ، بل يحملها اليه احد ضباط فرعه الخاص ، ويضحي غزالي ، تبعا لسياسة « ثق بضباطك » ، ودون أن يدري ، عميلا للي كوان يو وللاسرائيليين وللامبريالية الاميركية .

---

* راجع « شؤون فلسطينية » عدد ٨ الصادر في نيسان (ابريل) ١٩٧٢ ، ص ٨٠ .

ولدى بعض ضباط الفرع الخاص الماليزي ستار ممتاز اذا ما دعاهم الواجب ، على سبيل المثال ، الى ابقاء المندوبية السامية السنغافورية في كوالالومبور تحت « المراقبة » . وهذا هو دور وستار تان تيبونغ كاي .

هناك وسيلة اخرى من وسائل التأثير السنغافوري والاسرائيلي في ماليزيا وهو « داب » DAP (أي حزب العمل الديموقراطي) ، النظير الماليزي لـ «باب» PAP (حزب العمل الشعبي)، الذي يقوده كي كوان يو واستمر مسيطرا على السلطة في سنغافورا منذ ١٩٥٩ . واعضاء «داب» من المواطنين الماليزيين يتولون مناصب رئيسية ، وحساسة في كثير من الاحيان ، في ماليزيا . وبوصفهم مواطنين ماليزيين « موالين » يمكنهم ان يؤثروا ، مباشرة او مداورة ، في جمع الاضبارات.

في ١٩٧٢ ، اثناء أحد اجتماعات « الشبيبة الدولية الاشتراكية» في الهند ، تطوع الاسرائيليون، او وانتوا على تزويد اعضاء « داب » بالتدريب في شن حرب عصابات المدن في ماليزيا (فيمدن ماليزيا ، يؤلف غير الملايويين ٦٥ بالمئة من السكان) . وبواسطة تمزيق كهذا ، قد يكون في مقدور لي الاستيلاء على ولاية جوهور الماليزية الجنوبية عبر المر من سنغافورا مباشرة ، الامر الذي سيضمن له مورده المائي (فان سنغافورا تشتري الماء من جوهور) ويزوده بالمنطقة الخلفية الاقتصادية التي يريدها . ويصار الى ارسال الشبيبة الصينية الماليزية الى سنغافورا ، ظاهريا للبحث عن أعمال ، وهناك يتلقون تدريبا عسكريا ومن ثم يعادون الى ديارهم . ويقدر ان ١٥ الفا قد جرى تدريبهم حتى تاريخه . لماذا ، اذن ، لا تدري ماليزيا ماذا يحدث ، ولماذا لم تقطع خطوط التسلل ، والتأثير ، والسيطرة غير الواعية ؟ مسؤول العلاقات العامة بوزارة الشؤون الداخلية تسوغ الامر قائلا بان ماليزيا ، دون تبادل مستمر للمعلومات مع استخبارات الفرع الخاص السنغافوري ، لن تكون في مركز يمكنها من السيطرة على عناصر « الجمعية السرية الصينية » (وهي عصابة اشرار) الذين يدخلون ماليزيا من سنغافورا ، وبالطبع اعترف صراحة بان هذا التعاون لا يعدو ان يكون استمرارا للممارسات الاستعمارية البريطانية ، فالبنية تبقى . حتى ان المسؤولين الماليزيين يسمحون للسكرتير الاول للمندوبية السامية البريطانية في سنغافورا ، روني بلوم ، بحضور جلسات الاستجواب التي يجريها ضباط الفرع الخاص الماليزي في كوالالومبور . ومن عادة روني بلوم ان يطير الى كوالالومبور للمناسبة كلما اعتبر ان المصالح البريطانية قد تفيدها المعلومات التي يتوقعون الحصول عليها .

وهكذا فان غزالي شافعي ، وزير الشؤون الداخلية الماليزي ، يحطم المناهضين للامبريالية والمناهضين للصهيونية ، ويسمح لمحاضرين مغتربين امثال سام وولف في جامعة بيتانغ العلمية (حيث ٥٠ بالمئة من المحاضرين هم مغتربون) ممن يجرؤون على الوقوف في المنتديات العامة والادعاء بأنه ليس ثمة « دليل سوسيولوجي على وجود شعب فلسطيني » ، بان يستدفئوا ويتنعموا بالشمس الماليزية .

وسيبقى النفوذ الصهيوني في ماليزيا طالما هناك سنغافورا صهيونية ، الا اذا قررت ماليزيا من هي حقا .

لدى عودة التون عبد الرزاق ، رئيس الوزراء ، من مؤتمر لاهور (الباكستان) للامانة العامة الاسلامية ، وجد انه لم يعد يستطيع مقاومة خطر التجارة الاسرائيلية التي اعترف ، في وجه « اوانغ سيلامات » (الذي يفلح في عدم الشعور بالخجل)، بانها كانت مباشرة وبلغت ١٢ مليونا كل سنة . **ويبقى الاعتراف باسرائيل** . وفي حزيران (يونيو) تجتمع الامانة العامة الاسلامية من جديد ، هذه المرة في كوالالومبور . **فهل ستثار قضية الاعتراف باسرائيل ؟**

لا بد من تعليم ماليزيا انه لا يمكن ان يكون ثمة حياد في وجه الشر ، ولا يجوز لعب كرة القدم مع الامبريالية سواء كانت صهيونية في فلسطين ، او نير شعوب ميندناو ، سولو وبالاوان في الفلبين ، او نير حكومة تايلاندا على شعب الملايو في باتاني — وان كلا من الفلبين وتايلاندا هما حليفتا ماليزيا ضمن « رابطة جنوب شرق اسيا » المسماة اختصارا «ASEAN» . **ولا يمكن تحييد الامبريالية او اللعب معها ، بل يجب تدميرها .**

الدكتورة شيرلي غوردون

الصحف البريطانية والقضية الفلسطينية
(من شباط الى نيسان ١٩٧٤)

أعرب الكثير من الدوائر السياسية العربية عن مخاوفها ازاء فوز حزب العمال في انتخابات بريطانيا العامة التي جرت في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٧٤ . وفسرت هذه المخاوف على ان اسبابها تعود الى احتمال أن يحدث انعطاف في سياسة بريطانيا الخارجية ، بعد سقوط حكومة ادوارد هيث ، يغير من موقف بريطانيا «المعتدل» ازاء الشرق الاوسط . وكان هارولد ولسون ، زعيم حزب العمال ، قد استقبل غولدا مئير ، رئيسة وزراء العدو الصهيوني ، بعد معارك تشرين الاول (اوكتوبر) الاخيرة ، وأعرب لها عن تعاطف حزبه وتأييده « للمشكلة الاسرائيلية » خلال انعقاد مؤتمر « الاممية الاشتراكية » في لندن خلال اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي .

وقد ثبت ، على الاقل حتى هذه الآونة ، ان تغير سياسة بريطانيا الخارجية يرتبط ، ليس بسقوط حزب المحافظين ، او فوز حزب العمال ، في الانتخابات العامة وحسب ، بل يرتبط عمليا بالوضع الاقتصادي العام في البلاد وبمصالح الغرب الاقتصادية في منطقة الشرق الاوسط . فالاسباب التي دفعت حزب المحافظين ، في أوائل السبعينات، الى أن يتبع سياسة « معتدلة » ازاء النزاع العربي — الاسرائيلي ، هي الاسباب نفسها التي تحول دون ان يحدث حزب العمال اي درجة من الانعطاف في اتجاهات سياسة بريطانيا الخارجية .

وتأتي مواقف الصحافة البريطانية اليومية كي تؤكد هذا الواقع . هذه المواقف ، على الرغم من فوز حزب العمال في انتخابات شباط (فبراير) الماضي ، لا تزال تحتفظ باستقلاليتها المعروفة ، وتعبر عن اتجاهات وآراء رجال الاعمال والهيئات الاقتصادية الغربية ازاء الصراعات السياسية في مناطق العالم الملتهبة ، خاصة ازاء تلك التي تجري في منطقة الشرق الاوسط .

● **شباط (فبراير) .. شهر الانتخابات البريطانية**

حفلت الصحف البريطانية بمختلف التقارير والحملات والاحصاءات الانتخابية خلال شهر شباط (فبراير) الماضي . الا أنها ، اي الصحف ، لم تهمل قضية الشرق الاوسط بالرغم من أنها لم تعطها الاعمدة المعتادة خلال ذلك الشهر .

قبل ان نبدأ باستعراض مواقف الصحافة البريطانية ازاء قضية الشرق الاوسط ، لا بد من الاشارة الى حدث يستحق التوقف عنده . ففي أواخر شهر كانون الثاني (يناير) الماضي ناشد ٢٢ صحافيا بريطانيا العاملين في أجهزة الاعلام المختلفة ان يعملوا على ابراز « مأساة الكتاب والصحافيين الفلسطينيين الذين يتعرضون لاضطهاد السلطات الاسرائيلية » . وقد وجه هؤلاء رسالة الى الاتحاد الوطني للصحافيين في بريطانيا . ومن بين الذين وقعوا هذه الرسالة ، بول فوت الذي فاز بجائزة « أفضل صحافي » لعام ١٩٧٣ ، ودافيد ماي وجيروم بورني ، اللذين يشرفان على مجلة « تايم أوت » الاسبوعية ، التي تطبع اكثر من مليون نسخة اسبوعيا وتهتم بمختلف النشاطات الاجتماعية والفنية والسياسية والفوضوية ، وخاصة « الفضائحية » منها . وقد نشرت رسالة المناشدة في صحيفة « الجيرناليست » وهي صحيفة نقابية دورية تهتم بشؤون العاملين في حقل الصحافة البريطانية . ووجهت الرسالة الى الاتحاد الوطني للصحافيين كي « يدافع ويساعد خمسة من الكتاب والصحافيين الفلسطينيين ، وهم :

— الدكتور وليد قمحاوي ، الذي رحلته سلطات الاحتلال الاسرائيلية من الضفة الغربية ، على الرغم من عدم توجيه اي تهمة اليه ،

— وجميل حمد ، الذي لا يزال رهن الاعتقال في اسرائيل لمجرد تعليقه في افتتاحية نشرت في صحيفة الفجر ، التي تصدر في الاراضي المحتلة ، بعد اغتيال ثلاثة من المفكرين الفلسطينيين في بيروت خلال شهر نيسان (ابريل) عام ١٩٧٣ ، علما بأن السلطات الاسرائيلية لم تعرض قضيته امام محاكمها حتى الان ،

— ومحمود عبد خليل ، الذي ألقي القبض عليه خلال شهر ايار (مايو) ١٩٧٣ ، لاقتنائه صندوقا كان يحوي خمسة افلام حول احتفالات اسرائيل بذكرى تأسيسها الـ ٢٥ . وقد حكم عليه بالسجن لمدة اربعة اعوام خلال شهر كانون الاول (ديسمبر) الماضي ،

— ومحمود درويش ، الذي أجبر على الرحيل من ارضه بعد أن أدخلته السلطات الاسرائيلية

السجن ثلاث مرات متوالية خلال الاعوام ١٩٦١ و١٩٦٥ و١٩٦٧ ، وفرضت عليه ، من ثم ، اقامة جبرية في منزله في حيفا على ان يقدم تقارير يومية الى مراكز الشرطة .

— وفوزي الاسمر ، الذي ألقي القبض عليه في عام ١٩٦٩ وتعرض للتعذيب الجسدي خلال التحقيق معه . وعلى الرغم من عدم توجيه أي تهمة ضده ، فقد أمضى ١٥ شهرا في السجن من دون ان تقدمه السلطات الاسرائيلية الى المحاكمة ، وأجبر على الرحيل من أرضه بعد الافراج عنه . »

وختمت الرسالة مناشدتها بالقول « ان هناك العديد من هذه الحالات المؤسفة حيث يتعرض الصحافيون والكتاب والشعراء للترحيل من بلدهم ، او للتوقيف التعسفي . ولسوء الحظ لم تأت الصحافة البريطانية على ذكر اي من هذه الحالات » . وقد حملت رسالة المناشدة اسماء وتواقيع الصحافيين التالية : باميلا فيرغسون ، ماريون وولفسون ، دافيد ماي ، دافيد كلارك ، هيلاري ارنوت ، جيني بورني ، ليلى حسان ، كريستين اوبري ، جيروم بورني ، ك. ب. بانيان ، بول فوت ، ج. فليت ، ج. بيلي ، مارتن ميتيارد ، لورنس فلن ، داركوس هوي ، بوب باردو ، ا. م. شيريدان ، كارول دكس ، كولن جاكسون ، جيم هيغنز ، جون هيات .

ذكرنا ان الصحافة البريطانية انشغلت بالحملات الانتخابية وأزمة بريطانيا الاقتصادية خلال اوائل العام الحالي ، الا ان ذلك لم يؤد الى « طرد » القضية العربية — الاسرائيلية من أعمدة الصحف المختلفة . فقد اهتمت الصحف بقضيتين أكثر من غيرهما ، وهما « أزمة الطاقة » — خاصة بعد الموقف النفطي العربي الذي تبع المعارك المسلحة — و« محاولات الرئيس السادات التعديل في سياسة بلاده وتحسين أوضاعها الاقتصادية » . ويبدو ان الصحافة البريطانية ، بعد حرب تشرين الاول (اوكتوبر) الاخيرة ، بدأت تقدم خدمات ، مجانية ، لترويج اتجاهات السياسة العربية الرسمية ، وخاصة السياسة المصرية ، وطمس الشخصية الفلسطينية التي هي محور الصراع في المنطقة منذ اكثر من ربع قرن . فاذا كانت الصحف البريطانية تكاد تجمع على تشجيع وتبرير اتجاهات مصر السياسية في حل النزاع في المنطقة ، « بغية تحويل الاموال التي تنفق على التسلح الى الانفاق على مشاريع اقتصادية » ، فهي ، أي الصحف ، لا تتحدث مطلقا ، تقريبا ، عن مشكلة الشعب الفلسطيني ، الذي يخضع ، غالبا ، لمد وجزر السياسات العربية في منطقة الشرق الاوسط . فماذا عن مشكلة الشعب الفلسطيني ؟ الصحف البريطانية تجيب ، همسا ، عن هذا التساؤل .

الصحيفة الوحيدة التي حاولت أن تجيب عن هذا التساؤل هي صحيفة « التايمز »، التي تعبر عن آراء رجال الاعمال واتجاهات الدوائر الاقتصادية في بريطانيا . وجاءت هذه المحاولة في مقالتين كتبهما ادوارد مورتمر في صحيفة التايمز في ٢٩ و٣٠ كانون الثاني (يناير) الماضي على التوالي . وادوارد مورتمر ، واحد من الصحافيين الشباب الجدد ، استلم مؤخرا منصب المشرف على شؤون الشرق الاوسط في صحيفة التايمز . ويتمتع بشبكة واسعة من العلاقات مع الدوائر العربية والفلسطينية والاسرائيلية في آن معا . وكان مورتمر ، قبل نشر المقالتين المذكورتين ، قد قام بجولة في الشرق الاوسط بعد حرب تشرين الاول (اوكتوبر) مباشرة، شملت دمشق وبيروت والقدس . وزار الضفة الغربية والتقى سكانها بالاضافة الى لقائه مع الفلسطينيين الذين يعيشون في اسرائيل .

ويقول مورتمر في مقالته الاولى انه « اذا كانت حرب تشرين (اوكتوبر) قد أفقدت الاسرائيليين صوابهم ، فهي نبهت العرب أيضا ، خاصة اولئك الذين يعيشون في ظل الحكم الاسرائيلي » . فخلال المعارك وقعت عدة حوادث في الضفة الغربية وغزة « كاغلاق المدارس اشارة الى التضامن العربي ، وكتابة الشعارات على الجدران في الشوارع والتصدي للدبابات الاسرائيلية » . ويشير مورتمر في مقالته الى أن السلطات الاسرائيلية عززت قوات الامن التي تشرف على احتلال الاراضي العربية « بعد أن هاجم السكان العرب ثلاثة من رجال الشرطة الاسرائيلية ، مستعملين المدى والسكاكين في مدينة رام الله » .

وفي معرض اشارته الى مؤتمر القمة العربي الاخير، الذي عقد في مدينة الجزائر، وقرر الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطيني ، يذكر مورتمر انه « من دون شك ، لقد استقبلت غالبية الفلسطينيين في الضفة الغربية

وغزة هذا القرار بحماس بالغ . وقد يبدو انه من الصعب ان تقبل الفكرة في هذه البلاد (بريطانيا)، لانها تربط دائما اسم منظمة التحرير الفلسطينية بمسائل خطف الطائرات والارهاب ، ولكنها لا تفكر بفلسطينيي الضفة الغربية علـى انهم مسالمون ووديون ومحافظون . فقد ارتكب الرئيس الاميركي ، روزفلت ، الخطأ ذاته ، عندما اعتقد ان سكان فرنسا « الفيشية » (من كلمـة فيشي) لـن يقدموا الدعم ، مطلقا ، الى رجل غريب الاطوار ، كالجنرال ديغول » . ويوضح مورتمر انه « تماما ، كما فعل ديغول .. وتمكن من ان يبقي فرنسا على خارطة العالم السياسية خلال الاحتلال النازي ، فان منظمة التحرير الفلسطينية ، بفصائلها المختلفة وأوضاعها المختلفة ، تمكنت من أن تبقي فلسطين على الخارطة ، بل ، في الواقع ، أعادت فلسطين الى مكانها على الخارطة بعد ان غاب اسمهـا جغرافيا عن العالم العربي لمدة طالت نوعا ما » .

ويناقش مورتمر في مقالتـه الثانية (التايمز ، ١٩٧٤/١/٣٠) الحوار الذي يجري داخل صفوف المقاومة حول سياستها في المستقبل . ويشير الى ان « احتمالات اية تسوية لازمة الشرق الاوسط تضع جميع الفلسطينيين في مأزق حاد . فالشعب الفلسطيني ، من ناحية ، كان دائما — ولا يزال — الضحية الاولى بعد الازمة ، وهو ، بالتالي ، الذي يهتم بالنتائج ، اكثر من غيره . ومن ناحية ثانية ، لقد كان الشعب الفلسطيني هو الخاسر الدائم من جراء الازمة ، ويبدو ان اي تسوية يتم التوصل اليها ، في هذه الآونة ، وفقا لموازين القوى في المنطقة قد تؤدي الى تكريس هزيمة هذا الشعب . وفي أحسن الاحوال ، فان الشعب الفلسطيني لن يمنح اكثر من خمس أرض فلسطين ما قبل عام ١٩٤٨ » .

وتجدر الاشارة الى التعتيم الاعلامي المقصود الذي يقوم به مراسلـو الصحف البريطانية في اسرائيل . فالاحداث التي تجري داخل اسرائيل وفوق الاراضي العربية المحتلة لا تجد لها مكانا في الصحف البريطانية ، وخاصة ما يتعلق منها بمسألة اضطهاد العرب ، ولكنها تظهر فجأة في مقـالة مورتمر . ويذكر انه « منذ اعياد الميلاد ان النشاط السياسي يشهد فترة ركود وخمول » ، هذه الفترة التي يسارع مراسلو الصحف المقيمون في اسرائيل الى الاشارة اليها بين الحـين والاخر . الا ان مورتمر يعلل ذلك ويقول انه « يعود الى احتواء المقاومة ضمن حملة واسعة من القمع والاضطهاد».

ويضيف مورتمر في مقالة أخرى ، نشرت في العاشر من شباط (فبراير) الماضي ، انه « القي القبض على أكثر من ٥٠٠ شخص في الضفـة الغربية مؤخرا ، كما اجبر عدد من سكان غزة على مغادرة أرضهم . وتم اعتقال خمسة اشخاص في نابلس في الخامس من شهر شباط (فبراير) ، حيث لا يعرف ذووهم ماذا حل بهم » .

الغريب ان مراسلـي الصحف البريطانيـة في اسرائيل ، أمثال اريك مارسدن (مراسل التايمز)، واريك سيلفر (مراسل الغارديان) ، يتجاهلون تماما هذه الاحداث ، على الرغم من ان بعـض المصادر اليهودية ، التي تأخذ موقفا محايدا ازاء أزمة الشرق الاوسط ، يعترفون وينشرون ويفضحون هذه الاحداث . من المؤكد ان مراسلي الصحف البريطانية في اسرائيل لن يترددوا في اغناء تقاريرهم وبرقياتهم الصحفية بصور مختلقة من التراجيديا عندما يلقى القبض على خمسة افراد ، وليس ٥٠٠ ، من يهود الاتحاد السوفياتي !..

ان الذي تجدر الاشارة اليـه هو موقف حزب العمال ، خلال حملة الانتخابات العامة في شهر شباط (فبراير) الماضي ، والذي عبر عنه جيمس كالاهان في مقالة نشرتها له صحيفة التايمز في ١٣ شباط (فبراير) الماضي . فبعد أن أعربت الدوائر السياسية العربية عن خشيتها ازاء تغير قد يحدث في سياسة بريطانيا الخارجية نتيجة لفوز حزب العمال في الانتخابات العامة، سارع هارولد ولسون الى ارسال وزير خارجية الظل آنذاك ، في مهمة زار خلالها منطقة الشرق الاوسط . وقد عبـر كالاهان في مقالته المذكورة عـن ارتياحه لجهـود الحكومة المصرية بغية التوصل الى تسويـة مع اسرائيل . وفي معـرض اشارته الـى الرئيس السادات، ذكر كالاهان انه « يعتقد انه (السادات) رجل يتحمل مسؤولية اقواله ، وان التغييرات التي يجريها في حكومته تصب جميعها في اتجاه السلم وليس الحرب » . وختم كالاهان مقالته مشجعا اسرائيل على ان تثق بالرئيس السادات وقال ان «استنتاجي الخاص هو انه الوقت المناسب لاسرائيل كي تدخل في مغامرة مدروسة . ان العديد مـن

الاسرائيليين يدركون الان ان الامن الدائم لا يمكن تحقيقه عن طريق السلاح وحده » .

● آذار (مارس)... ما بعد الانتخابات...

المخاوف التي أعربت عنها الدوائر السياسية العربية من أن يحدث انعطاف في سياسة بريطانيا الخارجية بعد فوز حزب العمال ، أثارت اهتماما بالغا في الاوساط الصحفية البريطانية . وعلى الرغم من جولة جيمس كالاهان ، وزير الخارجية ، في منطقة الشرق الاوسط والتطمينات التي أطلقها في مقالة نشرتها التايمز بغية التأكيد على ان فوز حزب العمال في الانتخابات لن يغير من طبيعة سياسة بريطانيا الخارجية ، على الرغم من ذلك واصلت الصحف البريطانية ، التي ترتبط مع الاحزاب السياسية الاخرى ، حملاتها التحذيرية والاشارة الى المخاطر التي قد تنتج عن احداث اي تغير في سياسة بريطانيا الخارجية . وتطوع مراسلو مختلف الصحف ، التايمز والغارديان على وجه الخصوص ، لارسال تقارير صحفية يعرضون فيها وجهات نظر المسؤولين السياسيين في المناطق التي يعملون فيها . فقد ارسل دافيد هيرست ، مراسل صحيفة الغارديان في بيروت ، تقريرا صحفيا بعث به بعد زيارة قام بها الى المملكة السعودية ، ونشر في الغارديان في ١٥ آذار (مارس) الماضي . وقد حذر هيرست حكومة العمال من ان بريطانيا ستدفع ثمنا باهظا اذا استمر حزب العمال باتباع السياسة التي كان يتبعها عندما كان في المعارضة. « مما لا شك فيه ، لو يتبع ولسون الخط الذي اتبعه وهو في صفوف المعارضة ، فان بريطانيا ستدفع ثمنا باهظا لذلك في العالم العربي .. وخاصة في المملكة السعودية » . ويضيف هيرست ، نقلا عن دوائر النفط السعودية التي ذكرت له ان « بريطانيا ، حينئذ ، لن تعتبر من بين الدول الصديقة ، وبالتالي ، لن يوقع معها على صفقات « تفضيلية » ، كصفقة الـ ٢٠٠ الف برميل يوميا الاضافية » ، التي منحت لها في عهد حكومة حزب المحافظين .

ومن ناحية اخرى ، تستمر الصحافة البريطانية في عمليات التعتيم الاعلامي حول التطورات التي تجري في اسرائيل بعد حرب تشرين الاول (اوكتوبر). ويبدو أن مراسلي الصحف البريطانية في القدس ، اما انهم لا يجيدون قراءة اللغة العبرية ، ام انهم يتجنبون الاطلاع على الصحف الاسرائيلية ويفضلون الحصول على المعلومات من الدوائر الرسمية في القدس . فعندما يناقش هؤلاء المراسلون الهزة التي أصابت المجتمع الاسرائيلي بعد الحرب ، يبدون وكأنهم اكثر صهيونية من مئير ، او رابين ، او حتى مناحيم بيغن . بينما يجد القارىء العادي للصحف البريطانية ان احد العاملين في هذا الحقل يكتب مقالات اكثر موضوعية من تلك التي يبعث بها المراسلون، بعد زيارة قصيرة لاسرائيل وبعد الاطلاع على ما تكتبه الصحف العبرية نفسها . فصحيفة « تريبيون » الاسبوعية ، والمعروفة بصلاتها الوثيقة مع حزب العمال ، نشرت مقالة في ١٩٧٤/٣/١٥ ، كتبتها بيغي داف ، التي يعرف عنها انها تقف على يسار حزب العمال ، بعد زيارة قامت بها الى اسرائيل . وعلى الرغم من ان داف لم « توفق » في أن تحيط بالمسألة من جميع جوانبها ، وان تدرك ان المسألة الجوهرية هي الصهيونية وليس « الفلسطينيين » — الذين توافق داف على « منحهم » دولة «فوق الضفة الغربية» — فان مقالتها جاءت اكثر موضوعية من معظم ما نشرته الصحف البريطانية مؤخرا حول هذا الموضوع . ففي معرض اشارتها الى « المعتدلين » في السياسة الاسرائيلية تذكر داف « ... هؤلاء هم من يجدر بالاشتراكيين ان يقدموا الدعم لهم ، ويجب انقاذهم من العزلة التي تحيط باسرائيل في هذه الآونة ، لان اي حكومة اسرائيلية ، جديدة او قديمة ، تتمكن — بمساعدة هنري كيسينجر — من وضع الفلسطينيين خارج الصورة ، فانه من المؤكد ان الحروب لن تتوقف ، كما ان معاناة الفلسطينيين والاسرائيليين ، على حد سواء ، ستستمر ». وفي اشارتها الى امكانية فشل « حملة كيسينجر السلمية » تقول داف « ... في هذه الحالة ، عندما لا يتم التوصل الى تسوية نتيجة لتجاهل الشعب الفلسطيني ، فانه يجب ان تقدم الاحزاب العمالية والاحزاب الاشتراكية — الديمقراطية الدعم الفعال بغية تشجيع اليسار في حزب العمل الاسرائيلي » . وتضيف « ان الدعم الاعمى للقيادات والحكومات لن يساعد عملية التوصل الى تسوية تنصف الفلسطينيين .. وتوفر الامن للاسرائيليين » . ان بيغي داف ومقالتها هذه ، قد تجعل منها دبلوماسية من الصنف الجيد ، ولكنها بالتأكيد لا تعبر عن وجهة نظر « داعية

اشتراكية » كما ترغب ، دائما ، في ان تظهر نفسها على انها كذلك . ولكن ، يبقى احتمال ان يدرك هارولد ولسون الفهم الذي توصلت اليه بيغي داف ، وهو « رفيق » لها في حزب العمال ، كاحتمال « دخول الجمل في خرم الابرة » !!..

يبقى ان نذكر قليلا عن صحيفة «التلغراف» ، وان كانت ليست ذات شأن يذكر بالمقارنة مع الصحف الاخرى ، كالتايمز والغارديان وتريبيون مثلا . فالديلي تلغراف ، او الصنداي تلغراف ، اليومية او الاسبوعية منها ، تتصيد الفرص كي تشهر بالعرب من موقف عنصري متشنج . فلا يمر شهر ، او اسبوع ، دون ان تجد التلغراف مناسبة ما للتهشيم او ترويج الاشاعات ضد العرب وضد القضية الفلسطينية . ففي صباح الاحد (٣/١٧/ ١٩٧٤) خرجت « الصنداي تلغراف » بافتتاحية تصدت بها التهشيم والتخريب اكثر مما هدفت الى السرد ونشر الاخبار . وناقشت الصحيفة موضوع تفجير طائرة (VC-10) تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية في مطار امستردام في اوائل آذار (مارس) الماضي . ومع العلم ان الصحف البريطانية الاخرى قد جاءت على ذكر الحدث ، فانها لم تبالغ ، ولم تجزم ، كما فعلت الصانداي تلغراف ، ان الاخبار التي تنشرها حقيقية . بينما نرى كاتب المقال ، كريستوفر دوبسون ، « يؤكد » ان العملية سلسلة من « اعمال العرب الارهابية »، وان من قام بها ليس هو « منظمة ايلول الاسود ، التي تتلقى الدعم من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والتي ينفق على تمويلها العقيد القذافي»، بل ان الذي قام بها ... (وتنتهي من قراءة المقالة من دون ان يذكر دوبسون « من قام بها !! »). ولكن الكاتب العتيد يعرف تماما ان من قام بها ليس منظمة كذا .. التي تلقى الدعم من كذا .. وينفق عليها كذا وكذا . هذا واحد من انماط الصحافة البريطانية في اواخر القرن العشرين !!.. يبقى ان نذكر ان كريستوفر دوبسون كاتب قصصي، « يتطوع » احيانا للكتابة في مؤسسة التلغراف ، ويتمتع بعلاقات جيدة مع اركان السفارة الاسرائيلية في لندن . ويعرف عنه في اوساط المثقفين البريطانيين انه من « كتاب القصة الفاشلين » ، ويبدو انه ، كصحافي ، « سيكسر عنقه قبل ان يصل الى قمة النجاح » .

● نيسان (ابريل)... وسقوط مئير

في مناسبات عديدة ، تكون الصحافة البريطانية خلالها توجه اهتماماتها نحو المساهمة في العمليات الخارجية للتوصل الى تسوية لازمة الشرق الاوسط ، فهي — اي الصحافة — تحرف نجاة هذا الاتجاه كي يصب في قناة اخرى . فبعد العملية الانتحارية التي قام بها الفدائيون الفلسطينيون في بلدة كريات شمونه (الخالصة) ، بدأت افتتاحيات الصحف البريطانية تظهر وكأن الازمة في الشرق الاوسط هي « ضرورة التخلص من الارهاب العربي .. وتجنب قتل الابرياء » ، وليس الاساس العنصري لدولة اسرائيل الاستيطانية—الكولونيالية.

ومن ناحية اخرى ، ان قراءة سريعة لافتتاحيات الصحف البريطانية خلال شهر نيسان (ابريل) ، تظهر ان ازمة الحكم في اسرائيل على انها ضربة من ضروب النزوات وليس واقعا . ففي الثالث عشر من نيسان (ابريل) الماضي ذكرت صحيفة الديلي تلغراف في افتتاحية لها ، في معرض التعليق على استقالة حكومة غولدا مئير ، « انها (مئير) قدمت لدولة اسرائيل خدمات عظيمة » . ما هي هذه الخدمات ؟.. تجيب الديلي تلغراف ان مئير « دافعت ، الى جانب دايان والاخرين ، عن سياسة الحق المعززة بالقوة . الا ان ذلك كله عصفت حرب تشرين الاول (اوكتوبر) به » . يبدو ان خمس سنوات في الاستراتيجية السياسية التي تبعتها اسرائيل نتيجة اصرارها على عدم تقديم أي تنازلات للدول العربية بغية التوصل الى « تسوية سلمية » ، هذه الاستراتيجية التي ادت الى مصرع الالاف من الاسرائيليين خلال معارك تشرين الاول (اوكتوبر) ، يبدو ذلك بالنسبة للديلي تلغراف ، الخدمات العظيمة التي قدمتها مئير « لدولة اسرائيل » .

تتميز الديلي تلغراف ، عن غيرها من الصحف البريطانية ، بانها تتمتع بنموذج فريد من المنطق اثناء تحليلها لاحداث منطقة الشرق الاوسط . فقد ادعت الديلي تلغراف ، في افتتاحية نشرت في عددها الصادر بتاريخ ١٦ نيسان (ابريل) الماضي في معرض تعليقها على الهجوم الاسرائيلي الوحشي على جنوب لبنان ، « ان اسرائيل اظهرت الكثير من كبح جماح النفس .. أن من حقها ان تسعى الى حماية نفسها .. وانه من المعيب ان تسمح

الحكومات لبضعة افراد من المتزمتين ان يقلبوا مجرى الاحداث رأسا على عقب ، بعد ان بدت ملامحه الاولى تدعو الى الاطمئنان » . الادعاء ان « اسرائيل تكبح جماح نفسها » مسموح به ، بينما الاضطهاد الاسرائيلي للشعب الفلسطيني وتشريده وتعذيب من بقي منه في اراضي الاحتلال تنساه الديلي تلغراف كلية وتتجاهل ان الفلسطينيين ايضا لم يعد بمقدورهم ان يكبحوا جماح انفسهم لمدة ٢٥ سنة اخرى . والادعاء في انه « من حق اسرائيل ان تؤمن الحماية لنفسها » لا يعني — وهذا ما يجب ان تدركه الديلي تلغراف — ان تشن هجمات وحشية على جنوب لبنان وتهدم منازل الفلاحين وتقتل اثنين وتخطف ١٣ من الاهالي .

بينما نجد صحيفة اخرى ، الاوبزرفر (١٤/٤/١٩٧٤) ، تلتقط اطراف خيوط الازمة من مماسكها الاصلية وتبرزها على صدر الصفحة التي حملت افتتاحية صباح ذلك الاحد . فقد ركزت الاوبزرفر على ان « ما يثير القلق اكثر من غيره ، ليس الاعمال التخريبية ، بل استقالة غولدا مئير ، حيث تركت اسرائيل من دون حكومة فعالة » . فالاوبزرفر ، التي تعبر عن وجهة نظر دوائر المال والاقتصاد وآراء رجال الاعمال ، تحاول في معظم الاحيان ان تلتزم جانب الحرص المشبوه ازاء معالجتها قضايا ذات حساسية بالغة ، كتلك التي تشهدها منطقة الشرق الاوسط . فالعملية الانتقامية التي قامت بها القوات الاسرائيلية ، بتوجيه من دايان ، ضد جنوب لبنان ، لم تكن محاولة منه كي يخفف من الصدمة التي احدثتها العملية الفدائية في نفوس سكان كريات شمونة ، بقدر ما كانت محاولة يائسة لاعادة « البطل » الى « الاسطورة » ، او العكس . والواقع ان الاسطورة انتهت بعد حرب تشرين الاول (اوكتوبر) وانتهى معها « البطل » ايضا .

وفي الثالث عشر من نيسان (ابريل) الماضي خرجت صحيفة التايمز بافتتاحية لها في معرض تعليقها على عملية كريات شمونة ، وحذرت العرب بانهم « يجب ان لا يقدموا على مثل هذه التصرفات بطريقة تدفع باتجاه قيام حكومة يمينية الاتجاه في اسرائيل » الا ان التايمز تخلط بين هذين الاصطلاحين : يمين ويسار في حزب العمل الاسرائيلي . وهل هناك أكثر « يمينية » من تآلف حزب العمل الحاكم ؟!.. يبدو ان صحيفة التايمز نسيت ان حزب العمل الاسرائيلي يسيطر على الحركة الصهيونية منذ اكثر من ربع قرن ، وان هذا الحزب وضع قوانين طرد الفلسطينيين من ارضهم ونفيا لها ، او يعاملون كمواطنين في الدرجة الثانية ومن دون ان يحملون اي جنسية فوق ارضهم . ويبدو ان التايمز نسيت ايضا ان حزب العمل الاسرائيلي هو الذي وضع سياسة الالحاق والضم للاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، او لجزء منها ، وان حزب العمل يدخل في تحالفات مع جنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال والولايات المتحدة !.

قضية اخيرة ، تناولتها الصحف البريطانية ، وتستحق التوقف عندها قليلا ، وهي موقف الاتحاد السوفياتي في ازمة الشرق الاوسط ، والحملات المضادة التي توجه ضده محليا وعالميا . ولسنا هنا في معرض الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ازاء ما يتعرض اليه من حملات دعائية ، مشبوهة ومغرضة ، تصدر عن عدد من الدوائر العربية المعروفة . ولكن الذي تجدر الاشارة اليه هو موقف الصحافة البريطانية ازاء هذه المسألة ، هذا الموقف ، الذي ذهب في عدائه وتغريضه ، خطوات ابعد من تلك التي تصدر عن الجهات العربية .

فالديلي تلغراف ، على سبيل المثال ، تتطوع دائما كي تضم صوتها الى الاصوات الاعلامية التخريبية الاخرى . ففي الثامن من شهر نيسان (ابريل) الماضي شنت حملة ضد الاتحاد السوفياتي في افتتاحية للديلي تلغراف ، لو كان قيصر روسيا على قيد الحياة لامتنع ان يشن حملة مماثلة . فهي تقول « ان الروس هم العقبة في طريق التسوية» ، ولكنها لا تشرح اي «تسوية»!! فالروس ، ان كانوا يشكلون عقبة في طريق « التسوية » ، فهم كذلك امام تسوية امريكية — صهيونية ، وتضيف الديلي تلغراف ان « الروس هم الذين يشجعون السوريين على مواصلة القتال في جبهة الجولان » (!). وهل المقاتلون السوريون ينتظرون التشجيع ، وممن ؟!.. من الاتحاد السوفياتي ؟!.. يا لشدة غباء الديلي تلغراف.. او ما ابشع صهيونيتها ورجعيتها . أن العلاقات

السوفياتية ــ العربية لم تكن ، في وقت من الاوقات ، احادية المصالح ، بل انها تقوم على تبادل هذه المصالح وتتمتع بموقف استراتيجي موحد ازاء قضايا الصراع ، ليس في الشرق الاوسط وحسب ، بل في جميع انحاء العالم ، ضد الصهيونية والرجعية وقوى الاستعمار السياسي والاقتصادي بجميع اشكالها .

وسمحت صحيفة التايمز الصادرة بتاريخ ١٧ نيسان (ابريل) الماضي « للصحافي » بريان كروزير ، الذي يعرف بميوله الفاشية والرجعية ، كي يسطر وجهات نظره المعادية للاتحاد السوفياتي ، في مقالة نشرتها الصحيفة . ويلخص المقال بانه يشير الى المخاطر التي قد تنتج عن فتح قناة السويس لان « الاسطول السوفياتي سيستفيد من ذلك » . وبعبارة اخرى ، يفضل الكاتب « العتيد » ان تبقى قناة السويس تحت سيطرة الاسرائيليين كي لا « يستفيد الاسطول السوفياتي من قناة السويس » . ولكن بما ان الوضع قد تغير ، واستعادت مصر قناة السويس بعد حرب تشرين الاول (اوكتوبر) ، يطلق كروزير « انذارات الخطر » كي يلفت انتباه العالم الى « الهجمة الحمراء المرتقبة » .

غريب امر هؤلاء الرجعيون الفاشيون ، فهم يحاولون ان يثيروا المخاوف لدى قراء الصحف البريطانية من « هجمة الروس الحمراء » وسيطرة الاتحاد السوفياتي « على دول العالم الثالث » ، ويطمسون حقائق لا تزال قائمة تثبت وتؤكد السيطرة الغربية ، الاوروبية والاميركية على العالم المتخلف . ان اكثر ما يغيظ هؤلاء ان تنتصر الشعوب ، بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى ، على الاحتكار الغربي الذي يسيطر على مصادر ثروات هذه الشعوب . وان ما يغيظهم اكثر توظيف سوريا والمقاومة الفلسطينية موقف الاتحاد السوفياتي لمصلحتهما ، خلال الصراع الدائر في هضبة الجولان بالنسبة الى سوريا ، او في الاراضي المحتلة ضد الاحتلال والرجعية من اجل اقامة السلطة الوطنية بالنسبة الى المقاومة الفلسطينية .

م. ك.

الفلسطينيون كما يبدون في الذهنية الاسرائيلية

عبد الحفيظ محارب

نشرت « شؤون فلسطينية » في العدد الماضي الحلقات الاربع الاولى من هذه الدراسة . ويتابع الكاتب في هذا العدد وفي العدد القادم دراسة الموضوع .

(٥)

سنكرس الحديث في هذا التقرير حول ثلاث موضوعات (١) اقتراحات وتصورات تبلغ حد الشطحات في بعض الاحيان من قبل كتاب اسرائيليين تجاه الشعب الفلسطيني والدولة الفلسطينية المقترحة (٢) آراء وافكار لبعض المعلقين الاسرائيليين تصب في مطالبة اسرائيل بالاعتراف والتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية (٣) وجهة نظر المسؤولين الاسرائيليين تجاه مصير الشعب الفلسطيني . وهناك بعض الملاحظات يجدر تسجيلها قبل الخوض في الموضوعات آنفة الذكر .

١ — ان القضية الفلسطينية قد برزت بقوة وسط مساعي التسوية ، هذه المساعي التي لا زالت تطبع بصماتها على الفترة التي اعقبت حرب اوكتوبر ، بشكل لم يسبق له مثيل . واذا ما أخذنا بعين الاعتبار ان القضية الفلسطينية هي لب واصل الصراع في المنطقة ، وان ما عداها بمثابة فروع للاصل من ناحية، وان المسؤولين الاسرائيليين وكذلك معظم المعلقين الاسرائيليين كانوا طيلة فترة الصراع يحاولون اسدال الستار على الاصل والاهتمام بالفروع من ناحية اخرى ، ندرك مدى تخبط وتباين وجهات النظر حول القضية الاساسية، التي تستحيل التسوية بدونها بقدر ما تستحيل معها .

٢ — ان كافة مقولات وطروحات الكتاب والمعلقين الاسرائيليين وكذلك الاحزاب الاسرائيلية — اذا استثنينا راكاح وأجنحة متسببين — ترفض رفضا قاطعا حتى الان ، وستبقى كذلك في المستقبل ، الا اذا غلبت على أمرها قهرا بواسطة القوة ، قيام دولة فلسطينية **مستقلة ذات سيادة** في الضفة الغربية وقطاع غزة حتى ولو عقدت هذه الدولة اتفاق سلام ووئام مع اسرائيل ، ناهيك عن رفضها المطلق لقيام سلطة وطنية شعبية مقاتلة ! وان كافة الطروحات الاسرائيلية حول قيام دولة فلسطينية تسلب من الدولة كل اسباب مقوماتها وتنعم عليها لقب دولة .

٣ — من هنا فاننا لن نجد في « الدولة » المقترحة بأنها تشكل حدا واضحا بين ما يسمى بالمعتدلين والمتطرفين ، فهنالك عدد من المتطرفين يدعو الى قيام هذه الدولة بشروطه ، كما وهنالك عدد من « المعتدلين » يدعو الى قيام هذه الدولة بشروطه هو . وجميع هذه الشروط تقيم سورا شاهقا بين الدولة وبين سيادتها واستقلالها .

*

وسط الجدل الدائر بين اوساط الاسرائيليين حول وجود الشعب الفلسطيني او عدم وجوده ، قيام دولة فلسطينية على أجزاء معينة من « ارض اسرائيل الغربية » وعلى جميع « اراضي اسرائيل الشرقية » ، او اعتبار هذه الدولة بمثابة « مرجل للشياطين » ، حقوق الشعب الفلسطيني في « ارض اسرائيل » وحقوق اليهود على هذه « الارض » . اتحف الحوار كاتب اسرائيلي يدعى عزريا ألون بتقليعة تفوق في غرابتها تقليعة البروفيسور اليميني يوسف دان ، وتتفوق في

سخافة منطقها على منطق منظر حزب العمل سابقا « المعتدل » اريه اليآف . فالكاتب اراد من خلال بحث تصير القول بأن العرب أخذوا منذ مدة وخاصة خلال القرن التاسع عشر يهاجرون الى فلسطين من كل حدب وصوب وان هذا « الخليط من الناطقين بالعربية » اخذ يتكاثر بواسطة الهجرات المتتالية ليدعي فيما بعد بأن له حقوقا تاريخية على فلسطين . اي انه أراد قلب الواقع تماما ، فالبس العربي الثوب الصهيوني ، وخلع على الصهيوني البز العربي .

ففي مقالة نشرت في ملحق دافار ١٩٧٤/٣/١٥ تحت عنوان « ميراث الآباء » يتحدث الكاتب عن عدد العرب الذين يعيشون غربي النهر،ويقول ان هنالك حوالي مليون ونصف المليون عربي ، وبدقة أكثر «الناطقين بالعربية بما في ذلك المسيحيين والدروز» ويذكر ان مجموع « الناطقين بالعربية » الذين ينسبون انفسهم الى « أرض اسرائيل » يتراوح ما بين مليونين ومليونين ونصف ، يتساءل بعد ذلك ، كيف تكون هذا العدد ؟ يقرر الكاتب ان « ارض اسرائيل » كانت بمثابة مقاطعة نائية للامبراطورية العثمانية وان « سكانها الدائمين خف بشكل متواصل وان الاماكن الخالية كانت تعبأ بين الفينة والاخرى باخرين » وان عدد سكان فلسطين في اواسط القرن التاسع عشر كان يتراوح بين ربع المليون وال ٤٠٠ الف نسمة ، كما وان هذا العدد هو « ثمرة تجمع ابناء بلدان مختلفة خلال فترة تقارب المئتي عام » . ويعتقد الكاتب ان الهجرات العربية هي السبب الرئيسي في تزايد السكان العرب ، وليس التكاثر الطبيعي ، ثم يغوص في مصادر الهجرة حتى عام ١٩٤٨ . ويمكن تقسيم هذه المصادر كالتالي شمال افريقيا : يذكر الكاتب ان كثيرا من العائدات المغربية التي كانت تأتي لاداء فريضة الحج قد استوطنت في فلسطين خلال فترات مختلفة ، ويضيف بان الهجرة من دول المغرب قد ازدادت عند منتصف القرن التاسع عشر عقب وضع الفرنسيين حدا لثورة عبد القادر الجزائري ، حيث وجدت « جماهير مغربية ملجأ لها » في فلسطين .

مصر والسودان : يرى الكاتب ان الهجرة من مصر الى فلسطين كانت قائمة وازدادت ابان حملات ابراهيم باشا على سوريا حيث « قدمت الموجة الكبيرة من المصريين والسودانيين » وان موجة الهجرة من مصر لم تنقطع واشتدت ابان الحرب العالمية الاولى حين جلبت القوات البريطانية عمالا مصريين بغرض استخدامهم ، الا ان هؤلاء « استوطنوا هنا » ، ويذهب الكاتب في التدليل على صحة اقواله بالقول بان هنالك عائلات ما زالت تحمل لقب « المصريين » او « المصاروه » اما بالنسبة للسودانيين « انهم حتى اليوم يعرفون من خلال منظر وجوههم » . بالاضافة الى ذلك يرى ان طوائف معينة مثل العرب الدروز قد قدمت في القرن السابع عشر من الشمال « واستوطنت في ثماني عشرة قرية معظمها خالية في الجليل والكرمل » .

موجات الهجرة غير العربية : يرى الكاتب ان « أرض اسرائيل الغربية » قد شهدت موجات من المهاجرين المسلمين غير العرب ، حين قدمت اليها موجات من المسلمين ، مثل اليوغسلافيين والشركس والتركمان وغيرهم .

وفيما يتعلق بالهجرة اليهودية ، فان الكاتب يرغب في الاعتقاد بأن « الاستيطان اليهودي في البلاد لم ينقطع في يوم من الايام » وان هجرة اليهود المتدينين في اواخر القرن الثامن عشر عززت اليشوف اليهودي « على الرغم من الهزة الارضية الفظيعة عام ١٨٣٤ التي هدمت المدينة (صفد) ونجم عنها مقتل ٢٠٠٠ يهودي في يوم واحد » لينتقل بعد ذلك الى القول ان الهجرة العربية الاساسية « لارض اسرائيل » قد حدثت في نفس الفترة التي بدأت فيها الهجرة اليهودية بالتعاظم ، وان الهجرة العربية كانت تجد ابوابا مفتوحة بعكس الهجرة اليهودية . ثم يأخذ يتحدث عن الاستيطان الصهيوني الذي « بفضله » غدا العرب يمتلكون حقوقا في البلاد : « الاستيطان لم يسلب ، بل بالعكس فتح بوابة امام الجماهير العربية التي أصبحت بواسطة ذلك تمتلك « حق الاباء » على البلاد بالرغم من كونهم مهاجرين قدموا من بلدان مختلفة ». ثم يأخذ الكاتب بنفي حق العرب في « أرض اسرائيل » (فلسطين) ويقرر بأنه « اذا كان الحديث يدور حول ميراث الاباء، فان ارض اسرائيل ليست ميراثا لاباء المصريين والسوريين والحورانيين والسودانيين والتركمان وسائر المهاجرين عربا كانوا او غير عرب وصلوا الى البلاد مع الهجرات

اليهودية او بعدها » بل تخص اليهود فقط ، الا انه يبدي في آخر مقالته تشككه في امكانية تحقيق المشروع الصهيوني على كل اجزاء « خريطة ارض اسرائيل» لاسباب تتعلق بالظروف المحلية والدولية، وفي نفس الوقت يبدي استعداده بأن يكون للعرب الذين يعيشون فيها نصيب الى جانب اليهود في هذه البلاد « انني لا ازال ارى من حقي الكامل ان اردد ما قاله بلنسون : « لمن هذه الارض ؟ للشعب اليهودي وللعرب الذين يعيشون فيها » وليس بالذات لاولئك الذين هاجروا اليها ، وبالتأكيد ليس لاسيادهم » .

اذا تجاوزنا المغالطات التاريخية ، ووقفنا حول الاستنتاج الذي خرج به الكاتب بان هذه الارض (حدودها غير معروفة) « للشعب اليهودي والعرب الذين يعيشون فيها ، وليس بالذات لاولئك الذين هاجروا اليها ...» فان السؤال هو من هم العرب الذين يغدق عليهم الكاتب صفة المهاجرين والمستوطنين ؟ واذا استثنينا السودانيين « الذين يعرفون حتى اليوم من خلال منظر وجوههم » فكيف يميز الكاتب بين وجوه المهاجرين العرب الاخرين وبين العرب « الاصليين » خاصة وان وشائج الزواج والقربى تربط بين « الطرفين » ؟

وقبل ان ننتقل الى اقتراح كاتب آخر لحل القضية الفلسطينية تجدر الاشارة هنا ، انه يبدو ان عزريا ألون ، كتب مقالته الانفة الذكر تحت وطأة النقاش الدائر بين التيارات المختلفة في اسرائيل ، وربما تكون المقالة قد ظهرت بعد حوار مع مجموعة من اوساط الجيل الجديد هناك شككت في الحق التاريخي الذي تدعيه الصهيونية لليهود على فلسطين، وسخفت من خريطة ارض اسرائيل، فهو يقول في مطلع المقال ساخطا : « ان اصطلاح كلمتي « ميراث الاباء » يحمل معنى مزدوجا : عندما يقال بالنسبة لليهود فانه يعبر عن شيء غيبي ديني شوفيني ، وعلى كل شخص مستنير وتقدمي ان يخلعه من جذوره ، وعندما يقال بالنسبة للعرب فانه يعتبر واقعيا تماما وعلى كل واحد ان يرتب افكاره واعماله بمقتضاه » .

مجموعة دول ارض اسرائيل : على خلاف عزريا ألون ، يرى الصحفي الاسرائيلي أ. شنفايتسر بأن هنالك ثلاثة شعوب تقطن « ارض اسرائيل » : الاسرائيليون والفلسطينيون والاردنيون ، وبما ان الامر كذلك ، ووسط البحث عن حل للقضية الاساسية للصراع ، تتفتق مخيلة الكاتب عن حل ، يعتبر حتى الان فريدا من نوعه، آخذا بعين الاعتبار المصالح الاقتصادية الاسرائيلية ، وفاتحا الباب امام « الروابط التاريخية لليهود في الضفتين الغربية والشرقية ، وحريصا في الوقت نفسه على السيادة الشكلية لكل من الفلسطينيين والاردنيين».

يعتقد شنفايتسر بأن القضية الفلسطينية هي أساس النزاع في المنطقة وان الزعماء الاسرائيليين يتميزون بالسلبية تجاه هذه القضية ، بينما «تسعى منظمات التخريب الى احلال السيادة الفلسطينية على جميع ارض اسرائيل » الامر الذي لا يمكن لاسرائيل قبوله . ثم يأخذ بانتقاد النظرتين الرئيسيتين في اسرائيل ، النظرة « التقليدية اللاعقلانية » لفئة المتطرفين ، والنظرة المجتزأة والغير مدروسة لفئة المعتدلين ، وكذلك انتقاد النظرة العربية حيث « يختلط في البحث حرارة مطلب الوحدة مع مزيج من مقاطع فكرية مناهضة للكولونيالية ليست ذات صلة بالموضوع » ، وبعد نقد منظور الفريقين ، لكي يجد مبررا لاقتراحه ، يبدأ بمعالجة القضية الاساسية ، ويرى انه اذا ما أعيد القطاع والضفة تحت سيادة دولة فلسطينية مستقلة ، فان الفلسطينيين سيكونون بمثابة « ... بؤرة للقيام باعمال ارهابية ، ولمؤامرات دولية ... » وان كلا من الاردن واسرائيل لن يستطيعا العيش بهدوء الى جانب مثل هذا الجار . يقول في هذا الخصوص : بما انه لا توجد سيادة بدون شعب ، كذلك لا يوجد شعب بدون منطقة ، والمنطقة الوحيدة التي يقطنها شعب يمكن ان ينسب اليه احساس فلسطيني ولديه وجود حاسم عليها ، هي المنطقة الواقعة بين الخط الاخضر ونهر الاردن وكذلك قطاع غزة . هنا يمكن اذن ، خلق سيادة لعرب ارض اسرائيل من ناحية الشعب والمنطقة معا . ولكن من المشكوك فيه ان تكون هذه بحد ذاتها لصالح اصحابها وجيرانها ايضا . وبما ان هذين القطاعين معا لا يمكن لهما ان يوفرا كيانا اقتصاديا للسكان الحاليين (فكم بالحري بانهما لا يستطيعان توفير كيان اقتصادي للسكان الذين سيزدادون عقب عودة لاجئي الحروب القديمة) فانهما سيكونان بمثابة عامل لحالة مستديمة من عدم الاستقرار ، وبؤرة للقيام باعمال ارهابية ، ولمؤامرات دولية ، وعدم الهدوء .

ان اسرائيل وكذلك الاردن شرقي النهر لن يستطيعا العيش بهدوء الى جانب جار كهذا ولن يرغبا بتكوينه ، واذا ما خلق ، فانهما سيرغبان في اختفائه » (هآرتس ٧٤/٣/١٨) .

ولكي يكون الجاران راضيين ، ولا يرغبان في اختفاء الوليد الجديد ، فانه من الضروري ردم التناقض القائم بين قيام دولة فلسطينية « والجو الهادىء » الذي يريده كل من اسرائيل والنظام الاردني ، وهذا لن يتأتى الا بخلق صيغة جديدة ، اطار سياسي جديد ، ليس اتحادا فدراليا بين الدول الثلاث لان ذلك من شأنه كما يقول الكاتب ان يحد من استقلال وسيادة هذه الدول ، بل اطار سياسي يتشكل من « مجموعة دول ارض اسرائيل » شبيه الى حد ما بالاطار السياسي لمجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة . واذا كانت مجموعة الدول الاوروبية قد سعت قبل كل شيء الى وحدة التعرفة الجمركية فانه ينبغي على « مجموعة دول ارض اسرائيل » ان تضع نصب عينيها خلال المراحل الاولى حرية الحركة والتنقل، والاستقرار السياسي في الضفة والقطاع . بعد ذلك يدعو الكاتب الى خلق سوق مشتركة لهذه الدول ، وايجاد حلول لقضايا العمل والسياحة والطاقة ، كما « ان مؤسسات مجموعة الدول التي ينبغي ان تقام وفق النمط الاوروبي ستعالج قضايا لا تؤثر على السيادة وستقوم بالاتهماك في برمجة وتنفيذ ترميم اللاجئين سواء الموجودين في يهودا والسامرة وغزه او الاردن اولئك الذين ان ينضموا اليهم مع تأسيس الدولة الفلسطينية ضمن اطار المنظومة » .

اما على الصعيد السياسي فيرى ضرورة المحافظة واحترام نظم الحكم في كل من تلك الاقطار ، ويطالب بان تلتزم كل دولة بعدم الاعتداء على أي من الدولتين الاخريين . حول ذلك يقول : « من الواجب الموافقة على موضوع واحد فقط : تلتزم بلدان المنظومة بان لا تهاجم او تعطي قاعدة لمن يود مهاجمة الدول الاعضاء . وباستثناء ذلك ، وعلى الاقل بشكل مبدأي فان كل دولة ستعيش وفق بنيتها النظامية وعلاقاتها الخارجية ، ان التعاون الملزم يصب في مجالات الاقتصاد ، الا ان الحقيقة هي ان التعاون الاقتصادي لا يمكن ان يجيء بدون مقدار من التعاون السياسي ، فترميم اللاجئين على مستوى المنظومة يعتبر عملا سياسيا من الدرجة الاولى .. » .

يسعى الكاتب من وراء اقتراحه الى الامور التالية : ١ — حل قضية اللاجئين الفلسطينيين ضمن اطار الدولة الفلسطينية والدولة الاردنية في نطاق « منظومة دول ارض اسرائيل » . ٢ — المحافظة على النظام الهاشمي في نطاق دول المنظومة وحمايته . ٣ — منح الشعب الفلسطيني من خلال الاطار الآنف الذكر صفة الدولة . ٤ — منح اسرائيل من خلال السوق المشتركة ، دورا رئيسيا في بناء اقتصاد دول المنظومة وربطه بالاقتصاد الاسرائيلي النامي ، والاطلال بعد ذلك ومن خلال دول السوق العتيدة الى بقية الاقطار العربية . ٥ — اشباع رغبات ومطامح الاسرائيليين في التواجد على جميع ارجاء « أرض اسرائيل ».

الى جانب هذين التصورين لكاتبين اسرائيليين ، التصور الاول يمنح السكان العرب « الاصليين » وليس العرب « المهاجرين » حق العيش في « ارض اسرائيل » فلسطين والتصور الاخر يرى ان الحل يكمن في اقامة « منظومة دول ارض اسرائيل » هنالك تصور اخر تجاه الدولة الفلسطينية ، ويعالجها من منظور اقتصادي سياسي ولا يرى امكانية لقيام دولة فلسطينية « عادية مستقلة » فحول التساؤل هل يمكن قيام دولة فلسطينية عادية ومستقلة ؟ اجاب كاتب اسرائيلي بثقة بالنفي ، في مقالة تحت عنوان « فلسطين في الضفة دولة او معسكر عمل كبير » (دافار ٧٤/٤/١٢) حين توصل تيدي برويس الى تلك النتيجة . في مطلع تلك المقالة يعترف الكاتب بأن الظروف قد فرضت القضية الفلسطينية على المجتمع الاسرائيلي بعد تجاهل استمر لمدة طويلة « على الرغم من ان رئيسة الحكومة اكثرت في السابق — الان اقل — من السؤال ، في كل مناسبة ذكروا امامها الفلسطينيين ، « من هم » فان احتمال — خطر — قيام دولة كهذه اكثر من عدم قيامها . والكل يتساءل اذا ما كانت دولة كهذه تشكل تهديدا لكيان اسرائيل بالذات او اذا كان من المستحسن ان تقوم الىالشرق من اسرائيل؟ وبعد ان يتطرق الكاتب الى اقتصاد الضفة الغربية والقطاع يرى كزميله شفايتسر بأن الدولة المقترحة لا يمكن ان تكتفي نفسها اقتصاديا ، ولذا فان

امامها خيارين ، الاول الارتباط باسرائيل وبـذا تصبح بمثابة « سوق عمل كبير لاسرائيل » ويحمل هذا الخيار بثناياه السلام ، والثاني الاعتماد اقتصاديا على عناصر خارجية ، وهذا الخيار يحمل بين طياته نسفا للسلام ! يقول في هذا الخصوص: تكفي نظرة بسيطة لكي نـدرك بان المستقبل الاقتصادي لفلسطين ليس اقتصاد بلد من القشطة والعسل ... ان هذه الدولة ستكون فقيرة ، وتشير المعطيات الى امكانيتين فقط : الاولى استمرار الروابط الاقتصادية مع اسرائيل ، الثانية الاعتماد على استيراد الاموال التي ستتدفق كما يبدو باحجام كبيرة الى الدولة الجديدة . ان عملية الحسم بين هذين البديلين ترتهن بالقرارات السياسية التي ستتخذها الزعامة الفلسطينية والمؤسسة العربية العالمية ، فاذا ما تقرر العودة الى وضع اللاحرب واللاسلم مثلما كان الوضع عليه حتى يونيو ١٩٦٧ فسيرتسم البديل الثاني (ارتباط اقتصادي بالاوساط الاجنبية) واذا ما ابقوا الحدود مفتوحة مع اسرائيل — على افتراض ان اسرائيل لا تعارض ذلك ، سيستمر بشكل عام الوضع الذي تطور في غزة والضفة الغربية منذ يونيو ١٩٦٧ . ان الخيار الثاني سيبقي فلسطين كمعسكر عمل كبير يعيش على تصدير خدماته ، ولكنه يجلب معه السلام الى المنطقة ، اما الخيار الاول فانه يحمل بين طياته براعم حروب أخرى وازمات اجتماعية خطرة في الدولة الجديدة » .

الدعوات المطالبة بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية : نعود الان لالقاء الضوء على الدعوات المطالبة بشكل ضمني او علني للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وتجدر الاشارة هنا ان قضية التفاوض مع الفلسطينيين او منظمة التحرير بالذات لم تعد القضية التي يفرز من خلالها اليمين الصهيوني او اليسار الصهيوني ، فهنالك اصبح عدد من كلا الطرفين يدعو للتفاوض مع « الفلسطينيين » وفي بعض الاحيان وبصراحة اكثر مع منظمة التحرير الفلسطينية مثل يهوشفاط هركابي يمين وسط صهيوني ونفتالي بن موشيه ونتان يلين مور من اليسار الصهيوني .

يعتقد نفتالي بن موشيه (مبام) في مقالة نشرت له تحت عنوان « القضية الفلسطينية تغلي » (عل همشمار ٧٤/٣/١٠) ان القضية الفلسطينية هي اساس الصراع في المنطقة ثم يأخذ في انتقاد المسؤولين الاسرائيليين لموقفهم من الكيان الفلسطيني وتجاهلهم للشعب الفلسطيني ، وكذلك انتقاد السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، ليقرر بعد ذلك انه « عقب حرب اوكتوبر انهارت كثير من المفاهيم ، ومن بينها المفهوم السائد والقائل بانه من الممكن تجاوز العامل الفلسطيني » ليصل الى القول بان ذهاب منظمة التحرير الى جنيف وتفاوضها مع اسرائيل على اساس قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ يعتبر نصرا سياسيا لاسرائيل ، ولذا فانه يطلق تساؤلا : « هل يمكن ان يكون هنالك نصر اكبر بالنسبة لاسرائيل والصهيونية من استعداد منظمة التحرير الفلسطينية لاجراء مفاوضات مع اسرائيل على اساس قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ؟ الا ينطوي ذلك بعد حدوثه على اعتراف في اسرائيل وحدود الهدنة ، وتنصل من سراب قيام «فلسطين» على انقاض اسرائيل؟». ومن هنا فان الكاتب يرى بان « النصر الاكبر » لاسرائيل الناجم عن ذهاب منظمة التحرير الى جنيف هو من بين الاسباب الرئيسية التي « تدعو الى الاعتقاد بان منظمات التخريب المتصارعة فيما بينها سترفض الذهاب الى مؤتمر جنيف » واذا ما حدث ذلك فانه يدعو السلطات الاسرائيلية بان لا تجلس مكتوفة اليدين ، بل تعمل بشكل فعال لخلق معتمدين فلسطينيين جدد من صفوف « عرب المناطق » ومع ذلك فانه لا يستبعد احتمال قيام منظمة التحرير في « نهاية المطاف » بالموافقة على حضور مؤتمر جنيف ، ويتمنى على اسرائيل ان لا تدير ظهر المجن لهذه الموافقة « هنالك احتمال معقول اخر ، بان تحسم في نهاية المطاف الاغلبية الاكثر تساهلا بين المنظمات الفلسطينية الامر ، وتنضم الى مباحثات جنيف ، وفي هذه الحالة فان رفض اسرائيل الجلوس معها والاعتراف بتمثيلها قد يخلق حالة حبلى بالكوارث بالنسبة لاحتمالات السلام بشكل عام ، ونكون نحن قد اخذنا على كاهلنا مسؤولية نسف المباحثات مع كل الاحتمالات المتعلقة بذلك — مقابل رأي عالمي يوجه الينا اصبع الاتهام » . ليخلص الى دعوة الاسرائيليين للتخلي عن سياسة « الرفض المطلق » لقيام دولة فلسطينية في الضفة والقطاع و « ان نستمر في قوة وفهم لتأمين تحقيق مطالبنا الملحة : تعديلات امنية على الحدود ، تجريد من السلاح ، حدود مفتوحة

وتعاون اقتصادي » ويعود مرة اخرى وينصح حكومة اسرائيل « بان تدرك بانه لا يمكن التغاضي بعد الان عن العامل الفلسطيني وتجاوزه ، ذلك انه عامل ديناميكي في كل مفاوضات وفي كل تجسيد لترتيبات السلام مع العرب . وهذا الواقع يتطلب منا الانفصال عن الماضي وبلورة سياسة جديدة ديناميكية فعالة للقضايا المركبة الملحة الماثلة امامنا » .

واذا كان نفتالي بن موشيه قد ركز على «النصر الاكبر » لاسرائيل اذا ما ذهبت منظمة التحرير الى جنيف ، فان نتان يلين مور لم يركز في مقالته « تبدل فلسطين » (هآرتس ٧٤/٣/١٨) على ذلك وانما تعداه وركز على الزعم القائل بان الروح السائدة في منظمة التحرير وليس تصريحاتها المعلنة لا تتنافى ووجود الكيان الاسرائيلي ، في محاولة لاقناع القراء وكذلك دفع السياسة الاسرائيلية الى الوقوف على الفوائد الكامنة من وراء حضور منظمة التحرير الفلسطينية مؤتمر جنيف .

لقد صور الكاتب في مقالته بان هنالك تبدلا في موقف منظمة التحرير واستشهد على ذلك بظهور وفد عن المنظمة في شباط الماضي في روما للاشتراك في الاجتماع التحضيري للمؤتمر الدولي من اجل السلام والعدل ، الى جانب وفد اسرائيلي. ويبدو ان يلين مور لم يقتنع بان الاستشهاد الذي اورده يشير الى « التبدلات العميقة الجارية في المنظمة » ذلك انه يمكن ان يكون هنالك من بين الاسرائيليين من يرى بان ظهور وفد عن منظمة التحرير في المؤتمر الدولي يدل قبل كل شيء على مدى النجاح الذي احرزته منظمة التحرير بين الاوساط المستنيرة والتقدمية في العالم ، خاصة وان المؤتمر استثنى حضور الحزب الحاكم الاسرائيلي وكذلك الاحزاب اليمينية واقتصر الحضور الاسرائيلي على الاحزاب والاجنحة المعارضة للسياسة الرسمية تجاه المناطق المحتلة . لذا فانه تقفز الى موضوع اخر لاثبات بان هنالك تبدلات عميقة تجري داخل منظمة التحرير ، واخذ يركز ويشكل مسهب على الاحاديث والاتصالات الشخصية التي ذكر بانها قد جرت بينه وبين اعضاء الوفد الفلسطيني ، ليخرج باستنتاج بان هنالك تبدلات حقيقية تدور بين اوساط المنظمة ، ومن هنا فانه يدعو اسرائيل الى التوجه نحو منظمة التحرير لحل القضية الفلسطينية قبل ان يفوتها القطار خشية ان يحدث معها ما حدث لفرنسا في الجزائر حين كانت تصر على البحث عن زعامات جزائرية تقليدية بدل الاتصال مع « المعتدل فرحات عباس » . يقول نتان يلين مور حول ذلك : « ان هذه التبدلات تحمل البشائر لكل من يسعى الى حل سلام للصراع مع اسرائيل وجاراتها ، والذي يعتبر فيه الفلسطينيون طرفا اساسيا وهذا الامر يتعلق بشكل كبير على قرار اسرائيل . لن يكون هنالك تقدم اذا ما تعلقت اسرائيل باحلام التجزئة في العالم العربي حيث يترك الفلسطينيون لوحدهم ، كذلك فان الركض وراء الوجهاء في الضفة والقطاع في اقتراح لحكم محلي لا ينطوي على شيء في عام ١٩٧٤ . انهم سيرفضون الاقتراح ولن يستجيبوا للتوسلات ولا حتى للتحذيرات . كذلك فان حكومة فرنسا كانت هي ايضا على استعداد لتدفع الى سدة الحكم العناصر الجزائرية المعتدلة بغرض ردع ثورة دعاة الاستقلال ، لقد اقدمت على ذلك متأخرة ، عندما كان الصيدلي فرحات عباس المعتدل رئيسا لجبهة التحرير الجزائرية. فهل تتأخر اسرائيل عن الموعد هذه المرة ايضا ؟ بعد قليل ستبقى وحيدة في عدم اعترافها بالفلسطينيين وفي موقفها الذي سينهار عاجلا وليس اجلا » .

اما الكاتب الاخر الدكتور يهوشفاط هركابي ، وهو من عداد الفئات الصهيونية اليمينية ، خبير في شؤون الشرق الاوسط ، وله يد طولى في بلورة مفاهيم الجناح اليميني من حزب العمل تجاه القضايا العربية ، فقد غدا هو الاخر يرتأي ضرورة « التفاوض مع الفلسطينيين وعلى رأسهم منظمة التحرير الفلسطينية » لثلاثة اسباب يوردها في مقالة له تحت عنوان « حساب النفس القومي » (٧٤/٤/١٩ معاريف) .

١ — لاعتقاده بان السير على منوال الموقف المعلن لاسرائيل تجاه الفلسطينيين عمل خاطىء . يقول في هذا المجال : « يبدو لي ان الموقف الاسرائيلي المعلن والمتمثل في عدم الاستعداد لاجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية هو خاطىء ، فقد اعترفت حوالي مئة دولة في منظمة التحرير وينبغي علينا ان لا نلعب تجاه هذه القضية لعبة النعامة. ان اشتراكها في المفاوضات لا ينطوي على اعترافنا بها كممثلة وحيدة للفلسطينيين » .

٢ — لاعتقاده بان موقف منظمة التحرير قد

اكثر اعتدالا ومرونة ويتسم بالغموض تجاه الكيان الاسرائيلي . ويذكر ان منظمة التحرير درجت على اتباع « الحيل » المتمثلة في قيام احد المتحدثين بالادلاء بتصريح بروح معينة ليقوم متحدث اخر اخر بتكذيبه ، من اجل خلق انطباع في العالم يبدو معه وكأن منظمة التحرير قد غيرت من موقفها تجاه الكيان الاسرائيلي . ويذهب هركابي أكثر من ذلك ، حيث يدعي « بأن الفلسطينيين يستمتعون بايراد استشهادات من اقوال الاسرائيليين تؤيد ان الفلسطينيين قد غيروا من موقفهم وهم على استعداد لتسوية سلام مع اسرائيل » ولم يوضح لنا الدكتور الذي انقلب فجأة وغدا يطالببالتفاوض مع منظمة التحرير من هم هؤلاء الفلسطينيون الذين يستمتعون بـ ... ليطالب بعد ذلك لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست دراسة الاقوال الصادرة من قبل اسرائيليين والتي من شأنها افادة العرب ! (أنظر البند ١٥ من المقال آنف الذكر الذي كتب على شكل مذكرة) .

٣ — لاعتقاده بان ذلك من شأنه ان يمنح اسرائيل ورقة يمكن من خلالها ان تساوم بها الفلسطينيين والنظام الاردني معا . حول ذلك يقول : «ان الشروع في مفاوضات مع الفلسطينيين ينطوي على قيمة بالنسبة لموقفنا تجاه الاردن ، ذلك ان امكانية المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ستمنحنا ورقة ضد الاردن الذي لم يتخوف حتى الان من منافس . يوجد لدينا هنا امكانية للعب بين الاردن والفلسطينيين ، ليست متوفرة بالنسبة للعلاقات مع دول عربية اخرى » .

للاسباب الانفة الذكر وبالاضافة الى موقفه المعروف والذي ثبته في مقالته والقائل بأن احتمال قيام سلام حقيقي بين الدول العربية واسرائيل ضئيل جدا ويكاد يكون معدوما بسبب الهوة الشاسعة بين المواقف ، يرى هركابي انه « يبدو لي اننا نتصرف بتعقل اذا ما اعربنا عن موافقة مبدأية للتباحث حتى مع الفلسطينيين ، وعلى رأسهم منظمة التحرير الفلسطينية ، من خلال عرض مطلب بان يثبت في الاتفاق بشكل واضح ان السلام هو نهاية الصراع (اي نوع من السلام هذا اذا ما استمر الصراع بعده ؟) وان الاتفاق يشكل اعترافا في العيش سوية مع اسرائيل » .

وجهة نظر المسؤولين الاسرائيليين : اذا كان هركابي يتصور ان اعتراف اسرائيل بمنظمة التحرير ينم عن « مسلك متعقل » فاننا لا نعرف الصفة التي يضيفها الى كلمة « مسلك .. » بالنسبة للمسؤولين في اسرائيل الذين يصرون على عدم الاعتراف بها . فرئيس الحكومة الجديد يتسحاق رابين يرى في برنامج حكومته « ان اسرائيل لن تذهب الى التفاوض في جنيف مع منظمات ارهابية بصفتهم مشتركين او كمراقبين » كما وانه يرفض مجرد دعوة المنظمات الفلسطينية الى جنيف « ان اسرائيل ترفض دعوة ممثلين عن المنظمات التخريبية والارهابية كمشتركين او مراقبين » ، كما وان الرجل الثاني في الحكومة يجال الون لا يزال متمسكا في مشروعه الذي يحمل اسمه ويرى ان اي حل لقضية الشعب الفلسطيني يجب ان يكون من خلال المفاوضات مع الملك حسين . واكثر شيء وصل اليه المسؤولون حتى الان تجاه التمثيل الفلسطيني هو ان يرتدي المسؤولون في المقاومة الفلسطينية الزي الملكي الاردني ومن ثم التوجه الى جنيف من قصر رغدان او بسمان بتوجيهات من جلالته ، كما يريد او — لا يعارض — وزير الشرطة شلومو هليل .

بالرغم من كون القضية الفلسطينية تشكل الحلقة المركزية للصراع في المنطقة الا ان رابين يرى بان مفتاح السلام او الحرب في يد الانظمة العربية وان قضية السلام والحرب هي رهن « العلاقات الاسرائيلية العربية وليست رهن العلاقات مع الفلسطينيين » كما ويرى ان مصر هي الدولة العربية الرئيسية التي يمكن لها ان تقطع شوطا بعيد المدى في قضية السلام والحرب، ويتحكم في هذا الفهم لرئيسة الحكومة الاسرائيلية الجديد تصور ومحاولة ، تصور بان الصراع مع الدول العربية يدور حول حدود ، بينما يدور الصراع مع المقاومة الفلسطينية حول كيان ، ومحاولة لانهاء وطمس الصراع الثاني من خلال ايجاد حل للصراع الاول ومع ذلك يبقى التصور والمحاولة مرتهنين بانحسار عاملين اساسيين (١) انحسار ووهن حركة التحرر داخل مصر وسائر المناطق العربية بما في ذلك المقاومة الفلسطينية (٢) زوال شهوة التوسع الاسرائيلي في الاراضي العربية غير الفلسطينية .

اما فيما يتعلق بمصير الشعب الفلسطيني ، فانه يرى ضرورة ايجاد حل له ضمن الاطار

الاردني ، ويعارض اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة « لان اقامة دولة فلسطينية منفصلة عن الاردن لن تكون الا بمثابة قنبلة زمنية مؤقتة تؤدي الى اندلاع حرب عربية اسرائيلية جديدة ». واذا كان رابين يرى ان مفتاح الحل بين الانظمة العربية وليس بيد الفلسطينيين ، فانه يرى ان من مصلحة اسرائيل استمرار قيام نظام الملك حسين للدور الذي يقوم به « ذلك لان النظام الهاشمي لا يمكن عناصر الارهاب الفلسطينية من استخدام الاردن كقاعدة عمل ضد اسرائيل ، ويحول دون تواجد سوفييتي في المنطقة » (دافار ٧٤/٥/١٧) .

اما الرجل الثاني في جهاز الحكم الاسرائيلي يجال الون فلا يختلف كثيرا عن رابين من حيث المنظور العام تجاه القضية الفلسطينية ، فهو يرى كما ورد في مقالة له نشرت في مجلة « بمفنيم » الناطقة باسم الكيبوتس الموحد عند مطلع ايار الماضي : « ان السابقة التي نجحت في اعقاب المفاوضات مع مصر ستسهل على الاردنيين الشروع في مفاوضات علنية مع اسرائيل . ويمكن التوصل حتى ولو تحت نفس العنوان « فصل القوات » الى حلول متعددة ومختلفة » واشترط ان تكفل التسوية مع الاردن الامور التالية : « ١ — منع تحشد قوات نظامية ، والحيلولة دون خطر اندلاع حرب جديدة . ٢ — خلق اتصال تلفوني مباشر ودائم بين القادة في المناطق المختلفة وتحديد ترتيبات مراقبة مشتركة ومتبادلة لضمان حرمة الاتفاق . ٣ — منع تجدد الاعمال الارهابية والتخريبية على ضفتي الاردن ٤ — العمل على تقليص تأثير الدعاية المتطرفة لمنظمات الارهاب وانصارها على الراي العام الفلسطيني في الضفة الغربية » .

واذا استثنينا البند الاول من اتفاق « فصل القوات » مع الاردن الذي يقترحه الون نجد انه اقرب الى الاتفاق العسكري بين النظام الاردني واسرائيل بغرض مواصلة قهر الشعب الفلسطيني، منه الى اتفاق فصل للقوات ، خاصة وانه ليس هنالك ما يستدعي فصلها ! وعلى الرغم من ذلك فان الون لا يستبعد ان يخلق ظرف معين تتكون فيه مصلحة مشتركة لاسرائيل والاردن و «للجمهور الفلسطيني البناء» حيث يصل الجميع الى اتفاق ، ولكن من خلال خريطته المشهورة . ولكيلا يعتري القارىء شك بانه في هذه المبادىء قد تخلى عن مشروعه ، يقرر الون : « يبدو لي انه يتوجب علي ان اضيف بانه من الناحية المبدأية لا يوجد تناقض بين ما هو مقترح هنا ، وبين المشروع الذي لم انسحب منه ولا زلت اتمسك به ، بل العكس ، ان كل ما هو مقترح هنا يجيء ضمن اطاره » .

أما وزير الداخلية والشرطة شلومو هليل فيعتقد، كزميله ، بان حل القضية الفلسطينية ينبغي ان يكون داخل الاطار الاردني ومن خلال اتفاق مع النظام الهاشمي لاعتقاده بان اية تسوية « ينبغي ان تكون بيننا وبين صاحب السيادة الرسمي للمناطق ، واذا لم تكن التسوية كذلك فانها لن تكون عملية » (أنظر المقابلة الصحفية للوزير مع معاريف ٧٤/٤/٢٨) . وبخصوص الحل النهائي لقضية الفلسطينيين فيرى انه ينبغي ان يتم في المناطق التي ستنسحب منها اسرائيل في الضفة الغربية وعلى جميع الضفة الشرقية لاعتقاده بأن حقوق الشعب الفلسطيني على الضفة الشرقية لا تقل عن حقوقهم على يافا وتل ابيب ! « اننا نقول بان حل قضية الشعب الفلسطيني يمكن ان يتأتى في نفس الجزء من الضفة الغربية الذي لن يكون في ايدينا وفي جميع الضفة الشرقية التي تعتبر حقوق الفلسطينيين عليها لا تقل عن حقوقهم على يافا وتل ابيب . وعليه ، ستكون الاردن دولة تجمع بالفعل ثلثي الشعب الفلسطيني ، وهكذا يكون ثلثا شعب الاردن من الفلسطينيين ... »

ومع ان هليل يصر على ان يكون الاتفاق مع النظام الاردني الا انه لا يعارض اذا ما ارتأى النظام ارسال احد قادة المقاومة حتى ولو كان ياسر عرفات للتفاوض في جنيف مع اسرائيل ، بحجة انه لا يملك ان يفرض على الملك من يرسل للتفاوض ، ولكنه يصر على ان لا يأتي تحت « عنوان منظمة الارهاب » او كما يقول : « اننا على استعداد للجلوس ايضا مع ياسر عرفات على مائدة المفاوضات في جنيف ، ولكن فقط اذا جاء الى هناك كممثل للاردن . اننا لا نملي على الاردن من يمثلها ، ومن ناحية اخرى اننا لسنا على استعداد للتباحث مع اي فلسطيني اذا جاء تحت عنوان منظمة الارهاب » .

شهريات

(١) القضية الفلسطينية دوليا

كان الشهر الماضي شهر الدبلوماسية الاميركية في الشرق الاوسط بلا منازع . اذ بعد ٣٣ يوما امضاها كيسنجر بالتنقل المستمر والسريع بين تل ابيب ودمشق توصلت وساطته الى اتفاق حول فصل القوات في الجولان بين الدولتين المعنيتين . وللتأكيد على اهمية هذا الحدث قام الرئيس الاميركي نيكسون باعلان نبأ التوصل الى الاتفاق بنفسه في بيان اذاعه مساء ٢٩ ايار ١٩٧٤ معلنا ان الممثلين العسكريين لسوريا واسرائيل سيوقعون الاتفاق في جنيف يوم الجمعة ٣١ ايار ضمن اطار فريق العمل العسكري المصري — الاسرائيلي في مؤتمر جنيف والذي انضمت اليه سوريا على اثر نجاح مهمة كيسنجر . واعتبر الرئيس نيكسون الاتفاق انتصارا دبلوماسيا بالغ الاهمية ووجه تحيته وتهنئته الى كل من الحكومتين السورية والاسرائيلية ، وعبر عن أمله في ان يكون الاتفاق خطوة على طريق ايجاد تسوية سلمية دائمة في المنطقة مشيرا الى ان عقبة كبيرة امام التسوية الدائمة قد ازيلت الان ووصفها بقوله « انها كانت اصعب عقبة » بسبب « الخلافات التي كانت قائمة لفترة طويلة بين سوريا واسرائيل » . واكد ان بلاده ستتابع مبادراتها الدبلوماسية وستعمل مع كل حكومات المنطقة لتحقيق التسوية الدائمة والسلام الدائم .

ويدعو الاتفاق الى اقامة منطقة عازلة مجردة من السلاح بين الجيشين تمتد من جبل الشيخ عبر مدينة القنيطرة الى المنطقة الجنوبية الشرقية حول الرفيد . وستتمركز القوات الدولية لمراقبة اتفاق فصل القوات فيها والتي سيبلغ عددها حوالي ١٢٠٠ عنصر . وتم الاتفاق على اقامة مناطق محدودة التسليح على جانبي المنطقة العازلة بالاضافة الى ترتيبات لتبادل الاسرى . ولم يتضمن الاتفاق اية اشارة الى خطر العمل الفدائي من منطقة الجولان ضد اسرائيل وهي مسألة كانت تصر اسرائيل على انتزاع اعتراف بها من سوريا اثناء المفاوضات . الا ان الولايات المتحدة قدمت تأكيدات لاسرائيل بانها ستعتبر اية عمليات فدائية عبر الجولان بمثابة خرق لوقف اطلاق النار وستقدم كل الدعم السياسي الكامل لاسرائيل في اية عمليات تقوم بها للرد على الغارات الفدائية المحتملة . ويعني الاتفاق عمليا على ما يبدو : ١ — انسحاب اسرائيل من الجيب الذي احتلته في حرب تشرين الاخيرة . ٢) الانسحاب من منطقة القنيطرة بحيث تستعيد سوريا هذه المدينة المحتلة تحت ادارة مدنية وبدون حق ادخال اية قوات اليها باعتبارها جزءا من المنطقة العازلة . ٣) باستطاعة السكان الذين نزحوا عن هذه المناطق العودة اليها . ٤) انسحاب اسرائيل من مدينة الرفيد وبعض القرى في تلك المنطقة . ٥) تخلي اسرائيل عن اثنين من المواقع الاربعة التي تحتلها في جبل الشيخ لمصلحة الامم المتحدة. ٦) بقاء التلال الاستراتيجية المشرفة على القنيطرة بيد القوات الاسرائيلية مع الاخذ بعين الاعتبار وقوعها ضمن اطار المنطقة المحتلة المحدودة التسليح . ٧) قيام طائرات الاستطلاع الاميركية برحلات فوق منطقة الجولان للتحقق من تقيد كل من الطرفين ببنود اتفاقية الفصل وتنفيذ نصوصها . ٨) ذكرت مصادر اميركية بانه لا يحق لاي من الطرفين الاحتفاظ باكثر من ستة الاف جندي في المنطقة المتقدمة من الجبهة وان وجود المدفعية الثقيلة محظور على عمق ١٢ ميلا ووجود صواريخ ارض — جو محظور على عمق ١٥ ميلا. ٩) اشارت هذه المصادر الى ان الولايات المتحدة

ارتبطت بتعهدات سرية مع كل من الجانبين . وقد اكدت جولدا مائير وجود بروتوكولات سرية بين اسرائيل والولايات المتحدة تتعلق باتفاق فصل القوات .

وجدير بالذكر انه في الوقت الذي تم فيه الاعلان عن اتفاق فصل القوات كان الوزير السوفياتي جروميكو موجودا في دمشق . وقد صدر بيان صحافي عن زيارته تطرق الى الاتفاق المذكور محددا وجهة النظر السورية — السوفياتية في فهمها لمعنى الاتفاق وتفسيره ومغزاه . أكد البيان : ١) ان مسألة فصل القوات في الجبهة السورية ليست الا خطوة اولى وجزءا لا يتجزأ من الحل الشامل للنزاع في المنطقة . ٢) تطابق مواقف الجانبين السوري والسوفياتي وخاصة بالنسبة الى اعتبار الانسحاب الاسرائيلي التام من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني الاساس الذي لا بديل عنه لاي حل عادل لمشكلة الشرق الاوسط والذي لا يمكن بدونه تحقيق مثل هذا الحل . ٣) ان التوصل الى اتفاق فصل القوات يعني ضرورة المبادرة فورا الى اتخاذ الاجراءات اللازمة من اجل التوصل الى الحل الشامل والعادل الذي يؤمن تنفيذ قرارات الامم المتحدة. ٤) تأكيد الجانب السوري ضرورة اشتراك الاتحاد السوفياتي في كل مراحل الحل وميادينه . وتأكيد الجانب السوفياتي ثبات تأييدهم الشامل لسوريا في نضالها من اجل ازالة اثار العدوان الاسرائيلي وتأكيد الجانبين معا لعلاقات الصداقة المتينة القائمة بين البلدين وبين شعبيهما وعزمهما على عدم السماح لاي جهة بالنيل من العلاقات الوطيدة والصداقة المتينة بين البلدين .

وفي ١٣ ايار تم توقيع الاتفاق* بالاحرف الاولى في جنيف في اجتماع رأسه قائد قوات الامم المتحدة في منطقة الشرق الاوسط وحضره رئيس الوفد الامريكي ورئيس الوفد السوفياتي الى مؤتمر السلام في جنيف . هذا بالاضافة الى ممثل مصر في فريق العمل العسكري المصري — الاسرائيلي والممثل الشخصي للامين العام لهيئة الامم . وعلى اثر الانتهاء من التوقيع بدأ عمل مجموعة العمل العسكرية المصرية — السورية — الاسرائيلية برئاسة الجنرال سيلاسفيو للبحث في الجوانب العسكرية المحض والتفاصيل الفنية لتنفيذ اتفاق فصل القوات . ويشمل عملها تحديد المراكز الاسرائيلية الجديدة بعد الانسحاب من المناطق المعنية ، وتحديد مراكز قوات الامم المتحدة ، ومراكز تقدم القوات السورية الى الاماكن التي ستتسلمها ، بالاضافة الى موضوع البحث عن جثث القتلى التي ما زالت متروكة على ارض المعركة . وقد حضر الاجتماعات مراقبون من قبل الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على خلاف ما حدث بالنسبة للاجتماعات المشابهة التي جرت عند تنفيذ فصل القوات في جبهة قناة السويس . وفي ٥ حزيران أنهت مجموعة العمل هذه اعمالها وتم التوقيع على الوثائق المتفق عليها لتنفيذ اجراءات فصل القوات .

على اثر انتهاء مهمته في دمشق انتقل كيسينجر الى القاهرة حيث قابل الرئيس السادات الذي أعلن على اثر اجتماعه بالوزير الاميركي انه مهما كانت المقاييس فلا شك ان الدكتور كيسنجر قد حقق معجزة مرة اخرى ، واضاف السادات قائلا « انا فخور بما قام به لانه صديقي واخي » . كما أشاد الوزير الاميركي بدور الرئيس السادات في تمهيد الطريق امام نجاح فصل القوات في الجولان. وقد أكد كلاهما بأن ما جرى حتى الان ليس سوى خطوة على طريق السلام العادل في المنطقة . بالاضافة الى ذلك تم الاتفاق على تشكيل لجنة مصرية — اميركية مشتركة لدرس كل مجالات التعاون بين البلدين . وستكون اللجنة برئاسة كيسنجر نفسه ووزير خارجية مصر اسماعيل فهمي. وستشمل مجالات التعاون الميادين الاقتصادية والعلمية والثقافية . وقد صدر بيان مشترك حول هذا الاتفاق ذكر بأن هذه اللجنة المشتركة ستمكن البلدين من وضع برامج بعيدة المدى لخدمة المصالح المتبادلة بينهما .

ومن ناحية اخرى ذكرت مصادر دبلوماسية اميركية مطلعة (« النيويورك تايمس » ، ٨ حزيران ١٩٧٣) ان الحكومة الاميركية تعهدت لاسرائيل بتطبيق سياسة جديدة تجاهها في مجالات التسليح قوامها بالا تخضع شحنات الاسلحة الاميركية

---

* نص الاتفاق الحرفي موجود في مقال المقدم الهيثم الايوبي صفحة ١٣ من هذا العدد .

المخصصة لاسرائيل لقرارات سنوية بل ان يمتد الالتزام بذلك لفترة خمس او عشر سنوات . وقد أكد كيسينجر هذه المعلومات في المقابلة التي اجراها مع لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ . وبين كيسينجر ان بلاده ستضع في تصرف دول الشرق الاوسط مبلغ مليار دولار ضمن اطـــار برنامج المساعدات الاميركية الخارجية تحصل منها اسرائيل على ٣٥٠ مليون دولار والاردن على ٢٠٧ ملايين دولار ومصر على ٢٥٠ مليون دولار وسوريا ١٠٠ مليون دولار . ويفترض في بعض هـــذه المساعدات ان يتم انفاقه على اعادة تعمير مدينة القنيطرة ومدن قناة السويس . وكان من النتائج الاخرى لاتفاق فصل القوات البحث في اعـادة العلاقات الدبلوماسية بين سوريا والولايات المتحدة في المستقبل القريب وقيام نيكسون بزيارة دمشق اثناء جولته القادمة في المنطقة .

وقد علق الرئيس الاسد على اتفاق فصل القوات في مقابلة اجرتها معه مجلة « نيوزويك » الاميركية في الاسبوع الاول من حزيران قائلا ان ســـوريا واسرائيل لم تقدما أية تنازلات اذ ان الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية جاء وفقا لقراري مجلس الامن رقم ٣٣٨ و٢٤٢ وهذا لا يشكل تنازلا بل يعني « ان اسرائيل بدأت تتيقن من ان الاحتلال لا يوفر لها الامن » . واشار الرئيس السوري الى ان بلاده تنظر الى الاتفاق على انه جزء من الحل الدائم وكخطوة نحو التطبيق الكلي لقرارات الامم المتحدة الذي يعني الانسحاب الاسرائيلي الكامل وضمان الحقوق الفلسطينية . وقد اثنى على جهود كيسينجر الضخمة ، على حد تعبيره ، بقوله انه « لم يكن من الممكن تحقيق ما تم بدونه » . واشار الى ان محادثاته مع كيسينجر لم تتركز بصورة كثيفة على العناصر الضرورية لاقامة سلام حقيقي في المنطقة ، بل تركزت على موضوع فصل القوات ولذلك من المتوقع اجراء المزيد من المحادثـات بالنسبة للمستقبل .

ومن ناحية اخرى عقد كيسينجر مؤتمرا صحافيا في آخر الاسبوع الاول من حزيران كرسه بصورة رئيسية لمشكلة الشرق الاوسط والسياسة الاميركية ازاءها . وكان أهم ما جاء في مؤتمره ما يلي :

(١) ايضاح العبارة الشهيرة التي كان قد تفوه بها في مؤتمر صحافي سابق حول « طـــرد السوفيات من مصر » ، قال كيسينجر موضحا بأن قصده كان « طرد الجنود السوفيات من مصر » اذ من الواضح ان للاتحاد السوفياتي كدولة كبرى مصالح عالمية وخاصة في الشرق الاوسط . لذلك أكد ان بلاده لا تنوي كما انها غير قادرة على اقصاء النفوذ السوفياتي عن الشرق الاوســط . وأكد الدور الذي سيقوم به الاتحاد الســوفياتي في مؤتمر جنيف للسلام باعتباره الرئيس الاخـر للمؤتمر .

(٢) أوضح ما تردد حول تقديم مســاعدات اميركية الى سوريا بمقدار ١٠٠ مليون دولار قائلا ان سوريا لم تطلب مثل هذه المساعدة كما ان الحكومة الاميركية لم تلتزم بتقديمها خلال مفاوضات فصل القوات . وكل ما في الامر هو « ان سوريا أصبحت مؤهلة مع دول اخرى لتلقي المساعدات الاميركية من صندوق المتطلبات الخاصة » .

(٣) أكد ما قالته جولدا مائير امام الكنيست حول الضمانات الاميركية بالنسبة « للاعمـــال الارهابية » في مقابل قبول اسرائيل بمطلب سوريا في اعتبار اتفاق فصل القوات شيئا لا علاقة له بالعمل الفدائي . وقال كيسينجر ان بلاده تعتبر « تحرك الارهابيين والهجمات المسلحة عبر خـط وقف اطلاق النار خرقا للاتفاق » كما أكد بأنه ناقش هذا الموضوع مع المسؤولين السوريين .

(٤) ان مفاوضاته لم تتناول قضية الفلسطينيين بعد وان موقف بلاده الراهن هو ان الوفود الى مؤتمر جنيف قد تقررت في الجلسة الافتتاحية تاركا الباب مفتوحا الى حد ما أمام تبديل في هذه الوفود، أي امكانية اشتراك وفد فلسطيني في المؤتمر . ونفى بهذه المناسبة ان تكون أية اتصالات قد تمت بين بلاده والفلسطينيين ، كما قال ان مســـألة تمثيلهم في مؤتمر جنيف لم تبرز بعد .

(٥) بين ان اهتمام حكومته بالمنطقة يتركز بالاضافة الى احراز التقدم في مفاوضات السلام العربية ـــ الاسرائيلية على اقامة علاقة جديدة مع الدول في المنطقة ، على ان تكون علاقة طويلة الامد وعلى اساس جديد . وأكد بهذا الصـدد ان اميركا ما زالت ملتزمة بأمن اسرائيل الا انه بالامكان ضمان هذا الامن على افضل وجه اذا

كانت الولايات المتحدة تتمتع بثقة الطرفين . كما أكد ان صداقة الولايات المتحدة لاسرائيل لم تتضاءل ولن تتضاءل نتيجة لصداقتها مع الدول العربية . لذلك ترى حكومته ان افضل اطار لضمان أمن اسرائيل هو الوصول الى تسوية سلمية للنزاع في الشرق الاوسط .

(٦) ان النصوص العسكرية للاتفاق ستظل سرية بطلب من الفريقين .

وكان جوزيف سيسكو مساعد كيسينجر قد عقد مؤتمرا صحافيا في الاسبوع الاول من شهر حزيران كرسه ايضا لمشاكل منطقتنا وكان أهم ما فيه النقاط التالية :

(١) بين ان بلاده اعتبرت حرب تشرين فرصة فريدة لم تتوفر من قبل للتدخل باتجاه تحقيق السلام . وان اتفاق الفصل قد تحقق بفضل التدخل الاميركي من ناحية وتحرك « القوى المعتدلة » في العالم العربي باتجاه السعي الى تحقيق تسوية سلمية من ناحية ثانية معتبرا ذلك « نقطة تحول مهمة جدا في المنطقة » .

(٢) نفى ما كانت قد ذكرته صحيفة «النيويورك تايمز» ، (٢ حزيران) من انه اجتمع الى ياسر عرفات .

(٣) أكد ان مهمة كيسينجر تركزت بصورة رئيسية على موضوع فصل القوات ولم تتطرق بشكل محدد الى موضوع الحدود العربية ـ الاسرائيلية النهائية . واعترف بأنه على جميع الاطراف مواجهة هذه المسألة في الاشهر القليلة المقبلة .

(٣) أكد ان الجانبين السوري والاسرائيلي أعطيا تأكيدات حول موضوعات معينة وحساسة الى الولايات المتحدة مباشرة عوضا عن اعطائها الى الجانب الاخر . كما ان حكومته بادلت هذه التعهدات الثنائية بتعهدات من عندها . وواضح ان الاشارة هنا هي الى موضوع العمل الفدائي او « قضية الارهاب » كما يسميها سيسكو والتي رفض التوسع في الكلام عنها باستثناء القول بأن بلاده تعتبرها « قضية خطيرة جدا يمكن ان تعرض الاتفاق للخطر اذا استمرت » .

(٤) نفى سيسكو ان تكون الولايات المتحدة هي الضامنة للاتفاق لكنه قال بأنها منغمسة فيه مباشرة خاصة وانها الدولة الوحيدة التي تعرف وجهتي نظر الطرفين وتعرف المراحل التي مر بها الاتفاق وتاريخه معرفة كاملة . وأكد انه اذا شعر أحد الفريقين بأن بعض نواحي الاتفاق مبهمة او قد تم خرقها فستكون اميركا منغمسة مباشرة في هذه المشكلة .

(٥) أشار سيسكو الى انه لا يمكن ان تتم التسوية الدائمة بدون تلبية « الاهتمامات الرئيسية للدول العربية والمصالح المشروعة للفلسطينيين ». كما أشار الى ان حكومته لم تحدد موقفا نهائيا من موضوع اشتراك وفد فلسطيني في مؤتمر جنيف قائلا ان هذه المسألة راجعة بالدرجة الاولى الى قرار الدول العربية والفلسطينيين .

(٦) نفى ان يكون الاتحاد السوفياتي قد حاول عرقلة الوصول الى اتفاق فصل القوات مبينا ان بلاده هي التي قامت بالدور الاول والاساسي في المفاوضات .

استكمالا للدور الطاغي الذي تقوم به السياسة الاميركية في الشرق الاوسط أعلن البيت الابيض برنامج زيارة الرئيس نيكسون للمنطقة التي بدأت في١٢ حزيران والتي شملت كلا من مصر والسعودية وسوريا والاردن واسرائيل .

صادق جلال العظم

(٢) المناطق المحتلة

في تحليله للاوضاع السياسية الراهنة في المناطق المحتلة ، كتب يهود ليطاني في جريدة هآرتس الاسرائيلية يقول : ان العناصر الوطنية والراديكالية المؤيدة لمنظمات المقاومة في المناطق المحتلة « تخشى من مؤامرة بين اسرائيل والاردن والولايات المتحدة... تضع حدا نهائيا للحلم القديم باقامة دولة فلسطينية . وتأييد هؤلاء ممنوح الان لسوريا . وكون سوريا صامدة ومستمرة في القتال ، تحولت الى رمز للنضال العربي ضد اسرائيل في نظر تلك الاوساط » . أما عن العناصر المؤيدة للحكم الاردني فقد وصفها الصحفي الاسرائيلي بأنها تتطلع الى نجاح جهود كيسنجر لتحقيق فصل القوات . وقال ان الاردن من جانبه يبذل جهودا حثيثة لتوثيق علاقاته بمؤيديه في الضفة الغربية « واجتذاب المعارضين بواسطة الاموال والقروض للبلديات والغاء قيود عبور الجسور ... ».

وبالرغم من ان التحليل لا يصيب كبد الحقيقة بدقة ولا يقترب من عناصر الموقف الداخلي في المناطق المحتلة بدقة وشمولية ، الا انه يعطي صورة سريعة عن الاهتمام الذي يبذله المواطنون في الضفة الغربية للتعرف على مواقف مختلف الاطراف من المستقبل السياسي لهم .

والى جانب ذلك ، فقد شهدت المناطق المحتلة خلال الفترة القليلة الماضية عددا من الاحداث السياسية والعسكرية ذات الطابع السياسي الخاص ، سنحاول رصدها ومتابعتها فيما يلي :

عملية معلوت

بالرغم من ان العملية التي تمت في شمالي فلسطين يوم الخامس عشر من ايار (مايو) الماضي تقع خارج الضفة الغربية ، الا ان ردود الفعل الاسرائيلية عليها شملت الضفة الغربية ومختلف مناطق فلسطين المحتلة . وايضا فلقد حدثت ردود فعل عربية في الضفة الغربية ذاتها على اثر النتائج التي أسفرت عنها العملية . واذا كانت صحف الضفة الغربية لا تستطيع نقل ردود الفعل هذه ، فانها بالتأكيد تحاول الاشارة اليها من خلال حديثها عن ردة الفعل الانتقامية الاسرائيلية ضد مخيمات اللاجئين في لبنان . فقد كتبت صحيفة الشعب افتتاحية يوم ٥/٢٢ قالت فيها ، ان تهديدات جولدا مائير بتصعيد الحرب ضد الفدائيين «وتنويع الاساليب في مواصلة ضرب المنظمات في كل مكان »، انما يكشف عن حقيقة ان الاسرائيليين ، في كل حادث على هذا النحو ، يبحثون عن « نقطة الحدث او الحادث ساعة وقوعه ، بحثا عن ظواهره القائمة فقط ، اي من سطح الاحداث ، دون التوغل او التغلغل في اعماقه وجذوره لمعرفة الاسباب التي وقع الامر او الحادث او القضية على أساسها ومن جرائها » . وتدعو الافتتاحية في نهايتها الاسرائيليين الى « استخلاص العبرة في استيعاب متغيرات الواقع الجديد » . وفي عددها التالي تبرز الصحيفة في صفحتها الاولى مقالا لكاتب اسرائيلي يدعو الى الاعتراف بالشخصية الفلسطينية ، وذلك على اثر عملية معلوت . فكأن الصحيفة العربية تقول هنا : ان هذا هو الطريق لمنع تكرار عمليات اخرى على غرار معلوت . فقد نقلت الصحيفة قول الكاتب الاسرائيلي جدعون جيلات : « يبدو لي انه قد حان الوقت ان نعرف الخطر الكبير الكامن في المجابهة مع منظمات غير رسمية وليست لها مسؤولية سياسية وعامة » . ويعرب جيلات عن قلقه من « التقدم المستمر في مستوى التنفيذ لدى المنظمات» لعملياتها . ويحدد الكاتب مكمن الخطورة قائلا : « ان نسبة التصعيد التقني والبشري لعمليات المنظمات سيتطور ومن الصعب تخمين اية امكانيات ستكون امامها بعد ١٠ — ١٥ سنة . وسجل هذا التوقع المرعب الذي ذكر مؤخرا في الصحف والذي بموجبه سيكون بالامكان لمنظمات كهذه شراء او صنع قنابل ذرية بدائية وتفجيرها في مراكز سكانية » . ثم يطالب على أثر ذلك « تخفيف حدة المجابهة بيننا وبين الفلسطينيين » ، واجراء الحوار معهم . ولاجراء الحوار يطالب حكومة اسرائيل :

« ١ — الاعتراف بالشخصية الفلسطينية .

٢ — طلب اعتراف المنظمات باسرائيل .

٣ — دعوة لحوار فلسطيني — اسرائيلي » .

وتنقل صحف الضفة الغربية كذلك بعض ردود الفعل الاسرائيلية على صعيد الضفة الغربية .

فتبرز صحيفة الشعب بعنوان رئيسي « العودة للعمل بنظام منع التجول ليلا » وتقول ان منع التجول فرض في منطقة ابو ديس والعيزرية وطريق القدس — اريحا من الساعة السادسة والنصف مساء وحتى الساعة السادسة صباحا . « كما علم ان نظام حظر التجول قد فرض على طريق القدس — بيت لحم من الساعة العاشرة مساء وحتى الثالثة صباحا » .

وكان الحاكم العسكري لرام الله والبيره قد أبلغ جميع رؤساء بلديات متصرفية اللواء الامر التالي :

« ١ — يمنع التجول والسير ما بين مدن المتصرفية ومدينة القدس اعتبارا من الساعة العاشرة مساء وحتى الساعة الثالثة صباحا .

٢ — يمنع التجول والسير بين هذه المدن وجميع الطرق في اللواء ، كما يمنع كذلك بالنسبة لها مع مدن الضفة الغربية على نفس التوقيت في البند الاول .

٣ — يمنع التجول والسير على طريق اريحا اعتبارا من الساعة السادسة والنصف مساء وحتى السادسة والنصف صباحا » .

ومنع التجول على طريق بيت لحم — الخليل ايضا واستمرت عمليات التفتيش الى بدء منع التجول (الشعب ٧٤/٥/٢٣) .

وفي موضع اخر قالت الشعب انه قد اقيمت على جميع مداخل القدس حواجز التفتيش المشتركة بين الجيش وحرس الحدود ، حيث تصطف السيارات في طوابير لتفتيشها والتحري عن هويات ركابها . (الشعب ٧٤/٥/٢٣) . وذكرت صحيفة القدس انه قد ضوعفت حالة الطوارىء القصوى التي اعلنت في مختلف انحاء فلسطين المحتلة بعد اقتحام معلوت . « وقد لوحظت مضاعفة القوات الاسرائيلية بشكل خاص في مدينة القدس ، حيث كانت الدوريات المسلحة تسير في شوارع البلدة القديمة ، بينما كان عدد من السياح الزائرين للمدينة يصورون الجنود الاسرائيليين وهم يضعون أصابعهم على زناد رشاشاتهم الاميركية بتأهب غير اعتيادي بشكل لفت انظار الجميع » (القدس ٧٤/٥/٢٣) .

فصل القوات

تلقى المواطنون وصحف الضفة الغربية اتفاقية فصل القوات على الجبهة الشمالية ، بمشاعر وتعليقات مختلفة ، قالت « الفجر » في افتتاحيتها الرئيسية : « فلنرحب بفصل القوات فهو خطوة على طريق السلام » . وقالت ان اتفاقية الفصل لم تكن لصالح اسرائيل . وذكرت بخطاب لجولدا مائير قبل اسبوعين من ذلك التاريخ قالت فيه انها لن تنسحب « قيد انملة » من هضبة الجولان. ثم تستشهد في معرض تأييدها للاتفاقية بموقف الفئات الصهيونية المتطرفة منه. وشددت الصحيفة على ترحيبها بالاتفاق لانه « سيعيد وحدة الصف العربي التي كادت ان تتزعزع ، كما انه يعتبر انتصارا حقيقيا للحق العربي والسلام العادل وللقوى الديمقراطية داخل الشعب الاسرائيلي . نرحب به لاننا نرى فيه بداية « انفراط » حبات مسبحة الاحتلال ، وبداية التحام حبات حقوقنا الوطنية الفلسطينية . نرحب به لانه سيحرج كل قوى التوسع في اسرائيل ... ولانه سيزيل لبنة من لبنات نظريات التوسع ، ويهدم حلما من احلام الاباطرة الذين يعتبرون لحم شعبنا الفلسطيني مشاعا لمن يريد أن يأكل » (الفجر ٧٤/٦/١) .

أما صحيفة البشير التي نوهت بدورها بالاتفاقية. فقد قالت ان اتفاق الجولان واتفاقية الفصل في سيناء يعتبران من الامور « الثانوية » ومتفرعتان عن القضية الاصل ، الا وهي القضية الفلسطينية التي تمثل القدس جوهرها الاساسي (البشير ٧٤/٦/١) .

أما صحيفة القدس فقد تساءلت معلقة على اتفاقية الفصل في الجولان : « ماذا بعد فصل القوات ؟ » . وقالت الصحيفة : « ان المستوطنات التي انشأتها اسرائيل في هضبة الجولان والضفة الغربية وسيناء ، والاعمال الانشائية التي اقامتها اسرائيل في القدس ... تمت خلافا لنصوص القوانين الدولية ومواثيق جنيف التي سبق لاسرائيل ان وقعتها وتعهدت بالالتزام بها ومراعاة احكامها. ان سياسة الامر الواقع التي مارستها اسرائيل منذ انشاء الدولة اليهودية يجب ان لا يكون لها مكان بعد حرب رمضان ١٩٧٣ ، واسرائيل وحدها يجب ان تتحمل عواقب ونتائج ما قامت به من مخالفات وانتهاكات » (القدس ٧٤/٦/٢) .

وكانت القدس قد علقت على الانباء الاولى التي تسربت عن التوصل الى الاتفاق حول الانسحاب من الجولان بقولها : « ان المعجزة الحقيقية لا تتمثل في فصل على جبهة السويس ولا تتمثل في فصل على جبهة الجولان ، وانما تتمثل في فصل بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة بشكل عام ، وبالنسبة للمدينة المقدسة بشكل خاص » . وقالت ان عقبات الفصل بالنسبة للضفة والقطاع ستكون اكبر نظرا لتباين وجهات النظر بين الاردن ومنظمات المقاومة واسرائيل « والذي يزداد حدة وعمقا بسبب تجاهل اتباع الوسائل الديمقراطية في اجراء استفتاء يكشف فيه الشعب الفلسطيني بمجموعه عن رأي الاغلبية الذي يتبغي ان يكون ملزما لجميع الاطراف العربية والاسرائيلية والفلسطينية والدولية » . وتذكر « القدس » الدكتور كيسنجر بثلاثة امور يجب عدم تجاهلها وهي : « ان التجارب المريرة التي مرت بها القضية الفلسطينية ، قد أكدت ضرورة الاخذ بثلاثة امور رئيسية هي : رغبة الشعب الفلسطيني في أن يكون له وجود ، وان يرتبط هذا الوجود ارتباطا ديمقراطيا متكافئا مع اخوته العرب ، وان يتم ذلك بواسطة قيادة تتمتع بالاعتدال والمرونة بحيث تكون قادرة على قيادة السفينة وسط المحيط التي تتصارع فيه تيارات مختلفة ومتناقضة الى حد التصارع » . (القدس ٧٤/٥/٣٠) .

أما ردود الفعل الشعبية على اتفاق الفصل فقد نقلتها جريدة الشعب على النحو التالي :

١ — فوجىء الكثيرون باذاعة النبأ ، بعد ان تأكد الناس من أن مهمة كيسنجر قد وصلت الطريق المسدود . وقد شعرنا بأن لدى الكثيرين مرارة من جراء ذلك على أساس : ان الاهتمام بقضية الفصل يبتعد عن القضية بادخالها في متاهات تائهة ، وان اي نجاح لاميركا لا بد وان يكون فيه خسارة للقضية الاساسية .

٢ — اذا كانت الهزيمة الاسرائيلية في حرب تشرين الاول ، حققت لاول مرة انتصارا جزئيا للامة العربية ، فان هؤلاء العرب بدأوا يخسرون المعركة بطريق الالتفاف السياسي .

٣ — بدأ اهل الوطن المحتل يشعرون ان هنالك مخططا كان يهدف الى تحريك القضية على المستوى الدولي اكثر منه تحريرا للوطن المحتل ، وان المستفيد من هذا التحريك هو الرجعية العربية والامبريالية الاميركية .

٤ — اذا كانت عمليات الفصل هذه قد استغرقت قرابة العام ، فما هو الزمن اللازم للوصول الى حل للقضية الاساسية .

٥ — ان انصراف مصر في هذه الاونة الى الاعمار يتم قبل نهاية المعركة . (الشعب ٥/٣١/ ٧٤) .

وعلى هامش فصل القوات في الجولان ، وفي الوقت الذي كان فيه المجلس الوطني الفلسطيني يعقد دورته الثانية عشرة في القاهرة ، نشرت « القدس » تصريحات للشيخ محمد علي الجعبري يطالب فيها بادارة مدينة دولية للضفة والقطاع . فقال الجعبري « وانا ارى حسما للخلاف ولعدم وقوع ما لا يحمد عقباه ، ان تبقى الاراضي التي تجلو عنها القوات ، تحت ادارة مدنية دولية حتى اذا تم الجلاء عن الضفة الغربية والقطاع ، يتسنى للشعب الفلسطيني في الداخل والخارج ليقرر مصيره . ونحن في الضفة الغربية نرجو ان لا يقع نزاع ولا شقاق بين الدول العربية والمنظمات ، لان مثل هذه الخلافات تكون ذريعة في بقائنا على ما نحن فيه . واعتقد ان الضفة الغربية والقطاع تواقة لتتولى حكم نفسها بنفسها، هذا اذا رغب العرب في حل مشاكلهم ، واذا رغبوا في بقائنا على ما نحن عليه فاننا نشكوهم الى خالقهم » . وطالب الجعبري ان تمثل الدول العربية في مؤتمر جنيف بما فيها الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وان يمثل فيه الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع (القدس ٦/٣/ ٧٤) .

المجلس الوطني الفلسطيني

بترقب واهتمام بالغين تابع الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة اعمال الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني . وقد انعكس هذا الاهتمام بوضوح في صحف الضفة الغربية . فعشية انعقاد المجلس ، كتبت « الشعب » في افتتاحيتها الرئيسية « ملاحظات » الى المجلس تقول فيها : « **لا جدال ولا خلاف على صحة التمثيل الشرعي الوحيد لشعبنا من قبل ثورته وانطلاقته**

العظيمة ، واذا كانت بعض الدول العربية والاردن اقربها ،تتعرف على الصورة او تتلمسها عبر الصور المهزوزة التي تصلها ، فان الصورة الكاملة والصحيحة ، معروفة لدى القيادات الفلسطينية والمجلس الوطني ، بل تدرك من دقائقها وخفاياها ما لا يدركه الكثيرون في الوطن المحتل نفسه ، وعند الاخوة المبعدين الخبر اليقين » . ثم تقول الصحيفة حول تأجيل المجلس الى ما بعد اتفاقية الفصل بالجولان : « اننا في هذا الموضوع بالذات وكما يعلم الاخوة في الثورة والمجلس ، لا نرى في فك الارتباط والفصل قضية مهما كان وزنها ». ثم تضيف « ان وضع الاردن كورقة تهديد او مساومة باسم البديل ... مثار للريبة والشكوك . فقضيتنا ليست كيان الاردن ولا في اوراقه ... **وسيظل ما سمي بشرق الاردن جزءا شرقيا من القطر الفلسطيني ، وهما معا جزء واحد من دولة الشام الكبرى ،** فهذه حتمية التاريخ وارادة الامة » . وتختتم الصحيفة تعليقها بالقول : « وليعلم الاخوة ان اهلهم رغم وجودهم في الاسر والاحتلال ، ما زالوا اقوى من اي وقت مضى ، أشد رفضا وامنع جانبا ، فاما ان نحقق ما نريد في حل عادل او نقضي دونه ، والمستقبل لشعبنا الذي ما اذعن يوما ولا استسلم ساعة ، ولا بد ان يستجيب القدر . (الشعب ٧٤/٥/٣١) .

اما صحيفة القدس فقد كتبت بدورها عشية انعقاد المجلس تقول : « لا شك ان اعضاء المجلس يدركون أن اولى واجباتهم الان ان يخرجوا بقرار موحد بشأن قضيتين هامتين هما : موقفهم من مؤتمر جنيف ، وموقفهم من انشاء سلطة وطنية فلسطينية . ومن الضروري عند اتخاذ هذين القرارين ، ان يأخذوا بعين الاعتبار **اهمية التنسيق مع الدول العربية** . فبدون ذلك التنسيق تظل تلك القرارات تفتقر الى الدعم والمساندة . ولا بد ان نذكر ان القيادات الفلسطينية الرئيسية ، قد أظهرت في الاونة الاخيرة مرونة وايجابية ، وبالاخص بعد حرب رمضان . فاذا ما استطاعت هذه القيادات ان تقنع زملاءهم من دعاة السلبية بالموافقة على سياستهم ، فان الفلسطينيين يكونون قد قطعوا شوطا كبيرا في مسيرتهم نحو السلام ». (القدس ٧٤/٥/٣١) .

وخلال الايام الاولى من انعقاد المؤتمر توجهت « الشعب » عبر افتتاحيتها الرئيسية بـ « حديث صريح للاشقاء الفلسطينيين » قالت فيه «...واذ نحيي الاخوة في المجلس الوطني ونبارك خطواتهم على درب مواقف الشرف والبطولة ، واذ نترحم معهم على رجال الثورة الثلاثة الذين قضوا نحبهم في بيروت ... [مسح من الرقابة] ، فظلت مقاعدهم خالية تملاها بكل اجلال واكرام عزيمة شعبهم الجبار ، واذ **نرحب بالزعماء الشعبيين الثمانية الذين ابعدوا من الوطن المحتل** ، وتم اختيارهم لعضوية المجلس في تقدير وتكريم لاخوانهم في الوطن المحتل ، فاننا نمضي مع الاخوة في المجلس في احاديث لا تنتهي حول ملاحظات ، مجرد ملاحظات ، نرى من الضروري طرحها تنويرا واجتهادا واسهاما . نحن مع الاخوة في أن المعركة لم تنته ، وانها ربما لامر او لاخر تأخذ أشكالا نضالية جديدة ، عبر المتغيرات الطارئة ، لكنها ومهما تكن طبيعة هذه المتغيرات والملابسات ، لا يصح لها ، او لاي كان من ورائها ، ان تجعل التيارات الدولية ، وبعض الاتجاهات العربية ، تلقي بأثقالها على دربنا » . ثم تسوق «الشعب» التساؤل الاستنكاري التالي : « اليس غريبا من سادة الخرطوم الثوريين بالامس ، ان يقوموا في اليوم الذي يفتتح فيه المجلس الوطني الفلسطيني جلساته الهامة والمصيرية ، بتقديم (التحية) بمحاكمة الفلسطينيين في الخرطوم ، مع انه كان بوسعهم محاكمتهم قبل عام او تأجيلها الى عام اخر او اخلاء سبيلهم حتى تكون تحية فعلا » . (الشعب ٧٤/٦/٢) .

وعلقت « الشعب » على ورقة العمل التي طرحت في المجلس الوطني بقولها انها « وثيقة التزام فلسطينية ومنهاج عمل للسير وفقها وعلى هديها ، الى ان يتم انتزاع كامل الحق الفلسطيني على أرضه وتقرير مصيره » . وركزت الصحيفة على رفض ورقة العمل هذه لقرار مجلس الامن ٢٤٢ وقالت انه ابرز ما في تلك الورقة ــ الوثيقة. واشادت بما تضمنته الورقة من نص على اقامة « سلطة الشعب الفلسطيني المستقلة على كل جزء يتم تحريره من التراب الفلسطيني كحلقة من استراتيجية اقامة الدولة الديمقراطية » (الشعب ٧٤/٦/٣) .

ذكرى الخامس من حزيران

في ذكرى هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، اختلفت تعليقات الصحف العربية في الضفة الغربية ، عن تعليقاتها على هذه المناسبة في العام الماضي والاعوام التي سبقته . ويرجع ذلك الى الحالة النفسية والمعنوية المرتفعة لجماهير الارض المحتلة، المنبثقة من روح حرب تشرين الاول (اكتوبر) . فقد كتبت صحيفة الفجر حول هذه المناسبة تقول : « اليوم ندخل السنة الحزيرانية الثامنة . كانت السنوات السبع الماضية متشابهة في لونها ... وكانت هموم الذكريات تتراكم ذكرى بعد ذكرى ، ومع انهـا هموم ثقيلة ككابوس رهيب ، الا انها لم تنل او تقلل من ايمان جماهيرنا العربية والفلسطينية ، بأن المستقبل لا بد وان يكون افضل . وحس الجماهير لا يخيب ، وها هو الخامس من حزيران يجيء في ذكراه الثامنة مختلفا عن كل الخوامس السابقة . يجيء وامتنا العربية قد حققت انتصار اكتوبر المجيد ، وشعبنا الفلسطيني البطل وقد بدأ يأخذ مكانه على خارطة العالم ، بعد نضال امتد اكثر من خمسين عاما كانت السنوات السبع الماضية ذروتها وقمتها . تأتي هذه الذكرى ونحن نرى المستقبل امام شعبنا مشرقا ، ومطلبه في اقامة سلطته الوطنية على ارضه قريب من التحقيق » (الفجر ٧٤/٦/٥) .

أما صحيفة القدس فقد تناولت ذكرى الخامس من حزيران ، كيوم من الايام السوداء الكثيرة التي مرت بالشعب الفلسطيني منذ الانتداب البريطاني. واضافت « القدس » ان هناك اياما « تتفاوت في شدة سوادها وتتباعد في مآسيها . فيوم اعلان وعد بلفور يوم أسود ، ويوم قرار التقسيم يوم أسود ... ويأتي يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧ ليفوق كل شيء في سواده ومآسيه » وعللت ذلك بسبب ضياع كامل فلسطين وأراضي عربية اخرى ، وبسبب احتلال مدينة القدس بما فيها من مقدسات . الا انها بعد هذا العرض للايام السوداء ومنها يوم اعلان اسرائيل من ضم مدينة القدس في ١٩٦٧/٦/٢٨ ، انتقلت القدس لتتحدث بنفس مختلف حين تناولت بالتعليق حرب تشرين الاول . فقالت : وأشرقت حرب رمضان . وأشرق معها النور والامل . وبزغ فجر جديد يشير الى محو الايام السود وعلى الاخص يشير الى محو آثار ٥ حزيران الاسود . اننا نستذكر هذا اليوم للمرة السابعة ونجتر معه آلامنا ونتطلع بحسرة الى ما وقع في المناطق المحتلة من تدمير وتخريب ومصادرة. ونستذكر الجرافات وأعمالها في قرى اللطرون والقدس القديمة . وآخرها في بيت الملاعبي في شعفاط . سنتذكر كل هذا ، ولكن يدعونا الصبر والايمان الى الاعتقاد بأن تذكرنا اليوم بهذا اليوم سيكون آخر تذكير . وسوف لن يأتي حزيران القادم الا ونحن ننعم بالحرية والسلام والاطمئنان » . (القدس ٧٤/٦/٥) .

والى جانب افتتاحية القدس هذه ، كتبت الصحيفة نقلا عن مراسلها الخاص ، ان مدير شرطة القدس القديمة استدعى ليلة الخامس من حزيران رئيس وأعضاء مجلس ادارة الغرفة التجارية ، وحذرهم من النتائج الخطيرة التي سوف تترتب على القيام بأي اضراب بمناسبة الذكرى السنوية ليوم ٥ حزيران . وأوضح انه سيكون من بين هذه الاجراءات ، اغلاق ومصادرة المحلات التجارية التي لا تتقيد بهذه التعليمات . كما استدعى قائد الشرطة اصحاب شركات الباصات وحذرهم من توقف العمل بسياراتهم صباح يوم الخامس من حزيران . وقالت « القدس » انه « فهم ان الحكام العسكريين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، قد وجهوا تحذيرات مماثلة الى البلديات والمؤسسات التجارية » (القدس ٦/٥/ ٧٤) .

ع.ش.

(٣) اسرائيليات

الوزارة الاسرائيلية :
تشكيلة « حمائم » ونهج « صقور »

بعد فشل المفاوضات الائتلافية مع المفدال ، أصبح الاتجاه في حزب العمل ، كما أشرنا في العدد السابق في هذا الباب ، يسير نحو اقامة حكومة مقلصة يشارك فيها كل من الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن . لكن الى جانب ذلك ، كانت هناك اتجاهات أخرى داخل حزب العمل ، بعضها كان قائما ، قبل استقالة حكومة مئير (الدعوة الى اقامة حكومة تكتل وطني) ، وبعضها الاخر استجد بعد الاستقالة . وقد وجدت جميع هذه الاتجاهات تعبيرا لها بشكل اقتراحات قدمت في اجتماع اللجنة المركزية لحزب العمل الذي خصص لمناقشة واقرار الاتفاق الائتلافي الذي تم التوصل اليه مع الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن . وفي نهاية المناقشات التي استمرت ثلاث ساعات ونصف قدم الى اللجنة المركزية لحزب العمل اربعة اقتراحات:

● اقترح بيرل رغطور التحفظ من القرار السابق (أي القرار الذي دعا الى تشكيل حكومة جديدة)، ودعا الى اجراء انتخابات بالسرعة الممكنة ، مع استمرار الحكومة الحالية في عملها كحكومة انتقالية . وقد حصل هذا الاقتراح على أصوات قليلة ، وبشكل أساسي من جماعة « رافي » .

● وسقط اقتراح مشترك تقدم به عضوا الكنيست مردخاي سوركيس ومردخاي بن بورات . ويدعو هذا الاقتراح الى اقامة حكومة تكتل وطني. وقد صوت الى جانب هذا الاقتراح ٤٨ عضوا وعارضه ٢٦٢ عضوا وامتنع ثمانية عن التصويت . وكان اعضاء « رافي » ايضا وراء هذا الاقتراح بشكل اساسي .

● وسقط اقتراح آخر تقدم به موشي نيتسر وبني مرشاك لاقامة حكومة على غرار الحكومة السابقة (المعراخ — المفدال — الاحرار المستقلين) .

● اما اقتراح لجنة المفاوضات فقد قدمه سكرتير عام الحزب اهرون يادلين : وقد حظي هذا الاقتراح باغلبية كبيرة ، اذ أيده ٣٠٢ وعارضه ٣٦ وامتنع ستة عن التصويت . ويقضي هذا الاقتراح باقامة حكومة مع الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن.

وقد ساهم بشكل رئيسي في التوصل الى هذا القرار تنازل حركة حقوق المواطن عن شروطها التي وضعتها في السابق لدخول الائتلاف ومنها تعديل الخطوط الاساسية للحكومة ، وعدم ابقاء حقائب شاغرة للمفدال . وترك الباب مفتوحا للمفدال لمدة ثلاثة اشهر ، يصار بعدها الى اعادة النظر في البنود المتعلقة في الدين في الاتفاق الائتلافي . وقد سد تحرك هذين الحزبين كهيئة واحدة، الباب أمام القوى التي كانت تسعى في حزب العمل لاستبعاد حركة حقوق المواطن من الحكومة .

وعلق وزير الداخلية السابق يوسف بورج على قرار اللجنة المركزية لحزب العمل بتشكيل حكومة مقلصة فقال : « سأقترح على حزبي ان يقترع ضد الحكومة التي تعتمد على ٦١ مقعدا في الكنيست . وانا اعتبر هذه الحكومة هزيلة لسببين : اولا ، ان هذه الحكومة تعتمد على اغلبية ضئيلة ، حصلت عليها بفضل أصوات النواب العرب . وثانيا اشتراك حركات تجعل منها حكومة حمائمية وحكومة غير دينية » (ر.١٠١٠ — ٧٤/٥/٢٠ ، عدد ٥٣٧ ، ص ٤٦٧) .

أما صحيفة يديعوت احرونوت (٧٤/٥/١٩) فقد اعتبرت « ان القرار يشكل تحديا للشعب ورغبته » ، بينما رأت معاريف : « انه قدر للحكومة الجديدة منذ البداية ان تكون حكومة مؤقتة . وتشك الصحيفة في ان يكون تأليف الحكومة الجديدة هو الكلمة الاخيرة في الازمة السياسية » .

وقد حظي خروج المفدال من الائتلاف الحكومي باهتمام بعض الصحفيين الاسرائيليين ، حيث رأى البعض فيه نهاية للمشاركة التاريخية بين حركة العمل من جهة والمعسكر الصهيوني الديني من جهة اخرى . ولم يقتصر الاسف على هذا الامر على المراقبين من خارج حزب العمل ، بل ان العديد من الاعضاء البارزين في الحزب امثال مئير وايبان وحتى رابين نفسه قد اعربوا عن أسفهم لخطوة

المندال هذه . واتهم بعضهم المندال بانه المسؤول عن قطع هذه المشاركة التاريخية ودعوا الى بذل الجهود لاعادته الى الحكومة، بالاضافة الى مطالبته بتغيير موقفه .

وفي هذا السياق طالب ابا ايبان في جلسة مكتب حزب العمل وكتلته في الكنيست بـ « عدم الكف عن بذل المحاولات لتوسيع قاعدة الائتلاف وضم المندال، لكي لا يتوجه هذا الحزب نحو التجمع اليميني ». (ر.١٠١٠ — ٧٤/٥/٢٨ ، عدد ٥٤٥ ، ص ٧٢٥) .

اما رابين فقال بهذا الخصوص في اجتماع اللجنة المركزية للحزب : « آمل ان تصمد هذه الحكومة ، وآمل ان يقوم المندال بتغيير موقفه وينضم اليها ». (ر.١٠١٠ — ٧٤/٥/١٩ ، عدد ٥٣٧ ، ص ٤٦٦) .

أما يورام كانيوك فقد اعرب في مقال في (دافار ٧٤/٥/٣٠) عن ارتياحه لخروج المندال من الحكم، مطالبا رجالات حزب العمل بالكف عن الاسف لانقطاع المشاركة التاريخية ومبينا ان هذه المشاركة لم تكن خيارا بل فرضت فرضا على حركة العمل وعلى المباي بالذات ، نظرا للظروف . وتطرق الكاتب في سياق مقاله الى الازمات التي افتعلها المعسكر الديني منذ قيام الدولة ، مشيرا الى مدى انتهازية زعمائه وتغليبهم للمصالح الذاتية والحزبية الضيقة على المصالح العامة . ويخلص كانيوك في مقاله المذكور الى القول : « لم تكن هناك اية مشاركة تاريخية . لقد كان قلب حركة العمل ينبض بايمان اسرائيلي يهودي حقيقي لا يؤمن ولم يؤمن بالمساومة الدينية ... لكنها اضطرت ان تخضع طوال تلك الفترة ، ويبدو انه برز خلالها في حركة العمل زعماء لم يفهموا ان هذه المشاركة كانت عملية ارغام منكرة وليست طريقا مشتركا » .

اما نويمان فكتب في دافار (٧٤/٥/٢٦) حول الاستقطاب الحاصل في الحياة السياسية في اسرائيل فقال : « ان الاستقطاب الذي نشأ ، بالرغم من أسفنا لذلك ، هو أمر لا محالة منه . ان الافتراض بأنه من الممكن العيش ولوقت طويل تحت سقف الاجماع القومي المبني على المصالحة بين الاتجاه القومي المتعصب وبين الصهيونية الليبرالية الاشتراكية كان خطأ في أساسه » .

لكن نظرة أعمق الى ما يجري داخل الاطر السياسية في اسرائيل والى الاتجاهات السياسية والحزبية العامة ، تكشف ان هذا الاستقطاب الذي يتحدث عنه البعض الان ، لم تكتمل صورته النهائية بعد ، سواء داخل المعارضة او داخل التجمع العمالي الحاكم والشركاء الائتلافيين . فالاطار الفكري الفضفاض وحسابات الربح والخسارة لدى بعض زعماء وأجنحة حركة العمل ، بالاضافة الى الجنوح الدائم داخل حركة العمل نحو اليمين على كافة الاصعدة ، وسيطرة الاتجاه البراجماتي داخل المباي بالذات ، كل هذه الامور تفسر عدم استكمال هذا الاستقطاب لشكله النهائي ، من جهة ، وتحول دونه من جهة اخرى .

وتشير يديعوت احرونوت في عددها الصادر في ٧٤/٦/٧ الى أن محاولة لبلورة هذا الاستقطاب باقامة حكومة بديلة لسلطة التجمع العمالي الحاكم، يكون قوامها التجمع اليميني « ليكود » والمندال والجبهة التوراتية بالاضافة الى أعضاء « رافي » في حزب العمل ، وبعض الشخصيات الاخرى داخل المباي وأحدوت هعفودا ، قد فشلت رغم ان المبادرة قد لاقت ترحيبا من دايان وحماسا من المندال وقبولا متحفظا من الجبهة التوراتية التي شككت في امكانية اقدام « رافي » وبيرس بالذات ، رغم ان المبادرين اقترحوا عليه تشكيل الحكومة ، على مثل هذه الخطوة . وبالفعل فقد رفض بيرس الفكرة ، بينما انقسم بقية اعضاء « رافي » بين مؤيد ومتحفظ ورافض .

توزيع الحقائب

ما أن تجاوز رابين العقبة الاولى التي تمثلت في شكل وتركيبة الائتلاف حتى وجد نفسه امام عقبة اكبر تمثلت في كيفية توزيع الحقائب على الكتل داخل حزب العمل من ناحية وفي محاولة اقناع بعض الوزراء السابقين مثل سابير وايبان بقبول مناصب وزارية في حكومته . ويمكن تلخيص هذه العقبات التي واجهته بالنقاط الاربع التالية :

● تنافس بيرس وألون على وزارة الدفاع ومن ورائهما كتلتا « رافي » و« أحدوت هعفودا » وقد حل رابين هذه العقبة بتعيين بيرس وزيرا للدفاع وتعيين ألون وزيرا للخارجية بالاضافة الى نيابة رئاسة الوزارة .

● العقبة الثانية ، تمثلت في استياء ابا ايبان ورفضه المشاركة في الوزارة في أي منصب آخر عدا وزارة الخارجية ، وتضامن بعض اعضاء

مجموعة المباي معه مثل سابير ورابينوفيتش .

● العقبة الثالثة ، تمثلت في رفض رجل الحزب (المباي) القوي بنحاس سابير الاشتراك في الحكومة الجديدة بحجة رغبته في التفرغ للعمل في مجال الهجرة في الوكالة اليهودية .

وقد اضطر رابين للاستغناء عن خدمات كليهما ، وتهديد الحزب بالاعتذار عن تشكيل الحكومة الجديدة اذا لم يوافق مكتب الحزب وكتلته في الكنيست على التشكيلة التي سيتقدمها . وبالفعل فقد حصل رابين على الموافقة نتيجة لجهود المستوزرين الجدد من رجالات الصف الثاني في المباي .

● اما العقبة الرابعة ، فتمثلت في مطالبة شلومو هيلل (ممثل الطوائف الشرقية) بمنصب وزاري أهم من وزارة الشرطة ، او باضافة وزير ثان من ابناء الطوائف الشرقية للحكومة . وقد حل رابين هذه العقبة بأن وعد هيلل بتعيينه رئيسا للجنة الوزارية للانعاش الاجتماعي وبتعيين عدد من أعضاء الطوائف الشرقية في الكنيست نوابا للوزراء في وزارات مهمة .

وأهم هذه العقبات ، وهي التي تمثلت في الصراع على وزارتي الدفاع والخارجية كان يكمن وراءها مواقف كتلوية متشددة لم يكن لرابين خيار سوى الرضوخ لها . ومن هنا ينبع الضعف الاساسي لحكومة رابين ، فهي لا تشكل طاقما اختاره رئيس الوزراء على اساس المؤهلات والمتطلبات ، بقدر ما ان هذا الطاقم كان نتيجة وتلبية لمطالب كتلوية فرضت على رابين . فكتلة رافي هي التي اختارت ممثليها في الوزارة وهي التي قررت نوعية الوزارتين او بشكل أدق نوعية احداهما . وكذلك الامر ، مع كتلة احدوت هعفودا ، فهي بالاضافة الى فرضها ألون في وزارة الخارجية ، كانت الكتلة الوحيدة التي لم تؤد عملية تشكيل الحكومة الجديدة الى احداث تغيير في مرشحيها للوزارة . فقد فرضت هذه الكتلة نفس الوزيرين اللذين كانا يمثلانها في الحكومة السابقة ، واللذين لاحدهما على الاقل — جاليلي — قسط كبير في المفاهيم والمسؤولية عما سمي بالتقصير في حرب يوم الغفران على المستوى السياسي .

ان المتتبع لكل ما جرى من صفقات اثناء عملية توزيع الحقائب وما رافقها من اتهامات متبادلة بين الكتل والشخصيات البارزة المختلفة ، تلك الاتهامات التي لم تخل من تعابير لاذعة ، يرى ان ما رآه او اعتبره البعض ، على اثر المنافسة بين رابين وبيرس على رئاسة الوزارة ، وما اعتبر من انه ظاهرة صحية ودليلا على بدء غروب شمس الكتل وشمس الالهة ، لم يكن كذلك . فغروب شمس الالهة لم يكن سوى غروب لقوة المباي المهيمنة كحزب ولقوة مرشحيه لرئاسة الوزارة . وفي هذا السياق خلصت معاريف (٧٤/٥/٢٣) من مسألة توزيع الحقائب الوزارية بقولها : « ان من آمن في الايام التي اعقبت تعيين رابين كمرشح لرئاسة الوزارة ، بأن انتخابه يشير الى نهاية نظام الكتل في حزب العمل ، مرغم الان ان يتوصل الى استنتاج بأن سعادته كانت سابقة لاوانها . فنظام الكتل ما زال حيا يرزق ، ولم يبرز في اي وقت مضى كما هو الحال في هذه الايام » .

وبعد أن أشارت معاريف الى شروط الكتل والاجنحة المختلفة في الحزب في فرض الوزراء والحقائب على رابين قالت : « ان لهذا التفكك دلالات تتعدى مسألة تقليص صلاحيات رئيس الوزارة المقبل . لان الحكومة في نهاية الامر مؤلفة من ممثلي ست كتل وليس اربع » .

اما ايبان فقال في خطابه امام مجموعة المباي ومكتب حزب العمل « ... ان الافتراض بأن نظام الكتل قد زال — كان مجرد وهم » . وأضاف ايبان في خطابه المذكور : « اما انه لا توجد كتل بتاتا — وعندها كيف يصوتون في « رافي » و« احدوت هعفودا » حول الانضمام او عدم الانضمام للحكومة وحول شروط الانضمام والمرشحين الذين لا مهرب من تتويجهم ؟ واما ان هناك نظاما كتلويا وفي هذه الحالة لماذا يسمح بابعاد العمود الفقري للحركة ، عن جميع المواقع الاساسية ؟ » (يديعوت احرونوت ٧٤/٥/٢٨) .

ونظرة على التركيبة الوزارية (انظر الملحق) — رغم ان المباي يحتفظ فيها بأكبر عدد من الحقائب — تظهر ان الخاسر الوحيد كان كتلة المباي ، فقد فقدت السيطرة على اكثر المجالات حيوية وهما مجال السياسة الخارجية والامن ، واضطرت ان تدفع لوحدها تقريبا ثمن المطالبة بالتغيير . وقد وصف يوئيل ماركوس (هآرتس ٢٩/

٧٤/٥) وضع كتلة المباي داخل حزب العمل بقوله : « انها ترقد عاجزة على فراش الاحتضار » و« وتجد نفسها الان على هامش السلطة » بعد ان كانت سيطرتها على الدولة غير محدودة . واضاف ماركوس محللا اسباب هذا الوضع : « ان المباي لم يصل مصادفة الى ما وصل اليه . فالجهاز الحزبي يدفع اليوم ثمن نظرة زعمائه الضيقة وأنانيتهم على مر السنين . هذا هو ثمن كل السنوات التي حارب فيها الجهاز كل قوة شابة برزت ، وثمن انانية الزعماء المتعصبين الذين خشوا الرجال الموهوبين ، ولم يرعوا جيلا منهم يستحق الاستمرار في الحكم بعدهم » . (نشرة م.د.ف. السنة الرابعة ، العدد ١١ ، ٧٤/٦/١) .

اما دانييل بلوخ فقد تناول الوضع من زاوية أوسع حيث أشار الى وضع ومكانة رابين نفسه داخل الوضع الجديد الذي استجد فقال : « نشأ في حزب العمل وضع فريد في نوعه . سيصبح الان مجالا الخارجية والامن بأيدي « رافي » و« أحدوت هعفودا » . وستسيطر كتلة المباي على المجال الاقتصادي والهستدروتي والحزبي . وسيصبح اهم شخص في المباي (سابير) رئيسا لادارة الوكالة اليهودية ، وهو منصب ذو اهمية اقتصادية — اجتماعية . وسيكون رجال بطانته : وزيرا المال والاسكان (الاشارة الى رابينوفيتش وعوفر) ورؤساء هيئة العاملين [في الهستدروت] ورجل المباي بروحام ميشل هو ايضا سكرتير الهستدروت . ويجب الافتراض ان سكرتير حزب العمل سيكون مباييا بارزا . وسينشيء كل هؤلاء مراكز قوى . وسيكون يتسحاق رابين رئيسا للحكومة وليس زعيما للحزب . وستواجهه ، اضافة الى مراكز القوى في الهستدروت والوكالة اليهودية والحزب ، معارضة خارج البرلمان بزعامة جولدا مئير ووزراء كبار سابقين . ويقول البعض ساخرا انه ستصبح في اسرائيل حكومتان : حكومة رابين وحكومة منفى » . (نفس المصدر اعلاه) .

التشكيلة الوزارية

تشكلت الوزارة الاسرائيلية الجديدة من ١٩ وزيرا بمن فيهم رئيس الوزارة نفسه . وهناك أربع وزارات ما زالت شاغرة واسندت مهامها الى وزراء آخرين بالوكالة ، وهي : وزارة البرق والبريد ، وقد تولاها رئيس الوزارة نفسه ، ووزارة الاديان وقد تولاها وزير العدل ، ووزارة الداخلية وقد تولاها وزير الشرطة ، ووزارة الشؤون الاجتماعية وقد تولاها وزير الصحة . والوزارات الثلاث الاخيرة ابقيت شاغرة خصيصا للمفدال على امل حدوث تغيير في موقفه والعودة الى المشاركة في الحكم . اما الوزارة الرابعة فقد بقيت شاغرة بشكل مؤقت لعدم وجود شخص مناسب لها ولاضطرار رابين لتقديم حكومته لرئيس الدولة ومن ثم للكنيست لطرح الثقة بها . ومن المنتظر في حالة عدم عودة المفدال ثانية الى الحكم ، اعادة توزيع الحقائب الوزارية بشكل دمج بعض الوزارات او اسناد الوظائف الشاغرة الى وزراء الدولة بعد اجراء تعديل في المناصب على الارجح . كما وتضم التشكيلة الوزارية ثلاثة وزراء دولة هم : يسرائيل جليلي (احدوت هعفودا) جدعون هاوزنر (احرار مستقلون) وشولميت الوني (حركة حقوق المواطن).

وتتوزع المناصب الوزارية الحالية بين الكتل المشاركة في الائتلاف على النحو التالي : وزيران لكل من : رافي ، احدوت هعفودا ، الاحرار المستقلين والمابام . ووزير واحد لحركة حقوق المواطن . اما الوزراء العشرة الاخرون فانهم من كتلة المباي في حزب العمل ، ومن المحتمل ان يصبح عدد هؤلاء احد عشر بعد ايجاد وزير أصيل لوزارة البرق والبريد . وحسب هيكل الوزارة الحالية فان هناك ثلاث وزارات مخصصة للمتدينين (المفدال) .

وهناك في الوزارة الحالية ستة وزراء يدخلون الوزارة لاول مرة ، من بينهم اربعة من حزب العمل ، وواحد من « رافي » وواحد من حركة حقوق المواطن .

وتضاربت الآراء حول تقييم حكومة رابين فبينما رأى فيها البعض دليلا واستجابة لارادة التغيير التي عبرت عنها حركات الاحتجاج داخل الاحزاب وخارجها اعتبرها البعض الاخر عاجزة وغير قادرة على التصدي للمهام المطروحة حاليا . فقد كتبت صحيفة جيروزاليم بوست (٧٤/٥/٢٩) حول ذلك تقول : « ... ان كل شيء يتعلق بمدى نجاح رابين بازالة الخلافات العديدة التي رافقت عملية تشكيل حكومته ، لكي يستطيع الوزراء الجدد والقدامى العمل سويا » . وذكرت الصحيفة ان رؤساء الحكومات السابقة ، ابتداء من بن جوريون ولغاية

جولدا مئير ، كان لهم نفوذ قوي علـى نشاط الوزراء ، واستطاعوا بقوتهم الشخصية التغلب على الخلافات بين الوزراء . اما رابين فلم ينجح حتى الان بمنع وقوع خلافات بين اعضاء الفريق المشترك في حكومته الجديدة » .

اما صحيفة هاتسوفيه (٧٤/٥/٢٩) التابعة للمفدال فانها هاجمت رابين وعبرت عن خيبة املها بتركيب الحكومة . وقالت الصحيفة انها كانت تفضل ان يعيد رابين التكليف لرئيس الدولة .

وعن مدى ما تمثله او لا تمثله هذه الحكومة من تغيير ، كتب دانييل بلوخ (ملحق دافار ٥/٣١/ ٧٤) يقول : « تحدث ينسحاق رابين عن حقبة جديدة ، ولكن مع تشكيل حكومته ، اتضـح ان « النظام القديم » لا يزال هو الحاكم . ففـي الحكومة الجديدة القليل فقط من القوى الجديدة تماما : رابين نفسه ، والى حد ما ياريف وبارليف. ان برعام ويادلين وعوفر هم وزراء جدد حقا ، ولكنهم قدماء بما فيه الكفاية في ميدان العمل العام والتجديد الحقيقي الوحيد ، والمفاجيء ، يتمثل في وزير المالية الجديد (يعقوب لينفسون*) فهو يافع في حدود الاربعين ، ووجه جديد تماما في المجال السياسي » .

أما شبتاي طيفت فقد اعرب في مقال له في صحيفة هآرتس (٧٤/٥/٣١) عن خيبة امله وأمل جميع الذين كانوا ينادون بالتغيير حيث قال : « وامـا بالنسبة لحركات الاحتجاج التي زودت الدافع للتغيير بالوقود ، فما الذي حققته ؟ ان استبدال جولدا مئير ودايان ادى قبل كل شيء الى تجميدها وشلها. والان لا يصدر عنها سوى صوت خافت . وبعد قليل لن يبقى ما يذكر بها سوى الاعضاء الثلاثة لحركة حقوق المواطن في الكنيست ، وحقيبة وزير بلا وزارة التي تشغلها شولميت الوني . فهل كل ما أراد مؤيدو تلك الحركات من تحقيقه هو ان تصبح السيدة الوني وزيرة ؟ يبدو ، ان « الجبل قد ولد فأرا » !

ويضيف طيفت قائلا : « بكلمات اخرى ، فان الحكومة الجديدة اقل شأنا من الحكومة السابقة في كل شيء ... ولا حاجة للبرهان ان هذه الحكومة اقل شأنا من سابقتها بالنسبة لتركيبتها . ولكنها اقل شأنا ايضا من ناحية تأييد الجمهور لها » .

أما يوئيل ماركوس فقد اعرب في نفس العدد من الصحيفة (هآرتس ٧٤/٥/٣١) عن رأى مغاير . فبعد أن عدد التحفظات والمخاوف والصعوبات التي تواجهها حكومة رابين قال : « وعلى الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من الشكوك ، وعلى الرغم من شعور الكثيرين بأننا « سقطنا الى المجموعة «ب» » (التعبير مستعار من لعبة كرة القدم) فانني اعتقد بأن هذا الامر هو خطوة تاريخية مهمة . فاذا كان الاشخاص الجدد صالحين او سيئين فهذا يمكن رؤيته في المستقبل — لكن مجرد التحرك هو أمر طالما توخيناه . فأخيرا حدث تغير في الاشخاص واسع النطاق واخيرا سقط المبدأ الذي كان يعطي لبعض الوزراء « كوشان » (حق) علـى بعض الوزارات . واخيرا استؤصل من الحكومة وزراء احتلوا مناصب في الوزارة لمدة ١٥ — ٢٠ سنة » .

البيان السياسي

قال رابين عندما قدم اسمـاء وزارته لرئيس الدولة : « ان هذه الحكومة التي آمل ان أرئسها، بعد أن تحظى بثقة الكنيست ، هي حكومة استمرار وحكومة تغيير في آن واحد » . (ر. ١٠١ — ٥/٩/ ٧٤ ، عدد ٥٤٥ ، ص ٧١٧) . وبالفعل فهي كذلك. واذا كانت حكومـة تغيير مـن حيث تركيبتهـا الشخصية ، فانها حكومة استمرار من حيث خطها السياسي . وأجمل رابين المهام التي تسعـى حكومته لتحقيقها بست نقاط :

١ — ضمان امن اسرائيل ، وتنمية وتقوية جيش الدفاع الاسرائيلي والسعي المثابر والدائم نحـو السلام الحقيقي .

٢ — بناء مجتمع حديث ، عادل حر ومستقل... في نطاق نظام ديمقراطي قوي، من خلال بذل الجهود لاشراك الجيل الشاب بصورة اكثر في اتخـاذ القرارات وتحمل المسؤوليات .

٣ — تأمين الازدهار الاجتماعي ، وذلك بتوجيه جهود خاصة من الجميع من اجل رفع مستوى وتقدم

---

* يعقوب ليفنسون رئيس مجلس ادارة بنك هبوعلم (بنك العمال) ، وكان اسمه قد طرح لخلافة سابير في وزارة المالية ، لكنه اعتذر من ذلك ، مما اضطر رابين الى اجراء تعديل في وزارته وذلك باسناد وزارة الماليـة الى رابينوفيتش وادخال عوفر مكانه في وزارة الاسكان .

الفئات التي ما تزال تعيش حالة ضيق .

٤ — زيادة الهجرة وتحسين وسائل الاستيعاب، وذلك لدفع عشرات الالوف من اليهود للهجرة الى البلاد ، والمحافظة ودعم الصلات مع يهود العالم.

٥ — السعي دون كلل من اجل تعزيز وتنمية الاقتصاد .

٦ — تعزيز مكانتنا السياسية ، وتوثيق علاقاتنا مع دول العالم وقبل كل شيء مع الولايات المتحدة.

التسوية على مراحل

حمل رابين الدول العربية مسؤولية عدم التوصل الى تسوية وحل للنزاع حتى الان ، لكونها وضعت شروطا لم تكن اسرائيل مستعدة للموافقة عليها ، ومنها :

١ — المطالبة بالتعهد الاسرائيلي بالانسحاب الشامل الى خطوط الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كشرط مسبق لاي حوار .

٢ — لكونها عارضت المفاوضات المباشرة بين الاطراف في كل مرحلة من مراحل المفاوضات .

وزعم رابين في بيانه (معاريف ، ٧٤/٦/٤) : « ان اسرائيل ستستمر في السعي من أجل سلام حقيقي يكون بمثابة سلام بين الشعوب ويجد تعبيره يوميا ، بحدود مفتوحة يمكن بواسطتها اجـــراء اتصالات متبادلة في جميع مجالات الحياة » . لكنه مع ذلك ، دعا الى رؤية الواقع كما هو مشـــيرا « الى انه من الصعب التوصل الى ذلك في الظروف الحالية » .

ولذلك دعا للتفتيش عن طريق للتقدم نحو السلام على مراحل : اي للتقدم نحو السلام بواسطة اتفاقات جزئية تضمن استتباب الهدوء وتوقـف الاعمال العسكرية بواسطة وقف اطلاق النـــار وتخفيض حجم القوات ، الذي بدوره يقلص خطر اشتعال الحرب وحدوث هجوم مفاجيء . واضاف رابين : « علينا ان نسعى لتسويات تخلق ظروفا نستطيع بواسطتها امتحان نوايا كل دولة عربية : هل تتجه بالفعل نحو السلام أم لا .

ودعا رابين الى النظر الى اتفاقيات فصـــل القوات مع سوريا من هذا المنظار . اما كيفية اختبار نوايا الدول العربية فيراها رابين من خلال:

١ — بالنسبة للناحية العسكرية ، المحافظة على وقف اطلاق النار في البر والبحر والجو محافظـة تامة ، ثم من خلال تخفيض حجم القوات على الجانب السوري ، كما تحقق الامر على الجانب المصري .

٢ — على الصعيد المدني ، يربط رابين نوايا مصر للسلام باعادة ترميم مدن القناة واسكانها ويفتح قناة السويس للملاحة الدولية ، اما سوريا فيدعو الى تعقب خطواتها بالنسبة لاعادة سكان القـرى في الجيب والقنيطرة الى اماكنهم للعيش بســـلام الى جانب المستوطنات الاسرائيلية في هضبـــــة الجولان .

وبينما يرى رابين امكانية لمرحلة متوسطة اخرى في الطريق نحو السلام مع مصر فانه لا يرى ذلك بالنسبة لسوريا ، حيث يقول : « اما بالنسبة لسوريا فبعد التوصل الى اتفاق فصل القوات وتنفيذه بحذافيره . فليس هناك مكان لمرحـــلة متوسطة . وبعد ان نتوصل الى تقدم آخر في التسوية مع مصر فان السؤال التالي سيطرح : هل سوريا بالفعل مستعدة لتوقيع اتفاق سلام تعاقدي مع اسرائيل » ؟ ويضيف رابين مؤكدا على موقف اسرائيل الاساسي من الحدود فيقول : « ومن الضروري ان يفهم زعماء الدول المجاورة بـأن اسرائيل لهـا الحـق بحـدود يمكـن الدفـاع عنها . وان اسرائيل لن تعود ، **حتى في نطاق سلام تعاقدي** الى خطوط الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، فهذه الخطوط ليست حدودا يمكن الدفاع عنها ، وهي تشكل اغراء للعدوان كما ثبت في الماضي » .

أما بالنسبة للبنان فقال رابين انه لا توجد بين اسرائيل ولبنان قضايا اقليمية مختلف عليها . وان كل ما في الامر انه يتوجب على لبنان ان يضع حدا « للنشاط الارهابي الموجه ضد اسرائيـــل » في اراضيه ، وان اسرائيل تعتبر لبنان مسؤولا عن هذا النشاط .

وأعرب رابين ايضا عن استعداد حكومته للبحث مع حكومة الاردن في القضايا المعلقة بينهما ، ولم يأت هنا بجديد ، ولم يشر الى اية مراحل حيث قال : « نحن مهتمون باجراء مفاوضات مع الاردن حول السلام . نحن نسعى الى عقد اتفاق سلام تعاقدي معه ، يرتكز على اساس وجود دولتين

مستقلتين اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة ، ودولة عربية الى الشرق منها • ويمكن للشخصية او الذات المستقلة للعرب الفلسطينيين والاردنيين ان تجد تعبيرا لها في الدولة الاردنية ــ الفلسطينية المجاورة ، على اساس السلام وعلاقات الجوار الحسنة مع اسرائيل . ان اسرائيل تعارض اقامة دولة عربية منفردة اخرى غرب النهر » .

تجاهل الفلسطينيين

وفي حديثه عن مؤتمر جنيف قال رابين : « ان موافقة اسرائيل على الاشتراك في مؤتمر جنيف للسلام كانت تستند الى الافتراض بانه سيرسي في هذا المؤتمر الاساس للتسويات بين اسرائيل وبين كل من جاراتها . وان القضايا المختلف عليها بين اسرائيل وبين كل واحدة من جاراتها هي قضايا تختلف الواحدة عن الاخرى . فكل تسوية يجب أن تكون مبنيــة علــى أساس الالتزامات المتبادلة الواضحة بين مصر واسرائيل ، بين ســـوريا واسرائيل ، بين الاردن واسرائيل ، وبين لبنان واسرائيل . ولا مكان لاية جهة اخرى لتكون طرفا في مفاوضات السلام » . واضاف رابين : « ان اسرائيل ترفض دعوة مندوبين من قبل منظمات « المخربين » و « الارهاب » للاشتراك او ليحملوا صفة المراقبين في مؤتمر السلام في جنيف ، فان حكومة اسرائيل لن تتفاوض مطلقا مع منظمات « الارهاب » التي تعلن هدفها ابادة اسرائيل » .

وبعد ان انتهى رابين من القاء بيان الحكومة السياسي جرت مناقشة هذا البيان من قبل اعضاء الكنيست وكان اول المتكلمين زعيم المعارضة مناحيم بيجن حيث قال : « انتبهوا لما تقولون ، ان اعداءنا يقولون انه لن يكون هناك اتفاق سلام اذا لم نعد الى خطوط الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وهذا يعني اننا بناء على ما ذكرتم ، لسنا متجهين نحو السلام ، فيعد ما قلتم صباح اليوم ، لن يكون بامكانكم الادعاء ان الرغبة في اسرائيل هي احلال السلام . ومن واقع بياتكم هذا ، فانه لا يمكن احلال السلام . اننا قلقون جدا في هذا اليوم الذي نشترك فيه بمناقشة منح الثقة لهذه الحكومة ونقترح ما يلي : زيادة الاستيطان دون تأخير في هضبة الجولان والضفة الغربية وجميع انحـــاء البلاد . فهل ستقوم هذه الحكومة بهذه الاعمال ؟ ثانيا ، استئناف النضال من أجل السماح ليهود الاتحاد السوفياتي بالهجرة الى البلاد ، فقــد طرأ في الاونة الاخيرة انخفاض كبير في عدد المهاجرين الذين يصلون من روسيا وينبغي علينا دون أي تأخير ان نستأنف الحملة التاريخية من أجل السماح لهم بالهجرة » . (ر.١٠١٠. ٧٤/٦/٣ ، عدد ٥٤٨، ص ٦) .

وفي ٧٤/٦/٣ مثلت حكومة رابين امام الكنيست لنيل الثقة ، وعلى اساس هذا البيان ، وعلى اساس هذه التركيبة منحت الكنيست ثقتها لوزارة رابين باغلبية ٦١ : ٥١ صوتا . وقد صوت الى جانب الحكومة بالاضافة الى أصوات التجمـــع العمالي الحاكم كل من كتل النواب العرب والاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن وقائمة موكيد . وقد امتنع عن التصويت عضو الكنيست مردخاي بن بورات (العمل ــ رافي) بالاضافة الى نواب « راكاح » الاربعة . اما المعارضة التي ضمت كلا من كتلة ليكود ، وكتلتي المفدال والجبهـــة التوراتية ، فيبدو ان ثلاثة من اعضائها لم يحضروا الجلسة .

اسم الوزير	الوزارة	الحزب	الكتلة
١ ـ يتسحاق رابين ـ رئيس الوزارة ووزير البرق والبريد بالوكالة		العمل ـ التجمع	المابـاي
٢ ـ شمعون بيريس ـ وزير الدفاع		« »	رافي
٣ ـ ييجال الون ـ وزير الخارجية ونائب رئيس الوزارة		« »	أحدوت همنودا
٤ ـ يهوشواع رابينوفيتش* ـ وزير المالية		« »	المابـاي
٥ ـ حاييم بارليف ـ وزير التجارة والصناعة والتنمية		« »	«
٦ ـ حاييم تسادوك** ـ وزير العدل ووزير الاديان بالوكالة		« »	«
٧ ـ أهرون ياريف** ـ وزير الاعلام		« »	«
٨ ـ موشي بارعام* ـ وزير العمل		« »	«
٩ ـ شلومو هيلل ـ وزير الشرطة ووزير الداخلية بالوكالة		« »	«
١٠ ـ أهرون اوزان** ـ وزير الزراعة		« »	«
١١ ـ ابراهام عوفر* ـ وزير الاسكان		« »	«
١٢ ـ أهرون يادلين* ـ وزير التربية والتعليم		« »	«
١٣ ـ جاد يعقوبي* ـ وزير المواصلات		« »	رافي
١٤ ـ فكتور شيمطوف ـ وزير الصحة والشؤون الاجتماعية بالوكالة		« »	المابـام
١٥ ـ شلومو روزين** ـ وزير الاستيعاب		« »	المابـام
١٦ ـ يسرائيل جليلي ـ وزير بلا وزارة		« »	أحدوت همنودا
١٧ ـ جدعون هاوزنر** ـ وزير بلا وزارة		الاحرار المستقلين	
١٨ ـ موشي كول ـ وزير السياحة		الاحرار المستقلين	
١٩ ـ شولميت الوني* ـ وزيرة بلا وزارة		حركة حقوق المواطن	

* وزراء لاول مرة .

** وزراء منذ حكومة مئير السابقة (بعد الانتخابات) .

ـ البقية قدماء وتتفاوت مدة اقدميتهم .

ـ الوزراء الخارجين : جولدا ، دايان ، ايبن ، جفاتي .

هاني عبدالله

(٤) القضية الفلسطينية عسكريا

شهد الشهر الماضي حدثا من أهم احداث الصراع العربي — الاسرائيلي ، وهو فصل القوات على الجبهة السورية وانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي السورية التي احتلتها في عام ١٩٧٣ وجزء من الاراضي السورية المحتلة في حرب ١٩٦٧ . كما شهد عددا من الاحداث العسكرية الاخرى ، وستضم الشهريات العسكرية (القضية الفلسطينية عسكريا) لهذا العدد مجموعة من الانباء العسكرية أعدها محمود عزمي وهشام عبدالله من القسم العسكري في المركز ، بعد ان افردنا لفصل القوات على الجبهة السورية مقالا خاصا في هذا العدد .

١ — تطور المدفعية الاسرائيلية

في ١٩٧٤/٥/٨ قال الجنرال مردخاي جور رئيس الاركان الاسرائيلي اثناء حفلة تخريج دورة ضباط مدفعية ان « احدى عبر الحرب الواضحة ، اننا منذ حرب يوم الغفران ، نحاول ان نبني منكم جبهة دفاع قوية ، سواء من الناحية الكمية او النوعية ... فالنيران التي تقذفونها هي النيران التي تمكن من استمرار الحركة الى الامام . اننا نريد مدافع بعيدة المدى ، وقذائفها ثقيلة جدا . وينبغي ان تكون رغبتكم وهدفكم ، هو التحرك مع بقية الاسلحة الى الامام بقدر الامكان ، وباختصار، ان تكونوا اول من يصل الى كل هدف في ارض العدو ... ان هذا هو الهجوم الحقيقي في الحرب الحديثة » (ر.٠١٠. ، عدد ٥٢٨) .

والواقع ان احد الدروس الهامة والبارزة لحرب ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، على المستوى التكتيكي ، ان الاعتماد بصورة شبه مطلقة على القوة النارية لسلاح الطيران ، في شكل الدعم القريب « Close air support » الذي يتصف أهداف محددة داخل ميدان المعركة المباشر ، وبناء على طلب قائد القوة البرية المقاتلة في المكان نفسه ، كبديل رئيسي لدعم المدفعية الميدانية والمتوسطة بالنيران للقوات المدرعة او المشاة الميكانيكية والمترجلة ، وهو الاعتماد الذي غالت فيه العقيدة القتالية الاسرائيلية نتيجة لخبرتها خلال حرب ١٩٦٧ الخاطفة ، قد ثبت خطؤه بصورة عملية واضحة خلال حرب ١٩٧٣ خاصة خلال مرحلتها الاولى ، حين حيدت شبكة الدفاع العربي المتطورة القدرة الفعالة للقاذفات المقاتلة الاسرائيلية « سكاي هوك » و « فانتوم » فوق ساحات المعارك المباشرة ، وجعلت عمليات الدعم الجوي القريب او الدعم الجوي المباشر « Direct air support » الذي يستهدف قواعد القوات العربية، باهظة الثمن بالنسبة الى الطيران الاسرائيلي المحدود الحجم نسبيا ، والمعد للحرب القصيرة التي تعطي مردودا كبيرا على المستوى التكتيكي والاستراتيجي بأفضل اقتصاد ممكن للقوى .

وتمتد الجذور التاريخية للعقيدة العسكرية الاسرائيلية المذكورة الى نظرية الحرب الخاطفة الالمانية « بليتزكريج » التي نفذت بنجاح في سنوات ١٩٣٩ — ١٩٤١، وقد تبنت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية نظرية الحرب القصيرة الخاطفة بحسم ووضوح كاملين خلال فترة ما بين حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ ، واعدت جهازها العسكري على اساس هذه النظرية ، ولذلك أعطيت الاولوية لسلاح الطيران يليه سلاح المدرعات واعتبرا سلاحا الحسم الاساسيان ، ولذلك اختلت النسبة في التسليح كما ونوعا ، وكذلك في المهام القتالية ، بين سلاحي الطيران والمدرعات من جهة وبين المشاة والمدفعية من جهة اخرى عشية حرب ١٩٦٧ ، وجاءت نتائج الحرب بحجمها الكبير غير المتوقع (حتى من جانب القادة الاسرائيليين) لترسيخ صحة اختيار القيادة العسكرية الاسرائيلية لعقيدتها القتالية ، ولترتيب اولويات التسليح والتنظيم في الجيش الاسرائيلي ، ولذلك قال « آلون » عقب حرب ١٩٦٧ « ويبدو لي انه في تنظيم القوات البرية يجب اعطاء افضلية اخرى للمدرعات كقوة رئيسية بين القوات البرية ». (الستار الرملي) . وقال «موشي ديان» أيضا « ان العنصر الاساسي في قوتنا هو اولا سلاح الطيران الذي يعتمد على الاعين الالكترونية » (معاريف ٧٣/٦/٨) .

ولم تشر المصادر الاسرائيلية المختلفة الى أي دور هام لعبته المدفعية خلال حرب ١٩٦٧ سوى في القصف التمهيدي لمواقع « أم قطف » الدفاعي عند « ابو عجيلة » حيث قام نحو ١٠٠ مدفع ميدان ومتوسط بقصف مركز استمر نحو ٢٠ دقيقة سبق هجوم المشاة الليلي ، والقصف التمهيدي الشديد الذي وجهته المدفعية الاسرائيلية لمواقع مدينة غزة يوم ٦٧/٦/٦ بعد سقوط تل « علي المنطار » في أيدي المظليين خلال الليلة السابقة .

وكانت المدفعية الاسرائيلية المشتركة في هذه الحرب ، هي أقل أسلحة الجيش الاسرائيلي تطورا وتتألف (بالاضافة لسلاح البحرية) ومؤلفة من خليط من انواع مختلفة من المدافع المتطورة عيار ٢٥ رطل الانجليزي و١٥٥ مم الامريكي والمدافع ذاتية الحركة عيار ١٠٥ مم الفرنسية الطراز (مركبة على شاسيهات ا ماكس ١٣) ويقدر عدد قطعها بنحو ١٨٠ مدفعا . وعيار ١٥٥ مم الفرنسية الطراز ايضا (مركبة على شاسيهات شيرمان م — ٥٠) .

وكان الدرس الاساسي الذي استخلصته القيادة الاسرائيلية من حرب ١٩٦٧ بالنسبة لسلاح المدفعية ، هو ضرورة تحويل معظم قطعها الى مدفعية ذاتية الحركة حتى تستطيع ان تواكب حركة المدرعات والمشاة الميكانيكية ، وتكون قادرة على المناورة واجتياز الاراضي الوعرة ، وتأمين الدعم بالنيران للقوات المدرعة والميكانيكية بغية تسهيل مهامها الهجومية او الدفاعية .

وتسارعت خطى تدعيم سلاح المدفعية الاسرائيلي في هذا الاتجاه عقب نشوب معارك حرب الاستنزاف المصرية عام ١٩٦٩ و١٩٧٠ ، التي لعبت فيها المدفعية المصرية القوية كما ونوعا الدور الرئيسي ، وقامت الولايات المتحدة الامريكية بامداد الجيش الاسرائيليخلال هذه الحرب وبعدها بعدد من المدافع « م — ١٠٩ » عيار ١٥٥ مم ذاتية الحركة ، و « م — ١٠٧ » عيار ١٧٥ مم ذاتية الحركة ، و « م — ١١٠ » عيار ٢٠٣ مم ذاتية الحركة ايضا. وتتميز هذه المدافع كلها بالقدرة على المناورة مع المدرعات وبقوة النيران (بدرجات متزايدة القوة ابتداء من المدفع ١٥٥ مم الذي تزن تنيفته ٤ كلغ الى المدفع ٢٠٣ مم الذي تزن قذيفته ٩٠،٧ كلغ مرورا بالمدفع ١٧٥ مم الذي تزن قذيفته ٦٦،٦ كلغ) ويبعد مداها بدرجات متفاوتة (المدفع ١٥٥ مم مداه الاقصى ١٤٦٠٠ متر والمدفع ٢٠٣ مم مداه ١٧٦٠٠ متر والمدفع ١٧٥ مم مداه ٣٢٧٠٠ متر) الا ان اعدادها كانت محدودة نسبيا .

واعتقدت اسرائيل انها بذلك قد طورت مدفعيتها بالدرجة الملائمة وبالصورة المناسبة لعقيدتها القتالية ، وفي مواجهة مشكلة قلة عدد المدافع ذاتية الحركة النسبية اقامت القيادة الجنوبية وراء خط بارليف طريقا موازيا للخط لتسيرُ عليه بطاريات المدفعية ذاتية الحركة مقدمة الدعم الناري الى كل نقطة في الخط تطلب دعم المدفعية ، التي اعتبرت جزءا من الاحتياطي المتحرك وراء الخط الدفاعي الثابت يؤدي دوره بالتعاون مع الطيران الذي سيتقدم الدعم القريب بشكل رئيسي . وعندما واجه الطيران الاسرائيلي مفاجأة الدفاع الجوي العربي، خاصة في جبهة القناة ، شعرت وحدات المشاة المتخندقة في خط بارليف ، وكذلك وحدات الاحتياطي المدرع المكلفة بتوجيه الضربات المعاكسة الاولى ، بضعف الدعم الناري الذي قدمته المدفعية لها في مواجهة الدعم القوي بالنيران الذي كانت تقدمه مئات المدافع المصرية والهاونات الثقيلة وقواذف صواريخ كاتيوشا لوحدات مشاتها المهاجمة . وأثر ذلك على انعدام التوازن بين قوة النيران المصرية والاسرائيلية .

ولذلك اخذت القيادة الاسرائيلية تدفع الى ساحة القتال ، خاصة في الجولان ، باعداد كبيرة من المدافع المتطورة التي غنمتها من العرب في حرب ١٩٦٧ منالهاوتزر عيار ١٢٢ مم و١٣٠ مم والمدفعية الصاروخية عيار٢٤٠مم ذات الاثنتي عشرة سبطانة، واستخدمت هذه المدافع بكثرة ايضا خلال حرب الاستنزاف السورية الاخيرة التي وقع العبء الاساسي فيها من الجانبين على سلاح المدفعية .

ولذا فان من المتوقع ، على ضوء تصريحات الجنرال جور الاخيرة ، زيادة قوة المدفعية الاسرائيلية ، خاصة من حيث الكم ، خلال مرحلة اعادة بناء وتنظيم الجيش الاسرائيلي الجارية حاليا ، حتى لا تتكرر ظروف حرب ١٩٧٣ بالنسبة الى وحدات المشاة والمدرعات من حيث ضعف وسائل الدعم بالنيران البرية . وغالبا ما ستزيد نسبة عدد المدافع المتطورة عما كانت عليه من قبل (بالاضافة لزيادة عدد المدافع ذاتية الحركة) ،

نظرا لان الاقتصار على جعل القوة الرئيسيـــة للمدفعية من المدافع ذاتية الحركة يكلف الجيوش تكاليف باهظة ، ويفترض استخداما محدودا للذخيرة ضد اهداف محددة خلال معارك حرب متحركة ، مع استخدام الذخيرة النووية التكتيكية وهذا هو الاساس التكتيكي لاعتماد الجيش الامريكي وجيوش حلف الاطلنطي على المدفعية ذاتية الحركة بدلا من المدفعية المقطورة . ولما كان هذا الافتراض لا يناسب ظروف اسرائيل والصـــراع العربي — الاسرائيلي المسلح ، فان الاعتماد المطلق على المدفعية ذاتية الحركة لتوفير قوة الدعم الناري البري بفاعلية لا يناسب هذه الظروف القتالية . هذا فضلا عن ان التكلفة الاقتصادية للمدافـــع المقطورة أقل من تكلفة المدافع ذاتية الحركة وسيبقى حجم المدفعية المقطورة الاسرائيلية محدود نسبيا ضمن حدود الطاقة البشرية للجيش الاسرائيلي ، خاصة الجيش العامل الذي نتوقع أن يظل اعتماده الاساسي على المدافع ذاتية الحركة ، على حين سيتركز الجزء الاكبر من المدافع المقطورة في القوات الاحتياطية التي تشكل معظم الجيش الاسرائيلي .

٢ — أسلحة فرنسية للعرب

نشطت حملات التسليح في الاونة الاخيرة في معظم الدول العربية سواء منها المحاذية لاسرائيل، او في دول الخليج العربي والسعودية والعراق ، او في ليبيا . وابرزت هذه الحملات اتجاهـات جديدة في نوعيات الاسلحة والمصادر التي قصدتها بعض الدول للحصول عليها . وكانت فرنسا هي الفائز الاكبر حيث نازعت بريطانيا والولايات المتحدة اسواق السلاح في منطقة الخليج خاصة . وقد سلطت أجهزة الدعاية أضواء ساطعة على الصفقات الكبيرة مثل صفقات الميراج « ف — ١ » للسعودية والكويت و« الميراج — ٥ » لابو ظبي . ودبابات أم. اكس — ٣٠ للسعودية . الا ان القليل جدا ذكر عن بعض الصفقات الصغيرة والهامة الى عدد لا بأس به من الدول العربية .

فقد أعلنت فرنسا انها ستزود كل من الكويت وابوظبي ، والسعودية ، والعراق ، بما مجموعه ٨٠٠٠ صـــاروخ من طراز « س.س — ١١ » و « هاربون » . ويمكن استخدام هذه الصواريخ ضد الدبابات ، ويمكنها في هذه الحالة ضرب أهداف ثابتة او متحركة وخرق درع سماكته ٦٠٠ ملم . او ضد السفن وتستطيع في هذه الحالة خرق درع من الفولاذ سماكته ١٠ ملم فقط ، وينفجر الصاروخ على بعد ٢،١ م من نقطة الاصطدام . او يستخدم ضد الافراد ، وفي هذه الحالة يحمل راسا حربيا متشظيا . ولصاروخ « هاربون » المواصفات ذاتها التي لصاروخ « س.س — ١١ » ويختلف عنه بانه مزود بنظام توجيه اوتوماتيكي متطور جدا ، يجعل بالامكان اطلاقه من الطائرات المقاتلة العاديـــة بالاضافة الى العربات البرية ، والسفن ، وطائرات الهليكوبتر .

وحصلت ابوظبي على انواع اخرى من المعدات هي أجهزة لاطلاق صواريخ « أس — ٣٧ » زودت بها طائرات « الميراج — ٥ » التي اشترتها من فرنسا . والصاروخ « أس — ٣٧ » هو صاروخ ضخم مضاد للرادار طوله ٤٢٠ سم ، ويطلق من الجو للارض ولم تحدد المصادر الفرنسية مداه ، واكتفت بالقول بانه يصل الى بضعة عشرات من الكيلومترات . ومن المرجح ان يكون في حدود ٦٠ كيلومترا . ويوجه هذا الصاروخ بطريقة سلبية بتتبع الموجات الكهرمغناطيسية التي تطلقها أجهزة الرادار .

أما ليبيا فقد اشترت ٧٠ مدفع هاون من عيار ١٢٠ ملم . والمدافع المذكورة من أحدث ما انتجت المصانع الفرنسية . فهو مركب على عجلات وله سبطانة محلزنة خلافا لسبطانات مدافع الهاون الملساء العادية . وهذا يجعله أقرب الى مدافع الميدان العادية منه الى مدافع الهاون حيث يصل مداه الاقصى الى ١٥ كيلومترا . يضاف الى ذلك ان دقة اصابته اكبر، ووزنه أخف، وحركته أسهل، ويمكن اسقاطه من الطائرات .

وحصلت العراق على مدافع هاون من عيار ٦٠ ملم . وتشمل الصفقة ١٠٠٠ مدفع من العيار المذكور ، وهذه المدافع تطلق النار بشكل آلي او يدوي ، مع ٥٥٥ الف قذيفة مختلفة . وستستخدم هذه المدافع لدعم وحدات المشاة في القتال المتحم، وتستطيع هذه المدافع اطلاق النار على أهداف يقل بعدها عن ٥٠ مترا ، ولا يزيد عن ٢٠٠٠ متر. ولا يزيد وزن المدفع بكامله عن ١٥ كلغ ، وبالتالي فان بامكان جندي مشاة واحد ان يحمله ، ويحمل جندي آخر جعبة ظهر تتسع لثماني قذائف لها جميعها الوزن ذاته .

وأهم الصفقات التي عقدتها العراق او التي تخطط لعقدها هي : اولا ، تركيب مدافع من عيار ٢٠ ملم على ٤٠ طائرة هليكوبتر فرنسية الصنع من طراز « الويت ٣ » . والعراق هو الدولة العربية الاولى التي تركز على استخدام طائرات الهليكوبتر المسلحة . ويمكن تسليحها ايضـــا بصواريخ « س.س — ١١ » او « هاربون » . وهذه الاسلحة مجتمعة تجعل من الهليكوبتر مواقع رمي طائرة مثالية في العمليات الهجومية والدفاعية ايضا . والصفقة الثانية تتعلق بأنظمة توجيـه تعمل بأشعة لايزر وتشمل الصفقة ١٥٠ جهازا سيتم تركيبها على مصفحات « بانهارد » المسلحة بمدافع من عيار ٩٠ ملم . وهذه الاجهزة قادرة على التقاط اهداف تبعد مسافة ١٠ كيلومترات .

يضاف الى ما تقدم كميات كبيرة من مختلف انواع الذخيرة ، وقطع الغيار وقنابل المدفعية والهاون ، والقنابل الخارقة للدروع . وتبلغ قيمة كل هذه الصفقات حوالي ٧٥٠ مليون فرنـك فرنسـي . والجدير بالذكر ان فرنسا تحاشت في كل هذه الصفقات ان تبيع أسلحة الى الدول المتورطـة بشكل مباشر في نزاع الشرق الاوسط . كما انها تشترط عدم اعادة تصدير هذه الاسلحة الى طرف ثالث دون موافقة فرنسا . ولكن ذلك لا يعني بأن هذه الاسلحة لن تستخدم في أي صراع مقبل مع اسرائيل . فمن المستبعد جدا ان يقف العراق مكتوف الايدي تجاه أي قتال على الجبهة الاردنية او السورية ، او ان لا يشارك فيه بكل قوته ويستخدم كل اسلحته بما في ذلك الاسلحة الفرنسية الصنع .

٣ — أسلحة جديدة في العرض العسكري الاردني

جرى يوم السبت ١٩٧٤/٥/٢٥ عرض عسكري اردني بمناسبة عيد الاستقلال ويوم الجيش . وظهر في العرض عدد من الاسلحة الحديثة اهمها طائرات ف — ٥ ي ، وصواريخ مضادة للدروع طراز تاو ، ودبابات م — ٦٠ ، وطائرات نقل مختلفة من ضمنها طائرة من طراز هيركوليز ، ومدافع رباعية مضادة للطائرات محمولة على سيارات عيار ٢٠ مم . ومن الواضح ان الجيش الاردني تطور تطورا كبيرا خلال الاعوام التي تلت حرب ١٩٦٧ . وازدادت اهميـة هذا الجيش بعد حرب تشرين ١٩٧٣ وانحســار اسرائيل التي كانت تشكـل الضمانة الرئيسيـة للمصالح الغربية في المنطقة . الا انه من الملاحظ افتقار الجيش الاردني الى وحدات رئيسية فـي الحروب الحديثة ، مثـل الصواريخ المضـــادة للطائرات ، كما ان مدفعيته المضادة للطــائرات ضعيفة بشكل ملحوظ . فالجيش الاردني يمتلـك اعدادا لا بأس بها من المدافع الثنائية ذاتية الحركة المضادة للطائرات من طراز م — ٤٢ عيار ٤٠ ملم، الا ان هذه المدافع غير مزودة بأجهزة انذار وتوجيه رادارية مثل باقي المدافع الحديثة . وهذا يقلل فاعليتها ضد المقاتلات النفاثة المتطورة .

وقد اشار اللواء زيد بن شاكر رئيس الاركان الاردني ، الى ان قوام الجيش سيصل الـى ٨٠ الف رجل عام ١٩٧٥ وسيكون محمـولا بكامله ، وسيتسلح بمئة طائرة من طراز « نورثروب فـ-ه » و« ستار فايتر » و« هوكر هنتر » . ولا شك ان زيادة قوة الجيش الاردني الى المستوى المذكور ستزيد من وزن الاردن السياسي ، وهذا سيمكنه من لعب دور أكبر على صعيد منطقة الشرق الاوسط، وربما على أصعدة اخرى ، خاصة في منطقـة الخليج . ويجدر الذكر ان الولايات المتحدة خصت الاردن بمساعدات مقدارها ٢٥٠ مليون دولار ، وهذا يؤكد الاهمية التي اصبحت للاردن خاصة بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

٤ — الاسلحة التي تطلبها اسرائيل

في أعقاب حرب تشرين الاول واختلال التوازن في القوى بين العرب واسرائيل ، نشطت الصحف الغربية التي تسيطر عليها الصهيونية ، والصحف الاسرائيلية كذلك في الحديث عن أسلحة قالت بـأن اسرائيل تطلبها لردم الهوة التي أحدثتها الحرب ، ولاعادة المعنويات الاسرائيلية المنهارة الى حالتها، واعادة الثقة في قدرة الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بأسلحة قادرة علـى قهـر الاسلحـة السوفياتية .

وقد تركزت الجهود الصحفية هذه على ابــراز الاسلحة القادرة على تدمير بطاريات صواريخ سام السوفياتية التي تشكل العقدة التي لم تستطـع القوات الاسرائيلية تجاوزها . فذكرت صـاروخ كوندور كسلاح قادر على تدمير بطاريات الصواريخ العربية عن بعد يزيد عن مدى هذه الصواريخ . والصاروخ كوندور يطلق من الجـو الى الارض ويستخدم لقصف المراكز الهامة جدا ، والثمينة ،

مثل مراكز القيادة ، او السفن ، ولا يمكـــن استخدامه ضد الوحدات العادية نظـرا لكلفتـه العالية جدا ، اذ يصل ثمن الصاروخ الواحد الى ٢٥٠ الف دولار . ولا يمكن اطلاقه من جميع انواع الطائرات ، وقد صمم ليطلق من طائرات أ ــ ٦ انترودر ، وكورسير أ ــ ٧ ، وف ــ ١٤ . ولا تملك اسرائيل اي من هذه الطائرات .

والحل الاخر الذي اكتشفته الصحافة الغربية لتعطيل عمل شبكة صواريخ سام ــ ٦ ، كـان الحصول على طائرة من طراز ي آ ــ ٦ براولر ، وهي طائرة تشويش الكتروني تحمل اربعة ملاحين، وتعتبر احدث ما انتج في الولايات المتحدة في هذا المجال . وتقول المصادر الامريكية انها جربت أجهزة هذه الطائرة ضد اجهزة رادار تابعة لصواريـخ سام ٢ وسام ٣ ، كـانت قد استولت عليهـا ، ونجحت في تعطيل عملها تماما الا أنها لم تجرب فعالية اجهزتها ضد رادارات صواريخ سام ٦ ، وبالتالي فان قدرتها في هذا المجال تبقـى غير معروفـة .

وذكر كذلك صاروخ يطلق من الجو الى الارض ويحمل رأسا نوويا من طراز سرام كحـل للتغلب على شبكات الصواريخ ، الا ان كون هذا الصاروخ نوويا يجعل من الصعب جدا تزويد اسرائيل به ، ولهذا فقد أشارت الصحف الاسرائيلية الى امكانية تزويده برأس تقليدي شديد الانفجـار . الا ان ذلك لا يغير من حقيقة بسيطة وهي أن هذا الصاروخ مرتفع الثمن جدا ، ولا يمكن اطلاقه الا من قاذفات القنابل الاستراتيجية من طراز « ب ــ ٥٢ » و« ف ب ــ ١١١ » .

وأشارت الصحف الى صاروخ من طراز لانس سيستخدم كحامل لعدد من الصواريخ الصغـيرة المضادة للدبابات ، تنفصل عن الصاروخ الام فوق الهدف . وهذا الصاروخ الذي هو حسب قـول الصحف ، تطوير لصاروخ لانس العـادي الـذي يطلق من الارض الى الارض . وليست هنـاك انباء حقيقية حول صاروخ من الطراز المذكور ، ويحتمل ان يكون هناك نماذج ما زالت قيد التطوير، لا يمكن التنبؤ بمدى ما ستحرزه من نجاح ، أو ما اذا كانت ستدخل مجال الخدمة الفعلية ام لا .

اما القول بأنه سيكون بالامكان ، في حالة اطلاقها على ملعب لكرة القدم ، تحديد الصف ورقم المقعد الذي سيسقط فوقه كل صاروخ مـن الصواريخ الصغيرة التي ستنفصل عن الصاروخ الام ، فانها مجرد اضغاث احلام . تتجاهل ان في الحرب طرف اخر له ارادته ووسائله وجهوده .

٥ ــ عرض القوة العسكرية المصرية

بمناسبة ذكرى ٥ حزيران (يونيـو) ١٩٦٧ السابعة قام الجيش المصري الثالث باجراء عرض عسكري ضخم في الصحراء القريبة من مدينـة السويس على الضفة الغربية من القناة ، كما قام الجيش المصري الثاني بعرض مماثل قرب مدينة الاسماعيلية ، وحضر الرئيس السادات والمشير احمد اسمـاعيل كـل مـن العرضين العسكريين اللذين لم يسبق لهما مثيل منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، واللذين عمد الى نشر صورهما عالميا بشكل يعطي مدى ضخامة حجم القوات المعروضة ونوعيـة أسلحتها وكميتها . فقد أظهرت هذه الصور مثلا في عرض الجيش الثاني نحو ٥٤٦ دبابة « ت ٥٤ » و« ت ٥٥ » مصطفة في ٦ تشكيلات كبيرة ووراءها نحو ٣٦٠ ناقلة جنود مجنزرة طراز « ب ت ر ــ ٥٠ ب » ، فضلا عن مئات من المدافع الهاوتزر عيار ١٣٠ مم التي يبلغ مدى رميها نحو ٢٥ كلم ، وعيار ١٢٢ مم « م ــ ٣٨ »، و١٢٢ مم « د ــ ٣٠ » التي يبلغ مدى رميها نحو ٢٢ كلم . وظهرت في عرض الجيش الثالث ٣٢ مجنزرة تحمل كـل منها ٣ صواريخ « سام ــ ٦ » وعشرات من الصواريخ « سام ــ ٣ » و« سام ــ ٢ » فضلا عن بعـض الصواريخ « فروغ ٧ » (وكذلك ظهرت اعداد من مختلف الصواريخ المذكورة في عرض الجيش الثاني)، وفي الوقت نفسه كانت اسراب طائرات الميج ــ ٢١ وسوخوي ٧ ــ تحلق فوق القـوات البرية اثناء العرضين . وهذان العرضان هما وسيلة ضغط غير مباشرة لتعزيز موقف مصر في مفاوضـات جنيف ، وتذكير اسرائيل بأن الجيش المصري عوض خسائره في حرب ١٩٧٣ ، رغم خلافاته الجزئية مع الاتحاد السوفياتي ، وان هذه الخلافات لم تؤثر على قدرته القتـالية .

محمود عزمي وهشام عبدالله

ملحق القضية الفلسطينية عسكريا

تقرير عن عملية أم العقارب « كفارشامير »

في نيسان من هذا العام كانت ملحمة الخالصة وكانت ترشيحا في ايار ، وها هي أم العقارب في حزيران ، وغدا ... كل فلسطين . هكذا وعد الشهداء من ابطالنا جماهير امتهم ، فها هو الشهيد البطل منير المغربي يقول « يا والدتي العظيمة ، لكي لا تلدي في العراء اطفالا مشوهين ، أصنع لك بيتا لا تقتحمه الوحوش ، تنمو فيه أمانيك ، ويكبر أطفالك ، وانت يا والدي حدثتني كثيرا عن الارض التي كبرت فيها وكنت معطاء مثلها ، شاهدتك تحلم بالعودة ، فمن اجلك ، ولاحقق حلمك ، امضي في هذا الطريق » (الى الامام ، عدد ٤٥٦) .

جاءت عملية القائد الشهيد « أبو علي اياد » والتي نفذها ابطال الخالصة ، بتوقيتها ، ودقة تخطيطها وطريقة تنفيذها ، انفجارا مدويا في مستنقع السكون التام المريب الذي بدأ يسود المنطقة ، في ظل حملة غسل الدماغ العربي لاعادة الاعتبار الى السياسة الاميركية لدى جماهير أمتنا . جاءت هذه العملية لتغطي بدويها الدامي تسجيلات الترحيب « برسول السلام » نيكسون ، ولتؤكد بالدم ان الحقوق القومية للشعب الفلسطيني على ارضه ، هي حيث تصل أقدام المقاتلين . وان المشكلة الفلسطينية هي اساس الصراع ، ولن يكون هناك سلام الا بحلها .

ففي تمام الساعة الثامنة والنصف بتوقيت فلسطين (التاسعة والنصف بتوقيت بيروت) ، من صباح الجمعة ١٩٧٤/٦/١٤ ، قامت مجموعة أبطال الخالصة بتنفيذ عملية القائد الشهيد « أبو علي أياد » ، فاقتحمت قرية أم العقارب التي تعرف باسم مستعمرة « كفارشامير » ، وفي الوقت نفسه كانت مجموعة الحماية تأخذ مواقعها لمشاغلة العدو وضرب نجداته . وقد تمكنت مجموعة التنفيذ من اقتحام الهدف ، واحتجاز ٣٢ رهينة في مطعم الكيبوتس ، وارسلت مع احدى النساء انذارا الى قادة العدو باللغتين العربية والعبرية تطالبه باطلاق سراح مئة فدائي يكون من بينهم كوزو اوكوموتو والمناضلات المعتقلات والمناضلين الجرحى والمرضى ، والمناضلين حسب أقدميتهم في الاسر . وأعطته مهلة ست ساعات غير قابلة للتمديد لتنفيذ المطالب، والا فان المجموعة ستفجر نفسها والرهائن بعد انتهاء مدة الانذار ، وحذرت العدو من المماطلة والخداع وعدم الاستجابة لمطالب الثوار العادلة .

وقامت الجبهة بالاتصال بالصليب الاحمر الدولي ليتولى عملية تأمين نقل الاسرى المئة من ثوارنا في حالة استجابة العدو للطلب . كما جرى ابلاغ سفارتي فرنسا ورومانيا بانهما ستبلغان كلمة السر التي سيفرج على ضوئها ثوارنا عن الرهائن من أسرى العدو بعد وصول ثوارنا الى دمشق .

انطلاقا من الاستراتيجية المعدة مسبقا لمواجهة مثل هذه العمليات والتي عبر عنها دايان بقوله « ينبغي علينا ان نقتلهم ، والا نستجيب لمطالبهم ، والاسلوب الوحيد — حسب اعتقادي — لمواجهة الارهاب هو الا يحصلوا على مطالبهم، والا يخرجوا من هنا أحياء ، وينبغي ان نحقق ذلك بأفضل ما عندنا من وسائل » (ر.أ.ف.أ. ، ٧٤/٥/٢١) ، انطلاقا من هذه الاستراتيجية كانت « مجزرة » الخالصة وكان هجوم القوات الاسرائيلية على مدرسة معالوت قبل نصف ساعة من انتهاء موعد الانذار . وفعلت اسرائيل كذلك الشيء نفسه في هذه المعركة استخفافا بأرواح الرهائن ، فقام العدو بزج قواته منذ اللحظات الاولى للمعركة ، ففاجأته قذائف المجموعة الثانية وأعطبت له احدى آلياته العسكرية وسيارة للشرطة قتل او جرح جميع من فيهما ، وقد استمرت الاشتباكات حتى الساعة الثانية عشرة ظهرا حيث استشهد المناضلان أبو انتصار وابو الفدا وحاول العدو بعدها اقتحام المطعم الذي يحتجز فيه ثوارنا الرهائن فتصدى له مقاتلونا بالقنابل البندقية ومنعوه من تحقيق اهدافه ، واستمرت المعركة العنيفة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر حيث نفذ ثوارنا انذارهم بتفجير أنفسهم والرهائن بالاحزمة الناسفة . كانت خسائر العدو على النحو التالي :

١ — مقتل واحد وثلاثين رهينة كانوا محتجزين في مطعم المستعمرة . ٢ — مقتل واصابة

أكثر من ١٥ خمسة عشر جنديا صهيونيا . ٣ — مقتل اربع نساء بينهن مجندة صهيونية في شوارع المستعمرة . ٤ — مقتل خمسة صهاينة في شوارع المستعمرة . ٥ — تدمير سيارة عسكرية وسيارة شرطة .

أما شهداؤنا الابطال فهم : ١ — الشهيد البطل سامي ابو زكي ، ابو الشمس ، لبناني الجنسية ، من مواليد سنة ١٩٥٥ وهو قائد المجموعتين . ٢ — الشهيد البطل فاخر باقر الساعدي ، ابو انتصار ، عراقي الجنسية من مواليد سنة ١٩٥١ . ٣ — الشهيد البطل زكريا عرفات صحراوي ، ابو ابراهيم ، فلسطيني الجنسية من مواليد سنة ١٩٥٦ . ٤ — الشهيد البطل صلاح عبد الحميد المظفر ، ابو الفدا ، عراقي الجنسية من مواليد سنة ١٩٥٢ .

فلسطين حبهم الكبير ، فمن اجلها وفي سبيلها كان عطاؤهم الكبير ، فها هم يضيفون الى البناء أربعة مداميك جديدة من أجسادهم ليكتمل البيت الذي يحلمون به .

ففي الخالصة امتزجت الدماء العراقيـــة والفلسطينية والسورية لتؤكد وحدة الامة العربية ووحدة نضالها ، واليوم في ترية أم العقارب انضم الدم اللبناني الى معانقة تلك الدماء في مأثرة الشرف والبطولة ليؤكد وحدة الموقف ووحدة المصير . وليؤكد بأن طريق العودة لن يكون الا سباحة في نهر من الدم .

حول كيبوتز كفار شامير :

أسس كيبوتز كفار شامير في عام ١٩٤٤ شمال شرق فلسطين، بمقاطعة صفد قرب الحدود السورية في موقع أم العقارب بسهل الحولة ، على طريق كريات شمونة — عامير ، يبعد عن كريات شمونة ١٢ كلم . يتبع كيبوتز كفار شامير الكيبوتز الوطني، وسكانه يهود معظمهم من رومانيا ، يشتهر بزراعة الحبوب واشجار التفاح ، كان عدد سكانه في عام ١٩٥٠ (٤٣٤) نسمة ، انخفض نتيجة تعرضه لقصف المدفعية السورية في تلك الفترة الى ٣٠٠ نسمة في عام ١٩٦١ . ثم شهد الكيبوتز نموا سريعا ومتعاظما في أعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧ حيث أصبح يعتبر من الكيبوتزات البعيدة عن خطوط المواجهة . وتزايد عدد سكانه الى ١٢٠٠ — ١٥٠٠ نسمة تقريبا في عام ١٩٧٣ .

يعتبر كيبوتز كفارشامير من أكثر كيبوتزات العدو تحصينا ومناعة . وهو أكبر كيبوتز في منطقـــة الحولة ، ويعتبره العدو مفخرة منجزاته الاستيطانية في شمال شرق فلسطين ، وهو نقطة الوصـــل لكيبوتزات تلك المنطقة .

ولكن ماذا عن رواية العدو الذي يحاول التستر على هذه العملية ، ومحاولة التقليل من حجمها .

الرواية الاسرائيلية : أعلنت الاذاعة العبرية في اسرائيل في نشرة اخبارها في الحادية عشرة صباحا نقلا عن مراسليها في مستعمرة شامير (ر.أ.ف.ا ، ٧٤/٦/١٣) انه في نحو الساعة الثامنة والنصف صباحا ، شاهد اثنان من اعضاء الكيبوتس غير مسلحين ، أشخاصا مشبوهين قرب بركة السباحة الواقعة غربي مباني الكيبوتز . وطلب هـــذان العضوان النجدة ، فوصل الى المكان أحد اعضاء الكيبوتز المسلحين وأطلق النار على أحد «المخربين» وقتله . ودخل « المخربان » الاخران الى المنحلة الواقعة على بعد حوالي مئتي متر من الكيبوتز . وقام أعضاء الكيبوتز بتطويق المنحلة واطلقوا النار على من فيها . وفي هذه الثناء حضرت قوات الامن، بقيادة قائد المنطقة الشمالية العميد رفائيل ايتان . وخلال تبادل اطلاق النار ، أصيبت المواد المتفجرة التي كانت في حوزة « المخربين » وسمعت أصوات انفجارات داخل المنحلة ، وعندما اقتحمت قوات الامن المبنى وجدت جثث « المخربين » . وعندها اتضح ان « المخربين » كانوا قد قتلوا قبل ذلك ، النساء الثلاث اللواتي كن داخل المنحلة .

وفي رواية اخرى نقلا عن لسان يحزقيل همئيري (ر.ا.ف.ا ، ٧٤/٦/١٣) ، ان عاملا المنحلة في الكيبوتز شاهدا لدى اقترابهما من المنحلة شخصين على كتفيهما حقائب ، واثارت خطواتهما المترددة ، ومنظرهما الخارجي شكوكهما ، فتراجعا الى الوراء في محاولة للتستر خلف مبنى تريب ، فشاهدهما « المخربون » واطلقوا عليهما النار من الاسلحة التي كانت مخبأة تحت ثيابهما. واصيب أحد العاملين في صدره ويديه ، واستطاع هذا العامل الجريح ان يزحف لغاية المبنى القريب لطلب النجدة . ولكن قبل ان يستطيع الاتصال مع رجـــال الامـــن في الكيبوتز ، وصل الى المكان في سيارة جيب ، عدد من اعضاء الكيبوتز المسلحين . وقد اسرعوا الى

المنطقة عند سماعهم الطلقات النارية . ورد اعضاء الكيبوتز على نيران « المخربين » ، وعندها اقتحم « المخربون » الذين كانوا في طريقهم على ما يبدو الى الكيبوتز ، اقتحموا « المنحلة » القريبة منهم . ويعتقد ان نية « المخربين » كانت اقتحام الكيبوتز والاستيلاء على رهائن في مبنى غرفة الطعام . وقد تعرقلت عمليتهم بعد ان شاهدهم عاملا « المنحلة » وهما في طريقهما من غرفة الطعام الى « المنحلة » .

بينما يذكر قائد المنطقة الشمالية العميد رفائيل ايتان في نشرة اخبار الساعة ١٣،٠٠ من اليوم نفسه ، « ان « المخربين » كانوا أربعة ، ودخلوا الكيبوتز ، وهناك اصطدموا بمتطوعة ولم يقتلوها، وعند سماع أصوات الرصاص ، هرع بعض اعضاء الكيبوتز ، وفر « المخربون » باتجاه مبنى المنحلة ، بينما أخذ عضو الكيبوتز عوزي تسور موقعا له بالقرب من كوخ ، وفتح النيران واصاب **اثنين** ، قتل احدهما بينما زحف الاخر باتجاه هذه السيارة المحروقة . وجرى بعد ذلك تبادل اطلاق النار ، وفي غضون ذلك انضم اعضاء كيبوتز آخرون مع أسلحتهم ، وحينذاك فجر الشخص الذي زحف باتجاه السيارة نفسه » .

ولكن الاذاعة العبرية تعود في الساعة ١٤،٠٠ فتذكر ان مجموعة « المخربين » تتكون من ثلاثة اشخاص . أحدهم فجر نفسه بالقرب من سيارة والاخر فجر نفسه داخل المنحلة والثالث قتله أحد اعضاء الكيبوتز . على حين يذكر مراسل الاذاعة في نشرة الساعة ١٥،٠٠ ان اعضاء الكيبوتز قضوا على « مخربين » اثنين ، اما الثالث فقد فر جريحا نحو مستودع المنحلة حيث لقي مصرعه هناك من جراء انفجار شحنة من المواد المتفجرة كان يحملها كما يبدو .

ويستمر الاعلام الاسرائيلي بتناقضاته حين يتحدث وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس قائلا ان ثلاثة مخربين دخلوا الى المنطقة ، أطلق أحدهم النار على امرأة شاهدها في طريقه دون أية اثارة . وان القضاء على « المخرب » الثالث كان قد تم بعد وصول قوات الجيش الى الكيبوتز بعد وقت قصير من وقوع الحادث (ر.أ.أ. ، ٧٤/٦/١٤)، وتنكشف بعض ملامح التعتيم المتعمد على هذه العملية الفذة ، حين يقول شبيجلمان مراسل الاذاعة (ر.أ.أ. ٧٤/٦/١٤) ان ثلاثة او اربعة « مخربين » وصلوا الى المنحلة شرقي الكيبوتز ، وتمركز هناك واحد او اثنان ، واتجه اثنان آخران نحو منازل الكيبوتز . قتل احدهما عوزي تسور عضو الكيبوتز وجرح الاخر الذي فجر نفسه قرب سيارة عسكرية . بينما انفجر « المخربان » الاولان المتمركزان داخل المنحلة كما يقول شبيجلمان . الا ان الناطق الرسمي بلسان جيش العدو يقول ، انه اتضح نتيجة للفحص الذي اجري في كيبوتز شامير ، ان اربعة « مخربين » اشتركوا في عملية القتل ، اثنان قتلا نتيجة لانفجار مواد متفجرة كانا يحملانها على جسميهما ، واثنان قتلا نتيجة لتبادل اطلاق النار (ر.أ.أ. ، ٧٤/٦/١٤) . ثم يبلغ التناقض ذروته حين يتحدث اللواء مردخاي جور رئيس الاركان في الجيش الاسرائيلي قائلا: بان «المخربين» دخلوا الكيبوتز، وتجولوا داخله وكأنهم في **منازلهم**، واطلقوا النار ، ومن تلك اللحظة ، انتظم الوضع في الكيبوتز ، وحمل اعضاء الكيبوتز أسلحتهم وركضوا الى مكان الحادث ، واصابوا «المخربين» واشتبكوا معهم **وقتلوهم** . والى جانب ذلك ، عندما تسلمنا النبأ أصدرت اوامر الى قوات الجيش باقتحام المكان وقتل « المخربين » (ر.أ.أ. ٧٤/٦/١٤) .

يتضح مما سبق من الروايات الاسرائيلية ان هناك خطا جديدا في الاعلام الاسرائيلي في تعامله مع مثل هذه العمليات ، يعتمد على التعتيم والتضليل منعا لردود الفعل العنيفة داخل اسرائيل ، ويبدو ذلك جليا من منع السلطات الاسرائيلية كل المراسلين أو مندوبي الصليب الاحمر الدولي من الوصول الى مكان الحادث ، ومن التناقضات الواضحة في أقوال الرسميين الاسرائيليين التي اوردت عينة منها .

وكالعادة ، ادعت اسرائيل بان « المخربين » تسللوا من منطقة « فتح لاند » في الاراضي اللبنانية، وسلكوا سفوح جبل الشيخ الغربية وعبروا طريقا جبلية طويلة ووعرة يزيد طولها على ١٥ كيلومترا لغاية كيبوتز شامير . وكالعادة ايضا تدفقت تهديدات الاسرائيليين بعد كل عملية ضد لبنان وضد الفدائيين ، فها هو جور ، رئيس الاركان الاسرائيلي يقول « بأننا نملك أساليب عدة لضربهم، وقد اتبعنا بعضها ، والبعض الاخر سننفذه ، ولا

فائدة من التحدث عنه ، وهذا النشاط كما هو معلوم متعلق بعدة عوامل ، سياسية وعسكرية ، وبناء على الاعتبارات الفورية ، وفي لحظة معينة نتخذ قرارات حول ماذا ينبغي ان نفعل (ر.أ.ف.، ٧٤/٦/١٤) . ويطالب هرتسوج بخوض حرب اكثر فعالية ضد منظمات « المخربين » اينما وجدت وفي كل زمان . ولم تتخلف الصحف الاسرائيلية عن اداء دورها في هذه الجوقة ، فكتبت داعية الى ضرب « المخربين » دون شفقة عبر الحدود لان الوضع كما تقول لم يعد محتملا ، حيث اتضح ان سلطات لبنان ليس من شأنها منع نشاطهم ، وتساءلت صحيفة هآرتس (٧٤/٦/١٤) عما اذا كان الجيش الاسرائيلي قد استنفد جميع الامكانات والوسائل لحماية المستوطنات القريبة من الحدود .

وقد نفى « ابو العباس » الناطق باسم الجبهة الشعبية — القيادة العامة في مؤتمر صحفي ان يكون الفدائيون الذين اقتحموا مستعمرة شامير قد انطلقوا من لبنان . وقدم توضيحات عسكرية كذب فيها مزاعم العدو . فأكد ان موقع العملية أقرب الى الحدود السورية الفلسطينية ، وان العبور اليه من خارج الارض المحتلة يفرض اجباريا المرور في هضبة الجولان المحتلة . وتحدى العدو اثبات مقدرة أي عنصر من عناصره مهما كانت طاقته على اجتياز الطريق الى المستعمرة من الحدود اللبنانية خلال ليلة واحدة . وقال ان العدو بمزاعمه يمنحنا وسام شرف لاعطائه لنا قدرة هائلة على اجتياز مواقعه وتحصيناته ونقاط مراقبته التي عززها على الحدود اللبنانية بشكل كثيف مؤخرا . وأكد « أبو العباس » ان العملية هي احباط لكل تدابير الامن الاسرائيلية وتأكيد جديد على مقدرة الفدائيين في الوصول الى أعتى مواقع العدو .

س.أ.ف.

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٥/١٥ — ١٩٧٤/٦/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	المصدر: تاريخه
١ —	٥/١٥	٦٠٠	ميناء كيشون/حيفا[1]	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في خزانات النفط	—	—	—	رقم ٧٤/١٠٣	٥/١٥
٢ —	٥/١٤	٢١٠٣٠	القدس	قصف	صواريخ متوسطة وثقيلة	غيرمحدد		اصابة منطقة مشيرم مقابل حي مصرارة باضرار	—	—	—	رقم ٧٤/١٠٤	٥/١٥
٣ —	٥/١٥	٤٠٠	معلوت/الجليل الاعلى	اقتحام واحتلال	اسلحة مختلفة	عشرات القتلى والجرحى		اصابة مبنى المدرسة باضرار	٣	—	—	رقم١٠٥— ٧٤/١٢٣	٥/١٥
٤ —	٥/١٧	—	رمات جان[2]	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مصنع للبلاستيك والاسفنج وامتداد النيران الى مخازن المواد الاوليـة	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٥	٥/١٨
٥ —	٥/١٩	٤٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		تدمير معظم جسر بار يهودا وتعطيل حركة السير فوقه	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٦	٥/١٩
٦ —	٥/١٧	٢٠٠٣٠	بين القدس واريحا	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٨	٥/٢١
٧ —	٥/٢١	٢١٠٠٠	بين نهاريا والكابري	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٩	٥/٢١
٨ —	٥/٢١	—	ادميت	اشتباك	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		قتل مجموعة من الجنود	١	—	—	رقم ٧٤/١٢٩	٥/٢٤
٩ —	٥/٢٤	—	بين عين نيف وهاؤون/طبريا	اشتباك	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		—	٦	٢	—	رقم ٧٤/١٣٠	٥/٢٤
١٠ —	٥/ ٧	—	الشيخ زويد	تفجير	الغـــام	غيرمحدد		تدمير سيارة باور واجن	—	—	—	رقم ٧٤/١٣١	٥/٢٥
١١ —	٥/١٢	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣١	٥/٢٥
١٢ —	٥/٢٦	١٤٠٢٠	كرمئيل/مجد الكروم	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في مصنع للبلاستيك اتت على الماكنات والمواد الاولية وامتـداد النيران الى مصنع الاسفلت	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٢	٥/٢٦
١٣ —	٥/٢٦	—	مرج بن عامر[3]	اقتحام وتفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير اجزاء كبيرة من مصنع سوليم لصناعة رشاشات العوزي وقذائف الهـاون عيار ١٦٠ ملم وامتـداد النيران الى المباني المجاورة	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٣	٥/٢٦
١٤ —	٥/٢٣	—	بئر السبع	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في سينما أورون واتلاف جميـــع محتوياتها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٤	٥/٣٠
١٥ —	٥/١٩	—	بئر السبع	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٥	٥/٣٠
١٦ —	٥/٢٥	—	بين بيت كاما وبئر السبع	تفجير	الغـــام	غيرمحدد		اعطاب سيارة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٥	٥/٣٠
١٧ —	٥/٢٧	—	بين بئر السبع وقرية التين	تفجير	الغـــام	غيرمحدد		تدمير باص واصابة عدد من ركابه	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٥	٥/٣٠
١٨ —	٥/١٠	—	تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في ماكنات صحيفة « هتسوفيه » ومستودعات الورق	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٦	٥/٣١
١٩ —	٥/٣٠	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اتلاف محتويات نادي كلفيم الليلي	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٧	٥/٣١
٢٠ —	٥/٢٠	٢٢٠٠٠	بين برقة وجنين	كمين	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٨	٥/٣١
٢١ —	٥/٢٠	—	معسكر صانور/جنين	هجوم	اسلحة مختلفة	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٨	٥/٣١
٢٢ —	٥/٢٨	—	سجن ابو كبير	—	—	١	—	نفذ حكم الاعدام بالصهيوني اريه سوفري الذي يعمل مع المخابرات الصهيونية	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٩	٦/١

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
٢٣	٥/١٨	—	رمات غان	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في مصنع « شنير » للنسيج وامتداد النيران الى ماكنات النسيج	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٠	٦/١
٢٤	٥/٢٨	—	مدينة روشبينا	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		اعطاب باص وقتل وجرح جميع ركابه	—	—	—	رقم ٧٤/١٤١	٦/١
٢٥	٥/٢٧	—	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد		اندلاع النيران في غرف الغاز وامتدادها الى الورش الرئيسية لتصليح السفن في ميناء حيفا واتلاف محتوياتها	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٢	٦/٢
٢٦	٦/ ٢	٢١٤٠٠	ادميت	اشتباك	رشاشات وقنابل وقذائف صاروخية	غيرمحدد		اصابة المستوطنة بأضرار	٢	—	—	رقم ٧٤/١٤٣	٦/٢
٢٧	٦/ ٣	—	صفد	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة مبنى بمدرسة ألفودات بسرائيل بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٤	٦/٣
٢٨	٥/٢١	—	جباليا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٥	٦/٥
٢٩	٦/ ٤	—	بتاح تكفا	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مصنع اطارات كاتشوك السيارات سامسون	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٦	٦/٥
٣٠	٦/ ٣	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	تحطيم سيارة	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٧	٦/٦
٣١	٦/ ٥	—	تل ابيب(4)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		تدمير واتلاف محتويات مستودع الالبسة العسكرية الرئيسي في الحي الصناعي واشعال النيران في المصنع المجاور والورش الصناعية وانقطاع التيار الكهربائي واخلاء المنطقة ٢٤ ساعة	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٨	٦/٦
٣٢	٦/ ٥	—	على طريق بيت ليد	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في سيارتين	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٩	٦/٨
٣٣	٦/ ٨	٥٤٠٠	ادميت	كمين	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غيرمحدد		تدمير آلية وقتل معظم افراد الدورية	٤	—	—	رقم ٧٤/١٥٠	٦/٨
٣٤	٦/ ٩	—	بين اوره وعمنداف/ القدس	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح افراد دورية	—	—	—	رقم ٧٤/١٥١	٦/٩
٣٥	٦/١١	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء من مبنى الادارة المدنية واتلاف ما فيه من اثاث	—	—	—	رقم ٧٤/١٥٢	٦/١٢
٣٦	٦/١٢	—	طبريا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير الخزان الرئيسي ومحطة ضخ المياه	—	—	—	رقم ٧٤/١٥٣	٦/١٢
٣٧	٦/١٣	٨٤٣٠	شامير	اقتحام	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	غيرمحدد		اصابة المستوطنة بخسائر جسيمة	٤	—	—	رقم ٧٤/١٥٤	٦/١٣
٣٨	٦/١٢	—	بين عنبتا ونورشمس /نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	انفجار عبوة في ضابط اثناء عملية تفكيكها في مصنع خلط الاسفلت	—	—	—	رقم ٧٤/١٥٦	٦/١٥

١ — اعترف العدو بالعملية ، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٣٣ تاريخ ٧٤/٥/١٥ ، ص ٣٤٤ .

٢ — اعترف العدو بالعملية ، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٣٦ تاريخ ٧٤/٥/١٨ ، ص ٤٣٩ .

٣ — راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٤٣ تاريخ ٧٤/٥/٢٧ ، ص ٦٧٢ .

٤ — راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٤٩ تاريخ ٧٤/٦/٧ ، ص ٤٣ .

ملاحظة : ١ — تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثـورة الفلسطينية .

٢ — قامت سلطات العدو باعتقال عدد من المواطنين خلال هذه الفترة ، وبعد العمليات العسكرية ، كما يبين الجدول المرفق من مكتب الارض المحتلة :

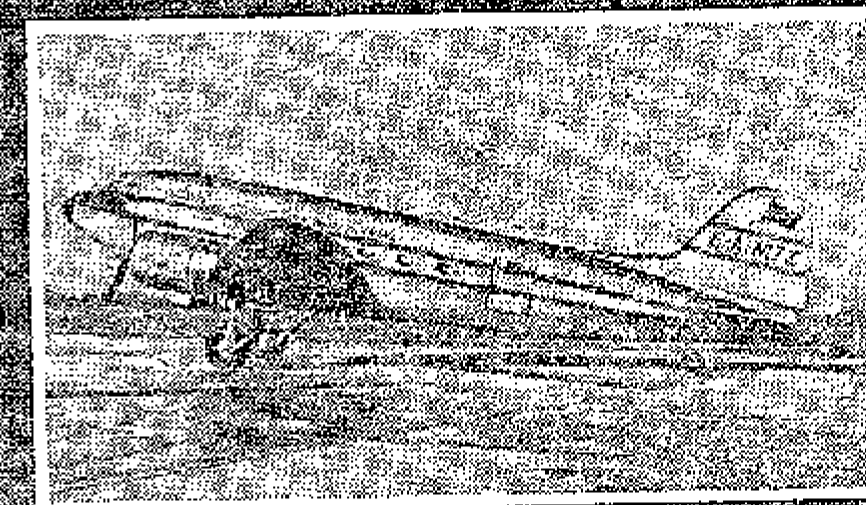
البلد	عدد المعتقلين
١ — نابلس	٩
٢ — الخليل	١١
٣ — عكا	٢
٤ — رام الله	٦
٥ — غزة	١١
٦ — القدس	١١
المجموع	٥٠

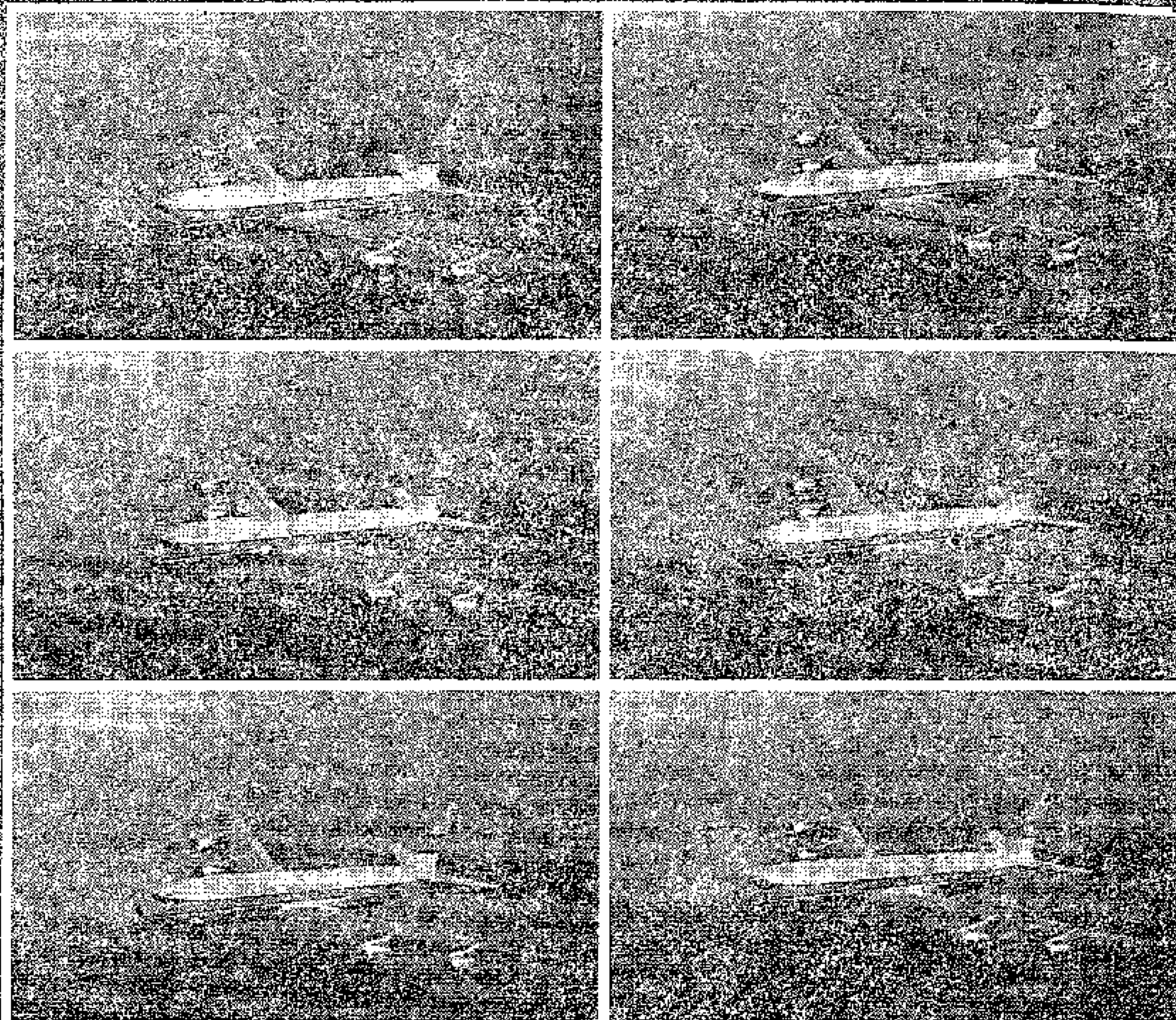
جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٥/٥—١٥/٦/١٩٧٤

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	٥/١٥	—	معلوت	كمين	أسلحة رشاشة	١	٨	اصابة سيارة «بيك اب» بأضرار	—	—	—	ن٠عدد٥٣٣ ص٣٤٥	٥/١٥
٢	٥/١٥	٤٤٠٠	معلوت	اقتحام	أسلحة مختلفة	١٩	٧٠	اصابة مبنى مدرسة معلوت بأضرار	٣	—	—	ن٠عدد٥٣٣وعدد٥٣٤	١٥—٥/١٦
٣	٥/١٧	—	المطلة	قصف	قذائف هاون	—	—	—	—	—	—	ن٠عدد٥٣٥ ص٤٣٠	٥/١٧
٤	٥/٢١	٢٠٤٠٠	ادميت	اشتباك	أسلحة رشاشة	—	—	—	١	—	—	ن٠عدد٥٤٠ ص٥٩٢	٥/٢٣
٥	٥/٢٣	—	رمات مجشيم	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	٦	—	٢	ن٠عدد٥٤١ ص٦٢٠	٥/٢٤
٦	٥/٣١	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن٠عدد٥٤٧ ص٨٢٤	٥/٣١
٧	٦/ ٨	—	ادميت	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	٤	—	—	ن٠عدد ٥٥٠ ص٦٧	٦/٨
٨	٦/١٣	—	شامير	هجوم	أسلحة مختلفة	٣	١	—	٣	—	—	ن٠عدد٥٥٥ ص١٩٦	٦/١٤

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد





وفي عام ١٩٧٤ بعد مرور ٢٠ عاما [illegible] الخطوط الجوية الكويتية.



الخطوط الجوية الكويتية

[illegible]

Palestine Affairs

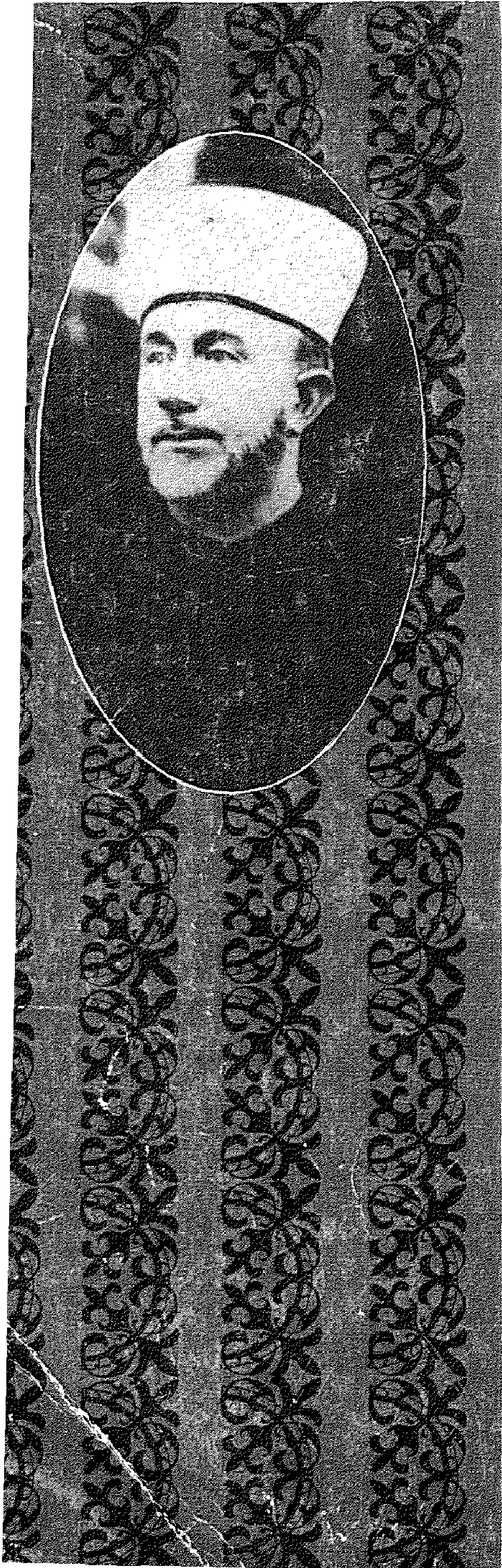
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 55, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address*: P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ١/٢ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٣٦

آب (اغسطس) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

٣٦ — آب (أغسطس) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ــ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

شؤون فلسطينية

في التاريخ العربي العام ، وفي تاريخ فلسطين بوجـــه خاص ، هو إكبر من « مفتي القدس » ، ومن « رئيس المجلس الاسلامي الاعلى » ، ومن « رئيس الهيئة العربية العليا » ، ومن زعيم « الحزب العربي الفلسطيني » ، ومن « رئيس مؤتمـــر العالم الاسلامي » ، على أهمية هذه المناصب فلسطينيا وعربيا واسلاميا ، وعالميا أيضا . فلمدة ربع قرن ، على الاقل ، توحدت سيرة الرجل مع سيرة فلسطين . حتى أضحى المرء لا يستطيع ان يتتبع تاريخ البلد والقضية ، ولا ان يفهم هـــذا التاريخ ولا ان يستوعبه ، الا من خلال تاريخ زعيم ذلك البلد وبطل تلك القضية . ولمدة ربع قرن أيضا والحركة الوطنية ، في مسيرتها نحو الاهداف القومية التي أعلنها شعب فلسطين والتزم بها ، ترتبط بأمين الحسيني ارتباطا عضويا يتعذر الفصل بينهما ولو لمجـــرد النقاش والافتراض . ثم تلا تلك الفترة الطويلة (من مطلع العشرينات حتى أواخر الاربعينات) ربع قرن آخر (يستمر حتى يوم وفاة الحاج أمين) والرجـــل محور أساسي في تاريخ القضية ، في الكتابة عنها وتوثيقها وفي تعليل الاحداث وتحليلها وفي استنطاق الماضي وتفسيره ، مع انه كان قد أصبح ، في معظم سني هذه الفترة ، بعيدا نسبيا عن دفة القيادة وغير مسؤول مباشرة عن تطور الامور . أي انه بقي ، بين ١٩٤٨ و١٩٧٤ ، عنصرا أساسيا في تاريخ فلسطين مع انه لم يكن العنصر الاساسي في تقرير هذا التاريخ وتوجيهه .

لا شك ان كتابات كثيرة ستصدر حول هذا الرجل الكبير . ولا شك ان ادبيات القضية الفلسطينية ستحفل بكلام كثير عنه ، مقالات وكتبا ودراسات ورسائل جامعة وذكريات ومذكرات واوراقا . ولا شك ان الآراء في زعامته وأعماله ستتعدد وستتباعد ، تماما كما تعددت المواقف منه في حياته وتباعدت . لكن القليلين يستطيعون الخروج عن الاجماع على عظمة الرجل وأهميته ، بل وريادته للنضال الفلسطيني منذ أكثر من خمسين عاما .

واذ تحيي «شؤون فلسطينية» ذكرى شهيد فلسطين الكبير، تخصص صفحاتها الاولى في هذا العدد لبعض أفكاره ، وقد جمعها اثنان من محرريها الباحثين في مركز الابحاث ، الدكتورة خيرية قاسمية وعماد شقور ، خلال مقابلات أجرياها معه في الاشهر القليلة الماضية . وقد استخرجت الاوراق من ملفات وثائق مركز الابحاث . اذ ان احاديث المفتي كانت جزءا من خطة للمركز لجمـــع أفكاره وتعليلاته للاحداث لتوثيـــق التاريخ الفلسطيني في مرحلة الانتداب . وقد حرصنا على نشر المقابلتين كما كتبهما الزميلان في حينه ، بدون اجراء اي تعديل . كما طلبت شؤون فلسطينية من الكاتب العربي الكبير الاستاذ عجاج نويهض ان يقدم العدد بكلمة عن الفقيد .

انيس صايغ

الحاج محمد امين الحسيني

عجاج نويهض

السلام عليك ورحمة الله وبركاته

سيدي الفائز في الدارين ، أبا صلاح الدين !!

اني أناجيك ولست اليوم براثيك ، ولا اقوى على رثائك بعد وفاتك ، كما كنت عاجزا عن شكري لك في حياتك ، فقد ضممتني تحت جناحك عشر سنين ، أخذت منك علما وأدبا ، وهدى وارشادا ، وكنت لي ولغيري معلما نعم المعلم ، واسعدت وانا في ظلال واحتك ، بأن أرى كيف ينزل الالهام عليك ، وتنهض بالاعباء في الشدائد ، وعزمك عزم الاولياء والصالحين ، كأنك مبعوث الى فلسطين في القرن الرابع عشر أو العشرين ، من الرجال الاولين ، واعدك الله بالفطرة والارث والتربية ، لتكون آية العالم ، في مصارعة الصهيونيين ، وجعلك الله رسول الايقاظ الى العالمين : العربي والاسلامي ، أفتسمح لي اليوم غداة التحاقك بالرفيق الاعلى ، ان أناجيك مناجاة خافتة متواضعة ، ولكن قلبي لا لساني ، يتكلم .

« الحاج محمد أمين الحسيني » ، كلمات روحية أنيسة ، اندمج بعضها ببعض ، حتى تحولت الى لفظة واحدة ، وجرت على الالسنة مجرى « السلام عليكم » بين الناس ، وامتطت ثلاثة ارباع القرن حتى عمت العالم العربي والاسلامي ، والاميركتين واوروبا ، وذكرها « عند العرب والمسلمين، كما عند الفرنج قاطبة»، يفيد معنى النضال والجهاد، في أقدس قضية رآها البشر، مع دول مستعمرة، وشرذمة من شذاذ الآفاق الصهيونيين.

سيدي أبا صلاح الدين !

اتسمح لي أن ابتدىء بمناجاتك من سنة ١٣٣٢ — ٣٣ او سنة ١٩١٤ ؟ في تلك السنة تخرجت من « دار الدعوة والارشاد » في مصر ، بعد الازهر الشريف ، واستاذك هو الموقظ الحكيم السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » الاسلامي ، واستاذك السيد رضا هو تلميذ الاستاذ الامام ، الشيخ محمد عبده ، والاستاذ الامام تلميذ السيد جمال الدين ورفيقه . وفي تلك السنة حججت حجا مبرورا ، وحججت معك في هذا الموسم السيدة الوالدة الرضية عليكما رحمة الله ورضوانه . وقد عدت من الموسم وقلبك عامر بالايمان الذي رحت أنت تنظر على ضوئه ووهجه مستقبل العرب ، وكنت وقتها ، سيدي الغائب الغالي ، قد لاحظت الموقف العربي بين العرب والترك ، وكان قد مضى سنة على انعقاد المؤتمر العربي في باريز ، يرئسه السيد الشهيد عبد الحميد الزهراوي ونائبه اسكندر عمون . وفي تلك السنة ١٩١٤ وقعت الحرب العامة الاولى .

والكل يعلم انك خدمت في الجيش العثماني الى ١٩١٨ وفي تشرين الاول من تلك السنة ، دخل العرب دمشق فاتحين ، وتحولت دمشق من اول تشرين الاول الى تموز ١٩٢٠ مدة أكثر من عشرين شهرا ، الى بركان تارة يثور ويهيج ، وطورا يسكن ، اذ كنت أنت على راس هذا البركان ، فاجتمعت في دمشق رجالات العرب من الشام وفلسطين ولبنان والاردن والعراق والحجاز ، ابتغاء ان يرسى اساس الدولة العربية الجديدة ، المستأنفة بعد دولة بني العباس ، وكانت ثلاثة « ثعابين » حولكم تعمل على ابطال عملكم ، وردكم القهقرى ، وعرقلتكم : بريطانيا ، والصهيونية ، وفرنسا .

في سنة ١٩١٩ لما جاءت « لجنة كراين » الى سوريا وفلسطين ولبنان ، كنت البطل في تنبيه عرب فلسطين ، قومك وعشيرتك الاقربين ، الى ما ينبغي لهم أن يقولوه ويفعلوه وينادوا به ، من وجوب الاعتصام بدولة سورية العربية المتحدة ، « من طورس الى رفح » ، ضامة الشام اليها فلسطين ضم الام وليدها . « من طورس الى رفح » ، بقيت مدة العشرين شهرا الكلمة الهائجة الرائجة في هذه الاقطار كلها . في سنة العشرين ، سيدي الامين ، كان « النادي العربي » الذي أنشأته منذ السنة السابقة في باب الخليل في القدس ، لم يزل يؤدي رسالته ، وانت تنادي بأن فلسطين هي سوريا الجنوبية . وجعلت « النادي العربي » في القدس ، على غرار النادي العربي في دمشق المؤسس بعد فتح الشام ليكون ملقى العزائم ومعقد الروابط ، ويصغى اليه ، ويتبع ارشاده . كنت أنت اشد المهاميز في خاصرة عرب دمشق في تلك الفترة ، تنبههم الى « الثعبان الصهيوني » يشهد لك بهذا الرفقاء الامناء ، وهذا عزة دروزه في دمشق اليوم من أول الشاهدين .

في سنة ١٩٢٠ ، وقد دخل غورو دمشق ، وتشتت العرب « الميسلونيون » ، وقبل تموز ، كنت انت في موسم النبي موسى قد أعطيت أول درس للطامعين ، ليعلموا أن فلسطين لن تكون لليهود منازل وقصورا ، بل تكون لهم أجداثا وقبورا . وخرجت من فلسطين وو راءك حكم عسكري غليظ ، وعدت بعد نحو سنة فوجدت ذلك الحكم ممحوا .

تبارك الله !! ففي سنة ١٩٢٢ توليت الافتاء بعد أخيك، وانتخب المسلمون في فلسطين « المجلس الاسلامي الاعلى » ، مؤلفا منك رئيسا دائما ومن أربعة أعضاء معك يمثلون فلسطين كلها . من تلك السنة الى سنة ١٩٧٤ الحاضرة ، وانت على شوط واحد ، اثنتين وخمسين سنة ، لم تسترح يوما ، ولا تخليت عن سلاحك ، فكنت في هذا الشوط البطل الثائر ، والمثل السائر ، والفلك الدائر ، فمن هذه المدة ١٥ سنة ، من ١٩٢٢ — ١٩٣٧ قضيتها في فلسطين رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى ، وقائدا للحركة الوطنية ، وذابا عن البلاد في وجه الصهيونية وحاميتها بالسلاح بريطانيا، الممارسة لاشنع نوع من الاستعمار في بلاد العرب عامة وفلسطين خاصة منذ القرن الماضي .

وخرجت من القدس ، من منزلك قرب الحرم الشريف ، الى لبنان ، مضطرا الى هذه الهجرة، فبقيت في لبنان حتى فتوق الحرب الثانية بعد سنتين، ولم تطل مقامك في بيروت بعد ذلك طويلا ، اذ شعرت ، وانت الملهم ، بأن بريطانيا تبغي أن تطلب من فرنسا حليفتها ، تسليمها اياك ، فانتقلت الى العراق ، وأرشدت القوم وهم يدرأون عنهم بغي الانكليز ، ولما تغلبت بريطانيا على العراق ، انتقلت الى ايران ولما وصل الحلفاء الى هناك انتقلت الى ايطاليا والمانيا وبقيت في بلاد المحور سني الحرب كلها ، الى أن انهار الجيش الالماني ، وامسكك الجيش الفرنسي أسيرا ، فبقيت في باريز مدة ، على الكرامة في المعاملة ، والحذر مما وراء الستار ، وجاءت بريطانيا تطلب من باريز ان تتسلمك ، كمثل طلبها في بيروت قبل سبع سنين ، فيسر الله أمرك بالانتقال السري الى مصر ،

فاستقبلت في مصر من الحكومة والشعب استقبال الفاتحين ، وحططت رحالك ، وبعد سنة وبعض السنة ، كان « قرار التقسيم » الذي لا يقل غرابة عن وعد بلفور ، فأخذت في اعداد جيش الجهاد المقدس ، واخترت له البطل الشهيد عبد القادر الحسيني قائدا ورائدا ، وهو المجاهد الصنديد ، واقتربت سنة ١٩٤٨ وفلسطين كالمرجل على النار ، وهي تنظر اليك ، وكل آمالها معلقة عليك . وفي خلال دور ما سمي « بمعارك الطرق » بين المناضلين وعصائب الصهيونيين ، في المدة التي كانت بين قرار التقسيم وموعد جلاء بريطانيا في ١٥/٥/٤٨ وهي نحو سبعة اشهر ، انزل رجالك بقوات العدو ما قصم ظهرهم ، معركة بعد أخرى ، فكانت تلك المعارك آية على ان « دول الجامعة العربية » لو سلحت أهل فلسطين وتركت اليهم أمر تمزيق قرار التقسيم ، لمزقوه وداسوه . ولكن الاقدار ، ولها أسرار ، قضت بما وقع سنة ١٩٤٨ وآبت الجيوش العربية الى بلادها بهزيمة منكرة لا ينضح العار عنها الا في حرب رمضان او تشرين الخريف الماضي ، والله القوي العزيز .

دعني يا سيدي أرجع اليك لاناجيك مناجاة سائرة معك منذ سنة ١٩٢٢ وأنت قد انتخبت المفتي الاكبر ، ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى لادارة الاوقاف والمحاكم الشرعية .

(١) جعلت أول عمل لك أن تتسلم ادارة المحاكم الشرعية ، وهي ١٧ محكمة في فلسطين،وتتسلم ادارة الاوقاف الاسلامية ، وهي حجة وافرة في فلسطين لكثرة الاوقاف التي وقفها السلاطين والامراء والوزراء والصالحون تديرها سبع دوائر في البلاد . وكانت المحاكم الشرعية منذ انسحاب الاتراك سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ الى سنة ١٩٢٢ تديرها الحكومة العسكرية ثم تسلمها « النائب العام » وهو يهودي صهيوني اسمه بنتويش، لما جاء هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني القح في تموز ١٩٢٠ ، فأعدت الى المسلمين محاكمهم الشرعية وأوقافهم وجعلتهم يشعرون بالكرامة والعزة .

(٢) ألم تكن أول اياديك بعد ذلك ، أن رأيت ايتام المسلمين متفرقين في دور الايتام الاجنبية مثل معهد « شنلر » في القدس ، و« الساليزيان » في بيت لحم ، فجمعت الايتام من هذين المعهدين ومن سائر انحاء فلسطين ، وأويتهم في السراي الرحبة التي كانت « دار المتصرف » ، في العهد العثماني داخل سور المدينة ، وفي مدة قليلة صار عدد هؤلاء الايتام واليتيمات مئات ثم بعد سنين صاروا عدة آلاف ، فأنشأت لهم « دار الايتام الاسلامية الصناعية » وجعلت الدار دار تعليم للعلوم ودار صناعات، كالطباعة والنجارة والخياطة وصناعة الموبيليا ، وعلى طول السنين تخرج آلاف من هذه الدار وباتوا عنصرا اقتصاديا في البلاد ، وصار المتخرج في صناعة يخرج الى العالم فيؤسس عمله وينمو فيه، فمن أنقذ هؤلاء الايتام ، وعلمهم الكتاب ، والصناعات ، غيرك ايها الملهم المرسل ؟ ألم تطبع دار الايتام المصحف الشريف في مطابعها صباعة تنافس أرقى طباعات القاهرة وسائر العواصم ؟ ألم يكن هذا العمل الاول من نوعه في القدس منذ فتحت بيت المقدس على يد سيدنا عمر رضي الله عنه ؟

(٣) ألم تر المسجد الاقصى المبارك ، غداة أصبحت رئيس المجلس الاسلامي الاعلى، انه على وهن ، فانشأت مشروع عمارته ، واستنديت أكف العالم الاسلامي ، والملوك والامراء ، وانتدبت لهذا المشروع المهندس العبقري العالمي كمال الدين ، مفخرة تركيا والشرق في فنه ، وارسلت الوفود الى الحجاز وامارات الخليج والمحمرة والعراق والهند ، ومصر وسوريا ، ولبنان ، لتلقي الاعانات ، وبقي المشروع في الانجاز خمس سنين حتى جاءتك الاعانات من الصين ، وتم المشروع فجاء بركة وتوفيقا ، وتلفت العالم

العربي والعالم الاسلامي اليك وانت مضطلع بعبء هذا المشروع الذي كان يقوم به الخلفاء والملوك على ممر العصور ، فجئت انت من هذا العصر ونهضت به وحدك ، فردا من المسلمين ، ولكنه فرد أوتي من صدق العزم والايمان ما جعله قرة عين هذا الزمان . ولما دعوت البلاد المجاورة والبلاد العربية الاخرى ، وفي مقدمتها مصر ، سنة ١٩٢٩ للاحتفاء بانجاز المشروع واتمام كل أجزائه ، بقيت فلسطين ، وخاصة بيت المقدس ، اسبوعا في أزهى مهرجان ، والحرم تتهادى فيه الوفود والجموع والخلائق تظهر أفراحها اذ ترى الاقصى الذي بارك الله حوله ، يتجلى هيبة ورونقا ، الى قداسة مـــا بعدها قداسة الا في الحرمين الشريفين .

(٤) الم تنظر حواليك مادا ببصرك الى المستقبل ، فرايت ان الجيـل الصاعد ، المتصدي لخدمة الاسلام وشريعته ، يحتاج الى كلية اسلامية تخرج الشباب الصحيح تخريجا صحيحا ، فانشأت « الكلية الاسلامية » بجوار الحرم ، وانتدبت خيرة المربين لادارتها فبقيت الى يوم فراقك فلسطين ١٩٣٧ وهي تقوم برسالتها ؟

(٥) الم تشتق من نظرتك هذه ، نظرة أخرى ، والغايتان في التالي تلتقيان ، فجعلت ترسل البعثات العلمية الى الازهر والمعاهد الاخرى كالقضاء الشرعي وغيره ، حتى اذا عاد شباب هذه البعثات بشهاداتهم تولوا المناصب الشرعية في فلسطين ، فيعلو مستوى القضاء وتزدهر ثقافته ويغزر معينه ؟

(٦) الم تنظر فترى أن التعليم العصري غير الشرعي ، يحتـــاج الى معاهد نقية البرنامج ، سديدة الغاية ، فشددت ازر معهدين في فلسطـــين ، هما « كلية روضـــة المعارف » في القدس و « معهد مدرسة النجاح » في نابلس ، وعبأتهما بأكفأ المربين ، فكان المتخرجون من هذين المعهدين طلائع حماة الوطن ، على هداك يتأثرون خطاك ، وكان من هذه الطلائع شهداء في سبيل الوطن ، وعلماء راسخون يقومـــون برسالة التهذيب والتعليم .

(٧) فلما جاء بلفور الى فلسطين سنة ١٩٢٥ ليحضر افتتاح الجامعة العبرية التي على الطور المطل على الاقصى وبيت المقدس ، وطلب المندوب السامي هربرت صموئيل منك ان بلفور يريد أن يزور الحرم الشريف ، فلم تستجب الى هذا الطلب ، واقفلت أبواب الحرم وقلت للحراس لا تفتحوها لبلفور واذا استعملوا القوة فاستعملوا القوة ، فجاء بلفور والمندوب السامي فوجدا الابواب مقفلة فعادا من حيث أتيا ولا يخفي حنين . وبلفور هذا لما أقفلت الابواب في وجهه انتشر خبره في العالم العربي بسرعة البرق ، فلما عاد من هنا بطريق دمشق ونزل في « فندق خوام » هاجت دمشق وأحرقت الفندق ، وهي غاضبة منادية بسقوطه ، فخاف عليه الفرنسيون فأخرجوه من الباب الخلفي وأركبوه سيارة مخفورة الى بيروت .

(٨) الم تكن للثورة السورية التي اقتدح نارها سلطان الاطرش سنة ١٩٢٥ سندا وعونا ، تؤازر بحكمتك صديقك رشيد طليع الذي جاء من مصر وأقام في القدس ليكون على مقربة من ميادين الثورة ، الم نؤلف لجنة سميتها « اللجنة المركزية لاعانة منكوبي سوريا » ودعوت الجاليات العربية في المهاجر للتبرع ، وصارت الاعانات تأتي اليك والى طليع ، ثم ترسل الاعانات الى سلطان الاطرش عن طريق الاردن، اذ لا طريق بين سوريا وجبل العرب الا الطريق العسكرية ، ولولا عملك هذا لوقعت الثورة في ضيق . ثم بقيت على سنتك هذه في شد ازر المجاهدين ، بعد أن انتقلوا نازحين الى « وادي السرحان » من أملاك الملك عبد العزيز آل سعود ، ثم صار لهم في الصحراء اطفال ـــ سموا « غزلان الصحراء » ـــ فرحت تعين هؤلاء الغزلان وتخصص لهم من جهودك القسم الكبير . فأي يد لك على الثورة السورية أيها الرائد الثائر .

(٩) فلما ذهبت سنة ١٩٢٦ الى المؤتمر الاسلامي العالمي الذي دعا اليه الملك عبد العزيز يعقد في مكة المكرمة لبحث المصالح الاسلايمة الدينية ، بعد استيلائه على الحجاز، وكان هذا المؤتمر يمثل الدول الاسلامية جمعاء، والشعوب الاسلامية عن طريق المنظمات والهيئات ، وكان الامير عبدالكريم الخطابي في آخر أدوار ثورته ، فلما انعقد المؤتمر تقدمت اليه اقتراحا يصدر بالاجماع وهو أن يقرر المؤتمر ويذيع على العالم الاسلامي ولا سيما الافريقي ، ان لا يقاتل المسلم المسلم ، وقد أقر المؤتمر هذا بالاجماع وأصدرت اللجنة التنفيذية بعد ارفضاض المؤتمر منشورا يحمل قرار المؤتمر ووزعته على الجيش الفرنسي المجموع من افريقيا ، فكان له مفعول عميق ، اذ اخذ الجنود المسلمون السنغاليون يفرون بالعشرات وفريق منهم فر الى وادي السرحان ورأيتهم بعيني لما ارسلتني يا سيدي الغالي الى هناك سنة ١٩٢٧ أحمل امانات الى سلطان الاطرش والامير عادل أرسلان . عليك رضوان الله في جنات الخلد .

(١٠) الم ينعقد سنة ١٩٢٧ في القدس ، المؤتمر التبشيري العالمي برئاسة اكبر مخطط لغزو الديار الاسلامية حتى الحجاز والمدينة المنورة ، الدكتور موط ؟ الم تغضب البلاد لعقد هذا المؤتمر على جبل الطور ، وجعل جلساته مغلقة ، وكانت جريدة «الجامعة العربية » في القدس قد كشفت في سلسلة مقالات عن مقاصد هذا المؤتمر ، فقلق مسلمو فلسطين وحنقوا وصارت العرائض ترد عليك يا سيدي الغالي من انحاء البلاد طالبة ان تراجع الحكومة بشأنه . ألم يكن وقتها موسم النبي موسى ، ووقت المؤتمر برنامجه الزمني على موسم النبي موسى قصدا . ألم تكن أنت يا سيدي في النبي موسى لما طلبك المندوب السامي بلومر الطاعن في السن ، أن تقابله في القدس لامر عاجل مهم ، وكانت الاضطرابات والاصطدامات بين الاهالي والشرطة اخذت تقع ولا سيما في غزة ونابلس ، فلما قابلته في الطور طلب منك أن تستعمل ما يسمى « بالمساعي الحميدة » لدى الشعب لتسكن البلاد اذ أصبحت على شفا جرف الثورة ، وبعد أن طال القول بينك وبينه واطلعته على مقررات مؤتمراتهم السابقة ومنها غزو المدينة المنورة وقلت له : أيعقد مثل هذا المؤتمر في جبل الطور وتريد أن يبقى المسلمون هادئين ؟ فكرر رجاءه منك ، فقلت له : ولماذا لا تعالج العلة من أساسها ؟ فقال لك وكيف يكون ذلك فقلت له باخراج هذا المؤتمر من البلاد فوافق وفي تلك الليلة كان « موط » وجماعته جميعا على ظهر الباخرة الراسية في يافا .

(١١) تلك ثورة البراق الشريف سنة ١٩٢٩ فقد هيأ وقودها اليهود بسبب مجيئهم الى « البراق الشريف » ووقع أولها في يوم جمعة ، وكنت يا سيدي الغالي ، في ديوانك في المجلس ، وبقيت هذه الثورة اسبوعا كاملا ، فنال يهود صفد ويهود الخليل منها الدمار والقتلى والجرحى مقادير كبيرة . ولم تكن عينك تغمض . وكانت الحكومة تتحيز للصهيونيين علنا فسقط عدد من العرب شهداء برصاص الشرطة البريطانية . خيوط الثورة خيوط تحدث عن نفسها .

(١٢) لما ظهر هتلر في المانيا ، صارت حكومة فلسطين تفتح ابواب فلسطين على المصراعين ، وهذا ما حمل الشهيد الشيخ عز الدين القسام على القيام بثورته عند « يعبد » قرب حيفا ، وسنة ١٩٣٦ كان الاضراب الكبير الذي استمر ستة اشهر واعتقلت فيه السلطة آلافا من العرب حشرتهم في المعتقلات العديدة وفي آخر تلك السنة جاءت اللجنة الملكية البريطانية المعروفة « بلجنة بيل » وفي قرارها الذي وضعته بذرة مشروع التقسيم وفي خريف ١٩٣٧ خرجت يا سيد الثوار والمجاهدين الى بيروت . ومن هنا تبتدىء سيرتك الوهاجة التي سبق تلخيصها .

حقائق في سيرة الرجل الملهم

(١) بلغني عن لسان اترابه في بيت المقدس انه كان اذا اجتمع معهم في الحي ، وهم دون العاشرة ، حبب اليهم العاب الفروسية ، وروحه روح زعامة على الجماعة . يضع لهم الخطط .

(٢) بعد دخول غورو الشام ١٩٢٠ ، ونشل العرب في دمشق ، استخرج « الحاج أمين » من ذلك عقيدة راسخة وهي ان « روح الثورة » يجب ان تبث في التربية ، وفي التعليم ، و« العربي » اذا لم يكن هذا طرازه فلا يمكن ان يرجى منه خير . ولذلك صار يبذل عنايته « بكلية روضة المعارف » في القدس ، ومعهد « مدرسة النجاح » في نابلس .

(٣) بقي في القدس ١٥ سنة رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى ، وبقيت تحت جناحه من هذه المدة عشر سنين متواصلة ، والانسان ، أي انسان ، يتعرض في خلال مدة كهذه، الى أمور فيها استفزاز ، واغضاب ، واثارة نفس ، وقد عرض للحاج امــين من هذا شيء كثير ، فما سمعته مرة في خلال السنوات العشر تلفظ بكلمة نابية . قد يعجب بعض القراء من هذا ، ولكن هذه هي الحقيقة . قد يشتد في جداله ونقاشه ، ولكن لا يخرج عن نطاق الادب العالي . لم أر في حياتي آدابا تامة الصفة كآدابه .

(٤) كانت رسالته المقدسة تتخذ عدة اتجاهات :

١ ــ اتجاه العمل المطرد ، لوقف خطر الصهيونية .

٢ ــ اتجاه السلبية فيما كانت حكومة فلسطين تحاول به اغراء العرب لينزلقوا ، كانشاء « مجلس استشاري » او « وكالة عربية » على غرار « الوكالة اليهودية » ، فكان يرفض كل هذه الشباك لانها مصيدة للعرب اذ تبقي اليد العليا لليهود .

٣ ــ اتجاه ربط فلسطين بالعالم الاسلامي بكل الوسائل . ومن هذا النوع اقتراحه ان يدفن مولانا محمد علي الهندي في القدس . فلما بدت له الفكرة ، اثر تلقيه برقيــة النعي من مولانا شوكت أخي محمد علي ، من لندن ، قررها في أقل من نصف ساعة ، وأبرق الى مولانا شوكت علي في تلك الساعة ، وثاني يوم تلقى برقية من مولانا شوكت علي بالموافقة . وفي خلال مدة الانتداب الى ١٩٤٨ رأت فلسطين اياما عظيمة هي :

١ ــ يوم دفن الملك الحسين بن علي في جوار المسجد الاقصى .

٢ ــ يوم دفن مولانا محمد علي .

٣ ــ يوم دفن موسى كاظم شيخ القضية ووالد الشهيد عبد القادر الحسيني .

٤ ــ يوم دفن الشهيد عبد القادر .

٥ ــ يوم النبي موسى سنة١٩٣٧ اذ كان في ايام عقد المؤتمر التبشيري الذي ذكرناه.

(٥) كان يرى ويعتقد ان أهل فلسطين وحدهم كانوا قادرين على ضرب الصهيونيين ضربة تقصم الظهر اذا سلحوا ، تسليحا حسنا .

(٦) بعد انتخابه لرياسة المجلس الاسلامي ، كان صيته وسمعته وذيوع بطولاته السياسية تنتقل به من أفق الى أفق أعلى هكذا :

الافق الاول ، المتجمع له الى سنة ١٩٢٢ من ادوار نضاله السابق في فلســطين ودمشق ، فكان وقتئذ ينظر اليه كزعيم محلي ويدور نشاطه في نطاق فلسطين والشام .

الافق الثاني ، يبتدىء مباشرة بعد توليه الافتاء ورياسة المجلس الاسلامي الاعلى .

الافق الثالث ، انتشار اسمه عن طريق عماره المسجد الاقصى .

الافق الرابع ، وهذا بلغ به الدولية العربية والاسلامية ، بعد انبثاق الثورة السورية وعمله في شد ازرها .

الافق الخامس ، نجاحه في اقتلاع المؤتمر التبشيري سنة ١٩٢٧ .

الافق السادس ، بسبب ثورة البراق ١٩٢٩ .

الافق السابع ، ذهابه الى لندن سنة ١٩٣١ بعد ثورة البراق ولم يذهب في وفد فلسطيني الى لندن غير هذه المرة ، فخبر كيد الانكليز وخداعهم فوق كل خبرة سابقة .

الافق الثامن سنة ١٩٣٦ بسبب الاضراب الكبير الذي دام ستة اشهر مطبقا البلاد ريفا ومدينة ، ووقتها الفت لاول مرة في تاريخها « اللجنة العربية العليا » تمثل الاحزاب العربية الستة وانتخب رئيسا لها .

الافق السابع ، شهادته امام اللجنة الملكية وادلائه بتفاصيل شاعت في اقطار الدنيا .

الافق العاشر ، انه لما ظهر تقرير اللجنة الملكية او « لجنة بيل » سنة ١٩٣٧ وفيه بذرة التقسيم رفض ذلك كله ودعا البلاد الى رفضه .

الافق الحادي عشر بلغه لما خرج من القدس الى بيروت في خريف ١٩٣٧ وقد بدأت حركات الهجوم على الانكليز بقتل الحكام الموالين لليهود .

هذه أحد عشر افقا في سيرته ، ومنها تتكون شخصيته الى ١٩٣٧ وأما ما بعد ذلك فيتألف منه سجل جهاده في بلاد المحور الى ان وصل مصر سنة ١٩٤٦ الى الوقت الحاضر . ونعلم انه عليه رضوان الله نشر من مذكراته في مجلة « فلسطين » ٦٥ جزءا وآخر جزء صدر في العدد المؤرخ تموز هذا الاسبوع الذي كانت فيه وفاته رحمة الله . وكل قسم من هذه الاقسام يشتمل على ٤ — ٥ صفحات مليئة بالحوادث التي جرت له، والتواريخ . وهذا يعني نحو ٣٠٠ صفحة من صفحات المجلة واما من صفحات الكتب المعتادة فيبلغ ذلك كتابا ضخما ولا ندري ما الباقي من هذه المذكرات القيمة ، فعسى ان تطبع في كتاب على حدة ليطلع عليها العرب والمسلمون .

« آفاق الحاج امين » لا تستقصى . فيعتقد الكاتب الذي يريد تناوله ، انه يستطيع ان يلخصه بصفحات ، وبعد الكتابة يرى الكاتب نفسه انه لم يصنع شيئا .

عليه رضوان الله .

مقابلتان
مع الحاج امين الحسيني

عمـاد شـقور
و
د. خيرية قاسمية

هاتان المقابلتان اللتان تنشرهما « شؤون فلسطينية » لاول مرة ، تمتا في فترتين مختلفتين من فترات الحياة السياسية للحاج امين الحسيني ، وهما توثقان تفكير الزعيم الفلسطيني الراحل ، وهذا هو القصد من نشرهما ، مع وعي كامل بأن تفكير سماحته ينبغي ان يؤخذ ضمن سياقه التاريخي وضمن الآفاق السياسية التي كونت هذا التفكير ومعطيات القضية الفلسطينية التي احاطت بنضاله .

المقابلة الاولى مع عماد شقور

س ١ ــ ماذا كانت الدوافع الاساسية التي أدت الى اتخاذ سماحتكم موقف الرفض المطلق من مشروع التقسيم سنة ١٩٤٧ ؟

ج ١ ــ الدوافع الاساسيـة التي ادت الى رفض مشروع التقسيم وامثالـه من المشروعات الظالمة والمجحفة ، لانه يمزق فلسطين ويذهب بالقسم الاكبر والاخصب من اراضيها لقمة سائغة لليهود المعتدين والطارئين على البلاد . ولم أكن انا وحدي الذي رفض التقسيم عندما قررته الامم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بل رفضته الدول العربية جميعا وأصدرت بيانا اجماعيا باستنكاره في ١٧ كانون الاول ١٩٤٧ وكان مما جاء فيه « ان التقسيم باطل من أساسه وان رؤساء الدول العربية وممثليها قرروا في اجتماعهم بالقاهرة ان التقسيم باطل من أساسه ، وانهم ، عملا بارادة شعوبهم، قرروا ان يتخذوا من التدابير الحاسمة ما يكفل بعون الله احباط مشروع التقسيم الظالم » .

والتقسيم هو تمزيق لجسم الوطن ولا تقبله امة حية من امم الارض فلماذا يفرض على شعب فلسطين قبوله ولماذا يلام هذا الشعب على رفضه له ؟ فهذه سورية لم تقبل بفصل لواء الاسكندرونة عنها وما تزال تحيي ذكرى هذا الحادث في كل عام . وهذه اليمن ما تزال تسعى الى ضم شطريها في وحدة تامة مع ان اهل الشطرين عرب اقحاح وليس فيهم عنصر اجنبي طارىء . وهذا العراق يرفض فصل القسم الشمالي الذي يسكنه الاكراد والتركمان عن جسم العراق . وهذه ليبيا تسعى الى وحدة اندماجية مع مصر ، وكل سكان القطرين عرب خلص . بل ان وحدة مصر مع السودان كانت وما تزال مطمح كثيرين من اهل القطرين . وهذه ايرلنده الحرة لم تعترف ابدا بتقسيم بلادها وما زال الارلنديون يقضون مضاجع الانكليز بثورتهم الدامية لاستعادة القسم الشمالي من جزيرتهم الذي ضمه الانكليز الى دولتهم .

وقد كنت ارسلت برقية باسم اللجنة العربية العليا لفلسطين الى رؤساء وفود الدول المجتمعة في عصبة الامم بجنيف في أيلول عام ١٩٣٧ (وكان من جملتهم مستر ديفاليرا رئيس وزراء ايرلندة حينئذ) باستنكار قرار الحكومة البريطانية بتقسيم فلسطين وفقا لتقرير لجنة اللورد بيل ، فتلقيت منه برقية جوابية قال فيها: (ان التقسيم افظع الوسائل وأشنع الاسلحة التي يمزق بها الاستعمار قلوب الشعوب المظلومة . .) .

وهذه فرنسا لم تقبل بفصل الالزاس واللورين عنها وقاتلت في سبيل استردادها حتى فازت بذلك . وهذه تشيكوسلوفاكيا لم تقبل بفصل منطقة السوديت عنها . بل هذه اسبانيا ما زالت تطالب باسترداد جبل طارق الذي احتلته بريطانيا عام ١٧٠٤ ومضى ٢٦٩ عاما على احتلالها له . وهذه كوريا فقد اثارت مشكلة تقسيمها الى شمالية وجنوبية حربا طاحنة . وهذه اندونيسيا المجاهدة لم تقبل باغتصاب الهولنديين ايريان الغربية . والامثلة على هذا كثيرة .

فرفض تقسيم فلسطين كان وما يزال مسألة حق وعدل ، ومنطق وكرامة ، وليس في اعتقادي من مبرر قط لقبول التقسيم ولا للسكوت عنه وتناسيه وتجاهله واختلاق المبررات له بأنه اصبح امرا واقعا وان الامم المتحدة اقرته وان الدول الكبرى امثال اميركا وروسيا وبريطانيا وافقت عليه ! ان هذه كلها اباطيل ومخادعات لتضليل الفلسطينيين وتضليل العرب والمسلمين الذين اعتبروا التقسيم طعنة نجلاء وجهت اليهم. فالوجود اليهودي في فلسطين وجود طارىء ومصطنع وباطل قانونا ومنطقا ، والوجود اليهودي الموقت الذي كان في اجزاء من فلسطين قديما قد زال وانقطع منذ عشرين قرنا . فلماذا يراد بنا ان نخضع لهذا الظلم ونقره ونعترف بالامر الواقع ؟ ولماذا نلام اذا رفضناه وتوجه الينا تهمة التصلب والتشدد؟ ان شعبا حيا ومجاهدا كالشعب الفلسطيني لا يجوز له ان يخضع ويقبل بالامر الواقع الذي فرضته القوة الغاشمة والمطامع الاجنبية . واعتقادي ان المظلوم الذي ينام على الظلم ولا يقاومه بكل قوة وتصميم، يكون أحق باللوم من الظالم نفسه لان الخضوع للظلم تأييد للظالمين وتشجيع لهم على الاستمرار في الظلم والتمادي فيه . والدليل على ذلك ان اليهود المعتدين الظالمين لم يكتفوا بالتقسيم ولم يناموا عليه ، بل استمروا في طغيانهم وعدوانهم واخذوا يقتطعون من القسم المخصص للعرب في التقسيم جزءا بعد جزء ، وقد شجعهم على ذلك صمت البلاد العربية المجاورة وسكوت بعض الفلسطينيين وقبولهم بالامر الواقع وانصراف العرب الى الخصام والاقتتال ومنح اليهود فرصة عشرين عاما يوطدون فيها اركان دولتهم ويزدادون عددا وعددا .

ان اول واجب على الفلسطينيين والعرب في نكبتهم هذه ان ينزعوا من أنفسهم الوهن ويقضوا على الدعاية التي بثها الاعداء في نفوس الضعفاء والمتخاذلين بأن اليهود أصبحوا قوة لا تقهر وان لهم من دعم اميركا وغيرها من الدول الاجنبية ما يضمن لهم الفوز والتفوق على الدول العربية مجتمعة .

لقد كانت الجيوش العربية التي خاضت المعركة في عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ اكثر من قوات العدو عددا وعددا في كل أنواع السلاح ، وكان في استطاعة العرب ان يتغلبوا على العدو لولا اختلافهم سياسيا ، وتخاذلهم وانقيادهم لرغبات الدول الكبرى الضالعة مع اليهود ، وبذلك اضاع العرب الفرصة الفريدة التي اتيحت لهم وتركوا اسرائيل توطد اركانها وتغالي في مطامعها التي لا حد لها .

والذي مهد لاسرائيل سبيل الوجود هو تراخي العرب وترددهم ثم تفرقهم وتخاصمهم

ولو كانوا يدا واحدة لما استطاع عدوهم ان يتغلب عليهم على قلته وكثرتهم ، وضعفه وقوتهم ، وباطله وحقهم . ولو حزم العرب أمرهم ، واعدوا لقتال الاعداء عدتهم لاستردوا ما اغتصب من اوطانهم ، لان ما يؤخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة . والايمان والعزيمة هما اللذان يحققان الفوز والنصر .

ان اوجب الواجبات على زعماء الامة العربية وقادتها في هذا الموقف المصيري هو التسلح بالايمان والحزم ، وعدم التساهل في الحق ، والاستعداد الكامل للجهاد الطويل النفس ، والواسع المدى ، فنحن اكثر عدداً واعظم ثروة من اعدائنا ، واقدر على البذل والفداء ، ولا نغلب الا من المطامع الشخصية ، والخصومات الحزبية ، والنعرات الاقليمية والطائفية .

ان الحل المنشود للقضية الفلسطينية لا يتحقق بالتنازلات والمناقصات والتفريط في الحقوق الوطنية تفريطا يقضي على كل امل للشعب الفلسطيني في الحياة الكريمة. وليس في مجال القضية الفلسطينية أي مكان لتعايش سلمي مع اعدائنا الذين نعلم حق العلم أنهم لا يريدون تعايشا مع احد ولكنهم يريدون التوسع على حساب امننا وسلامتنا ومستقبل اجيالنا ، والمضي في سلب كل شيء معتقدين ان بلادنا كلها هي لهم ، بل ان العالم كله هو لهم ! وهذا الاعتقاد اليهودي ثابت وقد عرفه كل من درس تاريخ اليهود وكتبهم وعرف ماضيهم وحاضرهم . ان الاسرائيليين مصممون على ابادتنا واغتصاب كل ما نملك ولكنهم يخادعوننا لكسب الوقت الذي يستطيعون فيه تنفيذ مخططاتهم الرهيبة .

والحل الوحيد الذي لا يتحقق امن وسلم من دونه : هو ما اشتمل عليه ميثاقنا الوطني واقرته المؤتمرات والجمعيات والهيئات الوطنية الفلسطينية في سائر مراحل جهادنا وكفاحنا ، وهو زوال الاحتلال الاجنبي عن فلسطين بكامل حدودها الطبيعية ، وقيام دولة وطنية فلسطينية من سكان فلسطين المسلمين والمسيحيين واليهود الذين كانوا قبل الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧ وذريتهم من بعدهم . وكل حل غير هذا لا يكون عادلا ولا يسترد وطنا ، ولا يحقن دماء ، ولا يصون كرامة .

س ٢ — ما هي في نظر سماحتكم اهم وابرز التطورات التي شهدتها القضية الفلسطينية منذ اتخاذ القرار المذكور حتى الان ؟

ج ٢ — ان اهم التطورات التي شهدتها القضية الفلسطينية ، هو الوضع الحاضر الذي أصبح فيه اليهود يقعدون للعرب كل مرصد ، فيعتدون مرة على لبنان ، واخرى على سورية ، ومرة على مصر . فهذا الموقف المهين والمخزي لم يكن يتوقعه أشد الناس تشاؤما ، ولا أعتقد ان له في التاريخ العربي ما يماثله من الذلة والهوان .

س ٣ — بعد تغير الاوضاع تغيرا جذريا ، وبعد تغير خريطة العالم السياسية تغيرا جذريا كذلك ، وبعد ما شهده النضال الفلسطيني ، والتضحيات الفلسطينية البطولية ، عبر العمل الفدائي ، هل يرى سماحة المفتي انه من المنطق ان يحدث تغيير في الموقف الفلسطيني من مشروع التقسيم ؟

ج ٣ — ان ما عرفناه من طباع اليهود واخلاقهم وتقاليدهم واعتقاداتهم لا يحملنا على الاعتقاد بامكان الوصول معهم الى اي تفاهم منطقي او حل سلمي قائم على الحق والعدل . والبون شاسع والفرق عظيم بين باطل اليهود الذي يتمسكون به ، وحق الفلسطينيين الذين يطالبون به ويسعون اليه . واعتقد انه ليس للقضية الفلسطينية من حل الا بالصبر والاستمرار على المقاومة مهما طال الامد . واساس ذلك التعاون بين الفلسطينيين انفسهم على العمل بصدق واخلاص واخوة صادقة ، ثم بتعاون الدول

العربية وشعوبها مع بعضها واخذها بيد الشعب الفلسطيني في جهاده الدائب الصادق لتحرير وطنه ، وتوثيق الصلات مع العالم الاسلامي ومع كل نصير للحق والعدل في العالم .

ان المطامع الصهيونية ليست منحصرة بفلسطين وحدها ، ولم يعد سرا انها تتعدى فلسطين الى اقطار عربية أخرى عديدة . فهذه منطقة الجولان السورية ومنطقة سيناء المصرية قد احتلهما الاعداء وهم لا يريدون التنازل عنهما لانهم يعتبرونهما جزءا من اسرائيل الكبرى التي تمتد من النيل الى الفرات . وحدود اسرائيل الكبرى الشمالية تصل بزعمهم الى الرقة وجبال طوروس . وحدودها الجنوبية تصل الى الحجاز والمدينة المنورة . وبعض الغلاة من اليهود يعتبرون الجزيرة العربية كلها من اهدافهم . فهذه المطامع الخطيرة هي من الحقائق التي يجب أن يعيها العرب وتستيقنها انفسهم ويعملوا جاهدين لمقاومة الصهيونية على هذا الواقع وعلى ضوء اقوال زعماء اليهود وافعالهم.

لقد اعلن مناحم بيغن في الكنيست (المجلس النيابي الاسرائيلي) « انه لن يكون سلام لشعب اسرائيل ولا لارض اسرائيل ما لم نحرر وطننا بأجمعه ، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح » . وقال بن غوريون في خطاب القاه في حزب المباي : « لن يكتب لدولتنا البقاء ما لم نسارع بأقصى جهودنا الى حشد أكبر قسم من يهود العالم في اسرائيل » . وقال اريه التمان احد زعمائهم في خطاب له في القدس المحتلة : « ان اسرائيل الكبرى الممتدة من العراق الى السويس هي الدولة القوية التي تستطيع تأمين السلام والاستقرار في الشرق الاوسط . » أما سيناء فيعتبرها اليهود ارضا دينية مقدسة . وقد حدث حينما دخلت القوات العسكرية اليهودية سيناء في كانون الاول ١٩٤٨ ان وقفت سياراتهم على الحدود وهبط اليهود منها وقبلوا ترابها . وكان حاخامهم يضع على مقدم سيارته في الطليعة نسخة كبيرة من التوراة .

واني أرى أن كل قرار لا يتفق مع رفض التقسيم والعمل لاحباطه لا يكون الا تثبيتا للوجود الصهيوني القائم على العدوان والاغتصاب . وليس الفلسطينيون ملزمين بأن ينسجموا مع التغييرات والتقلبات التي حدثت في المنطقة بل يجب ان يكون تحرير وطنهم هدفهم وغايتهم . ونحن لا نتوقع ان يتم هذا التحرير بين عشية وضحاها بل لا بد لتحقيقه من استمرار البذل والفداء طال الزمن ام قصر لكن التحرير سيتم في يوم ما . ان الدولة اللاتينية في القدس استمرت ٩٢ عاما في عهد الحروب الصليبية لكنها زالت وانتهت لان وجودها لم يكن طبيعيا ولا منطقيا . وكذلك دولة اسرائيل لا بد لها من الزوال لان وجودها ليس طبيعيا ولا منطقيا. (والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون).

المقابلة الثانية مع د. خيرية قاسمية

ما ينقص مكتبتنا العربية في دراسة القضية الفلسطينية هي الوثائق الوطنية المحلية التي تشكل جزءا هاما من تاريخنا القومي ، وسجلا لاحداث القضية ، بل ان هذه الوثائق (لو وجدت) مبعثرة في دوائر مختلفة ، وموزعة بين عدد كبير من الزعماء الفلسطينيين الذين ساهموا في الاحداث ولعبوا دورا قياديا فيها، وهم يقيمون في اماكن متفرقة ، كما ان لدى الكثيرين منهم ذخيرة من المعلومات معظمها يعتمد على الذاكرة ويتأثر بالانطباعات الشخصية وهي في طريقها الى الزوال ، ونادرا ما سجل هؤلاء الاحداث في حينها او احتفظ باوراقه الشخصية كما يفعل اقرانهم في البلاد الاخرى، ولذلك يخشى مع توالي السنين ان تبقى الوثائق والاوراق الاجنبية هي مصادرنا الوحيدة لدراسة القضية الفلسطينية .

وفي محاولة اولية لاجراء مسح كامل للوثائق المحلية ، وجمع المعلومات الاولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية من مصادرها الاساسية تمت باجراء عدة مقابلات شخصية مع الحاج امين الحسيني لاستكشاف بعض الامور

التي تخفى على باحثي القضية نظرا للدور القيادي الذي تولاه في الربع الثاني من هذا القرن ومساهمته الفعلية وتجاربه الطويلة في كثير من الاحداث .

رغم ابتعاده عن مسرح فلسطين الفعلي سنوات عدة تلت خروجه منها ١٩٣٧ وانتقال مركز نشاطه في اثناء الحرب العالمية الثانية الى ساحة دبلوماسية اوسع ، الا ان القضية ظلت تستحوذ اهتمامه في لقاءاته مع الشخصيات الفلسطينية والعربية التي انتقلت الى المعسكر الثاني في الحرب ، او في مساعيه الدبلوماسية مع أقطاب هذا المعسكر للحصول على ضمانات وتأكيدات بدعم القضية الفلسطينية . وكانت الاسئلة في ذهني كثيرة وكنت أتمنى ان استوضحها جميعا ، ومع ان النشرة التي تصدرها الهيئة العربية العليا لا تزال تواصل نشر مذكرات المفتي الا ان هناك بعض الامور التي تحتاج الى ايضاح ، وتراود الجميع تساؤلات عديدة حول اكثر مراحل القضية الفلسطينية احراجا ، قد يصل كثير منها الى حد الانتقاد وبعضها الى حد التهجم.

الاسئلة في محتواها شاملة غايتها أخذ رأي المفتي شخصيا في بعض الامور التي مرت بها القضية الفلسطينية خلال الانتداب : دار السؤال الاول حول رأي المفتي في الفكرة الاستسلامية الشائعة : اننا لو قبلنا بانصاف الحلول في الثلاثينات والاربعينات مثل مشروع التقسيم والكتاب الابيض لما حصل بالفلسطينيين ما حصل .

وكان جوابه :

لا شك ان الذين يطلقون مثل هذه الاقوال يجهلون او يتجاهلون حقيقة الصهيونية ومدى أطماعها في بلاد العرب . وقد أصبح امرا معلوما ان اليهود يطمعون في اقامة دولة اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات بل ان المعلومات الموثوقة الجديدة تؤكد اطماعهم في مناطق الحجاز وساحل الخليج وجنوب الجزيرة العربية والبحر الاحمر وقد أثبتت الاحداث التي وقعت ان اطماعهم لا تقف عند حد وانهم لا يقبلون عن تحقيق كل ما يطمحون اليه بديلا ، ولعل تصريحات ديان الاخيرة التي حض فيها اليهود على رفض الحلول السلمية لتحقيق حلم اليهود باقامة دولة اسرائيل الكبرى واعتبار الفرصة مواتية لتحقيق احلام حكماء صهيون دليلا ساطعا على أن اليهود لا يريدون سلاما بل استسلاما وهنا لا بد ان اسأل أصحاب هذا الراي هل قبول بعض الدول العربية في هذا الزمن بالحل السلمي والتنازلات التي قدمتها خفف من غلواء اليهود وتطرفهم وحدة عدوانهم ؟

هذا فضلا عن أن الشعب الفلسطيني حين رفض هذه المشاريع لم يرفضها حبا بالرفض ولا كراهية للسلام وانما رفضها لانها مشاريع ظالمة ومجحفة تهدف الى حرمانه من حقه في وطنه وتقرير مصيره وفي اعتقادي انه لو قدر للشعب الفلسطيني لا سمح الله ان يقبل بانصاف الحلول هذه فان ذلك لن يغير من نتائج العدوان اليهودي الا باضفاء الشرعية عليه وحرمان الشعب الفلسطيني حتى من حقه في الجهاد والكفاح .

وسأضرب مثلا على هذه الحلول مشروع المجلس التشريعي الذي عرضه الانكليز عام ١٩٢٢ وما زال البعض يعتقد انه لو قبل الفلسطينيون به لكان خيرا والحقيقة ان الاسباب التي حدت بالشعب الفلسطيني الى رفضه عديدة وقد بنيت على قواعد سياسية واسس وطنية صرفة كان هدفها الحفاظ على عروبة فلسطين ومستقبل شعبها . ومن هذه الاسباب :

١ — بني مشروع المجلس التشريعي ، كما بني الكتاب الابيض نفسه ، على أساس تصريح بلفور وصك الانتداب البريطاني على فلسطين ، والعرب لم يعترفوا بهما وكانوا يطالبون باستمرار بالغائهما .

٢ — نص نظام المجلس التشريعي على تشكيله من ٢٢ عضوا كما يلي : ١٠ اعضاء عرب (بالانتخاب ٨ مسلمين ومسيحيان) ، ٢ (عضوان) يهوديان (بالانتخاب) ، ١٠ اعضاء يعينهم المندوب السامي من كبار رجال الحكومة ورؤساء دوائرها من الانكليز : فيكون المجلس مؤلفا من ١٢ عضوا من غير العرب (العضوان اليهوديان المنتخبان

والاعضاء العشرة المعينون) ومن عشرة اعضاء من العرب . ومعنى هذا ان العرب الذين كانوا يشكلون عام ١٩٢٢ نحو ٩٢ بالمئة من مجموع سكان البلاد ، اعطوا (٤٥ بالمئة) من مقاعد المجلس بينما اعطيت ٥٥ بالمئة للانكليز واليهود ! وكان عدد السكان اليهود في فلسطين حينئذ لا يتجاوز ٧ بالمئة من مجموع السكان .

٣ ـــ نص النظام على ان يكون المندوب السامي البريطاني رئيسا للمجلس التشريعي، له صلاحية (الفيتو) نقض قرارات المجلـــس ، وصوتان مرجحان في حالة تســـاوي الاصوات حول مشروع قرار .

٤ ـــ حدد النظام صلاحيات واختصاصات المجلس التشريعي ، ونص على انه لا يجوز للمجلس البحث في مسألة الهجرة اليهودية وصك الانتداب ومناقشتهما .

لاجل ذلك رفض العرب المجلس التشريعي وقاطعوا انتخاباته (مرتين) حتى قضوا عليه . وهل كان يجوز لاي عربي لديه ذرة من الكرامة والوطنية ان يقبل بمثل هـــذا « المجلس التشريعي » الذي بني على اساس تصريح بلفور وصك الانتداب، واعطى نظامه للاكثرية العربية الساحقة من سكان البلاد عشرة مقاعد فقط مقابل اثني عشر مقعدا لليهود والانكليز ، وجعل المندوب السامي البريطاني (وكان يهوديا حينئذ) رئيسا للمجلس كما له صوتان وحق النقض ونص على انه ليس من حق المجلس او اختصاصاته البحث في موضوعي الهجرة اليهودية وصك الانتداب .

ولايضاح استفسار حول فعالية خطة تسليح الشعب الفلسطيني قبل ايار ١٩٤٨ والعقبات التي واجهت هذه الخطة . فقد ارجعني الى المقتطفات التي تنشر في نشرة فلسطين (عدد ١٤٤ ـــ ١٤٥) من كتاب (النكبة) لعارف العارف على اعتبار انها تحتوي على جواب واضح لهذا السؤال مشفوع بالاحصاءات والارقام والوقائع ويكفي ايراد هذه الفقرة من الكتاب المذكور « ان مشكلة السلاح من اعوص المشاكل التي اعتورت سبيل الجهاد العربي في فلسطين لا بل أعوصها طرا ، وأبعدها أثرا على مصير هذا الجهاد ، اذ كانت الحكومة البريطانية ، طوال احتلالها هذه البلاد (١٩١٧ ـــ ١٩٤٧) قد جرت على الناس ليس حمل السلاح او استعماله فحسب ، بل واقتناءه في منازلهم ايضا . وسنت من أجل ذلك قوانين صارمة ، وصلت في بعض الاحيان حد الشنق والاعدام . ولهذا لم يكن في البلاد عندما جد الجد وتلبدت بها سحب القتال ، سوى عدد ضئيل من البنادق والمسدسات ... دع عنك المدافع والرشاشات وما الى ذلك من المعدات التي لا بد منها للقتال ...». وتتابع المقتطفات بعد ذك سرد مشكلة السلاح التي واجهتها قوات الثورة الفلسطينية حتى ايار في جميـــع انجهـــات .

ولايضاح التساؤلات حول لجوئه الى المانيا ابان الحرب وتعاونه مع هتلر وما يوجهه البعض من انتقادات اجاب الحاج امين :

أولا : لقد كانت معظم البلاد العربية آنذاك ترزح تحت نير الاحتلال من قبل جيوش الحلفاء لفترة طويلة وكانت السياسة الاستعمارية الغاشمة التي حكم المستعمرون بها هذه البلاد قد ألهبت في نفوس العرب الحقد والثورة عليهم .

ثانيا : لقد كان الحلفاء هم المسؤولون عن ايجاد المشكلة الفلسطينية عندما قدموا فلسطين هبة سخية لتكون وطنا قوميا لليهود وسمحوا تحت حمايـــة حرابهم للهجرة اليهودية بأن تتدفق على فلسطين ليحل اليهود محل أهلها العرب اصحابها الشرعيين .

ثالثا : لم يكن لالمانيا اي وجود استعماري في أي بلد من بلاد العرب بمعنى انه لم يكن هناك عداء بين الامة العربية والمانيا .

لهذه الاسباب كان من الطبيعي أن تكون عواطف العرب شعوبا ومسؤولين مع المانيا. وقد بلغت حماسة الجماهير وتأييدها لالمانيا أوجها .

أما بالنسبة لي شخصيا فقد كنت واحدا من هؤلاء العرب الذين نظروا الى المانيا على ضوء القول المأثور : عدو عدوك صديقك ، وكنت ادرك مدى عمق واخلاص المانيا في عدائها للصهيونية والاستعمار . وهل ألد خصومة لنا نحن العرب من هذين ؟ . . لقد كان في العالم يومئذ معسكران : معسكر أعدائنا من صهاينة ومستعمرين من جهة ومعسكر المحور من جهة اخرى وكانت الحرب وكنت مطلوبا من الانكليز ثم من حلفائهم أيضا بعد اعلان الحرب وقد وقعت جميع البلاد العربية وبعض الدول الاسلامية تحت سيطرتهم فلم يكن لي مناص من اللجوء الى المانيا .

ولم تكن بلادنا بمنأى عن الصراع فأملت علينا الظروف ان نتعاون مع احد الطرفين ومن الطبيعي ان يكون هذا الطرف هو المحور . وهنا لا بد لي من القول بأنني حين تعاونت مع المانيا لم أكن أمثل حكومة او دولة بل كنت أمثل شعبا ثائرا على الانكليز واليهود وهما أعدى اعداء المانيا يومئذ ، وليس ما يمنع شعبا ثائرا على المحتلين والطامعين ان يمد يده الى كل من يساعده في كفاحه باخلاص وبلا شروط . ولا يخفى ان جميع الثورات الشعبية في العالم تحاول الاستفادة من التناقضات الدولية .

وسألت عن قضية المذكرات التي تصدر تباعا في نشرة فلسطين وهل انها كاملة ام ان هناك اشياء لم تنشر بعد ، وكان جوابه مقتضبا ، اذ أن ما نشرته المجلة هو قسم من المذكرات وسيتابع فيما بعد نشر الاقسام المتبقية .

السؤال الاخير الذي اجاب عليه يدور حول رأيه بالقضية الفلسطينية في الوقت الحاضر بعد ربع قرن من عام ١٩٤٨ ، ورأيه بحركة المقاومة وتصوره للمستقبل أجاب :

القضية الفلسطينية تجتاز اليوم مرحلة خطيرة جدا بالنظر الى ما يتهدد الوجود العربي في فلسطين من مطامع صهيونية واستعمارية عظيمة الخطر،وبما ان الفلسطينيين قد أدركوا مبكرين حقيقة هذه المطامع والاخطار ، فينبغي ان لا يخفى عليهم أن لا حل لقضية فلسطين واستنقاذ الوطن من أيدي أعدائهم الا بالتصميم على القتال ، وهذا لا يتم الا بالاتحاد والتضامن وايثار صالح الوطن على كل المصالح الشخصية ، وهذا الاتجاه يجب أن يكون عاما للفدائيين جميعا ، وللدول العربية نفسها التي تدعم حركة الفداء الفلسطيني . وهذه هي السبيل الوحيدة التي يجب سلوكها ، والا ساءت العاقبة واستطاع الاعداء بلوغ أهدافهم لا في فلسطين وحدها بل في كثير من الاقطار العربية التي يتطلعون اليها لاخراج اسرائيل الكبرى الى عالم الوجود .

من هنا كان تصورنا للمستقبل على ان المعركة مع العدو آتية لا ريب فيها لانها مفروضة علينا فرضا وان لا منجاة للعرب الا بتوحيد الصف وحشد الطاقات والتصميم العنيد على القتال والاعداد له بكل الوسائل وان في الآية الشريفة التالية تصويرا صادقا لواقعنا فكأنما نزلت بنا : يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون . ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

كانت هناك اسئلة اخرى كنت اود طرحها : علاقات المفتي بالخصوم والمعارضين السياسيين ، جمعه بين الصفة الدينية والصفة السياسية في الزعامة الوطنية ، وعن خروجه من فلسطين عند الازمات ، وعن اسباب فشل المشاريع الوطنية في الثلاثينات والاربعينات مثل صندوق الامة ، والجامعة الاسلامية بالقدس ، وحول استعمال مناشير الهيئة وكتاباتها كلمة يهود بدل صهيونيين . وعن رأيه في الفصل بين الاثنين وعلى أن صراعنا هو سياسي مع الصهيونية وليس دينيا مع اليهود . . واسئلة اخرى كثيرة لم تسمح الظروف بالاجابة عنها وقد يتاح ذلك في المستقبل القريب .

الصراع ... والصراع بالكلمات

شفيق الحوت

من عمق التناقض بينهما ، وما فجره هذا التناقض من تصادم دموي عنيف ومستمر ، وصل النقيضان العربي الفلسطيني واليهودي الاسرائيلي الى قناعة مشتركة ، تقول باستحالة تصفية الصراع الدائر بينهما وتأمين حياة طبيعية مستقرة فوق ارض هـذا الصراع ، الا بنصر عسكري استراتيجي يمكّن صاحبه من فرض «وجوده» على أنقاض « وجود » الاخر ، وتأمين كل الشروط التي تستتبع ذلك ، مع ضمان استمرارها لفترة تتجاوز الحقبة العابرة ، او المرحلة الطارئة ، الى ما يمكن اعتباره مرحلة تاريخية لم تعد مقوماتها تقبل الجدل او النقاش .

وكل ما يقال ، عند النقيضين ، من كلام يبدو في ظاهره قافزا عن هذه القناعة او متجاهلا لها ، ليس في حقيقته الا لغوا سياسيا يستهدف المكاسب التكتيكية ، او تحايلا لكسب الوقت بانتظار المزيد من الشروط والعوامل التي لا بد مـن توفرها لتحقيق ذلك النصر .

وانطلاقا من هذه القناعة ، وسعيا لتحقيق مضمونها ، فمـن الطبيعي أن يراهن النقيضان على تناقضات الحركة السياسية العامة داخل ارض الصراع وخارجها على امتداد الساحة الدولية .

فبينما يراهن العدو الاسرائيلي على امكانية استمرار التجزئة والتخلف الاقتصادي والتبعية السياسية والعربية للمعسكر الغربي وخصوصا للولايات المتحـدة ، فان الفلسطيني يراهن على امكانية الوحدة وحتمية النهوض الاقتصادي عن طريق تحرير ثرواته الطبيعية وتطوير امكانياته الصناعية والارتقاء الى مستوى العصر من خلال التعاون الشريف مع الدول الاشتراكية والتقدمية وشعوب العالم الثالث المناضلـة لتحقيق نفس الغايات .

ولم تكن حرب تشرين ، كما كانت من قبلها حروب اخرى ثلاث ، الا احدى المحاولات على طريق هذه القناعة المشتركة التي اشرنا اليها . وهي كالحروب التي سبقتها لم تكن الحرب الحاسمة ، مع فارق هام أن العرب ، هذه المرة ولاول مرة ، استطاعوا ان ينتزعوا نصرا وان لا ينتهوا بهزيمة على أرض القتال .

وان المغالاة في تصوير هذا النصر عندنا على انه النصر الحاسم المطلوب يوقعنا في أوهـام مغرورة بنفس المقدار ، الـذي وقـع فيـه الاسرائيليـون بعـد حـرب حزيران . فحرب تشرين عدلت الكثير من موازين القوى ، وحركت القضية الفلسطينية ، وهزت العالم بمعسكريه لبذل المزيد من الجهود للبحث عن « حل » ، واعادت للعربي بعد ثلاث حروب هزم فيها ثقته بنفسه وبقدراته على متابعة الصراع .

حرب تشرين لم تعط اكثر من ذلك ، واذا كان بيننا من اصيب بخيبة ، فلانه بالغ في التوقعات وفوجيء حيث لا داعي للمفاجأة . واذا ظن البعض ان هذا « النصر » قد أقنع اسرائيل ، مجرد اقناع ، بالتنازل عن استراتيجيتها التاريخية ، وجرها للالتزام بأي قرار من قرارات الامم المتحدة ، بما في ذلك أهونها عليها واقساها علينا ، أي القرار ٢٤٢ القاضي بالجلاء عما احتلته من اراضينا العربية عام ١٩٦٧ و« تسوية مشكلة اللاجئين » او « حقوق فلسطين المشروعة » او .. او أي صيغة من هذا القبيل .

ولكن اسرائيل تعلم ، كما نعلم نحن (او يجب ان نعلم) ، ان ذلك النصر الستراتيجي الحاسم الذي نسعى اليه ، كما نسعى نحن اليه (او كما نرجو ان نكون نسعى اليه) لم تحن ساعته ، وانه لا بد من المرور بعدد من المراحل تراوح فيها بانتظار الفرصة المؤاتية .

واسرائيل تتصرف سياسيا بعد حرب تشرين بهذه العقلية ومن وحي هذا التقدير .

ويخطيء العرب كثيرا ، الماضون منهم في التسوية والرافضون لها ، اذا بنى اي فريق منهم سياسته على اننا وصلنا نقطة النهاية ، وان الصراع مع اسرائيل قد الغي أو على طريق الالغاء .

والان ، كيف تلعب اسرائيل لعبتها السياسية ، وكيف نلعبها نحن ؟ وعلى ماذا يراهن كل فريق لتحقيق هدفه المؤقت الذي من أهم مقوماته انه مؤقت وانه يفسح المجال امام معركة الحسم المطلوبة ؟

من الممكن في محاولة الرد على هذا السؤال الاشارة الى المبادرات الجديدة التي طرأت على الحركة السياسية بعد حرب تشرين وان كان يصعب البت في التكهن عما يمكن ان تحققه هذه المبادرات .

وأهم هذه المبادرات هو هذا التحول الذي نشاهده في التوجه العربي لدى بعض عواصمنا الهامة صوب الولايات المتحدة، والمقترن بتحول سلبي عن الاتحاد السوفييتي. هذا على الصعيد الدولي ، وفي اطار وعينا لسياسة الوفاق الدولي التي باتت تتحكم في الستراتيجية الكونية وفق خطوط باتت شبه واضحة أهمها عدم المساس ببؤر التوتر التي لم يتم اتفاق كامل بصددها وتعليق مشاكلها بعد سحب كل شحنات العنف منها .

كذلك نلاحظ ان ثمة انقسام في الرأي العام العربي الرسمي بدأ منذ وقف اطلاق النار في حرب تشرين وتعمق اكثر واكثر بعد المسيرة السياسية التي تلت ذلك . وان كان المواطن العربي قد اعتاد على مثل هذه الانقسامات في الساحة العربية بما في ذلك تبادل الادوار والمواقع حسب الظروف ، الا انه لا يستطيع ان يخفي قلقه مما قد يترتب عن هذا الانقسام من نتائج تعكس اثارها على مجمل النضال العربي في هذه المرحلة الدقيقة من حياتنا القومية .

أما على الصعيد الفلسطيني، فعلى الرغم من البرنامج السياسي الذي اقره المجلس الوطني في دورته الثانية عشرة ، الذي اشتهر ببرنامج النقاط العشر ، فمن التجاوز للموضوعية الاقرار بأن هذا البرنامج لم يستطع ضبط الوحدة الوطنية على المستوى المطلوب ولا تزال المخاوف تحيط من حولنا ، وقد تزداد ، مع كل تقدم من مواعيد الرزنامة السياسية الموضوعة للتسوية ، ومع كل اثارة لاحدى القضايا التكتيكية المعلقة كالمصالحة مع الاردن ، او المشاركة في مؤتمر جنيف الى غير ذلك .

وليست ردود الفعل الفورية التي ظهرت لدى بعض المنظمات اثر البالون الذي اطلقه ياريف ونفّسه بعد ٢٤ ساعة رئيسه اسحق رابين الا الدليل على التربص القائم بين الفصائل والحرص في تسجيل المواقف على بعضها البعض .

واسرائيل في صلب تحركاتها ، كما كانت في الماضي ، لا تزال اليوم تعتبر أن أهم اوراقها في العابها السياسية تكمن في الخلاف العربي والانقسام الفلسطيني ، وهي تسعى لذلك لتعميق هذه الخلافات وتكريس هذا الانقسام .

وقد لاحظنا جميعا السرعة التي استوعبت فيها اسرائيل عبرة حرب تشرين ، فبادرت على الفور لاستثمار تلك العبرة لصالحها ، اذ أصرتولا تزال على التعامل مع العرب كوحدات مستقلة وليست كمجموعة واحدة، وبطريقة معاكسة تماما لبرامجها العسكرية والتعبوية التي تخطط على أساس ان العرب كل العرب ضدها في الحرب . فكان فك الارتباط مع مصر أولا ، ثم تلاه مع سوريا ، وتجري الان مساعيها للفك مع الاردن . وهي تطمح — ولا تخفي ذلك — الى الاستمرار في هذا المنهج وصولا الى تحقيق اتفاقات ثنائية يكون من شأنها تكريس التجزئة العربية وتصعيد التناقضات بين الاقطار العربية المعنية من جهة، وبين هذه الاقطار ومجموع الاقطار والقوى العربية السياسية الاخرى.

كذلك لقد لاحظنا ان اسرائيل تحاول استثمار الوضع عن طريق تأكيد اهمية وجودها في المنطقة للعملاقين على حد سواء . ورغم حقيقة الامور ووعينا لاحجامهـا وخفاياها فان اسرائيل تستطيع ان تباهي بالزعم بأن لها الفضل وحدهـا في فسخ العلاقـات العربية السوفياتية او على الاقل في تقليصها ، كما تستطيع ايضا أن تزعم بأنه لولاها لما اعاد العرب نظرتهم في الولايات المتحدة وعادوا الى التفكير في فتح الابواب لها .

أما في الدائرة الفلسطينية فلا تزال اسرائيل تلعب ورقة النظام الاردني في الدرجـة الاولى ، يلي ذلك ورقة الفلسطينيين من خارج الحركة الثورية ثانيا ، وتصر ثالثا على عدم الاعتراف بشعب فلسطين وحقه في اقامة أي كيان مستقل له على جانبها معتبرة ذلك لغما موقوتا لا تسمح بزرعه .

من هذه اللمحة السريعة علينا ان نقرر ، دون ان نستبق الحوادث والمفاجآت ، ان الطرفين العربي والاسرائيلي يحاول كل منهما ان ينتهي بالمسيرة السياسية الراهنـة للوصول الى « محطة » على طريق الصراع الذي لا حل له الا — كما اشرنا — بنصر استراتيجي يفرض شروطه ، آخذا بعين الاعتبار أهمية هذه « المحطة » على مستقبل الطريـق .

وهنا فان الطرفين امام مأزق بالفعل ، وهوية « المحطة » المنشودة لا تزال لدى الطرفين موضع شبهات ومبعث قلق ، وقد يجدان في النهاية ان تعليق الوضع دون أي التزام قانوني أو سياسي بخريطة جديدة هو الاضمن والاسلم ، لكل منهما ، بالنسبة الى نواياه المستقبلية وقناعاته المشتركة .

ولكن المشكلة الصعبة ، والتي ستكون من مصادر الالم في مثل هذه الحالة، ستواجه المقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني بشكل خاص . فأسرائيل ، ودول المجابهة بحكم كونها دولا تستطيع الصمود مدى أوسع من حركة المقاومة وشعب فلسطين ، هي دول قائمة ولها مشاكل معلقة ، ككل دول العالم ، بينما حركة المقاومة لا تستطيع أن تحيا وتنمو في ظلال الجمود السياسي والعسكري .

ولذلك فانه من اهم ما على حركة المقاومة تأكيده في هذه المرحلة هـو أن تواصل احداث الخلل في امكانية انهاء حالة الحرب مع العدو .

وهنا يحتار المفكر السياسي امام الخيارات المحدودة والممكنة امام المقاومة. خصوصا وان حركة الثورة الفلسطينية لا تعمل داخل ارضنا المحتلة وحسب ، وانما تتحرك كذلك من فوق اراض عربية لا تملك عليها حقوق السيادة ، وان كانت تملك حقوقـــا قومية واخوية . ويزداد الامر صعوبة ، عند الاختيار ، عندما يلاحظ المراقب مع استحالة التناقض مع اقوى واهم حليفين للثورة: مصر وسوريا، بحكم خوضهما للحرب، وبحكم تماسهما الجغرافي مع أرض الصراع ، وبحكم ما يربط الثورة بهما من مصالح حيوية .

طبعا هذا لا يعني ضرورة الانسياق التام وراءهما في حالة قبولهما بأي موقف يمس قضية الثورة الفلسطينية ، ولكن هذا يؤكد حراجة الموقف الذي قد تصل اليه الثورة ان لم تتقن منذ الان ، وقبل التورط ، تنسيق علاقتها مع هذين القطرينْ الشقيقين ، مستفيدة من رصيدها لدى الجماهير العربية وقوى الرفض المختلفة .

على الثورة ان تخلق الموقف السياسي القادر على تحويل التناقضات العربية الى مواقف متكاملة ، وتستثمر كل وضع عربي سياسي بحيث يصبح أداة ضاغطة يـــؤدي مع غيره الى الخروج بمحصلة سياسية تكون قادرة على اختيار « المحطة » المقبولة قوميا واستراتيجيا على مدى النضال الطويل .

وهذا في ظني ما تحاول حركة المقاومة فعله حتى الان ، وما زال امامها الكثير مما تستطيع فعله اذا أمنت شرطا واحدا هو استمرار وحدتها الوطنية وتوزيـــع ادوار الفصائل لصالح التناقض الاساسي مع العدو الصهيوني .

تحترق من ناحية البحر
وتنمو من ناحية الاطفال

محمود درويش

● بوذا في زهرة لوتس .

كم تغريني الصورة بتحويل هذا السطر الى عنوان كتابة عن تلك البلاد الناعمة : اليابان . اني اقمع رغبتي في كتابة أدب الرحلات .. وأندم .

ليس بوسع الكاتب الفلسطيني أن يكون سائحا . لا تسمح له البلاد ، أية بلاد ، بذلك . فعليه اذن أن يوسع عبارة بلده البعيد لانه المنطقة الوحيدة التي يراه الناس فيها . ويبقى خارجها غائبا أو خاطئا . وذلك عذاب جديد لا ننتبه اليه في زحمة الطحن .

ولكن بوذا يجلس في زهرة لوتس من البرونز . كبير كالمدى . يبسط راحة يده الضخمة الى العالم . وبوسع الاطفال ان يلعبوا على هذه اليد .

مطر وعيون . وتخرج من اقدم معبد لبوذا في أقدم عاصمة لليابان نارا .. صغيرة يتسع لها حضن بوذا . تلعب مع الغزلان الاليفة في حديقة المعبد . تطعمها البسكويت وتداعب جلدها الناعم فتتبعك الى الشارع . مطر ومظلات . وتأتي مجموعة من الشباب اليابانيين . تطرد الغزلان من حولك ، وتعطيك منشورات ، وتأخذك الى فلسطين .

تقول لهم : الغزال الفلسطيني شارد ، يطـــارده الرصاص ، فدعوني أمسك غزالا واحدا في هذا العالم !

ـــ انه ليس لك . انه لبوذا .

ـــ وبوذا للجميع .

ويصرون على المناقشة : هل ستذهبون الى جنيف ؟ وهل تناضلون من أجل اقامة سلطة وطنية ؟ وكيف ستخرجون من المأزق الذي وضعتكم فيه حالة فك الارتباط ؟

وفي المساء تذهب الى اجتماع تضامن مع الشعب الفلسطينـــي في طوكيو . العلم الفلسطيني يملأ القاعة تحيط به صور الشهداء ومخيمات اللاجئين . وترى حماسا وقدرة على الصبر والاستماع ، وطرح أسئلة تتعلق بتفاصيل قضية فلسطين .

فور نزولك من الطائرة ودخان سماء طوكيـــو ، تنسى أنك في اليابان . تحاصرك فلسطين من كل الجهـــات والتفاصيل . اسئلة واسئلة واسئلة ومناقشات وندوات . انتهت الندوة الادبية بين الادباء اليابانيين والعرب في ثلاثة أيام ، لتبدأ ندوات شعبية يومية في اغلبية مدن اليابان . قالت لنا اللجنة اليابانية للتضامن الآسيوي الافريقي وهي صاحبة الدعوة [لا الامبريالية اليابانية كما نشرت احدى المجلات اللبنانية !] ان زيارتنا مناسبة للاطلاع على مدى عالمية القضية الفلسطينية ، وعلى تعطش المهتمين لمعرفة المزيد عن هذه القضية .

كانت رحلة عمل مضنية شملت طوكيو وأوساكا ونارا وكيوتو وهيروشيما وكيوشو . في كل مدينة اجتماع جماهيري وندوات للتضامن مع نضال الشعوب العربية ، والشعب الفلسطيني خاصة . ان اهتمام اليابانيين بهذه المنطقة من العالم ، في هذه المرحلة ، مدهش الى حد بعيد . وثمة فارق في تجليات هذا الاهتمام بين المستوى الرسمي وبين المستوى الشعبي . النفط هو هاجس المسؤولين . وفلسطين هي هاجس اليساريين .

مطر وفلسطين . لم تتوقف الامطار دقيقة واحدة في كيوشو . قلت للمرافق : لن يأتي الناس في هذه الجزيرة في مثل هذا المساء للتعبير عن تضامنهم معنا . فاجاب : ولكن البرنامج المعد يقول ان اجتماع تضامن سيعقد هذا المساء ، وعلينا ان نذهب . كانت قاعة الاحتفالات في الجامعة مزدحمة بالطلبة وغيرهم . وفي نهاية الاجتماع قدمت لي فتاة كتابا يتضمن رسالة مؤثرة :

« جئت هنا في هذا المساء المطر لاستمع الى صوتك . رايتك قبـل عدة أيام على شاشة التلفزيون ، وتأثرت بشعرك . لقد نسيت عنوان القصيدة، ولكنني لن انسى ابدا صور الاطفال الفلسطينيين التي عرضت خلال حديثك . اني احب الاطفال . وان اشد الاشياء ايلاما في نفسي هو أن أطفال بلادك ليسوا سعداء . فلماذا هم تعساء الى هذا الحد ؟ ومن المسؤول . اسرائيل أم الولايات المتحدة الامريكية ؟ انني لست متأكدة تماما ، لاني لا أصدق السياسة . ولكن ما يهمني هو أن يكون الاطفال سعداء . وهذا الكتاب هدية من فتاة يابانية الى أطفال بلادك . اغفر لي انني لم اجد الوقت الكافي لترجمة الكتاب الى اللغة الانجليزية . لو كنت أعرف عنوانك لقمت بهذه المهمة بسعادة من أجل أطفال بلادك . انني فتاة بسيطة وأحب الاطفال . وافعل كل شيء من أجل أن يكون أطفال فلسطين سعداء » .

اني اتلقى رسائل كثيرة . ولكن لم تربكني وتهزني رسالة من قبل ، كما فعلت بي هذه الكلمات التي كتبتها مواطنة في جزيرة يابانية بعيدة في ذلك المساء المطر . اننا لا نشطح في الخيال حين نؤكد ان الاقامة الفلسطينية قد ترسخت في جدارة الانسان باسمه . وان الدفاع عن فلسطين يعني ، في وعي الانسانية الطاهر ، دفاعا عن الطفولة . هذا هو الراي العام : التفتح على عذاب الطفولة بشكل مجاني ، بلا مصلحة وبلا حافز غير حافز شهية الحياة . ان انسانية المسألة الفلسطينية تسكن فوق اي اعتبار . وهذا الجوهر الانساني العميق فيها هو الذي يجعلها خصوصية بشرية مطلقة .

لقد صفقوا لفلسطين طويلا في هذه الجزيرة . تساءل زميل لي منفعلا : ما الذي يعنيهم هنا في آخر الدنيا بشؤوننا الوطنية ؟ كان تساؤلا صعبا ، يحتاج الى وقفة طويلة . لم يمت الانسان في الانسان . هنالك منطقة ما في الانسان لا يبلغها التلوث . وان حاسة التضامن مع الآخرين هي ذاتها حاسة وحدة المصير البشري . وهي شكل ما من اشكال الدفاع الذاتي عن صفاتنا الانسانية . وحين يتضامن المرء فانه يجري عملية اختبار حر لمدى استحقاقه لما يتمتع به من ميزة كونه انسانا . ان التضامن امتحان نبيل للخصائص الانسانية وفاعليتها من جهة ، ودفاع عما يهدد نشاطها . ويدرك كثير من الناس في كل انحاء العالم ان معاصرتهم لبؤس المصير الفلسطيني هي شهادة على جريمة ترتكب.وان اللامبالاة تجاه هذه الجريمة هي مساهمة في منحها صفة الشرعية والاقرار البشري ، مما يمهد السبيل امام عملية انقلاب للقيم الانسانية التي تم التوصل الى اقرارها عبر عذاب الحروب والقهر . هذا الانقلاب في التعامل البشري يؤدي الى انقلاب الانسان على ذاته.

وليست هذه الجزيرة اليابانية بعيدة عن مدينة هيروشيما . هل قال أحد ان هيروشيما

لا تعنيه ! ليست للذكرى . هي للمستقبل والحاضر . الشر الاميركي يعلن هويته في كل مكان . والسلام قتال .

— ماذا رايت في هيروشيما ؟

— هيروشيما

هيروشيما ! أنت حبيبتي حقا . الكلام ارتباك . والظل جامد على الحجر . واللحم يتساقط عن الهيكل العظمي ببطء ببطء ببطء كأنه يستغرق دهرا .

— متى يتوقف اللحم البشري عن التساقط ؟

— حين تكف الامبريالية عن التنفس .

هيروشيما ! لاني احبك أخوض حربا . هيروشيما ! لاني اكره الحرب .. أحبك .. هيروشيما ! المطر يهطل . هيروشيما ! هل أقبل هذه الفتاة وأموت ؟ هيروشيما ..دقت ساعة الصفر مليون مرة ، ويريدون أن يزوجوك كلبـــا .. هيروشيما لا أعرفك .. هيروشيما عفوا . هيروشيما ! أنا مواطن فلسطيني . هيروشيما ! لقد بنوك من جديد ، وتغلبت الاشجار على الموت المتعدد في النار والريح والسموم . هيروشيما .. اذهبي الى الفراش لتنامي ، فقد جاء دوري . هيروشيما .. لقد التقوا قنابلهم على اسم بلادي ولم يحترق . هيروشيما .. الذاكرة تحترق من جهة البحـــر .. القلب يحترق من كل الجهات .. والبحر يحترق ، وتعود الذاكرة . هيروشيما : لماذا تمطر .. هيروشيما .. لا شيء .. هيروشيما وداعا .. هيروشيما .

— وماذا قلت يا سيدي عن الشعر ؟

— ليس من الضروري أن يكون كل انسان شاعرا ، ولكن أشد الامور جاذبية في العالم هو أن تعرف كيف تتفاعل مع الشعر .

— وماذا يقول الشعر عن هيروشيما ؟

— أعيدوا الي أبي

أعيدوا أمي

أعيدوا الكبار

أعيدوا الابناء

أعيدوني

أعيدوا النوع البشري

— ما رايك ؟

— سخيف

— لماذا ؟

— لانه قيل في هيروشيما عن هيروشيما

مطر وهيروشيما .. والحياة حقيقية الى درجة القسوة . ولا تستطيع الذاكرة ان تنمو بلا نهاية . انها تحترق من ناحية البحر ، وتنمو من ناحية الاطفال .

أنظر .. هذا هو جبل فوجي المقدس . يصعدونه وهم حفاة ، وينحنون له كأنه اله . وتقول الاسطورة ان هذا الجبل أول ارض وطأتها قدم آدم عندما هبط من الجنة . وجبل

فوجي ذو شكل هرمي مقطوع الرأس ، شديد الارتفاع ، كأن السحاب لا ينزل اليه ، بل يصعد اليه من خاصرته . الحياة تواصل نفسها . والانسان يواصل تربية الطبيعة ، وكأن اليابانيين قد حققوا الانسجام بينهم وبين الطبيعة ، كأنهم صففوا الاشجار ونبات الشاي والازهار بأناقة . كل شيء في طبيعتهم أنيق ومرتب وشديد التهذيب . وتصفيف الازهار علم في اليابان . قابلت سيدة برتبة بروفيسور في تصفيف الازهار . لم أسألها شيئا لئلا افضح جهلي. ولكنها حدثتني عن مئات الطرق التي تدرسها في الجامعة لتصفيف الزهور .

مطر وأزهار . مطر وبوراكو . سنذهب الى شعب البوراكو . لقد أعدوا لنا برنامجا حافلا .

وراح المرافق يحدثنا عن « حركة تحرير البوراكو » . وفروعها في جميع مدن اليابان . والبوراكو طائفة يابانية شبه ملونة يقول قادة حركتها انها تعتبر فئة منبوذة في اليابان . يبلغ عددها ثلاثة ملايين مواطن يعانون من التمييــز وعدم المساواة بينهم وبين سائر فئات الشعب الياباني .

على مدخل البناية ، ألبسونا يافطات حمراء ، وأدخلونا الى قاعة مزدحمة بالشيوخ والشباب والنساء والاطفال . اجتماع تضامــن بين شعب البوراكو وبين الشعوب العربية . كان أحد الاجتماعات الاشد حرارة التي رأيتها في حيــاتي . يصفقون لاسم فلسطين بحماس عربي ، ويهتفون ضد الصهيونية والامبريالية .

تنحصر مطالب البوراكو في المطالبة بالمساواة في الوظائف والعمل والسكن والعلاقة الانسانية . فاليابانيون البيض ، اذا جاز التعبير ، لا يرتاحون من حالات الزواج القليلة التي تحدث بين ابنائهم وأبناء البوراكو . والبوراكو يعيشون حالة نفسية صعبة بسبب عدم ادراك أسباب مقنعة لكونهم غير مندمجين بحياة المجتمع الياباني .

نريد أن نوصل قضيتنا الى المستوى العالمي ــ هكذا يقول قادة حركة البوراكو . وفي احدى الندوات سألني أحدهم عن مدى التلاقي والتشابه بين قضية الشعب الفلسطيني وقضية البوراكو ؟ كان سؤالا محرجا ، تبدأ الاجابة عنه بالاعتذار عن جهل بالاحاطة بقضية البوراكو ، وبتسجيل المبدأ الانساني المطلق بالمساواة بين الشعوب والطوائف . ولكنني أعتقد أن البوراكو يطالبون بالعدالة الاجتماعية ضمن المجتمع الياباني ، بينما الفلسطينيون لا يرفعون مطلب المساواة بينهم وبين المستوطنين الاسرائيليين !. انهــم يطلبون حقهم في وطن احتله غزاة أجانب .

وفي ندوة كبيرة في مدينة اوساكا، كرّست لمناقشة موضوع التمييز العنصري، تحدث ممثلو شعب البوراكو مطولا عن قضيتهم الاجتماعية . وتحدثنا عن المعركة العربية . بيننا هذا التشابه: ان التمييز العنصري هو أحد اشكال الظلم الذي يلحقه نظام الاستبداد بين الشعوب ، وهو مرتبط باستغلال الانسان للانسان الذي تمارسه الرأسمالية . ولذلك ، فان النضال ضد التمييز العنصري هــو في الوقت ذاته نضال سياسي ضــد الرأسمالية والامبريالية . وفي هذا الاطار تقع العلاقة بين الحرية والمساواة . ويمكن تلخيص الكفاح العربي الفلسطيني ضد المؤسسة الصهيونية العنصرية بانه يجمع عدة أهداف في وقت واحد : تحرير الارض ، وتحرير الانسان ، والغاء التمييز العنصري الذي تمارسه الصهيونية ضد العرب الواقعين تحت الاحتلال وضد بعض الطوائف اليهودية . ومن هنا ، تشمل عملية التحرير التي يخوضها الفلسطيني تحرير اليهود أنفسهم مــن القناعة الصهيونية ومن الظلم الصهيوني ، وهو الطريق الوحيد لاندماجهم الايجابي مع شعوب المنطقة العربية .

وفي مدينة أوساكا ذاتها كان الاجتماع الجماهيري الكبير للتضامن مع الشعوب العربية حارا وصادقا الى درجة الفرح . كان مهرجانا سياسيا ــ شعريا ــ فنيا استغرق أربع ساعات صميمية . أيها الاصدقاء : لا يحدث كثيرا ان تتحول القاعات الى قلوب . ولكن ذلك يحدث هنا . اشعر انني جالس في قلب محاط بالصداقة لا بالجدران . وأفكر : كم لغة يحتاج المرء الى التعلم لكي يذوق الحب كله . ولكن ما يعوض عنا هذه الحرقة ايماننا بأن محتوى لغاتنا مفهوم ، ودقات قلوبنا واضحة ، وان الحب لا يحتاج الى ترجمة . وان الدم العربي الفلسطيني الكثير الذي يسيل في ساحات الكفاح من أجل الحرية والتحرر والتقدم مفهوم بكل اللغات . ان أصواتنا هي أصوات هذا الدم . وهذا التضامن الذي نراه هنا يجعل وطن الحرية والانسان أوسع . وأشعر الآن ان وطننا المشترك ــ الوطن الانساني ــ أكبر ، ولا مكان فيه للظلم والعدوان والعنصرية . ونحن على ثقة من اننا سننتصر ضد الامبريالية والعنصرية ، وضد معوقات تلاقي الانسان وتقدم الانسان .

وما رأيك بالمعركة المسلحة التي وقعت بين بعض فصائل المقاومة .. لماذا تقاتلون انفسكم ؟ سألني صحفي ياباني في عز فرحي بجو التضامن مع نضال شعبي .. شعرت بالخجل . ان العالم ينظر الى المقاومة الفلسطينية من الخارج نظرة التقديس ، ويحملها صفات ومسؤوليات كبيرة تكاد ان تكون أكبر منها . فلماذا يصر البعض منا على اعلان العيوب الداخلية ، فتهتز الصورة . من يبلغ الاخوة في المقاومة ان فلسطين القضية .. وفلسطين الارض ليست ملكا لوجهة نظر . انها أكبر وأوسع . وان جمال الوجه الفلسطيني واحد من أسلحة المعركة الفاعلة في الضمير .

مطر وفلسطين . وليس بوسع الكاتب الفلسطيني أن يكون سائحا ، وليس بوسعه أن يكون فردا . انه قضية تمشي . الناس لا تراه حين تنظر اليه ، ولا تسمعه حين تستمع اليه . انها ترى خارطة فلسطين ، وتستمع الى صوت فلسطين . هل رأيتم وطنا يستعبد أبناءه بمثل هذه القسوة . انه وطن يلغي ليكون . يحتل الاسم والملامح . انه وطن يجرف ليستقر . أناني وقديس . واذا كان هذا ما يفعله بأبنائه ، فكيف يهضم أعداءه ؟

« سيدي ! ليست لاسمائنا قيمة . ولكننا قرأنا حديثك في صحيفة « أساهي » عن القمر الفلسطيني الضائع .. القمر القابل للاستعادة كما تقول . اننا نشعر بأن فلسطين قريبة منا . كيف نعبر عن عواطفنا تجاهكم ؟ لا نعرف . اعتبر هذه الرسالة أحد أشكال تعاطفنا معكم . نتمنى لشعبك النصر . ونحن هنا سنفرح كثيرا حين تعثرون على قمركم الضائع . اننا ننتظر انتصاركم . وننتظر عودة القمر الفلسطيني » . الرسالة باللغة اليابانية والتوقيع : قارئات يابانيات .

ــ متى عدت من اليابان ؟

ــ لم أكن في اليابان

ــ أين كنت اذن ؟

ــ كنت مسافرا في الاسم الفلسطيني في آسيا البعيدة . بوذا يجلس في زهرة لوتس والمسيح الفلسطيني يتجول في الارض وفي الزمان .

محاذير الطريق المفتوح بين العرب واميركا

الدكتور سامي منصور

انتهت رحلة الرئيس الامريكي نيكسون للشرق العربي ، والتي بدأت في ١٢ يونيو واستمرت اسبوعا ، زار خلالها مصر والسعودية وسوريا والاردن . هذا بالاضافة الى زيارته لاسرائيل مسجلا اول زيارة لرئيس امريكي الى اسرائيل . وصدر خلال الزيارة بيانان احدهما مع مصر والثاني مع اسرائيل بينما اكتفت الدول الاخرى بتبادل وجهات النظر والكلمات .

والواقع ان رحلة نيكسون الى الوطن العربي تستحق دراسة هادئة ليست من موقع الرفض ولكن من موقع البحث عن المصلحة القومية العربية الواحدة . فليس هناك من يرفض ان تكون العلاقات الامريكية العربية علاقات طبيعية ومفتوحة ، وليس هناك من يرفض عروضا امريكية لمساعدة الدول العربية ، ولكن ، ليس معنى عدم الرفض الا تكون هناك مخاوف او مخاطر من فتح الابواب بلا رقابة او حساب مع الولايات المتحدة الامريكية . وبحكم تاريخ طويل للسياسة الامريكية في الوطن العربي كان لا بد من تسجيل عدد من المحاذير التي لا يجب ان تغيب عن الاذهان عند التعامل العربي مع امريكا .

ولعل اكثر ما يفرض التذكرة والاهتمام بتسجيل هذه المحاذير ، وضرورة ان تكون على مائدة كل مسئول عربي في هذه المرحلة وقوع عدد من الاحداث :

اولا ، ان زيارة الرئيس الامريكي نيكسون والتي تهدف ــ طبقا للبيانات الامريكية الرسمية ــ الى اقرار السلام في الوطن العربي ، قد انتهت بسلسلة من الاعتداءات العسكرية الاسرائيلية على مخيمات اللاجئين . والرابطة بين الحدثين وثيقة . فالاعتداءات بدأت بمجرد سفر نيكسون من اسرائيل ، ومعها تصريحات رسمية اسرائيلية باستمرار الاعتداءات على مخيمات اللاجئين في لبنان ، وكان البيان المشترك الصادر بعد زيارة نيكسون لاسرائيل قد تضمن فقرة تدعو الدول العربية الى وقف تشجيع « الارهاب » الفلسطيني ضد اسرائيل . وانه يجب على كل دولة الامتناع عن تنظيم وتشجيع انشاء قوات غير نظامية او « عصابات مسلحة » او « فرق مرتزقة » للاغارة على اراضي دولة اخرى .

ومعنى ذلك ان نيكسون قد اعطى لاسرائيل تفويضا بضرب الفلسطينيين باعتبارهم في نظر الرئيس الامريكي الذي استقبل بحفاوة في أكثر من عاصمة عربية مجرد «ارهابيين» و«عصابات» و« مرتزقة ». وبالتالي خرج أكثر من مسئول اسرائيلي في مقدمتهم رئيس الوزراء اسحاق رابين ليقول انه ما دام لبنان لا يقوم بمسئوليته من منع تسلل الفلسطينيين عبر حدوده فان اسرائيل تشعر بحرية ضرب قواعد الفدائيين وتجمعاتهم .

وواضح ان نيكسون مستمر في السياسة الامريكية التي تخلط عمدا بين الارهاب والنضال المسلح . وقد حاولت أن تفرض هذه المغالطة الخطيرة على الامم المتحدة في

الدورة ٢٧ للجمعية العامة الا انها فشلت امام صلابة الموقف الافريقي والعربي ، وهي تحاول الان ان تفرض ذلك من خلال العمل الدبلوماسي الثنائي المكثف وابرز امثلته هو البيان المشترك الامريكي الاسرائيلي في اعقاب زيارة نيكسون .

يمكن ان نسجل ونستعرض المواثيق الدولية والمعاهدات التي تسجل حق الشعوب في النضال المسلح ، وهو ما اعترفت به الامم المتحدة رغم كل ظروف العجز التي تفرضها الولايات المتحدة عليها ، الا ان مجرد قبول المناقشة من هذا المنطلق يجعل حق النضال الشعبي المسلح وليد قبول القانون الدولي له او انه نتيجة اقرار معاهدة دولية له ، مع ان الامر على عكس ذلك تماما . فالقانون الدولي ليس مصدر هذا الحق ولا يملك ان يكون مصدره ، ولكن ما يملكه القانون الدولي هو تسجيل واقع هذا الحق . فهو حق مكتسب مثل حق الحياة لا يخلقه قانون وضعي مهما كان مصدره ولكن القانون ينظم حمايته وقدسيته . وبالتالي فمناقشة المغالطة التي سجلها بيان نيكسون ـ رابين هي في الاساس ليست حول حق النضال المسلح ولكنها في توضيح الموقف الاستعماري الامريكي من قضايا التحرر الوطني .

وان كانت الولايات المتحدة تريد معركة المقصود بالارهاب فلن نقول لها انه الارهاب الامريكي في كل مكان من العالم فقط ولا هو العدوان الصهيوني المستمر على شعب فلسطين فحسب بل ان على الولايات المتحدة ان تحدد معنى « العدوان » وهي التي تمنع الامم المتحدة طوال سنوات عشر من الوصول الى تعريف حماية لعدوانها على الشعوب وحماية لاسرائيل لتطبيق المخططات الاستعمارية المشتركة .

ثم ان الحديث عن الارهاب مع انه لا يجب ان يكون مع دولة الارهاب الا انه تجاوز غير مقبول عن الحقائق . فاذا كانت الولايات المتحدة تفهم النضال الفلسطيني على انه ارهاب وعصابات ومرتزقة فكيف يتفق ذلك مع دعوة تحقيق سلام عادل في المنطقة الا اذا كان المقصود بالعدل هنا هو « السلام الامريكي » في المنطقة ، لان بحث اي اعمال عنف يجب ان يبدأ من نقطة المسببات الاساسية لها وبالتالي وضع الحلول العادلة طبقا للحقوق الانسانية والمواثيق الدولية التي لا تحترمها لا الولايات المتحدة ولا اسرائيل . ومجرد تسجيل نيكسون لهذا الوصف يكفي لنسف كل امكانيات الحل لقضية الشرق الاوسط ، كما ينفي اوهام الثقة في نيكسون او اي رئيس امريكي اخر .

وتوصيف الحركة الوطنية الفلسطينية بالارهاب يعني التسليم بضرورة القضاء عليها، لان الارهاب بطبيعته جريمة يعاقب عليها القانون بينما النضال المسلح حق مشروع يحميه القانون . ونيكسون يريد باصرار ضرب الحركة الوطنية الفلسطينية ممثلة في المقاومة وذلك كخطوة اساسية لاقرار سلام امريكي في المنطقة . ونقطة البداية التي تحقق ذلك هي « فصل القوات » على الجبهتين المصرية والسورية بعد مذابح ايلول في الاردن فيصبح الباب مفتوحا لضرب مكثف بلا حماية لمراكز تجمع الشعب الفلسطيني. وبذلك تحقق السياسة الامريكية ـ الصهيونية المشتركة تذويب جسدي جديد لشعب فلسطين ، وكسر وجود العمل الفدائي وتحويله الى أيد تقبل التحرك من خلال مخططات امريكية تحصر القضية في نطاق لا يخرج عن مسألة تعويض لاجئين .

ومع ان البعض يتصور ان الضرب المكثف لمخيمات الفلسطينيين في لبنان يهدد مؤتمر جنيف ، فان الواقع يقول ان الضرب بهدف فتح الطريق لمؤتمر جنيف ولكن بطريقة امريكية . فان فشلت ، وليس هناك ما يحول دون نجاحها حتى الان ، فان اسرائيل تخرج بما ارادت وهي فترة هدوء لسنوات خمس او عشر تعيد فيها بناء نفسها وتستعد

لمعركة جديدة تستعيد بها ما فقدته في حرب اكتوبر . وهو ما سوف تسعى أن تحققه بالمناورة ان عقد مؤتمر جنيف .

هذا الى جانب ان ضرب جنوب لبنان بقدر ما يعيد لاسرائيل هيبتها التي اهتزت في معركة اكتوبر ، يعيد سطوتها التي أصبحت موضع شك حتى من حلفائها. وبذلك تتأكد أول حقيقة صاحبت رحلة الرئيس الامريكي نيكسون الى الشرق العربي وهي أن الولايات المتحدة لم تغير من موقفها فليس المهم ما قبل به نيكسون بل المهم ما يسير عليه الرئيس الامريكي . فصحيح ان الرئيس انور السادات قال له في أول ساعات زيارته لمصر «ان احترام الاماني الوطنية لشعب فلسطين هو جوهر القضية كلها». وصحيح ايضا ان الملك فيصل قال له في السعودية انه « لن يكون في الامكان اقامة سلام دائم ما دامت القدس لم تتحرر ، وما دامت جميع الاراضي العربية المحتلة لم تتحرر ، وما دام الذين طردوا من اراضيهم لم يتمكنوا من العودة الى ديارهم وممارسة حقهم في تقرير المصير » كل ذلك صحيح ولكن نيكسون على حد المثل العربي « ودن من طين وودن من عجين » سمع ونفذ سياسته على الطريقة الامريكية .

ثانيا : ان زيارة نيكسون للمنطقة قد انتهت بموقف اسرائيلي قديم . ومن الصعب تصور ان العودة الى هذا الموقف وليدة ان حكومة رابين تعيش باغلبية صوت واحد وأنه مضطر الى التشدد وارتداء ثوب الصقور . فليست المسألة بهذا القدر من البساطة وانما الحقيقة هي ان اسرائيل اخذت من نيكسون ما يكفي لان تعود الى موقف الهجوم والتحدي . فقد حصلت اسرائيل على سبيل المثال وليس الحصر على وعود امريكية بسلاح جديد تقدر قيمته بحوالي ٥٠٠ مليون دولار ، هذا غير الدعم الاقتصادي والمالي. ويكفي القاء نظرة على اتجاهات تصريحات المسئولين في اسرائيل لتكشف عن حقيقة بارزة وهي أن تصور البعض ــ من العرب ــ بأن اسرائيل راغبة في التوصل الى « سلام عادل » هو نوع من الاوهام او احلام اليقظة او ان معارك اكتوبر قد ادت الى تغيير جذري في سياسة اسرائيل فهو تحليل مبالغ فيه ، كما انه لا يمكن القول ان ما نعلنه اسرائيل هو مجرد التشدد الى حد بعيد حتى اذا ما تراجعت يكون تراجع محدود عن الاهداف الاساسية التي رسمت باتقان بين الحركة الصهيونية والاستعمار الامريكي او بشكل اشمل مع حركة الاستعمار العالمي بقيادة الولايات المتحدة . وابرز ما أعلنه المسئولون في اسرائيل وخاصة اسحاق رابين رئيس الوزراء وشمعون بيريز وزير الدفاع هو : ــ

●● ان اسرائيل لن تعيد مرتفعات الجولان الى سوريا تحت اية شروط . وقال اسحاق رابين بشكل واضح انه حتى في اطار تسوية نهائية لن تستطيع اسرائيل التخلي عن مرتفعات الجولان ، لان عودة السيطرة السورية على هذه الاراضي حتى مع وجود سلام حقيقي سوف يمثل تهديدا استراتيجيا دائما لاسرائيل .

●● ان اسرائيل ترفض قيام دولة فلسطينية حتى على ما تبقى من أرض فلسطين . وقال رابين في اكثر من مرة أنه لا مكان لدولة ثالثة بين اسرائيل والاردن ، لان قيام دولة فلسطينية يكون بمثابة قنبلة ذرية . والحل هو قيام دولة فلسطينية ــ اردنية .

●● ان تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف يكون من خلال الاردن . وقد أعلن شمعون بيريز وزير الدفاع ان تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف يجب ان يكون عن طريق الوفد الاردني ، لان المفاوضين يجب ان يمثلوا دولا لا منظمات . واضاف الى ذلك المنطق اسحاق رابين رئيس الوزراء قوله ان اسرائيل لن تتفاوض ابدا مع الفدائيين ، واذا اراد الاردن ــ وهو بذلك يوصي للاردن بالاسلوب المطلوب ــ ان يضم بعض الفلسطينيين

المعتدلين الى وفد الاردن في مؤتمر جنيف ، فلن تعترض اسرائيل — ! — لان ذلك امــر خاص بالاردن .

وفي هذا الاطار استمرت تصريحات المسئولون في اسرائيل تردد وتؤكد نفس المنطق.

ولست من الذين يعتبرون هذه التصريحات مجرد تعبير عن ازمة حزبية في اسرائيل ولا هي نوع من الضغط الذي قد يصل الى درجة الابتزاز للحصول على مكاسب مـــن الولايات المتحدة التي لم تبخل على اسرائيل بشيء ولا هي في حاجة الى هذا الضغط . وفي اعتقادي ان هذه التصريحات تعكس اتجاها حقيقيا في اسرائيل . ويكفي استدلالا على انه استمرار للوجود العدواني الصهيوني على الارض العربية هو ما قرره مجلس وزراء اسرائيل في الجلسة الطارئة التي عقدها بعد عودة رئيس الوزراء من لندن حيث حضر مؤتمر « الدولية الاشتراكية » ، وبعد عودة وزير الدفاع من رحلة اخذ الاسلحة من الولايات المتحدة ، فقد قرر مجلس الوزراء اتخاذ اجراءات اقتصادية تبدأ من فرض قرض اجباري للدفاع الى ضرائب على الممتلكات بنسبة ٥٪ وضرائب على الســلع الاساسية الكمالية بما يحقق للحكومة عائدا يصل الى حوالي الف مليون دولار تذهــب الى ميزانية الانفاق العسكري .

وقد صرح المتحدث باسم وزارة المالية الاسرائيلية ان قيمة احتياجات امن اسرائيل — الانفاق العسكري — ستصل الــى ٨ الاف مليون دولار خــلال السنوات الثلاث القادمة .

فاذا اضفنا الى ذلك الاتفاق الامريكي الاسرائيلي الذي تــم خــلال زيارة نيكسون لاسرائيل حول الدعم العسكري الامريكي ، لاكتمل خط السياسة الامريكية تجاه العرب. ومع ان الدعم الامريكي غير جديد ، فهو استمرار لدعم عمره اكثر من عمر اسرائيــل نفسها الا ان نيكسون اضاف اليه انه « دعم للمدى الطويل » .

وقد تبع ذلك وتأكيدا له اعلان الخطة الكاملة للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية باقامة ٤٠ مستعمرة جديدة معظمها في الاراضي العربية المحتلة لاستيعاب ٦٠ الف مهاجــر خلال السنوات القادمة . وتوزيع المستعمرات الجديدة في الخطة هو : ٩ مستعمرات في مرتفعات الجولان تكون احداها عاصمة للمنطقة — ٤ مستعمرات بالضفة الغربية — مستعمرة في جنوب غربي القدس — ١٠ مستعمرات بين رفح وجنوب بير سبع — ١٦ مستعمرة في الاراضي المحتلة قبل سنة ١٩٦٧ وخاصة في منطقة الجليل .

ولو لم تحصل اسرائيل على الامان والضمان الامريكي ، والدعم العسكري والمالي منها لما سارعت بعد ايام من عودة نيكسون الى الولايات المتحدة وعودة وزير دفاعهــا من امريكا الى اعلان خطة انشاء المستعمرات الجديدة .

وبالتالي فان الولايات المتحدة تمضي على نفس السياسة الامريكية القديمــة وهي استمرار بقاء اسرائيل كسيف مسلط على رقاب العرب ، تضرب به وقت أن تجــد ان الضرب ضرورة — ! — وخاصة بعد أن أصبح الضرب بقوات امريكية مباشرة مسألة تحتاج الى اكثر من نظرة ، وابعد من حساب واحد ، فالمسألة معقدة وتحتاج الــى تفكير عميق .

ومجرد الاستمرار على هذا الطريق وهو ان يكون لاسرائيل السيطرة العسكرية في المنطقة حتى بعد نتيجة حرب اكتوبر تعني أن « حماقة القوة » التي تحكم الفكر السياسي الامريكي ما زالت هي جوهر السياسة الامريكية في المنطقة العربية ، وهو ما يثير الشك في حقيقة اهداف اي تحرك امريكي ، وخاصة اذا وصل الامر الى حد ان وزير خارجية

دولة عملاقة مثل الولايات المتحدة يترك مكتبه وعاصمته ويبقى في الشرق العربي متنقلا لاكثر من شهر تصبح المسألة ليست رغبة امريكية في انهاء حالة الحرب في الشرق العربي وانما هي بالتأكيد محاولة لفرض « سلام امريكي » على العرب وليس على اسرائيل .. !

ثالثا: فان اضفنا محصلة رحلة نيكسون – كما توضحه البيانات المشتركة والاحاديث – الى ارتباط انتهاء الرحلة بالاعتداء الاسرائيلي المستمر على مخيمات الفلسطينيين في جنوب لبنان ، وبلهجة التحدي والعدوان في تصريحات المسئولين الاسرائيليين لاكتملت لنا صورة الموقف الامريكي – غير المتغير – بعد معركة اكتوبر .

فقد سجل البيان المشترك الذي صدر عن زيارة نيكسون للقاهرة ان العلاقات قد تحولت في العام الماضي من « التباعد » الى « علاقة عمل بناءة » . وان الدولتين قد عقدتا العزم على الانطلاق من هذا بالتحرك هذا العام نحو تحقيق علاقة « صداقة وتعاون واسع » . وبذلك تكون العلاقات قد مرت خلال ثلاث مراحل خلال أشهر ستة ... التباعد ... العمل البناء ... الصداقة والتعاون. ولا بد لنا من دراسة السياسة الامريكية في نفس الفترة ، لتوضيح اذا ما كان قد حدث هذا التطور الدرامي في السياسة الامريكية تجاه العرب خلال أشهر ستة .

واذا كانت الدراسة قد انحصرت في اطار البيان المشترك الصادر مع القاهرة والبيان المشترك الصادر مع تل ابيب فذلك يرجع الى انه لم يصدر غيرهما من وثائق رسمية يمكن الاعتماد عليها . خاصة وان امريكا لم تكن في حاجة الى ورقة مكتوبة من السعودية او الاردن .!

ونظرة على محصلة رحلة نيكسون الى العواصم العربية الاربع ثم الى اسرائيل تؤكد ان السياسة الامريكية بقيت على حالها قبل حرب اكتوبر ودليل ذلك غير صفقات السلاح لاسرائيل والدعم المالي والفعال لها هو :

١ – حرص الرئيس الامريكي نيكسون ووزير خارجيته – كيسنجر – على ان يسجل البيان المشترك مع مصر في مقدمته ان دعم العلاقات بين وشنطن والقاهرة « لا يكون موجها ضد اي دولة بالمنطقة او شعوبها، او ضد اي دولة اخرى ». وهو نص غريب، برغم انه يدخل عادة في معظم البيانات المشتركة بين الدول الا انه في هذه الحالة ليس مجرد تسجيل مبدأ ولكنه تعبير عن موقف . فليس من المتصور ان يكون دعم العلاقات المصرية الامريكية ضد اي دولة عربية في المنطقة او شعب عربي ، لان عروبة مصر مسألة ليست موضع مناقشة وهي فوق أي شبهة او مظنة بشبهة . وبالتالي فهو نص اراد نيكسون ان يخاطب اسرائيل به قبل ان يذهب اليها مؤكدا في بيان مشترك مع مصر ان دعم هذه العلاقات لن يكون على حساب اسرائيل . ومجرد هذه الفقرة تعني ان الموقف الامريكي لم ينتقل الى مرحلة الصداقة بل ولا الى العمل البناء .

٢ – تكوين ٦ مجموعات عمل مصرية امريكية تغطي كل المجالات تقريبا ، لدراسة التعاون في هذه المجالات.وبهذا يكون الجانب الامريكي لم يلزم نفسه بشيء محدد واكتفى بمجموعات تدرس وتسافر وتبحث بما يعطي له وقتا كافيا لضمان استمرار السياسة العربية على الطريق الذي تريده الولايات المتحدة . حتى في المساهمة المالية لم يستطع الرئيس الامريكي وهو أعلى سلطة قرار في امريكا ان يعد بتقديم شيء بل وعد ان يرسل وزير خزانته في القريب العاجل الى مصر لاجراء مباحثات حول المساهمة في دعم البنيان المالي لمصر .

والقريب العاجل هنا يعني شهرا اذ انه موعد زيارة وزير الخزانة الامريكي في ١٤ يوليو — بينما القريب العاجل في العلاقات بين اسرائيل وامريكا كما جاءت في البيان المشترك كانت تعني ٤ أيام فقط حين سافر وزير الدفاع الاسرائيلي الى الولايات المتحدة. والمسألة ليست اياما ولكنها في مدلول ذلك ومضمونه خاصة وان المسألة هي حول نفس الكلمة « العاجل » .

حتى مع السعودية نجد ان الولايات المتحدة كانت اكثر تحديدا حيث اتفق على أن العلاقات تمضي على أسس الاتفاق الذي عقده الامير فهد مع امريكا خلال زيارته لها . وهو ينص على تشكيل خمس مجموعات عمل تشبه مجموعات العمل مع مصر الا ان الاتفاق قد حدد شهر اكتوبر القادم موعدا لاول اجتماع للجنة المشتركة لدراسة تقارير المجموعات الخمس بعد التعاون بين البلدين . أي أن هذه المجموعات لا بد ان تقدم اول تقرير لها قبل اكتوبر ، والمسألة ليست متروكة للزمن .

وقد وضح من كل ما اذيع من بيانات رسمية او اعلامية ان حجم ما سوف تقدمه الولايات المتحدة الى مصر غير محدد القيمة ولا محدد الوقت الذي يقدم فيه . ولعل التحديد الوحيد هو ما ورد في البيان المشترك ونصه الحرفي هو « ان القيمة التقديرية للمشروعات قيد البحث يبلغ أكثر من بليوني دولار ». أما حجم ما سوف تشترك الحكومة الامريكية فيه من هذه المشروعات فهو قيد البحث والبحث يحتاج الى وقت ، والوقت قد يغير الامور او يبدلها ، خاصة وان أجهزة الاعلام الامريكية والعربية المتحالفة مع المصالح الامريكية والمرتبطة بها قد صورت الامر وكأن امريكا قد قررت الاشتراك بالمبلغ كله أي ٢بليون دولار بل وصل الامر الى حد أن أحد رؤساء تحرير صحيفة قاهرية كتب ان امريكا سوف تقدم « بليونا » ثالثة ، اي ان امريكا قدمت بليونين قبل ذلك مع ان هذه المشروعات المطروحة للبحث سوف تشترك في تمويلها اكثر من دولة من بينها قد — وهو تحفظ تفرضه الامانة العلمية — تكون الولايات المتحدة .

٣ — ان البند الخاص بالمفاعلات الذرية الذي اثيرت حوله ضجة هي في اعتقادي مصطنعة ينص على « استعداد الولايات المتحدة لبيع مفاعلات ذرية ووقود ذري لمصر بما يمكن مصر في اوائل الثمانينات (!) ان تبدأ توليد كميات اضافية من القوة الكهربائية».

ان مقابل ذلك نص البيان المشترك الامريكي الاسرائيلي حرفيا على « كخطوة اولى وعاجلة ستعقد الولايات المتحدة واسرائيل اتفاقا مؤقتا خلال هذا الشهر — ! — تزود امريكا بمقتضاه اسرائيل بالوقود الذري » . أي ان ما سوف تقدمه امريكا بعد عشرة اعوام لمصر تقدمه هذا الشهر لاسرائيل . وعلى حد تعبير كيسنجر بعد عودته من هذه الرحلة ان « المسألة ستحتاج على الاقل الى ٧ سنوات يكون السلام خلالها قد تحقق ». فاذا لم يتحقق السلام — الامريكي — فمسألة المفاعل مجرد وعد .

الابعد من ذلك ان مجلة نيوزويك نشرت تعليقا على هذا النص ان فرنسا كانت قد عرضت على مصر تقديم مفاعل ذري في شهر مارس اي قبل زيارة نيكسون بشهرين ولكن عرضها قد رفض . بينما قبل العرض الامريكي وتحت اشراف امريكي . وهو ما كانت امريكا في عهد ايزنهاور تريد تحقيقه باقامة عدة مفاعلات ذرية في المنطقة تكون تحت الاشراف والتنسيق الامريكي الا ان عرضها رفض بسبب هذا الاشراف ولم يتحقق من خطة ايزنهاور الا بناء مفاعلين في اسرائيل . وقامت مصر ببناء مفاعل ذري بدون مساعدة او اشراف امريكي .

وبذلك تكون أمريكا قد وعدت بشيء يمكن الرجوع فيه بينما هي أعطت لاسرائيل ما لا يمكن استرجاعه منها مع ان الفارق سنوات طويلة ، والولايات المتحدة تعلم قبل غيرها

أن مصر ليست في حاجة ملحة الى توليد كهرباء عن طريق مفاعل ذري ولديها كهرباء السد العالي بدون استغلال كامل ومشروع كهرباء منخفض القطاره .

٤ ــ ان الولايات المتحدة سوف تقدم « اقصى مساهمة ممكنة » لمصر دعما لتعاونهما الاقتصادي بما يتمشى مع تفويضات الكونجرس . ومع ان النص مطاط لا التزام فيه الا انه جاء بعد فقرة تنص على ان « الحكومتان وافقتا على تشجيع تكوين مجلس اقتصادي مشترك يضم ممثلين للقطاع الخاص من كل البلدين للتعاون » . ولما كانت امريكا تتبع النظام الرأسمالي وهي قلعته فهي ليست في حاجة الى تذكرة ان المجلس لممثلي القطاع الخاص لان كل نشاطها الاقتصادي قطاع خاص . وبذلك يكون النص مقصود به مصر بالذات وتكون امريكا بذلك قد حددت موقفها لاول مرة بوضوح وهو العمل مع القطاع الخاص . ولما كان القطاع العام في مصر هو المسيطر وهو الحاكم لاغلبية اقتصاديات الدولة فان المساعدة الامريكية في هذا المجال اما سوف تكون لمجال محدود وهو ما يعمل به القطاع الخاص او هو ضد القطاع العام بدعم القطاع الخاص لمنافسة القطاع العام أي لمنافسة البنيان الاساسي لاقتصاديات الدولة ، وكلا الاحتمالين يحتـاج الى بحث ومناقشة .

وفي مواجهة ذلك نجد ان نيكسون قد تعهد لاسرائيل بتقديم المساعدات الاقتصادية وفق تخطيط طويل الامد بين الحكومتين . وتعهـد بأن تواصل الولايات المتحدة وفقـا لتفويض من الكونجرس تزويد اسرائيل بمساعـدات اقتصادية كبيرة تكفي ــ وهنـا التحديد ــ لتعويض النفقات الاحتياطية المترتبة عن استمرار ضمان القوة العسكـرية الاسرائيلية .

٥ ــ وفي السعودية كان رد الرئيس نيكسون على كلمة الملك فيصل التي تحدث فيها عن تحرير القدس فقال « اننا نريد ان نقوم بدور مفيد ، ولكن لـن يكون في امكاننـا استخدام طريقة سحرية لتسوية جميع المشاكل » . ثم دعا الى تسوية مشاكل المنطقة « خطوة بعد اخرى » . وهو نفس المعنى تقريبا الذي قاله نيكسون في دمشق ، بأنه جاء وليس في جيبه مقترحات أو مشروعات .

وان أهم ما قاله نيكسون في السعودية في مؤتمر صحفي قبيل سفره ان الولايات المتحدة والسعودية تتحركان الآن نحو مرحلة من التعاون الوثيق **لم يسبق له مثيل في تاريخ علاقات البلدين ، وانه والملك استكشفا طرقا جديدة للتعاون الثنائي .**

وهي نقطة حيوية أخرى غير ان امريكا مستمرة على موقفها مـن اسرائيل والتغير الوحيد هو زيادة الدعم والحماية لها هي . ان امريكا تعود من جديد الى ما سبق ان عرضه روجرز وزير خارجيتها السابق بأن يكون الحل على مراحل وعلى طريق الاتفاق الثنائي . وما رفض بالامس تنفذه السياسة الامريكية اليوم ، وفي الوقت الذي كان الجسر الجوي يحمل السلاح بلا حدود لاسرائيل وهي تحارب أبناء الامة العربية يعلن نيكسون ان العلاقات الامريكية السعودية في مرحلة تعاون لم يسبق له مثيل في تاريخ علاقات البلدين !..

والواضح ليس فقط ايجاد الحلول من خلال الاتفاقات الثنائية بل ووضع الحواجز والتناقضات بين الدول العربية ودعم التيار الذاتي في كل دولة عربية ، وتعميق الدعوات الانعزالية من خلال الوعود التي وزعها على الحكومات في المنطقة بهدف تعميق ودعم التناقض ومحاولة دفع كل منها في ان تتقوقع في مشاكلها الذاتية وتصوراتها الخاصة في غيبة عن تصور عربي شامل .

وذلك كله يزيد من حجم عدم الثقة في السياسة الامريكية ، فاذا ما اضيف لها تاريخ العلاقات العربية الامريكية لاكتملت كل مبررات العداء . ولست أظن ان تاريخ العلاقات العربية الامريكية في حاجة الى اعادة ، وهي التي مرت بمراحل لجأت فيها الى احتواء العرب ثم عقاب الرافضين للاحتواء ثم استعمال العنف الى حد الحرب . وتعود اليوم الى وسيلة مزدوجة من الاحتواء والعنف معا . ويمكن من خلال هذه المراحل ان نميز غزوات امريكية مميزة عن غزوة حلف بغداد بهدف احتواء الثورة العربية، انتهت بالفشل وبالتالي بالعنف ممثلا في سحب تمويل السد العالي والعدوان الثلاثي على مصر . والغزوة الثانية كانت تحت اسم « مبدأ ايزنهاور » وهو مبدأ الفراغ في المنطقة الذي تريد الحكومة الامريكية أن تشغله ، وانتهت الغزوة أيضا بالفشل وبالعنف بانقلاب داخلي في الاردن على الحكم الوطني واخراج سليمان النابلسي ، والتهديد بغزو سوريا ثم تحريك عملية الانفصال بقمة التآمر على الوحدة العربية مع التركيز على السعودية للقيام بدور الدعوة الى التجمع الاسلامي . ثم تبع ذلك غزوة ثالثة تحت راية الحلف الاسلامي قبل عدوان ١٩٦٧ بعامين . وتأتي اليوم الغزوة الامريكية الجديدة التي يقودها الرئيس نيكسون والدكتـــور هنري كيســنجر وزير الخارجيــة ، وهي من أكثر الغزوات الامريكيـــة التي حققت مكاسب امريكية على حساب الحركة الوطنية العربية ، ووســـط مظاهرة اعلامية مكثفة تضع الولايات المتحدة والرئيس الامريكي نيكسون في موقع المنقذ وكأن الولايات المتحدة لم تكن في يوم من الايام ولا زالت حتى هذه اللحظات ، وسوف تستمر في اعتقادي ، أكبر دعامة عسكرية وسياسية واقتصادية لاسرائيل . واذا كنت اقول انها من أكثر الغزوات الامريكية للشرق العربي نجاحا فيكفي ان نحدد أهداف السياسة الامريكية في المنطقة لندرك مدى نجاح الغزوة . فهي تهدف الى :

- الحصول على ضمان عربي لامن اسرائيل ، وقبول يحقق لها مستقبلا مستقرا مع تصفية الوجود الفلسطيني في اطار مقبول عربيا !..
- فتح المجالات أمام الاستثمارات الامريكية بلا قيود مع ضمان استمرار تدفق البترول العربي بمعدلات متزايدة وبأسعار مقبولة امريكيا ، واستغلال الموارد الطبيعية العربية.
- مساندة ودعم القوى الرجعية العربية وتجميد حركــة الثورة العربية وتعطيـــل فاعليتها .
- محاصرة الوجود السوفييتي ، طالما يتعذر طرده تماما من المنطقة — ولو مرحليا — كما اعترف كيسنجر بحيث يبقى الوجود السوفييتي جزيرة وسط بحر النفوذ الامريكي .
- عزل مصر عن العالم العربي او على الاقل تقليص دورها العربي مع دعم الدور السعودي القيادي فيه .

هذه هي الاهداف الاستراتيجية للسياسة الامريكية في الشرق العربي ، وهي الاهداف الثابتة بحكم أنها جزء من الاستراتيجية للتحرك الاستعماري الامريكي . وهي أهداف لا تتغير الا اذا تغيرت المصالح والاطار العام للعمل .

ويضاف الى الاهداف الاستراتيجية هدف طارىء وهو هدف شخصي مؤقت مرتبط بأزمة نيكسون . وأعني به أن نيكسون يبغي توظيف اي نجاح علـــى طريق الاهداف الاستراتيجية الامريكية لتأمين بقائه رئيسا للولايات المتحدة المدة الباقية له دون محاكمة بسبب فضيحة ووترجيت . وان تصور ان دعم نيكسون في معركته ضد خصومه قد يجعله مدينا للعرب ، وبالتالي يقل انحيازه لاسرائيل هو تجاوز لما هو ممكن ، لان السياسة الامريكية لا يرسمها نيكسون وانما ترسمها دوائر هي في الواقع التي تريد اليوم محاكمته وترى فيه أسوأ رئيس امريكي وأكثرهم التجاء للوسائل غير الاخلاقية . وبالتالي فدعم

نيكسون عربيا هو في نظر هذه الدوائر دعم للفساد والانحلال في امريكا نفسها . الا ان ذلك لا يمنع حقيقة أن نيكسون قد نجح فيما كان يتصور انه معجزة وهو الحصول لامريكا على صداقة الحكومات العربية دون ان يؤثر ذلك على العلاقات الامريكية الاسرائيلية ، بل وعلى العكس تماما ، استمرت السياسة الامريكية في دعم اسرائيل .

ونصل من ذلك كله الى انه رغم العداء الامريكي للعرب ، واستمرار الاهداف الاستراتيجية الامريكية لاستعمار المنطقة والسيطرة على مقاليدها ، الا انه ليس أمام العرب الا حتمية « التعامل » مع الولايات المتحدة . وهي حقيقة لا خلاف عليها ، ولا اعتراض .

والمطروح ليس هو رفض « التعامل » مع الولايات المتحدة وانما هو أخذ عدد من المحاذير موضع الاهتمام بل والتمسك بها ونحن نمضي خطوات طالت او قصرت على طريق التعامل مع نظام الحكم الامريكي . وأبرز هذه المحاذير هو :

١ — ان فتح الابواب للولايات المتحدة مع تناسي كل تاريخها معنا قد يعرض حقوق شعب فلسطين للخطر . ولست أريد أن أسبق الاحداث باقرار ان هذه الحقوق تتعرض اليوم بالفعل للخطر . وأبرز مثال على ذلك توصيف البيان المشترك الاسرائيلي الامريكي للحركة الوطنية الفلسطينية وقيادتها الممثلة في المقاومة بما قيل « عصابات » و«مرتزقة» و« ارهاب » .

وكان أكثر ما وعد به نيكسون هو تنفيذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ الذي لا يحقق شيئا من حقوق شعب فلسطين الا في اطار انها قضية لاجئين . وهو ما تريد امريكا ان تصل اليه من خلال التذويب الجسدي للشعب الفلسطيني على أرض لبنان بعد أن تم ذلك على ايدي الملك حسين في الاردن .

بل ان امريكا حتى في اطار الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي التي احتلتها بعدوان سنة ١٩٦٧ ما زالت تقف عند منطق جزء من الارض وليس كلها . وقد وصل التحدي الامريكي للعرب الى حد ان سجل البيان المشترك مع اسرائيل ضمانا امريكيا لامن اسرائيل ، ولحدود آمنة لها . والصياغة بهذا الشكل تعني ان الحدود السابقة لم تكن حدودا آمنة ، وبالتالي يكون نيكسون قد أكد الخط الذي أعلنه رئيس وزراء اسرائيل الجديد في أول خطاب له أمام الكنيست بأن اسرائيل لا يمكن ان تعود الى حدود ١٩٦٧ .

ثم كيف يمكن ان يتحقق سلام عادل ودائم بينما اسرائيل لا تقبل حتى مجرد الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني ، ولا مناقشته الا من زاوية تعويض محدود للاجئين .

فان استطاعت الدول العربية المحافظة على حقوق شعب فلسطين وهي تمضي على طريق التعاون مع الولايات المتحدة ، فان احدا لا يفكر في التشكيك في الاهداف الاستراتيجية الامريكية او عدم الثقة فيها .

٢ — ضرورة الحفاظ على البنيان الاساسي لكل تجربة عربية . فمؤكدا ان السماح للاستثمارات الاجنبية وخاصة الامريكية بالعمل في مجال البنوك والنقل العام والاسكان واستصلاح الاراضي والزراعة والتعليم يقضي على البنيان الاساسي لكل تجربة ، خاصة وان الولايات المتحدة سوف تتحرك من خلال دعم قطاع خاص . ومجرد ذلك سوف يثير الصراع الطبقي في المنطقة . فشريحة البورجوازية التي تعتمد عليها السياسة الامريكية تريد استعادة حقوقها التي ضاعت مع الاشتراكية ، وهي في عجلة من أمرها فان ذلك سوف يثير الطبقات الكادحة .

فان عادت الولايات المتحدة الى المنطقة العربيـــة دون أن يكون ثمـــن ذلك تفريغ الاشتراكية (التي نفذت في عدد من الدول) من مضمونها وتحويلها الى صورة كاريكاتورية مع تصفية القطاع العام وسط حملة اعلامية مضللة تقودها الاجهزة الاعلامية العميلة تحت أسماء عربية وبأقلام عربية « متأمركة » فكرا وسلوكا بضرب جوهر سياسة القطاع العام والخلط بين خطأ السلوك الفردي في التطبيق وخطأ فلسفة الاشتراكية نفسها . ان تحقق ذلك فليس هناك ضرر من التعامل مع الولايات المتحدة .

٣ ـــ الخوف من أن يكون التعامل الامريكي العربي مؤثرا على الخط المميز للتجربة العربية . فقد كان غريبا ان يتحدث نيكسون في القاهرة بتلميح هو اقرب الى التجريح الى شخص الزعيم جمال عبدالناصر ومع ذلك يجد الترحيب والقبول . وقد يكون لنا تحفظات على فترة حكم عبدالناصر ولكن أن يأتي النقد من الخارج ومن رئيس أمريكي بالذات فهو قطعا يعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية للدول ، خاصة وان هذا التدخـــل ارتبط بظاهرة لا يستطيع أحد أن يجزم ان كانت مجرد مصادفة ام هي وليدة مخطط او نتيجة ضغط . وهي بروز عناصر اليمين الى مواقع العمل العربيـــة في معظم المجالات تقريبا . فان كان ذلك مصادفة فهي في صالح امريكا فان لم تكن لكان الامر خطيرا . خاصة وان هذه العناصر واغلبها من المشهود لهم أنهم من انشط « المتأمركين » حركة في الامة العربية يقومون بحملة ظالمة لتشويه كل ايجابيات التجربة العربية واخفاء كل سلبيات الاستعمار الامريكي مع العرب .

٤ ـــ الحفاظ على تيار الحركة الوطنية العربية دون ان يضرب لصالح اليمين والقوى الرجعية العربية . وأهداف الحركة الوطنية العربية لا تخرج عن الاشتراكية والحرية والوحدة وان اختلفت في ترتيبها . وبالتالي فان دعم التيارات الذاتية والانعزالية في كل دولة هو ضرب لتيار الحركة الوطنية العربية . وضربها لا بد ان يكون في صالح الرجعية العربية أولا ثم في صالح الاستعمار الامريكي واسرائيل في النهاية . فان وجود قطع الاسطول الامريكي في الموانىء العربية ليس موازنة بين موسكو ووشنطن ، لان الامر ان كان خطأ وقع فيه الاتحاد السوفييتي ـــ وهو ليس موضوعنا ـــ فان معاقبته لا تكون بمنح تسهيلات للاسطول الامريكي في اي ميناء عربي وانما تكون بحرمانه من التسهيلات التي يحصل عليها ومساواته في الحرمان مع الاسطول الامريكي الذي كان ولا زال أداة دعم لاسرائيل لضرب الثورة العربية .

ووجود عناصر اليمين والمتأمركين في مواقع العمل الرئيسية في العالم العربي يعني بالحتم ابعاد العناصر الوطنية عن هذه المواقع وبالتالي تحريف المسيرة عـــن طريقها الصحيح لصالح المصالح الامريكية .

٥ ـــ ضمان حصول القوة الضاربة العربية على ما تحتاجه من السلاح وما يكفيها منه لمواجهة الدعم الامريكي الحربي لاسرائيل والذي وعد نيكسون ان يكون علـــى المدى الطويل .

والمعروف ان السلاح يمثل للقوات المسلحة « عقيدة » على حد تعبير العسكريين . وتغيير العقيدة لجيش يحتاج الى سنوات طويلة لا تقل عن ١٠ سنوات. ومصادر السلاح في العالم محدودة واي تغير في العقيدة لا بد ان يكون في اتجاه مصدر مضمون الاستمرار لما يزيد عن ضغط فترة استيعاب العقيدة الجديدة على كل مستويات الجيش اي جيش . ومؤكدا ان امريكا لن تكون هي مصدر السلاح للعرب وان اعطت فهي تقدم ما يعتبـــر متخلفا في مواجهة السلاح المقدم لاسرائيل . هذا الى جانب ان اعتماد التسليح العربي على امريكا مصدر السلاح الاساسي لاسرائيل يعرض الوجود العربي المستقل لخطـــر

الضياع . وتجربة السنوات العشر الماضية خير دليل ، بل وتجربة الاشهر الستة الماضية تكفي وتغني عن أي تعليق .

٦ ــ الحفاظ على الاصدقاء الذين وقفوا مع العرب في اشد الفترات توترا ومثال لهم فرنسا التي تعرضت لنكران عربي غريب أدى الى تغيير وزاري تدخل بعده القدر لينهي حكم انصار العرب واصاب أهداف اوروبا المستقلة لصالح الذين يسعون لجعل أوربا ذيلا للولايات المتحدة . والغريب ان للعرب دورا في هذا التحول الذي سعت اليــه الولايات المتحدة .

وبدون دخول في التفاصيل فان فتح الابواب للتعامل مع الولايات المتحدة لا يجب ان يكون على حساب الاصدقاء ويتكرر مثال فرنسا من جديد ، والا فقد العرب كل الاصدقاء ولن يبقى لهم الا الركوع امام الغزوة الامريكية .

هذه بعض المحاذير التي يجب ان نعمل بجدية وبصدق حتى لا يقع العرب فيها وهم يفتحون الابواب للامريكي القادم . وحتى لا تتحول مكاسب اكتوبر وايجابياته الى مكاسب أمريكية وتضاف الى رصيد السلبيات العربية .

والواقع ان التعامل العربي الامريكي حتى مع الاخذ بهذه المحاذير سوف يتوقف كثيرا على ما سوف يحدث لنيكسون بسبب فضيحة ووترجيت . صحيح ان سياسات الدول وخاصة الكبرى لا تقوم على ارادة أفراد ولكن شخص رئيس الدولة يؤثر الى حد كبير في الشكل الذي توضع به هذه السياسة . ويبدو ان العرب قد قامروا بكل أوراقهم على حصان نيكسون وهو حتى الان الحصان الخاسر ، وان كانت مسألة محاكمته سوف تستغرق وقتا الا أنها واقعة لا مفر منها . وربما يكون الحل الوسط هو تأجيلها لبعض الوقت حتى قرب نهاية مدته . وبالتالي يكون خلالها طوع ارادة اصحاب القرار والمصالح في دوائر الحكم الامريكية .

فان ذلك يضيف بندا جديدا الى محاذير الطريق الا انه في نفس الوقت سوف يؤثر كثيرا على العرب أنفسهم ويومها سوف يجد العرب الجواب على السؤال الذي طرحته الصحافة الامريكية هل السياسة الامريكية هي التي تغيرت ، أم السياسة العربية ؟

التحولات الاستراتيجية في الشرق الاوسط

هشام عبدالله

اعطت الخطوات السياسية التي تلت العمليات الحربية في تشرين الاول ١٩٧٣ ، الانطباع الخاطىء بان هناك تبدلا في سياسة الدول الكبرى ، خاصة الولايات المتحدة ، تجاه دول المنطقة . وان هناك تراجعا من جانب دول المنطقة فيما يتعلق بآمال الدول العربية ، واطماع اسرائيل . الا ان هذا الانطباع الذي عززته بعض الظروف السياسية والحملات الاعلامية ، لا يرتكز على اسس منطقية . فما اعتبر تبدلا في سياسات الدول صاحبة العلاقة في منطقة الشرق الاوسط ، ليس في الحقيقة الا اعادة تقييم لطرق العمل التي اتبعتها هذه الدول . وليست التنازلات او التراجعات سوى تكتيك مرحلي ريثما تتم بلورة سياسة اصح ، وايجاد ظروف انسب . ولا يمكن اعتباره تخليا عن الاهداف الاستراتيجية الاساسية .

ان الخطوط العامة للاستراتيجيات في منطقة الشرق الاوسط ما زالت كما هي . فالكيان الاسرائيلي ما زال قائما يوطد اركانه ويسعى لاستجلاب مزيد من المهاجرين . وما زالت الولايات المتحدة عصب حياة اسرائيل السياسية والاقتصادية والعسكرية . ولا تستطيع الدول العربية من جهة اخرى التخلي عن حقوقها المشروعة في اراضيها ، ولا تسمح شروط اللعبة السياسية الدولية للاتحاد السوفياتي بترك الولايات المتحدة تنفرد بالمنطقة .

وتنبع صعوبة تبديل خطوط هذه الاستراتيجيات من عدة عوامل . فسياسة التوازن، التي اكتشفتها بريطانيا في اوائل عصر النهضة ، ما زالت تفرض نفسها بقوة في المنطقة. وهذه السياسة ، التي اصبح لها اليوم مواصفات تختلف كثيرا عن تلك التي ابتدعها البريطانيون قبل عدة قرون ، تخيم عليها ظلال « الوفاق الدولي » . وهي لم تعد مجرد توازن في القوى بين دولتين متجاورتين او متنافستين . بل هي نتاج لمعادلة معقدة تدخل فيها مصالح الدول الصغرى وحقوقها وامالها . ومصالح الدول الكبرى واطماعها ومراميها . وبعد ان فرض « الرعب النووي » توازنا محكما يصعب على الدول الكبرى تجاوزه ، اصبحت لعبة التوازن صمام امان ومتنفس يحافظ على الوفاق الدولي بابقاء الصراعات محصورة بالصغار دون ان يكتوي بنارها الكبار. كما ان هذه الاستراتيجيات قد فرضتها احداث ضخمة ومصالح كبيرة ، شديدة التباين . وهي استراتيجيات ديناميكية وضعت كل واحدة للرد على الاستراتيجية الاخرى المناهضة . ويفتقر واضعوها الى الثقة في اهداف الاطراف الاخرى المعلنة او غير المعلنة . وفي الاعتقاد بحسن نواياها .

الاستراتيجية الاسرائيلية والمنطق الصهيوني

كانت السياسة الاسرائيلية أكثر سياسات المنطقة تأثرا بحرب تشرين الاول ، الا انها كانت اقلها تبدلا نتيجة لها . فقد انعكست الحرب على الاستراتيجية الاسرائيلية فزادتها تحجرا ، وعلى العقلية الصهيونية فزادتها تطرفا . فبعد التمثيلية الطويلة التي رافقت وصول رابين ، ذي الاتجاه الامريكي ، الى الحكم ، اعتقد الكثيرون بان اسرائيل مقبلة على تغيرات جذرية في سياستها . وثبت هذا الاعتقاد المظاهر الخادعة لتبدل الموقف الامريكي . الا ان هذا التفاؤل لم يكن في محله . فقد اتبعت اسرائيل الخطوات ذاتها التي كانت ستتبعها اية حكومة مهما كانت متطرفة . وكانت خطوات العمل متشابهة مع خطوات الحكومات السابقة ومنسجمة معها. فلم يكد حبر اتفاقية الفصل بين القوات يجف حتى شنت الطائرات الاسرائيلية سلسلة من الهجمات الارهابية على اضعف حلقة في المعسكر العربي (مخيمات اللاجئين في لبنان) فاعادت الى الذاكرة الهجمات الاسرائيلية على القرى العربية في قبية ونحالين وتلقيلية في الخمسينات . وكان من الخطأ الاعتقاد بان سياسة اسرائيل الماضية هي نتيجة تصورات شخصية بحتة للقيادة الاسرائيلية السابقة . صحيح ان التقييمات الشخصية مرتبطة الى حد ما بالقرارات المتخذة . الا أن العامل المؤثر الاكبر في تحديد أية سياسة يبقى المحصلة الناتجة عن اماني اي بلد وطموحاته او اطماعه ، وامكانية تحقيقها على ضوء امكانات الدول ، مقارنة بامكانيات الخصم ، مع اخذ الوضع الدولي ، ووضع البلد الداخلي والنفسي بعين الاعتبار . وعناصر هذه السياسة لم تتغير وان كانت قد اهتزت نتيجة للحرب ، الا ان اهتزازها هذا زاد تشبث الاسرائيليين بها . وهكذا كان لتبدل الاشخاص اثر بسيط على تبدل السياسة الاسرائيلية . والحقيقة ان من الصعب حدوث اي تغيير ، ان لم تتغير القنوات السياسية الاصلية التي حفرتها الاماني ، او الاطماع ، والقدرات والامكانات .

فهل طرأ أي تبدل حقيقي على مجرى السياسة الاسرائيلية ؟ تشمل الاجابة على هذا السؤال عدة نواح عقائدية ، واستراتيجية. وقبل الخوض في الحديث عن هذه النواحي، لا بد من الاشارة الى ان الحرب اثرت على ميزان القوى ، او هي اعطت العرب ثقلا اخر في منطقة الشرق الاوسط وفي العالم . وهذا الثقل الجديد هو الذي ادى الى التراجع الاسرائيلي عن بعض مغانم حرب حزيران ١٩٦٧ . وهو الذي تسعى اسرائيل والسياسة الامريكية الى موازنته . وذلك واضح من تصريحات وزير الدفاع الامريكي الذي قال « ان الولايات المتحدة ستواصل المحافظة على ميزان القوى في الشرق الاوسط »(١). وغني عن القول أن ميزان القوى لا يشمل فقط القوة العسكرية . ومن جهة اخرى فان لدى الاسرائيليين « قناعة مطلقة بان الشيء الوحيد الذي يحول بينهم وبين دمار دولتهم هو الجيش »(٢). اي القوة المادية القادرة على صد القوة العربية والمحافظة على غنائم اسرائيل . ولذلك لا يمكنهم ان يحتملوا اي اختلال في هذا الميزان. وكان من الطبيعي ازاء هذا الوضع ان ترتد اسرائيل الى الاصول التي بنيت عليها . وان تزداد السياسة الاسرائيلية تصلبا . لان اي تهاون معناه الدمار . وكان من الطبيعي ايضا ان ينعكس كل ذلك على طرق العمل الاسرائيلية ، اولا بتأكيد الفكرة الصهيونية ، وحق اليهود في وطن قومي لهم ، والتشبث بمنطق الغزاة . ففي لقاء مع صحافيين امريكيين تحدث وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس عن « الجانب الاخلاقي » من القضية الفلسطينية قال « **صحيح ان العديد من السكان العرب غادروا هذه المنطقة ، الا أنه ليس بالامكان المبادرة بالحرب، ثم تطلب بعد أن تنهزم التعويض من المنتصر** » . ثم اضاف « **ان الجانب الاخلاقي من هذه القضية هو هل يحق للشعب اليهودي ان يكون**

له بلد في العالم ؟ ليس لكونه يحب الاستقلال ، فهذا بحد ذاتـــه ليس بجرم ، ولكن لان الشعب اليهودي متعب من البقاء في المهجر ، فهذه هي القضية الاخلاقية الاساسية »(٣) ويقترن هذا المنطق بجهود صهيونية ضخمة من اجل السماح بهجرة اليهود «المضطهدين، لكونهم يهودا ، في كل مكان من العالم »(٤) كما قال رابين . وتنشيط مشاريع الاستيطان، ولقد صرح شارون « ان الدولة لم تفعل ما يكفي في مجال الاستيطان خلال السنـــوات السبع منذ حرب الايام الستة »(٥) ودعا الى اقامة مستوطنات جديدة في المناطق المحتلة، والى تدعيم المستوطنات الحالية .

اما الخطوة الثانية فهي القضاء على كل سلبيات حرب تشرين الاول ، وتصفية كل الاثار التي خلفتها ، وذلك بايقاف « التنازلات » عند الحد الذي وصلت اليه ، ورفض الانسحاب من باقي الاراضي المحتلة او العودة الى خطوط عام ١٩٦٧ ، لان ذلك هـــو « بمثابة الدعوة الى كارثة »(٦) حسب تعبير وزير خارجية اسرائيل ييغال الون . « ولان هذه الخطوط ليست حدودا يمكن الدفاع عنها ، وهي تشكل اغراء للعدوان كما ثبت من الماضي »(٧) حسب تأكيد رابين . او في الاشارة الى ان خطوط وقف اطلاق النار هـــي خطوط نهائية ، ودق نفير الحرب لان « هناك احتمال معقول في ان يعتبر السوريون فك ارتباط القوات بمثابة وقف اطلاق نار مؤقت »(٨) . وهذه التصريحات وان كانت كمـــا يعتقد البعض للاستهلاك المحلي ، فهي في الحقيقة جزء من تكتيك اسرائيـــل ، واحـــد اعمدة سياستها العامة التي يوضحها بـــيرس بقوله « ان وجهـــة نظـــر العرب من المفاوضات متقلبة ، فهم يريدون ان يحققوا عن طريق المفاوضات الامور التي لم ينجحوا في تحقيقها بواسطة القتال »(٩) . وتفسير هذا القول معنـــاه انه ان لم ينجح العرب في الحصول على ما يريدون عن طريق الحرب ، فلماذا نتخلى عنه عن طريق المفاوضات ؟ ومن هنا نرى ان الحصول على اية مكتسبات من مفاوضات جنيف يبدو بعيد المنـــال ، خاصة وان شليسنجر وزير الدفاع الامريكي قد ابـــدى « تفهما » للموقف الاسرائيلي واشار الى انه « يؤيد حصول اسرائيل على مساعدات عسكرية لمجابهة الاخطار التي قد تواجهها ولكي تستطيع اجراء مفاوضات وهي في وضع مريح »(١٠) . والحقيقـــة ان حصول اسرائيل على هذه المساعدات قبل الشروع في المفاوضات ، يضعف حتى مـــن تأثير الولايات المتحدة على اسرائيل ، ويقلل من امكانية الضغط عليها ، بل انه يعني بحد ذاته انها لا تنوي الضغط على اسرائيل .

وتقضي هذه الخطوة كذلك باسترداد مكانة اسرائيل الدولية ، عن طريق اقنـــاع الزعماء الاوروبيين « بان موقفهم المحابي للعرب لم يعد عليهم بأية فائدة ، وامامهـــم النموذج الامريكي ، فالولايات المتحدة دعمت اسرائيل بصورة كبيرة ودون اية قيود ، وقامت بتزويد اسرائيل بالاسلحة ، وهي بالذات التي قامت بفتح الطريق الى القاهرة ودمشق »(١١) . وقد تكررت هذه المقولة اكثر من مـــرة ، وفي عـــدة مناسبات .

وتأتي اهمية عزلة اسرائيل ، التي كان للسياسة النفطية العربية الاثر الاكبر فيها ، من ان الدول الاوروبية قد بدأت تتقبل وجهة النظر العربية ، وهذا التقبل ادى الى بروز حقوق الفلسطينيين كقضية لها حدود وابعاد ، حتى في الولايات المتحدة . وهو الامر الذي اعتبرته اسرائيل « تحديا بارزا للاعـــلام السياسي الاسرائيلـــي في الولايـــات المتحدة »(١٢) . وقد لا تستطيع اسرائيل على المدى القريب طمس معالم هذه القضية ، او ردم الفارق بين تساؤل غولدا مائير القديم « أين هم الفلســـطينيون اني لا اراهم » . وصراحة جريدة شعاريم الصهيونية عندما تقول « يتوجب علينا ان نوضح للامريكيين انه ليس باستطاعتنا الموافقة على الاعتراف بالفلسطينيين ، فحتى المعتدلون من بينهم يصرحون بان هدفهم هو ابادة دولة اسرائيل »(١٣) . الا ان بامكانهم دون شك طـــرح

الموضوع في لجة المشاريع المختلفة لحل هذه القضية . والتفسيرات المتعددة حول « حقوق » الفلسطينيين المشروعة ، او « المصالح » المشروعة ، كتدبير مرحلي لطمس معالم هذه القضية من جديد .

التوازن العسكري

عشية حرب الايام الستة اطلق موشيه شامير صرخة تعبر عما يعتقده كل اسرائيلي حين قال « **بيننا وبين الموت يقف زاحال وزاحال فقط** »(١٤). واهمية قوة اسرائيل العسكرية ، تتضاءل امامها كل الاعتبارات الاخرى . ولم توفر اسرائيل جهدا ، لا في السابق ولا اليوم ، في الاهتمام بالجيش وخلق المبررات لتقويته وتطويره . وليس هناك في الحقيقة اي تغيير بالنسبة لسياسة الحكومة الاسرائيلية تجاه الجيش . او حول ضرورة بقائه قويا ، او في وجوب حصوله على احدث المعدات . او حتى في المبررات التي يطلقها الزعماء الاسرائيليون بخصوص ذلك . فتصريح شمعون بيرس القائل بأن « الدول العربية ستنفق في الاعوام العشرة المقبلة ٣٠ مليار دولار لشراء الاسلحة ، وسيصبح عدد الجنود في الجيوش العربية نحو ١ر٥ مليون جندي »(١٥). هذا التصريح الذي لا يأخذ في اعتباره حجم القوات التي قد تشارك في اي حرب ضد اسرائيل ، لا يختلف في جوهره كثيرا عن قول زئيف شيف « في أعقاب تزود الدول العربية بمئات طائرات الميغ والسوخوي والتوبوليف كان ميزان القوى العددي مايلي ، طائرات مقاتلة ، لدى العرب ٣ر٥ ضعف ما لدى اسرائيل »(١٦) والمقولات الاسرائيلية الرئيسية التي شاعت قبل حرب تشرين الاول ، من ان اسرائيل القوية هي الضمانة الوحيدة للسلام ، لا تبتعد كثيرا عن تصريح الون القائل « آمل ان تكون الولايات المتحدة قد تعلمت من عبر الماضي ، وايقنت انه لا يوجد تناقض بين وجود اسرائيل وبقائها **قوية** ديمقراطية ، وبين المصالح الامريكية »(١٧). ولقد اتخذت هذه الحجج كذريعة لمضاعفة النفقات العسكرية ، التي ستبلغ ٧ر٥ مليارات من الدولارات خلال السنوات الخمس المقبلة . كمحاولة لتعديل ميزان القوى في الشرق الاوسط الذي اختل بسبب بروز عناصر جديدة لم تأخذها الاستراتيجية الاسرائيلية في الحسبان . فقد عوضت الولايات المتحدة اسرائيل عن كل ما فقدته من اسلحة ومعدات خلال حرب تشرين الاول ، الا ان ذلك لم يكن كافيا . فالتقديرات السابقة للقوة العربية بنيت على اساس ان العرب ليسوا جنودا محاربين ، وانهم غير قادرين على استخدام الاسلحة والمعدات الحديثة الموجود في أيديهم ، لاسباب « حضارية » . ثم ظهر عكس ذلك على مسارح العمليات . واقتضى هذا العامل الجديد تعديل الموازين ، وضبط الحسابات على اساس المعطيات الجديدة . ونظرا لعدم امكانية ضبط الامور عن طريق زيادة حجم القوة الاسرائيلية ، بعد ان بلغت التعبئة لديها حدها الاقصى ، فقد تركزت الجهود عند تحسين نوعية قوتها المسلحة ورفع مستوى قوتها النارية ، وحركيتها وتزويدها بمعدات متفوقة ومتطورة .

وشملت برامج تسليح الجيش الاسرائيلي بعد الحرب ، الحصول على ذخائر متطورة . والسعي للحصول على طائرات هيليكوبتر مسلحة من طراز كوبرا . وبعد ان فقد الطيران الاسرائيلي جزءا كبيرا من تفوقه عمدت اسرائيل الى تقوية دفاعها الجوي فحصلت على صواريخ من طراز شابرال ، ومدافع مضادة للطائرات من طراز فولكان . وهذه الاسلحة مخصصة لمجابهة الطائرات التي تحلق على ارتفاعات متوسطة . كما طلبت من الولايات المتحدة طائرات من طراز « ف ــ ١٤ تومكات » ، الباهظة الثمن وقد وافقت الادارة الامريكية على تزويد اسرائيل بها(١٨).

سباق التسلح

فرضت الخطوات سابقة الذكر سباق تسليح جديد في المنطقة . او بعبارة اصح جددت سباق التسلح القديم . وقد بدأ سباق التسلح الاخير عمليا قبل نهاية الحرب الرابعة بقليل ، حين زودت الولايات المتحدة اسرائيل بصواريخ « تاو » وصواريخ توجه تلفزيونيا من طراز « ما فريك » . وحين تمادت اسرائيل في قصف المدن المصرية ، حصلت القاهرة على صواريخ بعيدة المدى من طراز سكاد في فترة حرب الاستنزاف المصرية التي تلت حرب تشرين الاول ، لتهديد المدن الاسرائيلية . واثناء حرب الاستنزاف السورية ، او حرب الجولان وجبل الشيخ ، تحدثت المصادر الامريكية عن احتمال حصول سورية على طائرات من طراز ميغ ٢٣ ذات الاجنحة المتحركة . ثم تأكد ذلك حين اعلن وزير الدفاع الامريكي شليسنجر ان الاتحاد السوفياتي قد زود سورية بطائرات من طراز ميغ ٢٣(١٩). وذلك تمهيدا للموافقة على تزويد اسرائيل بطائرات من طراز « ف ـ ١٤ تومكات » ويشير هذا الى ان لعبة شد الحبل بين دول منطقة الشرق الاوسط ، التي تشرف عليها الدولتان الاعظمان ، مستمرة كالسابق فليس هناك « تخليا عن المبدأ الاخلاقي الامريكي فيما يتعلق بتوازن القوى في المنطقة »(٢٠) ، ولكن هناك على العكس استمرارا لهذا المبدأ . خاصة وان العمل السياسي الدولي لم يتوصل بعد الى صيغة تدعم موقف اية دولة ، او تردع اية دولة دون احداث توازن في القوى .

واستمرار سباق التسلح كما في السابق يعني ان الاوضاع لن تختلف كثيرا ، وان استراتيجيات المنطقة ستستمر في السير في قنواتها المعتادة . فهو سيحرم دول المنطقة من جني ثمار السلام ، وتحويل جزء من ميزانيات الدفاع الضخمة الى مشاريع التنمية. والواقع ان ميزانيات الدفاع ستتضاعف ، طبقا لاصول سياسة التوازن . فاذا كانت اسرائيل قد ضاعفت ميزانيتها العسكرية فسوف تجد الدول العربية المجاورة لزاما عليها زيادة موازناتها لمجابهة الاعباء الدفاعية التي فرضت عليها . ومن جهة اخرى فان حصول اسرائيل على طائرات من طراز « تومكات » سيجبر مصر على الحصول على طائرات موازية لها ، وهذا بحد ذاته سيكرس استقطاب دول المنطقة ، واعتمادها على مصادر تسليحها الاصلية . وهذا الاستقطاب تفرضه الظروف الموضوعية لا القناعات الشخصية .

وسباق التسلح هو وسيلة الدول الكبرى للبقاء في المنطقة والمحافظة على مصالحها . وقد يبدو القول « بان على الولايات المتحدة ان تؤيد العرب لان مصالحها الحقيقية مع العرب ، على حين تشكل اسرائيل عبئا ثقيلا عليها » صحيحا لاول وهلة . الا انه ليس كذلك في المنظور السياسي الاستعماري الذي يعتقد ان المصالح تؤمن بشكل افضل بوجود قواعد اجنبية ، او كلاب حراسة استعمارية . وليس بعلاقات متكافئة بين الدول . لان العلاقات المتكافئة تفترض تبادلا للمصالح يقوم على اسس سليمة ، وليس على النهب والمبادلات التي لا تعود على الدولة النامية باي نفع حقيقي .

الالتزام الامريكي

على ضوء ما تقدم لم يكن مستغربا ان يكرر الرئيس نيكسون « التزام الولايات المتحدة بضمان امن اسرائيل للمدى البعيد »(٢١) وذلك رغم « الاختلافات العميقة في وجهات النظر بين اسرائيل والولايات المتحدة في مواضيع المناطق والحدود الامنة ، والفلسطينيين ، وشكل اجراء المفاوضات مع الدول العربية »(٢٢) الا ان هذه تبقى خلافات تقنية لا استراتيجية . فقد ازداد حجم الالتزام الامريكي تجاه اسرائيل زيادة لم

يسبق لها مثيل . وقد لخص رابين المجالات التي تحتاج فيها اسرائيل لمساعدة الولايات المتحدة بما يلي : « اولا ، مقدرة على الدفاع الذاتي . ثانيا ، المساعدات المالية . ثالثا ، ردع التحرك السوفياتي في المنطقة . رابعا ، المساعدة السياسية في الحلبة الدولية . خامسا ، مساعدة اسرائيل في مهمتها كدولة يهودية »(٢٣). فاي تغير طرأ على سياسة الولايات المتحدة تجاه حاجات اسرائيل التي ذكرها رابين ؟

في مجال الدفاع ، تعتبر الولايات المتحدة المصدر الاساسي والمركزي لتأمين الاسلحة لاسرائيل . استنادا الى التزام الولايات المتحدة بالمحافظة على ميزان القوى في الشرق الاوسط . وفي السنوات الاربع الاخيرة حصلت اسرائيل على ٤ مليارات دولار من الولايات المتحدة كمساعدة لحاجات الامن(٢٤). وذكرت جريدة واشنطن بوست « ان اسرائيل طلبت مساعدات عسكرية بقيمة ٥ر٧ مليار دولار خلال السنوات الخمس القادمة »(٢٥).

اما في مجال المساعدات الاقتصادية الاخرى فيكفي ذكر راي الاقتصادي الاسرائيلي جولومب حين تحدث في ندوة اذاعية قال فيها « أعتقد ان عجزاً بقيمة ٣ مليارات دولار يحتم علينا السعي للحصول على مساعدة من الولايات المتحدة ، كما يتوجب علينا ان يكون تحركنا السياسي ملائما لوضعنا الاقتصادي ، لانه اذا توقفت الولايات المتحدة عن الدفع فهذا يعني ان اقتصاد الدولة سينهار كليا »(٢٦) فاسرائيل تحصل على مساعدات اقتصادية امريكية في كافة المجالات . وكانت « تحصل على نحو ٢٠٠ مليون دولار سنويا توزع على مجالات الاسكان ، واستيعاب يهود الاتحاد السوفياتي ، وتمويل صفقات شراء الاغذية ، وقد طلبت اسرائيل مضاعفة هذه المساعدات ، وجعلها تصل الى نصف مليار دولار »(٢٧). يضاف الى ما تقدم المساعدة التي حصلت عليها بعد حرب تشرين الاول مباشرة وقيمتها ٢ر٢ مليار دولار . هذا بالاضافة الى تشجيع مبادرات الشركات الامريكية في الاستثمارات الخاصة التي من شأنها زيادة الدعم الاقتصادي لاسرائيل .

اما بالنسبة لردع التحرك السوفياتي في المنطقة . والمساعدة السياسية في الحلبة الدولية . فليس لهما حدود نظرا لانهما ينسجمان مع مصلحة الولايات المتحدة ، التي فعلت الشيء الكثير لتعزيز موقفها في المنطقة وعزل السوفيات منها . اما الدعم السياسي ، فان الولايات المتحدة التي لم تبخل قط بالدعم المادي لاسرائيل فهي لن تبخل حتما بالدعم السياسي . وقد اكد نيكسون اكثر من مرة « ان رغبة الولايات المتحدة بتحسين العلاقات مع الدول العربية لن تؤثر باي حال على صداقة اسرائيل او تأييدها »(٢٨). وذهب نيكسون الى ابعد من ذلك حين اشار « الى ان السوفيات فهموا جيدا ان جو الوفاق لن يستمر على حساب الاصدقاء التقليديين للولايات المتحدة »(٢٩). وفي مجال الهجرة تعهد الرئيس نيكسون في البيان الامريكي الاسرائيلي المشترك « بأن تستمر حكومته بالعمل بجميع الوسائل الممكنة لكي تنفذ المبادىء الانسانية الواردة في معاهدة حقوق الانسان ، في جميع الدول »(٣٠) مشيرا بذلك الى حق المواطنين اليهود السوفيات في الهجرة .

يتضح من مقارنة مطالب رابين ، بالبيان الامريكي — الاسرائيلي المشترك وبالخطوات العملية التي اتبعتها الولايات المتحدة في دعم اسرائيل ان حجم الالتزام الامريكي تجاه اسرائيل قد زاد عما كان عليه قبل حرب تشرين الاول ، وهو لم يختلف حتى فيما يتعلق بالقدس، التي كان لزيارة نيكسون لها، واقامته، واجرائه للمحادثات فيها ، دلالة واضحة . وهكذا فان مصير سياسة الولايات المتحدة الحالية « المتوازنة » لن يكون

افضل من مصير سياستها المتوازنة في الخمسينات . وان كانت هذه السياسة قد نجحت على المدى القصير . فان طريقها المستقبلي محفوف بالمخاطر .

الموقف العربي

بعد توقيع البيان المصري — الاميركي المشترك صرح الرئيس انور السادات قائلا « ان ارادتنا وحدها ليست كافية لصنع السلام ، وانما لا بد ان يدعمها ايمان جميع الاطراف بان ما وقع في ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ، قد انهى الى غير رجعة وهم امكان تحقيق السلام في المنطقة بقوة السلاح ، او فرض الارادة ، وبقدر ما تترسخ القناعة عند جميع الاطراف فاننا نقترب من احلال السلام »(٢١) وهذا القول بالاضافة الى الموقف العربي الذي ما زال متمسكا بضرورة انسحاب الاسرائيليين من كافة الاراضي المحتلة، واستعادة حقوق الفلسطينيين . يشكلان معا الاستراتيجية العربية ، وطريقة العمل للمرحلة المقبلة . فالاستراتيجية العربية في خطها العام ما زالت متصلبة ومتمسكة بمطالبها العادلة . الا انها ترى ضرورة اعطاء الاطراف الاخرى الفرصة لابداء حسن نيتها . وكون الاستراتيجية العربية ملزمة بالرد على الاستراتيجيات الاخرى المناهضة، التي لم تخرج عن خطها القديم ، يجعل من المحتم استمرارها على خطها السابق .

والمعادلة الصعبة التي وضعتها صحيفة يديعوت احرونوت حول موضوع مستقبل السلم في المنطقة والتي تقول « ان الافتراض الاساسي في هذه المرحلة هو ان البلاد العربية لن تكتفي باقل من انسحاب كامل من جميع المناطق التي احتلت في حرب ١٩٦٧ . ولكن أي حكومة مهما كانت حمائمية لا تستطيع التخلي عن المناطق بكاملها »(٢٢) تجعل استمرار كافة الاطراف في استراتيجيتها الماضية امرا محتما . فاذا اضفنا الى ما تقدم حاجة اسرائيل الى الحرب ، لان السلم لا يخدم مصالحها على المدى البعيد ، تصورنا بوضوح ان من الصعب ان تقف اسرائيل مكتوفة الايدي امام تحولات الدول العربية الاقتصادية والسياسية . فهل ستترك الدول العربية المجاورة تزداد قوة وغنى وتطورا دون ان تحرك ساكنا ، وهي تعلم ان ترك الدول العربية وشأنها سيقلب حتما ميزان القوى العربي الاسرائيلي بعد عشرين او ثلاثين عاما ؟

مما تقدم تظهر صعوبة حدوث اي تحول او تغير في استراتيجيات الدول صاحبة العلاقة في المنطقة . فاذا اضفنا الى ذلك ان في العالم ١٤ مليون يهودي « تعبوا من البقاء في المهجر » حسب تعبير وزير الدفاع الاسرائيلي ، تسعى اسرائيل « لاراحتهم » في الاراضي العربية . وعمق المأساة الفلسطينية وشرعية حقوق اللاجئين ، وحق الدول العربية في اراضيها ، وجدنا ان وجهات نظر دول الشرق الاوسط مختلفة تماما . ومن جهة اخرى فان قيام اسرائيل والصراع الذي نتج عنه قد اعطى الدول العظمى مركزا كبيرا ، وخلق لها تواجدا شرعيا في المنطقة ، من الصعب تخليها عنه .

---

١ — ر. أ. أ. ، ١٩٧٤/٦/٢٦ .

٢ — E.B. Glick, *Between Israel and Death,* stacpole books Pensylvania, p. 13.

٣ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٢ .

٤ — ر. أ. أ. ، ١٩٧٤/٦/١٧ .

٥ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٨ .

٦ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٧/٥ .

٧ — معاريف ١٩٧٤/٦/٤ .

٨ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٧ .

٩ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٠ .

١٠ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٦ .

١١ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٧/١ .

١٢ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٨ .

١٣ — صحيفة شعاريم ١٩٧٤/٦/٢٧ .

١٤ — E.B. Glick, *Between Israel and* Death, p. 22.

١٥ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٠ .
١٦ — ملحق هآرتس ، ١٩٧٢/٤/١٤ .
١٧ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٥ .
١٨ — **المحرر** اللبنانية ، ١٩٧٤/٧/٨ .
١٩ — **رويتر** ، ١٩٧٤/٦/٢٦ .
٢٠ — **معاريف** ، ١٩٧٤/٦/١٩ .
٢١ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٧ .
٢٢ — **معاريف** ، ١٩٧٤/٦/١٨ .
٢٣ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٧ .
٢٤ — **المصدر السابق** .
٢٥ — **واشنطن بوست** ، ١٩٧٤/٦/٢٦ .
٢٦ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٩ .
٢٧ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/٢٨ .
٢٨ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٧ .
٢٩ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٧/٤ .
٣٠ — ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٦/١٧ .
٣١ — **وكالات الانباء** ، ١٩٧٤/٦/١٤ .
٣٢ — **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/٦/١٨ .

مخيمات الفلسطينيين
« نظرة سوسيولوجية »

باسم سرحان

لا يرتكز هذا المقال السوسيولوجي على أية دراسة تجريبية وموضوعية لمخيمات الفلسطينيين ، لان دراسة شاملة كهذه غير متوافرة . فالمخيمات الفلسطينية لم تدرس علميا ، ولكن جرت مؤخرا دراسة علمية لمخيم « تل الزعتر » في لبنان قام بها الباحث هاني مندس* بتكليف من مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية . وهذه الدراسة تدرس جانبا اساسيا من المخيم وهو وضع العمل والعمال فيه . كما ان هناك مصدرين احصائيين اساسيين حول المخيمات هما : احصاءات وكالة الغوث التابعة للامم المتحدة (الاونروا) ، واحصاء للقوى العاملة على اساس العينة قامت به مديرية الاحصاء في وزارة التصميم اللبنانية في صيف عام ١٩٧١ (ولم ينشر هذا الاحصاء حتى اليوم) . وسوف نعتمد اعتمادا كبيرا على هذين المصدرين اثناء بحث التوزيع السكاني وجوانب اخرى من حالة المخيمات . ونجد ان من الضروري الاشارة في مستهل المقال الى تحفظنا الشديد حول الاحصاء اللبناني ، الذي يشتمل على درجة عالية من الخطأ الاحصائي في حجم العينة وطريقة اختيارها . ولكن هذا الاحصاء يبقى المصدر الوحيد الذي يعطي صورة عامة او مؤشرا عاما حول وضع مخيمات الفلسطينيين .

وسنتناول في هذا المقال المواضيع التالية : الاوضاع العامة ، الوضع السكاني ، التعليم ، الحالة الاقتصادية ، التركيب الاجتماعي والحياة الاجتماعية ، الحياة السياسية ، والتغيير الاجتماعي . وسوف يعتمد القدر الكبير من بحثنا على الملاحظة المباشرة وغير المباشرة المبنية على معرفة واحتكاك بالمخيمات فترة سنوات عديدة . وسوف يقتصر حديثنا على مخيمات الفلسطينيين في لبنان ، ولكن من المعروف ان الاوضاع المادية والاجتماعية في هذه المخيمات لا تختلف كثيرا عنها في مخيمات غزة وسوريا والضفة الغربية والاردن . وهناك تفاوت بسيط في الاوضاع الحسية للمخيمات في الاقطار المضيفة ، في امور كالمساكن ، والمساحات المتوفرة ، والتجهيزات مثلا . وفي هذا المجال تأتي مخيمات لبنان والضفة الغربية في المحل الاول ، وتليها مخيمات سوريا والاردن ، ثم مخيمات غزة .

الاوضاع العامة

لقد أقيمت مخيمات الفلسطينيين في لبنان اما على قطع محدودة من الارض او على المعسكرات التي هجرها الجيش الفرنسي . وقد كانت اوضاع المخيمات في غاية

* هاني مندس ، **العمل والعمال في المخيم الفلسطيني ، بحث ميداني عن مخيم تل الزعتر** ، مركز الابحاث الفلسطيني ، ١٩٧٤ .

السوء والبؤس في اوائل الخمسينات ومنتصفها ، لكنها استمرت بالتحسن ببطء شديد حتى وصلت الى حالتها الحاضرة والتي يمكن وصفها بـ « سيئة » الى « سيئة جدا » . واذا كان اي فرد يريد ان يتخيل وضع المخيمات في اوائل الخمسينات فما عليه الا ان ينظر الى وضع المخيمات الحاضر ويتصور ان الوصول اليه قد استغرق ٢٥ عاما من « التطور » ! اما التحسن الذي استغرق كل هذه السنين فكان التالي : تمت تغطية معظم ارضية الرمل والتربة بالاسمنت ، تم استبدال الخيم بالاكواخ ثم ببيوت من حجارة الصلصال ، كان كل سكان المخيمات يستعملون المراحيض العامة ، فأصبح الان لدى ٨٠٪ منهم مراحيض خاصة او مشتركة(١)، كان الماء يوزع بواسطة صهاريج الاونروا فأصبح لدى بعض المخيمات شبكة توصل المياه لمعظم البيوت، لم تكن في المخيمات اية مجارير ، فأصبح لدى بعضها الان مجارير مكشوفة فوق الارض تجتذب البعوض والحشرات في الصيف ، ولها رائحة كريهة ، وتفيض في الشتاء ، لم يكن لدى السكان في الماضي من المفروشات ما يزيد على بساط القش وفراش او حرامات للنوم ، فأصبح لدى معظم السكان مفروشات متواضعة نوعيا منها الاسرة والكراسي والكنبات .

وقد حدث كل ذلك « التطور » ضمن قطع الارض المحدودة (لم تتوسع المخيمات الا بمقدار بسيط جدا) ورافقه نمو كبير في عدد السكان . فقد ازداد عدد سكان المخيمات بنسبة اكثر من الضعف خلال ربع القرن الماضي . وقد ادت هذه الزيادة الى ازدحام هائل في المخيمات والى نسبة اكتظاظ سكاني عالية جدا . فالمساحة والتجهيزات المخصصة لعدد معين من السكان اصبحت مستهلكة ومستعملة من قبل ضعفي أو ثلاثة اضعاف ذلك العدد ، فنحن نجد في مخيم الكرامة (قرب بيروت) ان الاونروا قد استأجرت ارض المخيم لاسكان ٥٠٠٠ نسمة ، ولكنه يضم حاليا ١٥٫٠٠٠ نسمة . اما الانتقال الى خارج المخيمات فكان محدودا جدا لانه من الصعب جدا ان لم يكن من المستحيل على سكان المخيمات من الناحية المالية الانتقال للسكن في بيوت في المدن المجاورة . والعدد المحدود من العائلات التي استطاعت تحسين وضعها المالي والانتقال الى خارج المخيم صغير نسبيا لدرجة يمكن معها تجاهله . ومقابل العدد المحدود الذي ترك المخيمات كان هناك تدفق اعداد من اللبنانيين والسوريين الفقراء للاقامة في المخيمات : « يقيم في المخيمات ١١٫٥٠٠ لبناني منهم ٥٥٠٠ من جنوب لبنان ، و ٣٣٠٠ سوري »(٢)، بالاضافة الى تدفق فلسطينيي غزة والضفة الغربية والاردن بعد مذابح عمان في ايلول ١٩٧٠ .

يوجد في لبنان ١٧ مخيما مجموع سكانها ما بين ١٤٠٫٠٠٠ — ١٥٠٫٠٠٠ الف نسمة (حسب تقديرات مدراء المخيمات واشخاص اخرين مطلعين من سكان المخيمات) . ولكن الاحصاء اللبناني واحصاءات الاونروا يعطيان مجموع سكان المخيمات على اساس ١٠٦٫٤٤٠ (مع السكان من غير الفلسطينيين) و ٩٦٫٠٠٠ من السكان الفلسطينيين . ومن المؤكد ان هذين الرقمين غير صحيحين . وقد حصل الخطأ في تقدير عدد سكان المخيمات التالية :

المخيم	الاحصاء اللبناني (١٩٧١)	العدد الفعلي التقريبي
برج البراجنة	٧٤٨٥	١٥٫٠٠٠
نهر البارد	٩٦٦٠	١٦٫٠٠٠

١ — الاحصاء اللبناني ، حزيران ١٩٧١ .

٢ — الاحصاء اللبناني ، ١٩٧١ .

عين الحلوة	١٦٧٥٥	٣٠،٠٠٠
الرشيدية	٩٣٧٥	١٥،٠٠٠
برج الشمالي	٦٧٦٥	١٢،٠٠٠

وترجع الزيادة في عدد سكان هذه المخيمات الى الاسباب التاليـــة : ١ ـــ سياسة الوكالة القائمة على تشطيب الفئة N من سجلاتها . ٢ ـــ عدم الدقة في تسجيل المواليد الجدد دون الست سنوات . ٣ ـــ تسجيل الفلسطينيين في المخيمات حسب مكان تناول الاعاشة الاصلي وليس حسب التواجد المعيشي يضاف الى ذلك قدوم عدد قليل مـــن الفلسطينيين في الضفة الغربية والقطاع الى المخيمات وخاصة بعد ايلول ١٩٧٠ ، وهؤلاء لم يتم تسجيلهم او احصاؤهم رسميا .

أ ـــ **البيوت** . يظهر الاحصاء اللبناني ان متوسط ستة او سبعة افراد يعيشون في مسكن واحد لا يتجاوز الغرفتين ، ولا تتجاوز مساحته ٨٠ م٢ (في ٨٨٫٣٪ من البيوت). واذا طبقنا المقاييس الفرنسية للكثافة السكانية على الحالة المذكورة نجد ان ٨٨٫٥٪ من سكان المخيمات يعيشون في بيوت شديدة الازدحام . وتشكل البيوت الشديدة الازدحام ٧٦٫٠٪ من عدد البيوت المأهولة في المخيمات (راجع جدول رقم ١ ورقم ٢) .

جدول رقم ١

عدد المساكن والمقيمين ومتوسط عدد الغرف والمقيمين في الغرفة بالنسبة الى مساحة المسكن

مساحة المسكن بالمتر المربع	عدد الغرف بالمسكن	المســـــاكن: العدد	المســـــاكن: ٪	المقيمـــــون: العدد	المقيمـــــون: ٪	العدد المتوسط للمقيمين: بالمسكن	العدد المتوسط للمقيمين: بالغرفة
أقل من ٣٠	١،٣	٥٣٨٥	٣٤،١	٢٧٣٦٠	٢٥،٧	٥،١	٤،١
٣٠ — ٨٠	٢،٠	٨٩٤٠	٥٦،٦	٦٦٦٤٥	٦٢،٦	٧،٥	٣،٧
٨٠ — ١٢٠	٣،٣	٣٢٠	٨،٣	١٠٧٧٠	١٠،١	٨،٣	٢،٥
١٢٠ او اكثر	٦،٠	٧٥	٠،٥	٨٢٥	٠،٨	١١،٠	١،٨
غير معين	٢،٢	٧٥	٠،٥	٩٩٠	١،٠	١١،٣	٥،١
جميع المساحات	١،٩	١٥٧٩٥	١٠٠،٠	١٠٦٤٤٠	١٠٠،٠	٦،٧	٣،٥

يظهر الجدول رقم ١ ان ٩٠٪ من البيوت تضم غرفتين او اقل وان ٤ اشخـــاص يعيشون في كل غرفة في هذه البيوت . كما يظهر ان في ٠٫٥٪ من البيوت فقط يسكـــن شخصان (١٫٨) في الغرفة الواحدة ، وان في ٨٫٣٪ من البيوت فقط يعيش معـــدل شخصين ونصف (٢٫٥) في الغرفة الواحدة .

جدول رقم ٢

توزيع عدد المساكن والمقيمين ومتوسط عدد المقيمين في المسكن وفي الغرفة بحسب عدد الغرف في المسكن

	مساكن		مقيمون		متوسط عدد المقيمين	
عدد الغرف	عدد	٪	عدد	٪	في المسكن	في الغرفة
١	٦٣٦٠	٤٠،٣	٣١٤٤٠	٢٩،٥	٤،٩	٤،٩
٢	٦١٥٠	٣٨،٩	٤٣٣٢٠	٤٠،٧	٧،٠	٣،٥
٣	٢٣٥٥	١٤،٩	٢٠٨٩٥	١٩،٦	٨،٩	٣،٠
٤	٦٠٥	٣،٩	٦٣٣٠	٥،٩	١٠،٣	٢،٦
٥ واكثر	٢٦٠	١،٧	٤٠٣٥	٣،٧	١٥،٥	٢،٤
غير معين	٤٥	٠،٣	٤٢٠	٠،٦	٩،٣	٠،٠
المجموع	١٥٧٩٥	١٠٠،٠	١٠٦٤٤٠	١٠٠،٠	٦،٧	٣،٥

أما جدول رقم ٢ فيظهر ان ٣ر٤٠٪ من البيوت تتألف من غرفة واحدة فقط ويسكن فيها متوسط خمسة اشخاص ، وان ٩ر٣٨٪ من البيوت تتألف من غرفتين . وفي المقابل تتألف ٩ر١٤٪ من البيوت من ثلاث غرف ، و ٩ر٣٪ من اربع غرف . وهذه الارقام لا تحتاج الى توضيح وتحليل .

ب) **التجهيزات** . ان نوعية التجهيزات في المخيمات الفلسطينية نوعية متدنية جدا . وهناك بعض التجهيزات الاساسية غير المتوافرة كالحمامات ، او غير المريحة كبيوت الخلاء . ويظهر الاحصاء اللبناني ان ٨ر٨٥٪ من البيوت في المخيمات لا تشتمل على حمامات مقابل ٨ر١١٪ . كما يظهر ان ٨ر٥٩٪ من البيوت لا تصلها المياه . اما بيوت الخلاء فمتوافرة في ٣ر٣٩٪ من البيوت ، وهي مشتركة في ٧ر٤٠٪ من البيوت ، وهي غير متوافرة في ٥ر١٩٪ من البيوت . ولدى معظم البيوت (٨ر٨١٪) مطابخ ، وتتوافر الكهرباء في ٦ر٦٦٪ منها . اما التدفئة المركزية فغير متوافرة اطلاقا ، ولكن ٠ر٥٨٪ من البيوت تستعمل وسائل بدائية للتدفئة او دفايات الغاز . اما الهاتف فغير متوافر اطلاقا . ويظهر الاحصاء اللبناني ان ١ر٠٪ من البيوت لديها هاتف لكن في الواقع هذه البيوت تستعمل ايضا كدكاكين (راجع جدول رقم ٣) .

الوضع السكاني

عرض الاحصاء اللبناني الخصائص الديموغرافية لسكان المخيمات طبقا للسن والجنس ، ثم طبقا للسن والجنس والحالة الزوجية . كما اعطى الاحصاء جدولا حول المعاقين جسديا طبقا لنوع الاعاقة والجنس .

ان الملاحظة الاساسية التي نستخلصها من الاحصاء اللبناني حول توزيع السكان حسب الاعمار هي ان سكان المخيمات اجمالا غير متقدمين في السن : فنحن نجد ان ١٠ر٦٤٪ منهم يقعون ضمن فئة العمر ١ — ١٩ سنة ، مقابل ٠ر٨٪ منهم فقط يقعون ضمن فئة العمر ٥٠ سنة او اكثر . اما بقية السكان (٦ر٢٧٪) فيقعون ضمن فئة

جـــدول رقم ٣

توزيع المساكن بحسب توافر مختلف وسائل الراحة
التوزيع بالنسبة المئوية

وسائل الراحة	موجود وخاص بالمسكن	مشترك مع مساكن اخرى او خارجي	غير موجود	غير معين	المجموع
مطبخ	٨١،٨		١٨،٠	٠،٢	١٠٠،٠
حمام	١١،٨		٨٥،٨	٢،٤	١٠٠،٠
بيت خـــلاء	٣٩،٣	٤٠،٧	١٩،٥	٠،٥	١٠٠،٠
كهربـــــاء	٦٦،٦		٣٣،٣	٠،١	١٠٠،٠
ميـــاه جارية	٤٠،٠		٥٩،٨	٠،٢	١٠٠،٠
هـــاتـــف	٠،١	٠،١	٩٨،١	١،٧	١٠٠،٠
تدفئـــــة	٥٨،٠		٤٠،٤	١،٦	١٠٠،٠

العمر ٢٠ ــ ٤٩ سنة . واذا كانت دورة العمر في المخيمات ٥٥ عاما فمن المتوقـــع ان يكون نصف السكان ضمن فئة العمر ١ ــ ٢٧ عاما والنصف الاخر ضمن الفئة ٢٨ــ٥٥ عاما . ولكننا نجد ٧٠،٨٪ من السكان يقعون ضمن الفئة الاولى (راجع جدول رقـــم ٤) . ونحن نعتقد ان شباب الفلسطينيين يشكل عاملا اساسيا وهاما لصالح حـــرب التحرير الشعبية طويلة الامد ضد اسرائيل . وهذه الحقيقة ــ وهـــي نتيجة لارتفاع معدل الولادات ، تخيف اسرائيل . ولم يتردد زعمـــاء اسرائيل في مناسبات مختلفة في الاعراب عن مخاوفهم من الزيادة الكبيرة في عدد الفلسطينيين . وقد عمدت اسرائيل عن سابق قصد وتصميم الى محاولة تخفيف نسبة الولادات العربية في فلسطين المحتلة من خلال القيام بحملات « توعية » للاهالي ، ومن خلال توفير وسائل منع الحمل مجانـــا او بأسعار رخيصة جدا .

جدول رقم ٤
توزيع المقيمين بحسب العمر والجنس

العمـــــر	ذكور	اناث	مجموع	النسبـــــة المـــئويـــة: ذكور	اناث	مجموع
أقل من سنة واحدة	٢١٤٥	١٩٠٥	٤٠٥٠	٢،٩	٣،٧	٣،٧
١ ــ ٤	٩٨٤٠	٨٧٧٥	١٨٦١٥	١٨،٠	١٧،٠	١٧،٥
٥ ــ ٩	١٠١١٠	٩٢٢٥	١٩٣٣٥	١٨،٥	١٧،٩	١٨،٢
١٠ ــ ١٤	٧٤٢٥	٧٧٤٠	١٥١٦٥	١٣،٦	١٥،٠	١٤،٢
١٥ ــ ١٩	٦٠٣٠	٥٢٠٥	١١٢٣٥	١١،٠	١٠،١	١٠،٦
٢٠ ــ ٢٤	٣٧٥٠	٣٤٠٥	٧١٥٥	٦،٨	٦،٦	٦،٧
٢٥ ــ ٢٩	٢٧٤٥	٣٢٢٥	٥٩٧٠	٥،٠	٦،٢	٥،٦
٣٠ ــ ٣٤	٢٦١٠	٢٦٧٠	٥٢٨٠	٤،٨	٥،٢	٥،٠
٣٥ ــ ٣٩	١٨٩٠	٢١٦٠	٤٠٥٠	٣،٤	٤،٢	٣،٨
٤٠ ــ ٤٤	١٩٣٥	١٧٤٠	٣٦٧٥	٣،٥	٣،٤	٣،٥

٤٥ — ٤٩	١٦٦٥	١٥١٥	٣١٨٠	٣،٠	٢،٩	٣،٠
٥٠ — ٥٤	١٠٣٥	٧٩٥	١٨٣٠	١،٩	١،٥	١،٧
٥٥ — ٥٩	٧٠٥	٦٩٠	١٣٩٥	١،٣	١،٣	١،٣
٦٠ — ٦٤	٧٦٥	٦٤٥	١٤١٠	١،٤	٢،٢	١،٣
٦٥ — ٦٩	٦١٥	٤٩٥	١١١٠	١،٠	١،٠	١،٠
٧٠ واكثر	١٤٨٥	١٤٤٠	٢٩٢٥	٢،٧	٢،٨	٢،٧
غير معين	٤٥	١٥	٦٠	٠،١	—	٠،١
المجموع	٥٤٧٩٥	٥١٦٤٥	١٠٦٤٤٠	١٠٠،٠	١٠٠،٠	١٠٠،٠

ان معدل سن الزواج في المخيمات الفلسطينية مبكر نسبيا : ٥ر٢٤ سنة للرجال و ٦ر٢١ سنة للنساء . اما العزوبية الدائمة فغير موجودة تقريبا في المخيمات ، ولكن نظرا ليفاعة السكان فان نسبة العزوبية مرتفعة ٨ر٧٠٪ للرجال و ٤ر٦٤٪ للنساء . وكما هو متوقع ، كلما ازداد العمر انخفضت نسبة العزوبية . اما النسبة الحقيقية للعزوبية للذين في سن الزواج (٢٠ سنة او اكثر للذكور و١٥ سنة او اكثر للاناث) فهي ٧ر١٧٪ و ٣ر٢٤٪ تباعا . وهذا يعني ان معدل العزوبية السكان في سن الزواج هو ٠ر٢١٪ (راجع جدول رقم ٥) . اما الحقيقة الاخرى التي يظهرها جدول رقم ٥ فهي النسبة المتدنية او المتدنية جدا للطلاق بين سكان المخيمات . فالجدول يظهر عدم وجود أية حالة طلاق بين الذكور المتزوجين والذين تتراوح اعمارهم ما بين ١٥ و٣٩ عاما . اما نسبة المطلقات بين الاناث اللواتي تتراوح اعمارهن ما بين ١٠ و ٣٩ عاما مقارنة مع نسبة المتزوجات منهن فتبلغ ٠ر٧٪ . وتدل هذه الحقيقة على استقرار أو ثبات الزيجات المرتبة اجتماعيا . وعلى فعالية الارتباطات الاجتماعية والضغوط العائلية في منع تفسخ الزيجات القائمة .

جدول رقم ٥

توزيع المقيمين بحسب الجنس والعمر والحالة الزوجية

ذكـــور

فئات العمر	عازبون	متزوجون	مطلقون أو غيرهم		المجموع	نسبة العزوبية %
— — ١٤	٢٩٥٢٠	—	—	—	٢٩٥٢٠	١٠٠،٠
١٥ — ١٩	٥٩٢٠	١٠٥	—	—	٦٠٣٠	٩٨،٣
٢٠ — ٢٤	٢٣٧٠	١٣٥٠	—	٣٠	٣٧٥٠	٦٣،٢
٢٥ — ٢٩	٦٣٠	٢١٠٠	—	١٥	٢٧٤٥	٢٣،٠
٣٠ — ٣٤	١٨٠	٢٤٣٠	—	—	٢٦١٠	٦،٩
٣٥ — ٣٩	٧٥	١٨٠٠	—	١٥	١٨٩٠	٤،٠
٤٠ — ٤٤	٤٥	١٨٧٥	١٥	—	١٩٣٥	٢،٣
٤٥ — ٤٩	٤٥	١٦٠٥	١٥	—	١٦٦٥	٢،٧
٥٠ واكثر	٦٠	٤١٧٠	٣٦٠	١٥	٤٦٠٥	١،٣
غير معين	٤٥	—	—	—	٤٥	٠،٠
المجموع	٣٨٨٩٥	١٥٤٣٥	٣٩٠	٧٥	٥٤٧٩٥	٧٠،٨

انـــاث

— — ٩	١٩٩٠٥	—	—	—	١٩٩٠٥	١٠٠،٠
١٠ — ١٤	٧٦٠٥	١٢٠	١٥	—	٧٧٤٠	٩٨،٣
١٥ — ١٩	٣٩٤٥	١٢٦٠	—	—	٥٢٠٥	٧٥،٨
٢٠ — ٢٤	١١٨٥	٢١٩٠	١٥	١٥	٣٤٠٥	٣٤،٨
٢٥ — ٢٩	٣٦٠	٢٧٩٠	١٥	٦٠	٣٢٢٥	١١،٢
٣٠ — ٣٤	١٦٥	٢٤٤٥	٤٥	١٥	٢٦٧٠	٦،٢
٣٥ — ٣٩	٧٥	١٩٨٠	٧٥	٣٠	٢١٦٠	٣،٥
٤٠ — ٤٤	١٥	١٥٣٠	١٩٥	—	١٧٤٠	٠،٩
٤٥ — ٤٩	—	١٢٧٥	٢٢٥	١٥	١٥١٥	—
٥٠ وأكـــثر	٧٥	٢٤٤٥	١٥٠٠	٤٥	٣٩٦٥	١،٩
غـــير معـــين	—	—	١٥	—	١٥	٠،٠
المجمـــــوع	٣٢٢٢٠	١٦٠٣٥	٢١٠٠	١١٨٠	٥١٦٤٥	٦٤،٤

لقد ظهر من الاحصاء اللبناني ان نسبة المعاقين جسديا في المخيمات اعلى قليلا منهـــا بين اللبنانيين : كانت النسبة ٣ر٢ ٪ للمخيمات مقابل ٤ر١ ٪ للبنانيين . غير ان الاحصاء اللبناني نفسه حذر من ان حجم العينة ١/١٥ ليس كافيا لتأكيد ان هذا الفارق حقيقي . او لتحليل خصائص المعاقين بتفصيل اكثر . وبالتالي فان جدول رقم ٦ يعطي صورة عامة للمعاقين طبقا للجنس . كذلك فان ٥٩ر٠ ٪ من الاجابات حول حالات الاعاقة لم تكـــن دقيقة مما يزيد في صعوبة تفسير النتائج (راجع جدول رقم ٦) .

جدول رقم ٦

عدد المعاقين جسديا موزعين بحسب نوع الاعاقة والجنس

نوع الاعاقة	ذكور	اناث	مجموع	٪
صـــم وبكم	٧٥	٧٥	١٥٠	٦،٠
عميـــــان	٩٠	١٦٥	٢٥٥	١٠،٣
مشلولون بأحد الاعضاء	٢١٠	١٥٠	٣٦٠	١٤،٥
متأخرون عقليا	١٩٥	٦٠	٢٥٥	١٠،٢
معاقون آخرون	٩١٥	٥٥٥	١٤٧٠	٥٩،٠
المجمـــــوع	١٤/٥	١٠٠٥	٢٤٩٠	١٠٠،٠

التعليـــم

ان تعليم الفلسطينيين حتى نهاية المستوى الاعدادي مسؤولية الاونروا (٦ سنوات تعليم ابتدائي و ٤ سنوات تعليم اعدادي) . اما عـــلى المستـــوى الثانوي (سنتان) فالانروا مسؤولة فقط عن توفير جزء من التكاليف (٢٢٥ ل.ل. سنويا) للفلسطينيين الذين يتابعون دراستهم في المدارس الخاصة . ولا يجري قبول الفلسطينيين في المدارس الحكومية او العامة في لبنان . ولكن المدارس الحكومية او العامـــة في مصر وسوريـــا والعراق والاردن تقبلهم في كافة مراحلها التعليمية . وكانت الكويت تقبل كافة التلاميذ

الفلسطينيين المقيمين عندها في مدارسها العامة ، غير ان نصف التلاميذ الفلسطينيين في الكويت حاليا (١٦ر٠٠٠ تلميذ) يدرسون في مدارس منظمة التحرير الفلسطينية . وهذه المدارس تستعمل ابنية المدارس الحكومية الكويتية بعد انتهاء الدوام (بعد الظهر)، كما تقوم الحكومة الكويتية بسد عجزها المالي كل عام .

اما على المستوى الجامعي فتقوم الاونروا بتوفير عدد محدود جدا من المنح الجامعية للطلاب المتفوقين .

وسنبحث في هذا الجزء مسألتين : أ) الوضع التعليمي العام في مخيمات الفلسطينيين ، اي الارقام الاجمالية ، وارقام خدمات الاونروا التعليمية . ب) تقييم نوعية التعليم الذي يحصل عليه الفلسطينيون ، خاصة في ظل نظام الاونروا التعليمي .

أ) **الوضع التعليمي العام** . يوفر الاحصاء اللبناني ارقاما عامة حول الحالة التعليمية ، بينما تعطي احصاءات الاونروا ارقاما عامة ومفصلة حول الانتساب للمدارس .

يظهر الاحصاء اللبناني ان نسبة الاميين في مخيمات الفلسطينيين تبلغ ٥٨ر٤ ٪ . ونحن نميل الى اعتبار هذه النسبة مرتفعة قليلا ، خاصة وان الاحصاء يحدد نسبة الامية بين فئة العمر ٦ — ٩ على اساس ٤٨ر٦ ٪ . بينما تحدد احصاءات الاونروا الاكثر دقة نسبة الامية لنفس فئة العمر على اساس ١٧ر٠ ٪ . والامية تامة تقريبا في فئة العمر ١ — ٥ سنوات (لان الاونروا لا تقبل التلاميذ بهذا العمر في مدارسها) وفي فئة العمر ٧٠ او اكثر . ونلاحظ من الارقام المعطاة ان هناك علاقة بين الامية والسن بالاتجاه التالي : كلما كبر السن كانت نسبة الامية اعلى . وهذه الحقيقة ترجع الى ان المدارس كانت متوافرة لاقلية من السكان في الماضي ، ولان عددا قليلا من الفلسطينيين كانوا يهتمون بارسال اولادهم الى المدارس قبل النكبة . فقد كان معظم سكان فلسطين من الفلاحين ، وبالتالي كانوا يفضلون ان يعمل ابناؤهم معهم في زراعة الارض .

اما الحقيقة الاخرى التي تظهرها الاحصاءات فهي ان المستوى التعليمي لسكان المخيمات متدن بشكل عام . فمعظم سكان المخيمات لم يتجاوزوا المرحلة الابتدائية : فان ٧٦٠٢٠ شخصا منهم يتراوحون ما بين « لم يتلقوا اي تعليم » و « تلقوا تعليما ابتدائيا » . وفي المقابل نجد ان ٢٣١٠ اشخاص قد انهوا المرحلة الاعدادية ، وان ١٠٢٠ شخصا فقط قد انهوا المرحلة الثانوية ، وان ٣٠٠ شخص فقط قد انهوا المرحلة الجامعية .

ويظهر الاحصاء اللبناني ايضا ان الامية منتشرة ايضا بين الاناث اكثر منها بين الذكور : نسبة الامية بين الاناث ٦٨ر٧ ٪ ، ونسبتها بين الذكور ٤٨ر٧ ٪ . وهذا ايضا متوقع نظرا لمعارضة المجتمع الشديدة في الماضي لتعليم الاناث (راجع جدول رقم ٧) .

جدول رقم ٧ (أ)

عدد المقيمين بحسب الجنس والعمر والمستوى التعليمي

الـذكور

العمر	لم يحصلوا على تعليم	دون الابتدائي	ابتدائي	تكميلي	ثانوي	جامعي	المجموع	نسبة الاميين
٠ — ٥	١٤٠٨٥	٧٥	—	—	—	—	١٤١٦٠	٩٩،٥
٦ — ٩	٣٣٩٠	٤٥١٥	٣٠	—	—	—	٧٩٣٥	٤٢،٧

١٠ — ١٤	٤٦٥	٤٦٥٠	٢١٩٠	١٢٠	—	—	٧٤٢٥	٦،٣
١٥ — ١٩	٥٥٥	١٩٣٥	٢٣٤٠	١٠٦٥	١٣٥	—	٦٠٣٠	٩،٢
٢٠ — ٢٤	٤٥٠	١٥٦٠	٧٣٥	٤٨٠	٤٩٥	٣٠	٣٧٥٠	١٢،٠
٢٥ — ٢٩	٦٩٠	١١٤٠	٤٢٠	١٥٠	٢٢٥	١٢٠	٢٧٤٥	٢٥،١
٣٠ — ٣٤	١٠٦٥	١٢٠٠	١٦٥	٣٠	٤٥	١٠٥	٢٦١٠	٤٠،٨
٣٥ — ٣٩	٦٩٠	١٠٣٥	٧٥	٤٥	٣٠	١٥	١٨٩٠	٣٦،٥
٤٠ — ٤٤	٨٨٥	٩٦٠	٩٠	—	—	—	١٩٣٥	٤٥،٧
٤٥ — ٤٩	٨٧٠	٧٢٠	٦٠	—	١٥	—	١٦٦٥	٥٢،٣
٥٠ — ٥٤	٦٩٠	٣١٥	١٥	١٥	—	—	١٠٣٥	٦٦،٧
٥٥ — ٥٩	٤٦٥	٢٢٥	١٥	—	—	—	٧٠٥	٦٦،٠
٦٠ — ٦٤	٥٧٠	١٩٥	—	—	—	—	٧٦٥	٧٤،٥
٦٥ — ٦٩	٤٨٠	١٢٥	—	—	—	—	٦١٥	٧٨،٠
٧٠ — أو اكثر	١٢٩٠	١٩٥	—	—	—	—	١٤٨٥	٨٦،٩
غير معين	٤٥	—	—	—	—	—	٤٥	١٠٠،٠
المجموع	٢٦٦٨٥	١٨٨٥٥	٦١٣٥	١٩٠٥	٩٤٥	٢٧٠	٥٤٧٩٥	٤٨،٧

جدول رقم ٧ (ب)
عدد المقيمين بحسب الجنس والعمر والمستوى التعليمي

الانـــــاث

العمر	لم يحصلوا على تعليم	دون الابتدائي	ابتدائي	تكميلي	ثانوي	جامعي	المجموع	نسبة الاميين
٠ — ٥	١٢٧٠٥	٩٠	—	—	—	—	١٢٧٩٥	٩٩،٣
٦ — ٩	٣٤٣٥	٣٦٧٥	—	—	—	—	٧١١٠	٤٨،٣
١٠ — ١٤	١٤٨٥	٤٥٧٥	١٦٨٠	—	—	—	٧٧٤٠	١٩،٢
١٥ — ١٩	١٦٢٠	١٩٩٥	١٢٥٠	٢٤٠	—	—	٥٢٠٥	٣١،١
٢٠ — ٢٤	٢٠٤٠	٩٦٠	٢٤٠	١٠٥	٦٠	—	٣٤٠٥	٥٩،٩
٢٥ — ٢٩	٢٦٨٥	٣٠٠	١٩٥	٤٥	—	—	٣٢٢٥	٨٣،٣
٣٠ — ٣٤	٢٣٢٥	٢٨٥	٣٠	—	١٥	١٥	٢٦٧٠	٨٧،١
٣٥ — ٣٩	٢٠٨٥	٧٥	—	—	—	—	٢١٦٠	٩٦،٥
٤٠ — ٤٤	١٦٦٥	٤٥	١٥	—	—	١٥	١٧٤٠	٩٥،٧
٤٥ — ٤٩	١٤٤٠	٤٥	١٥	١٥	—	—	١٥١٥	٩٥،٠
٥٠ — ٥٤	٧٦٥	٣٠	—	—	—	—	٧٩٥	٩٦،٢
٥٥ — ٥٩	٦٧٥	١٥	—	—	—	—	٦٩٠	٩٧،٨
٦٠ — ٦٤	٦٣٠	١٥	—	—	—	—	٦٤٥	٩٧،٧
٦٥ — ٦٩	٤٩٥	—	—	—	—	—	٤٩٥	١٠٠،٠
٧٠ — واكثر	١٤١٠	٣٠	—	—	—	—	١٤٤٠	٩٧،٩
غير معين	١٥	—	—	—	—	—	١٥	١٠٠،٠
المجموع	٣٥٤٧٥	١٢١٣٥	٣٥٢٥	٤٠٥	٧٥	٣٠	٥١٦٤٥	٦٨،٧

جدول رقم ٧ (ج)

عدد المقيمين بحسب الجنس والعمر والمستوى التعليمي

الذكور والاناث معا :

العمر	لم يحصلوا على تعليم	دون الابتدائي	ابتدائي	تكميلي	ثانوي	جامعي	المجموع	نسبة الاميين
٠ — ٥	٢٦٧٩٠	١٦٥	—	—	—	—	٢٦٩٥٥	٩٩،٤
٦ — ٩	٦٨٢٥	٨١٩٠	٣٠	—	—	—	١٥٠٤٥	٤٨،٦
١٠ — ١٤	١٩٥٠	٩٢٢٥	٣٨٧٠	١٢٠	—	—	١٥١٦٥	١٢،٩
١٥ — ١٩	٢١٧٥	٣٩٣٠	٣٦٩٠	١٢٠٥	١٢٥	—	١١٢٢٥	١٩،٤
٢٠ — ٢٤	٢٤٩٠	٢٥٢٠	٩٧٥	٥٨٥	٥٥٥	٣٠	٧١٥٥	٣٤،٨
٢٥ — ٢٩	٣٣٧٥	١٤٤٠	٦١٥	١٩٥	٢٢٥	١٢٠	٥٩٧٠	٥٦،٥
٣٠ — ٣٤	٣٣٩٠	١٤٨٥	١٩٥	٣٠	٦٠	١٢٠	٥٢٧٠	٦٤،٢
٣٥ — ٣٩	٢٧٧٥	١١١٠	٧٥	٤٥	٣٠	١٥	٤٠٥٠	٦٨،٥
٤٠ — ٤٤	٢٥٥٠	١٠٠٥	١٠٥	—	—	١٥	٣٦٧٥	٦٩،٤
٤٥ — ٤٩	٢٣١٠	٧٦٥	٧٥	١٥	١٥	—	٣١٨٠	٧٢،٦
٥٠ — ٥٤	١٤٥٥	٣٤٥	١٥	١٥	—	—	١٨٣٠	٧٩،٥
٥٥ — ٥٩	١١٤٠	٢٤٠	١٥	—	—	—	!٣٩٥	٨١،٧
٦٠ — ٦٤	١٢٠٠	٢١٠	—	—	—	—	١٤١٠	٨٥،١
٦٥ — ٦٩	٩٧٥	١٣٥	—	—	—	—	١١١٠	٨٧،٨
٧٠ — واكثر	٢٧٠٠	٢٢٥	—	—	—	—	٢٩٢٥	٩٢،٣
غير معين	٦٠	—	—	—	—	—	٦٠	١٠٠،٠
المجموع	٦٢١٦٠	٣٠٩٩٠	٩٦٦٠	٢٣١٠	١٠٢٠	٣٠٠	١٠٦٤٤٠	٥٨،٤

ان احصاءات الاونروا تقتصر على الوضع التعليمي للذين في سن الدراسة : الاعمار ٦ — ٢٠ سنة . وهي تقسم الطلاب الى اربع فئات حسب العمر : ٦ — ١١ ، ١٢ — ١٤ ، ١٥ — ١٧ ، ١٨ — ٢٠ . وهي تعطي الارقام لكل طلاب مدارسها ، والتي تشمل سكان المخيمات وسكان المدن . ونحن نعتقد انه لا يوجد اي فرق بالانتساب للمدارس بين سكان المخيمات وسكان المدن في المرحلة الابتدائية . ولكن قد يكون هناك فرق بسيط بين الفئتين في المرحلة الاعدادية ، وفرق كبير في المرحلة الثانوية حيث تلعب الامكانات المادية دورا هاما في تمكن الطلاب من متابعة دراستهم .

اما نسبة الانتساب للمدارس لفلسطينيي لبنان الذين في سن الدراسة فقد بلغت ٦٤ر٠٪ عام ١٩٧١ . وقد بلغ عدد الفلسطينيين في سن الدراسة ٦٥٥٣٦ كان مسجلا منهم في المدارس ٤١٩٤١ شخصا . وقد توزع المسجلون في المدارس كالتالي(٣) :

٦ — ١١ سنة = ٨٨ر٣٪

١٢ — ١٤ سنة = ٦٧ر١٪

---

٣ — كتاب الاحصاء السنوي للاونروا ، ١٩٧١ .

١٥ — ١٧ سنة = ٣٧ر٣٪
١٨ — ٢٠ سنة = ٨ر٣ ٪

نلاحظ من الارقام المدونة اعلاه انه كلما كبر العمر كلما انخفضت نسبة الانتساب للمدارس . ولكن الحقيقة المذهلة تبرز في الفرق بين نسبة المنتسبين في المرحلة **الابتدائية** (٨٨ر٣٪) ونسبة المنتسبين في المرحلة الثانوية (٨ر٣٪) ، مما يعني ان ٨٠ر٠٪ من الطلاب المسجلين يتركون المدارس قبل ان يبلغوا العشرين من عمرهم (راجع جدول رقم ٨) .

جدول رقم ٨

الانتساب للمدارس بحسب العمر والمستوى التعليمي

فئة العمر	السكان	الابتدائي المسجلين	٪	الاعدادي المسجلين	٪	الثانوي المسجلين	٪	المجموع المسجلين	٪
٦ — ١١	٣٢٣٩٢	٢٨٤٦٤	٨٧،٩	١٥٠	٠،٥	—	—	٢٨٦١٤	٨٨،٣
١٢ — ١٤	١٢٥٨١	٢٥٩٨	٢٠،٧	٥٨٤٩	٤٦،٥	—	—	٨٤٤٧	٦٧،١
١٥ — ١٧	١٠٩٤٥	٢٣	٠،٢	٣١٧٤	٢٩،٠	٨٨٧	٨،١	٤٠٨٤	٣٧،٣
١٨ — ٢٠	٩٦١٨	—	—	١٩٨	٢،١	٥٩٨	٦،٢	٧٩٦	٨،٣
كل الاعمار	٦٥٥٣٦	٣١٠٨٥	٤٧،٤	٩٣٧١	١٤،٣	١٤٨٥	٢،٣	٤١٩٤١	٦٤،٠

وتعطي احصاءات الاونروا صورة عن تطور الوضع التعليمي الفلسطيني خلال العشرين سنة الماضية . ويمكننا ان نلاحظ زيادة مستمرة في عدد المنتسبين للمدارس، وخاصة بين الاناث . ويمكن تفسير هذه الزيادة باربعة عوامل : أ) توافر التعليم المجاني للفلسطينيين ب) ادراك الفلسطينيين ان التعليم هو الوسيلة الوحيدة المتوافرة لهم لتحسين اوضاعهم الاقتصادية ج) عدم توافر الوظائف والاعمال لمعظم السكان في البلدان المضيفة التي كانت تعاني من تخلف ملحوظ في الخمسينات والتي تمتاز بنسبة بطالة عالية . د) الروح العامة التي سادت معظم البلدان بعد الحرب العالمية الثانية وهي روح « التعليم للجميع » .

وقد تدرج انتساب الفتيات للمدارس بشكل اكثر اثارة من انتساب الفتيان . فقد كانت نسبة انتساب الفتيات للمدارس من مجموع المنتسبين ٢٦ر٥٪ في المستوى الابتدائي عام ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، واصبحت ٤٣ر٣٪ عام ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، ثم ارتفعت الى ٤٧ر٥٪ عام ١٩٧٠ — ١٩٧١ . اما في المستوى الاعدادي فلم تكن هناك اي فتيات عام ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، واصبحت نسبتهن من مجموع المنتسبين ٢٧ر٥٪ عام ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، وارتفعت الى ٤٣ر٦٪ عام ١٩٧٠ — ١٩٧١ .

اما مدارس الاونروا فمزدحمة ، اذ نجد عدد الطلاب في الصف الواحد ٤٢ طالبا عام ١٩٧١ ، ونجد نسبة المدرسين للطلاب بمعدل استاذ واحد لكل اربعين طالبا . اما النسبة عام ١٩٧٤ فأعلى . وقد اجبر ذلك الاونروا على تبني نظام دورتي التعليم بحيث يتعلم نصف الطلاب من الصباح حتى الظهر ويتعلم نصفهم الاخر من الظهر حتى بعد الظهر . وقد اثبت هذا النظام انه مضر جدا سواء بقابلية الطالب للدراسة او بما يقدم له اثناء الساعات التي يحضر فيها للمدرسة . اما الحل الملائم فكان يجب ان يتم على اساس زيادة عدد المعلمين وفتح مدارس جديدة .

اما عدد الطلاب الفلسطينيين الذين حصلوا على منح لمتابعة دراستهم الجامعية عام ١٩٧١ فقد بلغ في لبنان ١١٧ طالبا تلقى ٥٦ منهم منحا من الاونروا ، وتلقى ٥٢ منهم منحا من حكومة المانيا الاتحادية بواسطة الاونروا .

كما ان الاونروا افتتحت مركزا للتدريب والتعليم المهني في كل من الاردن والضفة الغربية وغزة وسوريا ولبنان . وقد كان مجموع الطلاب الفلسطينيين الذين انتسبوا لهذه المراكز ٢٣٢١ عام ١٩٧١ ، وقد التحق ١٩٦ منهم بمركز سبلين في لبنان . ويمكن القول ان التدريب المهني في الاونروا بحاجة الى تطوير كبير لكي يصبح قادرا على افادة الشعب الفلسطيني كله .

وقد لعب معهد التربية التابع للاونروا دورا هاما وفعالا في تحديث وسائل التعليم وفي تدريب معلمي الاونروا .

ب) تقييم تعليم الاونروا : ان تعليم الاونروا ضعيف بشكل عام . وكان لنظام التعليم في الاونروا — وما زال — عدة نواقص ومشاكل . ففي الخمسينات واوائل الستينات كان ٩٠ ٪ تقريبا من معلمي الاونروا لا يملكون الكفاءة اللازمة للتدريس . ولكن الاونروا استطاعت ان تحل هذه المشكلة بواسطة برامج تدريب المعلمين اثناء الخدمة وخارج الخدمة ، وبتعيين عدد كبير من المعلمين الاكفاء حملة الشهادات الجامعية .

أما اذا نظرنا الى نظام الاونروا التعليمي ككل فنجد انه يواجه مشكلتين رئيسيتين : ١) اهداف النظام التعليمي ككل ٢) والمعلم نفسه .

١) تتناقض اهداف النظام التعليمي في الاونروا مع أهداف الشعب الفلسطيني وواقعه الاجتماعي . فالاونروا تهدف الى تعليم الفلسطينيين لكي تشملهم بالمعرفة والمهارة اللازمة لاعادة اسكانهم في البلدان العربية المضيفة واندماجهم في المجتمع العربي بسهولة وبشكل يكونون معه « صالحين » او « ذوي فائدة » للبلدان التي تستقبلهم في النهاية « كمواطنين » . ولا بد الى ان هذا هو الهدف النظري للاونروا ، وان مسألة مدى نجاحها في تزويد الفلسطينيين بالمهارة اللازمة والمعرفة اللازمة لتحقيق الهدف تعتبر مسألة اخرى . وفي المقابل ، نجد ان الواقع الاجتماعي للشعب الفلسطيني واقع شعب مقتلع ومشرد يرفض الاسكان خارج بلده المحتل بشدة . وان الهدف الاول الذي يطغي على أي هدف اخر عند الفلسطينيين هو العمل من أجل تحرير فلسطين والعودة اليها . والسؤال الاساسي في هذا المجال هو « ما هي المساهمة التي يقدمها تعليم الاونروا لتحقيق الهدف الفلسطيني الاول ؟ » والجواب « لا شيء » . فحتى تاريخ فلسطين وجغرافيتها لا يدرسان في مدارس الاونروا . وقد اضطرت الاونروا امام الاحتجاجات والضغوط المتكررة وامام قوة الثورة الفلسطينية الى اقرار ساعتين اسبوعيا لتعليم هاتين المادتين عام ١٩٦٩ . وتم وضع مخطط في معهد التربية لتأليف ٢٥ كتابا حول تاريخ فلسطين وجغرافيتها تغطي المرحلتين الابتدائية والاعدادية . ولكن اسرائيل اعترضت على ذلك في الاونسكو وطالبت بحق مراجعة وضع نصوص الكتب ووضع « فيتو » على اي نص ترفضه بحجة « انه يربي الكره والحقد تجاه اسرائيل وشعبها » . وقد نجحت في اجهاض المشروع ، اذ خرجت ستة كتب لا لون لها ولا طعم ، ولم يوزع سوى أربعة كتب منها على جزء من الطلاب الفلسطينيين ، ولم يجر تدريسها بتاتا .

وتقوم الاونروا في كل بلد عربي بتدريس برامج البلد المعني للطلاب الفلسطينيين مما يحرم التعليم الفلسطيني من اي طابع وطني او خاص بقضية الشعب الفلسطيني ومصيره .

٢) ان اي انسان على احتكاك بمدارس الاونروا يعرف من المعلمين انفسهم ومن

انطلاب ومن اهالي الطلاب ان هناك مشكلة تتعلق بممارسة ودور المعلم الفلسطيني في مدارس الاونروا في لبنان . والمشكلة تتلخص بالوضع النفسي العام للمعلم الفلسطيني الذي انعكس بدوره على ادائه كمعلم وعلى مدى اهتمامه بافـادة طلابه . وقد طرحت هذه المشكلة بصور واشكال مختلفة في الدورات المكثفة لمعلمي لبنان التي كان يعقدها مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقد اتهم المعلم الفلسطيني بالتقصير والاهمال وعدم الرغبة في التدريس ، ولخصت كل هذه التهم بأن المعلم أصبح موظفا بيروقراطيا يهمه قبض معاشه اخر كل شهر وانه بالتالي فقد الروح المطلوبة للرسالة التعليمية . وقد انعكس وضع المعلم هذا على علاقته بطلابه ثم على علاقته باهالي الطلاب الذين يحملون المعلمين مسؤولية تدني مستوى اولادهم العلمي وتقصيرهم . غير أن بعض المعلمين قالوا انهم فقدوا الاهتمام بالتدريس نتيجة « لنوعية » الطلاب الفلسطينيين الحاليين والذين ليست لديهم ادنى رغبة في التعلم والتحصيل . ان هـذه التقييمات بحاجة الى دراسة خاصة بها ، والمشكلة بحاجة الى دراسة عميقة وشاملة توضع على أساسها الحلول الجذرية ولا يمكن تركها على حالها لانها تمس مصير الاف الطلاب ومصير اجيال المستقبل الفلسطيني . ومهما يكن من أمر فالاحصاءات الرسمية تدل على وجود مشكلة في التعليم الفلسطيني في الاونروا . فقد كان طلاب الاونروا يقفون في أعلى سلم التعليم العربي في اواخر الخمسينات واوائل الستينات ، ولكنهم اصبحوا في أسفل ذلك السلم في اواخر الستينات واوائل السبعينات . والحقيقة الثانية هي ان مكانة المعلم الاجتماعية التي كانت مرتفعة جدا في اوساط الجماهير الفلسطينية ، تدنت الان وفقدت الكثير من لمعانها . أما النواقص الاخرى التي ادخلت حديثا على نظام تعليم الاونروا فهي نظام الترفيع الالي حيث يجري ترفيع كافة التلاميذ الى الصف الاعلى بنهاية السنة (لا سقوط او اعادة السنة الدراسية) ، ونظام التعليم المزدوج حيث يدرس صف الطلبة قبل الظهر ونصفهم الاخر بعد الظهر . وقد كان لهذين النظامين تأثير سلبي على ممارسة واداء المعلمين والطلاب على السواء .

أخيرا هناك مشكلة فقدان الرقابة الادارية علـى المعلمين . فهذه الرقابة ليست موجودة الا اسميا الان وهي اذا وجدت غير فعالة او تؤدي الى اية نتيجة . أما أسباب ضعف الرقابة الادارية والتعليمية فيردها بعض الاساتذة الى اضطرار رئاسة الاونروا لمسايرة الدول المضيفة والى خوفها من الثورة الفلسطينية التي انتمى اليها عدد غير بسيط من المعلمين . ويدعي اولئك الاساتذة ان كلا الطرفين السياسيين يتدخلان في سير عمل الاونروا . ولكننا نميل الى عدم الاخذ بذلك الادعاء ، والى ارجاع سبب الشلل الرقابي التعليمي في الاونروا الى عناصر داخلية في تركيبة الادارة التعليمية والهيئة التعليمية . ثم يجب الا ننسى ان رئاسة الاونروا تلعب دورا في هذا المجال ، اذ هي تتدخل في التعيينات ولها مصالح سياسية في ترتيب الاوضاع بشكل معين .

يمكننا ان نستنتج من الاستعراض السريع لمشاكل النظام التعليمي في الاونروا ان ذلك النظام بحاجة الى امرين أساسيين هما : ١) ثورة ثقافية في اوسـاط المعلمين الفلسطينيين ٢) اعادة النظر في مضمون التعليم واساليبه لكي يتلاءم مع حاجات الشعب الفلسطيني واهدافه الثابتة . واذا لم تستطع الثورة الفلسطينية الضغط باتجـاه احداث التغيير المذكور اعلاه ، فهي بأمس الحاجة الى تجاربها واطرها التعليمية الخاصة بهـا .

الوضع الاقتصادي

ان الوضع الاقتصادي في مخيمات الفلسطينيين في لبنان وضع صعب للغـاية . والصعوبات على ثلاثة أوجه : اولا ، ان الشغل او التوظيف الدائم والثابت ليس متوافرا

سوى لعدد صغير من سكان المخيمات . ثانيا ، ان مداخيل او رواتب السكان منخفضة بشكل عام . ثالثا ، ان الدخل البسيط للشخص الواحد ، وفي بعض الحالات لشخصين ، عادة ما ينفق على اعالة عائلة كبيرة (ثمانية اشخاص او اكثر) . وهـذا العـبء الاقتصادي متمشيا مع المداخيل البسيطة يجعل سكان المخيمات في ضيق شديـد ولا يتمكنون من تدبير أمورهم المعيشية الا بصعوبة . ونظرا لعدم وجود فائض مالي لدى السكان فالرفاهية معدومة .

وقد زودنا الاحصاء اللبناني ببعض المعلومات حول القوى العاملة في المخيمات . وتظهر هذه المعلومات ان ٣ر١٩ ٪ من سكان المخيمات يعملون (عملاً دائمـا ، او موسميا ، او يوميا) . ولكن المعدل الحقيقي للذين يعملون من السكان في سن العمـل (١٥ سنة او اكثر) يبلغ ٣ر٣٩ ٪ . واذا نظرنا الى فئات العمر المختلفة نجد أن أعلى نسبة للبطالة توجد في فئتي العمر ١٥ — ١٩ سنة و٦٠ — ٦٤ سنة ، اذ تبلغ ٤ر٧٣ ٪ . وهذا أمر متوقع لان الفئة الاولى معظمها من الطلاب ، والفئة الثانية متقاعدة . أمـا نسبة البطالة العالية التي تلي فتوجد في فئة العمر ٥٠ — ٥٤ سنة اذ تبلغ ٤ر٦٦ ٪ ، و٢٥ — ٢٩ سنة اذ تبلغ ٠ر٥٦ ٪ (راجع جدول رقم ٩) .

جدول رقم ٩

توزيع المقيمين العاملين وغير العاملين بحسب العمر والجنس

الذكور والاناث معا :

العمر	عاملون	يبحثون عن عمل لاول مرة	عاطلون عن العمل	متقاعدون	لا يعملون	المجموع	نسبة النشاط
٠ — ٩	٩٠	١٥	—	—	٤١٨٩٥	٤٢٠٠٠	٠،٣
١٠ — ١٤	٨٨٥	٩٠	١٥	—	١٤١٧٥	١٥١٦٥	٦،٥
١٥ — ١٩	٢٣٤٠	٤٨٠	١٢٠	—	٨٢٩٥	١١٢٣٥	٢٦،٢
٢٠ — ٢٤	٢٨٩٥	٣٤٥	٩٠	٣٠	٣٧٩٥	٧١٥٥	٤٦،٥
٢٥ — ٢٩	٢٤٤٥	١٢٠	٦٠	١٥	٣٣٣٠	٥٩٧٠	٤٤،٠
٣٠ — ٣٤	٢٥٨٠	١٥	٦٠	٣٠	٢٥٩٥	٥٢٨٠	٥٠،٣
٣٥ — ٣٩	١٧٨٥	—	٧٥	٩٠	٢١٠٠	٤٠٥٠	٤٥،٩
٤٠ — ٤٤	١٨٦٠	—	١٥	٩٠	١٧١٠	٣٦٧٥	٥١،٠
٤٥ — ٤٩	١٦٨٠	—	١٥	١٠٥	١٣٨٠	٣١٨٠	٥٣،٣
٥٠ — ٥٤	٩٠٠	—	١٥	٢١٠	٧٠٥	١٨٣٠	٥٠،٠
٥٥ — ٥٩	٤٥٠	—	١٥	٢٨٥	٦٤٥	١٣٩٥	٣٣،٣
٦٠ — ٦٤	٣٦٠	—	١٥	٣٩٠	٦٤٥	١٤١٠	٢٦،٦
٦٥ — ٦٩	٣٤٥	—	—	٢٥٥	٥١٠	١١١٠	٣١،١
٧٠ وأكثر	٤٠٥	—	—	١٠٨٠	١٤٤٠	٢٩٢٥	١٣،٨
غير معين	—	—	—	—	٦٠	٦٠	—
المجموع	١٩٠٢٠	١٠٦٥	٤٩٥	٢٥٨٠	٨٢٢٨٠	١٠٦٤٤٠	١٩،٣

ترجع النسبة غير الطبيعية للبطالة بين سكان المخيمات الى نسبة البطالة العالية جدا بين الاناث والتي تكاد تكون تامة كما سنرى عندما ندرس علاقة العمل بالجنس (راجع

جدول رقم ١٠ وجدول رقم ١١) . وكما هو متوقع ، فان عدد العاملين بين الذكور أكبر منه بين الاناث ، ولكن الفرق كبير لدرجة يمكن معها القول ان نصف الطاقة البشرية الفلسطينية في المخيمات معطلة ولا يجري استغلالها . فالاحصاء اللبناني يدل على ان نسبة الذكور العاملين من مجموع السكان تبلغ ٣٤ر٥ ٪ ، بينما تبلغ نسبة الاناث العاملات من مجموع السكان ٣ر٢ ٪ . اما نسبة الذكور العاملين من السكان في سن العمل (١٥ وأكثر) فتبلغ ٧٠ر٤ ٪ بينما النسبة نفسها للاناث تبلغ ٦ر٧ ٪ فقط . أما نسبة العاملين من الذكور بين فئات العمر ٢٥ — ٤٩ فهي طبيعية ، اذ تتراوح ما بين ٩١ر٣ ٪ — ٩٦ر٠ ٪ ، وتنخفض هذه النسبة الى ٨٠ر٠ ٪ لفئتي العمر ١٥ — ١٩ سنة و ٥٠ — ٥٤ سنة . ويمكننا الاستنتاج من هذه الارقام ان نسبة العاملين من الذكور في مخيمات الفلسطينيين هي نسبة عادية بالمقاييس العالمية . ولكن نسبة العاملات من الاناث متدنية جدا بالمقاييس الغربية ، ومنخفضة بالمقاييس المحلية .

جدول رقم ١٠

توزيع المقيمين العاملين وغير العاملين بحسب العمر والجنس

الذكـور

العمر	عاملون	يبحثون عن عمل لاول مرة	عاطلون عن العمل	متقاعدون	لا يعملون	المجموع	نسبة النشاط
٠ — ٩	٩٠	١٥	—	—	٢١٩٩٠	٢٢٠٩٥	٠،٤٥
١٠ — ١٤	٧٢٠	٩٠	١٥	—	٦٦٠٠	٧٤٢٥	١١،١
١٥ — ١٩	١٩٨٠	٤٦٥	١٠٥	—	٣٤٨٠	٦٠٣٠	٤٢،٣
٢٠ — ٢٤	٢٦٢٥	٣١٥	٩٠	٣٠	٦٩٠	٣٧٥٠	٨٠،٨
٢٥ — ٢٩	٢٣٤٠	١٠٥	٦٠	١٥	٢٢٥	٢٧٤٥	٩١،٣
٣٠ — ٣٤	٢٤٤٥	١٥	٤٥	٣٠	٧٥	٢٦١٠	٩٦،٠
٣٥ — ٣٩	١٧٢٥	—	٧٥	٩٠	—	١٨٩٠	٩٥،٢
٤٠ — ٤٤	١٨١٥	—	١٥	٩٠	١٥	١٩٣٥	٩٤،٦
٤٥ — ٤٩	١٥٣٠	—	١٥	١٠٥	١٥	١٦٦٥	٩٢،٨
٥٠ — ٥٤	٨٢٥	—	١٥	١٩٥	—	١٠٣٥	٨١،٢
٥٥ — ٥٩	٣٩٠	—	١٥	٢٨٥	١٥	٧٠٥	٥٧،٤
٦٠ — ٦٤	٣١٥	—	١٥	٣٧٥	٦٠	٧٦٥	٤٣،١
٦٥ — ٦٩	٢٨٥	—	—	٢٥٥	٧٥	٦١٥	٤٦،٣
٧٠ واكثر	٣٦٠	—	—	١٠٥٠	٧٥	١٤٨٥	٢٤،٢
غير معين	—	—	—	—	٤٥	٤٥	—
المجموع	١٧٤٤٥	١٠٠٥	٤٦٥	٢٥٢٠	٣٣٣٦٠	٥٤٧٩٥	٣٤،٥

جدول رقم ١١
توزيع المقيمين العاملين وغير العاملين بحسب العمر والجنس

الانـــاث

العمر	عاملون	يبحثون عن عمل لاول مرة	عاطلون عن العمل	متقاعدون	غير عاملين	المجموع	نسبة النشاط
٠ — ٩	—	—	—	—	١٩٩٠٥	١٩٩٠٥	—
١٠ — ١٤	١٦٥	—	—	—	٧٥٧٥	٧٧٤٠	٢،١
١٥ — ١٩	٣٦٠	١٥	١٥	—	٤٨١٥	٥٢٠٥	٧،٥
٢٠ — ٢٤	٢٧٠	٣٠	—	—	٣١٠٥	٣٤٠٥	٨،٨
٢٥ — ٢٩	١٠٥	١٥	—	—	٣١٠٥	٣٢٢٥	٣،٧
٣٠ — ٣٤	١٣٥	—	١٥	—	٢٥٢٠	٢٦٧٠	٥،٦
٣٥ — ٣٩	٦٠	—	—	—	٢١٠٠	٢١٦٠	٢،٨
٤٠ — ٤٤	٤٥	—	—	—	١٦٩٥	١٧٤٠	٢،٦
٤٥ — ٤٩	١٥٠	—	—	—	١٣٦٥	١٥١٥	٩،٩
٥٠ — ٥٤	٧٥	—	—	١٥	٧٠٥	٧٩٥	٩،٤
٥٥ — ٥٩	٦٠	—	—	—	٦٣٠	٦٩٠	٨،٧
٦٠ — ٦٤	٤٥	—	—	١٥	٥٨٥	٦٤٥	٧،٠
٦٥ — ٦٩	٦٠	—	—	—	٤٣٥	٤٩٥	١٢،١
٧٠ واكـثر	٤٥	—	—	٣٠	١٣٦٥	١٤٤٠	٣،١
غـير معـين	—	—	—	—	١٥	١٥	—
المجمـــوع	١٥٧٥	٦٠	٣٠	٦٠	٤٩٩٢٠	٥١٦٤٥	٣،٢

ان المستوى التعليمي المنخفض والنقص الشديد في التدريب المهني والتقني عند سكان المخيمات يجعل هؤلاء السكان ، كما هو متوقع ، في القسم الاسفل من السلم المهنـي والوظيفي . ويظهر الاحصاء اللبناني ان القوى العاملة في المخيمات تعمل في القطاعات الاقتصادية التالية : الزراعة ١ر٢١ ٪ ، الصناعة ٨ر١١ ٪ ، البناء ٦ر١٣ ٪ ، التجارة والفنادق ٤ر١٤ ٪ ، النقل والمواصلات والخدمات المالية وخدمات للمؤسسات ٤ر٢ ٪ ، الخدمات الاخرى ٠ر٢١ ٪ ، غير معين ٧ر١٥ ٪ (راجع جدول رقم ١٢)*.

جدول رقم ١٢
توزيع المقيمين الذين يمارسون عملا بحسب قطاع النشاط والوضع في المهنة

قطاع النشاط	عاملون منفردون وارباب عمل	اجراء دائمون	مياومون	غيرهم	المجموع	٪
الزراعـــة	٢١٠	—	٣٧٥٠	٦٠	٤٠٢٠	٢١،١
الصناعة والكهرباء والماء	٢٢٥	٣٣٠	١٦٣٥	٦٠	٢٢٥٠	١١،٨

* ان الجدول رقم ١٢ جدول ضعيف جدا في تقسيمه لقطاعات العمل مثلا « التجارة والفنادق » ، « الصناعة الماء والكهرباء » ، « خدمات اخرى » و« غير معين » . فهو يجمع مهنا متباينة تحت قطاع واحد ، كما أن الفرق بين الفئتين الاخيرتين غير واضح بتاتـا .

البنـــــاء	١٩٥	٦٠	٢٢١٠	٣٠	٢٥٩٥	١٣٫٦
التجارة والفنادق	١٧٥٥	٢١٠	٥٢٥	٢٤٠	٢٧٣٠	١٤٫٤
النقل والمواصلات والمالية وخدمات للمؤسسات	١٢٠	١٢٠	١٩٥	١٥	٤٥٠	٢٫٤
خدمات اخرى	٥١٠	١٧٨٥	٩١٥	٧٨٠	٣٩٩٠	٢١٫٠
غــير معــين	٥٧٠	٢١٠	١٨١٥	٣٩٠	٢٩٨٥	١٥٫٧
المجمـــوع	٢٥٨٥	٢٧١٥	١١١٤٥	١٥٧٥	١٩٠٢٠	١٠٠٫٠

نلاحظ من هذا الجدول ان أكبر قطاعات القوى العاملة في المخيمات هي الزراعة (وهذا يشير الى العمال الزراعيين) و« الخدمات الاخرى » (التي تشير الى الاعمال البسيطة في قطاع الخدمات اللبناني العريض) اذ تبلغ النسبة ٢١٫٠ ٪ لكل قطاع منهما. ويلي هذين القطاعين ، فئة « غير معين » (وهي تشير على الارجح الى الاشغال التي لا تتطلب اية مهارة والتي تحتاج الى القوة الجسدية فقط) اذ تبلغ ١٥٫٧ ٪ . ثم يلي قطاع « التجارة والفنادق » والذي يشير اساسا الى اصحاب الدكاكين الصغيرة في المخيمات والمدن المجاورة . وجمع هاتين المهنتين تحت فئة واحدة خطأ . فان جدول رقم ١٢ يظهر أن ١٧٥٥ شخصا من أصل ٢٧٣٠ ، أي ٦٠٫٣ ٪ من هذا القطاع ارباب عمل. ولا يعقل أن يكون عشر او حتى ١ ٪ من ذلك العدد اصحاب فنادق . وبالتالي يمكننا الاستنتاج ان ارباب العمل هؤلاء هم أصحاب دكاكين . والجدول رقم ١٣ يؤكد صحة الاستنتاج كما سنرى .

أما القوى العاملة ذات المهارة الفنية فتقع ضمن القطاعات التالية : الزراعة ، الصناعة ، والبناء . ولكن الاحصاءات المتوافرة لا تمكننا بأية وسيلة من معرفة نسبة العمال الفنيين في هذه القطاعات التي تشكل ٥٦٫٤ ٪ من مجموع القوى العاملة في المخيمات . وبالتالي لا يمكننا معرفة نسبة العمال الفنيين والمهرة من مجموع القوى العاملة في المخيمات .

واذا انتقلنا الى دراسة وضع القوى العاملة الوظيفي نجد أن نسبة عالية منها تعمل على أساس يومي . ويتركز العمال المياومون في قطاعات الزراعة والبناء والصناعة « وغير معين » . ففي قطاع الزراعة كل العمال مياومين . وفي قطاع البناء نجد ان ٩٧٫٢ ٪ من العمال يعملون على أساس يومي . وفي قطاع الصناعة تصل نسبة العمال المياومين الى ٨١٫٠ ٪ . وفي قطاع « غير معين » تصل نسبتهم الى ٨٨٫٩ ٪ . أما نسبة العمال المياومين الى العمال الثابتين او الدائمين فهي ٨٠ ٪ للفئة الاولى مقابل ٢٠ ٪ للفئة الثانية ، اذ ان مجموع العمال المياومين في المخيمات ١١١٤٥ عاملا مقابل ٢٧١٥ عاملا ثابتا او دائما . ويشكل العمال المياومون ٥٨و٤ ٪ من القوى العاملة في المخيمـــات .

يساعد جدول رقم ١٣ على توضيح جدول رقم ١٢ . فهو يعطي تفصيلات اكثر حول مهن القوى العاملة في المخيمات ووظائفها ، وهذه التفاصيل ضرورية لمعرفة موقع القوى العاملة الفلسطينية في القطاعات الاقتصادية المختلفة وعلى السلم المهني .ويظهر جدول رقم ١٣ ان ٣٫٤ ٪ من العاملين من سكان المخيمات لهم وظائف حرة (مهندسون ، اطباء) او وظائف تتطلب كفاءة مهنية عالية . أما الموظفون الاداريون فيشكلون ١٫٣ ٪ من مجموع العاملين ، بينما يشكل اصحاب الدكاكين والمحلات التجارية الصغيرة ٩٫٠٪ ، ويشكل العمال المختصون بالخدمات ٨٫٣ ٪ ، والعمال الزراعيون وصيادو الاسماك

٢٣،٠ ٪ . اما العمال غير المهرة فيشكلون ٤٢،٨ ٪ من القوى العاملة في المخيمات . ويعمل ٧،٠ ٪ من القوى العاملة في قطاع « غير معين » . وتظهر هذه الارقام انخفاض نسبة العمال الفنيين والمهرة بين العاملين من سكان المخيمات (راجع جدول رقم ١٣) .

استنتاج : ان القوى العاملة في مخيمات الفلسطينيين في لبنان هي قوى غير مهرة وغير فنية في غالبيتها . والاحوال الاقتصادية في تلك المخيمات صعبة جدا ، اذ أن مدخول معظم الناس قليل وغير مؤمن نظرا للنسبة العالية من العمال المياومين . كما أن هناك نسبة عالية من البطالة بالنسبة لمجموع السكان وليس بالنسبة للقوى القادرة علـى العمل فعليا وسط سكان المخيمات (٨٠،٧ ٪) ترجع الى بطالة النساء ٩٧،٨ ٪ . أما نسبة البطالة بين الذكور في سن العمل (١٥ وما فوق) فمرتفعة ايضا اذ تبلـغ ٢٩،٦ ٪ . واما نسبة غير العاملات بين الاناث في سن العمل (١٥ سنة) وما فوق فهي مرتفعة كثيرا جدا ــ ٩٣،٣ ٪ .

جدول رقم ١٣
توزيع المقيمين الذين يمارسون بحسب المهنة والوضع في المهنة

	المهنة	عاملون منفردون	ارباب عمل	اجراء دائمون	مياومون	غيرهم	المجموع	٪
٢/١/٠	المهن التقنية والحرة وموظفو الملاك العالي	١٥	١٥	٦٠٠	—	١٥	٦٤٥	٣،٤
٣	الموظفون الاداريون	—	—	٢٤٠	١٥	—	٢٥٥	١،٣
٤	المهن التجارية ــ باعة	١٨١٥	٩٠	١٣٥	٣٩٠	٢٧٠	٢٧٠٠	١٤،٢
٥	عمال متخصصون في الخدمات	٢٢٥	٤٥	٧٢٠	٥٧٠	١٥	١٥٧٥	٨،٣
٦	زراعيون وصيادون	٢٤٠	١٥	١٥	٣٩٩٠	١٠٥	٤٣٦٥	٢٣،٠
٩/٨/٧	عمال وفعلة غير زراعيين	١٠٢٠	٧٥	٧٣٥	٦١٠٥	٢١٠	٨١٤٥	٤٢،٨
	قوات مسلحة وغير معينة	٣٠	—	٢٧٠	٧٥	٩٦٠	١٣٣٥	٧،٠
	المجمـــوع	٣٣٤٥	٢٤٠	٢٧١٥	١١١٤٥	١٥٧٥	١٩٠٢٠	١٠٠،٠

التركيب الاجتماعي والحياة الاجتماعية

المخيمات الفلسطينية في لبنان ليست تجمعا عشوائيا وفوريا للافراد او للعائلات . وهذه المخيمات لا تشبه بتاتا ، من الناحية الاجتماعية ومن ناحية التركيب الاجتماعي ، المناطق السكنية الفقيرة التي تنشأ عند اطراف المدن الكبيرة . فالمخيمات اقرب الـى القرى في تركيبها الاجتماعي . والمخيمات منظمة في الواقع على اساس وحدتين : القرية الفلسطينية والعائلة الكبيرة (الحمولة) . وقد تم اعادة تجميع قرى شمال فلسطين ، سكانيا ، في المخيمات الفلسطينية في لبنان . فالقرى التي احتلتها اسرائيل واخلتها من

سكانها ثم دمرتها ما تزال حية ومتماسكة بشكل متين . ويمكن تشبيـــه هذه القرى بمخلوقات حية خارج موطنها الطبيعي . وعند تحرير فلسطين سيكون من الممكن اعادة تركيبها اجتماعيا على أرض فلسطين في فترة قصيرة جدا .

وقد لعبت الطريقة التي تم بها تركيب المخيمات اجتماعيا ، (لقد ركبت المخيمـــات عفويا وبشكل طبيعي وليس من خلال جهود الاونروا المنظمة ، ولو كان للاونروا الخيار لقامت حتما بتفكيك التركيب الاجتماعي الحالي للمخيمات واعادت تركيبها بشكل هدام بالنسبة للوحدة الاجتماعية الفلسطينية . وقد قامت اسرائيل بذلك العمل في قطاع غزة ، كما أن سلطات الاردن كانت تعتزم تفكيك مخيمات الاردن بمساعدات مالية المانية غربية واميركية) ، دورا كبيرا في الحفاظ على انماط العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل عام ١٩٤٨ . كما انها لعبت دورا كبيرا في المحافظة على الشخصية الفلسطينية وعلى الهوية الفلسطينية من الناحيتين العاطفية والنفسية . كما ان التركيب الاجتمـــاعي للمخيمات أثر تأثيرا كبيرا على جوانب أخرى من الحياة الفلسطينية ومنهـــا : الحياة الاجتماعية ، الحياة السياسية ، التماسك الاجتماعي والعادات والتقاليد .

المخيم الفلسطيني وحدة اجتماعية مغلقة . يعرف فيها كل الناس بعضهم بعضـــا ويعرفون تقريبا كل شيء عن بعضهم بعضا ابتداء من المسائل الشخصية الى المدخول الى الانتماءات السياسية . وهذه المعرفة ممكنة او هي في الواقع تفرض نفسها على الناس بسبب التقارب الجسدي والحسي الشديد للبيوت وبالتالي للسكان . فسواء اراد المرء ان يصغي الى حديث جيرانه او لم يرد فهو غالبا ، وخصوصا في الليل ، ما يسمعهم يبحثون مشاكلهم الخاصة أو يتشاجرون حول أمر او اخر الخ . ولا يمكن لساكن المخيم ان يتجنب ان يعرف . وعندما يعرف الناس ذلك المقدار عن بعضهم بعضـــا يبدأون بالاهتمام او بالتدخل بامور بعضهم بعضا . ومما يزيد في حدة ذلك الوضع كون معظـــم السكان في حي او منطقة من المخيم يمتون الى بعضهم بصلة القرابة او المصاهرة ، او الصداقة والجيرة القديمة في فلسطين .

ويحمل هذا الوضع الاجتماعي للمخيمات في طياته طرفين في آن واحد : الاول طرف التنازع الاجتماعي والثاني جو التضامن الاجتماعي . ويظهـــر التنازع والتضامـــن الاجتماعي على مستويين : على مستوى المجتمع ككل ، وعلى مستوى العائلة . فالتنازع الاجتماعي على مستوى المجتمع يرجع الى عاملين هما الخلافات القديمة فيما بين القرى والعائلات والتي نقلها السكان معهم من فلسطين ، والخلافات الثورية مثل التنازع حول المياه او حول الارض المخصصة للبناء ، او حول الانتماءات السياسية مؤخرا ، مثلا الانتماء الى التنظيمات الفدائية المتنافسة .

اما التنازع على المستوى العائلي فيعود الى الصراع بين الاهل المتسلطين والابناء الذين يسعون لنيل حرية التصرف كما ان التنازع ينشأ نتيجة لصعوبة الوضع المـــالي للعائلة حيث يقوم فرد واحد ، غالبا ما يكون الاب ، بالعمل المضني من اجل اعالة عائلته بما فيها أولاده العاطلون عن العمل . ويشعر الاب ان دوره الرئيسي هذا يعطيه الحق لتسيير عائلته كما يشاء .

التضامن الاجتماعي في المخيمات اقوى على مستوى المجتمع وعلى مستوى العائلة من التنازع الاجتماعي . فان عرى التضامـــن على المستـــوى الاجتماعي هي التالية : أ) معظم سكان المخيمات في لبنان يأتون من نفس المنطقة في فلسطين (شمال فلسطين) حيث كانت هناك روابط شخصية وجماعية بين القرى . ب) المجتمع كله يشعر بـــانه مجتمع مقتلع ومضطهد ولاجيء . ج) لدى المجتمع ككل شعور قوي بان مصيره واحد .

د) يواجه المجتمع ككل المشاكل العامة واليومية ذاتها . هـ) يعيش المجتمع كله على أمل واحد وهو العودة الى وطنه المحتل . و) يشعر المجتمع ككل بانه يواجه الاعداء انفسهم : الاستعمار الاميركي ، اسرائيل والصهيونية العالمية ، المانيا الغربية ، بريطانيا ، القوى الرجعية العربية .

اما على المستوى العائلي فان العرى التي تسبب التضامن وتحتوي اي تنازع بحيث لا يهدد تماسك العائلة ووحدتها ، فهي نفس العرى العاطفية والروابط التقليدية الموجودة في العائلة العربية ككل . فان افراد العائلة يساعدون بعضهم بعضا ويهتمون باحوال بعضهم بعضا ويبقون معا باختيارهم التام . والولاء للعائلة ما زال يحتل المرتبة الاولى في سلم ولاءات الفرد (ملاحظتنا الشخصية ودراسة بيتر خود وحليم بركات حول نزوح ١٩٦٧) . لكن في بعض الحالات يأتي الولاء للثورة قبل الولاء للعائلة . ويشعر الفرد بان حياته جزء من حياة عائلته ، وبانه فرد ضائع ومحروم عاطفيا خارج اطار عائلته . وما زال مدخول افراد العائلة يعتبر مدخولا مشتركا للعائلة ككل بغض النظر عمن يشارك في تحصيل ذلك المدخول . وغالبا ما يجري استيعاب العائلة الجديد (رجل وزوجته وطفله او اطفاله) في منزل العائلة الام او في منزل مجاور لمنزلها .

وبما ان مجتمع المخيم عبارة عن مزيج لمجتمعات القرى الفلسطينية ، فمن الطبيعي ان تكون قيمه الاجتماعية هي قيم تلك القرى نفسها . فما زال مجتمع المخيم يشدد على احترام الكبار ، والتصرف المؤدب ، وشرف العائلة وكرامتها ، والكرم ، ومساعدة الاخرين ، وتحمل بعض المضايقات من اجل الاخرين ، والابتعاد عن الفردية ، وتبادل الخدمات ، والتضحية من اجل الجماعة الخ . كما ان مجتمع المخيم ما زال يحافظ على كل مقاييس التصرف ، فالتصرف الايجابي والسلبي محدد الماهية . والالتزام بمقاييس التصرف الايجابي مطلوب ، واي انحراف يعاقب اجتماعيا وحتى جسديا ، او على الاقل يستنكر من قبل المجتمع . وان سوء تصرف الفرد يجلب العار لعائلته .

ويشكل وضع المخيم المادي والاجتماعي اداة ضخمة للرقابة الاجتماعية . فالرقابة او السيطرة الاجتماعية فعالة في المخيمات لدرجة لا نجد معها الا انحرافات بسيطة عن انماط السلوك الاجتماعية . فالجرائم ضد الاشخاص او ضد الممتلكات قليلة جدا . وحوادث الاغتصاب مثلا معدومة بالرغم من الحرمان الجنسي الشديد . وينطبق الامر نفسه على انحرافات الشبان الصغار كالسرقة ، والعصابات ، وتدخين الحشيش ، والادمان على المخدرات ، اذ ان نسبتها متدنية جدا . كما يقوم المجتمع بالسيطرة على الخلافات العائلية او الفردية ويحتويها بسرعة قبل ان تتفاقم وتتسع .

ان وضع النساء في مجتمع المخيم وضع بائس . فمن الصحيح ان وضع المرأة العربية ككل بائس . ولكن لا يمكن تناسي ان المرأة العربية من الطبقة المتوسطة قد اكتسبت حريات كثيرة على الصعيدين الشخصي والاجتماعي ، وانها قد قطعت شوطا كبيرا في الاستقلال الذاتي . اما المرأة في المخيم فما زالت بعيدة جدا عن تحقيق حريتها الشخصية والاجتماعية . والخطأ ليس خطأها ، فهي مكبوتة ومضطهدة . كما ان التقارب السكني يزيد من كبت الرجل للمرأة ، فهو يراقبها بدقة خوفا من ان تتصرف تصرفا يلحق به العار والفضيحة . والمرأة ما زالت تعتبر ادنى مرتبة من الرجل. وهي تعتبر « شيئا » يجب تحمله قبل الزواج . « وشيئا مريحا » و « أما » و « خادمة » بعد ان تتزوج . والمرأة تعتبر مصدر خطر دائم على شرف العائلة ومكانتها واحترامها . ولا يسمح للفتيات بالخروج مع الشبان . وحالما يصلن الى مرحلة البلوغ الجنسي (سن ١٠ ــ ١٤) يبدأ اهلهن بالتفكير والحديث عن تزويجهن . وتعتبر المرأة عبأ اقتصاديا ولكنها في الوقت ذاته تمنع من العمل . اما تعليمهن فيعتبر بشكل عام مضيعة للوقت او يعتبر في احسن

الحالات عاملا مساعدا على ايجاد زوج . ولا تعطى المرأة أية فرصة لتنمية شخصيتها ، وهي بالتالي تنتقل من تسلط الابوين الى تسلط الزوج . ويلعب الابوان عادة دورا اساسيا في اختيار زوج المستقبل . وتجري معاقبة المرأة بشدة اذا خالفت التقاليد وخاصة في مجال العلاقات الجنسية . او اذا تحدت والدها واخوتها . لكن هناك اقلية صغيرة من الفتيات (ربما ٥ ٪) تحاولن الثورة على اوضاعهن وتنجحن في تحرير انفسهن الى حد كبير ، ومعظم هؤلاء الفتيات ينتمين الى الفئة المتعلمة التي تشتغل . اما الفتيات اللواتي يعملن في المصانع او في المنازل فما زلن مقيدات تماما .

كان العديد من المفكرين الفلسطينيين وبعض العناصر الثورية يأملون في ان تلعب الثورة الفلسطينية الدور الاول في تحرير المرأة الفلسطينية عامة والمرأة في المخيم خاصة. وبما ان الثورة قد تبنت اسلوب حرب التحرير الشعبية وبما ان النساء يشكلن نصف طاقة الشعب البشرية ، فقد آمن اولئك بان تحرير المرأة واجب ومن اول واجبات الثورة . ولكن تلك الامال والتطلعات (من قبل النساء انفسهن ايضا) لم تجد مجالا واسعا للانعاش . فقد ركزت الثورة جهودها على العمليات العسكرية وتركت الاوضاع الاجتماعية على حالها في معظم الاحيان . وقد اهملت النساء الى حد ما ، باستثناء بعض العناصر النسائية المتعلمة التي تم استيعابها ضمن الاطر الثورية القائمة . ولم تحاول النساء اللواتي تحررن واللواتي قدن حركة التحرر النسائية ان يحررن او يثورن اخواتهن في المخيمات . ولهذا السبب بالذات فشل التنظيم النسائي . فقد كانت النساء الثوريات يدرن حول ذواتهن ، وكن يركزن جهودهن في تأدية المهام المعطاة لهن من قبل الرجال في الثورة . ونتيجة لذلك لم تنجح الثورة كثيراً في خلق حركة اجتماعية بين النساء الفلسطينيات . وقد عارض بعض اكثر العناصر ثورية في السماح لاخواتهم بالمشاركة في التنظيمات الثورية اما لاعتبارات اخلاقية واجتماعية واما خوفا من الضغط الاجتماعي . لقد كان بامكان الثورة الفلسطينية ان تفعل الكثير من اجل تحرير المرأة الفلسطينية ، ولكن ظروفها لم تسمح لها بفعل الكثير في هذا المجال . فقد كانت الثورة القوة الوحيدة القادرة على مخالفة وتخطي اي تقليد اجتماعي بلا خوف ، لانه بالنسبة للفلسطينيين يأتي تحرير فلسطين اولا وأي أمر آخر ثانيا . وكان من المفروض أن تبدأ الحركة الاجتماعية في مجالين في آن واحد : ضمن التنظيمات الرجالية ، وفي اوساط النساء الفلسطينيات حيث تلعب النساء المتحررات دورا اساسيا .

الحياة الاجتماعية

ان الحياة الاجتماعية في المخيمات ليست غنية بشكل عام . ويرجع هذا الى الوضع الاقتصادي والوضع السكني للمخيمات . وعندما نتحدث عن الحياة الاجتماعية علينا ان نميز بين حياة ثلاثة اجيال . الجيل الاول جيل الاولاد (سن ٣ — ١٥) الذي يقضي وقته قبل دخول المدرسة (سن ٣ — ٦) في اللعب والشجار داخل المخيم وحوله . ويتابع هذا الجيل بعد دخول المدرسة (سن ٦ — ١٥) طريقته السابقة في اللعب والشجار ويضيف العابا جديدة تتطلب اقل قدر من الامكانات كالكرة ، والعصي ، والسكاكين القديمة ، وعلب التنك الخ . ومن الملاحظ ان كل العاب هذا الجيل تقريبا جسدية ولا تتضمن اية العاب ذهنية او فكرية . ويبدأ الاولاد في هذا السن بالذهاب الى دور السينما القريبة كلما توافر لهم المال اللازم لذلك . ولا تقوم المدرسة او الاهل بترتيب أية نشاطات لهؤلاء الاولاد .

الجيل الثاني ، جيل الشباب (سن ١٦ — ٣٠) . ليس لدى هذا الجيل ايضا اية نشاطات اجتماعية منظمة او جماعية . فالمخيمات يندر فيها وجود النوادي وتخلو من تنظيمات الشباب الاجتماعية ، باستثناء بعض النوادي الرياضية الضعيفة . والحياة

الاجتماعية لهذا الجيل فارغة . ولديهم الكثير من وقت الفراغ الذي يضيعونه هبــاء . اما نشاطاتهم بعد انتهاء اليوم المدرسي او يوم العمل فتقتصر على الذهاب للسينمـــا والجلوس في المقاهي للتحدث او لعب الورق والتنزه سيرا على الاقدام داخل المخيم او بقربه . ولا توجد اية نشاطات مشتركة بينهم وبين الفتيات . كما ان حياتهم العاطفية والجنسية مليئة بالكبت والحرمان . واضحت مكاتب التنظيمات الفدائية في المخيمات مؤخرا (بعد العام ١٩٦٩) اماكن تجمع للشبان . وقد كان للتواجد في هذه المكاتــب والعمل السياسي والعسكري تأثير ايجابي على حياة ابناء هذا الجيل اذ اعطتها معنى وقيمـــة .

اما الجيل الثالث . جيل الكبار (سن ٣٠ وما فوق) فيقضي معظم اوقات فراغه في تبادل الزيارات الاجتماعية (بين الاقارب والاصدقاء) . وتشكل الزيارات جزءا رئيسيا من حياة الكبار الاجتماعية . وهي ممكنة بكثرة نظرا لقرب بيوت الاقارب والاصدقـــاء من بعضها بعضا . وتتخلل الزيارات مشاهدة التلفزيون ، واحيانا لعب الورق بـــين الرجال . كما يقضي الكبار جزءا من وقت فراغهم في المقاهي يشربون القهوة والشاي ويتحدثون أو يلعبون الورق او طاولة الزهر وغيرها .

اما الحياة الاجتماعية للنساء فهي ضحلة تماما ، اذ انها تقتصر تقريبا على الزيارات والبقاء في البيت . وتذهب بعض الفتيات غير المتزوجات (سن ١٢ — ٢٥) مرة كــل اسبوع او كل اسبوعين الى السينما في مجموعات او مع اقاربهن الذكور . أما حياتهن العاطفية والجنسية فاكثر تعقيدا وكبتا من حياة الشبان . وهن يعشن في خوف دائــم من ان يخطئن اجتماعيا لان شرف عائلتهن ومكانتها قد تتأثران نتيجـــة لذلــك ، ولان « مستقبلهن » (فرصتهن في الزواج) قد تتأثر ايضا .

الحياة السياسية

الفلسطيني ، وخاصة المقيم في المخيم ، انسان سياسي . وهو كذلك لان الشؤون والاحداث السياسية العالمية والعربية والداخلية تمس حياة الفلسطينيين ربما بشكل لا تمس فيه حياة اي شعب اخر . وقد لعبت السياسة دورا في تقرير حياة الفلسطينيين على عدة مستويات وفي عدة جوانب من حياتهم اليومية كالعمل ، والصداقة ، والزواج، والسفر ، والتعليم والتغذية ، واللهو ، وعلاقتهم بالعالم الخـــارجي ، والطمـــوح ، والتطلعات ، والوضع النفسي ، ونظرتهم الى الحياة نفسها .

وهذه العلاقة بين السياسة وحياة الشعب الفلسطيني تجعل من الممكــن القول ان الشعب الفلسطيني هو من اكثر الشعوب المسيسة في العالم . وبالتالي ، فالفلسطينيون يهتمون بالعمل السياسي بحكم واقعهم ، ان لم يكن بحكم اختيارهــم . وهـــذا يفسر مشاركتهم في الاحداث السياسية المحلية والقومية في الوطن العربي منذ نكبة فلسطين. ولا يمكن للفلسطينيين ان يقفوا موقف المتفرج مما يجـــري في الوطن العربي لانه حتما سيمسهم اكثر مما يمس اي شعب اخر في المنطقة .

وسنحاول الان ان نصف الحياة السياسية لسكان المخيمات من خلال بعض المظاهر السلوكية . **أولا** ، ان افضل مقياس لاهتمام الفلسطينيين بالاحداث السياسية هو كمية ودرجة حديثهم عن تلك الاحداث ، ومقدار اصغائهم لنشرات الاخبـــار من الاذاعـــة والتلفزيون ، ومقدار قراءتهم للصحف اليومية . ومن الممكن بالطبع قياس هذه الامور علميا وبطريقة تجريبية دقيقة . ولكننا في هذا المقال سنكتفي بالانطبـــاع والاحتكـــاك والملاحظة الشخصية . وان اي شخص يعيش في المخيم او يكون على احتكـــاك يومي بالمخيم يلاحظ بسهولة ان مقدارا كبيرا من الوقت (عدة ساعات يوميا) ينفقها الاهالي

في بحث الاحداث السياسية الجارية وعلاقتها بـ او تأثيرها على القضية الفلسطينية ومستقبل فلسطين . ويستمع الاهالي الى نشرات الاخبار من عدة محطات اذاعية كل يوم . واهم تلك الاذاعات (الترتيب ليس حسب الاولوية) : صوت الثورة الفلسطينية (صوت العاصفة) ، صوت العرب من القاهرة ، اذاعة القاهرة ، اذاعة دمشق ، اذاعة لندن العربية ، اذاعة لبنان ، اذاعة اسرائيل ، واذاعة الاردن . والواقع ان المحللين السياسيين في وزارات الخارجية هم الذين يصغون الى مثل هذا العدد من الاذاعات . وبالاضافة الى نشرات الاخبار ، يقوم عدد اقل من الاهالي (الكبار في السن والمتعلمون) بتتبع التحاليل والتعليقات السياسية خاصة من صوت الثورة الفلسطينية ، وصوت العرب ، واذاعة لندن العربية ، واذاعة اسرائيل . ويمكن لاي عابر سبيل في المخيم ان يسمع النقاشات السياسية الحادة في البيوت والمقاهي . لقد كان الاهتمام بالسياسة موجودا دائما عند الفلسطينيين ، ولكن هذا الاهتمام أصبح ظاهرا للعيان بعد ان حررت الثورة الفلسطينية المخيمات من الارهاب والضغط . وقد كان الاهتمام بالسياسة يظهر على السطح او يختفي تحته تبعا لتقدم حركة التحرر العربية (في عهد عبد الناصر) ثم تبعا لتقدم الثورة الفلسطينية . فكلما احرزت حركة التحرر العربية او الثورة الفلسطينية انتصارات جديدة كلما انتعشت امال الجماهير الفلسطينية وزاد اهتمامها بالشؤون السياسية ، وخاصة عندما تبدو عودة فلسطين اقرب (نفسيا على الاقل) . اما عندما تبدو فلسطين بعيدة وصعبة المنال فان الجماهير الفلسطينية تصاب بالكمود ويخف مقدار الحديث السياسي ، ولكن الناس في الواقع لا يكفون عن التفكير بفلسطين وبما يجري حولهم . اما كمية القراءة فاقل من كمية الكلام والاصغاء ، وهذا متوقع لان القراءة تحتاج الى تركيز والى درجة من التعليم .

وقد اضافت الثورة الفلسطينية موضوعات سياسية جديدة لمناقشات جماهير المخيمات واحاديثها ، وهي برامج التنظيمات الفدائية السياسية المختلفة واداء كل تنظيم منها على الصعيد الثوري ، عمليات الفدائيين الفلسطينيين ، تدريب الميليشيا ، ونوعية الاسلحة المختلفة ومواصفاتها وكيفية استعمالها . وقد زادت هذه المواضيع من عدد الساعات التي تنفق على الاحاديث السياسية زيادة كبيرة غير معهودة منذ النكبة .

ثانيا ، ان الفلسطينيين لم يقوموا فقط بالتحدث عن الاحداث السياسية ومناقشتها وتتبعها ، بل لعبوا دورا نشطا واحيانا رئيسيا في كل حركة سياسية كبرى في الوطن العربي ، كما انهم شاركوا في كل شكل من اشكال العمل السياسي . ولكن من الضروري التأكيد على ان اهتمام معظم الفلسطينيين الناشطين سياسيا كان مقتصرا على الحركات العربية الوحدوية والمعادية للاستعمار . فالفلسطينيون عامة لم يكونوا مهتمين اطلاقا بالحركات السياسية الاقليمية او بالمسائل السياسية الاقليمية . ويمكن للمرء القول بسهولة ان الفلسطينيين هم اكثر العرب وحدوية . فقد انضم الفلسطينيون باعداد كبيرة الى الحركات الوحدوية العربية الكبرى وهي حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي . اما فيما يتعلق بالحركة الوحدوية الكبرى غير المنظمة — الحركة الناصرية — فيمكن القول ان الغالبية العظمى من الفلسطينيين كانوا ناصريين وان عبد الناصر كان القائد الحقيقي للجماهير الفلسطينية (والجماهير العربية ايضا) . وينظر الفلسطينيون الى اسرائيل على انها عدو الامة العربية ككل ، ويرون فيها خطرا على الاستقلال والتقدم العربي وتهديدا لهما . وهم يرون ان بلدهم لن يتحرر الا بمجهود عربي جماعي . فاسرائيل لم تقف لوحدها في اي يوم من تاريخها . وبالتالي يمكن القول ان الفلسطيني قومي عربي بحكم طبيعة معركته مع اسرائيل ، ان لم يكن لاي سبب اخر ، وقد انضم عدد صغير من الفلسطينيين الى الحركات السياسية

الدينية كالاخوان المسلمين . وانضم عدد أصغر الى الحركات الاقليمية كالحزب القومي السوري . ولكن الجماهير الفلسطينية نبذت وحاربت الفلسطينيين الذين انضموا الى الحركتين الاخيرتين .

لقد مارس الفلسطينيون كافة اشكال النضال السياسي في الدول العربية المضيفة . وبما اننا نتحدث عن فلسطينيي لبنان في هذا المقال ، فسنذكر انهم قد شاركوا في الاضرابات ، والاحتجاجات ، والمسيرات السلمية ، والمسيرات العنيفة ، وفي التنظيمات السرية . وكان هناك مؤشران يرشدان العمل السياسي الفلسطيني باستمرار وهما تحرير فلسطين ، ووحدة الامة العربية واستقلالها .

وقد كان لممارسة الفلسطينيين للنشاط السياسي في الوطن العربي انعكاسات سلبية على الفلسطينيين في الدول العربية المضيفة . خاصة وان الحكومات العربية كانت رسميا تعتبر الفلسطينيين غرباء او « ضيوفا » لا حق لهم في ممارسة اي نشاط سياسي في بلادها ، خاصة اذا كان ذلك النشاط يستهدف تغيير النظام في البلد المضيف . ولكن المنطق الفلسطيني في حرية العمل السياسي كان مناقضا للمنطق الرسمي العربي . فقد كان الفلسطينيون يتصرفون على اساس ان حقهم طبيعي في الانضمام للحركات السياسية العربية القادرة على تعبئة الجماهير العربية والضغط على الحكومات العربية للعمل من اجل تحرير فلسطين . ونتيجة لذلك المنطق وما تبعه من نشاط سياسي فلسطيني قامت الانظمة العربية باضطهاد التجمعات الفلسطينية والتضييق عليها حيثما وجدت . ولا داعي للقول ان جماهير المخيمات تلقت الجزء الاكبر من الاضطهاد الرسمي العربي لانها كانت تقف دائما في صف المواجهة الاول ، ولانها كانت تشكل هدفا كبيرا وملموسا (كتلة واحدة) ، واخيرا لانها كانت معرضة وغير محمية (على عكس الطبقة الوسطى الفلسطينية ، مثلا ، التي كانت لها صلات جيدة وعلاقات طيبة مع الفئات المختلفة من الطبقات الحاكمة في الدول العربية) .

وكان للتحركات السياسية للدول الاستعمارية(الولايات المتحدة الاميركية، بريطانيا، المانيا الغربية ، وفرنسا) الموجهة نحو قضية فلسطين وضد حركة التحرر العربية ككل — خلال ربع القرن الماضي — تأثير مباشر على تماسك المجتمع الفلسطيني . فكل مشاريع التوطين والاسكان — سواء المباشرة منها او التي طرحت من خلال الامم المتحدة — وكل برامج التصفية والتحالفات السياسية في المنطقة ، قد ادت الى خلق تماسك فوري عند الجماهير الفلسطينية لانها كانت تدرك ان رأسها ووطنها هو الثمن الذي سيدفع لتلك التسويات والمشاريع المشبوهة. وبالتالي كانت الجماهير الفلسطينية تقاتل بشراسة لاحباط تلك المشاريع . وحتى برامج التهجير والتسهيلات التي قدمتها دول كاميركا وكندا واوستراليا للفلسطينيين لمساعدتهم على الهجرة ، تم كشفها وتصنيفها على انها تستهدف قضية فلسطين في المدى البعيد . وكان التماسك الداخلي الفلسطيني يزداد مع ازدياد وحشية الهجمات الاستعمارية على الوجود الوطني الفلسطيني . وقد بلغ التماسك الداخلي اعلى مراحله في تاريخ فلسطين اثناء تنفيذ المذبحة الفلسطينية الكبرى في عمان في ايلول ١٩٧٠ بتخطيط اميركي وتنفيذ هاشمي ومباركة اسرائيلية .

وكان التماسك الداخلي للمجتمع الفلسطيني يهتز احيانا بسبب الانتماءات السياسية المختلفة للفلسطينيين . ولكن النقص في التماسك لم يصل ابدا نقطة تهدد بانقسام المجتمع الفلسطيني على نفسه ، وذلك لان الرباط الاساسي للمجتمع هو الرباط العائلي الذي اثبت متانته في وجه الاحداث والنكبات . ويجد المرء في حالات عديدة أخوين او ثلاثة أخوة او ابناء عم ينتمون الى ثلاث مجموعات سياسية متباينة — غالبا في الوسائل اكثر

منها في الاهداف واحيانا في الاهداف — ولكن العائلة لا تتفسخ وتتابع عملها كالوحدة الاساسية في المجتمع . وفي الختام يمكننا القول ان المؤامرات السياسية ضد الشعب الفلسطيني تواجه بتماسك وصلابة من الجماهير الفلسطينية اذ كانت تزيد من قوة التماسك الداخلي لذلك المجتمع .

القيادة السياسية: يمكن التمييز بين اربعة انواع من القادة السياسيين الفلسطينيين، وخاصة بين جماهير المخيمات . **اولا** ، هناك الوجهاء الذين يستمدون شرعيتهم القيادية من مكانتهم الاجتماعية والسياسية السابقة في فلسطين . ومعظم هؤلاء الوجهاء يقيمون في المدن اللبنانية (بيروت اساسا) ويمارسون تأثيرهم على فلسطينيي المدن والمخيمات على السواء . اما الوزن السياسي الحالي لهذه الفئة فضعيف او ضعيف جدا ، اذ ان هذه الفئة قد سقطت في اواخر الخمسينات لانها اظهرت ، بالنسبة الى سكان المخيمات ، ترددا واتخذت مواقف رجعية ومتعاونة ومساومة حول القضية الفلسطينية. فكل ما فعلوه من اجل استرجاع فلسطين كان كتابة العرائض للامم المتحدة وللدول العربية . ويمكن القول باختصار ان هذه الفئة القيادية قد سقطت لانها لم تناضل لاسترجاع فلسطين .

ثانيا ، هناك زعماء العائلات الكبيرة والذين هم في الوقت نفسه زعماء القرى (فالقرية الصغيرة تتألف من عائلتين كبيرتين او ثلاث) . ومن بين هؤلاء نجد المختار والشيخ والوجيه . زعماء العائلات هم قادة محليون وغالبا ما كانوا اتباعا لفئة الوجهاء الكبار . وما زال لزعماء العائلات نفوذ ملموس داخل المخيمات بحكم مكانتهم العائلية .

ثالثا ، هناك القادة « الجدد » او العصاميون . وهؤلاء افراد حصلوا على مكانة مرموقة وسط المخيمات بفضل نضالهم السياسي الطويل (داخل الاحزاب العربية) او بفضل تحصيلهم العلمي الرفيع او بفضل مراكزهم الوظيفية (مدراء مخيم ، اطباء ، اداريون كبار الخ) . وهذه المجموعة من القادة تمتلك قوة تأثير على الجماهير . فالناس يستمعون الى رأيهم حول المسائل المختلفة ، وقد يتصرفون حسب مشورتهم .

اما الفئة الاولى من هؤلاء القادة (اعضاء الاحزاب السياسية) فقد نجحت في قيادة قطاعات كبيرة من الجماهير ولكن لفترات محدودة . ولم يستطيعوا قيادة كل الجماهير لمدة طويلة ربما لانهم لم يبدأوا النضال المسلح لتحرير فلسطين . وكان معظم الناس يتعاطفون معهم ولكنهم لم ينضموا للاحزاب السياسية بشكل جماعي . وبالتالي فقد كان دور هذه الفئة محدودا في حجمه ولكن ليس في ابعاده كقوة محركة ومعبئة للجماهير . وقد قادت هذه الفئة النضال السياسي الفلسطيني في المخيمات لسنين عديدة .

رابعا ، القادة الفدائيون . اكتسح هؤلاء القادة كل القيادات الاخرى . وقد حصلوا على شرعيتهم القيادية بالبندقية وحدها — البندقية الموجهة نحو فلسطين . والبندقية المقاتلة هي التي اعطتهم قوة غير محدودة وشرعية تامة في نظر الجماهير الفلسطينية (والعربية) . فقد بدأوا النضال المسلح ، وتركت الجماهير كل شيء اخر وتبعتهم . وقد حققوا الحلم المنتظر لكل فلسطيني وهو بدء النضال المسلح من اجل العودة . وقد حرر القادة الفدائيون الشعب الفلسطيني من الاضطهاد والكبت الرسمي العربي ، وزودوا الجماهير بالسلاح ، وجعلوا الشعب الفلسطيني مسؤولا عن نفسه . واصبح الفدائي القائد اللامنازع في المخيمات . وقد استوعبت التنظيمات الفدائية المجموعة الثالثة من القادة وبعض افراد المجموعة الثانية . ولكنها لم تزل قوة زعماء العائلات .

ويسيطر الفدائيون سيطرة شبه تامة على الشباب (سن ١٥ — ٢٣) الذين يرفضون كل انواع القيادات التقليدية . وفي الختام يمكننا القول ان القيادة السياسية في المخيمات مضمونة للذين يقاتلون من اجل فلسطين .

التغيير الاجتماعي

السؤال الهام الذي يجب ان يسأله اي مراقب او باحث هو « ما نوع ودرجة التغيير الاجتماعي الذي حصل في المخيمات في ربع القرن الماضي ؟ » .

من الصعب ملاحظة وقياس التغيير الاجتماعي في مجتمع مغلق وغير صناعي . لذلك قد يقول العديد من المراقبين ان مجتمع المخيم كوحدة اجتماعية لم يتغير اطلاقا . ولكن هذا غير صحيح لان درجة معينة من التغيير قد حصلت . والتغيير لم يكن كبيرا ومثيرا لان القاعدة الاقتصادية للمجتمع لم تتغير .

ويمكن ملاحظة التغيير الاجتماعي في المخيمات في النواحي التالية :

أ) لقد خفت الخلافات العشائرية بين القرى المختلفة داخل كل مخيم وما لبثت ان انتهت . فمنذ عدة سنوات لم تقع اية مشاجرات جماعية بين القرى داخل المخيمات . ويرجع هذا التغيير الى عاملين هما : ازدياد الوعي الوطني عند الناس ، وازدياد عدد المتعلمين في المخيمات .

ب) حصل تغيير في نوع القيادة السياسية المقبولة جماهيريا . وكان التغيير بالاتجاه التالي : من الرفض التدريجي للقيادات التقليدية الى القبول التام بالقيادات الثورية . كذلك حصل لاول مرة ان قبلت الجماهير قيادات غير محلية مثل المسؤولين الفدائيين من غزة . وقبول هذه القيادات « الخارجية » مقتصر على المجالين السياسي والعسكري ، ولكن هناك ميلا لقبولها على المستوى الاجتماعي ايضا ، اذ يقوم الناس بدعوة القادة الفدائيين أحيانا لحل مشكلة اجتماعية ما او للتحكيم في خلاف اجتماعي ما .

ج) لقد استبدلت الحالة النفسية العامة المتصفة بالاتكالية والشعور بالعجز واحتقار الذات بحالة نفسية متصفة بالاستقلالية والشعور بالقيمة الذاتية واحترام الذات .

د) لقد تغيرت الهوية الذاتية من « لاجيء » الى « فلسطيني » .

هـ) حصل تغير بسيط او معقول في الموقف من المرأة . فبعض الرجال يسمحون الان لنسائهم (زوجاتهم ، بناتهم ، امهاتهم ، او اخواتهم) بالعمل . وبعضهم لا يعترض على الثياب الحديثة المتحررة نسبيا . وبعضهم يشجعون نساءهم على تحصيل دراسة ثانوية او جامعية او مهنية . وقد زال بشكل عام فرض « ازواج المستقبل » على الفتيات ، وان كان الاهل ما زالوا يلعبون دورا هاما في زواج بناتهم ، وقد اكتسبت الفتيات حرية الاختيار باشراف الاهل ، وحرية قول « لا » لرجل اختاره اهلها دون استشارتها . ولكن ما زالت الفتيات لا تملكن حرية الخروج مع الشبان قبل الزواج او الخطوبة (لكنهن بالطبع يخرجن سرا كما يحدث في كل المجتمعات المحافظة) .

و) هناك هوة كبيرة بين آراء الشباب وآراء الكبار حول عدة مسائل اجتماعية وحول بعض العادات والتقاليد ثم حول انماط التصرف السائدة . ولكن هذه الهوة لم تصل الى حد حدوث انفصال تام بين الجيلين ، والتوازن في العلاقة ما زال قائما نتيجة للروابط التقليدية الوثيقة . ومن الصعب جدا تقدير هذا التغير وتحديده بدون دراسة تجريبية وموضوعية .

ز) لقد نجح الشباب في تحسين علاقة المجتمع الفلسطيني في المخيم مع المجتمع اللبناني . وقد اصبح المجتمع الفلسطيني في المخيم اكثر انفتاحا ويحاول الشبان مد جسور ، على عكس آبائهم الذين كانوا سلبيين ومنعزلين على انفسهم . وهذا التغير لا يعود بالطبع الى جهود الشبان وحدها ، وانما يرجع ايضا الى تغير في البيئة وفي الظروف السياسية للفلسطينيين واللبنانيين .

الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودي
(١٨٧٠ ـ ١٩١٤)

الدكتور عبد العزيز محمد عوض

يرتبط ظهور الشخصية الفلسطينية(١) الحديثة ارتباطا وثيقـا بحركة الاستيطـان اليهودي في فلسطين ، فقد أدى الاحساس بالخطر الصهيوني الذي استهلاف العرب في متصرفية القدس وفي الاجزاء الجنوبية من ولاية بيروت والاحساس بضرورة توحيد الجهود لمقاومة ذلك الخطر المشترك الى ابراز الشخصية الفلسطينية في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى .

وكان ذلك على الرغم من عدم وجود وحدة ادارية او وحدة جغرافية سابقة تميز عرب فلسطين عن غيرهم من عرب بلاد الشام ، كما ان الكيان السياسي لفلسطين لم يبرز كوحدة قائمة بذاتها الا بعد تقسيم الولايات العربية التابعة للحـكم العثماني الى مناطق نفوذ بين فرنسا وبريطانيا بموجب اتفاقية سايكس بيكو السرية التي عقدت بين دول الحلفاء (بريطانيا ، فرنسا ، روسيا) في ربيع عام ١٩١٦ . ثم عينت الحدود الاقليمية في معاهدات ما بعد الحرب .

هذا ولم تكوّن فلسطين في العهد العثماني وحدة ادارية متكاملة ، بل كانت عبارة عن متصرفية القدس التي كانت تشمل أقضية القدس ويافا وغزة والخليل وبئر السبع. والاجزاء الادارية الجنوبية من ولاية بيروت والتي كانت تشمل لوائي عكا ونابلس،ويتبين لنا من ذلك ان تسمية الوحدات الادارية العثمانية كانت ترتبط غالبا بالمدن الهامة ولا علاقة لها بالوحدات الجغرافية او الاقليمية ، في معظم الاحيان .

وقد رافق انعدام الوحدة الادارية في العهد العثماني عدم انفراد العرب في المناطق التي ستعرف بفلسطين بعد الحرب العالمية الاولى بتشكيل جمعيات او احزاب تطالب بالاصلاح خاصة بهم ، بل اشتركوا مع غيرهم من عرب الولايات العثمانية في تأسيس الجمعيات والاحزاب المختلفة ، ذلك أن الاحساس بالانتماء الى اصولهم العربية كان اقوى من الاحساس بالانتماء الى وحداتهم الادارية او الـى وحداتهـم الجغرافيـة الاقليمية . ويعود ذلك الى وحدة الشعور العربي والى وحدة الولايات العربية تحت الحكم العثماني .

وهنا تكمن صعوبة دراسة الحركة العربية في العهد العثماني على أساس اقليمي لصعوبة الفصل بين الاتجاهات السياسية العربية وعدم استطاعة حصر اي اتجـاه منها بولاية او وحدة جغرافية معينة، لكن ذلك لا ينفي اهتمام الولايات العربية بمشاكلها الخاصة الى جانب دورها في الاسهام في الحركة العربية .

وعلى هذا الاساس لم يكن عرب فلسطين غائبين عن مسرح الاحداث العربية بل شاركوا في بلورتها واسهموا في المطالبة بالحقوق العربية من الاتحاد بين الاتراك ونالوا

نصيبا من اضطهادهم قبيل الحرب العالمية الاولى وفي اثنائها فاصابهم ما أصاب اخوانهم عرب الشام من اضطهاد ونفي وتشتيت . ولكن على الرغم من ذلك فان نشاط عرب فلسطين السياسي لم يكن كافيا(٢) بسبب انشغالهم في المسألة الصهيونية ممثلة بمشكلتي الهجرة والاستيطان .

لقد عاش العرب واليهود اجيالا في فلسطين في سلام ووئام ، ولم تكن الحوادث النادرة التي كانت تقع بينهم في بعض الاحيان سوى مظهر من مظاهر اي مجتمع متعدد الطوائف والاجناس . وبذلك كانت المنازعات القليلة التي حصلت قبل أن تتكشف أهداف الغزو الصهيوني حالات فردية وعادية(٢). فمثلا كانت العلاقات بين الفلاحين العرب والمستوطنين اليهود في بداية تكوين المستعمرات اليهودية حسنة بوجه عام وبخاصة في المستعمرات التي استخدمت اعدادا من العمال العرب في اعمالها الزراعية .

أما سكان المدن فقد اعتبروا المهاجرين اليهود الذين قدموا الى البلاد حجاجا جاءوا لدوافع دينية او لاجئين هربوا من الاضطهاد في اوروبا الشرقية . ولما كانت اعداد المهاجرين اليهود قليلة نسبيا ، ولما كانوا يتسترون ايضا على الدوافع السياسية الكامنة وراء الهجرة اليهودية فقد اظهر عرب فلسطين نحوهم شعورا يمكن وصفه بأنه غير عدائي(٤). واستمرت العلاقات بين العرب واليهود هادئة فقد كانت حاجة المستعمرات اليهودية الى العمال ماسة ، ولم يكن في وسع المستوطنين اليهود احضار العمال من الخارج نظرا للقيود المفروضة على الهجرة اليهودية الى فلسطين ، لذلك اضطروا للاستعانة بالعمال العرب .

ولكن موقف عرب فلسطين الذي كان هادئا في خلال السنوات العشر الاولى من الهجرة الكثيفة (١٨٨١ — ١٨٩١) سرعان ما انقلب الى شعور بالشك والاستنكار للهجرة اليهودية ، وبدأوا يتنبهون للخطر الصهيوني ، واصبح مألوفا ان تحصل اعتداءات من السكان العرب على المستعمرات اليهودية ، وبذلك سقطت الصداقة القديمة امام عداء عرب فلسطين للهجرة والاستيطان(٥). فقد كان احساسهم بابتعاد المستعمرات اليهودية عنهم يزداد حيث حرص اليهود على أن تكون مستعمراتهم عبرانية خالصة ، وقاوموا كل ما يخل بالشكل العبراني(٦).

وسجل عرب فلسطين اول تذمر رسمي لهم من الهجرة اليهودية في ٢٤ يونيه ١٨٩١ حينما ابرق زعماء المسلمين في القدس الى الصدر الاعظم يعربون عن تخوفهم من وصول اعداد كبيرة من المهاجرين اليهود ويطالبون بمنع اليهود من دخول فلسطين نظرا لعدم قدرة المسلمين من السكان على الصمود امام منافسة المهاجرين اليهود في النواحي الاقتصادية ؛ مما ينجم عنه سوء الاحوال الاقتصادية للسكان ، وتضمن رد الصدر الاعظم على برقية مماثلة من متصرف القدس منع اليهود من الاقامة في فلسطين والسماح لهم بزيارة القدس لفترة قصيرة حددت بثلاثة اشهر . وفي العام التالي (١٨٩٢) أصدر الباب العالي قرارا بمنع اليهود الاجانب واليهود العثمانيين من تملك الاراضي الاميرية(٧). وقد أدى ذلك القرار الى احتجاج اليهود العثمانيين فتدخلت بعض الدول الكبرى — آنذاك — في الموضوع كعادتها واستطاعت ان تقلل من فعالية قرار المنع(٨).

وقد اهتمت الصحف العربية بالحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في بال (اغسطس ١٨٩٧) وتمثل ذلك في مجلة المقتطف في ابريل ١٨٩٨(٨). وقد استبعدت المقتطف امكانية استعمار فلسطين لان اليهود المهاجرين الى فلسطين حتى

عام ١٨٩٨ كانوا أهل صناعة وتجارة ولا يظن أنهم سيعكفون على الفلاحة وان كان في وسع اغنياء اليهود ابتياع الجانب الاكبر من اراضي فلسطين ونقل اليهود الفقراء اليها، لكن المقتطف عادت فاستبعدت ذلك للاسباب التالية :

ـــ ان هناك بونا شاسعا بين ما يمكن للانسان ان يعمله وبين ما يقدم عليه .

ـــ ان هذا النقل ليس بين الهنات الهينات .

ـــ ان اغنياء اليهود لن يواصلوا نقل اليهود باستمرار وان المحسنين منهم كالبارون هرش وامثاله الذين ينفقون الاموال الطائلة شيء نادر .

ـــ ان نقل اليهود الى فلسطين وابتياع الارض من الحكومة ومن أصحابها اصعب من نقلهم الى الارجنتين .

ـــ ان طلب كفالة الدول الاوروبية وحمايتها لليهود الذين سينقلون الى فلسطين عقبة كبيرة ، لان الدولة العثمانية لا ترضى بذلك عن طيب نفس .

هذا ما أورده المقتطف من أسباب استبعاد فكرة استيطان اليهود فلسطين على نطاق واسع وبالمقابل يتبين لنا ما يلي :

ـــ التقليل من شأن المطامع الصهيونية في ذلك العهد المبكر نسبيا ، وعدم معرفة حقيقتها وبالتالي الخطأ في تقدير قيمتها واغماض العين بحجة ان ذلك المشروع مستحيل التحقيق .

ـــ عدم معرفة نوعية المهاجرين اليهود الى فلسطين ، فقد ادعت المقتطف خطأ ان المهاجرين كانوا من ارباب الصناعة والتجارة وغاب عن بالها ان البلاد بدأت تشهد نوعا جديدا من المهاجرين اعتبارا من ١٨٨١ تمكن من تأسيس المستعمرات الزراعية واشتغل في الزراعة ، وعلى الرغم من ذلك كله فقد كانت المقتطف من أوائل الصحف العربية التي أبدت اهتماما مباشرا بالحركة الصهيونية .

وبعد اسبوعين اعيد نشر مقال المقتطف في مجلة المنار ثم عقب محمد رشيد رضا عليه بعنوان « خبر واعتبار ـــ جمعية اليهود الصهيونية » خاطب فيه العرب داعيا اياهم الى التنبه قائلا « أترضون ان يسجل في جرائد جميع هذه الدول ـــ يقصد الاوربية ـــ ان فقراء اضعف الشعوب الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل اربابها اجراء واغنيائها فقراء »(٩). ثم عاود محمد رشيد رضا الكتابة في موضوع الصهيونية فكتب مقالا في عام ١٩٠٢ بعنوان « حياة امة بعد موتها ـــ جمعية اليهود الصهيونية » فضح فيه أطماع الجمعية الصهيونية وكيف انها تتظاهر بنقل فقراء اليهود الى فلسطين للعيش في ظل السلطان العثماني بينما هي في واقع الامر تطلب تملك البلاد، ثم حمل على الحكام المسلمين ـــ آنذاك ـــ وطلب من الامة عدم الاعتماد عليهم(١٠)، وفي مايو ١٩٠٣ اتهم اليهود بالعمل على الاستقلال بفلسطين واحداث ملك جديد لهم فيها(١١).

وهكذا حذرت المنار منذ اعدادها الاولى من الخطر الصهيوني الذي كان يحاول التسلل الى فلسطين ، وقد دل محمد رشيد رضا بمقالاته عن الصهيونية التي ظل ينشرها تباعا في مجلته (المنار) منذ عام ١٨٩٨ وحتى قيام الحرب العالمية الاولى ، دل على فهم وأدراك عميقين لحقيقة الحركة الصهيونية وابعاد مطامعها .

وفي أعقاب الموجة الثانية من الهجرة اليهودية التي أخذت تتدفق على ميناء يافا بعد

فشل الثورة في روسيا في عام ١٩٠٥ بتحريض من الحركة الصهيونية التي تبنت فكرة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، اشتد العداء بين العرب واليهود فقد رافق الموجة الصهيونية طرد الفلاحين والعمال العرب من المستعمرات الصهيونية بالاضافة الى المقاطعة الصهيونية المنظمة للمنتوجات العربية ، ونتج عن ذلك ان ساد التذمر أوساط العرب الذين تأثروا مباشرة بتصرفات الصهيونيين العنصرية . فوقعت مصادمات في يافا بين العرب واليهود في مارس ١٩٠٨ استدعت على أثرها الحكومة المركزية في استانبول قائمقام يافا للتحقيق معه في أسباب الاضطرابات(١٢).

لكن الاوضاع اخذت شكلا جديدا بعد ثورة يوليه ١٩٠٨ في الدولة العثمانية فقد شارك اليهود الطوائف الاخرى ابتهاجها باعلان الدستور العثماني من جديد ، بل فاق يهود القدس جميع الطوائف في اظهار عواطفهم فنشط الخطباء منهم وبالغت جرائدهم المحلية في الترحيب بالعهد الجديد(١٣)، ورفعت الحركة الصهيونية علمها في يافا وصرح الصهيونيون بوجوب تمثيلهم في مجلس المبعوثان ليتمكنوا من عرض قضيتهم والمطالبة بالحكم الذاتي في فلسطين(١٤)، غير أن الفلاحين العرب في قضاء طبريه اخذوا يهاجمون المستوطنين اليهود والمستعمرات اليهودية ، واتهم نجيب نصار ــ صاحب جريدة الكرمل في حيفا ــ بأنه كان وراء ذلك النشاط .

وكان نجيب نصار قد أخذ على عاتقه منذ صدرت جريدة الكرمل في اواخر ١٩٠٨ معارضة الحركة الصهيونية ، وقد عطلت جريدته مرتين في عام ١٩٠٩ بتهمة الاخلال بالامن ثم حوكم في عام ١٩١٠ لمعارضته تملك اليهود للاراضي وبتهمة اثارة الخواطر، لكنه برىء من التهمة ، وفسر الدافع لمقالاته التي عارض فيها انتقال الاراضي لليهود بالاخلاص والرغبة في خدمة الدولة العثمانية(١٥). ولكن ازاء احساس نصار بحقيقة الخطر الصهيوني ، فقد استمر في حمل لواء مناهضته الحركة الصهيونية ، فاضحا اطماعها وسعيها لامتلاك الارض واقامة الدولة اليهودية . وكاشفا زيف ادعاءات اليهود العثمانيين ومهيبا بالعرب ان يهبوا جميعا لمقاومة الغزو الصهيوني العنصري لفلسطين بجمع الكلمة ووحدة الصف(١٦).

وبعد استعادة الاتحاديين للسلطة وعزلهم السلطان عبد الحميد الثاني في أبريل ١٩٠٩ اتهمت جريدة « نهضة العرب » التي كان يصدرها في باريس نجيب عازوري اتهمت الاتحاديين بالتحالف مع اليهود والماسونيين وان اليهود تسلطوا على جمعية الاتحاد والترقي ، وانهم دبروا ثورتها على السلطان بهدف ايجاد الفوارق بين الاتراك والعرب من أجل هدم الامبراطورية العثمانية واقامة مملكة يهودية على انقاضها. ومثل هذه الافكار لم تكن بين العرب فقط بل كانت بين قسم من الاوربيين أيضا ، كما وجدت طريقها الى وزارة الخارجية البريطانية(١٧).

وفي النصف الثاني من عام ١٩٠٩ وجهت جريدة الاهرام هجوما مباشرا للحركة الصهيونية لاطماعها السياسية في فلسطين ، فتحدثت في المقالات التي نشرتها عن مؤتمراتهم الصهيونية وعن بحث الاسرائيليين عن وطن لهم في فلسطين ، وفي مقال بقلم احد ابناء القدس اشارت الاهرام الى طمع الصهيونيين بالاستقلال في فلسطين ، وكيف ان المستعمرات الصهيونية أشبه بولايات مستقلة لا تخضع لقوانين الدولة وأنظمتها بدعوى انها اجنبية ، وطالبت الحكومة العثمانية بوضع حد للاطماع الصهيونية في فلسطين(١٨). ومع ازدياد الشعور بالخطر الصهيوني طلب مبعوث القدس في مجلس المبعوثان العثماني فعالية اجراءات منع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، فأعادت الحكومة العمل بالقيود التي فرضت في نوفمبر ١٩٠٠(١٩).

ثم اتخذت المعارضة العربية شكلا جديدا في النصف الاول من عام ١٩١٠ فأرسلت برقيات احتجاج جماعية الى الحكومة العثمانية في استانبول ضد بيع الاراضي لليهود وقامت الصحف العربية بنشر تلك البرقيات ، كما حثت برقيات اخرى المبعوثين العرب للحصول على تأكيد من طلعت بك(ناظر الخارجية)بأن اجراءات محكمة ستتخذ لمنع دخول اليهود الى فلسطين وتمليك الارض لهم(٢٠). وذهبت جريدة المقتبس الدمشقية الى أبعد من ذلك في خريف ١٩١٠ عندما اتهمت الحكومة العثمانية بازالة العقبات التي كانت قائمة في طريق الاستيطان اليهودي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني(٢١). كما قامت بنشر خطاب مفتوح في اواخر ١٩١٠ اوضحت فيه استيلاء الحركة الصهيونية على أجزاء من أقضية طبريه وصفد ويافا والقدس وحيفا بأسماء الرعايا العثمانيين وبواسطة السماسرة الذين يعدون أنفسهم من الاعيان ، ولفتت الانتباه الى أن الحركة الصهيونية لها علمها وبريدها الخاص وتعمل على تكديس السلاح ، واستدلت بذلك على شروعها في تنفيذ مخططاتها الصهيونية واهابت بالنواب والحكومة وضع حد للاطماع الصهيونية قبل أن تصبح فلسطين ملكا لليهود .

وفي خريف ١٩١٠ ايضا اثارت الصحف العربية ضجة عندما باع الياس سرسق من بيروت اراضي مساحتها (٢٤٠٠) فدان — وتقع بين الناصرة وجنين وتعتبر من أجود أراضي فلسطين — للصهيونيين ، وقد بذل شكري العسلي قائمقام الناصرة آنذاك أفضل مساعيه لمنع انتقال الاراضي معارضا الاوامر الصادرة من بيروت لكن البيع تم نهائيا في يناير ١٩١١(٢٢).

وفي مايو ١٩١١ وخلال مناقشة الموازنة اثار مبعوث القدس روحي بك الخالدي المسألة الصهيونية من جديد لكن التوقيت كان سيئا . لذلك عندما القى روحي بك الخالدي مقدمة تاريخية طويلة عن الصهيونية مستعينا بفقرات من التوراة احتج أحد المبعوثين قائلا « ان الجلسة يفترض ان تكون لدراسة الموازنة وليس لدراسة التوراة »(٢٣). ومهما يكن من أمر فقد تلقى المبعوثون العرب تعهدا ادبيا بأن الحكومة العثمانية ستنظر بعناية لتنفيذ القيود المفروضة على الهجرة اليهودية .

وفي هذه الاثناء تشكل في يافا الحزب الوطني وكان هدفه الحيلولة دون تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين وذلك بمنع التعامل مع المؤسسات الصهيونية وحظر بيع الاراضي لها . وقد بين سليمان التاجي من الرملة في صيف ١٩١١ اهداف الحزب الوطني في مقال نشرته له جريدة المفيد البيروتية ، عرض فيه لاخطار الحركة الصهيونية واوضح أن سكوت الامة عن خطرها استفز غيرة الشبيبة فأسست « حزبا وطنيا » للعمل على مناهضة الحركة الصهيونية واهاب بالامة ان تستيقظ من غفلتها وتطالب الحكومة بما يلي :

١ — سد باب المهاجرة الى فلسطين وذلك بتطبيق قانون الجواز الاحمر — الورقة الحمراء — .

٢ — منع بيع الاراضي لليهود مع احصاء نفوسهم بدقة واعطاء العثمانيين منهم تذاكر نفوس تتضمن اسماءهم الحقيقية .

٣ — تطبيق نظام المعارف العثماني على المدارس اليهودية .

٤ — عدم جواز عقد الاجتماعات الخاصة الا بعد اعلام الحكومة وأخذ موافقتها .

٥ — احصاء الاملاك واراضي المستعمرات واستيفاء الامـوال الاميرية من اليهود لصالح الخزينة ، كما أشار الى أن الحزب يقوم باحياء ليلة خطابية في كل اسبوع(٢٤).

وعندما عاد روحي الخالدي الى القدس في صيف ١٩١١ حث الموظفين العرب في متصرفية القدس العمل على منع انتقال الاراضي لليهود . وفي ديسمبر ١٩١١ بدأت شورى الدولة بالبحث لسن قانون يمنع اليهود الاجانب الهجرة الى بلاد الشام تنفيذا للوعد الذي قطعته الحكومة على نفسها للمبعوثين العرب(٢٥).

وفي عام ١٩١١ ايضا جمع نجيب نصار مقالاته التي كان ينشرها عن الحركة الصهيونية في اعداد جريدة الكرمل ونشرها في كتاب بعنوان « الصهيونية ، تاريخها ، غرضها ، أهميتها » . وفي مجموعة المقالات هذه تعرض نصار بالبحث والتعليق لمراحل الحركة الصهيونية ، وفضح الاسس العنصرية التي قامت عليها ، كما سخر من اسلوبها في التمويه والتضليل وحمل أيضا على الذين كانوا يمنون انفسهم بالانتفاع من الصهيونيين في تعمير البلاد واتهمهم بالجهل والسطحية وان الصهيونية قد غررت بهم ، كما هاجم الحكومة ايضا لعدم اهتمامها بمنع الهجرة اليهودية واشار الى رفع اليهود لعلمهم اثناء الاحتفالات وبيع الطوابع اليهودية تحت سمع الحكومة وبصرها(٢٦).

وادرك عرب فلسطين حقيقة تواطؤ الحكومة العثمانية سواء الاتحادية منها ام الائتلافية بسبب افلاس خزينتها وأمل المسئولين في سد العجز من أموال الحركة الصهيونية ، لذلك هاجمت جريدة فلسطين التي كانت تصدر في يافا الحكومة الائتلافية في خريف ١٩١٢ ووصفت الاوامر العديدة التي صدرت بمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين ومنع الاستيطان واستملاك الاراضي بانها كلها حبر على ورق بما فيها الورقة الحمراء التي تحدد اقامة اليهودي الاجنبي في فلسطين بثلاثة اشهر فقط . وعقدت جريدة فلسطين مقارنة بين الاوامر التي تمنع هجرة اليهود الى فلسطين وتلك التي تمنع هجرة ابناء فلسطين الى امريكا فقالت بانها لم تحقق الاغراض التي سنت من اجلها بل استعملها الموظفون لشيء اخر وهو اكتساب المال فكأنها سنت لفائدتهم وصدرت لمنفعتهم(٢٧).

واهتمت الصحف المعادية للحركة الصهيونية (الكرمل ــ فلسطين ــ المقتبس) بمسألة الاراضي المدورة وهي الاراضي التي وضع السلطان عبد الحميد يده عليها مقابل دفع زهيد من المال لخزينة الدولة وعرفت باسم « الجفتلك » وقد استولت عليها الحكومة العثمانية بعد ثورة ١٩٠٨ باعتبارها من أملاك الدولة وسميت هذه الاراضي عندئذ بالمدورة اي « المتنقلة » لانها انتقلت من ملكية السلطان الخاصة الى ملكية الدولة . وقد لعبت مسألة الاراضي المدورة دورا هاما في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨ ــ ١٩١٤) . ذلك ان حكومة حزب الاتحاد والترقي استثنت هذه الاراضي من التطويب بهدف بيعها لحاجتها للمال العاجل فقام المزارعون العرب فيها يطالبون بتطويبها لهم ببدل المثل وبالتقسيط ، كما احتجوا ضد الحكومة المركزية التي تريد بيع اراضيهم دون مسوغ قانوني الى شركات اجنبية ذات اغراض سياسية تستهدف اخراجهم من أراضيهم(٢٨).

وقد ارتبط موضوع الاراضي المدورة في فلسطين بمشروع الاصفر ، لذلك هاجمت الصحف العربية آنذاك المشروع بعنف لانه يهدد باستيلاء الاجانب على الاراضي المدورة ، وقد نظرت الحكومة العثمانية في المشروع اكثر من اربع مرات منذ مايو ١٩١٠ ولم توفق في اتخاذ قرار بشأنه وكان دافع الحكومة في كل مرة حاجتها الماسة الى المال ، واخيرا صرف مجلس شورى الدولة النظر عن مشروع الاصفر ، وكان للوزير العربي سليمان البستاني دور في اقناع حكومة حزب الاتحاد والترقي بالاستجابة لمطلب العرب، واعلنت الحرب العالمية الاولى ولما تتخذ الحكومة قرارا بشأن مستقبل الاراضي المدورة.

ويمكننا القول أن مشروع الاصفر كان من بين الاسباب التي عملت على توحيد الجهد الفلسطيني لمواجهة الخطر الصهيوني ، فعندما لمحت الحكومة في صيف ١٩١٣ الى نيتها الاخذ بالمشروع تنادى السكان العرب في لواء نابلس فعقدوا اجتماعا كبيرا في نابلس في اغسطس ١٩١٣ للمطالبة بصرف النظر نهائيا عن مشروع بيع الاراضي المدورة بالمزاد العلني — مشروع الاصفر — واعطائها ببدل المثل وبالتقسيط للمزارعين العرب الذين نزعت ملكية الاراضي من ايديهم بوسائل غير مشروعة. ودعت جريدة المقتبس الدمشقية الصحف العربية الاخرى وأهل الرأي وأصحاب الاملاك الى اكراه الحكومة على بيع الاراضي الاميرية للعثمانيين فقط .

وفي صيف ١٩١٣ اقدم الصهيونيون على شراء اراضي الناصرة الزراعية ومساحتها ٢٢٫٠٠٠) دونم من جرجي لطف الله سرسق(٢٩)، وكانت هذه الاراضي قد بيعت من قبل والي بيروت منذ اكثر من ثلاثين عاما حوالي عام (١٨٨١) وكان يقيم عليها اكثر من مئتي عائلة عربية . كما شهد صيف عام ١٩١٣ أيضا قيام الفلاحين العرب بمهاجمة المستعمرات اليهودية وقتل حراسها ، وقد ربط الصهيونيون ذلك بحسد الفلاحين لهم من ناحية ولاستجابة الاتحاديين للمطالب العربية في أعقاب المؤتمر العربي في باريس من ناحية اخرى(٣٠).

وهكذا اتبعت الحركة الصهيونية الخطة التي اقترحها هرتزل والتي تتلخص في نزع ملكية الاراضي من اصحابها العرب ثم التخلص من الفلاحين على أن يتم ذلك بسرية ، وأبعادهم عن الارض بتوفير فرص العمل لهم في خارج فلسطين ، واغلاق مجالات العمل امامهم في فلسطين حتى يضطروا للنزوح عنها ، ولا يفكروا في العودة اليها في المستقبل، وكان هرتزل يرى أيضا انه لا بأس اذا اعتقد أصحاب الارض العرب أنهم يغشون الحركة الصهيونية ببيعهم الاراضي لها بأكثر من قيمتها الحقيقية ، فان الارض لن تعود اليهم مرة ثانية(٣١).

وثمة ظاهرة اخرى على جانب كبير من الاهمية ظهرت في ربيع ١٩١٣ وهي الاعلان عن تشكيل جمعيات فلسطينية في انحاء متفرقة من الدولة العثمانية، ونستطيع القول أن الاحساس بالخطر الصهيوني المشترك ، والاحساس بضرورة توحيد الجهود لمقاومته كان وراء تشكيل هذه الجمعيات التي عملت على ابراز الشخصية الفلسطينية قبل الحرب العالمية الاولى. وكانت جمعية فلسطين في بيروت التي الفها الطلاب الفلسطينيون في جامعة بيروت الامريكية « لضم الكلمة وجمع الشتات » والتي زاد عدد اعضائها في صيف ١٩١٣ عن اربعين عضوا كان ابرزهم احمد سامح الخالدي من اوائل هذه الجمعيات(٣٢).

ومع الاحساس ايضا باشتداد الخطر الصهيوني ، لا سيما بعد احجام المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس في يونيو ١٩١٣ عن التعرض لموضوع الهجرة اليهودية الى فلسطين دعا نجيب نصار — صاحب جريدة الكرمل — الى عقد « مؤتمر لا صهيوني »(٣٣)في نابلس يضم جميع الفلسطينيين ردا على المؤتمر الصهيوني الحادي عشر الذي كان متوقعا عقده في فيينا في سبتمبر ١٩١٣ ، ووجدت دعوة نصار هذه تجاوبا في اوساط المثقفين الفلسطينيين ، فأخذنا نسمع عن جمعية للشبيبة الفلسطينية في الاستانة تؤيد عقد المؤتمر الفلسطيني لمقاومة الصهيونية(٣٤) . كما لاقت تأييدا من بعض المتنورين في متصرفية القدس(٣٥) . ثم استمر نصار في الدعوة الى ابراز الشخصية الفلسطينية وتمييزها عن غيرها ، وان فلسطين بما فيها من أعيان ومتعلمين تؤلف جامعة — رابطة — قوية لا يصح معها أن تكون عالة على

بيروت أو دمشق وحتى على الحكومة العثمانية . ثم خلص الى القول « ... مالنا وللبيروتيين ، نحن الفلسطينيين على شفا جرف فالخطر السياسي والاجتماعي والاقتصادي يهددنا من كل صوب والامة التي تنازعنا البقاء في وطننا برهنت على كونها أمة حية قوية تعمل لنفسها وتعتمد على نفسها »(٣٦).

ولم يكف نصار عن الدعوة الى ابراز الشخصية الفلسطينية ، ففي فبراير (١٩١٤) دعا أهل فلسطين الى « تأليف جامعة عربية فرعية في فلسطين تنبثق عن الجامعة العثمانية » يكون هدفها انقاذ فلسطين من خطر الصهيونية بتأليف القلوب وجمع الكلمة ، ثم حذر من انه اذا تألفت في فلسطين جامعة غير عربية ــ يقصد الصهيونية ــ هددت الجامعة العربية سياسيا واقتصاديا وبالتالي الجامعة العثمانية(٣٧).

وميّز نصار الفلسطيني عن غيره بحكم متاعبه مع الخطر الصهيوني ، وطلب من الشبيبة الفلسطينية ان لا تكون ذيلا للاعيان والمتنفذين واصحاب الغايات الذين يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، ثم كرر الطلب بتاليف جامعة تعمل على توحيد الكلمة واحياء الزراعة واصلاح شأن البدوي والفلاح . وتقوم بافهام العرب الاضرار التي ستلحق بهم من جراء سيطرة الصهيونية على فلسطين ، وأفهام الاتراك ان ضياع فلسطين لا يتفق مع مصالح الدولة العثمانية . ثم دعا الفلسطينيين ان يأخذوا زمام أمورهم بأيديهم قائلا « وليعلم الفلسطينيون ان كل من يهمل شئونه أهملته الناس »(٣٨).

وفي ابريل ١٩١٤ جدد نصار الدعوة لعقد مؤتمر نابلس(٣٩) ثم دعا الى تاليف حزب وطني اخر يعمل على تكوين رأي عام لمقاومة الحركة الصهيونية(٤٠) لان الواجب ــ في نظره ــ يحتم على الفلسطينيين مقاومة الصهيونيين واخراجهم من البلاد . ويرى نصار ان هذا الواجب « أعظم وأشرف من واجب الصهيونيين المتمثل باخراج الفلسطينيين من ديارهم لانه دفع تعد ومنع ظلم »(٤١).

ولقيت دعوة نجيب نصار بعض التجاوب ، فتشكلت جمعيات جديدة للشبيبة الفلسطينية ، كالشبيبة النابلسية في بيروت واليافية في يافا ، ثم تشكلت جمعية فلسطينية جديدة في الاستانة هدفها السعي لجمع كلمة الفلسطينيين وضمت أبناء القدس ويافا وغزة ونابلس وعكا والناصرة ، وكان في مخططها اتخاذ القدس مركزا لها وفتح فروع لها في انحاء فلسطين على ان يكون لها فرع دائم في الاستانة(٤٢).

وهكذا ازداد الشعور بالخطر الصهيوني بين الفلسطينيين في الخارج في صيف ١٩١٤ فنوسعوا في انشاء الجمعيات المختلفة في بيروت والقاهرة والاستانة والتشيلي(٤٣) وقامت الشبيبة في القدس ايضا بانشاء بعض الجمعيات مثل « جمعية الاخاء والعفاف » و « شركة الاقتصاد الفلسطيني العربي » وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية(٤٤). لكن هذه الجمعيات على كثرتها كان يعوزها التنظيم ، ولم يكن ثمة رابطة بينها ، فقد كان الحافز لتأسيسها احساس الافراد والجماعات بالخطر الصهيوني ، ومحاولة لاثبات الوجود العربي في فلسطين ، ولما كان معظم هذه الجمعيات خارج فلسطين فقد كان تأثيرها في اوساط السكان محدودا لذلك لم تستطع ان تفعل شيئا ملموسا لانجاح دعوة نصار لعقد مؤتمر فلسطيني في نابلس وهي الدعوة التي ظل يدعو اليها بالحاح قرابة عام ولكن دون جدوى .

ومهما يكن من أمر فقد اوجد نصار بحمله لواء مناهضة الصهيونية اتجاها معاديا لها في اوساط الشبيبة الفلسطينية، اما الاعيان واصحاب الاملاك فقد ادى تقريعه المستمر لهم الى عدم المبالاة بنتائج التشهير بهم ، ونستطيع ان نلمس الاثر الذي اوجده نصار

في الراي العام الفلسطيني على صفحات جريدة الكرمل(٤٥) حيث كان ينشر رسائل القراء المشجعة والمثبطة على حد سواء، فكان بعضها يطلب منه الاستمرار في مناهضة الصهيونية وخدمة وطنه(٤٦) والبعض الاخر يعذله بسبب اتهام البعض له بالسعي للحصول على أموال من الصهيونيين ثمنا لسكوته ، وينصحه باغلاق الجريدة وبيع المطبعة والرحيل عن « بلاد لا ناقة له فيها ولا جمل »(٤٧) واخرون يذكرون له ان حملاته على الصهيونية جاءت بنتائج عكسية ، فقد شجعت حركة بيع الاراضي لليهود علنا بعد ان كانت تتم سرا وان دعوته لتشكيل الجمعيات لم تلق استجابة من أحد ، ويفلسفون ذلك لان الفقراء وهم الكثرة لا يستطيعون والمتوسطين يتوسطون لبيع الاراضي والاغنياء يبيعون ، لذلك يرى هؤلاء ان يدع نصار الفلاحين يبيعون لليهود مباشرة ليتخلصوا من المبالغ التي يدفعونها للسماسرة(٤٨).

ولعله يجدر بنا أن نتعرف على رأي نصار في النتائج التي توصل اليها بعد سنوات من مناهضة الصهيونية يكتب في اغسطس ١٩١٣ « ... صار لنا خمس سنين ونحن ننبههم الى خطر الصهيونية العظيم وهم لا يسمعون ولا يعون بل هم لاهون في اشباع شهواتهم وفي منازعاتهم ومشاحناتهم وغافلون عما يحدق بهم من الاخطار ، دعوناهم الى تأليف مؤتمر لا صهيوني ... فما سمعنا لدعوتنا الا اصداء قولية ضعيفة أشبه بأنات العليل »(٤٩). ثم عاود الشكوى من قلة المستمعين لدعوته بعد ذلك بثمانية أشهر في أبريل ١٩١٤(٥٠).

ولا بد لنا من القول أن نصار كان مبالغا في شكواه فهو كصاحب اي فكرة يطلب المزيد من التجاوب والتفاعل مع دعوته ذلك أن الاهتمام بالحركة الصهيونية قد بدأ في أوساط عرب فلسطين في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، وان لم يكن بالدرجة التي يريدها نصار ، وهذا ما سبق ورأيناه في موقف عرب فلسطين المدائي من حركة الاستيطان اليهودي .

كما وقف عرب فلسطين موقفا حازما وحاسما من محاولات التفاهم والاتفاق التي جرت بين الاصلاحيين العرب والحركة الصهيونية في عامي ١٩١٣ و١٩١٤ . وقد سبق وذكرنا كيف ان المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس يونيه ١٩١٣ قد أحجم عن التعرض بسوء الهجرة اليهودية ، ولم يمر موقف المؤتمر دون ملاحظة صحف فلسطين ويبدو انها أحست بمحاولات التفاهم والاتفاق مع الحركة الصهيونية بتأثير عاملين :

الاول : عدم اشارة المؤتمر بسوء الى الهجرة اليهودية بعد نشر محاضر جلساته بعد تنقيحها .

والثاني : — تسرب ما دار في المؤتمر من مناقشات حول موقف الاصلاحيين العرب من الهجرة اليهودية ، وافتضاح معارضة المؤتمرين للهجرة التركية وسكوت الاعضاء عن ترحيب بعضهم بالهجرة اليهودية .

ولما كان الشعور الشعبي في فلسطين شديد المناوءة للحركة الصهيونية فقد أعربت صحف فلسطين عن استيائها واستنكرت تقصير المؤتمر العربي في اتخاذ موقف حازم من الصهيونية ، كما انتقدت صحيفتا الكرمل وفلسطين مواقف الذين حضروا المؤتمر واحتجت الكرمل بشدة على فكرة عقد الاتفاق المقترح ، وبدأت مظاهر المعارضة لقرارات المؤتمر العربي عندما نشرت الكرمل الاتفاق بين الحكومة العثمانية والاصلاحيين العرب وقرار الحكومة العثمانية ببيع الاراضي المدورة والتي لا تستطيع ان تقدم على شرائها الا المنظمة الصهيونية في خبر واحد(٥١). ثم عقبت بعد ذلك على الاتفاق العربي — التركي . وتساءلت عن حقيقة الاتفاق الذي تم واهميته بالنسبة

لفلسطين ، وعما اذا كان الاتفاق قد تعرض للحد من نشاط الحركة الصهيونية ام تركها تعمل على احياء اللغة العربية والقومية اليهودية وتشتري الاراضي المدورة(٥٢).

أما جريدة فلسطين التي كانت تصدر في يافا فقد سخرت في يوليو ١٩١٣ من اهتمام الشيخ احمد طبارة ــ عضو الوفد البيروتي الى المؤتمر العربي ــ ببيان ما في مهاجرة منكوبي الروملي لسورية من الاضرار وتجاهله اخطار الهجرة اليهودية الى فلسطين وتساهل الحكومة العثمانية في تنفيذ قيود الهجرة وما سينجم عن ذلك من مشاكل في المستقبل(٥٣). وتناولت الكرمل الموضوع بتفصيل اكثر وفضحت زعماء المؤتمر العربي لتهاونهم في بحث موضوع الهجرة الى فلسطين في الوقت الذي طلبوا فيه توطين مهاجري الروملي في الاناضول بدلا من بلاد الشام وكيف ان زعماء المؤتمر لم يذكروا شيئا عن أضرار تمليك الارض للاجانب والجمعيات الصهيونية لمندوبي الحكومة العثمانية الذين جاءوا باريس للاتفاق معهم . وتهكم نصار عليهم قائلا « ... ان مهاجري الروملي يستعربون مع الزمن لان بيننا وبينهم روابط ومناسبات ــ لعله يقصد مصاهرات ــ ولكن مهاجري الصهيونيين لا يمتزجون بشعب » ثم انكر عليهم موقف المتفرج من محنة اخوانهم عرب فلسطين(٥٤)، وتساءل « ... نريد معرفة من يبيعنا عبيدا ؟ اخواننا ام هيئة حكومتنا »(٥٥).

وعادت جريدة فلسطين فهاجمت المؤتمر ثانية في اغسطس ١٩١٣ واتهمته بعدم شرعية تمثيله للعرب لانه لم يتم انتخابه من قبل المجالس المحلية باستثناء الوفد البيروتي ، وذكرت ان ما يهم الفلاح الفلسطيني قبل كل شيء تسجيل الاراضي وتأسيس المصارف الزراعية وتخليصه من سلطة المتنفذين عليه وتوفير الامن والعدل له(٥٦).

ومما زاد في حدة موقف عرب فلسطين ازاء محاولات التفاهم والاتفاق مع الحركة الصهيونية اقدام الحكومة العثمانية في اكتوبر ١٩١٣ على الغاء القيود المفروضة على الهجرة اليهودية طمعا في الحصول على الرأسمال اليهودي من اوروبا ، وكانت السلطات العثمانية قد درجت منذ عام ١٩٠١ على منح اقامة مؤقتة لمدة ثلاثة اشهر وكانت جريدة الكرمل قد تنبهت الى ذلك قبل ان تتخذ الحكومة قرار الالغاء ، فقد لاحظت تساهل حكومة حزب الاتحاد والترقي في تنفيذ القيود ، فنددت في مايو ١٩١٣ بموقف الحكومة ، وذكرت انه اذا كان السلطان عبد الحميد قد استولى على قسم من الاراضي والمتنفذون على قسم اخر ، فان الحكومة تملكها للاجانب ذوي الاطماع السياسية وتساءلت عن أوامر الحكومة بالعمل بالورقة الحمراء ومنع تمليك الصهيونيين وعن الارادة السنية بمنع انتقال الاراضي على جانبي الخط الحديدي الحجازي الذي يمر وسط الجفالك الاميرية وتساءلت ايضا عن موقف الصحف الاتحادية الداعية للجامعة الاسلامية(٥٧).

أما جريدة فلسطين ، فنشرت قرار الغاء الورقة الحمراء ثم علقت عليه فذكرت ان الالغاء لم يأت بجديد لان الجوازات كانت ترد لاصحابها بطرق غير مشروعة ، وكان يسمح لليهود بالاقامة في البلاد ، وكل ما في الامر ان اعترفت الحكومة بالامر الواقع رسميا فسمحت لليهود بالهجرة الى فلسطين دون قيد(٥٨). كما عزت جريدة القبس (التي صدرت بدلا من المقتبس في دمشق) الغاء الورقة الحمراء الى التدابير التي اتخذها المؤتمر الصهيوني الحادي عشر الذي عقد في فينا سبتمبر ١٩١٣(٥٩).

ولذلك ظل عرب فلسطين يرفضون محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية فقد كانوا يعتقدون انها تريد ابتلاع فلسطين والاستقلال الاداري التام بها ، بل أن الحركة

الصهيونية قامت بتنفيذ مخططها واستولت على قسم من البلاد لذلك طالبوا الحكومة العثمانية بتلبية دعوة السكان لايقاف الخطر الصهيوني قبل ضياع فلسطين(٦٠).

ولما أخذت الحركة الصهيونية تغدق الوعود على الاصلاحيين العرب نهض عيسى داود العيسى ــ صاحب جريدة فلسطين ــ للرد على تضليلها للرأي العام العربي واوضح الرفق الكبير بين تصريحات الزعماء الصهيونيين على صفحات الجرائد العربية وبين القرارات التي يتخذونها في مؤتمراتهم ، واستشهد بما يلحق بأهالي فلسطين من افعالهم وأكد أن جميع التصريحات الصهيونية ما هي الا تمويه وخداع كوسيلة لتضليل الرأي العام(٦١).

وعندما أبدى رفيق العظم ــ رئيس حزب اللامركزية ــ في اول يونيو ١٩١٤ استعداده للسعي لدى أعيان فلسطين لانتخاب ممثلين عنهم في المؤتمر المقترح عقده في القاهرة بين حزب اللامركزية والحركة الصهيونية عارض نجيب نصار هذا الاقتراح بشدة وذكر ان اتفاق العرب والصهيونيين مستحيل ، وتعجب كيف يتم الاتفاق مع قوم يقررون في مؤتمراتهم العمل على ايجاد وطن يهودي في فلسطين ، وحمل على اعيان فلسطين بعنف فقال : « ... ان مصائب فلسطين تأتيها من بعض سراتها اكثر مما نأتيها من الصهيونيين ، لان هؤلاء السراة هم سماسرة الصهيونيين والبياعين لهم » . ثم نوهت الكرمل بدور الشبيبة الفلسطينية التي اخذت تدرك حقيقة خطر الحركة الصهيونية(٦٢) ثم هاجم نصار بعنف كل من شبلي شميل ويعقوب صروف ونمر فارس ورفيق العظم لموقفهم المتخاذل من الحركة الصهيونية واتهمهم باهمال الواجب الوطني والسعي وراء المنافع الخاصة ، ومحاولة كم افواه المعارضين للحركة الصهيونية وتخدير المتنبهين لخطرها(٦٣).

وعندما عرّض نصار بالاصلاحيين العرب وبجرائدهم وتهكم عليهم مستفسرا « ... عما اذا كان بيع الاملاك للصهيونيين داخلا في موادهم الاصلاحية » . رد عليه الشيخ احمد طبارة في جريدته « الاصلاح » التي كانت تصدر في بيروت . فأشار الى أن كل ما فعله نصار لايقاف تيار الهجرة لم يتجاوز الضجيج والصراخ ولم يفد ذلك العرب في شيء باستثناء ارتفاع اثمان الاراضي التي اتخذ اصحابها من الضجة التي اثيرت حولهم وسيلة لزيادة نفعهم(٦٤).

ولم يغفر نجيب نصار لحزب اللامركزية سعيه لعقد اتفاق مع الحركة الصهيونية لذلك عندما علم ان حقي العلم « سكرتير اللامركزية » هو رئيس جمعية مقاومة الصهيونية التي تألفت في القاهرة وارسلت منشوراتها الى سائر جهات فلسطين أبدى عدم ارتياحه ونصح الشبيبة الفلسطينية العمل مستقلة عن الزعماء لايجاد « رأي عام عربي ــ عثماني » في فلسطين . ثم طلب منها الاستفادة من التجارب السابقة التي أظهرت اتخاذ الزعماء الشبيبة سلما لبلوغ الغايات الخاصة(٦٥).

وهكذا وقف عرب فلسطين موقفا حاسما من محاولات التفاهم والاتفاق فرفضوها وانكروا على الاصلاحيين العرب سعيهم للتوصل الى اتفاق مع الحركة الصهيونية . فقد كان احساسهم بالخطر الصهيوني عميقا ، وبذلك كان الشعور الشعبي في فلسطين عدائيا جدا للصهيونية ولا يسمح بتنفيذ اي اتفاق معها .

وما ان اشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين حتى استغاث الاعيان في القدس ويافا وغزة في ابريل ١٩١٤ بالمنتدى الادبي العربي في الاستانة وناشدوه العمل بحزم ضد التيار الصهيوني الجارف الذي هدد الموارد الاقتصادية للفلاح والتاجر، ولفتوا الانتباه الى نفوذ الحركة الصهيونية في دوائر الحكم في متصرفية القدس وأن حكومة

اسرائيلية قد تأسست في فلسطين تقاصص وتجازي ، واوضحوا انه اذا كانت الحاجة الى الاصلاح شديدة فان الحاجة الى دفع الخطر الصهيوني أشد ثم ناشدوا المنتدى الادبي بأسم الوطنية أن يستعمل كل ما لديه من الوسائل المشروعة لينبه الحكومة العثمانية الى الخطر الصهيوني(٦٦).

كما اتخذ المجلس الاداري في نابلس قرارا في يوليو ١٩١٤ يقضي بعدم البيع للصهيونيين في لواء نابلس ، فسعت الحركة الصهيونية لفصل ارتباط عدد من قرى اللواء والحاقها بقضاء يافا بدعوى قربها ليسهل عليهم بعد ذلك شراء الاراضي فيها(٦٧).
واشتدت مناوءة الصهيونيين فوزعت منشورات في القدس تحذر من الخطر الصهيوني ، وتضمنت نداء حارا الى أبناء البلاد(٦٨) ثم طلبت منهم العمل على ما يلي :

١ ــ مطالبة الحكومة العثمانية بالحاح لصد تيار الهجرة اليهودية الجارف .
٢ ــ السعي لتقوية التجارة الوطنية والصناعية .
٣ ــ عدم بيع الاراضي لليهود .
٤ ــ النظر في كل الوسائل التي تدعو الى عدم هجرة العرب من فلسطين .

ولعله من المفيد ــ في ختام هذه المقالة ــ ان نتعرف على وجهات النظر التي كانت سائدة في اوساط متنوري فلسطين الذين تفاعلوا مع الاحداث في تلك الفترة الحاسمة التي سبقت اعلان الحرب العالمية الاولى(٦٩).

كان من رأي حافظ السعيد ــ مبعوث يافا واحد أعيانها وعضو حزب اللامركزية ومن انصار حزب الحرية والائتلاف العثماني ــ وهو هنا يتبنى راي حزب اللامركزية في موضوع الهجرة اليهودية « ... انني أرى ان الهجرة الصهيونية قد تكون مضرة وقد تكون غير مضرة ، فان كانت مربوطة بقيود وشروط تتكفل بدفع الضرر فلا بأس منها كأن تنظر الحكومة لمقدار نفوس فلسطين سيما لواء القدس فيها ومقدار سعة الاراضي، وتنظر لمقدار الزايد فيها عن كفاية السكان ... فتسمح ببيعه للمهاجرين الذين يدخلون في التابعية العثمانية ... واما اذا كان حبل الاستعمار ملقى على غارب المستعمر في الهجرة والعدد والمقدار ، فلا يبعد والحالة هذه ان يستولي المستعمرون وهم متلبسون بأجنبيتهم على أكثر الاراضي والتجارة ... فالظن اذا بأنهم ــ يقصد الاهالي ــ يستفيدون بمجرد النظر لاعمال جيرانهم الصهيونيين هو في رايي ظن لا يتحقق وكلام لا معنى له » .

أما خليل افندي السكاكيني ــ مدير المدرسة الدستورية في القدس ومن أقطاب النهضة الارثوذكسية في المتصرفية ــ فيرى ما يلي : « ... الصهيونيون يريدون ان يملكوا فلسطين وهي قلب البلاد العربية ... ويقسموا الامة العربية الى قسمين يصعب معهما اتحادها وتضامنها » .

أما فيض الله العلمي ــ مبعوث المتصرفية ومن أعيان القدس ــ فقد وصف الواقع المؤلم آنذاك بقوله : « ... اذا دمنا على حالنا فلا بد ان يأتي يوم يصبحون فيه أهل البلاد ونحن غرباء عنها » أما جميل الحسيني ــ من أعيان القدس في الاستانة والمشتغلين في الحركة العربية « فكان من المعارضين للحركة الصهيونية ومن الداعين لمقاومتها ... المسألة الصهيونية من امهات المسائل التي يجب علينا ان نقاومها ونحاربها والحكومة تشد ازرها والاهلون جهلاء بسطاء » .

وكان رأي جرجي زيدان(٧٠) ــ صاحب مجلة الهلال في القاهرة ــ في الحركة الصهيونية في أعقاب رحلة شاملة لفلسطين قام بها في عام ١٩١٤ وعاين على الطبيعة

الاثار السيئة التي الحقتها الصهيونية بالفلاحين العرب « ... واما ما لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد اذا ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الاراضي واستعمارها واهلها غافلون او متجاهلون وحكومتها ساكتة او مشغولة فلا يمضي زمن طويل حتى تصير كلها لليهود » . ويرى جرجي زيدان ايضا انه لا يمكن تلافي الخطر الصهيوني الا بالنسج على منواله من حيث استغلال الارض بالوسائل الحديثة ــ آنذاك طبعا ــ وانقاذ الفلاح من جشع المرابين . ثم يقول « ... وفي وسع الحكومة ان تفعل ذلك لكنها مشغولة مضطربة اما اعيان البلاد فمنصرفون الى المسائل السياسية والتنازع على الوظائف والنيابات أو المطالبة بالاصلاح ، ولو صرفوا الهمة والجهد الى الناحية الاقتصادية لكان ذلك أقرب الى الوطنية والاستقلال » .

وكتب محمد رشيد رضا(٧١) ــ صاحب جريدة المنار ــ وعضو حزب اللامركزية ــ مقالا في المنار في مارس ١٩١٤ بعنوان « المسألتان الشرقية والصهيونية » تعجب فيه من تصدي الصهيونية لاقامة دولة يهودية في فلسطين ثم ذكر ما يقال عن اقتناع جمعية الاتحاد والترقي بتلك الفكرة وكيف أنها تساعد الصهيونيين على التمهيد لتمليكهم البلاد نكاية بالعرب ، ثم خلص الى القول « ... انه لا مجال للبحث في اثبات هذه الاقوال او نفيها وانما كان ذلك لتذكير الذين أكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتاب العرب بأنهم مـــا فتئوا يدورون حولها ولما يدخلوا فيهـــا بعد » ثم أنهى المقـــال بالدعوة لحسم الموضوع بين العرب والصهيونية فقال « ... يجب على زعماء العرب أهل البلاد أحد أمرين ، اما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونية على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد ان أمكن ــ وهو ممكن قريب اذا دخلوا عليه من بابه وطلبوه بأسبابه ــ وأما جمع قواهم لمقاومة الصهيونية بكل طرق المقاومة وأولها تأليف الجمعيات والشركات وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة ، وهو ما تحدث به بعضهم على ان يكون أول ما يعمل ، وانما هو الكي والكي آخر العلاج كما يقال » .

وفي ٢٠ يوليو ١٩١٤ كتب حقي العظم ــ سكرتير حزب اللامركزية ــ رسالة الى محمد المحمصاني من المشتغلين في الحركة العربية في بيروت وقد أعدمه جمال باشا في مايو ١٩١٦ . وقد جاء في تلك الرسالة « ... فيما يتعلق بالاتفاق الذي كان قد اقترحه سكولوف عضو اللجنة التنفيذية الصغرى للحركة الصهيونية ــ فان رأيي يختلف عن راي رفيق بك العظم (رئيس حزب اللامركزية) ... لاني مقتنع ان لا فائدة على الاطلاق من الاجتماع (بالحركة الصهيونية) . واذا لم اعارضه فلأني لا أرى فيه أذى ... أعلم يا اخي ان هؤلاء الناس يسيرون نحو هدفهم بسرعة شاكرين مساعـــدة الحكومة وعدم مبالاة الاهالي ، وانا متأكد بأننا اذا لم نعمل شيئا للتأثير في الوضع الـــراهن للصهيونية فسيحققون هدفهم في فلسطين في سنوات قليلة حيث سيوجدون دولة يهودية وبعد ذلك يتجهون نحو سورية والعراق ، وهكذا سيفرغون من تحقيق برنـــامجهم السياسي ... ولكن باستخدام وسائل التهديد والاضطهاد والاسلوب الاخير هو الذي يجب ان تستخدمه فقط ويتمثل في حث السكان العرب على تدمير مزارعهم واشعال النار في مستعمراتهم وتشكيل العصابات لتنفيذ هذه المخططات . وبعد ذلك ربما يهاجر الصهيونيون من فلسطين لانقاذ حياتهم »(٧٢).

ويتبين لنا مما سبق استمرار عرب فلسطين في مقاومة الغزو الصهيوني بوسائلهـــم المحدودة وعلى الرغم من فشل السلطان عبد الحميد في ايقاف تدفق سيل الهجرة اليهودية الى فلسطين بسبب مداخلات السفراء الاجانب ، وبسبب تواطؤ بعض المسئولين في الادارة والشرطة مع الصهيونيين بفعل الرشوة ، وعلى الرغم من مساعدة الاتحاديين

للصهيونيين ومن نجاح المتنفذين اليهود في اقصاء بعض المتصرفين او عزل الموظفين العثمانيين المعارضين لهم في فلسطين .

كما تبين لنا كيف كانت نظرة عرب فلسطين للحركة الصهيونية نظرة واقعية ، فقد احسوا بخطر الغزو الصهيوني الذي يتهددهم ، فحصلت كما رأينا منازعات بين الفلاحين العرب والمستوطنين اليهود ، ووقف الى جانبهم الموظفون العرب في الدوائر العثمانية ، وكان من بينهم شكري العسلي الذي كان قائمقاما لقضاء الناصرة ، ثم نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثان ، وبذل كل جهوده لمنع الهجرة اليهودية وشراء الاراضي كما اخذ آخرون يضعون العوائق والصعوبات في طريق الاستيطان اليهودي ، وازدادت معارضة الاعضاء العرب في مجلس المبعوثان العثماني للنشاط الصهيوني في فلسطين ، بل دخلت مقاومة الحركة الصهيونية في البرنامج الانتخابي لمرشحي متصرفية القدس لمجلس المبعوثان فصرح راغب النشاشيبي أحد مرشحي القدس في انتخابات ١٩١٤ « بأنه سيبذل أقصى جهوده ــ اذا نجح في الانتخابات ــ لازالة الخراب والخطر الذي يتهدد المواطنين من الصهيونية والصهيونيين » فانتخب بأكثرية فائقة(٧٣).

وهكذا نجد عرب فلسطين وقد اتخذوا موقفا حاسما في الحركة الصهيونية فأسسوا عدة جمعيات لمكافحتها وقاموا باعمال العنف المسلح وفرضوا على مرشحيهم لمجلس المبعوثان العمل على ازالة الخطر الصهيوني مقابل التصويت لهم . وبذلك بلوروا شخصيتهم الفلسطينية وابرزوا مقوماتها الاساسية قبل الحرب العالمية الاولى .

---

١ ــ تعتمد هذه الدراسة اساسا على المادة الوثائقية المحفوظة في ارشيف رئاسة الوزراء في استانبول ، وتشمل السجلات والمعاملات والمخابرات الرسمية التي جرت بين الحكومة المركزية في استانبول والسلطات المحلية في متصرفية القدس ، وفي ولاية بيروت خلال الفترة (١٨٧٠ ــ ١٩١٤) كما تعتمد ايضا على الوثائق البريطانية المحفوظة في مكتب السجلات العامة في لندن . وتشمل التقارير والمخابرات التي رفعها القناصل الانكليز في القدس وبيروت (١٨٧٠ ــ ١٩١٤) الى وزارة الخارجية في لندن والى السفارة البريطانية في استانبول . كما تعتمد الدراسة ايضا والى حد كبير على الدوريات العربية المعاصرة للاحداث التي سترد في هذه الدراسة ومن هذه الدوريات : جريدة فلسطين (يافا) وجريدة الكرمل (حيفا) والقبس والمقتبس (دمشق) والمفيد (بيروت) والاصلاح (بيروت) والمنار (القاهرة) والمقتطف (القاهرة) والاهرام (القاهرة) والمقطم (القاهرة) والهلال (القاهرة) .

٢ ــ جريدة **فلسطين** ، العدد ٢٠٤ ــ ١ في ١٥ كانون الثاني ١٩١٣ ، والعدد ٢٠٩ ــ ٦ في ١ شباط ١٩١٣ .

٣ ــ انيس صايغ ، **الهاشميون وقضية فلسطين** ، ص ٤٣ .

٤ ــ **تقرير اللجنة البريطانية للتحقيق في اضطرابات يافا** (أيار ١٩٢٢) .

٥ ــ **المرجع السابق** ، ص ٣٢ ــ ٣٣ .

٦ ــ محمد رفيق ومحمد بهجت ، **ولاية بيروت ــ القسم الجنوبي** ، ص ٢١٥ .

٧ ــ F.O. 195/1789. No 13 Const. 3rd April 1893, and See also; F.O. 195/1765. No 35. Jerusalem, 30th Dec. 1892.

٨ ــ **المقتطف** ، ابريل ١٨٩٨ ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١٠ .

٩ ــ **المنار** ، مجلد ١ ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

١٠ ــ **المنار** ، مجلد ٤ ، ج ١ ، ص ٨٠١ ــ ٨٠٩ .

١١ ــ **المنار**، مجلد ٦ ، ج ٥ ، ص ١٩٦ــ٢٠٠ .

١٢ ــ F.O. 195/2287, No. 20. Jerusalem, 2nd April 1908.

١٣ ــ عبد المسيح انطاكي ، **نيل الاماني في الدستور العثماني** ، ص ٧٥ .

١٤ ــ Mandel, Neville, *Turks, Arabs, and Jewish Immigration into Palestine.* (1882-1914). P. 92.

١٥ ــ **المرجع نفسه** .

١٦ — نجيب نصار ، **الصهيونية** ، ص ١٢ ، ١٧، ٥١ (٥٩ — ٦٢) .

١٧ — Mandel., *op. cit.*, pp. 93-94.

١٨ — **الاهرام** ، العدد ٩٤٩٣ في ٩ يونيو ١٩٠٩ ، ٩٥٠٧ في ٢٥ يونيو ١٩٠٩ .

١٩ — Mandel, *op. cit.*, pp. 94-95.

٢٠ — **المصدر نفسه** .

٢١ — **المقتبس** ، العدد ٣١٨ في ١٥ آذار ١٩١٠ والاعداد ٤٦٥ و٤٦٧ و٤٦٩ في ايلول ١٩١٠ .

٢٢ — Mandel, *op. cit.*, pp. 96-98.

٢٣ — **المصدر نفسه** .

٢٤ — **المفيد** ، العدد ٧٧٠ في ١٩ آب ١٩١١ .

٢٥ — **المفيد** ، العدد ٨٧٠ في ٣١ كانون الاول ١٩١١ .

٢٦ — نجيب نصار ، **الصهيونية** ، ص ١٢ ، ١٧، ٥١ .

٢٧ — **فلسطين** ، العدد ١٨٥ — ٨٤ في ٢ تشرين الثاني ١٩١٢ .

٢٨ — **الكرمل** ، العدد ٣٥٥ في ٥ آب ١٩١٣ والعدد ٣٥٧ في ١٢ آب ١٩١٣ . وانظر **فلسطين**، العدد ٢٥٥ — ٥٢ في ١٩ تموز ١٩١٣ .

٢٩ — **الكرمل**، العدد ٣٣٤ في ٢٤ حزيران ١٩١٣ .

٣٠ — **فلسطين** ، العدد ٢٦٣ — ٥٩ في ١٣ آب ١٩١٣ ، وانظر ايضا الاعداد ٢٦٧ — ٦٤ ، ٢٨٧ — ٨٤ في آب وتشرين الثاني ١٩١٣ .

٣١ — Herzl, Theodor, *The Complete Diaries of Theodor Herzl*. 5 vols. pp. *88-89*.

٣٢ — **فلسطين** ، العدد ٢٥٣ — ٥٠ في ١٢ تموز ١٩١٣ .

٣٣ — **الكرمل** ، العدد ٣٦٣ في ٩ ايلول ١٩١٣ .

٣٤ — **المصدر نفسه** .

٣٥ — **فلسطين** ، العدد ٢٦١ — ٥٨ في ٩ آب ١٩١٣ .

٣٦ — **الكرمل** ، العدد ٣٦٦ في ١٩ ايلول ١٩١٣ .

٣٧—٤٢ — جريدة الكرمل ، الاعداد ٤٠٤، ٤٠٩، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، في الفترة من (شباط — حزيران ١٩١٤) .

٤٣—٤٤ — جريدة فلسطين ، العدد ٣٢٦ — ٢٩ في ١٠ حزيران ١٩١٤ والعدد ٣٣١ — ٣٤ في ٢٧ حزيران ١٩١٤ .

٤٥—٤٩ — جريدة الكرمل ، الاعداد ٢٩١، ٣١٥، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣٦٠ خلال الفترة (كانون الاول ١٩١٢ لغاية آب ١٩١٣) .

٥٠ — **الكرمل** ، العدد ٤٢٣ في ٢٤ نيسان ١٩١٤.

٥١ — **الكرمل** ، العدد ٣٤٦ في ٤ تموز ١٩١٣ .

٥٢ — جريدة **الكرمل** ، الاعداد ٣٤٧ ، في ١٩١٣/٧/٨ ، ٣٤٩ في ١٩١٣/٧/١٥ ، ١٥٣ في ١٩٧٢/٧/٢٢ .

٥٣ — **فلسطين** ، العدد ٢٥٢ — ٤٩ ، في ١٩١٣/٧/٩ ، والعدد ٢٦٢ — ٥٩ في ١٩١٣/٨/١٣.

٥٤ — أنظر الحاشية رقم ٥٢ .

٥٥ — انظر الحاشية رقم ٥٢ .

٥٦ — أنظر الحاشية رقم ٥٣ .

٥٧ — **الكرمل** ، العدد ٣٣٥ في ٢٣ اذار ١٩١٣ .

٥٨ — **فلسطين** ، العدد ٢٨١ — ٧٨ في ١٨ تشرين الاول ١٩١٣ .

٥٩ — **القبس** ، العدد ٣٧ — ١٣٢٧ في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٣ .

٦٠ — **المقطم** ، العدد ٧٦٤٨ في ٢٢ مايو ١٩١٤ .

٦١ — **المقطم** ، العدد ٧٦٥٥ في ٣٠ مايو ١٩١٤ .

٦٢ — **الكرمل** ، العدد ٤٣٥ في ٥ حزيران ١٩١٤ والعدد ٤٥١ في ٣١ تموز ١٩١٤ .

٦٣ — **الكرمل** ، العدد ٤٣٧في ١٢ حزيران ١٩١٤.

٦٤ — **الاصلاح** ، العدد ٣٥٢ — ١٧٤٦ في ٥ تموز ١٩١٤ .

٦٥ — **الكرمل** ، العدد ٤٥٣ في ٧ آب ١٩١٤ .

٦٦ — **فلسطين** ، العدد ٣٢٣ — ٢٦ في ١١ نيسان ١٩١٤ .

٦٧ — **فلسطين** ، العدد ٣٣١ — ٣٤ في ٢٧ حزيران ١٩١٤ .

٦٨ — **الكرمل** ، العدد ٤٤٤ في ٧ تموز ١٩١٤ .

٦٩ — **فلسطين** ، العدد ٣٢١ — ٢٤ في ٤ نيسان ١٩١٤ .

٧٠ — **الهلال** ، ج ٧ ، السنة ٢٢ في ابريل ١٩١٤ ص ٥١٩ .

٧١ — **المنار** ، مجلد ١٧ ، ج ٤ ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

٧٢ — Mandel, Neville, *Attempts at an Arab Zionist Entente*. 1913-1914. pp. 264-265.

٧٣ — Mandel, Neville, *Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine*, p. 102.

رحلة في عالم فدوى طوقان :

شاعرة عربية على درب الواقعية الجديدة

ممدوح السكاف

يتوضح صوت الشاعر ، يأخذ اشكاله وابعاده ، رجعه ومداه ونكهته عندما يصبح تعبيرا عن وجدان امته الجماعي وينتقل من حالة الفردية والخصوصية الى الحالات الكلية الشمولية الانسانية . وفدوى طوقان واحدة من شاعراتنا العربيات المعاصرات اللواتي اسهمن في حركة الشعر الحضاري الجديد واصّلن دربه ووضعن لـه بعض المنطلقات والركائز الفنية .

وقد كان شعر فدوى طوقان فيما قبل نكسة حزيران يغني مشاعرنا الذاتية كامرأة شرقية تعيش فكرة الحب ضمن حدود مغلقة وتفتح بوحها الانساني على الاخرين من المحبين برومانسية معذبة حزينة ولكنها شفافة ورقيقة، الا ان هذا الحب عند فدوى لم يكن مجرد علاقة برجل وحب له وانما كان صداقة حية غنية بالمشاعر الطيبة الصافية . وخلال صفحات دواوينها الاولى مثل « وحدي مع الايام » و« وجدتها » و« أعطنا حبا » تظهر انعكاسات هذه النزعة الذاتية وطوابعها من شوق مبحوح الى المجهول وضياع في عالم من القلق والتشاؤم والغربة الروحية وعكوف على «الانا» واجترار للانفعالات والاحزان الشخصية ورغبة عاتية في الهجرة نحو اكوان ودنيوات مسحورة عطرة وخوف من المجتمع الشرقي القديم وتقاليده الصارمة :

انظر هنا ..
الصخرة السوداء شدت فوق صدري
بسلاسل القدر الغبي
بسلاسل الزمن الغبي
انظر اليها كيف تطحن تحتها
ثمري وزهري
نحتت مع الايام ذاتي
سحقت مع الدنيا حياتي

وتقع النكسة الحزيرانية الاليمة فاذا بشاعرتنا تنطلق من حدود ذاتها وافقها الدائر حول نفسها الى منطلقات الحياة العربية التي تحترق بوحشية المستعمرين وتدافع عن وجودها ببسالة . وعندئذ يبدأ خط جديد مشرق يتسطر في تاريخ الشاعرة التي أصبحت تعيش في نابلس فتعاني وطأة الاحتلال الصهيوني البغيض وتقاوم ناره وحديده وجبروته جنبا الى جنب مع الفدائيين الابطال ، باشعارها الملتهبة وقصائدها النابضة بدم جديد ورعشة حارة وايمان صلب لفتاة عربية تريد ان تقول شيئا في معركة العمل من أجل النصر والتحرير .

والواقع ان هذا الخط قد بدأ يتسطر فعلا بعد لقاء الشاعرة الفلسطينية بزملائها

من الشعراء الشباب في الارض المحتلة امثال محمود درويش وتوفيق زيـاد وسميـح القاسم ، فقد رأت فيهم عنوانا للصمود والمقاومة في وجه التحديات الصهيونية وصورة من صور الغربة الباغية التي يعيشها الانسان الفلسطيني وهو في وطنه مع تصميمه على النضال والاحتجاج والرفض ، واستامت في وجوههم النضرة مرافىء الامل والضياء ممثلة بصبرهم ونضالهم وثقتهم بالانتصار رغم النكسة الفاجعة .

وكان من حصاد هذا اللقاء الاخوي قصيدة فدوى الرائعة « لن أبكي » التي نشرتها بعد عدوان حزيران وكانت بداية التحول الكبير في شعرها وموقفها حيث انتقلت من مرحلة شعرية الى اخرى ، من مرحلة السلبية والتقوقع والبكاء الى مرحلة الايجابية والانفتاح والنضال، او بمعنى اخر من التيار الرومانتيكي الانعزالي الى التيار الواقعي الملتحم بقضية المصير والجماهير وهي تهدي قصيدتها هذه الى شعراء المقاومة ذكـرى لقائها بهم في حيفا وتخاطبهم بأعلى درجات الايمان بالعمل الفدائي :

احبائي
حصان الشعب جاوز كبوة الامس
وهب الشهم منتفضا وراء النهر
اصيخوا .. هاحصان الشعب يصهل
واثق النهمة
ويفلت من حصار النحس والعتمة
ويعدو نحو مرفئه على الشمس
وتلك مواكب الفرسان ملتمه
تباركه وتفديه ..

وهكذا تطور وعي فدوى طوقان للواقع : اصبح وعيا ثوريا . قررت ان تخـوض معركة المقاومة بالكلمة التي لها فعل الرصاص في قلب العدو واندفعت تكتب القصائد الواعية الهادفة الحارة العاطفة بعد صمت طويل ذاهل اثر النكسة ، وفي هذه القصائد الجديدة المكتوبة بعد السكوت المدمر ، نلاحظ نماذج بناءة فعالة ، ايجابية صامدة ، تمثل وجدان الشعب الحقيقي المصمم على انتزاع النصر وتحقيق هدف التحرير ، وخير نموذج لهذا الانسان المكافح في الارض المحتلة شخصية « حمزة » الذي نسف الصهاينة بيته في نابلس فلم يهن ، ولم يطأطىء رأسه ولم يغادر بلده :

كان حمزه
واحدا من بلدتي كالاخرين
طيبا يأكل خبزه
بيد الكدح كقومي البسطاء الطيبين
قال لي حين التقينا ذات يوم
وأنا اخبط في الهزيمه
اصمدي لا تضعفي يابنة عمي
هذه الارض التي تحصدها نار الجريمه
والتي تنكمش اليوم بحزن وسكوت
هذه الارض سيبقى
قلبها المغدور حيا لا يموت
هذه الارض امراة
في الاخاديد وفي الارحام سر الخصب
واحد

قوة السر التي تنبت نخلا وسنابل
تنبت الشعب المقـاتل

ان فدوى طوقان ابنة نكبتين ، ولكن شتان ما بين فعل الاولى بها واثر الثانية فنكبة عام ١٩٤٨ فجرت فيها ينابيع الحزن السديمي ، فشغلت بذاتها عن قضيتها المصيرية ، فهومت على هذه الذات تنزح منها الرغاب والتصورات والخيالات الشاحبة المتعبة ، واما نكسة عام ١٩٦٧ فقد فعلت بها فعلها العجيب : قلبتها راسا على عقب من شاعرة لا هم لها الا نفسها وما يدور في هذه النفس من الانفعالات والذكريات والهواجس الى شاعرة تحكي عن كل شيء يخدم قضية الخلاص من الاحتلال الصهيوني الشرس لوطنها، فترسم بالفاظها الريا بالعاطفة النبيلة صور البطولة والكفاح اليومي من أجل الحرية، وتنسى في زحمة هذه العملية الجادة ذاتها بل تخنق ما يضطرب فيها مـــن انتفاضات داخلية خاصة وبهذا تتيح لصوتها الشعري ان يزداد أصالة وابداعا .

ولم تقف فدوى طوقان عند حدود تجربتها الفنية كواحدة من رائدات الشعر الحديث، بل تطورت تطورا واضحا في قصائدها الاخيرة التي ضمها ديوانها الجديد « على قمة الدنيا وحيدا ــ من منشورات الاداب » فأصبحت من ناحية البناء المعماري لقصيدتها تعتمد على الشكل الدرامي وما يتيحه من أجواء متنامية تفسح مجالا طلقا لرسم الموقف الشعري ، وعلى المقاطع الموسيقية الطويلة المتتابعة بنفس حار متلاحق بدل الشطرة المحدودة التفعيلات المغلقة الايقاع ، مما أتاح لشاعريتها ان تلحق بركب التجديد الدائم .. نلحظ هذا في قصيدتها « مع الحزن المعتق » التي أهدتها الى زميلها الشاعر « سميح القاسم » وفيها تقول :

وعند انهيارات جسر التواصل ، حاولت
حاولت ، حاولت ، لكي
ولم يبق مني على راحتيك سوى غيمه
تجمد فيها الشرار
وغاب حضوري ، رحلت بعيدا وغصت
بعيدا الى القاع ، غصت انادم حزني
اعاقره في غيابة جب بغير قرار

ورغبة من الشاعرة في سربلة قصيدتها بوشاح من التجديد الشكلي ، واغنائها بمظهر جذاب ، عمدت الى استعارة بعض وسائل الفن القصصي ، واستعملتها في عدد من قصائد هذه المجموعة على الشكل التالي :

١ ــ استعمال الحوار الحركي : حيث جعلت الشاعرة الحوار عصب القصيـــدة ومرتكزها الاساسي ومحورها الذي تتنامى من خلاله واثرته بفيض من التدفق والحرارة فأصبح يموج بالحيوية والاشارات الخفية احيانا ، ووخز الدبابيس والايجاع أحيانا اخرى ، والنعومة الشاعرية والترقرق الوجداني احيانا ثالثة :

ــ لعلك مثلي غريبة
وتنفصل القطرتان عن المد ثم تغيبان
بين زوايا حديقه
ــ تحبين اوزبورن ؟
ــ ومن لا يحبه ؟
ــ عجائز انكلترا المحيطون وضباطها
الآفلون مع الشمس « غرب السويس »

— ترى من سيزرعها شجرة الغد
لهذا البلد ؟..
— شباب الهيبز
— لاذع انت لاذع
— هناك في العطفة الجانبية حانوت خمر
وفي النزل ذوق وتدفئة مركزيه
— سدى ما تحاول ..
— ألست ابنة العصر ؟
— كبرت عن الطيش صيرني الحزن
بنت مئات السنين

٢ — استعمال المونولوج الداخلي : فالقصيدة سرد في الحاضر ، ثم رجوع الى الماضي، ثم بين هذا وذاك تطلع الى المستقبل وتداخل في الساحات المكانية والزمانية . والمونولوج هنا ليس لعبة شكلية فقط مهمتها اثراء العمل الفني واغنائه بفيض من الدلالات والصور والانطباعات والذكريات وانما هو مقصود لذاته من أجل تجسيد الحدث القصصي القصيدي ، وترسيخ معاني الحداثة في كيفية تبادل التقنيات بين الفنون الادبية قصيدة أم قصة ام مسرحية او رواية .

فرحلة التداعي مثلا في قصيدة (في المدينة الهرمة) تجري كما تقول الشاعرة بين شارع اوكسفورد في لندن وسوق العطارين في نابلس ، الرحلة تبدأ عند اشارة الضوء الاحمر وتنتهي عند اشارة الضوء الاخضر والشاعرة ضائعة في مدينة الضباب والفحم والمؤامرات تتلقفها الشوارع والارصفة ، وتموج مع المائجين من العبور تتملى في الوجوه اليابسة وفجأة ينخطف الفكر بها الى نابلس :

يحمر ضوء الاشارة والمد يرتد
تعود الخفافيش للذاكره
ونصف مزنجرة ، نعبر السوق افسح
فبه مكانا لتعبر ، اني ، تعلمت
الا اعرقل خط المرور .
وعن ظهر قلب حفظت دروس نظام المرور
هنا كان سوق النخاسة ، باعوا هنا
والدي وأهلي
وهذا أنا اليوم جزء من الصفقة الرابحه
أمارس حمل الخطيئة معصبتي انثى
غرسة أطلعتها جبال فلسطين ... من
مات أمس استراح

٣ — استعمال التضمينات الصحفية والوثائقية النثرية كما تفعل رواية الموجه الجديدة ، وذلك بانتزاع تصريحات الرسميين والسياسيين كما وردت على السنتهم وتضمينها القصيدة (وقد فعل ذلك توفيق يوسف عواد في روايته « طواحين بيروت ») ولجأت اليه فدوى طوقان في قصيدتها « كوابيس الليل والنهار » هادفة الى هز الوجدان اكثر عن طريق النثر ، لغة الحياة اليومية ، والصراع المر من أجل العيش :

في صحف القدس اليومية أرمي عيني
أقرأ خبرا كالاخبار :

« بيت لحم : — فوجىء المزارعون في خربة
بيت سكاريا بمجموعة من الجرافات خرجت
من مستعمرة كفار عصيون وشرعت في
قلع المزروعات في اراضي تلك البلدة »
أقرأ شكوى مرفوعه
لوزير الحرب

ولم تكتف فدوى طوقان في هذه المجموعة بالتجديد في سربال القصيدة الخارجي ، وانما راحت تعطرها بشميم التراث بما فيه من اقتباس وتضمين عصريين يأتيان على شكل اسقاطات تاريخية هدفها العودة الى الجذور فهي أحيانا تستعير من القرآن الكريم بعض آياته كقولها « يتوارون بظل الحائط اشباحا وهياكل جوفا غير خفاف غير ثقال » وفي كتاب الله : « انفردوا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله » (سورة التوبة) وأحيانا ثانية تستعير من التوراة كقولها : « تظلون يا حارسي انبيـــاء الكذب » وجاء في التوراة : قال لي الرب يتنبأ الانبياء باسمي لم ارسلهم ولا امرتهم ولا كلمتهم بالرؤى الكاذبة ومكر القلب يتنبأون — أرميا /١٤/ ما أنا على الذين يتنبأون باحلام كاذبة — ارميا/٢٣ .

ومما يلفت النظر كذلك في مجموعة « على قمة الدنيا وحيدا » مسألة الاختصاص الشعري بموضوع المقاومة وفلسطين والاحتلال ، فالاثنتا عشرة قصيدة التي تؤلف جسد هذه المجموعة تدور في مدارها حول العذاب الفلسطيني والنضال للخلاص منه، وحول الحلم الفلسطيني بالعودة الظافرة الى الوطن الفردوس ، وحـــول اليـــأس الفلسطيني الذي يصل الى ذروته الفاجعة عندما تصرخ الشاعرة من أعماقها صرخة الاسى والاحباط :

يا اخوتنا قولوا حتـــام
أواه وآه يا فيتنام
آه لو مليون محارب
من ابطالك
تقذفتهم ريح شرقيه
فوق الصحراء العربية
لفرشت نمارق
ووهبتهم مليون ولود قحطانيه
عفوا يا أهل البيت
جارحة هذي الامنيه
لكنا لم يبق لدينا
منكم الا قعقعة الصوت

حتى تلك القصيدة العاطفية التي أهدتها الشاعرة الى زميلها « سميح القاسم » . تمر في الجو النفسي ذاته ، فهي تعبر عن تجربة احباط وفشل شعوري وجسدي بين شاعر فلسطيني وشاعرة فلسطينية ، أرادا التواصل الانساني بأفسح معانيه، ولكنهما لم يستطيعاه ، لان حزن القضية القديم شج رأسهما فجاة ، وشل فعاليتهما ، فتوقفا عن المغامرة :

وعند اشتعال المساء بنيران
شمسك ، تسلقت جدران كهفي

حاولت أتطف وهجا ، فأمطر حزني
وعند أنهار هباتك قلت لارضي تبارك
هذا الربيع ، تلقي هبات يديه ، فأزهر
حزني
وقام التعارض سدا كما الموت ، حال
التعارض دون اندماج العناصر
شمسك ظلت قصية . . .
وأرضي ظلت عصيه

ومثل هذا الاختصاص في موضوع شعري ما ، والدوران حوله والنهل من ينبوعه ، وتقليبه على اوجهه ، واستنفاد طاقاته ليس امرا سهلا في ميدان الخلق الفني اذ ان التجربة الواحدة مهما كانت ثرة وغنية ، لا بد لها أن تخبو مع تكرار صياغتها ، فما بالك بموضوع مثل موضوع فلسطين وضياعها تتسم معطياته بالدمع والغربة والقهر ، وهو شغلنا الشاغل منذ ما يقرب من نصف قرن وقد سئم الناس من قراءة آثاره لانها توحي باللاجدوى والعبث ؟..

لقد عانى السياب معاناة قاتلة اثناء مرضه من ضمور تجربته الشعرية وتقلصها ووحدانيتها ودورانها الدائم حول فكرة الموت والخوف منه ووداع العالم الى غير رجعة وتمثل هذا الامر اكثر ما تمثل في دواوينه الاخيرة : « شناشيل ابنة الجلبي » و « المعبد الغريق » و « منزل الاقنان » حيث حاول السياب ان يعوض عن فقر المضمون وتكراره بلعبة الشكل والصياغات المستجدة وخاصة في مجالات الموسيقى والتنويع عليها .

لكن فدوى طوقان عامدة متعمدة قصرت موضوع مجموعتها هذه على مأساة فلسطين كي تقول بمعنى من المعاني انه لا يشغلها شيء في الوجود ويؤرق حياتها ، كما يشغلها أمر وطنها المنهوب . . . انه موقف التزامي صميمي نابع عن صدق شخصي وفني انعكس في كل شطرة وفي كل مقطع وفي كل قصيدة من صفحات المجموعة حيث يشعر القارىء لها بنكهة فلسطين ، جبالها ووهادها ، مدنها وقراها ، وشوشة الرياح في فضائها ، رقرقة الجداول في بساتينها ، ذكرياتها الدينية والنضالية العطرة ، ثم فدائييها وشهدائها وعلى راسهم الشهيد البطل (وائل زعيتر) الذي وضع برسالته الحقيقة الفلسطينية امام عيون العالم المضلل واللامكترث :

وجهك الغائب يلقانا على صدر الجريده
وعلى نظرة عينيك البعيده
نحن نمضي ونسافر
ونلاقيك ، نلاقيك على
قمة الدنيا وحيدا يا بعيدا يا
قريبا ، يا الذي نحويه فينا في الخلايا
في مسام الجلد ، في نبض الشرايين التي
وترها الحزن المكابر
يا بعيدا يا قريبا ، نم على الصدر الذي
يفتحه (عيبال) من اجلك اسند
راسك الشامخة اليوم الى « القبه »
فالصخرة في القدس احتوتك الان
حين الموت اعطاك الحياة ...

وتجسد قصيدة « نبوءة العرافة » ـــ وهي انضج قصائد المجموعة تناولا فنيا وتدفقا عاطفيا ورؤية فكرية ـــ التراجيديا الفلسطينية بكل ثقلها ووطأتها وزخمها فهي تصور في مقاطعها الخمسة واصواتها الداخلية وشكلها التقني قصة تشرد الانسان الفلسطيني وهيمانه في فجاج الارض الغريبة بلا وطن ، والشر يحيق به في كل مكان وفي غمرة عذاباته الساحقة وفي خضم نضالاته السيزيفية المريرة يشق سكون الصحراء الذاهل صوت ندي بالامل ، ريان بالتفاؤل :

تنبئني عنك الرياح في هبوبها
تقول
تعويذة الشر المحيق ههنا
ببيتك المهلهل المشطور
معقودة تظل لا تزول
حتى يجيء الفارس المكرس المنذور
تنبئني الرياح في هبوبها
عن فارس يجيء
لا واهنا ولا بطيء
تقول لي يجيء من طريق
تشقها من أجله الرعود والبروق

والقصيدة، بعد ذلك وقبل ذلك، حافلة بالرموز الشفافة المعنى التي تعطيك دلالاتها، ومفاهيمها ومعانيها دون كد عقل ، وارهاق ذهن ، وانما بعفوية وبساطة محببتين ، بعيدا تماما عن كل تصنعات بعض الشعراء المعاصرين في استعمال الغريب المستعصى من الرموز والاساطير في قصائدهم حتى ليشق فهمها على القارىء دون دليل يشرح وهوامش تفسر ، وهذا ليس من طبائع الشعر الجماهيري الذي يطمح للتغلغل بين صفوف البسطاء من الناس عن طريق اللغة الاليفة والصياغات البعيدة عن التعقيد والغموض اللاموحي .

ولو شئنا ان نستعرض رموز هذه القصيدة بسرعة،ونكشف معطياتها لوجدنا الشاعرة تستعمل الكلمات كرموز ، فـ « الفارس » عندها هو المخلص والفادي والمسيح ، انه ليس فردا له جبروت المعجزات القديمة ودهشتها ولكنه ارادة أمة وبعث حضارة و« الرياح » هي ذلك المجهول الطلسم الذي يضيء بخيط من نور ليقشع قلاع الظلام وينبىء بالمستقبل والمصير و « البيت » هو فلسطين المسروقة المباعة المسلمة والضحية المعذبة منذ عام ١٩٤٨ و « أيلول » هو رمز الدمار والموت المجانيين ، اما « قابيل » فهو عنوان الخيانة الاخوية بأوضح صورها .

ان هذه القصيدة قصيدة أصوات ، تعبر عن الخفوق الداخلي والجيشان المستعمر لشعب كتب عليه الطراد والنفي والحزن ، لكنه يواجه مصيره بشجاعة الشعوب العظيمة وصبرها :

هلا سألت لي الرياح يا
عرافة الرياح
متى يجيء الفارس المنذور ؟
« حين يصير الرفض »
« محرقة وجلجلة »
« تلفظه احشاء هذي الارض »

« من جسمها بضعه »
« لكنما الرياح في هبوبها »
« تتول حاذري »
« اخوتك السبعه »
« تتول حاذري »
« اخوتك السبعه »

ان الشاعر الحق ، هو الشاعر الذي يثري ذاته الفنية باستمرار ويؤكد انفتاحها وتجدد خلاياها واستجابتها للتحول والانعطاف ويتابع بانفعال وصدق تشكيل تجربته الشعورية والشعرية ولا يدخر وسعا في الاستفادة من الجديد والانفتاح عليه والتعاطف معه ... الشاعر الحق ايضا هو الذي لا ينكص على عقبيه عن خطوة تقنية خطاها الى الامام فيعود ، ليتراجع عنها وينكرها ويسقطها من تاريخه وتقويمه . ان ميزة فدوى طوقان عن نازك الملائكة مثلا ؛ ان الاثنتين رائدتان من رائدات الشعر الحديث ، ولكن فدوى طوقان استمرت في طريقها الشعري تعطي وتعطي حتى وصلت الى تخوم القصيدة الحديثة جدا كما يكتبها محمود درويش في « سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا » والبياتي في عدد من قصائده الاخيرة بينما عادت نازك الملائكة الى الوراء وتبرأت من خطواتها الاولى في التجديد واعتبرتها خطوات على الرمال ، وراحت تتابع نظم قصائدها على الشكل التقليدي المحافظ ضاربة بعرض الحائط زيادتها في الحداثة مع السياب ، ولم تكتف بذلك بل أصبحت حربا عوانا في دراساتها النقدية وآرائها الادبية على الشعر الحديث والشعراء المحدثين ، الا ان دولاب الزمن ، وخاصة في مجال الفنون والانطلاق الحضاري لا يمكن ان يعود الى الوراء ابدا ، لان التطور الطبيعي للاشياء هو سنة الكون وديدن الوجود .

الجذور الطبقية للحركة الصهيونية

لطف الله حيدر

« حين يعمد المرء الى تحليل قضية اجتماعية ايا كانت ، توجب عليه النظرية الماركسية اطلاقا ان يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين ، كما تشترط عليه ايضا ، اذا كان الموضوع يدور حول بلد بمفرده ، ان يأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه ، في حدود حقبة تاريخية واحدة معينة»(١).

ف. ا. لينين

هذا الشرط الاساسي والصحيح لفهم أية قضية تاريخية*، يعني ضرورة التمييز بين العصور والمجتمعات المختلفة والمتطورة منذ انهيار العصر الاقطاعي وحتى بلوغ الرأسمالية مرحلة الامبريالية ، مرورا بظهور طبقة البورجوازية والانتاج البضاعي والثورة الصناعية ، وتشكل الدول القومية ، ثم مرحلة الاستعمار ، فالامبريالية ، وما رافق هذا التطور من حركات سياسية واجتماعية توجب النظرة الموضوعية والعلمية وضعها ودراستها ضمن الاطار التاريخي ، الاجتماعي والاقتصادي ، الذي نشأت وتشكلت ونمت خلاله هذه الحركة او تلك ، ذلك لان جملة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية لمجتمع ما في حقبة تاريخية معينة هي التي تتشكل ضمن اطارها وتنمو وفق قوانين تطورها الموضوعية أية حركة سياسية او اجتماعية ترتبط حكما بقضايا العصر والمجتمع اللذين تنمو في اطاريهما .

والحركة الصهيونية ، بالتأكيد ، ليست ، ولا يمكن ان تكون ، استثناء لهذا القانون التاريخي الثابت والصحيح . ولذا فان الاحاطة ، ولو بشكل سريع وعام ، بأوضاع القارة الاوروبية في منتصف القرن التاسع عشر ، أي المكان والزمان والمجتمع ، الذين أعطوا الحركة الصهيونية أسسها ومولدها ونموها ، هذه الاحاطة تقودنا الى فهم صحيح للجذور الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية ، التي أدت الى تشكل هذه الحركة. وبالتالي فان فهم الحركة الصهيونية علميا وتفسيرها واقعيا يستلزم بالضرورة توفر شرطين أساسيين : ١ — وضعها ضمن اطار الظروف التاريخية ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتأثيرات القوى المختلفة للطبقات البائدة والطبقات الصاعدة ، وتفاعلات القوى الاجتماعية في العصر الذي نشأت فيه الحركة . ٢ — تطبيق المنهج المادي التاريخي على اسس وظروف وارتباطات نشوء ونمو هذه الحركة بعيدا عن أية اعتبارات دينية ميتافيزيكية او فكرية مثالية وطوباوية .

ظهرت الحركة الصهيونية في اوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعيدا

* يتضمن هذا البحث الموجز والمكثف ، الافكار الرئيسية والخطوط العريضة لاطروحة دكتوراه عن الحركة الصهيونية ، يزمع المؤلف التقدم بها الى جامعة موسكو .

عن فلسطين وعن الديانة اليهودية ، وشهدت اول تنظيم لها في المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في مدينة « بازل » بسويسرا عام ١٨٩٧ ، وهو المؤتمر الذيينسب اليه زعيم الحركة الصهيونية ومؤسسها ثيودور هرتزل ، مولد الدولة اليهودية(٢).

كانت اوروبا انذاك تغلي بنتيجة الحدث الكبير الذي غير وجه القارة وقفز بها من العصر الاقطاعي البدائي الى عصر تشكل وسيطرة الطبقة البرجوازية ، وبروز هذه الطبقة كقوة تاريخية جديدة استطاعت تحطيم الاقطاعية ونظاميها الاقتصادي والاجتماعي ، واقامة علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة ، واحلال نمط جديد من العلاقات الانتاجية والاجتماعية ، يستمد مقوماته الاساسية من تحطيم الانتاج الطبيعي البدائي للعصر الاقطاعي ، وتركيز نمط الانتاج التبادلي والانتاج البضاعي مكانه ، وبالتالي اخضاع الريف والارض لمتطلبات السوق ، والحاجة الى توسيع هذه السوق وضمان استقرارها بما يتوازى ويتكامل مع توسيع الانتاج وضمان تصريفه ، مما يتطلب بالضرورة القضاء نهائيا على التبعثر الاقطاعي والغاء الحواجز والحدود الكفيلة بايجاد سوق مستقلة واسعة وحرة .

هذه الثورة الاقتصادية والاجتماعية التي قادتها البرجوازية ضد الاقطاعية ولمصلحة التقدم في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، كان لا بد لها أن تجد انعكاسها في الحقلين السياسي والفكري .

وهكذا كان النتاج الطبيعي لهذه الثورة البرجوازية ظهور فكرة القومية ، والدولة القومية البرجوازية التي استمدت مبررها المادي والاساسي من حاجة البرجوازية النامية والمندفعة باستمرار الى امام ، الى تأمين سوق وطنية مستقلة خاصة بها ، والتي تلازم ظهورها عبر التاريخ مع نمو قوى الرأسمالية وقدرتها على تحطيم الاقطاعية. « في العالم كله كان عهد انتصار الرأسمالية التام على الاقطاعية مقترنا بالحركات القومية . ان اساس تلك الحركات الاقتصادية يقوم على ان تفوق الانتاج البضاعي تفوقا تاما يتطلب استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية وتوحيد الاراضي التي يتكلم سكانها لغة واحدة في دولة واحدة »(٣). « وهكذا فالسعي الى اقامة دولة قومية تستجيب على الوجه الاكمل لمتطلبات الرأسمالية الحديثة هذه . هو أمر ملازم لكل حركة قومية، وتدفع الى ذلك أعمق العوامل الاقتصادية ، ومن هنا يبدو ان الميزة النموذجية والشيء الطبيعي في المرحلة الرأسمالية هو قيام الدولة القومية في اوروبا الغربية كلها بل في العالم المتمدن كله »(٤).

اذن كان العصر الذي ظهرت فيه الحركة الصهيونية ، عصر انتصار الطبقة الرأسمالية والبحث عن سوق مستقلة وطنية خاصة بها وظهور فكرة القومية البرجوازية كتعبير عن الحاجة الى سوق مستقلة حرة تضمن استمرار تدفق الانتاج البضاعي وبالتالي نمو الطبقية القائدة للمجتمع في هذا العصر . كما كانت الشرائح الاجتماعية اليهودية في هذا العصر متشكلة تاريخيا كباقي الشرائح الاجتماعية الاخرى ، بمعنى انه كانت هناك البرجوازية اليهودية والبروليتاريا اليهودية ، ولم يكن هناك لسوء الحظ ، الاقطاعية اليهودية ، لان اليهود — كما هو معلوم تاريخيا — لم يكن لهم على مر العصور حق امتلاك الارض والتصرف بها ، وهو الحق الذي كان مقصورا على طبقة النبلاء والاشراف ورجال الدين المسيحيين ، مما اضطرهم الى التعامل براس المال السائل اي المال والاملاك المنقولة ، وكانت هذه المهنة الاجتماعية حكرا لهم لسببين :

١ — تحريم امتلاك اليهود للارض وحصر هذا الامتلاك بالمسيحيين ، النبلاء والاشراف ورجال الدين منهم خاصة .

٢ ـــ الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي حتمت وجود فئة تتعامل بالمال المنقول ، وامتناع الاشراف والنبلاء ورجال الدين (الاقطاعيون المسيحيون) عن امتهان هـــذه « الحرفة الوضيعة » ، الامر الذي ادى الى احتكار اليهود لها ، وبالتـــالي ظهورهم كطبقة برجوازية مميزة في مرحلة تثبيت سلطة البرجوازية بعد تحطيم الاقطاعية .

وهكذا فقد رافق عصر الانتقال من مرحلة الاقطاعية الى مرحلة البرجوازية ، وظهور الطبقة البرجوازية اليهودية وتحكمها في كثير من مجالات الانتاج ، يؤهلها لذلك رأس المال المنقول المتراكم لديها عبر العصور وخبرتها العريقة في مجال التجارة والتبادل الانتاجي، كما رافق ظهور هذه البرجوازية اليهودية جنبا الى جنب مع البرجوازية المســيحية ومنافستها لها والتغلب عليها في بعض الاسواق والدول ، واحتدام الصراع بينهما ، واتخاذه شكلا دمويا في بعض الاحيان ، رافق هذا ايضا ، ظهور موجة العداء للسامية وتجدد مذابح اليهود . ان احياء العداء للسامية وتجديد الدعوة لمذابح اليهود يجد أساسه الاقتصادي والاجتماعي لا الديني في كثير من الوقائع التاريخية المعروفة .

يسرد الدكتور « أدمون بليدو » في دراسة له باللغة الانكليزية عن « الاصول الثقافية للصهيونية »(٥)نتائج توقيع معاهده ادريا نوبل عام ١٨٢٩ بين روسيا ورومانيا من جهة وأوربا الغربية من جهة اخرى ، وهي المعاهدة التي فتحت باب التجارة الحرة علـــى مصراعيه بين رومانيا وأوربا الغربية بعد أن كانت التجارة بينهما معدومة ، فيقول : « كانت الطبقة البرجوازية المسيحية في رومانيا صغيرة الحجم وضعيفة ، وبالتالي لم يكن في وسعها استغلال الفرص الضخمة للتجارة والاثراء والناجمة عن الوضع الجديد، بينما كانت البرجوازية اليهودية هي الفئة الاجتماعية الوحيدة المؤهـــلة للاســـتفادة من الوضع الجديد نتيجة اوضاعها المالية وخبرتها التجارية المكتسبة سابقا بسبب وضعهـــا التاريخي المعروف . وهكذا اندفعت البرجوازية اليهودية لملء هذا الفراغ الناجم عـــن توقيع المعاهدة ، وظلت تحتكر السوق التجارية دونما منافسة مهمة قرابة ثلاثين سنة، الا ان نماء الطبقة البرجوازية الرومانية وتكون الدولة القومية الرومانية نتيجة توحيد مقاطعتي مولدافيا واليشيا واندفاع هذه الطبقة الى مزاحمة البرجوازية اليهودية ونزع زمام المبادرة منها ، أدى الى اندلاع موجة عداء للسامية في رومانيا »(٦) .

ان حصر امتلاك الارض والتعامل بها بغير اليهود ، وامتناع غير اليهود عن التعامل برأس المال السائل ، والفراغ الاقتصادي الناجم عن هذا الوضع ، دفع اليهود الـــى التعامل بالمال والاملاك المنقولة ، وجعل من هذا المجال الاقتصادي ، الذي لم يكن حيويا آنذاك ، احتكارا لهم ينفردون به دونما منافسة . لكن تحطيم الاقطاعية وانخفاض قيمة الارض الى مستوى ادنى من المال المنقول واستبدال الانتاج الاقطاعي الطبيعي بالانتاج البضاعي التبادلي ، وسيادة نمط جديد من علاقات الانتاج والعلاقات بين القـــوى الاجتماعية المختلفة يرتكز في أساسه على النمط البرجوازي الجديد للعلاقات الاجتماعية والانتاجية . كل هذا أدى الى ظهور شريحتين متمايزتين مـــن الطبقة البرجوازية : البرجوازية اليهودية والبرجوازية غير اليهودية . وكما سبق الايضاح، كانت البرجوازية اليهودية ، نتيجة اوضاعها التاريخية المعروفة والتي اكسبتها تراكم رأس المال المنقول والخبرة التجارية العريقة ، في وضع أقوى بالنسبة للبرجوازية المسيحية . الامر الذي كان لا بد أن يؤدي الى تنافس ، فمزاحمة ، فصراع دموي احيانا بين البرجوازيتين، وجد التعبير الاوضح عنه في الحركة المعادية للسامية ومذابح اليهود في شتى ارجاء اوروبا .

« كان على البرجوازية القومية الناشئة في بلدان اوربا ان تصارع بضراوة ضـــد الاحتكار اليهودي التاريخي للتجارة ، لان البرجوازية التجارية اليهودية كانت الحـــاجز الرئيسي في طريقها، وهكذا كان يبدو استغلال البرجوازية اليهودية على صورة الاستغلال

الاجنبي الذي لا يطاق ، وكان تهديم التسلط التجاري لليهودي هو شرط نموها واستيلائها على سوقها »(٧).

هذا الصراع الدامي أحيانا بين البرجوازيتين من جهة، وارتباط مرحلة نمو الرأسمالية بفكرة البحث عن سوق وطنيه مستقله (الدولة القومية البرجوازيه) من جهة اخرى ، وجد صورته الاكثر وضوحا في تبني كل من البرجوازيتين لفكرة القومية البرجوازية ، اذ بينما بدات البرجوازية المسيحيه تشدد في دعوتها لتوحيد الدولة القومية ، وتأمين السوق الخاصة الحرة لها، انطلقت البرجوازيه اليهودية تفتش عن « سوق وطنية خاصة بها » تستطيع ان تتخذ منها قاعدة تنافس بها وتزاحم البرجوازية المسيحية ، الا ان افتقار هذه البرجوازية الى الاساس الطبيعي الذي تبنى بواسطته وعليه الدولة القومية البرجوازية (اللغة والارض والثقافة والمصالح المشتركة جميعها) وامتلاك البرجوازية المسيحيه لهذا الاساس ، دفع البرجوازية اليهودية الى التفتيش عن اساس اخر تبني عليه دولتها العتيدة . وهكذا ، بعيدا عن جميع المقومات الاساسية لتشكيل الامة الواحدة ، وجدت البرجوازية اليهودية ضالتها المنشودة في الدين واعتبرت دعوتها القومية على أساس ديني سبيل الخلاص الوحيد لليهود مما يتعرضون له من اضطهاد وعزلة وعداء .

ان ايقاظ الحس الديني لدى اليهودي ، ودغدغة نوازعه الطبيعية والمشروعة للتحرر من الاضطهاد الذي مورس ضده قرونا طويلة في اوربا ، وتغذية تطلعاته العادلة للعيش بسلام ومساواة في مجتمع لا يتخذ من العداء له أساسا للتعامل معه . هذه الامال والتطلعات والاماني المشروعة كانت الورقة الذكية والمخادعة التي لعبت بها البرجوازية اليهودية على عقول وعواطف اليهود في شتى ارجاء الارض .

ان تحرير الانسان اليهودي ليست عملية منفصلة في مجتمع معين، بل لا يمكن ان يكون الا جزءا من تحرير الانسان كليا ، يهوديا كان أم غير يهودي ، ولقد كانت المطالبة بتحرير اليهودي في اوربا ، (واليهودي المطلوب تحريره هنا هو البروليتاري ، الكادح ، البسيط بالطبع وليس البرجوازي القابض على زمام السلطة والمال) . مطلبا منفصلا عن المطالبة بتحرير غير اليهودي ايضا ، اي المسيحي البروليتاري ، الكادح ، البسيط . كانت الطبقة المضطهدة واحدة : الطبقة الكادحة بشرائحها المسيحية واليهودية .

ولذا كان لا بد لمطلب التحرير هذا من ان يتجه الى جميع المضطهدين ، لا الى فئة واحدة منهم ، لان اتجاهه الى فئة واحدة يخفي خلفه خبث هذه الدعوة وعدم جديتها : « ان خلاص اليهود وتحولهم الى آدميين ، حيث يكون خلاص الانسانية وتحرر الانسان من اليهودية ، لا يمكن اعتباره مهمة خاصة باليهود بل مهمة عملية عامة للعالم الحديث، هذا العالم اليهودي حتى النخاع ، وقد ثبت ان مهمة القضاء على الطبيعة اليهودية هي مهمة التغلب على يهودي المجتمع البرجوازي ، وعدم انسانية الوجود الواقعي الذي يبلغ قمته في النظام المالي »(٨).

هذه الدعوة الى تحرير اليهودي وتشكيل الدولة القومية اليهودية ، وهي الدعوة التي انجبت الحركة الصهيونية فيما بعد ، دعوة خاطئة ورجعية في الاساس ، وهي مناقضة لقوانين التطور التاريخي ومعادية لحركات التحرر والتقدم ، بما فيها الحركات القومية حتى في ذلك العصر : ذلك لانها ترتكز في الاساس على الموضوعية الخاطئة والقائلة بامكانية تحرير اليهودي في مجتمع غير محرر ، وامكانية فصل الاضطهاد الذي يمارس ضده عن الاضطهاد الذي يمارس ضد غيره . وهي رجعية في الاساس لانها دعوة البرجوازية التي وان كانت قد قادت حركة التقدم في مرحلة تحطيم الاقطاعية ، الا أنها

تحولت الى حركة معادية للتقدم في مرحلة نمو الرأسمالية وتصاعد حركات التحـــرر القومية . ولذا فان هذه الدعوة القومية البرجوازية تحتفظ لنفسها من صفات البرجوازية بأسوأ هذه الصفات ، أي المتاجرة والاستغلال والسيطرة . « ان قومية اليهود الوهمية هي قومية التاجر ، قومية رجل المال ، والتحرر اليهودي في معناه الاخير هو تحريـــر الانسان من اليهودية »(٩).

فالدعوة اليهودية القومية ، كغيرها من الدعوات القومية الاخرى التي نشأت في اوروبا في منتصف القرن الماضي واواخره ، هي دعوة البرجوازية اليهودية ، الناتجة عن والمرتبطة بعصر انتصار الرأسمالية على الاقطاعية وبدء البحث عن سوق وطنية مستقلة وخاصة بها .

الا ان الدعوة القومية اليهودية ، والتي تشكلت على أساسها الحركة الصهيونية ، تختلف عن باقي الدعوات الاوربية في شيئين أساسيين : ١ ــ لم يكن لليهود أرض ولغة واقتصاد وثقافة مشتركة ، وبالتالي لم يكن لهم « دولة قومية » يهدفون الى تأسيسها بازالة الحدود بين اجزائها ، في حين ان هذا كان متوفرا للالمان والرومانيين والايطاليين وغيرهم . ٢ ــ اقترنت الدعوة القومية اليهودية بالدعوة الى تحرير اليهودي مـــن اضطهاد المجتمع له . وبالتالي تهجير هذا اليهودي من وطنه الذي يعيش فيه سواء كان المانيا او بولونيا او روسيا ، الى وطن اخر مستقل وخاص به واستندت هذه الدعوة على الدين اساسا للوصول الى أوسع الطبقات الكادحة والفقيرة ، واثارة حسها الديني ونرسباتها التاريخية العميقة وتطلعاتها المشروعة للعيش بسلام في مجتمع يتساوى فيه الافراد على اختلاف اديانهم . فالدعوة القومية اليهودية التي تبنتها وهدفت الى تحقيقها الطبقة البرجوازية اليهودية ــ حسب نصوص مفكري هذه الدعوة ــ تهدف الى تحرير اليهودي من الاضطهاد والغربة والانعزال !!

من المؤكد والثابت تاريخيا ان الطبقة البرجوازية اليهودية لم تكن تعاني من الاضطهاد والغربة ، بل على العكس من ذلك ، كانت هذه الطبقة ، بما تراكم لديها من راس مال سائل وخبرة تجارية عريقة ، تشكل شريحة فوقية بارزة في المجتمع ، وقادرة عـــلى التحكم في سياسة البلد الذي تعمل فيه ، وكانت البيوتات المالية اليهوديـــة المشهورة امثال روتشيلد، وهيرش وغيرهما تحتل مواقع اقوى بكثير من رجال السلطة والسياسة المسيحيين في هذه الدولة او تلك ، وبالتالي فان المطلوب تحريره وايجاد وطن له ليس بالتأكيد شرائح هذه الطبقة التي تتربع على قمة السلطة والثورة ، بدليل انها لم تزعج نفسها حتى بمجرد التفكير بتبديل الوطن الذي تحيا فيه ، والهجرة الى الوطن القومي اليهودي العتيد ، وكان حسبها أن تلقي بفتات من أموالها الهائلة المكدسة على شكل هبات خيرية لمن افلحت الحركة الصهيونية باقناعهم بالهجرة الى الارجنتين ثم الـــى فلسطين لتأسيس الدولة القومية اليهودية هناك .

فالدافع الرئيسي اذن خلف هذه الدعوة القومية البرجوازية كان في الاساس نمـــو الطبقة البرجوازية اليهودية الى جانب زميلتها البرجوازية المسيحية ، وحاجة كل من هاتين الطبقتين الى توفير سوق مستقلة خاصة بكل منهما . الا ان تثبيت الرأسمالية وانتصاراتها المتوالية وبدء البحث عن اسواق جديدة خارج حدود الدولة القومية ذاتها، ووفرة هذه الاسواق في القارات الثلاث آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، أدى الـــى المصالحة بل والتعاون بين هاتين البرجوازيتين وسهل تحالفهما من اجل مصلحتهما المشتركة التي تتطلب منهما التحالف من اجل الهدف المشترك : السيطرة على الاسواق القديمة والجديدة . كما تتطلب منهما التضامن ضد العدو المشترك : الطبقات الكادحة وتنظيماتها الديمقراطية الاشتراكية والتي بدأت تشكل خطرا يقينيا بالنسبة اليهم .

« ثمة شبح يقلق اوربا ، الا وهو شبح الشيوعية . وقد اتحدت ضده سائر قوى اوربا العجوز في (تحالف مقدس) من البابا الى القيصر ومن (مترنيخ) الى (غيزو) ومن الراديكاليين الى جواسيس البوليس في المانيا »(١٠). هذا (التحالف المقدس) الذي يتحدث عنه البيان الشيوعي ، ضم في مجموعة جملة الفصائل الرأسمالية والبرجوازية والدينية وضمنها اليهودية أيضا ، واتحد في وجه الخطر المحدق والمشترك ، الحركات الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية .

كان اليهود يشكلون احد الاعمدة الرئيسية لهذه الحركات ، وكانت البروليتاريا اليهودية ، المضطهدة والمقهورة والمعزولة ، فصيلة اساسية من فصائل التقدم والتحرر، وهذه نتيجة منطقية وطبيعية للاضطهاد والعزلة والتمييز الذي عانت منه هذه الفئة طيلة قرون عديدة من عمرها ، وبالتالي فان أي تجميع او توحيد للطبقات الكادحة في تنظيمات تقدمية او ثورية من شأنه ان يشكل تهديدا مباشرا وخطيرا لمصالح بل ووجود الطبقات الرأسمالية والبرجوازية المسيطرة .

وهكذا « اكتشفت » البرجوازية اليهودية الكبيرة مرة اخرى ضرورة « تحرير اليهود » عن طريق « تهجيرهم » ولم يكن المقصود بالطبع — مرة اخرى — تحرير اليهودي البرجوازي ، وانما كان المقصود تهجير البروليتاري اليهودي ، وتمزيق وحدة البروليتاريا في كل مكان ممكن في اوربا ، خوفا من انصهار هذه البروليتاريا في بوتقة النضال الطبقي ضد مستغليهم المتحدين معا في بوتقة طبقة واحدة .

« لا يمكن ان يقيم الدنيا ويقعدها ضد انصهار اليهود غير اولئك اليهود الرجعيين التافهين الضيقي الافق الذين يريدون ان يعيدوا عجلة التاريخ الى الوراء ، ان يجبروها على السير ، لا من النظام القائم في روسيا وغاليسيا (حيث العزلة والانغلاق والتخلف) باتجاه النظام القائم في باريس ونيويورك (حيث الانصهار والتقدم) بل في الاتجاه المعاكس »(١١).

وهكذا فان الذين اقاموا الدنيا واقعدوها من أجل الحفاظ على انفصال « الثقافة القومية اليهودية » وعدم تفاعلها مع الثقافات القومية الاخرى ، والذين ارعبهم شبح الشيوعية في اوروبا ، فبادروا الى عقد « تحالف مقدس » بينهم ضد كل ما هو تقدمي ، واتخذوا من شعار تحرير اليهود وهجرة البروليتاريا اليهودية ستارا يخفون تحته رعبهم الحقيقي الناجم عن انتشار الافكار والدعوات الديمقراطية والاشتراكية في صفوف البروليتاريا اليهودية بنسبة مخيفة ، هؤلاء الدعاة القوميون الصهيونيون هم أنفسهم — كما يقول لينين — اعداء البروليتاريا ، انصار كل ما هو قديم وما يحمل طابع العزلة بين اليهود ، وشركاء الحاخاميين والبورجوازيين .

« ان نسبة اليهود في الحركات الديمقراطية والبروليتارية تفوق في كل مكان نسبة اليهود بين السكان بوجه عام . ولذا فان كل من يتبنى مباشرة او بصورة غير مباشرة شعار «الثقافة القومية» اليهودية ، انما هو (مهما تكن نواياه حسنة) عدو البروليتاريا. ونصير ما هو قديم وما يحمل طابع العزلة بين اليهود ، انما هو شريك الحاخاميين والبرجوازيين »(١٢).

ان جميع الاسترة والحجب الكثيفة والزائفة التي حاولت البرجوازية القومية اليهودية ان تحيط بها دعوتها الى الحركة الصهيونية لا تستطيع ان تخفي أية من الحقائق التاريخية العلمية الثابتة ، كما لا تستطيع اية من هذه الحجج الصمود طويلا أمام المنهج المادي التاريخي لتفسير الحوادث والمنطق الديالكتيكي لمعالجتها وفهمها . وهكذا لم يكن من الصعب على لينين العبقري ، ان يقرر منذ البدء الدعوة الى الحركة الصهيونية بأنها :

« حركة خاطئة ورجعية في الاساس ، تتناقض مع مصالح البروليتاريا اليهودية ، وترتبط بدوافع ومصالح البرجوازية اليهودية الكبرى »(١٣).

كذلك فان ادعاء البرجوازية اليهودية في دعوتها القومية بان اليهود يشكلون امة ثابتة عبر التاريخ ادعاء باطل وخاطىء في الاساس . فالامم ليست ازلية ، بمعنى انها تتشكل في زمان ومكان معينين ثم تخلد عبر العصور والازمنة غير متأثرة بتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم . وبالتالي فان الادعاء بأن اليهود امة ثابتة عبر التاريخ لا يمكن له ان يثبت امام اي مفهوم علمي للامة .

و « الامة اليهودية » المزعومة تفتقر ـــ كما هو معلوم تاريخيا ـــ الى الحد الادنى من الاسس والعوامل التي تشكل الامة ، اذ ليس لليهود الموزعين في مختلف ارجاء الارض لا اللغة المشتركة ولا الارض المشتركة ولا الحياة الاقتصادية المشتركة ولا التكوين النفسي المشترك ، وليس هناك اطلاقا ما يوحد قوميا بين اليهودي الامريكي والهندي والروسي والافريقي . « ان اليهود المقيمين في العالم المتمدن لا يشكلون امة . فقد انصهروا اكثر من غيرهم . كذلك لا يشكل اليهود القاطنون في روسيا وغاليسيا امة ، فليسوا في هذين البلدين مع الاسف ، سوى فئة معزولة مغلقة . وهذا هو الرأي الثابت الذي يقول به اولئك الذين يعرفون التاريخ اليهودي يقين المعرفة »(١٤).

ان المنظرين الاساسيين للحركة الصهيونية لا يحاولون اخفاء الاساس الطبقي لدعوتهم القومية الهادفة الى تهجير البروليتاريا اليهودية في اوروبا ، وبالتالي تمزيق وحدة الطبقات الكادحة في هذا البلد او ذاك سواء تحت شعار الدعوة القومية اليهودية ، او تحرير اليهودي ، او العودة الى ارض الميعاد او اي ستار آخر زائف وخاطىء. وفي هذا الصدد يقول « ليو بنسكر » ، اول مفكر وشارح للفكرة الصهيونية ، في كتابه المنشور عام ١٨٨١ بعنوان « التحرر الذاتي » : « وستهدف البيئة الادارية(١٥) بشكل رئيسي وخاص الى ايجاد وطن آمن لا يمكن انتهاكه للفائض من اولئك اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في مختلف البلدان ، ويشكلون عبئا على سكان البلاد الاصليين . لذلك يجب ان نتأكد من ابعاد الفائض من اليهود ».

ان الفائض من اليهود ، المقصود هنا ، هو دونما شك ، البروليتاريا اليهودية المنصهرة في بوتقة النضال الطبقي ضد الرأسمالية ، لا البرجوازيون اليهود .

الا ان عددا من كبار البرجوازيين اليهود امثال البارون هيرش ، والبارون روتشيلد وغيرهما كانوا قد احسوا بخطر هذا « الفائض البروليتاري » اليهودي وباشروا الى اقامة مستوطنات يهودية في عدد من البلدان كالارجنتين وفلسطين وغيرها . وكانوا يطلقون على برامج التهجير والتوطين هذه « برامج الابعاد الخيري » ويهدفون منها الى ابعاد الفقراء اليهود الى ابعد مكان ممكن وبأقل كلفة ممكنة ، وبالتالي التخلص من خطرهم الطبقي(١٦).

اما هرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية وزعيمها الاول ، فهو اكثر وضوحا وأدق تعبيرا من زملائه الصهاينة في شرحه للدوافع الحقيقية الكامنة وراء دعوته الصهيونية . يقول هرتزل ، في رسالة بعث بها الى دوق بادن في نيسان ١٨٩٦ : « ستكون لحركتنا (الصهيونية) نتيجتان ـــ وهذا امر لم المح اليه سوى خطفا في كتابي « الدولة اليهودية » المقصود به النقاش العلني ، وأود ان اوجه انتباه سموكم الى هاتين النتيجتين : دور الهجرة اليهودية المغادرة في اضعاف الاحزاب الثورية وقدرتها على ضرب القوة المالية العالمية »(١٧).

ويقول هرتزل في مكان آخر من يومياته المؤرخة ليوم ١٤ حزيران ١٨٩٥ : « ان شبابنا بكامله ، كل اولئك الذين هم الان بين سنتي العشرين والثلاثين عاما ، سيتخلون عن ميولهم الاشتراكية الغامضة ويتجهون الي » .

ويكتب هرتزل ايضا بعد مقابلة للقيصر الالماني في ٨ تشرين الاول ١٨٩٨ مسجلا يومياته عن هذه المقابلة فيقول : « اوضحت للقيصر اننا نبعد اليهود عن الاحزاب الثورية » .

كما يذكر في طلبه الذي قدمه لمقابلة القيصر الروسي مؤكدا ان دعم الحركة الصهيونية في مصلحة القيصرية ضد الاشتراكية ، وكذلك لان حركته الصهيونية « تهدف الى اضعاف الاحزاب الثورية ، فنحن اليوم وفي كل مكان نحارب الثوريين ، كما نعمل على ابعاد الطلاب والعمال اليهود عن الاشتراكية والفوضوية ، وذلك بتعريفهم الى فكرة القومية مثالية نقية »(١٨) .

ويؤكد دبلوماسي بريطاني هو « رونالد غراهام » في مذكرة مؤرخة في ٢٣ حزيران ١٩١٧ وموجهة الى وزارة الخارجية البريطانية ، على الهدف الطبقي الكامن وراء دعم الحركة الصهيونية فيقول :

« يجب تأمين كافة الفوائد السياسية التي يمكن احرازها من علاقتنا بالصهيونية ، ولا شك ان هذه الفوائد ستكون ضخمة وخاصة في روسيا حيث الطريقة الوحيدة للوصول الى البروليتاريا اليهودية من خلال الصهيونية والصهيونية هي الوسيلة الوحيدة لصرف اهتمام البروليتاريين عن الكفاح الاشتراكي »(١٩) .

فالدعوة القومية اليهودية اذن تستمد مقوماتها الاساسية ، كباقي الدعوات القومية البرجوازية التي ظهرت في نفس العصر ، من انتصار البرجوازية على الاقطاعية ، وبدء البحث عن سوق وطنية خاصة بها . كما ان الدعوة القومية اليهودية — كباقي الدعوات القومية البرجوازية كالالمانية والايطالية وغيرها ، تحولت مع عصر تثبيت الراسمالية ودخولها مرحلة الاستعمار الى قومية عنصرية شوفينية مضطهدة لباقي الشعوب .

ان تشكل الدول القومية البرجوازية في اوروبا ، وانتقال الراسمالية الى مرحلة الاستعمار ، وقيام « التحالف المقدس » بين جميع قوى الاضطهاد والاستغلال بما فيها اليهود البرجوازيين ، ضد الطبقات الكادحة وقواها الصاعدة المنظمة بما فيها اليهود البروليتاريين ، قد وضع الحركة الصهيونية مرة اخرى في موضعها الطبقي الطبيعي : التعصب القومي البرجوازي العنصري والعداء لكل ما هو تحرري او تقدمي .

---

١ — لينين ، **مسائل السياسة القومية والاممية البروليتارية** ، ص ٧٤ ، الطبعة العربية ، دار التقدم ، موسكو .

٢ — « في بازل اسست الدولة اليهودية » ، هرتزل ، **المذكرات** .

٣ — لينين ، **ملاحظات انتقادية حول المسالة القومية** ، ص ٦٧ ، الطبعة العربية ، دار التقدم ، موسكو .

٤ — لينين ، **نفس المصدر** ، ص ٦٨ .

٥ — صادق العظم ، **دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية** ، الطبعة العربية ، ص ١٤٢ ، بيروت .

٦ — صادق العظم ، **المرجع السابق** .

٧ — ابراهام ليون ، **المفهوم المادي للمسالة اليهودية** ، الطبعة العربية ، ص ١٠٩ .

٨ — ماركس وانجلز ، **العائلة المقدسة** .

٩ — كارل ماركس ، **المسالة اليهودية** ، الطبعة العربية ، بيروت .

١٠ — **البيان الشيوعي** — ماركس وانجلز ، الطبعة العربية ، ص ٣٦ .

١١ ــ لينين ، **ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية** ، ص ٢٩ ، الطبعة العربية ، دار التقدم ، موسكو .

١٢ ــ لينين ، **المرجع السابق** ، ص ٢٤ .

١٣ ــ لينين ، جريدة « **ايسكرا** » ، ١٠/٢٢/ ١٩٠٣ .

١٤ ــ لينين ، **ملاحظات انتقادية** ، ص ٢٨ .

١٥ ــ المقصود هنا هو الهيئة الادارية اليهودية التي دعا « بنسكر » الى تشكيلها لتامين توطين بضعة ملايين من البروليتاريين اليهود خارج اوروبا بالاتفاق مع القوى الاوروبية الحاكمة .

١٦ ــ أ.ن.سعد ، حول الايديولوجية الصهيونية، مجلة **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٢ ، ص ٢١ .

١٧ ــ هرتزل ، **المذكرات** ، الطبعة العربية .

١٨ ــ أ.د.ديمتري ، **الماركسية والدولة الصهيونية** ، ص ٩٤ ، الطبعة العربية ، بيروت .

١٩ ــ أ.ن.سعد، حول الايديولوجية الصهيونية، ص ٣١ .

الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية

عبد القادر ياسين

ليست* « الجبهة الحمراء » ، التي القي القبض على اعضائها في اسرائيل ظاهرة جديدة ، فقد سبقها العديد من الاعمال المشابهة ، التي عبرت عن الكفاح العربي — اليهودي المشترك من ناحية ، كما عبرت عن معارضة شرفاء اليهود للحركة الصهيونية ، مثل « عصبة مكافحة الصهيونية في العراق » و« الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية في مصر » . ويعنى مقالنا هذا بدراسة الرابطة ، مما يستتبع بالتالي دراسة علاقة اليهود بمصر ، وحجمهم ، وتكوينهم الطبقي ، وتاثرهم في المجتمع ، وما اليه من الامور التي تمكن القارىء من الالمام بكل ما يتعلق بهذه الرابطة .**

ع. ي.

قد تعود علاقة اليهود بمصر الى زمن نزول أولاد يعقوب فيها ، وبقاء بعضهم فيها بعد خروج النبي موسى من مصر . وان كان الثابت — تاريخيا — هو وجود طائفة يهودية في مصر في القرن السادس قبل الميلاد . وقد شهد القرن التاسع عشر ازدهارا وتطورا للطائفة اليهودية ، منذ تولى محمد علي باشا حكم مصر . فقد كانت البرجوازية المصرية الناشئة في اشد الحاجة الى راس المال لتمويل مشاريعها الصناعية ، وكانت الطائفة اليهودية تحوز هذا الراسمال . وقد أغرى هذا الازدهار بعض يهود أوربا بالهجرة الى مصر . ومع الاحتلال البريطاني لمصر ، عام ١٨٨٢ ، فتحت ابواب البلاد على مصاريعها للاجانب ، فتزايد تدفق اليهود الاوربيين الى مصر . وازدهرت أحوالهم اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، ولاقوا من السلطات كل رعاية وتشجيع(١) .

ويوضح الجدول التالي معدلات الزيادة في حجم الطائفة اليهودية في مصر منذ القرن الماضي حتى عام ١٩٤٨(٢) :

السنة	حجم الطائفة الاسرائيلية اليهودية	مجموع سكان مصر	النسبة
١٨٣٥	٥،٠٠٠	٧،٠٠٠،٠٠٠	٪٠،٠٧
١٨٩٧	٢٥،٢٠٠	٩،٧٣٤،٤٠٥	٪٠،٢٥
١٩٤٧	٦٤،٤٨٤	١٥،٩٠٠،٠٠٠	٪٤

وكان ٣٠ الفا من الثمانين الفا يحملون الجنسيات الاجنبية ، في حين كان خمسة الاف منهم يحملون الجنسية المصرية ، أما الباقون فكانوا بلا جنسية .

وقد تمتعت الطائفة اليهودية بحرية العبادة والفكر والثقافة . وبلغ عدد معابدها — في

النصف الاول من هذا القرن في القاهرة وحدها ــ نحو ٢٩ معبدا(٣). كما أنشأت الطائفة العديد من المدارس التي كانت تعلم طلبتها المناهج الاوربية،وكانت لغة التعليم الاساسية هي الفرنسية في حين كانت الانجليزية لغة اجبارية .

وكان للطائفة اليهودية في مصر مجلسها الملي ، المتخصص بمعالجة الامور الشخصية لابناء الطائفة ، كالزواج والطلاق والارث وفق التقاليد والطقوس الدينية لليهود . وقد أعطى دستور ١٩٢٣ المصري ضمانات جديدة للطوائف والاقليات ، وذلك باقراره مبدأ المساواة في الحقوق المدنية والسياسية دون تمييز بسبب الاصل او اللغة او الدين ، ومنحه حرية الاعتقاد والراي والصحافة والتعليم وحق استعمال أية لغة فيها. كما كفل لهم تسوية امورهم الشخصية وفق تقاليدهم وعلى يد سلطاتهم الدينية(٤).

وقد صدر عن الطائفة اليهودية في مصر ، فيما بين ١٩١٧ ــ ١٩٤٧ ، عشر صحف ، كانت اربع منها بالعربية ، ومثل هذا العدد بالفرنسية ، وصحيفتان بالانجليزية . وقد رفع بعض هذه الصحف لواء الدعوة للحركة الصهيونية مثل : « الرسول الصهيوني » و« مصر الاسرائيلية » و« الشمس » و« المنبر اليهودي » . كما بذلت الجهود لاحياء الثقافة العبرية في أوساط الطائفية اليهودية بالقاهرة جمعية « أصدقاء الجامعة العبرية في القدس » و« النادي العبري للغة العبرية »(٥).

كان جزء من يهود مصر يقوم بدور كومبرادوري : كوكلاء لشركات أجنبية . في حين عمل بعضهم كحرفيين ، وباعة جائلين ، وتجار وسطاء ، ومهنيين مثقفين بثقافة أجنبية، فهم اما خريجو مدارس فرنسية ، او تعلموا في مدارس الطائفة(٦). وكانت الطـائفة الاسرائيلية تتمتع ــ على العموم ــ بمستوى معيشي جيد ومرتفع نسبيا . وعدا أربعة آلاف شخص كانت تساعدهم مؤسسات الطائفة ، لم يعرف يهود مصر الفقر المدقع(٧).

وقد نشط يهود مصر في مختلف المجالات ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسيـة . ونجحوا في العمل بالتجارة والصناعة والاعمال المصرفية . وكان منهم موظفون كبار في أجهزة الدولة ، وفي المؤسسات العامة . وشارك بعضهم في الحياة السياسية المصرية ، امثال : يوسف وأدولف قطاوي ، وحاييم ناحوم ، ويوسف بتشو(٨). كما لعب بعض افراد الطائفة دورا بارزا في السياسة المصرية بعد الحرب العالمية الاولى ، فقد التصق المحامي ليون كاسترو بسعد زغلول ، زعيم حزب الوفد المصري ، وعمل معه كناطق باسم الحزب في اوروبا . كما برز أيضا في حزب الوفد يوسف دوبيكيوتو الذي انتخب عضوا في مجلس النواب المصري عام ١٩٢٧ . هذا بينما جرى تعيين اثنين من الطائفة في مجلس الشيوخ ، وهما يوسف قطاوي والحاخام حاييم ناحوم . واختار سعد زغلول في وزارته الاولى ، عام ١٩٢٥ ، قطاوي باشا وزيرا للمالية . وبعد سقوط وزارة سعد أعيد تعيين قطاوي وزيرا للمواصلات في وزارة زيور باشا(٩).

أما من الناحية المذهبية فقد كان يهود مصر ينقسمون الى طائفتين : ١ ــ اليهـود الحاخامية ، ٢ ــ اليهود القراءون . وكانت الطائفة الثانية أشبه بالبروتستانت بالنسبة للكاثوليك في الدين المسيحي . اذ ان افرادها كانوا يقبلون بالكتاب المقدس (التوراة) دون التلمود والعرف . الا ان السلطات المصرية لم تكن تعترف الا بالحاخامية . وكان لحاخامي القاهرة حاخام ومجلسان ، أحدهما للسفارديم والاخر للاشكنازيم ، كما كان لحاخامي الاسكندرية حاخام ومجلس اخر(١٠).

تمتعت الطائفة الاسرائيلية بموقع متميز داخل المجتمع المصري . وقد تغلغل افرادها في معظم مجالات العمل الاقتصادي ، في التجارة والصناعة والمصارف . وفي عام ١٩٤٢ كان الراسماليون اليهود يشاركون في ادارة وتوجيه ١٠٣ شركات من مجموع ٣٠٨

شركات ، هي مجموع الشركات المصرية آنذاك .كما كانوا يسيطرون على نسبة ضخمة من رؤوس اموال تلك الشركات . وكان لهم مصالح واسعة في البنوك والمشاريع الاقتصادية الاخرى . وكان العاملون في المشاريع التي يسيطر عليها اليهود — من المدير الى ضارب الالة الكاتبة — يهودا .

وفي ميدان النشاط المالي ساهم اليهود في انشاء وتوجيه البنوك وشركات التأمين ، واهمها : البنك العقاري المصري ، البنك الاهلي المصري ، البنك البلجيكي ، البنك التجاري المصري ، بنك موصيري ، بنك سوارس ، البنك الزراعي ، شركة الشرق الادنى المالية ، الشركة المصرية المالية ، شركة الاسكندرية للتأمين ، وشركة التأمين الاهلية المصرية(١١). وكانت أهم الشركات اليهودية في مصر هي شركة التسليفات التجارية ، لصاحبها أوفاديا سالم ، وكانت علاقة اوفاديا ببنك مصر وثيقة جدا ، لدرجة انه عقد اتفاقا مع عبد المقصود احمد — رئيس مجلس ادارة بنك مصر في الاربعينات — يقضي بأن يتولى أيهما ادارة تركة الاخر عند وفاته . ومن المعروف انه كان لاوفاديا هذا بنك في فلسطين آنئذ(١٢).

وفي مجال الاستغلال الزراعي ، أنشأ يهود مصر عددا من شركات الاراضي الزراعية التي تعمل على امتلاك الاراضي واستغلالها ، والمضاربة فيها ، وتمويل المشاريع العقارية والصناعية ، التي تساعد على استغلال الاراضي : منها « شركة البحيرة المساهمة » و« شركة وادي كوم امبو » و« شركة اراضي الدلتا المصرية » (اسسها موصيري عام ١٩١٠ وكانت تملك ضاحية المعادي) ، وشركة لتجفيف الاراضي كانت قد أسستها عائلة سموحة بالاسكندرية عام ١٩٣٠(١٣). ومن المعروف ان نحو ٩٨٪ من العاملين في البورصة كانوا يهودا . هذا عدا نشاطات اقتصادية فردية لابناء الطائفة في المجالات التجارية والزراعية والعقارية والمهنية(١٤).

ومع توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، وحصول مصر على استقلالها السياسي بموجبها ، الغيت الامتيازات الاجنبية . وبدا وكأن النفوذ الاقتصادي للاجانب وليهود مصر قد تجمد على ما كان عليه عند الغاء الامتيازات ، بل واخذ في الانحسار البطيء . وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ١٩٤٥ ، اخذت بعض عناصر الجاليات الاجنبية تترك مصر ، اذ تسببت الحرب في نمو شيطاني للبورجوازية المصرية مما زاد من منافستها للجاليات الاجنبية ومعارضتها لنشاطها الاقتصادي في مصر(١٥).

وفي مجال الملكية العقارية ، كان عدد الملاك المحليين ، عام ١٩١٠ ، ٣٨٦ر٣٨٤ر١ يمتلكون ٥٥٩ر٧٤٣ر٤ فدانا منهم ٨٧٩ر٧٨٠ مالكا لاقل من فدان واحد ، و٣٦٨ر٤٦٢ يمتلك الواحد منهم اقل من خمسة افدنة ، وكان عدد الملاك الاجانب ٧٥٧٨ يمتلكون ٢٣٠ر٧٢٠ فدانا منهم ١٦٥١ يمتلكون ٩١٧ر٦٧٥ فدانا بمتوسط قدرة ٤٣٣ فدانا . وبلغت قيمة الدين العام بفوائده المختلفة في اخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٠ . مبلغ ٢٠٠ر٧٧٢ر٩٤ جنيه(١٦). كما تملك بعض يهود مصر بعضا من دور السينما المصرية(١٧).

ولم يصل مجموع من وصل الى فلسطين من يهود مصر قبل عام ١٩٤٨ سوى ١٨٤٥ نسمة ، وهو عدد ضئيل اذا قيس بحجم الطائفة اليهودية في مصر ، اذ تبلغ نسبته نحو ٢ ٪ من مجموع الطائفة(١٨). وكان ضيق حجم الهجرة اليهودية من مصر يتفق وعدم تعريض اليهود للاضطهاد ، كما ويتفق وانتعاش الطائفة اليهودية في مصر اقتصاديا . مما حصر تأييد بعض يهود مصر — وخاصة كبار اثريائهم — للصهيونية في التمويل فقط .

وان كانت الهجرة اليهودية قد بدأت من مصر بمعدلات اعلى نسبيا بعد عام ١٩٤٥، ولكن على أساس عقائدي مما ابقاها في حدود ضيقة ايضا .

هذا بالرغم من أن صحيفة « يديعوت احرونوت » الصهيونية الصادرة في فلسطين ، قد زعمت — في خريف عام ١٩٤٦ — أن جميع اليهود المصريين يرغبون في الهجرة الى فلسطين لاسباب عدة اهمها اقتصادية . كما يدحض في الوقت نفسه ما كان قد ذكره مراسل صحيفة « دافار » الصهيونية الفلسطينية في القاهرة عن القيود الكثيرة التي كانت تفرضها حكومة مصر آنذاك على الطائفة اليهودية(١٩). ولم تكن اقوال الصحيفتين الصهيونيتين اكثر من حملة دعائية هدفها ابتزاز المزيد من التبرعات المالية من العالم من جهة ، والضغط على الحكومة المصرية لتهجير يهود مصر من جهة اخرى .

وكان الواقع يكذب ادعاءات هاتين الصحيفتين . اذ لم يعرف تاريخ مصر المعاصر اعمال عنف ضد اليهود الا مرتين : الاولى عندما نظمت مظاهرة طافت شوارع القاهرة، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ ، بمناسبة مرور ٢٨ سنة على صدور وعد بلفور ، وتطورت تلك المظاهرة الى صدامات مع بعض الجاليات الاجنبية ومع الطائفة اليهودية وجاءت المرة الثانية في أيار (مايو) ١٩٤٨ ، حين اعلنت الحكومة المصرية الاحكام العرفية في مصر بمناسبة دخول جيشها الى فلسطين ، وشنت حملة اعتقالات في الاوساط الصهيونية وغيرها من اوساط خصوم الحكومة . فقد استغلت حكومة النقراشي المصرية حرب فلسطين لتضرب الحركة المصرية ، فاعتقلت المئات من الشيوعيين المصريين « في حين أبقت معظم الصهيونيين المصريين طلقاء ، ومن اعتقلته منهم كان يتمتع ، داخل السجن ، بامتيازات لا حد لها ، من ثلاجات ومراوح وما اليه من أسباب الرفاهية »(٢٠). وفي ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ حدث ان هاجمت جموع من الجماهير المصرية الغاضبة بعض اليهود والاجانب .

وكان طبيعيا والحالة هذه ان يترك بعض افراد العائلة اليهودية مصر خاصة بعد الغاء الحكومة المصرية لقيود السفر في آب (اغسطس) ١٩٤٩ ، والتي كانت قد فرضتها مع أعلان الاحكام العرفية في أيار (مايو) ١٩٤٨ . وقيل انه قد ترك مصر فيما بين آب (اغسطس) وتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ نحو ٢٠٫٠٠٠ يهودي ، وصل منهم الى فلسطين المحتلة ٧٢٦٨(٢١).

النشاط الصهيوني في مصر

عمل الصهيونيون في مصر بحنكة شديدة . وقد كان للمنظمة الصهيونية مكتبا في القاهرة ، بشارع محمد فريد (فوق محل باتا حاليا) . وقد ظل هذا المكتب يمارس نشاطه حتى عام ١٩٤٨ . وكان اميل نجار هو أكثر العناصر الصهيونية نشاطا وفعالية في مصر ، وكان متزوجا من ابنة جاكوب وايزمن ، رئيس مكتب المنظمة الصهيونية في القاهرة ، وقد شغل فيما بعد منصب اول سفير لاسرائيل في فرنسا ! وقد تولى مكتب المنظمة الصهيونية بالقاهرة مهمة تنظيم عمليات الهجرة الى فلسطين . كما قامت « الكارن كايمت » و« الكارن هايسود » بجمع التبرعات ، علنا ، من يهود مصر . وقد انتعشت الدعاية الصهيونية في مصر ابان الحكم الفاشي في ايطاليا والمانيا ، وتحت ستار مقاومة الفاشية .

وبالرغم من كل ذلك فقد اقتصر تأييد الكتلة الرئيسية من يهود مصر للصهيونية على العواطف(٢٢). وان كان لم يمنع بعض يهود مصر من الارتباط التنظيمي بالحركة الصهيونية . فقد كشف اغتيال اللورد والتر موين وزير الدولة البريطاني ، في القاهرة يوم ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ ، على أيدي افراد من عصابة « شتيرن »

الارهابية الصهيونية ، كشف هذا الاغتيال عن وقائع تدين بعض الافراد من يهود مصر بالتعاون مع الصهيونية(٢٣).

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٦ ، القى البوليس المصري القبض على ثلاثة اشخاص حاولوا شراء ستمائة مسدس،من أمين أحد مخازن الاسلحة الحكومية.وكان هؤلاء الثلاثة ينوون تهريب هذه المسدسات الى الحركة الصهيونية في فلسطين . وكان احد هؤلاء الاشخاص الثلاثة ينتمي الى الطائفة اليهودية في مصر(٢٤). وبعد اقل من شهرين ضبط البوليس المصري ثلاثين شابا وفتاة من الطائفة اليهودية ، كانوا مجتمعين في منزل بشارع الخديوي، تملكه سيدة تدعى لديا حسب الله وهي بلغارية الاصل يهودية الديانة، وقد كشف التحقيق عن ان هؤلاء الشبان والفتيات كانوا يؤلفون عصابة صهيونية حملت اسم « العبري الصغير » ، وان بعض اثرياء اليهود في مصر كانوا يمدونهم بالمال(٢٥).

وكان بعض يهود الاسكندرية قد اسسوا ، عام ١٩٠٨ ، « جمعية بني صهيون » ، والتي أعلنت تأييدها لبرنامج المؤتمر الصهيوني الاول في بال ، المنعقد عام ١٨٩٧ . وفي الاسكندرية أيضا جرى تأسيس جمعية اخرى تحت اسم « زئير صهيون » . اخذت تنظم المحاضرات والندوات والاحتفالات الموالية للصهيونية(٢٦). واتسع النشاط الصهيوني في مصر بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث شكلت منظمات الشبيبة الصهيونية الطلائعية ، ورابطة نوادي المكابي . كما قام يهود الاسكندرية بجمع ١٣ الف جنيه ، اشتروا بها اراضي في فلسطين لحساب الصهيونية . كما كان كل من حاييم وايزمن وفلاديمير جابوتنسكي قد اعتادا الحضور الى مصر والدعوة للصهيونية بين ابناء الطائفة اليهودية فيها . وقد تزايد النشاط الصهيوني في مصر بعد قدوم الفرقة اليهودية الى مصر ، والتي كانت ملحقة بالجيش البريطاني ابان الحرب العالمية الثانية(٢٧).

وقد كان للصهيونية تأثير بالغ على مفاتيح الحياة في مصر . وذكر حافظ محمود ، نقيب الصحفيين المصريين الاسبق ، انه عندما كتب مقالا ضد الصهيونية ونشاطها في مصر ، بصحيفة « السياسة الاسبوعية » القاهرية والتي كان يرأس تحريرها في الاربعينات ، زاره متعهد اعلانات من الطائفة اليهودية في مصر ، وطلب اليه كتابة مقال آخر عن الصهيونية ، يتراجع فيه عما كان قد كتبه ، وهدد المتعهد حافظ محمود بأنه اذا لم يفعل فستتعرض صحيفته للخطر . ويقول حافظ محمود انه بعد ان رفض الاذعان لرغبة المتعهد « وقبل مضي اربع وعشرين ساعة ، كانت امامه شكوى من الاداريين في الجريدة بأنهم عجزوا عن الحصول على ورق ، ثم عجزوا عن الحصول على الحبر ، فقد كانت كل هذه السلع في ايدي اليهود . وعالجنا هذه المشكلة ، لكننا فوجئنا باختفاء قطعة صغيرة من اجزاء آلة الطبع ، وبالبحث اكتشفنا ان للوكالة اليهودية دخلا في هذا كله !!»(٢٨).

جذور الرابطة

بعد وصول أدولف هتلر الى الحكم في المانيا عام ١٩٣٣ ، وممارسته أبشع أساليب معاداة السامية . تشكلت « الرابطة العالمية لمكافحة معاداة السامية » Lica ، واتخذت من باريس مقرا لها ، واقامت فروعا لها في انحاء العالم . وتفرع عنها « رابطة الطلبة العالمية لمكافحة معاداة السامية » . وكان للرابطة الاولى فرع في مصر برئاسة ليون كاسترو . وكان فرع رابطة الطلبة يضم — أساسا — الطلبة اليهود الموجودين في مدارس الليسيه الفرنسية بالقاهرة والاسكندرية .

ويلاحظ ان ظهور الرابطة قد اتى بعد نجاح « الجبهة الشعبية » في فرنسا عام ١٩٣٦ ، مما أعطى أملا بتحول ميزان القوى ضد المانيا الهتلرية .

وكان معظم المدرسين الفرنسيين والمصريين في الليسيه اما اشتراكيين أو شيوعيين . مما افسح المجال لانتشار الافكار الاشتراكية بين يهود مصر ، ومع الغاء الامتيازات الاجنبية في مصر ، اصبح لكل جالية اجنبية في مصر حياتها الخاصة وصحفها الخاصة . واخذت في الانعزال عن الاهالي . وربما كان ذلك عاملا اخر ساعد بدوره على انتشار الافكار التقدمية بين يهود مصر .

ومع مرور الزمن تبلور تياران داخل الرابطة ، سرعان ما تباعدا ، بعد ثلاث سنين من بدء الرابطة لنشاطها . وقد ضم التيار الاول كبار اثرياء اليهود ، الذين كانوا يمولون الرابطة بدافع الخوف من تسرب الافكار المعادية للسامية ، وكان هؤلاء الاثرياء — في البداية — ينظرون للافكار التقدمية كدرع لهم ، وان كشفوا عداءهم الصريح لها بعد سقوط النازية وغياب الخطر المحدق بهم . اما التيار الثاني فقد كان ماركسيا ، وقد ضم معظم قواعد الرابطة من الشباب . حيث كان عدد من زعمائهم — مثل عزرا هراري وايلي ميزان (يهود شوام) — قد اعتنقوا الماركسية واصبحت علاقتهم باثرياء اليهود تقوم على الود المفقود(٣٠) .

وقد انشأت المنظمة اليهودية (مكابي) عدة فرق رياضية وادبية وفنية ، وساهم عدد من كبار الراسماليين اليهود في تمويل تلك الفرق(٣١) . ومن أبرز تلك النوادي كان « نادي المكابي » بفرعيه : « مكابي القاهرة » و « مكابي الضاهر » اللذان انشئا عام ١٩٣٢ . وكان الاول يقع في وسط القاهرة في شارع عبد الخالق ثروت ، فوق بنك القاهرة فرع ثروت حاليا . في حين قام الثاني في شارع الضاهر . وقد انحصر نشاط الاول في الثقافة والنشاط الكشفي ، وركز الثاني على النشاط الرياضي(٣٢) .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (ايار ١٩٤٥) ، اندفعت الى السطح جملة تناقضات : كانت الاولى منها بين الامبريالية الامريكية وبين الامبريالية البريطانية ، في حين احتدمت التناقضات بين الحركات الوطنية والاستعمار . ومن جهة ثالثة كان التناقض العنيف بين البورجوازيات المحلية وبين الطبقة العاملة في المستعمرات واشباه المستعمرات . وكان طبيعيا ، بعد انفجار كل تلك التناقضات ، ان تبرز في مصر مشكلة الصهيونية . وان يصل التناقض بين الشيوعيين والصهيونيين الى مرحلة التناقض العدائي ، نظرا لتعارض توجهات كل من التيارين « حيث كان الشيوعيون يدعون الشباب اليهودي الى مكافحة الاستعمار ، والعمل على الاندماج بالشعب المصري ، وتحويل الجالية اليهودية من احتياطي للاستعمار الى احتياطي للحركة الوطنية المصرية . هذا في حين كان الصهيونيون يطالبون شباب اليهود بالهجرة الى فلسطين ومكافحة الحركة الوطنية المصرية »(٣٣) .

وعليه اندفع الصهيونيون يبسطون سيطرتهم على التعبيرات العلنية للطائفة اليهودية في مصر ، كالنوادي وفرق الكشافة ، وخرج صدامهم مع الشيوعيين الى العلن ، بعد أن سيطر الصهيونيون على « مكابي القاهرة » واستخدموه في الاعداد لتهجير اليهود الى فلسطين ، بالمحاضرات ، والتهيئة الايديولوجية، وتوزيع التصريحات لدخول فلسطين .

وقد تحملت منظمة « ايسكرا » الشيوعية المصرية العبء الاكبر في مقاومة النشاط الصهيوني في مصر . ويحكي احد زعماء هذه المنظمة قصة تكوينها ، فيقول « ان سير الاحداث هو الذي دفعنا [الى الشيوعية — الكاتب] ، فقد بدأنا بمعاداة النازية . ومن ثم كنا ضد غزو الحبشة وضد الملكيين في اسبانيا ، وكذلك تبنينا شعار الجبهة الشعبية ، لتكوين اوسع جبهة ضد النازية ، والحقيقة ان تبنينا لشعار الجبهة الشعبية كان يمثل نقطة اساسية في موقفنا ، وهكذا بدأنا كيهود يحاربون العداء للسامية ثم

انتهينا شيوعيين ، ولا بد ان ذلك كان — ايضا — بتأثير عناصر يسارية ساهمت في تأسيس الجمعية [يقصد رابطة مكافحة العداء للسامية] » . ويضيف ان « ايسكرا » قد تشكلت في مطلع عام ١٩٤٢ ، وكانت لجنتها المركزية الاولى مكونة من هيلل شوارتز وماكس اديت وايلي ميزان(٣٤). وكان تنظيم « ايسكرا » يقوم على اساس التوزيع الفئوي وليس الجغرافي . ومن ثم فقد خصص فيها قسم للاجانب ضم قسما لليهود ، وكان قسم اليهود مقسما بدوره الى دوائر تقود خلايا الاعضاء اليهود . وفي قسم الاجانب كان هناك قسم اقتصادي، مهمته العمل داخل المؤسسات الاجنبية الاقتصادية، مما عجل بالصدام بين الشيوعيين والصهيونيين ، كما ان تجنيد الاعضاء للايسكرا كان مصدرا اخر للصدام بينهما(٣٥). ويتكلم احد اعضاء ايسكرا عن التجنيد فيقول « ... وكنا نأخذ من نجنده الى نوادٍ تقدمية ، مثل (نادي البورص اجبسيان) بشارع عرابي حاليا ، و (بيت شباب الهرم) و (الرابطة الديمقراطية) بالاسكندرية . وذلك بعد ان نعطيهم دورة فكرية معادية للصهيونية ، قبل تحويلهم للبديل التقدمي »(٣٦).

وكان طبيعيا ان يشتد الصراع بين الشيوعيين والصهيونيين ، خاصة بعد زوال النازية ، العدو المشترك ، وبعد استعصاء الحركة الديمقراطية بين يهود مصر على الاحتواء ، بل وتحولها ضد كبار اثرياء اليهود انفسهم . ولقد كان لكبار الاثرياء اليهود مصالح كبار الاثرياء المصريين نفسها . ولذلك نرى مقاومتهم للحركة الشيوعية المصرية بالغة العنف ، لتعارضها مع مصالحهم الاقتصادية كراسماليين .

وفي عام ١٩٤٦ نجح الشيوعيون اليهود في السيطرة على مكابي الضاهر ، وسارعوا الى تنظيم محاضرات سياسية فيه . ورد الصهيونيون عليهم باختلاق المشاجرات الاستفزازية والاعتداء على الشيوعيين بالضرب المبرح . وفي عام ١٩٤٧ اجريت انتخابات للنادي المذكور ، نجح فيها الشيوعيون . فهاجمهم الصهيونيون ونظموا ضدهم حملات عنف ، ونجحوا في اغلاق النادي . وقد ساعدهم في ذلك البوليس المصري . الذي اخذ يضيق الخناق على المنظمات الشيوعية .

وبعد ان شن اسماعيل باشا صدقي — رئيس وزراء مصر ١٩٤٦ — حملته المشهورة ضد الشيوعيين المصريين واعتقل العشرات منهم واقفل مؤسساتهم العلنية في تموز (يوليو) ١٩٤٦ ، اصدر البرت مزراحي كتيبا بعنوان « الشيوعية » وقع في ٦٤ صفحة من القطع الصغير ، ضمنه جملة افتراءات على الشيوعية والشيوعيين . وقد اعتبر مزراحي الشيوعية « من مخلفات الحرب » . واستعدى السلطات المصرية على الشيوعيين المصريين وطالبها بقمعهم « بواسطة البوليس والنيابة والمحكمة »(٣٩) وحاول مزراحي تنفير القراء من الشيوعية بوسيلة مضحكة تعبر عن مدى استخفافه بعقول قرائه ، اذ يقول انه في الشيوعية « تجزى على عملك بقدره ، ولا ملكية هناك بالمعنى الذي تفهمه ، بل كل ما في الوسع ان تملك بيتا او فيلا » !(٤٠) وببساطة يحسد عليها يفتي مزراحي بأن النظام الشيوعي « مخالف لما تواضح عليه الناس منذ انشأهم الله ، ولما لقنتهم اياه الديانات من ان الله قد فضل بعضهم على بعض في الرزق »(٤١). واستنكر المؤلف دعوة الاتحاد السوفياتي الى الحرية في الوقت الذي « يظل سنوات يضايق جارته تركيا ليحصل على حق المرور في المضايق »(٤٢). ونفى مزراحي عن الاتحاد السوفياتي حبه للسلام « والا فما له لم يسرح جيوشه ؟... وما له لم يحول بواخره الحربية وطياراته المقاتلة والقاذفة للقنابل الى ادوات مدنية لخدمة التجارة والحضارة ؟ »(٤٣) وعاد البرت مزراحي ليورد كلاما للشيخ محمود مكي، الذي كان قد استشهد بآية القرآن الكريم القائلة « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »(٤٤) وبين فضيلته كيف ان الله جعل « القوامة للرجال على النساء ، ليحملوا عنهن واجب

الكد في سبيل الرزق ويتركهن لخدمة البيت والطفولـة »(٤٥). وادان مزراحي هجـوم الشيوعيين المصريين على الاستعمار البريطـاني. واشاد بصدقي باشا مدلـلا اياه بـ « أبي السباع »*. واعتبر المؤلف « الحملة على الشيوعية ـ مهما قست ـ واجب وطني »(٤٦). ولم ينس الكاتب ان يعزز هجومه عـلى الشيوعية بمقتطفات لبعـض الكتاب اليمينيين أمثال خليل بك ثابت وفكري اباظة وحافظ محمود(٤٧). ثم هـو يعتب على بريطانيا لانها تراخت أمام الشيوعية ابان الحرب العالمية الثانية. وأن كان قـد عاد وحيا في بريطانيا عودتها لقمع الشيوعيين ومطاردتهم بعد انتهاء الحرب(٤٨).

ظهور الرابطـة

في أطار الحركة الوطنية المصرية، ومع بروز الخطـر الصهيوني، واستفحـال القضية الفلسطينية واحتياجها الملح الى الحل، نضجت فكرة تكوين تنظيم جماهيري، يظهر التباين بين اليهودية كدين وبين الصهيونية كحركة سياسية موالية للاستعمار. كما ظهرت الحاجة الى تنظيم يناضل ضد الصهيونية. ويرمي ـ ثالثا ـ الى ابـراز الصهيونية ليست باعتبارها معادية للحركة الوطنية المصرية فحسب بل معادية لليهود انفسهم ايضا. وكان طبيعيا ان يقوم هذا التنظيم على اكتاف اليهود انفسهم، ما دام سيحصر نشاطه في اوساط الطائفة اليهودية. وهكذا ظهـرت « الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية » في نهاية عام ١٩٤٦. وعندما سئل سكرتير الرابطة في وقت لاحق عن سبب تشكيل الرابطة في تلك الايام بالذات اجـاب عزرا هراري « لان الدعـاية المسممة نشطت في مصر اخيرا، نشاطا كبيرا مما يهدد العلاقات بين العرب واليهـود بتسميم الجو في بلد كمصر عاش فيه اليهود اجيالا متعاقبة عـلى احسن ما يكون من الوئام مع زملائهم المصريين »(٤٩).

وربما كانت الكلمة التي ارسلها بعض قادة « ايسكرا » الى صحيفة « صوت الامة » في تشـرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٦، أول مؤشـر على ظهور الرابطة. وتقـول الصحيفة المذكورة « تلقينا من جماعة الشباب الاسرائيلي الديمقراطي بالقاهرة كلمـة يذكرون فيها ان جماعتهم نشأت من صميم الشعب، وتتلخص أهدافهـم في محـاربة العنصرية ومكافحة الاستعمار وربيبته الصهيونية ». واضافت الصحيفة الوفدية ان هذه الجماعة « التي تنطق باسم احرار الطائفة الاسرائيلية المصرية التي تبلغ حـوالي المائة ألف مواطن تعادي الصهيونية واهدافها الجائـرة التي لا تحـل مشكلة اليهود المشردين، وان اغلبية اليهود لا يرضون عن الصهيونية، ويرونها لعبة في يد الاستعمار لتدعيم استعماره ». واوردت صوت الامة في الختام، الفقرة التي اختتمت بها الجماعة الاسرائيلية كلمتها، والتي تقول « اننا يحدونا الشعور التام بان مصرنا اليوم لفي اشد الحاجة الى تكتيل جميع العناصر الوطنية المخلصة لتحطيم الاستعمار وقهر الصهيونية، وايجاد شرق عربي حر مستقل يظلله التسامح وجـو الاخاء المطهـر من العنصريـة العصبية المقيتة، التي لن يكسب من ورائها سوى الغاصب المحتل »(٥٠).

وكانت الرابطة من نتاج قسم اليهود في « ايسكرا » بعد اتحادها مع منظمة شيوعية اخرى كانت تعرف باسم « حركة تحرير الشعب »*، وتكوينهما معا « الطليعة المتحدة » في ربيع عام ١٩٤٧. و « كانت اللجنة التأسيسية للرابطة تتكون من خمسة اشخاص هم: عزرا هراري ومارسيـل اسرائيل وادوارد متالون وهـانزين كاسفلت وادوارد ليفي »(٥١). هذا بالرغم من اشارة البيان الذي اصدرته الرابطة الى « استقلالها عـن جميع الاحزاب السياسية » وان اعلنت عن « استعدادهـا للتعاون مع جميـع الذين يؤيدونها باخلاص في كفاحها لتحقيق اغراضها »(٥٢).

اما سبب اقتصار عضوية الرابطة على ابناء الطائفة اليهودية فلانها « تعتبر نفسها حركة يهودية تعمل اساسا بين الجماهير اليهودية ، وبمناهضتها للصهيونية تخدم المصالح الحقيقية للطائفة اليهودية المصرية » ،(٥٣) على حد تعبير بيان الرابطة .

ولم تعمر الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية طويلا للمقاومة الشديدة التي واجهتها من حكومة السعديين التي كان يترأسها محمود فهمي النقراشي باشا ، وللمقاومة الاشد ضراوة من جانب الصهيونيين . وفي الفترة القصيرة التي عاشتها الرابطة ، تمكنت من اصدار كراس وبيان في ان واحد ، وزعهما اعضاؤها في حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، في التجمعات اليهودية التي يسيطر عليها الصهيونيون ، او تلك التي يوجد فيها كتله يهودية مثل : محلات شيكوريل ، شملا ، بنزايون ، عدس ، البنك الاهلي ، البنك البلجيكي ، وبنك باركليز(٥٤).

وفي ايار (مايو) ١٩٤٧ اعتقلت حكومة النقراشي أعضاء اللجنة التأسيسية للرابطة ثم عادت وافرجت عنهم بعد ٤٨ ساعه فقط من اعتقالها لهم .

وعن اهداف الرابطة ، عبر سكرتيرها ، عزرا هراري ، وهي « مكافحة الصهيونية ودعاياتها المضللة بين كافة الاسرائيليين القاطنين بمصر »(٥٥). كما صدرت الرابطة كراسها الذي اصدرته بالجملة التالية : « ضد الصهيونية !.. في صالح مصر !.. في صالح مصر !.. »(٥٦) كما عددت الرابطة اهدافها ، في الكراس الذي اصدرته ، وهي : « ١ ــ الكفاح ضد الدعاية الصهيونية التي تتعارض مع مصالح كل من اليهود والعرب . ٢ ــ الربط الوثيق بين يهود مصر والشعب المصري في الكفاح من اجل الاستقلال والديمقراطية . ٤ ــ العمل على حل مشكلة اليهود المشردين »(٥٧).

وتعي الرابطة العلاقة الديالكتيكية بين نشاطها وبين الحركة الوطنية المصرية . اذ نراها تشير في كراسها الى انه « بمقدار نجاح الرابطة في كفاحها ضد الصهيونية ، وبمقدار نجاحها في جذب الجماهير اليهودية نحو الحركة الوطنية الشعبية المصرية ... تشن نضالها ضد الصهيونية اداة الاستعمار وعدوة اليهود ، تحت شعار : ضد الصهيونية !.. في صالح اليهود !.. وفي صالح مصر !.. »(٥٨).

ولم تأخذ الرابطة فرصتها ، الا ان الزمان القصير الذي عاشته حفل بالمواقف النضالية الفكرية والعملية . فبالنسبة للصهيونية اعتبرتها الرابطة « اخطر حركة ظهرت في تاريخ اليهود ... وعقبة في طريق حل المشكلة اليهودية ... وفي نفس الوقت الذي تكافح فيه الرابطة ضد الصهيونية ، تناضل من اجل جميع العناصر الايجابية التي تسهل من حل المشكلة اليهودية »(٥٩). ويقول هراري ان الصهيونية « اداة استعمارية، تريد جذب جماهير اليهود اليها لتحقيق اغراض الاستعمار بانشاء دولة يهودية في فلسطين تساعد على تثبيت اقدامه في الشرق الاوسط » ويؤكد سكرتير الرابطة ان الصهيونية تريد « ان تربط اليهود بعجلة الاستعمار وان تجعلهم عبيدا لتنفيذ مآربه الحقير خلال سياسة فرق تسد ، التي يقدمها في فلسطين ، وخلال سياسة انشاء دولة يهودية صهيونية في فلسطين ، تصبح رأس الرمح الاستعماري ضد شعوب البلاد العربية »(٦٠).

وادانت الرابطة الهجرة اليهودية الى فلسطين واعلنت رفضها « تأييد سياسة للهجرة تعارضها اغلبية سكان فلسطين ، وتؤدي عمليا الى نتائج تتعارض مع الاغراض الانسانية المزعومة . اننا لسنا في حاجة الى هجرة تؤدي باخواننا اليهود الى ان يعيشوا في جو حرب اهلية في فلسطين ، ان لم تؤد بهم الى معسكرات قبرص المشؤومة وراء الاسلاك الشائكة . ولكننا واثقون ان فلسطين الحرة المستقلة ستشترك ــ عن

طيب خاطر ـــ مع الدول الديمقراطية الاخرى في ايواء اليهود المشردين »(٦١).

وعبرت الرابطة عن استنكارها للجرائم التي ارتكبها النازيون ضد اليهود ، واشارت الى المشردين اليهود الذين كانوا موجودين في معسكرات أوروبا الغربيه ، حينئذ ، حيث « يرفض الصهيونيون التفكير في اي حل لهؤلاء التعساء سوى الذهاب الى فلسطين ، وبذلــك يطيلون عذابهـــم ، ليتمكنوا من استغلالـــه في حـــدود مصالـــح السياسة الصهيونية »(٦٢). واقترح بيان الرابطة ، حلا لمسألة المتشردين اليهود ، اعادتهم « الى البلاد التي طردتهم منها الفاشية » . اما الذين يرفضون العودة بدعوى الابتعـــاد عـــن ذكريات الماضي المحزنة « فاننا نرى انه من واجب جميع البلاد ، ولا سيما الواسعـــة منها ، استقبال هؤلاء المشردين ومساعدتهم على التوطن فيها »(٦٣).

ونددت الرابطة في كراسها ، بالارهاب الصهيوني في فلسطين ، ووصفته « بانه حركة فاشية موجهة اساسا ضد الجماهير اليهودية ، ولا تخدم في الواقع سوى المستعمرين ، الذين وجدوا في الحركات الارهابية ـــ تحت ستار المحافظة على الامن ـــ حجة قانونية في الظاهر لتحويل فلسطين الى معسكر مسلح في خدمة مشروعاتهم العدوانية ، وتبريرا ادبيا في الظاهر لاخضاع السكان الى نظام اضطهاد واستبداد دائم » . وحملت الرابطة الحركة الصهيونية مسئولية بث الافكار والوسائل الفاشية بين اليهود . وانتهت الرابطة الى « ان تكوين جبهة موحدة مع الحركة التحريريـــة العربية في سبيـــل فلسطين حرة مستقلة ديمقراطية ، هو طريق الخلاص الوحيد للجماهير اليهودية في فلسطين »(٦٤).

وبعد ذلك قدمت الرابطة تفســـيرا طبقيا للتأييد الـــذي تلقاه الافكـــار الصهيونية والشوفينية في اوساط يهود مصر ، فقالت « ان الازمة الاقتصادية التي تسير الان، اخذت تمس اليهود بازدياد ، اذ ان اغلبيتهم ينتمون الى الطبقات المتوسطة . فصاحب الحرفة اليهودي والتاجر الصغير والمستخدم الذيـــن يقاسون شظف العيش كثـــيرا ما يقعون فريسة للدعاية الصهيونية التي تجعلهم يحلمون بالهرب من حياتهم الصعبة ليعيشوا في فلسطين كفلاحين على الارض في الهواء الطلق ، وبدون ان يهتموا بقوت الغد . ويضاف الى اكاذيب الدعاية الصهيونية ، ضغط بعض اصحاب الاعمال الصهيونيين او المحبذين للصهيونية »(٦٥). ولا تترك الرابطة هذا الامـــر بدون تقديم الحـــل له ، اذ ترى « ان السبيل الوحيد ليهود مصر هو الانضمام الى الحركة الوطنية المصرية والتضامن التام معها في سبيل تحقيق جميع اهدافها ، اذ لا تختلف مصالح الجماهير اليهودية بتاتا عن مصالح الشعب المصري عامة »(٦٦).

وترى الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية ان العداء لليهودية هو سلاح في يـــد اعداء التقدم والحرية ، واكدت الرابطة انها ـــ على عكس الصهيونيين ـــ امكانية تجنب هذه الظاهرة . واشارت الرابطة الى « ان المشكلة اليهودية قد تفرعت اليوم فاصبحت ذات ثلاثة جوانب متمايزة الواحد عن الاخر : توجد اولا مشكلة الاقليات اليهودية التي تعيش في اغلب انحاء العالم . . . وهناك ثانيا مشكلة يهود فلسطين ، ويريد الصهيونيون اظهارها على انها المشكلة اليهودية بأسرها . وتوجد اخيرا مشكلة اليهود الذين لا مأوى لهم غير معسكرات المشردين في اوروبا الغربية »(٦٧). وانكرت الرابطة على اليهود حق انشاء دولة خاصة بهم . واكـــدت ان العداء لليهوديـــة لا يتقـــدم الا حيث تتراجـــع الديمقراطية . واتهم كراس الرابطة الصهيونيين « بصرف اليهود عـــن الكفـــاح ضد عدوهم الاول ـــ الا وهو الفاشية » . ورأى « ان سلام الاقليات اليهودية لن يكفـــل الا بالتحالف مع القوى الديمقراطية ، التي بتحقيقها للحرية والرفاهية لكافـــة الشعب ستحقق بهذا الحرية والرفاهية لليهود »(٦٨).

وصاغت الرابطة حلا ديمقراطيا للمسألة اليهودية اذ رأت « ان المشكلة الفلسطينية هي — اساسيا — مشكلة تحرر فلسطين من الاضطهاد والاستعمار . والطريق الوحيد الذي يجب ان يسلكه يهود فلسطين هو التفاهم مع العرب والاتحاد معهم لتحرير فلسطين من نير الاستعمار . ان فلسطين مستقلة ديمقراطية هي الوحيدة التي تستطيع ان تضمن للسكان اليهود حياة رغدة ، حرة ، ومثمرة »(٦٩) وفضح كراس الرابطة الساسة الصهيونيين الذين يعارضون « في فزع امر استقلال فلسطين »(٧٠).

الصدام

نشرت صحيفة « صوت الامة » بعض المقالات عن النشاط الصهيوني في مصر ، وكانت بلا توقيع ، وكان واضحا من اتجاه المقالات ان « الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية » تقف وراءها . وقد علمت ان كاتب تلك المقالات هو المحامي التقدمي المصري مصطفى كامل منيب(٧١) وتحدث المقال الاول عن قيام اصحاب المحال التجارية في القاهرة وبعض سماسرة الاعلانات ووكلاء شركات الدعاية باتباع الجمعيات الصهيونية المؤلفة في فلسطين «قصد مقاومة الهيئات والجماعات والافراد والصحف وكل ما له علاقة بالعرب » . وانتهى المقال الى دعوة الهيئات المصرية الى اليقظة ومحاربة هؤلاء الصهيونيين(٧٢).

ووصل العداء بين الشيوعيين والصهيونيين في مصر الى مداه . وطلب الصهيونيون — في اوائل نيسان (ابريل) ١٩٤٧ — عقد الجمعية العمومية لمكابي الضاهر ، بغية اسقاط مجلس ادارة النادي المذكور . وانعقدت الجمعية العمومية مساء يوم التاسع من نيسان (ابريل) . وخرجت صحيفة « لا بورص اجبسيان » الموالية للصهيونية تعلن ان الجمعية العمومية لمكابي الضاهر قد اتخذت جملة قرارات وانتخبت مجلس ادارة جديد ورؤساء لاقسام النادي المذكور . واعتبرت الصحيفة الاعضاء المعينين لاقسام الكشافة والثقافة (أي الشيوعيين) والذين قاطعوا اجتماع الجمعية العمومية — معزولين(٧٣).

وفي وقت لاحق كشفت صحيفة « الجماهير » — التي كان يشرف على اصدارها اعضاء « ايسكرا » — النقاب عن الخطة التي اتبعها الصهيونيون لطرد الشيوعيين من النادي المذكور . فقالت الصحيفة « ... اجتمعوا بليل ، يدبرون ويتآمرون تحت زعامة كليمان شيكوريل . الذي جمع في اليوم السابق لعقد الجمعية العمومية لهذا النادي عشرات من الشبان الصهيونيين وبعض مستخدمي محله المعروف . ودبروا المؤامرة لطرد الاسرائيليين الديمقراطيين . وقال لهم زعيمهم ، لا تخشوا شيئا فالبوليس المصري يلبي اقل اشارة من اصبعي !! وقد اتفقنا معه على كل شيء ! وفي اليوم المحدد لعقد الجمعية العمومية حشد شيكوريل جموعه ، واستطاع بعد تزوير في قائمة اعضاء النادي ، وبوسائل وطرق مخالفة لقانون الجمعيات ، ان يعين مجلس ادارة صهيوني». واكدت الصحيفة التقدمية انه بمجرد تكوين الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية « اجتمعت الجمعيات الصهيونية في مصر ، واعتمدت ميزانية مقدارها عشرة الاف من الجنيهات ، لحرب اليهود الديمقراطيين » . ولا تستغرب « الجماهير » موقف شيكوريل هذا ، وان كانت قد ابدت دهشتها « ... ان نرى ضابطا من ضباط بوليس الاقسام يواجه شابا يهوديا ديمقراطيا بقوله : انه لا حق لاحد ان يتكلم باسم النادي سوى الخواجه شيكوريل !! » واشارت الصحيفة الى ان شيكوريل هذا لم يكتف بمناصرة البوليس له « وانما استأجر بعض البلطجية ووضعهم على باب النادي ليمنع دخول اليهود الديمقراطيين ! « وأشارت الصحيفة نفسها الى أن الشباب الشيوعي اليهودي

« اقتحم النادي في شبه مظاهرة ، سرعان ما تعالت فيها هتافاتهم : لتسقط الصهيونية اداة الاستعمار .. لتحيا مصر ديمقراطية .. ليسقط الاستعمار »(٧٤).

وكان خروج الشيوعيين من مكابي الضاهر بداية لمرحلة جديدة في الصراع بين الشيوعيين والصهيونيين ، أشد عنفا واكثر ضراوة . وتوالت الحملات الصحفية التي شنتها الرابطة ضد الصهيونية والنشاط الصهيوني . فواصل مصطفى كامل منيب كتابة مقالاته في « صوت الامة » دون أن يوقعها . وتحت عنوان « أوكار الصهيونية في مصر » كتب منيب مقالا ، أشار فيه الى النشاط الصهيوني المحموم في مصر ، والى جهل الشعب المصري بهذا النشاط ، وتجاهل الحكومة والصحف له . واتهم منيب الصهيونيين باتخاذ « مكابي القاهرة » مقرا لتنظيم نشاطهم التخريبي والدعوة للصهيونية . واشار المقال الى « الشعارات والاعلانات التي تعلو جدران الغرف في النادي وتتضمن هذه الاعلانات دعوة اليهود الى الهجرة الى فلسطين باعتبارها الوطن القومي لليهود ، كما تتضمن الاشادة بالصهيونية ، باعتبارها حركة وطنية يتحتم على اليهود التمسك بها والتفاني من أجلها » . ويشير المقال نفسه الى ان الذين يديرون النادي المذكور هم « في مجموعهم من الاثرياء اليهود الذين اغتنوا باستنزاف دماء المصريين ، والوقوف بجانب المستعمرين الانجليز في محاربة الحركة الوطنية الديمقراطية في مصر » . ويذكر الكاتب منهم كلا من « كليمنت شيكوريل وسلفاتور شيكوريل ، صاحبي محلات شيكوريل المعروفة ، ودكتور جاك أسا ، ومارسيل فينتورا ، وغيرهم » . ولفت منيب في مقاله النظر الى ناد آخر يستخدمه الصهيونيون للغرض نفسه(٧٥).

وبعد يومين من نشر المقال المذكور ، نشرت الصحيفة نفسها مقالا آخر بعنوان « مؤامرة صهيونية سافرة » ، بلا توقيع . وقد اشار فيه كاتبه الى ما كان قد جرى في « مكابي الضاهر » من صدام بين الشيوعيين والصهيونيين ، والى المؤامرة التي دبرها الصهيونيون لاخراج الشيوعيين منه. وندد الكاتب بالاثرياء اليهود «الذين عرفهم الشعب المصري متجلببين بجلباب المصرية بل والوطنية ، في حين انهم في الواقع لا يفعلون شيئا غير استنزاف دماء المصريين... والوقوف بجانب المستعمرين الانجليز في محاربة قضيتنا الوطنية العادلة » . وأشار المقال الى مخالفة اجتماع الجمعية العمومية لمكابي الضاهر، المنعقد في ٩ نيسان (ابريل) ، للقانون « فلم يحضرها مندوب من وزارة الشؤون الاجتماعية كما ينص على ذلك القانون ، كما حشد الصهيونيون في هذا الاجتماع عددا كبيرا من أتباعهم وانصارهم على الرغم من عدم أحقيتهم في حضور هذا الاجتماع ... يضاف الى ذلك التعجيل في الاجتماع ... وقاموا فاعتدوا بالضرب على اليهود الآخرين ... وتمت عملية الانتخاب في هذه الظروف،واذا باعضاء مجلس الادارة الجديد جميعهم من الصهيونيين » . وابدى كاتب المقال دهشته لوقوف البوليس المصري بجانب الصهيونيين في عدوانهم(٧٦).

وتستمر « صوت الامة » في نشر سلسلة « من اوكار الصهيونية » . فتنشر حلقة اخرى عن « شركة الاعلانات الشرقية » ، باعتبارها وكرا صهيونيا . وكانت الاعلانات الشرقية تصدر صحيفتين بالفرنسية ، هما : « البورص » و « البروجريه » ، وصحيفتين اخريين بالانجليزية هما : « الاجبشيان جازيت » و « الاجبشيان ميل » . وكان يملك هذه الشركة الصهيونيون وبعض الانجليز . وقد جعلت مهمتها الدفاع عن الاستعمار والصهيونية وتبرير استغلالهما وقهرهما للشعب المصري . ودلل المقال على ذلك بأن هذه الشركة « كانت دائما حربا عوانا على الوطن والوطنيين » . وانها كانت تصف « الوطنيين المصريين ، وهم في نضالهم ، بأنهم جماعة من الرعاع ». وأشار الى محاربتها لقانون الشركات الجديد الذي كانت قد وضعته الحكومة المصرية لضمان ٧٠٪ من وظائف

الشركات في مصر للمصريين ، مع ضمان ٥١٪ من الاسهم في الوقت نفسه لهم . كما ندد المقال بصحف هذه الشركة التي تضرب « على نغمة مرذولة ، وهي نغمة تخويف الاجانب من الحركة الوطنية الديمقراطية في مصر » . وأدان الكاتب صحف شركة الاعلانات الشرقية لميولها الصهيونية السافرة ولاتهامها « الحركة الوطنية العربية في فلسطين بأنها حركة رجعية » . وكشف مقال « صوت الامة » الدور الذي تلعبه هذه الشركة الانجليزية الصهيونية « فهي تحتكر الاعلانات في مصر ، ويقع تحت سيطرتها ــ بواسطة هذا الاحتكار ــ عدد كبير من الصحف والمجلات المصرية ، ومن ثم تجد هذه الصحف والمجلات نفسها بين براثن هذه الشركة لا تستطيع ان تخرج عن حدود سياستها الاستعمارية الصهيونية المفروضة ، قيد انملة ، والا حرمت من الاعلانات التي تعتمد عليها ، فيتعرض بقاؤها للخطر » . واتهم المقال الشركة بأنها « في الوقت الذي تغدق فيه على موظفيها الاجانب اغداقا عجيبا ، نجدها من ناحية اخرى تسوم العمال المصريين من العذاب والآلام . . . »(٧٧) .

وفي مساء الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٤٧ ، قام فريق من الشيوعيين اليهود بمحاولة لدخول مكابي الضاهر بشكل جماعي ، فتصدى لهم الصهيونيون واعتدوا عليهم بالضرب . وقد تراس الجانب الصهيوني كل من البرت حاتشويل وروبير اسكي . وأصاب الصهيونيون كلا من موسى لاينادو وايلي شيزانه باصابات بالغة . الا ان الشيوعيين نجحوا في اقتحام النادي ، وهتفوا في داخله بسقوط الصهيونية ، وحياة الشعب المصري . « ولقد بلغت الجرأة الوقحة بأحد الصهيونيين ، وهو المدعو البرت حاتشويل ، الى حد الاعلان امام رجال البوليس بأنه صهيوني لحما ودما ، وانه ينتمي الى عصابة شتيرن ، وانه سيمضي في طريقه ، ولن تستطيع قوة ان تحد من عمله ! »(٧٨) .

وقد ادى هذا الهجوم الاعلامي الى انتقال الصهيونيين المصريين الى الدفاع . فأرسل كليمان شيكوريل ــ باعتباره رئيسا لمكابي القاهرة ــ خطابا الى « صوت الامة » نفى فيه ان يكون المكابي وكرا للصهيونية ، واوضح ان النادي يشترط عدم الخوض في الشؤون السياسية ، وان خطته وخطة زملائه « تهدف الى محاربة كل نشاط سياسي » . ولفت شيكوريل نظر الصحيفة الوفدية الى « ان بعض عناصر الشعب التي سعت لفرض ارادتها على نادي المكابي فاستبعدتها الادارة ، هي الان التي تحاول الصيد في الماء العكر » . ولم يفت الصحيفة الاشارة الى ان شيكوريل لم يعلن في خطابه اليها عن معاداته للصهيونية ، في حين ارسل اليها الشيوعيون اليهود رسالة « يعلنون فيها معاداتهم للصهيونية وتأييدهم التام لحملتنا العادلة ضد الصهيونية »(٧٩) .

ويبدو أن الصهيونيين خشوا ان يعود الشيوعيون الى اقتحام مكابي الضاهر بمناسبة عيد العمال في أول ايار (مايو) ١٩٤٧ ، فشددوا حراستهم لابواب النادي في ذلك اليوم « يحولون دون دخول اليهود غير الموالين للصهيونية ، ويقصرون الدخول على الصهيونيين وحدهم . وكان يتزعم الصهيونيين شخصان صهيونيان يدعيان : رافله دويك ، ورالف دانا . واعجب العجب ان قوة البوليس المصري الموجودة في النادي كانت تتلقى اوامرها في السماح بالدخول او المنع من هذين الشخصين »(٨٠) .

وبعدها بيومين قرر الشيوعيون اليهود عقد اجتماع في مكابي الضاهر ، الا انهم فوجئوا بالصهيونيين يحولون دون دخولهم النادي بالضرب ، وتعاون البوليس المصري مع الصهيونيين « باستخدام العصي الغليظة في ضرب وتشتيت الفريق المعادي للصهيونيين واصيب كثيرون باصابات بالغة . كما حدث ان اعتدى مأمور قسم باب

الشعرية (التابع له مكابي الضاهر) على فتاة من هذا الفريق بالصفع الشديد على وجهها . كما قبض على عدد كبير نذكر منهم ، ايزاك ليفي وايلي شيرانه وموسى لاينادو والبرت سجرى ولولى سجرى . وقد اودعوا في سجن باب الشعرية » . على حد ما جاء في مقال نشرته — دون توقيع — « صوت الامة » لمصطفى كامل منيب(٨١) .

واستمر الشيوعيون في تعرية النشاط الصهيوني في مصر ، فنشر مصطفى منيب مقالا اخر تحدث فيه عن استخدام المدارس الاجنبية والسفارة البريطانية في بث السموم الاستعمارية ، ويقول « وقد بلغنا — من أوثق المصادر — ان الصهيونيين يستخدمون مدارس الطائفة الاسرائيلية الموجودة في القاهرة والاسكندرية في اقامة حفلات صهيونية، يستغلونها في نشر دعايتهم ، وفي جمع الاموال التي يستخدمونها في تهريب اليهود الى فلسطين . كما ان نواديهم التي يعملون فيها تحت ستار النشاط الرياضي ، هي في الواقع نواد انشأها الصهيونيون في مصر لا للرياضة ، ولكن لكي تكون اوكارا لهم ، يدبرون فيها مؤامراتهم ، وينظمون صفوفهم ، ويعدون خططهم الاجرامية في العدوان على الشعب الفلسطيني الشقيق » . وانتهى الكاتب الى تنبيه وزارات المعارف والداخلية والشؤون الاجتماعية لامر تلك المدارس والنوادي(٨٢) .

ثم عاد الكاتب نفسه ونشر في الصحيفة نفسها تحذيرا ، قال فيه انه علم « ان لجنة تكونت من كبار الماليين اليهود المناصرين للصهيونية في مصر وانها تقوم بتحصيل مبلغ جنيه مصري واحد من كل يهودي قادر على الدفع ، وذلك لتشجيع الاغراض العدوانية التي ترمي اليها الحركة الصهيونية في فلسطين وفي الشرق الاوسط بوجه عام » . وانتهى كاتب المقال الى لفت نظر الحكومة الى ضرورة مكافحة مثل « هذه الحركات المدمرة »(٨٣) .

الصواب والخطأ في التجربة

في أواسط حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، ابلغت وزارة الشؤون الاجتماعية المصرية سكرتير الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية ، عزرا هراري « بعدم الموافقة على تكوين الرابطة ، لاسباب تتعلق بالامن العام » . وقد سارعت الرابطة بارسال برقية الى محمود فهمي النقراشي باشا ، رئيس الوزراء انذاك ، استنكرت فيها هذا القرار ، وطلبت منه « سحبه لعدم تشجيع نشاط الصهيونية الاثيم في مصر »(٨٤) .

وفي مكان اخر من الصحيفة التي نشرت نص برقية الرابطة ، نشر مقال ندد بموقف حكومة النقراشي من الرابطة . وبعد ان عرض المقال لاهداف الرابطة ، اشار الى ان الحكومة النقراشية « قامت بحل هذه الرابطة بحجة — لا تضحكوا — نعم بحجة المحافظة على الامن العام ! اذن فمكافحة الصهيونية مخلة بالامن يا دولة الباشا ! ! » وتساءلت الصحيفة عما اذا كان ترك النوادي والهيئات الصهيونية تنتشر وتزدهر هو « عين المحافظة على الامن والنظام ! » واتهم المقال الحكومة النقراشية انها « بهذا التصرف المخزي انما تساعد سياسة كبار رجال المال اليهود المناصرين للصهيونية في مصر » . وتوجه الصحيفة كلامها الى النقراشي مؤكدة « ان صوت اليهود الاحرار المعادين للصهيونية والمتعاونين مع الشعب المصري في كفاحه ضد الاستعمار من اجل حريته واستقلاله ، ان هذا الصوت لن يخفت او يضعف ، بل سيدوي اقوى مما كان ، حتى تتحقق رسالتهم المقدسة للقضاء على الصهيونية وسيدها الاستعمار واذنابه ، والاشتراك في كفاح الشعب المصري من أجل الحياة في واد سعيد متحرر من القيود والاستغلال »(٨٥) .

وفي ايار (مايو) ١٩٤٨ القت الحكومة المصرية القبض على كافة اليهود المصريين

الذين لعبوا دورا ضد الصهيونية . وابعدت اغلبهم عن البلاد . في حين بقي اغلب الصهيونيين المصريين خارج السجن . والقليلون الذين اعتقلوا منهم كانوا متميزين عن غيرهم من المعتقلين ومرفهين داخل السجن « كالباشوات » على حد تعبير احد المعتقلين الشيوعيين آنذاك(٨٦). ولوحظ ان الشيوعيين اليهود الذين تم اعتقالهم انذاك ، كانت اسماؤهم قد قدمت للبوليس المصري من العناصر الصهيونية المصرية . وفي وقت لاحق رفضت السلطات الامريكية التصريح لكثير من الشيوعيين المصريين من ابناء الطائفة اليهودية بالسفر الى امريكا . وقد حدث ان ابرز احد المسؤولين الامريكيين لاحد هؤلاء الممنوعين ، ملفات عن نشاطهم الشيوعي داخل المكابي !(٨٧).

وبهجرة الكتلة الرئيسية من يهود مصر ، اضمحل الاساس الجماهيري للرابطة ، متوقفت عن النشاط .

ولقد كان انشاء الرابطة هو الجانب الصحيح في التجربة . اذ كانت الفكرة سليمة مائة في المائة ، وصفحة مشرفة للشيوعيين المصريين ، اذ قاوم هؤلاء ، بكل ما اوتوا من قوة ، الحركة الصهيونية ، في الوقت الذي كان يساندها فيه الاقطاعيون والبورجوازيون العرب .

على ان هناك بعض العيوب والعوائق التي حالت دون بلوغ الرابطة الى اهدافها . لعل أهمها :

• الخلط بين التنظيم الحزبي السري والتنظيم الجماهيري العلني « والواقع انه لم يكن للرابطة ثمة تنظيم علني بالمعنى المعروف . بل كان الشيوعيون اليهود هم — في الوقت نفسه — اعضاء الرابطة »(٨٨).

• لم يكن للرابطة التأثير المنشود ، بسبب تزايد العداء لليهود في مصر بعد الحرب العالمية الثانية ، والذي افتعلته واججته جماعتا « الاخوان المسلمين » و « مصر الفتاة » مما حال دون تفهم جماهير اليهود المصريين للرابطة ، وعدم التفافهم حولها .

• وقد اختلفت الرابطة عن «عصبة مكافحة الصهيونية» العراقية ، فقد حصرت الاولى عضويتها في الطائفة اليهودية ، في حين شملت العصبة بنشاطها ودعايتها كل العراقيين بدون تمييز ، مما وسع اساسها الجماهيري وجعلها اكثر فعالية من الرابطة . اذ كانت جماهير الشعب العريضة بحاجة الى التوعية — ايضا — باخطار الصهيونية ، وبالفرق بين اليهودية والصهيونية الخ . . .

• حال قصر عمر الرابطة دون ان تحوز المطلوب من تأييد جماهير الطائفة اليهودية في مصر . وفي حديث كان قد ادلى به سكرتير الرابطة ، اعترف بان مثل هذا التأييد كان « يحتاج الى جهاد طويل ، فالصهيونية في مصر مؤيدة — مع الاسف الشديد — من قوات البوليس المصري نفسه ! وهي ايضا مدعمة بالاموال الطائلة والجاه العريض ! »(٨٩).

وبعد ، فان وضعا عربيا ثوريا جديدا ، ناهضا وقويا . وتفهما عميقا لواقعنا ، ونظرية صحيحة لثورتنا ، وبرنامجا وتكتيكات صائبة .. كل ذلك قادر على خلق الاساس الموضوعي — السياسي والفكري — لميلاد اكثر من « رابطة » قوية داخل فلسطين المحتلة وخارجها ، تلعب دورها في تقويض كيان الدولة الاسرائيلية ، وتكون احدى الخطوات في رحلة قيام فلسطين مستقلة ديمقراطية .

---

* لا يسعني الا ان اتقدم بالشكر والامتنان لكل الذين ساعدوني في انجاز هذا المقال . واخص بالذكر الانسة سنية خلف ، والاساتذة : احمد صادق سعد ، وشحاتة هارون ، والبير آرييه .

* راجع مقالنا بنفس العنوان في **شؤون فلسطينية**، العدد ١١ ، ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ .

١ — الدكتور علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية ، **يهود البلاد العربية** ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، دراسات فلسطينية ، ٨٢ ، حزيران (يونيو) ١٩٧١ ، ص ١٥٩ — ١٦١ .

٢ — **المصدر نفسه** ص ١٤ و ١٦١ و ١٦٢ .

٣ — احمد محمد غنيم واحمد ابو كف ، **اليهود والحركة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ — ١٩٤٧** . كتاب الهلال . القاهرة . العدد ٢١٩ . يونيو (حزيران) ١٩٦٩ . ص ٣٢ .

٤ — الدكتور علي ابراهيم عبده ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٣ .

٥ — غنيم ص ٣١ — ٣٢ ، ٣٩ — ٤٠ ، ٤٦ — ٤٧ ، ٨٧ ويعقوب خوري ، **اليهود في البلدان العربية** ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ٣٠ — ٣١ ودكتور عبده ، **المصدر السابق** ، ١٧٣ — ١٧٦ .

٦ — احمد صادق سعد ، جلسة معه ، ١٩٧٢/٥/٢١ .

٧ — دكتور عبده ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٢.

٨ — يعقوب خوري ، **المصدر السابق** ، ص ١٩ — ٢٠ .

٩ — دكتور عبده ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

١٠ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٤ .

١١ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

١٢ — البير آربيه ، جلسة معه ١٩٧٣/١/١١ .

١٣ — دكتور عبده ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٦.

١٤ — غنيم ، **المصدر السابق** ، ص ٦٢ .

١٥ — احمد صادق سعد ، **المصدر السابق** .

١٦ — يعقوب خوري ، **المصدر السابق** ، ص ٣٠ (أنظر : مجلة **المصور** القاهرية ، العدد ٢٢١٧ — ١٩٦٩/٣/٧ ، ص ٣٧) .

١٧ — خوري ، **المصدر السابق** ، ص ٣١ .

١٨ — دكتور عبده ، **المصدر السابق** ، ص ١٨١.

١٩ — صحيفة « **صوت الامة** » العدد ٩١ ، السنة الاولى ، ١٩٤٦/١١/١١ ، ص ٥ .

٢٠ — البير آربيه ، **المصدر السابق** .

٢١ — دكتور عبده ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٤.

٢٢ — شحاته هارون ، جلسة معه ، ١١/١/ ١٩٧٣ . والبير آربيه ، **المصدر السابق** .

٢٣ — غنيم ، **المصدر السابق** ، ص ١٣٥ — ١٧٢ .

٢٤ — **صوت الامة** ، العدد ٨١ ، السنة الاولى، ١٩٤٦/١٠/٢٩ ، ص ٢ .

٢٥ — **صوت الامة** ، العدد ١٠٩ ، السنة الاولى ١٩٤٦/١٢/١ .

٢٦ — غنيم ، **المصدر السابق** ، ص ٢٠ .

٢٧ — **دكتور عبده** ، ص ١٧٩ — ١٨١ .

٢٨ — حافظ محمود . **المعارك في الصحافة والسياسة والفكر ١٩١٩ — ١٩٥٢** . كتاب الجمهورية . القاهرة . العدد الاول — نيسان (ابريل) ١٩٦٦ . ص ٦٠ .

٢٩ — صادق سعد ، **المصدر السابق** .

٣٠ — **المصدر نفسه** .

٣١ — دكتور عبده ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٢.

٣٢ — البير اربيه ، **المصدر السابق** .

٣٣ — **المصدر نفسه** .

٣٤ — محضر نقاش مع ايلي ميزان (انظر : د . رفعت السعيد . **اليسار المصري ١٩٢٥ — ١٩٤٠** . دار الطليعة . بيروت . تموز (يوليو) ١٩٧٢ . ص ٢٤١ — ٢٤٢) .

٣٥ — البير آربيه ، **المصدر السابق** .

٣٦ — **المصدر نفسه** .

٣٧ — كان البرت مزراحي عميلا للبوليس السري المصري ، ولكبار اثرياء اليهود في مصر في آن واحد . وكان يصدر صحيفة اسبوعية في القاهرة باسم « التسعيرة » ، ظلت مهتمة بمتابعة تسعيرة المواد التموينية حتى منتصف ١٩٤٦ ، حيث تحولت الى صحيفة سياسية . (البير — شحاتة — سعد — راجع ايضا الصحيفة المذكورة في دار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة) .

٣٨ — البرت مزراحي ، **الشيوعية** ، وكالة مصر للصحافة . القاهرة ١٩٤٦/٨/٢٦. ص ٧٠ .

٣٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٨ .

٤٠ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠ .

٤١ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢ .

٤٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨ .

٤٣ — **المصدر نفسه** .

٤٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٣ .

٤٥ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٤ .

* ابو السباع : يستخدمه المصريون كرادف لاسم « اسماعيل » ، من قبيل التحبب والتدليل .

٤٦ — مزراحي ، **المصدر السابق** ، ص ٤٥ .

٤٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٤٧ .

٤٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٥١ — ٥٧ .

٤٩ — **الجماهير** . العدد الخامس ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٥/٥ (أنظر : الاسرائيليون الوطنيون يؤلفون رابطة لمكافحة الصهيونية ، ص ٤ — ١١) .

٥٠ — **صوت الامة** . العدد ٧٨ . السنة الاولى. ١٩٤٦/١٠/١٦ ، ص ٣ .

* ابرز عناصر « حركة تحرير الشعب ح. ت. ش. » : سعيد خيال ، مصطفى كامل منيب ، أسعد حليم ، راؤول مكاريوس ، مارسيل اسرائيل ، اما « ايسكرا » فكان ابرز عناصرها: هليل شوارتز (المشهور باسمه الحركي «شندي» وهو خال محمود حسين مؤلف كتاب « الصراع الطبقي في مصر ») ، وعبد المعبود الجبيلي (رئيس مؤسسة الطاقة الذرية في مصر حاليا)، وشهدي عطية الشافعي ، وميشيل كامل (مدير تحرير مجلة الطليعة القاهرية اليوم) ومحمد سيد احمد (الكاتب والمحرر بجريدة الاهرام الان والبير آربيه .

٥١ — البير اربيه ، **المصدر السابق** .

٥٢ — **بيان الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية**. مطبعة الشبكشي بالقاهرة . حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، ص ١٦ .

٥٣ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦

٥٤ — البير اربيه ، **المصدر السابق** .

٥٥ — الجماهير ، **المصدر السابق** .

٥٦ — **بيان الرابطة** . ص ٣ .

٥٧ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥ — ١٦

٥٨ — **المصدر نفسه** ص ١٦ .

٥٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥ .

٦٠ — **الجماهير** ، المصدر السابق .

٦١ — **بيان الرابطة** . ص ١٠ .

٦٢ — **بيان الرابطة** . ص ١٢ .

٦٣ — **بيان الرابطة** . ص ١٢ .

٦٤ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠ — ١١ .

٦٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٣ .

٦٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤ .

٦٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٤ — ٥ .

٦٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٦ — ٨ .

٦٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٩ — ١٠ .

٧٠ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠ .

٧١ — اخبرني بذلك — مشكورا — **الاستاذ احمد** محمد غنيم .

٧٢ — **صوت الامة** العدد ١٩٧ ، **السنة الاولى** ، ١٩٤٧/٣/١٤ ، ص ٤ .

٧٣ — **لا بورص اجبسيان** ، اول نيسان (ابريل) ١٩٤٧ .

٧٤ — **الجماهير** . العدد الرابع . السنة الاولى — ١٩٤٧/٤/١٨ (انظر : الاسرائيليون الديمقراطيون يقاومون الصهيونية بالرغم من تعاون البوليس مع زعماء الصهيونيين، ص ٥).

٧٥ — **صوت الامة** ، العدد ٢٢٩ ، السنة الاولى، ١٩٤٧/٤/٢٠ ، ص ٣ .

٧٦ — **صوت الامة** ، العدد ٢٣١ ، السنة الاولى، ١٩٤٧/٤/٢٢ ، ص ٤ .

٧٧ — **صوت الامة** ، العدد ٢٣٣ ، السنة الاولى، ١٩٤٧/٤/٢٥ ص ٣ — ٥ .

٧٨ — **صوت الامة** ، العدد ٢٣٤ ، السنة الاولى ، ٢٦/٤/ ١٩٤٧ ، ص ٣ .

٧٩ — **صوت الامة** ، العدد ٢٣٦ ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٤/٢٨ ، ص ٣ .

٨٠ — **صوت الامة** ، العدد ٢٣٩ ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٥/٢ ، ص ٣ .

٨١ — **صوت الامة** ، العدد ٢٤١ السنة الاولى، ١٩٤٧/٥/٤ ، ص ٢ .

٨٢ — **صوت الامة** ، العدد ٢٤١ ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٥/٤ ، ص ٣ .

٨٣ — **صوت الامة** ، العدد ٣٨٩ ، السنة الثانية ، ١٩٤٧/١٠/٢٣ ، ص ٢ .

٨٤ — **الجماهير** ، العدد الثاني عشر ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٦/٢٣ (انظر :النقراشي يدافع عن الصهيونية ، ص ٥) .

٨٥ — **الجماهير العدد نفسه** ، (انظر : فضيحة نقراشية جديدة ، النقراشي يحل الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية ، ص ٥) .

٨٦ — البير اربيه ، **المصدر السابق** .

٨٧ — **المصدر نفسه** .

٨٨ — **المصدر نفسه** .

٨٩ — **الجماهير** ، العدد الخامس ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٥/٥ .

مراجعات

W. F. Abboushi : **The Angry Arabs**
(Westminster Press, 1974)
Sami Hadawi : **The Middle East Reality : Between War And Peace**
(The American - Arab Society, 1974)
Glen M. Jubran, **Our Struggle : The Palestine Revolution 1968 - 70**
(Vantage Press, 1972)

الاشياء المشتركة بين هذه الكتب الثلاثة هـي انها من تأليف فلسطينيين ، او اميركيين من اصل فلسطيني ، حول القضية الفلسطينية ، وموجهة الى قراء اللغة الانكليزية عامة والى الاميركيين بنوع خاص . والفوارق بينها هي في نطاق المعالجة ، والوجه الذي يشدد عليه كل منها ، والنبرة التي تطبع كلا منها ، واخيرا في الاسلوب والمستوى . ولا شك لدينا النية في سلامة الدوافع القومية لكل من المؤلفين الثلاثة ، لكن معيارنـا الرئيسي والاساسي للحكم على كل منها يجب ان يكون مدى جدوى وفعالية كل منها وفائدته لحركة المقاومة الفلسطينية . ان كلا من الكتب الثلاثة يؤكد مؤلفها ضمنا او صراحة انه وضعه استجابة لحاجة ملحة الى سد فجوة كبيرة نقر بوجودها جميعنا في الدعاوة الفلسطينية بين الاميركيين بنوع خاص والغرب عامة . والسؤال الذي سيرافقنا في مراجعة الكتب الثلاثة هو هل يمكن لهذه الكتب ان تساعد في ردم جزء ولو يسير من هذه الفجوة؟

كتاب الاستاذ عبوشي هو الاكثر طموحا : من حيث نطاقه ، انه يوسعه ليشمل تاريخ العرب منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا ، ومن حيث عدد الصفحات التي تبلغ ٢٨٥ صفحة مع الملاحظات ، كما انه الاكثر اثارة للجدل في ما يتضمنه من اراء . فالاستاذ عبوشي ، في الواقع ، لا يصل الى « المشكلة الفلسطينية » الا في الفصل الخامس ، (الصفحة ١٢٩) من فصول الكتاب الثمانية ، ولا يأتي على ذكر الخطر الصهيوني المتسلل لاول مرة الا في الصفحة ١٠٧ وسط الفصل الرابع . فالفصول الاربعة الاولى من الكتاب تضم موجزا سريعا ووافيا لتاريخ العرب ، كمقدمة تساعد القارىء الغربي على فهم قضية فلسطين . يقول المؤلف في المقدمة : « ... بما ان النزاع العربي — الاسرائيلي يؤلف الجدل الرئيسي ، والاكثر حداثة (بين العرب والعالم الغربي واسرائيل) ، فان نصف الكتاب تقريبا مكرس لتفسير تاريخه وتضميناته ، وهذا ينسجم مع الغاية الرئيسية للكتاب ، وهي تفسير لماذا يبدو العرب مريرين ، مخيبين في علائقهم الاقليمية والدولية » . ومما لا ريب فيه انه ينجح الى حد كبير في توضيح التاريخ العربي للقارىء الغربي ، وايضا في توضيح الخلفية التاريخية المباشرة للنزاع العربي — الاسرائيلي . وفي هذا لا خلاف لنا معه .

لكن المرء يلاحظ ان الكاتب يحاول في كل الاحوال ان يبدو « معتدلا في عرضه للاحداث » ، عن طريق الاقرار باخطاء العرب والفلسطينيين ، وتقديم وجهة النظر الصهيونية بصورة « مجردة » واتخاذ الموقف « الوسط » ، واعتماد النبرة الهادئة ، « الموضوعية » من اول الكتاب الى اخره . ولا شك في ان الهدوء ، وضبط النفس المثير للاعجاب الذي تحلى به الكاتب ، هما من الامور الضرورية في كتاب اعلامي كهذا يهدف الى كسب عقول الاميركيين وتغير ارائهم ازاء القضية الفلسطينية.

فما من شيء يقيم حاجزا منيعا بين المتكلم صاحب القضية والمستمع هدف الحديث اكثر من النبرة الزاعقة واظهار الغضب الشديد . ولكن هناك حدا حتى للاعتدال ، ان تخطاه المرء المعني مباشرة ظهر عليه التصنع ازاء القارىء وفقد سلاحا قويا في الاقناع . وفي حال الاستاذ عبوشي ، فان القارىء الاميركي يعرف انه فلسطيني ، ويعتبره معنيا مباشرة ، وبالتالي يتوقع منه ان يكون منحازا الى القضية الفلسطينية وملتزما بها . ولهذا السبب يرى كاتب هذه المراجعة ان الاستاذ عبوشي ربما بالغ في بعض المواقع في « اعتداله » و « موضوعيته » حتى الى حد الوقوف احيانا موقف الحياد ، وهو امر غير مسوغ لا من الناحية القومية ولا من الناحية الاعلامية . وكان بامكانه ان يظهر انحيازه للقضية والتزامه بها في كل الاحوال « مع » الاحتفاظ بالهدوء وضبط النفس .

وبالفعل ، فان بعض مواقف الكاتب المبالغ في « اعتدالها » لا يمكن لاي عربي واع ، ناهيك بالفلسطيني ، ان يقبل بها . فالسلام الذي يتحدث عنه الاستاذ عبوشي تحت عنوان « مشكلات السلام » ، (من ص ١٩٦) ، على سبيل المثال ، هو مفهوم لا تقبل به المقاومة ولا الجماهير الفلسطينية ، اذ انه يفترض سلاما مبنيا على قبول الفلسطنيين ، والعرب ، ببقاء دولة اسرائيل — وهذا ، بالطبع ، موقف مرفوض من الاساس . ثم لا بد من التساؤل عما اذا كان « الاعتدال » المبالغ به هو المسؤول عن قول الكاتب ، (ص ٢٠٢) ، ان مشكلة الفجوة العسكرية انما « يزيدها حدة افتراض الولايات المتحدة الخاطىء بانه يوجد توازن قوة في الشرق الاوسط » . فالولايات المتحدة ، في الواقع ، لم تكن « تفترض » اي شيء من هذا ، بل هي كانت تدرك ان الامر خلاف ذلك ، ولو ادعت العكس . وكذلك ، هل هو من باب المبالغة في اظهار « الموضوعية » قول الكاتب ان « الفلسطينيين العرب سلموا الدول العربية ، طوعا ، مسؤولياتهم المحقة ودورهم في النزاع ») ؟ الم تكن عوامل وتطورات معينة هي التي اجبرت الفلسطينيين على الاعتصام بالصمت والهدوء لفترات محددة ؟

هذه ، بالطبع ، هي ابرز المآخذ على عرضه للاحداث والنزاع من وجهة النظر الفلسطينية العربية . وهناك اراء اخرى اقل اهمية ،يطرحها الكاتب ولا يقره عليها معظم الفلسطينيين ، او هي مثيرة للجدل على الاقل . ومن جهة اخرى ، فان بعض الاراء قد تخطتها الاحداث منذ ان دفع الكاتب كتابه الى المطبعة . فافتراض الكاتب (ص ٢٠٢) بان المعونة العسكرية السوفياتية للدول العربية لم تؤثر الى حد كبير في الفجوة العسكرية قد كذبته حرب تشرين الى حد ما على الاقل . وتشديده الزائد (ص ٢٠٥) على احتمالات نشوب حرب عالمية ثالثة نتيجة لاستقطاب النزاع في الشرق الاوسط يبدو ، في الوقت الحاضر بنوع خاص ، غير وارد تقريبا بعد تضاؤل احتمال نشوب مثل هذه الحرب الى حد كبير .

ومع هذا ، ارجو الا يؤخذ الانطباع بان كتاب الاستاذ عبوشي قد اضر بالقضية الفلسطينية . بل على العكس تماما ، فان ايجابياته اكثر من سلبياته . فهو كتاب جيد ، يعرض وجهة النظر العربية باسلوب بسيط ولكنه قوي ، ومدعومة بحجج وشواهد متينة وبمنطق ثابت . والاستاذ عبوشي يبقى من المؤمنين بقضيته القومية ، بعدالتها وبحتمية انتصارها في النهاية ، بدليل تكهنه (ص ٢٢١) بان « العالم ... عاجلا ام آجلا ... سيشهد ثورة عربية اخرى لا تقل قوة عن ثورة الشعب الصيني » .

اما كتاب السيد سامي هداوي ، فهو عرض مباشر ، مكثف وسريع للقضية الفلسطينية يقع في ٧٢ صفحة فقط . وهذه الدراسة القصيرة موجهة ، في الدرجة الاولى ، للقراء الناطقين بالانكليزية الذين ليس لديهم الوقت للقيام بقراءات اكثر اسهابا حول القضية الفلسطينية من وجهة نظرنا ، وايضا لتقديم وجهة نظرنا هذه الى اخرين من الذين يجهلون كل شيء عنها او ممن ضللتهم الدعاوة الصهيونية الاسرائيلية . وبالفعل ، فالكتاب هو مدخل شامل واف لفهم القضية ، وقد يكون حقق غرضه اذا استطاع حمل قرائه ، او بعضهم على الاقل ، على قراءة المزيد من المنشورات حول القضية الفلسطينية . وهو متين اللغة ، واضح ، صافي التفكير ، ويرتكز الى منطق قوي سليم في عرضه الحجج الصهيونية والردود العربية المفحمة عليها .

ونصل الان الى غلين جبران ، الذي يقول لنا

التعريف به في مؤخر كتابه انه ولد في ديترويت من ابوين فلسطينيين ، وانه كان ما يزال طالبا جامعيا في تكساس ودون العشرين من العمر لما انتهى من تأليف هذا المجلد النحيل (١١٥ صفحة) . ولا يسع كل من يقرأ هذا الكتاب ان يشك في حماسة المؤلف للقضية الفلسطينية واخلاصه لها . ولعل هذه الحماسة وهذا الاخلاص هما اللذان دفعاه الى تأليف الكتاب في هذه السن وبهذه السرعة ولكنهما ، للاسف ، لا يضمنان وحدهما صنع كتاب جيد .

يتألف الكتاب من عرض سريع لاحداث الثورة الفلسطينية وفقا لتسلسل زمني غير واضح وغير دقيق ، بين سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٧٠ . وقد صدر جبران كتابه بمقدمة قصيرة ، تليها « خلفية تاريخية » في اربع صفحات . وقسمه الى قسمين، احدهما بعنوان « مقدمة للاعتراف » والاخربعنوان « اعوام الملاحم — ١٩٧٠ » . ويضم القسم الاول تسعة فصول ، والثاني ثمانية فصول ،يليها نص انكليزي « للميثاق الوطني الفلسطيني » ، وفي الختام مقابلة مع ياسر عرفات . وهذا يعني ان معظم فصول الكتاب قصيرة جدا ، لا تتجاوز احيانا الصفحة الواحدة او الصفحتين . وليس في هذا ما يعيب لو ان عرض الاحداث كان اكثر تنظيما وتركيزا ، ولو لم يكن الكتاب ككل مليئا بالاخطاء والهنات المختلفة .

فالانطباع الذي يخرج به المرء من مطالعة الكتاب هو ان مؤلفه كتب فصوله تباعا ، اثناء وقوع الاحداث ، دون ان يعمد الى اعادة كتابة المواد المتجمعة لديه على هذا النحو ، او الى تنقيحها تنقيحا جيدا على الاقل . والاسلوب الذي دون به هذه الاحداث هو اقرب ما يكون الى اسلوب التقارير الصحافية التي تتسم بحيوية الاحداث الانية كما يكتبها للحال شخص عاصرها وينقتر ، بالتالى ، الى العمق والبعد التاريخي . ولئن كان هذا الاسلوب يليق بصحيفة او مجلة اخبار اسبوعية فمن البديهي انه لا يصلح البتة لكتاب يفترض ان تبقى له قيمة ما بعد فترة من مرور هذه الاحداث . واحدى النتائج السيئة لهذا الاسلوب هي ان الكثير من الاراء والتعليقات التى ابداها جبران حول حدث او موضوع معين في فصل مبكر عادت الاحداث فدحضتها بحلول كتابة فصل لاحق.

والادلة على ذلك في الكتاب كثيرة . منها ان جبران يتكهن جازما (ص ٣١) بأن « ... أية محاولة (يقوم بها الملك حسين) لسحق الفدائيين ستفضي حتما تقريبا الى الاطاحة به » . ثم يعود فيخصص فصلين لاحقين ، السادس عشر والسابع عشر ، لتدوين احداث ايلول الاسود . كان بامكان الكاتب اعادة النظر في هذه الاراء التي تخطتها احداث الكتاب ذاته قبل دفعه الى المطبعة . وكان يمكن اعتبار امتناعه عن اعادة النظر فيها من باب الامانة للمشاعر والاراء الانية لو انه في صدد تقديم يوميات او مذكرات . اما وان الكتاب هو عرض مباشر « موضوعي » لاحداث تتعلقبالمقاومة في فترة زمنية معينة ، فاننا لا نجد مندوحة من اعتبار هذا الامتناع عن اعادة النظر اهمالا وتسرعا لا مسوغ لهما .

وثمة امثلة اخرى ، من نوع اخر ، على الاهمال والتسرع . فهناك اخطاء لغوية واضحة ، واخرى مطبعية ، والكتاب كان بحاجة ماسة ، الى منقح كفوء ومصحح قدير . كما اننا نرى المؤلف ، في اماكن كثيرة ، يعرض الافكار والتعليقات ، التي قد تكون سليمة وربما واضحة في عقله ، بطريقة مشوشة ينقصها التسلسل المنطقي والتطوير الكافي ، بحيث لا يسع القارىء فهم قصده منها . والبعض الاخر من اقوال الكاتب لا بد وان يرفع ، تعجبا ، حواجب الكثيرين من القراء الفلسطينيين العرب ويثير التساؤل عن صحتها وقيمتها الاعلامية ، كقوله في الصفحة ٥٣ : « ومع ان الفدائيين قد يتمنعون عن الاعتراف بتأثير اجنبي ، فانهم ربما تبعوا الى حد ما تقليد لورنس العرب » !

بالطبع ، تشفع بالكاتب سنه ، وحماسته التي تضفي على الكتاب حيوية أكيدة ، وصدقه الذي يبرز بوضوح من البداية الى النهاية . وقد لا يخلو الكتاب من فائدة اعلامية . لكننا نتمنى على غلين جبران الحرص على ان يجيء كتابه الثاني عن « النزاع الفلسطيني » الذي يبشرنا به تعريف الناشر ، خلوا من كل هذه الاخطاء والعيوب التي من السهل تحاشيها ، واكثر تركيزا وعمقا .

رجا جورج

John Cooley, **Green March, Black September : The Story of Palestinian Arabs.**
(London : Frank Cass, 1973).

مؤلف هذا الكتاب ، السيد كولي ، صحفي امريكي عاش في الشرق الاوسط فترة طويلة عايش خلالها الاحداث وراقبها عن كثب عندما عمل كمراسل في الجزائر اثناء حرب التحرير لمدة ست سنوات ثم كمراسل لجريدة « كريستشين سينس مونيتور » منذ عام ١٩٦٥ .

وهذا الكتاب هو أحد أفضل الكتب التي صدرت عن المواجهة الفلسطينية الاسرائيلية ، ولا بد ان يكون مؤلفه أحد قلة ضئيلة من الصحافيين او الكتاب الغربيين الذين تجشموا مشقة محاولة فهم الجانب الفلسطيني دون الوقوع في شرك الدعاية الاسرائيلية . ويشعر المرء بموضوعية الكاتب وتجرده اثناء قراءته الكتاب ولو ان اراء السيد كولي ليست بالضرورة متطابقة مع تطلعات الفلسطينيين .

والكتاب موجه بشكل عام للقارىء الغربي غير المتخصص في امور الشرق الاوسط، وهو يجمع بين دقة التحليل وسعة الاطلاع من ناحية والسرد غير المعقد من ناحية اخرى، الامر الذي يجعله في متناول القارىء العادي . وبالرغم من ان عنوان الكتاب يشير الى انه يتناول « قصة الفلسطينيين العرب » فهو في الواقع ليس سردا تاريخيا بالمعنى المعهود بل من نوع الكتابة التي يمكن ان تسمى بالصحافة التحليلية او التفسيرية التي يتخصص بها الكاتب.

يتألف الكتاب من عشرة فصول وملحقين. ويستهل كولي الفصل الاول من كتابه بمعالجة سريعة لمشروع المملكة العربية المتحدة الذي طرحه الملك حسين في الخامس عشر من آذار (مارس) ١٩٧٢ مستهدفا توحيد ضفتي نهر الاردن في نظام فدرالي تحت علم واحد . وبعدما يتناول الكاتب ردود الفعل لهذا المشروع في العالم العربي واسرائيل والغرب فيقول ان ردة فعل الاسرائيليين للخطة كانت سلبية وذلك استنادا الى تصريحات بعض الرسميين الاسرائيليين . الا انه يؤكد بان هذه الخطة جاءت نتيجة لتفاهم مسبق الى حد ما بين الملك حسين والاسرائيليين (باستثناء مسألة القدس) ، ويدعم ذلك بقوله ان « مراسل الشرق الاوسط لاحدى مجلات الاخبار الاميركية حصل من مصادر موثوقة على اثبات الاتصال الاسرائيلي — الاردني من أجل تهيئة المسرح لمبادرة حسين . ويؤكد كولي ايضا بأن التحقيقات الخاصة التي قام هو بها كشفت النقاب عن ان الملك حسين عقد عشرة او اثني عشر اجتماعا مع الزعماء الاسرائيليين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٢ .

أما بالنسبة لردة فعل الفلسطينيين لمشروع الملك حسين فيستنتج المؤلف انه كان من الصعب التحقق من ردود فعلهم « ان تشتتهم الجغرافي والانظمة السياسية المختلفة التي يخضعون لها قد ضاعفت من صعوبة [استشارتهم حول] هذا الامر » . غير ان الاكثرية الصامتة من الفلسطينيين كانت ، حسب رأي الكاتب ، تتأثر الى حد كبير بحركة الفدائيين بدرجات مختلفة . وبالتالي كان موقفهم من المشروع سلبيا اذ انه لم يكن من المرجح ابدا ان يقبل الفدائيون بأي حل يطرح من قبل الملك حسين. كما يرى المؤلف بأنه ليس بالامكان تحقيق سلام حقيقي بواسطة التسويات والحلول الجزئية القائمة بين الدول العربية واسرائيل ما لم يأخذ الفلسطينيون بعين الاعتبار اذ انهم اساس الخلاف.

ويفرد المؤلف الفصلين الثاني والثالث لبحث جذور القضية الفلسطينية من الناحية التاريخية وذلك تحت عنوان « شعب بلا ارض » و « تغريب فلسطين » ويبين هنا ، عكس ما تروجه الدعاية الصهيونية في الغرب ، استمرارية وجود الشعب الفلسطيني على ارض فلسطين من قبل الاحتلال الروماني بقرون حتى وقتنا الحاضر . ويبرز كذلك أهمية الاماكن المقدسة بالنسبة للمسلمين ، وهذا أمر يكاد يكون مجهولا بالنسبة للقارىء الغربي العادي .

ويعرض المؤلف بعد ذلك بايجاز بعض نواحي تاريخ فلسطين الحديث ابتداء من حملة نابوليون على مصر حتى حرب ١٩٦٧ وتشريد الفلسطينيين مرة اخرى خلال عشرين عاما . ومعالجة الكتاب لتاريخ فلسطين مقتضبة ، وبالضرورة انتقائية . الا ان الفصل الثالث اكثر عصرية والى حد ما

أكثر اثارة بكثير من القسم الثاني . وينجح الكاتب هنا في ابراز بعض الحقائق المهمة مثل وعي الفلسطينيين في مطلع هذا القرن على الخطر الصهيوني وردة الفعل اليهودية قبل ١٩٤٨ والاسباب الكامنة وراءها . كما انه يلفت النظر الى فارق مهم بين النشاط الصهيوني والنشاط العربي من حيث ان « النشاط الصهيوني كان على نطاق دولي في حين كان النشاط العربي محليا ومحدودا » . ويعقب الكاتب على خلق دولة صهيونية في الخامس عشر من ايار (مايو) ١٩٤٨ واجلاء ٧٠٠،٠٠٠ فلسطيني بقوله : « هذا الخروج الاخر يكاد يجهله العالم الذي أضحت مآثر الصهيونية أعمال بطولة له » .

يخصص المؤلف الفصل الرابع وعنوانه«الاحتجاج والشعر والنثر الفلسطيني » للحديث عن انعكاسات تعلق الفلسطينيين بأرضهم في الادب والشعر والفن الذي ظهر قبل حرب حزيران وبعدها . وهذا الفصل هو أحد الفصول الاكبر قيمة في الكتاب . ففيه يتحدث الكاتب عن شعر الفلسطينيين الجميل وتوقهم الى الارض وتحديهم للاسر وحاجتهم الملحة للعودة . ويعطي الكاتب هذا الشعر بعدا عالميا بقوله ان بعض هذا الشعر المكتوب في ظل الاحتلال الاسرائيلي « يمكن مقارنته بأدب ما يسمى «الهجرات الداخلية » للكتاب الاوروبيين المناهضين للفاشية في الثلاثينات » . ويشير كولي الى شعراء وفنانين من داخل الارض المحتلة وخارجها أمثال توفيق زياد وسميح القاسم وفدوى طوقان ومحمود درويش . ويعرف بأعمال غسان كنفاني وكمال بلاطة وجمانة بايزيد الحسيني واسماعيل وتمام الشموط وفلاديمير تماري وغيرهم . كما يشير الى فنانين داخل الارض المحتلة امثال عبد العابدي وعبدالله قرة وغيرهم .

أما الفصل الخامس فهو يتحدث عن بعض أعمال المثقفين والعلماء الفلسطينيين ، خاصة المعروفين منهم في الغرب ومن بينهم موسى العلمي وابراهيم ابو اللغد وآخرين . ويشير الكاتب هنا الى حقيقة مهمة وهي ان الكثيرين من الفلسطينيين أفلحوا في بناء أعمال ناجحة وفي الاسهام في « العلوم والفن المهني في العالم الخارجي » رغم المشقات والعقبات التي واجهوها . ويستشهد المؤلف بالاستاذ انطوان زحلان من الجامعة الاميركية في بيروت الذي اجرى بحثا اوضح فيه ان الفلسطينيين بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٩ « بقليل من المعونة او بغير معونة نشروا واكتسبوا ثقافة أعلى من ثقافة الاسرائيلي الاوروبي وبمعدل أكبر » . فالفلسطينيون وبينهم ٥٠ الف خريج جامعة هم « بين الشعوب الاكثر ثقافة في العالم العربي » . ويدعم الكاتب هذه الحقيقه بذكر انجازات بعض الفلسطينيين .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى الحديث عن المقاومة الفلسطينية ويخصص لها فصلين من الكتاب ، السادس والسابع ، حيث يحاول اعطاء لمحة تاريخية عن نشوء كل حركة من خلال سيرة حياة أحد مؤسسيها او قادتها . ويعتمد هنا على مقابلات كان قد اجراها مع كل من ياسر عرفات وجورج حبش ونايف حواتمة وغيرهم. ويقدم الكاتب في الفصل السادس خلفية سيرة عرفات ونشاطه كما يتطرق الى انجازات فتح وأهمية وقفتها في معركة الكرامة ويشير الى ان منظمة فتح في عام ١٩٦٦ كانت تملك بنية تحتية من المستوصفات والمياتم لاولاد الفدائيين الذين قتلوا في المعركة ... ومدارس ومراكز تدريب حرفي في مخيمات اللاجئين . وكان حجم هذه البنية ونطاقها هما اللذان اخذا يخيفان السلطات في الاردن مما ادى الى انفجار الموقف . ويعلق الكاتب على ذلك بأن المقاومة الفلسطينية أفلحت في البقاء على الرغم من وجود مجموعة قوية من الاعداء .

القسم الاول من الفصل السابع مخصص لتفحص الجبهة الشعبية واصولها وتطوراتها اللاحقة . ويبحث بقية الفصل انفصال أحمد جبريل ثم الانشقاق الاخطر لنايف حواتمة وبروز الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، ويشير الى بعض الفوارق بين الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية . ومع ان ما يأتي الكاتب به في الفصلين المخصصين لحركة المقاومة ليس بالجديد ، فان أهميتها تكمن في اعطاء صورة حقيقية وصادقة عن اهداف ودوافع المقاومة التي طالما شوهت في الغرب لصلحة الدعاية الصهيونية . غير ان الكاتب يستنتج بأن الفعالية العسكرية للمقاومة « بعد ان كانت ضئيلة قبل وقف اطلاق النار عام ١٩٧٠ صارت معدومة بحلول عام ١٩٧٢ » . ولكن للاسف، ليس لدى الكاتب ما يقوله عن أهم تأثير سياسي لحركة المقاومة ، في هذا الفصل على الاقل .

وفي الفصل الثامن يتحدث كولي عن « الشيوعيين والاصدقاء الاخرين » فيشير الى ان الكرملين لن يتخطى ابدا التزاماته العلنية « بتأييد النضال العادل للشعب الفلسطيني » ويرى ان لهـذا الغموض أسبابه اذ ان المسألة الحاسمة من زاوية النظر السوفياتية تتلخص في الاتي : حسب رأي الكاتب : « كيف يمكنك ان ترفض حلا سلميا وقرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة لعام ١٩٦٧ عندما تكون مرتبطا بالتزامات عميقة لحكومات كحكومة الجمهورية العربية المتحدة ، وهي الملتزمة بدعم الحل السلمي وقرار بعض جماعات الفدائيين الاكثر راديكالية التي تعمل من أجل ثورات اجتماعية وسياسية ضد حكومات عربية يدعمها السوفيات مثل سوريا ؟ ولا يقدم الكاتب أجوبة مباشرة عن هذين السؤالين .

وينتقل كولي الى النظرية التي كانت سائدة على نطاق واسع عام ١٩٦٧ عن عزم العرب على تدمير اسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ويشير الى بطلان هذه النظرية مستشهدا بتصريحات الزعماء الاسرائيليين . كما يشدد على ان هذه الحقيقة لم تنقل الى الجمهور البريطاني والاميركي. ويستعرض المؤلف بعد ذلك الاسباب الكامنة وراء حرب ١٩٦٧ الا انه لا يزود القارىء بآراء نيرة وأصيلة .

وفي الفصل التاسع يبحث الكاتب مواقف الجماعات الاسرائيلية المختلفة من المسألة الفلسطينية ، فيشير الى عدم اعتراف ليفي اشكول وغولدا مئير بوجود الشعب الفلسطيني مستشهدا بتصاريحهما ثم يبحث في ماهية التجمعات اليسارية « ماكي » و « ركاح » ويتطرق الى ذكر حزب « ماتزبن » وجماعة « سياح » و « عصبة الحقوق الانسانية والمدنية » التي يتزعمها اسكتور شاهاك والتي تنادي باعطاء اللاجئين الفلسطينيين الحق الانساني الاساسي بالعودة الى بيوتهم . ثم يشير الكاتب الى اوري افنيري ويرى انه ، في النهاية ، « يدين بالولاء دون تحفظ لدولة اسرائيل وأمنها ».

يختتم السيد كولي كتابه ببحث امكانات السلام في الشرق الاوسط وينهي نقرته الاولى بالاستنتاج ان اسرائيل مدعومة برؤوس الاموال والمهارات والتكنولوجيا من يهود الشتات وهي بالتالي ستربح الحروب ضد العرب دائما . وهي آخذة بالتحول الى «الدولة المتفوقة الاقليمية في الشرق الاوسط». الا ان حرب تشرين وآثارها تقدم بعض الحجج المضادة ، على الاقل ، للفرضية المذكورة آنفا ، وفي الواقع نجد ان بقية استنتاجات هذا الفصل ، على قيمتها ، قد أبطلتها ، الى حد ما ، حرب تشرين وآثارها . ويرى السيد كولي في هذا الفصل أن أي حل مرض يجب ان يجمع امكانية التطبيق من ناحية واقعية وعملية وقبول اطراف النزاع به . وهذا القبول لا بد ان تصحبه تنازلات من قبل الفلسطينيين والعرب من جهة واسرائيل من جهة اخرى . فاسرائيل يجب ان تعترف بالفلسطينيين كشعب له حقوقه في ارض فلسطين والدول العربية يجب ان تعترف باسرائيل ضمن حدود ١٩٦٧ .

ولعل هذا الفصل من الكتاب أكثر مثارا للنقاش والجدل من غيره . فالمؤلف مثلا يرى ان الحل السلمي يجب ان يكون مصحوبا باقامة « دولة » بجانب اسرائيل يقبل بها جميع اطراف النزاع . ولكن عدم تعرض المؤلف لماهية او مصير هذه الدولة يترك في ذهن القارىء سؤالين مهمين : اولا ، هل ستقبل اسرائيل بوجود « دولة » مستقلة سياسيا واقتصاديا وعسكريا بجانبها . وثانيا ، هل ستصبح الدولة مجرد سوق او نقطة عبور للمنتجات والبضائع الاسرائيلية من جهة واستغلال الايدي العاملة والرخيصة من جهة اخرى كما يحدث الان في الضفة الغربية وقطاع غزة ؟

طالب يونس وجورج جقمان

نجيب محفوظ ، حب تحت المطر
(القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٣)

كعادته ، يرسم نجيب محفوظ لنا لوحة اخرى، الا ان هذه اللوحة تختلف عن اللوحات السابقة لانها من نتاج ما بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ من جهة ، ولانها تعكس بصدق وواقعية فعل الهزيمة السياسي والاجتماعي في تركيبة وعلاقات الشعب المصري الانسانية من جهة ثانية .

« حب تحت المطر » هي ، بعبارة اخرى ، العلاقات الاجتماعية تحت الاحتلال . بطل الرواية هو الشعب المصري ، بجميع فئاته الشعبية وطبقاته الاجتماعية . الجميع متمثل في الرواية وبأدوار رئيسية ولكنها ليست متكافئة . نجيب محفوظ يحقق قفزة نوعية مذهلة في هذه الرواية . انه — وهذا ما يميزه عن الاخرين — يروي اوضاعا حاضرة ومنظورة ولا يصور نفسيات غيبية .

« حب تحت المطر » تطرح سؤالا كبيرا تتخبط جميع شخصيات الرواية تحت ثقله بدون ان يتوصلوا الى جواب له ، انه : « حرب أم سلام ؟ » . « الى اين تمضي الدنيا ، الى اين ؟ حرب أم سلام ؟ » انه سؤال مطروح في عمق أعماق مجتمع هادىء على السطح ، وفي داخله يتخذ الحب تحت الاحتلال الوان الحرب في الهزيمة. والواضح تماما في الرواية هو ان اصطدام شخصياتها — ابطال المجتمع — ، وابطالها في آن واحد ، بهذا السؤال الكبير ، اينما توجهوا واينما التجأوا ، يتسرب الى داخلهم كما تتسرب النار في كومة قش ، يحرك اعماقهم حتى في المسائل ذات الخصوصية البالغة ، حتى لو هربوا الى الحب .

وتتشابك شخصيات الرواية وتتداخل عبر شخصية مركزية اساسية ، الا انها ليست أكثر أهمية من غيرها من الشخصيات لان الجميع يتحركون تحت مظلة واحدة ، تحت الاحتلال ، حتى يكاد يبدو — وهذا هو الواقع — ان الاحتلال هو اكثر شخصيات الرواية أهمية ومركزية .

● عملية الفرز الطبقي واضحة ايضا في الرواية، وتبدو أكثر وضوحا عبر علاقات مجتمع يرزح تحت الاحتلال . فالاشد فقرا هم الاكثر عطاء ، ومنهم وقود المعركة وجنودها . والاشد فقرا هم الذين يقدمون الضحايا ، وهم المتحمسون « للقتال بلا قيد ولا شرط ، بلا خوف ... » . وهم الذين « لا يملكون الا الكرامة والاسطورة » ، والذين يؤمنون بالله ورسوله و « بالنص المكتوب » ! المسألة اذن ، طبقية ، حتى في الموت . لماذا تكون الطبقة الفقيرة المسحوقة هي المعطاءة دائما ؟ لانها ساذجة ؟ كونها ساذجة ، او واعية ، لا يؤخر او يقدم في شيء من مسألة وحجم عطائها ، انها حقيقة التاريخ وواقعه ، فهي دائما التي تضحي ، وهي في الوقت ذاته — تحت الاحتلال او بدون احتلال — التي تباع وتشرى ايضا .

● طبقة بقايا الاقطاع حاضرة وناشطة . تتمثل في الرواية بشخصية المحامي « حسني حموده » ذو السمعة الحميدة والشهرة الواسعة والمكانة المرموقة . الجماهير المسحوقة لا تزال تلجأ اليها وتطلب حمايتها والدفاع عنها (طلب « عليات » من المحامي « حموده » الدفاع عن ابيها) ، نظرا لنفوذها الواسع وقدرتها الكبيرة على المناورة والتحرك في ظل الاحتلال . انها طبقة ترحب علنا بالهزيمة طالما توفر لها « السلام والسعادة » ، وتنادي علنا « بحبها لاميركا » وهذا ما أعلنه « حسن حموده » بنفسه . وهي طبقة تتاح لها الفرص دائما في مثل هذا الواقع للمحافظة على تقاليدها العفنة الموروثة . انها لا تزال تحافظ على اسرارها وتخشى افتضاح أمرها عندما توضع على المحك ، فهي تلجأ الى الهروب من المواجهة في مثل هذه الحالات كما حدث عندما رفض المحامي « حموده » الدفاع عن والد « عليات » قاتل « سمراء السحاقية » ، صديقة المحامي السابقة وابنة طبقته . هذا بالاضافة الى كون هذه الطبقة تسعى دائما لزيادة ثرائها وتوسيع ثروتها ولو تم ذلك على حساب عواطف واحاسيس ومصالح الاخرين . فحسن حموده يسعى جاهدا لاغواء « منى زهران » واقناعها بقبوله زوجا لها لانها فتاة « الاسرة ذات الدخل الوفير » .

● أما الطبقة البرجوازية المتوسطة ، فهي تتألق دائما في نعيم وافر وبحبوحة دائمة في مصر . وتتمثل في الرواية بشخصية المخرج السينمائي الذي

يتصيد النجوم ويتحين الفرص في الوقت ذاته . فهو يشجع الذكور ويغوي الاناث كما يتمنى ويرغب في ان تستمر « الاوضاع الداخلية على حالها » دون تغيير بغية تحقيق بعض المكاسب والمغانم الشخصية . انه يصور فيلما عن الجبهة المصرية ، أفرد دور البطولة فيه « لمرزوق انور » ، الطالب الجامعي المتخرج حديثا ، والذي أغواه بهذا الدور وكان من نتيجته ان دمر حياته وحطم أحلامه . والمخرج لا يرغب بتصاعد درجة سخونة الجبهة ، انه يريدها ان تبقى كما هي — لا حرب ولا سلم — والا فشل مشروع فيلمه التجاري . انه — والطبقة البرجوازية المتوسطة معه — يفضل الاثراء ونجاح فيلمه على عودة السخونة الى الجبهة وبدء القتال.

● أما البرجوازية الصغيرة المتمثلة خير تمثيل « بمنى زهران » المتمردة والتي تعاني من مصاعب حيرة شديدة ، لا تعرف ماذا تريد . هل تريد الزواج ؟ « منى زهران » تتخلى عن خطيبها تارة وتعود اليه تارة ، لتتركه ثانية وتفكر وتعتزم الهجرة . ولكنها تبقى في مصر وتطلب ود صديقاتها من بنات الشعب (عليات وسنية) وتتحدث عن مشاكلهن بحماس احيانا وبقرف وبرود وسخرية احيانا اخرى . انها الفتاة التي يطلب ودها المخرج السينمائي (البرجوازية المتوسطة) حينا ، والمحامي « حسن حمودة » (بقايا الاقطاع) حينا آخر . الا ان أيا منهما لم يفز بها . انها تتخبط ، كالطير المذبوح ، تحت وقع الهزيمة القاسي ، هذه الهزيمة التي وضعتها في ورطة مذهلة ، فباتت غير قادرة على الفهم وتركت مهمة التفكير لنزواتها الى ان ارتكب اخوها جريمة قتل ذهب ضحيتها المخرج السينمائي .

● « حسني حجازي » هو الشخصية المركزية في الرواية التي تحدثنا عنها آنفا . فهو عانس ومصور سينمائي للافلام الوثائقية. علاقاته مترامية الاطراف ، تبدأ من ماسح الاحذية « عشماوي » وتنتهي ببقايا الاقطاع (حسن حموده والسحاقية سمراء) . « حسني حجازي » ليس له اي دور في الرواية، بل ان كاميراته هي التي تصور وتروي العلاقات القائمة بين شخصيات الرواية دون ان يكون له أي دور مؤثر في طبيعة تلك العلاقات . وبعبارة اخرى ، هو الحيادي الوحيد ، بل هو الحياد بذاته . حيادي حيال شخصيات الرواية وعلاقاتها الاجتماعية والسياسية وحتى العاطفية ، وحيادي حيال قضية الاحتلال . الا ان حياده هذا يقوده الى طريق ممتلىء بالالام لانه يرى الواقع الفعلي لمجرى الامور ويدرك ان موقفه الحيادي ليس الا وهما . فالحياة بالنسبة اليه « عزيزة وحبها معتول » ، و « مصر عزيزة » ايضا ، الا ان حبها « لا معتول » . آه يا بلدي . أين انا من هذا كله ؟ لا همة ولا موقع يصلح للعمل ولا بقية من عمر ... » .

● أما الثورة وابناؤها ، فهي في واد ، وهم في واد آخر . الثورة حاضرة في الرواية ، ولكن احتضانها لشخصياتها — أي الشعب — يتم بشكل غير مباشر . ابناؤها هم (حامد) « المتهمون » بالشيوعية ، اما الثورة فهي التي لا تزال تحتفظ بعلاقات صداقة قديمة مع بقايا الاقطاع (علاقة « صفوت » القيادي بالاتحاد الاشتراكي مع « حسن حموده ») ، ولا يوضح نجيب محفوظ في روايته أصل هذه الصداقة ، او المصلحة التي تدفع اطرافها للحفاظ عليها ، ما عدا كون هذه الاطراف تلتقي كي تثرثر حول موائد الطعام والدعوات وتحتسي كؤوس الخمر .

● المأساة في الرواية هي عند الجنود ابناء الطبقة المسحوقة . فهم على خط النار ، والناس على خط آخر . « لا يشعر بنا سوى أهلنا » يقول « ابراهيم » العائد من الجبهة لاخته « عليات » خلال نزهة يقومان بها في احد شوارع القاهرة . ومأساتهم ايضا في انهم الوحيدون الذين يتعرضون للموت والتشويه ، اذ يفقد « ابراهيم » بصره ولا يبقى له من الدنيا الا حب « سنية » التي أقسمت ان لا تتخلى عنه . ومأساتهم ايضا في السؤال الكبير الذي لا جواب له : « الى اين تمضي الدنيا ، الى اين ؟ حرب أم سلام ؟ » ، ومأساتهم ايضا وايضا انهم الوحيدون الذين يغذون نار الحرب من اجسادهم وارواحهم ، وانهم ابناء الطبقة الفقيرة . فوالد « ابراهيم » المجند هو « العم بدران » ، عامل المقهى ، وصديق « عشماوي » ماسح الاحذية و « شارب دماء الانكليز » ايام العز والشباب ، الذي كان « لا ينام على ضيم » ، والذي يحدثه قلبه ان اولاد الاغنياء لا يرسلون الى الجبهة و « لا يكتوون بنارها » .

المأساة ايضا عند الطبقة المسحوقة لسذاجتها وغفلتها عما يدور حولها ويجري من امور . فهي غافلة ، مثلا ، عن استسلام « عليات » ابنة « بدران » وصديقتها « سنية » خطيبة اخيها « ابراهيم » لاغواء « حسني حجازي » لهما بدافع الحاجة . وغافلة ايضا عن « السياسة المرسومة: لا يريدون تعبئة الشعب للحرب الا قبيل دخول المعركة » !! غافلة عن مصيرها ... وعندما تصطدم بحقائق واقعية ترتكب حماقات وتقتل وترفض ذكر الاسباب والدوافع ، مثلما يفعل « المعلم بدران » عندما يقتل السحاقية « سمراء » لانها اخبرته ان ابنته فقدت عذريتها وانها دبرت لها « عملية اجهاض » سرية . وتخبر « سمراء » بدران بذلك بعد ان رفضت ابنته « عليات » ممارسة السحاق معها . والسذاجة الطبقة واضحة تماما عند «عشماوي» الذي يلعن ويشتم دائما ويتساءل: « ماذا جرى في الدنيا ؟ نسوان عرايا في الشارع ، مساجين موظفين ، يهود غزاة »...

● المقاومة الفلسطينية حاضرة ايضا في الرواية. الا ان حضورها خاطف ولكنه فعال ومؤثر. ويلخص محفوظ حضورها في جملة واحدة وهي تعلق على قبول مصر لمبادرة روجرز الاميركية في صيف عام ١٩٧٠ . « ولكن للمسألة وجها آخر ، فالقضية ممتدة في الزمن وليست بقضية هذا الجيل وحده... الكلمة النهائية ستظل سدا مقدسا في طوايا الغيب، كما سيظل ميلادها رهنا بالارادة ، فاما نموت موتا غير مأسوف علينا ، واما نحيا حياة كريمة كما ينبغي لنا ... » ويتدفق الكلام « من فيه » ابي النصر الكبير ، ممثل المقاومة ، « هادرا كالموج ». وقد لا يغير حديث المقاومة الفلسطينية من واقع الاحتلال ، الا انه ولا شك سيؤثر ويفعل به افعيا.

● كلمة اخيرة لا بد من قولها ، وهي ان لوحة نجيب محفوظ « حب تحت المطر » يمكن ان نطلق عليها اسم (حرب تحت الاحتلال) ولبس ضده ، وهنا تكمن المأساة ، او بوتقة الصراع الذي سيتحول بالتأكيد الى حرب ضد الاحتلال . ان هذا هو منحى سير التاريخ . ولا بد ان نضيف ان نجيب محفوظ لا يكتب قصة بل يروي حقائق ، وهو لا يؤلف رواية بل يلتقط صورا فوتوغرافية لوقائع انسانية من حياة شعبنا .

مصطفى كركوتي

Sture Karlsson, **Det Förlorade Landet.**
(Stockholm, 1974).

ظهر خلال الربع الاول من هذه السنة كتاب الميجر ستور كارلسون تحت عنوان « البلد المفقودة » . وتنبع أهمية هذا الكتاب من توقيت نشره من ناحية ومن شخصية مؤلف الكتاب من ناحية اخرى . ان الحقائق الجديدة التي ولدتها حرب اكتوبر جعلت من صراع الشرق الاوسط صراعا يدور بين اسرائيل ومصر وسوريا ، أصبح فيه دور الفلسطينيين دورا على جانب قليل من الاهمية . ان لم تكن هذه حقيقة الامر ، فعلى الاقل هذا ما تصوره الصحافة السويدية . لهذا السبب فان كتاب « البلد المفقودة » جاء ليؤكد للرأي العام السويدي المتحيز لاسرائيل الدور السياسي والعسكري لحركة المقاومة حيث يختتم المؤلف كتابه « بان حرب الشعب ستنتصر في جنوب شرق آسيا، افريقيا، امريكا اللاتينية، الاردن، لبنان وفلسطين. وهذه نتيجة وصل اليها كارلسون خلال أحداث مايو ١٩٧٣ في لبنان حيث كان موجودا هناك .

أما فيما يتعلق بشخصية المؤلف الميجر والكاتب كارلسون فان وجهة نظره ودفاعه عن القضية الفلسطينية على جانب عظيم من الاهمية ليس نتيجة لتأييد الكاتب المطلق للفلسطينيين وتنديده باسرائيل والصهيونية والانظمة العربية ، بل نتيجة لمركزه ككاتب في السويد سبق له وحاز على جائزة ادبية وكذلك كمركزه كضابط في الجيش السويدي لفترة ٢٣ سنة، قرر بعدها الالتحاق بمراقبي الامم المتحدة في الشرق الاوسط ، وقد تم ذلك في سبتمبر ١٩٧٠

حيث وصل الى القدس يوم ٢٩ سبتمبر — وهو اليوم الذي رحل فيه الرئيس عبد الناصر — ليصف لنا شعور العرب الفلسطينيين في الارض المحتلة .

أمضى الميجر كارلسون ٩ أشهر في جبهة السويس على الجبهة المصرية وكذلك ١٥ شهرا على جبهة الجولان . لقد وصل الى منطقة الصراع مؤيدا الجانب الاسرائيلي ، الا ان وجهة نظره هذه تغيرت كليا حيث انه يكتب للقارىء « بضمير اشتراكي وبضمير فلسطيني » . ان وجهة نظره السياسية هذه جاءت بعد ان كان المؤلف عسكريا سويديا وجزءا لا يتجزأ من المحيط السياسي الذي يعيش فيه ، اي ان كارلسون كان بورجوازيا ومتعاطفا مع اسرائيل . وفجاة حدث التغيير الجذري فأصبح كارلسون اشتراكيا « وفلسطينيا » بعد عمر متقدم وبعد خبرة واسعة في حقلي الجيش وعالم الكتابة .

ان كتاب كارلسون هو الاخير في حلقة من الكتب التي نشرت في السويد بعد حرب يونيو ١٩٦٧ والتي تؤيد القضية الفلسطينية ، الا ان الكتاب يختلف عن أي كتاب ظهر قبله . ففي الوقت الذي حاول مؤلفو الكتب الاخرى ايضاح الحقائق التاريخية للقضية الفلسطينية والحق الشرعي للمقاومة الفلسطينية ، فان كارلسون ينطلق من هذا المفهوم ليسرد لنا مشكلة الشعب الفلسطيني العربي من خلال حياته وتجاربه في السويد والشرق الاوسط . انه يكتب نتيجة لحبه للانسان المضطهد ، للانسان العربي — الفلسطيني — منه بشكل خاص . وهذه في الواقع ميزة الكتاب وميزة الكاتب ، لا بل هنا تكمن قوة الكتاب والكاتب الذي أعطى الكثير من وقته « للمفقودين في الشرق الاوسط » .

يقع كتاب كارلسون في ٢٠٢ صفحة ، نجح المؤلف من خلال كتابته لهذه الصفحات ان يعكس للقارىء مشكلة الشرق الاوسط على مستوياته الثلاثة ، فلسطينيا وعربيا واسرائيليا . لقد كتب بأسلوبه القصصي التاريخي مأساة الشعب الفلسطيني من خلال شخصية « فاطمة » وهي المرأة التي كانت تعتني بتنظيف شقته في دمشق . لقد وصف لنا شعورها وحياتها وبلدتها طبرية التي انتقلت اليها من القدس حيث ولدت .

يقول كارلسون بأن فاطمة ترى بحيرة طفولتها (بحيرة طبرية) في مخيلتها . انها تختلف عن بحيرة « جنسرت » التي قرأ عنها في طفولته ، بحيرة المسيح . انها كذلك بحيرة تختلف عن البحيرة التي قرأ عنها في بروشيرات السياحة التي توزعها اسرائيل . انها بحيرة طبرية ، بحيرة الفلسطينيين. هناك في بيت مقابل الشاطىء عاشت فاطمة الفلسطينية « السوداء » — والدتها من دولة افريقية ووالدها فلسطيني — أما اليوم فالبحيرة لا تزال مكانها والبيت لا يزال مكانه ، ولكن النازلين فيه والذين قابلهم كارلسون لدى زيارته لبيت فاطمة سنة ١٩٧١ ، ليسوا بأهل فاطمة ، وليسوا بفلسطينيين ، انهم يهود سود . ان فاطمة وشعبها قد حرموا من جميع الحقوق ، حتى ان العالم الغربي يستعمل لغة اخرى عندما يتعلق الامر بالفلسطينيين .

أما فيما يتعلق بالمجتمع العربي المحيط بفلسطين والبيئة التي يعيش فيها الفلسطينيون خارج حدود منطقتهم المحتلة . يقدم الكاتب الصورة نقد سلبي لذلك المجتمع القائم على انظمة سياسية غير اشتراكية . ينتقد كارلسون بالدرجة الاولى البيروقراطية والطبقية في مصر ، ويقدم لذلك أمثلة كثيرة لا تدع مجالا للشك . كذلك ينتقد الميجر كارلسون حالة الاستعداد العسكري في مصر . ومن المعروف ان مدخله في النقد لوضع مصر العسكري قد تأثر الى حد ما بالوعود المتكررة للرئيس السادات بخوض المعركة ضد اسرائيل ولا سيما في قراره المشهور بعام الحسم . الا ان هذا الاستنتاج المنطقي لدى القارىء يجد رفضا من كارلسون الذي كتب كتابه وقدمه للنشر قبل حرب اكتوبر ، الا انه استطاع ان يدخل فيما بعد ملاحظة على تحليله العسكري لمصر نتيجة لحرب اكتوبر . يقول كارلسون بأن وجهة نظره للعسكرية المصرية لم تتغير . في الواقع ان هذه احدى نقاط الضعف والتحليل للعسكرية المصرية . لقد وصل كارلسون الى منطقة القتال بعيد وصول صواريخ سام ٢ وسام ٣ . وهذا لا يترك انطباعا لدى كارلسون الذي بنى تحليله للعسكرية المصرية انطلاقا من تحليله للنظام السياسي والاجتماعي لمصر . ان هذا التحليل سليم ، فالاثر الطبقي للمجتمع المصري يظهر واضحا في الجيش المصري . ومثال على ذلك فان كارلسون يذكر بأن جميع الضباط المصريين

بدون استثناء ، والذين كانوا على صلة بالمراقبين الدوليين ينتمون الى الطبقة العليا وليس هناك واحد منهم ينتمي الى طبقة الفلاحين والعمال. هذا بالاضافة الى أمثلة اخرى تصف الفروق بين الجنود والضباط في عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ .

ومن الناحية العسكرية البحتة فيذكر كارلسون بأن الحكومة المصرية أصدرت في ربيع ١٩٧١ قرارا يمنع جميع الرعايا الاجانب من استعمال الطيران الداخلي في مصر . لقد حدث ذلك وقت كانت تقوم فيه طائرتا فانتوم وميراج اسرائيليتان بالتحليق الاسبوعي لالتقاط الصور ورصد تحركات الجيش المصري .

بالرغم من صحة التحليل وصحة الربط بين الحالة الاجتماعية والعسكرية ، الا ان نظرية كارلسون قد ثبت فشلها في حرب اكتوبر واستطاعت القوات المصرية من اقتحام خط بارليف الحصين والذي حاز على اعجاب كارلسون حيث انه قارن بين الخط والجبهة المصرية المقابلة ، والتي اعتقد كارلسون بعدم فعاليتها وعدم قدرة القوات المصرية على خوض معركة رابحة علما بأن القرار السياسي كان ولا بد ان يصدر يوما ما قرار معركة «خاسرة» مع اسرائيل .

أما فيما يتعلق باسرائيل فيقول الميجر كارلسون « بأنها دولة مريضة وعلى الفلسطينيين تحرير بلادهم » ص ١٣١ . وبأن « اسرائيل والمناطق المحتلة الان اشبه بغيتو محاط بالاسلاك الشائكة وابراج الحراسة » . لقد توسع الصهاينة وسوروا المناطق وبنوا ابراج مراقبة . لقد أشادوا «غيتو» في المدن وفي الريف . ان الصهاينة ينظرون الى الشعوب الاخرى بأنها « غير نظيفة » ، وزيادة على ذلك فان العرب أقل منزلة من هذه الشعوب. فأفضل عربي هو العربي الميت » . ص ١٨٠ .

ويتابع كارلسون تحليله ليشبه الاستعمار الصهيوني بالتوسع غربا داخل قارة امريكا الشمالية على حساب الهنود الحمر . فالتوسع غربا في امريكا مشابه لما حدث في فلسطين حيث احتل الصهيونيون الارض وطردوا أهلها وبنوا عليها المستعمرات وثم أقاموا « ديمقراطية ». ص ١٨١.

لقد ذكر الميجر كارلسون في حديث تلفزيوني معلقا على كتابه والحركة الصهيونية قائلا : « بأن الشعب السويدي متأثر بالدفاع عن اسرائيل لاسباب أربعة : الكتاب المقدس ، وضع اليهود في اوروبا ، عدم معرفة السويديين بالعرب ، الحركة الصهيونية العالمية وتأثيرها على الرأي العام » .

ان تأثر الميجر كارلسون بالحركة الصهيونية واسرائيل وتفهمه لهما بدأ يضطرب ويميل لوجهة النظر العربية . ويقول بأن عددا من الكتب التي نشرت في السويد والتي تؤيد حركة المقاومة الفلسطينية كان لها اثر مهم في تغيير وجهة نظره وتفهمه لحقوق الشعب الفلسطيني الشرعية وكذلك حقه المشروع بالمقاومة .

هذا ولقد وجه كارلسون نقدا شديدا للامم المتحدة ودورها الضعيف والاعمال « القذرة » التي تقوم بها حفاظا على الوضع الراهن، وهذا بالضبط ما تريده الولايات المتحدة والتي ترغب في ايجاد « حزام من الامم المتحدة » حول اسرائيل لحمايتها.

لهذا فان الحل بنظره هو ضرورة ثورة اشتراكية على الجانبين . ان باستطاعة الشيوعية توحيد شعوب المنطقة . بالاضافة الى ذلك فمن الضروري نزع الصفة الصهيونية عن فلسطين المحتلة .

هـ . د .

Col. B. K. Narayan (Rtd), **The Fourth Arab - Israeli War** (New Delhi, 1974).

يعد هذا الكتاب من اوائل الكتب التي عالجت الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة باللغة الانجليزية . كتب كريشنا منون مقدمة للكتاب ، بالاضافة الى تقديم الجنرال شودهري من الجيش الهندي . والكتاب عبارة عن شرح لاحداث الحرب وجوانبها العسكرية والسياسية اذ تعرض لما اسماه نصف انتصار عربي ، ونصف هزيمة اسرائيلية . ويقول في هذا الصدد ان مغزى الاحداث يكمن في ان عملية عبور القناة تمت في دهشة ، وان الاسرائيليين أخذوا على غرة نظرا للمفاجأة التي تميز بها الجانب العربي ، وشرح الكاتب بطولة القوات العربية ، واستعمال سلاح البترول بشكل فعال ، والتحول في موقف الدول الافريقية ، وتأييد دول عدم الانحياز .

وباعتباره رجلا عسكريا تعرض الكاتب للوقائع العسكرية على الجبهة المصرية ، والجبهة السورية. كما تعرض للاتصالات السرية قبل الحرب وموقف الدول المنتجة للبترول ، كما شرح الهجوم الاسرائيلي المضاد في الاسبوع الثالث والثغرة التي حدثت على الضفة الغربية للقناة .

وتحدث الكتاب عن القوات الجوية العربية والاسرائيلية وذلك بالتعرض لانواع الطائرات الاسرائيلية نقلا عن مصادر مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت كالفانتوم والسكاي هوك والميراج وطائرات النقل والهليكوبتر وغيرها ، كما تناول انواع الطائرات العربية وتناول ايضا بعض الاسلحة ومدلولاتها كالصواريخ المضادة للطائرات والصواريخ المضادة للدبابات ، ودور البحرية العربية .

وفي جانب آخر من الكتاب تعرض المؤلف لباب المندب واحلام اسرائيل في البحر الاحمر ، وذلك بالحديث عن موافقة حكومة اليمن الجنوبية على فرض الحصار ، وعملية الحصار مما يدل على عدم صحة نظرية الامن الاسرائيلي من خلال الاحتفاظ بخليج العقبة والمضايق ، وتناول الكتاب شرحا لنجاح هذه العملية .

وتعرض الكاتب لدور الفلسطينيين في حرب اكتوبر ، ووصف مساهمتهم في الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة بانها فعالة .

وتناول الكتاب الاثار الاقتصادية التي ترتبت على اغلاق القناة ١٩٦٧ على الاقتصاد العالمي والتجارة الدولية ، وأهمية القناة الملاحية والاقتصادية . وفي تناوله لسلاح البترول تعرض لاستعماله ، وبين الدعاية المضادة لاستعمال هذا السلاح ، وفي النهاية توصل الى ان استعمال البترول ليس ابتزازا ، وقال ان العرب استعملوا هذا السلاح للدفاع عن النفس ، ولجأوا اليه بعد استنفاد كل الطرق الاخرى وبالتالي لم يكن أمامهم بديل غير ذلك . وفي فصل آخر من الكتاب تحدث المؤلف عن قطع الدول الافريقية لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل متعرضا لهذه الدول ، وأهمية الموقف الافريقي . وفي نهاية الكتاب تحدث المؤلف عن ابعاد السلام وفقا لتقييمه وآرائه الشخصية .

والكتاب في مجمله يعد مؤيدا لوجهة النظر العربية لا سيما ان مؤلفه احتك بالظاهرة عن قرب اذ كان ملحقا عسكريا بالسفارة الهندية بالقاهرة ، كما أهدى الرئيس السادات نسخة من هذا الكتاب عندما كان في زيارة الهند .

وقد أعد الكتاب بأسلوب صحفي سهل مما يجعله يخاطب قطاعات كبيرة ممن تتحدث الانجليزية، كما عالج الموضوعات معالجة سريعة ومختصرة ، وان كانت الموضوعات قد اتسمت بالكثرة العددية والتشعب .

ولا يعني هذا الموافقة على كل ما ورد في الكتاب، اذ انني ابدي بعض الملاحظات :

اولا : لم يعالج المؤلف أعمال الخطف التي قام بها الفدائيون ص ١٠ ، ص ١١ بشكل يبرز مبرراتها ، وكان من الافضل عدم التعرض لها بهذا الشكل .

ثانيا : اورد في ص ٣٠ الخسائر في الاسبوعين الاولين من القتال وفقا لتقديرات وزارة الدفاع الامريكية ، وكان من الافضل ابراز التقديرات الاخرى ، وتوضيح مدى قابليتها للتصديق .

ثالثا : عندما تحدث في الفصل السابع عشر عن ابعاد السلام تحدث عن وجهة نظره ، وكان من الافضل التعرض لوجهة النظر العربية والخطوط العامة التي تتسم بها ، لان معالجته اقتصرت على مقترحات مقبولة في كثير من بنودها ، وقد لا تكون مقبولة في بنود اخرى ولا سيما موضوع القدس .

وفي النهاية ان المعطيات الواردة في الكتاب الصادر عن مؤلف هندي تدعونا الى شكره وتقديره ، وتمنياتنا له بالاستمرار في خدمة القضايا التي تهم السلام والامن الدوليين ، والمصالح المشتركة للدول النامية والقضايا التي تواجهها .

محمد علي العويني

عنان العامري ، **التطور الزراعي والصناعي في فلسطين ١٩٠٠ ــ ١٩٧٠** ، (بيروت ، مركز الابحاث م. ت. ف. ، ١٩٧٤) .

صدر عن مركز الابحاث مؤخرا بحث احصائي للانسة عنان العامري الباحثة في المركز ، يتناول التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني في الفترة ما بين ١٩٠٠ ــ ١٩٧٠ . وترجع اهمية هذا البحث لما يأتي :

١ ــ تتناول الباحثة بالعرض وشيئا من التحليل الاحصائي قطاعين اساسيين من الاقتصاد الفلسطيني ، وتبين النشاط الانتاجي لشعب فلسطين في فترة كثرت فيها الاكاذيب والدعايات المضللة التي حاولت ان تصور هذا الشعب على انه مجموعة من القبائل الرحل لا عهد لها بأصول الحياة العصرية. وقد ساهم البحث في الرد على تلك الدعايات ردا علميا تدعمه الاحصاءات المستقاة من مصادر رسمية .

٢ ــ تتعرض الباحثة لفترة مصيرية من تاريخ فلسطين ، تميزت بكثرة ما وقع فيها من أحداث جسام ، ومتغيرات مختلفة خارجة عن ارادة شعب فلسطين وطاقته وكان لها جميعا فعلها في تعطيل نموه وتقدمه . ومن امثلة ذلك سوء ادارة البلاد تحت الحكم العثماني ، ومعاناتها من ويلاته التي لا تخفى على احد . ثم وقوعها فريسة للمؤامرة الاستعمارية ــ الصهيونية طيلة عهد الانتداب البريطاني وما سنه من قوانين معروفة للجميع ، هدفت الى اضعاف العرب لحساب المستوطنين الصهيونيين .

٣ ــ وقوع غالبية اجزاء الوطن الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني منذ ١٩٤٨ ، وتشريد المواطنين العرب ، وما ترتب على ذلك من اختلال نظام الحياة الاقتصادية نتيجة للاوضاع الناجمة عن النكبة ، ورغم ذلك فان الاجزاء التي بقيت في أيدي ابناء فلسطين ــ الضفة الغربية وقطاع غزة ــ شهدت تطورا وتقدما اقتصاديا اكد حيوية هذا الشعب وخصائصه الانتاجية بالمعنى الاقتصادي من حيث ارتفاع نسبة العمالة بين أبنائه وكفاءة الانتاج وتقدم وسائله .

ورغم هذه العوامل فان البحث قدم صورة صادقة ومشرفة لعرب فلسطين ، تبرهن على تقدمهم وأخذهم بالوسائل العصرية . ولكن هناك بعض الملاحظات التي ترد على البحث نذكر هنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر مع الاخذ بعين الاعتبار الصعوبات التي واجهتها الباحثة :

١ ــ وقوع بعض الاخطاء عند النقل عن المصادر ، وعدم ذكر المصادر الاصلية ونقدها ، وخاصة اذا كانت احصائية ومن وضع شخص لا يمثل جهة رسمية وجهد جماعي منظم وذلك في ميدان الاحصاءات الذي لا يصح فيه التخمين او الخواطر ، بل لا بد من الاعتماد على الملاحظة

المباشرة والمنظمة . فمثلا تذكر الباحثة في ص ١٥ جدولا يبين « التوزيع الجغرافي للاراضي المزروعة والقابلة للزراعة عام ١٨٩٥ » نقـلا عن مقالـة الاستاذ خليـل ابو رجيلي المنشـورة في شؤون فلسطينية العدد ١١ ص ١٣٠ ، نبدي عليـه الملاحظات التالية :

أ — لقد نقلت الباحثة الجدول مبتورا بشكل لا يخدم الغرض الذي سعى اليه فذكر مجموع الاراضي ثم اقتصر على ذكر ارقام الاراضي المزروعة والقابلة للزراعة دون ان يورد ارقام الانواع الاخرى المذكورة في الاصل .

ب — لم يذكر المصدر الاصلي الذي اخذ عنه ابو رجيلي وخاصة انه ليس احصاء رسميا والخطأ فيه محتمل بنسبة كبيرة .

جـ — ذكرت الباحثة خطأ ان الجدول يقع في ص ١٣٠ والصحيح انه يقع في ص ١٣١ من شؤون فلسطينية العدد الذي سبق ذكره .

٢ — تكرر الباحثة في صفحات كثيرة من البحث ذكر قلة المصادر وعدم توفر المعلومات وتعلل بذلك جوانب النقص التي ظهرت في عدم شمول المعلومات جميع مناطق فلسطين الجغرافية علما بأن هناك مصادر اصولية هامة في مجال البحث لم تذكرها الباحثة نورد هنا بعضا منها :

أ — ولاية بيروت الجنوبية لمحمد رفيق التميمي وهو بحث ميداني شمل معلومات قيمة عن ألوية نابلس وعكا .

ب — خطط الشام لمحمد كرد علي الذي تعرض فيه بالتحليل لشتى نواحي الحياة الاقتصادية مبينا جهود السكان لاحراز التقدم والعقبات التي كانت توضع في سبيلهم لعرقلة تقدمهم واحباط جهودهم .

جـ — احصاءات الحكومة العثمانية التي تغطي فترة لا تقل عن عشرين عاما ابتداء من ١٩٠٠ — ١٩١٧ . وذلك ضمن نطاق البحث الزمني .

د — احصاءات وتقارير الوكالة اليهودية التي تغطي النشاط الاقتصادي الصهيوني في فلسطين وخاصة ابتداء من ١٩٢٢ ويبدو ان الباحثة لم تعتمد عليها في معلوماتها عن الزراعة والصناعة اليهودية.

٣ — لم تحاول الباحثـة ان تدخل التحليـل الاقتصادي على الاحصاءات والربط بين الاوضاع المختلفة واثرها في الاقتصاد القومي وانقسامه الى قطاعين أحدهما للاغلبية العربية والاخر للاقليـة اليهودية وذلك حتى عام ١٩٤٨ ثم تمزق الاقتصاد الفلسطيني وفقدانه للوحدة الجغرافيـة والكثافة السكانية الدائمة فتوزع بين الضفة الغربية وقطاع غزة واسرائيل وبالتالي فقد كل من هذه الاجزاء القدرة على النحو الذاتي والاستقلال الاقتصادي ولو بقدر معين حتى اسرائيل التي تتلقى المعونات والتعويضات والخبرات من كل لون لم تستطع حتى الان ان تحقق درجة من درجات الاعتماد علـى النفس او حتى القدرة علـى مواجهة الازمـات والهزات الاقتصادية .

ومع ذلك فالبحث محاولة جادة ، وان القصد من هذه الملاحظات هو التأكيد على اهميته واثره في معرفتنا بأنفسنا وتعريف العالم بنا وسيكون البحث اضافة جديدة لمعلومات الباحثين في هذا المضمار .

بكر مصباح تنيره

ثقافة

الياس خوري

الحلم ...
الذي لا يخون

في احدث كتاباته التأملية : « نك الارتباط مع الحلم » (مواقف — ٢٨ —) يؤشر محمود درويش الى مفاصل تجربته الفنية .

الغربة الواقعية ، التي لا تجد الانتماء الحقيقي الا لحظة الطلق ، حين يبدأ نزيف الدماء الذي يغطي وجه الارض . هنا يصبح العرس الحقيقي كل شيء ، ويتحول الانتماء الى توحد حلولي بأرض الوطن . ولحظة الطلق هي النقطة الفاصلة بين حالتين : اليأس والتحفز . وبين هاتين الحالتين ، تشحذ الكتابة اللحظة ، تسنن المواقف ولا تستسلم، تسأل نفسها عن الحلم ، لذلك تأتي نبرتها الفاجعة لتنقل توتر العلاقة « ليس له وطن خارج هذا الوطن . ولكن ليس له وطن داخل هذا الوطن » .

فلسطين المستقبل ، التي تتحول الى رؤيا كاملة. انها رمز تتجمع داخله كل التناقضات . « على هذا المفترق ، يعثر كل عربي على فلسطينه الخاصة . ويدرك ان فلسطين ليست نقطة على خارطة . انها رؤيا كل عربي ، وصليب كل عربي . وانها امتحان ومستقبل » .

الحلم الذي يوحد فلسطين بالغربة ، ويقيم مقابيس جديدة ، تتجاوز اللحظة الراهنة ، لتستكشف مستقبلها . لذلك يصبح الانتماء الى الحلم ، انتماء الى المستقبل . ولا يتساقط الحلم ، بل يسقط الذين يعبثون به . « ولا نفك الارتباط مع الحلم » .

محمود درويش : **وداعا ايتها الحرب وداعا ايها السلام .**

مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . الطبعة الاولى — ايار — ١٩٧٤ .

تضيء هذه المفاصل الكتاب النثري الجديد الذي حاول فيه درويش التقاط الدائرة الكاملة التي رسمتها الحرب في الوجدان العربي ، منطلقا من الحب لينتهي فيه ، حاضنا اللحظة الساخنة ، دون الغرق فيها ، فالشعر ليس انخطافا انه رؤيا . والكتابة تأتي لتعيد صياغة الحدث ، ضمن مواقع التحول والتغير . هكذا تتمايز التجربة الفنية عند محمود درويش في قدرتها على استيعاب الحلم داخل التحولات الواقعية ، دون التخلي عن الحلم او الغرق في التفاصيل المباشرة للممارسة .

الصوت الواحد

في القسم الاول من الكتاب — حصان يحب غزالة — يضع محمود درويش القاعدة التي ينطلق منها . واذا كانت « وطن بقلم رصاصة » تحاول ملامسة البناء القصصي المركب من الخارج . فانها تصب في اخر المطاف ، داخل الصوت الواحد المتليء صراخا وجروحا . الاقتراب من الاصوات المتعددة ليس سوى الاطار الذي سوف ترتفع داخله التأملات المتوترة . هنا حيث فلسطين تعني الشروع في الغربة والموت . وحين تبدأ المسيرة يتحدد شكل الوطن «وكان الوطن كقدم طفل ، محبوسا في حذاء حديدي . وكان سرحان لا يعرف اكثر من ذلك . هذا يكفي — كان يقول . لان الاعتراف بما هو ابعد يفيد المحققين ويوسع العبارة » . هنا تبدأ رحلة خروج الوطن من الزنزانة . وكتمهيد لهذه الرحلة، يقيم درويش خطا من التوازنات التي تمسك بهذه اللحظة في نقطة ارتكازها . فتصبح اللغة الشعرية هادئة ، ويتمدد المنطق الداخلي للتركيب المعتلن . لذلك يأتي التقطيع الشعري داخل رؤية متكاملة تمهد للشعر دون ان تصبح شعرا :

الصوت الفلسطيني

في الذكرى السنوية الثانية لاستشهاد كنفاني ، وبعد مرور اكثر من سنة على استشهاد كمال ناصر ، منح اتحاد الصحفيين العالمي جائزته التقديرية الى كنفاني . كما منح اتحاد كتاب آسيا وافريقيا احدى جوائز اللوتس مناصفة بين كنفاني وناصر .

في هذه الذكرى ، نقف لنتذكر تجربة المجد الدموي ، الذي يكلل أقلامنا . حافة الموت هي الحياة التي تعطي للاعشاب النامية وسط الحصار ، نقاءها وخضرتها .

يأتي الصوت الفلسطيني ، داخل أدبنا العربي ، مليئا بالتوتر وبعد الممارسة . انه ينطلق من ذروة الفجيعة ، داخل العرس الدموي ، ليعطي للكتابة بعدا يتجاوز الالتزام بمعناه التقليدي الى أفق هذا الالتزام . أي الى مشارف جديدة ، تضيء تجربة الطليعة الثقافية ، التي تبحث عن علاقاتها داخل الفعل التاريخي .

هكذا يتميز الصوت الفلسطيني دون ان ينعزل . يعرف حدوده بوصفه جزءا داخل انتاج ثقافي ، لم يكن يوما ، في قلقه الداخلي ، سوى فلسطيني الفجيعة — اذا كان للفجيعة صفة — ويتوحد الصوت الفلسطيني داخل التوتر العربي الذي يبحث بالكلمات والممارسة النضالية عن طريق الدماء .

هنا ، يصبح لانتاجنا الثقافي تاريخ حقيقي ، تتحدد ضرورة الدراسة العلمية ، لمرحلة ادبية مليئة بالالام والحلم . لا يكفي الوقوف أمام ثقافتنا اعجابا او انتقادا او ملاحظات . ان مهمتنا هي محاولة استخلاص الدروس ، حتى نتجاوز المنزلق الذي يقودنا اليه وضع انحطاطي يحاصرنا . فالثقافة الثورية ، لا تتجاوز السائد ، الا ضده . ولا تصل الى هذا الضد خارج دروس تجربتها نفسها . هكذا يتحدد دورنا في مزيد من الايغال في التجربة ، مزيد من البحث عن صوت الكتابة التي تتجاوز . وهذا لن يستكمل خارج تاريخنا ، رغم ثغراته . فدراسة تاريخ البحث عن طليعية الممارسة الثقافية ، هو شرط استمرار البحث نفسه .

« حصان يحب غزالة

لا بد من ريح

ولا بد من حارس

للحيلولة دون الزفاف » .

بعد هذا تنتقل اللغة الشعرية . « محاولة رثاء بركان » هي افضل نثر يغتصب الشعر ، ويعيد للنثر الشعري بكارته التأسيسية . نحن أمام الانفعال الصافي الذي يخرج متمردا على جميع القواعد المسبقة . لكنه يقيم ايقاعه الداخلي الامتدادي ، حيث يسمح للتوتر بمدى أوسع من القدرة على التعبير . « ومن انت يا غسان كنفاني حملناك في كيس ، ووضعناك في جنازة بمصاحبة الاناشيد الرديئة ، تماما كما حملنا الوطن في كيس ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الان ، وبمصاحبة الاناشيد الرديئة » . هذا الامتداد هو الذي يسمح للنبرة التأملية بالتكثف شعرا ، دون ان يستطيع حجب البناء النثري للقطعة الادبية . من هنا يقترب صوت درويش من ذلك النثر الذي كان في اساس الحركة الشعرية الجديدة : نثر جبران وفؤاد سليمان . لكنه لا يدعي في نثره اية حصانة شعرية . التركيب الداخلي للنثر هو الذي يكشف ابعاد الشعر . فتتدرج اللحظة الانفعالية من التأمل ، « اكتملت رؤياك ، ولن يكتمل جسدك » الى الحزن السكوني الشفاف ، « ولكني استأذنك الان في البكاء قليلا » . وبين هذين الحدين نكتشف التحريض من داخل الموقف ، لذلك يستبدل النص التشكيلية بالصور الشعرية المفاجئة ، « يئس الموت منك وانتحر » او « طوبى للجسد الذي يتناثر مدنا » . تتركب الصورة الشعرية من داخل الفعل وليس من الاستعارة العارية . انتحر ويتناثر هي الافعال التي تفجر الصورة . من هنا يستوي الشعر داخل المخاطبة النثرية . يدخل اليها دون ان يشل بنيتها الخاصة . فنحن امام شكل واضح من الكتابة . من هنا يأخذ النثر الشعري الانفعالي خصوصيته دون ان يختلط بالشعر عشوائيا . لكنه يبقى على اطراف لغة القصيدة امتداد حوار لا ينقطع ، حتى تتوصل الكتابة الى الغاء المسافات بين الاشكال ، ليتأسس الشكل الابداعي انطلاقا من الحالة نفسها . وعندما يتابع درويش مراثيه ليصل الى كمال ناصر ،

فانه يتعامل مع الموت بحنان بالغ . يكتب مرثيـة القصيدة التي سكنت رجلا ، لذلك يغلب الطـابع التأملي على النص باسره . وينساب التوتر داخل هدوء الموت « ذهب الموت الى البحر ، وظل البحر ازرق . بلغ الموت سن الرشد في كمال ، نحمله وطار . وكان الرخام والمطر ينهمران بلا سبب . صار الموت هو الذي يلعب وبقي كمال ناصر فينا ، كما هو » .

عندما احب الحصان الغزالة ، ولد التحدي . لذلك جاءت نصوص القسم الاول من الكتاب ، بشارة للحرب ، من خلال الدم الذي لم يتوقـف والالام العظيمة داخل العرس الفلسطيني ، الذي يحمل داخله مفتاح تناقضات الزمن العربي بأسره. ومن داخل لغة النثر الصافية كان الشعر يتوالـد انفجارات تحمل خطابية انفعالية ، قادرة على نقل اللحظة من التأمل الى الفعل ، دون السقوط في شرك اللغة الجاهزة . فدرويش يعيـد اكتشـاف اللغة فيما يبحث عن فلسطين داخـل الفجيعة . هكذا نبقى هذه التأملات جراحا داخل الجـرح ، لانها تتواصل مع الحلم الـذي يتجسد داخـل الممارسة النضالية .

اللحظة الساخنة

القسم الثاني من الكتاب ــ صباح الخير ايهـا الفرح ــ هو مجموعة من الملاحظات والتأملات التي كتبت ايام حرب تشرين . لذلك تحمل تلق اللحظة وتوترها ، وامالها . لكنها لا تتوقف فقـط عنـد ظواهر المعركة ، بل تنقل المشاعر الدفينة التـي تغلغلت في المسام منذ بداية عصر الهزائم المتتـالية والاحلام الكبيرة . فهي تخاطب العالم بلهجة تقترب من «ميونيخ» لكنها تأتي هذه المرة خالية من الحقد المدمر . تحمل الثقة بالنفس الى جانب الحلـم الكبير . وعندما نصل الى عقدة اليوم السابع في الحرب ، ترتفـع الابتسامة الواثقة الممزوجـة بالدماء « نحن الان في اليوم السـابع ، لا نرتاح من العمل ، ولكننا نرتاح من الهزيمة . اليـوم عطلة الهزيمة » . داخل لحظات النثر هذه هنالك مكان واسع للشعر . فتأتي « بطاقة الى دمشق » لتحمل جميع خصائص بنية القصيدة . التـداعي الذي يستجمع اللحظة الشعرية :

« ساعي البريد ينتظر
والفراشة تحارب
ولا تنتهي رسالتي اليك يا دمشق »

ثم تتداخل الكلمات في الشكـل الشعـري ، التشبيه الذي يتمركز على الفعل « كأن الاغـاني أصيبت بحنجرة لا تغني » والصورة التي تنتقل من الوصف الخارجي لتضمنه توترا حادا ، يأتي من المسافة الظاهرة بين الصورة والانفعال . لذلـك يتوتر النص في هدوئه الموضوعي ، ويأتي الشكـل اللولبي ليدور المسافة بين بداية النص ونهايتـه . ثم ننتقل الى نصوص تحليلية . لكن التحليل هنـا لا يهمه سوى استجماع مفاصل التجربة الصهيونية ليقوم بادانتها من داخل . ولعل محمود درويـش هو اهم من كشف تناقضات « المجتمع الاسرائيلي » الجـذريـة . فهـو لا يتوقف عنـد التحليـل السوسيولوجي ، لكنه يتوقف اساسا عند الحلـم الصهيوني وخيبة تحقيقه . يتعامل مع هذا الحلـم من الخارج والداخل . فهو في الخارج ، داخـل المعسكر الذي يحمل التناقض المركزي مع اسرائيل، وهو في الداخل يبحث عن التناقضات الداخلية في الفكرة الصهيونيـة وفي الممارسـة السياسيـة والعسكرية الاسرائيلية . والتفاؤل التاريخي الذي تحمله هذه النصوص ليس تفاؤلا فنيا . انه تفاؤل سياسي ــ تاريخي ، اي واقعي مئة بالمئة . فحين تكون « هزيمة العدو في ذروة انتصاره » . فـان التفاؤل التاريخي البعيد كل البعد عن الخطابيـة الجوفاء ، يؤشر الى حقيقة الوعي الثوري الـذي حمله عرب الارض المحتلة عـام ٤٨ . فتفاؤلهـم التاريخي الذي انتج شعرا استطاعت الايديولوجيا العربية السائدة استيعابه (لاسباب تكوينية تتعلق بولادة الشعـر في الارض المحتلـة والطمـوح الايديولوجي الذي عبر عنه ــ المسألة القومية ــ هنا صب في الايديولوجيا العربية التي كانت تمـر بمرحلة تطور متقدمة تختلـف فيها الدلالات عـن الدلالات في الارض المحتلة . لذلك اسـتطاعت استيعابه شكلا ومضمونا دون ان تستطيع منـع بذوره المستقبلية من التطور) . اثبت اصالتهم ــ ليست فقط زمن المعارك في تشرين . بل في مرحلـة « الانتظار العائد » كذلك .

تستطيع الكتابة الساخنة ملامسة الجـراح . لكنها تتوقف عند حدود هذه الملامسة . ورغم ان درويش يبتعد عن المباشرة ، وعن الكتابة الصحفية

البسيطة ، فان هذا الجزء من الكتاب ما عـدا « بطاقة الى دمشق » ، يشير الى تفاوت بنيوي . اذ ان درويش يطور في القسم الاول مباشرتـه الشعرية . ويمزج في القسم الثالث الشعر بالبنية القصصية ، فانه هنا يتوقف عند حدود المقـال ، الذي حين تتفجر لغته يعود سريعا الى الشعر . او يبقى شهادة حية ، على لحظـات المغامرة الحقيقية التي اشر اليها المقاتل العربي في تشرين.

البناء المركب

عندما نصل الى القسم الثالث من الكتاب — ماذا فعلت بالخريف .. يا سرحان ! — نكتشف اسلوبية جديدة ، استطاعت ان تتطور من بذور الحوار والسرد في كتابه النثري السابق « يوميات الحزن العادي » . هنا نصل الى بنية شعرية تمزج ثلاثة عوامل : — السرد التأملي ، الرمز والحوار التجريدي تصب في بنية فنية تقترب من القصة القصيرة ، من خارج تاريخ القصة العربية القصيرة . أي اننا لسنا امام قصة سردية او قصة واقعية او قصة الدهشة ... نحن امام مزاوجة جديدة ، نجعل من هذا البناء خارج نماذج القصة العربية . وهو من جهة ثانية عصي على التصنيف كقصة قصيرة . لان الحوار التجريدي حين يمتزج بالرمز وبالسرد متمركزا حول نقطة واحدة ، يفقد القصة امتدادها المبدئي ويحيلها الى بناء لا يتسع سوى للشعر . هنا يصل درويش الى ذروة تطور اسلوبه النثري ، حيث يأخذ هذا الاسلوب شكلا واضحا ومحدد الملامح . يسمح هذا الشكل للخيبة بالتبلور ، انطلاقا من ضرورة تجاوزها . لذلك يأتي الحوار ، ويأتي النداء ، امتحانا لصنع الاجوبة من داخل الحالة نفسها .

الانتظار ومسافة الفرح

داخل هذا البناء يقع الانتظار الجديد في نهاية مسافة الفرح . « وفي كل حرب كان سرحان يجهض يكتب رسائل ويعلقها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة . كانت رسائله تصل اليه ، فيتعلم المشي من جديد ، ويعود الى رحم الولادة من جديد » . هنا تأتي البنية الشعرية التي تقع على حافة القصة لتقوم عبر اشكاليتها نفسها ببلورة اللحظة داخل الحافة الخطرة . يأتي السرد التأملي ، ليبدأ اللحظة من موقع تزاوج الواقع والحلم الاسطوري، « بين يوم الغفران وليلة القدر ، تحول جسم سرحان الى جزيرة » . او يتحول السرد الى واقعية تتضمن تجاوز الواقع من داخله ، « لانه أحس ان الريح المجاورة لنافذة الزنزانة تعامل السـقف بطريقة مختلفة » . ثم يأتي الحوار . والحوار ليس حوارا عاديا ، انه استنطاق ، يذكر باستنطاق السجناء ، لكنه هنا يصبح استنطاقا من الداخل . سيرورة لولبية للفكرة التي تتطور من داخلها . من هنا يأتي الحوار استكمالا للسرد من مواقع جديدة ، ويقوم بشحن النص بتوتر التحـولات الداخلية على اعتاب الانتظار العربي . غير ان هذا الاستنطاق التتابعي يتوقف في بعض اللحظات التجريدية ليقيم لحظة ابتعاد عن الحركة ، او ليسمح للنفس الشعري باستعادة زمـام المحاولة باسرها . « هذه تربة المتاهة لا انعتاق الافق » . هذه التقريرية الفني تلجأ الى الصور لتعطي مدا تجعل الحركة الداخلية في لحظة ابتعاد عن مجرى الفعل ، وتسمح للتأمل بأن يأخذ مداه . لكـن التجريد حين يصل الى حوار الصوتين الاستنطاقي « حوار بين مسافرين لقتل السأم المشترك » ، فانه يتحول الى شكل فكري، يسمح للتعبير بالتحايل على الشكل الجاهز ، حتى نصل الى لحظة كشف للواقع بشكل كامل .

يلعب الرمز دورا خاصا في بلورة الشكل الفني . فسرحان ليس الشاعر فقط . انه محاولة لخلق شخصية جماعية ، من هنا تعدد النوازع في داخلها. فهي حين تحاول ان تتطابق مع الشاعر ، تسمح لنفسها بالابتعاد عن التجريد الفكري ، لتصـل مباشرة الى الصورة الشعرية. « واذا كان شريدا، بحرية ، يطلب من القصيدة ان تحول حديثه الى حذاء للوصول الى الوطن » . أما حين يصبح سرحان التعبير الجماعي عن التجربة الثورية ، فان النص يضم التوتر الشعري الى الحوار المتوتر، فتاخذ الشخصية ابعادها المختلفة . غير ان الرمز ليس في شخصية سرحان المستقلة . انه في علاقات سرحان ، في ذلك المزج بين الرمز والبناء الاسطوري حتى تصبح لمداليل اللغة أبعاد التجاوز . السجان، الزنزانة ، الشجرة ، الغابة ... رموز تتشابك داخل بنية واحدة لتعطي النص ابتعادا عن المباشرة دون القطيعة معها . أي ان المباشرة التي نتعرف اليها في الجزء الاول من الكتاب تبقى هنا بعـد تطعيمها بشبكة من العناصر المتداخلة . هكـذا

يدخل الرمز ضمن معادلة البناء المثلثة الابعاد التي استطاع بها درويش تجاوز تأملاته الشعرية السابقة « ... لاني أضعت الحرب ، السلام لا يولد الا من نهاية الحرب . ولا يسكن الحالة الواقفة بين حربين ، رجل اضاع سلاما ، ماذا يفعل ؟ والحرب هاجرت . او وضعت في زنزانة يحرسها الخصمان ، يحرسها الخصمان ... ماذا نفعل ؟ » .

في المسيرة الطويلة من الانتظار الى الفرح ، يكتشف سرحان ان الانتظار ينتظره مرة ثانية في نهاية الرحلة . لذلك يرتفع الصراخ الخافت والتمزق الطويل النفس . ولذلك ايضا يتوتر الشكل ، حتى نكتشف تداعيه الى حوار نقط او الى محاولة جديدة للاقتراب مرة ثانية من التحليل ، او التعليق على الافكار الشائعة . هنا يلجأ درويش الى اللغة المباشرة نسبيا ليؤكد القناعات المبدئية التي من دونها لا معنى للكتابة . « الذهاب الى فلسطين ثورة وحلم امة . والهروب الى فلسطين تجريد وذريعة . فلسطين ليست جغرافيا فحسب ، انها عافية تاريخ ، وحيوية ثورة ، ومحالفة مستقبل . والهروب الى فلسطين استعادة ذكريات وبكائيات عاطلة عن الفعل » .

شكوى الشهيد الفصيح

حين تستكمل الدائرة جميع عناصرها ، يقف الشهيد وحيدا ليشكو ويشهد . من دون هذه الشهادة لا تتوحد العناصر . هنا تأتي الصرخة النهائية لتؤكد شدة الارتباط بالحلم وعمق هذا الارتباط . والحلم لا يأتي عاريا ، يجيء مجبولا بعرق الفقراء الذين يتوج دمهم هامة الوطن «شعرنا بثلج الخجل يا سيدي الوطن ، ورضينا ان لا يكون لنا من نصيب فيك الا بيوت من طين ، وموت جميل لا يأتي ، ومجاعة دائمة » . هكذا تأتي الشكوى مجبولة بالحب . وتستطيع اللحظة التسجيلية الاقتراب من شروط العلاقة الانسانية ، لتقيم داخل هذه الشروط اصواتا تحمل هموم المستقبل من داخل مشكلات الحاضر .

الدائرة الكاملة التي يقيمها درويش ، تعطي لكتابه « وداعا ايتها الحرب وداعا ايها السلام ». معنى **الشهادة** ، لانه يأتي من داخل الممارسة النضالية في مرحلة محددة ، ليشهد على ولادة الاحلام وهي تمتزج بالدماء . ومعنى **المستقبل** الذي تشير اليه الكتابة من موقع الارتباط بالمكان ، عبر اكتشاف العلاقة الجديدة بين الزمان والمكان . حين يقتل المكان الزمن الصهيوني ، بينما يقوم المكان نفسه باحياء الزمن العربي .

حول مسألة الشكل

لعل محمود درويش ، احد اكثر الشعراء والكتاب العرب ، ابتعادا عن مسألة الشكل . يأتيه الشكل عفوا او لنقل دون عناء شكلي خاص. هذا هو سبب ضآلة المسافة بين شكله ومضمونه . المسافة تبقى ، فهي ليست مسألة شاعر دون آخر انها مسألة أكثر عمومية وتعقيدا . لكنها هنا تضيق ، لان الرؤيا لا تزال قادرة على ان تتشكل داخل اصالة الصوت الشعري . واذا كان درويش بدأ في شعره الاخير اعارة مسألة الشكل اهتماما خاصا ، فانه هنا ، لا يزال داخل الشكل وخارجه في آن . من هنا تصبح قراءة نثره هذا عملية تسمح بالكشف عن مكونات التجربة عارية . وتصبح الكتابة نمط حياة ، تتقدم في البحث عن خصوصيتها داخل النهر ولبس خارجه . تأتي تجربة الشكل هنا في عدم اكتمالها بالغة الخصوصية . انها حصيلة لحظة انفعالية استطاعت ان تمتد تحت لهب الصراع ، لتعطي النثر الشعري قدرة على التشكل ضمن خصوصية ، لا تسلب البنية الشعرية خصائصها ، بل تمدها بقدرة جديدة على الكشف والرؤيا .

هل يستكمل النثر تجربته ، ويقوم بالبحث عن شكله الخاص ، ضمن منطق البحث — التجاوز . أم لا نزال عند شاطىء الحلم ، والحلم يمتد كتاب يحمل الاحتمالات جميعها دفعة واحدة ؟ —

ليس الجواب فرديا . انه التجربة الفلسطينية الثورية ، التي تحفر في الحساسية العربية ، امتدادا جديدا ، ولا نزال أمام بداية التحولات .

الجديد في شعرنا الجديد

يأتي صوت فاضل العزاوي ، في فرادته ونبرته المأساوية ، دليلا على ان زمن الولادات الشعرية، يجدد نفسه . ويفتح منافذ جديدة تستطيع من خلال اتكالها على انجازات الحركة الشعرية الحديثة ، وضع هذه الانجازات في خدمة رؤيوية شعرية متجددة . فالعزاوي يحمل في شعره امكانية التجاوز ، وان جاءت مجموعته الشعرية الاولى « سلاما ايتها الموجة سلاما ايها البحر » خالية من أفضل قصائده الاخيرة ومصرة على مزج الابداع بتاريخ هذا الابداع !!

يؤسس القسم الاول من المجموعة « الجزيرة العربية » الرؤيا الشعرية على قاعدة الهزيمة . فتؤخذ الهزيمة هنا بوصفها مأساة تاريخية ، تمتزج في داخلها الاصوات ، حتى يصبح صوت الشاعر لحظة تستوعب آلاف الاصداء الخارجة من افواه الجنود والفقراء والصعاليك ، لتعيد صياغتها داخل بناء شعري درامي يشحن اللحظة بفجائية الزمن المتعدد . داخل هذا التعدد تبني القصيدة خطتها ، تبدأ بالخارج الذي من شدة تفجره وغرابته يصبح حلقة في عالم داخلي بالغ الغنى ، لتتوقف عند الذات ، متجاوزة اياها داخل لحظة التوحد المتعددة الاصوات ، حيث يعلو صوت الزمن المأساوي ليغطي العالم :

« ليعم العالم حبي

ليكن وطني نهرا يعبر أسوار المدن المبنية في الرمل

ليكن سيفا في عنقي في اطرافي انا الواقف بين الموجة

والموجة ، بين القاتل والقتل . دخان الثورة في أكمامي » .

المرجع الثابت والاطار المرجعي

استطاع العزاوي في قصائده الاخيرة ، ان يشحن كلمة واحدة بالدلالات ، حتى أصبحت مرجعا ثابتا لفهم أبعاد القصيدة ، بوصفها تلخيصا مكثفا لمأساة جماعية . فهو حين يضع المفرد بلهجة المخاطبة المباشرة وغير المباشرة ، فانه يذيبه بجماعية مستترة خلف كلمة « جيلي » التي تلخص تجربة واقعية بنبرة مأساوية جديدة . هنا يصبح «الجيل» رمزا ثابتا يحدد تداعيات القصيدة ، فيما يتحدد داخل مناطق البنية اللغوية التي تحاول استخدام النداءات المتكررة . أي ان صيغة النداء التي تأتي في نهاية الجملة الشعرية مولدة الجملة التي تليها، تسمح للقصيدة بالتقدم الدائري على قاعدة الاستمرار . فالنقطة المرجعية الواحدة ، تتوالد الى ما لا نهاية ، ويصبح الشعر لحظة تمتد وتلف الزمن . فالقصيدة هي مقياس العمل الشعري ، والوصول اليها ، هو هدف هذه الحظة التي تتوالى وتدور محاور الصورة الغريبة .

« أنا ف. العزاوي جندي

او

مجنون يبحث عن قارات بيضاء » .

اذا كان المرجع الثابت يؤكد قدرة القصيدة على بناء نفسها ، فان دراسة الاطار المرجعي تسمح لنا باكتشاف مناطق تركيز القصيدة ، ضمن تاريخ الشعر الجديد . **فالغنائية التأملية** ، تأتي هنا لتعيد شحن اللغة الشعرية بالبعد الواقعي من جهة ، فيما هي تدنيها من اللحظة الرومانسية التي تتوقف عند التفجع لتقوم بتجاوزه . أي ان اللحظة الغنائية هنا ، لا تؤخذ وحدها ، انها جزء عضوي يقوم بكبح التوتر لمصلحة الراحة التي تقوم في الذاكرة الشعرية . هذه الراحة تضرب التوتر المتصاعد في القصيدة ، وتسمح للغة الايقاع القديمة بالتسلل اليها .

« وطني من حرب الايام الستة لم يرجع

عادت اوطان الناس ولكن حبيبي لم يرجع »

تأتي هذه الغنائية ، داخل بحر **الصور الغريبة**، الغرابة التي يبحث عنها العزاوي داخل الرؤيا الادونيسية ، تجعل للحلم مدى واقعيا . فالحلم

---

* فاضل العزاوي : **سلاما ايتها الموجة ، سلاما ايها البحر .**
دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٤ .

هو الواقع الداخلي الذي يتحدد من خارجه ويحدد هذا الخارج . العالم الموضوعي ليس لحظة ثابتة. انه عالم الحركة والتحول . من هنا تأتي الغرابة لتبني ارض القصيدة ، انها نقطة الاساس التي تسمح « للجندي العائد من حزيران » بأن يهتف للموجة والبحر ، ويحمل تاريخه وصولا الى «جيش الفقراء» :

« في هذا البحر الواقف بين الساحل والانسان

قلت اتركني يا وطني » .

غير ان منزلق الغرابة الاساسي ، هو الوقوع في **المجانية** المفتعلة . فالغرابة التي تصنع عالم الحلم ، تصبح في بعض اللحظات مجرد لعبة مجانية تبحث عن الغرابة لذاتها . أي عن الغرابة خارج الحلم ، الغرابة المعقلنة . هنا يدخل الشعر داخل لعبة ليست من طبيعته . « هل أحلق لحية افعالي » . هذه ليست كتابة اوتوماتيكية — عدا عن ان زمن الكتابة الاوتوماتيكية انتهى — انها لعبة واعية تسقط على اطراف العمل الابداعي . من هنا خطورتها على القصيدة نفسها ، لانها تأتي لتقيم حلما قصريا ، فينعكس هذا الحلم على بنية القصيدة نفسها وينقدها أعظم ما فيها .

تسمح لنا لغة العزاوي ، باكتشاف الجديد الذي ينبع من المعاناة التاريخية . لحظة الهزيمة الحزيرانية ، تصبح مكانا لمحاكمة الواقع العربي تاريخيا . فلا مكان لرومانسية بكائية . والامل لا يأتي مجانا . انه في نقطة البداية ، حين يبدأ جيش الفقراء توحيد الحلم بالواقع . هنا الشعر الذي يلتقط الفجيعة داخل هذه المسيرة الطويلة ، ويؤسس رؤيا المستقبل من داخل هاتين النقطتين ، حيث سالت وتسيل دماء آلاف المناضلين من أجل الوصول الى نقطة الوحدة هذه .

صوت الفجيعة

ماذا يريد الشعر ؟ حين تعلو الفجيعة وتمتزج بالبحر . يصبح الشعر موجة . يلتقط العزاوي هذه الموجة ويعيد صياغتها . هنا تصبح الفجيعة احساسا تاريخيا حادا . تتلون بتداعيات اللغة ، وتترك المكان فسيحا للحلم . فيبني الشعر اسطورته الخاصة انطلاقا من رموزه الخاصة . هكذا تتوحد اللحظة بمستقبلها ، وتصبح الغنائية المأساوية ، صدى جماعيا . غير ان لغة التكثيف الشعرية تحمل مخاطرة اهمال المكونات الاساسية . فالانا الفردية والجماعية ليست مجرد لحظة. انها تاريخ وممارسة فحين تأتي الفجيعة عارية فانها تلتقط التوتر وتنفجره ، لكنها لاتعايشه زمنا كافيا داخل الحلم . هكذا تنفجر لغة العزاوي الشعرية دون ان تبني اللحظة المتكاملة . تستجمع اللحظة ، ولا تتوقف عند عالم الدلالات . هكذا تختلط الدلالات في اللحظة الشعرية ، وتصبح عملية اكتشاف عناصرها بالغة الصعوبة . فعالم الدلالات حين لا يقيم رابطة التطور في الفرق بين لحظة واخرى ، فانه لا يترك للايصال مجالا سوى الحلم ، وهو دائرة ايصال شديدة الصعوبة .

حين يتوقف الشعر عند الفجيعة ، فانه يقدم بداية للتجاوز . وأهمية العزاوي الاساسية ، هي في كونه قادرا على التأشير لهذا التجاوز عبر لغته الشعرية الخاصة ، وقدرته على تلمس الالم من داخل الالم نفسه .

تاريخ الابداع

في الاقسام الاخرى من المجموعة الشعرية «كتاب الرؤيا» ، « الرحلة الصعبة » ، « مدارات » ، « عشاق من ازمنة اخرى » و « طيور في معطف الليل » ، نكتشف التاريخ الشعري للعزاوي . نتوقف عند البدايات الاولى التي تقف بشكل كامل تحت مظلة الشعر الجديد . هنا ، تصبح القصائد في اغلبيتها الساحقة مجرد محاولات ، تسمح للغة الشعرية بالتبلور . نكتشف داخل هذه المحاولات هاجس التجديد الذي يصل الى المجانية في بعض الاحيان او الى محاولات هامة . ففي « القصيدة التي تأكل نفسها » نكتشف الجملة الشعرية التي تتآكل مخلفة وراءها شكلا جديدا ومحاولة استخدام علاقة اللغة بالشكل دون الوقوع في التنميط الشكلي المبتذل . فالشعر ليس فقط شكلا داخليا ، انه شكل خارجي ايضا . وعدا ذلك ، نكتشف كيف تتكون اللغة الشعرية الخاصة وصعوبات هذا التكون . حيث يطغي البحث الجدي على بقية العناصر . بين الاهمية التاريخية — الذاتية لاغلب هذه النصوص وبين نشرها مسافة لست ادري كيف قدر العزاوي قطعها ، دون ان يتنبه لمزالق النشر الان ، بعد ان تبلور صوته الشعري ؟

يتشكل الشعر العربي الجديد بأسره تحت

السقف الفلسطيني . فالهزيمة أصبحت أحد المحاور الاساسية للايديولوجيا العربية . واصبح للصدام التاريخي طعم البحث عن الجديد ، في سبيل التعبير عن التجربة الجماعية . فبدأت الفواصل تنعدم ، واصبح عالم الدلالات الجديدة ، هو النقطة التي يتوقف عندها الابداع الفني ، ليعيد اكتشاف نفسه. أهمية تجربة العزاوي الشعرية ، في كونها تقع هنا . عند هذه النقطة المحددة ، ونشارك في البحث عن دلالات جديدة .

بين الرواية ونقيضها

حين يطرح العمل الروائي على نفسه مهمة تسجيل لحظة سياسية ساخنة ، فانه يضع نفسه ، داخل ميدان لا تستقيم علاقة عناصره ببعضها الا من خلال تتابعية نمطية تسلب الشخصية الروائية قدرتها على الاقناع . او يتم ذلك عبر انفجار الشكل الروائي بشكل جزئي او كامل، هذا الانفجار الذي يحول دون الوصول الى التسجيل المراد ، بل يقوم بتجاوزه عبر مزاوجة البنية الروائية ببنية القصيدة . فيأتي المدى الشعري استيعابا للتسجيل داخل مشروع رؤيا متكاملة . بين هذين الحدين ، تقع الرواية العربية في انعطافاتها غير المفاجئة ، حيث يختلط الشعر بالنثر ، بل تعلو النبرة الشعرية لتقوم بمحاولة أولية لاعادة انتاج الرواية بشكل جديد . بينما يتابع النثر المحفوظي سيره في منخفض متعرج حيث يفقد تدريجيا عناصر لحمته الاجتماعية فيتعلق بالشكل القديم خلف مهارة كبيرة في بناء اللوحات المتقاطعة التي تحل مكان المدى الاجتماعي السابق . ويدخل النثر كاملا ، ليعطل كل امكانية امتداد خارج تزاوجية مفتعلة بين الرمز والتسجيل الصحفي .

من المرايا الى الكرنك

حاول محفوظ في قصصه القصيرة ، التقاط لحظة الهزيمة في لا معقوليتها المأساوية . فنراه يحاول بناء لوحته القصصية ضمن خطين مستقلين .

الخط الاول تمثله قصة « تحت المظلة » بشكل صارخ . هنا يتم لقاء عناصر القصة ضمن **صدفة موضوعية** ، اي ان الشكل شبه السريالي الذي تسير فيه القصة هو التعبير المباشر عن حالة عدم القدرة على التحليل . فهو يأتي بشكل صدفة موضوعية تتوحد من خارجها . لذلك يأتي الشرطي من خارج لعبة الشارع ليقوم بقتل الشهود . دون ان توضح علاقات القصة ، دور عناصرها المكونة. لذلك يتراجع الوعي امام انفعالية لا واعية ، هي الصيغة المطلوبة للواقعية . *اي ان محفوظ لا يتخلى عن واقعيته* ، بل يؤكدها عبر اللجوء الى تفتيتها في لحظة انفعالية ، تجمد الانفعال داخل نبرة موضوعية .

الخط الثاني يكمن في اللجوء الى القصص الحوارية ، حيث يحتل السرد حيزا ضيقا يضيء بعض النقاط الغامضة . ويأتي الحوار ، ليفتت اللحظة الاجتماعية الى عناصر صغيرة . فالحوار الذي يشكل العمود الفقري للعديد من قصص محفوظ القصيرة ، هو هروب الى الامام . محاولة للتحايل على العلاقات الاجتماعية عبر الاحتماء خلف شكل ممسرح . لذلك فسرت بعض قصصه القصيرة بأنها مسرحيات او ما يشبه ذلك . والواقع انها تبتعد عن المسرح بقدر ابتعادها عن الحركة . انها مجال لحوار استيطاني يتحايل على الضياع بمحاولة تفسيره بشكل جزئي .

لقد حافظ هذان الخطان على توازيهما في جميع مجموعات محفوظ القصصية . ورغم ان « الجريمة » تحمل محاولة للانتقال الى الواقعية الاجتماعية ، فانها بقيت تحمل هذين الخطين في محاولة لتوحيدهما داخل احتجاجية لا تلامس سوى الظواهر ، مغفلة تحليل الجذور .

اذا كان الهاجس الاساسي للقصة القصيرة عند

نجيب محفوظ : **الكرنك** ، كتبة مصر ، ١٩٧٤ .

محفوظ هو محاولة التقاط الهزيمة في لوحات انفعالية معقلنة ، فانه حاول في عمله الروائي العودة الى توازنه الواقعي القـديم . لذلك كان لا بد مـن « المرايا » كمحطة انتقالية تسمح بالوصول الى محاكمة الهزيمة داخل الآلية الاجتماعية . حملت « المرايا » في شخصياتها الكثيرة العدد ، هم التقاط لحظات محددة في حياة مجموعة هائلة من البشر ، لكي تقدم لنا صورة شبه شاملة عن المجتمع المصري الحديث . لذلك جاءت الاقاصيص العديدة مجرد لوحات قصيرة لا تحمل توتر القصة القصيرة ، وهي في مجموعها لا تشكل عملا روائيا متكاملا . فقد اكتفت بالتسجيل الهادىء الذي يصل حد وعظية خجولة في بعض الاحيان ، وبنت حولها عملا وثائقيا فيه الكثير من قدرة محفوظ على شد القارىء واثارة اهتمامه ، لكنها بقيت مجـرد استراحة تحمـل الخلفيات الفكرية التي كونت جزءا كبيرا من حياتنا الثقافية . اما الوحدة التي تشد هذه اللوحات ، فهي شخصية المؤلف التي لا تظهر الا مـن خلال الآخرين . فهي لا تتطور الا سلبا ، وتلخص تطورها باختصار حيوات الآخرين ضمـن لوحات شديدة التوتر الخارجي ، لكنها لا تحمل آلية تطور خاصة بها . ثم نشرت رواية « حب تحت المطر » التي حاولت العودة الى الشكل المحفوظي القديم . بناء كلاسيكي ، وحدة السياق الحدثي . نقاط تقاطع موضوعية تضم الشخصيات اليها . وموقف واضح يحاول المؤلف بلورته من خلال تبلور ابطاله . غير ان الشكل المحفوظي القديم يخون هذه المرة . فلعبة التقاطع الاجتماعية تتجمع حول القدر ، الذي يصبح المحور والموحد . ويتلاشى البناء الواقعي امـام تواطؤ مكشوف بين القارىء والمؤلف . لذلك تأتي اللوحة التي رسمها محفوظ في « حب تحت المطر » خالية من التوتر التصاعدي الذي يميز عمله الروائي بشكل عام ، فانهار المضمون امام الشكل . اي ان الشكل المحفوظي القديـم ، الهدوء النثـري ، التتابعية السردية التي يقطعها الحوار الى لحظات بالغة الغنى . لكننا هنا لسنا سوى امام عجز الشكل عن شد لحمة حركته ، لذلك تلجأ الرواية الى العناصر الخارجية ، وتتوقف عندها طويلا . فيصبح القدر هو البطل الرئيسي ، وتتابع عشوائيته من خلال اكتشاف امكانيات جديدة .

ان هذا الخط البيـاني الذي حاولنا رسمـه بسرعة ، يسمح لنا باكتشاف التـركيب الداخلي للرواية الجديدة التي أصدرها محفوظ . (كتبت هذه الرواية عام ١٩٧١ ، ويبدو انه لم يسمح بنشرها سوى الآن) .

النقطة الايديولوجية والتمفصل الاجتماعي

تنطلق « الكرنك » من نقطة ايديولوجية محددة . انها صرخة ضد الظلم . ضد غياب الديمقراطية الحقيقية . تنطلق من **الهزيمة** ، لتعيد على أساسها تقييم جانب هام من التجربة السياسية في مصر . النقطة الايديولوجية مشروعة . لان اي عمل فني لا يستطيع الانطلاق من فراغ . لكن مشروعية هذا المنطلق الايديولوجي ، تخضع للتجربة داخل البناء الفني . أي ان قدرتها على التمفصل داخل اطار العلاقات التي يحددها البناء الفني ، هو محك قدرتها على الاقناع الابداعي . لذلك فان شكل تداخل المنطلق الايديولوجي مع الحركة الداخلية للعمل الابداعي (خاصة في الرواية الواقعية ، حيث تنطلق هذه الحركة من العلاقات الاجتماعية) هو الذي يحول العمل الابداعي من مجرد نقطة انطلاق ايديولوجية الى حقل صراع . وهنا تكمن احدى اهم خصائص الممارسة الابداعية . لذلك فاننا في قراءتنا لرواية محفوظ ، سنحاول دراسة العلاقة بين هذين العاملين .

أ ـ الخط الواحد : تسير رواية محفوظ ضمن خط واحد من العلاقات ، فتطور الحدث الروائي يخدم نقطة واحدة ، دون الالتفات الى مكوناتها غير الظاهرة . فنتعرف على **صدفتين** أساسيتين : ذهاب المؤلف الى الكرنك بطريق الصدفة . ومجيء خالد صفوان الى الكرنك حتى تكتمل دائرة الصدفـة الاولى . وبين الصدفتين يتوقف الزمن ، ويسير الحدث الروائي في زمن موضوعي تماما . وببطء شديد . مجموعة من الشخصيات الواقعية تلتقي في مقهى قرنفلة . الشباب الذين يحلمون بالمستقبل والشيوخ الذين ينتظرون نهاية دورهم . وبين هاتين المجموعتين يقف المؤلف ليراقب بعقله . فهو مجرد بطل سلبي . بطولته تأتي من خلال علاقة المراقبة السلبية . وعبر العلاقة بين هـاتين المجموعتين نكتشف عالم الارهاب والقمع البوليسي ، ونكتشف أيضا ان قرنفلة ليست مجرد بطل واقعي . بل تتحول الى رمز لمصر التي يتجدد شبابها مع كل جيل جديد . يضع محفوظ هذه الظاهرات جميعا

داخل خط مستقيم . فهناك بداية وهناك نهاية . وبين هذين الحدين تتطور الشخصيات للوصول الى نقطة اساسية : فالهزيمة كشفت تهافت البناء . والسكوت عن القمع كان أحد أسبابها الرئيسية . وتتحول هذه النقطة الى بشارة جديدة . فموت حلمي حماده ، وعلاقة اسماعيل الشيخ بالفدائيين ، لا يحجبان الحقيقة الجديدة . التي تتجلى في منير أحمد ، رمز الجيل الجديد . انه عودة الى الوحدة القديمة ، التي تبحث عن الاصالة دون الوقوع في السلفية ، والتي لا تتحجر عند عقيدة جامدة !

ب ــ القهر الاجتماعي : في تطويره للخط الروائي الواحد ، لا يهمل محفوظ اضاءة بعض الجوانب الاجتماعية التي تشكل خلفية ابطاله . فالضحايا هم طلاب . اثنان منهم ابراهيم وزينب من بيئة شعبية . والثالث الشيوعي من بيئة برجوازية صغيرة . يواجهون قمعا غير متوقع . فالارهاب الذي يسقط عليهم فيقتل احدهم ويدمر زينب واسماعيل هو ارهاب غير متوقع وغير مبرر . غير ان عدم اهمال الخلفية الاجتماعية ، لا يؤدي دائما الى الوصول الى القدرة على تضمينها داخل البنية الروائية . فنحن أساسا امام لوحة مجتزأة . محفوظ يحدد بشكل صارم **مكان** حركة روايته . فنحن اما في المقهى او في زمن التذكر خارجه . اما **الزمن الموضوعي** البارد الذي يفرض صرامته على مجمل العمل الروائي فانه لا يفسح مجالا حتى لحظة الذكريات لاي تراجع عن وجهه الثابت . فلا مكان لتلك اللحظات التي تستطيع أن تلخص حركة اجتماعيه متكاملة . لذلك تبقى أمام مجموعة من الاحتمالات التي لا تستجمع نفسها داخل الحركة . بل تتجمد لتمنع اي حقل صراعي حقيقي . مؤكدة ابعاد الحركة الاجتماعية عن مسار الرواية ، حتى لا يختل الخيط الايديولوجي الموحد حول نقطة ثابتة .

البنية التقاطعية : يمزج محفوظ في روايته الجديدة ، بين التقطيع المتحرك الذي عرفناه في «ميرامار» والتقطيع التسجيلي الذي يميز «المرايا» . والواقع ان خفوت الحركة الاجتماعية في الرواية ، يجعلنا نكتشف صلاتها الكبيرة « بالمرايا » . فالطابع التسجيلي الذي يقترب من لغة الصحافة يهيمن على العمل الروائي بأسره ، يقسم الكتاب الى قسمين :

في القسم الاول يغلب الطابع السردي هناك على شخصية المؤلف الطاغية ، التي نرى من خلالها الواقع . فساعة المؤلف تعطلت وكان عليه انتظار اصلاحها . من هنا يهتدي الى مقهى الكرنك وتبدأ قصته معه . هنا نتعرف على جميع شخصيات الرواية . لكن معرفتنا بهم تبقى ناقصة . فالراوي يقتطع المعلومات والاحداث ، يضغطها حتى نصل الى النقطة الاساسية ، ظاهرة اختفاء الشبان من المقهى . في القسم الاول تتدخل ثلاثة عوامل في بناء حركة الرواية :

السرد التدخلي . هدف السرد ليس الوصف ، أو الوقوف عند الظاهرات . انه سرد تدخلي سيكولوجي . فلا يكتفي الراوي بوصف الحالات ، بل يقوم بتفسيرها بشكل واضح . « ومن ركن الشباب انبعث الحماس فوارا كالهدير . عند أكثرينهم يبدأ التاريخ بالثورة مخلفا وراءه جاهلية مرذولة غامضة . انهم ابناؤها الحقيقيون ولولاها لتشرد أكثرهم في الازقة والحواري والضياع » . يلعب تدخل الراوي في هذا السرد دورا مزدوجا ، فهو يغطي الحيز الذي يتركه محفوظ عادة لسرده الموضوعي ، الذي يقوم بوضع الخلفية الموضوعية للرواية . كما يسمح بالمقابل بعملية ضغط لهذا الحيز تسقط عليه نقطة المنطلق ، فتكون بذلك قد شلت الخلفية الموضوعية ، دون ان تمسها ظاهريا .

الذكريات الموضوعية . تأتي الذكريات الموضوعية في بداية الرواية ، لتضع المسافة الحاسمة مع المشاعر الشخصية المتناقضة عادة . فالذكريات تصف من الخارج ، لا تدخل اللاوعي أو العوالم الخفية . تبقى عند حدود الظاهرات ، بل وتشترك مع هذه الظاهرات في وضع الحدود الحاسمة . « سمعت عزفا وطبلا ، شممت بخورا ، رأيت جسدا يتموج . راقصة ، نجمة عمادالدين ، الراقصة قرنفلة ، حلم الاربعينات الوردي » . وحين نصل الى الذكريات القريبة جدا ، والتي تساهم في صنع الحدث الروائي . فالذكريات الموضوعية تأتي بصيغة جديدة ، لتساهم من داخل السرد التدخلي نفسه ، ولتشكل سدا منيعا في وجه التلوين غير الواضح ، الذي يسمح للعمل الروائي بقدرة على الحركة .

الحوار . يأتي الحوار غالبا ، داخل السرد . فهو لا يتمتع باستقلال نسبي . يصبح الحوار هنا

نقطيعا سرديا ثابتا . لا يتلون ولا يفاجيء . انه في نقطة ثابتة . يلقي أضــواء جديدة على تطــور الاحداث ، لكنه لا يشارك في صنع هذا التطور او في التأشير اليه . فهو مجرد لوحــة انعكاسية تتقاطع فيها الاصوات من موقع الثبات . ولولا الحوار الذي جرى بين زين العابدين وقرنفلة ، والذي حمل بشكل خاص توترا حقيقيا ، لكان الحوار بشكل عام مجرد صدى للاحداث ، لا يحدث فيها اي التواء ، ولا يشكــل ، بوصفه تبــادلا انسانيا ، نقطة تحول في البناء الحدثي للرواية .

الصوت التأملي . داخل السرد ، يرتفع صوت الراوي من حين الى آخر ، ليؤكد مراكز الانطلاق الفكرية التي يتأسس عليها العمل الروائي بأسره. هذا الصوت التأملي هو بوصلة العمل . لانه يؤشر الى مسار الحركة في داخله . وداخل نبرة رصينة وحيادية في الظاهر ، يشير محفوظ الى نقاط الضعف والخلل : « وعجبت لحال وطني . انه رغــم انحرافاته يتضخم ويعظم ويتعملق . يملك القــوة والنفوذ ، يصنع الاشياء من الابرة حتى الصاروخ ، يبشر باتجاه انساني عظيم ، ولكن ما بال الانسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار فــي تفاهــة بعوضة ... » .

صيغة الماضي . حين تغلب صيغة الماضي فــي الرواية ، فانها لا تأتي عبثا . انها جزء اساسي من زمن لا يتحرك . زمن الحركة في تاريخها . أي في وضعية ثابتة نسبيا ، تعيد تصوير حكاية انتهت. المغامرة الحركية ليست هنا . ففي « الكرنك » ، ثبات تام . انتقال بين نقطتين واضحتين . لذلك تنتفي التوقعات ، وتتكرر الحكاية نفسها حتى تأتي الهزيمة التي تسمح بصياغة جديدة .

يبدأ **القسم الثاني** من الرواية مع الهزيمة . فكأن سياق القسم الاول يأتي ليؤكد ان نهاية هذا النمط من العلاقات السياسية هو الهزيمة . فعمليات اعتقــال الشبان وتدمير حياتهم تصل ذروتها بعد الهزيمة حين يموت حلمي حمادة . ويتحول اسماعيل الشيخ الى سجين ابدي بعد ان تحول في الاعتقال السابق الى مخبر . وتحول زينب دياب الى مومس. هنا في القسم الثــاني يضيء محفــوظ الجوانب الغامضة في عمله عبر اللجوء الى تقنيتين :

الاعترافات . تأخذ الاعتــرافات هنا ، المعنى الحقيقي للكلمة . فاسماعيــل وزينب ، يعترفان مباشرة للراوي . هنا يأخذ الراوي معنى الثبات المنفتح ، فهو يلسم الجراح ، ويحاول تفهــم المشــكلات الاســاســـية التي تعصــف بتكوين جيــل الطلبــة . غــير ان هــذه الاعترافــات وان تخللها الحوار والسرد ، فانها لا تكشف سوى نقطة واحدة : القمع . كل شيء يصب داخل هذه النقطة . فعوض ان يتحول القمع الى نقطة تفجر وضعا بأكمله ، وتسمح روائيا ، للبنية الفنيــة بالانفتاح على مكوناتها الاساسية ، فان الاعترافات تقوم بعملية عكسية تماما . تقنن الحركة الاجتماعية بأسرها داخل القمع ، وتلخص تجربة جيل كامل بشيء من العمومية وعدم التوقف عند الفوارق . هكذا لا تضيف الاعترافات ، سوى القليل على الحركة داخل الرواية . بل تجمدها عند انهيارية يصاحبها امل ما ، لا يسمح له المؤلف بالتبلور ، بل يقوم بقمعه عبر شخصية جديدة تدخل الرواية وتمثل نزعة محفوظ الليبرالية التوفيقية . انهــا شخصية منير أحمد الذي يمثل جيلا جديدا ، يقع مرة اخرى في حب قرنفلة (مصر) .

لحظة المفاجاة . طيلة الرواية ، لا نتعرف على خالد صفوان الا بشكل غير مباشر . فهو يحمل جميع سمات رجل المخابرات . لكنه لا يظهر على مسرح الفعل الروائي المباشر الا بعد الهزيمة ، يخرج من السجن حيث امضى ثلاث سنوات ، ويأتي بطريق الصدفة الى « الكرنك » حيث يلتقــي اسماعيل وزينب ، وشلة « الكرنك » التي تتجدد . وهناك نتعرف على الوجه الآخر من شخصيته حيث يقول كلاما غامضا بالغ الوضوح : « براءة في القرية ، وطنية في المدينة ، ثورة في الظلام ، كرسي يشع قوة غير محدودة ، عين سحرية تعري الحقائق ، عضو حي يموت » . هكذا يلخص تجربته فيما يردد « كلنا مجرمون وكلنا ضحايا ، من لم يفهم ذلك فلن يفهم شيئا على الاطلاق » . هذا اللقــاء المفاجيء بين الجلاد والضحايا ، لا يبرره سوى المستوى الرمزي الذي تشير اليه الرواية . فيتحول الكرنك مــن مجرد مقهى الى اطار اجتماعي كبير . الى «عوامة» الذين يسحقون . وتصبح قرنفلة مصر القادرة على التجدد ويصبح صوت الراوي هو صوت الوعي الجديد .

تمزق البنية الروائية

اســـتطاع محفوظ في « الكــرنــك » ان

يحافظ على توازنه الاجتماعي ، شخصيات روايته تنتمي الى جميع الطبقات من مدير العلاقات العامة مرورا بالطلبة وحتى نصل الى الجرسون وماسح الاحذية . واستطاعت الكلمات القليلة التي نطق بها هؤلاء اعطاء صورة شبه متكاملة عن تعددية في الرأي انطلاقا من الموقع الطبقي . غير ان الركيزة الاساسية لهذا العمل كانت الطلبة وروحيتهم النضالية التي ضربتها الهزيمة . واذا كان محفوظ يتوقف عند الهزيمة ، فانه لا يقبل بالظلام ، بل يكتشف الروحية المتجددة من خلال اسقاط شخصية الطالب الشاب المتفائل. غير ان الملاحظة الرئيسية التي تطبع هذا العمل وتظهر من خلال البنية الاسقاطيه للرواية هي عجز الشكل وانهيار المضمون القديم . هل وصل محفوظ الى رواية **الموقف** ؟ الواقع ان « الكرنك » ليست سوى موقف وحيد الجانب ، غير انها تختلف عن رواية الموقف العربية في نثريتها المفرطة ، وفخامتها الكلاسيكية التي تخون هذه المرة . فمحفوظ يقف على عتبة الرواية العربية الجديدة ، لكنه لا يزال اسير لغته وأسير أشكاله . لذلك تتحول اللحظة التي يكثفها الى مجرد موقف يمكن ان يصاغ بلغة صحافية أو سياسية مباشرة ، ولا يحتاج الى هذه الشبكة التي ينحتها محفوظ ، او الى هذا الافتعال الروائي الذي يحاول حجب الموقف الوحيد الجانب، لكن محفوظ عبر اصراره على تاريخه الفني ، أو لانه أسير هذا التاريخ يمزق بنفسه هالة الكلاسيكية الروائية التي تضمر اليوم لحظة التغييرات العنيفة، وتفسح عبر سقوطها ، مجال تجاوزها .

ان الاهمية الرئيسية لهذه الرواية هي قدرتها على التعبير عن خط ايديولوجي متماسك ، يلعب اليوم دورا هاما في تكوين وبلورة الايديولوجيا المصرية والعربية . فهي تشير الى ثلاث مؤشرات :

١ — التأكيد على القيم الديمقراطية الليبرالية ، بوصفها افضل اشكال الممارسة السياسية .

٢ — اعادة الاعتبار جزئيا الى الماضي ، « لم يكن الماضي شرا خالصا » كما يقول محفوظ على لسان الشيوخ في روايته .

٣ — الوقوف طويلا امام قدرة مصر على التجدد.

هذه المؤشرات الثلاثة ، ليست حيادية على المستوى السياسي . فهي داخل البنية الايديولوجية وتعبر عن اطرافها المتقدمة . غير انها تقف بعيدة عن توترات الولادة التي لن تكون في استعادة لحظة انتهت تاريخيا ، بل في التجاوز الثوري الذي تؤشر له الحركة الجماهيرية عبر آفاق تحركها .

ببليوغرافيا الفولكلور العربي الفلسطيني

نمر سرحان

ليست اعمال ابراز ملامح الحياة الشعبية العربية الفلسطينية جزءا من دراسة انتروبولوجية فحسب ، بل هي محاولة في التأريخ الشعبي ودراسة ثقافة شعب عربي ارضه محتلة ، ويدعي المحتلون ملكيتهم للارض والتراث ، ويعملون جاهدين على طمس وازالة شخصيته الوطنية تمهيدا لابتلاع الارض وانكار حقوق اهلها فيها — بل ازالة اسم فلسطين العربية عن خارطة العالم.

والان وبعد ان أخذت اعمال جمع ودراسة الفولكلور الفلسطيني تتخذ الاسلوب العلمي المنظم وتصدر في مطبوعات جادة تتخذ مكانها في المكتبة العربية والاجنبية ، فانه يصبح من الضروري تأجيل ملامح هذا التحرك العلمي ذي الطابع الوطني وذلك بالتأكيد على ناحيتين :

الاولى : تثبيت تفرعات البحث الفولكلوري بوحي مما تكشف عنه الدراسات في الوسط الشعبي الفلسطيني ، سواء كان ذلك عن طريق العمل المكتبي او الميداني ، وسواء كان ذلك في الارض المحتلة او في مخيمات المنفى والاحياء في القرى والمدن العربية التي يقيم فيها الفلسطينيون .

والثانية : دراسة هذه التفرعات بعد ترتيبها ترتيبا أبجديا وموضوعيا في نفس الوقت وضمن عمل موسوعي يبرز الى الوجود « موسوعة الفولكلور العربي الفلسطيني » والتي تشتمل على دراسة وصفية — وظيفية توضح ملامح حياة الشعب المنكوب وتخلق الصلة بينه وبين أرضه المحتلة ، على اعتبار ان الثقافة الشعبية — موضوع الموسوعة — هي صدى لتفاعل الانسان مع أرضه .

ونظرا للظروف القائمة والمحن المتواصلة التي يمر بها الشعب ، فان اعمال الجمع الميداني تظل ذات مردود ضئيل ومحفوف بالصعاب . ومع ذلك فان هذه الكوة المطلة على حياة الشعب تظل مهمة وأساسية . وفوق ذلك كان لا بد من اللجوء للمراجع الاجنبية وما تجود به الملاحظات والدراسات العارضة في الكتب العربية من أمثال كتب السير ، التاريخ ، المذكرات ... الخ والتي تعطي اشارات هنا وهناك تضيء جانبا او اخر من الحياة الشعبية الفلسطينية .

وفي خضم هذا البحث المستديم برزت أسماء المقالات والكتب بالعربية وباللغات الاجنبية التي تتناول بأسلوب متفاوت ملامح الحياة الشعبية . وكان لا بد من تنظيم هذه المراجع بشكل ببليوغرافيا تعرف بالدراسات هذه وتكون مرجعا لكل الباحثين في الفولكلور الفلسطيني .

وضمن القدرة اللغوية المتوفرة لدى الباحث فان هذه الببليوغرافيا تشمل ما أمكن جمعه من قوائم أسماء الابحاث المعدة بالعربية ، الانجليزية والالمانية . هذا فضلا عن ان اللغتين الاخيرتين تشملان دراسات مستفيضة وجادة عن الحياة الشعبية في فلسطين . ومع الاعتراف بعدم توفر الدراسات التي أعدها الباحثون العرب في الارض المحتلة عام ١٩٤٨ وكذلك التي أعدها باحثون اسرائيليون عن فولكلور « العرب في اسرائيل » ، فانه تظل هناك ثغرات اخرى ابرزها الافتقار الى المراجع الفرنسية والاوروبية عموما والتي كتبت بلغات محلية .

وربما أمكن في المستقبل وبالاستعانة بدارسين متحمسين في هذا المجال اضافة تلك النواقص . وبالطبع فان هذه الببليوغرافيا ستظل مفتوحة لاستيعاب ما يمكن ان يستجد من أسماء كتب ومقالات بالعربية واللغات الاخرى . وكذلك فان أي تصويب او اضافة لهذه الببليوغرافيا سيكون موضع الترحيب والعرفان بالجميل لان في ذلك خطوة على درب الحفاظ على ملامح حياة شعبنا وصلته بأرضه المحتلة .

وفي هذه المحاولة بديء بذكر المراجع العربية، ثم صنفت بعد ذلك المراجع الانجليزية والالمانية . واتخذ مبدأ الاسم الاخير للمؤلف اساسا للفهرست، وهكذا أصبحت هذه الببليوغرافيا : ببليوغرافيا المؤلف .

المختصرات

P E. Q: Palestine Exploration Quarterly,

JPOS: Journal of Palestine Oriental Society.

ZDPV: Zeitschrift des Dentschen Palastina - Vereins.

ZDMG: Zeitschrift der Deut-schen Morgenlandischen Gessellschaft.

PJB: Palastina Jahr Buch.

JAOS: Journal of American Oriental Society.

JMLT: Journal of Missionary Labours in the City of Jerusalem.

ZS: Zeitschrift Fur simitistik und Verwandte Gebiete.

* تشير الارقام التي تلي .P.E.Q الى رقم العدد من هذه المجلة ثم رقم الصفحة مفصولا بينهما بنقطتين احداهما فوق الاخرى .

* صنفت الكتب والمقالات الالمانية حسب ترتيب الحروف الابجدية الانكليزية وأثبتت اسماؤهـا بنصها الالماني وترجمة مختصرة توضح موضوع الكتاب .

المراجع العربية

ابراهيم ، فرح ، **مجموعة قصائد فلسطين المجاهدة** ، يافا ١٣٥٥ .

ابراهيم ، نبيلة ، هيلما جرانكفيست والفولكلور الفلسطيني ، **مجلة الفنون الشعبية** القاهرية ، العدد التاسع ، يونيو ١٩٦٩ .

ابو عرقوب ، احمد حسن ، **الاغنية الشعبية في جنوب فلسطين** ، مخطوط اشقر ، القس سعيد عبود ، **كتاب الطرفة الباهجة في الامثال والحكم العربية الدارجة** ، القدس ١٩٣٣ ، مطبعة دار الايتام السورية .

البرغوثي عبد اللطيف : أطروحة دكتوراه من جامعة لندن عن الاغنية الشعبية الفلسطينية . لم تنشر .

البرغوثي ، عمر الصالح ، أنظر فيما بعد هذا الاسم في « المطبوعات الانجليزية والالمانية » . [وقد لاحظت ان توفيق كنعان (انظر فيما بعد) قد نقل الكثير عن عمر الصالح البرغوثي واشار الى كتبه ومخطوطاته . وانني آمل في المستقبل ان اتمكن من الحصول على مخطوطات هذا الرجل التي تبدو من خلال اشارات توفيق كنعان تتناول جوانب عدة من الحياة الشعبية] .

التميمي ، رفيق وبهجت ، محمد ، **ولاية بيروت (القسم الجنوبي)** ، بيروت ١٣٣٥ هـ (١٩١٥ م) .

حجاب ، نمر حسن ، ـــ الزخرفة الشعبية ، **دراسات فولكلورية** (رقم ١) آذار ١٩٧٢ عمان ، دائرة الثقافة والفنون (مخطوط) .

ـــ **الاغنية الشعبية في شمال فلسطين** . مخطوط .

حمام ، عبد الحميد ، في الموسيقى الشعبية ، **دراسات فولكلورية** (رقم ١) آذار ١٩٧٣ ، عمان ، دائرة الثقافة والفنون . (مخطوط) .

الساريسي ، عمر ، **الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني** ، اطروحة نال عليها درجة الماجستير من جامعة القاهرة عام ١٩٧٢ . (مخطوط) .

سرحان ، نمر ، حكايات الخوارق ، **دراسات فولكلورية** (رقم ١) آذار ١٩٧٣ ، عمان ، دائرة الثقافة والفنون (مخطوط) .

ـــ الختان في قرية فلسطينية مسلمة (مترجم) مجلة **التراث الشعبي** البغدادية ، العددان الثاني والثالث ، السنة الثانية تشرين الاول وتشرين الثاني ١٩٧٠ .

ـــ ملامح الحياة الشعبية الفلسطينية ، مجلة **التراث الشعبي** البغدادية ، حزيران ١٩٧١ .

ـــ توفيق كنعان والفولكلور الفلسطيني : مجلة **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ .

ـــ هيلما جرانكفيست والفولكلور الفلسطيني : مجلة **شؤون فلسطينية** ، العدد ٩ .

ـــ الزي الشعبي للمراة العربية في فلسطين (مترجم) مجلة **التراث الشعبي** البغدادية ، في العددين السابع والثامن ، السنة الثانية ، آذار ونيسان ١٩٧٢ .

ـــ الازياء الشعبية الفلسطينية ، مجلة **الفنون الشعبية** القاهرية ، العدد ١٢ .

ـــ ملامح اغانينا الشعبية ، مجلة **افكار** ، العدد الثامن . عمان ، كانون الثاني ١٩٦٧ .

ـــ افراحنا الشعبية **تقاليدها ودلالاتها** ، مجلة

افكار في العددين العاشر والحادي عشر ، عمان ، آذار ١٩٦٧ .

— المسرح المكشوف في الريف الاردني : مجلة **افكار** العدد الخامس ، عمان ، تشرين اول عام ١٩٦٦ .

— **اغانينا الشعبية في الضفة الغربية من الاردن**، عمان ، دائرة الثقافة والفنون ، ١٩٦٨، ٣١٢ ص.

— الفولكلور في الضفة الغربيــة ضمن كتاب **ثقافتنا في خمسين عاما** ، عمان ، دائرة الثقافة والفنون ١٩٧٢ .

— خمسون سنة من المقاومة في الفولكلـور الفلسطيني ، مجلة **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٨.

— الاغنية الشعبية الفلسطينية ، مجلة **شؤون فلسطينية** ، عدد ٢١ .

السواحري ، خليل : البطل في الحكاية الشعبية مجلة **افكار** ، العدد التاسـع ، عمان ، شباط ١٩٦٧ .

العارف ، عارف ، **القضاء بين البدو** ، القدس ١٩٣٤ .

— **الموجز في تاريخ عسقلان** ، القدس ١٩٤٣ .

— **تاريخ بئر السبع وقبائلهـا** ، بيت المقدس ١٩٣٤ .

— **تاريخ غزة** ، القدس ١٩٤٣ .

عمر ، عبد الرحيم ، الفن الشعبي في الضفة الغربية ، **دراسات فولكلورية** ، (رقم ١) عمان، دائرة الثقافة والفنون ، آذار ١٩٧٣ . (مخطوط).

عوده ، علي : النشاط الفولكلوري في الاردن ، **دراسات فولكلورية** (رقم ١) آذار ١٩٧٣ ، عمان، دائرة الثقافة والفنون . (مخطوط) .

عوار ، وداد ، اوجه الشبـه بين الملابس القروية الفلسطينية ، **دراسات فولكلورية** (رقم ١) آذار ١٩٧٣ ، عمان ، دائرة الثقافة والفنون . (مخطوط) .

عيسى ، عبد الكاظم ، عن الشعر الشعبي الفلسطيني ، العدد الاول ، مجلة **التراث الشعبي** البغدادي ، السنة الثانية ، ايلول ١٩٧٠ .

العمو ، عيسى ، اطروحة عن الفولكلور الديني في قضاء بيت لحم .

الغول ، فايز علي ، القصة في التراث الشعبي الاردني ، مجلة **افكار** ، العدد السابع ، عمان ، كانون الاول عام ١٩٦٦ .

— **الدنيا حكايات** .

— **من سواليف السلف** .

— **اساطير من بلادي** . .

[ثلاث مجموعات من الحكايات الشعبية محولة من العامية الى الفصحى] .

فاسيلوا ، أوه [مؤلفة روسية] ، امثال من الناصرة ، موسكو ١٩٦٣ ، من « **مجموعة مقالات لغوية سامية** » (المعلومات عن المقال مترجمة عن الروسية) .

مصطفى ، حسن ، **خطرات ريفية** ، المطبعة العصرية ، القدس .

منصور ، القس اسعد، **تاريخ الناصرة** ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٢٤ .

النمر ، احسان ، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء** ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٣٧ الجزء الثاني ، نابلس ١٩٦١ [وعد المؤلف باصدار جزء ثالث . هذا ويشمل الجزء الاول من كتاب النمر ما يمكن ان يسمى بالتاريخ الشعبي للعائـلات والحمـائل وامجادها و« حراباتها » فيما بينها وصراعها مع ولاة الدولة العثمانية ورجالاتها . وفي الجزء الثاني يستمر النمر في تاريخه الشعبي ولكنه هنا يتحدث عن الحياة الشعبية في المدينة (بما يمكن ان يسمى فولكسكندة المدينة) .]

يحيى ، حسب الله ، عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني في العددين الخامس والسادس من مجلة **التراث الشعبي** السنة الثانية ، كانون الثاني وشباط ١٩٧١ .

اليعقوبي ، محمود عبدالله ، باقة مختارة من الامثال الشعبية الفلسطينية ، مجلة **التراث الشعبي** البغدادية في العددين الخامس والسادس السنة الثانية ، كانون الثاني وشباط ١٩٧١ .

المراجع الانجليزية والالمانية

Abela, Eiub; Beitraege Zum kenntniss aberglaubischer Gebrauche im syrien. ZDPV, 1884.

[عن العادات الخرافية في سوريا]

Ap-Thomas, D.R., Elejah on Mount Carmel, P.E.O., 60-146.

Arden - Close, Col. Sir Charles F., Haifa Harbour. P.E.Q : 34:99.

Agriculture and Forestry in Palestine. P.E.Q: 34; 149.

The Survey of Palestine. P.E.Q. 35.38

The Rainfall of Palestine. P.E.Q. 41: 122

Ashkenazi, Tovia; Les Semi-Nomades du Nahr el-Auga. Tel Aviv 1930.

[بدو العوجا]

Baldensperger, Miss L., and Mrs. Crowfoot: Hyssop, 31:89. P.E.Q.

Birth, Marriage and Death among the Fellaheen of Palestine. P.E.Q, London 1894. P. 127.

Baldensperger, Philip J.; The immovable East. P.E.Q. 12:8, 57; 31:124; 15:10; 66, 165; 16:19, 71, 165; 17:12, 159; 18:20, 119; 19:118, 159; 20:161; 22:23, 63, 161;23:173; 25:80; 26:93; 29: 183.

The Identification of Ain Himmon with Ain Urtas (Artas), 12:209; P.E.Q.

Banse, E., Das Beduinenbuch Von karawan - enfuehrern, Derwischen, Schechen und Blutraechern, Berlin, 1938, XI, 356 S.

[كتاب البدو ، عن سائقي القوافل ، والدروايش والشيوخ والاخذ بالثأر] .

Barbour, Violet, Muslim Embroideries. From: (Traditional Embroideries from the Holy Land and Norway Oxford 1954).

Barguthi. Omar; Judical Courts among the Bedouin of Palestine. (Jerusalem 1922) JPOS.

BASOR, Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

Bauer, L. Bemerkungen Zur Dr. T. Canaan, Der Kalender des Palästinensischen Fellachen, ZDPV, 36.

Kleidung und Shmuck der Araber Palastinas. ZDPV, 24, Leipzig, 1901.

[الملابس والحلي العربية الفلسطينية] .

Vdksleben im lande der Bibel. Leipzig (1903)

[الحياة الشعبية في الاراضي المقدسة] .

Das Palastininsche Arabisch, Dialekte des stadtes und des Fellachen, 1898

[اللهجة المحلية في المدن والقرى] .

Baumann, and Dschirus, Jusif, Volkswisheit aus Palastina ZDPV, 1916,

[حكم من فلسطين · مرفق بنص عربي] .

Bergstrasser, Sprachatlas, 1915

[جمع مادة من الجبار ، حيفا ، الناصرة ، صفد ، عين الزيتون ، طبربا حطين] .

Board, Barbara, Newsgirl in Palestine, London. 1937.

Brightwen, Sidelights on the Bible.

Scripture and Eastern Life, Illustrated From « My Collection of Oriental Curiosities ».

Buecher, Karl, Arbeit und Rhythmus.

[العمل والايقاع] .

Burck hardt, J.L., Travels in Syria and the Holy Land. London 1822.

Burton, Toabel, The Inner Life of Syria, Palestine and the Holy Land, London, Paul, 1884, 520.

Canaan, T., The Decipherment of Arabic Talismans, Jerusalem Syrian Orphanage Press, 1939, P. 53.

Names of Animals MGJV 1. A 90.

Mohammedan Saints and Sancturaries in Palestine, London, 1927, PP. 234 ff, and in Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. IV, PP. 184; Vol. V. PP. 162-203; Vol. VI, PP. 1-69, 117-158; Vol. VII, PP. 1-88.

« Modern Palestinian Beliefs and Practices Relating to God, » Journal of the Palestine Oriental Society; Vol. 15. PP. (59-92).

«Light and Darkness in Palestine Folklore, Journal of the Palestine

[تقويم الفلاح الفلسطيني]

Waters and the Waters of Life in Palestinian Superstition, Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. IX, PP. 57-69.

«Additional Matter for Dalman's 'Arbirt und Sitte'», Vol. V, Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XIX, PP. 213-244.

«The Child in Palestinian Arab Superstition,» Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. VII, PP. 159-186. 1927.

«Unwritten Laws Affecting Arab Women in Palestine, Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XI, PP. 172-203.

Christie, W. Der Dialect der Landbevolkerung des mittleren Galilâa, Leipzig, ZDPV, XXIV.

[جمع مادته من قرى الجش ، البرية ، كفر ياسيف ، شفا عمرو ، عربية ، طرعان، صفورية، ويافة الناصرة] .

Clifford, J.R. S., Homes and Home Life in Bible Lands, London 1877, 202.

Cookburn, Jacqeline, The Gates of Jerusalem, London, 1937, 300.

Conder, Lieutenant R.E. : Heth and Moab.

Tent Work in Palestine.

Crowfoot, Mrs, Grace M., Handicraft in Palestine : Jerusalem Hammock, Cradles and Hebron Rugs 44: 121. P.E.Q.

Handicraft in Palestine: Primitive Weaving, 43:75 P.E.Q.

Some censer types from Palestine 40:150 P.E.Q.

The Tent Beautiful, 45:34. P.E.Q.

Folk Tales of Artas. 51:156; 52:15 P.E.Q.

Crowfoot - Baldensperger, From Cedar to Hyssop.

Crowfoot. G. and Sutton, P. Ramallah Embroidery London, March, 1935.

Bethlehem Embroidary from : Embroidery London, December 1936.

Oriental Society, Vol. XI, PP. 15-36.

Die Wintersaat, ZDMG, Vol. 71, Leipzig, 1916.

[البذور الشتوية في فلسطين] .

Die Witwen in Heiligen Lande Der Armen und krankenfreund.

[الارامل الفقراء في الاراضي المقدسة] .

Aberglaube und Volksmidizin in lande der Bibel.

«The Saqr Bedouin of Beisan,» Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XVI, PP. 235-279.

«Arabic Magic Bowls, » Jerusalem 1935, Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XVI, PP. 79-127. (1963).

«Tasit er-Radgfeh (Fear Cup)», A Contribution to Arab Superstition, Journal of the Palestine Oriental Society, Vol, III, PP. 122-131. 1923.

«Folklore of the Seasons in Palestine.» Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. III, PP. 21-35.

«Haunted Springs and Water Demons in Palestine, Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. I, PP. 153-170.

«The Palestine Arab House, Its Architecture and Folklore,» Journal of the Palestine Oriental Society, Vol, XII, PP. 223-247: Vol, XIII, PP. 1-83.

Vom Arabisch - Palastinischen Familienleben, Studia Orientalia No: XXV; 2

[مـــن الحياة الشعبية للعائلة العربيـــة الفلسطينية] .

Plant-lore in Palestinian Superstition, JPOS, Vol, 8.

«The Curse in Palestinian Folklore,» Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XV, PP. 235-279.

Die Neugebornen in der Palastininschen Volksitte, Neueste Nachrichten aus dem Morgenlande

[عن المواليد الجدد]

The Child in Palestinian Superstition JPOS, VII, 164.

Dâmonenglaube im Lande der Bibel. Leipzig. 1929.

[معتقدات الاشباح في أرض التوراة]

Der Kalender des Palastinensischen Fellachen ZDPV, XXXVI, 1913

[المعتقدات المتعلقة بالاشباح] .

Mosaik aus dem heiligen Lande. Schilderung einiger Gelrauche und Anschaungen der arabischen Bevolkerung Palastinas. Jerusalem 1898

[موزاييك من الارض المقدسة ، وصف لبعض التقاليد والمفاهيم للشعب العربي في فلسطين] .

Entwistle, Mary, Little Children of Missions Lands, New York, 1925, 199.

Mary, Habeeb, A Boy of Palestine, London, 1924.

Fensham, F. Charles, An Ancient Tradition of the Fertility of Palestine P.E.Q., July - December 1966.

Finn, Mrs., A Third Year in Jerusalem, A Tale Illustrating.

Customs and Incidents of Modern Jerusalem, London, 1877, 340.

Stirring Times or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853-1856. London : 1878.

Palestine Peasantry: Notes on Their Clans, Warfare, Religion and Laws, London, 1923, 95.

Fitch, Florence Mary, The Daughter of Abd Salam: The Story of a Peasant Woman of Palestine, Boston, 1930, 75.

Foley, Rolla, Songs of the Arabs, New York, 1953.

Forder, A., Daily, Daily life in Palestine, London, 1912, 148.

Frazer, Folklore in the Old Testament.

Gidoon, Weigert, Days in old city. Tel-Aviv, Feuchtwanger.

Goodrich-Freer, A (Mrs. H. H. Spoer), Things Seen in Palestine London, 1913, XII, PP. 13-254.

Arabs in Tent and Town, An Intimate Account of the Family Life of the Arabs of Syria, Their Manner of living in Desert and Town, Their Hospitality Customs, and Mental Attitude, with Descriptions of the Birds, Flowers and Animals of their Country, London, 1924, 325.

Syrian Saddle.

Curtis, W. E., Today in Syria and Palestine, London, 1903, 529.

Dalman, Gustav H., Arabische Vogelnamen von Palastina and syrien ZDPV 36 Leipzig 1913.

Einst und Jetzt in Palastina.

[الماضي والحاضر في فلسطين] .

Der Palastinische Islam. PJB XIII

Palastinischen Diwan, Leipzig 1901.

[ديوان الشعر الشعبي الفلسطيني] .

Arbeit und sitte in Palâstina, 7 Vols. (Gutersloh, 1928 - 1935). Reprint Hildesheim 1964)

[العمل والعادات في فلسطين] .

Daniel - Rops. Henry, Daily life in Palestine at the time of christ, London. Weidenfeld and Nicolson, 1962.

Davis, G. Henton, An approach to the Problem of Old Testament Mythology. 56: 83. P.E.Q.

Dowling, Archd-eacon, The Georgian Church in Jerusalem, 11:181. P.E.Q.

Notes on Gaza Coins : 12:98. P.E.Q.

The Town of Haifa 14: 184 P.E.Q.

Driver, Sir Godefry, Water in the Mountains. P.E.Q., July-December 1970.

Grammar of the Colloquial Arabic of Syria and Palestine. 1925.

Einszler, Lydia, Das Toepferhandwerk bei Bauernfrauen Von Ramallah Und Umgebung. ZDPV, No 37, 1914

[الصناعة اليدوية للاواني الفخارية لدى نساء رام الله وجوارها] .

Arabishe Sprichworter. ZDPV, XIX. Leipzig. 1896.

[أمثال عربية] .

Mar Eljas, el-Chader und Mar Dschirjis ZDPV XVII Leipzig, 1894.

Das bose Auge. ZDPV, 12, Leipzig, 1889 ZDPV XII Leipzig, 1889

[العين الحاسدة] .

Der Name Gottes und die bosen Geisternin Aberglauben der Araber Palastina's ZDPV X. Leipzig, 1887

Tales told in Palestine edited by : H.G. Mitchell (Cincinnati: Jennings and Graham; New York : Eaton and Mains).

Hardy, Edward John, Unvarying East, Modern Scenes and Ancient Scriptures, New York, 1912, 287.

Hillelson, S., Notes on the Bedouin Tribes of Beersheba District, 37: 242; 38:55, 117. P.E.Q.

Hunt, W. Hohman (Mrs.): Children at Jerusalem, A Sketsh of Modern Life in Syria, London 1881, 190.

Hyamson, A.M., A note on food production in Palestine, 44:169. P.E.Q.

Isserlin, B.S.J., Israelite and pre Israelite Place Names in Palestine. P.E.Q., 44: 169.

Jacob, Altarabisches Beduinenleben.

Jeager, Karl, Das Bauernhaus in Palastina mit Rucksicht auf das biblische wohnhaus. Goettingen 1912.

(المنزل القروي في فلسطين).

JAOS. Journal of American Oriental Society. 329 Sterling Memorial Library. Yale Station. New Haven, Connecticut. U.S.A.

Jarvis, Major C.S., The Desert Yesterday and To-day 37:116. P.E.Q.

Jaussen, Coutumes des Arabes au pays de Moab, Paris 1908.

Naplouse et son district. Paris (1927).

Jewetl, Arabic Proverbs. JAOS XV, No. 171.

Jouin, Jeane, Le Costume Feminin dans L'Islam Syro-Palestinien. Revue des Etudes Islamiques, Vol. VIII. Paris 1934.

Journal of Missionary Labours in the City of Jerusalem , London 1864.

Journal of Palestine Oriental Society JPOS 1920-38. اسسها American Assyriologist Albert T. Clay.

Graf, Beitrage zur kennetnis des karmeis. ZDPV. XXX.

[عن منطقة الكرمل بفلسطين] .

Grangvist, Dr. Hilma Natalia, Marriage Conditions in a Palestinian Village 1-11.

1966 (1919) Skolan och religionen (School and Religion).

1935 (1921) (Det religiosa problemet i nutiden (The religious problem of today).

1939 Arabiskt familjeliv (Family life among the Arabs) Third prize, divided in Scandinavian Competition.

1947 Birth and childhood among the Arabs.

1950 Child Problems among the Arabs.

(1965) Muslim Death and Burial, Arab customs and traditions.

Aus dem Erzahlungsschalz Palastinincher Bauern frauen.

Bruderschaft und frauenehre,

[حكايات الفلاحة] .

Palastinajarbuch des Deutschen evangelische Institute fur Altertumswissenchaft des Hei-ligen Landes Zu Jerusalem (Berlin 1927).

Grant, Elihie, The People of Palestine and enc. ed. of «The Peasantry of Palestine Life, Manners and Customs of the Village, » Philadelphia, London, 1921.

Gray, A. F, The Land and the Life Sketches and Studies in Palestine, New York, 1877, 192.

Haddad, Blood Revenge Among the Arabs.

Folklore of el-Qubebe near Jerusalem. Z. S., VI, Leipzig, 1927.

Haefili, Leo, Sprichweisheit und Volksleben in Palastina. Luzern. 1939.

[الامثال والحياة الشعبية في فلسطين] .

Harris. L. George, Jordan, its people, its society, New York. George Press, 1958.

E.J. Hanauer, Folklore of the Holy Land (London 1907).

Beduinenerzahlungen. (حكايات البدو).

Month of Thursdays (شهر الخميس).

Enno, Neuarabische Volkapoesie, gesammelt und uebersetzt Von E. Littman. Kœnigliche Gesellschaft der Wissenschaften zu Gaettingen, Abhandlungen der philologisch-historischen Klasse, I.S. Bd. 5. No. 3. Berlin 1902, 1588. (أغان عربية حديثة).

Folktale «Jager und Prinzessin» (حكاية : الصياد والاميرة).

Lohr, Max, Der Vulgarhische Dialect Von Jerusalem. Gieszen, 1905.

Volksleben im lande der Bible. Leipzig 1907. (الحياة الشعبية في ارض التوراة).

Lutfiyya A.M., A Jordanian Village, the Hauge; 1966.

Merrill Selah, East of the Jordan, New York Charles Scribners and Sons, 1881.

Meyonhas, I., Bible Tales in Arab Folklore, translated from the Hebrew by V. N. Levi, London 1930, 240.

Macalister, Occasional Papers on the modern inhabitants of Palestine. P.E.Q. XXXVI 1904, P. 150-160.

A Day in a Fellah Village. P.E.Q. : 15. 29.

Mohammanden & Jewish Names from Various Places, P.E.Q. : 1905. XXXVII. P. 48-61.

MacDonald, Jan, Palestinian Dress. P.E.Q. London 1950 - 51.

Marcoff, Michael and D. J. Chitty, Notes on Manastic Research in the Judean Wilderness 1928 - 1929, 29: 167, P.E.Q.

Masterman, Dr. E. W. G., Safed, 14: 169. P.E.Q.

Matthews, Mishkat.

Mankin, J. H., Survey of the Old City of Jerusalem. 1865 and 1935. P.E.Q., January - June - 1969.

Montgomery, James. Some Early Amulets from Palestine, JAOS, 31.

Kahle, P., zur Herkunft der Ataba Lieder ZDPV, XXXLV Leibzig, 1911. (اصل اغاني العتابا).

Kitchener, Lord, Our ride from Gaza to Jerusalem with a description of the Greek Holy Fire, 17: 66. P.E.Q.

Bethlehem, 37:97. P.E.Q.

Kirk, G.E., The Negev, or southern Desert of Palestine 41:57. P.E.Q.

Klein, F.A., Mittheilungen uber leben, Sitten und Gebrauche der Fellachen in Palestina. ZDPV IV, Leibzig. 1881. (حياة وعادات الفلاحين الفلسطينيين).

Klein, Mittheilungen über leben, sitten und Gebraucher der Fellaçhen in Palestina ZDPV, VI.

Knight, Rev. O.H., Notes on Caesarea and Neighbourhood, 20:79. P.E.Q.

Larsson, T., A Visit to the Mat-Makers of Huleh. P.E.Q. 63:231.

Lees, G. Robinson: Village Life in Palestine, London 1905.

Lees, The Witness of the Wilderness. London 1909.

Lee, G. R., Village Life in Palestine: A Description of the Religion, Home life, Manners, Customs, Characteristics, and Superstitions of the Peasants of the Holy Land, with Reference to the Bible, London 1897, London 1905, X, 236.

Linder, Sven, Palestinen sische Volksgesaenge. Upsulla 1952. (أغان شعبية فلسطينية).

Linder, Arabische Lieder aus Ramallah. (اغان عربية من رام‌الله).

S. Linder, Ein Sommerziet im lande Ephraim PJB XII. (في وقت الصيف ، في ارض افرايم).

Littman, Enno, Modern Arabic Tales (leyden 1905)

ثم ترجمت النصوص الى الالمانية تحت اسم :
Arabische Marchen. Leipzig (1957)

Rothstein, Gustav: Moslimische Hochzeitsgebrauche in Lifta bei Jerusalem in PJB.

(عادات الزواج عند مسلمي لفتا بالقرب من القدس)

Saarisalo, Aapeli, The Turkish Waqf. Studia Orientalia XIX : 10. Helsinki, 1953.

Songs of Druzes, Translations & Comments. Helsinki, 1932.

Arabic Tradition and Topographical Research. Studia Orientalia, (XVII) 3.

Sachsse, Curt, Palaestinensizche Musikinstrumente, Materialien zur Palaestinensischen Musikkunde und Musikgeschichte. Zeitschrift des Deutschen Palaestina - Vereins, Ed. 50 (1927) S. 19-66, 117-172.

(الآلات الموسيقية الفلسطينية مواد لدراسة علم وتاريخ الموسيقى الفلسطينية).

Scherer. G.H., The Eastern Colour of the Bible, London, 1929.

Schick, C., Namenliste und Erlauterungen zu Baurath Dr. Schickis karte der weiteren umgebung von Jerusalem.

Zur Einwohnerzahl des Bezirks, Jerusalem. ZDPV XIX Leipzig, 1896.

(سكان القدس).

Sessions, Some Syrian Folklore Notes.

Shmidt & Kahle, Volkserzahlungen aus Palastina 2 Vols. (Gottingen, 1918-1930).

Singer, Arabic Proverbs.

Smith, Sidney, The Threshing Floor at the City Gate. P.E.Q.: 46:5.

Smith, Animal Worship and Animal Tribes among the Arabs and in the Old Testament.

Spitaler, Anton, Deutsch Arabisches worterbuch Der umgangssprache. In Palastina und im libanon 2. Auflage.

(قاموس المفردات الدارجة في فلسطين ولبنان).

Spoer, Hans. H, Bloody Sacrifice in Palestine, JAOS 25, 1904.

Das Nebi - Musa - Fest ZDPV, XXXII Leipzig 1909.

(موسم النبي موسى).

Mi Heilungen und Nachrichten des Deutschen Palastina Verenis.

Neil, James, Peeps into Palestine. Everyday life in the Holy Land. London 1900.

Nelson, William S., Habeeb the Beloved, A Tale of Life in Modern Syria, Philadelphia, 1913, XI, 102.

Palastinajarbuch des Deutschen evangelischen Instituts fur Alter tums - wissenshaft des heiligen landes zu Bozlin Jerusalem.

(الكتاب السنوي للمعهد البروتستانتي الالماني لابحاث الاراضي المقدسة).

Palestine Exploration Fund: A society for the accurate and systematic invistigation of the Archaeology, the photography, the manners and customs of the Holy land for Bibilical illustration. Founded on 1865. Patron: Her Majesty the Queen (of England). President : His Grace the Archbishap of Canterbury.

Palmer, P., Das Jetzige Bethlehem. ZDPV. XVII, Leipzig. 1894.

(بيت لحم الحالية).

Palva, Heikki, Lower Galilean Arabic, Studia Orientalic, Vol. XXXII Helsinki 1966.

Parker, H.L., Notes on Fiery Serpents 29:58.

Pilcher, E.J., Weights of Ancient Palestine. P.E.Q. 12:133. 64:178.

A Mother in Israel. P.E.Q. 22:38. P.E.Q.

Pierotti, Customs & Traditions of Palestine, Cambridge 1864.

P.J.B., Palastinajahrbuch.

Post: G.E., Flora of Syria, Palestine and Sinai. Beirut, 1932-1933.

Rice, E.W., Orientalismus in Bible Lands, Giving Light from Customs, Habits, Manners, Imagery, Thought, and Life in the East for Bible Students, Philadelphia, 1910, 300.

Rost, On the Vegetation of Palestine. PJB, 1931.

Eastern Customs in Bible lands, London 1894.

The Faung and Flora of Palestine: London 1884.

The Land of Israel London, 1865.

Tsing, Walter K., Among the Arabs in Bible Lands. Mountain View, California, 1924, 313.

Turkowski, Tucian, Peasant Agriculture in the Judean Hills. P.E.Q. 1969.

Ulmer, Friedrich, Sudpalastinensische Kopfbed-eckungen.
(زي الرأس لجنوب فلسطين).

ZDPV XLI, Leipzig. 1918.

Arabische stickmuster, ZDPV XLIV. Leipzig 1921.
(نماذج التطريز العربي).

Vester, Bertha, Our Jerusalem, Beirut, 1950.

Vollers, Karl, Was ein Fischer in Haifa Fangt. ZDPV No: XIII, Leipzig, 1890.

Watson, Col. Sirc. M, Measures of Distance in Palestine, P.E.Q.: 15. 179.

Weir, Shelagh, Palestinian Embroidery British Museum, 1970.

The Traditional Costumes of the Arab Women in Palestine Costume, 3, London : 1969.

Wilson, C.T., Peasant life in the Holy Land. London 1906.

Winsinok, Early Mahammadan Traelition.

Winkler, H.A., Salomo und die Karinq.

Wooley, Sir C. leonard, The Desert of the Wanderings, P.E.Q.: 14: 58.

Zwemer, Samuel, Die Moslem-ische frauenwelt, Guetersloh, 1933.
(عالم المرأة المسلمة).

Spoer & Haddad, Volkskundliches aus El-Qubebe, ZS, 5. 1927, ZS, 7 1929, ZS, 9 1933.

Poems by Nimr Ibn Adwan ZDMG, 66. 1912.

Five Poems by Nimr Ibn Adwan JAOS, 43, 65, 66.

Manual of Palestinian Arabic Jerusalem 1909.

Floklore & Songs from El-Qubeibe, JAOS, 50.

Stéphan, Palestinian Nursery Rhymes and Songs. JPOS XII.

Palestinian Animal Stories and Fables JPOS III.

Animals in Palestinian Superstition JPOS IX.

The Number forty in Palestine, JPOS VIII.

Animals in Palestinian Folklore JPOS. VOL. V & VII.

Studies in Palestinian customs and Folklore JPOS, VOL VIII, No 4.

Modern Palestinian Parallels to the song of songs JPOS. VOL. II.

The division of the year in Palestine JPOS, VOL III.

Miscellena stephanian, Jerusalem 1921-1939.

Stephen, Major F.W. Notes on Jerusalem Water Supply. P.E.Q.: 19:15.

Thilo, Martin, Funftausend Sprichworter aus Palastina, (Berlin, 1937).
(خمسة آلاف مثل من فلسطين).

Thurnwald, Die Menschliche Gesellschaft. (عن الحياة الاجتماعية).

Thomson, William Mclure, The land and the book or Biblical illustrations Drawn from the manners and customs, the Scenes and Scenery of the Holy Land. 3 Vols. New York, 1908.

Tristram, H.B., The Land of Israel. London 1865.

الفلسطينيون كما يبدون في الذهنية الاسرائيلية

عبد الحفيظ محارب

يتابع الاخ عبد الحفيظ محارب في هذا العدد معالجة موضوع « الفلسطينيون كما يبدون في الذهنية الاسرائيلية » الذي بدأه منذ العدد ٣٤ .

(٦)

لا زال الكتاب والمعلقون وكذلك الرسميون في اسرائيل يعالجون بشيء من المعاناة والتناقض ، قضية الشعب الفلسطيني ، لب الصراع في المنطقة . وقبل الخوض في وجهات النظر الاسرائيلية المختلفة تجاه الموضوع، استكمالا للحلقات السابقة، تجدر الاشارة الى بعض الملاحظات :

١ ــ ان الموقف الاسرائيلي الرسمي بعد فرض القضية ذاتها بقوة على أطراف النزاع في المنطقة وخاصة الطرف الاسرائيلي عقب حرب اكتوبر ووسط أجواء التسوية ، لا زال حتى الان يتسم تجاه القضية الفلسطينية بالغموض وعدم الاعتراف بالشعب الفلسطيني ، مع الاعتراف بالشخصية الفلسطينية ، عدم الاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ، مع اعتراف من قبل بعض المسؤولين بـ « المصالح الحيوية » للفلسطينيين . وهو الان يقف على مفترق طرق ، فاما ان يبقى كما هو دون اتخاذ أية مبادرة جديدة تنم عن وضوح أكثر ، او ان يقوم بهذه المبادرة للانتقال من موقع الدفاع الى موقع الهجوم . واذا ما حدثت نقلة في الموقف الاسرائيلي خلال المدة القريبة القادمة ، وهذا امر محتمل وخطير في نفس الوقت فلا بد الا ان تصب في احد الاتجاهين السائدين في اسرائيل ، الاول اعتبار الحل يكمن في التفاوض مع الاردن اخذا في الحسبان ان معظم السكان الفلسطينيين هم « مواطنون » اردنيون ، وهذا يعني الاستمرار في الخط الرسمي السابق ولكن بشكل أكثر وضوحا وحسما ، الثاني اعتبار ان الحل يكمن في الشعب الفلسطيني والتفاوض معه باعتباره صاحب القضية وكلا الامرين يشكلان معضلة لاسرائيل لا تقل عنها معضلة عدم اتخاذ موقف واضح وحاسم .

٢ ــ ان اي تبدل في الموقف الاسرائيلي ، سواء اتجه نحو النظام الاردني او الشعب الفلسطيني ، لن يتأتى عنه تبدل جوهري في الخط الاستراتيجي العام ، فاذا سارت اسرائيل بالفعل نحو النظام الاردني فانها ستحاول الحصول على حل تقتطع بموجبه اراض فلسطينية جديدة بشكل رسمي ، اما اذا اتجهت نحو الشعب الفلسطيني ، فانها ستحاول تفريغ الدولة الفلسطينية المقترحة من مقوماتها الاساسية .

٣ ــ ان كتابات وتحليلات الكتاب والمعلقين الاسرائيليين تجاه هذا الموضوع أقرب بكثير الى واقع وتفكير الجمهور الاسرائيلي من وجهة النظر الرسمية . وهذه الكتابات تصب في ثلاث وجهات نظر اساسية (١) التفاوض مع الاردن (٢) ضرورة الاعتراف بالشعب الفلسطيني . وهنا نجد من يطالب بالتفاوض مع الزعامات الفلسطينية التقليدية في الضفة والقطاع ونجد أيضا من يطالب بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية والتفاوض معها لايجاد حل للقضية الفلسطينية بواسطة اقامة دولة في الضفة والقطاع على ان ترتبط باسرائيل بعلاقات

ســـــلام . (٣) الاعتراف بالشعب الفلســـطيني الـذي يقطـن « ارض اســرائيل الكـبرى » (فلســـطين وشرق الاردن) والتفــاوض معــه على اقامة دولة فلسطينية في معظم الضفة الغربية وقطاع غزة وشرق الاردن ، ترتبــط باسرائيــل بعلاقات سلام ووئام .

٤ ــ لقد واجه أصحاب وجهتي النظر الثانيــة والثالثة في الاونة الاخيرة بعض الحرج في الترويج لوجهة نظرهم بسبب تزايد نشــاط المقـــاومة الفلسطينية ومع ذلك فقد ظهر من بينهم من يقول بأن تجاهل الشعب الفلسطيني يؤدي الى تزايــد الاعمال الفدائية .

*

قبل أن نخوض في استعراض اراء مجموعــة مختلفة من الكتـــاب والمعلقــين الاسرائيليــين ، والوقوف على كنه تفكيرهم ، لكي يتأتى لنـــا استشفاف الاتجاه الذي يمكن أن يسير فيه الموقف الاسرائيلي في المستقبل القريب تجدر الاشارة هنا الى أن الحلول التي يحاول طرحهــا الكتــاب الاسرائيليون تتفاوت وتتناقض حتى ضمن التنظيم الواحد الملتزم بحل معين، وكأن القضية الفلسطينية أصبحت بمثابة معضلة مفروضة يحاول كل واحد اشغال تفكيره لايجاد حل لتلك المعضلة حتى ولو ناقضت الحل الذي يطرحه الحزب المنتمي اليه . والحقيقة ان الصراع العربي الاسرائيلي لم يشهد فترة كالفترة الراهنة من حيث شدة الاهتمام المشفوع بالمعاناة للتفتيش عن حل ، ولعل ذلك يفسر لنـــا مدى التناقض والتخبط بالنسبة لهــذا الموضوع بـين صفوف الحزب الواحد أكثر ممـــا تفسره ليبرالية الحزب . وعلى سبيل المثال ، موقف حزب مبام (يسار صهيوني) ومواقف بعــض كتابــه البارزين المغايرة ، فعلى الرغم من ان الحزب اتخذ قرارا في مؤتمره الاخير ينص : « بــين البحــر والصحراء هنالك مكان لدولتين اسرائيل ودولــة عربية واحدة . واذا ما دعيت هذه الدولة الاردن او فلسطين واذا ما حكمت على يد ملك او غدت جمهورية فان ذلك ليس من شأن اسرائيل . وفي هذه الدولة العربية ستوجد الحلول للتطلعــات الوطنية للشعب الفلسطيني ، وفيها يجدون حــلا لقضية اللاجئين » على الرغم من ذلك نجد أن هنالك من يروج لفكرة اقامة دولة فلسطينية في الضفــة الغربية وقطاع غزة ويدعو اسرائيل الى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية (للاستزادة انظــر الحلقة الخامسة من الدراسة) اما زميله فــي الحزب زئيف فاركر ، فيختلف اختلافا كليا مـــع نفتالي بن موشيه ، ويعتبر الدولة الفلسطينية اذا ما أقيمت في الضفة الغربية بأنها بمثابة « خنجر مصوب نحو اسرائيل» ففي مقالة له تحت عنوان «لا لدولة فلسطينية اخرى » (عل همشمار ٧٤/٥/٢٤) يرى فاركر « ان نفتالي بن موشيه يحلم احــلام اليقظة اذا ما اعتقد بأننا نستطيع التوصل الــى اتفاق مع دولة فلسطينية حول التجريد وبقيـــة المطالب التي طرحها . ان المفاوضـــات مـــع الفلسطينيين ستكون صعبة ومشحونة بالتوتر . سيطلبون تغيير الحدود لصالحهم ، وهنالك شك كبير اذا كنا سنتوصل معهم الى أي اتفاق » ثم يذكر بأن « مندوبي فتح » سبق وأعلنوا أنهـــم يسعون الى دولة مستقلة استقلالا تامـــا ، ومـــا يترتب على ذلك من اقامة جيش ، لكي تتحــول الضفة الغربية الى قاعدة ضد النظام الملكــي الاردني لاسقاطه ، ومن ثم « ومن هذه القاعدة تدار المعركة ايضا ضد اسرائيل بغرض تحقيق هدفهم الاساسي ، وتصفية دولة اسرائيل » الى ان يصل الى القول « أن الدولــة الفلسطينية ستكون بمثابة خنجر موجه نحو اسرائيل » .

نعود الان للوقوف على اراء مجموعة مختلفــة من المهتمين في قضايا الصراع العربي الاسرائيلي تجاه حل القضية ــ المعضلة ، مبتدئين بـــ « دوف رونين» المحاضر في كلية العلوم السياسية فـــي الجامعة العبرية ، يرى المحاضر في مقال له تحت عنوان « ينبغي الاعتراف بالشخصية الفلسطينية » (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٦) أن الفلسطينيين يشكلون القضية الاصعب بين مجموعة قضايـــا الصراع العربي الاسرائيلي لاسباب عــدة ، أهمها حسب اعتقاده ان اسرائيل والدول العربية تواجه في صراعها جملة من القضايا مثل شكل وطبيعــة التسوية ، ولكن ليس جوهر وجود كل منهـــا ، بينما الامر مع الفلسطينيين يختلف ، فهم لا يملكون دولة قائمة « ولذا فان السؤال ليس اذا ما كانت على استعداد للتوصل معنا على اتفاق بل هل يتطلب *الامر الاعتراف بقيامها* » . ومن هنا يرى المحاضر ان الموضوع الفلسطيني سيمر في سيــاق

يتشكل من ثلاث مراحل : الاعتراف او عـــدم الاعتراف في حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، مكان الدولة الفلسطينية حجمها وطابعها ، تحديد طبيعة العلاقة بين اسرائيل والدولة الفلسطينيــة في حال قيامها . وفيما يتعلق بهويـــة الشعـــب الفلسطيني لا يرى دوف رونين ان القضية تتمثل في وجود او عدم وجود هذه الهوية ، ذلك لانهـــا قائمة ولان الفلسطينيين يؤمنون بها ويعتقد « أن لا فائدة من التغاضي عن ظاهرة قائمة في الواقع . ان الهوية الفلسطينية قائمة وينبغي على اسرائيل ان تعترف بوجودها ، ومن المؤكد ان التغاضي عن الواقع لا يؤدي الى حل للقضية » الا انه يشترط مقابل اعتراف اسرائيل بالشخصية الفلسطينية ، باعتراف فلسطيني بالشخصية الاسرائيلية . لينتقل بعد ذلك الى حجم الدولة الفلسطينية وطبيعـــة نظامها ، حيث يتدارس الطرفـــان الفلسطينـــي والاسرائيلي بعد الاعتراف المتبادل قضية الحدود و «التعديلات الطفيفة عليها»، ويرى ان هذه المرحلة شبيهة بالمرحلة القائمة الان بين كل مـــن مصر وسوريا واسرائيل ، مرحلة فصل القوات ، وهي « تستلزم وقف أعمال الارهـــاب للتنظيمـــات المتطرفة » بالاضافة الى وضع حد لحالة العداء والكراهية والغضب والاحساس بالاحباط ، وبذلك توضع الاسس للتوصل الى المرحلة الثانية — اقامة الدولة الفلسطينية . وتلي ذلك المرحلـــة الثالثة : طبيعة العلاقات بين الطرفين وطبيعة نظام الدولة الفلسطينية وكذلك تعيين الحدود .

لقد تغافل المحاضر في مقالته التطرق الى قضية تمثيل الفلسطينيين ، بل اعتمد اسلوب الشمولية والتعميم ، ولم يفصح عـــن الهيئات الفلسطينية المرشحة لتمثيل الفلسطينيين . اما الدكتور متتياهو بيلد الذي يرى هو الاخر ضرورة الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني وكذلك اقامة دولة فلسطينية الى جانب اسرائيل فانه لا يرى في مقالة له تحت عنوان « من يمثل الفلسطينيين » (معاريف ٧٤/٥/٢٤) على خلاف عدد من كبار المعلقين مثل هركابي، ضرورة اعتـــراف اسرائيـــل بمنظمة التحريـــــر الفلسطينية ، بالرغم من انه من اوائل الداعـــين الى اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة . فهو يرى ان الممثلين الحقيقيين للشعـــب الفلسطيني ينبغي ان يظهروا مـــن بـــين صفوف الزعامة التقليديـــة في المناطق المحتلة ، وينحي باللائمة على اسرائيل لانها لم تعمل على تقوية هذه الزعامة وتنميتها لتغدو ممثلة للفلسطينيين . ويعترف بيلد بأن اجراء انتخـــابات لخلق زعامات تمثـــل الفلسطينيين في المناطق المحتلة بمثابة عمل ستحوم حوله الظنون والشكوك ولن يؤدي الى اعتراف اية هيئة به . ولذا يقدم اقتراحا غريبا وهو ان تجري الانتخابات تحت الحكم الاسرائيـــلي ولكن باشراف هيئات محايدة في محـــاولة منه لازالة الشكـــوك والظنون ، الا انه لم يتطرق الى الموقف الاسرائيلي اذا ما جاءت نتيجة الانتخابات الحرة — وهذا على سبيل الافتراض — لصالح موقف منظمة التحرير الفلسطينية ، وكأنه مقتنع سلفا بأن النتيجة ستكون لصالح اسرائيل وليس لمنظمـــة التحرير ولا حتى لصالح النظام الاردني « فالفلسطينيون لن يقبلوا الملك ثانية » . ولذا فانه يدعو المسؤولين الى خلق زعامة في المناطق المحتلة والعمل على ايجاد حل معهم بالتعاون مع مصر « ان حلا يقبله السكان الفلسطينيون في المناطق ، ويلاقي تأييدا من قبل مصر ، من شأنه بالفعل ان يثير حفيظة حسين ، بيد ان اي واحد لن ينفعل من ذلك ليس فقط لانه يشكل عنصرا هامشيا في العالم العربي وفي المنطقة كلها ، بل خاصة ، لان الحل الذي تقبله اسرائيل ومصر والفلسطينيون — المقصود الشعب وليس منظمات الارهاب — سيكون حلا يمكن ان يؤدي الى احلال السلام في منطقتنا ، وهنالك أمل بأنه اذا ما تم تمثيل السكان الفلسطينيين بواسطة مندوبين منتخبين داخل المناطق ، فان ذلك سيكون مقبولا لدى مصر وعناصر اخرى ذات وزن » .

واذا كان بيلد يقلل مـــن وزن منظمة التحرير ويستبعدها عن تمثيل الشعب الفلسطيني ، فان الكاتب دوف يوسفي يرى الواقع بمنظور آخر ، ويصل دعوة تختلف قليلا فبدلا من التوجه من خلال سكان المناطق المحتلة نحو مصر كما يريد بيلد ، يتوجه يوسفي من خلالهم نحو الاردن ، ففي مقالة له « الاردن والفلسطينيون » (معاريف ٧٤/٦/٩) يدعو الى رؤية الواقع كما هو ، اذ انه « مـــن الافضل ان لا ندفن رؤوسنا في الرمال كما تفعل النعامة ، ونرى الواقع كما هو ، ونتنبه الى عدد من الوقائع غير المريحة » . ويحدد الوقائع « غير المريحة » بالتالي : (أ) « تعاظم الاعتراف بحركات

المخربين وخاصة منظمة التحرير كممثلة معتمدة للكيان الفسطيني » . ثم يتطرق الى المكاسب التي حصلت عليها منظمة التحرير في مؤتمر الجزائر والمؤتمر الاسلامي في لاهور وكذلك في الساحة الدولية . (٢) « غير عرفات وحواتمه زعيم « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » الاسلوب المتمثل في « رفض كل اتصال مع العدو الصهيوني » وتبلا «نظرية المراحل» الخاصة بالرئيس السادات (بنصيحة من قبل بورقيبة) ، اي : في المرحلة الاولى ينبغي الحصول من اسرائيل على كل ما يمكن الحصول عليه بالوسائل السياسية ، وفي المرحلة الثانية ينبغي اخذ ما تبقى بالقوة » . (٣) « هنالك ميل عام في العالم ، سواء في الشرق او الغرب ، لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ... » ليخرج بعد ذلك بمطالبة المسؤولين باتخاذ مبادرة من جانبهم « ازاء تصاعد هيبة منظمات التخريب » تعتمد على التفاوض مع الفلسطينيين والاردن ، « ان تصاعد هيبة منظمات التخريب يستلزم من اسرائيل تجسيد مشروع سلام شامل مع الاردن والفسطينيين ، بدل السياسة الراهنة المتمثلة في انسحاب بدون سلام ، ان ظهور اسرائيل كمبادرة لتسوية ينطوي على اهمية كبيرة من الناحية السياسية العالمية » . ومن الواضح ان المشروع الذي يقدمه دوف يوسفي أبقى قضية التمثيل الفلسطيني يتسم بالشمولية والغموض فقد اكتفى بذكر اجراء مفاوضات مع « الفلسطينيين » والاردن دون تحديد الفئة الفلسطينية التي يسعى للتفاوض معها .

اما شموئيل شنايتسر المعلق السياسي في صحيفة معاريف ، فلا يرى امكانية تتعايش فيها اسرائيل مع جار فلسطيني على صورة دولة في الضفة الغربية والقطاع ، لاعتقاده بأن مثل هذه الدولة ستكون ركيزة سوفييتية في المنطقة كما وستكون بمثابة قلعة عسكرية ، ويعبر عن ذلك في مقالة تحت عنوان « الخط الفلسطيني » (معاريف ٧٤/٦/١٤) حين يذكر بأنهم « سيأخذونها لكي يكون بمقدورهم ضرب كل طائرة تقلع وتهبط في مطار اللد، انهم سيأخذونها لانها تجعل جميع مراكز التحشدات السكانية ضمن مدى اصابتهم » . ولذا فانه يخرج من مقاله الطويل والمبني أساسا على ابراز خطورة الفلسطينيين بأن اقامة دولة فلسطينية غرب الاردن لا تنطوي ابدا على حل للقضية الفلسطينية وللتعايش بين اليهود والعرب ، اما الحل حسب رأيه فيكمن شرق النهر ، حول ذلك يقول : « ان الحل ، اذا كان بالفعل قد حان وقته ، يمكن ان يوجد شرقي نهر الاردن ، فهنالك منطقة شاسعة الاطراف تبلغ ١٦ ضعف الضفة الغربية ، وتشمل الى جانب مناطق صحراوية، اراض طيبة من أخصب اراضي المنطقة بأسرها . ان نسبة كثافة السكان هناك تبلغ ٢٠ نسمة لكل كيلومتر مربع ، ومعظم السكان من الفلسطينيين ... حتى المتطرفين من بين المخربين لن يروا فيها بلدا غريبا : ان هدفهم المعلن طرد الملك حسين (الذي لا يعتبر من أصل أردني بل حجازي) ليقيموا هناك سلطة فلسطينية الى جانب « القوى الوطنية المحلية » . » ويرى شنايتسر ان هذا الحل هو ضمن اطار الممكن ، ويعتقد انه ينطوي على امرين مفيدين بالنسبة لاسرائيل ، الاول تفريغ ما سماه بالحوافز العسكرية الكامنة في نفوس الفلسطينيين ، والثاني صعوبة ضرب الاماكن الحساسة في اسرائيل ومع ذلك يعتقد بأن الملك لن يتنازل عن عرشه بسهولة ، كما وان الاميركيين لن يرحبوا بامتداد النفوذ السوفييتي في شرق الاردن ليصل بعد ذلك الى القول « اذا كان اي شخص لا يريد جيرانا سيئين كهؤلاء ، لماذا ينبغي علينا نحن ان نريدهم ؟ »

لا نعرف اذا كانت حرارة « الخطر الفلسطيني » هي التي أنست المعلق السياسي المعروف شموئيل شنايتسر عن الافصاح عن مصير الضفة الغربية وقطاع غزة ، او ان شهوة التوسع هي التي أملت عليه ذلك .

خلافا للمنظور السابق الذي يركز على شرق الاردن كوطن بديل للفلسطينيين بحجة حماية التجمعات السكانية في اسرائيل من خطرهم ، يرى كاتب آخر مردخاي بن طوف ، ان الحل الافضل بالنسبة لاسرائيل يكمن في التوصل الى تسوية مع سكان المناطق المحتلة ، وليس مع السلطة الاردنية او منظمة التحرير . ولكنه يتفق مع الكثير من المعلقين والكتاب على ضرورة قيام اسرائيل بمبادرة جديدة ، ففي مقاله «الفلسطينيون: اربعة خيارات» (هارتس ٧٤/٦/٢٨) يعتقد بوجود اربعة خيارات امام اسرائيل (١) تسوية مع الملك حسين (٢) تسوية مع منظمة التحرير (٣) تسوية مع

سكان المناطق « المحتفظ بها » (٤) عدم القيام بأي عمل . لا يبدي الكاتب تحفظات كبيرة امام الخيارات الثلاثة الاولى ، الا انه يرى في الخيار الرابع أمرا خطرا بالنسبة لاسرائيل . اما الخيار الافضل بالنسبة اليه ، فهو الخيار الثالث ، ذلك ان الخيار الاول من شأنه ، ضمن الاوضاع الراهنة المعقدة جعل الملك حسين ، حسب رأيه ، يحتل موقع المتطرف في المطالبة ، لكي يبدو امام الكثيرين من منتقديه بأنه « يحصل منا اكثر مما يحصل عليه أي عنصر آخر » . اما بالنسبة للخيار الثاني ، فلا يرى امالا كبيرة تشير الى ان المنظمات الفلسطينية ستتخلى عن ميثاقها المعروف ، ويبقى الخيار الافضل بالنسبة له : « ان الخيار الثالث حسب رأيي هو الافضل بالنسبة لنا ، فهو محاولة للتوصل الى تسوية مع الفلسطينيين في المناطق المحتفظ بها، لان الفلسطينيين في هذه المناطق يشكلون التجمع الاكبر والاهم للشعب الفلسطيني . وهذا الخيار ينطوي على ميزتين بالنسبة لنا : فهؤلاء يعرفوننا بشكل واقعي ، ويدركون بأننا لسنا مخلوقات شيطانية ، ويدركون ايضا بأن قرارات الحسم بالنسبة للمناطق المحتفظ بها تمسهم بقدر أكبر مما تمس اي عنصر آخر » لينتقل بعد ذلك لمطالبة الحكومة بما يطالب به معظم الكتاب والمعلقين الاسرائيليين بضرورة اتخاذ مبادرة : « الزمن يضغط ، وينبغي على الحكومة اختيار احدى الخيارات ، والشروع بنشاط مبادر في الاتجاه الذي يتم اقراره ، ولكن ينبغي ان لا ننجر الى الوضع الاسوأ ، وضع « اجلس ولا تعمل » . »

نقلة تكتيكية في الموقف الاسرائيلي : يتضح لنا من استعراضنا لاراء مجموعة من الكتاب والمعلقين الاسرائيليين ، بأن القاسم المشترك بين هؤلاء بالرغم من اختلاف توجهاتهم ومشاربهم يتمثل في ضرورة قيام اسرائيل باتخاذ مبادرة جديدة ، تنقلها من موقع المدافع الى موقع المهاجم، تستهدف امرين، الاول، تطويق الانجازات التي حققتها فصائل المقاومة الفلسطينية ممثلة في منظمة التحرير ، على الصعيد السياسي ، وخاصة تجاه قضية تمثيل الشعب الفلسطيني ، والثاني ، احداث انشقاق بين فصائل المقاومة . ان عملية الانتقال هذه لا تمس جوهر الخط العام للسياسة الاسرائيلية بقدر ما تمس التكتيك الذي يخدم تلك السياسة . وكان خير من عبر عن هذا الاتجاه ، المعلق السياسي والعسكري المشهور حاييم هرتسوغ في مقال له تحت عنوان « الفلسطينيون : سياسة وتكتيك » (هآرتس ٧٤/٦/٢١) .

يرى هرتسوغ ان الكرة اصبحت بيد الفلسطينيين على الصعيد العالمي ، ويقرر بأن اسرائيل « أصبحت بالنسبة للرأي العام العالمي بمثابة مدافع يجذب اليه ضغوطات من كل اتجاه » ... ويعتقد بأن الصورة في اذهان الرأي العام العالمي لاسرائيل المتعنتة والتي ترفض مبدئيا التفاوض مع الفلسطينيين ، وتحول دون تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، تعود الى طريقة معالجة اسرائيل للقضية الفلسطينية ، وعدم التمييز تجاه هذا الموضوع بين الخط السياسي والخط التكتيكي « علينا ان نعي دائما وأبدا ضرورة الفصل بين السياسة والتكتيك . اننا نتخذ سياسة كقاعدة موجهة للاجراءات السياسية المختلفة الخاصة بنا ، ومن ناحية اخرى ، فان التكتيك يعتبر جزءا من المناورة السياسية التي تمكننا من احراز تفوق اعلامي والتي تحاول الزام الطرف الاخر اتخاذ اجراءات ليست حسب تخطيطه المسبق » .

ثم يضرب مثلا على التمييز بين السياسة والتكتيك ، فيستشهد بمقررات المؤتمر الوطني الفلسطيني الذي عقد مؤخرا في القاهرة قائلا : « ان المجلس الوطني الفلسطيني ... لم يتنازل على سبيل المثال عن الميثاق الوطني لعام ١٩٦٨ والذي ينفي في الفقرة ١٩ حق اسرائيل في الوجود، وفي الفقرة ٢٠ الرابطة التاريخية والدينية بين اليهود وارض اسرائيل ، ولم يضم بين قراراته فقرة تنفي مبدأ المفاوضات والتسوية السياسية بالنسبة لقضية الحرب مع اسرائيل . ان ذلك اجراء تكتيكي يستوجبه الواقع ، على خلاف الخط السياسي » ثم يأخذ هرتسوغ ينحي باللائمة على المسؤولين الاسرائيليين لعدم نجاحهم في احداث فصل بين السياسة والتكتيك والتلاعب من خلاله لاحداث هوة بين المقاومة الفلسطينية وسكان المناطق المحتلة ، الامر الذي ساعد كما يقول على دفع الشعب الفلسطيني نحو منظمة التحرير . حول ذلك يقول : « ان القضية القومية الحيوية بالنسبة لنا كانت ولا تزال عدم السماح لتنظيمات التخريب لتمثيل الشعب الفلسطيني ، وبالنسبة

لهذا الموضوع ، وبالرغم من ان نسبة كبيرة من الشعب الفلسطيني تعيش تحت سيطرتنا ، لم نفلح في استغلال هذا الواقع . ان البيانات المختلفة والمتكررة والقائلة باننا لا نعترف بالفلسطينيين ، لان الفلسطينيين ليسوا شعبا ، واننا لن نتفاوض مع فلسطينيين ، قد عززت بمقدار لا بأس به ظهر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، ودفعت بالفعل الشعب الفلسطيني الى اذرعها » ومن هنا تأتي دعوة هرتسوغ الى اتباع تكتيك جديد يخدم الخط السياسي العام ، فبدل طريقة « اجلس ولا تعمل» والنظرة السلبية تجاه الشعب الفلسطيني يقترح: « بدل ذلك ينبغي على النظرة الاسرائيلية ان تنص على اننا لن نتفاوض مع كل عنصر فلسطيني ينفي حق دولة اسرائيل في الوجود ، ذلك يعني : ان اسرائيل لا تعارض التفاوض مع فلسطينيين ، انها تعارض التفاوض مع كل عنصر فلسطيني يسير في سياسة وفق الميثاق الوطني الفلسطيني لعام ١٩٦٨ والفقرات التي تنفي حقنا في الوجود . ان تصريحا كهذا يلقي بالفعل الكرة باتجاه الفلسطينيين ، ويحول الضغط الدولي من اسرائيل الى الفلسطينيين عندما يطلب منهم التنازل عن ميثاقهم الاساسي بالنسبة لمصير اسرائيل » . من الواضح ان هرتسوغ يسعى من وراء النقلة التكتيكية في الموقف الاسرائيلي الى حشر المقاومة الفلسطينية واحداث انقسام بين صفوفها ، وبالتالي قصم ظهر منظمة التحرير لكي يكون بمقدور اسرائيل حينئذ توجيه الكرة باتجاه اناس لا يحسنون استخدامها .

ويعبر عن مراميه هذه بقوله : « لقد اخطأنا في الماضي ، ولكن لا زال الوقت غير متأخر لكيل الصاع صاعين ، والزام التنظيمات الفلسطينية باتخاذ قرارات تنسف القاعدة التي يعتمد عليها الميثاق الفلسطيني ، وتؤدي من خلال ذلك لحدوث انقسام بين صفوفها ، او ان تستمر امام انظار العالم في انتقاد حق اسرائيل في العيش ، حينذاك ستغدو القضية التي تواجهها اسرائيل على الصعيدين الاعلامي والسياسي اسهل ومقبولة أكثر في ارجاء العالم » .

تقارير

حول مهرجان لايبزغ السنوي للافلام الوثائقية والقصيرة

ينعقد ما بين تشرين الاول وتشرين الثاني هذا العام مهرجان لايبزغ السنوي للافلام الوثائقية والقصيرة ، تحت شعار (افلام العالم من أجل سلام العالم) . ويعتبر المهرجان تظاهرة سياسية للفيلم السينمائي النضالي ، اذ تشارك فيه غالبية دول العالم على صعيدين رسمي وشعبي . رسمي بالنسبة للاقطار التي تقف في الخط التقدمي في مناهضة الامبريالية ، وشعبي بالنسبة لتجمعات السينمائيين الشباب الذين يناضلون في نتاجاتهم ضد الاحتكارات السينمائية انتاجا وتوزيعا . ومنذ سبعة عشر عاما والمهرجان يدرس تجربته ويحقق تعديلات في نظامه ولجانه ، ومن ضمن الملابسات التي غالبا ما يقع فيها المهرجان هو العلاقة الدبلوماسية وانتقاء الافلام النضالية ، فكثيرا ما تقدم تجمعات السينما والشباب التقدمي اشرطة تعبر عن معاناة شعوبهم من تسلط واضطهاد للحريات ، ويقع المهرجان في عرض الفيلم في موقف محرج مع هذا النظام او ذاك ، ويتطور الامر لمستوى الاحتجاج الدبلوماسي باعتبار المهرجان يمثل المانيا الديمقراطية تمثيلا رسميا نظرا للاشراف المباشر من قبل وزارة الثقافة . لهذا السبب فقد حصلت في السنة الماضية تعديلات جذرية حيث وضع المهرجان تحت اشراف شعبي وفصل عن الاشراف الوزاري المباشر ، وعلى اثره تبدلت اللجان كاملة ، واسندت ادارته الى (تريش) بدلا من (هركنتال) . لذلك وجدنا نسبة الافلام الواضحة والتي تتناول موضوعات حركات التحرر والثورات في العالم ، اكثر من السنوات السابقة. كما وان شروطا جديدة ستعلن في القريب تحدد مواصفات الافلام التي تقبل في المسابقة . وعلى الصعيد الفلسطيني ، ونظرا للنجاح الذي حققه الوفد في المهرجان السابق (١٩٧٣) ، فقد اختير الفنان الفلسطيني « اسماعيل شموط » عضوا في لجنة التحكيم . وكان شموط في المهرجان السابق يرأس الوفد السينمائي الفلسطيني الذي شارك بشكل موحد لاول مرة ، حيث كانت اول مساهمة فلسطينية عام ١٩٧١ من قبل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . بهذه المناسبة نجد من الضروري الكتابة عن المهرجان السابق وعن الافلام المشاركة، وكذلك عن محاورة السينمائي الشيوعي مانفريد فوس الذي يقدم افلامه عن القضية الفلسطينية كل عام ممثلا لجماعة ميونيخ التقدمية — ليستفاد من التجربة للمهرجان القادم .

من بين الافلام التي قدمهاالوفد الفلسطيني تم انتقاء خمسة منها . ثلاثة في مسابقة السينما واثنين في مسابقة التلفزيون . وهذا العدد هو أكثر من أية مشاركة عربية اضافة الى النوعية كوثيقة وبناء ورؤية . واذا ما عرفنا بأن مؤسسات القطاع العام العربية تملك امكانات متقدمة وكبيرة لانتاج الافلام ، وتكاد الامكانات تنعدم في مجال السينما الفلسطينية ، يتأكد لنا الشوط الذي قطعته السينما الفلسطينية واهميته على مستوى النوعية والاستمرار ، وهذا ما أكده مهرجان لايبزيغ بلجانه ومخرجيه ونقاده وجمهوره .

جائزة فلسطين : قبل الحديث عن الافلام المشاركة لا بد من معرفة « جائزة فلسطين » لان المهرجان ، ومنذ خمسة عشر عاما يمنح الجوائز على مستويين ، الاول ، مستوى لجنة التحكيم ، والثاني مستوى المنظمات والاتحادات العالمية وبتوصية من لجنة التحكيم ايضا . وهو لم يقبل منذ تأسيسه حتى الان جوائز من الاقطار المشاركة، لانه في هذه الحالة سيضيف عددا كبيرا من الجوائز تفقد اهمية الاختيار والفرز لاكثر الافلام، انسجاما مع هدف المهرجان وشعاره ، لهذا السبب ،

والمهرجان في عامه السادس عشر ، عندما اعلن عن اضافة جائزة جديدة الى جوائزه هي (جـائزة فلسطين) ، كان مثار اهتمام كبير بعد أن اعلن الخبر في المؤتمر الصحفي الذي عقده (تريش) مدير المهرجان ، في اليوم الاول . وكان شرط منـح الجائزة هو (افضل فيلم يصور نضال شعب من الشعوب ضد الامبريالية) . وبعد مشاهدة افلام المهرجان ، وبعد مداولة مع لجنة التحكيم تـم الاتفاق على منح جائزة فلسطين الى فيلم (موزامبيق ، ثورة مستمرة) ، من اخراج (اولبزخ ماكوش وهانز اندرسون) ، انتاج المانيا الديمقراطية . ومنحت هذه الجائزة بعد أن وجد الوفد الفلسطيني ، وبعد مداولة مع لجنة التحكيم ، ان هذا الفيلم يصور ، وبتقنية متقدمة ، نضال شعب موزامبيق في ظروف قاسية ، مؤكدا اصرار هذا الشعب على تجاوز كل المعوقات من أجل استمرار ثورته لتحقيق النصر . تمثل الجائزة ، اضافة الى الدبلوم الذي أعده المهرجان ووقعه رئيس الوفد الفلسطيني (اسماعيل شموط) ، تمثل خارطة فلسطين وعليها اسماء المدن الفلسطينية ، وكذلك شعار المهرجان (حمامة بيكاسو) مع جملة (أفلام العالم من أجل سلام العالم) بالعربية والالمانية .. كل هذا مصمم بشكل بارز على خلفية حمراء مؤطـرة بالخشب بواجهة زجاجية . وقد تقرر ان تكون هذه الجائزة سنوية ، اضيفت رسميا الى جوائز المهرجان .

الافلام الفلسطينية في المهرجـان

في اليوم الثاني للمهرجان عرض اول فيـلم فلسطيني (ضمن المسابقة) هو فيلم ذكريات ونار من اخـراج اسماعيل شـموط وتصويره ومونتاج ابراهيم بشير . كـان هـذا الفيـلم قد صور بالاسـود والابيض ، واشـترك في مهرجـان بغداد الذي انعقـد تحت شـعار (تحـرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي)، وحاز على الجائزة الفضية لافضل فيلم قصير . ثم اعاد المخرج تنفيذه بالالوان بعد أن توفرت لديه فرصة تحقيقه بالالوان، ولاهمية ان يكون الفيلم ملونا كونه يعتمد عـلى مجموعة من اللوحات التي تعطي الوانها قيمـة تعبيرية في الفيلم . اساس هـذا الفيلم لوحـة (ذكريات ونار) التي منها تتداعى عند شخصيـة فلسطينية كهلة ذكريات الحياة في فلسطين ، ربيع الحياة فيها ، وانتفاضات الشعب الفلسطيني منذ اوائل هذا القرن حتى مأساة الهجرة وما بعدها عندما تفجرت حركة المقاومة الفلسطينية . ولـم يعتمد المخرج اللوحات المرسومة فقط ، انما اعتمد ايضا الوثيقة الجامدة (الصور الفوتوغرافية) مانحا اياها قيما تعبيرية في اللون ، فمشاهد الهجرة والتشرد ظهرت بلون واحد هو الازرق دلالة الحزن، في حين منح وثائق المقاومة اللون الاحمر دلالـة الثورة . ولقد فضل المخرج ان تكون الوثيقة جامدة ولبست متحركة ، بغية توحيد اسلوبية الفيلم المبني على مجموعة من اللوحات التي هـي اعمـال المخرج نفسـه .

النداء الملح لاسماعيل شموط ايضا ، هـو الفيلم الثاني ضمن مسابقة السينما ، عرض في يوم مهم من أيام المهرجان هو يوم التضامن ، وفي هذا اليوم قدمت نشاطات على المسرح اضافة الـى الافلام ، نشاطات فلسطينية ، وفيتنامية وافريقية مع أفلام عن فلسطين ، فيتنام وموزامبيق . فيلـم النداء الملح هو اغنية بخمس دقائق لزينب شعث تتحدث عن فلسطين ، في احدى مقاطعها يقطـع المخرج على صورة الشهيد كمال ناصر وتعرفنـا بشخصه كلمات تكتب فوق الصورة ، ثم نسمع الشهيد وهو يتحدث عن اسـتراتيجية الثـورة الفلسطينية ليوضح بأننا نناضل من اجل كـيان ديمقراطي ، وايضا نحن نناضل كي نخلص اليهود من الصهيونية ، وحال انهاء رأيه تجمد صورتـه على الشاشة لنسمع صوت اطلاق الرصـاص مع كلمات مكتوبة على صورته توضح لنا عمليـة اغتيال كمال ناصر في بيروت ، بعدها نسمع تتمة المقطع الاخير من الاغنية (وهل تسمع نداء فلسطين الملح ... الخ المقطع) . والمخرج في هذا الفيلم لم يكتف بالمغنية وهي تردد مقاطع الاغنية ، بـل انه ضمن الاغنية رسومات ووثائق فوتوغرافية تدلل على معانيها .

لماذا نزرع الورد .. لماذا نحمـل السلاح :

الفيلم الثالث في مسابقة السينما ، هو لماذا نزرع الورد ، لماذا نحمل السلاح لقاسم حول وهو فيلم انتج مشاركة بين الاعلام الموحد في منظمة التحرير الفلسطينـية ، وتلفزيون جمهوريـة المانيـا الديمقراطية ، عن مهرجان برلين العاشر للشبيبة والطلبة الذي انعقد في برلين في العام (١٩٧٣) ومن خـلالـه لغـرض مشـاركة وفود العـالم

مركزين على مشاركة وفد فلسطين ، ومن شعار المهرجان والتضامن ، الصداقة ، والحرية لجميع الشعوب ، يوضح الفيلم بالوثيقة بأن الشعوب المتضامنة في هذا المهرجان انما مرت ولا زالت تمر عبر نضالات مسلحة حققت لها الانتصار ، وهناك شعوب اخرى لا زالت تواصل مسيرة النضال حتى تحقق هي الاخرى ، الانتصار ، ومن هذه الشعوب ، الشعب الفلسطيني . وان ما عرض في الفيلم بالوثيقة عن مقاومة الشعب السوفيتي للغزو النازي لستالينغراد ، او مقارنة الشعب الفيتنامي للامبريالية الامريكية ، وما عرض عن الاضطهاد الفاشي في المانيا ، كل هذا جاء ليؤكد الكفاح المسلح الفلسطيني ضد الصهيونية ، الشكل الجديد للفاشية . حاز الفيلم على جائزة اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي مشاركة مع مشاهد من الاحتلال في غزة . كما حاز في العام ١٩٧٣ على جائزة اتحاد السينمائيين في ازبكستان في مهرجان طشقند مشاركة مع فيلم (وصمة ام) .

مشاهد من الاحتلال في غزة :

الفيلم الاول في مسابقة التلفزيون ، هو مشاهد من الاحتلال في غزة لمصطفى ابو علي ، وهو من انتاج جماعة السينما الفلسطينية في مركز الابحاث (المنحلة حاليا) . وكان قد حاز على الجائزة الذهبية في مهرجان بغداد . الفيلم مجموعة وثائق حققتها سينمائيون من التلفزيون الفرنسي في فيلم سينمائي استفاد منها المخرج واضاف لها تعليقا جديدا . والفيلم بمجمله يؤكد ما يعانيه أهالي غزة من تسلط العدو المحتل على الناس الذين نشاهدهم في الوثيقة وهم يتفجرون غضبا .

الارهاب الصهيوني :

الفيلم الثاني في مسابقة التلفزيون ، هو الارهاب الصهيوني لسمير نمر . في هذا الفيلم يعرض لنا المخرج القرى الوديعة في جنوب لبنان ، والتي يعيش فيها اللبنانيون والفلسطينيون ، وكيف تتعرض الحياة الجميلة في قرى جنوب لبنان الى عدوان ارهابي صهيوني يدمر الحياة ويقتل الاطفال . لقد استطاع المخرج ان يسجل وثائق مهمة عن الارهاب من عدوانه المستمر . وما اخذ على الوثيقة في المهرجان ، ان مشاهد الاطفال القتلى كانت طويلة زمنيا في الفيلم ، ولانها حادة في مأساويتها فقد تركت أثرا أنهك عاطفة المشاهد كونها تستعرض اكثر من مرة في اكثر من زاوية مجموعة اطفال مقطعي الاوصال بعد العدوان ، وعدا هذه الملاحظة فان الفيلم تمكن من تأكيد فاشية العدو وارهابه .

في نهاية المهرجان أعلن عن منح فيلم (لماذا نزرع الورد ، لماذا نحمل السلاح — وفيلم مشاهد من الاحتلال في غزة) جائزة اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي . هذا اضافة الى ما تركته بقية الافلام من انطباع غير عادي بين جمهور المهرجان ، نقادا ومخرجين ومشاهدين ، وعرضت مشاهد من هذه الافلام في التلفزيون خلال المهرجان . كما وان الوفد الفلسطيني قد حقق في مشاركته هذه انجازات تعدت حدود عرض الافلام ، ومحاورة الوفود وتسجيل تجاربها ، فقد حققت مجالا للتعاون لاسناد السينما الفلسطينية على مستوى التعاون الفني والتقني ، في توفير اجهزة ومعدات سينمائية للسينما الفلسطينية ، وتوفير دورات تدريبية وزمالات في هذا المجال . ومما يؤسف له ان الوفود العربية لم تقدم ضمن مشاركاتها افلاما عن القضية الفلسطينية ، ولا حتى عن الحرب الاخيرة ، عدا سوريا التي قدمت فيلمين هما عن نتائج الحرب وانعكاساتها ، اعني ان هذين الشريطين قد جاءا دونما وثيقة عن المعركة ، في حين قدمت جماعة ميونيخ فيلمين عن القضية الفلسطينية .

فمن هي جماعة ميونيخ ؟

تمثل جماعة ميونيخ للسينما التي شكلها (مانفريد فوس ، الت هيلشر ، هانزيوكن فيبر) تجمعا سينمائيا متقدما جدا وسط عالم الدعاية الصهيونية في المانيا الغربية . وكان الثلاثة قد أنتجوا من قبل فيلما سينمائيا بعنوان (فلسطين) عرض في مهرجان لايبزيغ عام ١٩٧١ وحاز على جائزة (الفبريسي) ، وترك صدى كبيرا بين اوساط النقاد والمهتمين بشؤون السينما . تضمن هذا الفيلم وجهة نظر المقاومة الفلسطينية ، ورؤيتها الى فلسطين الديمقراطية ، واستراتيجيتها في حرب الشعب الطويلة الامد . وفي هذا العام ، وفي مهرجان لايبزيغ ايضا عرض التجمع فيلمين الاول (لانه فلسطيني) ، والثاني (ارض الميعاد ، الحلم والحقيقة) . فيلم لانه فلسطيني ، يرصد مواطنا فلسطينيا يعيش مع زوجته وطفلته في المانيا الغربية.

تحقق لنا الكاميرا مراقبة كاملة لرجال المخابرات وهم يلاحقون هذا المواطن ، يرصدهم المخرج من أمكنة بعيدة بعدسات مقربة لنلاحظهم في سياراتهم وهم يتناوبون لمراقبة هذا الانسان لا لشيء الا (لانه فلسطيني) . وبعد رصد كامل لتحرك رجال المخابرات ، تدخل الكاميرا الى بيت الفلسطيني ويسأل ان كان يشعر بأنه مراقب ، فنعرف من خلال حديثه ، انه لا ينتمي الى اي فصيل من فصائل حركة المقاومة ، ويطل مع السينمائيين من نافذة بيته مشيرا الى سيارات رجال المخابرات . بعدها يذهب المخرج مع المصور الى رجال المخابرات ويسألونهم (لماذا تراقبون هذا الرجل) . طبيعي ليس من السهل ان يتقبل رجل مخابرات اسئلة تكشف هويته ومهمته ، ولكن المخرج يصر ، على انه قد راقبهم مثلما هم يراقبون الرجل ، وانه صورهم ، وعليهم ان يكفوا عن مراقبة الناس ومتابعتهم بهذه الطريقة المضجرة ، وكلما حاول رجل المخابرات ان يفلت من الاجابة ، نلاحظ الكاميرا تدور حول سيارته ، والمخرج يسأله ويقرب الميكرفون منه محاولا ان يحصل منه على ابة جملة .. الاسئلة تكثر وتتنوع ، (اليوم عطلة .. عليك ان تأخذ قسطا من الراحة .. اذهب الى بيتك .. كن مع زوجتك واطفالك) والاجوبة تبقى مترددة (انها الاوامر .. هكذا طلبوا مني ..)

ان هذا الفيلم (لانه فلسطيني) ، لا يمثل قدرة متقدمة فقط في رصد حياة انسان فلسطيني ، ولا في تعرية عالم المخابرات المنظمة لاستلاب حريات الناس في المجتمعات الاستغلالية ، فقط ، بل يوضح لنا ويرد بهدوء وبمنطق على كل الادعاءات التي تعلنها أجهزة الاعلام الامبريالية في المانيا الغربية والتي تحركها وتوجهها الحركة الصهيونية هناك . قال لنا (فوس) ، لقد نشروا (كاريكاتيرا) في مجلة المانية غربية لرجل فلسطيني ملثم بالكوفية وبعينين حاقدتين ، وكتبوا على الصورة (لا نريد ان يعكر علينا هذا النموذج ايام عيد الميلاد) . اذن نحن بحاجة الى مثل هذه الاشرطة لتكون الى جانبنا ، وبحاجة ايضا الى توطيد العلاقةواسهاما في تعميم انتاج جماعة ميونيخ . اما الفيلم الثاني، والذي كان مثار نقاش طويل هو (ارض الميعاد ، الحلم والحقيقة) . صور هذا الفيلم كاملا داخل الارض المحتلة ، وفيه يطلعنا المخرج على كل وجهات النظر سواء في داخل الاحزاب الموالية للحكم العسكري الاسرائيلي او الاحزاب المعارضة لهذا الحكم . تدخل الكاميرا الى (الكنيست) ، وتصور لنا (مائير) وهي تتحدث عن اليهود في اوروبا وامريكا وفي الاتحاد السوفياتي ، وهي تريد نضالا من اجل تأكيد هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي ، لانهم كما تقول ، يعانون حصارا ونحن بحاجة الى طاقاتهم ، اما يهود امريكا واوروبا ، فمائير تفضل بقاءهم هناك ، لانهميمثلون الواجهة التي تدعم الوجود الاسرائيلي وتسنده . والمخرج في كل هذه اللقاءات، وفي كل هذهالعروض يتخذ موقف المعلق ، ليرد على وجهات نظر العدو بوجهات نظر متقدمة .. ولان الفيلم يمثل حالات كاملة في داخل الارض المحتلة للحكم العسكري ، اضافة الى وجهات نظر الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية ، فان وجهات النظر هذه كثيرا ما تستفز الانسان* العربي ، لانه يسمع حديثا اسرائيليا يجرح شعوره ازاء الارض المغتصبة .. اسئلة كثيرة جدا تطرح حول الفيلم ، لماذا الفيلم ؟ لماذا يخلو الفيلم من وجهة نظر المقاومة الفلسطينية لترد على اراء العدو . هذه الاسئلة جعلت الوفود العربية تطلب اجتماعا مع مانفريد فوس لمحاورته ، وقد تم الاجتماع في غرفة الوفود العربية بعد عرض الفيلم مباشرة . ولاهمية ما دار في النقاش ننقله للقارىء العربي . بدأ الحديث (سلام السلطان) من الوفد العراقي ، (ماذا يريد ان يقول المخرج من خلال الفيلم) ، اجاب (فوس) : في المانيا الغربية لا توجد اشياء معروفة بشكل جيد عن اسرائيل — وان منظمات التلفزيون الرسمية تقف بوضوح الى جانب اسرائيل ، هذا هو الشيء الوحيد الذي يعرفه شعبنا . من الضروري لنا ان نوضح هذه الامور في بلادنا حول واقعالسلطة التى تمارس التطبيق الصهيوني على الناس هناك. لذلك بالنسبة لنا هو البحث عن تلك القوى التي تطرح افضل الشعارات . وهم بالنسبة الى رأيي، كل القوى التقدمية ، الاحزاب الشيوعية ، الدول الديمقراطية والاشتراكية ، والحركات التحررية في العالم الثالث ، التي تقف بوضوح تام وراء تطبيق قرار (٢٤٢) ونحن ننطلق من الخطوة الاولى لتحقيق الحل (اعادة المناطق المحتلة) . اما ما سيحدث بعد ذلك في المناطق المحررة او المحتلة من تطورات ، فذلك ما تقرره الشغيلة والفلاحون.

ونحن علينا باستمرار ان توضح الى جماهيرنا في المانيا الاتحادية ، اي شكل من العسكرية ، واي شكل من الفاشية يمارس على الناس في فلسطين المحتلة . وعلينا ان نوضح الدور الذي تلعبه اسرائيل في المنطقة كرأس حربة للامبريالية الامريكية . (يعترض هنا سعيد السعدي من الوفد العراقي ايضا — ولكن قرار ٢٤٢ لا علاقة له بالقضية الفلسطينية . انه قرار يتعلق بالاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧) . ويجيب فوس — نحن نقول ، اننا يجب ان نتجاوز الصهيونية . وهذا التجاوز يتحقق من عدة جوانب . واحد هذه الجوانب النضال في داخل فلسطين المحتلة . بالنسبة لي ، الاخ الطبقي هو ذلك اليهودي الذي أتى الى داخل فلسطين ، والشيوعي الذي يناضل ضد النظام العسكري وضد التعصب الشوفيني ، مثله مثل العربي الذي يناضل ضد هذا النظام . هذا وذاك ، الاثنان هما اللذان يمكن ان يتجاوزا الواقع الصهيوني ويتجاوزا النظام في اسرائيل . ويقيموا دولة ديمقراطية ، مثلما في المانيا الغربية توجد دولة احتكارية امبريالية ، سنتخطى نحن القوى التقدمية نظامها وتتخلص منه . ولكن القضية تبقى دائما قضية توازن قوى سواء على الصعيد المحلي او العالمي . مثلا الحزب الشيوعي في المانيا الغربية ، كان ممنوعا ، ولكن حدثت تغييرات كثيرة ادت الى وجود الحزب العلني في عام ١٩٦٨ . لا شك ان هذا نصر واضح للقوى التقدمية في المانيا الغربية . (قاسم حول ، من الوفد الفلسطيني — لقد شاهدنا في الفيلم وجهات نظر مختلف القوى داخل فلسطين المحتلة . ولما كان من المتعذر ، اخذ وجهة نظر المقاومة الفلسطينية في الداخل ، أما كان الاجدى لو طرحت في هذا الفيلم وجهة نظر المقاومة الفلسطينية التي تناضل على حدود فلسطين المحتلة ؟) (فوس — يجب ان ننظر الى هذا الفيلم وعلاقته بالفيلم الاول فلسطين . الفيلم الاول طرح كل ما يتعلق بوجهة نظر المقاومة واستراتيجيتها . أما هذا الفيلم فيتناول الوضع السياسي بالتحليل في الداخل . وهناك فيلم ثالث يتناول المصالح الامبريالية في الشرق الاوسط وبشكل خاص قضية البترول — وعندما سيكتمل الفيلم الثالث ، سأجمع الثلاثة في فيلم واحد تسجيلي طويل ، يمكن ان يكون تحليلا كاملا للمنطقة نشاهد فيه طرحا كاملا للواقع الفلسطيني والواقع العربي ، ومصالح الامبريالية في المنطقة كاملة . (سلام السلطان ، الوفد العراقي — هل تعتقد في امكانية عرض هذا الفيلم في المنطقة العربية بشكل جماهيري) (فوس — لا أعتقد ذلك ، ولكن يمكن تقديم عروض خاصة لرجال السياسة والاعلام والمثقفين عندكم ومناقشة ما جاء فيه من اراء) . (قاسم حول — من الوفد الفلسطيني — هل ستقوم بعرض هذا الفيلم ، اقصد ما اسميته بالحلقة الثانية ، بعروض عامة او خاصة قبل ان تكتمل الحلقة الاخيرة لتشكل فيلما واحدا ؟ (فوس — بالنسبة لهذه الحلقة ، لن نعرض غير هذا العرض الذي تم في مهرجان لايبزيغ ، وانا بصدد انجاز القسم الثالث حتى يشاهد المتفرج وجهات نظر كاملة ، وتحليلا كاملا للواقع . (عمر اميرالاي — من الوفد السوري — لقد اظهرت في الفيلم وجهة نظر الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، راكاح ، لماذا لم نشاهد وجهة نظر ماتسبن والجبهة الحمراء اللتان تناضلان ضد الوجود الصهيوني في المنطقة ، وقد ترجمتا وجهات نظرهما بشكل عملي ؟) . (فوس — ان ماتسبن ، شق الحزب الشيوعي الاسرائيلي ليس بسبب تقدمي ، وهم قد اتخذوا مواقف لا ضد الصهيونية بل لصالحها ولصالح الامبريالية الامريكية ، فكيف يمكنني ان اظهر — الوعل على انه صاحب الحقل).

(صلاح التهامي — وفد مصر — الا تعتقد ان مشاهد العسكرية الاسرائيلية التي تضطهد المواطنين كان ضعيفا ، وغير مجسد للاضطهاد الفاشي ؟).

(فوس — الواقع اننا عملنا تجارب كثيرة بشأن كل المشاهد ، وبشأن هذا المشهد بالذات ، لقد استدعينا عدة مشاهدين ، واستطلعنا آراءهم . سألناهم مثلا عن الموسيقى التي رافقت المشاهد العسكرية — هل استطعتم ان تعرفوا ان هذه الموسيقى هى موسيقى نازية ؟ — فأكد لنا الجميع ان ما شاهدوه في الصور مع الموسيقى قداعطاهم هذا الاحساس ، واعطاهم احساسا واضحا بان الرجل الذي يفتشه البوليس الاسرائيلي بأنه مصمم على المقاومة من خلال نظراته وتعابير وجهه) .

(صلاح التهامي — انا لا زلت اختلف في الرأي في ان المشهد بالنسبة لي لم يعط التأثير المطلوب . ثم هناك مشهد آخر هو مشهد التمثال الذي يمثل المقاومة في بولونيا ، اعتقد ان التمثال ووجوده الذي يصور مقاومة اليهود في بولونيا للنازية ،

وظهوره في الفيلم يأتي لصالـــح العدو وليـــس لصالحنا) . (فوس — الواقع يجب ان تعـــرف النص بدقة . ان هذا المناضل المادي للفاشيـــة هو ملكنا ، ولكن الصهيونية قد عملت الحيلـــة التالية . لقد وضعوا هذا التمثال لمقارنته بالحرب الحديثة ، تشاهده يقاوم ، وايضا حوله جنـــود مصريون قادمون باتجاهه . يريدون ان يقولوا ، ان اليهود قاوموا النازية ، وهم الان يقاومـــون الغزو العربي . لكننا بعد المشهد ننتقل الى متحف مردخاي لنسور ، أن ما تعمله اسرائيل هو شبيه بما عملته الفاشية سابقا . وفي التعليق نقـــول ، لا يمكن ان يكون سلام في اسرائيل طالما ان هناك شعوبا عربية مضطهدة ، وهذا التعليق مأخـــوذ عن مقولة لانجلس، ان شعبا يضطهد شعوبا اخرى لا يمكن ان يكون حرا) . (صـــــلاح التهامي — مصر — الا تعتقد ان التعليق والحوار كـــان كثيرا في الفيلم ؟) ، (فوس — هذا هو رأيـــي ايضا ، ولكننا مضطرون لذلك ، لان الاراء التـــي يطرحها المسؤولون في الحكومة الاسرائيلية تضطرنا لتعقيبها باراء تمثل وجهة نظرنا كرد وتحليل للواقع المطروح) . (صلاح التهامي — انا لم احب لقطة دايان في الفيلم ، فلقد اغاظني كونه ظهر متبخترا). (اعضاء الوفود العربية — ناقضوا رأي التهامي، في ان المشهد الذي ظهر فيه دايان كان جيدا ، وقالوا انه أظهره كريها ، وهذا ما يجب ان يكون) — هنا لا بد من ان نوضح بان اللقطة التي أخذت لدايان ، كانت من زاوية عالية ، اي انها اظهرته واطيا ، وهذه الزاوية السينمائية قد عبرت عـــن وجهة نظر المخرج في شخص دايان ، اضافة الـــى انه ظهر بجلوسه المهمل لكل الموجودين في الكنيست واثناء ما كانت ماثير تلقي كلمتهـــا عن اليهـــود خارج اسرائيل ، نلاحظ خلال كل هذا ان دايـــان كان نموذجا للفاشي . (هنا طلب احد الحاضرين الحديث قال : لست سينمائيا ، ولكنني مواطن من الارض المحتلة . اريد ان انبه الى شخص ظهـــر في الفيلم ، هو — اوري اوفرينش — كان يتحدث عن اقرت وكفر برعم . هـــذا الشخـــص اعرفـــه واتابعه جيدا . ليس شخصا تقدميا ولا شيوعيا ، وان الصهيونية تستفيد منه كثيرا هذه الايـــام . وفي الحرب الاخيرة بين العرب واسرائيل اتخـــذ مواقف مؤيدة للصهيونية) . (فوس — سأقطـــع هذا المشهد من الفيلم حالا ، وبعد تأكدي مـــن الموضوع ، سأهتم بالموضوع كثيرا ، اذ ليس لي علم بمواقفه الاخيرة) .

قاسم حول

مؤامرة الصمت ... مشكلة نشر الحقيقة حول فلسطين

كتبت المؤلفة البريطانية باميلا فيرغوسون هذا العرض للمشاكل التي واجهتها في نشر كتابها « المشـكلة الفلسطينية » ، مما يعطي قارىء شؤون فلسطينية صـورة حقيقية عن التجارب المرة التي يتعرض لها الكتاب الاجانب الذين يحـاولون خـرق جدار التحامل الاعلامي ضد الفلسطينيين .

خـلال كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ نشرت كتابي « المشكلة الفلسطينية » ، اخيرا ، شركـة شجاعة في لندن ذات ميول راديكالية تدعى مـارتن بريان اند اوكيف . وقصة هذا الكتاب قبل صدوره محفورة في ذهني كمثل ، كانذار ، لجميع الصحافيين الغربيين امثالي الذين يختارون كتابة الحقيقة حول المشكلة الفلسطينية ، فيجدون أنفسهم عرضـة لمختلف أشكال الرقابة .

كانت في الاصل شركة روبرت هارت — ديفيز ، وهي قسم من دار غرانادا للنشر التي يرأس مجلس ادارتها اللورد بيرنشتاين ، قد كلفتني بتأليف الكتاب وتخلت الشركة عن الكتاب في خريف ١٩٧٢ — بعد سنتين تقريبا من تكليفي بتأليفه ، وفي غضون بضعة أشهر فقط من تاريخ الصدور كما اعلن عنه فـي اعلان نشرته الشركة في المجلة الرئيسية لقوائم المنشورات ، « ذا بوكسيلر » ، (١٢ آب/اغسطس ١٩٧٢) .

ثمة أسباب عدة لفرض هذا النوع من أنـواع الرقابة على الكتاب والصحافيين . وليس هناك تفسير بسيط له . وربما كانت نقطة الانطلاق الاكثر منطقية هي الشعور الغربي الهائل بالذنب حول المذابح اليهودية . وتنبثق من هذا الشعور بالذنب حاجة لاشعورية للمغالاة في التعويض ، وبالتالي لتفسير او تسويغ افعال اسرائيل . وثمة جـانب اخر يرفض رفضا مباشرا صريحا ، القبول بحقيقة ان شعبا اسيئت معاملته الى هذا الحد قادر ، هو نفسه ، على اساءة معاملة الغير . وهذا كله يخلق عائقا عاطفيا وفكريا تزيده حدة مجموعة مـن الضغوط الصهيونية . وهناك ، ايضا ، خوف من أن يوصم المرء بـ « اللاسامية » . وبالفعل ، فان نصف المعركة في الغرب يتألف من اقناع الناس بأن انتقاد الصهيونية لا يجب ان يلصق بهـم ، بصورة اوتوماتيكية ، نعت « اللاسامية » . وليس هذا بالامر السهل .

قبل أن ابحث المشكلات التي اعترضتني مـع غرانادا ، اود ان اوجز حالة أحـدث من حالات الرقابة . خلال اواسط ايار (مايو) ١٩٧٤ ، زارت لندن لمدة اسبوع ابرز محامية للحقوق المدنية في اسرائيل ، فليسيا لانغر . وحملت معها تفاصيل حول المعـاملة الاسرائيلية السيئة للسجنـاء السياسيين ، وعدم السماح للمحامين ولممثلـي الصليب الاحمر بالوصول اليهم ، وأدلة علـى التعذيب وعمليات الضرب الشديـد ، ومختلـف القوانين القاسية المفروضة على الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري ، ومخالفـات اسرائيل المتكررة لقرارات مؤتمر جنيف الرابع لعام ١٩٤٩ . ودعي الى مؤتمرها ١٠٠ مندوب مـن الصحافة والتلفزيون والراديو — فحضره أقل من عشرة . ونشرت صحيفتا **الغـارديان** و **المورنينغ ستار** جزءا معينا فقط من معلوماتها ، وربما اذيع أيضا نبأ او نبآن صغيران في محطتـي الراديـو التجاريتين بلندن (كابيتال والاذاعة البريطانية) وبرامج الاذاعة البريطانية الموجهة الى الخارج .

وكنت قبل وصولها قد رتبت الامر لاعطي صحيفة **الصنداي تايمز** اللندنية مقالة متصلة حول السيدة لانغر وعملها . ومن عـادة صحفنا الليبرالية ان ترحب بكلمات المحامين الراديكاليين . ومما لا ريب فيه ان مقالتي حول الامور التي اماطت اللثـام عنها كانت بشكل صارم واقعية ، دقيقة ، وقـد راجعتها السيدة لانغر بعناية ، قبل عودتها الـى اسرائيل عن طريق باريس . وسلمت مقـالين **للصنداي تايمز** يوم الجمعة السابع عشر من ايار (مايو) ، وما زلت انتظر نشرها . ففي بدايـة الامر ، كان لا بد من « التثبت من تفاصيلها بواسطة مراسلنا في اسرائيل » ... ثم ، كان بعض ما جاء فيها سيستعمل كأساس لتحليل قوانين اسرائيـل الادارية (التي تستطيع السلطـات العسكرية بموجبها أن تقدم على اعتقالات اعتباطية وتسجن

دون محاكمة لمدة غير محددة) . ثم قررت **الصنداي تايمز** أن تركز على دراسة قضية من أحدث قضايا السجن الكيفي دون محاكمة ، والتعذيب . ومع كل قرار جديد كانت مقالتي الخاصة حول السيدة لانغر ، التي رحبت بها الصحيفة في اول الامر ، تدفع الى الخلفية اكثر فاكثر . وكنت اقبل بحاجتهم الى التثبت من الحقائق وفي الوقت نفسه احاول أن ارى اذا كانوا يطبقون القاعدة نفسها على الجانب الاخر . لكني اكتشفت ان الاجراءات تطبق على نقط . فبعد تسليمي القطعة بيومين ، نشرت **الصنداي تايمز** تقريرا كبيرا في التاسع عشر من أيار ، وعلى الصفحة الاولى ، عن تعذيب اسرى الحرب الاسرائيليين في سوريا ، « على ايدي محققين روس » . وركزت الصحيفة بشكل مبالغ فيه على استعمال « عقار الحقيقة » على الاسرائيليين . وجدير بالملاحظة ان ما من صحيفة اخرى نشرت التقرير او أشارت اليه ، علما بأن **الصنداي تايمز** قالت ان « مصدرا عربيا عاليا » قد أكده (من ؟!) . وبعد ثلاثة اسابيع كذبت الحقائق ذلك التقرير . فعندما اعيد اسرى الحرب الاسرائيليون ، لم يصرح احد منهم بأن التحقيقات قام بها الروس ، ولتأكيد هذا الامر صرح وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز بصورة صريحة بأنه لم تكن ثمة أدلة تؤيد الزعم القائل بأن التحقيقات كانت تنطوي على اشتراك السوفييت او استعمال « عقار الحقيقة » . وأيدت هذه الحقيقة مقابلات ، اذيعت على محطات التلفزيون البريطانية ، مع بعض اسرى الحرب الذين قالوا بوضوح ان السوريين والمصريين كانوا هم الذين قاموا بالتحقيقات .

في ذلك العدد نفسه (١٩ ايار — مايو) حملت **الصنداي تايمز** رواية مفصلة لحادث ملفق — ونشرت الاكذوبة ، التي فضحتها فيما بعد الصحف الاسرائيلية نفسها ، بأن السفير الفرنسي اشترك في المفاوضات المخادعة وبأن الاسرائيليين كانوا يعتزمون اطلاق سراح السجناء السياسيين (مع انه لم يكن في نيتهم فعل ذلك ابدا . فجميع الذين ادرجت اسماؤهم وضعوا في الحبس الانفرادي لدى اذاعة الاعلان) . وقد استخدمت صفحتان كاملتان لهذه الرواية المفصلة — ولم تأت على ذكر أية اشارة الى الغارات الانتقامية الوحشية التي يقوم بها سلاح الجو الاسرائيلي على المخيمات والمدنيين في لبنان الا في نهاية التحقيق كله (في فقرتين او ثلاث فقرات) .

وفيما بعد ، في التاسع من حزيران (يونيو) نشرت الصحيفة مقالة حول عودة الاسرى الاسرائيليين من سوريا ، وفصلت مزاعم التعذيب من جديد . ومع هذا فانهم ، حتى لمصلحة « نظرة متوازنة » للامور ، لم يعتبروا انه من الضروري نشر مواد حول معاملة الاسرائيليين السيئة للفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري .

ما زلت اعيش على أمل انهم قد ينشرون شيئا ، وقد ينتقون شيئا من مقالتي ، ويستعملوه مع أي دليل قد يرسله مراسلكم ، او قد لا يرسله ، لهم في لندن بواسطة التليكس . وعندما استعلمت عن مصير مقالتي هذا الاسبوع ، قيل لي أنها « جدلية أكثر من اللازم » ، وان مراسلهم في اسرائيل لم يستطع العثور على أية ادلة تؤكد التعذيب . وكان مراسلهم هذا ، اريك مارزدن ، قد ارسل الى صحيفة **التايمز** ، وهي شقيقة **الصنداي تايمز** ، في الثاني عشر من حزيران (يونيو) تقريرا يروي فيه بتفصيل تعذيب الاسرى الاسرائيليين على يد السوريين (ودليله الوحيد على هذا هو قول الحكومة الاسرائيلية) . وفي نهاية تقريره اشار بصورة غير مباشرة الى ما قاله بيريز : « رفض الوزير مزاعم التعذيب التي اوردها الاسرى السوريون العائدون بوصفها محاولات ملفقة لاضعاف قضية اسرائيل » .

عندما أخبرتني **الصنداي تايمز** في لندن انهم لم يتمكنوا من العثور على أية أدلة على أن الاسرائيليين قاموا بالتعذيب ، اقترحت عليهم ان يتحدثوا الى فوزي الاسمر ، الموجود في لندن حاليا . وكانت الصحيفة دوما قد شددت على الصعوبات التي تجدها في « تعقب » الذين عذبهم الاسرائيليون ، ولهذا السبب اعتقدت انه ينبغي عليهم التحدث الى الاسمر ، في لندن ، فورا . ومع انني بعثت لهم بتفاصيل حول كيفية الاتصال به (رغم هاتفه وعنوانه الكامل) وبعثت لهم بمعلومات اخرى ، فانهم لم يحاولوا التحدث اليه .

ويبدو ان لا نهاية هناك لكمية الادلة الواقعية التي يمكن للمرء ان يعثر عليها لدعم قضية من

القضايا ، او حجة ما ، او شجب قضية او حجة . وأعلم تمام العلم ان من واجب كل صحافي أن يكون نزاعا الى الشك والريبة ، وان يراجع، وان يستقصي ، وان يزن الادلة التي يقدمها المتورطون في جدل سياسي . وبالفعل ، هذه هي مهمتنا ، وهذا هو عملنا . بيد أن **الصنداي تايمز** اكدت لي أنهم يراجعون ويدققون ، مثنى وثلاثا ، في المعالم المماثلة ، والاتهامات المماثلة الموجهة ضد البريطانيين في ايرلندا الشمالية ، ونظام الحكم اليوناني ، ونظام جنوب افريقيا ، على سبيل المثال لا الحصر . ولكن مما لا ريب فيه ان الادلة الواقعية للروايات التي ينشرونها (والتي أوجزتها أنا) لا تؤيد هذا الزعم . فالتهمة الموجهة ضد فيليسيا لانغر ، هنا ، هي انه كان لا بد من موازنة ادلتها ضد حقيقة كونها « موالية للفلسطينيين » ، « شيوعية » ، و« متورطة في القضية » . وما زلت انتظر سماع الحجج نفسها تطبق لضبط او معادلة ادلة المحامي الجنوب افريقي او اليوناني او التركي الذي يصل الى لندن وهو يحمل معلومات مماثلة تتعلق بنظام بلاده .

هذا الوضع يضع الصحافة المسماة ليبرالية على محك شديد . مثال ذلك أن **الغارديان** تعتز بارائها اليسارية ، وبقرائها الراديكاليين ، وبتقليدها في الصحافة الاستقصائية . ومع هذا فيوم الاثنين العاشر من حزيران (يونيو) ١٩٧٤ نشرت افتتاحية، لا تكتفي بتأييد مزاعم الراقصين اليهوديين الروسيين ، الزوجين بانوف ، بالكلمات الاستهلالية « ان سنتين هما مدة طويلة جدا لينتظر أي شخص السماح له بمغادرة بلاده » ، ولكنها انتقلت لتقترح على كل من يختار حضور موسم باليه البولشوي الحالي في لندن ، وجوب ارسال تبرع « للجنة دعم اليهود السوفيات » في « مجلس ممثلي اليهود » في لندن . فكتبت للصحيفة واقترحت عليها ، بالنظر الى تقليدها الليبرالي ، وجوب اعادة التعبير عن محتوى افتتاحيتها مع التذكير بالفلسطينيين واقترحت عليها القول : « ان ستا وعشرين سنة هي مدة طويلة جدا لينتظر أي شخص السماح له بالعودة الى بلاده » ، واضفت : « على جميع الذين يحضرون النشاطات الثقافية الاسرائيلية ان يرسلوا تبرعا الى منظمة التحرير الفلسطينية ، في شارع هاي هيل في ماي فير بلندن » .

انني اضع غرانادا في نفس الفئة مع **الغارديان والصنداي تايمز**، بوصفها مؤسسات تعتز بتقاليدها الراديكالية والليبرالية . وترعى غرانادا باعتزاز سلسلة من المحاضرات كل سنة في لندن تحت العنوان العام « حرية الصحافة » . ويعلن عن المحاضرات على نطاق واسع ويثنى عليها للمتكلمين البارزين فيها ولمواضيعها المحركة للفكر .

لقد شنت **الصنداي تايمز** حملات من اجل قضايا مختلفة (مثل ضحايا حبوب منع الحمل المشوهين ، والاولاد والزوجات الذين يتعرضون للضرب الشديد الوحشي) وصمدت في وجه اشد الضغوط القانونية وغير القانونية . وبالفعل ، فان الصحيفة هي في طليعة الصحافة الاستقصائية وقد كسبت الشهرة لكونها تغامر لتغيير القوانين وفضح نواقص النظام ونشره التفاصيل التي تشجب الانظمة القمعية حول العالم . وانني انوه بهذا الامر لانه يزيد من صعوبة وتقبل سلوكهم تجاه مقالتي والمعلومات المؤيدة لها . ان اثنين من أشهر مراسلي صحيفة **الغارديان** ، وهما آدم رفائيل (الذي كشف عن الاجور المتدنية المريعة التي تدفعها الشركات البريطانية في جنوب افريقيا للعمال السود) وبيتر نيزواند (الذي سجن في روديسيا لفترة من الوقت) قد فازا بجائزتين لاعمالهما الاستقصائية وشجاعتهما . ففي المجموعة الاخيرة من الجوائز المطلوبة التي تقدمها « شركة النشر الدولية » سمي رفائيل ، بحق ، صحافي السنة ، لعمله على فضح الاجور الزهيدة التي تدفعها الشركات البريطانية للعمال السود في جنوب افريقيا ، وسمي بيتر نيزواند مراسل السنة الدولي . انني معجبة بعملهما وشجاعتهما . لكن من المحزن ان الصحيفة التي تستخدمهما ، **الغارديان** ، لا تطبق الاحكام والمقاييس المتنورة نفسها بصورة جذرية على التحقيق في السياسات الاسرائيلية .

ان سلسلة « العالم في العمل » التي تنتجها شركة غرانادا عينها على التلفزيون التجاري في بريطانيا ، هي السلسلة الاثيرة المعززة لدى الجماعات الراديكالية . وقد انتجت بعض التحقيقات المرتكزة الى ابحاث ممتازة حول التعذيب في تركيا والبرازيل والتشيلي والفيتنام الجنوبية

وايرلندا الشمالية ، وقد حضرت أنا حفلة خاصة (اقامتها منظمة امنستي Amnesty) حيث عرضت هذه الافلام الواحد تو الاخر . وقد عرض الفريق نفسه لاخطار لا تعد ولا تحصى لجمع هذه المواد ، وكثيرا ما كان اعضاؤه يفعلون ذلك منتحلين صفة السياح ومستخدمين كاميرات ٨ ميلمتر الصغيرة . لكن لغرانادا ، كما للغارديان وللصنداي تايمز ، مجموعة مختلفة من القواعد والمقاييس للمشكلة الفلسطينية .

أود أن يكون من الواضح تماما انني اتكلم بصفتي صحافية مستقلة . لقد عملت في هيئة محرري صحيفة التايمز (الاخبار التجارية) لمدة سنة ، وعملت ، كذلك ، في مجلات شهرية واسبوعية . وقد حدث تورطي في الشرق الاوسط بمحض الصدفة . فأنا غير مرتبطة بأي من الجماعات الضاغطة المختلفة التي تؤيد القضية في بريطانيا ، اذ أشعر أنه من الضروري للصحافي ان يكون مستقلا ، ولا اريد ان أبشر للمهتدين. وشأني شأن الكثيرين من زملائي ، قاومت الاتهامات التي وجهتها تلك الجماعات الضاغطة حول الرقابة المزعومة على المواد التي اما تنتقد السياسات الاسرائيلية او تكشف عن المحنة الفلسطينية ، طولا وعرضا . فقد وجدت هذا الانتقاد مائعا ، وتذمرا تتقاسمه الجماعات الضاغطة جميعا ، الى ان حدث الامر معي .

لأكن صريحة حول تورطي في حالة الشرق الاوسط . لقد ابتدأت بأوهى المعلومات عنها ، وكنت مليئة بالاعتقادات والافكار الخاطئة التي تمثل النظرة الغربية الكلاسيكية . وليس لعائلتي اية صلات (عرقية او عسكرية او ديلوماسية) بالشرق الاوسط ، لذا ابتدأت حول الموضوع من الصفر . فزرت اولا اسرائيل عام ١٩٦٦ عندما كنت في الثانية والعشرين، سريعة التأثر، وأقاوم تربية غربية تربط الاستكشاف والمدنية والثقافة بالانسان الابيض . وصورة اسرائيل قوية في الغرب ، ولكننا لا نعلم شيئا عن الفلسطينيين . وقد زرت اسرائيل كالكثيرين غيري من الجوالين الشبان ذوي الميول الاشتراكية.

اعتقدنا (وكم كنا مخدوعين !) ان اسرائيل تقدم اشتراكية حقيقية ، ارضا يعيش عليها الناس قريبين من التراب ، وتتمتع فيها النساء بالمساواة ، ويشعر فيها القوم من خلفيات عديدة بأنهم جزء من مجتمع نشيط وراديكالي . ولم يطل بي الوقت حتى أدركت ان هذه الصورة مضللة خادمة الى حد ميئوس منه . فذلك المزيج المطلب من ضوء الشمس والصحة والنشاط والغريزة الصرفة وحلم جرا كان غطاء منظما بصورة بارعة ماكرة يهدف عن طريق الخداع ، الى كسب التأييد والدعم من اليهودية العالمية ، اروع ابنائها ، والاهم من ذلك : جيوبها. وكان لذلك الغطاء هدف اضافي . فهو يخدع المفكرين في الغرب . والامر الادهى من ذلك هو انه يطمس صرخة فلسطين وفي الوقت ذاته يقدم ملصقات زاهية الالوان لصناعة اسرائيل السياحية.

وكانت حرب ١٩٦٧ هي التي جعلت الكثيرين منا في الغرب يقفون وجها لوجه امام الحقيقة البشعة للقضية الفلسطينية . فبين ليلة وضحاها جعلتنا الحرب نعي شعبا منسيا . وقمت بأول زيارة الى المناطق المحتلة عام ١٩٦٨ ، وتساءلت كيف نستطيع نحن ، في الغرب ، ان نرفع رؤوسنا بوجود مثل الاوضاع السائدة في غزة . لقد اختبرت الفقر والخزي في جنوبي افريقيا ، ولكن لا يوجد شيء تمكن مقارنته بهذه المعضلة الفلسطينية . فالتمزيق الجوهري لامة من الناس بأسرها يجعل هذه القضية أكثر من مجرد مشكلة لاجئين ، او نتيجة بشعة من نتائج الحرب . واعلم ان غزة ، ومنظر بلدة الاشباح التي كانت ذات يوم مخيم لاجئي أريحا ، روع الكثيرين من اليهود الاسرائيليين الشبان وأبعد الضباب عن أعين الكثيرين من الصهاينة المكرسين . ولم يكن منظر مخيم اللاجئين ورائحته هما اللذان حطما الوهم ، بقدر ما كان الادراك بأن هذه الحقائق لطالما قللت اكتب المدرسية والمؤسسة الصحافية الاسرائيلية من شأنها او طمستها ، كما انها كثيرا ما لقيت الاهمال والتجاهل في الغرب .

وقمت بزيارة المناطق المحتلة ثانية عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٠ وعام ١٩٧١ ، وكانت آخر مرة عام ١٩٧٣ ، قبل حرب تشرين (اكتوبر) بأقل من شهرين . والكتاب الذي كلفتني غرانادا بتأليفه يشمل ويرمز الى تورطي النامي في الحالة وتنوري المتزايد . ونتيجة لذلك ستكون طبعتي الثانية اقوى واكثر صرامة . لقد وجه الي نقد شديد لكوني معتدلة اكثر من اللازم في كتابي ، ومعنية اكثر من اللازم في عرض امتداد واسع من الاراء المتعارضة . وانتقدني صهاينة متحمسون انتقادا

شرسا (في الصحف ، وفي رسائل الى صحيفة **جويش كرونيكل** ، وفي سلسلة من الرسائل المرسلة الى عنوان بيتي) ، كما انني تعرضت لهجوم شنه علي اعضاء جماعات ضاغطة في بريطانيا ، مكرسة للقضية العربية الاوسع .

اني انكر كل هذا لانه يجعل رفض غرانادا لكتابي اكثر غرابة وغموضا . فكتابي في آخر الامر مؤيد للعرب ، ولكنه في الوقت ذاته يهاجم ايـة مؤسسة تعمل ضد مصالـح الشعب الفلسطيني بوجه عام . فهو ينتقد البريطانيين والصهاينـة والمؤسسة العربية ، وهذه النقطة الاخيرة اثارت أشد الانتقادات من الجماعات الضاغطة. فأنا أعتبر الشعب الفلسطيني ضحية خطأ مريع هائل ، وانحو باللوم على استغلالات البريطانيين والصهـاينة والاميركيين ، كما انحو باللوم على حكومات عربية معينة لاساءتها الفادحة ادارة المشكلة واساءتها معاملة الجاليات الفلسطينيـة الموضوعة تحت رحمتها . وانا ضد قوة الطبقات الحاكمة وأحسن العائلات والنخبة في الشرق الاوسط ، والمأزق المريع الذي يواجه من هم اقل حظا . وان ادراكي لوجود حرب طبقية حادة في الشرق الاوسـط ، وادراكي لمحنة اليهود الشرقيـين في اسرائيل ، وجهودي لفضح نفاق حكومات عربية معينة قـد زجني في نزاع مع الذين يفضلون تجاهل هذه الامور وينتقدونني للسماح لهذه الحقائق بأن تصرف انتباه غير المطلعين عن اعتراضاتنا الاساسيـة علـى الصهيونية .

ان كتابي هو ابعد ما يكون عن كونه قطعة من الدعاوة للقضية . لقد حاولت أن أشرح المأزق من وجهات نظر عديدة بقدر الامكان ، لاعطاء اوسع نظرة لغير المطلعين . فالدعاوة المتملقة لا توصلك الى هدفك ، بسرعة ، وكثيرا ما تؤدي الى عكس ما يبتغيه المرء . لقد كلفتني غرانادا بتأليف الكتاب وشددت على رغبتهـا في الحصول على روايـة تفسيرية للمشكلة الفلسطينية . ويسرني ، بطريقة ما ، ان تكون معرفتي بحالة الشرق الاوسط قد ابتدأت من نقطة الوهم الجسيم الذي سرعان ما تحطم ، ثم توصلت الى الحقيقة . انني اعرف بعض الشيء الان عن كيفية النفاذ عبـر طبقات الاعتقادات والافكار الخاطئة في الغرب .

لقد جربت معرفتي هذه في كتـابي « المشكلة الفلسطينية » . لم يكن الان بروك ، المحرر الشاب في دار روبرت هارت — ديفيز ، يعرف عن حالة الشرق الاوسط الا النزر الضئيل ، ولذا لم استطع اقامة حوار مرض معه وكان هذا امرا مزعجـا . وكان يعترض على أية تعليقات أضيفها الى المحتوى الواقعي للفصول ... ويقول : « الزمي نفسك بالحقائق فحسب ... اشرحي كل شيء بأكثر ما تستطيعين من التفاصيل ... ودعي هذه التفاصيل تروي القصة » . كان هذا طلبا عادلا . وبعد بداية متسرعة ومترددة ، وضعت اول مسودة . وفي اواخر ١٩٧١ ، قدمت المسودة لمايكل آدمز في « مجلس تحسين التفاهم العربي البريطـاني » لمراجعتها ، وحرصت على ان اضم كل اقتراحاته وتعديلاته وتصحيحاته في مسودة ثانية . ثم قدمت دار هارت — ديفيز المخطوطة لمحرر مخطوطاتها الخارجي . ولم يسمح لي قط بمعرفة هوية هذا المحرر ، وكل ما علمته هو انها كانت امـرأة و « خبيرة » في الشرق الاوسط . ومن انتقاداتها ادركت ان معرفتها لم تكن محدودة الى حد محزن فحسب ، ولكنها صهيونية مئة بالمئة ايضا . وقد لفت نظر المحرر الان بروك الى هذا الامر فحاول ان ينكر تحيزها الى ان اثبته له بمساعدة حقيقة قوية . لقد كانت انتقاداتها للنصوص عديدة ولا يمكن ذكرها هنا بالتفصيل ، باستثناء نقطتين او ثلاث توضح مدى معرفتها . ففي فصل يحمـل العنوان « الهجرة + الاستيطان = الاضطرابات » فصلت المشكلات التي واجهتها تلك العائـلات الفلسطينية التي تشردت حينما بيعت الارض التي كانت تقيم عليها الى اليهود (منذ الايام الاولى للانتداب) . وقد اصرت المحررة ان مثل هـذا التشريد لم يحدث . فلفت نظر محرري الى ان البريطانيين اصدروا قانونين وقائيين ، همـا **قانون نقل الاراضي** الذي يؤمن التعويض عـن المستأجرين او الابقاء عليهم ، **وقانون حمـايـة المزارعين** لعام ١٩٢٩ الذي يؤمن تعويض انذار سنة . وكان علي ايضا ان ألفت النظر الى ان هذه الحقيقة ، وهي بلا ريب قلب مشـكلة تكاثرت بمعدل مفزع ، وقد اوجزها وبحثها آرثر روبن في كتابه « الاستعمار الزراعي للمنظمة الصهيونية في فلسطين » ، الصادر في لندن عام ١٩٤٧ .

واعترضت المحررة بعنف ، كذلك ، على ما كشفت عنه من حقائق فظة حول ممارسة التمييز

ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل — حتى انهـا اعترضت على الحقيقة المعروفة بان اكثر من نصف الاسرائيليين هم من شمال افريقيا وخلفيات شرقية ! فقد شددت على ان اسرائيل مجتمع « مســاواة » في حين ان ما يزيد على نصف كتابي اثبت العكس بشكل قاطع . وفي ردي المكتوب على انتقاداتها الحامية أشرت الى مثال صديق لي ، وهو عالم اجتماع وعضو « لجنة العمل الثوري الاسرائيلي في الخارج » (ازراكا) ويهودي شرقي . فقد قام صديقي ببعض الابحاث لاحد تقارير وزارة الاسكان الاسرائيلية واكتشف ان احدى سياسات الوزارة هي اسكان الشرقيين في شقق تضم عددا من الغرف اقل بكثير من تلك المخصصة لليهود الغربيين الاوفر حظا ، وذلك لمحاولة ثني الشرقيين عن انجاب عدد كبير من الاولاد .

كذلك كانت المحررة مشوشة الى حد يائس حول تاريخ الشعب الفلسطيني وحول تاريخ الحركة الوطنية في فلسطين . واعترضت المحررة ، ايضا ، على اشاراتي المتكررة الى الاسباب الحقيقية التي ادت الى هجر هذه الالوف العديدة من الفلسطينيين لبيوتهم واراضيهم قبل حرب ١٩٤٨ . فقــد اتهمتني « بالضرب على وتر » انفعال رجال شترين ! كما انها تحدت اعتراضي على الحجة الاسرائيلية — الصهيونية الكلاسيكية بان لا وجود للفلسطينيين . وفي ردي المكتوب عليها استشهدت بمقابلة غولدا مئير في عدد الصنداي تايمز الصادر في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٩ حيث صرحت بأن لا وجود لشعب فلسطيني . واضفت ايضا بضع ملاحظات ادلى بها الي شخصيا دبلومــاسي اسرائيلي « كانت فلسطين سوريا الجنوبية لذا فالفلسطينيون هم في الواقع سوريون » ، وصحافي اسرائيلي « العرب في غزة هم الفلسطينيون الحقيقيون الوحيدون » ، وصحافي اسرائيلي آخر « لم يكن احد هنا عندما وصل اليهود الى فلسطين » . واني اذكر هذه التعليقات الثلاثة التي ادلي لي بها عام ١٩٦٩ — آملة ان يكون معظم الاسرائيليين أقل جهلا حول تحديداتهم للفلسطينيين اليوم .

وتوجت المحررة قائمتها التي تضم نحــو ٦٤ اعتراضا على الحقائق المعروضة في الكتاب ، بتقرير مجمل . ويستحق هذا التقرير قراءة كاملة ، واني اورده هنا بأكمله : « اذا كان المقصود من هذا الكتاب ان يكون مادة دعاوية لحركة التحرير الفلسطينية بوجه عام — وبخاصة — لوجهة النظر القائلة بأن الحل لن يأتي الا من خلال انشاء شرق اوسط اشتراكي خالص ومستقل، دون اية نزاعات وعداءات قومية او دينية ، فانه يؤدي غايته على الارجح . (هذا هو موقف ماتزبن ، وهي جماعة اسرائيلية تذكرها المؤلفة) . ولكن اذا كان المقصود منه ان يكون رواية واقعية ومتزنة للحالة — فانه يفتقر الى الوضوح ، وكثيرا ما يتصف اسلوبــه بالسطحية والعاطفية الانفعالية ، واني اتوقع من مراجع منصف (ومن مراجع مؤيد لاسرائيل من غير ريب) ان يقع على نقاط عديدة تقلل من قيمة الكتاب . لقد أشرت الى بعض التفاصيل التي لفتتني اليها كونها اما غير صحيحة تماما ، او معبر عنها بطريقة تجعلها مضللة . ولكن اذا كان الكتاب يستهدف قراء اليسار الجديد ، فانه لا يهم ، على الارجح ، ما اذا كانت النقاط صحيحة تماما ام لا ، طالما انها تستقر في الخط السياسي المتفق عليه . فمن هم القراء الذين يستهدفهم الكتاب ؟» .

أضيف تعليقين آخرين على رأي المحررة . اولا، ان محرري في هارت — ديفيز شدد على ان السيدة هي خبيرة في شؤون الشرق الاوسط وغير متحيزة ، وثانيا ، انني قدمت الحقيقة الجديدة تلو الحقيقة لدعم تلك النقاط التي اعترضت عليها بشدة ، واقتنع المحرر اخيرا بوجهة نظري وطلب مني ان اضم بعض المعلومات الاضافية في النص الرئيسي . وفي نهاية المطاف تم اخيرا تحرير النص ، بكل ما احتوى عليه من نتف وقطع اضافية ، وحقائق وتعديلات وتصحيحات .

وتلقيت فاتورة بمبلغ ٣٥ جنيها استرلينيا خلال حزيران (يونيو) ١٩٧٢ لاعادة طبع المخطوطة على الالة الكاتبة ، للتنضيد ، ولم أكد أصدق عيني عندما تبين لي ان الضاربة على الالة الكاتبة اختارت ان تطبع نسخة واحدة فقط ، لذا كان علي ان ادفع من جيبي ١٣ جنيها استرلينيا اضافيا لانتاج نسخ طبق الاصل عن النص على آلــة كسيروكس ، ولتقديم نسخة اضافية الى قسم لكتب الجيب تابع لغرانادا كان مهتما باصــدار الكتاب بعد ظهور طبعة الكتاب الرئيسية .

وعندما قرأت النص المنقح اخيرا من البداية الى النهاية ، لفتت نظري قطعة من الرقـابة بنــوع

خاص . كنت قد كتبت عدة جمل أشرح فيها قضية لافون ، والمحاولة الاسرائيلية لتمزيق العلاقات المصرية - الاميركية ، بمؤامرة تخريب منظمة بدقة وعناية لنسف السفارة الاميركية في القاهرة ، بحيث يبدو الامر وكأنه نشاط مصري تخريبي ، وقد اختصر محرري هذا الشرح الى بضعة أسطر ، ثم شطبه بأكمله ، الى ان أصريت على وجوب تركه بكامله .

وعلى أية حال ، فبعد ان تم التعليم على الكتاب للتنضيد (مع تعليمات الطباع وهلم جرا) استرحت طوال الصيف بانتظار التصحيحات الطباعية ، كنت أعلم ان محرري قد قام شخصيا بزيارة مكاتب الجامعة العربية لاختيار صورة فوتوغرافية مناسبة للغلاف الامامي ولذا ارتحت الى كون الكتاب قد صار اخيرا في طريقه الى النشر . على انه قيل لي لما اتصلت هاتفيا بمحرري في وقت لاحق من الصيف ان الكتاب « سحب موقتا » نزولا عند طلب سيدني بيرنشتاين (اللورد بيرنشتاين ، رئيس مجلس ادارة غرانادا) . وقد قال محرري لكل من وكيلي ولي، في مكالمتين هاتفيتين منفصلتين، ان بيرنشتاين قد طلب ان يقرأ الكتاب مدير النشر العام للمجموعة ، واعتقد ان المخطوطة ذهبت مع هذا السيد في العطلة .

انتظرت حتى اوائل الخريف ، واجريت مكالمة هاتفية اخرى ، وقال لي محرري ان قرارا قد اتخذ بعدم نشر كتابي . وفي ذلك الوقت لم يكن الكتاب قد وصل الى مرحلة تصحيح الطباعة والغلاف فحسب ، بل ان اعلانا كان قد ظهر قبل ذلك ببضعة اسابيع في طبعة الخريف من**ذا بوكسيلر** بتاريخ الثاني عشر من آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، يعلن سعر الكتاب وعدد صفحاته وتاريخ الصدور (على انه كانون الثاني - يناير ١٩٧٣) . وجاء في الاعلان : « استقصاء غير متحيز حول واقع الشرق الاوسط ورواية موضوعية تدعو اليها الحاجة الماسة لتاريخ واسباب محنة عرب فلسطين » .

وحتى هذا اليوم لم اتلق أي تفسير لقرار غرانادا غير العذر الواهي بوقوع « تغيير في السياسة التحريرية » . وقد حاولت انا ووكيلي في مكالمات هاتفية عدة مع محرري ومع مدير تحرير المجموعة (وكان مايكل دمبسي آنذاك) ، ان نكتشف السبب الحقيقي لقرارهم . وكان محرري عاقد العزم على عدم التحدث الي على الهاتف الى حد انني اضطررت في النهاية الى ان ارسل برقية اليه لترتيب وقت ملائم لاستعيد مخطوطتي. وبالطبع انكروا جميعا ان يكون أي دافع سياسي قد اثر في قرارهم بالتخلي عن كتابي .

وسمعت فيما بعد ان موظفي دار النشر تلقوا اوامر **بعدم التكلم الي مهما كان الامر** ، ويفسر هذا محاولاتي غير المثمرة للحصول على تفسير عاقل منهم . كذلك علمت ان بيرنشتاين طلب سحب الكتاب ، عندما علم لاول مرة بوجوده ، من الاعلان في **ذا بوكسيلر** (١٢ آب - اغسطس) ومما لا ريب فيه ان توقيت المضاعفات المختلفة يؤيد هذا الامر .

أما تيم اوكيف ، رئيس دار النشر مارتن بريان أند اوكيف ، التي نشرت كتابي في نهاية المطاف ، فهو موظف سابق في غرانادا ، وعلى وجه الدقة ، رئيس تحرير سابق لاحد فروع النشر فيها ، وهو يتذكر اجتماعا بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، عندما اثيرت المسألة حول تكليف شخص بوضع كتاب مماثل للكتاب الذي كلفت أنا بتأليفه في نهاية ١٩٧٠ . في ذلك الاجتماع قال بيرنشتاين لاوكيف انه لن يكرر الاختبار الذي واجهه حينما نشر كتاب ايرسكين تشيلدرز « الطريق الى السويس » في اوائل الستينات ، عندما اضطر الى الدفاع عن الكتاب سياسيا ضد هجوم انتقادي .

استنادا الى هذه الخلفية ، من الصعب علي ان أفهم لماذا كلفت بتأليف كتابي بالدرجة الاولى ، حتى انه أصعب علي ان افهم لماذا استمر حتى الساعة الاخيرة السابقة للنشر ، قبل ان يسمع برنشتاين بوجوده . هذه هي حقيقة حياة مجموعة كبيرة من الشركات العاملة في بنية شبه مستقلة.

المعركة القضائية مع الشركة تستمر حتى هذا التاريخ ، وهي الان في سنتها الثانية . لقد كانت معركة بشعة وكريهة . فمحامو غرانادا يصرون على القول انهم تخلوا عن كتابي بعد مشاورات مع خبراء في الحقل ، وهو قول هراء ، لان كل المشاورات والتعديلات تمت بقصد اعادة طبع النص على الالة الكاتبة (على نفقتي) واكتمال تصحيحها وتهيئتها للتنضيد ، ومما لا ريب فيه ان كل الحقائق تؤيد اعتقادي بان قرارا متسرعا

قد اتخذ في اللحظة الاخيرة .

لبضعة أشهر خلت ، عندما ادركت غرانادا ان « الاتحاد الوطني للصحافيين » لم يكن مستعدا للتخلي عن القضية (لمصلحتي) ، اقترحت الشركة اننا يجب ان نطلب من محكم ان يحكم في المسألة بدل السماح لها في التحول الى قضية قضائية طويلة وباهظة التكاليف . واقترحت ، كمحكم لها ، رئيس « اتحاد النشر » . وكان هذا غير منصف لي في رأيي ، ولكني قلت انني على استعداد للموافقة على ذلك اذا ما قبلت الشركة ايضا بالمحكم الذي اخترته انا ، الامين العام « للاتحاد الوطني للصحافيين » . وسيصل المرء الى نتيجة عادلة ما بين « اتحاد النشر » و « الاتحاد الوطني للصحافيين » . ثم اقترحت غرانادا ان يكون رئيس التحرير المنسحب للتايمز ليتراري سابليمانت ، آرثر كروك ، بمثابة حكم بيننا . غير انني بطبيعة الحال ، ومن حيث المبدأ ، لن أكون مستعدة للقبول بالحكم الذي اختارته الشركة . وهكذا تستمر المعركة .

بعدما تخلت غرانادا عن مخطوطتي في خريف ١٩٧٢ ، صرت حرة في ان اعرضها على ناشر آخر . ولم يكن هذا بالامر الهين لاسباب عديدة مختلفة . اولا ، ان قلة ضئيلة من الناشرين تثق في مخطوطة « مرفوضة » ، وبخاصة مخطوطة ذات محتوى سياسي . ثانيا ، من الصعب جدا بيع شيء كان قد فصل تفصيلا ليلائم قائمة الكتب المقبلة لذلك الناشر المعين . فلكل دار اسلوبها وقائمتها ونوعها الخاص من النتاج .

ارسل وكيلي المخطوطة الى الناشر طوم ستيسي ، والامر الذي لا يصدق هو ان المحرر الاداري للدار روبن رايت اعترف في رسالة بأنه سيكون « مربكا » لهم ان ينشروا الكتاب . وفيما يلي النص الكامل لرسالته الموجهة الى وكيلي : « انني أعيد بأسف شديد « المشكلة الفلسطينية » لباميلا فيرغوسون . والمشكلة هي ان هذا الكتاب الممتاز والمتزن والممتع يتبنى نظرة مناهضة للصهيونية تتناقض ، لسوء الحظ ، مع مشروع كبير نوشك ان نباشر فيه وتتألف هيئة محرريه المستشارين الى حد كبير من صهاينة بارزين . وكما انك ستقدر ، فقد تصير الامور مربكة لنا اذا ما قررت هذه الهيئة ان الشركة التي يعملون معها تقوم بنشر كتاب يتبنى خطا مضادا لاعتقاداتهم ، مع الاعتراف بانه خطر غير عنيف . وانني آسف جدا لهذا الامر ولكني على يقين من انك ستجد شخصا ما يسره ان يأخذ الكتاب . أشكرك جزيل الشكر على السماح لنا في النظر به » . انها رسالة لطيفة وصادقة وهذا ما يجعلها محطمة الى هذا الحد .

لقد نشر كل من قرار غرانادا ، ومواد من هذه الرسالة ، في مقالتين صدرتا ضمن قسم «يوميات لندني » في الايفننغ ستاندارد (السابع والعشرين من أيلول — سبتمبر ١٩٧٢ ، والرابع عشر من آذار — مارس ١٩٧٣) . والغريب انني عندما وجهت رسالة ، بعد ذلك ببضعة أشهر ، الى محرر اليوميات لاخبره ان الناشرين مارتن بريان وأوكيف قد قبلوا كتابي ، فانه لم ينشر هذا النبأ السعيد (على ما جرت عليه العادة في القصص المماثلة التي فيها مرارة وعذوبة) ولم يشعرني بوصول الكتاب الذي ارسلته له شخصيا او يشكرني عليه . لقد كانت لديه اسباب خاصة منعته من الاتصال بي — ومهما كانت هذه الاسباب ، فان النبذتين اللتين نشرهما حول الكتاب ساعدتا ، من غير شك ، في لفت نظر تيم اوكيف اليه .

ولم أكد أصدق حظي السعيد عندما صدر الكتاب اخيرا في كانون الاول (ديسمبر) ٧٣ . وكنت قد عدلته مرتين لاضمنه التطورات الجديدة منذ قرار غرانادا ، وعدت الى الشرق الاوسط في تموز وآب (يوليو واغسطس) ١٩٧٣ لاجمع معلومات وحقائق وارقام جديدة .

والان ، بعد ستة أشهر ، يمكنني ان اروي مجموعة جديدة من الاختبارات حول الكتاب ، الامر الذي قد يبدو مستغربا في أعقاب السنتين الماضيتين . ومع انني أعطيت نص كتابي (المسودة الاولى والبرونة النهائية) « للجنة تحسين التفاهم العربي البريطاني » (كابو) للمراجعة والقراءة والتعليق عليه (وقد جرى تدوين وتسجيل ذلك كله) ، فقد تعرضت لانتقاد شديد من جون ريداواي في مراجعة نشرتها ميدل ايست انترنشنال ، « لاخطاء في الحقائق وما يزيد على اثني عشر خطأ طباعيا وفي التهجئة » . وبعث السير ريداواي الي بقائمة من الحقائق التي اعتبرها خاطئة او مضللة . فتقبلت بعض تعليقاته العالمة والبناءة ولكني شعرت انه يمكنني دحض التعليقات الاخرى . بيد انني

دهشت بوجه عام لان النقاط التي اثارها لم يستطع عنها عندما كان النص في مكاتب « اللجنة » في مناسبتين منفصلتين .

في الاساس اعتقد ان اعتراض «اللجنة» الرئيسي على كتابي هو شجبي لمختلف اشكال الضغط الممارسة على الجاليات الفلسطينية في جميع انحاء الشرق الاوسط . فانا انتقد اللبنانيين والاردنيين والمصريين ومن الواضح ان « اللجنة » اعترضت بشدة على هذا الانتقاد . ولا يجب ان يفاجئني او يدهشني .

والغريب ان « اللجنة » ، لدى عودتي من الشرق الاوسط في الخريف الماضي ، كانت شديدة الحماس حول بعض المعلومات الاستثنائية التي حملتها معي — قائمة مفصلة بالفلسطينيين الذين ابعدهم الاسرائيليون ما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٢ ، على سبيل المثال ، ١٤٨٢ اسما مع التواريخ واسماء بلداتهم — قائمة مفصلة بالبيوت التي دمرت والاراضي التي صودرت ، منطقة منطقة ، وقرية قرية ، واخيرا خريطة ظهرت في الصحف الاسرائيلية تدرج المستوطنات المختلفة وتطلب دعم التثمير لمستوطنات جديدة . وكانت الخريطة ، التي ادرجها « الصندوق المتحد في اسرائيل » ، تظهر ٤٩ مستوطنة قائمة . وقد جاء في النص المترجم : « ساعدوا بتبرعاتكم في تأسيس مستوطنات الحدود وتعزيزها » . وقد نشرت هذه الخريطة (كما ظهرت في صحيفة معاريف الاسرائيلية في التاسع من ايلول — سبتمبر ١٩٧٢) في كتابي ، واعتقد ان اللجنة ، التي روعتها الخريطة بقدر ما روعتني أنا ، عرضت الخريطة على موظفي وزارة الخارجية في لندن . غير ان « اللجنة » ، على ما يبدو ، لم تجد هذه الحقائق من الاهمية بحيث تعلق عليها في المراجعة ، علما بانني نشرتها جميعا في كتابي ، وقد سمعت فيما بعد بان قرارا قد اتخذ بعدم اختزان كتابي ، علما بان « اللجنة » ستوصي عليه للاعضاء ، بناء على طلبهم .

اما الانتقاد الذي وجهه الي لويس ايكس محرر غري بالستاين فقد كان قاسيا الى حد غريب . فهو يعترف بانه لم يقرأ غير « فصلين او ثلاثة » ، ومع هذا يتهمني « بتكديس الاساطير الصهيونية في النص » . ان سجلي الماضي مع الكتاب لا يؤيد هذا الاتهام ، وكون ايكس أصدر حكما متسرعا وسطحيا يرتكز على نظرة اعتباطية الى « فصلين او ثلاثة » لا يشجعني على أخذ آرائه على محمل الجد .

مما لا ريب فيه انني رحبت بالانتقاد من خبراء استطيع احترامهم ، وادرك تمام الادراك ان الكلمة المطبوعة يمكن ان تحمل مختلف المعاني لمختلف الناس . لقد كلفت بتأليف الكتاب في الاصل كشرح مفصل للمشكلة لفائدة الذين تحيرهم مجموعة الكتب حول الموضوع ، ولديهم نتف من المعلومات حول المشكلة ولكنهم حقا متحيرون من كل ما يسمعونه ويعيشون في جهل سعيد لكل ما يجري وراء الستار . وفي الواقع فان العديدين من الاشخاص الذين قرأوا الكتاب وجهوا الي رسائل يشكرونني فيها على عرض جانب « لم تكشف الصحف عنه ابدا » ولشرح محنة الفلسطينيين . واعترف الكثيرون قائلين « لم نكن ندري ان كل هذا كان يحدث » .

لقد اثبت هذا رأيي حول الافكار الخاطئة الفادحة في النظرة الغربية الى الشرق الاوسط ، والحاجة الى النفاذ الى هذه الافكار الخاطئة بألف باء بسيطة تحليلية .

ولا يدعي كتابي بالكشف عن أية حقائق جديدة مذهلة . كما انه لن يدخل التاريخ لنثره البديع . وبدل ذلك يصف الكتاب الوجوه التاريخية والحديثة للمشكلة ، بما امكن من البساطة والوضوح ، لتقديم مدخل ودليل لقراءات اخرى . لقد اعتمدت الى حد كبير على اختباراتي الصحافية الخاصة وعلى استقصاءاتي وملاحظاتي . وانى ارحب بالنقد الذي لا يرتكز على التحيز الشديد .

والغريب هو انني اواجه شكلا جديدا من أشكال الضغط على عملي . فقد تجشمت بضع مكتبات في بريطانيا (في غلاسغو واوكسفورد ولندن) مشقة الاتصال هاتفيا بتيم أوكيف لاكتشاف ما اذا كان من الصحيح ان كتابي « غير متيسر » كما سمعت . وهذا الامر ازعج تيم اوكيف وأقلقه الى حد انه نشر اعلانا في ذا بوكسيلر في اوائل حزيران (يونيو) ، يقول فيه : « على الرغم مما يشاع فان دار مارتن بريان اند أوكيف ترغب بان توضح ان كتاب باميلا فيرغوسون « المشكلة الفلسطينية » متوافر » . واننا نتساءل عن عدد المكتبات التي لم تعبأ في التثبت من الامر .

باميلا فيرغوسون

الصين الشعبية والقضية الفلسطينية

شهدت السفينات نشاطا واسعا للصين في العالم العربي لم تعهده المنطقة قبلا خاصة وان صلات الصين بالمنطقة لم تتعد القرن الواحد. والغريب في كل هذا بان جميع الحكومات العربية ناصبت الصين الجديدة العداء ولم يعترف بها أي من تلك العهود بل العكس فانها شددت الخناق على الجمهورية الفتية ووثقت علاقاتها مع فرموزا والدول الغربية ورغم كل ذلك فعندما تقدمت اسرائيل عام ١٩٤٩ بالاعتراف بالصين الشعبية فان الصين رفضت او تجاهلت هذه البادرة . وفي بادىء الامر كانت الصين مشغولة باعبائها الداخلية ولذلك لم تول القضية الفلسطينية أي اهتمام واضح ولكن انعقاد مؤتمر باندونج في ابريل عام ١٩٥٥ ومحاولة الصين الخروج من عزلتها ودخولها حلبة الدبلوماسية الاسيوية — الافريقية جعل الصين تبدي اهتماما بالقضية الفلسطينية ، ففي ١٦ ابريل (نيسان) ١٩٥٥ عندما وصل الرئيس المصري جمال عبد الناصر الى مطار رانجون ببرما في طريقه الى باندونج باندونيسيا كان في استقباله في المطار الرئيس الصيني السيد شو ان لاي وبعد خمس دقائق من اللقاء وجه الرئيس الصيني الدعوة للرئيس المصري لزيارة الصين(١). ولكن اجابة الرئيس المصري كانت غير واضحة . وفي ذلك الاجتماع القصير ظهرت رغبة الصين الواضحة في تعزيز علاقاتها(٢) مع العالم العربي ورغبتها في تطوير تلك العلاقات وفي هذا الاجتماع أبدى شو ان لاي رغبته في زيادة استيرادات الصين من الاقطان المصرية وقد افترقا على أمل اللقاء قريبا في باندونج . وكان هذا اول لقاء للرئيس الصيني باي مسؤول من افريقيا(٣) واسيا . وفي المؤتمر اعلنت الصين مساندتها لكل حركات التحرر الوطني وعلى رأسها القضية الفلسطينية وقد كانت حجة الصين بان « فرموزا » ومشكلتها شبيهة(٤) بالقضية الفلسطينية وان اسرائيل لا تختلف عن « فرموزا » وذلك لان الاثنتين خلقتا بتدخل اجنبي وعلى رأسه (الامبريالية الامريكية) . وأكد بأن «المأساة الفلسطينية» ستنتهي عند اختفاء التدخل الاجنبي . وبالطبع عرج الرئيس الصيني في خطابه على قضية « اللاجئين الفلسطينيين » ودعا الى حل عادل لها ؛ ولكن مصر لم تعترف بالصين الا بعد عام كامل اي الى منتصف مايس ١٩٥٦ . وقد حلل السيد انور السادات هذه الخطوة في افتتاحية لجريدة الجمهورية — وكان السادات انذاك رئيس تحرير الجريدة المذكورة ووزيرا للدولة — بانها اجراء قصد منه صفع وجه الغرب وان عدم الاعتراف بالصين قبل ذلك الاوان كان مجاملة من مصر للغرب . وكانت مصر اول دولة افريقية وعربية تعترف(٥) بالصين الشعبية . واثناء عدوان السويس عام ١٩٥٦ اعلن السفير المصري في بكين بان ربع مليون صيني تطوعوا للقتال مع المصريين على الارض المصرية ، ولكن مصر رفضت العرض وقبلت هدية من الصين(٦) قيمتها خمسة ملايين دولار اميركي . ومنذ ذلك الحين والصين تنشط في المجال الاسيوي الافريقي وقد ساندت مصر مساندة فعالة في انشاء مجلس التضامن الاسيوي — الافريقي واصبحت الصين عضوا في مكتب السكرتارية الدائم وبذلك تكون على اتصال دائم ولاول مرة في تاريخها الدبلوماسي تجد طريقا وتنظيما يساعدانها على توثيق علاقاتها مع الحركات التحررية الاسيوية الافريقية . وقد كانت الصين في كل مناسبة تؤكد صداقتها للعرب وتؤكد مساندتها لقضايا العرب وتعلن في كل مناسبة وبصراحة عن اهتمامها بالقضية الفلسطينية وتشدد في المطالبة بحقوق الشعب الفلسطيني . وقد كانت النظرة الصينية للقضية الفلسطينية تتلخص بما يلي(٧) :

١ — ان السبب الرئيسي لخلق اسرائيل هو لافساح المجال للامبريالية للتدخل في الشؤون الداخلية للعالم العربي .

٢ — وان بناء الكيان الاسرائيلي سببه الحفاظ على المصالح الامبريالية الغربية بصورة خاصة .

٣ — ان اسرائيل هي قاعدة لتهديد اسيا وافريقيا والتغلغل فيها .

٤ — شددوا على دور « الامبريالية الامريكية » ووصفوا اسرائيل بانها « آلة » في يد الامبريالية الامريكية .

وما ساعد الصين على اختيار الطريق الذي تريده في العلاقات الدولية هو انها

ليست دولة كبرى لها التزامات استراتيجية هذا بالاضافة الى انها ليست عضوا في المجتمع الدولي التقليدي ناهيك عن ثوريتها التي تعتز بهاواعتقادها الايديولوجي بان دول العالم الثالث سوف تنهض وتقاوم وتنتصر على العالم الصناعي المتمثل في الدول الكبرى المستغلة ولهذا تجد الصين وفي كل مناسبة تؤكد حرصها علـى مساندة القضية الفلسطينية وكل حركات التحرر في العالم الثالث .

وكان عام ١٩٦٤ عاما مهما في العلاقات الفلسطينية ـ الصينية ، ففي اثناء جولة الرئيس شو ان لاي في افريقيا في نهاية عام ١٩٦٣ واوائل سنة ١٩٦٤ اعلن مؤكدا « تأييده لحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة في عودته الى وطنه » وعندما عقد اول مؤتمر قمة عربي في كانون الثاني (يناير)(٨) ١٩٦٤ كانت الصين اول دولة هنأت المؤتمرين وتمنت لهم النجاح فجاءت برقية الرئيس الصيني ليوشاوشي متمنيا « لهم التوفيق في تقوية التضامن العربي لتأمين تحقيق الظفر العربي في كفاحه ضد المؤامرة الصهيونية »(٩) وفي الوقت ذاته صرح شو ان لاي بان الصين الشعبية « تساند بعزم واخلاص موقف الدول العربية في قضية تحويل مجرى نهر الاردن » . وكانت الصين الدولة غير العربية الوحيدة التي اعلنت ونادت بمساندتها للعرب في كل الخطوات التي قد يتخذونها تجاه اسرائيل ، واصرت على الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني في كل مناسبة .

وعقد اجتماع جماهيري في بكين ليؤكد تأييد الصين « ومساندتها للشعب الفلسطيني وكفاحه من اجل حقوقه المشروعة في العودة الى وطنهم » وقد اصبح الموقف موقفا رسميا في البيان المشترك(١١) للرئيسين ليوشاوشي وابراهيم عبود عند زيارة الاخيرة للصين في شهر مارس ١٩٦٤ . وفي نفس الوقت قررت الحكومة الصينية(١٢) تطبيق مقررات مكتب مقاطعة اسرائيل التابع للجامعة العربية ومنع اية سفينة تتعامل مع اسرائيل والتي هي في القائمة السوداء العربية من الدخول الى المياه الصينية !!. وفي الوقت نفسه أعلن الحاج محمد علي جانج ، الشخصية الاسلامية الصينية المهمة والذي كان في زيارة الى مخيم خان الشيخ للاجئين الفلسطينيين ، (ولا بد ان يخضع تصريحه للتمحيص قبل اعلانه لانه جاء بزيارة رسمية ولا بد ان يكون مطابقا لراي حكومته) اذ قال « ان الشعب الصيني وحكومته على استعداد لمساعدة الشعب على استرداد وطنه ».

وفي شهر سبتمبر ١٩٦٤ عندما أيد مشروع انشاء منظمة التحرير الفلسطينية هللت الصين بالخطوة ورحبت بها واعتبرته دفعا بالقضية الفلسطينية الى « مصاف عليا »(١٤). وفي ذلك العام قامت الصين بمد يد العون الى حركة فتح يوم كانت تلك الحركة في بداية نموها قبل المد الشعبي العربي بعد هزيمة ١٩٦٧ . وقد سجل الكتاب السنوي (١٥) للقضية الفلسطينية ، ان جمهورية الصين الشعبية في عام ١٩٦٤ ، ولاول مرة ، اوضحت « الحقوق المشروعة » « للشعب الفلسطيني » واكدت حقه في « استعادة اراضيه المسلوبة(١٦)، والاهم من كل هذا العون الصادق الذي حظيت به منظمة التحرير الفلسطينية من لدن المسؤولين الصينيين . ويحدثنا السيد احمد الشقيري في مذكراته عن الصدر الرحب لكبار المسؤولين الصينيين وثقتهم بالمنظمة الجديدة فيقول انه ذهب الى السفارة الصينية في القاهرة في فبراير (شباط) ١٩٦٥ وأعلن رغبته بزيارة الصين وفي غضون اربعة ايام من اعلان هذه الرغبة زار السفير الصيني مقر المنظمة لينقل الى الشقيري ترحيب الرفيق شو ان لاي بالزيارة ويترك اختيار الموعد والوفد له وان الدعوة هي لشخص الشقيري في منصبه كرئيس للمنظمة !!. وقد قوبل الوفد الفلسطيني بالترحاب والتقدير وعومل وكأنه وفد رسمي لدولة مستقلة(١٧). وعند الكتابة عن الوفد ونشاطاته وصفت المجلة الرسمية بكين رفيو الشقيري باستمرار « الرئيس الشقيري »(١٨)، وعند مقابلة الشقيري لشو ان لاي بعيد وصوله بقليل انصت الرئيس الصيني بامعان لمدة « ساعتين متواليتين » وفي نهاية الجلسة وافق بترحاب على كل طلبات رئيس المنظمة الفلسطينية فعاد الوفد الفلسطيني محملا بوعود المساعدة وبواخر السلاح في طريقها الى الفلسطينيين والاذن بارسال من يتدرب من جيش التحرير في المدارس العسكرية الصينية . وترك الوفد الصين وسط أعلى مراتب الشرف والحفاوة مما كان له بالغ الاثر في نفوس ومعنويات اعضاء الوفد الفلسطيني. كما منح الرئيس الصيني المنظمة بناية لتبدأ عملها فورا(١٩).

وفي عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ، في ١٥ مايس في اجتماع دعت اليه المنظمة الدائمة للكتاب الافريقيين — الاسيويين ومنظمة الصحفيين الافريقيين — الاسيويين في بكين لمساندة الشعب الفلسطيني ، خطب السيد رشيد جربوع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية واشاد بالعون المادي والمعنوي الذي تقدمه الصين للشعب الفلسطيني(٢٠).

ترى ما هو السبب الذي يدعو هذه الدولة العظيمة الى مساندة حركة من هذا النوع لا تزال في مهدها ولم يكن بامكانها ان تحبو بعد ومع ذلك فان الصين تضع تحت تصرفها ومن دون مقابل كل ما ارادته رغم ان الصين هي بلد نام وصغير وفي وسط مشاكل في غنى عن التدخل في شؤون الاخرين ؟ ترى هل أعطى الصينيون الحركة أكثر مما تستحق . أم ماذا ؟

ان الجواب بسيط فان ماوتسي تونغ عندما بدأ زحفه الكبير ووصل بعد مشقة الى النصر بعد ان مشى ورفقاءه ٦٠٠٠ ميل ودام كفاحه عشرين عاما رغم كل النصائح بالكف عن كفاحه والقبول بالتوفيق، ليس من المعقول الا ان يساند هذا الرجل وشعبه اناسا يشبهون في قضيتهم آمال الصينيين حين بدأوا كفاحهم ؟! هذا وقد ساعدت الصين قبل عشر سنوات حركة تحرير الجزائر التي اعتبرها معظم العالم غير واقعية وهي الان دولة مستقلة بكل ما للكلمة من معنى . وماذا عن تضامنهم الايديولوجي ؟ ان هذه الاسباب وغيرها بالطبع كانت وراء نيات الصينيين رغم ان هناك اسبابا اخرى قد تكمن وراء ما ذكرناه . المهم انهم كانوا من اولى الدول — ان لم يكونوا الدولة الوحيدة — التي وثقت بالمقاومة ومدتها بالعون والمساعدة. وقد حاول بعض المهتمين بشؤون الشرق الاوسط (ومن القلائل من صحفيي الغرب الذين لا يناصبون العمل الفدائي العداء) باحصاء المنظمات الفدائية التي تعتمد كليا في تسليحها على الصين وقال ان خمسا من المنظمات الفدائية أعلنت رسميا بأنها تستلم معظم أسلحتها من الصين(٢١).

وعندما أعلنت الامم المتحدة اعادة حق الصين الشرعي في مقعدها بمجلس الامن وفي مكانها في المنظمة الدولية وطردت فرموزا كتبت مجلة « صوت فتح » معلقة على هذا الحدث قائلة : « المقاومة الفلسطينية ترحب استعادة الصين حقها الشرعي في الامم المتحدة لان الصين هي أقرب دولة للمقاومة في اتجاهاتها نحو التحرير في الاستراتيجية والتطبيق »(٢٢) وفعلا عمت المقاومة الفلسطينية موجة من الفرح والاستبشار لان الصين سوف لن تكون الا عونا لهم في هذا المنبر الدولي خاصة وانها تعلن في كل مناسبة تأييدها المطلق للشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة فحينما احتلت مقعدها في الامم المتحدة وفي اول مناقشة لقضية فلسطين والشرق الاوسط وقف رئيس الوفد الصيني السيد جياو كوان هاو ونائب وزير خارجيتها في الثامن من شهر ديسمبر (كانون الاول) في الامم المتحدة وهاجم الولايات المتحدة لمساندتها اسرائيل وأعلن رئيس الوفد الصيني بأن « الحكومة ، ووراءها الشعب الصيني ، يقفون دوما مع الشعب الفلسطيني والشعب العربي ، وجميع المعتدى عليهم ، ونساندهم باصرار في كفاحهم ونقدم لهم المساعدة الى أقصى امكانياتنا »(٢٣). وطالب بأن يقوم العرب بتقرير مصيرهم ورفض الحلول الخارجية التي تريد فرضها محادثات الدول الاربع الكبرى ، فقال : « ان مصير الفلسطينيين وغيرهم من الشعوب العربية يجب ان تقرره هذه الشعوب ، شؤونهم يجب أن يديروها بأنفسهم . اننا نعارض كل الطرق التآمرية للعدوان والتخريب والسيطرة والتدخل الذي تمارسه الدول الكبرى على الشعوب والاقطار العربية »(٢٤).

وقد استمرت سياسة التأييد هذه للقضية الفلسطينية الى يومنا هذا ففي مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر في ايلول ١٩٧٣ تقدم الوفد الصيني بالاشتراك مع الوفد الموريتاني والجزائري بمشروع خاص بفلسطين والذي يدعو الى اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية « هي الممثلة الشرعية الوحيدة للشعب الفلسطيني »(٢٥).

وضعت الخطوط العريضة للسياسة الصينية تجاه القضية الفلسطينية نتيجة الظروف الموضوعية والايديولوجية ومن تجارب الصين الدبلوماسية وخاصة في تاريخها الحديث . وان هذه السياسة دعت باستمرار الى مساندة الشعب الفلسطيني والاشادة بكفاحه بكل قوة رغم ان هذه الحركات التحررية الفلسطينية لم تلتزم بالخط الصيني الايديولوجي وفي معظم الاحيان حاولت تجنب الخوض فيه .

ترى لماذا التجأت الحركات التحررية الفلسطينية الى الصين دون غيرها من دول العالم ؟ ولماذا احتضنتها الصين ؟! لقد قبلت الحركة الفلسطينية مساندة الشعب الصيني وحكومته لعدة اسباب على رأسها التأكيدات الايديولوجية التي اطلقتها الحكومة الصينية بمساندة الحركات التحررية في العالم والامثلة الحية على ذلك في العالم العربي هي الجزائر وقد قاسى شعب الصين من الاضطهاد الاستعماري نفسه وبذلك يكون اكثر تفهما لامال الشعوب المضطهدة هذا بالاضافة الى انه جابه حرب تحرير شعبية طويلة فهو شعب ملم بآلام تلك الحروب ... وينظر معظم الفلسطينيين الى الصين بأنها جزء من العالم الثالث وليس لها ولم يكن لها مطمع استعماري في المنطقة ولهذا زادت ثقة المنظمات الفلسطينية بالصين الشعبية .

أما لماذا تساعد الصين الحركات التحررية في العالم العربي بصورة عامة والحركة الفلسطينية فأسباب ذلك اولا ايديولوجية وانسانية ، فالصين ترى ان الحرب الشعبية والكفاح المسلح هي الطريقة الوحيدة للخلاص من القوى الاستعمارية وبالتالي تخليص العالم من كارثة حرب عالمية هذا بالاضافة الى ان ايديولوجيتهم تؤكد بأن الامبريالية هي فريق حرب وان أية ضربات تسدد الى الامبريالية انما تقوي فريق السلام الذي هو المعسكر الاشتراكي وتضعف بالطبع فريق الحرب الامبريالي[26]. وبذلك قد يعيش العالم سعيدا اذا ما سددت ضربات للامبريالية العالمية في كل مكان . والمقاومة في وقتها الحاضر تدعو الى نظام ضد الامبريالية العالمية ولا بد لها ان تقوي كتلة المعسكر المعادي للغرب بصورة خاصة والامبريالية العالمية وهي بطريق غير مباشر ترجح كفة فريق السلام الذي تكوّن الصين جزءا منه .

الدكتور طارق يوسف اسماعيل

---

١ — **الاهرام** ، ١٦ ابريل ١٩٥٥ .

٢ — *New York Times*, April 16, 1955

٣ — *New York Times*, April 22, 1955

٤ — *Documents on International Affairs, The Bandung Conference* (London: Oxford University Press, 1955), p. 428.

٥ — **الجمهورية** ، القاهرة ، ١٧ مايو ١٩٥٦ .

٦ — **الاهرام** ، ٨ نوفمبر ١٩٥٦ .

٧ — Randa Farra, «The Chinese People's Republic and the Arab World,» *Middle East Forum*, Vol. XLII, Vo. 1, Winter 1966, p. 45.

٨ — *Ibid.*

٩ — *Ibid.*

١٠ — *Ibid.*

١١ — *Peking Review*, No. 13, March 27, 1964, p. 12.

١٢ — *Peking Review*, No. 21, May 22, 1964, p. 7.

١٣ — Farra, *op. cit.*, p. 47.

١٤ — *Peking Review*, No. 38, September 18, 1964, p. 9.

١٥ — See Tareq Y. Ismael, *The Middle East in World Politics* (Syracuse: Syracuse University Press, 1973), Chapter 6.

١٦ — **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤** ، (بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٦) ص ٣١٨ .

١٧ — احمد الشقيري ، **من القمة الى الهزيمة ، مع الملوك والرؤساء** ، (بيروت ، دار العودة ١٩٧١) ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

١٨ — *The Peking Review*, No. 13, March 26, 1965, pp. 5-6.

١٩ — الشقيري ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٢ .

٢٠ — السكرتارية العامة للصحفيين الافريقيين — الاسيويين ، **تأييد حازم لنضال الشعب الفلسطيني** ، (بكين ، ١٩٦٧) ص ٧ .

٢١ — John Cooley, *Christian Science Monitor*, August 1970.

٢٢ — *Free Palestine* (London), December 1971 - January 1972, Vol. 4, No. 12 and Vol. 5, No. 1.

٢٣ — American Consulate General, Hong Kong, *Survey of China*, Mainland Press, No. 5037-5040, December 20-23, 1971, pp. 32-33.

٢٤ — *Ibid.*

٢٥ — **النهار** ، ٥ ايلول ١٩٧٣ .

٢٦ — G.H. Jansen, *Non-Alignment and the Afro-Asian States* (New York: Praeger, 1966), pp. 168-171.

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

عندما أقر المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة البرنامج المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية نشأ ادراك مواز بأن تحقيق هذا البرنامج مرهون بمسألتين : الاولى تصعيد الكفاح المسلح والثانية المحافظة على الوحدة الداخلية لحركة المقاومة . فالنقاط العشر ليست هي، بحال، الحل الناجز الجاهز للتنفيذ ، وانما هي في الاساس **برنامج نضالي** ، برنامج مطروح للنضال ، يتطلب تحقيقه ان تكون **القدرة الذاتية الفلسطينية** أكثر حسما في دائرة الفعل ، واوقع تأثيرا في موازين القوى الراهنة ، لتتمكن بالتالي من ترجيح الكفة الى جانب مصلحة الشعب الفلسطيني راهنا وفي المدى التاريخي . فاذا كان التحرك السياسي الموصوف بالنضال السياسي هو أحد مظاهر هذه القدرة ، فانها تكشف عن مكوناتها الحقيقية بالكفاح المسلح الذي احال الوجود الفلسطيني من كم هامشي التأثير او تبعي الفعل قبل انطلاق الثورة الفلسطينية الى كم ذي هوية وكيف صانع في الاحداث بعد انطلاقتها ، بحيث صار في الامكان ترداد ما أكده الاخ ابو عمار (في حديث لاذاعة الثورة الفلسطينية — وفا ٦/١٨) من « ان احدا لا يستطيع ان يتجاهل شعبنا، وان احدا لا يستطيع ان يحل مشكلة المنطقة ويتجاهل الشعب الفلسطيني » . بجانب ذلك فاذا كان الكفاح المسلح هو اداة كشف القدرة الفلسطينية فان مسبار **مصداقيتها** هو الوحدة الداخلية لحركة المقاومة : وحدة كل فصيل منها على حدة ، ووحدة فصائلها ضمن اطارها الجبهوي ، ووحدة تماسكها مع جماهيرها . ودون هذه الوحدة فان كل حديث عن برنامج نضالي يصبح قبض ريح ما دامت حركة المقاومة غير قادرة على تجاوز تعارضاتها الثانوية واخضاعها لمصلحة التناقض الرئيسي بينها كمجموع وبين اعدائها الوطنيين والقوميين . كما ان مسألة التمثيل الفلسطيني (وهي مسألة مركزية في النضال الفلسطيني متعلقة بالوجود نفسه) تصبح قابلة للاختراق والنقض دون ضمان وحدة الموقف ازاء القضايا المطروحة .

وبالتأكيد ، فان عملية نهاريا في ٦/٢٥ كانت تجسيدا لهذا المعنى ، معنى الكشف عن القدرة الذاتية الفلسطينية ومدى تأثيرها في تشكيل مسار الاحداث في المنطقة . وعملية نهاريا كانت واحدة من سلسلة عمليات متشابهة تمت في الفترة الماضية، نظر اليها ، اعلاميا وتعبويا ، من منظارين مختلفين: الاول يراها طريقا الى السلطة الوطنية والثاني يراها تجسيدا للرفض ، غير ان نتائجها العملية — وهو ما ادركته اسرائيل — انها في سبيل تغيير موازين القوى لغير مصلحتها ، سواء على صعيد العلائق الصراعية المباشرة (الفلسطينية — الاسرائيلية) أم انعكاسات هذه العلائق دوليا ، ومردود كل ذلك على جهود التسوية المبذولة حاليا. وقد عبر شمعون بيريز ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، عن هذا الادراك للدكتور كيسنجر عندما اقتحمت انباء عملية نهاريا غرفة اجتماعهما فشرح له «التأثير السلبي » للعمليات الفدائية على مساعي التسوية السلمية في الشرق الاوسط (وكالات الانباء ٦/٢٥). وبطبيعة الحال فان هذا التأثير سلبي من وجهة النظر الاسرائيلية بمقدار ما يعطل التسوية بمفهومها الاسرائيلي ، وهو ايجابي من منظور فلسطيني بمقدار ما يقحم العنصر الفلسطيني في عملية تكوين ملامح الاحداث ويجعله انشط فعلا في المحصلة .

وينبغي الا يفهم من هذا ان مسألة اقحام العنصر الفلسطيني جاءت فقط من خلال هذه العمليات

الاخيرة ، فان استمرار الكفاح المسلح طوال الاعوام الماضية والتصميم الفلسطيني على هذا الكفاح هما اللذان خلقا « حالة في العالم » فرضت الوجود الفلسطيني ليس على مسار الاحداث فحسب وانما في تصميم نتائجها القادمة في المدى المنظور . ويجب هنا ان نستدرك بأن نتائج حرب تشرين العسكرية والسياسية في اسرائيل كانت عاملا ايجابيا في تسريع توليد هذه الحالة ، التي ظهرت ابرز ملامحها في الشهر الفائت في البيان السوفياتي — الاميركي المشترك اثر زيارة نيكسون الى الاتحاد السوفياتي والذي صدر في ٧/٣ بنص يؤكد انه « ينبغي ان تؤخذ ابان هذه التسوية في الاعتبار المصالح المشروعة لجميع شعوب الشرق الاوسط بما في ذلك الشعب الفلسطيني وحق جميع دول هذه المنطقة في الوجود » . وعلى الرغم من هذه الموازاة بين « المصالح المشروعة » للشعب الفلسطيني و « حق جميع دول هذه المنطقة في الوجود» التي قصد بها «حق اسرائيل في الوجود»، على الرغم من هذه الموازاة بين موضوعتين متنافيتين فانها تشير بوضوح الى ان الوجود الفلسطيني أصبح كثيفا قادرا على خلق التعادل بين طرفي الصراع بعد ان كان الطرف الفلسطيني في المعادلة منسحقا طوال السنوات التي سبقت الثورة الفلسطينية أمام وطأة التفوق الاسرائيلي .

لقد فرضت هذه الحالة نفسها حتى على معسكر الاعداء انفسهم وقد تأكد ذلك في الجدل الذي يدور حاليا بين صانعي القرار الاسرائيلي وفي الرأي العام الاسرائيلي حول القضية الفلسطينية وضرورة حلها والاعتراف بالكيان الفلسطيني . فقد انتهت الى الابد مرحلة عبرت عنها جولدا مئير بقولها : « الفلسطينيون ؟ أين هم ؟ » وبدأت مرحلة جديدة فرض فيها الفلسطينيون أنفسهم بقوة السلاح على العقل الاسرائيلي في عملية اختراق ان كانت بطيئة فعلا (استمرت من ١٩٦٥ حتى الان) فهي مثابرة مصممة ، استطاعت بتصميمها احتلال جيب ستظهر نتائجه فيما بعد من حيث انه استطاع ان يمزق ولاول مرة « الصمود » الاسرائيلي الذي اراده بناة الدولة الا يقهر .

وكما تمكنت هذه الحالة من فرض نفسها على اسرائيل فقد تمكنت من ان تفعل الشيء ذاته بالنسبة لاميركه . سئل جوزيف سيسكو امام اللجنة الخارجية في مجلس النواب الاميركي (٦/١٣) عن دور الفلسطينيين المحتمل في مؤتمر جنيف فاجاب انه لن يكون هناك سلام **مضمون** اذا « لم نأخذ المصالح المشروعة للفلسطينيين بعين الاعتبار » . وعندما سئل عن معنى المصالح المشروعة اعترف بأن هذه تسمية لتجنب استعمال عبارة « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني .

اذن فان ابرز معالم هذه الحالة التي فرضتها القدرة الذاتية الفلسطينية هي كما يلي : هناك قضية فلسطينية ، وان السلام في المنطقة مرهون بحل هذه القضية الذي يعتمد على اشباع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . غير ان الاعتراف بهذه الحالة ، حتى من جانب المعسكر الاميركي — الاسرائيلي ، لا يعني انها وصلت الى عتبة الحل العملي الذي ينسجم مع عناصر هذه الحالة ، كما لا يعني ان المعسكر الاميركي — الاسرائيلي على استعداد **طوعي** للتسليم بنتائجها **المتمثلة مرحليا** ببرنامج النقاط العشر الذي أعلنه المجلس الوطني والذي محوره الاساسي النضال من أجل قيام السلطة الوطنية على الاجزاء التي تتحرر من فلسطين . فاسرائيل تدرك معنى قيام كيان فلسطيني مجسد بواقع جغرافي ومسلح بتراث نضالي طويل الى جوارها . أعلن بيريز امام عدد من الصحافيين الاميركيين في القدس (٦/١٠) انه « لا يمكن أي مسؤول اسرائيلي واقعي ان يتصور اقامة دولة على ابوابنا هدفها المعلن تدمير دولة اسرائيل ولو على مراحل ... علينا الا ننسى ان هذه الدولة ستكون من دون شك مسلحة بواسطة الاتحاد السوفياتي ، وان مدننا ستكون في هذه الحالة ضمن مجال المدافع السوفياتية التي يسيطر عليها رجال لم يتخلوا مطلقا عن فكرة القضاء علينا » .

بجانب ذلك فان استذكار ان استراتيجية اميركه في المنطقة لم تنحرف عن احد اساساتها الدائمة وهو وجود « اسرائيل قوية » يولد القناعة الواعية بأن اميركه ان اعترفت **بوجود حقوق** للشعب الفلسطيني فان تفسيرها للحقوق — التي هي في صلبها **نفي** لوجود اسرائيل نفسها — سيكون منطلقا ضمن أفق تعهري **مهمته** اضعاف الشعب صاحب الحق من جانب ، وتقزيم الحقوق نفسها من جانب آخر . ويؤكد هذا الامر ان الهجمة الاميركية (السياسية — الاقتصادية) التي أعقبت

حرب تشرين والتي تكاد تصبح نكسة في مسار النضال العربي الذي خرج من الحرب وهو في اوج انتصاراته ، هذه الهجمة هدفها الحقيقي اعادة ترتيب اوضاع المنطقة العربية بما يخدم استمرار النفوذ الاميركي في المرحلة القادمة ، وهو امر يتناقض جذريا مع بقاء الحالة الثورية الفلسطينية ويتناقض كذلك مع طموحاتها ، حتى المرحلية منها ، وتفسيراتها للحقوق الفلسطينية . وهكذا فان الاستخلاص الوحيد هنا هو ان اجهاض الحالة الثورية الفلسطينية يصبح احدى المهام الرئيسية في استراتيجية معسكر العدو التي تنهج ضمن مسارين اضعاف صاحب الحق وتقزيم الحق نفسه. وخلال الشهر الفائت ظهرت بعض الملامح التكتيكية لهذا المسار في المحور الاميركي — الاسرائيلي ، يمكن ان ترصد كما يلي :

ان اقوى عناصر المعادلة الفلسطينية ان الهوية « الكيانية » الفلسطينية توحدت مع الهوية النضالية الفلسطينية واصبحتا وجهين لعملة واحدة (عبر عنها احيانا بكل فلسطيني فدائي ، كل فلسطيني مخرب) .

وقد نتج ذلك عن حقيقة واحدة هي التحام المقاتل الفلسطيني بجماهيره الفلسطينية العريضة والتفاف هذه الجماهير حول المقاتل الفلسطيني وتمسكها به . وقد أعطت هذه الحقيقة مسألة التمثيل الفلسطيني معناها النضالي بحيث أصبحت المقاومة الفلسطينية هي المعبرة عن ارادة الفلسطينيين ، بعد ان تجلت هذه الارادة — من منظور آخر — بالمقاومة نفسها . اذن فان فصم الالتحام بين المقاومة وجماهيرها الفلسطينية يعتبر **غرضا** تجدر المراهنة عليه ضمن المحور الاميركي — الاسرائيلي ، لتحقيق هدف أبعد من ذلك هو تجسيد الرغائبية الاسرائيلية بألا تكون منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للفلسطينيين . (رابين « حكم » في مؤتمر الاممية الاشتراكية بأن منظمات « الارهاب » لا تمثل الفلسطينيين ، وبيرس « أكد » لمجلة تايم ان منظمة التحرير الفلسطينية لا تمثل الفلسطينيين فهي مجموعة صغيرة فرضت نفسها على الشعب الفلسطيني (ر.أ.ف. ٧/١) . ان محاولة فصم هذا الالتحام بين المقاومة وجماهيرها اتخذت لها أكثر من شكل أبرزها «الاقتناع الدموي» لسكان المخيمات بالتخلي عن المقاتل الفلسطيني .

وكان ابرز ملامح هذا « الاقناع » في الشهر الماضي قصف مخيمات الفلسطينيين (في ٦/٢٠ الغارات الابادية على مخيمات عين الحلوة والبرج الشمالي والرشيدية) في محاولة واضحة لعزل المقاتل الفلسطيني عن صفوف الجماهير وبذلك تتحول المقاومة الى مجرد عصابات مسلحة خارجة عن حماية الجماهير ومنسلخة عنها فتسهل تصفيتها ، او نزع الصفة **التمثيلية النضالية** عنها . ويمكن استكمال صورة « العصابات المطاردة » هذه المكروهة المعزولة غير ذات الجذور ، في تأليب الجماهير العربية على المقاومة ووضع مصالحها في تناقض مع وجود المقاومة نفسه . في ٦/١٨ اغارت ٣٨ طائرة اسرائيلية على قرى الجنوب اللبناني ، ايضا في عملية « اقناع دموي » بأن الثمن الذي يدفعه المواطن العربي مقابل رضاه بوجود المقاومة الى جانب بيته او في بيته هو ابنه او زوجه او والده . وفي ٧/٨ قامت الضفادع الاسرائيلية بنسف زوارق الصيادين في بعض موانىء الصيد في جنوب لبنان في عملية « اقناع اقتصادي » هذه المرة بأن مصلحة المواطن العربي هي ان يمتنع عن منح حمايته لرجال المقاومة ، بل أكثر من ذلك بأن يحاصرهم ويعزلهم . وبطبيعة الحال فان « حث » الدول العربية المعنية هنا على اتخاذ اجراءات ضد حركة المقاومة تدخل ضمن أبعاد الصورة .

ان التنسيق الاميركي — الاسرائيلي هنا واضح، وكان دليله المعلن ما ورد في البيان الذي صدر في ٦/١٧ عن محادثات نيكسون في اسرائيل ، فقد نص البيان على ان الطرفين « اتفقا على ان الدول التي عاشت في سلام يجب ان تقيم علاقات تنسجم مع مبادىء ميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي الذي ينص على **ان من واجب كل دولة ان تمتنع عن تشجيع تنظيم قوات غير نظامية او جماعات مسلحة من ضمنها مرتزقة بهدف التسلل الى اراضي دولة اخرى** » . وكان هذا البيان ضوءا أخضر امام اسرائيل مارست بدءا من اليوم التالي لصدوره قصفها قرى الجنوب اللبناني ومخيمات الفلسطينيين .

باجمال فان القصد هنا واضح هو اضعاف القدرة الفلسطينية عن طريق عزلها عن الجماهير ومحاصرتها . ومن اسف اننا اسهمنا ، بغير وعي ،

في هذا القصد. نبغض النظر عن الاسباب والدوافع التي ادت الى الاشتباكات التي حصلت بين فصيلين من فصائل المقاومة في ٦/٢٨ في بعض المخيمات الفلسطينية في لبنان ، فان نتائجها ، ان تكررت ، ستصب الماء في طاحونة زعزعة الثقة بين الجماهير وفصائلها المقاتلة .

ان اضعاف القدرة الذاتية الفلسطينية اتخذ له الى جانب ذلك وسائل اخرى لخصها اسحق رابين الى مجلة « نيوزويك » الاميركية بقوله « في هذه المرحلة نحاول اغلاق الحدود بزرع الالغام واقامة الاسوار وبواسطة معدات الكترونية . وسوف نضرب المخربين في كل مكان وزمان ، في مراكز تجمعهم وقياداتهم وفي المخيمات » (ر.١٠أ. ٧/١) أي الخطة الشاملة المبادرة التي لا تنتظر قيام المقاومة بعملية كي ترد عليها انتقاميا وانما نقل الحرب الى الجانب الفلسطيني نفسه . وقد ترددت في الشهر الماضي انباء عن تفصيلات هذه الخطة الشاملة منها ما اوردته صحيفة «معاريف» الاسرائيلية عن الدعوة الى تشكيل فرق انتحارية من الاعضاء السابقين للقوات الخاصة للعمل على تصفية الفدائيين وقواعدهم في جنوب لبنان بطريقة سرية . (وكالات الانباء ٧/٨) . ومنها كذلك الحوار الذي دار في اسرائيل حول تشكيل هيئة خاصة لمحاربة الفدائيين ، فقد اوردت الاذاعة الاسرائيلية (٦/٢٩) ما يلي : « علمنا ان الحكومة ستجري نقاشا شاملا حول هذا الموضوع ، ونعلم ايضا ان ثمة نقاشا بين وجهتي نظر ، الاولى ان على الحكومة بكاملها ان تعالج قضية مكافحة الارهاب وتحديد سياسة لكل عملية ، وفي المقابل هناك وجهة نظر اخرى ترى تحديد سياسة معينة من قبل الحكومة على ان يترك التنفيذ لهيئة خاصة جديدة تركز جهودها لمحاربة الارهاب » .

ان اضعاف صاحب الحق الفلسطيني يوازيه خط آخر يسعى الى تقزيم الحقوق الفلسطينية وتعهيرها . والمحور الاساسي الذي يدور حوله هذا الخط هو ادخال النظام الاردني طرفا رئيسيا وربما وحيدا في معالجة القضية الفلسطينية . اكد اسحق رابين ذلك في مؤتمر قطري لزعماء الكتل وسكرتاري مجالس العمال وفروع حزب العمل في اسرائيل بقوله « انني مقتنع بأنه في ضوء ضرورة حل المشكلة [المشكلة الفلسطينية] وفي ضوء ضرورة اقامة اساس سياسي متين لمطالب اسرائيل، فان الشريك الوحيد ، على الاقل الذي يمكن التوصل معه لحل هذه القضية ، هو النظام الاردني » (ر.١٠أ. ٧/١٥) كما أكد كيسنجر هذا الاتجاه قبل ذلك في مؤتمر صحافي عقده في القدس (٦/١٧) سئل فيه عن كيفية « حمل » الفلسطينيين على المفاوضات فأجاب « ان هناك خطوات عدة والخطوة الاولى هي عن طريق المفاوضات بين اسرائيل والاردن **بوصفه صاحب الخلفية التاريخية في القضية الفلسطينية** ، وموافقة مبدئية من جانب اسرائيل على البحث مع الاردن » . ان استحضار تاريخ علاقة النظام الاردني بالقضية الفلسطينية يجعل هدف تركيز القضية الفلسطينية بين ايدي هذا النظام معروفا كما ان النتائج تغدو متوقعة . ويبدو ان الولايات المتحدة مصممة حتى الان على هذا الاتجاه ، فالنظام الاردني لم يستنفد اغراضه بعد ضمن السياسة الاميركية في المنطقة ، وبالتأكيد فان الولايات المتحدة ستلعب ورقة هذا النظام حتى الشوط الاخير ، ولكي تكون الورقة رابحة فان الدعم الاميركي للنظام الاردني سيتخذ مجالات شتى عبر عنها البيان المشترك الاميركي — الاردني الذي صدر في ٦/١٨ في ختام زيارة نيكسون الى الاردن بالنص على انه « تم الاتفاق على تشكيل **لجنة اردنية — اميركية وعلى مستوى عال** لتتابع بصورة منتظمة ، وتشرف على مختلف مجالات التعاون بين الاردن والولايات المتحدة **في حقول التنمية الاقتصادية والتجارة والاستثمار والمساعدات العسكرية والشؤون العلمية والاجتماعية والثقافية** » .

ولقد حددت « فلسطين الثورة » (٦/١٩) احدى المهام الاساسية المطروحة امام القيادة الفلسطينية الجديدة بأنها « التصدي للمسألة الاردنية بوضوح وشجاعة ، فالنظام الاردني العميل لا زال يدعي تمثيله للشعب الفلسطيني ، ولا زال يقف بصلابة في وجه تنفيذ اتفاقيتي القاهرة وعمان ، ولا زال يزج بمناضلينا في سجونه ويمارس كل اصناف القمع والعنف ضد شعبنا ، وهذه قضايا لا بد من حسمها قبل الدخول في التفاصيل الاخرى الخاصة بالمسألة الاردنية » ، غير انه لا بد من ان يضاف الى ذلك ايضا انه ينبغي **فهم الدور الوظيفي للكيان الاردني وتحديد موقف حاسم**

ازاءه ومعالجة القضايا المطروحة من خـــلاله استنادا الى وعي ابعاد هذا الدور في المنطقـــة وعيا فاعلا يدخل في حسابه انهاء هذا الدور بانهاء الاسس الموضوعية والذاتية التي يقوم عليها ، وهي بالاضافة الى انها مهمة وطنية اردنية فانها ايضا احدى التحديات التي تواجه الحركة الوطنية الفلسطينية ما دام البعد الرئيسي للدور الوظيفي للكيان الاردني موجها الى القضية الفلسطينية في الاساس .

باجمال ، ان اثبات القدرة الذاتية الفلسطينية هي التحدي الكبير الذي يواجه حركة المقاومـــة والشعب الفلسطيني ، كما ان تحييد هذه القدرة او ابطال مفعولها هو الهدف المرحلي في المحـــور المعادي ، وربما يجوز التأكيد ان ملامح الصراع في المنطقة محكومة بهذه المسألة ، كما ان النتائج القادمة في المدى المنظور المترتبة على هذا الصراع ستكون مرهونة ايضا بهذا الاثبات او نفيه .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

وصل التحرك السياسي الامريكي الامبريالي الذي بدأ بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ في منطقتنا الى ذروته في الجولة التي قام بها الرئيس نيكسون الى الشرق الاوسط في منتصف شهر حزيران حيث زار كلا من مصر والعربية السعودية وسوريا واسرائيل والاردن . وقد أكد هذه الحقيقة ناطق باسم البيت الابيض حين صرح عشية الجولة بأن هدفها هـــو تأكيد الجو الجديد الذي طرأ على المنطقة بعد الحرب وتعزيزه على أعلى المستويات . كما أكد ذلك الرئيس نيكسون نفسه في رسالة رسمية بعث بها الى الرئيس فرنجيه اعتذر فيها عن زيارة لبنان وقال فيها ان بلاده أصبحت ملزمة بمتابعة جهودها « في سبيل سلام عادل ودائم في المنطقة » بعـــد فصل القوات الذي جرى في الجبهتين المصريـــة والسورية . كذلك أعرب نيكسون عن افتخـــار امريكا بدورها في تحقيق فصل القوات هذا وعن كون هدف جولته هو تأكيد دعم بلاده للمبادرات السلمية القائمة في المنطقة في تصريح له في النمسا حيث حط لفترة قصيرة قبل وصوله الى مصر .

وصل الرئيس الامريكي الى القاهرة في ١٢ حزيران حيث لقي استقبالا رسميا وشعبيا حافلا لم تر مصر شبيهه منذ فترة طويلة . واستقل سيارة مكشوفة مع الرئيس السادات من المطـــار الى مقر اقامته الرسمية . وكان الجانب الامريكي قد اعلن ان الزيارة تمت بناء على دعوة الرئيس السادات وان هدفها هو المزيد من تدعيم العلاقات بين البلدين وتقوية التفاهم المتبادل بينهما وتقوية الصداقة بين شعبيهما . وبالمقابل أعلن الطرف المصري ان هدف الزيارة هو زيادة العلاقـــات بين مصر والولايات المتحدة قوة وتنمية التفاهم والصداقة المتبادلين بين شعبيهما .

ومن مظاهر التكريم التي حظي بها نيكسون في مصر تقليده قلادة النيل وهي أرفع وسام مصري موجود . ولا شـــك ان مغاز سياسية هامة تترتب على مظاهر الحفاوة والترحيب التي حفلت بها زيارة نيكسون لمصر لها علاقة وثيقة بالتحالف السعودي المصري الامريكي الذي أخذ يهيمن عربيا منذ انتهاء حرب اكتوبر .

وقد اشار الرئيس السادات في خطابه الترحيبي الى هذه الامور بقوله ان زيارة نيكسون لمصر تعني فتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بين البلدين وتكشف التغيير الذي حدث في استراتيجية نيكسون خاصة والاستراتيجية الامريكية عامة . كما اشار الى ان المنطقة تمر لاول مرة في تاريخها المعاصر بنقطة تحول بحيث أصبح المناخ مؤاتيا أكثر من أي وقت مضى لاحلال سلام دائم بها . وشدد الرئيس السادات في خطابه على أهمية القضية الفلسطينية وعلى كونها المصدر الاساسي لمتاعب المنطقـــة والمعضلة التي لا يمكن احلال السلام بدون حلها ، اذ ان السبب الحقيقي للازمة ، على حد قول السادات ، هو العدوان الذي ارتكب ضد الشعب الفلسطيني وحرمانه بقوة السلاح من وطنـــه وممتلكاته وتحويله الى الحياة في الخيام حيث يقاسي الاغتراب . مما يعني ان الحل السياسي واحترام

الاماني الوطنية للفلسطينيين هما جوهر المشكلة كلها . وليس هناك من طريق اخر ولا حل آخر يؤديان الى سلام دائم بدون ايجاد حل سياسي للمشكلة الفلسطينية . أوضح السادات ان هذا لا يعني بأي حال من الاحوال تصفية اسرائيل كما يدعي الاسرائيليون لتبرير مخططاتهم التوسعية . كما اوضح انه تعمد الحديث من هذه المشكلة لان حلها امر لا غنى عنه لتحقيق السلام العادل والدائم . واشاد السادات بالتغير الذي احدثته حرب اكتوبر في السياسة الامريكية معتبرا ذلك من الانجازات الهامة والايجابية للحرب .

أما رد نيكسون على خطاب السادات فقد شدد على تأثره بالاستقبال الشعبي الكبير الذي لقيه في شوارع القاهرة ، وعلى ان تحقيق اتفاقيات فصل القوات قد ارسى الاساس لمزيد من التقدم في المستقبل ، ولكنه تجاهل ما طرحه السادات حول القضية الفلسطينية وأهميتها ولم يشر اليها الا مداورة وبشكل عام جدا حيث قال ان الرئيس المصري اشار الى « بعض القضايا الصعبة والمعقدة التي لا تزال قائمة في المنطقة » مضيفا الى ذلك بأنه لم يأت لا هو ولا الدكتور كيسنجر بأية حلول جاهزة لهذه القضايا المعقدة . وان ايجاد حل عادل ومنصف لها سيتطلب قدرا كبيرا من الدبلوماسية من جانب جميع الاطراف المعنيــة .

زار الرئيس نيكسون الاسكندرية حيث لقي ايضا استقبالا شعبيا ضخما اثناء مروره في شوارع المدينة في سيارة مكشوفة ايضا . وفي مؤتمر صحفي عقده هناك شدد على ارتياحه الكبير لهذا الاستقبال قائلا بأن « الجماهير أظهرت شعورا عميقا من الود والصداقة لامريكا على الرغم من ٢٥ عاما من سوء التفاهم بين البلدين » . وانه بحث مع الرئيس السادات طويلا في الطريقة التي يمكن بواسطتها تحقيق اماني هذه الجماهير بصورة فعالة وبدون تخييب آمالها . واضاف انه ليس بالامكان تحقيق كل شيء في زيارة واحدة وان الرئيس السادات يعرف تماما انه لا يمكن تسوية قضية الشرق الاوسط الا على مراحل .

وفي الخطب التوديعية التي ألقيت عاد الرئيس السادات الى التشديد على ان اتفاقات الفصل بين القوات على أهميتها الكبرى في تغيير المناخ العام ليست الا تسوية لمشكلة عسكرية ، وان محور القضية كلها في الشرق الاوسط هو تحقيق « المطالب المشروعة » للشعب الفلسطيني وانه ما لم يتم ذلك فستتضاءل فرص السلام الحقيقي والدائم في المنطقة . كما رحب من جديد « ومن أعماق القلوب » بالموقف الامريكي الجديد وعبر عن تطلعه بكل رضى وترحيب الى استمرار هــذه الروح الجديدة وهذه السياسة الايجابيــة بين البلدين . أما الرئيس نيكسون فقد عاد الى التعبير عن رضاه في خطابه الختامي عن الاستقبــال الشعبي الذي لقيه واعتبره تأييدا شعبيا لمبادىء العلاقات والتعاون بين مصر والولايات المتحــدة كما أكد ان البيانات والاتفاقات والوثائق التي تم توقيعها خلال الزيارة لن تكون حبرا على ورق لان الطرفين المعنيين مصممان على تنفيذها . الا ان نيكسون تجاهل مرة اخرى ما ورد في خطاب الرئيس السادات حول القضية الفلسطينية والشــعب الفلسطيني و « مطالبه المشروعة » مكتفيا بالاشارة الى انه بعد التقدم الذي تم احرازه حتى الان ما زالت الطريق طويلة امام امريكا وبلدان المنطقة في الوصول الى السلام المنشود وان بلاده تتطلع الى العمل مع حكومات هذه البلدان للوصول الى حلول للمشكلات القائمة اذ ان لها كل مصلحــة جوهرية في احلال السلام .

ومع انتهاء الزيارة صدر بيان مطول وعلى قدر كبير من الاهمية عنوانه « مبادىء العلاقات والتعاون بين مصر والولايات المتحدة الامريكية » . ونص البيان على المبادىء التي تم الاتفاق عليها بين الرئيسين بحيث تحكم العلاقات بين مصر والولايات المتحدة . وفيما يلي أهم ما احتواه البيان :

١) ان السلام العادل والدائم في الشرق الاوسط يعني التنفيذ الكامل لقرار مجلس الامن رقم٢٤٢ بحيث يأخذ بعين الاعتبار المصالح المشروعة لكل شعوب الشرق الاوسط بما في ذلك الشعب الفلسطيني وحق كل دولة من دول المنطقة في الوجود .

٢) يمكن تحقيق السلام عن طريق المفاوضات طبقا لقرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ الصادر في ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ وذلك ضمن اطار مؤتمر جنيــف للســلام .

٣) ان المهمات المطروحة حاليا على حكومتي

مصر والولايات المتحدة هي : (أ) تكثيف المشاورات على كل المستويات بما فيها رئيسي البلدين وتدعيم تعاونهما الثنائي في خدمة قضية السلام في العالم. (ب) مواصلة السعي الدائب من اجل تحقيق السلام في الشرق الاوسط . (ج) تشجيع المزيد من الاتصالات بين المسؤولين في الحكومتين على المستويات التنفيذية والتشريعية والقضائية بهدف تحسين التفاهم المتبادل بين مؤسسات البلدين وتحقيق اغراضهما وأهدافهما المشتركة. (د) التحرك نحو تحقيق علاقات صداقة وتعاون واسعة بين البلدين تكون فيها التنمية الاقتصادية والعلاقات التجارية بمثابة العنصر الجوهري . (هـ) تسهيل قيام المشروعات المشتركة والتعاونية بين المؤسسات الحكومية والخاصة في البلدين وزيادة التجارة بينهما . (و) تشجيع التبادل المشترك في المجالات العلمية والفنية باعتبار هذا يشكل هدفا مشتركا بين البلدين . وسيجري تحقيق خطوات ملموسة على هذا الصعيد عن طريق تبادل العلماء والطلبة وغيرهم من رجال الثقافة لتعميق الروابط الثقافية بينهما . (ز) بذل جهود خاصة لزيادة السياحة بين البلدين وزيادة الاتصالات الشخصية بين مواطني كل منهما وتحسين المواصلات الجوية والبحرية بينهما .

٤) اعتبار اجتماعات الرئيسين بمثابة اول اجتماع للجنة التعاون المشترك المصرية الامريكية التي تم انشاؤها في ٣١ ايار ١٩٧١ . وستستمر هذه اللجنة برئاسة وزيري خارجية البلدين في مشاوراتها على جناح السرعة من أجل تحديد البرامج المشتركة التي يتفق عليها ومن أجل تنفيذها وذلك في الميادين العلمية والثقافية والاقتصادية .

٥) موافقة الولايات المتحدة على المساهمة في دعم هيكل مصر المالي على ان يقوم وزير المالية الامريكي بزيارة مصر في القريب العاجل لاجراء مباحثات من أجل تنفيذ ذلك .

٦) البدء بالمحادثات بين الطرفين لعقد اتفاق حول التعاون في مجال الطاقة النووية بضمانات يتفق عليها بحيث تقوم الولايات المتحدة ببيع مصر مفاعلات نووية ووقود نووي ، كي تتمكن مصر من توليد كميات اضافية كبيرة من الكهرباء لسد حاجاتها . وسيتم عقد اتفاق مؤقت هذا الشهر بين لجنة الطاقة الذرية الامريكية ووزارة الكهرباء المصرية لبيع الوقود النووي لمصر .

٧) الاتفاق على اقامة مجموعات عمل مشتركة تجتمع في المستقبل القريب لاعداد مشروعات محددة ومقترحات تعرض على اللجنة المشتركة بحيث تشمل ما يلي : (أ) مجموعة عمل مشتركة لتعميق قناة السويس وتطويرها تبحث موضوع اعادة فتح القناة وتعمير المدن على امتدادها ودور الولايات المتحدة في هذا المجال . (ب) مجموعة عمل مشتركة تبحث وتوصي بالاجراءات اللازمة لفتح المجال أمام الاستثمارات الامريكية الخاصة وامام المشروعات المشتركة في مصر وامام تنمية التجارة بين البلدين وستراعي مجموعة العمل هذه حاجة مصر الى الدعم المالي والفني والمادي وزيادة تنميتها الاقتصادية كما تأخذ بعين الاعتبار رضى الولايات المتحدة وتأييدها للمشروعات التي تقوم بها المؤسسات الامريكية في مصر . كذلك تأخذ بعين الاعتبار ان المشروعات التي يجري التفاوض في شأنها حاليا تتعلق بميادين الصناعات البتروكيمائية والنقل ومعدات الاغذية والزراعة واستصلاح الاراضي وتحسينها ، والسياحة والبنوك وقطاعات اقتصادية اخرى بحيث تبلغ القيمة التصديرية للمشروعات قيد البحث ما يفوق ٢ بليون دولار . كما تأخذ اللجنة بعين الاعتبار أهمية التكنولوجيا الامريكية والرأسمال الامريكي من جهة وطاقة مصر على الاستيعاب وقواها العاملة الماهرة وفرص الاستثمار المنتجة فيها من جهة اخرى بما يسهم بصورة فعالة في دعم الاقتصاد المصري وتطويره علما بأن البلدين سيتفاوضان على الفور لعقد اتفاق حول ضمان هذه الاستثمارات . (ج) مجموعة عمل مشتركة في مجال الزراعة تدرس وتوصي بالاجراءات اللازمة لزيادة الانتاج الزراعي المصري عن طريق استخدام أحدث الاساليب التكنولوجية الزراعية . (د) مجموعة عمل مشتركة في مجال التكنولوجيا والبحث العلمي بما في ذلك ابحاث الفضاء مع التركيز على تبادل العلماء . (هـ) مجموعة عمل مشتركة للتعامل الطبي لمعاونة الحكومة المصرية في تطوير البحث الطبي وتدعيم وسائل العلاج والتدريب . (و) مجموعة عمل مشتركة للتبادل الثقافي هدفها تشجيع المعارض والزيارات وغيرها من الاعمال الثقافية وتسهيلها بالاضافة الى تشجيع تفهم أكبر لكلتي الثقافتين من جانب شعبي مصر

والولايات المتحدة .

٨) اتفاق الحكومتين على تكوين مجلس اقتصادي مشترك يضم ممثلين عن القطاع الخاص في كل من البلدين للتعاون فيما بينهما واعداد ترتيبات اقتصادية وتعاونية ذات فائدة مشتركة للطرفين .

٩) تعهد الولايات المتحدة بتقديم اقصى مساهمة ممكنة للتنمية الاقتصادية في مصر بما في ذلك تطهير قناة السويس ومشاريع التعمير وتطوير التجارة المصرية مع ايلاء أهمية خاصة لاحتياجات مصر من السلع الزراعية .

١٠) موافقة الولايات المتحدة على معاونة مصر في اعادة بناء دار الاوبرا في القاهرة (التي دمرتها النار منذ فترة غير بعيدة) .

١١) تأكيد عزم الحكومتين على القيام بكل ما هو ممكن لتوثيق اواصر الصداقة والتعاون بينهما بما يتفق مع مصالحهما المشتركة ، وقد وقع هذا البيان التفصيلي والموسع الرئيسان نيكسون والسادات في ١٤ حزيران ١٩٧٤ . وواضح ان البيان يشكل نوعا من معاهدة تعاون وصداقة مع الولايات المتحدة .

وفي اليوم التالي على توقيع البيان أكدت مصادر وزارة الخارجية الامريكية ان الاتفاق النووي بين مصر وامريكا مرتبط بضمانات خاصة ستلزم مصر بقبول مراقبة دولية وامريكية مباشرة على النشاطات في حقل الطاقة النووية كما أكدت ان الولايات المتحدة ستصر على ممارسة حق الفيتو في حال قيام مصر باستخدام الوقود النووي بصورة تخرج عن نطاق الاستخدام السلمي كي لا تقتفي مصر خطوات الهند في هذا المجال . (فجرت الهند جهازا نوويا) . كما اعلن نائب الرئيس نيكسون انه اذا استخدمت مصر الطاقة النووية لاغراض غير سلمية « فستتوقف المساعدة الامريكية في ثوان » . كذلك اشارت الصحافة المصرية في حينه الى ان الخبراء يقدرون المعونة التي ستقدمها امريكا الى مصر قبل نهاية ١٩٧٤ بأكثر من مليار دولار . وهذا لا يشمل المشروعات التي تنوي الشركات والمؤسسات الامريكية تنفيذها وتقدر قيمتها بـ ٢٠٠٠ مليون دولار .

وجدير بالذكر هنا انه اثناء زيارة نيكسون لمصر كان جوزيف سيسكو يوضح النقاط التالية الهامة أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الامريكي :

(١) ان الضمانات التي أعطتها حكومة بلاده لاسرائيل فيما يتعلق بمقاومة الفدائيين لا تشكل « كارت بلانش » للقيام بأعمال انتقامية بدون حساب .

(٢) ان الولايات المتحدة تعتبر العمل الفدائي المنطلق من سوريا خرقا لاتفاقية فصل القوات .

(٣) ان قوى الاعتدال قد اصبحت هي المسيطرة في الشرق الاوسط في كل مكان وان هذه القوى في الجانب الاسرائيلي كما في الجانب العربي تبحث عن طرق للتعايش . كما ان فئة كبيرة من الحركة الفلسطينية أخذت تتحول ايضا الى الدبلوماسية بدلا من الحرب ، على حد قوله .

(٤) انه لن يكون هناك سلام مضمون « بدون أخذ المصالح المشروعة للفلسطينيين بعين الاعتبار». وان حكومة بلاده تستخدم عبارة « المصالح المشروعة » عمدا لكي تتجنب استخدام عبارة « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » .

(٥) ان انطباعه هو ان الفلسطينيين يريدون الاشتراك في مؤتمر جنيف الا انه على الفرقاء « المعنيين بالمؤتمر والدولتين اللتين تتقاسمان رئاسته ان يقرروا كيفية اشتراك الفلسطينيين فيه».

(٦) ان الولايات المتحدة استجابت لرغبة اسرائيل في ان تكون المساعدات العسكرية الامريكية مبرمجة على عدة سنوات دفعة واحدة بدلا من برمجتها سنويا كما جرت العادة .

(٧) ان مساعدة بلاده المقدمة الى مصر وخاصة من أجل بناء مدنها في منطقة قناة السويس ستساعد في تحويل الافكار عن الحرب باتجاه سد حاجات الشعب المصري .

في منتصف شهر حزيران بدات زيارة الرئيس نيكسون للمملكة العربية السعودية وقد أعلن الجانب الامريكي بأن هدف الزيارة هو « تدعيم علاقات الصداقة مع الملك فيصل وتبادل الافكار ووجهات النظر حول المصالح المشتركة للبلدين » . أما الجانب السعودي فقد أعلن في بيان رسمي ان هدف الزيارة هو « توثيق عرى الصداقة بين البلدين » . واقتصر الاستقبال السعودي للرئيس

الامريكي على المراسم الرسمية على خلاف ما جرى في مصر . وقد ذكر الناطق الرسمي باسم الوفد الامريكي ان المباحثات مع الملك فيصل ستشمل العلاقات الثنائية بين البلدين والوضع العام في الشرق الاوسط وموضوع النفط . كذلك صرح مصدر رسمي سعودي قائلا بأن امريكا غيرت موقفها من نزاع الشرق الاوسط وان كيسينجر يبدي تفهما كاملا لمصالح الشعب الفلسطيني . أشاد المصدر بالسياسة الامريكية بقوله انها « لا تستند فقط الى النفط ورؤوس الاموال العربية بل الى الاحترام المخلص للقضايا الامريكية — العربية ، والامريكية — السعودية المشتركة » . وجدير بالذكر هنا ان الملك فيصل شدد في خطابه الترحيبي على انه لن يكون هناك سلام حقيقي ودائم في المنطقة ما لم تتحرر القدس وتعود الى السيادة العربية . وقد اشارت انباء صحفية الى ان الملك فيصل اثار في محادثاته مع نيكسون موضوع القدس هذا وموضوع حقوق الشعب الفلسطيني مؤكدا ان الوقت قد حان كي تتوقف الولايات المتحدة عن وصف الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني « بالمصالح الفلسطينية » . كذلك أكد ان أي حل للنزاع العربي الاسرائيلي لا يأخذ في اعتباره حقوق الشعب الفلسطيني هو حل مرتجل ولا يمكن ان يؤدي الى السلام العادل والدائم الذي تطلبه السعودية والولايات المتحدة . وقد تجاهلت ردود الفعل الصادرة عن الوفد الامريكي الموضوعين الحساسين اللذين تمت اثارتهما . فقد قال الناطق الرسمي باسم الوفد الامريكي حول موضوع القدس ان دور الولايات المتحدة يقتصر على الوساطة في المفاوضات التي تسير خطوة خطوة . وان بلاده عازمة على الاستمرار في القيام بهذا الدور ، اذ بامكانها ان تقدم خدمة أكبر الى حل مشاكل الشرق الاوسط بعدم تحديد الاهداف التي يتوجب بلوغها في الوقت الحاضر . كما اوضح ان الوقت لم يحن بعد لتتصدى الدبلوماسية الامريكية الى معالجة القضية الفلسطينية . وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده نيكسون قبل انتهاء زيارته تجاهل ايضا الموضوعات الفلسطينية الحساسة واقتصر في كلامه على الاشادة بالملك فيصل والمملكة العربية السعودية وعلى العبارات العامة حول عزم بلاده مواصلة جهودها لمساعدة العرب واسرائيل على الوصول الى سلام عادل . وكشف نيكسون ان المباحثات في السعودية تناولت موضوع المساعدات الامريكية العسكرية « بحيث تكون العربية السعودية في مستوى من القسوة والامن يتماشى مع دورها كزعيمة في هذا الجزء من العالم » .

أما زيارة نيكسون لسوريا فلم يحدد لها الجانب الامريكي أي هدف رسمي بأكثر من القول « بأن نيكسون سيزور هذا البلد الذي تمهد الولايات المتحدة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية معه ، كضيف على الرئيس الاسد » . واقتصر الجانب السوري كذلك على القول بأن الرئيس نيكسون « سيزور سوريا بدعوة من حكومتها وانه سيحل ضيفا على الرئيس الاسد » . ولم يجر لنيكسون أي استقبال شعبي او حزبي في دمشق بل اقتصر الترحيب على المراسم الحكومية الرسمية. وتلخص أهم ما اثاره الرئيس الاسد في خطابه الترحيبي في قوله « ان السلام القادر على البقاء والاستمرار هو السلام العادل الذي ينهي الاحتلال الاسرائيلي ويعيد الارض الى أهلها ويزيل الظلم الواقع على الشعب الفلسطيني ويؤمن له حقوقه الوطنية المشروعة » . بالاضافة الى ذلك أكد الرئيس الاسد ان السلام العالمي يكاد ان يكون مستحيلا بدون السلام العادل في هذه المنطقة وعبر عن تمنيه ي ان تشكل هذه الزيارة بداية عهد جديد في العلاقات بين الولايات المتحدة وسوريا . ومما يلفت الانتباه هنا ان نيكسون أشار في خطاب الرد لاول مرة خلال رحلته الى القضية الفلسطينية وان اتسمت اشارته بطابع الحذر الشديد . قال في رده موجها كلامه الى الرئيس الاسد « كما سردتم ان ما يشغل بالكم هو قضية الفلسطينيين وهذا امر نتفهمه » . الا ان نيكسون شدد على انه لا يحمل معه اية حلول سريعة او آنية لهذه القضية وعاد الى القول مجددا بأن السياسة الامريكية مبنية على المرحلية في الوصول الى السلام . فأشار الى انه بعد اتفاقيات فصل القوات يجب التقدم خطوة خطوة وبشيء من الحذر المدروس بحيث يجري تناول قضية محددة وتسويتها وفقا لما تسمح به الظروف الى ان تبلغ هدف السلام العادل والشامل الذي ننشده . وتم اختتام الزيارة بمؤتمر صحفي مشترك عقده الرئيسان وقد عبر الرئيس الاسد خلال المؤتمر

عن استعداد سوريا للحوار من أجل توثيق الصداقة والتعاون بين شعبي البلدين واقامة علاقات تعاون في المجالات التعليمية والاقتصادية بما يخدم مصالح الطرفين . كما وجه الشكر الى نيكسون على الجهود البناءة التي بذلتها الحكومة الامريكية من أجل التوصل الى اتفاق فصل القوات في الجولان مؤكدا ان هذا الاتفاق ليس الا خطوة اولى من الحل العادل والشامل للقضية والذي لا يمكن ان يقوم من دون انسحاب اسرائيل من كل الاراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق القومية للشعب الفلسطيني وفقا لقرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ . وأعلن الرئيس الاسد رسميا قرار سوريا اعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في مستوى السفارة . أما نيكسون فقد أكد ان بلاده ستعمل جنبا الى جنب مع سوريا في سبيل تحقيق العدل والسلام الدائم على اساس تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ ، وانه يعتبر مع الرئيس الاسد اتفاق فصل القوات خطوة اولى نحو تحقيق العدل والسلام الدائم في المنطقة .

وجدير بالانتباه هنا ان زيارة نيكسون للسعودية وسوريا لم تسفر عن اصدار أية بيانات مشتركة كما حدث في مصر . ويبدو ان السبب وراء ذلك هو عدم توصل الطرفين الى اتفاق حقيقي حول عدد من الموضوعات الحساسة مما منع صدور البيانين المشتركين اذ ان مثل هذه البيانات تلزم الطرفين الموقعين بموقف موحد من القضايا التي يتناولها البيان . ولا شك ان القضايا التي لم يجر الاتفاق حولها منعت صدور أي بيان مشترك في السعودية وسوريا هي : (١) قضية القدس والاصرار العربي على عودة السيادة العربية عليها. (٢) مسألة حقوق الشعب الفلسطيني التي لا تشير اليها المصادر الامريكية الرسمية الا بعبارة « المصالح المشروعة » وهناك فارق شاسع بين الحقوق والمصالح . (٣) مسألة الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة وهو ما يصر عليه الجانب السوري في حين ان الولايات المتحدة لا تفسر قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بأنه دعوة للانسحاب من الاراضي المحتلة بكاملها . لذلك جاء البيان المصري — الامريكي المشترك خلو من أية اشارة الى ضرورة الانسحاب الاسرائيلي الكامل واستعاض عنها بالتأكيد على تنفيذ القرار رقم ٢٤٢ بكامله ، كما تبنى الصيغة الامريكية القائلة « بالمصالح المشروعة للشعب الفلسطيني » بدلا من حقوقه .

بعد دمشق زار نيكسون اسرائيل . أشار الجانب الامريكي الى ان الزيارة ستتيح الفرصة أمام نيكسون للاجتماع بالرئيس كاتزير وتجديد صداقته القديمة مع رئيس الوزراء رابين . وكان اول ما حرص الرئيس الامريكي على فعله لدى وصوله الى اسرائيل هو تأكيده للمسؤولين هناك ان اتفاق التعاون النووي مع مصر لن تكون له أية انعكاسات عسكرية وان امريكا ستواصل دعمها لامن اسرائيل . ومن أهم ما انطوت عليه هذه الزيارة المؤتمر الصحفي الذي عقده كيسينجر في القدس المحتلة حيث أكد النقاط التالية :

(١) الخطة الامريكية القائمة على تجزئة مشكلة الشرق الاوسط وحلها بصورة تدريجية .

(٢) انه بعد حرب تشرين تمكنت الولايات المتحدة من الانتقال من الموقع الاستقطابي حيث كان تأييدها يذهب الى اسرائيل مقابل التأييد السوفياتي للجانب العربي ، الى موقع يمكنها من مساعدة جميع الفرقاء بدون التخلي عن دعم اسرائيل .

(٣) ان الخطوة الاولى في حمل الفلسطينيين على التفاوض هي في عقد مفاوضات بين اسرائيل والاردن باعتبار الاخير « هو صاحب الخلفية التاريخية في القضية الفلسطينية » .

(٤) انه من السابق للاوان الدخول في مناقشة مسألة المفاوضات مع الفلسطينيين لان مواضيع مهمة أخرى مطروحة الان على جدول الاعمال مثل تحديد خط الحدود بين اسرائيل وجاراتها .

(٥) ان الدول العربية باتت بصورة عامة « بما فيها الدول الراديكالية مثل سوريا » تتحدث عن استمرار دولة اسرائيل وان بعض العرب قد اتخذوا القرار الصعب حول ايجاد طرق للتعايش مع اسرائيل .

(٦) ان بلاده واثقة من ان الضمانات المفروضة على التعاون النووي الامريكي — المصري كافية لمنع تحويله الى الاغراض العسكرية .

أما النقطة البارزة الاخرى في زيارة نيكسون لاسرائيل فكانت البيان المشترك الذي صدر عن

الزيارة . وفيما يلي أهم النقاط التي تضمنها البيان :

(١) اتفاق نيكسون ورابين على ضرورة العمل لتحقيق السلام بين اسرائيل والدول العربية . وهذا يعني انه من واجب كل دولة معنية « ان تمتنع عن تشجيع تنظيم قوات غير نظامية او جماعات مسلحة من ضمنها مرتزقة ، بهدف التسلل الى اراضي دولة اخرى. ان الطرفين يدينان أعمال العنف والرعب التي تؤدي الى وفاة الابرياء » . وواضح ان هذه الفقرة من البيان تعني العمل الفدائي الفلسطيني صراحة .

(٢) تأكيد الرئيس نيكسون على الطبيعة المستمرة والطويلة الامد لعلاقات التسلح بين البلدين وعلى ان تعزيز قدرة اسرائيل الدفاعية ضروري لمنع قيام حروب جديدة وللمحافظة على الظروف المؤدية نحو السلام .

(٣) ان وفدا من وزارة الدفاع الاسرائيلية سيزور واشنطن قريبا لمناقشة التفاصيل المتعلقة بالامدادات العسكرية على المدى البعيد .

(٤) استمرار الولايات المتحدة في دعمها الاقتصادي لاسرائيل على اساس مخططات طويلة الامد تسمح لاسرائيل بتعويض النفقات الاضافية التي تحملتها للدفاع عن نفسها . وستستمر امريكا بتزويد اسرائيل بمساعدات اقتصادية كبيرة كما ستشجع المؤسسات واصحاب رؤوس الاموال على استثمار اموالهم في اسرائيل .

(٥) تعهد نيكسون بأن تقوم الولايات المتحدة باجراء مفاوضات مع اسرائيل حول تقديم المساعدات اللازمة لانتاج الطاقة النووية فيها . وستشمل هذه المفاوضات بالاضافة الى التعاون في ميدان الطاقة النووية ميادين التكنولوجيا والتزود بالمحروقات وغيرها . كما يأخذ هذا التعهد بعين الاعتبار عزم اسرائيل على شراء مفاعلات نووية من امريكا لتأمين الطاقة الكهربائية للبلاد .

وقد علق رابين على الزيارة والبيان المشترك بقوله انه من الاهمية بمكان ان تكون هذه الزيارة قد تمت في القدس « عاصمة اسرائيل الابدية ومركز البرلمان الاسرائيلي » . وان الرئيس نيكسون شدد على التزام امريكا بأمن اسرائيل على المدى الطويل وحقها في الحصول على حدود آمنة وعلى ضرورة كونها قوية وقادرة على الدفاع عن نفسها . كما أشار رابين الى ان البيان المشترك « أدان بوضوح أعمال العنف والارهاب وأكد ان من واجب كل بلد منع القوات غير النظامية من التمركز في اراضيها بهدف التسلل الى البلدان المجاورة ».

وذكرت مصادر صحفية اسرائيلية ان رابين ونيكسون اتفقا اولا على ان تكون المرحلة المقبلة من المفاوضات مرحلة التوصل تدريجيا الى اتفاق شامل بين مصر واسرائيل . ثانيا ، على ان يتأجل البحث في المشكلتين الاردنية والفلسطينية لان في ذلك مواجهة لعدد كبير من الصعوبات التي قد تهدد بنسف كل ما تم تحقيقه حتى الان . ثالثا ، على ان تكون محادثات جنيف للسلام الاطار الشكلي لتسوية القضايا العالقة بين مصر واسرائيل اذ ينبغي اجراء المفاوضات الحقيقية في مكان آخر وبعيدا عن الضجة الاعلامية .

اختتم نيكسون جولته الشرق أوسطية بزيارة الاردن . وقد ذكر الجانب الامريكي ان الزيارة ستتيح الفرصة امام نيكسون لتجديد صداقته القديمة مع الملك حسين . أما الجانب الاردني فقد أعلن ان الزيارة ستقوي روابط الصداقة والتعاون بين البلدين . وجدير بالانتباه هنا الى ان الملك حسين كان قد بعث برسالة الى نيكسون في اوائل حزيران وبعد انجاز اتفاقية فصل القوات في الجولان ناقش فيها الخطوط العريضة « لفصل القوات في الجبهة الاردنية » . وطلب الملك حسين من نيكسون ان يبذل جهوده خلال جولته في المنطقة لدعم هذا المشروع الاردني كجزء من مراحل تسوية النزاع . وقد تصدر هذا الموضوع على ما يبدو ما طرحه الجانب الاردني في مباحثاته مع نيكسون . اذ أكد الملك حسين في خطابه الترحيبي بأن فصل القوات بين الاردن واسرائيل يشكل شرطا مسبقا لاية تسوية دائمة في المنطقة على اعتبار ان الاتفاقات المشابهة التي تمت مع مصر وسوريا من المعالم البارزة على طريق السلام. وشدد على ان المرحلة المقبلة هي بطبيعة الحال مرحلة فصل القوات بين الاردن واسرائيل. وألمح الى انه بدون تحقيق هذه الخطوة لن يتمكن الاردن من ممارسة دوره كاملا في الجهود المبذولة لتحقيق السلام في المنطقة . كذلك عاد الملك حسين الى

طرح مشروع المملكة العربية المتحدة مجددا امام الرئيس نيكسون قائلا انه ليس بالامكان تحقيق السلام المنشود بدون الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني واستعادة هذه الحقوق . وقد شرح مفهومه لهذه الحقوق بقوله انه عندما تنسحب اسرائيل من الاراضي المحتلة لن يكون لغير الفلسطينيين الحق في تقرير مستقبل ارضهم وسيكون في امكانهم الاختيار بين استمرار الوحدة مع الاردن ، او قيام شكل من أشكال الاتحاد الفدرالي معه ، او اقامة دولة منفصلة عنه. ومن خلال طرحه لمشروع المملكة العربية المتحدة تطرق الملك حسين الى مشكلة القدس وضرورة عودتها الى السيادة العربية لان لا العالم العربي ولا الاسلامي يمكن ان يسمحا ببقائها تحت السيطرة الاسرائيلية . أما نيكسون فقد عاد الى التأكيد في خطابه الجوابي على انه لم يحضر معه أية حلول جاهزة للمشكلات الصعبة وان غياب مثل هذه الحلول الفورية لمشكلتي الفلسطينيين والقدس لا يجب ان يكون داعيا لليأس . واكتفى بهذا الكلام بالنسبة للقضايا الحساسة التي كان يواجهها في كل عاصمة عربية زارها . لكنه من ناحية اخرى أكد ان جولته في الشرق الاوسط قد أزالت سوء التفاهم الذي كان قائما في العلاقات العربية — الامريكية وان الوجود الامريكي الجديد في المنطقة هو التعبير عن الرغبة في مساعدة الاسرائيليين والعرب على التحرك نحو تسوية دائمة . ومما يلفت الانتباه ان خطاب نيكسون تجاهل الاشارة الى موضوع ما يسمى بفصل القوات على الجبهة الاردنية .

صدر بيان مشترك على اثر الزيارة كان أهم ما جاء فيه :

(١) تأكيد الولايات المتحدة دعمها المتواصل والفعال للاردن وخاصة زيادة المساعدات العسكرية والاقتصادية الامريكية زيادة كبيرة .

(٢) الاتفاق على تشكيل لجنة امريكية اردنية على مستوى رفيع تتابع بصورة منتظمة وتشرف على مختلف مجالات التعاون بين البلدين في حقول التنمية الاقتصادية والتجارة والاستثمار والمساعدات العسكرية والشؤون العلمية والاجتماعية والثقافية.

(٣) البحث في استراتيجية الجهود المقبلة لتحقيق السلام مع تعهد الرئيس نيكسون بالدعم الفعال للتوصل الى اتفاق بين الاردن واسرائيل من أجل تحقيق سلام عادل ودائم وفقا لقراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ .

ومما يلفت النظر ان البيان لم يتطرق الى موضوع القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني ولم يشر الى ان المرحلة المقبلة ستكون مرحلة فصل القوات على الجبهة الاردنية . مع ذلك افادت مصادر دبلوماسية مطلعة ان الجانب الامريكي عمد الى تطمين الاردن الى ان شيئا لم يتغير في علاقاتهما القديمة في حين أكد الجانب الاردني ان دعوته منذ مدة طويلة الى اتباع سياسة عربية منفتحة على الولايات المتحدة لان بيدها مفتاح حل مشكلة الشرق الاوسط قد اثبتت صحتها وسلامتها .

وعلى اثر انتهاء جولة الرئيس نيكسون حدثت التطورات التالية :

١) لخص نيكسون لدى عودته الى واشنطن انطباعاته عن الجولة بقوله « ان تغيرا عميقا ودائما قد حدث في المنطقة » لصالح السلام ولصالح حلول الصداقة مع امريكا محل العداء لها » . لذلك تكلم نيكسون بهذا الصدد عن مقابلته «أصدقاء امريكا الجدد في مصر وسوريا » وعن « تطمينه اصدقاءها القدامى في اسرائيل والعربية السعودية والاردن » . واوضح ايضا ان ترحيب الجماهير به يعني ان البلدان التي زارها تريد السلام وان أهلها يؤمنون بأن امريكا تريد السلام والتقدم ليس لنفسها فقط بل لهم ايضا ، وان هذه الجماهير تؤمن بأن امريكا ستساعد على تحقيق السلام والتقدم بدون السيطرة . أي رجع نيكسون بانطباع لخصه بقوله انه وجد في العالم العربي « ثقة بامريكا واحترام ومحبة قوية جدا لها » . وأكد بانه يجب على الولايات المتحدة الا تخذل هذه الجماهير اذ عليها ان تقوم بالدور الحاسم في استمرار التقدم نحو السلام .

٢) دعوة كل من السادات والاسد ورابين لزيارة واشنطن في المستقبل القريب وقد وافق الرؤساء الثلاثة على تلبية هذه الدعوة كما تحدد الوقت الذي ستجري فيه زيارة السادات لامريكا بشهر تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل .

٣) بدء المباحثات النووية بين مصر والولايات المتحدة في واشنطن حيث اجتمعت البعثة المصرية المختصة في شؤون الطاقة الذرية بلجنة الطاقة الذرية الامريكية . ودارت المحادثات حول تزويد مصر بالوقود النووي وبمفاعل نووي امريكي قوته ٦٠٠ ميغاواط . وقد جاء وزير الطاقة المصري الى واشنطن لتوقيع الاتفاق .

٤) زيارة وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز لواشنطن حيث قابل نيكسون ووزير الدفاع الامريكي واجرى محادثات معهما حول شحنات الاسلحة الامريكية لاسرائيل .

كان التطور الدولي الهام الاخر هو لقاء القمة في موسكو بين الرئيس نيكسون والزعامة السوفياتية في اواخر شهر حزيران . وقد تبين من المحادثات ان مشكلة الشرق الاوسط لم تحتل مقاما رفيعا على جدول أعمال المؤتمر اذ تركزت المباحثات على مشكلات تحديد الاسلحة الذرية والعلاقات الثنائية بين البلدين بما في ذلك مجالات التجارة والاقتصاد والتبادل العلمي الخ . وقد ذكر الناطق الرسمي بلسان الوفد الامريكي ان القمة تناولت موضوع الشرق الاوسط في جلساتها الاولى بشكل عام فقط وعلى سبيل تبادل المعلومات والاراء بين الطرفين وبدون الدخول في تفاصيل النزاع . اما البيان المشترك الذي صدر عن القمة فقد اشار بشيء من التفصيل الى الوضع القائم في الشرق الاوسط . فعبر عن تصميم البلدين على درء خطر الحرب والتوتر في المنطقة معتبرا ذلك مهمة من الدرجة الاولى من حيث أهميتها . كما أكد انه لا بديل عن التوصل الى تسوية سلمية عادلة على اساس قرار مجلس الامن الرقم ٣٣٨ مع الاخذ بعين الاعتبار « المصالح المشروعة لجميع شعوب الشرق الاوسط بما في ذلك الشعب الفلسطيني وحق جميع دول المنطقة في الوجود » كذلك أشار البيان مداورة الى موضوع التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف للسلام بقوله ان البلدين يعتبران انه من الضرورة بمكان ان يستأنف هذا المؤتمر أعماله في أسرع وقت « على ان تناقش فيه مسألة المشاركين الاخرين من منطقة الشرق الاوسط » . اخيرا أشار البيان الى اتفاق الطرفين على ضرورة استمرار الاتصالات الوثيقة بينهما من أجل تنسيق جهودهما بهدف الوصول الى التسوية السلمية في الشرق الاوسط .

صادق جلال العظم

(٣) المناطق المحتلة

عبر كل الاحداث والوقائع السياسية ، الدولية منها والمحلية ، تأكد جوهر الصراع في المنطقة بوجهه الفلسطيني . ويعتبر هذا الامر في حد ذاته انجازا سياسيا مهما للنضال الوطني الفلسطيني . فبعد ان حاولت جبهة الاعداء المتعددة الاطراف ، ان تغيب عن الصراع ، الحقيقة الفلسطينية الراسخة ، استطاع الكفاح المرير الطويل للشعب الفلسطيني ، ان يبرز حضورا وطنيا لهذا الشعب، فوق حيز الصراع المباشر .

ونستطيع تلمس هذه الحقيقة من خلال كافة الوقائع والاحداث التي شغلت اهتمام الضفة الغربية المحتلة عبر الفترة القصيرة الماضية .

زيارة نيكسون

لقيت زيارة الرئيس الاميركي نيكسون لعدد من دول المنطقة اهتماما واسعا لدى صحف الضفة الغربية . فيوم وصوله الى القاهرة وصفت صحيفة القدس رحلته بأنها رحلة « تاريخية بلا شك ، بغض النظر عن دوافعها وما قد تسفر عنه من نتائج » . واستنتجت الصحيفة ان نيكسون « يطمع في ان يدخل التاريخ العالمي كرجل سلام » . ولهذا السبب فقد سحب الجيش الاميركي من فيتنام وزار الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية . ولهذا السبب ايضا فان زيارته للمشرق العربي « ليست زيارة مجاملة او احتمالات ، بل أنها زيارة عمل ووضع الاساسات لمستقبل المنطقة » . واضافت الصحيفة ان زيارة الرئيس الاميركي هي احدى نتائج حرب تشرين الاول (اكتوبر) وصمود ووحدة الصف العربي « واستعمال جيد لسلاح النفط » . وفي ختام تعليقها على الزيارة دعت « القدس » العرب لاستقبال نيكسون ليس كصديق « بل ندعوهم لاستقباله على اعتبار انه رجل شعر بخطأ اقترفه وجاء ليتحسس الطريق لاصلاح هذا الخطأ » (القدس ٧٤/٦/١٢) .

وفي اليوم التالي تابعت « القدس » عبر افتتاحيتها الرئيسية التعليق على زيارة نيكسون ، من جانب ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية . فقالت : « لا نملك نحن الفلسطينيين ازاء هذه الزيارة الا الترقب لنرى ما اذا كانت هذه الزيارة التي يصفها صاحبها برحلة السلام ستحقق السلام العادل الدائم الذي ننشده نحن وترتضي به كافة الاطراف » . واضافت الصحيفة قائلة ان « ثقل الرئاسة الاميركية » يستطيع ان يمارس « ضغوطا على مختلف اطراف النزاع وبوجه أخص في اسرائيل والاردن » . وفي هذا المجال تنبأت الصحيفة ان الرئيس الاميركي « يعلم بلا ريب أن أية معالجة لازمة الشرق الاوسط لا بد ان تأخذ بالحسبان قضية الفلسطينيين كقضية شعب فقد ارضه وحقوقه لا كقضية شعب لاجيء يبحث عن مأوى » . وقد دفع هذا التوقع بالصحيفة الى المطالبة ببحث هذه القضية « كقضية وطنية » . بمعنى ان يكون لهذا الشعب « حرية مطلقة في تقرير مصيره بنفسه ، كما تعني ان ينال هذا الشعب حقوقه التي نصت عليها قرارات الامم المتحدة ، وهذا يستدعي اتاحة الفرصة لهذا الشعب كي يشترك في محادثات جنيف كطرف مستقل يتمتع بالحقوق الكاملة لاي عضو مشترك في المؤتمر » . لذلك ترى « القدس » ان تعديل قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ هو أمر ضروري ، يجب ان يقنع به نيكسون اسرائيل « حتى يستطيع ممثلو هذا الشعب [الفلسطيني] ان يشاركوا في مناقشات مؤتمر جنيف » (القدس ٧٤/٦/١٣) .

أما الصحيفة الاسرائيلية التي تصدر باللغة العربية في القدس ، وهي صحيفة الانباء اليومية التي تشرف عليها وتوجهها توجيها خاصا ، الحكومة الاسرائيلية ، فقد قالت في معرض ترحيبها بوصول الرئيس الاميركي للقدس ان « الشعب الاسرائيلي لم ينس يوما اولئك الذين ساعدوه وآزروه في محنه ، والرئيس نيكسون آزر اسرائيل في أقسى محنها » . واعربت « الانباء » عن ارتياحها لتقدم العلاقات العربية الاميركية وقالت انها « ترى في توثيق علاقات اميركا بالدول العربية خطوة اخرى نحو تحقيق السلام في هذا الجزء من العالم » (الانباء ٧٤/٦/١٧) .

غير ان ما كتبته صحيفة القدس وما حملته صفحتها الاولى من كتب مفتوحة الى الرئيس نيكسون ، يوم وصوله الى مدينة القدس ، عبر بشكل خاص عن اهتمام اوساط واسعة بزيارة

الرئيس الاميركي لارض فلسطين . وقد وضح ذلك من خلال عنوان افتتاحية الصحيفة — « نيكسون اليوم في ارض فلسطين » — ومن خلال ما تضمنته افتتاحيتها تلك ، من تأكيد على ان « فلسطين هي أم القضية أصلا وفصلا ، وهي خالقة المشكلة جملة وتفصيلا ، مشكلة اطلقوا عليها خطأ وطمسا للحقائق اسم مشكلة الشرق الاوسط » . ولم تنس « القدس » ان تغتنم فرصة وجود الرئيس الاميركي في ارض فلسطين ، لتذكيره « بالدور الظالم وغير النظيف ... الذي لعبه البيت الابيض في الحاق الاذى والالم بهذا الوطن وأهل هذا الوطن » . وبعد ان سردت الصحيفة جملة من الحقائق التاريخية عن الدور الاميركي هذا ، خاطبت نيكسون قائلة : « وانت الان على أرض فلسطين ، ولعلك تقوم بجولة في سماء فلسطين لترى المدن الفلسطينية وترى المروج الفلسطينية وترى الشواطىء الفلسطينية ولكن لا ترى الشعب الفلسطيني » . ويخلص من كل ذلك الى القول : « ان القضية الفلسطينية ، وشعبها فلسطينيون والى حل مشاكلهم يجب ان تتجه جميع الجهود » (القدس ٧٤/٦/١٦) .

وفي العدد نفسه من الصحيفة المقدسية وجه الدكتور عيسى السلطي رسالة مفتوحة الى الرئيس نيكسون قال فيها : « الا فاعلموا ياسيادة الرئيس ان جذور هذا الشعب في بلاده أقوى من ان يقتلها مستوطن غريب ، جاء لتغيير جغرافية فلسطين ومحو معالمها ، وهو لا تربطه بها سوى روابط اسطورية » . وفي ختام رسالته الطويلة قال الدكتور السلطي : « وأملنا عظيم في ان تسهم زيارتكم هذه عن تصحيح للاوضاع من احقاق للحق ، وازهاق الباطل واعادة الحرية والكرامة الى الشعب الفلسطيني » (القدس ٧٤/٦/١٦) .

أما الدكتور خليل البديري فقد وجه بدوره كتابا مفتوحا الى الرئيس نيكسون جاء فيه دعوة للاخير بان يعلن على رؤوس الاشهاد ان الحل المنشود يقوم على مجموعة من الاسس هي :

١ — ان فلسطين عربية وانها جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير وان صاحبها هو الشعب العربي الفلسطيني . ولذلك يجب الاعتراف لهذا الشعب « بحقه في تقرير مصيره في وطنه وفوق ارضه ، واقامة دولته المستقلة ذات السيادة » .

٢ — ان على اسرائيل ان تنسحب من كل الاراضي التي احتلتها عقب قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ « مع العلم بان هذا القرار نفسه باطل ولاغ ، لانه يتناقض مع ميثاق هيئة الامم المتحدة نفسها وحق الشعوب في تقرير مصائرها وحكم نفسها » .

٣ — على اسرائيل ان تؤمن عودة اللاجئين الفلسطينيين الى اماكن سكناهم الاصلية في فلسطين .

٤ — ان يعلن المسؤولون الاسرائيليون عن تخليهم عن الفكرة الصهيونية العرقية التوسعية وتهجير اليهود الى فلسطين ، « وانطلاقا من هذه الرغبة ان يسعوا للدخول في مفاوضات مع الشعب العربي الفلسطيني ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية » .

٥ — ان يعلن الشعب الفلسطيني عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية بالمقابل ، عن الموافقة « على منح الشعب اليهودي المتواجد الان في فلسطين حكما ذاتيا واستقلالا ثقافيا ، اذا رغب في ذلك ، ضمن اطار الدولة الفلسطينية المستقلة وذات السيادة » (القدس ٧٤/٦/١٦) .

الغارات الاسرائيلية على لبنان والمخيمات

لم تمض غير ساعات قليلة على انتهاء زيارة الرئيس الاميركي لمنطقة الشرق الاوسط ، حتى قامت الطائرات الاسرائيلية بغارات واسعة على جنوب لبنان والمخيمات الفلسطينية . وقد اعتبرت المقاومة الفلسطينية هذه الغارات ، نتيجة للتحريض الاميركي ضد الشعب الفلسطيني ، وهو الامر الذي تضمنه البيان الاميركي — الاسرائيلي المشترك . فعلقت صحيفة « الشعب» على هذه الغارات قائلة : « في ختام الجولة التآمرية الاخيرة التي قام بها الرئيس الاميركي للمنطقة » ، عادت اسرائيل الى تجديد غاراتها وهجماتها البربرية . واضافت الصحيفة ان سياسة اسرائيل المعلنة ، سابقا ولاحقا « والتي كرسها البيان الاميركي — الاسرائيلي والاحاديث التي جرت مع نيكسون هي السياسة التي اطلقوا عليها (مطاردة المنظمات في كل مكان) كهدف اساسي لتصفية القضية الفلسطينية ، عبر التصفية الجسدية لاصحابها وممثليها وحاملي لواء المقاومة الوطنية والشرعية

في سبيلها » . ورأت « الشعب » في طابع الغارات الاسرائيلية هذه ، تحريضا لبعض الجهات والقوى العربية المضادة لضرب الثورة الفلسطينية على غرار ما حدث في ايلول ١٩٧٠ بالاردن وايار ١٩٧٣ في لبنان » (الشعب ٢٠/٦/٧٤) .

أما صحيفة « الانباء » فقد كتبت حول نفس الموضوع ، وتعليقا على شكوى لبنان الى مجلس الامن الدولي احتجاجا على الغارات الاسرائيلية ، قائلة ان لبنان يحاول ان يوهم العالم ان اعمال المقاومة الفلسطينية ضد كريات شمونة ومعالوت وشامير انما يقوم بها « فلسطينيون عاملون في الاراضي المحتلة » . واضافت ، ان حكومة لبنان « تحاول بمثل هذه السهولة التحلل من مسؤولياتها الدولية والظهور بمظهر البريء المفترى عليه او بمظهر « كبش الفداء » ... وقد فات حكومة لبنان ان اسرائيل وهي الطرف الذي يتعرض لعمليات المنظمات الارهابية العاملة في جنوب لبنان ، لا تستطيع التخلي عن واجبها في حماية ارواح مواطنيها ... ما دامت السلطة الشرعية في لبنان تتخلى عن واجبها وعن مسؤولياتها الدولية ، ولا تضع حدا لهذا النشاط الذي تمارسه المنظمات انطلاقا من الاراضي اللبنانية » (الانباء ٢٠/٦/٧٤).

وعادت « الانباء » مرة اخرى الى التعليق على موضوع الغارات الاسرائيلية على جنوب لبنان ، فكتبت افتتاحية تحت عنوان « التقصير اللبناني » تقول فيها : « من دلائل الواقعية والتعقل في المنطقة كلها ان الدول المختلفة التي آوت المنظمات الفلسطينية المسلحة اخذت تتحرر بخطوات وئيدة ومدروسة من تبعيتها . اذ رغم التصريحات الحماسية وبيانات التأييد واحيانا الايمان المغلظة قام الرئيس السادات للمرة الاولى في تاريخ القضية الفلسطينية بتقديم سلسلة من الوعود والنصائح تختلف جملة وتفصيلا عن كل ما يدلي به الزعماء العرب في موضوع النزاع ... وان سوريا تسير في هذا الموضوع بتردد ما وراء مصر . ومع ذلك فهناك نفاق شديد يغلف التصريحات العربية عامة تجاه لبنان » . وتخلص الصحيفة من ذلك الى القول بأن لبنان « مقصر » بحق نفسه وان عليه ان يأخذ زمام نفسه بيده . وبعد ذلك تدعو الصحيفة الاسرائيلية لبنان صراحة الى ضرب حركة المقاومة الفلسطينية ، اذ تقول « ان كل شيء يدعو لبنان الى أخذ مقاديره بيده والتحرك نحو شاطىء السلامة وذلك بالتحرر من تبعية المنظمات الى الابد » (الانباء ٢٣/٦/١٩٧٤) .

مقررات المجلس الوطني الفلسطيني

بقدر ما اثار انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة اهتماما واسعا في الضفة الغربية ، اثارت قرارات المؤتمر ارتياحا بالغا لدى عموم الاوساط الفلسطينية داخل الوطن المحتل وخارجه . ففي مدينة القدس قالت صحيفة الشعب: « أقر المجلس الوطني الفلسطيني بعد جلسات ومناقشات ديمقراطية طويلة وصريحة ، خطة العمل السياسية للمرحلة القادمة بنقاطها العشر التي تنطلق في مجموعها من قاعدة واحدة ، تحمل شعارا واحدا هو : استعادة الشعب الفلسطيني لكامل حقه الوطني ، وفي المقدمة عودته الى وطنه وتقرير مصيره على كامل التراب الفلسطيني ، بحيث لم تترك هذه الخطة لاحد ما ، مجالا للتشكيك او التأويل أو أي منفذ ، ربما حلم به ، أو طمع فيه ، فرسان الاستسلام ، والمرونة ، والعقلانية » . وبعد هذا الفهم للبرنامج المرحلي شددت الصحيفة « على الضرورة الملحة للوحدة الوطنية الفلسطينية مع الارتفاع بها الى المستوى الذي يتفق مع خطورة القضية المصيرية ، وبوجوب اقامة (سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة) على كل جزء يتم تحريره ، كخطوة في حلقة متابعة استراتيجية المنظمة لاقامة الدولة الديمقراطية ، الى جانب مقاومة أي مشروع كياني هزيل يكون ثمنه الاعتراف والصلح والحدود الامنة ، ووضع التكتيك اللازم من قبل القيادة الفلسطينية لتحقيق ذلك » . وانتقلت الصحيفة باشارة واضحة الى مشروع المملكة العربية المتحدة مؤكدة على « حتمية وأد البديل الضاغط المطروح في سوق المساومة ، ونعني به الحكم الاردني الذي كشفته حرب تشرين ليس محاربا وحسب ، وانما يمنع المقاتلين من الحرب فيأسرهم ويقاومهم وهو يرفع شعار مشروع المملكة المتحدة الذي رفضته جماهير شعبنا ، وأوصى المجلس بالبديل الوطني المضاد وهو النضال لاقامة جبهة وطنية اردنية ــ فلسطينية هدفها ايجاد حكم وطني ديمقراطي يتلاحم مع الكيان الفلسطيني ويجعل من الشعبين وحدة نضالية مع كافة قوى التحرر العربي المؤيدة لهذا البرنامج الوطني » (الشعب ٩/٦/٧٤) .

أما صحيفة القدس التي تصدر هي الاخرى في المدينة المقدسة ، فقد اهتمت من بين قرارات المجلس الوطني بقرار رفض قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ . وعلقت على ذلك بالقول « لقد جاء قرار المجلس الوطني الفلسطيني متجاوبا مع رغبة الشعب الفلسطيني بأكثريته المؤمنة بأن قضيتهم ليست قضية لاجئين وتعويضات فقط ، والمؤمنة بضرورة وجود الفلسطينيين في مؤتمر جنيف، كوفد مستقل توجه له الدعوة رسميا بذلك، والبحث في قضية فلسطين جذريا » . واضافت الصحيفة ان المجتمعين في القاهرة أحسنوا صنعا « بحسم الموقف ووضع حد للتردد أمام مختلف الاجتهادات بالرغم من انهم اختاروا المركب الخشن والطريق الوعر وفضلوه على الطريق المؤدية الى الراحة والاستكانة ونعومة العيش » (القدس ١٩٧٤/٦/٩) .

وعلى العكس من موقف هاتين الصحيفتين العربيتين ، جاء موقف صحيفة الانباء الاسرائيلية ، واصفا مقررات المجلس الوطني بانها « متطرفة ». فقالت ان من «يطالع البيانات الاخيرة التي اصدرتها المنظمات في مؤتمرها الاخير وفي المؤتمرات التي انعقدت تحت رعايتها ، يجد أن التطرف الشديد كان الصفة الاولى فيها . وحتى من يقول بأن المنظمات لا مكان لها في أي نشاط سلمي تشهده المنطقة لا يستطيع الا ان ينظر بعين القلق الى الاحتمالات التي قد تنمو بسبب الايغال في التطرف الذي يهدد الان مساعي السلام في الشرق الاوسط » . وتضيف الصحيفة الاسرائيلية مشددة على طابع « التطرف » الذي اتسمت به مقررات المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة قائلة: « ونظرة واحدة الى هذه المقررات تطلعنا على ان المنظمات لا تعترف بحكومة الاردن ولا تعترف باسرائيل ولا تريد حضور مؤتمر جنيف وتستنكر قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، ولا توافق على اعادة أي قسم من الضفة الغربية للاردن ، بل تعلن مع كل هذه الامور ورغم كل هذه الامور أنها ستقيم كيانا حربيا فوق كل قسم من الضفة الغربية قد تخليه اسرائيل » . ثم تدعو الدول العربية وخاصة دول المواجهة منها ، الى العمل مع اسرائيل سوية لحراسة احتمالات السلام « في مواجهة التطرف » الذي تمثله المنظمات الفدائية الفلسطينية (الانباء ١٩٧٤/٦/١٢) .

محاولة الاستيطان قرب نابلس

في الذكرى السابعة لحرب حزيران ، قام نحو مئة شخص يهودي بالاستيلاء على اراضي قرية عقربة ونصبوا عليها عددا من الخيام ، واعلنوا عن عزمهم على اقامة مستعمرة هناك . وكان من بين افراد هذه المجموعة الجنرال المتقاعد اريك شارون عضو الكنيست ، والحاخام يهودا كوك ، وعضو الكنيست جئولا كوهين المعروفة بتطرفها الشديد . وما ان انتشر النبأ بين المواطنين حتى توافدت جماهير كبيرة الى دار المجلس البلدي في نابلس مطالبة باتخاذ الاجراءات السريعة لمعالجة الامر.وبالرغم من أن الحكومة الاسرائيلية قد اتخذت قرارا بابعاد هذه الجماعة بالقوة عن المكان الذي استولت عليه، فقد ترك هذا الحادث ردود فعل عنيفة وقوية لدى مختلف القطاعات في الضفة الغربية. وقد كتبت صحيفة «القدس» تعليقا على الحادث افتتاحية تحت عنوان « أي استهتار هذا ؟ » جاء فيها : « ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان اعمال المتطرفين التي قاموا بها بالامس في منطقة نابلس ، مدعومة بطريقة او بأخرى من عدد من المسؤولين في اسرائيل ، وبتشجيع مباشر او غير مباشر منهم » وفي ختام تعليقها حملت الصحيفة مسؤولية مثل هذه التصرفات الى المسؤولين الاسرائيليين ودعتهم الى معالجة الموقف « بحزم وبسرعة وقبل فوات الاوان » (القدس ١٩٧٤/٦/٦) .

ونقلت « القدس » بعضا من ردود الفعل الشعبية على محاولة الاستيطان هذه فقالت : توافدت صباح يوم ١٩٧٤/٦/٦ على دار البلدية في نابلس جماهير غفيرة من سكان المدينة ومختلف مدن وقرى أقضية نابلس وجنين وطولكرم ، « مستنكرة المحاولة الهوجاء التي قام بها نفر من الاسرائيليين المتطرفين » . وكان في مقدمة الحضور حكمت المصري ، حمدي كنعان ، عبد الرؤوف الفارس ، سليمان الشنار ، فايزة عبد المجيد ، وعدد من اعضاء الغرفة التجارية بالمدينة . ورفع عدد من الشخصيات مذكرة الى الجهات المختصة والهيئات الدولية جاء فيها : « نحن الموقعين ادناه الممثلين لجميع قطاعات الشعب في المدينة نابلس وقضائها نعلن ما يلي : في الوقت الذي تلوح في الافق بوادر السلام بين الدول المعنية ، وفي الوقت الذي تتأهب فيه وفود الدول العربية واسرائيل لبدء محادثات

السلام في جنيف من اجل وضع حد للصراع الدامي بين الفلسطينيين والدول العربية من جهة ، واسرائيل من جهة ثانية . في هذا الوقت تقوم فئة متطرفة من الاسرائيليين بينهم عدد من اعضاء الكنيست بمحاولة الاستيطان واقامة مستوطنة على ارض بجوار مدينة نابلس . وهذا يدل على ان هناك فئة كبيرة من الاسرائيليين يعز عليها انهاء الحروب وسفك الدماء ، باقدامها على مثل هذه الاعمال . واننا لا نقر اصلا ما قامت به السلطات العسكرية من انشاء المستوطنات على جميع الاراضي العربية بأسرها ، سواء أكانت في الضفة الغربية او قطاع غزة او في الجولان او في سيناء ، لان هذه الارض تخص العرب دون سواهم ولا حق لغيرهم بالاستيطان فيها » . وبعد ان شكر موقعو البرقية السلطات الاسرائيلية على موقفها من منع المحاولة الاستيطانية ، أكدوا « بأن الشعب لن يسكت بعد الان عن مثل هذه المحاولات في المستقبل وسيقوم باحباطها بشتى الطرق والوسائل التي يملكها » . وبالاضافة الى الاسماء التي سبق ذكرها ، فقد وقع البرقية الى جانبهم كل من عادل الشكعة نائب رئيس بلدية نابلس ، راشد أغا النمر ، رئيس بلدية طوباس، رئيس بلدية سلفيت، ونقابات العمال والاطباء والمهندسين ومخاتير ووجهاء المنطقة (القدس ١٩٧٤/٦/٧) .

استشهاد باجس ابو عطوان

مع أن باجس موسى ابو عطوان ليس معروفا لدى الكثيرين ، الا انه كان معروفا جيدا لدى سلطات الاحتلال الاسرائيلية ، ومن قبل اهالي منطقة دورا في جبل الخليل . وكانت معرفة سلطات الاحتلال لباجس منذ العام ١٩٦٨ دون أن تتمكن منه ، تشكل تحديا كبيرا لها في منطقة الخليل بالضفة الغربية . اذ ان باجس قد اعلن عن نفسه وخرج الى الجبل دون ان يقطع صلاته بجماهير المنطقة ، فكان النموذج الذي يحتذى به لدى الجميع . وبالرغم من تعرض دورا الى الحصار ومنع سكانها من عبور الجسور والغاء التصاريح لمواطنيها ، فقد ظل أهل دورا والمنطقة عامة يحتفظون بالسر ، ونعني به المكان الذي كان يتحصن به باجس .

لذلك فان حادث استشهاد هذا المناضل الفذ يستحق ان نفرد له الصفحات ، لنعرف به قارىء « شؤون فلسطينية » ، بالقدر الذي يسمح به الوضع . لذلك فسوف نعتمد على ما نشر في صحف الضفة الغربية عن حادث الاستشهاد ، مشيرين الى ان « الاعلام الموحد » التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية سوف يقوم بنشر كتاب عن حياة الشهيد وعن نضالاته طوال السنوات الست الماضية .

فقد ذكرت جريدة «الشعب» نقلا عن مراسلها الخاص في مدينة الخليل انه مساء يوم ٧٤/٦/١٩، تلقت والدة الشاب باجس خبرًا من أحد الاشخاص، بأن ولدها قد قتل داخل كهف ، ولم يحدد مكانه ، الامر الذي اضطر والدة الشهيد واهله الى ابلاغ رئيس بلدية دورا صباح يوم ٦/٢٠ الخبر. وذهب رئيس البلدية بصحبة أهله الى مكتب الحاكم العسكري في الخليل وابلغوه الخبر . فقام الحاكم العسكري بصحبة عدد من الضباط ترافقهم قوة كبيرة من الجيش بتطويق عدد من جبال دورا حيث قاموا بالتفتيش والبحث في داخل الكهوف والمغاور ، ولكنهم لم يهتدوا او يعثروا على شيء . فقاموا بالتحقيق مع أهل باجس ومع اشخاص كثيرين .

وذكرت « الشعب » انه أمكن بعد ذلك الاهتداء الى مكان الكهف الذي يقع في منطقة الجوف جنوبي شرق قرية الحدب من قرى دورا . فابلغ الحاكم العسكري بالخليل بمكان الكهف ، واستنفرت سلطات الاحتلال عددا كبيرا من افراد الجيش وحرس الحدود وذهبوا الى المكان وبدأوا بالبحث والتفتيش ، الا انهم لم يهتدوا الى الكهف الا بعد ساعات طويلة ، حين اهتدوا الى بقع من الدم وكومة من التراب ، لكنهم استغربوا وجود كهف في ذلك المكان لعدم وجود مدخل له مكشوف . ولدى التفتيش ظهر لهم مدخل منخفض جدا ولا يستطيع احد دخوله الا زحفا على بطنه . وبالفعل قام عدد من الجنود بالزحف على بطونهم ولمسافة عشرة امتار الى ان اهتدوا الى الكهف الذي لا يستطيع الوقوف بداخله اي شخص . وبداوا بالتفتيش داخله ، لكنهم لم يعثروا على الجثة ، لان الكهف يتشعب من الداخل الى اربعة اتجاهات. وحاول الجنود للمرة الرابعة البحث داخل الكهف لكنهم لم يعثروا على الجثة . واخيرا كلفوا اهل الشهيد بالعبور داخل الكهف مستعينين بالمصابيح الى ان اهتدوا الى مكان الجثة بعد فترة طويلة من الزمن . فقاموا باخراجها والتعرف عليها .

وبعد ذلك تم نقل الجثة الى مسقط رأسه في قرية الطبقة ومن ثم الى بلدة دورا حيث صلت الجماهير عليه صلاة الجنازة ، ووري التراب دون غسله حسب الشريعة الاسلامية ، لان جسده مقطع الاوصال وبدون احشاء نتيجة ما وقع له .

ومن الجدير بالذكر ان والد الشهيد كان قد حوكم من قبل سلطات الاحتلال حيث حكمت عليه بالسجن ثماني سنوات ، ولم تسمح له السلطات الاحتلالية بالاشتراك في تشييع جثمان ولده .

ويذكر كذلك ، انه بمجرد ان تحققت سلطات الاحتلال من الجثة وعرفت صاحبها ، قام الحاكم العسكري لمدينة الخليل ، بابلاغ رئيس بلدية دورا انه قد رفع الحظر المفروض على دورا وعدد من قراها (الشعب ١٩٧٤/٦/٢٣) .

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

المؤتمر السنوي الثالث للوكالة اليهودية

انتخاب سابير رئيسا للادارة الصهيونية والوكالة اليهودية

في جلستين متتاليتين ، الاولى للجنة التنفيذية الصهيونية والثانية للمؤتمر السنوي الثالث للوكالة اليهودية ، عقدتا في الثامن عشر والتاسع عشر من شهر حزيران (يونيو) ١٩٧٤ في القدس ، تم انتخاب بنحاس سابير وزير المالية الاسرائيلي السابق ، رئيسا للادارة الصهيونية ، ورئيسا للوكالة اليهودية .

وكان هذان المنصبان قد شغرا ، بوفاة اربيه بينكوس ، الذي تم انتخابه لاشغال هذين المنصبين في المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين . وعلى اثر وفاة بينكوس (قبل سنة) تم انتخاب امين صندوق الوكالة اليهودية : آربيه دولتسين (الاحرار — الصهيونيون العموميون) رئيسا بالوكالة لاشغال هذين المنصبين الى حين انعقاد المؤتمر السنوي للوكالة اليهودية لانتخاب رئيس اصيل .

وكان قد تردد (قبل اعلان سابير عن عزمه ترشيح نفسه) ان دولتسين قرر ترشيح نفسه . وقد اكد دولتسين هذه الانباء في مقابلة اجرتها معه صحيفة يديعوت احرونوت (٧٤/٦/١٨) حيث قال : « عندما انتخبت كرئيس بالوكالة للوكالة اليهودية بعد وفاة اربيه بينكوس ، اعلنت انه يتحتم على الرئيس المقبل ان يكون شخصية مقبولة — ان لم يكن لدى الجميع ، فعلى الاقل لدى اغلبية كبيرة ! وان الرئيس المقبل يجب ان يكون شخصية باستطاعتها ان تزيد وتقوي الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية ، ولقد سرت على هذا المبدأ ! ولكن عندما قرر حزب العمل ، بأنه يتحتم عليه ان يرشح مرشحا ، لان هذا المنصب من نصيبه — قررت خوض صراع ضد ذلك ! »

لكن دولتسين ، عاد وأعلن في تلك المقابلة انه قرر سحب ترشيحه لصالح بنحاس سابير بعد ان علم منه مباشرة انه عازم على ترشيح نفسه . وعزا دولتسين موقفه الجديد الى كونه يعتبر الهجرة والاستيعاب الموضوع الرئيسي والاكثر اهمية الى جانب شؤون الامن بالنسبة لوجود ومستقبل دولة اسرائيل . وان وجود سابير على رأس الوكالة اليهودية ، وبحكم هذا المنصب على رأس قسم الهجرة والاستيعاب فيها سيسهل كثيرا في حل المشاكل العالقة ، لكون حزب العمل هو الحزب الحاكم .

الجلسة الافتتاحية

اتسمت الجلسة الافتتاحية بطابع احتفالي بارز، وقد شارك فيها الى جانب رئيس الدولة ، افرايم كتسير ، العديد من الشخصيات الاسرائيلية والصهيونية . وكان أبرز الخطباء آربيه دولتسين ، رئيس الادارة الصهيونية والوكالة اليهودية بالوكالة . وأشار دولتسين في كلمته الافتتاحية الى أن اسرائيل والشعب اليهودي يعيشان فترة كثيرة المخاطر والآمال . والى أن الشعب اليهودي موحد الآن كما لم يكن في أي وقت مضى . وبعد أن أعرب عن تضامنه مع يهود الاتحاد السوفياتي وسوريا ، أكد على ضرورة العمل من اجل زيادة الهجرة : « سيأتون بالآلاف اذا شعروا بأننا نريدهم هنا » . وحمل الدولة مسؤولية عدم تحقيق ذلك فقال : « الحقيقة انه لم يعمل حتى الان ما فيه الكفاية من اجل خلق ظروف وشروط استيعاب تؤدي الى تيار متدفق من الهجرة من البلدان الغربية » (معاريف، ٧٤/٦/١٨) .

وقال دولتسين ان المشكلة الاكثر صعوبة ، التي تشكل عائقا امام الهجرة هي اجراءات الاستيعاب وكثرة الدوائر التي تعالج موضوع الهجرة . « ان هذه الاجراءات معقدة وغير فعالة وتمس كرامة الانسان الذي هو بحاجة لخدمات الاستيعاب وأحيانا يكون في تلك الاجراءات ما يخجل الانسان » (نفس المصدر) .

ثم توالى الخطباء ، منوهين ومشيدين بدور اليهود ودور الوكالة اليهودية في دعم اسرائيل . وفي هذا السياق أعلن باول تسوكرمان رئيس

الجباية الموحدة في الولايات المتحدة انه تقرر هذه السنة وضع هدف لجمع ٦٧٥ مليون دولار — وقد تم جمع الجزء الاكبر من هذا المبلغ حتى الان — ٤٥٠ مليون دولار .

انتخاب سابير

بعد سحب دولتسين لترشيحه ، بقي سابير المرشح الوحيد لمنصبي رئيس الادارة الصهيونية والوكالة اليهودية . وقد جرت عملية الانتخاب لكل منصب على حدة ، من قبل الهيئة المختصة بذلك . وبينما امتنع بعض اعضاء اللجنة التنفيذية عن التصويت ، لدى طرح اسم سابير كمرشح لرئاسة الادارة الصهيونية ، فان أحدا لم يمتنع عن التصويت في جلسة الوكالة اليهودية التي خصصت لانتخاب رئيس الوكالة .

وقد تم انتخاب سابير للمنصب الاول في جلسة خاصة عقدتها اللجنة التنفيذية الصهيونية ، جرى خلالها اولا قبول دخول سابير عضوا في الادارة الصهيونية ، تمهيدا لانتخابه رئيسا للادارة ، ومن ثم للوكالة اليهودية . ولدى عملية التصويت امتنع مندوبو الصهيونيين العموميين ومندوبو حركة حيروت — الصهيونيون الاصلاحيون عن التصويت . ويبلغ عدد مندوبي هاتين الكتلتين الذين امتنعوا عن التصويت ٢٨ مندوبا حسب معاريف (٧٤/٦/١٩) و٢٦ مندوبا حسب داغار (٧٤/٦/١٩) .

وقد عزا الصهيونيون العموميون اسباب امتناعهم الى كونهم كانوا يرغبون في انتخاب اريه دولتسين لمنصب رئيس الادارة ، لكن نظرا لانه لم يطرح اسمه فانهم يبغون بهذا الاسلوب التعبير عن ثقتهم به وتأييدهم له . أما الناطق باسم حركة حيروت — الصهيونيون الاصلاحيون ، بروفيسور هوارد اليسون فقد أعلن (داغار ، ٧٤/٦/١٩) ان الاسباب التي حدت بمندوبي حيروت للامتناع عن التصويت ، هي كون سابير من الاشخاص الذين عارضوا توسيع قاعدة الحكومة ، باقامة حكومة تكتل وطني . تلك المعارضة النابعة — على حد قوله — من اعتبارات حزبية ، الامر الذي لم يمكن كتلته من انتخاب هذا الرجل لمنصب رئيس الادارة الصهيونية ، ذلك المنصب الذي من احدى مهامه ، مهمة توحيد الحركة الصهيونية « والشعب اليهودي » .

وبعد انتخاب سابير في ٧٤/٦/١٨ رئيسا للادارة الصهيونية عقدت الوكالة اليهودية في اليوم التالي جلسة جرى خلالها انتخاب سابير رئيسا للوكالة اليهودية بالاجماع .

سابير والمرحلة الجديدة

وفي اليوم التالي لانتخابه القى سابير كلمة شكر فيها المندوبين على ثقتهم به ، واشار الى عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه خصوصا وانه يخلف في هذا المنصب رجالا كبارا أمثال دافيد بن جوريون وموشي شاريت وآرييه بينكوس .

وعندما تطرق الى الصهيونية ومهامها (معاريف ٧٤/٦/١٩) قال سابير بأن القضية المطروحة اليوم ليست اذا كان هناك مكان للحركة الصهيونية في هذه الايام — بل اذا كان بمقدورها ان تحمل العبء الثقيل — « عبء الخلاص » الذي القى به التاريخ على عاتقها ، وهل هي مؤهلة لمواجهة التحديات ؟

ويعتقد سابير ان التحديات التي تواجهها الحركة الصهيونية و« الشعب اليهودي » ودولة اسرائيل هي ما يلي :

١ — ضمان استمرار وجود الشعب اليهودي ، وذلك بشن حرب مستمرة ضد وباء الاندماج والانصهار .

٢ — تنمية وتعميق الثقافة اليهودية كمرتكز أساسي ووحيد مؤهل لضمان يهودية الاجيال القادمة .

٣ — تركيز الشعب بأسره حول دولة اسرائيل وتجنيد الشعب لمساعدة الدولة .

٤ — تشجيع وتنمية حركة هجرة كبيرة من جميع البلدان والانظمة .

٥ — تنفيذ اعمال استيطانية كبيرة وواسعة في جميع انحاء البلاد ، وخصوصا في مناطق الجليل والنقب ، تلك المناطق التي تنتظر الطلائعيين اليهود لجعل قفارها مزدهرة .

٦ — تنمية الوعي الصهيوني والادراك اليهودي داخل دولة اسرائيل .

٧ — خوض نضال لا ينقطع من اجل رفاهية وخلاص يهود الاتحاد السوفياتي وأولئك الذين بقوا منهم في الدول العربية .

الهدف — ١٠٠ الف يهودي سنويا

اما في نطاق مهامه كرئيس للوكالة اليهودية ، فقد حدد سابير أولوياتها حسب المجالات التالية : هجرة ، جباية ، وتثقيف يهودي في المهجر . وبالنسبة لموضوع الهجرة قال سابير : « سأغادر البلاد « لحراثة » العالم اليهودي لارى ما يمكن عمله من اجل دفع وحث المهاجرين الى البلاد . أنوي العمل على تهجير حوالي ٤٤٠ — ٥٠٠ الف يهودي خلال السنوات الاربع او الخمس القادمة من الاتحاد السوفياتي والبلدان الغربية . هذه مهمة صعبة وربما غير ممكنة. واذا لم انجح سأقول لنفسي : سابير ، اذا كنت لم تنجح في احضار المزيد من المهاجرين اليهود اكثر مما كان يأتي في السابق ، على الرغم من انك وظفت كل جهدك وكل قوتك وكل اعصابك وكل ما لديك — اذا لم تنجح ، فهذا دليل على ان اليهود في هذه الاوقات لا يريدون القدوم الى البلاد » . (معاريف ، ٢٠/٦/٧٤) .

وأكد سابير على ضرورة بذل جهود اكبر في سبيل الثقافة اليهودية في المهجر . « اذا لم نعمق الثقافة اليهودية في المهجر — فبعد ٢٥ سنة سنكون شعبا يهوديا صغيرا ، وبعد ٥٠ سنة لن نكون — لاسفي الشديد — شعبا » . (نفس المصدر) .

وتعتبر مشكلة الاستيعاب سواء على الصعيد الاجتماعي او الثقافي او على صعيد العمل من كبرى المشاكل التي تواجه الهجرة الى اسرائيل ، وأحد الاسباب الرئيسية في ظاهرة النزوح عن البلد . ولقد خصص العديد من الخطباء جزءا من كلماتهم للاشارة الى هذه القضية ، كما سبق وأشرنا . كما ونجد تأكيدا على اهمية هذا الموضوع في بنود الموازنة العامة للوكالة اليهودية . ولقد حاول دولتسين التقليل من خطورة ظاهرة النزوح ، حين اشار في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة يديعوت احرونوت (١٨/٦/٧٤) الى أن نسبة النازحين من مهاجري الاتحاد السوفياتي لا تتعدى ٥ر١ ٪ ، بينما تصل هذه النسبة الى ١٠ ٪ بين مهاجري الدول الغربية . لكنه وان كان لم يبد قلقا بارزا لظاهرة النزوح من حيث حجمها ، فانه أشار الى خطورة الهبوط الواضح في معدلات الهجرة من الاتحاد السوفياتي في الاشهر الخمس الاولى من هذه السنة مقارنة بنفس الاشهر من السنة الماضية.

ففي هذه الفترة قدم الى اسرائيل ٨٥٠٧ مهاجرين جدد من الاتحاد السوفياتي مقابل ١٢٤٨١ مهاجرا جديدا في نفس الفترة من السنة الماضية ، اي هبوط بنسبة ٣٠ ٪ تقريبا .

ولكن نظرة اعمق الى الامور ، تحتم التحفظ وعدم التسليم بصحة هذه الارقام والنسب ، حيث يمكن اعتبار هذه النسب صحيحة بالنسبة لاولئك الذين أعلنوا رسميا عن نيتهم في النزوح ، وهي بالتالي لا تشمل ذلك العدد من الذين يغادرون اسرائيل دون الاعلان عن نيتهم بالنزوح ، سواء بقصد القيام بجولات سياحية طويلة الامد او بمغادرة البلاد من اجل التفتيش عن عمل مربح أكثر او حتى من أجل الدراسة . فمثل هؤلاء يمكن اعتبارهم نازحين محتملين .

الموازنة الجديدة

بلغت الموازنة الجديدة للوكالة اليهودية حوالي ٧٠١ مليون دولار توزعت على بنود اساسية ، منها : الاسكان ، التعليم العالي ، استيعاب الهجرة والشباب ، والاستيطان . وفي استعراضه لبنود الموازنة ، (هآرتس ، ١٩/٦/٧٤) أشار دولتسين الى ان الموازنة بشكل اساسي موجهة من اجل استقدام عشرات الالوف من اليهود الذين يعيشون في بلاد الضيق . كما وخصصت الموازنة لمساعدة ٥٥٠ الف نسمة في اسرائيل بينهم ١٥٠ الفا من المهاجرين الجدد الذين جاءوا في السنتين الاخيرتين وما زالوا بحاجة للمساعدة .

كما وتشمل الموازنة تخصيص مخصصات للمنح الدراسية لحوالي ١٠٠ الف تلميذ ثانوي ، ومساعدات لحوالي ١٠٠ الف مستوطن ومخصصات اجتماعية لحوالي ١٧٥ الف محتاج .

ونفى دولتسين في استعراضه للموازنة ، ان تكون الهجرة تشكل عبئا على الاقتصاد الاسرائيلي. وادعى ان الهجرة تساهم مساهمة كبيرة في عجلة الاقتصاد ، وان ٩٠ ٪ من المهاجرين الجدد يستوعبون في عمل دائم ومنتج في نهاية السنة الاولى من مكوثهم في البلاد ، الامر الذي أضاف الى قوة العمل الاسرائيلية في السنين الخمس الاخيرة حوالي ٤٠ الف مهاجر جديد .

وأضاف دولتسين ان مساهمة الهجرة على الصعيد المادي قد زادت ايضا : ففي السنين

الخمس الاخيرة احضر ٥٥ الف مهاجر من بلدان الرخاء اكثر من نصف مليار من الدولارات الى اسرائيل ، كما دخل الى البلاد مبلغ آخر يقدر بمليار دولار في تلك الفترة على شكل رواتب تقاعدية ، ارث ، وتوظيفات ومداخيل اخرى للمهاجرين .

صناديق الجباية

وجاء في التقرير الذي تدمه الى مؤتمر الوكالة اليهودية عزرا شابيرا رئيس كيرن هايسود (الصندوق التأسيسي) — الجباية الموحدة لاسرائيل ، انه قد تم التبرع بمبلغ لا مثيل له في السابق ، بلغ ٤١٠ ملايين دولار ، من قبل اليهود خارج الولايات المتحدة ، في اعقاب حرب يوم الغفران . وهذا المبلغ اكبر مرتين ونصف من المبلغ الذي تم التبرع به في اعقاب حرب الايام الستة حيث جمع مبلغ ١٥٠ مليون دولار ، وهو اكبر بأربع مرات عما كان متوقع جمعه في خطة الجباية سنة ١٩٧٣ قبل نشوب الحرب .

اما محاسب المؤتمر اليهودي العالمي ، دكتور تيبور روزنباوم فقد افاد اثناء المناقشة للموازنة في لجنة صناديق الجباية لمؤتمر الوكالة اليهودية ، التي بحثت مسألة زيادة حملات التبرع في اوساط اليهود في الخارج ، انه سيتم هذه السنة جمع ٣٩٠ مليون دولار بواسطة الجباية اليهودية الموحدة و٢٤٠ مليون دولار بواسطة كيرن هايسود .

هاني عبدالله

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

العدوان الاسرائيلي على لبنان
استمرار لاستراتيجية العمل والردع

يشكل الوضع العسكري على الحدود اللبنانية — الاسرائيلية منذ حرب ١٩٦٧ دليلا ماديا ملموسا على المقولة الوحدوية التي تؤكد العلاقة الجدلية المتبادلة بين الامن القومي والامن القطري . واذا راقبنا الخط البياني للاعتداءات الاسرائيلية على الاراضي اللبنانية بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وظهور الثورة الفلسطينية كعامل عسكري فعال داخل الارض المحتلة وعلى حدودها، وجدنا ان الاعتداءات تتزايد مع هدوء الجبهات العربية ، وتتناقص في مراحل سخونة هذه الجبهات . وبالرغم من أن العمليات العسكرية الاسرائيلية ضد لبنان كانت تختفي دائما وراء مبرر محاربة قوات الثورة الفلسطينية العاملة عبر الحدود اللبنانية ، فان من المعروف ان السبب الحقيقي الكامن خلفها هو أطماع اسرائيل التوسعية ، ورغبتها الملحة في احتلال جزء من جنوب لبنان والافادة من مياهه ، ولا يتجاهل هذا السبب ويتعامى عنه ، سوى اصحاب سياسة النعامة الذين يمارسون العمل السياسي من منطلقات قطرية يومية محدودة ، لا ترى آفاق التخطيط الصهيوني البعيد بالنسبة الى المنطقة بأسرها .

لقد بدأ خط الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان بالتصاعد بعد حرب ١٩٦٧ عندما كانت الحدود العربية — الاسرائيلية هادئة ، وكانت الجيوش العربية تلملم جراحاتها . ولقد رافق هذه الاعتداءات اعتداءات على الاردن ، وكان من الطبيعي أن تكون الاعتداءات الاسرائيلية على الاردن اكبر من الاعتداءات المماثلة على لبنان وأكثر عددا ، نظرا لان نشاط الثورة الفلسطينية عبر الحدود الاردنية — الفلسطينية كان اوسع بكثير من نشاطها عبر الحدود اللبنانية — الفلسطينية . وفي فترة حرب الاستنزاف (١٩٦٩ — ١٩٧٠) كان من الطبيعي ان تتصاعد الاعتداءات على لبنان بعد أن صعدت الثورة الفلسطينية عملياتها الداخلية في الجليل ، ودعمت مواقعها العسكرية في جنوبي لبنان ، وزادت عدد دوريات القتال والامداد عبر الحدود اللبنانية ، ولكن التصعيد الاسرائيلي لم يسر بخط متواز مع التصعيد الفلسطيني . ويرجع السبب في ذلك الى ان اهتمام الدولة الصهيونية كان منصبا على جبهة قناة السويس ، وعلى الصراع ضد خلايا الثورة السرية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعلى مجابهة العمليات المنطلقة من قواعد الثورة في غور نهر الاردن . وكان هذا اول دليل على صدق المقولة الوحدوية التي تحدثنا عنها . وجاء الدليل الثاني في النصف الثاني من العام ١٩٧٠ وطول العام ١٩٧١ ، عندما توقفت حرب الاستنزاف على جبهة القناة ، وأمنت القوات المسلحة الاردنية تهدئة الجبهة الشرقية بعد تصفية الثورة في الاردن (ايلول ١٩٧٠ وتموز ١٩٧١). فتصاعدت الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان . ولقد تزايدت خطورة هذا الوضع في العام ١٩٧٢ والاشهر التسعة الاولى من العام ١٩٧٣ عندما كان لبنان مسرح العمليات الوحيد للقوات الاسرائيلية البرية والجوية والبحرية ، وكانت الجبهات العربية هادئة تماما باستثناء بعض الاشتباكات المحدودة مع سورية . وسارت العمليات الاسرائيلية على الحدود اللبنانية وفق خط نازل خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، وحرب الاستنزاف المصرية التي تلتها ، رغم تصاعد عمليات الخلايا الثورية الداخلية في الجليل ، وارتفاع عدد دوريات القتال والامداد المنطلقة من قواعد الثورة في جنوب لبنان ، وكان التناقض بين التصعيد الفلسطيني والحبوط الاسرائيلي في هذه الفترة الدليل الثالث على صدق المقولة . لانه وقع في فترة اشتعال الجبهتين العربية والسورية، وانشغال القوات الاسرائيلية البرية والبحرية والجوية في صد الضربات العربية ، او تسديد الضربات المعاكسة لقوات عربية قادرة على المجابهة الفعالة في ظروف الحرب الحديثة (حركة، مبادرة ، كثافة نارية عالية ، تكنولوجيا متطورة).

ومع مطلع العام ١٩٧٤ ، وفصل القوات على الجبهة المصرية ، وهدوء الموقف على الجبهة السورية ، عادت العسكرية الاسرائيلية الى

تهديد لبنان والاعتداء عليه (الدليل الرابع) . واستمر هذا الوضع متصاعدا حتى بداية حرب الاستنزاف السورية في الجولان وجبل الشيخ (من ١٢ اذار حتى ٢٩ ايار) حيث انشغلت اسرائيل بالوضع العسكري الخطير على الجبهة السورية ، واحتمالات تأثيره على فصل القوات في سيناء ، واستمرار القوات المصرية الجوية والصاروخية والبحرية على الاقل الى القتال من جديد (الدليل الخامس) . وما أن تم فصل القوات على الجبهة السورية وهدأ هدير المدافع والطائرات ومحركات الدبابات ، وقام الرئيس نيكسون بزيارته الى الشرق الاوسط وسط مظاهر الحفاوة والترحيب ، وغرس الجنود العرب بنادقهم على سترات الخنادق ، حتى علا صوت التهديدات الاسرائيلية من جديد ضد لبنان ، وبدأت الاعتداءات العنيفة على الحدود وفي عمق الاراضي اللبنانية (الدليل السادس) .

ففي الثامن عشر من حزيران ، وبعد ثلاثة أسابيع من آخر غارة جوية على مخيمات اللاجئين في جنوبي لبنان ، وبعد ساعات من رحيل نيكسون عن المنطقة ، تودعه التمنيات الطيبة والدعاء بطول البقاء في الحكم ، رغم الهزة الارضية التي تنتظره في واشنطن ، وترافق طائرته حمامات سلام بيضاء ، شنت ٣٦ — ٣٨ طائرة (اميركية الصنع) غارتين كبيرتين على القرى اللبنانية والمخيمات في جنوب لبنان . ولقد بدأت الغارة الاولى في الساعة ١٦،١٥ ، وبدأت الغارة الثانية في الساعة ٢١،٠٠ واستخدمت الطائرات فيها القنابل زنة ٢٥٠ كغ و٥٠٠ كغ والقذائف الصاروخية ونيران الرشاشات ، والقت الطائرات بالاضافة الى ذلك القنابل الموقوتة ولعب الاطفال الملغومة . وفي الساعة ٧،٠٠ من صباح يوم ١٩ قامت ٦ طائرات اسرائيلية بتجديد القصف ضد الاهداف المدنية ، مستخدمة القنابل المتفجرة والقنابل المحرقة . وفي الساعة ١٩،٠٠ من مساء اليوم نفسه قصفت المدفعية قرى الجنوب الحدودية، ثم عاود القصف في الساعة ١١،٠٠ . وفي يوم ٢٠ شنت طائرات اسرائيلية غاراتها لمدة ساعة وربع الساعة على مخيمات الرشيدية وعين الحلوة والبرج الشمالي ومحلة رأس العين ، ومزرعة شارنية قرب صور . كما قامت المدفعية بالقصف المعتاد والمتكرر يوميا على قرى الحدود .

وكانت حجة اسرائيل المعهودة هي أن عملياتها لا تستهدف سوى ضرب قواعد الثورة التي ينطلق منها المقاتلون الفلسطينيون لتنفيذ عملياتهم داخل الارض المحتلة . ولكن رئيس الاركان الاسرائيلي مردخاي غور كان قد صرح في ١٤ حزيران بأن قواعد الثورة قد انتقلت الى مخيمات اللاجئين ، وغدت في عمق لبنان وفي مدن مثل بيروت ، واصبحت هذه القواعد ترسل المجموعات عبر الحدود « وهذا ما جعل الغارات المباشرة اكثر صعوبة بالنسبة الينا. ولكن لدينا وسائل اخرى ». وكانت احدى «وسائله الاخرى » قصف مخيمات اللاجئين حيث يتكدس عشرات آلاف المدنيين الفلسطينيين العزل من السلاح .

ويمكن ادراج قصف المخيمات تحت باب **العمل العنيف ضد المدنيين لردع قوى الثورة العاملة من الداخل او المنطلقة من الخارج ردعا معنويا غير مباشر** ، كما يمكن ادراج قصف المدن اللبنانية تحت باب **العمل العنيف ضد لبنان للقيام بدور ضاغط مادي او معنوي ، يمنع الثورة من متابعة نضالها التحرري** . وليست هذه الاساليب حديثة على العسكرية الاسرائيلية ، وهي جزء من استراتيجيتها في العمل والردع ضد الثورة الفلسطينية . ولقد طبقت هذه الاستراتيجية في الاردن وسورية ولبنان منذ اندلاع الثورة وتصاعد عملياتها ، ولكنها لم تصل الى « عتبة » قصف المخيمات المدنية والقرى اللبنانية على نطاق واسع الا بعد أن ضمنت مباركة الولايات المتحدة على اثر عملية كفار شامير الانتحارية . وكان الرأي السائد من قبل ان الولايات المتحدة لا تمانع قيام اسرائيل بهجمات برية مؤقتة في عمق الاراضي اللبنانية لتدمير قواعد الثورة الفلسطينية او مطاردة دورياتها ، ولكنها تعارض لجوء الطيران الاسرائيلي الى قصف مخيمات اللاجئين الفلسطينيين . الذي يذكر المواطن الاميركي بعمليات « القصف الاميركي للاهداف المدنية في فيتنام الشمالية » (دافار ١٩٧٣/٦/٦). ولكن قيام الطيران الاسرائيلي بالقصف بعد زيارة نيكسون نفى هذا الاعتقاد ، وفسر حقيقة الموقف الاميركي من البند الاول لاتفاق فصل القوات على الجبهة السورية . ذلك الموقف الذي نقلته غولدا مائير الى الكنيست في ٣٠/٥ ، عندما أكدت بأن القادة الاميركيين يرون « أن قيام مجموعة معينة ، او افراد باعمال تسلل « تخريبية » ، هو عمل

مناقض لوقف اطلاق النار ، ولاسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها لمنع عمليات كهذه ، **بجميع ما تملكه من وسائل** » (رصد اذاعة اسرائيل ر.أ.١٠. عدد ٥٤٧) . والطيران هو احد الوسائل التي تملكها الدولة الصهيونية ، بل هو أهم وسائلها العسكرية للعمل والردع، وخاصة في اجواء محرومة من الدفاع الجوي كالاجواء اللبنانية . وما ينطبق على الحدود السورية ينطبق على الحدود اللبنانية . هكذا فهمت اسرائيل الموقف الاميركي الرسمي ، وهكذا فهمت نداء نيكسون الذي جاء في فقرة من البيان الاميركي ــ الاسرائيلي تقول « ان من واجب كل دولة الامتناع عن تنظيم او تشجيع قوات غير نظامية او عصابات مسلحة ، بما في ذلك المرتزقة من أجل دخول اراضي دولة اخرى » (معاريف ٧٤/٦/١٨) واستندت الى هذا الفهم عندما شنت اعتداءاتها ، وعندما اعلن مندوب اسرائيل في الامم المتحدة جاكوب دورون أمام اعضاء مجلس الامن في ١٨ حزيران « ان اسرائيل ستواصل في المستقبل أيضا اتخاذ كل الاجراءات المناسبة لتدافع عن نفسها ، وتحبط هجمات الارهاب التي تشن ضدها من الاراضي اللبنانية » (النهار ٦/٢٠) .

ولقد حاولت الولايات المتحدة التنصل من مسؤولية الغارات الجوية على المخيمات والقرى، فقامت وزارة الخارجية الاميركية في ١٨ و ٢٠ حزيران بادانة هذه الغارات ، ونفت ان يكون للولايات المتحدة أية علاقة بها ، وقال روبرت اندرسون الناطق باسم وزارة الخارجية « ان الولايات المتحدة لم تعط الضوء الاخضر لاي كان » ثم أضاف « اننا نستنكر هذا العمل بشدة ، بشدة ... » (و. ص. ف ٦/٢٠) . ولكن هذا الانكار وذاك الاستنكار لا يقفان على أرض صلبة ، ولا يصمدان امام التحليل المنطقي . لان انكار اعطاء الضوء الاخضر يتناقض مع التفسير الاميركي المذكور سابقا حول البند الاول لاتفاق فصل القوات على الجبهة السورية ، كما يتناقض مع تصريح وكيل وزارة الخارجية جوزف سيسكو في ٦/١٣ امام لجنة الخارجية في الكونغرس ، والذي قال فيه ان الولايات المتحدة تعتبر العمل الفدائي المنطلق من سورية بمثابة خرق لاتفاق فصل القوات ، لكنه اكد انه تم ابلاغ اسرائيل انها لا تستطيع « الانتقام بدون تمييز » . وهذا يعني انها تستطيع « الانتقام بتمييز » . والتمييز هنا عمل بشري قابل للخطأ والصواب . والطائرات التي تقصف المخيمات من ارتفاعات عالية او منخفضة عاجزة عن « التمييز » بالرغم من قيام الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بقنابل ذكية لدوافع « انسانية » بحتة (!) ، وحتى لا يخطىء الطيار هدفه العسكري فيصيب هدفا مدنيا « بدون تمييز » . أما الاستنكار الاميركي ، فهو صورة مستحدثة لتصرفات يهوذا الاسخريوطي . وهو استنكار لفظي ديماغوجي ، ولو كان استنكارا حقيقيا لعرفت اسرائيل بذلك قبل غيرها ، ولما أقدمت على ازعاج « حليفتها الوحيدة في العالم » ولما جرؤت على تكرار الغارات في اليومين التاليين رغم استنكار يوم ١٨ الذي اعقب الغارة الاولى . ولو كان استنكارا حقيقيا لجسدته واشنطن بأكثر من وسيلة ضغط (مباشرة او غير مباشرة ، فردية او دولية) طالما أنها تملك جميع المفاتيح الاقتصادية والسياسية والعسكرية للوجود الاسرائيلي بأسره.

ولقد كان الرد اللبناني على عمليات القصف ردا دبلوماسيا ، وقامت مصر في ٦/١٨ ، على لسان وزير خارجيتها ، بتحذير اسرائيل وتحميلها « مسؤولية كل ما يحدث نتيجة هذا العدوان بما في ذلك نسف فرص السلام في الشرق الاوسط » وأعلنت ان مصر « لن تقف مكتوفة اليدين حيال هذا الاعتداء على سيادة لبنان وعلى الامة العربية » . ووجهت سورية في ٦/٢٠ تحذيرا مماثلا . وقام ابو عمار رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية فور وصوله الى بيروت في مساء ٦/٢٠ بتوجيه برقية الى الملوك والرؤساء العرب طالبهم فيها بتقديم المساعدة للمخيمات التي يقصفها طيران العدو ، وهي عزلاء من اي وسائل للدفاع الجوي . ثم اجرى في يوم ٦/٢١ اتصالات مع السفراء العرب في بيروت ، وطلب منهم ان يبلغوا حكوماتهم « أن تحمل مسؤولياتها في حماية الشعب الفلسطيني وردع المعتدين الصهاينة » كما طالب الدول العربية « باستخدام كل الاسلحة المتوفرة لدى الامة العربية عسكريا وسياسيا واقتصاديا ودبلوماسيا » وتزويد المخيمات بنظام دفاع جوي وأسلحة اخرى لمقاومة الاعتداءات ، بالاضافة الى مساعدات مالية لتحصين المخيمات .

ولقد عـزز الرئيس أنور السادات نشاطـه الدبلوماسي بأن بعث في ٦/٢١ الى الرئيس نيكسون رسالة يطالبه فيها بالضغط على الحكومة الاسرائيلية للحد من نشاطها العسكري ضد لبنان ، وتأثير هذا النشاط على مسيرة السلام في الشرق الاوسط ، كما بعث الى الرئيس سليمان فرنجيه رسالة يشير فيها بوضوح الى أنه ينتظر من لبنان أن يحدد نوع الدعم والمساعدات التي تلائم ظروفه وتتناسب مع أوضاعه مؤكدا مرة أخرى ان مصر مستعدة لتزويد لبنان بالعتاد والرجال اذا لزم الامر . وفي يوم ٢٢ استقبل الرئيس حافظ الاسد الدكتور امين الحافظ رئيس الحكومة اللبنانية الاسبق وأبلغه ان سورية مستعدة لتلبية اي طلب يتقدم به لبنان لمواجهة الاعتداءات الاسرائيلية ، ثم أكد الرئيس السوري للدكتور الحافظ ان فصل القوات في الجولان « لن يمنع سورية من ممارسة مسؤولياتها العربية ، والوقوف في وجه الاعتـداءات الاسرائيلية علـى لبنان » وان سوريـة « تضع سلامـة الاراضي اللبنانية ومخيمات الفلسطينيين وقضيـة الثـورة الفلسطينية في طليعة اهتماماتها » . وكانت صحيفة « الثورة » السورية (١٩٧٣/٦/٢٢) واضحة في انذارها لاسرائيل عندما قالت « يمكننا الان ان نلاحظ بوادر استغلال اسرائيل لعنصر الزمن وهي تقوم بغاراتها الوحشية علـى لبنان وعلى مخيمـات الفلسطينيين ظنا منها ان اتفاق فصل القوات الذي ينص على توقف العمليات القتالية تقيد القطـر العربي السوري وتحرجه وتثنيه عن النهوض بواجبه القومي تجاه ما يتعرض له لبنان الشقيق ، وما يتعرض له الاخوة الفلسطينيون . غير ان ما اعلنته سورية من دعم للثورة الفلسطينية وللقطر اللبناني الشقيق سواء على لسان المصدر الرسمي او ما جاء في بيان المؤتمر القطري الخاص الاستثنائي ، لا بد الا ان يكون قد خيب توقعات اسرائيل » .

وكان من الممكن ان تفيد لبنان من هذه العروض، وان تدعم دفاعها الارضي والجوي بقوات عربية ، ريثما يتم تنفيذ الخطة الدفاعية اللبنانية ، ويستعد الجيش اللبناني للقيام بدوره في المعركة القومية . ولم يكن الدعم العسكري العربي للبنان يتطلب وقتا طويلا ، لان انتقال القطعات المدرعة والميكانيكية والصواريخ المضادة للطائرات ووحدات المدفعيـة والصواريخ المضادة للدبابات مـن سورية الـى لبنان عملية على غـاية من السهولة ولا تتطلب سوى زمن قصير يحسب بالساعات ، كما ان تغطية الاجواء اللبنانية بالطائرات السورية والعراقيـة والمصرية (ميغ — ٢١ م ف) يمكن ان يتم مع بقاء الطائرات العربية في المطارات السورية نظرا لطول مدى عمل هذه الطائرات (١١٠٠ كيلومتر) . أما البحرية السورية التي يمكن ان تدعم ببعض القطع البحرية المصرية ، فقد كان بوسعها حماية الساحل اللبناني مع الانطلاق مـن قواعد البحرية علـى الشاطىء السوري . ولكن كل هـذه التدابير العسكرية كانت تتطلب قرارا سياسيا أحجم لبنان عن اتخاذه . وكانت حجته في ذلك ان لبنان لا يريد ان يستفز اسرائيل ويدفعها الى شن حرب وقائية ضد لبنان ويعطيها المبرر لاحتلال الجنوب في الوقت الذي تم فيـه فصل القوات علـى الجبهتـين الاساسيتين . وكان الاتجاه العام في لبنان يسير نحو مطالبة الدول العربيـة بالضغط السيـاسي والدبلوماسي والنفطي علـى اميركا حتى تمنـع اسرائيل من متابعة عدوانها ، والاستعداد لتجاهل اتفاقيتي فصل القوات في سيناء والجولان ، وشن الحرب على الجبهتين المصرية والسورية اذا مـا تابعت اسرائيل اعتداءاتها على الاراضي اللبنانية (الحرب بالوكالة) .

ولقد عزز الجانب اللبناني موقفه مستندا الـى تهديدات اسرائيل الصريحة . فلقد اعلـن رئيس الاركان الاسرائيلي مردخاي غوز في مؤتمر صحفي عقده في ٦/٢٧ انه اذا ارسل المصريون طائراتهم وصواريخهم المضادة للطائرات الى لبنان ، فان ذلك سيحول لبنان الى « ساحة قتال » ، أي الى دولة مواجهة مع اسرائيل . ثم اعلن أن اسرائيل « لا يمكنها الاستهانة بمقترحات مصر وسوريـة المتعلقة بمساعدة لبنان ضد العمليات الاسرائيلية المحتملة . لكننا لا نعتقد ان حكومة بيروت نفسهـا توافق على وجود قوات أجنبية على أراضيها تؤدي الى تحويل لبنـان في نهـاية الامر الى ساحـة قتال » ... « أن الحكومة الاسرائيلية لم تغـير سياستها الاساسية وهي في ظروف معينـة ، لا تنتظر هجوم العدو ، بل تكون بادئة بالضرب » (رويتر ٦/٢٧) .

وفي ٦/٢٣ أعلنت اسرائيل انها اوقفت « مؤقتا » غاراتها الجوية على لبنان . ولقد جـاء ذلك في

تصريح شمعون بيريس وزير الدفـاع الصهيوني عندما قال للصحفيين في تل ابيب قبيل توجهه الى واشنطن « ان العمليات الجويـة ضد قواعـد الفدائيين في لبنان علقت مؤقتا بعدما حققت أهدافها وبعدما نجحنا في قتل عدد كبير من الفدائيين » . وذكرت هآرتس (٦/٢٣) نقلا عن اوساط عسكرية اسرائيلية مأذونة ، ان اسرائيل ستوقف الغارات فترة لترى كيف سيتطور الوضع في لبنان و« اذا لم تتخذ الحكومة اللبنانية اجراءات فورية لمنع نشاط الفدائيين فان العمليات الاسرائيلية ستستأنف » .

ومن المعتقد ان رسالة الرئيس السادات الى الرئيس الاميركي نيكسون ، والضغوط العربيـة الاخرى ، واحتمالات انهيار تدابير السلام فـي المنطقة ، هي التي دفعت اميركا الى الضغط على اسرائيل لمنعها من متابعة اعمالها العدوانية الجوية ضد المخيمات والقرى . ولقد أعطى هذا الضغط نتائجه خاصة وانه جاء في وقت يسافر فيه وزيـر الدفاع الاسرائيلي الى امـيركا لطلب مساعدات عسكرية طويلة الامد ، تعتقد واشنطـن بوست (٦/٢٦) انها ستبلغ خـلال السنوات الخمس القادمة ما قيمته ٥ر٧ مليارات من الدولارات .

وفي ٦/٢٤ دعت الكويت الى عقد اجتماع وزراء الخارجية والدفاع العرب في يوم ١ تموز للبحث في مسألة الاعتداءات الاسرائيلية ، ثم أجل الاجتماع الى الثالث من تموز واستمر حتى الرابع منه ، وخرج بمقررات سرية لدعم القوة الدفاعية اللبنانية. وتؤكد « التزام كل الدول العربية بالتضامن مـع لبنان في دفاعه عن ارضه وسيادتـه الوطنية ، وبتأييد النضال المشروع للشعب الفسطيني من أجل استعادة حقوقه القومية » (من بيـان الجامعة العربية ١٩٧٤/٧/٤) .

ولقد بقي الوضع متوترا في لبنان منـذ بـدء الغارات الجوية ، وازدادت حدة التوتر في الساعة ٠٠ر٢٣ من يوم ٦/٢٤ عندما قامت مجموعة من قوات المقاومة بعملية انتحارية في نهاريا . وذكرت المصادر الاسرائيلية ان الفدائيين جاءوا من لبنان عن طريق البحر وحمل لبنان مسؤولية العمليـة . وأعلن رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحاق رابين امـام الكنيست في ٦/٢٥ « ان من واجب لبنان المطلق ان يزيل من ارضه كل المنظمات الارهابية التـي تستخدم لبنان كقاعدة لعملياتها ضد اسرائيل . واذا قصرت الحكومة اللبنانية في هـذا الواجب ستتحمل المسؤولية الكاملـة عن كل الجرائـم وعمليات التخريب التي يقوم بها الارهابيون » . (النهار ٦/٢٦) . ولكن مسؤولا كبيرا في المقاومة أكد في يوم ٦/٢٥ ان هذه العمليات أعدت ونفذت داخل اسرائيل . وقال ان الرواية الاسرائيلية التي تقول ان الفدائيين تسللوا الى الاراضي المحتلة بحرا وتحميل لبنان المسؤولية يعكس في الواقع عجز اسرائيل الكامل عن مواجهة مثل هذه العمليات . ثم أكد ان لا علاقة للبنان اطلاقا بهذه العملية ، وان العمليات الفدائية « ستتصاعد عنفا وجرأة وقوة داخل فلسطين المحتلة في المستقبل » .

وكان من المنتظر قيام اسرائيل بردة فعل عنيفة ضد العملية . لذا وجه الرئيس سليمان فرنجية الى الرئيس ريتشارد نيكسون وسكرتير الحـزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف المجتمعين في موسكو رسالة ناشدهم فيها العمل على عدم اتاحة الفرصة امام اسرائيل لكي تشعل النار في المنطقة بعد الجهود التي بذلتهـا الدولتان لاحلال طلائع السلام ، وتأمين فصل القوات على أصعب جبهتين عربيتين . ويبدو ان الولايات المتحدة بذلت جهودا سياسية لتخفيف حدة رد الفعل الاسرائيلي الذي جاء على شكل عملية بحرية قامت بهـا قوات كوماندوس اسرائيلية في ليلة ٧/٨ تحت حمـاية زوارق حربيـة قامت بقصف البرغلية والصرفند وعدلون وصيدا وصور ، وأدت العملية الى نسف زوارق ومنشآت بحرية في صرفند وصور وصيدا وعدلون والبرغلية بواسطة قنابل موقوتة وضعتها مجموعات من الضفادع البشريـة الاسرائيلية . بالاضافة الى ما ألحقه القصف البحري من أضرار.

والسؤال الان الى أين ؟ لقد أعلنت الثـورة الفلسطينية أكثر من مرة عن تصميمها المشروع على متابعة النضال المسلح ضد العدو الاسرائيلي حتى تتحقق أهدافها التحريرية العادلة ، ولكنها أعلنت في الوقت نفسه « حرصها الشديد » على سلامة لبنان وأمنه ، وتفهمها لوضعه العسكري الحساس، وقرارها بتجميد عملياتها المنطلقة من لبنان . ولكن اعلان الثورة عن هذا التجميد مع الاستمرار في تصعيد عمليات الداخل لن يحمي لبنان من الضربات الانتقامية . لان اسرائيل ستختلق دائما المبررات لضرب لبنان — سواء توجه الضرب الى أهداف

لبنانية أم أهداف فلسطينية في لبنان — لان هذه الجبهة ستبقى الحلقة الاضعف التي يمكن عن طريقها تنفيس الغضبة الاسرائيلية الجماهيرية التي تلي كل عملية داخل الارض المحتلة ما لم تتبدل السياسة الدفاعية اللبنانية وتأخذ موقفا أكثر راديكالية ازاء اسرائيل . وستبقى المجال الوحيد الذي يمكن ان تقوم اسرائيل فيه بضرب رهينة كبيرة (مخيمات الفلسطينيين) دون عقاب ، بغية ردع خلايا الداخل السرية معنويا بشكل غير مباشر . كما انها المجال المحتمل لضرب اهداف مدنية لبنانية لخلق تناقض لبناني — اسرائيلي حاد يدفع القوات المسلحة اللبنانية الى القيام بالدور الذي قامت به القوات المسلحة الاردنية وفق الاسلوب الاردني أو وفق أسلوب آخر يتلاءم مع الاوضاع العسكرية والسياسية السائدة في لبنان .

ولقد رد رئيس الوزارة الاسرائيلية اسحاق رابين على قرار المقاومة بتجميد العمليات، فقال في لندن خلال مؤتمر صحفي عقده بعد حضور اجتماع الحركة الاشتراكية الدولية « ان اسرائيل ستنتظر لترى اذا كان قرار المقاومة الفلسطينية تجميد العمليات انطلاقا من الاراضي اللبنانية سيصبح حقيقة ، قبل أن تستخلص النتائج . واذا لم تحدث هجمات ضد سكان اسرائيل واملاكهم وضد اهداف اخرى ، فلن يكون أي عمل من جهتنا ضروريا ، وسيسود الهدوء المنطقة » (و.ص.ف — ٧٣/٧/١) .

*

ان التهديدات الاسرائيلية المتكررة الموجهة الى لبنان تتزايد منذ توقف القتال على الجبهات العربية ، وهي تعيد الى الاذهان تهديدات اسرائيل التي سبقت حرب ١٩٧٣ . ولقد أعلن شمعون بيرس على شاشة التلفزيون الاسرائيلي (٦/٢١) ان على لبنان ان يعمل ضد المنظمات الفدائية لمنعها من شن الغارات على اسرائيل ثم قال « ان هذا هو التحذير الاخير ، وان اسرائيل تطالب لبنان بأن يتخذ خطوات فعالة لاقفال حدوده مع اسرائيل في وجه «الارهابيين» المنطلقين لارتكاب اعمال قتل» ولا يخرج هذا التهديد عن تهديدات دايان وغيره من المسؤولين الاسرائيليين في الاعوام الثلاثة التي سبقت الحرب ، وهو يدل على ان مساعي الدكتور كيسنجر في فصل القوات توصلت الى ازالة جزء من آثار حرب ١٩٧٣ داخل المجتمع الاسرائيلي ، وان اسرائيل ماضية في استخدام الردع والعمل بشكل متناوب ضد الثورة الفلسطينية التي لم تعترف بوقف القتال ضد المحتلين .

المقدم الهيثم الايوبي

ملحــق
القضية الفلسطينية عسكريا
توقيع اتفاقية تحديد الاسلحة الاستراتيجية (سولت)
The Salt Arrangement

في ٢٦ أيار (مايو) ١٩٧٢ ، وقع كل من رئيس الولايات المتحدة الاميركية (ريتشارد نيكسون) ، والسكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي (ليونيد بريجينيف) في موسكو أول اتفاقية للحد من الاسلحة الاستراتيجية . وبذلك تكون الدولتان الاعظـم قد توصلتا الـى اتفاقية تاريخية حول الحرب النووية ، مبنية بشكل صريح ومباشر على كون شعب كل منهما رهينة الاسلحة النووية التي بحوزة الطرف الاخـر ، ومشترطة الحفاظ على ميزان الرعب النووي القائم وعدم السماح له بالميل بحدة لصالح احد الطرفين . وقد تم ذلك اثر محادثات مضنية بين الدولتين ، بدأت في هلسنكي في تشرين الثاني ١٩٦٩ سميت بمحادثات «سولت Salt »،والاسم هو اختصار للحروف الاولى من عبارة « محادثات تحديد الاسلحة الاستراتيجية Strategic Arms Limitation Talks ».

وقد وقعت في موسكو آنذاك ثلاث وثائق هي : «اتفاقية رسمية دائمة للحد من الاسلحة الصاروخية الدفاعية المضادة للقذائف Anti-Ballistic Missile Agreement » ، واتفاقية مؤقتة مرافقة للحد من الصواريخ الاستراتيجية الهجومية لمدة تصل الى خمس سنوات«Interim Agreement» وبروتوكولا يحدد اثـر الاتفاقيـة الاخيرة علـى الصواريخ التي تطلق من الغواصات . ووقعت في الوقت ذاته في هلسنكي بالاحرف الاولى مذكـرة بالتفسيرات والاجتهادات المختلفة . ويبدو مـن استعراض نصوص الاتفاقية انها توفر المادة التي يبنى عليها التوازن بين القوى الاستراتيجية النووية للقوتين الاعظم . وهي ، على كل حال ، تبين الحاجة الى الحـذر الشديد في تقييم العلاقـة الاستراتيجية الاميركية — السوفياتية فـي حدود المعايير الكمية وحدها .

● **اتفاقية الحد من الاسلحة الصاروخية المضادة للقذائف :** تتكون من ست عشرة مادة ، وهي كما فسرت بسيطة نسبيا في مضمونها وواضحة نسبيا في اثرها في برامج الطرفين الموقعين . فالاتحـاد السوفياتي يملك شبكة صغيرة مـن الصواريخ المضادة للقذائف ، تتكون من ٦٤ قاعدة لصواريخ « غالوش Galosn » منتشـرة حول منطقـة موسكو . اما الولايات المتحدة فانها لم تكن قد وضعت بعد — عند توقيع الاتفاقية — اي جزء من سلاحها الصاروخي المضاد للقذائف : « سيف غارد Safe Guard » في الخدمة ، ولكنها كانت منهمكة في بناء موقعين حول صوامع صواريخ مينيوتمان العابرة للقارات في داكوتـا الشمالية ومونتـانا استعدادا لتزويدهما بصواريخ « سبارتن » بعيدة المدى، وصواريخ «سبرنت» قصيرة المدى، للدفاع عن هذه الصوامع . ويحق ، بموجب المادة الثالثة من هذه الاتفاقية ، لكل من الطرفين ان يكون له منطقتان للصواريخ المضادة للقذائف : واحدة حول عاصمته والاخرى حول حقل من حقول الصواريخ الهجومية العابرة للقارات ، يمكن ان تضم كـل منهما ما لا يزيد عن (١٠٠) قاذفة وصاروخ مضاد للقذائف بشرط ان تكون القاذفة او منصة الاطلاق ثابتة ، قائمة علـى الارض ، صالحـة لاطلاق صاروخ واحد فقط . وتحريم انشاء منصات اطلاق متحركة ، او بحـرية ، اوتوماتيكية او شبـه اوتوماتيكية قادرة على اطلاق اكثر مـن صاروخ بتتابع سريع . كما وضعت المادة الثالثة المذكورة قيودا على الرادارات المساندة للصواريخ الدفاعية المضادة للقذائف : نقيدت من انتشار الرادارات داخل منطقة العاصمة الدفاعية ولكنها لـم تضع قيودا على حجم الرادارات او عددها اذ نصت على جواز استخدام ست شبكات رادار دائرية لا يتجاوز قطر كل منها ٣ كيلومترات ، اما داخل المنطقة الدفاعية للصواريخ عابرة القارات فان حجم الرادارات وعددها مقيد، ولكن انتشارها غير مقيد اذ نصت على جواز استخدام شبكتين ضخمتين مصنوفتين على مراحل، وثماني عشرة وحدة رادارية صغيرة لضبط اطلاق الصواريخ . ويقصد بالتقييدات

على الرادارات ضمن اطار الاتفاقية العامة ، بقاء التغطية الفعالة لشبكات الصواريخ المضادة للقذائف محدودة نسبيا في قطاعات صغيرة من الارض،ومنع استخدام الدفاعات على صعيد الدولة بأسرها . وبالاضافة الى ذلك فقد تعهد الطرفان بالتخلي عن اية مجهودات سرية تهدف الى تطوير الرادارات العادية لتصبح لها امكانات الرادارات الخاصة بالصواريخ المضادة للقذائف ، او استخدام انظمة رادارية جديدة معدة لمتابعة الاجرام الفضائية الصناعية او لاغراض الانذار المبكر تحت غطاء الزعم بأنها اجهزة رادار خاصة بالصواريخ المضادة لقذائف .

وقد تعرضت المادة (١١) لضمانات تنفيذ الاتفاقية والاجراءات السلبية والايجابية التي يحق لكل من الطرفين اتخاذها لمراقبة اي خرق لبنودها ، فنصت لا على وجوب استخدام الوسائل الفنية الوطنية المتوفرة لدى كل من الطرفين (مثل اقمار التجسس) للتحقق من صحة تنفيذها فحسب ، بل نصت ايضا على وجوب امتناع كل منهما عن التدخل في وسائل وأساليب جمع المعلومات التي يستخدمها الطرف الاخر بهذا الشأن ، كما نصت على وجوب الامتناع عن استخدام وسائل التمويه — التي تحول دون قيام الاجهزة الفنية بالمراقبة — لاخفاء خرق بنودها . وتعرضت المادة (١٥) الى مدة الاتفاقية، فهي اتفاقية غير محدودة بأجل مع انها خاضعة لاعادة النظر كل خمس سنوات ، كما انها تجيز لاحد الفريقين الانسحاب اذا ما قرر ان احداثا غير عادية تتصل بموضوع هذه الاتفاقية قد عرضت مصالحه العليا للخطر . وعليه في هذه الحالة ان يخطر الطرف الاخر بقراره قبل ستة اشهر من انسحابه من الاتفاقية ، ويضمن اخطاره بيانا بالاحداث غير العادية التي يعتبرها ضارة بمصالحه.

● **اتفاقية تحديد الاسلحة الاستراتيجية الهجومية والبروتوكول** «The Interin Agreement» **المرافق لها :** ان هذه الاتفاقية ذات طبيعة مؤقتة ، ينتهي العمل بها وبالبروتوكول المرافق لها بعد خمس سنوات من تاريخ التوقيع عليهما الا اذا حل محلهما اتفاق لاحق اكثر شمولا لقضايا الاسلحة الاستراتيجية الهجومية . وتتضمن هذه الاتفاقية بنودا اكثر مرونة الا انها ، رغم التفسيرات الاضافية ، أقل وضوحا من اتفاقية الصواريخ المضادة للقذائف . ولا تحدد الاتفاقية عدد الاسلحة الاستراتيجية ، ولكنها تقضي بأن يكون مجموع عدد الصواريخ عابرة القارات والصواريخ التي تطلق من الغواصات الذي يستطيع كل طرف امتلاكه قائما على اساس الاعداد العاملة او التي هي قيد البناء في (١) تموز ١٩٧٢ بالنسبة الى الصواريخ عابرة القارات ، وفي (٢٦) ايار ١٩٧٢ بالنسبة الى الصواريخ التي تطلق من الغواصات ، وتحرم بناء اية صواريخ جديدة عابرة للقارات او صواريخ تطلق من الغواصات بعد هذين التاريخين ، كما تحرم تحويل قواعد الاطلاق الخفيفة والصواريخ التي بنيت قبل سنة ١٩٦٤ الى قواعد اطلاق ارضية او بحرية صالحة لاطلاق صواريخ ثقيلة عابرة للقارات (مثل الصاروخ السوفياتي س س — ٩). والهدف الظاهر من ذلك هو السماح للولايات المتحدة بمجموع موجوداتها البالغة (١٠٥٤) صاروخا عابرا للقارات و(٦٥٦) صاروخا هي مجموع الصواريخ التي يمكن ان تطلقها (٤١) غواصة تملكها الولايات المتحدة ، والسماح للاتحاد السوفياتي بمجموع موجوداته البالغة (١٦١٨) صاروخا عابرا للقارات و(٧٤٠) صاروخا هي مجموع الصواريخ التي يمكن ان تطلقها (٥٦) غواصة يملكها الاتحاد السوفياتي . ويتضمن البروتوكول المرافق لها معادلات معقدة تسمح بحرية تحديث واستبدال الغواصات ومنصات الاطلاق والصواريخ ضمن حدود معينة . ويفصل البروتوكول ذلك ، بأن الولايات المتحدة تستطيع ان تمتلك ما لا يزيد عن (٧١٠) صواريخ تطلق من عدد من الغواصات لا يزيد عن (٤٤) في مقابل الاستغناء عن صواريخ «تيتان — ٢» القديمة عابرة القارات، وبالطريقة نفسها يستطيع الاتحاد السوفياتي الاستغناء عن الصواريخ عابرة القارات من طرازي «س س — ٧» و«س س — ٨»التي صنعت قبل سنة ١٩٦٤ وعددها (٢١٠) صواريخ واستبدالها بعدد مماثل من الصواريخ التي تطلق من الغواصات للحصول على قوة مؤلفة من (٩٥٠) انبوبة لاطلاق الصواريخ من غواصات يبلغ عددها (٦٢) غواصة . « فالاستبدال » يعطي للطرفين — من حيث المبدأ — حق الحصول على صواريخ جديدة تطلق من الغواصات بدلا من الصواريخ الهجومية القديمة التي ما زالت في الخدمة ، ويستتبع ذلك اما شطب عدد مساو من صواريخها الحالية

المطلقة من الغواصات او الاحتفاظ بعدد مساو من الصواريخ عابرة القارات في الخدمة .

اما حرية « التحديث » فتعطي للطرفين حق استبدال المعدات القديمة بمعدات جديدة ضمن الحدود الكلية المذكورة اعلاه ، وعليه فبامكان الاتحاد السوفياتي احالة الغواصات القديمة (من طرازي G و H) التي تعمل بالديزل واستبدالها بغواصات نووية حديثة ، وبامكان الولايات المتحدة مواصلة تطوير اجهزة الصواريخ الجديدة المطلقة من غواصات « ترايدنت » النووية الحديثة. كذلك قد يستبدل الطرفان ، عموما ، منصات الاطلاق القديمة والرؤوس الحربية القديمة بمنصات ورؤوس جديدة مع الخضوع فقط للمنع على الصواريخ الثقيلة عابرة القارات مثل الصواريخ السوفياتية من طراز « س س — ٩ » ، وهكذا فللولايات المتحدة الحق في الاستمرار باستبدال صواريخ « مانيوتمان — ١ و ٢ » و« بولاريس » بصواريخ « مانيوتمان — ٣ » و« بوسيدون » ذات الرؤوس المتعددة (الوسائط العائدة ذات الاهداف المتعددة المستقلة « Mirv» كما ان الاتحاد السوفياتي يملك حقا موازيا في مواصلة تطوير اسلحة مثل صاروخه الجديد المطلق من الغواصات طراز « س س — ن — ٨ » .

ويلاحظ ان هذه الاتفاقية لم تتعرض لقاذفات القنابل الاستراتيجية ، وقد كانت الولايات المتحدة تتمتع بتفوق ملحوظ في هذا المجال في الوقت الذي تم فيه توقيع الاتفاقية. فقد كان لديها (٥٣٠) قاذفة استراتيجية معظمها من طراز « ب — ٥٢ » لديها طاقة حمولة تبلغ (٣٠ر٥) مليون رطل ، في مقابل (١٤٠) لدى الاتحاد السوفياتي قادرة على نقل حمولة تبلغ (٨ر٤) ملايين رطل ، ومن ناحية اخرى فان عدد القنابل الذرية التي تستطيع الطائرات الامريكية حملها سيزداد حين تنجز الولايات المتحدة تجهيز قوة قاذفاتها بالصاروخ الهجومي قصير المدى « Sram » .

ومن ناحية اخرى فان الاتفاقية المؤقتة لم تأخذ في الاعتبار اعداد الرؤوس النووية في مقابل اعداد الصواريخ الناقلة لها . وقد كانت الولايات المتحدة، لفترة خلت ، متقدمة تقدما كبيرا في برنامجها لانشاء الوسائط العائدة ذات الاهداف المتعددة المستقلة « «Mirv Program» » الذي بدأته منذ خمس سنوات ، فقد نشرت حوالي (٢٠٠) من صواريخ « مانيوتمان — ٣ » عابرة القارات التي يصل ما يحمله كل منها ثلاثة رؤوس حوالي (١٦٠) صاروخا من صواريخ (بوسيدون) المطلقة من الغواصات التي يستطيع كل منها ان يحمل عشرة رؤوس ، وعندما يؤخذ صاروخ «بولاريس — أ—٣» والوسائط العائدة المتعددة « MRV » بالاعتبار فان القوة الامريكية الاصغر في العدد تستطيع ، نظريا ، ان تنقل على وجه التقريب (٤٣٠٠) رأس الى (٣٥٠٠) نقطة مستهدفة ومنفصلة ، مقابل حد اقصى نظري من (٢٠٩٠) نقطة تهديف منفصلة للاتحاد السوفياتي الذي لم تكن هناك دلائل ايجابية على انه استخدم صواريخ متعددة الرؤوس عند توقيع الاتفاقية .

واذا ما تركنا المجاميع الكلية الاجمالية السابقة، يكون الاتحاد السوفياتي متفوقا بوضوح على الولايات المتحدة في الرؤوس المفردة لصواريخه . ان كلا من الصواريخ السوفياتية الـ (٣٠٩) عابرة القارات « س س — ٩ » المسموح بها بموجب الاتفاقية المؤقتة يستطيع ان يحمل رأسا مفردة تبلغ قوتها الانفجارية ٢٥ ميغاطن ، على حين يستطيع اكبر صاروخ امريكي ، وهو « تيتان — ٢ » وعددها (٥٤) صاروخا ، ان ينقل رأسا قوته (١٠) ميغاطن فقط . وفي الحقيقة ، فان القسم الاغلب من الصواريخ الاستراتيجية السوفياتية مصمم ليحمل رؤوسا اكبر من مثيلاتها الامريكية ، كما ان تزويد الصواريخ الامريكية برؤوس متعددة يستتبع تخفيضا في المجموع الكلي للحصيلة الانفجارية في الوقت ذاته الذي تقود فيه الزيادة في المجموع الكلي للاهداف التي توجه ضدها . ان الحد الاعلى لحصيلة الرؤوس التي تستطيع الصواريخ الامريكية الحالية نقلها تقدر بحوالي (٤٤٠٠) ميغاطن بينما تبلغ حصيلة القوة السوفياتية الموازية في الظاهر (١١٤٠٠) ميغاطن. وهذا يعني ان الاتحاد السوفياتي يتمتع بتفوق في اجمالي الحمولة تبلغ نسبته (٣ الى ١) . وينبغي الاشارة الى ان هذه الارقام هي ارقام نظرية تفترض ان جميع الوسائط الناقلة تحمل رؤوسا تبلغ قوتها الحد الاعلى من الميغاطن ، وان جميع هذه الاسلحة مستنفرة وجاهزة للانطلاق على الدوام ، وهذا أمر مستبعد .

● **اتفاقية سولت في سنة ١٩٧٤ :** عندما افرزت

محادثات تحديد الاسلحة الاستراتيجية « اتفاقية سولت » في سنة ١٩٧٢، كان التوازن بين الدولتين الاعظم الموقعتين عليها يتلخص في ان الاتحاد السوفياتي يتمتع بتفوق في عدد صواريخه بعيدة المدى وفي اجمالي الحمولة والحصيلة الانفجارية التي يستطيع نقلها ، على حين كانت الولايات المتحدة تتمتع بتفوق في عدد الرؤوس الحربية التي تملكها نتيجة تطبيق برنامج الوسائط العائدة المتعددة المستقلة« MIRV Program »التي تتميز بدقة في الاصابة تفوق دقة الصواريخ السوفياتية. وبالتالي كانت الاتفاقية المذكورة بمثابة اعلان موافقة كلا الطرفين على ان تفوق الاتحاد السوفياتي في الحصيلة الانفجارية يعدل ، على وجه التقريب ، التفوق الاميركي في عدد الرؤوس الحربية . الا انه حدث شيئان اخلا بهذا التوازن منذ توقيع اتفاقية سولت في ١٩٧٢ : أولهما ان الاتحاد السوفياتي قام في سنة ١٩٧٣ باختبار اربعة انواع من الصواريخ ثلاثة منها «س س — ١٨» ذات رؤوس متعددة عائدة مستقلة « MIRVS »وحمولة تفوق حمولة الصواريخ السابقة ، وقد اقلق ظهور الرؤوس المتعددة السوفياتية الولايات المتحدة ذلك انه من السهل بعد ذلك تزويد معظم الصواريخ السوفياتية الاخرى برؤوس وبالتالي يزداد عدد الرؤوس الحربية التي يصبح بامكان الاتحاد السوفياتي امتلاكها . وثانيهما ، وهو يعتبر الى حد ما رد فعل اميركي ازاء التطور السوفياتي السابق ، هو التصريح الاميركي الذي ادلى به وزير الدفاع الاميركي شليسنجر ، في مطلع سنة ١٩٧٤ بان مزيدا من الانشاءات العسكرية السوفياتية اضيفت الى قائمة الاهداف التي ستضربها الرؤوس الاميركية في حالة نشوب حرب نووية بين الطرفين ، وقد رافق هذا التصريح اعلان بان الولايات المتحدة تقوم بتطوير وسائط عائدة قابلة للمناورة (MARV) تفوق الوسائط السابقة (MIRVS)من حيث دقة الاصابة مما قاد الاتحاد السوفياتي الى التفكير بان الولايات المتحدة في طريقها لتطوير وسائط تمكنها من ضرب الصواريخ السوفياتية على الارض . وهذا الخلل في التوازن السابق قاد الطرفين الى محاولة ايجاد معادلة جديدة مناسبة توجد العلاقة بين اعداد الرؤوس الحربية ومقدار الصواريخ العائدة لها ، وطريقة لمعرفة مدى دقة اصابة هذه الصواريخ لاهدافها ، ومن ثم التوصل الى صياغة كل ذلك في ميثاق جديد يحل محل الاتفاقية المؤقتة لعام ١٩٧٢ بشأن تحديد الاسلحة الاستراتيجية الهجومية . وقد كان هذا الامر مدرجا على جدول محادثات نيكسون — بريجنيف ابان زيارة نيكسون للاتحاد السوفياتي (٦/٢٧ — ١٩٧٤/٧/٣) . ولكن الجانبين فشلا في التوصل الى ميثاق جديد ، الا انهما توصلا الى بروتوكول سري تابع لاتفاقية تحديد الاسلحة الصاروخية الدفاعية المضادة للقذائف ، اعده فريق من الخبراء العسكريين والعلماء من الجانبين قبل اكثر من شهرين من تاريخ توقيع البروتوكول ، ووقعه وزراء خارجية الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، اندريه غروميكو وهنري كيسنجر ،بتاريخ ١٩٧٤/٧/٣ في حفل علني (وهذه اول مرة يتم فيها توقيع بروتوكول سري في حفل علني ، بطلب من الاتحاد السوفياتي) . ويتعرض البروتوكول للتفاصيل التقنية لاتفاقية تحديد الاسلحة الصاروخية الدفاعية المضادة للقذائف ، وينص على خفض عدد المناطق المحمية بهذه الصواريخ من منطقتين مصرح بهما بموجب الاتفاقية الى منطقة واحدة فقط ، اي بعبارة اخرى الاكتفاء بما انجزته كل من الدولتين بالفعل من انظمة دفاعية : فقد بنى الاتحاد السوفياتي نظاما دفاعيا حول موسكو ، وبنت الولايات المتحدة نظاما دفاعيا حول حقول الصواريخ العابرة الموجودة في ولاية داكوتا الشمالية . وينص البروتوكول ايضا على ان يقوم الاتحاد السوفياتي بتفكيك (١٥) صاروخا مضادا ، وتقوم الولايات المتحدة من جانبها بتفكيك عدد من الصواريخ المشابهة لم يعلن عنه بالضبط .

ويمكن القول ان توقيع هذه الاتفاقية مظهر من مظاهر « الوفاق الدولي » ، وخطوة على طريق تحديد الاسلحة في الدولتين الاعظم ، وهي، كغيرها من مظاهر « الوفاق الدولي » ، تؤثر على موازين القوى العالمية التي تنعكس آثارها بشكل غير مباشر على الصراع العربي — الاسرائيلي ، الذي تحول بعد حرب ١٩٥٦ الى نوع من المجابهة الساخنة المحدودة ضمن اطار الحرب الباردة بين العمالقة .

كمال السعدي

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٦/١٦ — ١٩٧٤/٧/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٦/١٦	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قبل تفجيرها بوقت قصير	—	—	—	رقم٧٤/١٥٧	٦/١٧
٢	٦/١٦	—	حي هتكف/تل ابيب	قتل	—	١	—	قتل عريف شرطة صهيوني	—	—	—	رقم٧٤/١٥٨	٦/١٧
٣	٦/١٦	٢٤،٠٠	حي هتكف/تل ابيب(١)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		احراق وتدمير المستودعات الرئيسية للكرتون، تدمير الطوابق العليا في المبنى حيث الادارة الاقليمية المركزية للهاتف واحراق محتوياتها ، قطع التيار الكهربائي عن المنطقة لاحتراق الخطوط .	—	—	—	رقم٧٤/١٥٩	٦/١٧
٤	٥/ ١	١٩،٠٠	معسكر جباليا/ غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
٥	٥/ ٧	—	الشيخ زويد/غزة	تفجير	لغم	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
٦	٥/١٠	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير باص لشركة ايجد .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
٧	٥/١٢	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
٨	٥/١٢	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة مبنى سينما الجلاء باضرار .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
٩	٥/١٢	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية في الشارع الثلاثيني وقتل وجرح من فيها .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
١٠	٥/١٢	—	منطقة الزيتون/ غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	٢	—	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
١١	٥/١٦	—	منطقة الزيتون/ غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء من خط سكة الحديد وتعطيل حركته .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
١٢	٥/٢١	—	معسكر الشاطىء/ غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير كشك للحراسة	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
١٣	٦/١١	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير قسم كبير من مبنى الادارة المدنية .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
١٤	٦/١٣	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اكتشاف العبوة قبل انفجارها وقطع التيار الكهربائي عن المدينة .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٠	٦/١٨
١٥	٦/١٤	—	معسكر الشاطىء/ غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها .	—	—	—	رقم٧٤/١٦١	٦/١٨
١٦	٦/١٧	—	جنين/حيفا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد		تدمير باص لشركة ايجد وامتداد النيران الى باص آخر .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٢	٦/١٨
١٧	٦/١٨	—	نوعام وكريات جان/ المنطقة الوسطى(٢)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تعطيل سير القطارات على خط سكة الحديد .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٣	٦/١٨
١٨	٦/ ٥	١٠،٠٠	مستعمرة الرابية	تفجير	لغم	١	—	تدمير جرار زراعي	—	—	—	رقم٧٤/١٦٤	٦/١٩
١٩	٦/١٢	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	—	—	احراق واتلاف محتويات المكتبة العبرية في شارع السواد .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٥	٦/١٩

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
٢٠	٦/٢٠	—	كرم الزيتون قرب قرية ابو غوش(٣)	تفجير	عبوات ناسفة حـارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مستودعات الذخيرة التابعة لمعسكر المظليين كما اتت النيران على أجزاء كبيرة من كرم الزيتون .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٧	٦/٢٠
٢١	٦/١٩	—	غارة للعدو على لبنان					اثناء قصف مخيماتنا في جنوب لبنان تمكنت وسـائل الدفاع من اسـقاط طائرتين للعدو .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٨	٦/١٩
٢٢	٦/١٤	—	بين القدس وعنانا	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مستودعات الاخشاب في مصنـع للنجارة والمفروشات .	—	—	—	رقم٧٤/١٦٩	٦/٢٢
٢٣	٦/٢١	—	بين كفار سابا وطولكرم	هجوم	اسلحة مختلفة	غيرمحدد		أسفر الهجوم عن قتل وجرح عدد من افراد العدو .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٠	٦/٢٢
٢٤	٦/٢١	—	دورا/الخليل	اشتباك	اسلحة مختلفة	غيرمحدد		تدمير آليتين عسكريتين	٢	—	—	رقم٧٤/١٧١	٦/٢٢
٢٥	٦/١١	—	بيت‌عو/الخليل	تفجير	لغـم	غيرمحدد		تدمير آلية عسكرية وقتل وجرح من فيها .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٢	٦/٢٣
٢٦	٦/ ١	—	قرية زانوتا/الخليل	قتل	—	١	—	قتل ضابط مخابرات صهيوني	—	—	—	رقم٧٤/١٧٣	٦/٢٣
٢٧	٦/٢٤	—	بات يام/جنوب تل ابيب	قتل	—	١	—	قتل جندي والاستيلاء على سلاحه .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٤	٦/٢٥
٢٨	٦/٢٤	٢٣٤٠٠	نهاريا	هجوم	اسلحة مختلفة	غيرمحدد		تدمير عدة مرافق للعدو	٣	—	—	رقم٧٤/١٧٥	٦/٢٥
٢٩	٦/٢٦	٢٠٤٣٠	القدس	قصف	صواريخ	غيرمحدد		اصابة عدة اهداف في حي اشـكول .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٦	٦/٢٦
٣٠	٦/٢٧	٢١٤٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اشعال النيران في انحاء مختلفة مـن مصنـع للاخشـاب والاثـاث وامتدادها الى المستودعات .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٧	٦/٢٨
٣١	٦/٢٧	—	كريات اربع/الخليل	قتل	—	١	—	قتل جندي والاستيلاء على سلاحه .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٨	٦/٢٨
٣٢	٦/٢٦	—	دورا/الخليل	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في مكتب العمل واتلاف جميع محتوياته .	—	—	—	رقم٧٤/١٧٩	٦/٣٠
٣٣	٦/٣٠	—	قرب مطار قلندية	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قبل انفجارها بوقت قصير .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٠	٦/٣٠
٣٤	٦/٣٠	—	نتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير قسم كبير من كابلات الهاتف الرئيسية وانقطاع الاتصال الهاتفي في حيفا وبين شمال وجنـوب فلسطين .	—	—	—	رقم٧٤/١٨١	٧/١
٣٥	٧/ ١	٧٤٠٠	ديمونا	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قبل انفجارها بوقت قصير .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٢	٧/٢
٣٦	٧/ ٤	—	تل ابيب(٤)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مبنى هازار مسجاك واتلاف محتوياته .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٣	٧/٥
٣٧	٧/ ٧	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير سيارة احد ضباط المخابرات واعطاب عدة سيارات اخرى .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٤	٧/٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٣٨	٨ /٧	١٨٠٠	غزة	هجوم	اسلحة مختلفة	غيرمحدد		هجوم على جنود العدو المتواجدين في مجمع الادارات في شارع عمر المختار .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٥	٧/٩
٣٩	٩ /٧	٢٤٠٠	صلد	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	—	—	تدمير مبنى محطة بنزين « سونول » والمضخات واشعال النيران .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٧	٧/١٠
٤٠	٧ /٧	—	الخضيرة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	نسف الكابلات الرئيسية للهاتف وانقطاع خطوط الهاتف .	—	—	—	رقم٧٤/١٨٨	٧/١٢

١ ــ اعترف العدو بالعملية ، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٥٧ ، ص ٢٣٣ بتاريخ ٦/١٧ .

٢ ــ اعترف العدو بان احدى عربات القطار خرجت عن الخط، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٥٨ ، ص ٢٧٢ بتاريخ ٦/١٨ .

٣ ــ اعترف العدو باشتعال النيران . راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٦١ ، ص ٣٦١ بتاريخ ٦/٢١ .

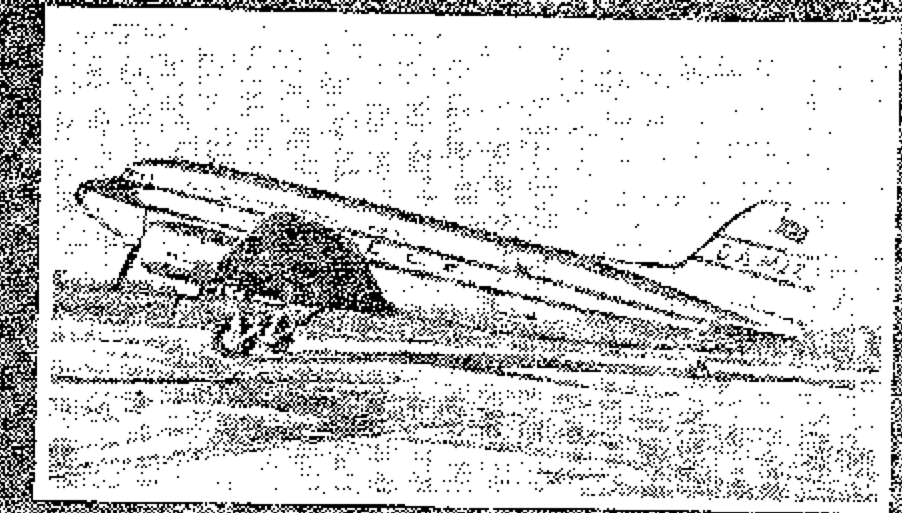
٤ ــ اعترف العدو باشتعال النيران . راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥٦٧ ، ص ٥٤٢ بتاريخ ٦/٢٨ .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٦/١٦ ــ ١٩٧٤/٧/١٥

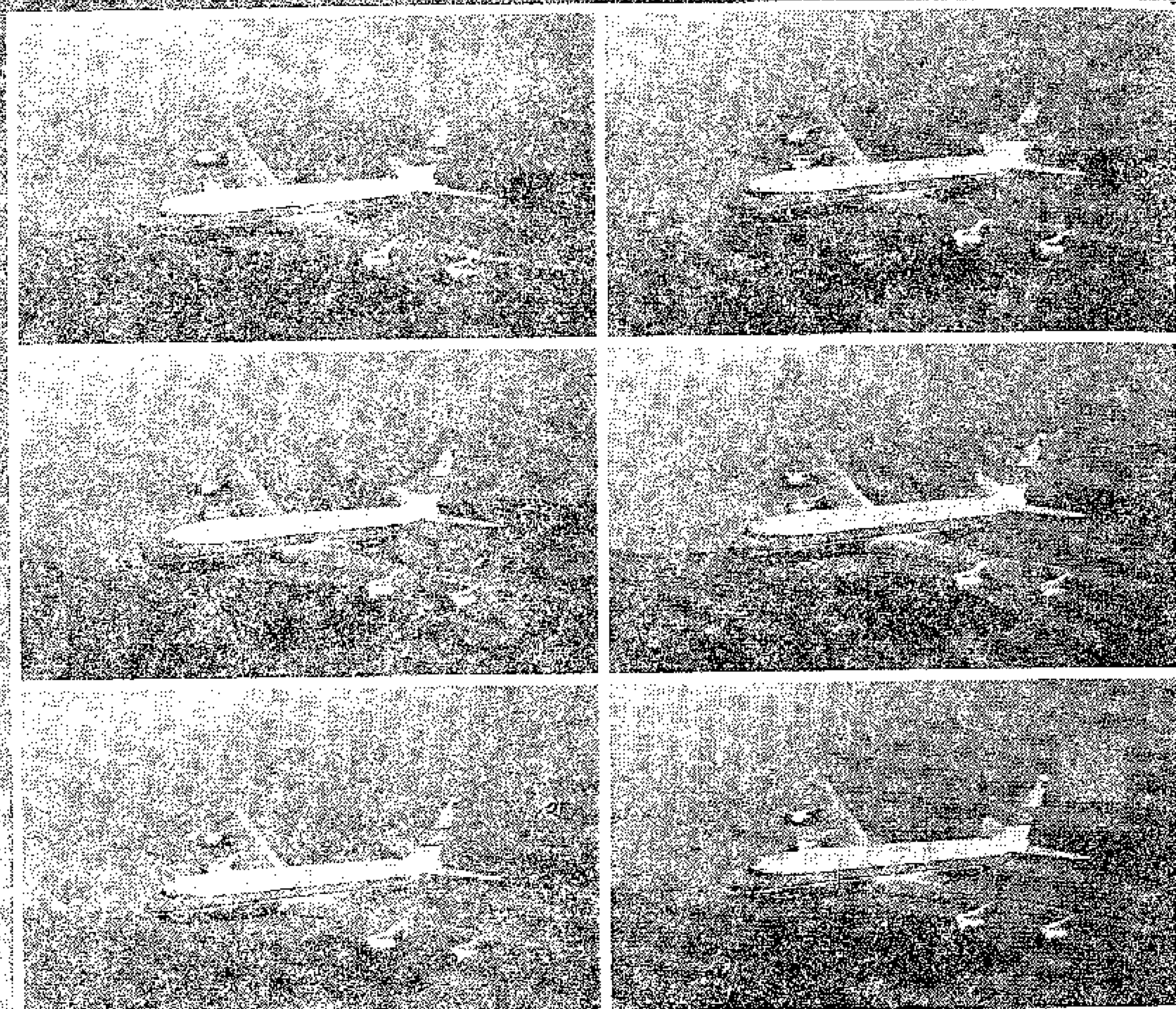
الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٦/١٧	—	جانيم/حيفا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اشعال النيران في باص لشركة ايجد	—	—	—	ن،عدد٥٥٨،ص٢٧٥	٦/١٨
٢	٦/٢١	—	كفاريونا/طولكرم	قتل	اطلاق رصاص	—	—	—	—	—	—	ن،عدد٥٦٢،ص٣٨٨	٦/٢٢
٣	٦/٢٤	—	بات يام	قتل	اطلاق رصاص	١	—	—	—	—	—	ن،عدد٥٦٤،ص٤٣٧	٦/٢٥
٤	٦/٢٥	٤:٣٠	كريات شمونة	قصف	قذائف هاون	—	—	—	—	—	—	ن،عدد٥٦٤،ص٤٤٤	٦/٢٥
٥	٦/٢٥	٢٣:١٥	نهاريا	اشتباك	اسلحة مختلفة	٤	٨	—	٣	—	—	ن،عدد٥٦٤،ص٤٤٥	٦/٢٥
٦	٦/٢٦	—	القدس	قصف	قذائف بازوكا	—	—	لم تنفجر القذائف في حي اشكول .	—	—	—	ن،عدد٥٦٥،ص٤٨١	٦/٢٦
٧	٦/٢٧	—	جبل دوف	قصف	قذائف هاون	—	—	لم تقع اية اضرار	—	—	—	ن،عدد٥٦٦،ص٥١٢	٦/٢٧
٨	٦/٢٧	—	كريات اربع/الخليل	قتل	—	—	١	—	—	—	—	ن،عدد٥٦٧،ص٥٣٧	٦/٢٨
٩	١ /٧	—	دايمونا/بئر السبع	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم ابطال مفعولها قبل انفجارها .	—	—	—	ن،عدد٥٧٠،ص٤٥	٧/٢
١٠	٤ /٧	—	بين نابلس وجنين	غيرمحدد	—	—	—	تعطيل كابل الهاتف المركزي	—	—	—	ن،عدد٥٧٢،ص١٢٢	٧/٥
١١	٥ /٧	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم ابطال مفعول العبوة قبل انفجارها .	—	—	—	ن،عدد٥٧٣،ص١٢٧	٧/٥
١٢	٧ /٧	—	تل ابيب	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	اصابة سيارتين بأضرار	—	—	—	ن،عدد٥٧٦،ص١٦٥	٧/٩
١٣	٩ /٧	—	صلد	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اشعال النيران في محطة « سونول » للمحروقات .	—	—	—	ن،عدد٥٧٧،ص٢٠٤	٧/١٠
١٤	٧/١٢	—	جنين	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	اصابة سيارة بأضرار	—	—	—	ن،عدد٥٨٠،ص٢٧٠	٧/١٣

ن. ــ نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد



[illegible]



وفي عام ١٩٧٤، بعد مرور ٢٠ عاماً [illegible]
[illegible] وما زلنا [illegible]
[illegible]
الخطوط الجوية الكويتية [illegible]
[illegible] في الخطوط الجوية الكويتية





الخطوط الجوية الكويتية

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

جادة الروضة ، دمشق ، الجمهورية العربية السورية

رئيس التحرير : محيي الدين صبحي

سكرتير التحرير : صفوان قدسي

الاشتراك السنوي :

– في الجمهورية العربية السورية : ١٢ ليرة سورية .

– خارج الجمهورية العربية السورية : ما يعادل ١٢ ليرة سورية مضافا اليها أجر البريد (العادي أو الجوي) حسب رغبة المشترك .

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكا او يدفع نقدا الى : محاسب مجلة المعرفة جادة الروضة ، دمشق .

يتلقى المشترك كل سنة كتابا هدية من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي .

ثمن العدد :

١٠٠ قرش سوري	١٥ قرشا مصريا
١٠٠ قرش لبناني	١٥ قرشا سودانيا
١٢٥ فلسا اردنيا	١٥ قرشا ليبيا
١٢٥ فلسا عراقيا	٢٫٥ دينار جزائري
٢٠٠ فلس كويتي	ريالان سعوديان
٢٫٥ روبية	درهمان مغربيان
٢٫٥ شلن	درهمان تونسيان

Palestine Affairs

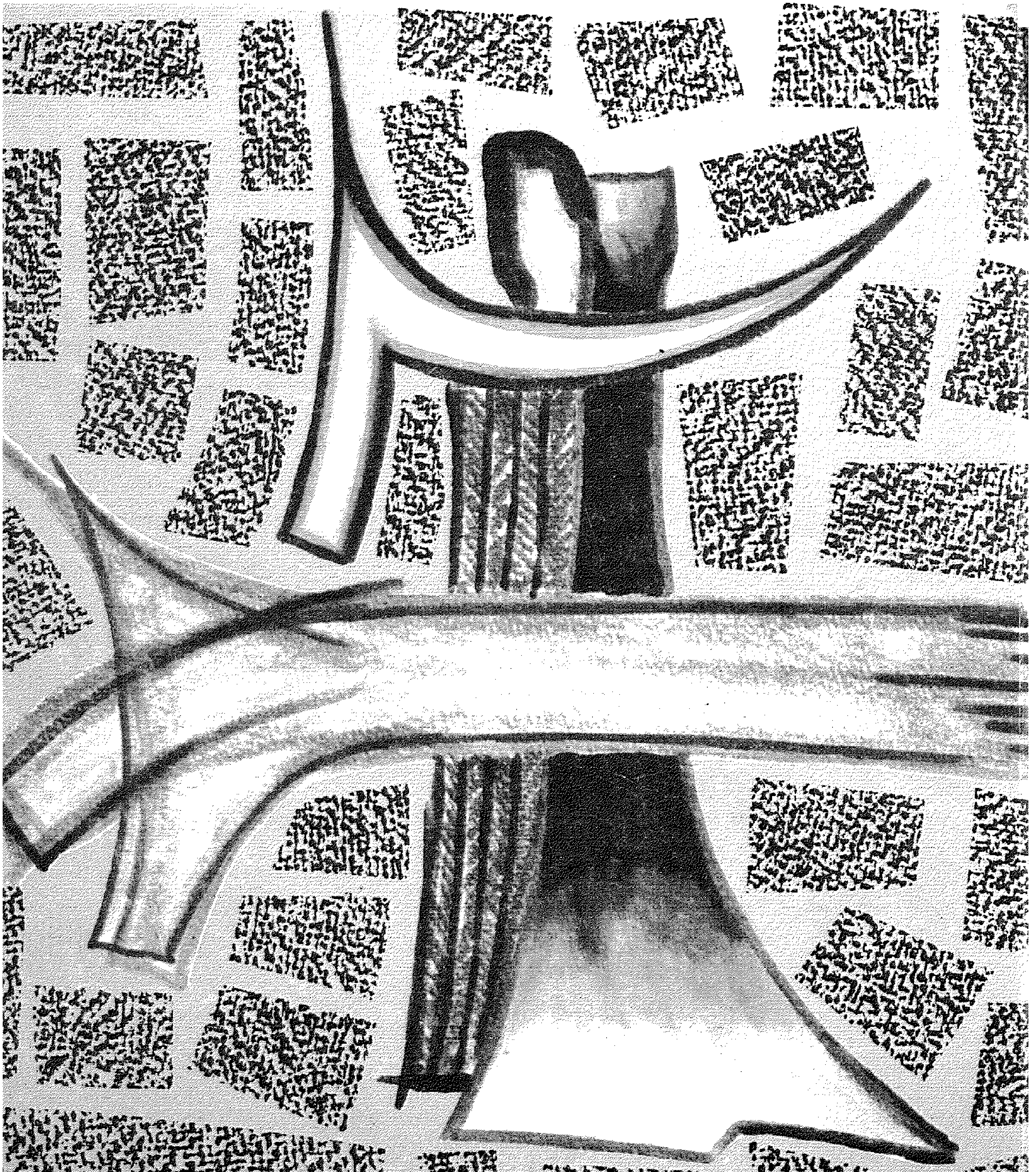
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL65, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤٠ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٣٧

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٧ — ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين.

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،
برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٦٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : لوحة « روح الشهيد »

المحتويات

ياسر عرفات

في حديث خاص بمجلة « شؤون فلسطينية »
عن مباحثاته الاخيرة في موسكو ووارسو وبرلين :

نقطة انعطاف في العمل الفلسطيني

لم تكن الرحلة السياسية التي قام بها قائد الثورة الفلسطينية الاخ ياسر عرفات ، على رأس وفد منظمة التحرير الفلسطينية ، الى موسكو ووارسو وبرلين .. رحلة عادية .

ولم تستمد الرحلة قيمتها من زمن الصراع الراهن فقط. انها خطوة من المستقبل . وقفزة في سياق تطوير مفهوم العلاقة بين الثورة الفلسطينية وبين الثورة الاشتراكية الكبرى .

لقد أجمع المراقبون السياسيون في العالم على نعت الرحلة بالنجاح ، وأحاطوا نتائجها بكثير من التوقعات المؤثرة على مسار تطور القضية الفلسطينية في المرحلة الراهنة. ولكن الاخ ياسر عرفات يقول ، دائما ، ان نتائج المباحثات فاقت المتوقع . وهو متفائل الى حد كبير . انه لا يتحدث عن كل شيء . ولكن محدثه يشعر بأنه يقف على صلابة الضمان ، الكفيل بتجاوز الازمة التي يمر بها العمل الفلسطيني الان .

● ماذا أضافت رحلتكم الاخيرة الى موسكو والمباحثات مع المسؤولين السوفيات .. الى العمل الفلسطيني وعلاقات المقاومة مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى ؟

●● نعتبر الزيارة التي قام بها وفد منظمة التحرير الفلسطينية الى الاتحاد السوفياتي والى بعض البلدان في المنظومة الاشتراكية .. من أهم الزيارات التي قمنا بها الى هذه البلدان ، خاصة انها **جاءت في وقت مصيري الشعب الفلسطيني .**

انهـــا شكلت نقطة انعطاف رئيسية وهامة في العمل الفلسطيني بشكل عام ، وفي العلاقات بيننا وبين الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية بشكل خاص .

كانت الزيارة ناجحة الى أبعد حدود النجاح . **كانت فوق توقعاتنا.** وقد تجلى ذلك في المحادثات التي أجريناها مع **المسؤولين السوفيات على اختلاف مواقعهم و ... مستوياتهم** . وفي الروح الرفاقية التي رافقت جميع مراحل المباحثات والابحاث والاحاديث والملاحظات .

لن اتوقف - كثيرا - عند التكريم والعناية والرعاية وحسن الضيافة التي قوبل بها الوفد . ولكن، لا بد ان نسجل هنا انها اتصفت **بمعاملة رسمية ورفاقية** ، تجاوزت حدود البروتوكول الى ما نسميه ، في منطقتنا العربية - بحسن الوفادة .

واتسم جميع ما دار بيننا وبين الرفاق الاعزاء بروح المسؤولية ، **وبأهمية الدور الذي تقوم به الثورة الفلسطينية في المنطقة العربية ، في الحاضر وفي المستقبل** . وتركزت بشكل أساسي في مستقبل الشعب الفلسطيني وحقوقه القومية والوطنية .

وبلا تردد ، يمكن القول: **ان هذه الزيارة تعتبر مرحلة انتقال جديدة في العلاقات الاساسية بيننا وبين الاتحاد السوفياتي وبلدان المنظومة الاشتراكية** . وقد كرس هذه المرحلة من العلاقات التجاوب الـــذي لمسناه لدى الاخوة المسؤولين الذين قابلناهم وعلى كافة المستويات ، **والاستجابة لمعظم ما طرحته الثورة الفلسطينية من مستلزمـــات تحتاجها في المرحلة الراهنة .**

ولا بد ان نسجل هنا التجاوب الشعبي الذي عكسته اجهزة الاعلام السوفياتية والبولونية والالمانية - وكذلك المؤسسات والمنظمـــات الشعبية والنقابات التي أبرزت ، بشكل خاص ، تجاوبها العميق مع الشعب الفلسطيني ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية .

● ما هي حقيقة الموقف الرسمي السوفياتي من منظمـــة التحرير الفلسطينية ؟

وما هو الفهم السوفياتي لحقوق الشعب الفلسطيني ، كما تجلى في مباحثات موسكو ؟

●● نستطيع القول ان افتتاح المكتب التمثيلي لمنظمـــة التحـــرير

الفلسطينية في موسكو هو حدث هام في مسار الاعتراف الـدولي بالشعب الفلسطيني ، وكذلك الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثلة الشرعية للشعب الفلسطيني ، وفقا لقرارات مؤتمر القمة العربي في الجزائر ، ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور .

انه تثبيت وتجسيد لهذا الاعتراف بالشعب الذي يجتاز العـام العاشر ، هذه السنة ، من عمر ثورته ، موطدا وجوده في الساحة العربية والدولية ، باعتباره فصيلا اساسيا من فصائل حركة التحرر العربية والعالمية .

وفي هذا المجال ، لا بد وان نتذكر مؤتمر يالطه : فعندما طرحت قضية الشرق الاوسط وقضية الشعب الفلسطيني من ضمنها بشكل عام ، لم يكن كثيرون في الساحة الدولية يشعرون بأن لهذا الشعب قضية .

والان ماذا نجد ؟ لقد استطاع هذا الشعب ان يفرض وجوده من خلال نضاله . ونجد هذه القائمة الطويلة جدا من الاصدقاء ، يدعمون نضاله ، ويساندون مسيرته ، ويعترفون بوجوده وبنضاله وبحقوقه القومية والوطنية . وتلك هي احدى المعجزات التي صنعتها ثورة الفاتح من يناير ١٩٦٥ .

لقد اشارت البيانات الصادرة عن المباحثات الاخيرة الى قرارات مؤتمر القمة العربي ، ومؤتمر القمة الاسلامي ، التي تقول بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة شرعية وحيدة للشعب الفلسطيني **وباحقاق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفقا لما تقرره منظمة التحرير .**

واضافت هذه البيانات ، ولاول مرة ، **ميثاق وقرارات الامم المتحدة المتعلقة بالفلسطينيين، مما يعتبر قفزة نوعية، سياسية ودبلوماسية، على صعيد النظرة الدولية للقضية الفلسطينية .**

ان هذا التطور ينسجم مع **موقف الاتحاد السوفيـاتي المتطور ، دائما ، في اتجاه مصلحة شعبنا الفلسطيني ،** انطلاقا من العلاقات القوية والمتينة التي تربط الثورة الفلسطينية بأصدقائها في المنظومة الاشتراكية .

● هل نستطيعون القول ان هذا الفهم لحقوق الشعب الفلسطيني يتجسد في التزام سوفياتي في الميادين والهيئات الدولية ؟

●● لا بد من الاشارة الى اهمية ما حدث وما تجسد . **انه يعني ، بكلمات بسيطة ولكنها فعالة ومؤثرة للغاية ، ان الاتحاد السوفياتي وسائر بلدان المنظومة الاشتراكية قد أصبحت ، انطلاقا من نتائج ما حدث، وتجسيدا لتفسيرات الرفيق ليونيد بريجنيف في أكثر من مناسبة وأكثر من بيان مشترك حـول فهمه لحقوق الشعب الفلسـطيني الوطنية ، قد أصبحت تلتزم التزاما دوليا ومؤثرا ، لصالح الشـعب الفلسطيني ، في كافة الميادين المحلية والدوليـة ، وعـلى كافة المستويات .**

● كيف تقيّمون تأثير هذا المستوى من الاعتراف السوفياتي بمنظمة التحرير الفلسطينية على المحاولات الجارية لسحب شرعية التمثيل من منظمة التحرير . أقصد : على الصعيد العالمي ، وعلى الصعيد العربي ؟

●● نحن ، كمنظمة تحرير ، لم ننجز الاعتراف بنا من قرارات او بفضل قرارات . **ولكننا حققنا هذا الاعتراف من خلال نضال شـاق وطويل** ، كرسته دماء شهدائنا وجرحانا ، وجسدته آلامنا وعذاباتنا التي بلغت ، في هذه الحقبة الصغيرة من عمر الثورة ، ٣٧ الف شهيد وجريح ، و١٨ الف معتقل وأسير ، و١٩ الف مسكن مدمر ومنسوف داخل الارض المحتلة، بالاضافة الى انواع العذاب الاخرى في الشتات وتحت الاحتلال ، من قهر وظلم واضطهاد وتعذيب .

لقد انطلقت البندقية الفلسطينية في أسوأ الظروف ، وفي أحلك الساعات ، وفي أخطر المراحل . انطلقت البندقية لتدعم نضال هذا الشعب ، ولتثبت شخصيته ، ولتجسد وجوده ، ولتزيد وحـدته التحاما ، ولتنزع ، من خلال هذه التضحيات ، شرعيتها النضالية .

ان شرعيتنا هي دمنا ونضالنا ..

ان شرعيتنا هي موقعنا في جبهة الصـدام الاولى ، وصمودنا في الامتحانات القاسية ، على امتداد عشر سنوات من كفاحنا المسلح الجديد .

● هل تتوقعون ان يؤدي تعميق العلاقات مع موسـكو الى بعض الارتباك في معادلة العلاقة بين المقاومة وبين بعض الانظمة العربية ؟

●● وضعت الثورة الفلسطينية ، في سياستها التي اقرتها منذ الطلقة الاولى عام ١٩٦٥ ، خطوطا سياسية واضحة في العلاقات العربية والدولية ، مع الاصدقاء ومع الاشقاء . ونحن حريصون على هذه الخطوط وعلى تطبيقها بما يخدم مصلحة قضيتنا ، ومستقبل شعبنا ، **ويجند كافة الطاقات الصديقة والشقيقة في خدمة هذه القضية .**

انطلاقا من هذا الحرص ، **استطاعت الثورة الفلسطينية ان تمد جسورها ، بحرية كاملة من ناحية ، وبتفهم كامل من قبـــل جميع الاطراف لهذه السياسة الثورية الاصيلة الثابتة ، من ناحية اخرى .** وذلك ما اعطى الثورة الفلسطينية هذه القدرة الواسعة على **التحرك في كافة الميادين ، والقفز على كثير من الحساسيات التي قد تصيب البعض .**

ونحن متأكدون انه ما من مسؤول عربي يشعر بثقل الخصومة التي تواجه الثورة الفلسطينية وبشراسة الهجمة التي تنقض عـــلى الشعب الفلسطيني . الا ويقدر هذا الوضع بتفهم كامل .

ونحن لا ننسى ان **هؤلاء الاصدقاء كانوا ، ولا يزالون اصدقـــاء حقيقيين اوفياء لنضال الشعب الفلسطيني والامة العربية، في صراعها الحضاري ضد هذه النازية الجديدة التي تمثلها اسرائيل** ، كـــراس جسر للاستعمار والامبريالية العالمية .

● بماذا تقيّمون هذا الموقف ، موقف الاصدقاء ، من الصراع بيننا وبين العدو الاسرائيلي ؟

●● ينبغي ، اولا ، ان نغوص في أعماق هذا الصـــراع : أهدافه ، دوافعه ، مقوماته ، وتحالفاته .

ان الثورة الفلسطينية لا تمارس ثورة تحررية عادية . ولكنها تخوض صراعا حضاريا من نوع متفرد بالنسبة لحركات التحرير في العالم . **فشعبنا يواجه الفكرة الصهيونية ذات الامتدادات العالمية** ، على المستويات الاقتصادية والسياسية والاعلامية والعسكرية .. تتشابك مصالحها تشابكا عضويا مع حركة الاستعمار العالمي منـــذ القرن التاسع عشر حتى الان ، وتشكل راس جسر للامبريالية العالمية والاحتكارات الدولية ، **لا تنحصر أخطاره وتهديده فيما الحقه بالشعب الفلسطيني من تشرد واحتلال وقهر وتعذيب وتشتيت ، بل يتسع مداه ليشمل تهديدا اوسع من دائرة التفاعل الفلســطيني ، الى دائرة التفاعل العربي والشرق اوسطي والعالمي .**

وهذا هو سبب الدعم اللامحدود الذي تلقاه الصهيونية العالمية التي تجسد اسرائيل نقطة انطلاق مطامحها العدوانية ، والتي التقت لقاء استراتيجيا بالمصالح الامبريالية والاستعمارية المعادية ، على امتداد تاريخها .

في هذا السياق ، لا بد من ان نمثلها بشبيهتها في القرن السابع عشر : شركة الهند الشرقية التي بدات ببومبي واتسعت لتحتل شبه القارة الهندية .

لذلك ، فان الصراع الذي يخوضه الشعب الفلسطيني منذ سنة ١٩١٧ .. هذا الصراع العنيف المتواصل جيلا بعد جيل والذي تكرسه الثورة الفلسطينية الان ، **لم يكن دفاعا عن مصالح اقليمية محلية بحتة ، ولكنه كان نضالا للدفاع عن أمتنا العربية** ، في مواجهة هذه الغزوة الصهيونية ــ الامبريالية ، تماما كما جابهت أمتنا الغزوة الصليبية والتترية .

من هنا ، نعثر على نقطة الارتباط ، الحقيقي والاصيل ، التي تصل نضالنا بحركة النضال العربي والعالمي ، وفي حصيلة هذا الالتقاء المتين يشكل نضالنا مركز استقطاب ، أساسي وثوري ، ضد أعداء الانسانية واعداء الشعوب الذين يضطهدون الشعوب ويسطون على مصيرها وثرواتها .

ومن هنا ، يتسم النضال الفلسطيني بهذه الابعاد الانسانية ، العميقة والعريضة ، لانه يشكل ، تاريخيا ، رافعة الصمود للنضال العربي . **وهذه هي مواطن القوة في العلاقات بيننا وبين حركة التحرر العالمي ، والبلدان الاشتراكية التي ترفض الاستغلال والاستعمار والامبريالية .**

[اجرى الحديث : محمود درويش]

على هامش العلاقات السوفياتية ـ الفلسطينية
المقاومة .. على الطريق الصعب

اسحق الخطيب

اذا كان البيان الذي صدر في أعقاب زيارة الوفد الفلسطيني للاتحاد السوفياتي ، جاء ليسجل مرحلة جديدة للعلاقات بين الثورتين الفلسطينية والاشتراكية ، فالحقيقة ان البيان على ما فيه من صدق الوعد بالدعم والتأييد ، لا يعكس بالدقة جوهر المرحلة الجديدة وعمق العلاقة بين الثورتين . فلقد تطورت هذه العلاقة في الفترة الاخيرة الى حد أصبح معه **« التحالف »** الصيغة الاكثر دقة في وصف المستوى الرفيع الذي بلغته العلاقة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية وبلد ثورة اكتوبر .

وأود في مستهل مقالي ان استدرك ، بأن اقتصاري الحديث عن بيان موسكو لا يعني التقليل من أهمية بياني وارسو وبرلين او زيارة هاتين العاصمتين الصديقتين ، فالحقيقة أن حديثي ينصب على **جوهر العلاقة** مع الثورة الاشتراكية أكثر منه تقييما للزيارة أو البيان . وأي حديث في اعتقادي عن ثورة اكتوبر باعتبارها الثورة الام ، ينسحب بكامل المقاييس على كافة الثورات الاشتراكية وبلدانها .

أين نبتت جذور هذه العلاقة ؟

عندما نشبت الثورة الفلسطينية قبل أقل من عشرة أعوام ، كانت الساحة العربية مزدانة بأعلام النصر رفعتها حركة التحرر العربي عبر مسيرتها الطويلة ، ولم يكن غائبا عن الذهن ، ان ما ساهم الى حد كبير في هذه الانتصارات كان الارتباط النضالي الذي ارتبطت به حركة التحرر العربية بالثورة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي .

هذه الارضية التي استندت اليها الثورة الفلسطينية ، كان لها الفضل الاول في تسريع عملية التطور اللاحق التي شهدتها الساحة الفلسطينية ، وفي تجاوز الاطر والمفاهيم التي كانت تحكم ثورات الشعب الفلسطيني المتتالية منذ الثلث الاول لهذا القرن .

كانت ثورات شعبنا محكومة آنذاك بظروف تلك الفترة القاسية التي تميزت بالهيمنة الاستعمارية المطلقة على المنطقة ، وبغياب الصلة بالاتحاد السوفياتي المطوق بحصار اقتصادي وسياسي وعسكري فرضته عليه الامبريالية العالمية ، وبالقيادة الاقطاعية التي تربعت على قمة الثورات الفلسطينية مذ كان للشعب الفلسطيني ثورة . وقد بلغ العمى السياسي لتلك القيادة أن وجدت في المانيا النازية في فترة من الفترات ، فرصتها الوحيدة في الخلاص ، اعتمادا على المعادلة الخاطئة التي تعتبر عدو العدو صديقا بالضرورة ، وبلغ بها الالتزام الطبقي الى حد ان وقفت تعلن بافتخار ، رفضها تلبية دعوة المندوب السوفياتي الذي كان يلح في اجراء اللقاء مع مندوبها اثناء بحث القضية الفلسطينية في هيئة الامم عام ١٩٤٧ .

لكن تلك كانت فترة وانقضت ، وفشل الثورات السابقة لم يكن مرده كله الى نوعية

القيادة بقدر ما كان للظروف الموضوعية التي انشأت تلك القيادة وابتليت بها الثورات الفلسطينية .

ان الظروف المستجدة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبروز الاتحاد السوفياتي كقوة كبرى على النطاق العالمي بعد ان أسهم بشكل رئيسي في القضاء على قوى الفاشية العالمية ، وتشكل المنظومة الاشتراكية ، أعطت دفعا قويا لحركات التحرر الوطني . وفي غضون عشرين عاما نشب العديد من الثورات الوطنية ونال اكثر من ٧٠ بلدا استقلاله، واقامت عدة بلدان في آسيا وامريكا اللاتينية انظمتها الاشتراكية . وليس من جديد القول أن كل هذا جرى بتأثير مباشر او غير مباشر لرياح ثورة اكتوبر التي اخذت تتحول بعد انتصارها على النازية الى اعصار يلف العالم كله .

والثورة الفلسطينية التي استندت للمعطيات العربية عند انطلاقتها . لم تفتها التغيرات الثورية الجارية في كافة ارجاء المعمورة، ولم يغب عن بالها ما للدور السوفياتي من أهمية فعالة في كل ذلك .

صحيح ان رؤية الثورة لهذه التغيرات العاصفة لم تكن واضحة تماما في بادىء الامر. بسبب غياب المنهج العلمي في تفكير القادة الثوريين الذين فجروا الثورة في أصعب الظروف الذاتية بالنسبة للشعب الفلسطيني المشرد على أكثر من رقعة ارض . الا ان شمس النضال كانت كفيلة في انقشاع الغلالة الضبابية التي كانت تغلف الرؤية الاولية. فلقد كان يكفي في بادىء الامر ان تتوفر **الظروف الموضوعية** لنضوج الثورة ، **والاصالة الثورية** لتفجيرها . وما كان هذا ليعيب الثورة بقدر ما كان يشحذها للتعلم بشكل أسرع وأعمق ، والانسان في ثورته لا يغير واقعه فحسب ، بل ويغير نفسه كذلك .

كانت الثورة من ناحية الفكر الاجتماعي الذي أخذ يغزو حركة التحرر العربية في الفترة الاخيرة ، متخلفة الى حد ما . ولكن الاسلوب المسلح الذي اعتمدته في النضال كان ذا مستوى أرفع من أساليب النضال الاخرى التي اعتمدتها حركة التحرر الوطني انطلاقا من ظروفها المختلفة . وكان من شأن هذا الاسلوب ــ الارقى ــ ان يرفع درجة التوتر في المواجهة الى الحد الاقصى ؛ وان يطرح قضايا يومية حادة تتطلب سرعة البت وايجاد الحلول ، وفي غياب النظرية الثورية لم يكن أمام الثورة سوى اسلوب التجربة والخطأ الذي اعتمدته القيادات الوطنية لحركة التحرر العربي . ولكن ظروف المقاومة وموقعها المتقدم في المجابهة المباشرة مع العدو ؛ وعمق اتصالها بالجماهير وتعاملها اليومي معهما ، لم تكن تسمح لها بالتمادي في استخدام هذا الاسلوب . كانت الثورة ملزمة اذ تجد نفسها في خط النار الاول وتتعامل مع قضية على مستوى الوجود والفناء، أن تكتسب الخبرة والوعي من أولى تجاربها ، وأن تشحذ حسها السياسي الى درجة مرهفة تستطيع معه تحليل الاحداث وتمييز الزيف من الحقيقة بسرعة العقل الالكتروني .

كانت الحقائق تتكشف أمام أعين الثورة . رغم تعقيدات الوضع . بأسرع مما كانت تتكشف امام القيادات الاخرى لحركة التحرر العربية . ولم يكن هذا ناتجا عن قصور لدى تلك القيادات بقدر ما كان نتيجة الفرق في المواقع وظروف النضال . لم يكن المقاتل الفلسطيني بحاجة لاكثر من تجربة وخطأ واحد ، لاكتشاف الرابطة العضوية بين الكيان الصهيوني والامبريالية العالمية ؛ أو التمييز بين الصديق والعدو على النطاق العالمي ؛ وهو يرى نفسه حاملا بندقية سوفياتية الصنع ، أمام دبابة صنعت في الولايات المتحدة .

كان التعلم يجري على الطبيعة وبالذخيرة الحية ! وكانت سطور كتاب الوعي لديه

تكتب احيانا كثيرة بالدم قبل أن يكتشفها مسجلة في كتاب ثوري . ولئن كان هذا ليس في حد ذاته ميزة تحسد عليها الثورة الفلسطينية ، الا انه كان أحد مداخل الوعي السياسي وأشدها عمقا وتأثيرا . فليس كالتجربة العملية تصقل الوعي ، فكيف بها اذا كانت تجربة مخضبة بالدم .

هذه الظروف القاسية التي وجدت الثورة نفسها في تعامل مباشر معها ، أتاحت للثورة فرصة التزود بالوعي وتحديد مواقفها الحاسمة بالنسبة للتحالفات وتمييز الاصدقاء ، ونقلت الثورة نقلة نوعية الى حد تجاوزت معه في بعض المجالات ، المستوى الذي بلغته حركة التحرر العربية نفسها .

ان الثورة الفلسطينية التي قامت في الاساس من أجل عودة شعبها الى وطنه وتقرير مصيره عليه ، قد تخطت بفضل طابعها القومي كجزء من حركة التحرر العربية ، مجال اختصاصها الاساسي . وأخذت تؤثر تأثيرا مباشرا في تطور الحركة العربية في المجالين الوطني والاجتماعي . وقد يبدو غريبا ان يعزى لثورة قومية ، كل همها عودة شعبها لوطنه . شرف التأثير في دفع عجلة التطور الاجتماعي والاقتصادي للشعوب العربية ، ولكن الحقيقة أن الاهداف الوطنية والاجتماعية في الثورة الوطنية الديمقراطية ، أهداف متداخلة يصعب الفصل بينها . والثورة الفلسطينية حتى وهي تناضل من أجل الارض بشكل أساسي ليست بعيدة بالدرجة التي يتصورها البعض عن الافكار والاهداف الاجتماعية ، وعلى رغم ان هذه الاهداف لم تتبلور بعد في تفاصيلها لانها سابقة لاوانها ، الا أن خطوطها العريضة ماثلة في فكر المقاومة .

أن الثورة الفلسطينية بفعل هذا الارتباط النضالي بين الوطني والاجتماعي ، وبفعل موقعها المتميز — ولا أقول الطليعي — في حركة التحرر الوطني العربية ، تشكل في الساحة العربية أداة تغيير ثوري وعنصرا فعالا من عناصر التأثير على خط سير التطور اللاحق في العالم العربي . ومن هنا تتخطى الثورة الفلسطينية مجال اختصاصها المباشر ، وتتجاوز حتى حجمها العسكري او التنظيمي ، وتصبح دائرة فعلها الساحة العربية كلها ، ومقياس قوتها الاثر البالغ الشدة الذي تتركه في هذه الساحة .

واليوم . والثورة الفلسطينية على هذا القدر من القوة . فانها استطاعت ان تفك من حولها الكثير من قيود الوصاية العربية، لتنطلق في المجال الرحب وتحتل موقعها الطبيعي في صفوف الثورة العالمية . فلقد كان من غير الطبيعي ان تبقى الثورة بعيدة عن حلفائها ومحكومة علاقاتها بهم عبر بعض الانظمة ، مهما علا شأن هذه الانظمة وخلصت نواياها .

لقد كان محتوما للثورتين الفلسطينية والاشتراكية ان تلتقيا ، وان تطورا علاقاتهما الى المدى الذي يصح تسميته بالتحالف الابدي . فالثورة الاشتراكية انطلاقا من طبيعتها ومبادئها الاممية تشكل قاعدة ثابتة لدعم نضالات الشعوب ولجم التطاولات عليها . والاتحاد السوفياتي وليد ثورة اكتوبر الاشتراكية ، أعلن منذ قيامه التزامه بهذا الدعم الذي يتفق لا مع مبادىء الاشتراكية فحسب ، بل ومع مصالحها كذلك .

والى جانب المبادىء الاممية والطبيعة الاشتراكية التي يستلهم منها الاتحاد السوفياتي سلوكه وتوجهاته في المجالين الداخلي والخارجي ، فانه ينطلق في دعمه الثابت للثورة الفلسطينية من مبدأ العداء للامبريالية والصهيونية ، العدوين المباشرين في الوقت نفسه للثورة الفلسطينية .

ان مكونات الثورة العالمية في عصرنا الحالي ثلاثة : الثورة الاشتراكية ، والحركة

العمالية وحركة التحرر الوطني . والتناقض الرئيسي الذي يحكم الصـراع الدائر على نطاق العالم كله ، هو التناقض بين الاشتراكية والرأسماليه . ويلعب الاتحاد السوفياتي بحكم موقعه على رأس الثورة الاشتراكية الدور القيادي في هذا الصراع ، ولما كـانت الامبريالية وليدة الرأسمالية وأعلى مرحلة من مراحلها ، فان العدو الرئيسي الـذي يتهددها بالفناء هو الاتحاد السوفياتي بالدرجة الاولى ، رغم محاولات التشكيك بمعزوفة ما يدعى « بالوفاق » .

أما بالنسبة للصهيونية فان صراع الاشتراكية معها ينبع في الاساس من منطلقـات مبدئية وفلسفية وطبقية . فالماركسية تنظر للصهيونية باعتبارها ايديولوجية الطبقـة الاكثر رجعية وأداة بيد الامبريالية العالمية ، وقد أدانتها الحركة الشيوعية منذ نشوئها في أواخر القرن الماضي . ولا يكاد ينعقد مؤتمر للاحزاب الشيوعية العالمية بدءا مـن المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية عام ١٩١٩ حتى المؤتمر الاخير للاحزاب الشيوعيـة والعمالية عام ١٩٦٩ ، الا وتدان فيه الصهيونية كتنظيم وفكر .

على النطاق العملي فان الصهيونية تقوم بممارسة شتى انواع التخريب والتجسس داخل المنظومة الاشتراكية، وتثير أحط حملات الدعاية والتشويه ضد الاتحاد السوفياتي، وتعمل على تفسيخ التضامن البروليتاري للحركات العمالية في النظام الرأسمالي ، الى جانب الاضرار بحركات التحرر الوطني وبشكل خاص بالحركة العربية والفلسطينية .

لقد لعبت الصهيونية دورا تخريبيا قبل واثناء وبعد الثورة الاشتراكية في روسيـا ، فعن طريق منظمة « البوند » حاولت شق صفوف الطبقة العاملة الروسية قبل الثورة، وساهمت في انشاء وحدات عسكرية ضمن جيوش دينيكين وغيتمان وبيتلورا تحمـل السلاح في وجه السلطة السوفياتية الوليدة ، وتشكل اليوم مركزا من أهم مراكـز التجسس والتخريب ضد الحركة الشيوعية العالمية . وقد ازداد احتضان الامبريالية للمنظمات الصهيونية بعد انكسار شوكة الفاشية في الحرب العالمية على يد الاتحـاد السوفياتي في الاساس ، واخذ الاهتمام بها يزداد لتحل محل الفاشية والنازية باعتبارها وريثة لهما في العداء للاشتراكية ، انطلاقا من طبيعتها التي لا تختلف من حيث الجوهر عن الطبيعة النازية ذات الاستعلاء القومي، واستنادا الى تشابه المنبت بينهما باعتبارهما ــ الصهيونية والنازية ــ افرازا ساما من افرازات الرأسمالية الاحتكارية .

ان ما لحق الاشتراكية ، والاتحاد السوفياتي بشكل خاص ، من أذى الصهيونية . يكاد يوازي الاذى الذي تتعرض له شعوبنا العربية وشعبنا الفلسطيني على الاخص .

من هذا الالتقاء في المصالح والاهداف ــ لو اقتصرنا على ذلك ــ للثورتين الفلسطينية والاشتراكية ، فقد كان حتميا لقاء الثورتين وتلاحمهما ، وبقـدر ما يزداد تفهم الثورة الفلسطينيـة لهذه العلاقـة المصيرية ، بقدر ما يترسـخ ويمتد الى آفـاق أرحب ليشمل قضايا مستقبلية اوسع تنوعا . فليس العداء للصهيونية والاستعمار الذي يجمع الثورتين الفلسطينية والاشتراكية هو وحده الاساس الذي تقوم عليه العلاقة بـين الثورتين ، اذ أن المراحل القادمة للثورة الفلسطينية وما يمكن أن تطرحه من قضايـا قد يكون من بينها اقامة الدولة الفلسطينية على طريق استكمال حقـوق الشعـب الفلسطيني ، تستدعي أكثر من أي وقت مضى تمتين العلاقة مع الاتحاد السوفياتي بغية ضمان تطور هذه الدولة في الاتجاه الصحيح المؤدي الـى استكمال الحقـوق المغتصبـة .

ان المنعطف الخطير الذي تواجهه الثورة الفلسطينية خاصة بعد تعزز مواقع اليمين

في حركة التحرر العربية ، يفرض على الثورة تعزيز تحالفها مع حليف برهنت التجارب على ثبات موقفه في شتى المنعطفات واخطرها . فهو الحليف الوحيد المنزه عن الغرض والذي ليس له من شرط سوى اخلاص الثورة لقضية شعبها . وعلى هذا فانه بالقدر الذي نوحي فيه للاتحاد السوفياتي بجديتنا في النضال وباخلاصنا للقضية التي نقاتل من اجلها حتى النهاية ، بقدر ما نخلق لديه عوامل الثقة فينا وبقدر ما يتعزز تحالفنا معه .

هذا هو الشرط الوحيد المطلوب : ان نخلص لقضيتنا وان نثبت على هذا الاخلاص دونما وهم « بخلاص » قد تلوح به أطراف من هنا وهناك بغية اضعاف هذا التحالف ، للانفراد بنا ومن ثم الانقضاض علينا .

ان تحالفنا مع السوفيات هو مصدر القوة الرئيسية لنا . انه الحلقة المركزية في سلسلة نضالنا . وهو وحده الذي يرغم العدو على التنازل تحت ضغط هذه القوة التي تتولد لدينا من جراء هذا التحالف . وكم من قيادات وطنية وقعت في مأزق . لانها ارتضت لنفسها ان تقدم شهادة حسن السلوك بفك ارتباطها مع حلفائها الحقيقيين ، فكانت النتيجة ان نقعت هذه الشهادة وشربت ماءها المر المذاق !

الى جانب هذا الشرط . هناك شرط اخر لا بد للثورة من جانبها ان تراعيه او تتنبه اليه على الاقل . وهو ضرورة الانسجام قدر الامكان مع مواقف الحليف ، فكلما ازدادت الخطوات تناسقا كلما ازداد التحالف التحاما . ولقد خطت الثورة عبر دورة مجلسها الوطني الاخير والقرارات التي صدرت عنه . خطوة واسعة في هذا المجال .

ان قوة المقاومة في المحصلة النهائية تنبع من انها اختارت الطريق الصعب ولكنه الصحيح . وبقدر ما تغذي السير على هذا الطريق . طريق الصداقة الوطيدة مع السوفيات ، دونما تردد او وجل ، رغم ما سيخلق لها من متاعب وتعقيدات في الساحة العربية ، بقدر ما تزداد قوة وتقترب من أهدافها . فليس خافيا على أحد . أن ثورات الثلث الاخير من القرن العشرين ، قرن التحول الى الاشتراكية ، هي ثورات ذات وجه تقدمي بغض النظر وعت ذلك الثورة نفسها أم لم تعه . ان مجرد تصدي الثورة للامبريالية والصهيونية يكسبها هذا الطابع ويمنحها عطف وتأييد كل القوى التقدمية في العالم بما فيها القوى التقدمية داخل بلدان العدو . فليس صدفة والحالة هذه ، ان تكون الثورة الفلسطينية محط أنظار قوى التحرر والتقدم في العالم ، وليس صدفة أن تسلم الثورة الفيتنامية — التي يقود النضال فيها حزب ماركسي لينيني — علم الكفاح للثورة الفلسطينية . وليس صدفة كذلك ، ان تتداعى في العالم العربي كل قوى التحرر والتقدم لتشكل جبهة مساندة للثورة الفلسطينية .

لقد غدت الصداقة مع السوفييت صفة من صفات التقدمية ومقياسا صائبا للوطنية الحقة . ولقد ثبت في اكثر من مرة ان كان انحراف هذا المؤشر نذيرا لتحول خطير تتجرع آلامه حركة التحرر العربي . ان الاتحاد السوفياتي الصديق الوفي لشعبنا العربي والفلسطيني . قد دعم ثوراته وعاملها بنفس المقدار الذي عامل به الثورة الفيتنامية ، واذا كانت نتائج الدعمين قد اختلفت ، فأسباب ذلك تعود **للطرف المحلي** في معادلة التحالف . ان أي تحالف لا يمكن ان يعطي ثماره الا بتفاعل الطرفين . وفي تحالفنا مع الاتحاد السوفياتي ينبغي ان يكون واضحا ، ان الاتحاد السوفياتي بعظمته وجبروته لا يستطيع **وحده** ان يحرز لنا النصر ، وبالمقابل ليس بمقدورنا **وحدنا** ان نفعل ذلك . فالصراع في منطقتنا ليس صراعا اقليميا أو قوميا منعزلا عن الصراع العالمي ويدور خارج اطار التناقض الرئيسي بين الاشتراكية والرأسمالية . ان تفاعل الطرفين ، المحلي

والدولي، وقدرة الطرف المحلي بالدرجة الاولى، على اثبات وجوده وفرض ارادته وتعزيز مواقعه عن طريق حسن الاستفادة من الدعم الدولي : هو الذي يجعل لدور الحليف الخارجي أهمية أكبر وفعالية أشد .

ولنضرب مثلا : في حرب حزيران انتصر الطرف المحلي الاسرائيلي وانهزم العرب ، وفي حرب شبه القارة الهندية انتصر الطرف المحلي الهندي وانهزمت الباكستان ، ولكن هذا لا يعني أن الاتحاد السوفييتي — **كقوة مطلقة** — انهزم في حرب حزيران أمام الولايات المتحدة ، ثم انتصر عليها — **كقوة مطلقة أيضا** — في حرب بنغلادش . كما لا يعني هذا انه انتصر عليها في كوبا وانهزم أمامها في التشيلي أو تعادل معها في حرب تشرين الاخيرة. ان الذي انتصر أو انهزم هو الطرف المحلي الذي استفاد أو لم يحسن الافادة من الدعم الدولي ، فليس بامكان الاتحاد السوفياتي ان يكون عربيا أكثر من العرب او ان يتقمص قومية أي شعب آخر لينوب عنه في القتال . ان الذي يضعف الطرف المحلي أو يقويه هو مدى **ارتباطه واخلاصه لصيغة التحالف** أولا ، **وحسن افادته من الدعم** المتعدد الوجوه ثانيا . ولقد تعمدت اعطاء الاولوية **للتحالف** ، يقينا مني بأنه الدعم الحقيقي ، والسلاح الامضى .

وبعد ...

لقد خطت الثورة الفلسطينية خطوات واسعة على طريق غير ممهد وفريد من نوعه ، وقد يكون من حسن حظها أن جاءت في الثلث الاخير من القرن حيث تلعب الاشتراكية الدور الحاسم في تقرير وجهة سير التاريخ ، وتتشكل الظروف الاكثـر ملاءمة للنضال والانتصار .

ان الثورة الفلسطينية وقد بلغت هذا الشأن من عمق العلاقة مع الاتحاد السوفييتي، ونالت من تأييده واعترافه ما لم تنله ثورة اخرى اذا استثنينا ثورة الفيتنام ، قد ارتفعت بنضالها الى قمم أعلى ، وأوكلت لنفسها مهام أصعب ، وفرضت على حالها مسؤوليات جسام .

انها ، بكلمة أخرى : اختارت الطريق الاصعب ... ولكنه الاصح .

مرفوضون .. مرفوضون

محمود درويش

● لم يشتد الحصار على الفلسطيني . كما يشتد الآن .

ولم يطالَب الفلسطيني بالذهاب الى الهزيمة . كما يطالب الآن . بعد أول حرب لم تؤد الى هزيمة .

ليست مفارقة ، ولكنها تساؤل واعادة نظر .

ويأتيه سؤال : من أين تبدأ بعد كل هذه المحاولات ؟.

وينقض عليه سؤال آخر : من أين لا تنتهي أمام كل هذه المفاجآت .

أرض تأكل فدائييها . وحائرون في الليل يعاقبون شعلة الضوء .

ولا يأتي الحصار من الاعداء وحدهم ، ولا من الخديعة وحدها . ولا من حصان طروادة . انه يأتي من البيت أيضا .

وكأننا مدفوعون الى مصير البطل التراجيدي . لا نملك الا الموت الجميل . والارادة للقدر وحده .

حصار .. حصار .. حصار .

وماذا نفعل في دائرة الفتك والانتهاك والردة .. ماذا نفعل ؟

اني اشعر بالعار ، أمام العقل والوطن ، حين يواجهني فلسطيني بهذا السؤال الغادر : انت « مع » أم « ضد » ؟ « قابل » أم « رافض » ؟

وحين تحاول شرح مخاطر البؤس المتفشي في هذا السؤال .. تواجه اتهاما أخطر : انت هارب من المسؤولية ، أو أنك « قابل » يفتقر الى شجاعة الاعلان . لان عدم الاجابة — الطلقة على هذا التصنيف يضعك في خانة القابلين .

وتسأل : من هم القابلون ؟

ويرد عليك : الذين ليسوا رافضين .

وتسأل : أقبل ماذا ، ارفض ماذا ؟

ويرميك بالجواب القاطع : الدولة .

لم ينقسم شعب على وهم ؛ كما انقسم الشعب الفلسطيني . صار كل فرد فيه ، من ربة الخيمة ، الى المقاتل ، الى التاجر ، الى الصعلوك يحمل اسما جديدا : اما « مع » واما « ضد » . كأن حرب التصنيف قد اندلعت بالتسمية أولا ، ثم اندلعت بالنار الحية . لقد سقط منا شهداء . يجب ان نعترف بذلك . . سقط منا شهداء ضحية هذا التصنيف الاحمق .

وهب بعض الانظمة لتمويل التصنيف . وهب العدو الاسرائيلي لتأجيج حرب التصنيف . وصار يرمي بعض الايحاءات المدروسة ليدفع بالفلسطينيين الى الخلاف حولها .

والمدهش في الامر أن العدو نفسه يعلن ، بوضوح ، الغاية التي من أجلها يلوح بهذه الايحاءات المخادعة كالاعتراف بالكيان الفلسطيني مثلا : لدفع الفلسطينيين الى الاقتتال على وهم ، بعد دفع الكرة الى شبكتهم .

وصارت ساحة معركة التناقضات بين بعض الانظمة هي الساحة الفلسطينية . انها تصفي حساباتها مع بعضها البعض ، وتتآمر على بعضها البعض ، عبر الفلسطيني ، ومن خلال الانقسام الفلسطيني حول التصنيف : « مع » أم « ضد » .

دولة . . دولة ، ولا دولة .

وما دام الفلسطينيون ، جميعا ، يعرفون أن أحدا لم « يعدهم » بدولة ! — ولم يحدث في التاريخ ان أهدى أحد الى أحد دولة — فلماذا يصر بعضهم على الذهاب في معركة الصراع على وهم الى النهاية ؟

سؤال لا يدعي البراءة ، لانه موجه الى ظاهرة غير بريئة .

ليس بوسعي ان أكون « مع » . أي : ليس بوسعي أن أكون « قابلا » ، لانه تنقصني القدرة على الاعجاب بشجاعة جنين يحمله ظهر طفل مجهول .

وليس بوسعي أن أكون « ضد » ، أي : ليس بوسعي ان اكون « رافضا » ، لاني افتقر الى القدرة على النفور من لون عيني جنين يحمله ظهر طفل مجهول .

فهل يستطيع أحد ذلك ؟

ومن اين نبدأ ؟

ان الذين يرون أن السلطة الوطنية قابلة للتحقيق بمجرد أن تتم موافقتنا عليها وبمجرد أن نعلن الاستعداد للذهاب الى جنيف بلا شروط ، يمنحون الظاهرة الصهيونية آنية لم تبلغها بعد ، لان درجة التصدي العربي لاسرائيل لم تبلغ بعد مرحلة الحاق الهزيمة بالعدو ، لاسباب كثيرة أهمها أسباب ذاتية . وان الحصول على شبر واحد من أرض فلسطين يحتاج الى أكثر من حرب ، لان العدو لا يسلم بالانتحار السريع .

وان الذين يرفضون السلطة الوطنية لانها تقوم على « أرض صغيرة لا تتوفر فيها شروط الدولة الغنية المقاتلة » مرة ، ولانها غير قابلة للتحقيق مرة ثانية ، لا يحق لهم المضي في الرفض ، تحت ضغط منطقهم ذاته . فطالما ان الضفة الغربية غير ممكنة التحرير في هذه المرحلة ، فكيف يكون كامل التراب الفلسطيني ممكن التحرير في هذه المرحلة ؟.

لم يقنعنا القابلون بالقبول . ولم يقنعنا الرافضون بالرفض ، لا لنقص في الحجة ، بل لغياب موضوع الرفض والقبول .

اننا نطحن هواء . ونختلف على وهم .

لاننا .. نحن المرفوضون .

من هنا نبدأ : من ادراك حقيقة كوننا مرفوضين .

نحن مرفوضون .. مرفوضون .. مرفوضون .

وان التطورات الاخيرة في المنطقة . من بلاغات مشتركة ، الى زيارات ، الى اتصالات .. تشير الى أن مشيئة أميركا وجدت من بين حلفاء المقاومة ذاتهم من يتطوع لتنفيذها . حتى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية صار قابلا للتفتيت واعادة النظر من بعض الانظمة العربية التقدمية .

ومن الواضح أن هذه المراجعة قد وضعت حدا أنيقا للحيرة التي كان العدو الاسرائيلي مدفوعا اليها . فتوقف عن بذل الجهد في صياغة الحركة التكتيكية أمام ما قد يخلقه الاجماع العربي والدولي على الاعتراف بمنظمة التحرير من حرج وارتباك ومأزق له [العدو] .

بعد صدور بيان الاسكندرية [المصري — الاردني] بثلاثة ايام . أصدرت الحكومة الاسرائيلية القرار التالي :

« ان اسرائيل ستتابع العمل من أجل التوصل الى اتفاقيات سلام مع الدول العربية ، قائمة على حدود يمكن الدفاع عنها ، ويتم التوصل اليها بالمفاوضات وبدون شروط مسبقة . ستعمل الحكومة من أجل المفاوضات وصولا لاتفاقية سلام مع الاردن . وان السلام سيرتكز على أساس قيام دولتين مستقلتين فقط : اسرائيل ، وعاصمتها القدس الموحدة ، ودولة عربية — أردنية فلسطينية الى الشرق من اسرائيل داخل حدود تحدد في مفاوضات بين اسرائيل والاردن . وفي هذه الدولة يجري التعبير عن الهوية الذاتية للاردنيين والفلسطينيين ، عبر سلام وحسن جوار مع اسرائيل » .

وتنهمر الانباء من واشنطن عن التوصل الى اتفاق بين اسرائيل والاردن على فك الارتباط . ولسنا بحاجة كبيرة الى تكرار الموقف الاسرائيلي التاريخي والسياسي الذي يعتبر قيام كيان .. أي كيان فلسطيني مستقل بمثابة انتحار لاسرائيل . ولسنا بحاجة الى تكرار القول ان السياسة الاسرائيلية — الامريكية تسعى الى اعتقال الحل الفلسطيني في الاطار الاردني .

هذه هي الدولة : هوية فلسطينية في الدائرة الاردنية .

هذا هو الحل المطروح علينا .

هذا ما نحن مدعوون الى اتخاذ موقف منه : الرفض أو القبول .

أبسط من بديهية أن نقول ان كل فصائل حركة المقاومة متفقة على رفض هذا الانصهار .

كلنا رافضون .

فلماذا الانقسام اذن ؟ لماذا المزايدة ؟ ولماذا الصمت القابل لترجمة مخطئة ؟

هل « نهنىء » الرافضين . لان احتمال السيطرة الفلسطينية على الضفة الغربية قد صار بعيدا جدا ؟ هل نهنئهم لان جزءا من وطنهم ذاهب الى المملكة الاردنية؟ أم « نعزي » القابلين لان مطلبهم — وهو صراع وكفاح — قد صار بعيدا عن التحقيق لاسباب أهمها : تراجع أحد أعمدة هيكل التحالف العربي ؟.

لا نهنىء ولا نعزي .

فلقد حاولت المقاومة الفلسطينية ، بالجهد السياسي والعسكري ، أن تكون الطرف الشرعي الذي يعبر عن الشعب الفلسطيني في أي تحرك سياسي يبحث مصير هـذا الشعب . وان المشاركة في هذا التحرك لا يمكن ان يسمى قبولا أو انسجاما مع الهدف الامريكي — الصهيوني ، ولكنه محاولة لعرقلة هذا الهدف ولفرض الشرط الفلسطيني . وان نفض الايدي من دائرة النشاط السياسي السياسي الدائر في المنطقـة هو الموقف الاقرب الى تسهيل مهمة الهدف الامريكي .

لا يصح ، اذن ، لاي طرف في المقاومة أن يداعب شعر نتائج التحركات في المنطقة ليقول : هذا يثبت صحة رأيي . أن حركة التاريخ لا تتم استجابة لرغبة طيبة من أحد . ان الفاعلية الذاتية في هذه الحركة ، لا التفرج السلبي عليها ، هي التي تحدد صحة المواقف . وضمان النجاح ليس شرط النشاط .

وهؤلاء الذين يقفون ، الآن ، على نهاية مرحلة ما بعد تشرين ليشاهدوا مدى التطابق بين نتائجها — ولم تنته بعد — وبين أفكارهم ، لماذا لا يعترفون بأن جوهـر النشاط الامريكي — الاسرائيلي — الاردني كان يرمي الى طرد الفلسطينيين من دائرة العمل السياسي ، ليتسنى للهدف المثلث المصالح ان يصمم الحل اللائق به ؟.

لم يقبل اي فلسطيني مقاوم هذا الحل ، فلماذا نسمي التحرك السياسي قبولا ؟ أليس هو الرفض .

وهل آن الاوان لندرك ، جميعا ، أننا مرفوضون .. مرفوضون .. مرفوضون .

— هل أنت مع جنيف أم ضد جنيف ؟.

هكذا نشروا السؤال بين الفلسطينيين ، واختلفوا ، وأوقعوا الخلاف .

وتحاول القول : أنا مع القدس . والذين مع جنيف أو ضدها هم مع القدس أيضا .

نذهب أم لا نذهب ؟ الذاهب قابل ، واللا ذاهب رافض .
ومرة أخرى : كلنا مرفوضون .

فلم يطلب منا أحد أن نذهب . ولم يسمح لنا أحد بأن نذهب . واذا ما أتيح لنا أن نصل الى جنيف ، فسيكون ذلك اغتصابا . سيكون ذلك نتيجة التهديد العربي والسوفياتي بنسف جنيف اذا لم تكن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وهي الوحيدة في العالم التي يحق لها أن تحدد معنى حقوق الشعب الفلسطيني في اية هيئة دولية تبحث هذه الحقوق .

يبدو ان ذلك لن يحدث بسهولة

فان البيان المصري — الاردني يدل ، بوضوح ، على ان شرعية التمثيل الفلسطيني لم يعد شرطا عربيا اجماعيا لانجاح المؤتمر .

وستكون دعوة طرف فلسطيني ، في مرحلة لاحقة وفي هذا الاطار تلافيا للعتاب ، الا اذا تعمق التراجع المصري عن جوهر بيان الاسكندرية .

حتى الآن ، مصر لا تشترط ولا تلح . .

أميركا لا تريد

واسرائيل تقول : « نعارض دعوة مندوبي منظمات تخريب وارهاب الى جنيف كأعضاء أو كمراقبين . ان حكومة اسرائيل لن تجري مفاوضات مع منظمات ارهاب هدفها المعلن هو ابادة دولة اسرائيل » .

كيف نذهب الى جنيف اذن ؟

لقد طردونا قبل ان نطرد أنفسنا . وبوسع اسرائيل والاردن ان يقولا ، في مراحل لاحقة ، عند اقتسام الضفة الغربية الفلسطينية : ان منظمة التحرير ، بغيابها ، أعطتنا الحق في التحدث باسم الشعب الفلسطيني .

وكل ما سيسفر عنه مؤتمر جنيف ، اذا أسفر عن شيء ، فيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني لن يكون ملزما لنا . وسنرفضه بالطبع .

كلنا ، اذن ، مرفوضون .

فلماذا الانقسام على دعوة لم توجه الينا ؟

ان الرفض هو جوهر المقاومة . ولكن الرفض ليس مطلقا وكاسحا الى حد رفض الذات ، ورفض الممكن الذي ننجزه بكفاحنا . اننا نرفض المشيئة الامريكية الاسرائيلية ، ونرفض التنازل عن حقوقنا التاريخية والسياسية في فلسطين ونرفض التنازل عن الثورة . ولكن الكفاح من أجل تحقيق أهداف مرحلية ، على طريق التحرير ، لا يجب أن يسمى قبولا بمشيئة الاعداء . انه شكل من أشكال رفضها . وان مدى ما يمكن احرازه يتلاءم مع مدى نضج قدرتنا على هذا الانجاز .

من هنا ، وبهذا المعنى ، يكون كل فرد في المقاومة الفلسطينية رافضا ، ولا يجوز ادانة السعي للوصول الى الممكن المرحلي ، ضمن الخط الاستراتيجي ، والا — اصبح المعنى الوحيد للادانة هو تضييق الاختيار ، والقبول المرحلي بأحد الاحتلالين : الاسرائيلي أو الاردني . وهنا تفقد الظواهر أسماءها ، فيتضح ان القابلين رافضون ، وان الرافضين هم القابلون .

لقد حدد الاسرائيليون سياستهم الراهنة بوضوح لا تحتاج قراءته الى ذكاء . رئيس حكومتهم يقول : « ان حكومة الاردن هي الطرف الوحيد الذي يمكن لاسرائيل أن تناقش معه المشكلة الفلسطينية » . ووزير خارجيتهم كرر القول ان اسرائيل ترفض اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية لان « اقامة دولة فلسطينية منفصلة عن الاردن لن تكون الا قنبلة زمنية تؤدي الى اندلاع الحرب » .

ونحن ، الفلسطينيين ، ننقسم الى قابلين بالدولة الوهمية ورافضين لها ، دون ان ينتبه الكثيرون منا الى أن الكيان الفلسطيني هو رفض اسرائيلي اكثر مما هو قبول

فلسطيني . ودون أن ندرك أن انقسامنا على ذلك ــ وهو مطلب اسرائيلي معلن ــ يضيف بعض التسهيلات للرفض الاسرائيلي المطلق .

اننا مرفوضون .. مرفوضون .

ولا يدعو أحد منا الرد على رفض الاعداء لنا بقبول لهذه المشيئة . ولكننا مدعوون الى تلافي الانسجام مع رفض الاعداء ــ ورفض بعض الحلفاء أيضا ــ لنا . ونحن ندرك أيضا أن ليس كل ما يرفضه عدوي يجب أن أطالب به .

اننا مدعوون ، الآن ، الى اعادة النظر في أسباب خلافاتنا . وقد يكون مدخلنا الى هذه العملية هو أن ننتبه الى أننا نحن المرفوضون ..

مرفوضون من الاشتراك في البحث بمصيرنا ..

مرفوضون من السيطرة على أي شبر من أرض بلادنا ..

مرفوضون من حق تمثيل شعبنا .

مرفوضون من اقامة أي كيان وطني خاص بنا ..

مرفوضون .. ومحاصرون

ومدفوعون الى الانشقاق .. والانتحار .

فهل نقبل هذا الاختيار . أما أننا ما زلنا قادرين على وضع الاختيارات الحرة ؟

ان الوحدة الوطنية شرط لقدرتنا على تحديد اختياراتنا .

ليس بيننا قابل بارادة الغزو الامريكي والغزو الاسرائيلي .

ليس بيننا من يعيد النظر بحقوقنا التاريخية والسياسية في فلسطين .

وليس بيننا من يدعو الى وأد المقاومة مقابل جنين مجهول .

فلماذا نتبادل الاتهام .. والمزاودة .. ويقبل بعضنا الدخول في معركة ليست لنا ؟

لتتوقف حرب التصنيف . ولنواجه المرحلة الخطرة ، مرحلة الابادة السياسية، بوحدة وطنية متماسكة ، قبل أن يصبح مصيرنا الوحيد هو مصير البطل التراجيدي : الارادة للقدر . وله الموت الجميل .

السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية

ندوة

اشترك بها : سعدات حسن
د. هشام شرابي
د. فايز صايغ
د. كلوفيس مقصود
ادارها : د. نبيل شعث

عقدت شؤون فلسطينية ، يوم السادس والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، ندوة حول السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية اشترك بها عدد من كبار الاختصاصيين العرب بالشؤون الاميركية وبالعلاقات العربية الاميركية ، وهم د. فايز صايغ ، مؤسس مركز الابحاث في م. ت. ف. وعضو المجلس الوطني الفلسطيني ، ود. هشام شرابي رئيس تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية ، وسعدات حسن مدير مكتب م. ت. ف. في نيويورك — ويقيم ثلاثتهم في الولايات المتحدة منذ عدة سنوات ويشاركون في نشاطات اعلامية واسعة . اما د. كلوفيس مقصود ، الكاتب العربي ، فقد عاد مؤخرا من الولايات المتحدة بعد جولة اعلامية اوفدته لها جامعة الدول العربية واستغرقت اكثر من ستة اشهر . وأدار الندوة زميلنا في هيئة تحرير شؤون فلسطينية د. نبيل شعث ، المدير العام لمركز التخطيط في م. ت. ف. ونلحق بالندوة رسالة في الموضوع نفسه تلقتها المجلة من أحد مكاتبيها في الولايات المتحدة د. عودة ابو ردينة .

د. نبيل شعث : **ندوتنا عن السياسة الامريكية تجاه القضية الفلسطينية ونبدأها بسؤال عن الاستراتيجية الامريكية تجاه القضية الفلسطينية والشرق الاوسط، تاريخيا، قبل ١٩٧٣ وعن تأثير المصالح الامريكية في المنطقة على المفهوم الامريكي لهذه الاستراتيجية ؟**

الاستاذ سعدات حسن : كانت الولايات المتحدة تنظر للقضية الفلسطينية حتى العام ١٩٧٠ ، عندما برز دور المقاومة الفلسطينية وظهر الكيان الفلسطيني ، كقضية لاجئين ، كقضية اعاشة ، واغاثة ، تحل من ضمن اطار العلاقات العربية والدولية مع اسرائيل . لكن بروز حركة المقاومة أدى الى تغير في سياسة الولايات المتحدة ، وان كان هذا التغير الطفيف تكتيكيا . بدأت الولايات المتحدة تشعر بأن الفلسطينيين يكونون شعبا وانهم هم العقبة أمام اية تسوية سلمية في المنطقة . كانت الولايات المتحدة تفكر قبل ١٩٧٠ ، أي قبل مجزرة عمان أن لا مخرج لمشكلة الشرق الاوسط دون احترام مصالح الفلسطينيين.

ثم جاءت مجزرة عمان ، فاختلت المعادلة وبدأت الولايات المتحدة من جديد تنظر الى مشكلة الشعب الفلسطيني من ضمن اطار العلاقات الدولية بين الدول العربية وبين اسرائيل .

د. نبيل شعث : **حبذا لو نعود أيضا ، ولو بشكل مختصر ، الى الوراء قليلا لننظر الى دور اسرائيل في هذه الاستراتيجية حتى نرى هل بالامكان حدوث تغير بالنسبة لدور اسرائيل في الاستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط ، هل يمكن القاء بعض الاضواء على هذه النقطة ؟**

د. هشام شرابي : دور اسرائيل بين العام ١٩٦٧ وبين العام ١٩٧١ كان ينظر له بمنظار أنها هي القوة الضاربة التي تدافع عن مصالح الغرب ، القادرة على الدفاع عن مصالح الغرب ، وخصوصا مصالح امريكا ، في الشرق الاوسط . وهذه الصورة لاسرائيل لم تتغير تغيرا كليا الا بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

د. نبيل شعث : تعليق صغير .. كان يقال بأن أمريكا قد بدأت في تعديل سياستها بعد خطاب نيكسون في الكونغرس عام ١٩٧١ باتجاه تقوية الدور الايراني والاستناد الى بعض المعطيات الاخرى في المنطقة . هل لعب هذا دورا قبل ١٩٧٣ وأثر على الاستراتيجية الامريكية تجاه المنطقة ، نريد ان نعرف ذلك حتى نرى الى اي حد تغيرت هذه الاستراتيجية بعد ١٩٧٣ .

الاستاذ سعدات حسن : منذ حرب الايام الستة حاول الاسرائيليون اقناع الولايات المتحدة ان اسرائيل هي الدولة التي تستطيع أن تحافظ على المصالح الاستراتيجية الامريكية في المنطقة واقتنع الاسرائيليون المسؤولين الامريكيين بوجهة النظر هذه . غير أن الولايات المتحدة شعرت في الوقت نفسه انها هي بحاجة الى من يقوم بنفس الدور الذي تقوم به اسرائيل في مشرق الوطن العربي وكان هذا هو دور ايران في الخليج . وهكذا بقيت اسرائيل وايران والولايات المتحدة تتعاون معا بالنسبة الى القضايا الاستراتيجية الامريكية والمصالح الامريكية في المنطقة ولا زال هذا التعاون قائما حتى الان . وما تعيين هلمز سفيرا للولايات المتحدة في طهران قبل أكثر من سنة الا دليلا على أهمية الدور الذي تقوم به ايران بالنسبة الى المنطقة وعلى التعاون الذي كان قائما بين المخابرات الامريكية وبين الاسرائيليين بالنسبة الى قضايا المنطقة ككل .

أما بعد ١٩٧٣ فقد ظهر فشل الحجة الاسرائيلية بأنها تستطيع ان تفرض سياستها على المنطقة بدون قيد أو شرط وانها هي التي تحافظ على مصالح الولايات المتحدة في المنطقة . ظهر هذا جليا اذ تبين ان العلاقة الاساسية العضوية التي كانت قائمة بين اسرائيل والولايات المتحدة كانت السبب الرئيسي في تهديد المصالح الامريكية في المنطقة. لقد أدرك عدد كبير من المثقفين الامريكيين من أساتذة ومكوني الرأي العام هذه الحقيقة. أما ما اذا ظهرت هذه الحقيقة على الساحة الرسمية الامريكية ، فهذا ما لست أدري .

د. نبيل شعث : **استاذ سعدات ، لقد دخلت فورا في موضوعنا الرئيسي ونحن فعلا نريد ان نركز على ما حدث نتيجة حرب تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٣ ، أردنا فقط ان نسجل بعض المميزات الهامة للاستراتيجية الامريكية قبل ١٩٧٣ . ما دمت قد فتحت الموضوع ، فلا بأس من الدخول فيه رأسا . لكنني اريد ان اسأل ، هل نستطيع ان نستخدم مؤشرات ومعايير معينة في قياس التغير الامريكي . بكلام آخر ــ هل هناك معايير مقترحة يمكن ان نستخدمها حتى نرى فعلاً هل حدث تغير استراتيجي امريكي تجاه القضية الفلسطينية او الشرق الاوسط وننظر الى مكوناته ونتائجه وهو موضوعنا الرئيسي في هذه الندوة ؟**

د. فايز صايغ : أعتقد ان تاريخ العلاقات الامريكية بالقضية الفلسطينية (وبالتالي العلاقات الامريكية العربية، التي تتأثر تأثرا رئيسيا جوهريا بالموضوع الاول) قد مر حتى الان بمنعطفين رئيسيين . المنعطف الاول هو الفترة من ١٩٤٧ وحتى الـ ١٩٥٠ ، أي قيام اسرائيل واتفاقيات الهدنة وتبلور السياسة الامريكية نتيجة لذلك في البيان الثلاثي في ٢٥ ايار سنة ١٩٥٠ . بقيت السياسة الامريكية تقوم على هذا الاســاس حتى المنعطف الثاني وهو حرب الـ ١٩٦٧ . بين المنعطف الاول والثاني كانت النظرة الامريكية تتلخص في أن هناك مشكلة بين الدول العربية واسرائيل تحكمها اتفاقيات الهدنة ، وان موقــف امريكا هو المحافظة على الوضع الراهن وتذويب قضية اللاجئين مع الزمن عن طريــق التوطين (والاغاثة ريثما يتم التوطين) . جاءت حرب ١٩٦٧ فخلقت اوضاعا جديــدة وتبلورت في ضوئها سياسة امريكية جديدة ، ركائزها هي الاتيــة : (اولا) الالتزام المطلق بوجود اسرائيل كدولة يهودية ، واركز على هذه العبــارة لان فكرة الدولــة اليهودية تتناقض مع عودة اللاجئين بكميات ضخمة وتتناقض مــع فكــرة الدولــــة الفلسطينية العلمانية الديمقراطية . (الركيزة الثانية) — هي ان التزام امريكا بالسلامة الاقليمية لاسرائيل لا يوازيه التزام امريكي بالسلامة الاقليمية للدول العربية ، رغم مــا كان يقول به التصريح الثلاثي لعام ١٩٥٠ . لذلك كان موقف امريكا منذ عام ١٩٦٧ أن ليس على اسرائيل واجب في الانسحاب الكلي وغير المشروط من الاراضي العربيــة . وانما الانسحاب يجب ان يتم في حدود مفاوضات واتفاق بين الاطراف المعنية بالامــر يصون لاسرائيل أمنها وسلامتها . (والركيزة الثالثة) — ان الفلســطينيين موجودون كبشر واما الشعب الفلسطيني فليس له وجود . اذن ، فللفلسطينيين حقوق انسانيــة ولكن ليس للفلسطينيين حقوق وطنية ، وليس للفلسطينيين قيادات وطنية تفرض نفسها على الاطراف الخارجية كممثله للشعب الفلسطيني ، وان الثورة الفلسطينية لا تتعدى كونها عمليات ارهابية .

السؤال الان هو هل جاءت حرب ١٩٧٣ بتبديل في اي من هذه المرتكزات الامريكية ؟ هل تزعزع الالتزام الامريكي بوجود الدولة الاسرائيلية كدولة يهودية ؟ هل أصبــحت امريكا تطالب بالانسحاب الاسرائيلي الكامل غير المشروط ؟ هل اصبحت امريكا تعترف بالوجود الوطني للشعب الفلسطيني ، والحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وقيــادة الثورة الفلسطينية كأمر مشروع ؟ هنا لا بد لنا من ان نسأل عن المؤشرات التي تــدل على وجود مثل هذا التبديل في كل من هذه العناصر او في واحد منها فقط او في اثنــين منها ، وهل هذا التبديل جذري او تكتيكي . اي : هل هو — اذا كان قائما بالفعل — تبديل في الاستراتيجية الامريكية او في التكتيك الامريكي ؟ هل هو جوهري او شكلــي تظاهري فقط ؟

يبدو انه لدى بعض القيادات العربية قناعات يقال انها مبنية على تأكيدات امريكية . هذه القناعات بحصول تبدل في السياسة الامريكية يجب ان ترافقهــا مؤشرات عملية امريكية كي تصبح قناعات شعبية عربية . في نظري واضح انه ليس هناك اي مؤشر يدل على رجرجة الالتزام الامريكي بالوجود الاسرائيلي كوجود صهيوني لدولة يهودية خالصة ، وليس هناك اي مؤشر يدل على ان امريكا تطالب اسرائيل بالانسحاب الكامل غير المشروط ، وليس هناك اي مؤشر يدل على أن امريكا اصبحت تقر بوجود شعــب فلسطيني ذي حقوق وطنية يحق له ان يثور من أجل تنفيذها . وليس انعدام المؤشرات وحده هو المهم بل هناك ايضا مؤشرات سلبية . على سبيل المثال ، اقول ما يلــي : معروف مدى التزعزع الذي يعانيه مركز الرئيس نيكسون في امريكا ، شعبيا وسياسيا وعلى صعيد الكونغرس وعلى صعيد المحاكم الامريكية . ومعروف ايضا مدى النفوذ

الصهيوني في امريكا . انما المستغرب ان لا تكون الحركة الصهيونية قد رمت بثقلها حتى الان بأي شكل من الاشكال وعلى اي مستوى من المستويات لخلق مزيد من تزعزع مركز الرئيس نيكسون . فلو كانت اسرائيل تلمس أن هناك اي تبديل جذري في ركائز الموقف الامريكي ، أما كانت ترمي بثقلها لزعزعته اكثر مما هو مزعزع وللتخلص منه ؟ ان هذا المؤشر السلبي اي انعدام الضغط الصهيوني للتخلص من الرئيس نيكسون ، يدل على الاطمئنان الصهيوني الى عدم وجود تبدل جذري بالنسبة لموقف امريكا من اي من المرتكزات الاساسية التي تحدثنا منها .

د. نبيل : هل نستطيع ان نضيف شيئا الى هذا ؟ هناك من يقول نريد ان نناقش حقيقة أن هناك تغيرات حقيقية . قد لا تكون هذه التغيرات جذرية كما اشار الدكتور صايغ ولكن هناك من يقول أن امريكا بذلت ضغوطا على اسرائيل في مرحلة بعد ١٩٧٣ باجبارها على تقديم بعض التنازلات لتأمين فك الارتباط ، وان جهود كيسنجر المستمرة وسفره ورحلاته كانت من أجل الضغط على اسرائيل من اجل فك الارتباط وان هذا نتيجة لتغير في السياسة الامريكية ، ما حقيقة هذا الموقف وهل هناك مؤشرات اخرى عملية ممكنة ؟

الاستاذ سعدات : اعتقد ان ما ذكرته في الواقع يدل على تغير في التكتيك وفي الاسلوب الذي تعالج به الولايات المتحدة علاقاتها مع الدول العربية . اما بالنسبة الى القضية الفلسطينية فان ما قاله الدكتور صايغ هو عين الصواب . فالتغير الذي حصل في الولايات المتحدة هو تغير في الاخراج وليس في الجوهر . زيارة كيسنجر وعلاقته في المنطقة هي علاقة نتجت بعد حرب ١٩٧٣ — قبل حرب ١٩٧٣ كان يقول انه لم يقرأ قرار ٢٤٢ وقال هذا بالحرف الواحد لوزراء خارجية الدول العربية عندما التقى بهم في سبتمبر ١٩٧٣ قبل الحرب باسبوعين اثنين . بعد حرب ١٩٧٣ شعرت الولايات المتحدة وخاصة كيسنجر اولا : ان اسرائيل اصبحت دولة معتمدة اعتمادا كليا على الولايات المتحدة مما ادى الى ازدياد نفوذها في اسرائيل بشكل غريب وخاصة بمجيء رابين الذي هو مرشح كيسنجر ومرشح نيكسون . ويقول البعض ان مجيئه كان ثمنا لتدخله في الانتخابات الامريكية سنة ١٩٧٢ عندما القى بثقل اسرائيل لصالح مرشح الحزب الجمهوري ريتشارد نيكسون .

وثانيا — ان اسرائيل اصبحت عبئا ماليا على الولايات المتحدة في الوقت الذي كان ميزان المدفوعات الاميركي يعاني من العجز . كانت هاتان النقطتان من العوامل التي ادت بالولايات المتحدة وخاصة كيسنجر للبحث عن معادلة للتوصل الى تسوية أمور المنطقة بحيث تضمن بقاء اسرائيل — ويمكن ان نضيف اعتبارا اخر دفع بالولايات المتحدة الى تغيير اسلوبها . ان كيسنجر يقول للاسرائيليين : اذا لم تقبلوا بما يعرضه عليكم المسؤولون العرب وهو تنفيذ قرار ٢٤٢ ، بعد التعديلات الطفيفة التي يمكن ان تطرأ عليه ، فسيأتي اليوم الذي يفرض العرب بما لهم من امكانات ومقدرات ، بدأوا يحسنون استعمالها ، الحل الذي ليس في مصلحة بقاء اسرائيل واستمرارها . هذا في نظري هو تعديل تكتيكي في السياسة الامريكية وليس بالنسبة للقضية الفلسطينية . هناك عامل اخر يؤثر في السياسة الاميركية في المنطقة وهو الردة اليمينية التي تشهدها المنطقة لصالح الولايات المتحدة . والتي ، تريد الولايات المتحدة المحافظة عليها واستمرارها لانها تدرك تماما ان هذه الردة تخدم استمرار المصالح الاسرائيلية واستمرار الانظمة العربية على حساب الشعب الفلسطيني وحقوقه .

د. هشام شرابي : اولا ، يجب ان لا ننتظر ان تكون سياسة الولايات المتحدة نحو

الفلسطينيين والقضية العربية عامة غير تلك التي اتبعتها في مناطق اخرى من العالم . فطابع هذه السياسة هو طابع امبريالي استغلالي قهري . اصدقاء وحلفاء امريكا في اسيا وافريقيا والشرق الاوسط ليسوا الديمقراطيات والحكومات المدعومة بمساندة شعوبها ، بل الدكتاتوريات العسكرية والقيادات الاقطاعية التي تجد امريكا الوسيلة الاولى والكبرى لتعاملها مع هذه البلدان . لذلك من ضمن هذا الاطار يجب ان لا ننتظر ان تكون سياسة امريكا بالنسبة لهذه المنطقة من العالم سياسة على غير طابعها الامبريالي . ان أهداف امريكا بعد سنة ١٩٧٣ لم تعدل الا بشكل طفيف جداً ، لم تعدل بل وضحت اكثر وازدادت امكانية التعبئة لتحقيقها باستنادها على وسائل واساليب لا صدامية وغير مباشرة . وهذه الاحداث يمكن تلخيصها بثلاث نقاط . النقطة الاولى : المحافظة على السلام في المنطقة على قاعدة الوضع الراهن من ضمن هيمنة امريكية . ثانيا : استمرار ضخ النفط العربي الى امريكا والغرب بكميات معقولة وباسعار مقبولة. ثالثا : الحد من نفوذ الاتحاد السوفييتي في المنطقة لا اقتلاعه كليا ، لا اجتثاثه كليا .

د. فايز صايغ: قلت فيما مر ان ليس ثمة في ما حدث بعد١٩٧٣ ما يدل على انه يشكل تبديلا جذريا في السياسة الامريكية . يقول البعض ان هناك ما يدل على وجود ضغوط كيسنجرية على اسرائيل هي التي ادت الى فك الارتباط ، والخ . . هذا بالطبع كان واضحا معروفا . ولكن بعد مرور تسعة اشهر على وقف القتال كان من المفروض انه لو كان قد حصل تبدل جوهري في الموقف الامريكي لكان قد حصلت نتائج اكثر من نتائج انسحاب اسرائيل المحدود جدا من منطقتين من المناطق المحتلة .

ان التبدل الوحيد الذي حدث في الموقف الامريكي هو ان امريكا كانت تنظر الى العرب قبل حرب ١٩٧٣ كواحد من اثنين ، اما دول يجب التصادم معها او مجموعة دول يمكن تجاهلها . اما بعد حرب ١٩٧٣ فقد ولدت سياسة امريكية جديدة لا تريد التصادم مع العرب اذا أمكن لها تجنبه ؛ ولا يسعها الاستمرار في تجاهل العرب ، بل تحاول تطويق قوة العرب وتبديل مطالبهم ، كي يصبحوا هم اكثر تقبلا لعناصر موقفها الثلاثة من القضية الفلسطينية . هذا ما يمكن ان نقول انه حصل من تبدل في الموقف الامريكي : فبدلا من ان تكون امريكا على استعداد للتصادم مع بعض انظمتنا ولتجاهل جميع انظمتنا اذا لزم الامر ، اصبحت امريكا تفضل ان تحاول ان تؤثر على انظمتنا كي تقبل انظمتنا نفسها بمطالب اقل من المطالب العربية التقليدية ، لكي يصبح ممكنا التوفيق بينها وبين الموقف الامريكي . لذلك قلت ان هناك منعطفين في تاريخ الموقف الامريكي منعطف ١٩٤٧ — ١٩٥٠ ومنعطف ١٩٦٧ وليس هناك منعطف ١٩٧٣ . كان يمكن ان تصبح حرب ١٩٧٣ منعطفا جديدا في الموقف الامريكي لو استمر القتال واستمر حظر تصدير النفط الى امريكا . اما وقف القتال واستئناف ضخ النفط ثم التراجع عن المطالب الاولية دفعة دفعة ومرحلة مرحلة (واخرها التراجع الذي ظهر في البيان المصري الاردني ، فيما يتعلق بتمثيل الشعب الفلسطيني) اما جميع هذه فتدل على ان حرب ١٩٧٣ لم تكن بادرة منعطف جديد في الموقف الامريكي تجاه قضايانا .

د. نبيل شعث : **هل يمكن ان نخلص بنتيجة ، في ضوء ما قلتموه جميعا بانكم ترفضون وجهة النظر القائلة بانه يمكن تحييد أمريكا في النزاع العربي الاسرائيلي وانه يمكن اكتساب صداقتها وان امريكا اذا اكتسبت صداقتها واذا لم تعد بحاجة الى اسرائيل كالسابق ، أو على الاقل اذا أمكن تحييدها في الصراع العربي الاسرائيلي المقبل . طبعا هذه النظرية تحكم السياسة العربية بعد ١٩٧٣ ، بلا شك ان ما قلتموه يؤثر على هذا ولكن اذا أمكن اضافة شيء الى ذلك أرجو اضافته خصوصا اذا اخذنا**

في الحسبان ما يقوله البعض ان امريكا لم تنفذ بعد ما وعدت به وان امريكا تطالب بمهلة اطول حتى يمكنها ان تنفذ وعودها التي قطعتها لبعض الزعماء العرب .

الاستاذ سعدات حسن : من يعتقد انه باستطاعته تحييد موقف الولايات المتحدة وهي الدولة العظمى التي لها مصالح في كافة انحاء العالم ومصالح حيوية في المنطقة العربية خاطىء في تفكيره وفي قدرته على تغيير مجرى الامور السياسية الامريكية . امريكا لها مصالح ثابتة في المنطقة ومصالح حياتية لن تغيرها من اجل وعود قامت بها لزعيم عربي او لاخر لن تغير الولايات سياستها تجاه المنطقة لتتخلى عن اسرائيل وهي التي خلقت اسرائيل وهي التي تحافظ على الوجود الاسرائيلي وهي التي تعمل من أجل تدعيم هذا الوجود والمحافظة على الهوية اليهودية لهذا الوجود . والولايات المتحدة لن تكون حيادية في النزاع العربي الاسرائيلي وخاصة في النزاع الاسرائيلي الفلسطيني الا اذا اصبحت الامة العربية قادرة على فرض الحل الجذري الذي طالما نادينا به بالنسبة الى القضية الفلسطينية وبالنسبة الى مصالح الولايات المتحدة فعلا لو استمر حظر البترول ولو استمر القتال لكانت هناك أصوات في الولايات المتحدة تنادي بضرورة تغيير هذا الموقف ، ولما اكتفت الولايات المتحدة بالاصوات الاقلية الضئيلة من المسئولين الامريكيين مثل فولبرايت . لكن نحن ندرك تماما مصير فولبرايت اذ فشل في الانتخابات حتى بولايته وقد يكون من اسباب فشله الرئيسية هو الموقف الذي اتخذه بالمناداة بضرورة اتباع سياسة متوازنة بالنسبة الى العرب والاسرائيليين في المنطقة . امريكا لن تكون حيادية بالنسبة للنزاع بين العرب واسرائيل الا اذا كان لدى العرب القدرة الفعالة لاجبار الولايات المتحدة على تغيير طبيعة العلاقات القائمة أمام الردة اليمينية التي تجتاح المنطقة ، امريكا ستصبح أكثر التزاما بمساندتها لاسرائيل من أية فترة مضت .

د. كلوفيس مقصود : اولا بعد حرب ١٩٧٣ جاءت النتائج مبتورة وليست نتائج حاسمة . هذا ادى الى ان تنعكس هذه النتائج المبتورة على تبديل في المنهج الامريكي في التعامل مع العرب أكثر مما غيرت في الالتزامات الاساسية نحو اسرائيل وكان نتيجة هذا التبدل في أسلوب التعامل مع العرب انه نشأ عند بعض القيادات العربية توقعات عن احتمالات تغيير في السياسة الامريكية . وكان لا بد للسياسة الامريكية ان تشجع هذه التوقعات دون ان تعطي أية نتيجة . فكانت محصلة هذا التشجيع في الشكل والاستمرار في الالتزام في الجوهر أن تغيرت مفاهيم المرونة العربية في الاستجابة لهذه التغيرات في الاسلوب الى نوع من الميوعة في الموقف العربي ازاء مجابهة الضغوط الامريكية. لذلك كان لا بد ان يحصل في التقييم العربي اهتزاز في وحدته أي ان التقييم العربي فقد قدرته على وحدة التقييم وبالتالي اجاز للتحايل اللفظي في السياسة الامريكية الذي يجيء بالتبدل المنهجي في التعامل ان يعطي الثغرة المطلوبة في الواقع العربي كي تناور الولايات المتحدة في نوع من سياسة التفريق بين المجابهة العربية الاسرائيلية المصيرية من جهة وبين العلاقات الثنائية المستجدة بين دول عربية وبين الولايات المتحدة . ان حرب تشرين جاءت ايضا لتخلق رصيدا حقيقيا لانظمة عربية اعتقدت ان ارجاع المصداقية لكلمتها يعطيها حق واهلية القيادة على المستوى المصيري . ولذلك كانت الولايات المتحدة تشجع هذا الرصيد النسبي الذي تحقق اثر قدرة العرب على استعمال عقوباتهم أكان من خلال فرض حظر النفط ام من خلال القدرة القتالية . ارادت اميركا ان توجد من هذا الرصيد السياسي مدخلا للتخلي عن الاهداف القصوى لحركة التحرير العربي وان تدخلنا من خلال اسلوب المرونة الى تمييع الاهداف المصيرية للعرب . من هنا نشأت

في الولايات المتحدة قدرة على المناورة داخل المنطقة العربية . فمن جهة لا يمكن لنا الا أن نسجل انه نشأ مثلا في اوساط المقررين الامريكيين واوساط صانعي الراي في الولايات المتحدة تبدل في التقييم العام . ان ما حصل في الولايات المتحدة هو انها تجاوبت مع النتائج المبتورة وجيرتها لصالح الاهداف الحقيقية المعتدلة لاسرائيل .

ماذا كانت الاوضاع قبل ذلك ؟ لم يكن هناك في الولايات المتحدة اهتمام حقيقي بأزمة الشرق الاوسط الا من خلال الالتزام الامريكي بالأهداف الاسرائيلية . الا أن حرب أكتوبر حولت الى حد ما الاهتمام الامريكي العام بأن يكون التزاما بالوجود الاسرائيلي كدولة يهودية وليست بالضرورة باستمرار الالتزام بالاهداف القصوى للدولة الاسرائيلية . هذا بحد نفسه يشكل احتمال تبدل موضوعي ليس في الالتزام الامريكي الاساسي بل في مدى الالتزام الامريكي . هذا بدوره ينتج عن عاملين أو ثلاثة عوامل اساسية : أولا ، ثبت ان لدى العرب طاقة على القتال . وثانيا ، ثبت احتمال صدق العقوبة العربية وان الانظمة تخضع للضغوط الشعبية بفرض حظر النفط ، ان اسعار النفط اصبحت تشكل عاملا أساسيا في مستقبل أزمة الطاقة في الولايات المتحدة . وثالثا ، ان مسألة تعدد تمثيل الشعب الفلسطيني لم تعد ممكنة . هذه العوامل اذا ثبتت مصداقيتها لا بد ان تجعل من الالتزام الامريكي للاهداف الاسرائيلية التزاما مخففا لهذه الاهداف ولكنه التزام مستمر بالوجود الاسرائيلي .

ماذا حصل لمجابهة مثل هذه الاحتمالات العربية ؟ حصل ان الولايات المتحدة حاولت ان تضغط بشتى الوسائل على بعض الانظمة العربية حتى لا تؤدي المصداقية المستجدة للعرب الى نتائجها المنطقية . وهنا كان ما سمي احتواء القدرة العربية في احداث التغيير لا في الاسلوب بل في جوهر الالتزام العربي ثانيا . حدث ان المعاقبة العربية لم تكن معاقبة بالمعنى المطلق . كانت معاقبة جزئية مؤقتة . وحدث ان قدرة الاستمرار العربي وقعت الى حد ما نتيجة الضغوط الامريكية . فمثلا ان وزير خارجية الولايات المتحدة هنري كيسنجر اقنع المسؤولين العرب اثناء زيارتهم انه لن يكون باستطاعة الولايات المتحدة ان تمارس ما سماه بالضغوط الامريكية على اسرائيل لكي تمتثل جزئيا لمقررات مجلس الامن ٢٤٢ الا اذا أزاح العرب قرار حظر النفط لانه ، كما قال للمسؤولين في بعض العواصم العربية الرئيسية ، انه هو لن يستطيع مجابهة الكونغرس الامريكي اذا ما قام الكونغرس بضغط على الرئيس نيكسون من خلال فضيحة ووترغيت من جهة وان يستشري الضغط الصهيوني عليه ايضا فهو يريد ان يعزل السياسة الخارجية الامريكية عن ثغرة النزيف الداخلي الذي يتأذى اثر فضائح ووترغيت . ولذلك فان قرار رفض حظر النفط الذي كان مؤقتا ان يجيء فور مؤتمر الجزائر المصغر ولكنه أجل كان نتيجة قناعة عربية رسمية بأن كيسنجر لا يستطيع (وهذا هو ما اعني بالتوقع العربي) أن يمارس ما يتوفر له من امكانيات الضغط اذا جابه البعد الصهيوني في مقاومة الرئيس نيكسون بالاضافة الى الثغرة الداخلية .

د. فايز صايغ : تعليقا على سؤال حول تحييد امريكا .

يمكن تحييد امريكا بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي بشرطين : أولهما استمرار الفعل العربي في المصادمة مع التأييد الامريكي المطلق لاسرائيل ، يعني استمرار القتال واستمرار ممارسة الضغط البترولي والنقدي والسياسي ضد امريكا ، حتى تشعر انها ملزمة بمجاراة المطالب العربية ولو جزئيا بدلاً من أن تسعى هي لتحويل المطالب العربية كي تصبح هذه منسجمة مع الموقف الامريكي . والشرط الثاني : اذا قبل العرب المستسلمون بأن يحددوا معنى التحييد الامريكي في اطار قبولهم باستمرار الالتزام

الامريكي بوجود اسرائيل كدولة يهودية واستمرار دعم امريكا لهذا الوجود اليهودي الخالص في أرض فلسطين المحتلة . بأي من الشرطين يمكن الوصول الى مرحلة يقال معها : « لقد حيدت امريكا » ، ولكنها بالشــرط الثاني لا تكون حيدت بالقيــاس الى المطالب العربية القومية وانما تكون قد حيدت بالقياس الى المطالب العربية الملطفة . كان العرب في الماضي يقولون ان قرار ٢٤٢ هو أقل حد للمطالب العربية . أصبح اليوم بعضهم يعتقد ان ٢٤٢ هو أقصى حد للمطالب العربية . هذا ما جرى بالفعل : تطويق امريكا للموقف العربي .ولا ننسى ما قاله كيسنجر لبعض زعماء المفكرين اليهود في امريكا. قال لهم : ان اسرائيل بجميع ما تستطيع أن تعطيها امريكا اياه من دعم ، اذا استمرت امريكا في عدائها مع العرب ، فأقصى ما تستطيع ان تطمح اليه هو ان تكون تايوان اخرى . أما اذا عدلت امريكا سياستها واستمالت العرب ولطفت من المطالب العربية عندئذ يصبح لاسرائيل قدرة على الوجود الطبيعي العادي في الشرق الاوسط . بهذا المعنى يمكن « تحييد » امريكا ، ولكنه عندئذ لا يكون تحييداً صحيحا بل يكون تحييدا على حساب المواقف العربية السليمة والاهداف العربية الاصيلة .

سألتم ان هناك من يقول : لماذا لم نعط أمريكا مهلة أطول ؟ وأنا اتساءل هل لدى امريكا وقت كاف للقيام بهذه السرعة البطيئة لايجاد التحويل في الشرق الاوسط ؟ هل لدى نيكسون وكيسنجر وقت كاف على أساس مرور تسعة أشهر لــم يحدث لقاءها سوى انسحاب جزئي محدود لا يتجاوز بضعة أميال ؟ هل نريد ان ننتظر سبع سنوات أخرى ؟ أي هل ننتظر بعدما يطير نيكسون أو بعدما يطير كيسنجر او بعدما يطير الاعتمــاد الأمريكي على النفط العربي وعندئذ تزول من يدنا القدرة على الضغط ؟ هل لدى امريكا الوقت وهل لدينا نحن الوقت ؟ ان المستفيد الوحيد من المهلة الاطول هو اسرائيل التي كلما ابتعدت عن تشرين ١٩٧٣ كلما خف استعدادها لايجاد تعديلات جزئية على موقفها من العرب لا سيما وان امريكا في هذه الاثناء ماضية في اغداق عطائها على اسرائيل مالا وسلاحا وعونا سياسيا دون احتجاج عربي . واذا قيل ان امريكا في الوقت عينه بدأت تعطي لبعض الدول العربية مساعدات فأقول ان جميع ما وعدت به مــن مساعدات عربية أقل مما أعطته فعلا في هذه الاثناء لاسرائيل وحدها . هذا علما بأن الدول العربية ليست في حاجة الى المساعدات المالية الامريكية .

ولا ننسى أيضا ما قاله كيسنجر للجنة الشؤون الخارجية أخيرا : اننا نعطي العرب قليلا كي نشجعهم على الاستمرار في السياسة المعتدلة (أي الاستمرار في تقليص مطالبهم والوقوع في فخ الموقف الامريكي الجديد الذي هو استمالة العرب للتنازل عن مطالبهم كي تبدو امريكا وكأنها اصبحت هي المحايدة في النزاع بين العرب واسرائيل) .

د. نبيل شعث : هل تدخل هنا الضجة التي ثارت حول اعطاء مصر مفاعلات نووية ؟ ألم تعتقدوا انها لا تشكل أي تغيير ؟

د. فايز صايغ : اولا لم نر هذا يظهر الى حيز الوجود بعد . ومن الآن حتى سنة ١٩٨٠ سوف تحدث أمور كثيرة قد تحمل أمريكا على التراجع عن هذا الوعد . ولكن ، بقطع النظر عن هذا ، اقول أن ما وعدت أمريكا بتقديمه لمصر قد وعدت اسرائيل به أيضا ، بل وبأكثر منه .

الاستاذ سعدات حسن : أعتقد أن اعطاء مصر المفاعل او القدرة النووية ومساعدة مصر نوويا سيكون هو الضوء الاخضر لاسرائيل لامتلاك او تفجير ما عندها من قنابل ذرية وسيكون هذا هو الشرعية التي تعطى لامتلاك اسرائيل للاسلحة النووية .

د. هشام شرابي : من الواضح ان النجاح الذي احرزته الدبلوماسية الامريكية يتركز

بالفعل على نجاح ضغط امريكا نفسها على العرب كوسيط محايد بين صديقين هما من ناحية اسرائيل ومن ناحية أخرى بعض الدول العربية . عندما كان كيسنجر في القاهرة سأله هيكل في حديث صحفي عن سياسة امريكا نحو القضية العربية ومقارنتها بموقف الاتحاد السوفييتي. وقال له كيسنجر بالحرف الواحد : « الاتحاد السوفييتي باستطاعته أن يقدم لمصر السلاح للحرب اما الولايات المتحدة فباستطاعتها ان تقـدم لمصر والدول العربية الحل العادل لقضية فلسطين » . بكلام آخر الاختيار أمام العرب كان استمرار القتال أو وعد امريكا بالحل العادل عن الطريق السلمي اللاقتالي وقبـول الوساطة الامريكية المبنية على صداقتها مع اسرائيل . الموقف الفيتنامي يلقـي ضوءا على هذا الواقع : الجنرال جياب قال بالحرف الواحد أيضا : « نحن نقاتل أمريكا وسندحرها عسكريا ، لا سياسيا وحسب » . وبالفعل امريكا دحرت عسكريا وطردت من فيتنام . القول بأننا لا نريد أن نحارب اسرائيل لان أمريكا تدعم اسرائيل ، هذا القول يعني اننا لا نريد الحرب . ولذلك القبول بعدم الحرب هو وضع أنفسنا في أيدي الامريكيين .

د. فايز صايغ : ان مجرد قبول العرب بالمبدأ الكيسنجري القائل بأن امريكا وسيط بين صديقين أحدهما اسرائيل الصهيونيـة والثاني الدول العربية فيمـا عدا الشعب الفلسطيني ، ان مجرد قبول العرب بهذا المبدأ ينطوي على تنازلين أساسيين عربيين : أولهما ، التنازل عن رفض الوجود الصهيوني في فلسطين المحتلة . والثاني ، التنازل عن وجود الشعب الفلسطيني كشعب ذي حقوق وطنية قائمة بذاتها . وبالتالي فان مجرد قبول العرب بالمبدأ الكيسنجري هذا ووصفهم اياه بأنه موقف حيادي هو في الواقع تنازل عن المقياس الذي بموجبه كنا في الماضي نقـول ان امريكا غير محـايدة بين العرب واسرائيل . مرة أخرى أقول : ان امريكا قد طوقت النصر العربي ، فحمـلت بعض قياداتنا على التنازل عن المطالب العربية ، ولم تبدل هي سياستها .

د. كلوفيس مقصود : أعتقد فيما يتعلق بموضوع التحييد بالاضافة الى ما أشار اليه الاخوة ، أريد أن اقول اننا على المستوى الرسمي تصرفنا وكأن قطع العلاقات السوفييتية مع اسرائيل كان معاقبة دبلوماسية للسوفييت . بينما كوفيء التزام الولايات المتحـدة لاهداف اسرائيل ومساعداتها لها دبلوماسيا بالوجود الامريكي على هذا المستوى وفي انجاز هدف استراتيجي امريكي وهو تقليص الوجود السوفييتي وتقوية الهيمنة الامريكية في المنطقـة . لقد كان الالتزام الامريكي بأهداف اسرائيل سبيلا لابعاد السوفيـات عن المنطقة بدل أن يؤدي على الاقل الى ابعـاد الهيمنة الامريكية . تمكنت الحكومات العربية ان تدخل في وهج احتمالات التحييد الامريكي لان التحييد أصبح ممكنا ما دام هناك تخل أساسي من قبل الانظمة العربية عن التزاماتها الوطنية والقومية . هذه نقطة . والنقطة الثانية هي الى حد ما نقطة مستقبلية ، ورغم أنها ليست مرتبطة بموضوع التحييد بشكل مباشر الا أن لها علاقة أساسية به وهي ان بعض الطموح العربي من قبل بعض الانظمة هو أنه اذا تمكنا ، بعد اسقاط جوهر القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني يمكن لنا ان نحقق ما يسمى بالتوازن بين العرب واسرائيل . نحن نقول والالتزام بالقضية الفلسطينية مدخل عربي انه لا يمكن للملتزمين بالثورة الفلسطينية مطلقا ان يقبلوا بنظرية التوازن لانه لا يمكن موازنة قوى ليست متوازية لا جغرافيا ولا مصيريا ولا اقتصاديا ولا بشريا ناهيك بالناحية الحقوقية . ومن هنا حتى هذا المطمح العربي الذي يتوهم بالتحييد من أجل ايجاد التوازن بعد اسقاط الحقوق الاساسية ، ليس له رد عربي الا المزيد من الالتزام بجوهر القضية الفلسطينية ، ليس فقط مـن الناحية الاخلاقية الوطنية القائمة على ان للشعب الفلسطيني حقوقا بل من ناحية المصير القومي للعرب . هذه معطيات واقعية بالنسبة لنا وليست معطيات رومنطيقية. فلدينا ،

نحن العرب ، في العشرين سنة القادمة ، طاقات بشرية وطاقات اقتصادية تؤهلنا في أسوأ الاحتمالات لان نجعل من اسرائيل في أسوأ الاحتمالات تايوان في الامة العربية اذا توفرت لدينا على مراحل الامور التالية : اذا أجيز هذا التعبير نوع من « القومية الاقتصادية » حيث تتوجه مواقع الغنى العربي ، المواقع الجغرافية للثروة العربية ، بشكل أولي نحو معالجة مواقع الفقر العربي بدلا من أن يحصل ما هو حاصل الان حيث يوظف ما يقرب من الثمانية بلايين دولار من الثروة السعودية مستقبلا في البنوك والاستثمارات الامريكية سنويا . ثانيا ، يمكن لهذه « القومية الاقتصادية » أن تتوجه نحو انشاء هياكل وبنى للوحدة الاقتصادية العربية . هذا ممكن على أساس عودة الثقل العربي والوحدة العربية من خلال المدخل الذرائعي الاقتصادي بالاضافة الى المدخل السياسي والقومي التقليدي . ثالثا ، اننا بدأنا مرحلة تاريخية خاصة بعد حرب ١٩٧٣ . قبل ذلك كان التنظيم الاسرائيلي في مواجهة الفوضى العربية . اما الآن ، فقد بدأت تظهر الى حد ما بوادر تنظيم عربي وبدأت بوادر فوضى داخل المجتمع الاسرائيلي . السياسة الامريكية نفذت الى احتمالات هذا التبدل فسعت الى تطويقها . ومن هنا كانت المؤشرات فأوقفت الولايات المتحدة سريان الفوضى الاسرائيلية من خلال وقف اطلاق النار واستمراريته واعادت الفوضى العربية بعد أن كانت بوادر التنظيم العربي قد أخذت تنمو . عادت الفوضى وكان البيان المصري الاردني دليلا واضحا على استشراء الفوضى والعودة الى ما قبل ١٩٧٣ . الى حد ما اصبح بامكاننا ان نقول ، رغم انه قد يكون بعض الغبن في تفاصيل ما سأقوله ، ان البيان المصري الاردني ، فيما يتعلق بأهلية منظمة التحرير كان ، كأنه لم يكن لحرب تشرين أية فوائد ايجابية بالنسبة للعرب ورغم ان في هذا الحكم بعض الظلم في التفاصيل فانه سيكون صحيحا من الناحية الموضوعية والتاريخية اذا لم يعدل الموقف المصري ويصحح .

د. نبيل شعث : يمكن القول اذا انه كانت هناك احتمالات لتغيير السياسة الاستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط . ما حدث بعد ١٩٧٣ من قدرة فعلية على القتال الحربي والفعال لأول مرة من ١٩٤٨ ، ومن استخدام العرب للعقوبة النفطية والنقدية وللضغوط السياسية ، كان قد احدث فعلا على المستوى الامريكي والدولي . كان قد استثار النزعات الاستقلالية في أوروبا واليابان وافريقيا ودول عدم الانحياز ، كان قد أدى الى بعض التغيرات الدولية والعربية والامريكية . ولكن هل تعتقدون ان هذا قد أحبط نتيجة التغير في السياسة العربية ونتيجة نجاح امريكا في احتواء النتائج الايجابية لحرب تشرين وما ترتب على تلك الحقيقة أيضا من احتواء للتطلعات الاستقلالية الاوروبية واليابانية والافريقية والاسيوية . واننا الآن في وضع لا يمكن القول بأنه يمثل تحييدا لامريكا او تغييرا في استراتيجية امريكا لصالح العرب . هل هذه هي قناعة المجموع أم أنكم تحبون ان تضيفوا اليها شيئا ؟

الاستاذ سعدات حسن : أعتقد أن ما قلته صحيح . وسأتعرض فقط للناحية السياسية الدولية . كانت الولايات المتحدة معزولة او تكاد تكون شبه معزولة دوليا في موقفها المساند لاسرائيل والذي كان ضد المصالح العربية على الصعيد الدولي . ففي الدورة السابقة للامم المتحدة وجدت الولايات المتحدة نفسها الوحيدة التي تؤيد اسرائيل الى جانب سبع من دول البحر الكاريبي . وهكذا كانت مهمة كيسنجر والدور الذي لعبته الولايات المتحدة هو انها خرجت من العزلة التيكانت مفروضة عليها دوليا منأوروبا ومن افريقيا ومن دول عدم الانحياز لتصبح هي الوسيط المقبول من الطرفين عربياواسرائيليا. فالنفوذ الامريكي الدولي نتيجة جهود اسرائيل وقبول العرب لكيسنجر ولنيكسون في سياسته أخرجت امريكا من عزلتها .

د. نبيل شعث : لعلنا تعرضنا في اثناء الحديث للتغيرات الامريكية الاساسية بشأن القضية الفلسطينية ، ولكن أحب أن أسالكم عــن رأيكم في التوجه الامريكي تجــاه الفلسطينيين بشكل مباشر والذي نتج عن العلاقات السوفييتية الامريكية بالاساس من حيث التوجه نحو مصالح الفلسطينيين، والحديث عن احتمال الاعتراف بكيان فلسطيني، والحديث عن تطوير مفهوم المصالح الى حقوق الى غير ذلك ... فاذا أحببتم أن تعلقوا على هذا الموضوع لاننا لم نتعرض اليه بشكل مباشر .

د. فايز صايغ : اننا حين نتاثر بالبهلوانيات اللفظية ونسمح لهــا بأن تطغى على المعنى الجوهري للالفاظ نكون قد خدعنا أنفسنا . المهم ان أمريكا ، سواء تحدثت عن « المصالح » الفلسطينية ، كما تتحدث اليوم ، أو عن « الاماني الفلسطينية المشروعة »، كما كانت تتحدث في أوائل السبعينات، فهي ترفض الحديث عن « الحقوق الفلسطينية ». وان الاستمرار في رفض الحديث عن الحقوق أهم من الانتقال من الاماني الى المصالح . لانه حيث لا حقوق فالمصالح المشروعة تظل مبتورة والاماني المشروعــة يظل تقييمها مبتورا . ان امريكا لم تصل الى مرحلة القبول بوجود شعب فلسطينــي كشعب قائم بذاته . ثم انها لا تعتبر ان لهؤلاء الفلسطينيين (الذين لا تعتبرهم شعبا) حقوقا وطنية . ثم انها ترفض القبول بمبدأ حق الشعب الفلسطيني بالثورة . وبالتالي فهي تصف كل ما يقوم به الشعب الفلسطيني من أعمال ثورية بأنه ارهاب غــير قانوني ضد الشرعــة الدولية . وبالتالي فكل تطور في الالفاظ ، ما لم يصل الى مرحلة القبول الجوهري ، بوجود الشعب وبوجود القيادة الموحدة للشعب وبوجود الحقوق الوطنية للشعب ، بما في ذلك حق الثورة وحق تقرير المصير — ان كل تطور ما لم يصل الى هذا الحد يظل تطورا مبتورا لا قيمة له في نظري .

د. هشام شرابي : هناك نقطتان اساسيتان : في الموضوع الاول هي كما ذكرت سابقا هو أن أمريكا من حيث سياستها الرسمية فانها لا تعترف بوجود شعوب دون تمثيل على مستوى حكومة . اذن بالنسبة لامريكا كل حركة تحرير شعبية هي شيء لا معترف به ويجب محاربته والقضاء عليه أو احتواؤه او حله بشكل من الاشكال . لذلك، بالنسبة الى الشعب الفلسطيني ، ان الموقف الامريكي ذو وجهين ، الوجه الايديولوجي العام وهو المنبثق عن العنصرية الامريكية المتأصلة تجاه كــل الشعوب اللاغربية ، خصوصا الشعوب الاسيوية والافريقية . ونحن بالنسبة الى الامريكيين شعب اسيوي على غير مستوى شعوب أوروبا وأمريكا أو الشعب الاسرائيلي . والوجه الآخر هو اننا سياسيا لا وجه لنا كفلسطينيين لان ذلك بالنسبة لهم تقرره علاقة وموازين القوة . لقد فرض الفيتناميون ارادتهم على الامريكيين وانتزعوا اعتراف الامريكيين بقدرتهم على القتال . ونحن كذلك طالما نقاتل ونحمل السلاح فلنا وجه سياسي حقوقي . لكن عندما نضع البندقية جانبا يغيب هذا الوجه . النقطة الثانية هي ان من احدى عناصر النجاح الاساسية للدبلوماسية الامريكية في منطقتنا العربية هــي فرض قبول وجهة النظــر الامريكية لطبيعة النزاع العربي الاسرائيلي على الدول العربية نفسها .

ما هو الموقف الرسمي للدول العربية تجاه الفلسطينيين ؟

يتمثل هذا الموقف بصيغة معادلة غامضة مموهة وهي « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » . وهذا الغموض بالنسبة لامريكا هو الشيء المقبول . ان الموقف الرسمي العربي تجاه الشعب الفلسطيني على المستوى الحقوقي هــو نفس المستوى الرسمي الامريكي . وعندي ملاحظة أخيرة . يقول الامريكان : « ان موقفنا تجاه الفلسطينيين

سيتحدد بموقف الدول العربية تجاه الدور الذي سيلعبه الفلسطينيون في المرحلة الدبلوماسية القادمة » . لذلك فان الضغط غير المباشر الذي يضعه الامريكان الآن على القيادات العربية يرمي بالفعل الى تحديد الدور الدبلوماسي الذي تود امريكا فرضه على الفلسطينيين لحل القضية الفلسطينية من ضمن قرار ٢٤٢ الذي لا يأتي على ذكر « حقوق الشعب الفلسطيني » .

د. فايز صايغ : أريد فقط أن أذكر بأن ما تحدث عنه الدكتور هشام حول الوجه الايديولوجي للسياسة الامريكية له استثناءات في تاريخ الدبلوماسية الامريكية . فمثلا عندما كان اليهود في فلسطين مقاتلين وليست لهم دولة وليست لهم حكومة ولا تمثلهم سوى الوكالة اليهودية كانت أمريكا مع ذلك تفاوض الوكالة اليهودية وكأنها دولة قائمة وتؤيد قيام دولة يهودية في فلسطين . انما المقياس الذي طبقته على اليهود ترفض تطبيقه على الفلسطينيين . فهي ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية قياسا على اعترافها بالوكالة اليهودية قبيل قيام اسرائيل .

د. كلوفيس مقصود : اعتقد ان التباين الحقيقي يقوم على المسألة التالية : هل القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للالتزام العربي أم لا ؟ اذا كانت هي القضية المركزية ، عندئذ فان لدى الدول العربية القدرة الكافية لان تجعل من القضية الفلسطينية قضية مركزية بالنسبة للعلاقات الامريكية العربية . لكن الحقيقة ، وأكاد أقول المأساوية ، ان القضية الفلسطينية ، كقضية ، لم تعد مركزية بالنسبة للدول العربية وانما تحولت أو تقلصت الى مشكلة الفلسطينيين المستمرة وانه اذا كان باستطاعة ما يسمى بالمرونة العربية ، والملتزمون يسمونها الميوعة العربية ، ان تنتزع حلولا أفضل لمشاكل الفلسطينيين فان هذا يشكل صيغة مقبولة معتدلة اذا أردتم رفع باب العتب عن الانظمة العربية في استمراريتها واتجاهها نحو الحل المطلوب . قبل أن نستمر في الحديث عن المجابهة الامريكية يجب أن نسأل انفسنا : هل تحولت الدول العربية عن اعتبار القضية الفلسطينية قضية حقوق ام ان الدول العربية قبلت او ابدت استعدادها للقبول ولو لبعض الوقت بأن هذه المشاكل للفلسطينيين ولا بد من مخاطبة الفلسطينيين على اساس من « الواقعية » حتى يتحدد لهم حد أقصى من المصالح ؟

المنعطف الخطير الذي يمثله البيان المصري الاردني هو انه ليس فذلكة مرحلية قام بها التفسير المصري للوضع السياسي الراهن بالنسبة للتكتيك والمرونة والواقعية بأن الفلسطينيين يجيئون في مرحلة لاحقة الى مؤتمر جنيف والنقطة الاساسية ان الشعب الفلسطيني — العناصر القيادية للشعب الفلسطيني — لم تعرض خلال هذا البيان المسلمة التي كانت هي قائمة حتى البيان المصري الاردني لذلك ، رغم ان التراجعات في التفسير المصري للبيان يزيل بعض الالتباس وبالتالي يشكل خطوة ايجابية الا ان التفسير ليس له قيمة الوثيقة الرسمية التي يشكلها البيان انه لا يجوز مطلقا ان يحصل أي خلل حقيقي بين منظمة التحرير الفلسطينية والدولة العربية الاكبر في الامة العربية الا ان هذا لا يعني مطلقا بأن الدولة الاكبر قادرة ان تملي على القضية الاكبر شروطا تقلصها ومن هنا نحن قد نكون بحاجة ملحة الى هذه المواجهة الذاتية التي تشكل مصر الدولة وليس مصر الثورة جزءا من هذه المواجهة . من أين نشأ هذا الخلل ؟

د. نبيل شعث : الحقيقة اننا دخلنا في الموضوع الاساسي وهو العلاقة بين موقف الانظمة العربية وموقف الثورة الفلسطينية والموقف الامريكي . لان دكتور كلوفيس شدد عليها فعلا وهو الموضوع الذي كنا نريد أن ننتهي به لانني كنت في الحقيقة افضل تأجيله قليلا . لكن ما دام الموضوع قد طرق ، اتساءل ما اذا اراد احد ان يضيف الى ذلك الموقف

حتى نستطيع أن نعود مرة اخرى الى بعض الجزئيات التي لم نغطها حتى الان . مثلا الموقف الشعبي في امريكا وهل تغير بعد ١٩٧٤ . تحدثنا عن الموقف الرسمي أحب ايضا ان نتحدث ولو قليلا عن تغير الاستراتيجية الامريكية تجاه الاردن كجزء هام من اجزاء القضية لكن اذا أحببتم ان نكمل النقطة التي طرقها الدكتور مقصود وبعد ذلك نعود الى الاسئلة التي طرحتها .

الاستاذ سعدات حسن : كانت نظرة الولايات المتحدة تجاه الشعب الفلسطيني او الفلسطينيين تعتمد على ادراك الولايات المتحدة قبل ١٩٧٠ بأن الفلسطينيين قادرون على وضع فيتو على أية تسوية في المنطقة . هذه القدرة قد ضعفت نتيجة ما حصل في الاردن . والآن يدرك الامريكيون ان الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية قد ذابت في قرار ٢٤٢ فأصبح هذا هو أعلى مطلب قومي على الصعيد الدولي للشعب الفلسطيني . وما زال الامريكيون يسعون لتخفيف هذا المطلب . واعتقادي ان الولايات المتحدة ستستمر في النظر للقضية الفلسطينية في اطار تمييع هذه القضية واعتبارها قضية هامشية في العلاقات الرسمية الامريكية مع الدول العربية .

د. فايز صايغ : أريد ان اعالج الموضوع نفسه من زاوية اخرى . منذ حرب تشرين تبلورت صيغة عربية للمطالب العربية بالنسبة لما يسمى قضية الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية ، وهي الصيغة التي تضم المطلبين اللذين كثر تكرارهما ، اي الانسحاب الاسرائيلي من كل شبر من الارض العربية المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . فكانت بلورة هذه الصيغة من الجانب العربي خطأ لاننا عندما نقول اولا ان مطالبنا هي الانسحاب الاسرائيلي من كل شبر من كل أرض عربية تحتلها اسرائيل ثم نطالب ثانيا بتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، فاننا نستعمل مقياسين مختلفين بالنسبة لاراضي الدول العربية المحتلة وارض فلسطين المحتلة . كأنما نقول اننا لا نرضى ببقاء اي شبر من الارض السورية او اي شبر من الارض المصرية تحت الاحتلال الاسرائيلي ولكننا نقبل ببقاء الجزء الاكبر من الارض الفلسطينية تحت الاحتلال الاسرائيلي ! واذا شئنا ان نحسن الظن ، فنقول : لعله ليس الامر أمر استعمال مقياسين بمقدار ما هو استعمال نقطة ابتداء خاطئة . يعني ان نقطة الابتداء قد أصبحت عام ١٩٦٧ : فكل ما احتلته اسرائيل بعد ١٩٦٧ سواء من الاراضي العربية او من الارض الفلسطينية يجب ان تجلو عنه ولكن ليس ما احتلته اسرائيل بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ . لقد أصبحت هذه الصيغة العربية صيغة مكررة ومقبولة وتطرح في الاوساط الدولية وكأنها هي المطلب العربي والمطلب الفلسطيني مع ان في هذه الصيغة غبنا بالحقوق الوطنية الفلسطينية وتنازلها عن الموقف العربي التقليدي من القضية الفلسطينية . هذا تعقيب على ما قاله الدكتور كلوفيس سابقا .

د. نبيل شعث : مرة أخرى نعود الى بعض الجزئيات كما ذكرت ثم ننتهي مرة اخرى بما يجب ان نفعله حيال امريكا . مثلا احب ان اسمع وجهة نظركم في الموقف الامريكي تجاه الاردن نتيجة حرب ١٩٧٣ واثر ذلك على استراتيجية امريكا تجاه القضية الفلسطينية .

د. هشام شرابي : يمكن تلخيص موقف امريكا بعد حرب تشرين تجاه الاردن كما يلي: بعد الحرب الاخيرة أصبحت مصر الدولة العربية التي من خلالها أصبحت أمريكا تتعامل مع الطرف العربي . وفي الوقت ذاته اتبعت أمريكا طريق الاتصال الدائم للاطلاع وتبادل الرأي مع ثلاث دول عربية أخرى تكون الصلب للقوى العربية كما تراها أمريكا ، وهي السعودية ومن ناحية أخرى سوريا والجزائر . اذن سياسة امريكا في كل ما يتعلق

بالعالم العربي تقوم من ضمن اطار هذا التعامل الذي يضع مصر في الدرجة الاولى ويضع السعودية من ناحية ومن ناحية اخرى سوريا والجزائر . اذن سياسة امريكا في كل ما يتعلق بالعالم العربي تقوم من ضمن اطار هذا التعامل الذي يضع مصر في الدرجة الاولى ويضع من خلفها الدول الثلاث الاخرى . أما الاردن فعلاقة امريكا به علاقة براغماتية محضة . اميركا ستدعم وتدعم النظام الاردني بقدر ما ينسجم مع السياسات التي تنسقها مع الدول العربية الاخرى التي ذكرت .

د. كلوفيس مقصود : أعتقد ان الموقف الاميركي تجاه الاردن هو أكثر من مجرد موقف محض دعم ، هو امتداد لحد ما للالتزام الفعلي باسرائيل . ولذلك فان هذا الارتباط او الالتزام الاميركي بالاردن ، بالسلطة الهاشمية الاردنية هو امتداد أو فرع من الالتزام الاميركي لما يسمى بالمفهوم الاسرائيلي لامن اسرائيل . أما محاولة التعادل الاميركي من خلال ما تسميه الولايات المتحدة بالانظمة المعتدلة في المنطقة ، ومن خلال مصر بالذات ، فهي ان التسوية السلمية مع اسرائيل تستوجب تعديلا مبدئيا في الموقف العربي الاعتدالي يقوم على فك العزلة الاردنية السابقة لان فك العزلة عن السلطة الهاشمية في نظر الولايات المتحدة ضروري للاسراع بالتسوية . يستتبع ذلك ان البعد الفلسطيني من خلال المنظمات يصبح بعدا معرقلا للتسوية . ولذلك فاذا كانت الدول العربية مضطرة لمسايرة التزامها بمنظمة التحرير عندئذ يمكن للولايات المتحدة والدول العربية ان تتصور منظمة التحرير احدى الاطراف في مراحل لاحقة من مراحل تنظيم التسوية . لذلك فالاردن يشكل ناحية او زاوية من حساب الالتزام الاميركي بالامن الاسرائيلي الاساسي . صحيح حين أكد مثلا مؤتمر القمة العربي اهلية منظمة التحرير ان تكون الممثلة الشرعية الوحيدة للشعب الفلسطيني ، كان هناك احتمال تعديل في الموقف الاميركي تجاه الاردن اذ انه كانت هناك بادرة بأن يصبح الاردن معوقا لما سمي بالاعتدال العربي . لكن النظرية الامريكية رجحت على قرار مؤتمر القمة وبالتالي عاد النظام الاردني الى جدواه كأحد المفاصل الاساسية للتسوية السلمية . لذلك فان التزام الولايات المتحدة بالاردن ليس جزءا من تعامل الولايات المتحدة مع العرب بل هو جزء من اقناع العرب باعطاء أهلية للاردن بغية التعجيل في التسوية . اذا السلطة الهاشمية هي الخيار المفضل عكس ما اكدته القمة العربية بأن منظمة التحرير هي الخيار المفضل. كانت هذه نقطة تصادم بين الانظمة العربية والسياسة الاميركية فجاء البيان المصري الاردني يهز الموقف العربي في هذا المضمار ويرجح النظرية الاميركية . هناك نقطة صحيحة قالها دكتور شرابي وهي ان كان هناك بعد حرب تشرين احتمال تخلي اميركي عن السلطة الاردنية لو أكد العرب التزامهم بمنظمة التحرير كالتزام مطلق وليس كاستنساب مرحلي ، ولذلك فان البيان المصري الاردني هو منعطف خطير لا بد من تصحيحه .

الاستاذ سعدات حسن : لي ملاحظة حول ما قيل : اولا اتفق مع التحليل الذي تقدم به كل من الدكتور هشام والدكتور كلوفيس بالنسبة الى الدول الاربع ان الولايات المتحدة اخرجت بعض الدول التي كانت تعتبر يمينية ووضعتها في منصب الدول المعتدلة وهذا ما اعتقد انه من أنجح المهمات السياسية التي قامت بها اميركا على الصعيد العربي الداخلي الشعبي .

ثانيا : بالنسبة الى دور الاردن ، دور الاردن لم يعد فقط امتدادا لسياسة اميركا تجاه اسرائيل وانما اميركا تعتبر الاردن حاجزا بين الفلسطينيين وسوريا والعراق من الشمال وبين السعودية فبالنسبة للولايات المتحدة الاردن له دور وهو الحفاظ على مصالح اميركا بالسعودية ، اي بالمحافظة على استمرار النظام السعودي في المنطقة .

د. فايز صايغ : بعد كل ما قيل يجوز لي الايجاز . ان الموقف الامريكي من الاردن هو في الواقع امتداد لموقفين . انه امتداد **اولا** : للالتزام الامريكي باسرائيل وامتداد **ثانيا** : للرفض الامريكي للشعب الفلسطيني . فالاردن هي المتممة للالتزام الامريكي لاسرائيل وهي البديل كعنصر من عناصر التسوية عن ارضاء الشعب الفلسطيني في نظر امريكا . ولا ننسى وقد جاء الحديث عن البيان المصري الاردني لا ننسى ما سبق هذا البيان من تطورات واهمها في نظري تطوران **اولا** : دورة المجلس الوطني الفلسطيني **وثانيا** : زيارة نيكسون الى المنطقة . فقرار المجلس الوطني الفلسطيني [رغم ما بدا في قراره من تراجعات مرحلية عن الاهداف النهائية الفلسطينية] اتضح ان اشتراك الفلسطينيين في التسوية لن يكون سهلا بالنسبة للذين يريدون تكييف المطالب العربية وفق المصلحة الامريكية او الرؤية الامريكية فصار لا بد من الحصول على البديل عن الفلسطينيين كي تمشي التسوية . وفي زيارة نيكسون لا بد انه اتضح ان امريكا لن تقبل مبدأ اشتراك الفلسطينيين في التسوية بشروط الفلسطينيين انفسهم . فمن هنا وامتدادا لما قلناه سابقا من ان امريكا لن تكيف سياستها هي وانما عملت على تكييف السياسة العربية وتقليص المطالب العربية كي تتناسق مع سياسة امريكا ومصالح اسرائيل امتدادا لذلك كان البيان المصري الاردني يشكل تراجعا عن صيغة القمة في الجزائر ويشكل ايضا تراجعا عن الرغبة في اشراك الفلسطينيين في التسوية منذ البدء ، اي من لحظة استئناف مؤتمر جنيف .

د. نبيل شعث : **هناك جانب آخر من موضوعنا ايضا يمكن ان نتعرض له باختصار. لقد اوضحنا الابعاد العامة لمسألة احتمالات تغير السياسة الامريكية تجاه اسرائيل ، ولكن هل يمكن التصور ان امريكا ستزيد في المرحلة القادمة من احتوائها لاسرائيل واتباعها لها سياسيا وخاصة في ضوء ما ذكرتم مثلا بعد تولي رابين الحكم وهو يعتبر الى حد كبير رجل امريكا في اسرائيل أم انكم تعتقدون بأن القوى الصهيونية في امريكا لم تفعل بعد فعلها في مزيد من الضغط الاسرائيلي الداخلي في امريكا — هل ستزداد اسرائيل تبعية للاستراتيجية الامريكية أم استقلالية عن السياسة الامريكية ؟ ثانيا : هل تتوقعون ان الاستراتيجية الامريكية في المستقبل ستكون أكثر استعدادا للعطاء لاسرائيل كما هو واضح بعد الحرب ١٩٧٣ وحتى الان وهل مثلا اذا كان هناك احتمال حرب اخرى ستكون امريكا جاهزة للعطاء الهائل لاسرائيل كالذي أعطته اياها في حرب ١٩٧٣ . ان الاجابة عن هذه الاسئلة قد تمكن من القاء بعض الاضواء على العلاقة الامريكية الاسرائيلية المستقبلية واثر ذلك على القضية الفلسطينية .**

د. كلوفيس مقصود : باستطاعتنا القول ان الولايات المتحدة بعد حرب تشرين وبعد فرض حظر النفط وصلت الى تقييم بأن اسرائيل لم تعد هي حامية المصالح الامريكية في المنطقة بقدر ما صارت الى حد ما مصلحة امريكا بحاجة الى حماية الولايات المتحدة . هذا التطور بالنسبة للعرب لا يؤدي الى تغيير جذري في الموضوع الا انه يؤدي الى ان الولايات المتحدة أصبحت أكثر امتلاكا لتقرير سياساتها وتحركاتها في المنطقة من ذي قبل . هذا التبدل في المنهج ياتي انعكاسا لحرب تشرين الاول التي ، في محصلة نتائجها السياسية والعسكرية والتي ان لم تؤد الى ما يسمى بالانتصار العربي فانها أدت الى ان العرب هزموا هزيمتهم التي الحقت بهم عام ١٩٦٧. هذه النتيجة الموضوعية عنت ان الامتلاك الامريكي لمقدرات واساليب سياستها في منطقة الشرق الاوسط عنى بدء اهتمام امريكي موسع بأزمة الشرق الاوسط . واعتقد ان هذا هو عنصر مهم . ولكن من الممكن لهذا العنصر من الاهتمام ان يلوح لبعض العرب بأنه سوف يعني بالضرورة ادخال تغييرات أساسية في الالتزامات الامريكية لاسرائيل . القوى الصهيونية

في الفترة بين تشرين الاول والوقت الحاضر ، وبنتيجة بدء التساؤلات الاساسية الحاصلة داخل المجتمع الاسرائيلي ايضا ، أصبحت أكثر ارتهانا لحقيقة الوضع الاسرائيلي مما كانت وبالتالي نشأ عن ذلك نوع من التنسيق الاكثر توازنا بين الولايات المتحدة واسرائيل كدولة من جهة أكثر من ان اسرائيل نفسها تحدد ما تريده فتأتي التلبية الامريكية بشكل فوري . ماذا يعني هذا بالنسبة للتبعية والاستقلالية . هذا يعني ان هناك استقلالية امريكية في الشكل من أجل تمكين الولايات المتحدة من الاستمرار في تأمين المطالب الاساسية للدولة الاسرائيلية . نتج عن ذلك أمور خطيرة ولكنها لم تعد مرئية بالمقدار المطلوب وبالتالي فان احتمالات التضليل الاميركي أصبحت أكثر ورودا وأكثر امكانية . وهذا ان العلاقات الامريكية الاسرائيلية أصبحت الان خاصة من ناحية المساعدات ومن ناحية العطاء أكثر اتجاها نحو التأسيس وأكثر اتجاها نحو المخطط البعيد المدى مما هو نحو التقطع . فمثلا فان برامج المساعدات العسكرية الان لم تعد من الناحية الزمنية سنوية بل على مدد تتراوح بين الخمس والعشر سنوات القادمة ان هذا يمكن اسرائيل من ان تلطف ، من جهة ، تعبيراتها السياسية العنصرية الحاقدة وان تتأكد من ديمومة الالتزامات الاميركية مهما كانت التحايلات اللفظية الاميركية بالنسبة للموضوعية والحيادية الخ . . . ولذلك فان الوجه التأسيسي في العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل هو من الوجهة الفورية لا يستحوذ او بالعكس يمكن الولايات المتحدة من المناورة وبالتالي التضليل في حين ان العملية الصهيونية والضغوط الصهيونية كانت قوية وكانت الولايات المتحدة مسلمة بها باعتبار ان اسرائيل هي مسألة داخلية امريكية. الان أصبحت الناحية التأسيسية في العلاقات او المعادلة الاسرائيلية الاميركية تمكن الولايات المتحدة من تنفيذ أهدافها الاستراتيجية الاخرى لجهة تقليص النفوذ الصهيوني. استمرار تدفق النفط وتحويل جزء من الاموال العربية المحتملة والمتوقعة الى التوظيف في الاستثمارات الاميركية .

د . هشام شرابي : من الواضح ان اعتماد اسرائيل على امريكا في النطاق العسكري والاقتصادي بعد حرب تشرين أصبح كليا تقريبا . اسرائيل لا صديق لها في العالم الا اميركا . حتى الان ، وباعتراف الاميركيين انفسهم ، اسرائيل لم تتعرض الى اي ضغط مباشر يعكس ثقل هذا الاعتماد . ويقول الاميركيون الرسميون انهم لا يريدون استعمال قوتهم الضاغطة على اسرائيل لتحقيق أمور فرعية طفيفة . حتى يحين الوقت ، اي عندما تثار النقاط الاساسية الحساسة ، وهي قضية الحدود وقضية السلطة الفلسطينية ، وقضية القدس عندئذ ، يقول الاميركيون ، سنستعمل الضغط الذي نعرف انه بحوزتنا . هذا صحيح . الى الان لم تستعمل اميركا ضغوطها على اسرائيل ، ولكن بنفس الوقت لم تستعمل اسرائيل ضغوطها من خلال الصهيونية الاميركية على الحكومة الاميركية . لذلك فان لحظة الحقيقة في هذه المجابهة لم تحن بعد . وسنرى اذا كان باستطاعة كيسنجر ونيكسون او من يخلفه ان يثبت بوجه الضغط الصهيوني عندما يبدأ .

د . نبيل شعث : **في ختام تحليلنا للموقف الاميركي وقبل ان ننتقل الى السؤال ما العمل فقط احب لو أمكن ان نضيف الى نظرتنا للسياسة الاميركية ككل نظرة الى بعض مكوناتها . نحن نتكلم عن اميركا وسياستها كشيء متكامل يمثل وجهة نظر واحدة . لكن هل بالامكان القاء بعض الاضواء على الخلاف داخل امريكا حول استراتيجيتها في المنطقة ؟ هل حدث هناك مثلا تحول شعبي اميركي تجاه القضية الفلسطينية بعد حرب ١٩٧٣ هل هناك فعلا أكثر من قوة اقتصادية مؤثرة داخل السياسة الاميركية هناك من يقول ان رجال صناعة الحديد والصلب والصناعات الثقيلة ورجال البترول وان هؤلاء يريدون شيئا ويضغطون باتجاه والاخرين يضغطون باتجاه آخر هناك مقولات ان وزارة**

الخارجية ووزارة الدفاع (البنتاغون) الاميركية بينهما خلاف هناك من يقول ان سقوط نيكسون وكيسنجر قد يؤدي الى خلاف انا اعرف ان هذا الموضوع يتطلب الكثير ولكن نريد فعلا ان نلقي بعض الاضواء الهامة على هذه المكونات للاستراتيجية الاميركية بسبب رؤية امكانية تغير السياسة اذا تغيرت هذه الموازين الداخلية .

د. هشام شرابي : هناك قاعدة اساسية اود ذكرها دون الدخول في التفاصيل . ان سياسة اميركا تجاه العالم العربي تحددها مقدرة الدول العربية على استعمال قوتها الاقتصادية والسياسية . وبقدر ما تستطيع الدول العربية على استعمال قوتها ، التي تؤهلها بالواقع ان تصبح احدى الكتل الست العظمى في العالم ، تتقرر سياسة اميركا ومواقفها من العالم العربي وقضاياه .

بعد حرب رمضان حصل في اميركا تغير أساسي من حيث التصور والادراك لوزن ومكانة العالم العربي من ناحية ولوزن ومكانة اسرائيل من ناحية ثانية . اسرائيل حجمها اصبح صغيراً في كل الاوساط الاميركية الرسمية ، ومن جملتها العسكرية والخارجية ، وبنفس الوقت أصبح حجم العالم العربي اكبر بكثير مما كان قبل الحرب الاخيرة . أما بخصوص الشعب الاميركي ، فانه صفر على الشمال بالنسبة لعملية تقرير السياسة الخارجية . ان السياسة الاميركية لا يقررها الشعب الاميركي بل تقررها الطبقة الاميركية الحاكمة . الشعب الاميركي لا تهمه الا مشاكله الخاصة، لذلك التساؤل والقلق حول ما يفكر الاميركيون عامة بالنسبة لنا شيء في غير محله . ولماذا لا يفكر الاميركان بما نفكر نحن فيهم ؟ وفي الوقت ذاته لماذا لا نقلق حول رأي الافريقيين او الهنود بنا مثلا ؟ يعني قلقنا على موقف الشعب الاميركي يظهر قلة احترام للنفس وقلة ثقة بالنفس. أكرر ان السياسة الاميركية تقوم على القوة ولا تحترم الا القوة ولا يميزها ولا يؤثر فيها الا مواقف القوة . وكل شيء آخر حكي بحكي ، وان كان للحكي تأثير احيانا . نحن نتعامل مع دولة علاقاتها مع العالم الخارجي قائمة على أسس امبريالية جديدة ، يعني على أسس سيطرة ونفوذ سياسي واقتصادي وهم يريدون ان يستغلوا مواردنا البترولية وان ينهبوا أموالنا وان يضعونا تحت سيطرتهم . هذا هو هدفهم وهذه هي سياستهم ولا يستطيع أحد الوقوف بوجه تحقيقها الا قوة عربية ذكية تعرف ذاتها وتعرف خصمها وتعرف قوتها .

د. نبيل شعث : **فقط تعليق بسيط ، اذا كانت هناك طبقة حاكمة التي تؤثر ونحن متفقون على ذلك هل يوجد حقيقة أي خلاف في المصالح داخل هذه الطبقة بين رجال الصناعة الثقيلة ورجال البترول أو غير ذلك .**

الاستاذ سعدات حسن : ما دامت مصالح الولايات المتحدة في المنطقة لم تتضرر حتى الان ولو شكليا لا يعقل ان يكون هناك أي تغير في سياسة الولايات المتحدة تجاه المنطقة. الولايات المتحدة ادركت ان التغير عمليا وتكتيكيا ولفظيا وايديولوجيا حصل من خلال المنطقة تجاه ما كانت اسرائيل والولايات المتحدة تنادي به أما بالنسبة لاختلاف مصالح الطبقة الحاكمة طبعا هناك اختلاف في مصالحهم بالنسبة الى المصالح الفردية لكن بالنسبة الى مصلحة الولايات المتحدة بشكل عام سواء أكان الجمهوريون في الحكم أم الديموقراطيون سواء بالنسبة الى المنطقة .

د. نبيل شعث : **لو كان استمر حظر البترول مثلا هل كانت توفرت ضغوط شعبية باتجاه تغير السياسة الاميركية ؟**

د. هشام شرابي : كنت في امريكا اثناء ازمة الطاقة . ولكن لم يربط الرأي العام في

اميركا بين الازمة وسياسة اميركا تجاه العالم العربي . لذلك يجب التفكير ليس من ضمن الضغط العام على الشعب الاميركي بل من ضمن الضغط المباشر على الحكم القائم وعلى المصالح الاميركية القائمة في منطقتنا ، أي يجب مجابهة السياسة الاميركية واساليبها من ضمن الاطر السياسية والاقتصادية القائمة . وعلينا ، مثلما قال الاستاذ سعدات ، ان نستعمل قوتنا وان لا نعتمد فقط على اقناع الغير بشرعية مطالبنا .

د. فايز صايغ : هناك مأساة في الرد العربي على تحديات الموقف الاميركي . ففي مرحلة سابقة (يعني في الخمسينات والستينات) كانت هناك لدى العرب ارادة في المجابهة وذلك دون ان تكون قد توافرت للعرب آنذاك القدرة الفعلية الراهنة على مجابهة اميركا مجابهة مؤثرة . واليوم نحن في مرحلة عكس تلك تماما . اليوم تتوافر لنا القدرة الفعلية الراهنة لمجابهة اميركا مجابهة مؤثرة ولكن انظمتنا قد فقدت ارادة المجابهة كما يبدو بعد وقف القتال وبعد رفع حظر البترول . ولست ادري هل هذا لانه ليست لدينا الان قيادات بطولية ذات رؤية وذات جرأة تستطيع ان تستقطب ارادة الامة العربية في المجابهة كي تفعل هذه المجابهة في تغيير الموقف الاميركي ؟ ان الذي حدث هو ان الان ادينا القوة واميركا تستغل هذه القوى التي لدينا كي تحملنا نحن على تكييف مطالبنا وتقليص اهدافنا لتنسجم هذه مع موقف اميركا منا ، وليس العكس .

الاستاذ سعدات حسن : ليس فقط انه ليس لدينا الرغبة في المواجهة وانما لدينا رغبة في المهادنة والمشاركة والتفاعل مع الولايات المتحدة .

د. نبيل شعث : **اذا نختتم هذه الندوة بسؤال ما العمل للقوى الثورية والشعبية والنضالية الفلسطينية والقوى النضالية في الامة العربية ... يعني واضح ان هناك اتفاقا على ان اميركا عدو وعدو امبريالي شرس وانه يجب التصادم مع هذا العدو لا مهادنته في ظل التغيرات التي حدثت في المنطقة بعد ١٩٧٣ في ظل ما شرحتموه من المواقف العربية المختلفة ما الذي تنصحون به الثورة الفلسطينية وقوى الثورة العربية وما الذي تنصحون به المثقفين العرب ؟ ما هو الطريق ؟**

الاستاذ سعدات حسن : بعد حرب تشرين وبعد تفجير الطاقات العربية التي كانت كامنة ، وبعد الادراك ان لدى هذه الامة القدرة على مواجهة قضاياها الاساسية وخاصة القضية الفلسطينية اعتقد انه لا بد من التمسك بأصول القضية والعودة الى الموقف الاساسي الفلسطيني وهو رفض الوجود الصهيوني والاصرار على الدولة الديمقراطية العلمانية التي هي بحد ذاتها اصبحت مقبولة شعبيا لدى أوساط كثيرة تقدمية في اماكن كثيرة في العالم . أما التنكر لها والقبول بأنصاف الحلول في حد ذاته سيخلق ردا عكسيا ودوليا وشعبيا . اذا كان الفلسطينيون على استعداد للقبول بما هو اقل من مطلب اساسي، اذا كان هناك ضعف في الموقف الفلسطيني منذ البداية وهناك احتمال للمساومة اكثر من التمسك بأصول القضية والاصرار على ان هذه قضية شعب وقضية وطن وقضية وجود عربي أو عدم وجود بناء على معرفة طبيعة الغزو الصهيوني وادراك خطره على الامة العربية مستقبلا وحاضرا . اذا كانت هزيمة حزيران جاءت بلا مفاوضة ولا صلح ولا اعتراف فلا يجوز ان تأتي حرب تشرين بقبول اللاءات التي كانت مرفوضة في الماضي.

د. فايز صايغ : ما العمل ؟ اعتقد ان وضوح الرؤية وعدم الخداع بالمظاهر هو شرط للعمل الصحيح . يجب على المثقفين العرب ان لا ينخدعوا أولا بالقول ان اميركا تبدلت ومشت نحو الحياد بيننا وبين اسرائيل ، وثانيا ان لا ينخدعوا بالمبدأ القائل بأن الحياد الاميركي بيننا وبين اسرائيل هو موقف مقبول يجب ان نبتهج به وأن نضع خططنا على أساسه . فاذا كانت قاعدة العمل السليم هي وضوح الرؤية وعدم الانخداع ، فنتائجها

هي عدم الانسياق مع تيار قوامه امران : اولا التأمل بامكانية التسوية السلمية بفضل تأثير امريكا وثانيا الاعتقاد بأن هذه التسوية السلمية في حد ذاتها أمر مقبول ومرغوب به فلسطينيا وعربيا قوميا . يجب ان لا ننساق مع هذا التيار . واذا لم نستطع ايقافه فعلى الاقل يجب ان لا نعطيه بركتنا ويجب ان لا نجاريه فتصبح مجاراتنـا له مشجعا للقائمين به على الاستمرار في تقليص المطالب العربية ومجاراة الاهداف الامريكية . وسيأتي يوم يدرك السائرون الآن وراء التسوية السلمية والمؤمنون بقرب انقلاب الموقف الامريكي لصالحنا ، سوف يدركون فيه بطلان هذا الاعتقاد . فيجب ان لا تعطي الثورة الفلسطينية مباركتها لهذه التيارات المستندة الى الخطأ ، والخاطئة في أهدافها ومراميها.

د. هشام شرابي : في الواقع ، تجاه المأزق الذي نجابهه نحن الفلسطينيون اليوم ، موقفي ، عندما اسأل « ما العمل ؟ » هو موقف الحيرة : اني يوما أفكر في خط ، ويوما في خط آخر ، يوما اشدد على الموقف المبدئي ويوما على ضرورة العمل البرغماتي . انما لا شك في ذهني حول النقاط التالية : أولا ، اننا في كل ما نعمل يجب ان نكون على حذر من الولايات المتحدة . أنا شخصيا لا ثقة عندي بنيات وأهداف الولايات المتحدة فيمـا يتعلق بشعبنا ومنطقتنا . ثانيا : بصفتي خارج العمل الفلسطيني المباشر ، لا استميح لنفسي أن انصح من فوق . ان لي مطلق الثقة بمقدرة قياداتنا الفلسطينية على مجابهة وضعنا الصعب . وبالرغم من انني في بعض الاحيان أتردد في قبول خـط بعض هذه القيادات ، فاني واثق بأن قياداتنا ، اذا ما تفاعلت فيما بينها وبين جماهيرنا الفلسطينية، فانها في الاخير ستتوصل الى موقف واضح حازم . وهذا بالنهاية بنظري هو أهم هدف في الاسابيع القادمة الحاسمة . علينا ان نستخلص سياسة تكتيكية موحدة وأن نضع برنامجا سياسيا واضحا للفترة المصيرية القادمة .

ثالثا وأخيرا : ان جماهيرنا الفلسطينية هي مصدر القرار الاخير في كل مـا يتعلق بمصير القضية الفلسطينية . ولذلك يجب علينا ان نجد الصيغة او الطريقة للتوصل الى تفهم ارادة جماهير شعبنا الفلسطيني حول قضايا المرحلة الراهنة . ولا يمكن لنا ان نأخذ قرارا نهائيا فيما يجري الآن الا بعد سماعنا قول شعبنا والتأكد من دعمه لاية خطة عمل لهذه المرحلة التاريخية من صراعه .

د. كلوفيس مقصود : السؤال ما العمل يجب ان يتواقت بالاجابة مع السؤال ماذا نريد لان المأزق الذي نحن فيه ينبثق من تعدد الارادات على الساحة العربية . ما العمل ؟ إننا اليوم نحن خاصة الشعب الفلسطيني والقوى العربية الملتزمة بقضيـة التحرير الفلسطيني تجد نفسها باستمرار وبشكل متلاحق في مآزق تتلخص كلها في أننا بين أن نكون منسجمين مع التزاماتنا المبدئية وبالتالي فاقدي الفاعلية أو قادرين على الفاعلية وفاقدي الانسجام المبدئي مع التزاماتنا . يجب ان نحرر ارادتنا وشعبنا من هذا المأزق وان نتجه نحو الصعيد التعبوي لان فقدان الانسجام المبدئي يعني فقدان الفعالية العملية والمرحلية . لذلك حتى نمنع هذا التسلسل في المأزق لا بد لنا ان نؤكد في المرحلة الراهنة والقادمة امورا ثلاثة اساسية : اولا مناهضة كل محاولة لاسقاط اهلية منظمة التحرير الفلسطينية لتمثيل كل الشعب الفلسطيني في كل المراحل وعلى كل المستويات ، ثانيا ان نؤكد داخل المقاومة الفلسطينية استمرارية القدرة الفلسطينية على ان تأتي بمحصلة الراي في كل موقف تتخذه لان هذه الوحدة العضوية في الموقف الفلسطيني تؤكد قدرة القيادة الفلسطينية على استمرارية الوحدة العضوية للشعب الفلسطيني . الوحدة الفلسطينية لها مدلول آخر وهو ان وحدة الموقف هي التي تخرج الشعب الفلسطيني والملتزمين بالثورة الفلسطينية من ضرورة ترجيح اما الانسجام مع الإلتزام المبدئي او الالتزام المبدئي ليس بديلا للفعالية الفلسطينية . المشكلة الاساسية الآن هـي اننا في

السعي نحو الفعالية يستحوذ علينا التكتيك وفي سعينا لتأكيد الالتزام المبدئي تستحوذ علينا الاستراتيجية . المهم هو الربط الجدلي بين الانسجام المبدئي وبين الفعالية الراهنة وبين الاستراتيجية وبين التكتيك . هذا داخل الدائرة الفلسطينية كذلك العمل في المرحلة القادمة يستوجب من الدائرة الفلسطينية من الشعب الفلسطيني ان يحدد ايضا علاقة جدلية بين ما سميناه في الماضي من ضرورات التعامل ولكن ليس على حساب استمرارية وتصعيد التداخل مع التنظيمات الشعبية على مستوى الجماهير العربية . انا اعتقد انه حصل من قبل منظمة التحرير وقيادات المقاومة عامل اهمال لقضية التداخل الجماهيري على مستوى الساحة العربية وانه حصل ترجيح لقضية التعامل ومستوجباته لكن التعامل لم يكن يلازمه هذا التداخل الجماهيري . فما يمكن ان تحصل عليه القيادة الفلسطينية ممن تتعامل معهم سيكون متوفرا بنسبة ما أنجزته من تحقيق في التداخل الجماهيري على كافة المستويات . لذلك العمل الآن هو ان تتوسع رقعة المشاركة العربية مع الثورة الفلسطينية وان لا تصبح قضية المشاركة مقتصرة بيانيا وعلى مؤسسات قائمة ولكن تكاد تكون محتكمة لقدرة الحوار الاوسع والمشاركة الاوسع ولذلك فان الموضوع هو توافق عدة أمور : تحديد ماذا نريد ، تنسيق الارادات ، عدم تغليب التكتيك على الاستراتيجية وعدم تغليب الاستراتيجية على ضرورات التكتيك ، تغليب الانسجام المبدئي على الفعالية المرحلية او تغليب المرحلية على الالتزام المبدئي. وانا أعتقد أنه رغم بعض التناقضات التي ظهرت في بيان المجلس الوطني الا أنه يشكل ضمن الوضع الراهن المنطلق الذي يجب ان نترجم به فعاليتنا في المرحلة القادمة مع بقائنا على ضرورات الانسجام المبدئي .

رسالة من الولايات المتحدة :

د. عوده ابو ردينه : بعد انتهاء نشوة الفرح

بعد بدء اتفاقية فصل القوات السورية — الاسرائيلية ببضع ساعات ، كان مسؤول اميركي متعب تابع لفريق المفاوضات الذي يقوده كيسنجر يجلس مرهقا في ردهة فندق الملك داود في القدس ويقول : « اذا كان الوصول الى هذه الاتفاقية قد تطلب شهرا ، تصوروا كم ستستغرق المرحلة التالية »(١). كان الاميركي المرهق يركز على حقيقة رئيسية حول مفاوضات الشرق الاوسط ، فالجزء الشاق من العملية قد ابتدأ لتوه فقط : اتفاقيات مرحلة ثانية مع مصر وسوريا ، تسوية للمشكلة الفلسطينية ، والمسألة الاكثر حساسية على الاطلاق وهي وضع القدس .

ستتركز المفاوضات على الحقائق الجديدة السائدة في الشرق الاوسط اليوم . ولقد طرأ تغيير فائق في تلك المرحلة : فقد استعاد العرب اعتزازهم وثقتهم بالنفس، وتعرضت اسرائيل لصدمة عاطفية ونفسية مطولة ، وصارت حركة المقاومة الفلسطينية مقتنعة بمرغوبية اقامة سلطة وطنية فلسطينية على الضفة الغربية وغزة، وبروز النفط كسلاح، واعيد تنظيم ميزان القوى ، سياسيا ، بين اسرائيل والدول العربية .

---

١ — النيويورك تايمز ، ٢ حزيران (يونيو) ، ١٩٧٤ ، ص ١ ، القسم الرابع .

من الناحية العسكرية ، وعلى الرغم من التحدي الاكبر لاسرائيل في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، تستمر تل ابيب في المحافظة على تفوق عسكري ازاء جيرانها العرب ومن المرجح ان تستمر في المحافظة على تفوقها هذا لبعض الوقت ، وبخاصة طالما ظلت الولايات المتحدة مستعدة لتزويدها بمزيد من الاسلحة ـ المتطورة المعقدة جدا . فابان الحرب وخلال مجهود اعادة تزويد اسرائيل بالاسلحة ، الذي استمر الى ما بعد وقف النار ، على سبيل المثال ، ارسلت الولايات المتحدة الى اسرائيل ، بواسطة الجسر الجوي ، عددا من انواع الاسلحة مضادة للدبابات تطلق من انابيب اطلاق ويتم تعقبها بصريا وتوجه الى هدفها سلكيا ، كما ان واشنطن زودت تل ابيب بأسلحة صد ، مثل هوبو Hobo ، و« روكآي » Rockeye ، و «مافريك» Maverick ، و «وول آي ـ ١» Walleye 1 . والسلاح الاخير هو صاروخ محسن مجهز بزعانف مجنحة ونظام توجيه تلفزيوني لتوفير مسار مطول للحصول على درجة من القدرة على الصد . و « الهوبو » (نظام القنبلة الموجهة نحو الهدف) هو قنبلة تقليدية مجهزة بنظام توجيه وضبط من أجل المزيد من الدقة ، ويسمى احيانا « قنبلة ذكية » سمارت بومب . والمفريك صاروخ تكتيكي يوجه تلفزيونيا ومجهز برأس شديد الانفجار ومصمم للاستخدام ضد اهداف مثل العربات المدرعة ، والتحصينات المبنية بالاسمنت ، ومراكز المدافع ، والطائرات المتوقفة ، والارفاد .

ويرغب الاسرائيليون ، وقد شجعهم معدل النجاح المدهش لهذه الاسلحة ، في ان يزيدوا أكثر فأكثر من مقدار الفرق في التعقيد العالي بينهم وبين العرب ، وبالتالي يقال انهم طلبوا من الولايات المتحدة قنابل موجهة بالليزر . ولا بد ان تكون هذه الاسلحة ، نظريا ، أكثر دقة حتى من الاسلحة المذكورة آنفا(٢) .

ان رحلة الرئيس نيكسون الى مصر والعربية السعودية وسوريا والاردن لا تعني خفض دعم الولايات المتحدة لاسرائيل . ففي خطاب القاه نيكسون في مأدبة عشاء رسمية في القدس في السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٧٤ ، قال ان دعم الولايات المتحدة لاسرائيل سيستمر . وقد كرر البلاغ الاميركي ـ الاسرائيلي المشترك التزام الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بأسلحة حديثة . وشدد السيد نيكسون على القول ان هذه الامدادات ستكون « ذات صفة مستمرة وبعيدة المدى » ، واضاف انها « ضرورية لمنع المزيد من الاعمال العدائية وللمحافظة على اوضاع تساعد التقدم نحو السلام »(٣) .

وتستمر سياسة الولايات المتحدة نحو النزاع العربي ـ الاسرائيلي في ان تكون مرتكزة على منح اسرائيل التفوق العسكري . وعلى الرغم من ذوبان الجليد في العلاقات العربية ـ الاميركية ، فما تزال الولايات المتحدة ملتزمة بضمان احتلال اسرائيل لبعض الاراضي العربية المحتلة، مثل سلسلة التلال على مرتفعات الجولان ومختلف المستوطنات الاسرائيلية على الضفة الغربية . ولو كانت الولايات المتحدة ملتزمة بارغام اسرائيل على الانسحاب من **جميع الاراضي العربية المحتلة** ، لخفضت دعمها الاقتصادي والعسكري والدبلوماسي كما فعل الرئيس ايزنهاور عام ١٩٥٧ .

لقد اتضح الان ان نيكسون وعد اسرائيل ، خلال زيارته الاخيرة للدولة الصهيونية ، بمنحها معونة عسكرية بقيمة ٧٫٥ مليار دولار خلال فترة خمسة اعوام . وستحصل

---

٢ ـ Dale R. Tahtinen, *The Arab-Israeli Military Balance Since October 1973,* pp. 15 and 16 .

٣ ـ **وول ستريت جورنال** ، ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ ، ص ٦ .

اسرائيل على مبلغ ١،٥ مليار دولار سنويا خلال هذه الفترة ، وسيكون جزء كبير منهـا **في شكل منح ، لا في شكل قروض**(٤) .

كذلك تجهز الولايات المتحدة القوات المسلحة الاسرائيلية ، وتحافظ على ايفائية الخزينة الاسرائيلية بمنح وقروض منخفضة الفائدة ، وتحمي جناح اسرائيل في مجلس الامن التابع للامم المتحدة . وتتبادل المخابرات الاميركية والاسرائيلية المعلومـات والتكنولوجيا . وقد دعمت الاستثمارات والتبرعات الاميركية الاقتصاد الاسرائيلي .

ان القاء نظرة على بعض احصائيات العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية يكشف عـن كيفية نموها خلال الاعوام الستة والعشرين منذ مساء الرابع عشر من ايار (مايو) ١٩٤٨ ، عندما كان الرئيس ترومان اول زعيم عالمي يعترف بدولة اسرائيل المعلنـة حديثـا .

لقد بلغ مجموع المساعدات التي قدمتها حكومة الولايات المتحدة لاسرائيل خلال الاعوام الستة والعشرين ٥،٢ مليار دولار ، كان مبلغ ٣،٦ مليار دولار منها في شكل قروض ومنح للتجهيزات العسكرية . وهذه المساعدة هي أعلى معونة للفرد الواحد قدمتهـا الولايات المتحدة لاي بلد .

كما ان تبرعات الجالية اليهودية الاميركية قد فاقت كثيرا التبرعات من امم اخرى . « فالنداء اليهودي المتحد » جمع مجموع ٢،٢٥ مليار دولار منذ عام ١٩٤٨ . وبالاضافة الى ذلك ، فان « لجنة التوزيع المشتركة » والحملات المنفصلة التي تقوم بها الجامعات والمستشفيات الاسرائيلية قد جمعت عدة مئات من ملايين الدولارات .

واشترى الاميركيون ، كذلك ، سندات اسرائيلية بقيمة نحو ٢،٥ مليار دولار منذ الاصدار الاول للسندات عام ١٩٥١ .

وفي القطاع الخاص ، كان الاستثمار الاميركي عاملا رئيسيا مهما وراء الازدهـار الاقتصادي الاسرائيلي . ففي عام ١٩٧٣ ، وظف رجال الاعمال الاميركيون مجموع ١٢٩ مليون دولار في مشروعات اسرائيلية ، ويساوي هذا المبـلغ ٥٣،٥ بالمئة من مجموع الاستثمارات الاجنبية في الاقتصاد الاسرائيلي(٥) .

ويبدو ان الاقطار العربية ، وبخاصة الاقطار المجاورة لاسرائيل ، تراهن على ان الرئيس نيكسون سيساعدها في استعادة الاراضي التي احتلتها دولة العدو عام ١٩٦٧ . ولكنه من غير المرجح ان يمارس نيكسون اي ضغط على اسرائيل لتنسحب من الاراضي العربية المحتلة في الوقت الذي تتفاقم فيه مشكلاته الداخلية وفي حين لوحظ ان المجموعة الضاغطة الصهيونية القوية ظلت صامتة حول قضية ووترغيت .

ان الاسرائيليين وكيسنجر مستعدون لاعادة سيناء الى مصر اذا ما وقعت مصـر معاهدة سلام منفصلة مع اسرائيل . وان نحن طبقنا مبدأ كيسنجر للقيام بمناورة تهدف الى ادخال فرقاء المفاوضات في مساومة على اساس المصالح المتماثلـة ، لوجدنا ان العناصر متوافرة من اجل مقايضة تدريجية للوجود العسكري الاسرائيلي في ممرات سيناء وشرم الشيخ بطرق بحرية مفتوحة والتزام باعادة بناء منطقة القناة . ولكن لكي تتم هذه المقايضة بنجاح سيضطر الرئيس السادات الى الموافقة على ان ما من مساومة ممكنة

---

٤ ــ **الواشنطن بوست** ، ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ ، ص آ ٢١ .

٥ ــ **النيويورك تايمز** ، ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ ، ص ٢٦ .

وراء سيناء . فقد صرح احد الاعوان في الكونغرس قائلا : « وراء سيناء يبدأ النهـر يجف »(٦) .

وقد سأل صحافي أحد مسؤولي وزارة الخارجية الاميركية في حزيران (يونيو) ١٩٧٤ عن ماهية السياسة الاميركية نحو الفلسطينيين . فأجاب المسؤول قائلا : « ليس لدينا اية سياسة » . وألح الصحافي قائلا : « ولكن لا بد من ان يكون لديكم سياسة ما » . فرد المسؤول : « حسنا ، أحسب ان سياستنا هي الا تكون لدينا سياسة » .

وعلى الرغم من كون نيكسون سمع الشيء الكثير حول الحاجة الى دور فلسطيني (دور تلعبه حركة المقاومة) في محادثات جنيف خلال اسفاره الاخيرة الى موسكو والقاهرة ودمشق وجدة ، فانه وكيسنجر ما يزالان يعتقدان ان للولايات المتحدة مصلحة متينة جدا في ابقاء حركة المقاومة الفلسطينية خارج « مؤتمر السلام » .

وبالنسبة الى نيكسون وكيسنجر ورابين ، فان دعوة منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر جنيف من شأنه ان يضفي الصفة الشرعية على الحقوق الوطنية الفلسطينية في اسرائيل ما قبل ١٩٦٧ .

ولدى كتابة هذه الرسالة كانت اسرائيل والولايات المتحدة ما تزالان تعارضان بشدة وعناد خلق سلطة وطنية فلسطينية في الضفة الغربية وغزة بالنظر الى قلقهما من ان دولةكهذه ستكون بمثابة نقطة انطلاق للمزيد من المحاولات المسلحة الرامية الىاسترجاع فلسطين بأسرها . ويقول أحد الرسميين الاسرائيليين : « سيكون مبرر وجود دولة كهذه هو تدميرنا »(٧) .

لا بد من الاشارة الى انه من الوهم الاعتقاد بأن اميركا واسرائيل ستعترفان بحركة المقاومة ممثلة وحيدة للشعب الفلسطيني عن طريق **العمل السياسي وحده** . فان مقاومة الاحتلال الاسرائيلي وحدها ستؤكد مركزية المشكلة الفلسطينية في اية تسوية تحصل في الشرق الاوسط . وفي ما تتصاعد المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي ، ستدرك اميركا واسرائيل بأنه لا بد من الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره اذا ما اريد للسلام ان يتحقق ويستتب .

---

٦ — *Washington-Israel News* ، ٨ ايار (مايو) ١٩٧٤ .

٧ — **وول ستريت جورنال** ، ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ .

التحرك السياسي للحكم الاردني ازاء مستقبل الضفة الغربية

عيسى عبد الحميد

بما اشتملت عليه نتائج حرب تشرين الوطنية ، من متغيرات نسبية في علاقات الصراع وموازين القوى المحلية ، ومن عناصر جديدة في الموقف السياسي الراهن ، تبقى نتائج هذه الحرب وتفاعلاتها الجارية والمنتظرة ، محل دراسة وفحص مستفيضين من جانب المعنيين بشؤون المنطقة ومجريات الصراع العربي — الاسرائيلي .

وسيقتصر البحث في دراستنا هذه ، على الآثار التي تركتها حرب تشرين على عملية تشكل المستقبل السياسي للضفة الغربية المحتلة ، مـــن خلال عرض التحرك السياسي الاردني وتحليل أطره الدولية والعربية والمحلية ، ومن خلال علاقات الصراع والتحالف مع مختلف أطراف الصراع المباشرة منها وغير المباشرة . ويرجع الاختيار المحدد لموضوع الدراسة هذه الى سببين هامين :

الاول ، ان الضفة الغربية تحتل في حيز الصراع ، محل النقطة المركزية الاولى ، التي نتقاطع عندها مواقف الاطراف المختلفة . وبالتالي ، فان الشكل الذي سيتقرر عليه المستقبل السياسي للضفة الغربية ، سوف يكون انعطافا هاما ، ليس في مجرى النضال الوطني الفلسطيني فحسب ، وانما في حياة وتطور عدد مـــن الكيانات السياسية في المنطقة .

الثاني ، ان التحرك السياسي للحكم الاردني ، طوال الفترة التالية لحرب تشرين ، يفيض بكثير من المتغيرات التفصيلية التي تشكل في مجموعها العام ، الجهد الاكثر اثارة وخطورة في آن معا ، لصياغة وتقرير المستقبل السياسي للضفة الغربية ، بما يتعارض والاهداف الوطنية المرحلية لنضال الشعب الفلسطيني، ويهدد مجمل مكتسباته وانجازاته التي تحققت طوال سنوات كفاحه الوطني السابقة .

[١]

تحدد التحرك السياسي العام لنظام الحكم الاردني بعد تشرين الاول ١٩٧٣ بالآفاق السياسية التي حكمت العمل العسكري العربي خلال الحـــرب ، وترسمت خطواته السياسية في المجالين العربي والدولي ، الميل العام نحو اقرار تسوية سياسية لازمة المنطقة .

لم تكن مهمة النظام الاردني هذه بالسهلة . فحرب تشرين باعتبارها فعلا وطنيا هدف منه تحقيق انجازات وطنية ، تظل تستعصي على كل محاولة تستهدف تثميرها في مجالات غير وطنية . الى جانب هذا فان احجام النظام الاردني عن الاسهام بفاعلية وجدية في حرب تشرين(١)، وضعه وراء عجلة التسوية وليس في موضع المشاركة في ادارة دفتها .

ترتيبا على ذلك جاءت المبادرة السياسية الاولى من جانب النظـــام الاردني في هذا الصدد ، خلال الايام الاخيرة من حرب تشرين ومن خلال مؤتمر صحفي دعـــا له الملك حسين يوم ١٧/١٠/١٩٧٣ ، آخذة بالاعتبار المناخات السياسية العامة وموقع النظام منها . فكان أول ما أعلن عنه النظام الاردني ، انسجام موقفـــه السياسي مع الموقف العربي العام ، الذي حدد ملامحه الاولى خطاب الرئيس السادات خلال الحرب(٢).

كان الاعلان المبكر عن تطابق الموقفين العربي والاردني ، يستهدف بالدرجة الاولى ، نغطية التخلف العسكري الاردني عن المشاركة الفعلية في الحرب ، واعطاء النظام نفسه موقعا تفاوضيا متوازنا في عملية التسوية . يتيح له اعتمادا عـــلى تجانسه مع الموقف العربي ، استثمار جانب من انجازات حرب تشرين بفاعلية سياسية كبيرة .

ترجمة « للانسجام » الاردني هذا . جرى تحركه السياسي في خطوط متوازية على عدة محاور رئيسية : فعلى الصعيد الدولي ، كان أبرز ما في التحرك الاردني قيام الملك حسين بزيارتين منفصلتين ، الاولى أوروبية وشملت رومانيـــا وبريطانيا ، والثانيـــة اميركية . وعلى الصعيد العربي طاف مبعوثو الملك حسين معظم العواصم العربية خلال الحرب وبعدها ، ثم قام الملك نفسه بزيارة بعض هذه العواصم .

وبالرغم من أن تصريحات الملك ومبعوثيه خلال جولاتهم هذه لم تفصح رسميا عـــن الهدف من ورائها ، الا أن التوجه العام للنظام الاردني في ضوء معطيات حرب تشرين ، كان منشغلا بشكل كلي في حل مأزقه السياسي الخـــاص ، والمتمثل في ظهـــور أهلية فلسطينية تتكرس بتعبيرها السياسي — منظمة التحرير الفلسطينية — ممثلة شرعية للشعب الفلسطيني ، عربيـــا ودوليـــا . لذلك ، فقـــد كان محور الجهـــد السيـــاسي الاردني يستهدف بالضرورة تطويق التحرك السياسي الفلسطيني اولا ، ومن ثم تثبيت موقع تفاوضي خاص بالنظام الاردني في التسوية ، يتيح له اعادة فرض هيمنته السياسية على الضفة الغربية وكل ارض فلسطينية يجري انتزاعها من قبضة الاحتلال الاسرائيلي.

تأكد التوجه السياسي هذا من خلال اجابة الملك حسين عن سؤال يتعلق بمستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة ، وجه له في مقابلـــة خاصة مع مراسلـــة جريدة الانوار البيروتية . فقد قال الملك : « اذا جاز لي أن أتحدث في هذا الموضوع ، فحديثي بطبيعة الحال يكون خارجا عن نطاق مسؤولياتي المباشرة ، باعتبار ان مسؤولية غزة التي احتلت عام ١٩٦٧ هي مسؤولية شقيقة عربية أخرى . ولكنني أعتقد بأنه اذا استعيدت الارض وكل أرض فلسطينية يجب ان تتصل بعضها بالبعض الآخر ويعيش بالتالي شعبها ، الشعب الفلسطيني ، كشعب واحد »(٣). وشرح زيد الرفاعـــي ، رئيس الحكومة الاردنية ، تصريحات الملك هذه بقليل مـــن الوضوح قائلا ، لمندوبة الصحيفة اللبنانية نفسها ، أن « مسؤولياتنا الحقيقية في الواقـــع تتعدى مسؤولياتنا عـــن القدس وغزة والضفة الغربية ... الى الجولان وسيناء »(٤).

غير ان هذه المعاني العامة التي حملتها تصريحات كبار المسؤولين الاردنيين ، لم تكن تمثل جوهر الطرح السياسي الاردني الا في الحدود العامة ايضا . وتباعا ، كان هذا الطرح يأخذ ملامحه الاكثر تحديدا في ضوء التطورات السياسية ، العربية منها والدولية.

فعشية انعقاد مؤتمر القمة العربي بالجزائر ، اواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، وبعد جولات عديدة للملك حسين ومبعوثيه في عدد من العواصم العربية ، تحددت بشكل أكثر وضوحا ملامح السياسة الاردنية في هذا الصدد . فأخذ الطرح السياسي لكبـــار المسؤولين الاردنيين ، يتناول بوضوح تام وبصورة مباشرة ، معضلته السياسية الملحة ، والمحددة بمسألة التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني .

هنا ، وفي هذه المرحلة المحددة ، بدأ الطرح السياسي الاردني ، يتحدث علانية عن عدة ممثلين للشعب الفلسطيني(٥). وكان ذلك اشارة الى ان جولات مبعوثي الملك على العواصم العربية قد فشلت في اقناع المسؤولين العرب بوحدانية التمثيل الاردني للشعب الفلسطيني ، وان الخطوة التراجعية هذه تستهدف الحفاظ على موقع قدم يكفل للنظام الاردني المشاركة في تقرير مستقبل الارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني . ويمكن التقاط مركبات الخطوة التراجعية هذه ، من خطاب الملك حسين في حفلة تخريج الدورة الثانية عشرة لضباط الكلية الحربية الاردنية ، والذي جاء فيه : « في نفس الوقت الذي لا ندعي فيه . . . بأننا نمثل كافة أبناء فلسطين او ندعي حق تمثيلهم ، فسنرفض من جهة اخرى ، أو بأقل تعديل لن نكون طرفا في اية عملية تستهدف بعد التحرير فرض أي وضع معين على ابناء القضية ابناء فلسطين »(٦).

حمل هذا الخطاب الذي بدا أنه كتب وأعد بعناية ، ووزعته وسائل الاعلام الاردنية كافة ، من وكالة أنباء واذاعة وصحافة وتلفزيون ، ما يشبه تحذيرا الى مؤتمر وزراء الخارجية العرب ، الذي كان يستعد لعقد جلساته الاولى تمهيدا لمؤتمر القمة ، وذلك للحيلولة دون خروجهم بتوصيات محددة فيما يتعلق بالتمثيل الفلسطيني يخل بتوازن الموقف الاردني . فقد حدد هذا الخطاب الملامح الاساسية والمبلورة للموقف الاردني حيال هذه المسألة على الشكل التالي :

١ ــ ان الاردن يتعامل مع القضية الفلسطينية من منطلق تمثيله لجزء من الشعب الفلسطيني وليس كله . وهو ما يفهم منه ان حدود مسؤولياته هذه تنحصر ضمن نطاق مسؤولياته المباشرة عن الضفة الغربية فقط ، كما هو وارد في نص قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ .

٢ ــ ان حقوق الشعب الفلسطيني الواقعة خارج نطاق الضفة الغربية ، والمشمولة بقرار مجلس الامن المشار اليه ، تخرج عن دائرة التمثيل الاردني كما هي مثبتة دوليا . وهذه اشارة الى ان منظمة التحرير الفلسطينية اذا ما حازت على اقرار عربي من مؤتمر القمة بحقها في تمثيل الشعب الفلسطيني ، فان حدود مسؤولياتها السياسية المباشرة تنحسر عن نطاق السيادة الاردنية الرسمية على الضفة الغربية ، وتبقى ضمن اطار المطالبة بالحقوق القومية والتاريخية للشعب الفلسطيني . أي المطالبة بحق عودة اللاجئين وتعويضهم عن الممتلكات وما الى ذلك .

٣ ــ ان ابداء الاستعداد لمنح الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير واختيار شكل الحكم مستقبلا ، بعد زوال الاحتلال ، ينطلق من طعن رسمي اردني بأهلية القيادة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية بتمثيل مصالح الشعب الفلسطيني ، استنادا الى فرضية تقول : بأن الشعب الفلسطيني لم يتح له في اقتراع « حر » اختيار ممثليه السياسيين(٧)، وتتجاهل القانون الاساسي الذي يمنح حركات التحرير الوطنية الحق الطبيعي بتمثيل شعوبها .

لقد كان هذا الطرح السياسي الاردني الذي رافق انعقاد مؤتمر القمة العربي بالجزائر ، محطة هامة في مسار التوجه الاردني نحو ترتيب عناصر الموقف السياسي بما يخدم عودة الضفة الغربية المحتلة تحت سيادته المباشرة . الا ان جواب مؤتمر وزراء الخارجية العرب على هذا الموقف الذي حمله الوفد الاردني الى مؤتمر الجزائر ، وعلق الملك حسين ، بنتيجته ، حضور مؤتمر القمة ، انسجم مع التوجه العربي العام الذي لمسه مبعوثو الملك خلال جولاتهم العربية . فكان ان رفع وزراء الخارجية الى مؤتمر

القمة مشروع قرار ينص على اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

ازاء ذلك قاطع الملك حسين أعمال مؤتمر القمة بالفعل . غير انه راهن مرة اخرى على تجنيب المؤتمر الموافقة على النص الوارد أعلاه في مشروع القرار ، وذلك بالضغط من خلال ورقة أخرى ، وهي تهديده بالامتناع هذه المرة عن المشاركة بأعمال مؤتمر جنيف(٨) .

دعم التحرك الاردني هذا داخل أروقة مؤتمر الجزائر ، بتصريح سياسي أفضى به رئيس الحكومة الاردنية عقب مقابلته والملك حسين ، لسفيري الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، اللذين سلما الحكومة الاردنية دعوة رسمية لحضور مؤتمر جنيف . فقد اختار رئيس الحكومة الاردنية الوقت المناسب لاعطاء ورقة الضغط الاردنية هذه فاعليتها القصوى ، وذلك لمنع مؤتمر القمة من تبني مشروع القرار المشار اليه . فقد نقلت وكالة الانباء الرسمية الاردنية على لسان زيد الرفاعي قوله ، ان الاردن « غير مستعد لحضور مؤتمر السلام اذا تقرر انشاء حكومة فلسطينية في المنفى تطالب بالسيادة على الضفة الغربية وغزة على أساس انها أراض فلسطينية ومن اختصاص الحكومة الفلسطينية » . وأضاف الرفاعي ان الاردن لن يحضر المؤتمر كذلك اذا اعتبر مؤتمر القمة منظمة التحرير ممثلا وحيداً للشعب الفلسطيني (وكان المؤتمر لم ينه أعماله بعد في الجزائر)(٩) .

غير ان مؤتمر القمة العربي أصدر بعد مناقشات طويلة ، قراراته متضمنة بندا ينص على ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي **الوحيد** للشعب الفلسطيني(١٠) . فجاء ذلك تكريسا للحقائق الفلسطينية التي تجسدت ، طوال سنوات الهزيمة السابقة ، عبر كفاح وطني مرير ، واضافة بارزة وهامة على قاعدة الشرعية الفلسطينية .

بصدور هذا القرار العربي ، الذي اعتبر بحق رجحانا في كفة النضال الوطني الفلسطيني ، وخطوة أخرى على طريق تميزه واستقلاليته ، لم تعد الخيارات مفتوحة أمام النظام الاردني . وبدا واضحا التراجع العملي للنظام عن تهديداته السابقة بمقاطعة مؤتمر جنيف ، والذي تمثل بحضور رئيس الوزراء الاردني الدورة الاولى من اجتماعات المؤتمر في ١٩٧٣/١٢/٢١ . ان الرهان الاردني في هذه المرحلة ، وفي ظل المعطيات السياسية الجديدة ، يعتمد على مجموعة العناصر غير الثابتة والممكن تطويرها لصالحه ، في الموقف الدولي ، وخاصة في موقف الولايات المتحدة الاميركية — احدى الدولتين الراعيتين للمؤتمر — التي تحرص على ان لا تجري دفة التسوية بما لا يخدم المصالح السياسية للنظام الاردني ، او — في الحدود الدنيا — الا تضر بمصالح النظام .

من خلال هذا التصور العام للمحددات العامة في الموقف الاميركي ، أخذت الصيغ السياسية الاردنية ، حول التمثيل ومستقبل الضفة الغربية ، تحاول عن طريق الاندراج في أطر تطبيقية تمكنها من فرض سياسة الامر الواقع ، اختراق جدار الاجماع العربي والتصميم الفلسطيني حول حق منظمة التحرير الفلسطينية بتمثيل الشعب الفلسطيني بدون منازع .

هكذا جاءت مطالبات زيد الرفاعي ، رئيس الوفد الاردني الى مؤتمر جنيف ، بـ « فك ارتباط » القوات الاردنية — الاسرائيلية على الجبهة الاردنية ، تترجم الفهم الاردني ذاك ، بنقله الى خطوات عملية وملموسة على الصعيد « الجغراسياسي » ، يكون لها قوة الفعل المادي والمباشر على التوجهات المختلفة لاطراف الصراع في المنطقة ، وحجم

التأثير الكلي على احدى الركائز المادية القوية لقاعدة الموقف والفعل الفلسطينيين . فقد كان جوهر المطالبات الاردنية تلك يتلخص في محاولة مفتوحة الاحتمالات ، لاستباق امكانية تبلور حضور فلسطيني ، مادي وسياسي ، مستقل ومتميز في الضفة الغربية . فقد وصفت صحيفة الفجر التي تصدر في الضفة الغربية ، تلك المطالبات ، في ذلك الوقت ، بأنها عملية « تسليم وتسلم » لاراضي الضفة المحتلة ، بين اسرائيل والاردن . والتقطت صحيفة « الشعب » المقدسية ، بتحسس بالغ ، المعنى الحقيقي لتلك المحاولة الاردنية بقولها : ان الامر له علاقة بمسألة « من يمثل الشعب الفلسطيني ، بل لعلها عملية التفاف مسبقة وذكية ومدروسة للايحاء بأن من تعطى له الارض او يضع اليد عليها هو صاحبها وممثلها ، قطعا للطريق على المالك الفعلي والممثل الشرعي الحقيقي »(١١).

ففي الخطاب الافتتاحي الذي القاه الرفاعي في جلسة مؤتمر جنيف الاولى ، وجه حديثه الى السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة مطالبا — كما قالت « الدستور » — بأن يطبق على « الجبهة الاردنية — الاسرائيلية ما يطبق على الجبهات الاخرى من حيث فصل القوات » . وقال الرفاعي ايضا بعد الجلسة السرية « ان ما ينطبق على جبهات القتال الاخرى يجب ان ينطبق على الجبهة الاردنية »(١٢). ولدى عودة الوفد الاردني الى عمان بعد انتهاء أعمال الدورة الاولى من مؤتمر جنيف ، قال الرفاعي ان موضوع فصل القوات المتحاربة في الشرق الاوسط « يجب الا يكون مقصورا على جبهة واحدة فقط بل يجب ان يشمل جميع الجبهات العربية مع اسرائيل بما فيها الاردن »(١٣). وكان التلفزيون الاردني قد سجل مقابلة مع الرفاعي في جنيف ، خلال انعقاد المؤتمر ، جاء فيها قوله « انه اثار هذه المسألة في الجلسة المغلقة التي عقدها المؤتمر »(١٤).

لقد جاء الالحاح الرسمي هذا على « فصل » القوات ، يسجل في نفس الوقت ، مجموعة من الحقائق من جهة ، ومترافقا مع مجموعة اخرى من الخطوات السياسية من جهة اخرى . فهو يسجل : ١ — ادراك النظام الاردني لحراجة موقفه السياسي ، بعد صدور قرارات مؤتمر القمة العربي حول مسألة التمثيل الفلسطيني . وقد تكلم الملك حسين بمرارة شديدة حيال هذا الموقف ، فقال معلقا على قرار مؤتمر القمة ، خلال افتتاح الدورة السابعة لمجلس الامة الاردني : « اننا نرى ان القاء صفة تمثيل أهلنا في هذا المجال على غيرنا، معناه اقصاؤنا عن دورنا في تأمين حقوق شعبنا في الضفة الغربية وسعينا لاستعادة أرضهم ، الامر الذي يتطلب الايضاح والتبيان مع الاطراف العربية الشقيقة المعنية ، كي نكون على بينة من مسؤولياتنا ، فنعرف كيف نتقدم الى هذا المؤتمر [جنيف] او كيف نتوقف عن الذهاب اليه . . . »(١٥). ٢ — انسجام « الافكار » الاردنية هذه حول «فصل» القوات ، مع المصلحة السياسية النظام بابقاء زمام المبادرة السياسية بيده ، في كل ما يتعلق بمسألة التمثيل الفلسطيني ومستقبل الضفة الغربية ، وذلك من خلال الطرح المتتابع لمجموعة أوراق الضغط الكثيرة لديه . فبعد فشل ورقة الضغط الاولى بمقاطعة مؤتمر قمة الجزائر ، وفشل ورقة الضغط الثانية بالتهديد بمقاطعة مؤتمر جنيف ، للتأثير على التوجه العربي العام ، طرح النظام الاردني هذه المرة ، وبدون مقدمات او تلميحات سابقة عن مؤتمر جنيف ، أفكاره حول « فك ارتباط » القوات الاردنية — الاسرائيلية ، في محاولة للايحاء بقدرته على الاحتفاظ بزمام المبادرة ، وبالتالي ضرورة الاقرار له عربيا بموقع تفاوضي خاص في عملية التسوية السياسية . ٣ — مفاجأة الوفد الاسرائيلي الى مؤتمر جنيف وترحيبه ، في آن معا ، بالافكار الاردنية هذه ، لدليل على تطابق مصالح كل من اسرائيل والنظام الاردني باستبعاد أي حضور فلسطيني ، خاص ومتميز ، فوق أي جزء من التراب الوطني للشعب الفلسطيني . فقد قال ابا أيبان

وزير خارجية اسرائيل ورئيس وفدها الى مؤتمر جنيف معقبا على مطالبة الاردن « بفصل » القوات حول نهر الاردن : « كان ذلك مفاجأة . لم أعارض، مبدئيا، اقامة اطار لمباحثات أردنية ــ اسرائيلية »(١٦) . وعقب ييجال الون نائب رئيسة الحكومة الاسرائيلية على الاقتراح الاردني ذلك بقوله : انه لا يتصور « انسحابا اسرائيليا من خط نهر الاردن في اطار تسوية ممكنة مع الاردن » . واكد الون على ضرورة بقاء الغور كحاجز بين اسرائيل والاردن . واضاف ان الاتفاق مع الاردن يجب أن يضمن : **أولا** ــ « عدم تمركز قوات عسكرية كبيرة على خط الجبهة » . **وثانيا** ــ « ان يحول ذلك دون امكان استمرار أعمال التخريب »(١٧) .

وترافق الالحاح الرسمي الاردني على « فك ارتباط » القوات الاردنية ــ الاسرائيلية مع مجموعة من الخطوات السياسية أهمها: ١ ــ طرح خيارات محددة أمام الفلسطينيين وتأجيل البت فيها الى ما بعد عملية التحرير . فقد قال بهجت التلهوني ، مكررا ما كان قد ذكره الملك حسين في وقت سابق ، بأن الخيارات المفتوحة أمام الفلسطينيين هي كما يلي: « اما البقاء مع الاردن او الانفصال عنه او الاتحاد معه ، حيث سيجري استفتاء عام تحت اشراف دولي يختارون فيه نظام الحكم الذي يرغبون فيه والمستقبل الذي يرتضونه »(١٨) . ٢ ــ التأكيد مجددا وبقوة ، على عروبة القضية الفلسطينية ، لنفي اي دور خاص للشعب الفلسطيني . وانسجاما مع هذا الطرح ، فان موضوع الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة يتقدم على مسألة التمثيل السياسي للفلسطينيين، التي من الممكن البت فيها داخل « البيت العربي » في مرحلة لاحقة على الانسحاب . فبعد ان اكد التلهوني على عروبة القضية وشدد على صفتها هذه ، قال في حديث له مع مجلة الديار اللبنانية : « لا أعتقد ان موضوع تمثيل الفلسطينيين ، في هذه المرحلة بالذات ، يستوجب كل هذه المناقشات . فالمسألة ببساطة ، ان هناك أرضا شرد شعبها عنها ، وان البحث في كيف تدار شؤون هذا الشعب بعد أن يعود الى وطنه، أمر يستلزم بصورة أولية وبديهية ان تعود هذه الارض اولا الى شعبها ومن ثم يصار الى تقرير نوع الحكم الملائم » . وأكد ان تحرير الارض يجب ان « يسبق موضوع البحث في الحكم »(١٩) . ٣ ــ اعادة صرف رواتب موظفي المؤسسة الاردنية السابقة في الضفة الغربية ، بعد أن كانت حكومة وصفي التل قد اوقفتها في شهر آب (أغسطس) ١٩٧١ ، وبعد صدور قرار مؤتمر قمة الجزائر حول التمثيل الفلسطيني ، أبرزت صحيفة الدستور الاردنية خبرا في صدر صفحتها الاولى قالت فيه ، ان مصادر أردنية مسؤولة ذكرت لها « ان النية تتجه حاليا لاستئناف دفع رواتب الموظفين الاردنيين في الضفة الغربية المحتلة »(٢٠) . وترجمت الحكومة الاردنية نواياها هذه الى خطوات عملية ، حينما طلبت ، قبيل بداية السنة المالية الحالية ، دائرة الموازنة من الوزارات والدوائر الحكومية ، تزويدها بجداول أسماء « موظفيها » في الضفة الغربية ، الذين قطعت رواتبهم في السابق « لوضع المخصصات اللازمة لذلك في موازنة الدولة للعام القادم [١٩٧٤] بعد أن تقرر اعادة هذه الرواتب »(٢١) . ٤ ــ محاولة ترميم الجسور السياسية المنسوفة مع الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، عبر خطة منهجية مدروسة . فقد ذكرت جريدة المحرر اللبنانية نقلا عن شخصية وطنية من الضفة الغربية وصلت الى بيروت في مطلع العام ١٩٧٤ ، واستنادا الى مصادر رسمية في منظمة التحرير الفلسطينية ، ان الحكومة الاردنية قد انشأت مكتبا خاصا في عمان ، مهمته تنظيم الاتصال بالمواطنين في الضفة المحتلة . واضافت ان المكتب باشر عمله بوضع مخطط يستهدف البحث عن وسائل لاستمالة أهل الضفة والقطاع ، عبر اقنية مادية وتحرك سياسي ، لضمان عودة الضفة تحت حكم النظام الاردني . وعددت الصحيفة مرتكزات عمل المكتب هذا بما يلي :

١ ــ اعتماد ١٨ مليون دينار اردني لتغطية نشاطاته المختلفة . ٢ ــ اعــادة صرف الرواتب والعلاوات للموظفين في الضفة الغربية . ٣ ــ العمل على استدعاء رؤساء البلديات في الضفة الغربية الى عمان « لمبايعة » الملك حسين مجددا ، واصدار وثيقة تعلن ارتباط الضفة الغربية بالتــاج الهاشمي . ٤ ــ دفع اكبر عدد مــن الموظفين الفلسطينيين المقيمين في الضفة الشرقية والمرتبطين بالسياسة الاردنية ، الى الضفة الغربية ، للقيام بحملة نفسية ضد حركة المقاومة والتشهير بأخطائها ، لتبرير مجازر ايلول وجرش ومن ثم جمع التواقيع لتأييد عــودة الحكم الاردني للضفة الغربيــة . ٥ ــ تقديم كافة التسهيلات الجمركيــة وغيرها لتجار الضفــة الغربية عبر الجسور المفتوحة . ٦ ــ التأكيد على قوى الامن ورجال المخابرات والاستخبارات العسكــرية الاردنية المرابطين على الجسور بين الضفتين ، بأن يغيروا من أسلوب معاملتهم للعابرين وعدم الاساءة اليهم(٢٢).

وطبيعي أن حجم وفاعلية التاثير السياسي للنظام الاردني على المجريات العامــة للتسوية السياسية ، لم يتيحا له حرية الحركة في اعادة ترتيب سلم اهتمامات المجتمع الدولي بعناصر التسوية ، بما يتوافق ومصالحه الخاصة . وبالتالي فقد كان عليه ان ينتظر « في الدور » استكمال التفاعل الجاري لعدد من عناصر الموقف غــير المستقرة والمتصلة مباشرة بحيثيات الموقف الاردني . ومنها على وجه التحديد :

١ ــ عجز النظام الاردني عن أخذ دور الشريك في قطف الثمار السياسية للحرب ، نتيجة احجامه عن المشاركة الفعلية فيها . فعلى **الصعيد العربي** ، كانت قرارات قمة الجزائر المتعلقة بالتمثيل السياسي للفلسطينيين ، أبرز ما يمثل الضعف النسبي الجديد الذي حل بالموقف الاردني داخل المجموعة العربية . وهو الامر الذي حاول الملك حسين ومبعوثوه تلافي تفاعلاته السياسية في جولاتهم علــى عواصم الدول العربية بعد قمة الجزائر . وعلى **الصعيد الفلسطيني** ، ادى الغياب الاردني الجاد عن ساحة المعركة ، الى اكساب القيادة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية قدرة اكبر على العمل في كافة المجالات لعزل النظام الاردني ومحاصرته ضمن دائرة كبيرة من الاتهامات المعززة بالتجربة والمسندة الى واقعة احجام النظام عن المشاركة بالحرب . وعلى **الصعيد الدولي** ، دفعت وقائع سير القتال على الجبهتين المصرية والسورية ، الى اعطاء الوضع الناجم عنها ، أولوية الاهتمام الدولي النازع بشدة الى التسوية السياسية . وتركز هذا الاهتمام في تثبيت وقف اطلاق النار وتكريسه عبر اتفاقيات فك ارتباط القوات المتحاربة ، وبالتالي فلم يكن الوضع على الجبهة الاردنية ــ الاسرائيلية مدعاة للاهتمام الدولي ، الامر الذي أفقد النظام دور المشاركة والندية في المراحل الاولى للتســوية . امــا على **الصــعيد الاسرائيلي** ، فان الاحساس الرسمي والمكثف بفقدان عوامل الضغط المادية والمباشرة لــدى النظــام الاردني حيــال التصــلب الاســرائيلي ، ترك الاستجابة الاسرائيلية للموقف الاردني ، في اطار العموميات التي ظلت سائدة طوال فترة ما قبل الحرب، والتي لن يتم حسم وبلورة مفاصلها النهائية الا في مراحل تالية على انجلاء الموقف على الجبهتين المصرية والسورية .

٢ ــ ازدياد الاهمية السياسية للموقع الفلسطيني على الخارطة السياسية للمنطقة ، وادراك الاطراف ــ المباشرة وغير المباشرة ــ في الصراع ، لاهمية الحضور الفلسطيني كعنصر لا يمكن اجراء التسوية السياسية بدونه . ورغم ان « الطلب الفعال » من قبل الاطراف المختلفة للعنصر الفلسطيني ، يتم من خلال مواقع ومفاهيم مختلفة ، الا ان الاجماع على حيوية حضور العنصر الفلسطيني في المراحل النهائية للتسوية ، انعكس على الموقف الاردني بكثير من الارباك والضعف ، وترك علامات استفهام كبيرة حول

جدية ما سيمثله النظام كطرف من اطراف الصراع . الامر الذي كان يبدو معه الى اي مدى كان النظام الاردني مجبرا على الانتظار « في الدور » ، لاستكمال التفاعلات السياسية لعناصر الموقف العام .

٣ ــ احتدام الحوار السياسي داخل ساحة العمل الوطني الفلسطيني . فبقدر ما كان الاجماع العربي والدولي عنصر قوة اضافية للطرف الفلسطيني ، وبرهانا جديدا على قدرة هذا الطرف في التأثير على مجريات التسوية بما يتلاءم ومصالحه الوطنية ، فقد أدى عدم الاجماع الفلسطيني على موقف موحد من التسوية ، الى دفع النظام الاردني وغيره من الاطراف العاملة بدأب على ابعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن التسوية ، بالمراهنة على استفحال الخلاف الفلسطيني وعدم التوصل الى قرار . وكانت الاشارة العلنية والرسمية الوحيدة في هذا الصدد ما جاء في حديث جوزف سيسكو نائب وزير الخارجية الاميركي ، الذي قال ردا على سؤال بث من تلفزيون شيكاغو ، ان أحدا لا يعلم الى حد كبير من هو الممثل للفلسطينيين « لان الانقسامات مستمرة داخل الحركة الفلسطينية نفسها . نعلم ان هناك المنظمة الرئيسية الشاملة المسماة منظمة التحرير الفلسطينية ، لكنك ترى ان لديك فلسطينيين يعيشون في كل أنحاء الشرق الاوسط ، في دول مختلفة ، لذلك لديك آراء سياسية مختلفة ... وهذه المشكلة لم تحل . وانا لست متأكدا من السهولة التي ستحل بها في المستقبل ... »(٢٣).

[٢]

في الفترة التي تلت مؤتمر جنيف . وبانتظار استقرار التفاعلات الجارية لعناصر الموقف ، جرى التعامل الاردني مع المعطيات الناجمة عن التحركات السياسية لمختلف أطراف الصراع ، بصمت وهدوء متميزين . وابتعدت الحركة السياسية للنظام خلال هذه الفترة عن المواقف الدراماتيكية المنفعلة . كما جرى خلال مؤتمر القمة العربي ومؤتمر جنيف نفسه . وجاءت حركة التمرد في الجيش الاردني ، أوائل شهر شباط (فبراير) الماضي ، وما صاحبها من أنباء تتحدث عن الفتور في العلاقات الاردنية ــ الامريكية(٢٤)، لتزيد من كفاءة الحركة السياسية للنظام وتحد من تحركه العلني النشط .

انصرف الاهتمام الرئيسي للنظام بعدئذ . الى العمل بصمت على محور الضفة الغربية. وشهدت الفترة هذه تركزا شديدا لجهد النظام ازاء الضفة المحتلة . فبعد أن أحبط الوضع الداخلي الاردني والوضع العربي تواصل جهود الاردن المتعلقة بتكريس وجهة نظره حول التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني ، لم يكن أمام النظام الا الاستدارة نحو الضفة الغربية ، بجهود حثيثة ، لخلق مناخ سياسي فيها . مؤات لطرحه السياسي ، ومعزز لموقفه ذلك ، عربيا ودوليا .

ولم تكن الخيارات هنا مفتوحة أمام النظام الاردني . فعوضا عن حالة العداء الشديدة لسياساته اثر مجازر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، وتنامي الشعور بالفلسطينية والانتماء المتميز ، كردة فعل لمعاناة الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية من سياسات النظام قبل هزيمة حزيران وبعدها ، خلقت حرب تشرين في الضفة الغربية ، وقطاع غزة ايضا ، حالة وطنية صلبة ، مؤسسة على مجموع النتائج الايجابية التي أفرزتها الحرب . فلأول مرة بدت أمام جماهير الضفة الغربية امكانية موضوعية ملموسة ، لاستعادة الهوية الذاتية الفلسطينية للارض المحتلة في العام ١٩٦٧ .

كان على النظام الاردني اذن ، وهو يرمي بجهوده الكبيرة نحو الضفة الغربية ، ان يضع في اعتباره نزوع أوسع القطاعات الشعبية الفلسطينية الى تحقيق هويتها الذاتية وبناء استقلالها الوطني الخاص بها .

هكذا جاءت الخطوة التراجعية للنظام في فترة سابقة ، باعترافه بوجود أكثر من ممثل واحد للشعب الفلسطيني ، وتأكيده على ضرورة اختبار التوجهات السياسية لسكان الضفة الغربية بعد جلاء الاحتلال، وعودة الاراضي المحتلة والمشمولة بقرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ الى السيادة الاردنية .

ولكي يكون حظ الرهان الاردني على جعل عدد من المتغيرات الخاصة بالموقف الداخلي في الضفة الغربية تعمل في صالحه ، خلال الفترة الراهنة والمستقبلة ، اعتمد برنامج عمل سياسي ــ اقتصادي ، محدد بالخيارات المتاحة أمامه ومحكوم بعناصر الفعل الخاضعة لتأثيره .

برنامج العمل الاردني في الضفة الغربية

ارتكز برنامج العمل هذا ، في فترة ما بعد حرب تشرين ، الى قاعــدة من المصالح السياسية الآنية والمباشرة لقطاع واسع من سكان الضفة الغربية ، والمكون أساسا من فئات الموظفين ، وتجار الجسور المفتوحة ، واعمدة مؤسسة الادارة الاردنية السابقة ، وذوي المصالح السياسية التقليدية مع النظام الاردني من أعيان ونواب ووزراء سابقين .

ففي ذروة الانحياز الجماهيري الواسع ، للبرنامج المعبر عنه سياسيا بالشعارات الثلاثة ــ لا للاحتلال ، لا لعودة النظام الهاشمي ، نعم لمنظمة التحرير الفلسطينية ــ جاءت مخاطبة النظام الاردني لقطاعات كبيرة من سكان الضفة الغربية ، عبر أقنية محددة ، تمثل آخر ما تبقى لديه من خيارات . ولدى استعراض كافة النقلات السياسية للنظام ازاء الضفة الغربية بعد حرب تشرين ، يمكن حصر الركائز الاساسية لبرنامج عمله هذا ، بالنقطتين التاليتين :

اولا : اعادة صرف رواتب موظفي الضفة الغربية :

بعد آخر حملة عسكرية واسعــة ، شنها النظــام الاردني ضد حــركة المقاومة الفلسطينية في أحراج جرش وعجلون ، في تموز (يوليه) ١٩٧١ ، أعلنت حكومة وصفي التل في ذلك الوقت ، تجميد رواتب موظفي المؤسســة الاردنيــة السابقة في الضــفة الغربية ، بدءا من ١٠ آب (اغسطس) ١٩٧١ .

استمر تجميد رواتب موظفي الضفة الغربية طوال الفترة اللاحقة ، ولم تفكر السلطة الاردنية باعادة صرف الرواتب هذه ، حتى في غمرة انشغالها باعــادة ترتيب اوضاع الضفة الغربية، حين طرحت في اوائل العام١٩٧٢مشروع المملكة العربية المتحدة وأنشأت عدة اجهزة خاصة بالضفة الغربية مثل وزارة شؤون الوطن المحتل ، والمكتب التنفيذي لشؤون الارض المحتلة .

وبالرغم من معرفة النظام الوثيقة الصلة بأهمية كسب الولاء السياسي لسكان الضفة الغربية والحد من انحيازهم الواسع الى منظمة التحرير الفلسطينية في الاشهر القليلة التي سبقت حرب تشرين وتكريس هــذا الانحياز بوضوح وحدة شديديــن بعد حرب تشرين ، فقد ظل النظام محتفظا بورقة ضغطه المالية ــ السياسية هذه لطرحها في الوقت والظرف الملائمين . فبعد أن أصدر مؤتمر قمة الجزائر قراره باعتبــار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وتهديد النظام بالامتناع عن المشاركة بأعمال مؤتمر جنيف ، ظهرت اول اشارة شبه رسمية من قبل النظام حول اعادة صرف رواتب موظفي الضفة الغربية . فذكرت صحيفة الدستور الاردنية في صدر صفحتها الاولى يوم ١٩٧٣/١٢/٣ ، ان « النية تتجه حاليا لاستئناف رواتب الموظفين الاردنيين في الضفة الغربية المحتلة » . وفي أواخر شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣،

وتمهيدا لوضع مشروع الموازنة العامة للعام ١٩٧٤ ، طلبت دائرة الموازنة العامة من الوزارات والدوائر الحكومية ذات العلاقة ، تزويدها بجداول اسماء موظفيها في الضفة الغربية ، الذين قطعت رواتبهم في السابق لوضع المخصصات اللازمة لذلك « بعد أن تقرر اعادة هذه الرواتب »(٢٥).

وبالرغم من ادراج مخصصات رواتب موظفي الضفة الغربية تحت أحد بنود الانفاق في الموازنة العامة للدولة للعام ١٩٧٤ ، فقد تأخر وضع قرار الحكومة هذا موضع التنفيذ العملي حتى أواخر شهر شباط (فبراير) الماضي . فذكرت الدستور استنادا الى « مصدر مسؤول » ان قرارا سيصدر « خلال اليومين القادمين » باستئناف دفع رواتب الموظفين في الضفة الغربية اعتبارا من مطلع شهر شباط نفسه(٢٦). ومع ذلك ، فقد تعطل مرة أخرى التطبيق العملي لذلك القرار ، الامر الذي كشف بوضوح عن الاهداف السياسية المرجوة من وراء قرار استئناف دفع رواتب موظفي الضفة الغربية . ويمكننا التدليل على صحة هذا الاستنتاج بالوقائع التالية :

أ — جرى توسيع دائرة المستفيدين من قرار اعادة صرف الرواتب في قطاع موظفي الجهاز الحكومي السابق (التربية والتعليم ، البريد ، الزراعة ، البيطرة ، الجمارك ، الحراج ... الخ) ، في محاولة لتوسيع دائرة من لهم مصلحة مادية مباشرة بالارتباط السياسي بالاردن . فعلى سبيل المثال جرى تمديد سن التقاعد للموظفين في الضفة الغربية من ستين الى خمسة وستين سنة . وجاء قرار اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة هذا ، « بغض النظر عن احكام التشريعات الاردنية السابقة ». كما قررت اللجنة صرف علاوة غلاء معيشة بنسبة ٥٠ ٪ من الراتب الاساسي لكل موظف كان يتقاضى راتبا من الحكومة الاردنية قبل ١٩٦٧/٦/١ ، أو كل موظف اعتقل من قبل سلطات الاحتلال او انهيت خدماته لاسباب أمنية بعد ١٩٦٧/٦/١(٢٧).

ب — استثنى قرار اعادة صرف الرواتب ، علاوات رواتب موظفي البلديات وموظفي أمانة القدس بشكل خاص ، في محاولة لاستدراج هذه الفئة من المواطنين ، التي تمتعت تحت ظل الاحتلال بصفة « تمثيلية » ، الى تنازلات سياسية علنية وواضحة لصالح النظام الاردني . ويبدو ان حسابات النظام في هذا الصدد اتت كما كان مرجوا منها . فقد توجه الى عمان في أواخر شهر شباط وعاد منها الى الضفة يوم ١٩٧٤/٣/٣ ، وفد مكون من بعض أعضاء المجالس البلدية ، لمراجعة الحكومة الاردنية في هذا الشأن . وكان هذا ما تهدف اليه الدوائر المختصة في عمان ، بعد أن أخذ عدد من اعضاء ورؤساء المجالس البلدية هذه ، يغادرون الضفة الغربية الى البلاد العربية عن طريق قبرص وليس ، كما جرت العادة ، عن طريق عمان ، طوال الفترة التالية مباشرة على حرب تشرين . وامعانا من الحكومة الاردنية في ابتزاز مزيد من التنازلات السياسية ، لم تبت امام وفد البلديات ذلك بمصير رواتبهم ، بل وعد طاهر المصري — وزير الارض المحتلة — « بدرس موضوع ادراج موظفي بلديات الضفة الغربية في سجلات الحكومة اسوة بغيرهم من الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم من الاردن »(٢٨).

ج — قررت اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة، في محاولة لتوسيع دائرة المستفيدين من عودة الضفة الغربية الى الحكم الاردني ودفع اكبر عدد ممكن من الموظفين المرتبطين بسياسات النظام الى الضفة الغربية ، اعادة صرف رواتب الموظفين الذين عادوا الى الضفة المحتلة، بموجب جمع شمل العائلات، وأوقفت رواتبهم بعد تاريخ ١٩٧١/٨/١٠، والذين عادوا بعد هذا التاريخ ، اعتبارا من تاريخ صرف رواتب موظفي الضفة الغربية. كما قررت اللجنة السماح للموظفين الذين يحصلون على تصاريح جمع شمل بالعودة الى

الضفة ، بعد موافقة الوزير المختص ورئيس المكتب التنفيذي لشؤون الارض المحتلة . ولكي تبقي اللجنة هؤلاء الموظفين تحت دائرة توجيهها السياسي المباشر ، قررت عدم صرف علاوة غلاء المعيشة التي أقرت لكافة موظفي الضفة الغربية — موظف مصنف او غير مصنف ، بعقد أو مؤقت — اذا ما استقال من عمله او انقطع عنه بعد ١٩٧٤/١/١، الا في الحالات التي تقتضيها المصلحة العامة ، التي يحدد معناها لدى نشوئها المكتب التنفيذي لشؤون الارض المحتلة . وهذا يعني ان استقالة او انقطاع الموظف عن عمله لا يستوجب قطع راتبه الاساسي بل العلاوة التي تقدر بـ ٥٠ ٪ (٢٩). وبالاضافة الى كل ذلك ، فقد قررت اللجنة صرف الراتب التقاعدي للموظفين الذين يعملون مع سلطات الاحتلال(٣٠)، مما يبدو معه التأكيد الحازم من جانب النظام الاردني على كل المعاني السابقة التي يهدف الى تحقيقها من وراء قراراته هذه .

د — ألغت الحكومة الاردنية الطريقة التي كانت متبعة في السابق ، وهي صرف رواتب موظفي الضفة الغربية عن طريق التفويضات الشخصية ، المصدقة من أحد المجالس البلدية . فقد ذكرت صحيفة القدس التي تصدر في الضفة الغربية ، ان الاشخاص الذين فوضهم عدد من موظفي الضفة قبض رواتبهم، ذهبوا الى عمان وعادوا منها دون أن يتمكنوا من الحصول على الرواتب . وقالت « القدس » ان التعليمات قد صدرت في عمان بصرف الرواتب بصورة شخصية لان صيغة التفويض لم تعتمد بعد(٣١) . وواضح من هذا الاجراء ان الحكومة الاردنية تريد من خلال تحكمها بكيفية دفع الرواتب، التأكيد على مقدار المصالح المباشرة لقطاع الموظفين في حال عودة الضفة الغربية للحكم الاردني . وتأكيدا على الكيفية التي يتم بموجبها صرف رواتب الموظفين ، ذكرت صحف الضفة الغربية انه قد صدر مؤخرا ، أمر لوزارة المالية الاردنية ، بعدم صرف راتب اي موظف من موظفي الضفة الغربية بواسطة التفويض ، الذي كان يرسل عنهم كما جرت العادة في السابق . وطالبت وزارة المالية كل موظف بفتح حساب له في احد البنوك المرخصة في عمان ، ومن ثم تقوم المالية بتحويل الرواتب الى هذه البنوك ، وذلك اعتبارا من شهر حزيران (يونيو) ١٩٧٤ (٣٢) .

ثانيا : مخاطبة المصالح الاقتصادية لبرجوازيي الضفة الغربية :

بقدر ما كانت البرجوازية الفلسطينية في الضفة الغربية ، تحرص على الاحتفاظ بعلاقاتها الاقتصادية مع الضفة الشرقية تحديدا ومع العالم العربي بشكل عام ، وذلك منذ وقوعها تحت سيطرة الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ، كان النظام الاردني من جانبه يحرص على الاحتفاظ بعلاقاته الاقتصادية مع الضفة الغربية ، واضعا في مقدمة أهدافه المباشرة وغير المباشرة ، المعلنة وغير المعلنة ، الاحتفاظ بموقع قدم سياسي له ، معزز بمصالح اقتصادية واسعة للطبقة السائدة في الضفة الغربية .

وبالفعل ، وتحت كل الظروف التي مرت بها علاقات الضفتين طوال السنوات التالية على هزيمة العام ١٩٦٧ ، استطاع النظام الاردني عبر ما عرف باسم « سياسة الجسور المفتوحة » ، الاحتكام دائما الى المصالح الاقتصادية لبرجوازيي الضفة الغربية مع الاردن ، لفرض توجهاته السياسية العامة عليها في معظم الحالات . الا انه مع ظهور العامل الفلسطيني كعنصر من عناصر الصراع المباشر فيما بعد ، اختل التوازن والولاء السياسيين لهذه الطبقة . فبينما استجابت الشرائح العليا لمصالحها الاقتصادية مع النظام ، توزع التردد السياسي للشرائح المتوسطة والدنيا منها ، خاصة في ظروف المد الوطني والنهوض الجماهيري الملتف حول اهداف حركة النضال الوطني الفلسطيني .

وتحت ضغط الظروف الموضوعية ، والحاح الواقع السياسي الناجم عن معطيات حرب

تشرين الوطنية ، اصبحت البرجوازية الفلسطينية في الضفة الغربية ، مطالبة باعلان موقفها السياسي في حمأة الصراع الجاري على صياغة المستقبل السياسي للضفة بين مختلف اطراف الصراع المباشرة . وقد جرى بالفعل ، الاعلان عن موقف البرجوازية الفلسطينية ، بقطاعاتها المختلفة ، على لسان عدد من رموزها المعروفين . ولاكتمال صورة الموقف السياسي الداخلي واتجاهات الرأي العام في الضفة المحتلة ، تلك التي تحدد على هدي منها الموقف الاردني، فسوف نقوم برسم الملامح العامة للموقف السياسي العام لمختلف الطبقات في الضفة ، اعتمادا على ما جاء في بعض الصحف الاسرائيلية وصحف عربية أخرى .

الموقف السياسي العام في الضفة الغربية

كتب **يهودا ليطاني** ، المراسل السياسي لصحيفة **هآرتس** الاسرائيلية في الضفة الغربية والملم بشؤونها السياسية ، فقال : « بعد نحو اسبوعين من الحرب ، بدأت تتبلور في أوساط الرأي العام في الضفة الغربية ثلاث جماعات رئيسية : تشمل الاولى المؤيدين التقليديين للنظام الهاشمي وفئات أخرى معتدلة تقول انه في اطار المفاوضات بين اسرائيل والدول العربية يجب اعادة الضفة الى الاردن على أساس الاتحاد الفدرالي الذي اقترحه الملك حسين ... وتعتقد الجماعة الثانية التي يتزعمها شبان ينتمون الى مهن حرة ، انه يجب اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة على الفور ، ودون اية علاقة بالنظام الهاشمي ، وبالتعاون مع المنظمات الفدائية ... اما المجموعة الثالثة ، والتي تمثل كما يبدو موقف الاكثرية الصامتة في الضفة الغربية ، فليس لها رؤساء او زعماء . ولكن مواطنا من رام الله طلب عدم ذكر اسمه ، عبر عن رأيها احسن تعبير بقوله : انني اريد دولة عربية على ضفتي نهر الاردن ، وافضل الا يكون الحكم في هذه الدولة في يد الملك حسين ... » .

ان ما جاء في الصحيفة الاسرائيلية هذه ، يشير الى ان سكان الضفة الغربية ، وباستثناء المؤيدين التقليديين للحكم الاردني وبعض الوجهاء من « المعتدلين » ، يرفضون ان يرتبط مستقبلهم السياسي بنظام الحكم الاردني .

ان معاداة جماهير الضفة الغربية لعودة الحكم الاردني اليها ، حملت في معناها الاساسي والعملي ، رفضها الحكم الاردني كممثل سياسي لها . واذا كانت هذه الحقيقة السياسية غير بادية بوضوح ، في الاسبوعين الاولين بعد حرب تشرين ، كما جاء في الصحيفة الاسرائيلية ، فان مسألة التمثيل السياسي احتلت مكان القلب في نضالات الجماهير الفلسطينية داخل الضفة الغربية وخارجها من جهة ، وفي تحركات النظام الاردني من جهة ثانية ، وذلك طوال الفترة التالية على حرب تشرين . فمنذ ان انقشع غبار الحرب ، وانصرف الاهتمام الدولي والعربي الى التسوية السياسية، انصرف الجهد السياسي الفلسطيني كخطوة اولى ، الى حسم مسألة التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني .

واذا كان مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالجزائر في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، قد شهد ذروة معركة التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني ، وشهد مرحلة حسمها على الصعيد العربي لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية ، فان الفترة التالية على مؤتمر الجزائر قد شهدت بدورها ، ذروة الاهتمام الاردني لكسب هذه المعركة على الصعيد الفلسطيني داخل الضفة الغربية . الا انه من الواضح ان حسم مسألة التمثيل على الصعيد العربي ، قد انعكس ايجابيا لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية داخل الضفة الغربية . وبالتالي فقد جاءت معركة النظام على هذا الصعيد كالسباحة في النهر

الجارف ضد التيار . وباستعراض موجز لتتالي وجهات النظر المعلنة في الضفة الغربية ازاء هذه المسألة ، يتبين لنا صعوبة معركة النظام السياسية في الضفة الغربية .

ففي حديث أدلى به حمدي كنعان لصحيفة معاريف الاسرائيلية خلال انعقاد مؤتمر الجزائر ، وطالب فيه بقيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يتضح الى أي حد بدأت الركائز المادية القوية للنفوذ الاردني في الضفة الغربية تستجيب بقوة الى النزوع الفلسطيني العارم نحو الحرية والاستقلال . فقد قال كنعان ، احد أبرز ممثلي البرجوازية التجارية ـ الصناعية التي احنت رأسها في معظم الاحيان لمصالحها المادية المباشرة مع النظام الاردني ، « لا يحق للاردن تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر السلام لان اهداف منظمة التحرير الفلسطينية هي أهدافنا » . واضاف ان المنظمة هي « القادرة على تمثيلنا » ، ولذلك « لا حاجة الى اجراء انتخابات لاختيار ممثلين ، لان لدى اخوتنا الفلسطينيين في الدول العربية العدد الكافي من الاشخاص الذين باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك من أجلنا »(٣٣) .

وللدلالة على أهمية هذا التصريح السياسي ، والخطورة التي ينظر بها الحكم الاردني الى ما يمثله في واقع الضفة الغربية ، فان صحيفة الدستور الاردنية ، الخاضعة كغيرها من الصحف الاردنية الى رقابة رسمية مشددة ، اوردت هذا التصريح محرفا بما يخدم التوجهات السياسية لنظام الحكم الاردني . فقالت « الدستور » ان كنعان الذي أيد قيام دولة فلسطينية ، قال ان هذه الدولة « يجب ان تكون جزءا من اتحاد كونفدرالي مع الاردن ولكن بصفتها دولة ذات سيادة وليس كدولة تقع تحت سلطة عمان »(٣٤) . وفي ايراد الصحيفة الاردنية النبأ على هذا النحو ، انسجمت به مع احد الخيارات التي طرحها النظام الاردني امام الضفة الغربية بعد تحريرها .

وكما سبق ان ذكرنا ، فان حسم مسألة التمثيل السياسي للفلسطينيين على الصعيد العربي ، انعكس ايجابيا لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية . فقد وجدت الشرائح الدنيا والمتوسطة من البرجوازية الفلسطينية نفسها بعد صدور قرارات مؤتمر قمة الجزائر ، قادرة على حسم ترددها السياسي والانحياز لبرنامج منظمة التحرير الفلسطينية ، مستفيدة في ذلك من الاجماع الرسمي العربي والتأييد الشامل لبرنامج المنظمة من قبل جماهير الضفة الغربية . فقد أعلنت الهيئة الاسلامية بالقدس ، وهي تجمع شخصيات وطنية ودينية ومهنية (محامين ، اطباء) ، بعضها عرف بولائه التقليدي للنظام الاردني، عن تأييدها لقرار قمة الجزائر الذي اعتبر منظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني(٣٥) . ثم تبعت الهيئة الاسلامية ، النقابات المهنية في الضفة الغربية ، في اعلان تأييد قرارات قمة الجزائر . فاصدرت نقابات : المحامين ، الاطباء ، المهندسين ، أطباء الاسنان ، بيانا يؤيد ما جاء في قرارات الجزائر الخاصة بالحفاظ على الطابع العربي لمدينة القدس واعادة الحقوق الوطنية للفلسطينيين(٣٦) .

ان قطاعات البرجوازية الفلسطينية التي لم تستطع ان تدلو بدلوها في معترك التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني ، الا بعد الاجماع العربي والتأييد الشعبي لمنظمة التحرير الفلسطينية داخل الضفة الغربية ، كانت في كل ذلك تعبر عن طبيعتها الطبقية ـ السياسية ، ومنسجمة مع مصالحها المادية المباشرة والمتفاوتة مع النظام الاردني ، الذي يمثل حبل الحياة في علاقاتها الاقتصادية مع العالم العربي . وعلى عكس هذا التردد السياسي الذي طبع سياسات هذه الطبقة حتى صدور قرارات قمة الجزائر ، نجد البرجوازية الوطنية والجماهير الشعبية الفلسطينية قد أعلنت عن مواقفها الوطنية مبكرا ، وحسمت موقفها السياسي لصالح برنامج منظمة التحرير الفلسطينية . ففي اكثر

من رسالة بعثت بها قيادة « الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة » الى قيادة المقاومة ، تأكد عمق واتساع التأييد الجماهيري الذي تحظى بـه منظمة التحـرير الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة . وأهمية رسائل الجبهة الوطنية هذه نابعة بالاساس من أهمية الجبهة ذاتها ، وهي التي تضم المنظمات السياسية ، ومنظمات حركة المقاومة الفلسطينية ، والمنظمات المهنية والعمالية والجماهيرية ، والشخصيات الوطنية(٣٧) . وتنبع أهمية رسائل الجبهة الوطنية كذلك ، من وضوح البرنامج السياسي الذي تناضل الجبهة على أساسه ، وهو الداعي الى مواصلة النضال لدحر الاحتلال ورفض كافة المشاريع المشبوهة مثل مشروع ألون ومشروع الادارة الذاتية ومشروع المملكة العربية المتحدة ، كذلك رفض عودة الحكم الاردني الى الضفة الغربية(٣٨) .

ان هذا المناخ الوطني الذي اشاعته حرب تشرين في الضفة الغربية ، وعززتـه الانتصارات السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية على الصعيدين العربي والدولي ، قد وجد تعبيراته السياسية في كتابات الصحفيين والمعلقين الاسرائيليين الذين زاروا الضفة الغربية وتحدثوا مع مواطنيها . فقد نشرت صحيفة معاريف الاسرائيلية « تحقيقا عن التطورات الفكرية والسياسية » بالارض العربية المحتلة بعد حرب تشرين . استقته من خلال المقابلات التي اجراها مندوبو الصحيفة « مع عشرات من الشخصيات في الضفة الغربية وفي غزة من أوساط مختلفة » . استطاع مندوبو الصحيفة الاسرائيلية الوقوف على تطور التفكير الفلسطيني في هذه المناطق ، والذي كما وصفته الصحيفة بأنه « بعيد المدى ومخيف » . وتلخص « معاريف » التطورات الفكرية والسياسية هذه بأنها « تتمثل في تأييد المنظمات الفلسطينية وتأييد قيام دولة فلسطينية ، وعدم العودة للحكم الاردني ، وايمان بالوحدة العربية القائمة حاليا »(٣٩) .

وقال صحفي اسرائيلي آخر هو **داني تسدكوني** ، ان مواطني الضفة الغربية يعلنون « ان عرفات هو الرجل الملائم جدا لتمثيل سكان المناطق في مؤتمر السلام » . واضاف : « في المحادثات التي اجريتها في الضفة الغربية أمس ، مع اشخاص من اوساط متباينة : مسلمين ومسيحيين ، مثقفين وتجارا وموظفين ، تكون عندي الانطباع بأن هذا هو الموقف السائد لدى الرأي العام هناك . الذي يرفض حق الملك حسين او الفلسطينيين الموجودين في الاردن ، تمثيل القضية الفلسطينية في الجزائر او جنيف »(٤٠) .

يتضح مما تقدم : انه بقدر ما ألهب المناخ السياسي الذي افرزته حرب تشـرين ، الشعور الوطني الفلسطيني والكيانية الفلسطينية ، بقدر ما حرك هذا المناخ المواتي ، اوسع القطاعات والطبقات في الضفة الغربية ، للاعراب عن مشاعرها المعادية لعودة الحكم الاردني اليها . فبروز امكانات موضوعية ملموسة ، بفعل حرب تشرين ، لمواصلة النضال وفق ظروف سياسية أفضل ، لدحر الاحتلال واستعادة الهوية الذاتية الخاصة بالضفة الغربية ، لم يجد تعبيراته المباشرة في تصريحات وبيانات عدد من الرمـوز السياسية فقط ، بل بازدياد وتصاعد العمليات العسكرية ضـد مؤسسات الاحتلال ومادته البشرية في الضفة المحتلة . والخلاصة السياسية التي نحن بصدد تعقبهـا ودراستها من وراء ذلك ، هي ان الانتقال بالعمل العسكري المقاوم الى هذه المرتبة من الكمية والنوعية ، تمت على الارضية السياسية لنتائج حرب تشرين ، المعززة بحالة نفسية ـ سياسية مرتفعة لدى جماهير الضفة الغربية . ويشهد على ذلك ، ان العدو لم يستطع في أغلب الحالات التي نفذت فيها عمليات عسكرية ، اعتقال منفذيها ، وذلك عكس ما كان يحدث في الضفة الغربية قبل حرب تشرين .

الضغط بورقة العلاقات الاقتصادية

والسؤال الان ، وفي ضوء الاوضاع السياسية الجديدة بعد حرب تشرين ، ما هي الخيارات التي بقيت مفتوحة امام النظام الاردني ، لتثبيت موقع قدم سياسي له في الضفة الغربية ؟

صحيح ان النظام الاردني لم يفقد كافة حلفائه السياسيين ونقاط ارتكازه في الضفة الغربية . الا انه من الصحيح ايضا ان العناصر الجديدة في الموقف السياسي داخل الضفة الغربية وخارجها ، قد أضعفت من عرى هذا التحالف وهزت كثيرا من قواعده الثابتة على أرضية هزيمة حزيران ١٩٦٧ . فالشيخ محمد علي الجعبري ، أحد ابرز الحلفاء التقليديين للهاشميين منذ الحاق الضفة بالحكم الاردني ، لم يجد بدا من أخذ عناصر الموقف السياسي العام بعين الاعتبار في كل تصريحاته بعد حرب تشرين . ففي الوقت الذي قال فيه لجريدة « معاريف » الاسرائيلية انه « لا يحق للمنظمات ان تكون المتحدث الوحيد باسم الشعب الفلسطيني كله »(٤١) ، لم يستطع الانسياق وراء خطه التقليدي في تأييد الحكم الاردني تأييدا مطلقا . فبين دعوته الى ان يقرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم من خلال « مؤتمر فلسطيني عام يحضره ممثلو الضفة الغربية وممثلو الفلسطينيين في الضفة الشرقية والبلدان العربية » ، وذلك لاختيار « هيئة تمثل الفلسطينيين على المستوى السياسي وفي جميع المسائل المتعلقة بالاراضي المحتلة والقطاع العربي المحتل من مدينة القدس » ، وبين رفضه لان تكون منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي **الوحيد** للشعب الفلسطيني ، يحاول الجعبري الامساك بالعصا من منتصفها ، فاتحا الباب امام المساومة مع جميع الاطراف ذات الصلة المباشرة ، لتحقيق وضع سياسي مشارك من موقع خاص في تقرير المستقبل السياسي للضفة الغربية(٤٢) .

ان محاولة انتزاع رموز البرجوازية الفلسطينية ذات العلاقات المباشرة والقوية مع النظام الاردني ، والمتوقف مستقبلها السياسي على مظلته ودعمه السياسيين ، موقع الشراكة السياسية ، تهدف بالاساس الى تحقيق التوازن بين النزوع الفلسطيني الشديد نحو املاء حق تقرير المصير بحرية واستقلال تامين ، وبين مصالحها مع النظام الاردني ، الذي أمن لها بالخيارات التي طرحها امام الفلسطينيين ، قدرة على المساومة بما يخدم مصالح التحالف السياسي اللاوطني هذا .

اذن، في ضوء النتائج السياسية التي افرزتها حرب تشرين، فان الاجابة على السؤال: ماذا بقي من خيارات مفتوحة أمام النظام الاردني في الضفة الغربية ؟ تبين لنا ان مخاطبة المصالح الاقتصادية المباشرة لبورجوازيي الضفة الغربية ، هي اهم ما بقي في يد النظام من خيارات للعمل سياسيا في الضفة الغربية . لذلك نجد ان النظام الاردني ، في فترة ما بعد صدور قرارات قمة الجزائر ، يبدي تركيزا شديدا واهتماما بالغا بالمصالح الاقتصادية للبرجوازية الفلسطينية بالضفة الغربية، في محاولة لوقف حالة التأييد العلنية لقرارات الجزائر من قبل بعض الرموز السياسية لهذه الطبقة ، وللمناورة بورقة العلاقات مع الضفة الغربية في وجه حسم مسألة التمثيل السياسي للفلسطينيين على الصعيد العربي .

فعلى اثر صدور بيانات الهيئة الاسلامية بالقدس والنقابات المهنية بالضفة الغربية المؤيدة لقرارات قمة الجزائر ، تراس الملك حسين في ديوانه بعمان اجتماع « اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة »(٤٣)، بحضور الامير حسن ورئيس وزرائه زيد الرفاعي ، لمناقشة « الاوضاع الاقتصادية في الضفة الغربية »(٤٤). والامر الذي يشير الى دلالة هامة ، هو ان وسائل الاعلام الاردنية قد ذكرت ان الاجتماع قد خصص لمناقشة الاوضاع

الاقتصادية بالضفة الغربية . وبخلاف الاجتماعات السابقة لهذه اللجنة ، فقد أعلن عن بعض ما دار وما اتخذ من توصيات في اجتماعها هذه المرة . اذ ورد في صحيفة الدستور الاردنية ، انه تقرر الاهتمام « باحتياجات المجالس البلدية والقروية في الضفة الغربية ، وزيادة الاهتمام بالقضايا الاقتصادية لمواطني الضفة الغربية والتي نجمت عن الاحتلال. كما تقرر اعفاء جميع الشاحنات التي تنتقل بين ضفتي المملكة من كافة الرسوم المترتبة عليها منذ عام ١٩٦٧ وحتى زوال الاحتلال » . وذكرت « الدستور » على لسان وزير المالية الذي حضر اجتماعات اللجنة ، انه اتخذت عدة قرارات « تتعلق بدعم اخوتنا في الضفة الغربية » ، وأوضح ان من بينها استئناف دفع الرواتب لجميع الموظفين ، وكذلك زيادة رواتب الموظفين الذين يتناولون « راتبا واحدا [؟!] » بنسبة ٥٠٪ من رواتبهم الاساسية . وقال ان الرواتب والزيادة سيباشر دفعها ابتداء من مطلع الشهر القادم [شباط] حيث سيتم اقرار مشروع موازنة الدولة للعام ١٩٧٤(٤٥).

هكذا اذن ، جاء الاهتمام الاردني بالمصالح الاقتصادية للضفة الغربية ، مشيرا الى فشل سياساته ، على الصعيدين العربي والفلسطيني ، في تحقيق اية انجازات ملموسة، تقوي من مركزه التفاوضي على المستقبل السياسي للضفة الغربية .

ويبقى السؤال قائما : هل كان هذا الخيار مفتوحا بحق أمام النظام الاردني ؟ وبمعنى آخر : هل كانت يد النظام مطلقة في لعب ورقة العلاقات الاقتصادية مع الضفة الغربية ؟

ان كل ما جرى بشأنه على هذا الصعيد ، هو ابداء النظام الاردني لاهتمامات عملية وعلنية ، لتنمية علاقاته الاقتصادية بالبرجوازية التجارية ــ الصناعية بالضفة الغربية . وقد جاء هذا الاهتمام العلني كردة فعل لحالة الانحياز العلني ، ايضا ، لبرنامج منظمة التحرير الفلسطينية ، من قبل جماهير الضفة المحتلة ، عقب صدور قرارات قمة الجزائر التي كرست اهم واخطر احباط سياسي للنظام بعد حرب تشرين ، وعقب فشل الحكومة الاردنية ، خلال المرحلة الاولى من مؤتمر جنيف ، في تثبيت مبدأ وجوب « فصل القوات » الاردنية ــ الاسرائيلية ، على غرار ما كان يحدث على الجبهة المصرية ، وما كان منويا عمله على الجبهة السورية . لذلك فقد اتسم المنحى الجديد للسياسة الاردنية تجـاه الضفة الغربية ، في هذه الفترة ، بالتركيز على الخيارات الاقتصادية المتاحة أمامه . الا أن تطور الاحداث السياسية ، لم يمهل النظام الوقت الكافي للعب ورقته الاقتصادية ــ السياسية هذه . ففي غمرة التوجه العلني للنظام نحو الضفة الغربية ، وحبس خطواته السياسية على الصعيدين العربي والدولي ، وقع التمرد العسكري في الجيش الاردني ، مرتديا طابع التذمر من الاوضاع الاقتصادية المحلية . وبالرغم من ان ملابسات حادث التمرد هذا غير معروفة بالضبط ، الا ان « اردنية » المطالب للمتمردين ، المدعومة من قبل الاتجاهات الاقليمية في القصر(٤٦)، تعطي فكرة صحيحة حول محدودية قدرة النظام على مواصلة لعب ورقته الاقتصادية ــ السياسية تلك ، على صعيد العلاقة مع الضفة الغربية . وأبرز دليل على ذلك ، قيام وفد يمثل المصالح التجارية لبرجوازيي الضفة الغربية بزيارة عمان ، بعد حوالي اسبوعين من اخماد التمرد العسكري الذي وقع في أوائل شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، دون حصوله على أكثر من وعد لحل المسائل المعلقة مع النظام الاردني ، والمتصلة مباشرة بمصالح البرجوازية التجارية في الضفة الغربية . فقد اجتمع الوفد المكون من سبعة عشر عضوا ، يمثلون البلديات وغرف التجارة واللجنة الزراعية العليا بالضفة الغربية ، مع وزير الاقتصاد الاردني لبحث المطالب التي تقدم بها الوفد ، وأبرزها المواضيع المتعلقة بادخال وتصدير منتوجات الضفة الغربية وتوزيع حصيلة الصندوق الذي خصص ريعه لصالح مزارعي الضفـــة الغربية(٤٧)، وتقديـــم

المساعدات الممكنة لهم . وصرح وزير الاقتصاد اثـر الاجتماع ، بأن وزارته « **وعدت بدراسة الطلبات** بالتعاون مع المكتب التنفيذي لشؤون الارض المحتلة ومع الجهات الرسمية الاخرى كوزارة المالية والجمارك ، وأنها ستقوم بتنفيذ الممكن من هذه الطلبات تمشيا مع سياسة الدولة . . . »(٤٨) . واجتمع الوفد مرة اخرى بوزير الزراعة . الا ان الاجتماع هذا لم يسفر عن أكثر مما أسفر عنه الاجتماع السابق مع وزير الاقتصاد . فقد « **وعد** الوزير اعضاء الوفد بالعمل على تسهيل تصدير منتوجات الضفة الى الاردن والدول الشقيقة »(٤٩) .

وهكذا ، فان حركة التمرد العسكري في الجيش الاردني ، قد جاءت لتشير الى عدم انتظام آلية الحركة الداخلية للنظام ، وبالتالي لتضع قيـدا جديدا وثقيلا على حركتـه السياسية الخارجية . وقد اتضح ذلك ، طوال الفترة القصيرة اللاحقة، من خلال ارتداد النظام على نفسه لمعالجة الاثار الناجمة عن حادث التمرد . فكان انصرافه الى تحسين الاوضاع المعاشية للجيش وللمواطنين عن طريق جملة من التدابير المالية والتجارية (مثل زيادة بدل غلاء المعيشة واستيراد المواد التموينيـة المفقودة) ، مؤشرا جديدا على محدودية الخيارات المفتوحة أمام النظام ، وضعف فاعليته السياسيـة على الصعيد الخارجي .

[٣]

البناء الاردني فوق رمال الموقف الاسرائيلي :

أمام التقدم الحثيث الذي احرزته منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد السياسي العربي ، عقب قمة الجزائر ، ومحدودية قدرة النظام الاردني على الحركة السياسية في الضفة الغربية ، تقدم النظام على هامش المناورة الضيق مع الموقف الاسرائيلي . وجاء توقيته الخطوة الاولى على هذا الصعيد ، لتشير بتلخيص شديد ، الى صعوبة تعامله مع الخيارات الاخرى ، وعدم قدرته على انجاز تقدم في المجالين ، العربي والفلسطيني .

فبعد أن انتهت مطالبات النظام الاردني بفك «التحام» القوات الاردنية ـــ الاسرائيلية، خلال مؤتمر جنيف وبعده ، دون أن تثير اهتماما جديا وعمليا لدى اي من الاطراف المعنية ، وردت الاشارة الاولى عن قيام اتصالات أردنية ـــ اسرائيلية مباشرة ، من أربع صحف اسرائيلية ، في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ . فقد ذكرت ذلك كل من صحيفة معاريف ، يدعوت احرونوت ، هاآرتس ودفار(٥٠) . فقد قالت صحيفة دافار « ان اتصالات على أعلى المستويات جرت مؤخرا بين اسرائيل والاردن من أجل استيضاح امكانات اجراء محادثات رسمية بين الدولتين ، بموازاة محادثات فصل القوات بين اسرائيل ومصر ، وبين اسرائيل وسوريا ، من خلال معرفة ان البحث بين اسرائيل والاردن سيتناول مواضيع مختلفة »(٥١) . وبالرغم من نفي المصادر الرسمية الاسرائيلية لوجود تلك الاتصالات مع الاردن ، أكدت صحيفـة هاآرتس مرة اخرى وجود هـذه الاتصالات . فقد علقت الصحيفة على نفي اسرائيل ذلك بقولها : « ان النفي الواهي الذي صدر عن القدس للانباء الموثوقة عن تجدد الاتصالات الاردنية ـــ الاسرائيلية بشأن فصل القوات ، يقوي الراي القائل بأن المفاوضات في ذروتها » . وذكـرت الصحيفة الاسرائيلية ان الامر لا يتعلق بييغال الون « بأنه التقى في الماضي مع الملك حسين فحسب، وانما هناك شائعات تقول ان موشيه ديان ايضا ، الذي كان يرفض الى الان اقتراحات اللقاء مع الاردنيين ، قد غير موقفه » . وأضافت « هآرتس » في معرض تأكيدها لصحة النبأ : « لم تكن مصادفة ان كرس مناحم بيجن قسما وافرا من خطابه عن فصل القوات

على الجبهة المصرية ، لرفض فكرة الانسحاب من الحدود الاردنية بالذات ... ومفهوم لماذا طلب في هذا السياق ، الامتناع عن ممارسة أية دبلوماسية سرية »(٥٢).

الاطار العام للاتصالات :

تجمع البيانات والتصريحات الرسمية الاسرائيلية ، على ان الاردن هو الشريك في اية مفاوضات مقبلة مع اسرائيل . وبذلك ظلت الحكومة الاسرائيلية منسجمة مع خطها السياسي العام ، الذي انتهجته ازاء هذه المسألة طوال الفترة السابقة على حرب تشرين .

غير أنه بفضل الواقع المادي والسياسي الناجم عن حرب تشرين ، وجدت اسرائيل نفسها مدعوة لاعادة النظر في قضية التسوية السياسية المؤجلة من جانبها مع الاردن . وتحت ضغط الوقائع المادية والسياسية نفسها ، وجدت اسرائيل ان عملية تأجيل التسوية مع الاردن ، قد لبت موضوعيا الفرصة لبروز عناصر فلسطينية جديدة لا تخدم الحل الاردني المقبول بتحفظ من جانب اسرائيل ، ونعني بـه مشروع المملكة العربية المتحدة .

من هنا ، نستطيع ان نفهم الاطار العام للاتصالات الاردنية ــ الاسرائيلية في الفترة التالية لانعقاد المرحلة الاولى من مؤتمر جنيف ، بأنها محاولة من الطرفين لجس النبض أولا والتعرف على البدائل والخيارات المحتملة لكل منهما . وقد أكدت هذا الفهم صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية ، في معرض اشارتها لتلك الاتصالات ، بقولها : « وفي المقابلتين جرت كما يبدو محادثات استطلاعية غير ملزمة ، بهدف اختبـار الفوارق بين موقفي اسرائيل والاردن ، بشأن امكان فصل القوات والتسوية الشاملة ، وما اذا كان بالامكان سد الفجوة »(٥٣). وعلى ذلك فان هذه الاتصالات قد جرت ضمن محاولة لـ « سد الفجوة » القائمة بالفعل بين موقف كل من اسرائيل والاردن . وفي محاولتنا للتعرف على مدى « الفجوة » هذه ، واختبار امكانية سدها ، فان ذلك يستلزم بالضرورة التعرف على المحددات الاساسية لكلا الموقفين .

ففي **الجانب الاسرائيلي** ، يراوح الموقف السياسي ازاء الضفـة الغربية وامكانية التسوية مع الاردن ، ضمن عدد من التحديدات الاسرائيلية ، التي لم تتبدل رسميا برغم ضغط الواقع الجديد الناجم عن حرب تشرين . وهي :

١ ــ منظمة التحرير الفلسطينية ليست طرفا في أية مفاوضات مقبلة داخل اطار مؤتمر جنيف . وقد عبرت اسرائيل عن موقفها هذا بوضوح شديد في مختلف المناسبات . وكان آخر تحديد رسمي وملزم للحكومة الاسرائيلية بهذا الموقف ، البيان الذي قدمته حكومة اسحاق رابين للكنيست ونالت بموجبه الثقة البرلمانية. فقد ورد في ذلك البيان: « وترفض اسرائيل دعوة ممثلين عن منظمات التخريب والارهاب كمشتركين او كمراقبين [في مؤتمر جنيف] ، ولن تجري حكومة اسرائيل مفاوضات مع منظمات الارهاب ، التي هدفها المعلن تدمير دولة اسرائيل »(٥٤).

٢ ــ الدولة الفلسطينية محل رفض بات من قبل الحكومة الاسرائيلية . ففي البرنامج السياسي ــ الانتخابي ، الذي تقدم به حزب العمل والتجمع العمالي الحـاكم لخوض انتخابات الكنيست الثامنة ، في نهاية العام ١٩٧٣ ، تم الالتزام بشكل واضح بهذا المبدأ كمركن أساسي في البناء السياسي للتسوية مع الاردن . وفي الفتـرة الاخيرة اعادت حكومة رابين التزامها به ، في البيان الذي تقدمت به لنيل الثقة من الكنيست(٥٥).

٣ ــ التنازل عن الضفة الغربيـة ، يعقب عملية استفتاء عـام تجريه الحكومـة

الاسرائيلية . وقد ادخل هذا البند في التزام الحكومة السابقة ، بفعل تحفظ احد شركائها السابقين في الحكم ، وهو الحزب الديني القومي ، على البرنامج الحكومي الذي يشير بوضوح الى امكانية الانسحاب من الضفة الغربية . وقد أعادت حكومة رابين مرة اخرى التزامها بهذا البند ، على أمل ان يدخل الحزب الديني القومي ، الائتلاف الحكومي مرة اخرى ، مما سيعطي الحكومة قدرة على العمل والمناورة السياسية ، من خلال قاعدة برلمانية أوسع(٥٦) .

أما في الجانب الاردني ، فان المقاطع الرئيسية المحددة للتسوية السياسية على صعيد الضفة الغربية ، تتلخص فيما يلي :

١ ــ الحكم الاردني هو الذي فقد الضفة الغربية في حرب العام ١٩٦٧ وهو المسؤول عن عودتها الى الحظيرة العربية . ويعزز هذا الطرح الاردني ، قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ الذي يشكل القاعدة العامة لتسوية الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، والذي ينص على ان الاردن هو المعني مباشرة بجزء من الاراضي العربية المحتلة ، الا وهي الضفة الغربية .

٢ ــ منظمة التحرير الفلسطينية غير المشمولة بقرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ، تستطيع المشاركة في مرحلة من مراحل التسوية ضمن نطاق مؤتمر جنيف ، على أساس المطالبة بالحقوق « الاخرى » للشعب الفلسطيني ، الواقعة خارج نطاق المسؤوليات الاردنية في هذا الصدد ، والمحددة بقرار مجلس الامن المذكور . وقد حدد الملك حسين ذلك في خطابه الشهير في الاول من ايار (مايو) الماضي كما يلي : « ويستطيع وفد المنظمة ان يطالب بالحقوق الشرعية لشعب فلسطين التي نصت عليها قرارات الامم المتحدة على مدى القضية الفلسطينية والتي تتعدى صلاحياتنا ومسؤولياتنا المحددة في نطاق قرار مجلس الامن ٢٤٢ »(٥٧) .

٣ ــ مشروع « المملكة العربية المتحدة » الذي جرى الاعلان عنه في آذار (مارس) ١٩٧٢ ، والذي لم يرد في أي من تصريحات المسؤولين الاردنيين طوال الفترة التالية على حرب تشرين ، هو التجسيد العلني لنزوع الاماني الوطنية الفلسطينية نحو بناء كيان ذاتي خاص بها . ولا تعتبر الخيارات التي حددها الملك حسين للفلسطينيين بعد حرب تشرين ، أكثر من تعديل مقترح لمشروع المملكة العربية ذاته(٥٨) .

اي ان هذا المحدد الذي يعتبر مشروع المملكة المتحدة قاعدته الاساسية ، يمثل حلا أردنيا خاصا ، يستجيب في آن معا لكل من التحديدات الاسرائيلية الممثلة في رفض قيام كيان فلسطيني مستقل ، وللدور الاردني المناط به أصلا ، ونعني به مواصلة تغييب الدور الخاص للشعب الفلسطيني ومصادرة هويته الوطنية الخاصة .

في ضوء التحديدات العامة السابقة لموقف كل من اسرائيل والاردن ، فان الاتصالات التي جرت لـ « سد الفجوة » ، بحسب التعبير الاسرائيلي ، تنحصر ضمن اطار « اختبار الفوارق » بين موقفي الطرفين ، وفحص امكانية التوصل الى تسوية لفك « ارتباط » القوات بين الجانبين ، في ضوء المعايير الاساسية التي يلتزم بها كل طرف ازاء الاخر ، وفي ضوء المصلحة المشتركة الثابتة ، في استبعاد وجود طرف ثالث في التسوية، ينازعهما بقوة على صياغة المستقبل السياسي لمصير وأرض الشعب الفلسطيني . ومع ذلك فان مصلحة كل من اسرائيل والحكم الاردني « لسد الفجوة » القائمة ، لم تشكل ضغطا متساويا في الثقل على موقف كل من الطرفين . فبينما تمتلك اسرائيل بيدها ورقة الارض فان الحكم الاردني لم يتملك في يده أكثر من التلويح بخطر كف يده عن الضفة الغربية ، واضطرار اسرائيل ، بالتالي ، الى التنـــازل عن الارض للطرف الفلسطيني الذي تلتزم

اسرائيل أصلا بعدم الدخول معه في مفاوضات . وباستعراض سريع للاخبار القليلة والمتفرقة التي صدرت عن مصادر مختلفة حول تلك الاتصالات الهادفة ، من جانب الحكم الاردني ، الى اجراء فك « الارتباط » بين القوات الاردنية والاسرائيلية ، نجد ان التلويح الاردني بمخاطر كف يده عن الضفة الغربية لم يستطع انتزاع استجابة اسرائيلية عملية، وذلك لاسباب متعددة ، بعضها يتعلق بالموقف الفلسطيني نفسه ، الذي لم يحسم رسميا موقفه وبالتالي وضعه في عملية التسوية حتى صدور قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة . ولا يعني ذلك ان الحسم الفلسطيني، داخليا ، في هذه المسألة، كان كفيلا بنقل الموقف الاسرائيلي الى موقف أكثر عملية بالنسبة الى المطلب الاردني الخاص بفك « الارتباط » ، الا ان التردد الفلسطيني ساعد ، بالرغم من الانجازات التي تحققت على الصعيدين العربي والدولي، في ابقاء التلويح الاردني بمخاطر تأجيل التسوية مع الاردن ، دون حد الاستجابة العملية له في تلك المرحلة . فبعد ان ذكرت عدة صحف اسرائيلية قيام اتصالات اردنية — اسرائيلية مباشرة ، نقلت وكالة الانباء الاميركية الاسوشيتدبرس عن « مصادر حسنة الاطلاع في عمان » ، ان الاردن « أرسل بهدوء الى اسرائيل ، اقتراحا مفصلا لاجراء انسحاب تمهيدي لقوات الطرفين على طول نهر الاردن » . وقالت تلك المصادر انه تم تسليم خرائط « مفصلة عن رأي عمان في موضوع انسحاب اسرائيل من نهر الاردن » الى وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر ، خلال اجتماعه بالملك حسين في العقبة بتاريخ ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ (٥٩).

ومن الواضح أن ما تضمنه نبأ الوكالة الاميركية لم يكن في الفراغ . فقد ذكر الملك حسين بعد ذلك ، في خطاب ألقاه في الديوان الملكي أمام عدد من كبار رجال الحكم ، انه مستعد لاجراء « بعض التعديلات المتقابلة » في خط وقف اطلاق النار مع اسرائيل ، كما طالب بفصل القوات على نهر الاردن « الى اقصى مسافة ممكنة »(٦٠).

واذا أضفنا هذه الانباء الى ما سبق ان أوردته الصحف الاسرائيلية ذاتها حول قيام اتصال مباشر ، او عن طريق طرف ثالث ، بين اسرائيل والحكم الاردني ، اتضح لنا عدد من الحقائق المتصلة بموقف الطرفين ازاء مستقبل الضفة الغربية ، حالت في تلك البرهة التاريخية المحددة ، دون الوصول الى نتائج ملموسة عبر تلك الاتصالات .

١ — ان التزام اسرائيل رسميا بالاردن كشريك لهـا في المفاوضات حول مستقبل الضفة الغربية ، لا يعدو كونه ابداء لدرجة عالية من الاستعداد للتفاوض مع الاردن بالشروط الاسرائيلية المعلنة ، وبالتالي ظلت المسافة بين تحديد الموقف رسميا من مسألة « الشريك » ، وبين بته عمليا ، تتسع لعدد من ردود الفعل المحلية والدولية ، وقدر من الالتزامات العملية ، تقرر سلفا صيغة التسوية السياسية في كل ما يتعلق بالموضوع الفلسطيني وتحفر المجرى الرئيسي لها ، مع ما يتبع ذلك من مضاعفات غير منظورة ، تضيف اعباء جديدة على السياسة الخارجية الاسرائيلية .

٢ — ان تطابق الموقفين ، الاسرائيلي والاردني ، حيـال رفض الوجود الوطني الفلسطيني المستقل على جزء من الارض الفلسطينية ، لم يقلل من مدى « الفجوة » بين الموقفين التي ظلت تتسع هي الاخرى — من الجانب الاسرائيلي — لعدد من المراهنات والبدائل التي تقيد التصرف الاسرائيلي على صعيد الضفـة الغربية . ويأتي التـزام الحكومة الاسرائيلية ، بضرورة اجراء استفتاء شعبي قبل الاقدام على تنازل محسوس من الضفة الغربية ، في طليعة ما يثقل الحركة السياسية الاسرائيلية على هذا الصعيد . كما ان طغيان ما اصطلح على تسميته اسرائيليا بـ « الموجة الفلسطينية » على الراي

العام والمؤسسات السياسية الاسرائيلية ، اضاف قيدا آخر على حرية التصرف العملي ازاء هذه المسألة .

٣ ـ ان أوراق الضغط التي يمتلكها الحكم الاردني في مواجهة اسرائيل ، والمتمثلة في امكانية اضطراره لنفض يده من مسألة الضفة الغربية وحلول منظمة التحرير محله كشريك في المفاوضات ، لم تكن لتوازي أوراق الضغط التي تمتلكها اسرائيل في مواجهته، والمتمثلة في عدم استجابة قطاع كبير من الرأي العام الاسرائيلي لفكرة الانسحاب من الضفة الغربية ، وتعقيدات الوضع الحكومي و« الامنـي » الذي يترتب على مسألة الانسحاب .

٤ ـ ان الفهم الاسرائيلي لموضوعة « فك الارتباط » على نهر الأردن ، ينحصر ضمن دائرة من الترتيبات السياسية والادارية ، بينما الفهم الاردني لهـا يتعدى ذلك الى انسحاب مادي للقوات الاسرائيلية من الضفة الغربية « الى أقصى مسافة ممكنة » ، كما عبر عن ذلك الملك حسين . وقد ترجم الفهم الاسرائيلي هذا ؛ ييغال آلون بقوله في وقت سابق أمام الكنيست : « ان النموذج المصري لفصل القوات لا يلائم الوضع على الحدود الاردنية » . وأضاف الون : « ليس هناك مكان لجيش الامم المتحدة على هذه الحدود ، وانه ليست هناك مشكلة فصل قوات لعدم وجود قوات عليها اصلا ، وان المقصود بذلك هو محادثات »(٦١) . وقد فسرت صحيفة دافـار الاسرائيلية في حينه ، تصريحات الون بقولها : « وبناء على ذلك تعتقد المصادر في القدس ، ان المواضيع التي يمكن التحدث بها بين اسرائيل والاردن ، لا تتضمن تحريك قوات عسكرية ، وانما تشمل نقل صلاحيات ادارية وجسور مفتوحة أكثر »(٦٢) .

على هذا الاساس اذن ، وانطلاقا من تقاطعات هامة وتعارضات راهنة ، في موقف كل من الطرفين ، انتهت مرحلة جس النبض واختبار البدائل المختلفة ، دون الوصول الى نتائج عملية ملموسة في تلك الفترة . غير ان ادراك الحكم الاردني لاهمية وضع يده على جزء من الارض الفلسطينية ، عبر اتفاقية « فك ارتباط » ، بما يستتبـع ذلك من اضافات جديدة لعناصر مادية في موقفه ، جعله يواصل عمله السياسي مختبرا كافة الامكانات وكل الفرص السانحة .

وهكذا ، تأسيسا على خاتمة الاتصالات الاردنية ـ الاسرائيلية تلك ، وفي جو من التوجس والقلق تجاه الموقف الاميركي(٦٣)، قام الملك حسين في أواسط آذار (مارس) الماضي بزيارته الاولى الى واشنطن ، تلك الزيارة التي قطعتها قبل ان تبدأ ، احداث التمرد العسكري في الجيش الاردني التي وقعت في أوائل شباط (فبراير) الماضي . وبالرغم من الاهمية البالغة التي علقت على تلك الزيارة ، والاحاديث الصحفية التي تناولتها باسهاب ، فانه بالقياس الى النتائج المعلنة ، لا يمكن القول بأن زيارة الملك هذه، كانت نقلة ذات أهمية خاصة في رحلة العمل السياسي الاردني الطويلة ، لقطف جانب من ثمار حرب تشرين الوطنية . فالبيان الاميركي ـ الاردني المشترك ، لم يشر الى الموضوع الذي كان من المقدر له ان يستأثر بالقسط الاهم من محادثات الملك حسين مع المسؤولين الاميركيين ، ونعني بذلك دعم موقف الاردن الداعي الى تحقيق « فك ارتباط » القوات الاردنية ـ الاسرائيلية على نهر الاردن(٦٤) . ومع ذلك يمكن القول ، ان البيان الاميركي ـ الاردني المشترك ، بما تضمنه من وعود بمواصلة تقديم العون العسكري والاقتصادي للحكم الاردني ، قد اسهم في وضع حد لتخوفات الملك ازاء الموقف الاميركي ، التي عبر عنها في أكثر من مناسبة . ويعتبر الامر هذا في حد ذاته ، متغيرا جديدا لصالح الموقف الاردني ، ساهم عبر اطمئنان الحكم الى استمرارية دوره التاريخي في المخطط الامبريالي

للمنطقة ، في اضافة حيوية وقدرة على المرونة والثبات في تعامله مع مختلف الوقائع وأطراف الصراع في المنطقة . ويمكن ملاحظة ذلك في البيان الختامي الذي أعقب زيارة الملك حسين للقاهرة في أوائل نيسان (ابريل) الماضي . اذ أن التحليلات الصحفية وما رشحت به مصادر المعلومات الاميركية ، في الفترة القصيرة السابقة على زيارة الملك لكل من واشنطن والقاهرة ، تنبأت بقرب تخليه عن الضفة الغربية(٦٥). الا أن ما تضمنه البيان المصري ـــ الاردني ذاك ، جاء يشير الى العكس ، مبرزا قوة الدفع الجديدة التي حلت بالموقف الاردني . فمن خلال الفترة الخاصة بالموضوع الفلسطيني اتضح ان الملك حسين لم يغير في مواقفه المعلنة السابقة شيئا ، وانه استطاع مرة أخرى ان يعلق اجوبته حيال كافة المسائل الخلافية ، التي ترتبت على خروج الحكم الاردني عن اجماع مؤتمر قمة الجزائر الذي اعتبر منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني(٦٦) .

وعلى هذا الاساس ، يمكن القول أن المطاف الطويل والمضني للتحرك السياسي الاردني بعد تشرين ، قد استطاع في أعقاب زيارة الملك حسين لكل من واشنطن والقاهرة ، تغطية بعض تخلفه عن المشاركة الفعلية في الحرب ، وبالتالي تقدمه خطوة مهمة الى الامام ، على طريق المشاركة في ادارة دفة التسوية السياسية وقطف ثمارها السياسية الخاصة به . ويعود ذلك بدرجة أساسية الى فقدان حرب تشرين لبعض زخمها السياسي ، ذلك الزخم الذي وضع الحكم الاردني طوال الفترة السابقة في دائرة الظل وفي موقع الدفاع عن النفس ، لعدم اشتراكه في الحرب . وترتيبا على ذلك ، فان الحكم الاردني سوف يواصل احراز المزيد من الانجازات على حساب الشعب الفلسطيني ، باستمرار تأجيل التسوية السياسية ، وتطويع اسرائيل والامبريالية الاميركية لنتائج حرب تشرين الوطنية .

---

١ ـــ وصف الرئيس السوري حافظ الاسد المساهمة الاردنية بالمعركة على الجبهة السورية بقوله ، ان الاردن رغض باصرار فتح جبهته مع اسرائيل رغم الظروف المؤاتية لذلك « وانه قام بارسال تلك القوات الى الاراضي السورية من قبيل رفع العتب ليس الا » . (مجلة **الصياد** اللبنانية ، ١٩٧٤/٣/٥) .

٢ ـــ بعد ان القى الرئيس السادات خطابه الشهير يوم ١٩٧٣/١٠/١٦ ، داعيا فيه الى وقف اطلاق النار على اساس التزام اسرائيل بالانسحاب الفوري والكامل من الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، وعودة الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ، عقد الملك حسين مؤتمرا صحفيا على عجل ، قال فيه « **اننا نعتبر موقفنا جزءا لا يتجزأ من الموقف العربي العام** . وعندما يكون الامر متعلقا بالقضية الفلسطينية وحقوق أهلنا هناك ، فنحن معنيون مباشرة .. » (جريدة **الدستور** الاردنية ، ١٩٧٣/١٠/١٨) .

٣ ـــ نقلا عن جريدة **الانوار** اللبنانية، «**الدستور**»، ١٩٧٣/١١/٦ .

٤ ـــ نقلا عن « **الانوار** »، « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١١/٧ .

٥ ـــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١١/٢٢ .

٦ ـــ قال بهجت التلهوني رئيس الديوان الملكي في حديث له مع مجلة **العروبة** القطرية « ان الاردن يعتبر الامة العربية بأسرها مسؤولة عن تمثيل الشعب الفلسطيني ، فهو يعتبر كل دولة عربية تمثل القضية الفلسطينية والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني حتى يتمكن من استرداد حقوقه وتحرير ارضه ويختار الممثل الحقيقي لارادته المستقلة » ، (**الدستور**) ، ١٩٧٣/١٢/١٦ .

٧ ـــ في مقابلة له مع صحيفة **لوموند** الفرنسية قال الملك حسين : « كيف يمكن للمؤتمر ان يحتكر قضية التمثيل ويبت فيها في الوقت الذي لم يعبر فيه الشعب الفلسطيني عن ارادته ... » (**الدستور** ، ١٩٧٣/١٢/١١) .

٨ ـــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١١/٢٧ .

٩ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١١/٢٨ .

١٠ ــ نشرت جريدة **النهار** اللبنانية النص الحرفي لقرارات مؤتمر القمة في عددها الصادر يوم ١٩٧٣/١٢/٤ .

١١ ــ صحيفة **الشعب المقدسية**، ١٩٧٣/١٢/٢٥.

١٢ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/٢٤ .

١٣ ــ « **الدستور** » ١٩٧٣/١٢/٢٤ .

١٤ ــ **المصدر نفسه** .

١٥ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/٢ .

١٦ ــ صحيفة **دافار الاسرائيلية** ، ١٢/٢٨/ ١٩٧٣ .

١٧ ــ « **دافار** » ، ١٩٧٣/١٢/٢٧ .

١٨ ــ نقلا عن مجلة **العروبة** القطرية، «**الدستور**» ١٩٧٣/١٢/١٦ .

١٩ ــ نقلا عن مجلة **الديار** اللبنانية، «**الدستور**»، ١٩٧٣/١٢/٢٥ .

٢٠ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٤/١٢/٣٠ .

٢١ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/٢٥ .

٢٢ ــ جريدة **المحرر اللبنانية** ، ١٩٧٣/١/٧ .

٢٣ ــ جريدة **النهار** اللبنانية ، ١٩٧٤/٤/١٨ . وزع المقابلة مكتب المعلومات الاميركي في بيروت .

٢٤ ــ كتب محرر الشؤون العربية في « **النهار** » قائلا : « للمرة الاولى تتعرض العلاقات الاردنية ــ الاميركية لخضة خطيرة ، برغم حرص الطرفين على نفي وجود أي خلاف . وقد بدأ الاهتزاز في حبل العلاقات بين واشنطن وعمان مع حدوث التمرد في بعض وحدات الجيش الاردني يوم الاحد ٣ شباط . ويحاول المسؤولون في الاردن من جهة ، والقائم باعمال السفارة الاميركية السيد بيار غراهام من جهة اخرى ، تكثيف الاتصالات بينهم للحد من تحول التفاهم الى جفاء قد يتدهور الى الاسوأ ... » (**النهار** ، ١٨/ ١٩٧٤/١٢) .

٢٥ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/٢٥ .

٢٦ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٤/١٢/١٨ .

٢٧ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٤/٢/٧ .

٢٨ ــ « **الشعب** »، ١٩٧٤/٢/٥ .

٢٩ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٤/٢/٧ .

٣٠ ــ « **الشعب** » ، ١٩٧٤/٢/٢٧ .

٣١ ــ « **القدس** » ، ١٩٧٤/٣/١٣ .

٣٢ ــ « **الشعب** » ، ١٩٧٤/٤/١٩ .

٣٢ ــ صحيفة **هـآرتس** الاسرائيلية ، ١١/١٥/ ١٩٧٣ .

٣٣ ــ « **هآرتس** » ، ١٩٧٣/١١/٢٨ .

٣٤ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١١/٢٩ .

٣٥ ــ جاء في بيان الهيئة الاسلامية ، انها من « موقع حرصها وايمانها وشعورها بمسؤوليتها التي اضطلعت بها منذ تشكيلها بعد الاحتلال مباشرة [كان يطلق عليها اسم : المجلس الاسلامي الاعلى] تؤكد تأييدها للاجماع العربي والمواقف المشرفة المتضامنة التي تجلت في مواقف واعمال الشعوب العربية ... وتعلن تأييدها لمقررات مؤتمر القمة العربي في الجزائر الذي جسد وحدة الامة العربية وحرصها على شعب وتراث الامة ومقدساتها وفي مقدمتها القدس »، (جريدة **الاتحاد** ، حيفا ، ١٩٧٣/١٢/٧) .

٣٦ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/١٠ .

٣٧ ــ « **شؤون فلسطينية** » ، عدد ٢٢ . الضفة الغربية : احتلال ، مقاومة ، ونظرة الى المستقبل (حديث مع عدد من المبعدين) .

٣٨ ــ « **مؤشرات على الطريق** » . كتيب للجبهة الوطنية الفلسطينية . نشرت بعض فقراته جريدة **الانوار** اللبنانية ، ١٩٧٤/٢/٥ .

٣٩ ــ جريدة **معاريف** الاسرائيلية، ١٩٧٤/١١/٢٣.

٤٠ ــ جريدة **دافار** الاسرائيلية ، ١٩٧٤/١١/٢٨.

٤١ ــ « **معاريف** » ، ١٩٧٣/١١/٢١ .

٤٢ ــ « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/٦ . نقلا عن جريدة **معاريف** الاسرائيلية .

٤٣ ــ شكلت « اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة » في اواخر العام ١٩٧٢ ، بقرار ملكي على النحو التالي : رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، وزير البلاط ، وزير الانشاء والتعمير ، وزير الخارجية ، وزير الدولة لشؤون رئاسة الوزراء ، وزير الداخلية للشؤون البلدية والقروية ، وزير الثقافة والاعلام ، وزير الثقافة والاعلام ، وزير الاقتصاد الوطني ، وزير الداخلية ، وزير التربية والتعليم ، وزير الشؤون الاجتماعية والعمل ، وزير المالية ، كبير امناء الملك ، مدير المخابرات العامة ، مدير الامن العام ، ممثل عن القيادة العامة للقوات المسلحة الاردنية ، المستشار العسكري لرئاسة الوزراء . عبد الحميد ، عيسى. ست

سنوات من سياسة الجسور المفتوحة ، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ص١٩٥).

٤٤ — « **الدستور** » ، ١٩٧٤/١/١٠ .

٤٥ — **المصدر نفسه** .

٤٦ — راجع الملف رقم ١١٥ من ملفات مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، حول أحداث التمرد في الجيش الاردني .

٤٧ — تتكون حصيلة هذا الصندوق من ضريبة الـ ١٢٪ على منتوجات المناطق المحتلة المصدرة عبر الجسور المفتوحة والتي فرضها النظام الاردني عليها في شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، ثم جرى تخصيص حصيلتها لتمويل صندوق خاص انشيء « لدعم » المزارعين بالمناطق المحتلة ، توزع امواله بمعرفة الحكومة الاردنية . لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا « ست سنوات من سياسة الجسور المفتوحة » ، ص ٢٧ ، **مصدر سابق** .

٤٨ — « **الدستور** » ، ١٩٧٤/٢/٢٠ .

٤٩ — « **الدستور** » ، ١٩٧٤/٢/٢١ .

٥٠ — « **النهار** » ، ١٩٧٤/١/٢٥ .

٥١ — « **دافار** » ، ١٩٧٤/١/٢٤ .

٥٢ — « **هآرتس** » ، ١٩٧٤/١/٢٨ .

٥٣ — « **هآرتس** » ، ١٩٧٤/٣/١٤ .

٥٤ — « **معاريف** » ، ١٩٧٤/٦/٤ .

٥٥ — **المصدر نفسه** .

٥٦ — **المصدر نفسه** .

٥٧ — « **الدستور** » ، ١٩٧٤/٥/٢ .

٥٨ — « **الدستور** » ، ١٩٧٣/١٢/٢ .

٥٩ — « **النهار** » ، ١٩٧٤/٢/٣ .

٦٠ — « **الدستور** » ، ١٩٧٤/٢/١٤ .

٦١ — « **دافار** » ، ١٩٧٤/١/٢٤ .

٦٢ — **المصدر نفسه** .

٦٣ — لدى توجيه مراسل صحيفة **اللوموند** الباريسية **سؤالا الى الملك حسين** ، عما اذا كان راضيا عن تطور علاقاته مع الولايات المتحدة ، قال المراسل : « دخل الملك حسين في غضب بارد وقال : نحن لا نثق بأحد ولسنا راضين عن موقف أي كان ، ونتخذ مواقفنا حسبما تقضي الحاجة واللحظة . ليس للعلاقات بين الدول أي مظهر دائم ... وعلينا ان نتأقلم مع متطلبات الوقت » . نقلتها جريدة **السياسة** الكويتية في عددها الصادر يوم ١٩٧٣/١٢/١٥ . وفي مقابلة اخرى من موفد جريدة الحوادث اللبنانية الى عمان ، اجاب الملك عن سؤال حول علاقته بأمريكا قائلا : « الجو غريب تماما ، هناك شيء غريب في الجو لا يطمئن » . مجلة **الحوادث** اللبنانية ، ١٩٧٤/١/٤ . وذكرت النهار بعد ذلك ايضا ، انه « للمرة الاولى تتعرض العلاقات الاردنية — الاميركية لخضة خطيرة برغم حرص الطرفين على نفي وجود أي خلاف ... » «**النهار** » ، ١٩٧٤/٢/١٨ .

٦٤ — أكد الملك حسين في مقابلة له مع نيويورك تايمز الاميركية ، ما سبق ان ذكرته « الاسوشيتدبرس » بأنه « اقترح على اسرائيل ان تقوم بسحب قواتها من منطقة وادي الاردن على عمق يتراوح بين ٨ — ١٦ كيلومتر ، كمرحلة اولى في تسوية سلمية » . « **النهار** » ، ١٩٧٤/٣/١٦ .

٦٥ — ذكرت وكالة « الاسوشيتدبرس » الاميركية في رسالة لها من عمان ، ان المراقبين السياسيين يعتقدون ان الملك حسين « قد يتخلى قريبا عن الضفة الغربية » ، « **النهار** » ، ١٩٧٤/٢/٢٨.

٦٦ — راجع نص البيان الاردني — المصري المشترك الاول في جريدة **الدستور** الاردنية في عددها الصادر يوم ١٩٧٤/٤/٧ .

السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في المناطق المحتلة : اسس لامبريالية جديدة

شيلا ريان

الحلقة الاولى

دشن حزيران ١٩٦٧* بداية النهاية لاسرائيل كمغامرة فريدة في الكولونيالية . ففي غضون بضع سنوات . أعادت العلاقات الاقتصادية مع المناطق العربية المستولى عليها في حرب حزيران وضع اسرائيل ضمن الاشكال الكلاسيكية لقوة كولونيالية . ومع ابتعاد اسرائيل سريعا عن تقاليدها الخاصة . التي كانت متميزة عن اي مشروع استيطاني آخر ظهر في أوروبا أو أمريكا الشمالية . فانها تشارك الآن عددا من البلدان الرأسمالية المتقدمة الاخرى في صفة الامبريالية : السعي وراء الارباح في العالم غير الصناعي . وتجني اسرائيل ، مثل القوى الاستيطانية الاخرى ، أرباحا عن طريق فتح أسواق جديدة لبضائعها المصنعة ، واستخراج المواد الخام من المناطق المسيطر عليها ، والاستغلال الشديد لقوى عمل السكان الاصليين .

الكولونيالية الفريدة للصهيونية قبل ١٩٦٧

استولى المزارعون البريطانيون في روديسيا وزارعو المطاط الفرنسيون في الهند الصينية والمستوطنات في الجزائر على مساحات واسعة من الارض واعتمدوا على العمل « الوطني » المنخفض الاجر للقيام بالشغل وجعل استيطانهم مربحا . وعلى اي حال ، تبنى المستوطنون الصهاينة في فلسطين ، بعد الحرب العالمية الاولى ، سياسة متعمدة في رفض استئجار العمال الزراعيين العرب «الوطنيين» وفي استخدام عمل اليهود المهاجرين بدلا منهم. لقد أدرج هذا التحديد العنصري ضد العمال العرب الفلسطينيين في دستور الوكالة اليهودية ، وهي منظمة الاستيطان ، في عبارة أكدت على ان « الوكالة ستعزز الاستيطان الزراعي القائم على أساس العمل اليهودي ، وفي كل الاعمال او التعهدات التي ننفذها الوكالة أو تساعد عليها، سيعتبر استخدام العمل اليهودي مسألة مبدأ »(١) . وقد طبق الصندوق القومي اليهودي « مسألة المبدأ » هذه بكتابة عبارة في عقود الايجار التي اجرتها مع المستوطنين اليهود تطالب فيها بأن « ... يتعهد المستأجر بتنفيذ كل الاعمال المرتبطة بفلاحة الممتلكات بواسطة العمل اليهودي فقط » . وبعد اول انتهاكين في استخدام عمال عرب ، فرض الصندوق القومي اليهودي غرامة بـ ١٠ جنيهات فلسطينية ، وبعد الانتهاك الثالث يسترد الارض(٢) .

---

* نظرا لطول هذه الدراسة سننشرها على حلقتين ، آملين ان ننشر الحلقة الثانية منها في العدد القادم من « شؤون فلسطينية » ، وستعالج موضوع السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في قطاع غزة .

لقد رفضت الاشكال الاخرى للاستعمار الاستيطاني أيضا اللجوء الى عمل السكان الاصليين . فعندما فشل مستوطنو الولايات المتحدة الاوروبيون في فرض العمل الزراعي على الهنود الامريكيين ، لجأوا عوضا عنهم الى استيراد العبيد من افريقيا ، وقاموا بالمجازر ضد السكان الاصليين ، دافعين بالبقية الباقية منهم الى معسكرات الاحتجاز . ومرة أخرى ، في استراليا ، لم يستغل السكان الاصليون البدائيون من أجل العمل ، بل استئصلوا فعلاً بواسطة المذابح التي دبرها المستوطنون البريطانيون*. ولكن في حالات الولايات المتحدة واستراليا ، وحالات دموية اخرى كثيرة في الابادة والاستئصال تدمغ تاريخ الكولونيالية الغربية ، فان جعل المستوطنات مربحة تطلب ان لا يستخدم المستوطنون العمل المحلي ، لان مقاومة السكان المحليين ، أو عوامل أخرى ، جعلت تكيفهم مع دور العبد أو المستخدم باهظ الثمن أو غير عملي على الاطلاق .

تتميز الصهيونية برفضها استخدام العمل « الوطني » في فلسطين عندما كان استخدام العمال العرب ، لا المهاجرين ، مربحا اكثر . لقد كان الفلاحون الفلسطينيون مزارعين مهرة ، على عكس معظم المهاجرين من اوروبا المدينية ، وكان من الممكن استئجارهم بأجور اقل . ولاجل ذلك فان مزارع رابطة الاستيطان اليهودية الفلسطينية (بيكا) ، التي كانت مدعومة من قبل مبرة البارون ادموند دي روتشيلد منذ ١٨٨٢ ، قد استخدمت دائما العمال العرب وحتى العشرينات من هذا القرن . ولم تقتنع هذه المزارع باستخدام اليهود عوضا عن العرب الا بعد ضغوطات كبيرة من الاتحاد العام للعمال اليهود ، الذي وصل تحريضه الى حد طلب تدخل البوليس في مناسبة واحدة على الاقل ، وبواسطة السياسة المنهاجية للوكالة اليهودية في اقامة مستوطنات للعمال بالقرب من مزارع رابطة الاستيطان اليهودية الفلسطينية والاصرار على استخدامهم . وفي عام ١٩٣٠ ، أعلنت سلطة من الوكالة اليهودية ان « نقل العمال اليهود الى القرى القديمة [مزارع رابطة الاستيطان] كان مصدرا لشغل الهيئات التنفيذية الصهيونية الشاغل ، التي نجحت مؤخرا في تثبيت حوالي ٦٥٠٠ عامل في هذه المراكز ... »(٤).

لقد كانت أسباب الصهيونية للاستهانة بمبدأ الربح في الاستخدام اسبابا ماكرة وسياسية . وقد كتب دافيد بن جوريون بعد ذلك بعقود قائلا « ان السبب في انتصار العمل العبري [أي مقاطعة العمل العربي] خلال الهجرة الثانية [١٩٠٤ — ١٩١٤] وفترة الانتداب يعود الى ان كل صهيوني ملتزم قد فهم انه بدون العمل اليهودي لن يكون هنالك دولة يهودية »(٥). ولن يكون ممكنا ايجاد أعمال للمهاجرين اليهود الجدد الا باستبعاد العمال العرب الفلسطينيين من الاستخدام على الاراضي التي يكتسبها الصندوق القومي اليهودي والمشاريع التي يملكها صهاينة ؛ ولا يمكن تحقيق مستوى معيشة عال بشكل اصطناعي للعمال اليهود الا بمنع مزاحمة العمال العرب — مستوى معيشة ضروري لجذب المهاجرين المعتادين على مستويات الاستهلاك الاوروبية والاحتفاظ بهم . (عام ١٩٣٦ ، على سبيل المثال ، كان معدل دخل الفرد اليهودي في فلسطين ٤٤ جنيها فلسطينيا ، ومعدل دخل « غير اليهود باستثناء الاشخاص البريطانيين في الجيش والحكومة » ، اي في الواقع دخل العربي ، ١٧ جنيها فقط)(٦)**.

---

* خلال فترة وظيفته الطويلة ، كان للورد بلفور ، صاحب الاعلان المشهور الذي وعد برعاية بريطانية لوطن قومي يهودي في فلسطين ، ضلعا أيضا في شؤون استراليا وجنوب افريقيا . وبالنسبة لبلفور فان حقيقة ان السكان الاستراليين الاصليين قد « انتهوا » كانت ظاهرة ملائمة وهي ، كما قال ، « حتى لو اتهمت بالتجرد من الانسانية ، فانني لا استطيع أن أجدها في قلبي للتأسف عليها »(٣).

** كان الجنيه الفلسطيني يعادل الجنيه الانكليزي ، ويساوي في هذا الوقت حوالي ٥ دولارات امريكية .

لقد تطلب البناء نحو الدولة اليهودية ديموجرافيا شعار « العمل اليهودي » ومترادفه « الانتاج اليهودي » ، الذي دعا الى مقاطعة المنتجات العربية الارخص لصالح منتجات اليهود . وفي الواقع ، فان السكان اليهود في فلسطين عموما قد التزموا بهذين الطلبين ، مع ان أسعار السوق اليهودية كانت أعلى بمقدار الثلث تقريبا عن أسعار السوق العربية(٧). ان هذه النماذج الاقتصادية لا يمكن عزوها الا الى دافع سياسي بعيد المدى ، وخاصة الى الاعتقاد القائل ، كما كتب خبير أرض صهيوني، انه « خلال صراع القوميات، كان النصر النهائي حليف أولئك الذين عاشوا وعملوا في الارض »(٨).

ما كان ممكنا اطلاق العنان لهذه الطموحات السياسية لولا ان استيطان فلسطين ، خاصة الزراعة ، كان ممولا بكثافة . فبالاضافة الى مشاريع البر الخاصة ، انفقت المنظمة الصهيونية حتى عام ١٩٣٠ حوالي ٥ ملايين جنيه على الاستيطان الزراعي ، وهو مبلغ وصفه خبير صهيوني بـ « المبذر » ، معلقا ، « انه من المؤكد ان ليس هنالك من حصة كافية على هيئة ايجار يمكن للمستوطنين دفعها على نفقة الصندوق [القومي اليهودي] على حيازاتهم »(٩).

وهكذا فان الصهيونية ، كانت مدفوعة بأسباب تتعلق بالاستراتيجية السياسية أكثر مما تتعلق بالربح المباشر ، في استبعادها استخدام الفلاحين الفلسطينيين على أراضيهم بعد أن أزاحت قسما كبيرا منهم من تلك الاراضي . وبعد طردهم الى المدن ، وجد الفلاحون ان المراكز المدينية ، كما المستوطنون ، تزيح الاقتصاد العربي التقليدي وترفض استئجار عمل العرب الفلسطينيين . كان الوف المستوطنين الصهاينة يتقاطرون الى المدن أكثر مما الى الريف ، ويبدأون عملهم برأس المال والخبرات التي جلبوها من أوروبا. وقد حمى الانتداب البريطاني صناعاتهم اليافعة ببنية رسوم مشجعة ، ونما اقتصاد صهيوني متميز ، رفض عادة استخدام العمال العرب، في فلسطين المدينة وكذلك الريف. وقد لاحظ تقرير للحكومة البريطانية عام ١٩٣٠ انه « يوجد في الوقت الحاضر بطالة جدية في صفوف المهنيين العرب وفي صفوف العمال العرب . ولهذه البطالة اسباب متعددة . المواصلات الآلية ، التي كانت في أيدي اليهود بشكل واسع ، تطرد الجمل والحمار من الطريق ومعهما تطرد سائق — الجمل العربي وسائق — الحمار العربي . السيارة التي يمتلكها ، هي الاخرى ، اليهود بشكل واسع تزيح العربة التي يجرها الحصان وسائقها العربي . والاستعمال المتزايد للاسمنت والاسمنت المسلح وطوب السليكات ، التي يصنعها كلها اليهود ، تحل محل الحجر في الاغراض الانشائية ، مزيحة بذلك عددا كبيرا من الحجارين والبناءين ، الذين جلهم من العرب . ويزاح أيضا العرب العاملين في مقالع الحجارة »(١٠).

وكان الاستبعاد النهائي في ٤٧ — ١٩٤٨ ، عندما طرد ٩٠ ٪ من السكان العرب في الجزء من فلسطين الذي أصبح اسرائيل ليفسحوا المجال للدولة اليهودية . خلال فترة الانتداب كان للاستراتيجية السياسية القائمة على أساس استبعاد العرب الفلسطينيين من الاقتصاد الصهيوني مساوىء اقتصادية مباشرة بالنسبة للمستوطنين ، أما مع اقامة دولة اسرائيل فقد كان للاستراتيجية السياسية القائمة على اساس الاستبعاد الجسدي لمعظم الفلسطينيين من المنطقة الصهيونية عواقب اقتصادية عظيمة النفع . فقد صنفت ملكية اللاجئين التي تركوها وراءهم ، وفي حالات عديدة ملكية الفلسطينيين الذين استطاعوا البقاء في اسرائيل(١١)، كملكية « مهجورة » وصودرت من قبل الحكومة الاسرائيلية . وقد كتب دون بريتز قائلا ان « الملكية المهجورة كانت واحدة من المشاركات العظمى نحو جعل اسرائيل دولة ممكنة الوجود . . . فمن بين الـ ٣٧٠ مستوطنة اليهودية الجديدة التي أنشئت بين ١٩٤٨ وبداية ١٩٥٣، كان ٣٥٠ فوق « أملاك غائبين».وفي عام

١٩٥٤،كان أكثر من ثلث سكان اسرائيل اليهود يعيش فوق «أملاك الغائبين»، واستوطن حوالي ثلث المهاجرين الجدد (٢٥٠٫٠٠٠ نسمة) في مناطق مدينية هجرها العرب . لقد تركوا [اللاجئون الفلسطينيون] مدنا بأكملها مثل يافا ، عكا ، اللد ، الرملة ، بيسان ، المجدل : ٣٨٨ بلدة وقرية وأجزاء واسعة من ٩٤ مدينة وبلدة أخرى ، تضم حوالي ربع كل البنايات في اسرائيل . وقد ترك ١٠٫٠٠٠ دكان ومصلحة ومخزن في أيد يهودية ... في ١٩٥١ ــ ١٩٥٢، أنتجت بيارات [حمضيات] العرب مليونا وربع المليون من صناديق الفاكهة ، صدر منها ٤٠٠٫٠٠٠ صندوق . لقد أعطت الفواكه العربية المصدرة للخارج حوالي ١٠ ٪ من دخل صادرات البلد من العملة الاجنبية عام ١٩٥١ . وفي عام ١٩٤٩ ، كان انتاج زيتون البساتين العربية المهجورة ثالث أكبر صادرات اسرائيل، بعد الحمضيات والماس ... وقد أجر القيم [على أملاك الغائبين] ٢٠٫٠٠٠ دونم [الدونم ٢٣ر٠ من الأكر] من ملكية الغائبين عام ١٩٥٢ من أجل أغراض صناعية . ان ثلث انتاج اسرائيل من الحجارة قد أعطاه ٥٢ محجرا عربيا في ظل هذا التشريع »(١٢).

ليس غريبا ، اذا كانت الاهمية الاقتصادية لأملاك اللاجئين بالنسبة لاسرائيل معطاة ، أن يكون الاقتصاد أحد الاسباب المقدمة من أجل رفض السماح لهم بالعودة . ففي آب (اغسطس) ١٩٤٨ ، عندما كان الاسرائيليون يستولون علـــى البيارات ويستوطنون المنازل ، بل حتى يطبخون في نفس الاواني التي أرغم الفلسطينيون على تركها وراءهم ، كتب موشيه شرتوك ، الذي كان وزير خارجية اسرائيل ، الى وسيط الامم المتحدة ، كونت برنادوت ، أنه لا يمكن السماح للاجئين العرب الفلسطينيين بالعودة لأسباب منها انه «على الصعيد الاقتصادي، ستمثل اعادة دمج العرب العائدين في الحياة الاعتيادية ، بل وحتى مجرد اعالتهم ، مشكلة مستعصية الحل . ان مصاعب التكيف والاستخدام والعيش العادي ستكون مستعصية »(١٣).

خلال السنوات القليلة الاولى من عمر دولة اسرائيل ، وقبل أن تصبح واضحة جدية المقاطعة العربية ورفض الدول العربية ان توافق على علاقات سلمية مع اسرائيل ، برزت قضية سياسية ــ اقتصادية حرجة أمام الصهاينة . فلقد اقيم اقتصاد مستوطنتهم في فلسطين واقتصاد الدولة الحديثة التكوين على أساس الاستبعاد الاقتصادي للعرب الفلسطينيين ، وكان على اسرائيل أن تختار بين الاستمرار في طريق العزلة الاقتصادية عن السكان العرب او أخذ المسار الاستيطاني الاكثر اعتيادية والذي كـــان يدعو اليه بعض قادتها .

وقد جاء في تقرير لجنة فورتشن عام ١٩٥٠ أن حاييم وايزمان ، أول رئيس لاسرائيل ، « يتحدث عن صيرورة اسرائيل (سويسرا الجديدة) ، التي تمد أسواق الشرق الاوسط الواسعة بالبضائع الاستهلاكية »(١٤). لقد كان التنبؤ بمناخ ممتاز لتصديـــر البضائع المصنعة الى بلدان الشرق الاوسط قائما على اساس أن « العديد من اليهود الذين جاءوا الى اسرائيل هم عمال ذوو مهارة عالية : ومع المعدات وطرائق الانتاج الحديثة فانهم واثقون من المقدرة على تطبيق مهاراتهم على المواد الخام الرخيصة وانتاج الحاجيات القابلة للتصدير مثل الاجهزة والمنسوجات والمعادن والكيماويات . وسيكون بمقدور الشركات الاميركية القائمة في اسرائيل ان تبيع بالعملات الجارية لبلدان أوروبا والشرق الاوسط ، ومن خلال تجارة الصادرات والسياحة تتوقع اسرائيل الحصول على دولارات صعبة بحيث يمكن للمستثمرين الامريكيين ان يأخذوا نسبتهم السنوية البالغة ١٠٪ »(١٥).

لقد جذبت التوقعات من هذا النوع الراسمال البريطـــاني والهولندي والجنوب ــ افريقي ، وخاصة الامريكي الى اسرائيل ، استثمارات أجـــريت « ليس ... بدافـــع

التعاطف بل توقعا للارباح »(١٦). وفي غضون سنتين بعد تأسيس الدولة ، تشارك عدد من الهيئات الامريكية الرئيسية مع راس المال الاسرائيلي لاقامة أول صناعة كبرى في الشرق الاوسط(١٧). فقد أقامت شركة جنرال تاير أند ربر مصنعا برأس مـال قدره ٥ ملايين دولار قرب حيفا ، واقامت شركة كيسر ـ فريزر مصنعا برأس مال قدره ٢ ١/٢ مليون دولار قرب عكا . وكانت شركة فلكو تخطط لانتاج برادات قرب تل ابيب وشركة جنرال شو تفتح مصنعا في القدس . ورصدت شركة مولر ـ دي تكستايل كوربريشن مبلغ ١/٢ ٢ مليون دولار لعمليات الغزل والنسيج في اسرائيل(١٨).

لا يمكن لهذه الرؤيا عن امكانات اسرائيل الاقتصادية أن تتحقق ما دامت المقاطعة العربية قائمة (وقد أصبح واضحا بالتدريج ان المقاطعة ستدوم حتـى اقامة السلام رسميا)، ولكن كان لها تأثير عميق على شكل سلام المستقبل الذي بدأ بعض الاسرائيليين بالحديث عنه . ففي حديث امام الامم المتحدة عام ١٩٥٢ ، صور ابا ايبان نموذج التجارة التي قد تنشأ فيما لو رفع العرب الحظر واقيم السلام : مواد خام من البلدان العربية ـ انتاج زراعي من سوريا ولبنان والاردن ، لحوم من العراق وقطن من مصر ـ يمكن شحنها الى اسرائيل ، التي بدورهـا تستطيع تصديـر بضائع مصنعة الـى البلدان العربية(١٩). ان تبادل البضائع المصنعة بالمواد الخام هذا ، هو بالطبع النموذج التقليدي في التجارة بين البلد المستعمر والمستعمر ، وهو النموذج الذي كان على مدار المئتي سنة الاخيرة ، عاملا رئيسيا في تخلف وفقر معظم سكان الارض . لقد كان ابا ايبان يدعو الى اعادة جديدة لهذا النموذج القديم في الشرق الاوسط عندما أعلن ان اسرائيل تطمح في اقامة علاقات مع جيرانها العرب « شبيهة بالعلاقات بين الولايات المتحدة وقارة امريكا اللاتينية »(٢٠).

وعلى أي حال ، فقد حالت المقاطعة العربية دون تحقق هذا الحلم النيوكولونيالي ولو جزئيا حتى عام ١٩٦٧(٢١). خلال فترة الانتداب كان على الصهاينـة ، غير الراغبين لاسباب سياسية عنصرية في استغلال العمل العربي ، ان يدعموا أنفسهم بتمويلات من الخارج . وبعد تأسيس الدولة ، قطعت المقاطعة العربية الاسواق المربحة التي كان من الممكن لاسرائيل أن تتوجه اليها راغبة فيها ، ومرة أخرى ، كان على الصهيونية اللجوء الى تدفقات ضخمة لراس المال الاجنبي من أجل نموها ، وفي الواقع ، حتى مـن أجل بقائها على قيد الحياة . وقد وجدت بعثة من البنك الدولي درست الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٦٨ ان الانجازات الاقتصادية الاسرائيلية « كانت في الغالب نتيجة عاملين : سكان قادرين ومصممين مع قاعدة عريضة من الناس المتعلمين جيدا والحيويين الذين اثبتوا مقدرتهم على تخطي صعوبات التطور الاقتصادي بابداع عظيم ، وتدفق مستمر وكبير نسبيا للراسمال الاجنبي القادم بشكل رئيسي من التبرعات الخاصة لليهود الامريكيين ومن مدفوعات التعويض الالمانية الغربية . كان من الممكن أن تكون « معجزة اسرائيل الاقتصادية » مستحيلة في حال عدم توفر أحد عاملي النمو هذين : المهـارة البشرية والرأسمال الاجنبي »(٢٢).

لا يشكل الاستثمار الا ثمن راس المال المستورد في الفترة بين ١٩٥٠ و١٩٦٧ ؛ فقد كانت معظم واردات رأس المال هبات(٢٣). وقد قدر أحد الاقتصاديين انه في الـ ٢١ سنة التالية لاقامة الدولة ، لم يعوض سوى ٣٠ ٪ من فائض الاستيراد الاسرائيلي الضخم والبالغ ٢٫٦٥٠ دولارا للفرد « في ظل ظروف تدعو الى تصدير مقابل ، للاعتمادات أو لمصالح أو رأس المال »(٢٤).

لقد كان المتبرع الاكبر لاسرائيل هم يهود العالم ، الذين مولوا في الفترة ما بين ١٩٤٩

و١٩٦٥ حوالي ٦٠ ٪ من فائض الاستيراد الاسرائيلي(٢٥). ومعظم هذه الاموال جاءت من الولايات المتحدة — ٨٠ ٪ من **سندات دولة اسرائيل**، على سبيل المثال، بيعت في الولايات المتحدة(٢٦)— وتكون بذلك هبة غير مباشرة من حكومة الولايات المتحدة* التي تسمح باستثناءات ضريبية عن التبرعات المرسلة الى اسرائيل . والمصدر الرئيسي الثاني لراس المال الاجنبي كان المانيا الغربية، التي دفعت ٧٠٠,٠٠٠,٧٣٦,١ دولار الى الحكومة والسكان الاسرائيليين في الفترة ما بين ١٩٤٩ و١٩٦٥ كتعويضات، ممولة بذلك حوالي ٢٩ ٪ من فائض الاستيراد الاسرائيلي(٢٨).

لم يكن استيراد راس المال الاجنبي حيويا فقط لنمو الاقتصاد الاسرائيلي خلال هذه الفترة؛ بل وحتى من أجل اعالتها، ويعترف دافيد هورويتز، اقتصادي حكومي اسرائيلي لامع، ان استيراد راس المال في العشرين سنة الاولى من حياة اسرائيل « لم يمول الاستثمار وحسب، بل، والى حد كبير، الاستهلاك ايضا »(٢٩). وقد زادت المساعدة الحكومية الامريكية المصادر الاسرائيلية الاجمالية بنحو ٩ — ١١ ٪ خلال الفترة ١٩٥٥ — ١٩٦٠، ورفعت الاستهلاك الخاص بنحو ١٢ — ١٣ ٪ . وفي هذه الفترة، سمحت واردات فائض الغذاء على اساس برنامج P.L. 480 Title 1 لوحده باستثمارات نتج عنها زيادة دائمة مقدارها ٢ ٪ في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي(٣٠).

لقد أضافت حكومة الولايات المتحدة زيادة دراماتيكية منذ حرب حزيران في الكمية السخية اصلا من المساعدات التي كانت تعطيها لاسرائيل . وتتباهى ادارة نيكسون أنها أرسلت الى اسرائيل في أربع سنوات مساعدات اكثر من الكمية الاجمالية التي أرسلتها كل الادارات السابقة مجتمعة : فحتى عام ١٩٦٨، كان المجموع الكلي لمساعدات الولايات المتحدة لاسرائيل ١٧٤,١ مليون دولار على شكل هبات وقروض ومساعدات اقتصادية وعسكرية على مدار عشرين عاما؛ أما في السنوات الاربع ما بين ١٩٦٨ و ١٩٧٢ فقد بعث نيكسون ١٨٢,١ مليون دولار كمساعدات الى اسرائيل(٣١). ومع منتصف ١٩٧٣ كانت اسرائيل قد تسلمت الكمية المذهلة التي تنوف عن ٨ بلايين دولار كمساعدة اقتصادية من مصادر أجنبية مختلفة منذ بداية وجودها، او ما يعادل ٥٠٠,٣ دولار لكل اسرائيلي(٣٢) — أي ما معدله ٢٣٣ دولارا من المساعدات للفرد سنويا . وهكذا فان معدل ما تسلمه الاسرائيلي من المساعدات فقط كل سنة يبلغ اكثر من ضعف دخل الفرد المصري (١٠٢ دولار عام ١٩٦٩) .

مأزق اسرائيل الاقتصادي

لقد نتج عن تقاليد اسرائيل الكولونيالية الفريدة في البقاء على قيد الحياة بواسطة التمويل الخارجي بنية اقتصادية غريبة وعجز كبير في ميزان المدفوعات . فبالرغم من الكمية الضخمة من الهبات الصرفة من الخارج، فان متطلبات اسرائيل الاستراتيجية لمستوى معيشة عال بشكل اصطناعي لسكانها ومعدات مستوردة غالية الثمن لجيشها تسبب عجزا في ميزان المدفوعات يبلغ حوالي ١/٢ ١ بليون دولار سنويا . لقد استوردت اسرائيل من البضائع والخدمات ما يساوي ٣ بلايين دولار عام ١٩٧٢ ولم تصدر الا ما يساوي ١/٢ ١ بليون دولار . ويبلغ الدين الخارجي ٠٠٠,١ دولار للمواطن الواحد،

---

* ولكنها هبة مربوطة بخيوط، لانه كان على اسرائيل ان تخدم مصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط، من أجل تحليل حسي للعلاقة بين المساعدة الخارجية ودور اسرائيل السياسي، أنظر مقال موشيه ماخوفر وعكيفا أور « الطابع الطبقي للمجتمع الاسرائيلي »(٢٧).

وتحتاج اسرائيل سنويا الى حوالي ١٠ ٪ من اجمالي ناتجها القومي من أجل مواجهة الدين فقط (٣٣).

لقد شنت اسرائيل حملات دعائية نشطة من اجل المساعدة الخارجية، لكنها تكره العجز والديون والتبعية التي تتلوها . وهكذا فان هدفا اقتصاديا اسرائيليا رئيسيا هو الاتجاه نحو « الاستقلال الاقتصادي » ، الذي يمكن تحقيقه عن طريق زيادة الصادرات(٣٤). وعلى أي حال ، فان لاسرائيل مشكلتين جديتين ومرتبطتين فيما يتعلق بالصادرات : نوع المنتجات المصدرة والاسواق التي ترسل اليها .

وقد كتب اقتصادي اسرائيلي حديثا ان « قلة من الناس ستعترض على أن توسيع هذه الصادرات التقليدية [الرئيسية] هو أمر غير مرغوب فيه من الناحية الاقتصادية »(٣٥). فالحمضيات ، التي شكلت عام ١٩٥٠ ٥٠ ٪من الصادرات البضاعية الاسرائيلية لا تشكل الآن سوى حوالي ١٥ ٪ منها . ومن غير المحتمل امكانية زيادة صادرات الحمضيات زيادة ملموسة ومع ربح معقول ، ما دامت افضل الاراضي قد تمت زراعتها والمياه الاضافية نادرة(٣٦) . وبالاضافة الى ذلك ، فان معظم الفواكه الاسرائيلية تصدر الى اوروبا وبريطانيا العظمى ، حيث تواجه منافسة حادة من الحمضيات الجنوب — افريقية والاسبانية ، التي يتم انتاجها بأجور منخفضة ، مما يعني مزية هامة في المنافسة في مثل هكذا صناعة مكثفة قائمة على العمل ، ويتم تصديرها عبر مسافة قصيرة الى السوق(٣٧). كما ان الصادرات الاسرائيلية من منتجات المناجم كالفوسفات والبوتاس تكبحها منافسة البلدان الاخرى وتكاليف النقل المرتفعة الى السوق ، لدرجة ان ارباح مبيعاتها في الخارج « تغدو هامشية ، واحيانا سلبية »(٣٨).

ان صادرات اسرائيل من البضائع المصنعة تعاني عوائق من ذاتها حيث تتطلب استيراد المواد الخام من أجل عملية الانتاج . فعلى سبيل المثال ، يعتمد الماس المصقول، صادر اسرائيل الاكبر ، على استيراد الماس الخام من جنوب افريقيا ، ويعتمد بذلك على كارتيل **دي بيرز** القوي الذي يسيطر على سوق الماس الخام . وبالاضافة الى ذلك ، فان صناعة الماس المصقول تقع تحت رحمة الطلب العالمي المتذبذب الذي يتغير بشكل كبير تبعا للظروف المالية الدولية ؛ والطلب المتذبذب خطير خاصة في صناعة ذات أرباح منخفضة للوحدة وقيمة قليلة مضافة(٣٩) . كما ان الماس المصقول الاسرائيلي عامل مهيمن على السوق العالمية ، ولا يتوقع له الاستمرار طويلا بمعدل نموه الحالي(٤٠)، وعلى الاخص مع المنافسة المتزايدة من بلدان كالهند واليابان(٤١).

لقد نمت صادرات المنتجات المصنعة الاخرى التي اعتمدت عليها اسرائيل في الماضي — الورق ، الخشب الرقائقي ، الاسمنت ، الاطارات وغزل القطن — قليلا جدا في السنوات الاخيرة ، تبعا لما لاحظته دراسة لمؤسسة **راند** ، لانه « في كل هذه الحالات ، كانت المنافسة على السوق العالمية حادة جدا ، جزئيا مع دول نامية أخرى . . . وقد كان العامل الحاسم في نموها السابق يعود الى حقيقة انها كانت معززة بوسائل اصطناعية مثل اتفاقيات التجارة الثنائية ومعدلات التبادل العالية الفعالية . . . واتفاقيات اقتسام السوق الوقائية حول السوق المحلية . ومع الزمن خفت هذه الحماية »(٤٢).

وبشكل عام ، تجهد اسرائيل لزيادة صادراتها من الصناعة « القائمة على العلم » . لكن المشكلة المتعلقة بالاسواق ما تزال قائمة . وقد عملت اسرائيل على توسيع تجارتها مع البلدان غير الصناعية ، خاصة في افريقيا ، وقدمت مساعدات عسكرية لدول رجعية — على سبيل المثال ، تدريب على قمع التمرد لجيوش تشاد واثيوبيا وتعليم مظليين من جيش كونغو — كينشاسا — من أجل تعزيز العلاقات الاقتصادية(٤٣). ونجحت اسرائيل

في ايجاد مستهلك لصناعتها الحربية الناشئة هو شاه ايران ، وحمل رشاشاتها من طراز عوزي الجنود البرتغاليون الذين يخوضون حروبا كولونيالية في افريقيا الجنوبية .

ومع ذلك ، فان اسرائيل ما زالت مجبرة على التجارة مع البلدان الراسمالية المتقدمة الاخرى بشكل رئيسي . يشحن ٧٠ ٪ من صادرات اسرائيل الى أوروبا الغربية وامريكا الشمالية(٤٤) . ومع أوائل السبعينات ، مال شركاء اسرائيل التجاريين الرئيسيين في أوروبا وامريكا الشمالية نحو مبدأ حماية صناعاتهم هم ، الامر الذي قلل من امكانية ان تقيم اسرائيل اقتصاد صادراتها على أساس شحن بضائع مصنعة الى تلك البلدان . فرض الرئيس نيكسون رسوم استيراد اضافية في الولايات المتحدة ، والسوق المشتركة توسعت . وكان من المفترض بتوسع السوق المشتركة ان تزيد التجـــارة بين البلدان المشتركة فيها لغير صالح تلك التي خارجها . وبالاضافة الى ذلك ، فان اسرائيل في معاملاتها مع بلدان السوق المشتركة ستواجه منافسة من البلدان النامية التي يسمح لها بشحن البضائع المصنعة وشبه المصنعة الى السوق المشتركة الحرة .

وهكذا ، فان اسرائيل واقعة في مأزق . عند تصدير المواد الخام ــ المنتجات الزراعية والتعدينية ــ فانها تواجه الحدود الجسدية للمصادر في اسرائيل ما قبل ١٩٦٧ والمنافسة من ممونين آخرين ذوي أجور وتكاليف نقل أقل . وعند تصدير البضائع المصنعة الى شركائها التجاريين الرئيسيين في أوروبا وامريكا الشمالية ، تواجه اسرائيل منافسة صناعات البلدان الراسمالية المتقدمة نفسها ورسومها الوقائية . وبالاضافة الى ذلك تعلن دراسة مؤسسة راند « ان الاسواق الاكثر طبيعية بالنسبة لاسرائيل هي البلدان العربية »(٤٦) . ولكن المقاطعة العربية منعت منتجات اسرائيل عن هذه « الاســـواق الطبيعية» التي طالما تاق اليها القادة الاسرائيليون . وكذلك فان المقاطعة قد منعت أشكالا اخرى من التغلغل الاقتصادي الاسرائيلي في هذه المناطق العربية . وطالما بقيت المقاطعة محكمة ، فلن يكـــون لدى اسرائيل سوى آمـــل ضعيف في تصدير مـــا يكفي لتحقيق « الاستقلال » الاقتصادي المزدهر الذي يصبو اليه قادتها . ان المأزق هو في اساس السياسة الحكومية الاسرائيلية في المناطق المحتلة منذ حرب حزيران .

الجدل الاسرائيلي حول المناطق المحتلة

عشية حرب حزيران ، كانت اسرائيل معزولة عن « اسواقها الطبيعية » في البلدان العربية ، ومحصورة ضمن علاقة قلقة مع بلدان راسمالية متقدمة اخرى ومعتمدة على التمويل الاجنبي من اجل بقائها الاقتصادي . وبعد ستة ايام من الحرب ، كانت اسرائيل قد ضاعفت المساحة الواقعة تحت سيطرتها اكثر من ثلاث مرات وكان مليون عـــربي فلسطيني تحت حكمها العسكري . واخيرا ، وبعد ١٩ عاما من العزلة الاقتصادية عن جيرانها العرب ، أصبح امام اسرائيل فرصة للنفاذ عبر حواجز المقاطعة العربية عـــن طريق اقامة علاقات اقتصادية مع المناطق المفتوحة . ولكن اغتنام تلك الفرصة يتطلب طلاقا فجائيا مع التقاليد التي قامت عليها اسرائيل .

وفي ضوء مخلفات الحرب ، نشب في اسرائيل جدل حاد حـــول الســـياسة الواجب اتباعها في المناطق المحتلة حـــديثا . وباستثناء فئة صغـــيرة من المجتمـــع الاسرائيلي ــ اعضاء الماتسبن وراكاح على سبيل المثال ــ كان الجدل بين أولئك الذين ينظـــرون الى الخلف نحو استبعادية الماضي وأولئك الذين ينظرون الى الامـــام نحو استغـــلال السكان العرب في المستقبل .

بالنسبة للتقليديين ، فان المليون عربي جديد يهددون بتلويث « يهودية » دولة اسرائيل وثقافتها . يخاف البعض ، من امثال وزير المالية بنحاس سابير ، انه فيما لو حـــاولت

اسرائيل ابتلاع المناطق الجديدة فانها ستغص ، ومن ناحية اخرى ، فانهم يؤكدون انه بالانسحاب من الاجزاء الكثيفة السكان من المناطق العربية على الاقل ، لن تخسر اسرائيل شيئا ، بل انها « تحرر نفسها من حمل » .

ان سابير هو أول من قلق بشأن (المشكلة الديموغرافية »* (السكانية) ، وقائع الاحصاءات السكانية ومعدلات الاخصاب تثير قلقه حول انه اذا ضمت اسرائيل المناطق المحتلة ، تصبح في غضون عشر او عشرين سنة دولة يهودية « بالاسم فقط »(٥٠). وقد وصفت دراسة حديثة لمؤسسة راند مولتها دائرة الدفاع الامريكية « الكابوس الديموغرافي » بالتعابير التالية : « انعكست فوارق الثقافة والبنية الاجتماعية الاساسية بين المجتمعات العربية واليهودية على معدلاتها النسبية في الزيادة الطبيعية . فقد تضاعفت الاقلية العربية الاسرائيلية من ١٥٠٫٠٠٠ عام ١٩٤٨ الى ٣٠٠٫٠٠٠ عام ١٩٧٠ ، اي بمعدل زيادة سنوي ضمني يبلغ ٣٫٨٪ ، بينما انخفض المعدل الطبيعي لليهود من ٢٫٦٪ عام ١٩٥١ الى ١٫٥٪ عام ١٩٦٧ . وعلى أساس التوقع المعقول ، على ما يبدو ، بأن فجوة مماثلة تميز معدلات الزيادة الطبيعية النسبية لليهود وعرب الضفة والقطاع ، ظهر جليا ان الاغلبية اليهودية التي كانت طفيفة اساسا (٦٠٪)(٥١) ستنقلب الى اقلية في المستقبل المنظور . ويبدو ان السؤال الوحيد هو حول التاريخ الدقيق لنقطة الانعطاف . ماذا سيحصل حينئذ لطابع الدولة اليهودي ؟ »(٥٢)

ينصب اهتمام ذوي الميول الاستبعادية تقليديا على الحفاظ على موقع « العمل اليهودي » وقيمه الخاصة كأساس للاقتصاد الصهيوني . ويتكثف اهتمامهم مع دخول عمال الضفة الغربية وغزة بأعداد ما انفكت تتزايد ضمن قطاعات البروليتاريا الاسرائيلية الاكثر استغلالا . فقد هز سكرتير الهستدروت يتسحاق بن أهرون اجتماعا لسكرتارية حزب العمل عقد في شباط (فبراير) بقوله « انني لا اعرف ما اذا كانت المناطق التي نسيطر عليها هي أوراق رابحة او ربما كانت جمرات تشعل أساساتنا . . . انني لست متأكدا على الاطلاق اننا سنستنتج يوما ما ان جزءا معينا من السكان وقطاعات معينة من المنطقة يجب الا تكون تحت سيطرتنا حتى بدون تلقي توقيع مقابل [على اتفاقية سلام] . وبدون ان أكون ماركسيا متطرفا ، يمكن القول انه شيء جميل حقا بناء الصهيونية بواسطة العمل العربي ، ان نبني مدن الاقتصاد ونستمتع بها . سنسمع عما قريب ان كل من يقول انه لا يريد ان يصبح ثريا على حساب عمل عرب المناطق يكون يشك في تحقيق الصهيونية ويعيق الخلاص والتطور »(٥٢) .

وقال بن أهرون « تلخيصا لهذه المسألة ، لم تفترض صهيونية العمل قط امكانية

---

* هناك سياسيون اسرائيليون آخرون قلقون بشأن المشكلة الديموغرافية ولا يرغبون في الانسحاب من المناطق المحتلة . فقد اقترح بن جوريون مثلا عدم التخلي عن المناطق المفتوحة بل خوض معركة عنيفة على جبهة اعادة الانتاج . ومع ملاحظة انه اذا استمر معدل الزيادة الطبيعية للعرب الفلسطينيين كما كان عليه « ستضم أرض اسرائيل الكاملة ، بدون شرق الاردن ، خلال عشرين عاما ٣٫٥ مليون من غير اليهود » ، يضيف معلقا ، « واذا استمر معدل الولادة اليهودي في الانخفاض كما في السنوات السابقة ، فانه ليس من الصعب تخيل ما يحصل لدولة اسرائيل »(٤٧). لذلك فانه ينصح بأن يشرح « لكل امراة يهودية قادرة على فهم الحاجات الفريدة لدولة كاسرائيل ان واجبها الرئيسي هو انجاب ٤ اطفال على الاقل خلال ٨ ــ ١٠ سنوات بعد زواجها ، قدر الامكان »(٤٨). ويقترح عرض « حوافز » على شكل مساعدات اقتصادية خاصة للعائلات الكبيرة . ولان الدولة ستكون أغلب الظن مجبرة على مساعدة اليهود والعرب على حد سواء، يدعو بن جوريون ان يتولى الامر الوكالة اليهودية او منظمة اخرى تساعد اليهود فقط(٤٩).

ان يصبح اليهود في أرضهم هم أمة تحكم امما اخرى » . واكد ان المتطلبات الاولية للتطور الصهيوني كانت ستقترن بخلق وضع كارثي فيما لو استمر استخدام العمل العربي على نطاق واسع في اسرائيل : « ان هدفنا هو الحفاظ على اقتصاد كبير ، وجدول هجرة كبير ، وان نطور بلدنا . ويتطلب هذا الهدف جهودا طائلة تجلب لنا أزمات جدية . وانني اخاف من التفكير باليوم الاول للازمة ، مع وجود عشرات الالاف من العرب العاملين في مصانعنا والذين يعززون فرق الانشاءات عندنا . لن تكفينا كل اخلاق اليهودية وتقاليدها . وكل ما يعمله هؤلاء العرب لن يحسب لصالحهم . سيبقون غرباء . وسيبقون أول من يطرد »(٥٤).

لقد دفع « كابوس سابير الديموغرافي » وتحليل بن اهرون* القائل بأن طوفان العمال العرب الفلسطينيين سيغرق الدور التاريخي الخاص بالبروليتاريا اليهودية في اسرائيل اقلية من الاسرائيليين لدعم الانسحاب من الاجزاء الكثيفة السكان من المناطق المحتلة . ولكنهم على اي حال أقلية ضئيلة ، وينشأ طموحهم عن عنصرية الاستبعاد التي قامت عليها المستوطنة الصهيونية .

بالنسبة للتقليديين ، يمكن ان تكون المناطق المحتلة جذابة ومغرية ، لكن سكانها متمردون . وقد لخص ليفي اشكول وجهة نظرهم بقوله « الدوطة رائعة ، لكن العروس قبيحة »(٥٧). والتقليديون ، الذين يحبذون انسحابا جزئيا على الاقل ، مستعدون في الواقع للتخلي آسفين عن الدوطة وفسخ الزواج . لكن هنالك آخرين — ممن يتبعون ايضا تقاليد استبعاد العرب — يرغبون في اغتصاب الدوطة وطرد العروس . ان أحد البارزين من دعاة الضم هو يسرائيل سايب — الداد الذي كان «الايديولوجي الرئيسي» لعصابة شتيرن والذي يشغل حاليا منصبا مماثلا في حركة ارض اسرائيل . ان حركة أرض اسرائيل ، وخاصة الداد ، « قد اشارت صراحة الى ضرورة مغادرة مجموعة كبيرة من العرب المناطق المحتلة ، مع التبرير القائل اذا كانت اسرائيل قد أخذت مليون يهودي من البلدان العربية فستكون هذه البلدان راغبة في أخذ عدد مماثل من العرب »(٥٨).

ومن الجماعات الاخرى الداعية الى الضم رابطة الدفاع اليهودي التي أخذت على عاتقها في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ العمل لانقاص سكان المناطق المحتلة العرب الفلسطينيين . فقد ارسلت الرابطة رسالة الى ٧٠٠ عربي في الضفة الغربية تقدم فيها عرضا بتمويل هجرتهم ، مع مبلغ مقداره ١٫٠٠٠ دولار لكل مهاجر(٥٩). وقد تضمنت رسالة الرابطة ، المكتوبة بالعبرية ، اعلان ما يلي لمتسلميها العرب :

---

* ان دفاع بن اهرون عن « القيم الاساسية لصهيونية العمل » قد جره الى نقاش مرير مع اعضاء آخرين من نفس حزب العمل: لم تدر المناقشات حول القضايا التي أثارتها دعوة بن أهارون العابرة للانسحاب وحسب، بل والتي أثارتها هجماته العنيفة على الحكومة بسبب سياساتها الاقتصادية لفترة ما بعد الحرب ، التي أكد انها رفعت الارباح لا الاجور وخلقت طبقة من المليونيريين الجدد (لدى اسرائيل الان حوالي ٢٠٠ مواطن يملك كل منهم ما يبلغ مليون ليرة اسرائيلية — ٢٣٩٫٠٠٠ دولار — او اكثر)(٥٥). وأعلن بن أهرون ان « الفئات الاجتماعية الموجودة في هذا البلد جاءت نتيجة لسياسة واعية ومقصودة ، وليس بالصدف ... والسياسة الحالية تعمل على ايجاد رأسمالية في اسرائيل »(٥٦).

ويبدو ان احدى النقاط التي يتبلور حولها النقاش فيما يختص بالمناطق المحتلة هي بين أولئك المرتبطين بالقطاعين العام و« العمالي » (الهستدروت) من الاقتصاد ، مثل بن اهرون ، الذي يدعو الى قيم الاستبعاد العنصرية التقليدية ، وأولئك المرتبطين بالقطاع الخاص النامي سريعا للراسماليين الذين يطمحون في فرص جديدة لاستغلال العمل اليهودي والعربي ولدخول الاسواق العربية الواسعة .

« من الواضح ان مواطني اسرائيل اليهود لن يكونوا راغبين على الاطلاق في التخلي عن أي شبر من أرض اسرائيل . لن يكون هنالك انسحاب من تلك المناطـق من أرض اسرائيل التي حررت في عام ١٩٦٧ . ولهذا السبب بالذات فان الحضور المستمر لاقلية نامية ومتبلورة من العرب ، حتى ضمن حدود « الخط الاخضر » ، أي حدود اسرائيـل الصغرى [ما قبل حرب ١٩٦٧] ، يشكل خطرا في المستقبل . وبما اننا نحترم العاطفة القومية العربية ، فاننا نعي امكانية توتر متواصل ينشأ بين الاغلبية اليهودية والاقلية العربية ، مماثل للتوتر الحاصل في ايرلندة الشمالية . وهكذا ، ومن اجـل السـلام والاخوة ، فنحن ننصح باتخاذ خطوات لمنع هذا الخطر . ان كل شعب يفضل العيش في بلده هو ، وليس تحت حكم الاخرين . لهذه الاسباب نتوجه اليكم ونقترح ان تهاجروا من ارض اسرائيل . ولهذا الغرض، فاننا ننشىء «صندوق هجرة»، يساعد كل عربي يعيش داخل الخط الاخضر ، وخارجه ويرغب في مغادرة البلد »(٦٠).

ان كل التقليديين الاسرائيليين يرغبون ، قدر الاستطاعة ، في استبعـاد العـرب الفلسطينيين الاصليين من دولتهم التي يجب ان تصبح « يهودية كما انجلترة انكليزية او كما فرنسا فرنسية » كما يريدها الشعار الصهيوني القديم . ان اولئك التقليديين الذين يحبذون الانسحاب واولئك الذين يحبذون الضم يرفضون جميعا سياسة الدمج الاقتصادي للمناطق المحتلة مع اسرائيل ما قبل ١٩٦٧ . ان ابرز انصار الدمج الاقتصادي هو وزير الدفاع موشيه دايان ، وقد طبقت سياسته الكولونيالية فعلا في الاحتلال العسكـري للمناطق المفتوحة .

يرى دايان ورفاقه من انصار الدمج ان حكم اسرائيل للمليون عـربي فلسطيني في المناطق المحتلة هو فرصة ذهبية لاختراق المقاطعة العربية التي طالما كبحت الاقتصـاد الاسرائيلي ولتخطي مبدأ الاستبعادية القديم الذي قامت عليه اسرائيل . فبدلا من اثارة النقاوة الاثنية يعمدون الى وضع برنامج جديد لاستغلال المصادر الطبيعية والبشريـة العربية ، في البدء في المناطق المحتلة ومن ثم ربما في اجزاء اخرى من الشرق العربي .

ويعتقد دايان ان أولى الضروريات العمل ضد العزلة التي تفرضها المقاطعة العربية : فقد أعلن ذات مرة « علينا ان نحاول بالقوة — بالطبع لا اعني هنا بقوة السلاح — هدم الجدران التي تقف بيننا وبينهم على اساس الاتصال المباشر في الشؤون اليومية »(٦١)، وثاني المتطلبات هو دمج — او ، بشكل اقل مـداورة ، اخضاع — اقتصاد المناطـق المحتلة . وترتبط هذه الصلة الاقتصادية بين اسرائيل والمناطق المحتلة بشكل حميم ، في ذهن دايان ، بنوع السلام الذي يريده مع الدول العربية . وقد جاء في تقرير لصحيفة **النيويورك تايمز** ان « دايان قال ان التسوية السياسية الوحيدة التي تقبلها اسرائيل هي التسوية القائمة على اساس علاقات سلام بين اسرائيل وجيرانها العرب . وأضاف انه ضمن هذا الافق يجب تكثيف التعاون الاقتصادي بين اسرائيل والمناطق المحتلة اذا أريد تشغيل هذه المناطق بشكل مربح . وقد قال ، على سبيل المثال ، انه لا يمكن لقطاع غزة والضفة الغربية واسرائيل ان تعمل باستقلال عن بعضها بعضا في القضايا الاقتصادية. وقال انه يجب تصدير كل البرتقال بشكل منسق ، تحت اشراف اسرائيلي »(٦٢).

لقد كان دايان صريحا فيما يتعلق ببرنامجه حول الدمج الاقتصادي للمناطق المحتلة ، وغامضا تماما بالنسبة للبنية السياسية التي يحبذ بها للمستقبل . وقد جاء في تعليـق لمسح اجرته مؤسسة **راند** ، « وهكذا يبدو ان دايان يهدف الى تسوية بحيث تغـرق مسألة السيادة الاقليمية في خضم الروابط الاقتصادية والشخصية التي تكون قد وجدت في المنطقة . ان مثل هذه الروابط ستكون موجودة بين المناطق العربية والبلدان العربية

الاخرى ، كما ستكون موجودة بين المناطق العربية واسرائيل . في عملية خلق هـذا الوضع المائع ، في بروسيس الدمج ، او ما أسمته مجلة « **الاكونومست** » الانتشار (Osmosis) . سيكون لتعيين الحدود اهمية ثانوية »(٦٣).

وبالنسبة للسياسيين الاسرائيليين الذين ما زالوا يعتنقون مبدأ المفارقة التاريخية في الاستبعاد ، يشكل العرب الفلسطينيون المليون الذين تحت الحكم العسكري تهديداً للمجتمع الاسرائيلي ، ويكون الحل اما الاحتفاظ بالمناطق وافراغها نوعا ما من سكانها العرب ، او الانسحاب ، الى هذا الحد او ذاك . من المنطقة المفتوحة قبل ان يلوث سكانها العرب الدولة اليهودية . لقد كان هؤلاء التقليديون يشكلون الاقلية ، اما دايان فقد كان في مركز السيطرة ، لقد عمل دايان والاخرون الذين يشبهونه على اقامة علاقات بين اسرائيل والمناطق المحتلة على اساس رؤيا ابا ايبان القديمة حول استيراد المواد الخام من العرب وبيعهم في المقابل البضائع المصنعة ، علاقات «شبيهة بعلاقات الولايات المتحدة وقارة امريكا اللاتينية » . بالنسبة لدعاة الدمج الاقتصادي ، كان الاحتلال فرصة رائعة من اجل البدء بمهمة انشاء شكل جديد من الامبريالية في الشرق الاوسط .

سياسة الاحتلال في الدمج الاقتصادي

لتد حول برنامج الاحتلال للدمج الاقتصادي للمناطق المسيطر عليها الضفة الغربية وغزة وسيناء الى مستوطنات اسرائيلية*. وفي تقرير وزارة الدفاع الاسرائيلية حول « **التطور والوضع الاقتصادي في يهودا والسامرة وقطاع غزة وشمال سيناء** » ، فانها تحدد طبيعة العلاقة بين اسرائيل والمناطق المحتلة بشكل صريح تماما : « ان المناطق

---

* لن تتناول هذه الدراسة المشاكل الاقتصادية الخاصة بالقدس العربية ، التي كان حظها البائس في « التوحيد » مع القدس الاسرائيلية واعلان ضمها النهائي لدولة اسرائيل . لقد كان قرار ضم القدس الشرقية سياسيا أكثر منه اقتصاديا على التحديد ، وان الاثر الاقتصادي لاحتلال القدس يجب ان يوضع ضمن هذا الاطار الخاص .

كما ان هذه المقالة لن تتناول العواقب الاقتصادية لاحتلال مرتفعات الجولان ، لانها هي الاخرى تتبع نموذجا مختلفا . لقد أعلنت اسرائيل عن نيتها في الاحتفاظ بالجولان بشكل دائم ولاجل أغراض سياسية بالدرجة الاولى: يعطي موقع المرتفعات العسكري الاستراتيجي سيطرة للمدفعية على المستوطنات الاسرائيلية الواقعة في الوادي . (كما ان احتلال المرتفعات يجعل اسرائيل قادرة على منع البلدان العربية من تحويل روافد نهر الاردن) . ان وضع الجولان فيما بعد حرب حزيران يشبه ذلك الوضع الحاصل عام ١٩٤٨ في المناطق المستولى عليها بغرض اقامة الدولة الاسرائيلية . فقد هرب اكثر من ٩٠ ٪ من سكان الجولان (البالغ عددهم ٩٠,٠٠٠ نسمة) الى اجزاء اخرى من سوريا تاركين بيوتهم وحقولهم ومدينة القنيطرة بأكملها التي كان عدد سكانها سابقا ٢٠,٠٠٠ . ٩٠ ٪ من الـ ٦٤٠٠ من السكان الاصليين المتبقين هم من الدروز(٦٤).

تقوم سياسة الاحتلال الاسرائيلية في مرتفعات الجولان على انشاء مستوطنات زراعية اسرائيلية دائمة ، معظمها مدنية رسميا . (أعلنت اسرائيل في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩ ان قانونها المدني سيحل محل القانون السوري في المنطقة(٦٥)). وفي الفترة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٢ انفق الصندوق القومي اليهودي ٤,٥ ملايين دولار لتطوير مرتفعات الجولان وسوى ٦٧٥٠ أكرا من الاراضي الزراعية أقيمت عليها ١٢ مستوطنة . ويخطط الصندوق لان يسوي في السنوات الخمس اللاحقة ١٧٥٠٠ اكر اضافيا ويقيم ١٠ مستوطنات زراعية جديدة . وقد حث الصندوق ايضا على تطوير مركز مديني « لحل مشكلة انخفاض عدد السكان في الجولان »(٦٦)، مع ان للجولان ، بالطبع ، عددا كبيرا من السكان يعيشون الان في مخيمات لاجئين بأنحاء اخرى من سوريا . وفي السنة المالية ٦٨ — ١٩٦٩ ، استثمر ١٥ مليون ليرة اسرائيلية في الاستيطان بالجولان ، وخصصت ميزانية مقدارها ٣٠ مليون ليرة اسرائيلية للعام ٦٩ — ١٩٧٠(٦٧).

سوق اضافية للبضائع والخدمات الاسرائيلية من ناحية ، ومصدر لعوامل الانتـــاج ، خاصة العمال غير المهرة ، للاقتصاد الاسرائيلي من الناحية الثانية »(٦٨).

طالما كانت اسرائيل بحاجة الى سوق قريبة وشبه صناعية او نامية ، لصادراتها . وتسد المناطق المحتلة هذه الحاجة بشكل جيد وتنمو أهميتها بالنسبة لاسرائيل سريعا . ففي عام ١٩٦٩ بلغت صادرات البضائع الى المناطق المحتلة ٩ ٪ من مجموع صادرات اسرائيل ، اي بزيادة مقدارها ٥ر١٢ ٪ عن السنة السابقة(٦٩). ومع عـــام ١٩٧٣ ، أصبحت المناطق المحتلة ثاني أكبرسوق للصادرات الاسرائيلية (باستثناء الماس المصقول)، بعد الولايات المتحدة وقبل بريطانيا العظمى(٧٠).

ان الصادرات الاسرائيلية الى المناطق المحتلة هي بشكل رئيسي بضائع مصنعة . وتشهد هوائيات أجهزة التلفزيون المنتصبة على سطوح المنازل في المناطق المحتلة على اثر الصناعات الاسرائيلية على السوق المحلية ؛ فبينما كان عدد أجهزة التلفزيـــون في المناطق المحتلة قبل الحرب يبلغ ٠٠٠ر٣ ، فانه يبلغ الان ٠٠٠ر٠٠٠ر٤(٧١). وفي عام ١٩٦٩ ، كان ٨٣ ٪ من الصادرات الاسرائيلية الى المناطق المحتلة بضائع مصنعة . ومن اجل الابقاء على امتيازات أسواق الضفة الغربية وغزة حكرا على صناعات اسرائيل وحدها ، فانها حدت وبشكل صارم من السماح باستيراد بضائع مصنعة مـــن بلدان اخرى الى المناطق المحتلة . ولم يكن سوى ٣١ ٪ من البضائع التي استوردتها المناطق المحتلة من الضفة الشرقية للاردن والبلدان الاخرى منتجات صناعية ، كما تبين الارقام الواردة في الجدول التالي :

واردات المناطق المحتلة

(بملايين الليرات الاسرائيلية)*

	تموز — كانون الاول		
	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
الواردات الاجمالية	٦٢٫٠٦	٢٣٦٫٠	٢٩٥٫٤
الواردات من اسرائيـــل			
المجمـــوع	٤٧٫٠٠	١٧٨٫٨	٢٣٦٫٠
منتجات زراعية	١٠٫٠٠	٥٠٫١	٣٨٫٩
منتجات صناعية	٣٧٫٠٠	١٢٨٫١	١٩٧٫١
الواردات من الاردن			
المجمـــوع	٠٫٨	١٨٫١	٢٤٫٩
منتجات زراعية	—	١٣٫٣	١٧٫٠
منتجات صناعية	—	٤٫٨	٧٫٩
الواردات من دول اخرى			
المجمـــوع	١٤٫٨	٣٩٫١	٢٤٫٩
منتجات زراعية	٧٫٤	٢٣٫٠٧	٢٣٫٦
منتجات صناعية	٧٫٤	١٥٫٤	١٠٫٩

* منذ ١٩٦٧ وحتى نهاية ١٩٧٠ كانت الـ ٥٠ر٣ ليرة اسرائيلية تعادل دولارا امريكيا واحدا . وفي ١٩٧١ تغير المعدل الى ٢٠ر٤ ليرة اسرائيلية للدولار الواحد .

ان قوة عمل سكان المناطق المحتلة تغدو سريعا عاملا حيويا في الاقتصاد الاسرائيلي . ففي عام ١٩٧٢ ، كان ٥ ٪ من مجموع قوة العمل المدنية في اسرائيل تتشكل من عمال من الضفة الغربية وغزة ، وفي مجال البناء كان ٢١ ٪ من المنطقة المحتلة ، بينما كانت النسبة ١٧ ٪ عام ١٩٧١(٧٣). ويدخل عمال المناطــق المحتلة عام ١٩٦٧ الــى نفس المجالات ، البناء والزراعة ، التي كان العمال العرب « الاسرائيليون » قد تمركزوا فيها. ففي عام ١٩٦٩ مثلا كان ٢٠٫٧ ٪ من عمال البناء و٢١٫٥ ٪ من عمال الزراعة هم من تسميهم الحكومة الاسرائيلية بخجل « غير اليهود في اسرائيل » ، أو العرب القاطنين في اسرائيل ما قبل ١٩٦٧ (٧٤).

وبالارقام المطلقة ، ازداد عمال المناطق المحتلة في اسرائيل بسرعة مدهشة :

عمال المناطق المحتلة
المستخدمين في اسرائيل(٧٥)

الفترة	العدد
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨	٥٨٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩	١١٥٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠	٢٠٦٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٧١	٤٢٢٠٠
آذار (مارس) ١٩٧٢	٥٠٠٠٠
بداية ١٩٧٣ (بالتقدير)	٧٠٠٠٠

يمكن اعادة قرار الحكومة الاسرائيلية السماح باستخدام عمال من المناطق المحتلة في اسرائيل مباشرة الى النقص في قوة العمل عام ١٩٦٨ الذي هدد بايقاف التوسع المتسارع للاقتصاد الاسرائيلي . بعد الحرب مباشرة ، وقبل حصول النقص في قوة العمل ، رفضت سلطة التخطيط الاقتصادي الاسرائيلي استخدام عمال من المناطق المحتلة لخوفها من ان مشكلة البطالة القائمة بين الاسرائيليين ، البالغة في حينه ٢١ ٪ ، قد تستفحل . ولم توافق الحكومة على استخدام العرب الفلسطينيين من خارج « الخط الاخضر » الا في السنة التالية حين بدأ حوض العاطلين الاسرائيليين بالجفاف ، كما تظهر الاحصاءات التالية ، وحتى حينذاك فقد أكدت وزارة العمل على « الشرط الواضح بألا يؤثر ذلك على المواطنين الاسرائيليين »(٧٦).

المعدل اليومي للعاطلين عن العمل في اسرائيل(٧٧)

العام	العدد
١٩٦٧	١٢٫٥٢٥
١٩٦٨	٥٫٧٠٦
١٩٦٩	٢٫٣٩٥
١٩٧٠	١٫٥٩٥
١٩٧١	٩٣٨
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢	٦٦٠

وقد وصف مقال لصحيفة « الجيروزاليم بوست » المشاكل التي طرحها نقص قوة العمل على ارنست ووداك ، صناعي نسيج ، والحل السعيد الذي مثله استخدام عمال المناطق المحتلة : « عمر مصنعه القائم في هرتسيليا ٢٥ عاما وما زال يتوسع . ناظرا الى الوراء ، فانه يتذكر كيف نضب احتياطي اسرائيل من الباحثين عن العمل خلال الازدهار الاقتصادي الذي تبع حرب الايام الستة : (لفترة شهرين ، لم يوفر التبادل [تبادل العمل] عاملا واحدا . وقد عرضنا جائزة لاي مستخدم أحضر طالب عمل جديدا . لقد حاولنا كل السبل) . ان تجارة النسيج تشهد منافسة حادة . وتشكل الارباح ٣ ٪ من رقم المبيعات ، على حد قول ووداك . واذا لم تشغل الآلات طيلة الوقت ، يواجه الاقتصاد خسارة . ومع تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٨ قررت اديريت [شركة ووداك] وجوب البحث عن عمال في الضفة الغربية »(٧٨) .

وبالاضافة الى مجرد توفير الايدي التي تعتني بالآلات أو تقطف الفواكه او ترفع الطوب ، فان قرار الحكومة السماح باستخدام العرب الفلسطينيين من المناطق المحتلة ساعد المستخدمين على ابقاء الاجور منخفضة ، الامر الذي غالبا ما يكون أحد الاسباب في أن بعض « صهاينة العمل » من أمثال بن أهرون يعارضون بشدة سياسة الدمج الاقتصادي . وقد علقت افتتاحية للصحيفة اليومية الاسرائيلية « هاآرتس » في تموز (يوليو) ١٩٦٨ انه « من حسن الحظ ان هذه الهجرة [هجرة العمال من المناطق المحتلة الى اعمال في اسرائيل] يمكن ان تكون مفيدة ليس للعرب فقط بل وللاقتصاد الاسرائيلي أيضا . تظهر على اقتصاد اسرائيل علائم نقص في قوة العمل . وانه لمن الصعب القول ما اذا كان ذلك سيتطور الى ظاهرة عامة او يبقى محدودا في بعض الصناعات . وفي كل الحالات، سيلطف العرض الاحتياطي سوق العمل ويساعد في منع تضخم في الاجور»(٧٩) .

لم يدرأ «تضخم الاجور» بواسطة الزيادة في الحجم «احتياطي جيش العمل» وحسب، بل وأيضا بواسطة حقيقة أنه يمكن استئجار عمال المناطق المحتلة بأجور اقل من الاسرائيليين . ويتمركز عمال الضفة الغربية وغزة في أكثر الاعمال حقارة وأقلها اجورا في اسرائيل ، ولا يتلقون في المعدل سوى ٤٠ ٪ من معدل أجور العامل الاسرائيلي(٨٠) .

لقد أتمت اسرائيل امتصاص المهاجرين العرب اليهود من شمال افريقيا وآسيا ، كذلك الامر بالنسبة للعرب « الاسرائيليين » ، وكان عليها ان تبحث في مكان آخر عن عمال اضافيين يقومون بالعمل الذي تزدريه الشريحة ذات الامتيازات في اسرائيل . وهكذا ساعد استخدام عمال من المناطق المحتلة الحكومة الاسرائيلية في الحفاظ على الموقع ذي الامتيازات لسكانها الاوروبي والامريكي الاصل . ان الحفاظ على امتيازات المستوطنين ، في اسرائيل ، هو ضرورة استراتيجية ، ذلك لان الصهاينة قد اعتمدوا على الهجرة — وما زالوا يعتمدون على المهاجرين السوفييت والامريكيين ذوي المهارة العالية بشكل خاص — ليسكنوا دولتهم . لكن استئجار عمال عرب من المناطق المحتلة من أجل الحفاظ على تلك الامتيازات تطلب تغييرا في طبيعة العنصرية الاسرائيلية . في الماضي أوجد اقتصاد استثناء العمال العرب من الاستخدام المفهوم العنصري حول « العمل اليهودي » ، وتمجيد انكار الاعمال للعرب . اما الآن فقد أوجد استغلال العمال العرب عنصرا جديدا في البنية الفوقية الثقافية : الفكرة العنصرية القائلة ان العرب صالحون بشكل خاص للعمل القذر غير اللائق باليهود .

لقد برز هذا الاتجاه ساطعا في رسالة كان قارىء لصحيفة « هاآرتس » قد لقن كتابتها عندما ترددت رئيسة الوزراء جولدا مائير بشأن مسألة استخدام العرب من المناطق المحتلة في اسرائيل :

« اذا كانت السيدة مائير تريد أن ترى العمال العبريين يقطرون عرقا في أيام الصيف الحارة ، ان كان ذلك يسرها ، فذلك شأنها هي . ولكن ليس من الممكن ان يصبح المقياس الوطني الذي على أساسه يتم اقناع الجمهور بأنه يجب الا ندمج اقتصاد الضفة الغربية ... ان كل أم يهودية تريد ابنها ان ينهي مدرسته وجامعته وأن يصبح كيميائيا او تقنيا او مهندسا او على الاقل سمكريا مدربا . من الذي يدرب شباب اليوم على الاعمال البسيطة ، حمل اكياس الاسمنت او الاسفلت من أجل شق الطرق ؟ في مجرى الوقت سنحتاج في اي حال الى عمال عرب للبناء والزراعة وحتى للصناعة. ان المهاجرين هم ، أكثر فأكثر ، أناس يقع مجال اختصاصاتهم بعيدا عن هذه الاعمال البسيطة »(٨١).

لقد بدأ يتحقق ما توقعه بنحاس سابير عندما حذر من « ان دمج العمل العربي في الاقتصاد اليهودي سينتج نظاما ذا طبقتين مع صيرورة العرب عمالا لسحب المياه وقطع الخشب »(٨٢)*. وقد نتج عن ذلك تغييرات ثقافية رئيسية في بعض قطاعات المجتمع الاسرائيلي ، وصدام عنيف مع القيم التقليدية لـ « صهيونية العمل » . لقد عبرت بجلاء عن هذا التمزق في القيم القديمة رسالة مشهورة كانت امرأة قلقة قد كتبتها الى موشيه دايان ، ونشرتها الصحافة الاسرائيلية :

« ولد كلانا ، أنا وزوجي - في موشاف [مستوطنة زراعية تعاونية] في مركز البلد . وحتى حرب الايام الستة كنا نعيش بارتياح . ونعمل بجد ونوفر معيشة مشرفة . ولكن منذ الحرب تغيرت الامور جذريا . اذ ان زوجي . وهو رجل قدير ، أصبح مقاولا في عمل الزراعة . ان عمله لا يتضمن اية مشكلة : فالعمل رخيص وهناك دائما سوق له. واليوم لدينا ٥ عمال عرب وقد وصلنا الى درجة ان لا أحد في الموشاف يقوم بأي عمل مهما خف. وفي هذه الايام يرفض ابني الاكبر مجرد جز « الجنينة » قائلا « محمد سيقوم بذلك » . وان تطلب منه تحويل انابيب الري او ان يقوم بأي عمل يدوي هو أمر غير وارد على الاطلاق . ان اولادي وأولاد الموشاف الآخرين يغدون ، أمام مرأى ناظري ، ابناء رجال اغنياء من النوع الزائف السيىء السمعة . الذين يقوم الخدم بعملهم. انهم لا يعرفون ان يسوقوا الجرار الزراعي الواقف في باحتنا ويتصرفون وكأن عمل الزراعة ادنى من عزة نفوسهم ... وحتى الاسبوع الماضي ، كان العمال يعيشون في بيوت مكتظة عديدة في المنطقة. والان ومع احضار عمال آخرين للمساعدة على حصاد محاصيل الدفيئة**، فان البيوت المكتظة التي كانت تستوعب العمال اصبحت مليئة تماما . ولذلك بنى زوجي لعماله كوخا في باحة الحوش الخلفية . وعندما عبرت عن رفضي الشديد لهذه الخطوة ، طلب مني القيام بنزهة حول القرية . حسنا ، لقد تبين ان كل رجل محترم في القرية تحول الى مقاول ، بشكل او بآخر. وان الدفيئات التي يتم بناؤها جميعا بواسطة العمل العربي تزداد . ان العرب يعيشون في « الادغال » بضع أمتار من فيلاتنا المجددة ، واصبحت أنماط معيشتنا شبيهة بأنماط معيشة الافندي »(٨٣).

وهكذا ، فان سياسة الدمج الاقتصادي قد وفرت لاسرائيل أسواقا جديدة مهمة ، ومصادر لقوة عمل شديدة الاستغلال . لقد غدت المستوطنات شيئا حيويا للاقتصاد الاسرائيلي .

---

* لاحظ آخرون ، بشكل اكثر صحة . وجود ثلاث شرائح اثنية في المجتمع الاسرائيلي : اليهود من اصل غربي فوق ، والعرب الفلسطينيين تحت ، واليهود الشرقيين بينهما .

** الدفيئة : مستنبت زجاجي عالي الحرارة لانتاج النباتات .

الضفة الغربية

ان التلال والوديان الضيقة في الضفة الغربية لنهر الاردن هي من بين أصعب الاراضي زراعة في فلسطين . خلال فترة الانتداب وبينما استولى المستوطنون الصهاينة على السهول الخصبة قرب البحر المتوسط ، استمر فلاحو الضفة الغربية في فلاحة سفوحهم، وهي نفس السفوح التي زرعتها من قبلهم أجيال عبر القرون .

وفي ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ ،طرد أكثر من ٤٠٠٫٠٠٠ لاجيء الى الضفة الغربية من المنطقة التي أصبحت اسرائيل . وقد زادوا الى أكثر من الضعف عدد سكان المنطقة(٨٤) حيث لم يكن السكان الاصليين ، في الاساس ، قادرين على تحصيل معيشة كافية من مصادر الارض الشحيحة . وقد ضمت الضفة الغربية من قبل الملك عبدالله ، الالعوبة البريطانية حاكم شرق الاردن ، لتأسيس المملكة الاردنية الهاشمية . وفي الواقع لم يكن لدى تلك المملكة اي امل في النمو الاقتصادي ؛ فالضفة الشرقيــة كانت أفقر حتى مــن الضفة الغربية ، وتسبب تدفق اللاجئين الى العاصمة في انخفاض الاجور الى النصف ومضاعفة الايجارات والاسعار(٨٥) . وكان على الاردن أن يعتمد على المساعدات الخارجية ، أولا من بريطانيا ، ثم من الولايات المتحدة . وكان التحسن في الضفة الغربية أقل منه في الضفة الشرقية ، التي نالت افضلية معاملة الحكومة في القضايا الاقتصادية .

ولكن اذا كان اقتصاد الضفة الغربية مضطربا قبل ١٩٦٧ ، فان مشاكله اصبحت أكثر حدة منذ الاحتلال الاسرائيلي . فمع ان مستوى معيشة قطاعات واسعة من السكان قد تحسن ، فان الضفة الغربية هي الان مستعمرة اسرائيلية ، والروابط الاقتصادية مع اسرائيل التي تكبلها تزداد يوما بعد يوم .

لقد تطور الاثر الاقتصادي للاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية علــى عدة جبهات مترابطة . فبالاضافة الى استغلال عمال الضفة الغربية في اسرائيل ذاتها ، فان « عقود خدمة » (Subcontracts) الصناعة الاسرائيلية قادت الى استغلال العمال الفلسطينيين داخل الضفة الغربية ايضا . ومما له اهمية خاصة هو اعادة بناء زراعة الضفة الغربية بحيث يزداد نفعها وتبعيتها للاقتصاد الاسرائيلي عموما والصناعة الاسرائيلية بشكل خاص . واخيرا ، فان الاحتلال تسبب في اعادة توجيه تجارة الضفة الغربية ، بعيدا عن الضفة الشرقية والبلدان العربية الاخرى ونحو اسرائيل . وعلى أي حال ، فانه سمح باستمرار بعض التجارة بين الضفة الغربية وسائر البلدان العربية ، الامر الذي لــه دلالات اقتصادية استراتيجية فورية وبعيدة المدى .

العمــل

مع منتصف عام ١٩٧٠ ، كان حوالي ثلث مستخدمي الضفة الغربيــة يعملون في اسرائيل(٨٦)، ومنذ ذلك الحين بدأت هذه النسبة بالارتفاع . ففي أيلول ١٩٧١ ، كان عدد عمال الضفة الغربية المستخدمين في اسرائيل ، حسب التقارير الرسمية ، يبلغ ٣٣٫٤٠٠ . ويبين الجدول التالي الزيادة السريعة في عــدد عمــال الضفة الغربيــة المستخدمين في اسرائيل :

الاستخدام في اسرائيل لعمال الضفة الغربية(٨٧)

الفترة	عدد العمال والمستخدمين
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨	٥٫٠٠٠

أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩	٩٫٠٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠	١٤٫٧٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٧١	٣٣٫٤٠٠

وهذه الاحصاءات تتناول فقط العاملين « شرعيا » في اسرائيل ، اي أولئك الذين لديهم تصاريح من الحكومة الاسرائيلية ، ولكن من المقدر ان هنالك الرجال من المناطق المحتلة الذين يعملون « بصورة غير شرعية » في اسرائيل(٨٨). وانه بين هؤلاء العمال « غير الشرعيين » تكون ظروف العمل غير انسانية للغاية .

يعتمد اقتصاد الضفة الغربية الان بشكل أساسي على أجور سكانها الذين يعملون في اسرائيل : ففي عام ١٩٧٠ بلغ مجموع الاجور التي حصلها عمـــال الضفة الغربية في اسرائيل حوالي ٦٤ مليون ليرة اسرائيلية ؛ وشكلت ١٤ ٪ من اجمالي ناتج المنطقة(٨٩). وحيث ان عدد العاملين من الضفة الغربية في اسرائيل قد نما بسرعة بعد عام ١٩٧٠ ، وبلغ اكثر من الضعف في السنة التالية وحدها ، فليس من غير المعقول تقدير ان الاجور المحصلة في اسرائيل الان تشكل ثلث اجمالي ناتج الضفة الغربية ، او ربما اكثر من ذلك.

وقد كان لتصدير العمال اثر واضح على اجور العمل في الضفة الغربية ايضا . فقد اجبرت المنافسة مع المستخدمين الاسرائيليين مع الطلب المتزايد للعمل على رفع المعدل اليومي للاجر في الضفة الغربية من ٥ر٦ ليرات اسرائيلية في نهاية عام ١٩٦٨ الى ٦ر٩ ليرات اسرائيلية في بداية عام ١٩٧١(٩٠). وأضر ارتفاع الاجور بصغار المستخدمـــين — من رجال أعمال وحرفيين ومزارعين — الذين وجدوا انفسهم عاجزين عن منافسة المستخدمين الاسرائيليين وكبار صناعيي الضفة الغربية الذين يستفيدون من سياسة الاحتلال الاقتصادية . وهكذا تقدمت ، بشكل سريع ، عملية بلترة* الحرفيين وصغار الملتزمين الفلسطينيين(٩١). لقد كانت الزيادة في الاجور في الفترة ما بين ١٩٦٨ و١٩٧١ كبيرة ، حوالي ٣٨ ٪ ؛ لدرجة ان الدخل الحقيقي ، حتى بالنسبة للعمال المستخدمين في الضفة الغربية بالاضافة الى اسرائيل قد ارتفع نوعا ما ، بالرغم من الزيادة المرافقة في الاسعار . (ارتفعت مؤشرات اسعار الاستهلاك في الضفة الغربية من ٠ر١٠٣ في عام ١٩٦٩ الى ٢ر١١٩ في الجزء الاول من عام ١٩٧١)(٩٢).

يحصل عمال الضفة الغربية المستخدمين في اسرائيل على أجور اكثر بنسبة ٧٠ ٪ عن أجور العمال في الضفة الغربية(٩٣)**. ولكن على العاملين في اسرائيل الان ان يدفعوا

* البلترة : التحويل الى برولبتاريا .

** لقد أشار بعض الاسرائيليين الى الاجور الاعلى التي يستطيع عمال المناطق المحتلة ان يتلقوها كدليل على المنافع التي اضفاها الاحتلال الاسرائيلي على سكان المناطق المحتلة العربية . وقد وصل موشيه دايان الى حد القول « انني لا أعرف سياسة اكثر اشتراكية من سياسة تسمح لعربي من غزة بالعمل هنا من اجل الحصول على لقمة العيش والتعليم وبناء بيت أيضا الان »(٩٤). ان هذا الاعتذار معياري للكولونيالية او النيوكولونيالية يعرضه مستخدمو عمال العالم الثالث في بلدان « المتروبول » ، وانه لاعتذار مراوغ بشكل واضح . ان سلالم الاجور في البلدان الرأسمالية المتقدمة هي أعلى بكثير مما هي عليه في البلدان غير الصناعية المستغلة ، لان تكاليف ومستوى المعيشة في الاولى هي أعلى بكثير جدا : فعلى سبيل المثال ، كان الاستهلاك الخاص للفرد في اسرائيل يســـاوي ٥ر٤ أضعاف ما هو عليه في الضفة الغربية ، و٥ر٧ أضعاف ما هـــو عليه في غزة عـــام ١٩٦٩(٩٥). هنالك نموذج عالمي لعمال من البلدان او المناطق الفقيرة يسافرون الى البلدان الرأسمالية المتقدمة من أجل العثور على عمل هنـــاك برواتب أعلى مما يستطيعون تلقيه في بلدانهم ، ولكن من المستحيل القـــول

←

مصاريف نقل اضافية للباصات التي تتسلق طرق الضفة الغربية كل صباح لاخذ الرجال من اجل العمل في اسرائيل : كان نقل العمال ، في البدء ، من « السامرة » مجانيا ، لكن الحكومة الاسرائيلية قامت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ بتحويل وسائط النقل في الباصات الى عمل تجاري(٩٦).

ويظهر الجدول التالي أن عمال الضفة الغربية في اسرائيل يتركزون في أعمال البناء والزراعة ، وبشكل عام في أقل الاعمال أجورا . ويعمل أكثر من نصفهم في البناء ، خاصة في المنطقة المحيطة بالقدس ، حيث تقوم الحكومة الاسرائيلية ببناء بلوكات شقق تشبه القلاع ، معظمها فوق أراض عربية مصادرة ، من أجل ايواء مهاجرين جدد .

الاستخدام في أسرائيل عام ١٩٧٠ لعمال
الضفة الغربية ، حسب القطاع الاقتصادي(٩٧)

القطاع	النسبة المئوية
البنـــاء	٥٧
الزراعة	١٩
الصناعة	١٣
الخدمات	١١
المجموع	١٠٠

وينخرط العمال في هذه الاعمال اليدوية بواسطة سياسة اسرائيلية منهاجية . ويستأجرون من خلال مكاتب العمل الاسرائيلية ، التي يوجد منها الآن ٢٠ على الاقل تمارس عملها في الضفة الغربية(٩٨). وليس هدف هذه المكاتب ، التي تديرها وزارة العمل الاسرائيلية في ظل الحكم العسكري ، خدمة احتياجات المنطقة ومتطلبات الاستخدام ، بل تجنيد عمال لاسرائيل . ويغدو هذا الهدف اكثر جلاء مع مرور الوقت : فعلى اثر افتتاح المكاتب ، في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، استخدم ٤٤ ٪ من العمال الذين استأجرتهم المكاتب في الضفة الغربية وذهب الباقون للعمل في اسرائيل ، بينما في آذار (مارس) ١٩٧١ لم يخصص سوى ١ ٪ لاعمال في الضفة الغربية ، واستخدم ٩٩ ٪ في اسرائيل(٩٩).

تدخل الحكومة الاسرائيلية العمال الفلسطينيين في الصفوف الدنيا من البروليتاريا الاسرائيلية عن طريق حجب تصاريح العمل لاشخاص من المناطق المحتلة لاي عمل يعتبر

ان ربة البيت البيضاء الجنوب افريقية التي تستخدم طباخة من بانستوستان ، او ان صناعيا باريسيا يستأجر عاملا جزائريا ، او زارع كرمة في كاليفورنيا يشغل عاملا مكسيكيا مهاجرا ، او رجل أعمال في مقاطعة نيويورك يستأجر مهاجرا صينيا او امريكيا لاتينيا « غير شرعي » ، من المستحيل القول ان هؤلاء لا يستغلون المستخدم . وفي الواقع فان استخداما كهذا يتميز عادة بالاستغلال الشديد ، كما هو حال عمال الضفة الغربية المستخدمين في اسرائيل .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الوضع الذي يجبر العامل على الهجرة في سبيل العثور على استخدام افضل ، او اي استخدام على الاطلاق ، والتفاوت في مستويات المعيشة بين الدولة التابعة والدولة الامبريالية ينشأ (جزئيا على الاقل) من عدم عدالة الامبريالية . وليس هذا صحيحا في اي مكان أكثر منه في حالة اسرائيل والضفة الغربية ، ذلك لان الصهاينة هم الذين اقتلعوا اللاجئين الذين غمروا الضفة الغربية عام ١٩٤٨ ، وان اسرائيل هي التي اجبرت الضفة الغربية على الوقوع في قبضة عمان المدقعة .

مناسبا للاسرائيليين العاطلين عن العمل ، وعن طريق احالة عمال المناطق المحتلة الى الاعمال التي لا تتطلب مهارة او التي تتطلب بعض المهارة فقط ، التي أعطوا لها اعدادا قليلا ضمن برنامج مكثف للتدريب المهني ، الذي أسمته صحيفة « اسرائيل اكونومست » « معززا غير مباشر لوضع العمل »(١٠٠).

منذ آب (اغسطس) ١٩٦٨ ، افتتحت الحكومة الاسرائيلية ١٩ مركز تدريب مهني في الضفة الغربية . وهنالك تأكيد شديد على مهارات البناء : ففي ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ، كان ٧٠٠ من مجموع الـ ١٢٦٠ شخصا الذين أنهوا دروسهم قد درسوا البناء(١٠١). ويجذب المتدربون الى دروس البناء بواسطة علاوة مقدارها ٥ر٢ ليرة اسرائيلية لكل يوم دراسة، أي أكثر من الـ ٧٥ر١ ليرة اسرائيلية التي تدفع لطلاب الاقسام الاخرى في المراكز(١٠٢). (المعاش هو بالاضافة الى بدل طعام شهري توزعه الوكالة الامريكية المسماة هيئة كير من خلال برنامجها « الطعام من اجل العمل » . ستناقش عمليات كير في المناطق المحتلة في الجزء الخاص بغزة) . ومع أن الدروس الاخرى تتطلب سنة دراسة ، الا أن تدريب البناء يستغرق ثلاثة أشهر فقط قبل ان يكون المتدرب جاهزا للاستخدام .

ان أحد أوجه الاندفاع الاسرائيلي لاستيراد عمال من الضفة الغربية هو محاولتهم تجنيد النساء للعمل ، النساء اللواتي كن في المجتمع الفلسطيني تقليديا مخصصات للعمل غير المأجور في البيت وفي الحقل ، وهو نموذج كان ، بالطبع ، قد بدأ بالتغير قبل الاحتلال الاسرائيلي بكثير . وتلاحظ وثيقة صادرة عن وزارة الدفاع انه « في المدن [مدن الضفة الغربية] يبدو ان عرض العاملين قد استنفد تقريبا ، ولن يكون أي توسيع في قوة العمل ممكنا الا بتشغيل النساء وبالزيادة الطبيعية في عدد السكان القادرين على العمل »(١٠٣). ان سبعة من مراكز التدريب المهني التي افتتحتها الحكومة الاسرائيلية في الضفة الغربية هي لتعليم البنات والنساء على الخياطة ، في الغالب تمهيدا لاستخدامهن في مشاريع الملابس الاسرائيلية . وفي ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ، أتمت ١٨٠ امرأة مثل تلك الدروس(١٠٤). وفي موسم الحمضيات الاسرائيلي للعام ١٩٧٠ — ١٩٧١ ، كان من بين الـ ٠٠٠ر٧ عامل مستأجر من الضفة الغربية من أجل القطاف ٢٠٠ر١ امرأة عملن بشكل رئيسي في التعليب والتغليف(١٠٥).

قبل الحرب ، كان أغلبية العمال في الضفة الغربية يعملون في الزراعة ، وهي العمود الفقري لاقتصاد الضفة الغربية . فعلى سبيل المثال كان ٤٤ ٪ من عمال الضفة الغربية يعملون في الزراعة عام ١٩٦١ ، ولكن منذ الحرب ، كان هنالك تغير ملحوظ في نسبة العمال ، بعيدا عن الزراعة ونحو القطاعات الاخرى ، خاصة البناء .

تركيب استخدام عمال الضفة الغربية

حسب القطاع الاقتصادي (٪)(١٠٦)

	١٩٦١	١٩٦٩	١٩٧٠
الزراعة	٤٤	٣٩	٣٢
الصناعة	١٤	١٤	١٥
البناء	١٢	١٤	١٨
الخدمات والتجارة والصناعة	٣٠	٣٣	٣٥
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

يمكن اعادة الانخفاض الحاصل في نسبة العاملين في الزراعة الى ان العمال الزراعيين والمزارعين يتركون أراضي الضفة الغربية من أجل العمل في اسرائيل . وقد جاء في تقرير للحزب الشيوعي الاسرائيلي ان « ٢٣٨ر٠٠٠ دونم من الاراضي الزراعية لم تفلح في العام ١٩٦٨ — ١٩٦٩ في المناطق المحتلة ، ووصل هذا الرقم الى ٣٥٤ر٠٠٠ دونم في عام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ . وبناء عليه تترك التربة الزراعية في الضفة الغربية دون حراثة ، لان على العمال ، وحتى ملاكي الاراضي الصغيرة ، البحث عن عمل في اسرائيل »(١٠٧).

الزراعة

كان للاحتلال الاسرائيلي أثر عميق في زراعة الضفة الغربية . وقد تحددت سياسة الاحتلال الاقتصادية نحو زراعة الضفة الغربية باعتبارين : جعل تلك الزراعة تفي بغرض مد « عوامل الانتاج الاخرى » ، بكلمات وزير الدفاع الاسرائيلي ، وجعلها تخدم الخطط الاسرائيلية في الاسواق .

وفي الشهور التي تلت الحرب ، اقرت السلطات الاسرائيلية سياسة «جسور مفتوحة» يستطيع مزارعو الضفة الغربية بواسطتها شحن فائض منتجاتهم الزراعية (والصناعيون شحن منتجاتهم) عبر الجسور التي تمتد فوق نهر الاردن الى الضفة الشرقية غير المحتلة، وهكذا يسوق حوالي ثلث ناتج الضفة الغربية الزراعي في الضفة الشرقية . والجسور طبعا « مفتوحة » باتجاه واحد فقط ، وحرية الاستيراد من الضفة الشرقية غير مسموح بها . وعلى المدى الطويل ، تعمل سياسة « الجسور المفتوحة » هذه على ابقاء ممر اقتصادي بين الضفة الغربية والمناطق العربية المجاورة ، وذلك اعتبار سياسي هام اذا ما اريد للاحلام الاسرائيلية في الوصول الى الاسواق الواسعة للبلدان المحيطة ان تتحقق. (وحتى منذ الآن ، يحقق التجار الاسرائيليون فائدة جمة عن طريق شحن بضائعهم الى الضفة الشرقية تحت علامة صناعيي او مزارعي الضفة الغربية وغزة . ومع ان المغزى الاقتصادي لهذه العملية ما زال محدودا ، فان معناها الاقتصادي والسياسي الممكن كبير جدا) .

وبعد الحرب مباشرة حلت سياسة « الجسور المفتوحة » مشكلة الاسرائيليين في تصريف فائض منتجات الضفة الغربية الزراعية . فمن ناحية ، لو ترك الناتج دون أن يباع ، لكان اقتصاد الضفة الغربية انهار كليا ، وكان من الممكن ان تزداد مقاومة الشعب ، ولكان توفير الخدمات الضرورية استنزافا للاقتصاد الاسرائيلي . ومن ناحية اخرى ، لو كانت فواكه وخضروات الضفة الغربية قد وصلت الاسواق الاسرائيلية في الشهور التي تلت الحرب ، لكانت جعلت المنتجات الاسرائيلية المنافسة تباع بسعر أقل بمقدار ٢٠ الى ٢٥٪ (١٠٨). وفي البداية ، منع الاسرائيليون بيع منتجات الضفة الغربية في الاسواق الاسرائيلية عن طريق اجراءات تتطلب تصاريح خاصة وكشوفات طبية على الاغذية المحفوظة وشهادة بأن البضاعة المستوردة لن تسبب في أي فائض اسرائيلي(١٠٩).

وقد اصدر وزير الزراعة الاسرائيلي تعليمات بشأن زراعة الضفة الغربية دعت الى التقليل من اعتماد الضفة الغربية على التجارة مع الضفة الشرقية وادخال المحاصيل التي قد تكون مكملة للاقتصاد الاسرائيلي ، وصالحة للتصدير الى اوروبا او المعالجة في اسرائيل(١١٠). ذلك انه في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الاسرائيلية مهتمة في الحفاظ على سيل الصادرات من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، كانت تخاف من الاستمرار في الاعتماد على التجارة مع عمان . وقد عملت الصادرات الى الضفة الشرقية على منع ناتج الضفة الغربية من اتخام السوق الاسرائيلية او بقائه دون بيع ، وجلبت عملة صعبة حسنت وضع

اسرائيـــل المالي . وبالاضـــافة الى ذلك ، كان مهما الحفاظ على بعض تدفق البضـــائع من المناطق المحتلة الى البلدان العربية من اجل انعاش آمال اسرائيل في وصول منتجاتها الخاصة الى الاسواق العربية في المستقبل . لكن الاعتماد الزائد على التجارة مع الضفة الشرقية سيضع في أيدي حسين سلاحا قويا ، هو التهديد باغلاق الجسور ، مما يعطي حكومة عمان تأثيرا كبيرا على الحياة السياسية والاقتصادية في الضفة الغربية(١١١). كما ان استمرار النموذج التقليدي في تسويق الفائـــض الزراعي ســيعيق خطـــة اسرائيل لـ « دمج » زراعة الضفة الغربية والمنافع التي تعطيها للاقتصاد الاسرائيلي .

في عام ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩ وضعت السلطات الاسرائيلية ، باستشارة وجهاء الضفة الغربية و« قادتها الزراعيين » ، خطة جديدة للزراعة في الضفة الغربية(١١٢)، ركزت على تثبيط عزائم مزارعي الضفة الغربية عن زراعة بعض المحاصيل التي كانت تشحن عادة الى الضفة الشرقية ، وبدلا عنها ، زراعة المحاصيل التي تحتاجها اسرائيل . ان مثالا بارزا على الجهود الناجحة في تثبيط محصول كان يزرع سابقا من اجل البيع في الاسواق العربية هو انخفاض انتاج البطيخ وغيره من الفواكه التي تحتوي على نسبة عالية من الماء والتي كانت صادرا صيفيا مهما الى البلدان العربيـــة الجافة(١١٣). فقد انخفض محصول البطيخ في الضفة الغربية بين ١٩٦٨ و ١٩٦٩ من ٣٦٫٠٠٠ طن الى ٢٠٫٥٠٠ طن(١١٤)، ومع عام ١٩٧٠ كان قد انخفض الى ١٣٫٠٠٠ طن(١١٥). وعلى العكس من ذلك ، فان انتاج الضفة الغربية من المحاصيل التي تحتاجها اسرائيل يزداد : فمثلا قفز انتاج السمسم بين ١٩٦٨ و ١٩٦٩ من ٧٠٠ طن الى ١٫٧٠٠ طن ، وبين عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ زاد عدد الدونمات المزروعة بالتبغ من ٤٫٥٠٠ الى ١٢٫٠٠٠ . وزرع مزيد من الشمندر السكري للصناعة الاسرائيلية ، ومزيد من الخضروات ، كالباذنجان والفلفل ، للتصدير الى اوروبا(١١٦).

ان لوزارة الزراعة وسائل مدروسة لاحداث التغييرات التي خططتها لزراعة الضفة الغربية . واحد الادوات الحيوية في ذلك هو المجلس الزراعي الذي يوفر الارتباط بين الحكم العسكري والمزارعين . وقد جاء في تقرير للسلطات العسكرية ان « المجالس الزراعيـــة ، مجالس المناطق والمجالس الريفية وكذلك المجالس الزراعية الفرعية قد انشئت في المنطقة . وتتشكل المجالس من الوجهاء وزعماء المزارعين . وهنالك حوالي ٣٫٠٠٠ مزارع مرتبطين ضمن هذه الاطر . وتهتم المجالس بخطط الابحاث والتدريب ، والارشاد التسويقي والانتاجي ، والارتباط بالادارة »(١١٧).

وكحافز لزراعة محاصيل جديدة ، تمد « مشاريع التجارب » المزارع ببذور المحصول الموافق عليه ، زائدا التكاليف الاضافية عن محاصيله السابقة . وقد خصص ١٥ خبيرا زراعيا لبرنامج تدريب للمزارعين ، وقد نظم البرنامج امام حقل لتعليم عشرات الآلاف من العمال الزراعيين «طرائق جديدة»، ورحلات دراسية الى المرافق الزراعية الاسرائيلية ، ولبرنامج التدريب مركز في رام الله(١١٨). وللحكومة الاسرائيلية ايضا برنامج قروض للمزارعين ، كان مع العام ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ قد أعطـــى ١٫٥٠٠ مزارع قروضا بلـــغ مجموعها ٣ ملايين ليرة اسرائيلية(١١٩).

وتعزز السياسة التسويقية الاسرائيلية لمزارعي الضفة الغربية ايضا التقيد بتعليمات وزارة الزراعة بشأن المحاصيل . ويرتبط بهيئة الاحتلال العسكري ضابط تسويق من وزارة الزراعة(١٢٠)، الذي تقوم مهمته على تشجيع تدابير التسويق التي تخدم احتياجات الاقتصاد الاسرائيلي . فعلى سبيل المثال، أوصت الخطة الزراعية لعام ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ بأن « على المزارعين الذين ينتجون البندورة والباذنجان للتصدير ارسال فائض منتجاتهم

في شهري آذار (مارس) ونيسان (ابريل) الى الاسواق الاسرائيلية . فخلال تلك الفترة هنالك طلب على هذه المنتجات في السوق الاسرائيلية . ان هكذا برنامج سيعمل كحافز للمزارعين العرب من أجل توقيع عقود التصدير »(١٢١). ويستمر التقرير في وصف كيف ان عقود التصدير مفيدة للاقتصاد الاسرائيلي بشكل عام والصناعات الزراعية على الاخص ثم يخلص الى انه « بمساعدة وزارة الزراعة ، تم التوصل الى توقيع العقود بين المزارعين وصناعات التعليب الاسرائيلية . وهكذا فان المزارعين سيزيدون مساحة المحاصيل التي كان على اسرائيل ان تستوردها في السابق »(١٢٢).

وانه لجدير بالملاحظة انه بينما حددت الحكومة الاسرائيلية معظم الضفة الغربية لمحاصيل العمل الكثيف ، كما خططت قبلا للاراضي التي بقيت تحت الفلاحة العربية في اسرائيل ذاتها،يبدو ان منطقة واحدة من الضفة الغربية قد خصصت للزراعة الرأسمالية الكثيفة على أيدي المستوطنين اليهود . تلك هي منطقة وادي الاردن . وحديثا توقع مسؤولو دائرة الاستيطان في المنظمة الصهيونية العالمية انه يمكن ان يصبح وادي الاردن « المنزل الحار لاوروبا » وناقشوا مشاريع ممكنة فيه ، بما فيها مطار يمكن منه تصدير الخضروات والفواكه الشتوية الى اوروبا(١٢٤). ومع اوائل١٩٧٣ كان قد أنشئت سلسلة من ١٢ مستوطنة اسرائيلية على الاقل في وادي الاردن(١٢٥).

الصناعة والمال

في مجالات الصناعة والمال وكما هو الحال في الزراعة ، فان خطط اسرائيل في الضفة الغربية وغزة هي خطط كولونيالية . ولا تتضمن هذه الخطط ، بالطبع ، تشجيع بنية تحتية صناعية ، مستقلة وقوية في المنطقة : اذ ان غمر اسواق الضفة الغربية بالبضائع المصنعة الاسرائيلية يدحض مثل ذلك التصور . وقد خلصت دراسة لمؤسسة راند الى القول بأنه، كما هو حال العرب في اسرائيل فان عرب الضفة الغربية « لن يكون بوسعهم احراز أي تقدم ملموس في التنمية الصناعية »(١٢٦).

لكن هنالك نموذجا يبرز ، ويظهر ان الصناعيين الاسرائيليين يستفيدون من العمل المتوفر بأجور منخفضة في مصانع الضفة الغربية من أجل القيام بعمليات مساعدة لمصانعهم في اسرائيل وان الباب قد فتح أمام الرأسمال الاسرائيلي للتغلغل في صناعة الضفة الغربية .

ومع ١٩٦٩ ، أي بعد سنتين فقط من الاحتلال ، كان ٩ ٪ من قوة عمل الضفة الغربية الصناعية الصغيرة قد استخدمت في توفير طلبات الصناعة الاسرائيلية(١٢٧)، وفي السنة التالية ازدادت كمية العمل الملحق (Subcontracted) المنجزة في الضفة الغربية الى حوالي ثلاثة أضعاف . وقد تركز هذا النوع من العمل في نابلس .

قيمة العمل الملحق بالصناعة الاسرائيلية
والذي تنجزه معامل الضفة الغربية(١٢٨)

السنة	قيمة العمل المنجز
	ليرة اسرائيلية
١٩٦٨	٨١٠ر٠٠٠
١٩٦٩	١ر٣٨٥ر٠٠٠
١٩٧٠	٣ر٨٠٠ر٠٠٠

العمل الملحق بالصناعة الاسرائيلية
حسب المنطقة(١٢٩)

المنطقة	١٩٦٨	١٩٦٩
	ليرة اسرائيلية	
نابلس	٤٨٠٫٠٠٠	٨٨٠٫٠٠٠
رام الله	٣٠٫٠٠٠	٥٠٫٠٠٠
بيت لحم	٣٠٠٫٠٠٠	٤٣٠٫٠٠٠
الخليل	—	٢٥٫٠٠٠
المجموع	٨١٠٫٠٠٠	١٫٣٨٥٫٠٠٠

وقد أغريت صناعات الاقمشة والمطاط والاثاث الاسرائيلية ، بشكل خاص ، بالاجور المنخفضة المدفوعة في الضفة الغربية ، وقدمت معظم طلبات العمل الملحق . وجاء في تقرير لصحيفة «**الجيروزاليم بوست**» ان « محلات الخياطة تندفع للقيام بأعمال لشركات عطا وركس وبربير والاستيك وغيرها . وقد قال السيد بشار [من وزارة التجارة والصناعة الاسرائيلية] (لدينا ثمانية معامل أقمشة أخرى على استعداد لتلبية طلبيات اذا كان هناك من يأخذ) . وتتم العقود من قبل معامل الاثاث : فقد حجز معمل راحات في اللد طلبيات من شركات في نابلس وبيت لحم . وكانت شركة اسرائيلية تخطط لبناء مصنع « فرشات » خاص بها ، ولكنها عوضا عن ذلك قدمت طلبيات من معمل في الضفة الغربية بلغت قيمتها ٤٠٠٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٨ وستضاعف هذه الكمية هذه السنة [١٩٧٠] »(١٣٠).

في آب (اغسطس) ١٩٦٩ أعلنت الحكومة الاسرائيلية عن اعانات تقدمها للاستثمار الاجنبي والاسرائيلي في المناطق المحتلة ، بما في ذلك الاعفاء الضريبي وضمانات الامن وأسعار مخفضة ممكنة للمواد الخام . أما في حال المشاريع المشتركة ، فلن يكون الشريك الذي يسكن في المناطق المحتلة مشمولا بهذه الاعانات(١٣١). ومع ان المصانع التي يملكها اسرائيليون كانت قد بدأت بالظهور في غزة ، فقد بدا الاسرائيليون في البدء مترددين بشأن الاستثمار في الضفة الغربية ، وذلك ربما كان يعود الى ان الحكومة الاسرائيلية قد تركت موقفها حول مستقبل الضفة الغربية السياسي في غموض أكثر*.

---

* وعلى أي حال ، فقد تخلى الرأسماليون الاسرائيليون سريعا عن ترددهم بشأن الاستثمار في الضفة الغربية لانه ظهر في المناقشة التي جرت في الوزارة الاسرائيلية حول مبيعات الارض في المناطق المحتلة خلال نيسان (ابريل) ١٩٧٣ ان ٢٠٠ — ٣٠٠ صفقة قد « تم الاقتراب من عقدها ان لم تنجز » بما فيها شراء أرض في المناطق المحتلة ، من قبل اسرائيليين(١٣٢). وكان معظم تلك الارض بين رام الله وبيت لحم ، وكانت تطلب على شكل مساحات واسعة تصل الى ٧٠٫٠٠٠ دونم ، لاغراض التوقع(١٣٣).

وتحت ضغط حكومة الولايات المتحدة ، أعادت الحكومة الاسرائيلية الحظر على بيع الارض في المناطق المحتلة لاسرائيليين وأجانب . ولكن تناول الحظر المبيعات الخاصة فقط . وقد اعترف الصندوق القومي اليهودي انه حصل على ١٠٫٠٠٠ دونم في المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ ويعتقد انه قد اشترى بالفعل اكثر من ذلك بعدة آلاف دونم . وتسيطر الحكومة الاسرائيلية ايضا على الارض في الضفة الغربية ، التي كانت سابقا في أيدي الحكومة الاردنية وتبلغ حوالي سدس المنطقة بمجموعها . فمن مجموع الـ ٦ ملايين دونم تقريبا في الضفة الغربية ،

←

وعلى أي حال ، كان هنالك بعض المشاريع العربية ــ الاسرائيليــة المشتركة في الضفة الغربية ، بما فيها معمل التعبئة في أريحا(١٢٥).

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢ عرضت الحكومة الاسرائيلية حوافز مهمة جديدة للمستثمرين الاسرائيليين لتوظيف اموالهم في الصناعة في المناطق المحتلة . وفي الثامن من تشرين الاول قررت اللجنة الاقتصادية الوزارية ان تشمل المشاريع في الضفة الغربية بكل المنافع التي تعطى لمشاريع مناطق التنمية ذات الافضلية « أ » في اسرائيل ذاتها . وقد علقت صحيفة ((هآرتس)) على ذلك بقولها « جاء في تقارير الدوائر العليمة في القدس ان للقرار بتوسيع قانون تشجيع استثمار رأس المال مغزى سياسيا عميقا . وفي الواقع يعني قرار الحكومة انها على استعداد ، من الان فصاعدا ، لتشجيع اصحاب المشاريع الذين يقيمون صناعات في المناطق من خلال مجموعة من الامتيازات الاساسية ... ولم يواجه الاقتراح الذي تقدم به وزير الصناعة والتجارة ، حاييم بارليف ، الـى اللجنة الوزارية اية معارضة »(١٢٦).

وحتى بعض السياسيين « أخصام الدمج » في اسرائيل الذين يعارضون استيراد العمل العربي الى اسرائيل كانوا مغتبطين بالقرار المتعلق بحوافز الاستثمار للاسرائيليين في المناطق المحتلة(١٢٧).

ان الامتيازات الجديدة المعطاة للمستثمرين هي بالفعل اساسية . اذ انه سيكون بمقدور كل مشروع جديد يفتحه اسرائيليون في المناطق المحتلة الحصول على قرض يصل الى حد ٥٠ ٪ من الرأسمال العامل الضروري بفائدة قدرها ٩ ٪ ، وهو معدل منخفض حسب المعايير الاسرائيلية ، ولا يحتاج المستثمرون انفسهم الا الى وضع ٢٠ ٪ من رأس المال(١٢٨). وبالاضافة الى ذلك ، يستطيع المشروع الجديد تلقي منحة حكومية تصل الى ٣٣٫٣ ٪ من الاستثمار في تطوير الاماكـن والابنيـة ، زائدا ضعف عـلاوة الاستهلاك الاعتيادية ، وتأجيل التسجيل واقساط رأس المال والملكية ، والاعفاء من ضريبة الدخل لمدة خمس سنوات وضريبة قصوى على الارباح تبلغ ٢٨ ٪ . وهنالك تدابير خاصة لرأس المال الاجنبي(١٢٩).

في الوقت نفسه تقريبا الذي عرضت فيه الحكومة حـوافز لاصحاب المشــاريع الاسرائيليين في المناطق المحتلة ، عملت ايضا على توسيع عمليات البنوك الاسرائيلية هناك . منذ الحرب عام ١٩٦٧ والبنوك العربية في المناطق المحتلة مغلقة ، وهكذا لم يكن هنالك منافسة للبنوك الاسرائيلية . لكن عاملين اثنين حـدا من قـدرة البنـوك

فان أراضي الدولة الواقعة في أيدي الحكومة الاسرائيلية تضم ٧٣٠ر٢١٤ دونما من الاراضي المزروعة والمعمرة بـ ٠٠٠ر٣٠٠ دونم من الصحراء . وبالاضافة الى ذلك تسيطر الحكومة الاسرائيلية على ٧٨٩ر٣٢٨ دونما من « الاراضي المهجورة » في الضفة الغربية و ٤٠٢ر١٠ بناية تعود لـ « غائبين » ــ اي لاجئين هربوا عام ١٩٦٧ . ولا تضم هذه الممتلكات حوالي ٠٠٠ر٢١ دونم مصادرة في منطقة القدس الشرقية التي ضمت الى اسرائيل وفي ضواحيها .

وفي غزة تسيطر الحكومة الاسرائيلية على حوالي ثلث المنطقة بكاملها ، أراضي الدولة التي كانت تديرها سابقا الحكومة المصرية . تضم المنطقة ٣٧٠ر٤٥ دونما من الطرقات و ٥١٫٥٢٦ دونما في الساحل . وبالاضافة الى ذلك ، صودر حوالي ٠٠٠ر١٠ دونم من الاراضي في قطاع غزة من اجل ٥ مستوطنات اسرائيلية .

لا تضم هذه الارقام الارض الواقعة في المنطقتين والمعلنة « مغلقة لاسباب عسكرية » . وتصل الاراضي التي يشملها هذا التصنيف الى عدة آلاف دونم(١٢٤).

الاسرائيلية على اعطاء القروض ، وهما : وضع القانون الاردني حدا اقصى للفائدة يبلغ ٩ ٪ ، وهو اقل من المعدل الذي كان أصحاب البنوك الاسرائيليين يريدون اعطاء قروض به ، والثاني هو أنه ليس لدى أصحاب البنوك أية ضمانة بتسديد القروض . وحتى اواخر ١٩٧٢ ، لم تعط البنوك الاسرائيلية اموالا في الضفة الغربية الا في حالات « الدين المباشر » ، عادة لاغراض التنمية ، حيث كان على الحكومة ان توافق على كل قرض وتتعهد بالامن والفروقات الضرورية في الفائدة . ثم تخلت الحكومة الاسرائيلية عن المادة في القانون الاردني التي تضع الـ ٩٪ كحد أقصى لمعدل الفائدة ووسعت ضمانا حكوميا بلغ ٩٠٪ للقروض في المناطق المحتلة . وبالاضافة الى ذلك ، زادت الحكومة الحد الاقصى للضمانات الاجمالية للقروض في المناطق المحتلة من ٢٠ مليون ليرة اسرائيلية الى ٥٠ مليون ليرة اسرائيلية(١٤٠) . وتستطيع البنوك الاسرائيلية الان اقراض الاموال في المناطق المحتلة بنفس الشروط كما في اسرائيل : لقد فتح الباب أمام تغلغل رأس المال المالي الاسرائيلي في الضفة الغربية .

وبينما تستعد البنوك الاسرائيلية لصب العملة الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، تضع الحكومة برامج لسحب العملة الاردنية منها . ان كلا من الليرة الاسرائيلية والدينار الاردني هو عملة شرعية في الضفة الغربية ، وتهتم الحكومة الاسرائيلية باستمرار تدفق الدنانير من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية ومن ثم الى الصناديق الاسرائيلية ، لان الدنانير ، التي يمكن تحويلها بسهولة الى جنيهات استرلينية ودولارات ، تخفف من مشكلة اسرائيل في التبادل الاجنبي . وتشجع الحكومة الاسرائيلية تصدير البضائع المصنعة من الضفة الغربية الى الشرقية بسبب العملة الصعبة التي تحصلها هذه الصادرات ، وحتى انها تدفع نقدا حوافز للمصدرين لتحويل الدنانير المدفوعة في عمان لقاء بضائعهم الى الحكومة الاسرائيلية على اساس تبديلها بالعملة الاسرائيلية . وفي آب (أغسطس) ١٩٧٠ ارتفعت الحوافز الى معدلات عالية جدا : للسمن ، ٨٠ اجورا اسرائيلية لكل دولار ، او حوالي ٢٣ سنتا ، وللشموع والصابون والمشروبات الروحية والبلاستيك ، مثلا ، ١٠٥ اجورات لكل دولار ، او حوالي ٣٠ سنتا(١٤١) . وقد جاء في تقرير الادارة العسكرية ان « الارتفاع في معدلات الحوافز قد وسع رقم مبيعات الدنانير المأخوذة لقاء الصادرات »(١٤٢) .

لقد دفع الى بعض الصناعيين ، كما يظهر في الارقام التالية ، حوافز كبيرة جدا للصادرات ، خاصة لصناعيي السمن والصابون في نابلس ، الذين قد دفع اليهم أكثر من مليون ليرة اسرائيلية في العام ١٩٧٠ — ١٩٧١ للصادرات في كل صنف .

مدفوعات حوافز الصادرات

نيسان (ابريل) ١٩٧٠ — آذار (مارس) ١٩٧١(١٤٣)

المنطقة	المنتوج	الكمية المدفوعة (ليرة اسرائيلية)
بيت لحم	البلاستيك	١٨٧،٠٠٠
	منتجات التجميل	١٧٠،٠٠٠
	المشروبات الروحية	٦،٠٠٠
رام الله	الورق	١١،٠٠٠
	الشوكولاته	٢١٠،٠٠٠
	الصابون	٥٣،٠٠٠

	التنباك العربي	٤٧،٠٠٠
الخليل	المنسوجات	—
	الميازين	١،٣٥٧
	الالياف الفولاذية	١،٨٨٧
نابلس	السمن	١،١٩٤،٠٠٠
	علب الثقاب	١٧٧،٠٠٠
	الزيوت	١١،٠٠٠
	الصابون	١،١٤٦،٠٠٠
المجموع		٣،٢١٥،٢٤٤(١٤٤)

الحواشـــي

١ — دستور **الوكالة اليهودية** ، مادة ٣، فقرة ج، اقتطفها **سير جون هوب سمبسون في فلسطين : تقرير حول الهجرة واستيطان الاراضي والتنمية، المكتب الكولونيالي البريطاني** ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٠ ، ص ٥٣ .

٢ — **المصدر نفسه** .

٣ — **دنيس جود** ، « **بلفور والامبراطـــورية البريطانية** » (لندن) ، ص ١٩٨ .

٤ — **المكتب الرئيسي للصندوق القومي والصندوق التأسيسي** ، « **دليل لفلسطين اليهودية** » ، (القدس، ١٩٣٠) اقتطفها **سمبسون**، ص١٩٨ .

٥ — دافيد بن جوريون ، **اسرائيل : تاريخ شخصي** (نيويورك ، ١٩٧١) ، ص ٨٤٥ .

٦ — **روبرت ناثان ، أوسكار جاز ودانيال كريمر** ، « **المشكلة الفلسطينية والوعد** » (واشـــنطن ، ١٩٤٦) ، ص ١٥٠ .

٧ — **ناثان** ، ص ١٥٢ .

٨ — **ابراهام جرانوفسكي** ، « **مشاكل الارض في فلسطين** » ، (لندن ، ١٩٢٦) ، ص ١٨ .

٩ — الدكتور **الوود ميد** ، « **تقارير الخبراء** » ، مقدمة الى **بعثة التقصي الفلسطينية المشتركة** (بوسطن ، ١٩٢٨) ، ص ٣٤ .

١٠ — **سمبسون** ، ص ٤٢ .

١١ — **صبري جريس، العرب في اسرائيل** (بيروت، ١٩٦٩) .

١٢ — **دون بريز** ، **اسرائيل والعرب الفلسطينيون** (واشنطن ، ١٩٥٦) ص ١٤٣ و١٤٦ .

١٣ — مجلس الامن ، **التقارير الرسمية** ، ملحق ١٠٨ (اس/٩٤٩) ، آب (أغسطس) ١٩٤٨ ، ص ١٠٦ — ١٠٩ . اقتطفها **ارسكين شايلدرز** ، « **الرغبة الصامتة : من مواطنين الى لاجئين** » تحرير **ابراهيم ابو اللغد** ، « **تهويد فلسطين** » (افانستون ١١١، ١٩٧١) ، ص ١٩٥ .

١٤ — « الرأسمال الامريكي في اسرائيـــل الاشتراكية » ، مجلة **فورتشن** (حزيران (يونيو) ١٩٥٠) ، ص ٧٥ .

١٥ — **المصدر نفسه** .

١٦ — **المصدر نفسه** .

١٧ — **المصدر نفسه** .

١٨ — **المصدر نفسه** .

١٩ — « كتاب ازرق للسلام » ، «**صوت اسرائيل**» (نيويورك ١٩٥٧) ، ص ٧٦ .

٢٠ — « **القومية والاممية في الشرق الاوسط** » ، من مقتطفات ابا ايبان ، ص ١١١ .

٢١ — وهنالك ، على أي حال ، نواحي كولونيالية في معاملة العرب الفلسطينيين الذين بقوا في اسرائيل . فقد وجه ما تبقى من زراعتهم الى المحاصيل ذات العمل الكثيف ، غالبا للصناعة الاسرائيلية ، وكان توجه العمال العرب نحو الدمج في الشرائح الدنيا من البروليتاريـــا الاسرائيلية .

٢٢ — اقتطفها دافيد هيروفيتز في « **لغز تطور اسرائيل الاقتصادي** » ، بنك اسرائيل ، دائرة الابحاث ، مجلة « **اكونوميك رفيو** » ، عدد ٣٩ [آب (اغسطس) ١٩٧٢] ص ١٣١ .

٢٣ — حسبت من ارقام في **مكتب رئيســة وزراء اسرائيل** ، **سلطة التخطيط الاقتصادي** ، **تطور اسرائيل الاقتصادي : التقدم السابق وخطــة للمستقبل** ، **الصياغة النهائية** [القدس ، آذار (مارس) ١٩٦٨] ص ١٨٨ — ١٩٠ .

٢٤ ــ **أوسكار جاز ، جريدة الادب الاقتصادي** [كانون أول (ديسمبر) ١٩٦٩] . اقتطفها **موشيه ماخوفر وعكيفا أور** ، « الطابع الطبقي للمجتمع الاسرائيلي » ، تحرير **آري بوبر** ، **اسرائيل الاخرى** (نيويورك ١٩٧٢) ص ٩٤ .

٢٥ ــ **ناداف هاليفي و رووث كلينوف مالول** ، **تطور اسرائيل الاقتصادي** (نيويورك ١٩٦٨) ، جدول ٥٩ ، ص ١٥٨ .

٢٦ ــ مجلة **النيويورك تايمز** [٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٧١] ، ص ٩ .

٢٧ ــ **في اسرائيل الاخرى** .

٢٨ ــ **هاليفي ومالول** ، **في** المؤلف المذكور اعلاه ، الجداول الملحقة ١١ و١٢ ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .

٢٩ ــ **هورويتز** ، ص ١٢١ .

٣٠ ــ **فاني جنور ، استعمالات فوائض الزراعة :** تحليل وتقدير للاثر الاقتصادي لبرنامج الولايات المتحدة المسمى P.L. 480 Title 1 ، **بنك** اسرائيل ، دائرة الابحاث (القدس ، ١٩٦٣) ص ٥ و ٧ .

٣١ ــ **السجل والتقرير الغربي** [١ ــ ١٥ آذار (مارس) ، ١٩٧٢] ص ١٢٨ .

٣٢ ــ مجلة « **الكرسشيان سينس مونتور** » [٣ أيار (مايو) ، ١٩٧٣] ، ص ١٣ .

٣٣ ــ **كلايد فارنسويرث،** « **اسرائيل : المستحيل** » في صحيفة **النيويورك تايمز** [٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١] .

٣٤ ــ انظر على سبيل المثال **تطور اسرائيل الاقتصادي** ، ص ١٤٥ .

٣٥ ــ **س. هيرش** ، « **تشريع خمس صناعات تصديرية في اوروبا واسرائيل** » ، مجلة **اسرائيل كوارترلي أف اكونومكس** ، مجلد ١ (شتاء ١٩٧١ ــ ١٩٧٢) ، ص ٧١ .

٣٦ ــ المصدر نفسه . تبعا لاقوال وزير الزراعة الاسرائيلي **حاييم جفاتي** فان البلد مهدد بنفاد الماء في خمس الى عشر سنوات . مجلة **النيويورك تايمز** [١١ تموز (يوليو) ١٩٧١] .

٣٧ ــ **هيرش** ، ص ٧٢ .

٣٨ ــ **المصدر نفسه** .

٣٩ ــ **المصدر نفسه** .

٤٠ ــ **ميخائيل برونو ، مشكلات التطور الاقتصادي في اسرائيل** ، ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ [راند ، نيسان (ابريل) ١٩٧٠] ص ٥١ .

٤١ ــ **هيرش** ، ص ٧١ .

٤٢ ــ **برونو** ، ص ٥٤ .

٤٣ ــ **أفريكا رسيرش جروب ، دافيد وجوليات** ، متوفر عند ميرب Merip .

٤٤ ــ **برونو** ، ص ٥٩ .

٤٥ ــ **فارنزويرث** ، مجلة **النيويورك تايمز** [٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١] .

٤٦ ــ **كول اسرائيل،** بث اذاعي [٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩] .

٤٧ ــ **بن جوريون** ، ص ٨٣٧ ــ ٨٣٨ .

٤٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٨٣٩ .

٤٩ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٨٣٩ .

٥٠ ــ **كول اسرائيل** ، بث اذاعي [٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٧١] .

٥١ ــ تبعا لارقام **مكتب اسرائيل المركزي للاحصاءات** ، فان ٦٥ ٪ من مجموع سكان اسرائيل والمناطق المحتلة كانوا يهودا عام ١٩٧١ .

٥٢ ــ **ابراهام س. بكر** ، **اسرائيل والمناطق الفلسطينية المحتلة : القضايا العسكرية ــ السياسية في الجدال** ، تقرير أعده **مكتب السكرتير المساعد للدفاع عن شؤون الامن الدولية** (**راند** ، ١٩٧١) ، ص ٥٢ .

٥٣ ــ صحيفة « **معاريف** » [٢ شباط (فبراير) ١٩٧٣] مترجمة في **اسرائيل لفت نيوز سيرفس** (١٥ شباط ١٩٧٣) .

٥٤ ــ صحيفة « **جيروزالم بوست** » [١٤ شباط (فبراير) ١٩٧٣] . انظر ايضا المقابلة مع بن أهارون في **النيويورك تايمز** [١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٣] .

٥٥ ــ « **نيويورك تايمز** » [٥ أيار (مايو) ١٩٧٣] ص ٨ .

٥٦ ــ « **دافار** » [٧ آذار (مارس) ١٩٧٣] مترجمة في **اسرائيل لفت نيوز سيرفس** [٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ص ٧ .

٥٧ ــ **بكر** ، ص ٥١ .

٥٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٥٦ ــ ٧٥ .

٥٩ ــ **جيروزالم بوست ويكلي** [١٦ كانون الاول (يناير) ١٩٧٣] ص ٣ .

٦٠ ــ **يديعوت أحرونوت** [٣ كانون الاول (يناير) ١٩٧٣] مترجمة **في اسرائيل لفت** [١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٣] ، ص ٩ .

٦١ — **موشيه دايان ، سلام جديد وعلاقات اخرى** (بالعبرية) ص ١٣٧ . اقتطفها **بكر** ، ص ٥٨ — ٥٩ .

٦٢ — **نيويورك تايمز** ، [٢ حزيران (يونيو) ١٩٦٩] ص ١١ .

٦٣ — **بكر** ، ص ٦٤ .

٦٤ — **الياهو كانوفسكي ، الاثر الاقتصادي لحرب الايام الستة** (نيويورك ، ١٩٧٠) ص ١٩٨ .

٦٥ — **نيويورك تايمز** [١٦ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٦٩] .

٦٦ — **اسرائيلي اكونومست** [كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢] ، ص ٢٥ .

٦٧ — **كانوفسكي** ، ص ٢٠٠ .

٦٨ — **وحدة تنسيق النشاط في المناطق المدارة** ، وزارة الدفاع الاسرائيلية ، **التنمية والوضع الاقتصادي في يهودا والسامرة وقطاع غزة وشمال سيناء : ١٩٦٧ — ١٩٦٩** ، ملخص [تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٠] غير مرقم .

٦٩ — **المصدر نفسه** .

٧٠ — **اريك رولو** ، « الفلسطينيون في المطهر » ، **لوموند** [٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣] .

٧١ — **المصدر نفسه** .

٧٢ — « **ملخص التجارة الخارجية** » ، **المكتب المركزي الاسرائيلي للاحصاءات** ، **الاحصاءات الشهرية للمناطق المدارة** ، مجلد ١ ع ١ [كانون الثاني (يناير) ١٩٧١] .

٧٣ — « **جيروزالم بوست اوفرسيز ويكلي** » [٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ص ٥ .

٧٤ — **التنمية والوضع الاقتصادي** .

٧٥ — ارقام الاعوام ١٩٦٧ — ١٩٧١ مأخوذة من **المكتب المركزي الاسرائيلي للاحصاءات** . وتضم الاشخاص العاملين في اسرائيل « بصورة مشروعة » فقط. رقم العام ١٩٧٣ مأخوذة من **رولو** ، الذي يورد مقتطفا لناطق بلسان وزارة الدفاع . وقد يضم هذا الرقم العمال « اللاشرعيين » .
١٩٦٨] ، ص ٥٤ .

٧٦ — **نيو اوتلوك** [٦ تشرين الاول (اكتوبر) ص ٥٤ .

٧٧ — **المكتب المركزي الاسرائيلي للاحصاءات** ، **نشرة الاحصاءات الشهرية** ، مجلد ٢٣ ع ١ [كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢] ومجلد ٢٤ ع٢ [كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣] و « المعدل اليومي للعاطلين عن العمل في اسرائيل » .

٧٨ — **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** [٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢] ، ص ١١ .

٧٩ — « **هآرتس** » [١٠ تموز (يوليو) ١٩٦٨]. اقتطفها **بن هورين** ، « **اسرائيل : جنوب افريقية جديدة ؟** » **نري بلستين** [لندن ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٨] ، ص ٥ .

٨٠ — محسوبة من **النشرة الشهرية للاحصاءات** [كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢] جدول K2 « مناصب المستخدمين ، الاجور الكلية والمعدل الشهري للاجر لكل منصب » ، الارقام من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ .

٨١ — رسالة من **ايلي ميسليش** ، من **بتاح تكفا** ، الى **هآرتس** [١٥ أيار (مايو) ١٩٦٩] ترجمت في **ازراكا** ع ٢ [حزيران — تموز (يونيو — يوليو) ١٩٦٩] ، ص ٨ .

٨٢ — **كول اسرائيل** ، بث اذاعي [٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨] .

٨٣ — **يديعوت احرونوت** [٦تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩٧٢] مترجمة في **اسرائيل لفت** [٦ تشرين الثاني ، ١٩٧٢] ، ص ٢ .

٨٤ — **روني جاباي** ، « **دراسة سياسية للصراع العربي — الاسرائيلي** » : مشكلة اللاجئين العرب (جنيف ١٩٥٩) ، ص ١٦٩ — ١٧٩ .

٨٥ — **جين هاكر** ، **عمان الحديثة : دراسة اجتماعية** (دورهام، شمال كاليفورنيا، ١٩٦٠).

٨٦ — محسوبة من أرقام **منسق العمليات الحكومية في المناطق المدارة ، وزارة الدفاع، اربع سنوات من الادارة العسكرية ، ١٩٦٧ — ١٩٧١** : أرقام حول النشاطات المدنية في يهودا والسامرة وقطاع غزة وشمال سيناء ، ص ١٩ — ٢٠ .

٨٧ — **أربع سنوات ...** ، ص ٢٠ .

٨٨ — **هآرتس** [٣ آب (اغسطس) ١٩٧٢] مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢] ، ص ٥.

٨٩ — **اربع سنوات ...** ، ص ٢٠ .

٩٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١ .

٩١ — **رولو** نقلا عن تقرير لـ **هآرتس** جاء فيه « في بيت لحم تغلق المعامل الصغيرة بسبب الافتقار الى الايدي العاملة ويلتحق اصحابها بالذين يبحثون عن معيشة ضمن **الخط الاخضر** .

ومنذ عام ونصف ، اصبح مئات السكان من بيت لحم وجوارها متعاقدين ملحقين بالصناعة الاسرائيلية » . [كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١] . اقتطفت في « المادة التحضيرية للمؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي » ، **النشرة الاعلامية** ، الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، عدد خاص (تل ابيب ، غير مؤرخ) ، ص ٦٥ — ٦٦ .

٩٢ — **أربع سنوات ...** ، ص ٢٢ .

٩٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٠ .

٩٤ — **هآرتس** [٢ شباط (فبراير) ١٩٧٣ ، مترجمة في صحيفة **نو** Know [٨ آذار (مارس) ١٩٧٣] .

٩٥ — **التنمية والوضع الاقتصادي** .

٩٦ — **أربع سنوات ...** ، ص ٧٧ .

٩٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١ .

٩٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٧٦ .

٩٩ — محسوبة من أرقام منسق النشاطات المدنية في المناطق المدارة ، وزارة الدفاع ، ثلاث سنوات من الادارة العسكرية، ١٩٦٧ — ١٩٧٠ : النشاطات المدنية في يهودا والسامرة وقطاع غزة وشمال سيناء [حزيران (يونيو) ١٩٧٠] ، ص ١٥ . و **أربع سنوات ...** ، ص ٧٧ .

١٠٠ — **اسرائيل أكونومست** [تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١] ، ص ٣١٩ .

١٠١ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ١٧ .

١٠٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨ .

١٠٣ — **التنمية والوضع الاقتصادي** .

١٠٤ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ١٧ .

١٠٥ — **أربع سنوات ...** ، ص ٧٦ .

١٠٦ — المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

١٠٧ — « **المادة التحضيرية للمؤتمر ...** » ، ص ٦٥ .

١٠٨ — **آن موسلي ليش** ، **احتلال اسرائيل للضفة الغربية** : السنتان الاولتان (رسالة ماجستير ، جامعة كولومبيا ، ١٩٦٩) ، ص ٣٤ .

١٠٩ — **جيروزالم بوست** [٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧] .

١١٠ — وزارة الزراعة الاسرائيلية ، النشاطات في يهودا والسامرة : حزيران ١٩٦٧ الى كانون الثاني ١٩٧٠ ، غير مؤرخة .

١١١ — **المصدر نفسه** .

١١٢ — **أرييه شمكين** ، « اقتصاد الضفة الغربية ما بعد الحرب » ، **نيو اوتلوك** [تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩] ، ص ٢١ .

١١٣ — وزارة الزراعة الاسرائيلية ، **يهودا والسامرة والضفة الغربية : خطط التنمية الزراعية** للعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ .

١١٤ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٧ .

١١٥ — **أربع سنوات ...** ، ص ٤٤ .

١١٦ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٤ ، و **أربع سنوات ...** ، ص ٤٤ .

١١٧ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٤ .

١١٨ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٤ — ٢٥ ، و **اربع سنوات ...** ، ص ٤٠ — ٤١ .

١١٩ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٤ .

١٢٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٢ و٢٤ .

١٢١ — **خطط التنمية الزراعية ...** ، ص ٢ .

١٢٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٣ .

١٢٣ — **زاهي حركبي** ، « الزراعة العربية في اسرائيل اليوم » ، **النشرة الاعلامية** ، الحزب الشيوعي الاسرائيلي [تشرين الاول — تشرين الثاني ١٩٧١] .

١٢٤ — **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** [٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣] ، ص ١٣ .

١٢٥ — **هآرتس** [١٦ آذار (مارس) ١٩٧٣] مترجمة في **اسرائيل لفت** [٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ١٣ .

١٢٦ — **حاييم بن شاهار وايتان برجلاس وبائير موندلاك وازرا سادان** ، **البنية الاقتصادية وامكانات التنمية في الضفة الغربية وقطاع غزة** ، [راند ، أيلول (سبتمبر) ١٩٧١] ، ص ١٢٦ .

١٢٧ — محسوبة على اساس ارقام من **ثلاث سنوات ...** ، ص ٣١ — ٣٢ .

١٢٨ — **أربع سنوات ...** ، ص ٥٤ .

١٢٩ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٣٢ .

١٣٠ — « **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** » [٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .

١٣١ — **هآرتس** [١١ آب (اغسطس) ١٩٦٨] مترجمة في « **أزراك** » [أيار (مايو) ١٩٦٩] .

١٣٢ — **جيروزالم بوست** [٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ١ .

١٣٣ — المصدر نفسه [١١ نيسان ١٩٧٣] ، ص ٢ .
١٣٤ — المصدر نفسه [٩ نيسان ١٩٧٣] ، ص ١ .
١٣٥ — **جيروزالم بوست اوفرسيز** [١ كانـون الثاني (يناير) ١٩٧٣] ، ص ٧ .
١٣٦ — **هآرتس** [٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢] مترجمة في « **اسرائيل لفت** » [١٨ تشرين الاول، ١٩٧٢] ، ص ٨ .
١٣٧ — **اسرائيل لفت** [٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢]، ص ٨ — ٩ .
١٣٨ — **جيروزالم بوست** [٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢] .
١٣٩ — **ذي اسرائيل انفستورز مانيوال** ، نقلها **اسرائيل لفت** [٨ تشرين الاول ١٩٧١] ، ص ٨ .
١٤٠ — **اسرائيل اكونومست** [كانون الثـاني (يناير) ١٩٧٣] ، ص ٢٠ .
١٩٧٣] ، ص ٢٠ .
١٤١ — **اربع سنوات ...** ، ص ٥٦ .
١٤٤ — يختلف المجموع هنا عن الجدول الاصلي ، حيث يبدو ان الجمع كان خطأ .
١٤٢ — **المصدر نفسه** .
١٤٣ — **المصدر نفسه** .

التغييرات الاقتصادية وتأثيرها على الصراع الطبقي والاجتماعي في اسرائيل

الدكتور سلمان رشيد سلمان

ان التصدي للتغيرات الاقتصادية التـــي حدثت في اسرائيل وتأثيرها على الصراع الطبقي والاجتماعي تحتاج الى بحث طويل ، الا أن من الممكن دراسة التغيرات التي مر بها المجتمع الاسرائيلي والتي يمر فيها في الوقت الحاضر بصورة عامة ، هذه التغيرات التي لم تأخذ شكلا واضحا ومتميزا حتى الآن نظرا لظروف موضوعيـــة تتعلق بطبيعة الكيان الصهيوني والظروف المحيطة به عربيا وعالميا ، الا أن من المهم تتبع هذه العملية لانها ستؤثر حتما على مجمل الصراع في المنطقة سواء ذلك الصراع ما بين حركة التحرر العربي والفلسطيني من جهة والصهيونية مـــن جهة اخرى ، او الصراع الطبقـــي والاجتماعي داخل اسرائيل وعلاقته بالصراع الاساسي .

لقد اعتمد تطور المجتمع الاسرائيلي على عاملين مهمـــين يشكلان الاساس الرئيسي لعملية الاستيطانية الصهيونية على أرض فلسطين . وهذان العاملان هما الهجرة البشرية وهجرة رأس المال الى داخل اسرائيل . لقد مر المجتمع الاسرائيلي بعدة مراحل اهمها :

١ ــ مرحلة ما قبل قيام الدولة الاسرائيلية : بدات هذه الفترة منذ قيام انكلترا باعطاء وعد بلفور نتيجة الجهود المستمرة التي قامت بها الحركة الصهيونية من أجل الحصول على هذا الوعد(١) بعد أن قررت الحركة الصهيونية في مؤتمر بال المنعقد سنة ١٨٩٧(٢) وما تلاه ان تكون فلسطين الوطن القومي لليهود . وعلى اساس ذلك بدات هجرة الرواد الصهاينة الذين كانوا يحملون الافكار الصهيونية الاشتراكيـــة واقاموا المستعمـــرات والمستوطنات ، وفي نفس الوقت كانت اليهودية المحلية تنشىء صناعة نامية اثبتت تفوقها على الصناعة الفلسطينية التي كانت بدائية ، ان الصناعة اليهودية لم تتم الا نتيجة زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين وانهمار رأس المال الاجنبي الذي بلغ ١١٠ ملايين جنيه استرليني خلال الفترة من ١٩٢٢ ــ ١٩٤٨(٣) . ولقد جاءت الحرب العالمية الثانية لتغلق السوق المحلية بوجه البضائع الاجنبية ولتمكن الصناعة اليهودية من احتكارها ولم تجد هذه الصناعة اي تهديد من الصناعة الفلسطينية اذ ان رأس المـــال الفلسطيني كان متمركزا في القطاع الزراعي ، لقد نمت هذه الصناعة في زمن الحرب نتيجة تدفق رأس المال الخارجي وقيام هجرة يهودية جماعية من أوربا الى فلسطين نتيجة الحرب وكان عدد من هؤلاء اليهود رأسماليين (يملكون اكثر من ١٫٠٠٠ جنيه) وبلغ عـــدد هؤلاء الراسماليين كما يلي(٤) : ١٩٣٢ : ٧٢٧ ، ١٩٣٣ : ٣٫٢٥٠ ، ١٩٣٤ : ٥٫١٢٤ ، ١٩٣٥ : ٦٫٣٠٩ ، ١٩٣٦ : ٢٫٩٧٠ ، ١٩٣٧ : ١٫٢٧٥ ، ١٩٣٨ : ١٫٧٥٣ ، ١٩٣٩ : ٢٫٦٠٦ ، ١٩٤٠ : ٨٠٢ ، ١٩٤١ : ٣١٤ .

لقد كان عدد كبير من هؤلاء المهاجرين علماء وفنيين ومهندسين ، ومن خلال الفترة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٢ كان من الممكن « ملاحظة ارتفاع قيمة رؤوس الاموال المستثمرة بالنسبة

لحصة كل مؤسسة يهودية مقارنة مع المؤسسات الصناعية العربية ، كذلك صغر حجم الحرف الى مجموع الصناعة مقارنة مع الوضع الحرفي والصناعي العربي، كثافة عمالية اكبر ، طاقة مستخدمة اكبر ، اي ان الاتجاه نحو التركيز الراسمالي في الصناعة اليهودية كان يسير بوتيرة سريعة جدا مقارنة مع الصناعة العربية »(٥).

لقد كانت الصناعة اليهودية في فلسطين حكرا على القطاع اليهودي الخاص ، اما المؤسسات الصهيونية فقد كانت مهتمة بجر أكبر عدد ممكن من المهاجرين الى فلسطين وتوجيه قسم منهم نحو الزراعة في الكيبوتزات ولقد أعطت الصهيونيـــة هذه العملية اهتماما خاصا واتسمت سياسة الانماء في هذه الفترة باعطاء الاولوية للزراعة كنشاط اساسي يخدم اعتبارات اديولوجية واقتصادية في نفس الوقت اي لاستيعاب المهاجرين وربطهم بالارض ولاستيفاء الاحتياجات الغذائية(٦). ولقد استوعبت الزراعة اليهودية ٤ر٢١ بالمائة من القوى العاملة سنة ١٩٣٦ وانخفضت هذه النسبة الى ١٤ بالمائة سنة ١٩٤٥ ، ولقد كان القطاع الزراعي هو النشاط الانتاجي الذي ظهر فيه بوضوح التناقض الحاد بين المعايير الاقتصادية والاعتبارات الاديولوجية ولقد كان هذا التناقض يحل دائما لصالح الاعتبارات الثانية(٧). لقد امتازت هذه الفترة بحالة نمو مستمر في الاقتصاد اليهودي بشقيه الصناعي والزراعي نتيجة لازدياد الهجرة اليهودية من اوربا والتي تضم عددا كبيرا من المهارات، وكذلك لانهمار رأس‌المال الخارجي، ولقد واجه هذا النمو خطرا كبيرا بعد الحرب حيث فتحت السوق للبضائع الانكليزية التي اصبحت تهدد الصناعة اليهودية . فبدأت البرجوازية اليهودية الناشئة بالتحالف مع المؤسسات الصهيونية من اجل اقامة دولة اسرائيل وتحقق ذلك في عام ١٩٤٨ وبذلك انتهت المرحلة الاولى لتبدأ المرحلة الثانية .

٢ ــ مرحلة ما بعد قيام اسرائيل وحتى بداية الستينات : ــ لقد شهدت هذه المرحلة تحولات في الاقتصاد الاسرائيلي يمكن تلخيصها :

أ ــ تميزت هذه الفترة بسيطرة الدولة على كل المرافق الاساسية ، وفي هذه الفترة تركزت مساعداتها على القطاع الزراعي بحيث اصبحت الصادرات الزراعية في سنة ١٩٥٠ تمثل ما يزيد على ٥٠ بالمائة من الصادرات السلعية في حين بلغت هذه النسبة ١٧ بالمائة سنة ١٩٧٠(٨). لقد كان الغرض من تشجيع الزراعـــة هي ، كما ذكرنا ، استيعاب العدد الكبير من المهاجرين من أجل اقامة المجتمع الاستيطاني الذي كانت تطمح اليه الصهيونية ولقد كانت هذه السياسة تتلاءم مع استيلاء الدولة على الاراضي العربية ولم تبال الدولة في أن تخسر في هذه العملية اقتصاديا ، علاوة على ان الدولة كانت تبغي تحقيق الاكتفاء الذاتي من السلع الزراعية .

ب ــ زيادة الهجرة من دول أوربا الغربية في السنين الاولى مع قيام الدولة ولقد بلغت الهجرة حدا عاليا كما يتبـــين في الجـــدول التالي(٩) : ١٩٤٩ : ٢٣٩ر٥٧٦ ، ١٩٥٠ : ١٧٠ر٢٤٦ ، ١٩٥١ : ١٧٥ر٠٩٥ ، ١٩٥٢ : ٢٤ر٣٦٩ ، ١٩٥٣ : ١١ر٣٢٦ ، ١٩٥٤ : ١٨ر٣٧٠ ، ١٩٥٥ : ٣٧ر٤٧٨ ، ١٩٥٦ : ٥٦ر٢٣٤ ، ١٩٥٧ : ٧١ر٢٢٤ ، ١٩٥٨ : ٢٧ر٠٨٢ ، ١٩٥٩ : ٢٣ر٨٩٥ ، ١٩٦٠ : ٢٤ر٥١٠ .

يلاحظ من الجدول بأن الهجرة سجلت معدلات عالية في اواسط الخمسينات حيث بدأ يهود الشرق الاوسط بالهجرة الى اسرائيل ثم انخفض معدل الهجرة ليسجل زيادة اخرى ما بين ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧ ، وهناك سببان لذلك الاول هو بدء فترة التصنيع في بداية ١٩٥٤ ثم ازدياد الهجرة كظاهرة عامة في اسرائيل بعد خروج اسرائيل من كل حرب تخوضها .

جـ ــ ان هذه الفترة تميزت بسيطرة القطاع العام الذي تقوده البيروقراطية العمالية

الصهيونية على الاقتصاد الاسرائيلي نتيجة انسياب راس المال الخارجي الى المؤسسات الصهيونية كما ان القروض طويلة الامد كانت قروضا عامة للحكومة الاسرائيلية ، ومن هنا فان القطاع الخاص اعتمد على القروض المقدمة من الحكومة مما جعلها تهيمن على الاقتصاد وتسيره نحو الوجهة التي تريدها . ولقد كانت سياسة الانماء التي اتبعتها البيروقراطية العمالية دوما هي تفضيل العوامل الايديولوجية على المنفعة الاقتصادية .

د — من سنة ١٩٥٠ — ١٩٥٤ كان الاستثمار موجها نحو القطاع الزراعي وقد كان جزء كبير من الايدي العاملة متجها نحو الزراعة فقد كانت نسبة اليد العاملة في الزراعة سنة ١٩٤٧ حوالي ٢٨ر٦ ٪ في حين بلغت هذه النسبة ٢١ر٢ ٪ في سنة ١٩٥٥(١٠). الا ان بداية ١٩٥٥ شهدت تحولا في توجيه الاستثمارات نحو الصناعة وبذلك بدأت نسبة اليد العاملة في الانخفاض في قطاع الزراعة حتى بلغت النسبة ١٢ر٤٪ في عام ١٩٦٦(١١). ان التوسع في الصناعة قد ابتدأ منذ عام ١٩٥٤ نتيجة تدفق التعويضات الالمانية والمساعدات الاجنبية التي بلغت حتى بداية الحرب كما يلي : (بملايين الدولارات) ، تبرعات المؤسسات اليهودية ١٧٣٥ ، التعويضات الالمانية ٧٧٥ ، التبرعات الفردية ٨٨٥ ، تعويضات فردية مباشرة (المانيا ١١٩٠) ، معونة حكومة الولايات المتحدة المباشرة ٣٢٠ ، مبيع سندات اسرائيل ١٢٦٠ ، ديون أجنبية مختلفة ١٣٦٠ ، الاستثمار الخاص من الخارج ١٠٠٠ ، المجموع ٨٥٢٥(١٢). وازدادت الاستثمارات الاجنبية في القطاعات الصناعية والزراعية حتى بلغت ١٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية في عام ١٩٦٠(١٣). واتسعت حركة التصنيع حتى بلغت أوجها سنة ١٩٥٨ ولقد سجل الاقتصاد الاسرائيلي نموا سريعا بلغ حوالي ١٠ ٪ وحافظ القطاع العام على دوره الرئيسي في توجيه الاقتصاد اذ ان امتصاص المهاجرين كان لا يزال مستمرا . كما ان التعويضات الالمانية التي تسلمتها الحكومة الاسرائيلية مكنت القطاع العام من تنفيذ مشاريع انمائية على نطاق واسع في قطاعات الزراعة والري والكهرباء والمواصلات(١٤).

هـ — لقد نتج عن هذا النمو في القطاع الصناعي زيادة في القوة العاملة المستغلة في القطاع الصناعي كما تبين في الجدول التالي(١٥): ١٩٥٥ : ٢٢ر٥ ٪ ، ١٩٦٠ : ٢٣ر٨ ٪، ١٩٦٦ : ٢٧ر٥ ٪ .

لقد كان هنالك توظيف شبه كامل للقوة العاملة ، حيث ان البطالة بلغت أقل من ٤ ٪ كما ان الاضرابات في هذه الفترة كانت منخفضة ، وكذلك عدد المضربين من العمال ، كما ان أكثر هذه الاضرابات كانت شرعية (أي يوافق عليها الهستدروت) .

٣ — الفترة بين ١٩٦٠ — ١٩٦٧ . وتنقسم هذه الفترة الى :

أ — ما بعد ١٩٦٠ — ١٩٦٥ : لقد شهدت هذه الفترة نموا في القطاع الصناعي وازدادت الاستثمارات في هذا القطاع ، كما ان القطاع الخاص بدأ بالنمو وخاصة في القطاع الصناعي، كما ان هذه المرحلة شهدت نموا في الطبقة العاملة الاسرائيلية وبلغت نسبة العمال العاملين في القطاع الزراعي في بداية ١٩٦٦ حوالي١٢ر٤ ٪ بينما نمت نسبة العاملين في قطاع الصناعة حتى وصلت الى ٢٦ر١ ٪(١٦). وبلغ عدد العمال العاملين في الهستدروت ٩٠٠ الف عامل (مع زوجاتهم) . اي ان نسبة العمال الى مجموع السكان كان ٤٠ ٪ .

لقد شهدت هذه الفترة أيضا بداية اندماج الاقتصاد الاسرائيلي بالاقتصاد العالمي نتيجة زيادة الاستثمارات الاجنبية واعتماد الاقتصاد الاسرائيلي على الاقتصاد الامريكي وتأثيره به . كما ان هذه الفترة بدأت تشهد فترة الركود الاقتصادي وزيادة البطالة وقلة الهجرة .

ب ــ ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧ : قبل البدء بمناقشة الوضع العام لهذه الفترة ينبغي مناقشة التطورات التي طرات على القطاع الخاص لاهميته لهذه الفترة .

لقد شهدت هذه الفترة ازدياد نفوذ القطاع الخاص حتى بلغ انتاج هذا القطاع في ١٩٦٦ حوالي ٥٩ ٪ من صافي الانتاج المحلي(١٧). ان هذا لا يعني ان القطاع الخاص كان ضعيفا ما قبل هذه الفترة ، فقد بقي القطاع الخاص منذ قيام اسرائيل وحتى الان يتمتع بمكانة خاصة في الاقتصاد الاسرائيلي . ان فترة ما قبل ١٩٦٥ شهدت سيطرة القطاع العام على القطاع الخاص ومحاولة القطاع الاول أن يقوم بالدور الرئيسي في عملية التصنيع . الا أن فترة الستينات شهدت انحسار هذه السياسة ، فقد اجبرت اسرائيل نتيجة المقاطعة العربية وصعوبة التعامل المربح مع السوق الافريقية ، بالتوجه نحو السوق الاوروبية وكان ذلك يعني التخصص في الصناعة وزيادة الاستثمارات الاجنبية وتشجيعها . أمام كل ذلك لم يكن هنالك مفر من أن تشجع الحكومة القطاع الخاص ، ومن هنا فان القطاع العام بدأ يلعب دورا يختلف تماما عن الدور الذي لعبه في فترة الخمسينات اذ أصبحت مهمته توفير الاجواء الملائمة والتسهيلات الضرائبية والجمركية والمالية الضرورية لتطوير القطاع الصناعي ولايجاد سلع صناعية برسم التصدير الى الاسواق الاوربية والامريكية(١٨).

ان زيادة مساهمة القطاع الخاص في عملية النمو الاقتصادي يتبين بالجدولين التاليين:

توزيع الاستثمارات بالنسبة المئوية (باستثناء قطاع السكن)(١٩)

	١٩٥٢	١٩٥٤	١٩٥٨	١٩٦٠	١٩٦٢	١٩٦٤	١٩٦٦
القطاع العام	٣٤	٥٠	٤٥	٤١	٤٨	٤٣	٤١
القطاع الخاص	٦٦	٥٠	٥٥	٥٩	٥٢	٥٧	٥٩

ان هذا الجدول يوضح انخفاض حصة القطاع العام وازدياد حصة القطاع الخاص بحوالي ١٩ ٪ بين عامي ٥٤ ــ ٦٦ .

أما الجدول التالي فيبين **توزيع الاستثمارات في قطاع السكن**(٢٠):

	١٩٥٥	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٦٧
القطاع العام	٤٢	٤٠	٣٦	٣٠
القطاع الخاص	٥٨	٦٠	٦٤	٧٠

ومن هذا الجدول يتبين ان تراجع القطاع العام قد بلغ ١٢ ٪ خلال عشرة أعوام وارتفعت نسبة مساهمة القطاع الخاص من ٥٨ ٪ الى ٧٠ ٪ .

ان مناقشة تطور القطاع الخاص لهذه الفترة وللفترة التي تليها ضرورية لتفهم حالة الاقتصاد الاسرائيلي والصراع الطبقي والاجتماعي في المجتمع الاسرائيلي كما سنأتي الى ذكره فيما بعد .

ان الحكومة شجعت القطاع الخاص في محاولة منها لزيادة الاستثمارات وبالتالي وقف حالة الانكماش في الاقتصاد الاسرائيلي لهذه الفترة الا ان ذلك لم يؤت ثماره . فقد بلغ العجز النقدي في الميزانية العامة في منتصف ١٩٦٥ حوالي ٤٠٠ مليون ليرة اسرائيلية اقترضتها الحكومة من البنك المركزي في اسرائيل(٢١)، كما ان الانفاق على التسلح قد

ازداد في هذه الفترة حوالي ٥٠٠ ٪ (٢٣)، كما ان الاستثمارات الاجنبية قد انخفضت ، اذ ان فترة دفع التعويضات الالمانية قد انتهت وتقلصت مساعدات الدول الغربية وامريكا واستثماراتها في اسرائيل وقلت الهجرة الى اسرائيل وازدادت الهجـــرة العكسية الى خارج اسرائيل كما يتوضح ذلك في الجدول التالي :

السنة	المهاجرون القادمون	المهاجرون المغادرون
١٩٦٥	٣٠٫٧٣٦	٧٫٩٤١
١٩٦٦	١٥٫٧٣٠	٧٫٧٩٣

اما عدد المهاجرين في سنة ١٩٦٧ فقد بلغ ٣٫٣٠٠(٢٤)، ونتيجة لكل ذلك فقد انخفض مستوى النشاط الاقتصادي وارتفع بالتالي مستوى البطالة ، حيث بلغ معدل البطالة سنة ١٩٦٦ حوالي ٧ ٪ وازداد في بداية ١٩٦٧ حتى بلغ ١٠٫٤ بالمائة(٢٥) بالمقارنة الى مستوى ٣٫٦ ٪ في السنوات السابقة(٢٦). وازدادت الاضرابات حتى بلغت ٢٨٢ اضرابا وكانت الايام المهدرة نتيجة هذه الاضرابات ، ١٥٦٫٠٠٠ يوم وبلغ عدد المضربين ٨٧ ألفا(٢٧).

في هذه الفترة جاءت حرب حزيران التي لا ينبغي عزلها عـــن مجمل التطورات التي سبقت هذه الحرب، فقد بلغت البطالة حدا كبيرا وازدادت الاضرابات وقلت الاستثمارات وقلت الهجرة وازدادت مصروفات التسلح وازداد عجز الخزينـــة النقدي وتباطأ النمو الاقتصادي فجاءت الحرب لتقلب الصورة . ان هذا لا يعني بأن هذه العوامل هي التي جعلت اسرائيل تقوم بعدوانها في ١٩٦٧ ، ولكن ذلك يعني ان هذه العوامل هي جزء مهم من التأثيرات التي جعلت اسرائيل تخوض حرب حزيران ١٩٦٧ . ان كل ذلك مهد للفترة التالية والتي هي مرحلة ما بعد حرب حزيران .

٤ ــ مرحلة حرب حزيران وما بعدها : لقد حلت حرب حزيران بصورة موقتة أزمة المجتمع الاسرائيلي والاقتصاد الاسرائيلي . فقد ارتفعت معنويات الفرد الاسرائيلي الى درجة كبيرة عما كانت عليه قبل الحرب ، كما انخفضت البطالة الى ٣ ــ ٤ بالمائة(٢٨)، كما شهدت هذه الفترة زيادة في الاستثمارات وخاصة في القطاع الخاص بعد أن شهدت انخفاضا في سنتي ٦٦ ــ ١٩٦٧ كما يتوضح ذلك في الجدول التالي(٢٩):

السنة	الاستثمارات في الصناعة (بملايين الليرات)	الارتفاع + او الانخفاض ــ بالنسبة للسنة السابقة (بالمائة)
١٩٦٤	٤٦٧٫٢	+ ٢٩
١٩٦٥	٤٢٨٫٩	+ ٢
١٩٦٦	٣٢٠٫٤	ــ ١٧
١٩٦٧	٢٤٨٫٧	ــ ٢٦
١٩٦٨	٤٦٦٫٥	+ ٤٤
١٩٦٩	٦٧٣	+ ١٥
١٩٧٠	٧٣٥٫٧	+ ٩

لقد شهدت هذه الفترة ازدياد قوة رأس المال الخاص وسيطرته على القطاع الصناعي اذ أن هذا القطاع اصبح يملك حوالي ٩٣ ٪ من المؤسسات الصناعية . ويعمل في هذا القطاع ٧٦ ٪ من الايدي العاملة(٣٠). ويساهم رأس المال الاجنبي بنسبة كبيرة في هذا

القطاع . وبناء على تقرير من البنك الاسرائيلي فان مجموعة مالية تتكون من بنك ديسكنتو ، الشركة المركزية للتجارة والصناعة ، مجموعة ولفسون ، وبنك ليومي تتحكم بأكثر من ثلاثة ارباع الانتاج وان ٩٦ ٪ من المؤسسات الصناعية المنشأة خلال السنوات العشر الماضية يملكها القطاع الخاص(٣١). لقد شهدت هذه الفترة ازدهار الاقتصاد الاسرائيلي وازدياد الهجرة كما يتبين ذلك من الارقام التالية : ١٩٦٧ : ٤٣٠٠ ، ١٩٦٨ : ١٢٧٠٠ ، ١٩٦٩ : ٢١٥٠٠ ، ١٩٧٠ : ٢٢٠٠٠ .

الا أن معدل الهجرة لم يبلغ حتى الحد الذي وصل اليه سنة ١٩٦٥ (وهذا يفسر لنا الضجة التي أقيمت حول يهود الاتحاد السوفييتي والضغوط التي فرضت عليه لاطلاق هجرة اليهود السوفييت) . ان هذه الفترة قد شهدت ظاهرة مهمة في الاقتصاد الاسرائيلي ألا وهي تشغيل اليد العاملة الفلسطينية الموجودة في الارض المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، وهذا دليل على قوة تأثير القطاع الخاص في الاقتصاد الاسرائيلي اذ أن البيروقراطية الصهيونية العمالية عارضت دوما ولا تزال تعارض في استخدام اليد العاملة العربية في الصناعة اليهودية . الا أن الامر بدأ بالتغير ، فالقطاع الخاص لا يهمه سوى الربح واليد العاملة العربية رخيصة اذا ما قورنت مع اليد العاملة اليهودية ، كما ان هذه الفترة شهدت نموا كبيرا في الاستثمار الاجنبي في صناعة التعدين كما توسعت صناعة السلاح والالكترونيات التي يملكها القطاع الخاص . وازداد انتقال اليد العاملة من القطاع الزراعي الى هذا القطاع وبدأت اسرائيل بالاعتماد على هذا القطاع في زيادة صادراتها وفي تأمين احتياجات اسرائيل ، فقد أعلن يشعياهو لافي في سنة ١٩٧١ (مدير عام وزارة الدفاع) بأن الصناعة المحلية سوف تؤمن ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من المواد الحربية بينما سيبلغ الاستيراد ٧٠٠ مليون دولار من هذه المواد وان الصادرات من المواد الحربية سوف تبلغ ١٦٣ر٣ مليون دولار وهذا ما يعادل ٣٢ ٪ من مجموع الانتاج الحربي بينما لم تبلغ هذه الصادرات الا ٢٥ مليون دولار فقط عام ١٩٦٧ ، أي ان الزيادة بلغت ٦ اضعاف . ومما قاله لافي ايضا بأن الصادرات الحربية سوف تصبح ثلاثة اضعاف ما هي عليه الان قبل ١٩٧٥ وسوف تنخفض الواردات وسيبلغ عدد العاملين في الصناعات الحربية ١٩٠ الف عامل(٣٢). ان اعتماد اسرائيل على صناعة التسلح وتطويرها لن تمكنها فقط من زيادة صادراتها انما ستمكنها من الاعتماد على نفسها في فرض سياستها على الدول العربية وهذا يعني مزيدا من التوسع وعسكرة الاقتصاد الاسرائيلي ، كما سيمكن ذلك اسرائيل من أن تلعب دورا كبيرا في العالم الثالث والذي يحتاج الى السلاح الذي تصنعه اسرائيل كما سيمكن القطاع الخاص من جني الارباح التي ستذهب بالتالي الى المولين الاجانب . ان الاقتصاد الاسرائيلي أصبح ما بعد حرب ١٩٦٧ جزءا من الاقتصاد الامبريالي ، فاسرائيل لم تستطع أن تكون ترسانة لصنع السلاح بدون المعونات العلمية والمادية التي يقدمها المعسكر الغربي لها ، كما ان توجه اسرائيل نحو السوق الاوروبية يعزز هذا الاتجاه . ان اسرائيل تشهد اليوم تغيرات أساسية في اقتصادها ، فقد أسفرت حرب حزيران واحتلال الاراضي العربية الى نمو ظاهرة الاستعمار الاسرائيلي الجديد في الارض المحتلة ولقد تمكن القطاع الخاص بمعونة الوجوه التي تمثله كموشي دايان من فرض هذا الشكل الجديد للاقتصاد الاسرائيلي .

ان السلام سيأتي ليكرس التوسع الاقتصادي الاسرائيلي والاستعمار الجديد وليوسع السوق التي تعتمد عليها اسرائيل في تصريف بضائعها ، ولقد وضح هذا الاتجاه موشي دايان حينما سئل عن رايه في السلام مع العرب فأجاب « ان الحل الوحيد الممكن الذي تقبله اسرائيل يجب ان يعتمد على علاقة مسالمة وعلى **التبادل التجاري** بين اسرائيل وجيرانها العرب » . وأضاف بأنه يجب زيادة التعاون الاقتصادي بين اسرائيل والمناطق

المحتلة اذا كانت ادارة هذه المناطق ستتم بشكل مربح(٣٣). لقد بدأت اسرائيل باقامة علاقات اقتصادية استعمارية مع الاراضي المحتلة ، فقد بدأت باغلاق هذه الاسواق عن العالم العربي وتسويق معظم المنتجات الى داخل اسرائيل ، مقابل تصدير المواد المصنعة الاسرائيلية الى هذه المناطق . ولقد ذكر مصدر في وزارة الدفاع الاسرائيلية في تقرير له بمناسبة مرور ثلاث سنوات على الحكم العسكري بقوله : « في الواقع ان حرب الايام الستة قد أدت الى ازالة (الخط الاخضر) والذي كان يفصل اسرائيل عن المناطق التي تديرها حاليا ومن الطبيعي والمحتم أن تعتمد هذه المناطــق الآن على اسرائيل في كــل الخدمات والمسائل الاقتصادية »(٣٤).

لقد انخفضت صادرات الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من ٧٩ ٪ في ١٩٦٨ الى ٤١ ٪ عام ١٩٧٠(٣٥). أما واردات اسرائيل من الضفة الغربية فقد ازدادت من الصفر قبل الحرب الى ٤٠ ٪ عام ١٩٧٠ ، وصدرت اسرائيل عام ١٩٦٩ حوالي ٩ ٪ من مجموع صادراتها الى المناطق المحتلة ويشكل هذا الرقم زيادة ١٢ ٪ عن عام ١٩٦٨(٣٦). ان اسرائيل تعيد الآن تنظيم اقتصاد الاراضي المحتلــة ليكون مكملا للاقتصاد الاسرائيلي وتابعا له ، ولقد وضحت وزارة الدفاع هذه السياسة حين قالت : « تعتبر هذه المناطق سوقا مكملا للبضائع والخدمات الاسرائيلية مــن ناحية ، ومصــدر عوامل انتاجيــة ــ وخاصة اليد العاملة ــ للاقتصاد الاسرائيلي من ناحية أخرى »(٣٧). ان هذه المؤثرات توضح تزايد هيمنة القطاع الخاص على الاقتصاد الاسرائيلي وبدء توظيف اليد العاملة العربية رغم المعارضة التي تفرضها البيروقراطية العمالية ممثلة في غولدا مائير ، كذلك اتجاه الصناعة الاسرائيلية بالاندماج في السوق العالمية والتأثر به ؛ فقد انخفضت الليرة الاسرائيلية نتيجة الوضع الداخلي وأزمة الدولار مرتين ، واحدة في عام ١٩٦٧ والاخرى في عام ١٩٧١ . ان الاتجاه العام الذي ساد اسرائيــل والذي كان يفصــل الدوافع الاديولوجية على الارباح الاقتصادية قد بدأ بالتخلخل لتحل محله راسمالية امبريالية تنظر الى الدوافع الاقتصادية كجزء متمم للدوافع الاديولوجية وحتى تغليبها في المستقبل .

هذا على الصعيد الاقتصادي . فماذا تم على صعيد المنظمــات والمؤسسات التي اعتمدت عليها البيروقراطية العمالية ؟ ان أهم مؤسستين هما الهستدروت والكيبوتز . ولقد تكلمت أجهزة الدعاية الاسرائيلية كثيرا حول اشتراكية اسرائيل وكانت تعتمد دوما في دعايتها تلك على ان الهستدروت يشكل القوة الاساسية في البلاد ، بينما تمثل الكيبوتز والموشاف تجارب اشتراكية ينبغي الاقتداء بها . ان الحقيقة تختلف تماما عن ذلك ، فالهستدروت وجد منذ البداية كأداة بيد الصهيونية لغرض سياســة الاستيطان وطرد المواطنين العرب من ديارهم . وقد كان هدف الهستدروت المساهمة في بنــاء الدولة اليهودية واقامة الصناعة اليهودية والاسهام فيها لزيادة الهجرة ولزيادة الناتج الصناعي والزراعي ولتوثيق العلاقة بين الحركة العمالية اليهوديــة والحركات العمالية العالمية وخصوصا في افريقيا وآسيا . ان الهستدروت لم يكن نقابة للعمال كما هو الامر في كثير من النقابات ؛ بل ان للهستدروت ملكيته الخاصة واستثماراته كمؤسسة سوليل بونيه ، وكبنك العمال والمؤسسات الصناعية الخاضعة للهستدروت والتي مهمتها اجتذاب رؤوس الاموال الاجنبية واستثمارها في هــذه الصناعات كما يساهــم الهستدروت في كــل المؤسسات التعاونية وشركات النقل التي تسيطر على ٨٥ ٪ مــن فعاليات النقل في اسرائيل كشركة «تسيم» البحرية وشركة آل عال وغيرها(٣٨). كما أن الهستدروت يلعب دورا أساسيا في الحياة السياسية الاسرائيلية ، فهو يؤيد دوما حزب الماباي الحاكم . أما على الصعيد الخارجي فانه يلعب دورا مهما في النشاطات العمالية وفي اقامة الحلقات الدراسية واعطاء الزمالات لقادة الحركات العمالية في العالم الثالث وهو يعمل بالتعاون

مع اتحاد العمل الامريكي من أجل تنفيذ المهام المشتركة . أما قيادة الهستدروت فقد وقفت دوما مع قيادة الحركة الصهيونية ولم تكن لتمثل الحركة العمالية بقدر ما كانت تمثل التطلعات الصهيونية ولذلك فقد وقفت قيادة الهستدروت دومـــا ضد الاضرابات باعتبارها تضر « بالامن القومي » . ولم يكن الهستدروت منظمة عمالية تدافع عن العمال بل بالعكس كان منظمـــة تستغل العمال من أجل الاهـــداف الصهيونية ، لذلك وقف الهستدروت ضد كثير من الاضرابات الاخيرة في اسرائيل واعتبرها « غير قانونية » مما يعطي الحق للحكومة في تطبيق قانون الطوارىء بحق المضربين . ان المنتمين للهستدروت يشكلون ٤٠ ٪ من نفوس اسرائيل وهذا سر قوته ولقد ظل الهستدروت فترة طويلة يدير هذه الاعداد الهائلة من العمال حسب مشيئة البيروقراطيـــة العمالية . الا أن الفترة الاخيرة ما بعد حرب حزيران شهدت انشقاق العمال عن قياداتهم وعدم التزامهم بما تفرضه هذه القيادات او قيادات الهستدروت وازدادت الاضرابات غير القانونية بصورة كبيرة ، وسنأتي الى مناقشة هذه الظاهرة فيما بعد . أما الكيبوتز فقد شهد عدة تطورات هامة فقد كان أول الامر عبارة عن مزارع جماعية نظمها الرواد الصهاينة الاوائل وكان الغرض منها هو :

أولا : اقامة مزارع جماعية كتجربة لتعميمها فيما بعد من اجل تشجيع المهاجر اليهودي بالارتباط بالارض ومن اجل طرد المواطنين العرب من أراضيهم واحتلالها .

ثانيا : اقامة خطوط دفاعية متقدمة للدول اليهودية ضـــد اي احتمالات للعمليـــات العسكرية كما يتوقع ذلك في المقطع التالي : « يوجد ٦٠ ٪ من الكيبوتزات على حدود اسرائيل ، وهذه المستوطنـــات تلعب دورا هامـــا في النظام الدفاعـــي الاسرائيلي . الكيبوتزات ، كمستوطنات متماسكة على الحدود ، تشكل في الوقت ذاته عناصر مدنية قومية وحيوية في شبكة الدفاع الاستاتيكي الاسرائيلي وتمنح لقوات الدفاع الاسرائيلي حرية حركة تستطيع بها الدفاع عن الحدود »(٣٩).

لقد كان الكيبوتز منذ البداية مشروعا رأسماليا فقد بدأ منذ البداية بالاشتراك مع راس المال الخاص في اقامة منشآته والاشتراك في التكتلات الاحتكارية . ان الكيبوتزات تحصل على القروض المالية من المصارف الخاصة ومن الافراد مقابل فوائد سنوية غالبا ما تبلغ نسبتها اكثر من ٢٠ ٪ وهذه العملية تسهم في توظيف الراسماليين لاموالهم في هذه الكيبوتزات باعتبارها عملية مربحة ، ان هذه الصفات مجتمعة هي التي تجعـــل الكيبوتزات شريكا وحليفا مفيدا لتكتلات الرأسماليين في البلاد(٤٠). « ان الكيبوتزات جميعا مدينة للحكومة والمصارف الخاصة والشركات . ولولا المساعدات المستمرة من المؤسسات الصهيونية لما كان بمقدور الكيبوتزات ان توجد »(٤١). ان هذه « الاشتراكية تعمل بدعم من قروض تقدمها المصارف الرأسمالية ومن بينها البنك الامريكي للاستيراد والتصدير »(٤٢). وبمرور الوقت وضعت الوكالة اليهودية الرقابة على خطط الانتاج والاستثمار شرطا للقروض التي تقدمها(٤٣). لقد بدأت الكيبوتـــزات باقامة مشاريـــع صناعية بالتعاون مع رأس المال الامريكي . وتحصل الكيبوتزات الان على ٤٠ ٪ من دخلها من الانتاج الصناعي . ونتيجة لقلة عدد افراد الكيبوتزات فقد كان من الضروري لهم لكي يديروا المشاريع الصناعية بالاعتماد على العمل المأجور ولقد بدأت هذه الظاهرة بالانتشار بعد حرب حزيران ، وهكذا وجد الكيبوتز نفسه مجبرا على ان يصبح مستغلا جماعيا للعمل المأجور . ومن هنا فان الكيبوتز موضوعيـــا كأي مؤسسة رأسمالية . وعندما ينشب اضراب في مصنع كيبوتز فان الملاك يستدعون الشرطة دون وازع(٤٤).

من هنا نرى ان التغيرات في الاقتصاد الاسرائيلي كانت نحو زيادة القوى العاملة في

الصناعة وهبوطها في الزراعة وزيادة مساهمة القطاع الخاص وتنحي القطاع العام الى مجرد مساعد على نمو القطاع الخاص والاستثمارات الاجنبية ، وان العوامل الاقتصادية ودافع الربح في هذه العمليات بدأ يظهر الى السطح بعد أن كانت العوامل الاديولوجية هي العوامل المتغلبة . ان اسرائيل أصبحت جزءاً من المعسكر الامبريالي اقتصاديا وسياسيا وبدأ الاقتصاد الاسرائيلي يتحول الى عملية مربحة بالنسبة للرأسمالية الامريكية والغربية حيث تزداد توظيفات هذه الدول في مختلف الصناعات الاسرائيلية وخاصة صناعة الالكترونيات . ان ضغوط رأس المال الخاص ، علاوة على الضغوطات الاقتصادية للدول الامبريالية ، تدفع البيروقراطية العالمية الى التنحي عن الميدان وتركه للقطاع الخاص وهذا سيغير كثيرا من شكل الصراع الطبقي والاجتماعي في اسرائيل والتوجه نحو فرض حل سلمي يخدم التوسع الاقتصادي الاسرائيلي ونمو الاستعمار الجديد في سبيل جني المزيد من الارباح . ان التغيرات المرتقبة في الاقتصاد الاسرائيلي خلال العقد القادم هي توجيه مزيد من الموارد صوب قطاع الصناعة والتعدين ووصول القطاع الزراعي الى درجة من التشجيع والتركيز اكثر على تطوير قطاع النقل لاهداف اقتصادية واستراتيجية معا . وجميع هذه التطورات تضع مزيدا من الاعباء على اكتاف القطاع الخاص نظرا لان معظم وسائل الانتاج في قطاعي الصناعة والنقل محكومة من قبل افراد وشركات ومؤسسات خاصة تعمل بحافز الربح(٤٥).

ولكن ما تأثير هذه التغيرات على الصراع الاجتماعي والطبقي ، ان المجتمع الاسرائيلي مجتمع مهاجرين وهذا يجعله يختلف كثيرا عن غيره من المجتمعات . فلقد جاء اليهود من دول شتى ومنابع مختلفة لذلك فهم يتميزون بثقافات مختلفة وعادات مختلفة ولقد حاولت الدولة صهر هؤلاء المهاجرين بواسطة بثها لشعار « خطر ازالة الدولة اليهودية » من قبل العرب ، وقد نجح هذا الشعار لمدة طويلة في ايجاد حالة تماسك بين الفئات الاجتماعية المختلفة وفي كبت الصراع الطبقي في البلاد . الا ان المشكلة الاجتماعية ظهرت على السطح نتيجة زيادة هجرة اليهود الشرقيين الى اسرائيل حيث يكونون الان حوالي ٦٠ ٪ من السكان اليهود . وهؤلاء اليهود مضطهدون اقتصاديا وسياسيا وثقافيا من قبل المؤسسات الحاكمة التي يسودها الاشكناز . وقد حاول اليهود الشرقيون التحرك في سنة ١٩٥٩ من اجل المساواة في الحقوق الا ان هذه الحركة التي عرفت بحركة « وادي الصليب » قمعت بشدة . وظهرت بعد توقف القتال بين مصر واسرائيل في سنة ١٩٧٠ حركة عرفت بحركة الفهود السود في منطقة مصراره في القدس قادتها جماعة من اليهود الشرقيين وقد واجهت الدولة هذه الحركة بالقمع والاعتقالات الا ان هذا لم يمنع هذه الحركة من النمو ومن التوجه نحو مواقف اكثر راديكالية . ان هذه الحركة كانت تعبيرا عن وجود مشكلة اجتماعية حادة في المجتمع الاسرائيلي ، هذه المشكلة التي دفعت غولدا مائير الى القول بأن الخطر الداخلي أشد من الخطر الخارجي . وفي الوقت نفسه شهدت اسرائيل حركة اضرابات كبيرة حيث زادت الاضرابات في السبعة الاشهر الاولى من ١٩٧٠ عن الفترة نفسها من السنة الماضية بـ ٤٠ ٪ وبلغ عدد المشتركين في الاضرابات ٩٨ الف شخص وهو اعلى رقم وصلته الاضرابات في تاريخ اسرائيل . أما عدد الايام التي فقدت نتيجة الاضرابات فبلغ ١٧٢ الف يوم مقابل ٧٢ ألف يوم عمل فقدت في الفترة نفسها من السنة الماضية(٤٦). ان هذه الارقام تكاد ان تكون اعلى من تلك التي سجلتها سنوات الركود ٦٥ ـــ ٦٧ ، كما شهدت هذه الفترة تزايدا كبيرا في عدد الاضرابات اللاقانونية (اي التي لا يؤيدها الهستدروت) وهذه ظاهرة جديدة في المجتمع الاسرائيلي ، اذ ان الهستدروت والحكومة كانا يستعملان حجة « الامن القومي » لمنع أي اضراب لا يريداه ، الا ان ذلك لم يعد كافيا في الوقت الحاضر ، اذ ان هذه الاضرابات اللاقانونية ازدادت

رغم التهديد باستعمال قانون الطوارىء ومنع الاضرابات من قبل الحكومة ، ان هـذه الاضرابات دليل على ازدياد الصراع الطبقي داخل اسرائيل وعدم قبول عدد متزايد من العمال لسيطـرة الهستدروت على القرارات التي يتخذونهـا ، ان فتـرة النمو التي شهدتها اسرائيل لم تنقذها من المشاكل الخطيرة التي تواجهها بل بالعكس فان الصراع الطبقي قد ازداد كما ازدادت التناقضات الاجتماعية نتيجة زيـادة الضرائب وزيـادة ميزانية التسلح وتخفيض الليرة مرتين الاولى في ٦٧ والثانية في ١٩٧١ حتى لقد انخفض سعر الليرة من ٤ دولارات واربعة سنتات في ١٩٤٨ الى ٢٨ سنتا امريكيا في الوقـت الحاضر ومع ذلك فان التضخم ما زال مستمرا بلا قيود(٤٧)، لقد ازداد دين اسرائيـل حتى بلغ سنة ١٩٧٠ حوالي ٥ر٣ بليـون دولار(٤٨)، وبلغت تكاليف ادارة المنـاطق المحتلة ومقاتلة الفدائيين اكثر من ٣ ملايين دولار في اليوم وتضاعفت الميزانية العسكرية اربع مرات سنة ١٩٦٧ اذ بلغت ٣ر١ بليون دولار عام ١٩٧٠ — ١٩٧١ أي ما يوازي اكثر من ربع الناتج القومي كله لتلك السنة(٤٩)، من كل ما تقدم فـان في الامكـان الخروج ببعض الاستنتاجات للميزات الرئيسية لشكل النزاع داخل اسرائيل وارتباطه بالصراع الجاري في المنطقة ، وشكل الاقتصاد الاسرائيلي وترابطه بهذا النزاع ، ويمكن تلخيص هذه النقاط كما يلي : —

١ — ان الاقتصاد الاسرائيلي لا تحركه العوامل الاديولوجية فحسب كما كانت الحالة في السابق بل ان العوامل الاقتصادية وعوامل الربح بدأت بالظهور وبالتأثـير علـى العوامل الاديولوجية للطبقة الحاكمة الاسرائيلية ، كما ان دوافع الربح وتأثيرها علـى سياسة الدولة آخذة بالتوسع كلما ازداد نمو القطاع الخاص .

٢ — أن القطاع العام لم يعد يلعب نفس الدور الذي لعبه في الخمسينات حينمـا كان يسيطر على الاقتصاد الاسرائيلي فقد اصبح الان مجرد مساعد لزيادة الاستثمارات الاجنبية في القطاع الخاص ، ولكن ذلك لا يعني بان دور البيروقراطية العمالية سينتهي في المستقبل ، اذ ان هذه البيروقراطية لا تزال تسيطر على سياسة الدولة الاسرائيلية لانها تضع يدها على اكبر المؤسسات في البلد كالهستدروت ، الا ان توسع القطـاع الخاص سيمكنه من التحكم مستقبلا في الحياة الاقتصادية وهذه العملية ستترك اثرها على الوضع الاقتصادي والسياسي لاسرائيل ، ان اسرائيل تندفع اكثر فاكثر نحو بناء راسمالية امبريالية في الشرق الاوسط تدفعها عوامل الربح والعوامل الاقتصاديـة والتي ستتحكم في المدى البعيد في القرارات السياسية للدولة .

٣ — ان هذه السمات تتوضح حينما نرى تنازل البيروقراطية العمالية عن تعنتهـا بعدم تشغيل اليد العاملة العربية التي تبلـغ ٥٠ الف نسمة في الارض المحتلة بعـد ١٩٦٧(٥٠)، وسيزداد هذا العدد في المستقبل .

٤ — ان تشغيل اليد العاملة العربية في اسرائيل يخدم تماما السياسة الاقتصادية لاسرائيل فهؤلاء يشكلون يدا عاملة رخيصة كما انهم يعملون في اشد الاعمال صعوبة بينما تترك الاعمال الفنية للعمال الاسرائيليين ، كما أن كثير من هؤلاء العمال هم ممن يملكون ارضا في الضفة الغربية ونتيجة لاغراء العمل داخل اسرائيل فانهم يتركـون اراضيهم مما يؤثر على اقتصاد الضفة الغربية ويسهل على اسرائيـل شراء هـذه الاراضي علاوة على ان اسرائيل تفكر بالناحية السياسية لتشغيل هؤلاء العمال العرب اذ انها تعتقد بان تشغيلهم سيرفع من مستوى معيشتهم ولن يجعلهم احتياطيا للمقاومة وسيكون من السهل على اسرائيل عزل المقاومة عنهـم ، اذ تـدعي بعض الصحف الاسرائيلية بان مستوى البطالة في الضفة الغربية (عام ١٩٧١) اصبح اقل من ٣٪

وفي قطاع غزة الى اقل من ٥٪ بينما كانت قد وصلت هذه النسبة الى ١٧٪ (٥١).

٥ ــ ان كل هذه العوامل قد ساعدت على نمو ظاهرة الاستعمار الاسرائيلي الجديد ، التي تتوضح في سياسة اسرائيل تجاه الارض المحتلة ، وتشجيع سياسة « الجسور المفتوحة » بين اسرائيل والاردن والتي تمكن اسرائيل من التغلغل في السوق العربية بصورة تدريجية .

٦ ــ ان النزاع الطبقي داخل اسرائيل اخذ بالتوسع رغم كل الاساليب التي تتبعها السلطة لتجميع هذا الصراع ، ان هذا الصراع يتوضح بازدياد الاضرابات القانونية وغير القانونية بشكل واسع ، الا ان المطاليب التي يقدمها العمال لا تزال مطاليب اقتصادية بحتة وهذا ناتج من ان الطبقة العاملة الاسرائيلية هي طبقة مستفادة من الاموال التي تأتي للكيان الاسرائيلي من الخارج ، علاوة على ان الوعي الطبقي داخل اسرائيل ضعيف جدا نظرا لكون المجتمع الاسرائيلي مجتمعا استيطانيا ومجتمع مهاجرين.

٧ ــ ان هنالك صراعا اجتماعيا حادا داخل اسرائيل بين اليهود الشرقيين المضطهدين واليهود الغربيين المسيطرين على الاجهزة الرئيسية في الدولة وان هذا الصراع يشتد كلما ازدادت الحالة الاقتصادية سوءا او ازدادت انفاقات التسلح .

٨ ــ ان هنالك يمينا قوميا داخل اسرائيل وهذا اليمين يحاول ان يدفع الدولة الى مزيد من التوسع . هذه السياسة التي تلائم تماما ما يهدف اليه القادة العسكريون في الجيش الاسرائيلي ، والاوساط الرأسمالية التي تجد فائدة من هذا التوسع .

٩ ــ ان الطلاب يلعبون دورا قياديا في نمو اي حركة يسارية في المستقبل. ان الجيش الاسرائيلي يعتمد اعتمادا كبيرا على الطلاب في تزويده بالكوادر المتعلمة ولذلك فان انتشار التمرد ضد التجنيد في صفوف هذا الجيش يؤثر كثيرا على الالة الحربية التي تعتمد عليها اسرائيل ، لذلك كان رد فعل السلطات الاسرائيلية عنيفا تجاه هذه الظاهرة التي بدأت في عام ١٩٧١ عندما قام ثلاثة من ابناء المدارس الثانوية بارسال رسالة الى وزير الدفاع جاء فيها « اننا لسنا على استعداد للخدمة في قوات الدفاع ، ان شبابا يفقدون ارواحهم في معارك من اجل صراعات داخلية وليس من اجل قيم عليا ، مقابل كل قتيل في القناة يثرى رجل في تل ابيب ، اننا لسنا على استعداد للخدمة في الجيش المحتل ، لم نولد احرارا لكي نصبح مستعبدين »(٥٢). اما تيومان ــ وهو عضو في الماتزبن ــ والذي اعتقل نتيجة رفضه الخدمة العسكرية فقد قال « ان الامر المطروح على بساط البحث من الناحية التاريخية المبدئية هو التخلص من هذا الكيان والسلطة والنظام الصهيوني ، ان من يعرض المشكلة على أنهم يريدون ذبحنا ، انما يخدع نفسه ويخدع الاخرين ، المشكلة الاساسية هي التحرر من الصهيونية »(٥٣).

١٠ ــ ان الاقتصاد الاسرائيلي هو في حالة تطور نحو اقتصاد رأسمالي امبريالي يشابه مثيله في العالم المتقدم الا ان له خصوصياته التي سنذكرها فيما بعد ، ففي العالم المتقدم تقل نسبة العاملين في الزراعة وتزداد نسبة العاملين في الصناعة وتنعكس الحالة في دول العالم الثالث ، وفي اسرائيل شهدت الطبقة العاملة نموا متسارعا في السنوات العشر الماضية .

١١ ــ ان اسرائيل رغم انها دولة رأسمالية الا انها لها خصوصياتها كما ذكرنا اذ انها مكونة من مجتمع مستوطنين وهم في تماس مباشر مع مضطهديهم ــ الشعب الفلسطيني ــ وان هذا الشعب هو المالك الشرعي لارض فلسطين وهو غير مستعد للتخلي عنها وان من حقه ممارسة حقه في تقرير مصيره على ارضه وهذا يجعل الصراع

الرئيسي بين حركة التحرر الفلسطيني والعربي وبين المؤسسات الصهيونية ويصبح الصراع الطبقي تابعا لهذا الصراع الرئيسي ومتأثرا ومؤثرا فيه . ان هنالك علاقة جدلية بين الصراع الرئيسي وبين الصراع الطبقي في اسرائيل ومن هنا نستطيع ان نرى بان شكل الصراع الرئيسي الخارجي سيؤثر على الصراع الداخلي تأثيرا كبيرا ومباشرا ولو اخذنا الاحتمالات الرئيسية في منطقة الصراع لرأينا بان الصراع الداخلي سيتأثر بكل احتمال بشكل من الاشكال .

---

١ — الآن. ر. تايلور ، **مدخل الى اسرائيل** ، تعريب شكري محمود نديم ، منشورات دار الحياة بيروت ١٩٦٩ .

٢ — Walter Laqueur, *The Israel - Arab Reader*, Pelican Book, London, p. 28-29

٣ — الدكتور عمرو محي الدين ، بحث قدم الى الحلقة الاولى لدراسة الكيان الاسرائيلي في بغداد ١٩٧٢ ، ص ١٣ عن N. Halevi, *Economic develope-ment of Israel,* Praeger, London, 1968

٤ — *The Other Israel*, Matzpen, July 1968, p. 3

٥ — هاني حوراني ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٥ ، ص ١٢١ .

٦ — د. عمر ومحي الدين ، ص ٣٢ عن Robert Szereszewsky « *Essays on the Structure of the Jewish Eco-nomy in Palestine and Israel* », Jeru-salem, 1968

٧ — د. عمرو محي الدين ، ص ٣٥ عن H. Pack « *Structural Change and Economic Policy in Israel* », Yale University Press, 1971

٨ — **نفس المصدر** ، ص ٤٣ .

٩ — الياس سعد ، **اسرائيل والبطالة** ، مركز الابحاث — منظمة التحرير الفلسطينية . دراسات فلسطينية ، عدد ٣٩ ، ص ٢٩ .

١٠ — *Essays on the Israeli Economy,* Edited by Jusif Shibl

١١ — **نفس المصدر** ص ١٥٠ .

١٢ — لاري لوك وود ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٢٠ ، ص ٧٩ .

١٣ — انطوان منصور ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٥ ، ص ٩٦ .

١٤ — د. يوسف شبل ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١١ ، ص ١٠٢ .

١٥ — Yusif Shibl. *Essays on Israeli Economy* », p. 238

١٦ — **نفس المصدر** ص ١٥١ .

١٧ — د. يوسف شبل ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١١ ، ص ٩١ .

١٨ — **نفس المصدر** ، ص ٩٤ .

١٩ — **نفس المصدر** ، ص ٩٣ .

٢٠ — **نفس المصدر** .

٢١ — **نفس المصدر** ، ص ٩٦ .

٢٢ — د. عمرو ، ص ١٥ .

٢٣ — الياس سعد ، **اسرائيل والبطالة** ، ص ٢٩ .

٢٤ — *Statistical Abstract, 1971*

٢٥ — د. عمرو ، ص ١١ عن M. Pack « *Structural Change* », p.14

٢٦ — د. عمرو ، ص ١١ عن M. Bruno « *Economic Develop-ment Problems of Israel* », 1970-1978

٢٧ — H. Hanegbi, M. Machover and A Orr, *Left Wing Zionism*, No 4, March 71, p. 21

٢٨ — هاني عبد الله ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٩ ، ص ٢١ .

٢٩ — انطوان منصور ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٥ ، ص ٩٩ .

٣٠ — **نفس المصدر** ص ١٠١ .

٣١ — **اسرائيل اكونوميست** ، اذار ١٩٦٧ . ٦٢ عن **شؤون فلسطينية** عدد ١٥ .

٣٢ — انطوان منصور ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٥ ، ص ١٠٨ .

٣٣ — **نيويورك تايمز** ، ٣ حزيران ١٩٦٩ .

٣٤ — شيلا ريان ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٨ ، ص ٩٣ .

٣٥ — **اسرائيل ايكونوميست** ، نيسان ١٩٧١ .

٣٦ — شيلا ريان ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٨،
ص ٧٩ .

٣٧ — **نفس المصدر** ، ص ٨٠ .

٣٨ — Yusif Shibl « *Essays on Israeli Economy* », p. 231

٣٩ — ستيفان ، بكمان ، **شؤون فلسطينية** ،
عدد ٣ ، ص ٢٠٦ .

٤٠ — ا. ن. سعد ، **شؤون فلسطينية** ، عدد
١٩ ، ص ٩٣ .

٤١ — Matzpen, *The Other Israel*, 1968, p 21

٤٢ — ستيفان بكمان ، **شؤون فلسطينية** ، عدد
٣ ، ٢٠٧ .

٤٣ — **نفس المصدر** ، ص ٢٠٨ .

٤٤ — Matzpen, *The Other Israel*, 1968, p. 21-22

٤٥ — د. يوسف شبل ، **شؤون فلسطينية** ،
عدد ١١ ، ص ١٠٠ .

٤٦ — هاني عبد الله ، **شؤون فلسطينية**
عدد ٩ ، ص ٢٤ .

٤٧ — لاري لسوك وود ، **شؤون فلسطينية** ،
عدد ٢٠ ، ص ١٠٧ .

٤٨ — *The Jerusalem Post, weekly,* Feb. 29, 1972

٤٩ — لاري لسوك وود ، **شؤون فلسطينية** ،
عدد ٢٠ ، ص ١٠٧ .

٥٠ — عبدالله صندي ، **شؤون فلسطينية** ،
عدد ١٢ ، ص ١٤٣ عن دافار ٧١/٩/٢ .

٥١ — **نفس المصدر** ، ص ١٤٣ عن
Israel Economist, Oct. 1971

٥٢ — *Matzpen*, 1971

٥٣ — عبد الحفيظ محارب ، **شؤون فلسطينية** ،
عدد ١٦ ، ص ١٤٦ عن مجلة ماتزبن عدد ٦٢
فبراير ١٩٧٢ .

القرار السياسي الاسرائيلي إبان حكم مئير

عبد القادر ياسين

— « ان الحكومة هي اتحاد من ٢٤ وزارة . والذيـن يديرون شؤون الدولة — فعلا — هم المحيطون بغولدا مئير » . وزير اسرائيلي في ملحق هآرتس ، ٣/٧/ ١٩٧٠ .

— « لم تقل الحقيقة في هذه البلاد ، منذ وقت طويل . وكثير جدا من الامور تحسم في المطبخ » . الجنرال أريك شارون في نيوزويك ، ١٩٧٤/٢/٤ .

— « تقرب غولدا مئير الوزراء اليها ، وتدير الوزارة بنفس الطريقة التي تدير بها منزلها » . مناحم بيغن في جلسة الكنيست ، ١٩٧٤/٤/١٢ .

أهرع للارشيف كلما أردت استخدام اسم رئيس دولة اسرائيل في احدى مقالاتي . واعتقد ان عدم شيوع اسمه انما يعود الى عدم تمتعه بأية ميـزة او وزن في الحركة السياسية الاسرائيلية . وافرايم كاتسير — وهذا هو اسم رئيس الدولة الاسرائيلي الحالي — لم يكن رئيس الدولة الاسرائيلي الوحيد والاول المجرد من الصلاحيات ، فقبله زلمان شازار ، واسحق بن زفي وحاييم وايزمن ، والاخير لم يكن ضمن الموقعين على وثيقة قيام اسرائيل ، التي قامت ابان توليه رئاسة الدولة الاسرائيلية .

ورئيس الدولة ينتخبه الكنيست ، كما ان للكنيست حق عزله . وعلى رئيس الدولة الحصول على موافقة الكنيست ان هو اراد القيام بمهام خارج اختصاصاته المحدودة . ولرئيس الدولة بعض الاختصاصات المتعلقة بالقضاء ، اذ يحق له العفو عن المجرمين ، أو تخفيف العقوبة المفروضة عليهم . ومع ذلك ، فقراراته بحاجة الى تصديق رئيس الوزراء وتوقيع الوزير المعني . كما يحتاج رئيس الدولة الى موافقة الحكومة على سفره للخارج . ومن ثم فرئيس الدولة ليس جزءا من السلطات الثلاث ، التنفيذية والتشريعية والقضائية . واختصاصاته شرفية ، شكلية ، تنحصر في التعزية ، والتهنئة ، وتكليف أحد أعضاء الكنيست بتأليف الوزارة ، وحتى هذا الاختصاص ليس لرئيس الدولة خيار فيه ، اذ عليه ان يكلف من تقدمه له الاغلبية البرلمانية .

وباختصار لا يقوم نظام الحكم في اسرائيل على النظام الرئاسي ، كالولايات المتحدة ، حيث يتمتع رئيس الدولة بحق رئاسة الوزارة ، كما ان النظام الاسرائيلي ليس بالنظام البرلماني من الطراز الجديد، مثل النظام الفرنسي الذي يتمتع فيه رئيس الدولة بصلاحيات واسعة . بل ان النظام الاسرائيلي نظام برلماني، اقرب الى ما هو سار في المانيا الغربية، حيث يتربع رئيس الدولة هناك على كرسيه بلا حول ولا قوة !

وما دام امر القرار السياسي ليس بيد رئيس الدولة ، فهل يتحكـم فيه الكنيست

بأعضائه المائة والعشرين ، ام تصنعه المؤسسة العسكرية ، أم تشكل اللجنه المركزية لحزب العمل الحاكم مصدرا لهذا القرار ، أم يصنع القرار مجلس الوزراء ، أم هناك قوى خفية تتحكم في صناعة القرار السياسي في اسرائيل ؟

الامر الذي لا شك فيه ، وأكدتـه الاحداث ، هو ان اسرائيـل لا تدار بالاسلوب العشائري ، بمعنى ان شخصا واحدا ــ مهما بلغ شأنه ــ لا يمكنه ــ لاسباب عديدة ومعروفة ــ ادارة دفة الحكم في اسرائيل وحده ووفق هواه . واذا كانت الديمقراطية الشكلية ذات النمط الغربي ، التي تأخذ بها اسرائيل ، تحتم عليها جماعية القيادة ، فان جماعية القيادة هذه لا تنفي التفاوت في القوة والتأثير بين الافراد صانعي القرار .

القرار وجماعات الضغط

حين تفرض مشكلة بعينها نفسها على حاكم ما ، فلا مفر أمامه مـن اتخاذ قراره بصددها ، اما بحسمها ، أو تأجيلها ، أو تسويتها بتقديم تنازلات للطرف الآخر بشأنها . ذلك هو المفهوم المختصر للقرار السياسي .

وبالرغم من أن رئيس الوزراء في اسرائيـل يلعب الدور المحوري في صنع القـرار السياسي ، الا أن صناعة القرار تعكس ــ في المقام الاول ــ علاقات القوى السياسية في اسرائيل . ومجلس الوزراء هو ــ من الناحية النظرية ــ مصدر القرار السياسي ، حيث يتولى التعبير عن اتجاه عام في الدولة ، وصياغته ، وتوقيت اعلانه ، وتنفيذه . ولا تمتد الخلافات داخل الائتلاف الوزاري الى جوهر الفكرة الصهيونية ، او الى كيـان الدولة وأمنها ، بل تبقى هذه الخلافات محصورة في التكتيكات دون الاستراتيجية ، على الوسائل لا على الاهداف . وبالرغم من الاهمية الخاصة التي يتمتع بها رئيس الوزراء في صنع القرار السياسي باسرائيل ، الا ان دوره يقف عند حد التمهيد للقرار ، وترجيح كفة الاغلبية عند التصويت على القرار المعنـي . وتنحصر القرارات السياسية الهامة في اسرائيل بتلك التي تخص الامن والسياسة الخارجية والمسائل الاقتصادية(١) .

على ان ثمة مؤسسات سياسية اسرائيلية تبدو وكأنها هي صانعة القرار . الا أن الواقع يبين انها مجرد مؤثر في اتجاه القرار ، ولا تصنعه . أي أنها ، حسب المصطلح السياسي الساري ، « جماعات ضغط » . فعوضا عن المعارضة الاكثر يمينية ، التي تمتلك أقلية كبيرة في الكنيست ، ونعني بها كتلة « ليكود » ، وقيادة الجيش التي تنجح في انتزاع قرارات أمنية رغم أنف بعض السياسيين ذوي النفوذ ، هناك جماعات الضغط الاقتصادي ، والهستدروت ، والكنيست .

فبعض المجالات الاقتصادية ، لا تطلق فيها يد وزير المالية الاسرائيلي بلا حدود . اذ ينبغي مراعاة أصحاب المراكـز الاقتصادية وبعض جماعـات الضغط الاقتصادي في اسرائيل . بمعنى ان بنحاس سابير ــ وزير الماليـة الاسرائيلي السابق ــ ملـزم باستشارتهم من حين لآخر ، قبل أو عند اتخاذ قرارات اقتصادية معينة . وهذه الجماعة دون الدزينة (الدستة) ، وأبرزهم موسى زنبار (حاكم بنك اسرائيل) ، والدكتور تسفي دينشتاين (نائب وزير وأساسا رئيس بنك الصناعة والتنمية) ، وابراهام اغمون (مدير عام وزارة المالية) ، واهرون دوبرت (كلال) ، وآريبه دولشتين (أمين صندوق الوكالة اليهودية) ، ويعقوب ليفنسون (بنك العمال) . ومن جهة أخرى هناك أعضاء « الهيئة الاقتصادية » من القطاع المصرفي ــ المالي ، والسيد ركانتي (بنك ديسكونت) ، والسيد لفيت (بنك لئومي) ، وفريد من (الشركة المركزية) ، والقطاع الصناعي ــ الخاص (موشفيتش ، سوزاييف ، بجارنو) الخ . ومع ذلك فتأثير هذه المجموعات على سابير محدود(٢) . والمؤسسة الاقتصادية في اسرائيل عبارة عن ائتلاف من جماعات اقتصادية

ومالية كبيرة ، يسيطر عليها سابير . وفي اسرائيل ظاهرة سياسية — اجتماعية فريدة ؛ ثمة يهود لا يحملون الجنسية الاسرائيلية ، ولكنهم تابعون للمؤسسة. وهؤلاء المساهمون أصبحوا مستثمرين(٣).

واذا ما انتقلنا الى الهستدروت ، وجدناه يشكل محورا هـاما في الحياة السياسية الاسرائيلية . فهو ليس مجرد مؤسسة نقابية للعمال ، بل قلعة اقتصادية ضخمة ، لها مشاريعها الاقتصادية الكبيرة ، وتمتلك ثاني أكبر بنك في اسرائيل . ويهيمن الهستدروت على القسط الاكبر من التجارة الداخلية والخارجية لاسرائيل . وهذا النفوذ الاقتصادي العريض ، له ما يوازيه من النفوذ السياسي ؛ مما حول الهستدروت الى « دولة داخل دولة » ، ودفع بيتسحاق بن أهرون — السكرتير السابق للهستدروت (استقال غداة حرب تشرين) — الى المركز الثاني في الدولة بعـد رئيس الوزراء ، من حيث الاهمية والثقل(٤). ونجح بن أهرون — بدوره — في تعزيز موقع الهستدروت في خريطة مراكز القوة في اسرائيل . وآزرت مئير — في البداية — بن أهرون ، ثم ما لبثت أن انقلبت عليه، بعد احساسها بأنه « تجاوز حده في النزاع مع أعضاء حكومتها »(٥).

أما الكنيست ، فيحد من فاعليته تمتع الحكومة — دائما — بالاغلبية داخله . وقد انحطت مكانة الكنيست كثيرا في السنوات الاخيرة « حيث اخذت صورته تتشوه وطابعه — (كخاتم مطاط) يصادق تلقائيا على سياسة الحكومة — يتعرض للنقد ، منذ مدة ، من الاوساط الشعبية »(٦). ويستخدم الكنيست — في غياب الدستور — ككلب حراسة للحكومة(٧).

وفي سلم الحكم ، يأتي مركز رئيس الكنيست الثالث ، بعـد رئيس الدولة ورئيس الوزراء . ومع ذلك ، فمنصبه لا يمنحه من الصلاحيات أكثر من ادارة جلسات الكنيست، واحتلال الموقع الثالث بعد رئيس الدولـة ورئيس الوزراء ، في الاحتفالات والمراسيم والتشريفات !

وبالرغم من الدور التشريعي المسلم به للكنيست ، الا أن من حق الحكومة اصدار تشريعات طوارىء لمدة ثلاثة اشهر ، وان كان للكنيست حق ادخال تعديلات عليها . وفي اسرائيل ، تقدم الحكومة أغلب مشاريع القوانين ، ولاعضاء الكنيست الحق في اقتراح قوانين جديدة . ويقتصر حق فرض الضرائب والموافقة على الموازنة للكنيست دون غيره. وحتى المعاهدات التي تبرمها الحكومة الاسرائيلية مع الدول الاخرى ، لا تعرض على الكنيست للتصديق عليها .

واطار العلاقة بين الكنيست والوزارة محدد بالنقاط التالية :

— يجب أن يكون الشخص المكلف بتأليف الوزارة عضوا في الكنيست .

— تتقدم الحكومة الجديدة الى الكنيست ، للحصول علـى قرار بالثقة منه ، قبل ممارستها الحكم .

— الحكومة مسؤولة مسؤولية جماعية أمام الكنيست عن جميع ما تؤديه من أعمال .

— للكنيست سلطة سحب الثقة من الحكومة .

وليس لرئيس الوزراء سلطة قانونية على باقي الوزراء ، لذلك فمركزه في الكنيست يمكن تصنيفه بأنه « الاول بين أقرانه » . ومع ذلك فاستقالة رئيس الوزراء تعتبر قرارا بالاستقالة من قبل جميع أعضاء مجلس الوزراء . وتتم استقالة الوزارة بمجرد انتهاء مدة الكنيست ، أو استقالة رئيس الوزراء ، أو بسبب سحب ثقة الكنيست من الوزارة ،

او للخروج على نظام الائتلاف الوزاري ، واخيرا بسبب نشوء أزمة وزارية .

وطبقا لتوصيات الوزارة ، يضع رئيس الكنيست جدول أعمال الكنيست . وبهذه الطريقة تتمكن الحكومة من اعطاء الاولوية للموضوعات التي تهمها ، في حين تدحر الموضوعات التي لا ترغب فيها الى المؤخرة .

معالم التكوين السياسي

لأكثر من خمس سنوات ، ظلت غولدا مئير الشخصية الرئيسية في الحياة السياسية الاسرائيلية ، من خلال تبوئها رئاسة الوزارة من ٨ آذار (مارس) ١٩٦٩ الى ٣ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ . وبالرغم من ان طبيعة الحياة السياسية في اسرائيل تفرض نمط الحكم، الا أنه من البديهي ان يترك الحاكم بصماته المميزة على الفترة التي قضاها في الحكم ، على اعتبار ان لكل شيخ طريقة .

على ان صناعة القرار السياسي اكبر من ان تتوقف على التكوين النفسي للاسرائيليين . فهناك — قبل كل شيء — التكوين الاجتماعي والسياسي ، والقوى الفاعلة ، وقوى الضغط في السياسة الاسرائيلية . كذلك ان سياسة اسرائيل الخارجية والعسكرية لا يمكن الاستدلال عليها من حركة التناقضات الاجتماعية الداخلية وحدها ؛ فالمجتمع — ككل — يوجه من الخارج . وهذا الموقف المتفرد مرتبط بطبيعة الدور الذي تلعبه اسرائيل في منطقتنا(٨) .

ومن الصعب تصنيف النظام السياسي في اسرائيل ضمن النظم الديمقراطية او النظم الديكتاتورية(٩) . ومع ذلك ، يمكن القول بأن النظام السياسي في اسرائيل يقوم على فكرة الديمقراطية الشكلية ، الذي سبق لاميل حبيبي — عضو المكتب السياسي لراكاح — ان شبهها بالفاكهة الشمعية ، التي يستهويك شكلها دون مذاقها ! وتقوم هذه الديمقراطية على السماح بتعدد الاحزاب ، وقيام مؤسسات سياسية عديدة ، من برلمان (كنيست) ومجلس وزراء ، الخ .

وتعيش اسرائيل بلا دستور مدون . والاحكام الدستورية القائمة فيها هي من قبيل الدستور المرن ، اذ يمكن وضعها وتعديلها . والغاؤها وفق الاجراءات المرعية في حالة اصدار التشريعات العادية (القوانين) وتعديلها ، والغائها(١٠) .

ويتميز الحكم في اسرائيل بالاستقرار ، اذ يلعب حزب العمل — المباي وأحدوت هاعفودا من قبل — الدور الرئيسي في الحكم والسياسة منذ العشرينات وحتى يومنا هذا ، مما جعل الشخصيات نفسها « نجلس على قمة الهرم منذ عشر سنوات ، او عشرين ، أو ثلاثين »(١١) . وما الانتخابات البرلمانية والبلدية ، الا لعبة تجريها الطبقة السائدة في اسرائيل ، لتبرير استمرارها وبقائها ، والباس هذا الوجود رداء الشرعية . أما المعركة الانتخابية للهستدروت فهي أقرب الى « مباراة ملاكمة بين ملاكم من الوزن الثقيل وملاكم من وزن الذبابة ، هذه المعركة التي تجعل الجمهور لا يحس بأية مبالاة ، لان النتيجة معروفة سلفا ، وأيضا في الشعور بالقلق ، بسبب عدم التوازن بين القوتين »(١٢) . وغني عن القول أن الملاكم الضخم هو حزب العمل ، أما وزن الذبابة فمن نصيب الاحزاب السياسية الاسرائيلية الصغيرة الاخرى .

صناعة القرار

تحكم المؤسسات السياسية الاسرائيلية في الظاهر فقط . فليس للحكومة دور محدد ، وان كانت تعقد جلساتها الدورية الروتينية صباح كل أحد . اما السلطة الحقيقية فيستحوذ عليها « النظام » . فالحكومة لا تبت في القضايا الهامة السياسية والامنية

والاقتصادية . ولكن الذي يبت ، في مثل هذه الامور ، هو « جماعة صغيرة من الوزراء وكبار الموظفين ، الذين يدعون الى مكتب رئيسة الحكومة ، والى منزلها »(١٣). وقبل نحو اربع سنوات ، قال وزير من حزب العمل « ان الحكومة هي اتحاد من ٢٤ وزارة . والذين يديرون شؤون الدولة — فعلا — هم المحيطون بغولدا مئير »(١٤).

ولم تضع الحكومة هذا التقليد ، كما لم يضعه الحزب ، أو الكنيست . بل استنه رئيسا الوزارة السابقان ، موشيه شاريت وليفي اشكول ، اللذين رأيا ضرورة اشراك قيادة مصغرة في اتخاذ القرار السياسي . وعلى خطاهما سارت غولدا مئير(١٥). هذا في الوقت الذي نفر فيه بن غوريون من فكرة اشراك أشخاص آخرين معه في اتخاذ القرارات السياسية الهامة . حتى ان المحيطين به كانوا يتندرون — ابان رئاسته للوزارة — بالقول « ان رئيس الحكومة اجتمع الى وزير الدفاع قبل اتخاذ قرارات مهمة » . ومصدر التندر هنا أن بن غوريون كان وزيرا للدفاع بالاضافة الى رئاسته للوزارة(١٦).

وصناع القرار السياسي ابان حكم مئير هم حلقة ضيقة من الوزراء ، يتمتعون بثقة مئير ، بالاضافة الى مجموعة صغيرة اخرى من كبار الموظفين ، اكتسبوا قوة بحكم مناصبهم . ويقول بعض العارفين بالامور أن مئير تثق في العقلاء والمستقيمين(١٧). ويمكن حصر صناع القرار السياسي في اسرائيل في ظل مئير في : بنحاس سابير (وزير المالية) ، وموشي ديان (وزير الدفاع) ، واسحق رابين (سفير اسرائيل آنذاك في واشنطن) ، واسرائيل غليلي (وزير الدولة) ، وشمعون شبيرا (وزير العدل) ، ويغال آلون (نائب رئيسة الوزراء) ، وأبا ايبان (وزير الخارجية) ، وزئيف شيرف (وزير الاسكان)، وسيمحا دينتس (مدير مكتب رئيسة الوزراء ، وسفير اسرائيل الحالي في واشنطن)(١٨).

ويحتل سابير المرتبة الثانية ، بعد مئير ، ويليه ديان . واذا كان سابير أوسع نفوذا من زميله اللدود ، الا انه في الاقتصاد اكثر فعالية منه في الامن . في حين تميز نفوذ ديان بالتركز في مجالي الامن والشؤون الخارجية . ويستمد سابير نفوذه السياسي من مركزه في حزب العمل ، الذي أهله للتحكم في اختيار خليفة مئير ، حيث يسيطر على جهاز الحزب ، وقراراته ، والتعيينات فيه ، بواسطة رجله ابراهام عوفر(١٩). ويرتكز نفوذ سابير السياسي على نفوذه الاقتصادي العريض . فعالم أصحاب الملايين اليهود في الداخل والخارج تحت تصرفه(٢٠). ويشكل سابير ، بمفرده ، مركز قوة متشعب ، وضارب بجذوره بعيدا في الارض .

وتعود قوة سابير — تاريخيا — الى الخمسينات ، حين شغل منصب وزير التجارة والصناعة ، وتصدى لاقامة الصناعة في اسرائيل . وبفضل حماسه الجارف ، وطاقته غير المحدودة على العمل ، وانجازاته الكبيرة ، تبوأ مركزا مرموقا في القيادة . وبعد أن خلف ليفي اشكول في وزارة المالية ، سنة ١٩٦٣ ، ازداد نفوذه اتساعا ، حتى قيل — بحق — انه اصبح « المدير العام للدولة » . وتكمن مصادر قوة سابير في تحكمه بجميع موارد الدولة وتقنينها ، وفي سيطرته على جهاز التوظف في القطاع العام — الرسمي والهستدروتي ، وقسم مهم في جهاز التوظيف بالقطاع الخاص ، واخيرا هيمنته على جهاز التعيينات الحزبية داخل حزب العمل ، والكنيست ، والحكومة ، والسلطات المحلية ، والوكالة اليهودية ، والهستدروت. ويتحكم سابير — بحكم مناصبه وبواسطة أنصاره — في كافة مصادر الاموال التي تتدفق على اسرائيل . كما انه يحدد وكبار موظفي وزارته موازنة الدولة ، مما يجعل كافة الوزارات تحت رحمته ورقابته . ومن جهة أخرى ، نجح سابير في توزيع رجاله على رؤوس البنوك المختلفة في اسرائيل(٢١)، وحتى بنك

« ديسكونت » ـ أكبر البنوك الخاصة في اسرائيل ـ لم يسلم من نفوذ سابير ، اذ ان أصحاب هذا البنك مضطرون للارتباط ـ في نهاية الامر ـ بوزير المالية . كما ان المؤسسات الاقتصادية الكبرى لم تخرج من قبضة رجال سابير(٢٢). وتخضع ادارات الشركات الحكومية لوزير المالية ، مما يشد مديريها الى سابير . وفي السنوات الاخيرة جرى ضم أصحاب الملايين والاثرياء من يهود العالم الى نفوذ وزير المالية الاسرائيلي ، سابير ، بحيث لحقوا بمن سبقهم من أصحاب الملايين الاسرائيليين(٢٣)، مما أهل سابير للقب « ذو الاصابع الذهبية » بجدارة .

وهكذا جمع سابير بين يديه مصادر القوتين السياسية والاقتصادية معا . وهو الامر الذي لم يسبقه اليه احد في اسرائيل . اذ جرت العادة على الفصل بين مصادر هاتين القوتين ؛ ففي حين أمسك بن غوريون ـ ابان توليه رئاسة الوزارة ـ خيوط القوة السياسية ، نرى ليفي اشكول ـ وزير المالية في حكومة بن غوريون ـ وقد هيمن على الاقتصاد والاستيطان .

وحتى بعد أن ترك سابير وزارة التجارة والصناعة الى وزارة المالية ، استمر رجال الصناعة في التوجه اليه ، باعتباره الاب الشرعي للمؤسسة الاقتصادية الاسرائيلية . ويقال ان ٧٠ ٪ من الموارد القومية تمر من تحت يدي سابير : ايرادات الدولة ، رؤوس الاموال التي تصل من اليهود خارج اسرائيل ، القروض والهبات . ويقول رجال الاقتصاد ان سابير هو الذي يفتح « الحنفية » ويقفلها ، منذ أن هدم سوق رأس المال الاسرائيلي(٢٤) .

أما ديان ، فهناك تفاوت كبير بين مكانته الكبيرة لدى جمهور الاسرائيليين (قبل حرب تشرين) ومكانته المتواضعة لدى قيادة مباي ، الكتلة الاكبر في حزب العمل ، والتي بيدها حسم الامور . وهذا يؤدي الى ان لا يُسأل ديان رايه في مسألة اختيار رئيس الكنيست، أو سكرتير حزب العمل ، او سكرتير الهستدروت ، وان كان رأيه هو المقرر في المجال الذي خصصته له القيادة : أمن الدولة(٢٥)؛ فمئير تقدر آراء ديان في شؤون الامن ، وتعتبره خبيرا يتفانى في عمله(٢٦) .

واذا كان اسرائيل غليلي يحتل المرتبة الرابعة في صنع القرار السياسي ، فبسبب ثقة مئير المطلقة به ، والتي تتجلى في اصغائها لمشورته(٢٧)، ولكونه الجسر الذي يعتمد عليه للربط بين قيادتي « مباي » و« أحدوت هاعفودا » في حزب العمل(٢٨) ولتقارب وجهات نظره مع وجهات نظر مئير ، التي تعود علاقتهما ببعض الى العشرينات في « أحدوت هاعفودا » . وتعتقد مئير ان غليلي ذكي ، ومستقيم ، ومخلص ، وبلا مطامع ، وقانع بمنصبه بالوزارة . ولو خيرت فيمن يخلفها لاختارت غليلي . انها تكثر من الحديث معه ، وتقيم مكتبه في ديوان رئيسة الوزراء ، والاتصال بينهما سهل للغاية(٢٩) .

والعلاقات بين مئير وآلون اكثر تعقيدا . ويشترك آلون في معظم المشاورات السياسية والعسكرية . ولكن آراءه ليس لها تأثير اكثر من آراء غيره . وتعتري علاقاته بمئير موجات من المد والجزر ، فهناك اشهر يكون فيها مقربا وترتفع اسهمه ، حتى ان مؤيديه يوقنون باقتراب كرسي رئاسة الوزارة منه . وفي اشهر اخرى تفتر علاقات آلون بمئير ، ويتبخر أمل مؤيديه في نيل زعيمهم لكرسي الرئاسة(٣٠).

أما زئيف شيرف فهو صديق قديم لمئير ، وغالبا ما يشترك في مباحثات بعيدة عن مجالات تخصصه(٣١) .

ويعتبر اسحق رابين احد ابرز المقربين الى مئير . ولطالما تبادلت معه الراي من وراء

ظهر الوزراء ، ابان سفـارته في واشنطن . وقد اشتـرك رابين في أغلب القرارات المصيرية ، كقرار شن الغارات في عمق مصر ، كما ساهم في عدة ردود سياسية لحكومة اسرائيل على رسائل يارينغ وروجرز . بل واتخذ بعض القرارات ــ وهو مجرد سفير ــ دون معرفة بعض الوزراء . وكان « الخط الاحمر » الذي يصل مكتبه في واشنطن بمكتب رئيسة الوزراء الاسرائيلية احد الوسائل الرئيسية التي تخطط للحكومة(٣٢) وهذا الدور البارز للسفير في واشنطن بديهي ، بسبب الدور الذي تلعبه اسرائيل لحساب الامبريالية الامريكية في المنطقة العربية .

وعموما ، تبني رئيسة الوزراء رأيها « على مشاورات مع غليلي ، وعلى تقديرات موشى ديان وسابير كل في اختصاصه ، وصداقتها الشخصية لزئيف شيرف . وتعتمد في الشؤون الداخلية والقانونية على وزير العدل ، يعقوب شمشون شبيرا ، ومدير مكتبها ومستشارها السياسي ، سيمحا دينتس ، وهو الذي يلازم مئير بصفة شبه دائمة(٣٣) .

ومن المعروف انه في هذه « الحلقة » تناقش الامور البالغة الاهمية ، التي لا تريد رئيسة الوزراء اذاعة قراراتها أو تسربها . وليس لهذه الاجتماعات محاضر ، ولا جداول أعمال(٣٤) .

و« مطبخ غولدا مئير » هذا ليس مجرد مطبخ رئيسة الوزراء ، بل مطبخ مجلس الوزراء بأكمله . ففي هذا المطبخ يجري اعداد القرارات . وفي صبيحة اليوم التالي ، عندما يجتمع الوزراء الاربعة والعشرون والمستشارون وسكرتير مجلس الوزراء وكاتب الاختزال للجلسة الطويلة ، تكون ثمة قرارات فعلية في حقائب الوزراء ، وان كان من النادر ان يجري ادخال تعديلات عليها(٣٥) .

فالشؤون الرئيسية التي تطرح أمام مجلس الوزراء الاسرائيلي يوم الاحد ، يكون قد تم بحثها في « مطبخ » مئير مساء السبت ، الذي يحضره وزراء يدعون بحكم مناصبهم ، وآخرون يدعون بواسطة رئيسة الحكومة، في حين يشترك وزراء آخرون عندما يقصدون لمنزل مئير لشأن ما(٣٦) !

ويقوم على تنظيم عمل « المطبخ » سيمحا دينتس بنفسه . حيث يخصص الساعات الاولى لليوم العادي لبحث موجز العمل المنتظر لرئيسة الوزراء وفق هواه . وبالرغم من اشتراكه في معظم الاجتماعات . الا انه لا يشارك في الحديث الا ما ندر ، ومع ذلك فمئير تستمع جيدا لرايه في أعمال الوزراء ومواقفهم ، قبل الجلسة وبعدها . ودينتس هو حلقة الاتصال بين رئيسة الوزراء وما يجري خارج مكتبها وخارج أسوار منزلها في القدس ، وهو يشترك حتى في الجلسات التي تعالج فيها الامور الحزبية . وله اليد العليا في عرض موقف مئير على الشعب(٣٧) .

وفي حوالي العاشرة والنصف من صباح كل جمعة ، يدعى الى مكتب رئيسة الوزراء في تل ابيب ، مجموعة من الوزراء تشمل آلون ، وغليلي ، وسابير ، وايبان ، وأحد وزيري حزب مبام : فيكتور شمطوف وناتان بليد . وتبلور هذه المجموعة مواضيع غالبا ما تكون قد عولجت بين مئير وديان . ومساء السبت تعقد جلسة في « مطبخ » مئير ، في غرفة الاستقبال بمنزلها بالقدس . ويحضر الجلسة أعضاء « الحلقة » اياهم . واذا كان ديان لا يحضر هذه الجلسات الا بعد الالحاح عليه ، فان سابير يميل الى مقاطعة الجلسات التي تكون المشاكل المطروحة للبحث داخلية أساسا . وفي ساعة متأخرة مـن الليل ينصرف أعضاء الحلقة ، ويبقى على غليلي اعداد مشاريع القرارات ، التي تظهر فجأة ، وتتقدم للتصويت عليها في نهاية النقاش بمجلس الوزراء(٣٨) .

وغني عن القول ان اعتماد مئير على هذه « الحلقة » في صنع القرار السياسي ، أدى

الى تحويل أعضاء هذه الحلقة الى « مؤسسات غير رسمية تتخذ القرارات » . وتحولت اجتماعات « مطبخ مئير » — خلال السنوات الخمس التي قضتها في رئاسة الوزارة — الى « هيئة » حقيقية لبلورة قرارات هامة ، في حين تحول اجتماع مجلس الوزراء الى مجرد خاتم للتصديق على هذه القرارات(٣٩).

ومن المعروف ان مئير لم تكتف بهذا المطبخ ، بل أقامت صلات مباشرة برئيس أركان الجيش ، وكبار رجال المخابرات ، والشخصيات العسكرية الاخرى(٤٠)، حتى ان البعض قدر نفوذ أهرون ياريف — رئيس الاستخبارات — بما يفوق نفوذ معظم الوزراء، ووصف ياريف بأنه « كيسنجر » رئيسة الحكومة(٤١). وقد تأكد هذا الوصف بعد ان عينت مئير ياريف في منصب مستشارها للشؤون الخاصة ، وعهدت اليــه بمهمة مطاردة وتعقب الفدائيين الفلسطينيين في الخارج ، عام ١٩٧٢ و ١٩٧٣ .

ومناحم بيغن هو بين الشخصيات التي تلعب دورا سلبيا وغير مباشر في صنع القرار ، ويؤثر على اتجاهه . فبتزعمه للمعارضة الاشد يمينية لحكومة مئير ، يمتلك أداة ضغط تمكنه من منع الحكومة من اتخاذ قرارات معينة، وانكان عاجزا عن فرض خطه السياسي على الحكومة . وقبل ان يستقيل من الحكومة — احتجاجا على قبولها مشروع روجرز في صيف ١٩٧٠ — كانت قوته تكمن في دفع الحكومة لاتخاذ قرارات باتجاه معين . ومصدر قوته ، وهو خارج الحكم ، في الفيتو الذي يملكه لمنعها من مبادرة ما ، في السياستين الخارجية والامنية .

والقوى الدينية هي عنصر آخر يأخذه صانعو القرار السياسي في اسرائيل بالاعتبار ، ويعملون للتعايش معه ويتحاشون خصامه . وكان موشيه حاييم شابيرا — زعيم الحزب الديني القومي ، المتوفى — من اتباع « الحلقة » . ويعتبر اسحق رفائيل — الزعيم الحالي للحزب — من العشرة الاوائل، وان لم يكن ، كسلفه ، مطلعا على سر «الحلقة». وثمة من يعتقد ان مئير يعري — زعيم مبام — أقوى من رفائيل ، لان رؤوس « الحلقة » (غولدا ، سابير ، غليلي) حريصون على استمرار التجمع مع حزب المبام ، أكثر من حرصهم على الائتلاف مع المتدينين(٤٢).

ولان الموضوعات التي يتولاها ديوان رئيسة الوزراء لا تثير اهتمام مئير ، كما كانت تثير اهتمام سلفها أشكول ، بسبب عدم حيويـــة التخصص السيـــاسي ، والنصح ، والمشاورات ، بالنسبة لمئير ، كما كان الامر بالنسبة لاشكول . ولذلك ، فان الدكتور يعقوب هيرتزوغ — المدير العام لديوان الوزارة ومستشارها السياسي — لم يعد يساهم في جلسات مجلس الوزراء ، كمستشار قل نظيره ، كما كان في عهد أشكول ، حين كان « كل شيء لدى رئيس الوزراء ، ويده اليمنى ؛ فقد كان الخبير السياسي المحنك ، والملازم لاشكول في الساعات الاساسية العصيبة »(٤٣).

وفي القرارات المصيرية ، يجري اشراك مزيد مـــن المسؤولين والزعماء السياسيين الاسرائيليين ، وتوسيع دائرة « الحلقة » . وقد حدث أن رأى ليفي اشكول ، ليلة اغلاق مصر لمضائق تيران مساء ٢٢ أيار (مايو) ١٩٦٧ ، انه لا مفر مـــن شن الحرب ضد العرب . فدعا اللجنة الوزارية لشؤون الامن الـــى جلسة عاجلة ، حضرها زعمـــاء المعارضة واعضاء لجنة الخارجية والامن في الكنيست . وفي تلك الجلسة تقرر — دون ما معارضة — تأجيل اتخاذ القرار ٤٨ ساعة ، واقترح بعض الحاضرين اسناد رئاسة الوزارة الى بن غوريون ، ووزارة الدفاع الى ديان ، لا من أجل الحرب ، وانما لتشكيل حكومة قوية ، تقنع الاسرائيليين بعدم ملاءمة الوقت لشن الحرب على العرب(٤٤).

وضيق حلقة صانعي القرار ، لا يعني انهم يشكلون كـــل الحاكمين في اسرائيل .

فالمناصب التي تخلو قبيل الانتخابات البرلمانية ، مثل مناصب رئاسة اللجان ، والبلديات، والعضوية في المجالس البلدية والمحلية ، والمناصب التي يدور عليها الصراع حوالي الفي منصب . غير ان الصراع الحقيقي يدور حول أقل من مائتي مقعد ، وهي في الحكومة والكنيست ورئاسة البلديات . والمشكلة هي وجود نحو ألف مرشح للمائتي منصب المذكورة . ومعنى ذلك انه سيخيب أمل حوالي ٨٠ ٪ من هؤلاء المرشحين ، حيث ان التجربة تثبت أن من يتولى منصبا من الصعب زحزحته منه(٤٥).

ويكفي معرفة مائة ، او مائة وخمسين ، وعلى اكثر حد مائتي شخص في اسرائيل ، لمعرفة من هم المسؤولون فيها عن اتخاذ القرارات في المجالين السياسي والعسكري ، ولفهم كيف يتم تشكيل الرأي العام . ويمكن الافتراض أن ربع هذا العدد يمسكون بأغلبية التأثير . وثلاثة وزراء فقط (سابير ، غليلي ، شبيرا) هم الضيوف الدائمون على «مطبخ» مئير . أي انهم — معها — هم الذين لهم الكلمة الاخيرة ، الحاسمة ، في تصريف شؤون البلاد . والمنافسة بين هذه القمم « جزء من اللعبة الديمقراطية ، التـــي تجد تعبيرها الشكلي مرة كل اربع سنوات ، عند تركيب قوائم المرشحين للكنيست »(٤٦).

بعد هذه « البانوراما » ، ربما كان الجنرال الاسرائيلي اريك شارون محقا حين قال ان « كثيرا جدا من الامور تحسم في المطبخ »(٤٧)، كما لم يخرج زعيمه ، مناحم بيغن ، عن ما هو واقع ، حين اشار الى ان مئير تقرب اليها الوزراء « وتدير الوزارة بنفس الطريقة التي تدير بها منزلها »(٤٨).

ملامح صناع القرار

بالرغم من أن سكان الكيبوتزات لا يشكلون سوى نحو ٥ ٪ مـــن مجموع سكان اسرائيل ، الا أن تأثيرهم في الحياة السياسية الاسرائيلية يفوق حجمهم بمراحل ، بل يفوق حجم تأثير بقية السكان . ويعود هذا الحجم من التأثير الى سيطرة أبناء الكيبوتزات على المراكز الفاعلة في اجهزة الحكم (الكنيست ، الخارجية ، أركان الجيش ، الطيران ، الخ . . .) ويحمل سكان الكيبوتزات — فيما هو معروف — أفكار، ريادية ، وهي الافكار التي غرسها فيهم مهاجرو موجات الهجرة الثانية والثالثة الى فلسطين ، وهي أفكار صهيونية دوجماتية ، اذا جاز التعبير . وفي دراسة لباحث مصري ، جـــاء أن اعضاء المؤسسة الحاكمة في اسرائيل يتميزون ، في أغلبهم ، بالسمات التالية(٤٩): ١ — وفد الى فلسطين ضمن الهجرة الثانية او الثالثة، أو ولد لاسرة هاجرت الى فلسطين ضمن هاتين الهجرتين . ٢ — ولد في اوروبا الشرقية او في فلسطين . ٣ — انحدرت أسرته من طبقة عاملة حرفية ، أو بورجوازية صغيرة. ٤ — لم يحصل الا على قدر متوسط من التعليم. ٥ — التحق بالهاغاناه أو البالماخ في شبابه ، أو خـــدم في صفوف الجيش الانجليزي . ٦ — عاش لفترة ، أو لاخرى ، في أحد الكيبوتزات .

والصفة الخامسة أكدها صحفي اسرائيلي ، حين قال « ان قادة اسرائيل ، باستثناء القليلين جدا ، يكادون يفتقرون الى الوعي الثقافي العميق »(٥٠).

واعتمادا على أبحاث الدكتور شيفح فايس ، الاستاذ بجامعة حيفا ، فان الوزارات الرئيسية : رئاسة الحكومة ، وزارات الدفاع والخارجية والمالية ، او ما يطلق عليه « المطبخ السياسي » لا تضم غير اشكنازيي المنبت . كذلك لجان الكنيست الرئيسية : الخارجية والامن ، المالية ، الدستور والقانون والقضاء ، لا تضم غير عدد ضئيل من غير الاشكناز(٥١).

والآن ، بالرغم من عدم تمتع صناع القرار بسمات شخصية فذة ، فلا بد ان ثمة

مصدرا آخر للقوة التي يتمتع بها هؤلاء الاشخاص . بمعنى ، من الذي يسند هذه الحلقة الضيقة من صناع القرار السياسي ، وهم المفتقرون حتى للكفاءات والقدرات المطلوبة ؟!

الطبقة السائدة

احتدم الصراع في العشرينات بين الرأسمالية اليهودية والبيروقراطية العمالية اليهودية في فلسطين ، وكانت الرأسمالية اليهودية تميل لاستخدام العمال العرب ، ذوي الاجور المنخفضة ، في حين عارضت البيروقراطية العمالية — بشراسة — هذا الميل . وقفز هذا الصراع الى مرتبة التناقض الرئيسي في المجتمع اليهودي بفلسطين . وسرعان ما حسم الصراع ، في نهاية الثلاثينات ، لصالح البيروقراطية العمالية اليهودية ، وقام تحالف بين الطبقتين — كان للبيروقراطية العمالية اليد العليا داخله — واستمر هذا التحالف الطبقي حتى يومنا هذا ، وان أخذ ميزان القوى فيداخله فيالتحول البطيء لصالح الرأسمالية(٥٢) .

وتتكون « الطبقة فوق المتوسطة » في اسرائيل — كما يسميها سابير — من ٢٠٠,٠٠٠ عائلة . ولما كانت هذه الطبقة تشكل نحو ربع سكان اسرائيل ، فان التغير الكمي هنا يتحول الى تغير نوعي : لان أصحاب المداخيل العالية ، وان كانوا أقلية في اسرائيل ، يشكلون جماعة تميز ، أكثر فأكثر ، المجتمع الاسرائيلي ، وطابعه ، ونهج الحياة المتأصل فيه(٥٣) .

وبين الرأسمالية الكبيرة الاسرائيلية والطبقة فوق المتوسطة ظهر الاثرياء من مؤسسي الصناعة الاسرائيلية ، كممثلي « أملاك مستقلة »، مما دعا صحفي اسرائيلي الى المطالبة بضرورة أن تحسب الحكومة « حسابهم ، كفئة لها رأيها » . واستنادا الى عالم الاجتماع الاسرائيلي ، الدكتور يوحنان بيريس ، فانه قد « تولدت الآن روابط وثيقة بين كبار أصحاب الاعمال ورجال السياسة ، وتولدت شبكة من المساعدات المتبادلة فيما بينهم » . وهؤلاء « الاغنياء الجدد غير مهتمين بأن ينتخبوا للكنيست ... ويعتقد ابناؤهم أن من الواجب الالتحاق بالخدمة الحكومية ... فهذه الفئة الجديدة أقل اهتماما بالسياسة ، وتعتمد على الحكومة »(٥٤) .

وتكمن قوة حزب العمل في وقوفه ، منذ الثلاثينات « الى جانب مقود السياسة الصهيونية ، ولكنه دائما — وحتى اليوم — يحتاج الى حلفاء ، من الجهة اليمنى ، للمحافظة على سلطته . ان استقرار مباي ، وتركيز القوة في يده ، هو الخط البارز في الهيكل السياسي للبلد . ودون فهم هذا المبدأ، يستحيل فهم مراكز القوى في اسرائيل»(٥٥) .

ولم يحتل اعضاء المطبخ مراكزهم بسبب صفاتهم الشخصية وجاذبيتهم ، بل لنجاحهم في خدمة الطبقة السائدة في اسرائيل . فهم ليسوا أكثر من موظفين لدى هذه الطبقة بدرجة وزراء . أما الصناع الحقيقيون لحكام اسرائيل فهم عشرون شخصا ، يزيد عددهم — في أحسن الاحوال — الى نحو ثلاثين أو أربعين شخصا . وتحدد مجموعة صغيرة جدا من الاشخاص في قيادة الدولة — لا تقل عن دزينة ولا تزيد عن دزينتين — صورة الدولة وسياستها في الخارج والداخل ، وطابع الاقتصاد ، وأسلوب الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها(٥٦) .

وهذه المجموعة تضم ابرز ممثلي الطبقة السائدة في اسرائيل وأصدقهم في التعبير عن مصالحها . وتضم جماعة من كبار النشيطين من اعضاء مباي ، الذين اعتادوا اللقاء في منزل يهوشع رابينوفيتش ، رئيس بلدية تل ابيب . وهي الجماعة التي تحسم في المواضيع الحساسة الحاسمة ، مثل : اختيار رئيس الحكومة ، وسكرتير الهستدروت ، وسكرتير حزب العمل . ويسمي بن فورات هذه الجماعة « حراس الاسوار الحقيقيين في مباي ، الذين يمسكون مركز القوى الرئيسي في الدولة » . ويرى أحد الدارسين لحزب مباي ،

أن نشأة ونمو « الكتلة » المذكورة والتي تعرف بأنها « آلة » الحزب ، تعود الى تقليد كان سائدا منذ أيام الييشوف ، وتكرس بعد قيام الدولة ايضا . ويقضي هذا التقليد بأن يجري تعيين ممثلي مباي ومبعوثيه في كافة المؤسسات الداخلية والخارجية . ويرجع ف. ي. مدينغ قيام « الكتلة » في الخمسينات الى الرغبة في ضمـــان مراكز القـــوى الموروثة ، بأساليب كانت مألوفة قبل قيام الدولة . ويرى الباحث نفسه، انه لولا اسلوب التعيينات المتبع ، وغياب الانتخاب ، ولولا أسلوب « ضم الزملاء » وضم اشخاص الى مؤسسات ، كما ضم في المدة الاخيرة حاييم بارليف الى الحكومة ، لما كان هناك مكان في مباي لهيئة على غرار « الكتلة » . ومن الامور التي ساعدت على تعزيز موقع « الكتلة »: لامركزية مباي ، وتقسيم الانتخابات الداخلية ، ووجود زعماء محليين من الدرجة الثانية ورؤساء حمائل في جميع انحاء اسرائيل . وقد ترأس الكتلة — في البداية — شراغـــا نيتسر ، واعتزل عام ١٩٦٥ ، أي بعد خروج بن غوريون من الوزارة وحزب مباي . وخلف نيتسر في زعامة « الكتلة » يهوشع رابينوفيتش(٥٧) .

وطوال رئاسة نيتسر ، كانت « الكتلة » تضم بالاضافة الى نيتسر كلا من : يهوشع رابينوفيتش ، زئيف فينر ، أوري البرت ، مئير زلبرمان ، مناحم كوهين ، الياهـــو بن يتسحاق ، روفائيل ياش ، اسرائيل يشعياهو ، م. ايش شالوم، مردخاي زير ، يهوشع اريئيلي ، اوريال ابروموفيتش، يسرائيل فاينبرغ ، مردخاي سوركيس، يتسحاق شبيرا، يتسحاق كورين . وكان هؤلاء الاعضاء — وما زالوا — يهيمنون على المناصب الحساسة في البلاد ، مما جعل معظم خيوط المؤسسات الفعالة — الاقتصادية والسياسية — في يد « الكتلة »(٥٨) .

ويقول مدينغ ان غولدا مئير ، ومردخاي جور ، وزلمان اران ، وأهرون بيكر، وموشيه شاريت ، وليفي اشكول ، وبنحاس سابير ، وبنحاس لافون ، كانوا يتمتعون حتى عام ١٩٦٥ ، بتأييد « الكتلة » ، ويقدمون أمامها تقارير عن المناقشات والقرارات ، ويتنازلون لها طواعية عن بعض صلاحياتهم كأعضاء قيادة في الحزب . ولم تسع « الكتلة » ابدا للسلطة العلنية على صعيد اتخاذ القرارات السياسية ، تاركة هذا الامر الى القيادة العلنية ، التي تلعب « الكتلة » دورا رئيسيا في اختيار أعضائها ، وان كانت الكتلة قد هيمنت على جهاز التعيينات في الحزب . وقد نجحت « الكتلة » في أن تحفظ لنفسها ، طوال فترة تزعم نيتسر لها ، على أغلبية مؤتمر مباي ولجنته المركزية ، وكان نحو ثلث اعضاء الكنيست من مباي من رجال « الكتلة » أو اختيروا برضاها . وبهذه الطريقة « تحقق هدف الكتلة الاساسي في المحافظة على (الاسوار) وحماية استمرار مواقع القوة في ايدي ابناء الهجرة الثانية والثالثة »(٥٩) .

والرؤوس الثلاثة « للكتلة » اليوم هم : يهوشع رابينوفيتش ، رئيس بلدية تل أبيب والمشهور بلقب « وزير الحزب » و« متوج الملوك والامراء » . وديفيد كلدرون ، مدير البنك الزراعي ومن قدامى مباي . وابراهام عوفر ، عضو الكنيست ومدير « شيكون عوفديم » (شركة اسكان العمال) . ويشترك في المناقشات الواسعة للكتلة كل من : يسرائيل يشعياهو (الامين العام للحزب) ، ودوف بن مئير (سكرتير مباي في لواء تل أبيب) ، وأوري البرت (سكرتير مجلس عمال تل أبيب) ، ويتسحاق شبيرا (سكرتير زراعي) ، وزئيف فينر (مشعان) ، وأوريئيل ابراهاموفيتش (النقابة المهنية) . وهناك شخص واحد آخر مقرب من « الكتلة » ، ويحظى بتأييد محدود فيها ، وهو يروحام ميشل ، نائب الامين العام للهستدروت . ويقوم عضو الكنيست ، موشيه برعم ، بوظيفة حلقة الاتصال بين « الكتلة » والعاصمة(٦٠) .

والواضح انه مع استقالة حكومة مئير وتشكيل حكومة جديدة في اسرائيل ، طرأت تغييرات عديدة على أوضاع الحكم هناك ، وانتقل مركز الثقل في الحياة السياسية والاقتصادية من جهات الى أخرى .

---

١ — راجع بهذا الصدد حديث غولدا مئير لصحيفة **« الانباء »** الاسرائيلية ، ١٩٧٠/٥/١٠ .

٢ — يشعياهو بن نورات ، **مراكز القوى في اسرائيل** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ ، ص ٤٢ — ٤٤ . وكان بن نورات قد نشر عدة مقالات اسبوعية في صحيفة « يديعوت احرونوت » الاسرائيلية ، فيما بين العاشر من آذار (مارس) والثامن والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٧٢ . وقام الناشر العربي بتجميعها في كتاب حمل اسم « مراكز القوى في اسرائيل » .

٣ — ايلي أيال : **ملحق معاريف** ، ١٩٧١/٨/٢٧ ، **نشرة م. د. ف.** ١٩٧١/١٠/١٦ .

٤ — بن نورات : **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ — ٧٠ .

٥ — معاريف ١٩٧١/٩/٢٨ ، **نشرة م.د.ف.** ، ١٩٧١/١٠/١٦ ، ص ٢٤٤ .

٦ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٨٢ .

٧ — هآرتس ، ١٩٧١/٩/١٤ ، **نشرة م.د.ف.** ، ١٩٧١/١٠/١٦ .

٨ — *Left Wing Zionism*, No. 4, March 1971.

٩ — صبري جريس : **الحريات الديمقراطية في اسرائيل** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١١ .

١٠ — الدكتور كمال الغالي : **النظام السياسي الاسرائيلي** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٧٢ .

١١ — **هآرتس** ، ١٩٦٩/٩/٨ .

١٢ — **هآرتس** ، ١٩٦٩/٨/٢٩ .

١٣ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٣ .

١٤ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .

١٥ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٤ .

١٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨ .

١٧ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .

١٨ — **المصدر نفسه** ، **وتايمز** ١٩٧٢/٩/١٧ .

١٩ — ايلي أيال ، **مصدر سبق ذكره** .

٢٠ — نكديمون : في ندوة نشرت في ملحق يديعوت احرونوت ، ١٩٧٣/٥/٦ . **ملحق نشرة م.د.ف.** ، ٧٣/٨/١ ، ص ٤٩٤ .

٢١ — موسى زنبار (حاكم بنك اسرائيل) ، والدكتور تسفي دينشتاين (رئيس بنك الصناعة والتنمية) ، وديفيد كالدرون (مدير بنك الزراعة)، ويعقوب ليفنسون (مدير بنك العمال) ، ومان (مدير بنك تبحوت) ، ويابن (مدير بنك الحرف).

٢٢ — سوليل بونيه يترأسها تسفي رخطر ، هامشير هامركزي يديرها نفتالي أوشبينو ، هيئة العاملين في الهستدروت يترأسها آشر يدلين ، شيخون عوفديم يديرها ابراهام عوفر . وكلهم من رجال مابير .

٢٣ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٤ — ٦٤ .

٢٤ — ايلي ايال ، **مصدر سبق ذكره** .

٢٥ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٧٦ — ٧٧ .

٢٦ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .

٢٧ — ايلي أيال ، **مصدر سبق ذكره** .

٢٨ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٩ .

٢٩ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .

٣٠ — **المصدر نفسه** .

٣١ — **المصدر نفسه** .

٣٢ — **المصدر نفسه** .

٣٣ — **المصدر نفسه** .

٣٤ — **المصدر نفسه** .

٣٥ — **المصدر نفسه** ، واريك مارسدن : كيف تسيطر الصقور على اسرائيل ، **تايمز** ، ٧٢/٩/١٧ .

٣٦ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .

٣٧ — **المصدر نفسه** .

٣٨ — اريك مارسدن ، **مصدر سبق ذكره** . وبن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩ — ٣٠ .

٣٩ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩ .

٤٠ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .

٤١ — بن نورات : **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٠

— ٥١ .
٤٢ — **المصدر نفسه** ، وايلي أيال ، مصدر سبق ذكره .
٤٣ — **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٠/٧/٣ .
٤٤ — موسى غلبواع : في مجلة « **أوت** » ، ٣١/ ١٩٧٣/٥ ، عرضها ران كسلف في « **هآرتس** » ١٩٧٣/٥/٣١ ، **نشرة م.د.ف.** ، ١٩٧٣/٧/١ ، ص ٤٠٩ .
٤٥ — **هآرتس** ، ١٩٦٩/٩/٨ .
٤٦ — الياهو سيلفتسر ، ويوبال التيسور : المؤسسة ، من يحكم اسرائيل ؟ (بالعبرية) . انظر عرض الكتاب بقلم جهاد عادل ، تحت عنوان « من يحكم اسرائيل ؟ » بمجلة « **الغد** » التي تصدر في اسرائيل ، العدد الخامس ، آب (أغسطس) ١٩٧٣ ، ص ٤ .
٤٧ — **نيوزويك** ، ١٩٧٤/٢/٤ .
٤٨ — **وكالة الانباء الفرنسية** ، ١٩٧٤/٤/١٢ .
٤٩ — د. سعد الدين ابراهيم : المؤسسة الحاكمة في اسرائيل . **الطليعة** (القاهرية) ، العدد الرابع ، السنة الثامنة ، ابريل (نيسان) ١٩٧٢ ، ص ٧٥ — ٧٦ .
٥٠ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩٦ .
٥١ — معاريف ، ١٩٧٣/٥/٢٥ ، **ملحق نشرة م.د.ف.** ، ١٩٧٣/٨/١٦ ، ص ٥٢ .
٥٢ — *Left Wing Zionism*, No. 4, March 1971.
٥٣ — الياهو سلفطر : هآرتس ، ١٩٧٣/٦/٥ ، **ملحق م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٨/١٦ ، ص ٥٢١ .
٥٤ — هآرتس ، ١٩٧٣/٦/١ ، **ملحق نشرة م.د.ف.** ، ١٩٧٣/٨/١٦ ، ص ٥٢٠ .
٥٥ — بن نورات ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٨ .
٥٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٨ — ٩ ، ٩٢ — ٩٣.
٥٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٦ — ٣٤ .
٥٨ — **المصدر نفسه** .
٥٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٥ .
٦٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٦ — ٣٧ .

الماركسية والاتحاد السوفييتي في مرآة الصهيونية

فيصل دراج

تسعى الصهيونية لاثبات انها ليست ايديولوجية رجعية عرقية مرتبطه بالامبريالية والرجعيه العالميه وانما هي تعبير سياسي عن حركة تحرر قومي (للامة) اليهودية ، وانها ايضا تعبير فكري لشعب صاحب تراث ثقافي وحضاري عريض في التاريخ، انطلاقا من هذا المنطق تحاول الايديولوجية الصهيونية ان تنسج جملة حوارات مع كل التيارات الفكرية الراهنة ، مع الفكر الكاثوليكي والماركسي والوجودي ، واذا كان هذا الحوار (مثمرا) في بعض المجالات ، فانه عقيم بل مستحيل مع الفكر الماركسي . ومع صعوبة هذه المهمه فان الصهيونية تحاول بشتى السبل اما ان تقيم جسرا بينها وبين الفكر الماركسي او ان تظهر لاعلمية وعرقية ولاسامية الفكر الماركسي .

من خلال حوارها الاصم بل المستحيل مع الفكر الماركسي ، تحاول الصهيونية الوصول الى نتيجتين اولاهما صحة وشرعية وعلمية الفكر الصهيوني ، ثانيهما الوصول الى نتائج سياسية مباشرة تستهدف جذب اليهود المستمر الى الحركة الصهيونية وبالتالي تسهيل وتبرير الهجرة اليهودية الى اسرائيل . ولا شك ان الهجوم الصهيوني يستهدف اولا الاتحاد السوفياتي او بالاحرى يهود الاتحاد السوفياتي ، لذلك تصور الدعاية الصهيونية الاتحاد السوفياتي بأنه بلد يخنق الانسان اليهودي ويحيله الى مجرد فأر في قفص(١) .

ان موقف الصهيونية من الفكر الاشتراكي والعالم الاشتراكي لا مفاجآت فيه ، فبين الفكر الماركسي واطروحات هرتزل وماكس نورداو هوة لا يمكن تجاوزها ابدا ، فهما قطبان لا يلتقيان أبدا ، فاذا كانت الصهيونية تعتمد على مفهوم لا طبقي مرتبط سياسيا بالاحتكارات العالمية ، وعلى رؤية دينية عرقية لا تاريخية ، حيث ترى في اليهود شعبا متجانسا ثابتا لا مكان للصراع الطبقي فيه ، فان الماركسية تنطلق من رؤيا طبقية تاريخية مادية وامية . ان في الماركسية نفيا كاملا للصهيونية ، فالماركسية لا ترى في الدين اساسا لامة ، ولا تنظر الى المجتمع كوحدة متجانسة لا تغير فيها ، بل بالعكس ترى فيه مجموعة طبقات متصارعة متغيرة تاريخيا ، ولا تؤمن بأسطورة شعب نقي مختار ، بل ترى في الانسان مردودا اجتماعيا ، والماركسية أممية تناهض كل أشكال الشوفينية والتعصب .

بسبب هذا التضاد النظري وبسبب الدور الكبير الذي تلعبه الحركات السياسية المؤمنة بالماركسية منهجا تحاول الصهيونية تأويل فكر ماركس من جديد . والان لنرى كيف عالج ماركس ومن بعده لينين وستالين المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية .

حدد ماركس موقفه من المشكلة اليهودية في مقالته «المسألة اليهودية» التي ظهرت في مارس عام ١٨٤٤ ، كان عمر ماركس آنذاك ستة وعشرين عاما ، وقد جاءت المقالة

كرد على تحليل برونو باور للمشكلة اليهودية ، وكان هذا الاخير يعتقد ان تحرير اليهود يتطلب شرطين هما تحرر اليهود من يهوديتهم وتحرر المسيحيين من مسيحيتهم ، وهو في ذلك لا يرى في التحرر الا كسرا للقيد الديني(٦). في حين انطلق ماركس في البحث عن الجذور التاريخية التي أدت الى عزلة اليهود ، وعن أسباب وجذور ظاهرة اللاسامية ، وبحث ايضا عن الطريق الذي يؤدي الى تحرر اليهود بشكل سليم . فماركس يرى ان جذور المشكلة اليهودية تستمد من الواقع الاجتماعي وليس من السماء ، انها محصلة تاريخية لمجموعة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لذلك فان حل المشكلة اليهودية يتطلب(٣) النضال من أجل تغيير الواقع الاجتماعي بمركباته المختلفة ، والنضال من أجل ديمقراطية علمانية ،، ومن اجل الاشتراكية والشيوعية .

ان ماركس لا يرى في المسألة اليهودية (بعدا ميتافيزيقيا وحقيقة الهية تهيم بلا تغير في سماء البشرية)(٤)، بل يرى فيها محصلة تاريخية ، نشأت وتطورت خلال التاريخ [اننا لا نحيل المشكلة الدنيوية الى مشكلة لاهوتية ، بل نحيل المشكلة اللاهوتية الى مشكلة دنيوية](٥) ان ماركس لا يرى في المسألة اليهودية اية ميزات فردية ، هي مسألة ككل المسائل الاخرى ، تنشأ تاريخيا وتحل تاريخيا ، فتاريخ البشرية هو حقل كل مسألة ، لذلك فهو يقول (ليست الخوارق والخزعبلات تحل التاريخ ، بل تحل هذه الخزعبلات في التاريخ) ، ان ماركس الذي يرفض (خصوصية) المسألة اليهودية يجد حلها بسهولة ، ان تحرير اليهود يتم عن تحرر المجتمع بأسره وتخلصه من علاقات الانتاج القديمة ، أي في المجتمع الشيوعي . ان ماركس لا يبحث ولا يرى ضرورة حل خاص باليهود . ان التغيير الكامل لبنيان المجتمع الاقتصادي والسياسي والايديولوجي هو شرط كاف لتحرر اليهود وتلاشي عزلتهم واختفاء ظاهرة اللاسامية .

ان ماركس عندما يتحدث عن تحرر المجتمع لا يتكلم فقط عن التحرر السياسي ، اي تحول الدولة الى دولة علمانية ، اي طرد الدين من الدولة ، وانما يركز على ضرورة تقويض علاقات الانتاج القديمة (الملكية الفردية) التي تترك في رحابها مجالا واسعا للتجارة والربى ، فقد يمكن أن تتحرر الدولة من الدين بينما تبقى الاغلبية الساحقة متعلقة به ، اضف الى ذلك ان الدين ليس عنصرا خالدا في المجتمع بل هو يمثل درجة معينة من الوعي في تاريخ التطور الانساني(٦). ان ماركس يلح على التحرر الانساني الشامل وليس فقط على التحرر السياسي ، فحتى نحرر الانسان حقا يجب تجاوز التحرر السياسي ومحو التعارض القائم بين المجتمع والدولة(٧).

ان تحليل ماركس للمسألة اليهودية يعري الايديولوجية الصهيونية من كل ادعاءاتها، فليس هناك لاسامية أبدية ، فكل ظاهرة هي ظاهرة تاريخية ولدت نتيجة شروط معينة وتتلاشى بتغير هذه الظروف ، ومن هنا يجب طرح السؤال ليس على المستوى الديني كما يفعل المنظرون الصهاينة(٨) بل على المستوى الاجتماعي ، ولا يمكن شرح وفهم (طبيعة) اليهودي انطلاقا من اعتبارات ميثولوجية بل من خلال الشروط الاجتماعية ونمط الحياة المعين الذي مارسه اليهود .

من هنا يقول ماركس : لا تبحث عن سر اليهودي في دينه بل ابحث عن سر دينه فيه ، ينتج عن ذلك ان تحرر اليهودي لا يمكن ان يتم الا بعد تحرره من عبودية الربح والمال ، وهذا التحرر غير ممكن الا في مجتمع شيوعي . وبالتالي فان ماركس يرى في المجتمع الرأسمالي اكمل تعبير عن اليهودية ، فجوهر الدين اليهودي يجد كل آفاقه في المجتمع الرأسمالي . فجوهر اليهودية المقدسة للتجارة والربح هو تأليه المال(٩)،

ان اليهودي التاجر هو التعبير الحقيقي لقيم المجتمع البرجوازي ، وعلى هـذا فان اليهودي يتحرر عندما نحرر المجتمع الذي يعيش فيه . وعندما يستطيع المجتمع ان يلغي الشروط التي تخلق الفكر اليهودي التاجر ، يصبح وجود اليهودي مستحيلا . ان ماركس لا يعني بهذا الغاء الشخص اليهودي بل الغاء الشروط التي تجعل من اليهودي انسانا معزولا في المجتمع وغارقا في شؤون المال . ان تحرير اليهودي بهذا المعنى يعني تحرير المجتمع من اليهودية ، أي التحرر من عبادة المال والتجارة .

ان الامر الهام في تحليل ماركس هو النتائج السياسية المباشرة ، فنحن نجد في نص ماركس الدلالات الآتية :

١ — ان ماركس لا يعتبر اليهود (شعب الله المختار) بل باحثين عن الربح وجمع المال ، وبالتالي هم يمثلون أكثر وجوه التطور التاريخي بشاعة اي المجتمع الرأسمالي، ان ماركس في هذا لا يهاجم شخص الانسان اليهودي بل يهاجم التركة الثقيلة التي اكتسبها اليهودي في التاريخ ويحاول تحريره منها .

٢ — ان ماركس لا يرى في اليهود شعبا أو أمة ذات خصائص معينة بل هم جزء من المجتمع الذي يعيشون فيه .

٣ — ان اليهود لا يحتاجون الى حركة تحرر خاصة بهم ، فهم يتحررون عندما يتحرر المجتمع الذي يعيشون فيه وهذا يتضمن : أ — نفي لفكرة أرض الميعاد . ب — نفي الادعاء الصهيوني بأن اسرائيل تمثل حركة تحرر قومي ، فاليهودي يتحرر في مجتمعه وليس بحاجة الى أرض كشرط لتحرره . جـ — اعتبار ظاهرة اللاسامية ظاهرة تاريخية، نشأت في التاريخ وتتجاوز في التاريخ ، وبالتالي ليست ظاهرة أبدية . د — ان ماركس لا يرى في اليهود شعبا أو طبقة او الشعب — الطبقة كما فعل ابراهام ليون بل يخضع اليهود للمفهوم المادي للتاريخ ، وبالتالي فاليهود ليسوا وحدة متجانسة منسجمة كما يريد مارتن بوبر .

ان هذا التحليل يقف نقيضا للفكر الصهيوني برمته ، ويحاصر مسار الايديولوجية الصهيونية ويظهرها على حقيقتها كفكر رجعي استعماري يقف بجانب أعتى قوى الظلام المعاصرة ، لذلك فان الصهيونية حتى تنشط مسارها تلجأ الان الى تحليلات متعددة الوجوه لفكر ماركس وكتابه عن المسألة اليهودية .

فالمنظر الصهيوني روبير مزراحي(١٠) يعتقد أن مقالة ماركس تمثل نشازا في الفكر الماركسي، فالماركسية، ككل، فكر علمي. في حين ان مقالة ماركس حول المسألة اليهودية ذات طابع رجعي لاسامي ، وماركس في هذه المقالة يشكل امتدادا للاسامية العريقة الجذور في الفلسفة الالمانية . ان ماركس في زعم مزراحي لم يعط حلا للمشكلة اليهودية وان الصهيونية هي التي أعطت هذا الحل . ان مزراحي — اليساري الزائف — يتشبث بأطروحتين أولاهما أبدية اللاسامية وثانيهما ان أبدية اللاسامية تستدعي تحرير اليهود ضمن وطن خاص بهم الذي هو — فلسطين — ان ماركس الشاب ، في رأي مزراحي ، لم يطرح المسألة بشكل علمي ، ذلك انه نسي أن اليهود يشكلون أمة ، وأن هذه الامة بحاجة للارض حتى يتم تحررها ، ان مزراحي ، ليبرر فكره الصهيوني او بالاحرى ليبرر صحة وعلمية ممارسات الصهيونية ، يعمد الى تزوير فكر ماركس ، فهو يرى ان ماركس كان ، بسبب صغر سنه ، عاجزا عن اعطاء حل سليم ، وهو عاجز أيضا بسبب كرهه المقيت لليهود ، فماركس الشاب في رأي مزراحي كان رجعيا شوفينيا لاساميا وجاهلا ، وانه لو تسنى لماركس ان يطلع على المسألة اليهودية بشكل كامل لوصل الى الحل الذي أعطته الصهيونية . أضف الى ذلك ان كره ماركس المقيت لليهود يجعله أعجز

بكثير عن تفهم شؤونهم ، وان هذا الاخير المشرب بالفلسفة الالمانية قد اغفل ضرورة التحرر الوطني لليهود ، لان الفلسفة الالمانية فلسفة ذهنية مثالية بعيدة عن الواقع .

ان مزراحي الذي يدعي اليسارية يعود فيطرح من جديد كل موضوعات الفكر الصهيوني ، فهو يؤكد على خصوصية الانسان اليهودي ، وعلى الطبيعة الابدية لليهود، وبالتالي فان تحرر اليهود يجب ان يتم بمعزل عن اية فئة اجتماعية اخرى وفوق أرض أهم ، ارض الميعاد — فلسطين — ومن هنا فهو يجهد نفسه ليدحض كل تحليل ماركس ويحمله بالتالي ما لا يحتمل ، فعندما يقول ماركس : لتحرير الانسان يجب أن نحرر الانسانية من اليهودية ، فهو لا يعني بذلك القضاء على الدين اليهودي والقضاء على الانسان اليهودي كما فهم مزراحي ، وانما يعني بذلك القضاء على القيم والسلوك التي أكتسبها اليهود بسبب عبادتهم للمال ويعني بذلك القضاء على المجتمع الراسمالي المؤله للمال . ان مزراحي ، بسبب فهمه الخاطىء لماركس ، يطلق كل امكانياته في شتم ماركس ، فهو مفكر فاشي ميتافيزيقي ، وان ماركس تحت رداء لغوي جذاب يغوي المثقفين ناقصي المعرفة (ص ٤٢). وان ماركس بمقالته يحرض على القضاء الجسدي لليهود (ص ٤٧) .

ان ماركس لا يرى في اليهودية الا الممارسة اليومية للبرجوازية . انه لا يرى في اليهود — كما يود الصهاينة — شعبا مميزا وامة عالمية ، فهو يقول (القومية الخرافية لليهود هي قومية التاجر ورجل المال) . ان مزراحي المفكر الصهيوني الحاقد لا يمكن ان يقبل تحليل ماركس لذلك فهو يبغي من خلال تحليل طويل ممل أن يظهر ان مقالة ماركس لا يمكن ان يقبلها الا الانسان الرجعي والعرقي ولذلك فهو لا يتهيب ان يشرح فكر ماركس بالشكل التالي : ١ — اليهود هم الشر ٢ — اذن يجب قتل اليهود . ويستخلص منها ١ — نحن لا نريد الا قتل اليهود ٢ — اذن يجب أن نقول ان اليهود هم الشر . أي أن ماركس بسبب حقده الدفين على اليهود أعطاهم كل الصفات الكريهة ليقنع الناس بضرورة القضاء عليهم .

ان مزراحي مثل أي مفكر صهيوني اخر يرى في اليهود كتلة متجانسة مستبعدا الصراع الطبقي ، لذلك فهو يرى ان كل يهودي هو بورجوازي ، وبما أن ماركس يدعو الى تحطيم البرجوازية، اذن فهو يدعو في الوقت نفسه الى تحطيم اليهود كتجمع بشري.

من البديهي ان مزراحي يرمي من خلال تحليله الى أهداف سياسية واضحة : حق اسرائيل في الوجود كدولة ، وضرورة الهجرة اليها ، وضرورة موالاة اليهودي لاسرائيل لانها رمز تحرره وشخصيته (القومية) . وهو يحاول كل ذلك بواسطة لفظية تقدمية بل (ثورية) احيانا . فأخذ هذا اللبوس يسهل له محاربة ماركس والتوجه الى الاوساط شبه التقدمية والتقدمية كما يعتقد . ولكي يؤدي هذه المهمة يقول ان الماركسية فكر علمي ما عدا مقالة ماركس عن اليهود فهي رجعية ، وقد كتبها تحت تأثير هيجل وفيورباخ . مثل هذه المحاكمة لا تظهر الا أزمة الفكر الصهيوني الذي لا يمكن ان يكون الا رجعيا على الرغم من كل الحلل التي يلبسها .

قلم صهيوني آخر ، اليزابت دو فونتاني(١١)، يستخدم كل المقولات والمفاهيم الماركسية المعاصرة لتجعل لماركس وجها لا يناهض الفكر الصهيوني بل يكون قريبا له . فالكاتبة المذكورة تقول بأن ماركس كان يكره اليهود بسبب البيئة الاجتماعية التي نشأ ونما فيها ، وبسبب طبيعة الثقافة السائدة في عصره ، فانجلز صديق ماركس الحميم كان لاساميا كذلك هيجل وكانت ، ثم تصل المؤلفة الى (قمة) تحليلها عندما تقول : ان لاسامية كارل ماركس لفظية او منهجية ، لاسامية فلسفة يختبىء وراءها كل

ماركسي لكي لا يهدد علاقاته الاجتماعية . فماركس في جوهره وحقيقته بقي دائما يهوديا مخلصا لليهود وفكرهم . وان حملته الشديدة على اليهود تعبير عن تعلقه بهم، ان منتهى الحقد ملازم لمنتهى الحب . وبذلك يكون تحليل ماركس تحليلا قهريـا مشروطـا مـن الخارج ، فهو عندما يقول « اننا نرى في اليهود عنصرا مناهضا للمجتمع » لا يعبر عن طبيعه الممارسات اليهودية . بل يستعمل هذا المفهوم بشكل تجريدي لوصف المجتمع البرجوازي انطلاقا من الفكر السائد في عصره . ان تحليل ماركس طريقة في الكتابة فقط ، ويمكن القول حسب رأي الكاتبه ان تحليل ماركس للمشكلة اليهودية لم ينطلق من واقع اليهود وحياتهم بل من الفكر الالماني وطريقة رؤياه لليهود .

كاتب ثالث ايزيابرلين(١٢) يقدم تحليلا ثالثا ذا طابع نفسي ، فماركس كان يرغب في السيطرة على مجتمعه ويطمع في تغيير هذا المجتمع ، فحتى يتسنى له القيام بهذا الدور أنكر أصله اليهودي (ص ٣٤) . لذلك فان كره ماركس لليهود لا هوادة فيه . وان لغة ماركس المناهضة للاسامية لغة شرسة لا تتميز عن لغة اعداء السامية في الحاضر او الماضي . وان ماركس حتى ينفي صفحته استغل كل المناسبات للتنديد باليهـود . فماركس يتكلم عن تعبيرات العمل في شكله القذر اليهودي (المؤلف هنا أي ايزيابرلين يخلع الجملة من النص ويتجاهل كليا معناها ومقاصدها عند كارل ماركس) وماركس لا يدخر فرصة للتذكير بأصل روتشيلد اليهودي وغيره من أصحاب المصارف في باريس، المؤلف هنا ايضا ينسى تماما ان ماركس يقوم بتحليل ظاهرة اجتماعية وتعبيراتها ، اي دور اليهود في المجتمع البرجوازي ، والعلاقة الديالكتيكية بين الراسمالية واصحاب البنوك اليهود ، ينسى كل ذلك ليظهر أن ماركس كان كارها لليهود بسبب طموحـه الشخصي في بلد لا يتيح فرصة العمل لانسان يهودي في أجهزته الادارية . يوغل المؤلف باستشهاداته فيقول أن ماركس يوحد بين اليهودية وكل ما هو سيء مشيرا بذلك الى عبارة ماركس : «كل طاغية يدعمه يهودي». وان ماركس عرقي بشكل مضاعف لانه كان يدعو لاسال بالزنجي اليهودي(١٣).

ان كل ما يريد أن يقوله هذا الباحث الجامعي يتلخص بما يلي : لقد كان مـاركس انسانا طموحا فطرد يهوديته من نفسه وحاربها بكل الاشكال الممكنة ، وبحركة احتقار كنس ماركس المشكلة اليهودية وقرر ان ينكر وجودها ووجوده ايضا (ص ٦٣) . ومن هنا ــ في زعم المؤلف ــ جاء كره ماركس الشديد لكل دين وخاصة الدين اليهودي ، ان شوق ماركس لتغيير العالم جاء من كره لنفسه ؛ وان ماركس ، ولو لم يشر اطلاقا الى أصله اليهودي ، كان يحمل كره المرتد الى المعسكر الذي خرج منه . ان ماركس كان انسانا ضائعا حائرا ، انه كان يهرب من اللاسامية المنتشرة في أوربا ، كان يكره الدين والقومية ، وكرهه هذا جعله داعيا للانسانية كلها ، كما جعله ايضا يغفل تماما اهمية الدين والقومية . وهنا في رأي المؤلف تكمن نقطة الضعف في نظام ماركس الفكري ، وبالتالي فهذا الضعف جعل ماركس عاجزا عن فهم المسألة اليهوديـة بشكل علمـي مشخص ، أضف الى ذلك ان ماركس عندما يدعو الى تحرير الانسانية فهو يدعو ضمنا لتحرير نفسه ، فماركس الهارب من معسكره كان يرى في نفسه رمـزا للبشريـة المضطهدة جمعاء .

ان ايزيابرلين يعمد الى تحليل ماركس بشكل نفسي ليظهر أن الفكر الماركسي ينطلق من اعتبارات ذاتية ومن تركيب نفسي معقد ومضطهد ، وان القمع اللاسامي أجبـر ماركس ان يتخلى عن دينه وأن ينسى قوميته !!

ان هذا التحليل الذي يقدمه الكتاب الصهاينة الثلاثة يهدف الى انكار علمية تحليل ماركس للمشكلة اليهودية ، كما يهدف الى تسهيل حركة الفكر الصهيوني . ان هذا

العداء للفكر الاشتراكي ذو جذور قديمه ، فالصهيونية كانت منذ أول القرن من أشد أعداء الفكر العلمي وهي لا تزال تستعمل كل قنواتها في ذلك . وهذا التاريخ اعطانا في الامس بروخوروف وجابوتنسكي والبوند. واليوم يعطينا ماركيوز وساخاروف ومزراحي. ان هذا العداء ضروره منطقيه فبين الفكر الاشتراكي العلمي والصهيونيه هوه لا يمكن تجاوزها ، وقد وقف تحليل لينين وستالين منذ اول القرن حجر عثره في طريق الدعايه الصهيونية .

فلينين مارس نضالا لا هوادة فيه ضد البوند التي كانت تعتبر نفسها حزبا عماليا مدافعا فقط عن مصالح العمال اليهود لذلك كان يقول « يجب الاعداد من اجل محاربة البوند »(١٤) وكان يقول « ان تحضير اللجان ضد البوند من اهم القضايا الراهنة »(١٥). وقد كان موقف لينين من الصهيونيه واهدافها واضحا وباترا فهو يقول « تحت ستار خلق دولة يهودية ، في بلد يشكل فيه اليهود نسبة لا تذكر ، تقوم الصهيونية بتسهيل استغلال بريطانيا للعمال العرب الذين هم السكان الاصليون لفلسطين »(١٦)، وقد أكد لينين موقفه من الصهيونية مرات عديده . ففي مقالة ظهرت له في جريدة الايسكرا عدد ٥١ في عام ١٩٠٣ يقول لينين : ان فكرة الامه اليهودية فكرة رجعية في محتواها وهي فكرة صهيونية وزائفة بشكل مطلق .

اما ستالين فقد اظهر في مساهمته النظرية (الماركسية والمسالة القومية). زيف وعدم صحة ما يسمى بالامة اليهوديه . فتعريفه للامة الذي كتبه في عام ١٩١٣ واقره لينين لا يفسح مجالا لما يريده المنظرون الصهاينة ، فهو يعرف الامه كالتالي « الامة هي تجمع بشري ثابت ، تكون بشكل تاريخي ، ويتميز بوحدة اللغة والارض والحياة الاقتصاديه والتركيب النفسي ، وكل هذا يترجم بوحدة الثقافة المشتركة » . لقد كان ستالين يشير بذلك الى البوند ، ويتساءل ستالين : عن اي انسجام يمكن ان نتكلم مثلا ، عند اليهود الجورجيين . ويهـود داغستان . والروس والامريكان ؟ اذا تبقى لهم شيء مشترك . فهو الدين وبعض مخلفات الصفات القومية ... وكيف يمكن ان نتحدث بشكل رصين عن أن دور الطقوس الدينية والمخلفات النفسية الاخذة بالتلاشي أقوى من تأثير الوسط الاجتماعي الحي ، والوسط الاقتصادي والثقافي الذي يعيش فيه اليهود » يصل ستالين من ذلك الى عدم وجود ما يسمى بأمة يهودية(١٧).

ان الصهيونية تهاجم الفكر الاشتراكي وتركز على طابعه المناهض للاسامية حتى تصل الى نتيجة جديدة هي أن هذا الفكر هو أحد الاسس التي تشكل قاعدة اللاسامية في المعسكر الاشتراكي وخاصة الاتحاد السوفييتي .

ويسهب المنظرون الصهاينة في تحليل اسباب وأشكال اللاسامية في الاتحـاد السوفييتي ، فجاكوب ميللر . يرى أن اللاسامية في الاتحاد السوفييتي تعود الى العصور الوسطى بسبب المسيحية الارثوذكسية ، فهذه الديانة بسبب طابعها الحنفي كانت تركز العداء لليهود ، حتى أصبحت ظاهرة العداء لليهود ظاهرة قومية ، اضف الى ذلك ان هذه الديانة بسبب سيطرتها الطويلة قد كونت بنيانا عقليا روسيا يتميز بوحدة الفكر وتجانس العقل ، أي حب الانضباط وتلقي الاوامر ، ولذلك فان مجيء ثـورة اكتوبر الاشتراكية لم يجلب معه جديدا في الميدان الفكـري ، حيث ان المسيحيـة الارثوذكسية والماركسية السوفييتية تتوافقان في الجوهر ، وهو خلق انسان يذعن للاوامر ويتلقى كل الامور كمسلمات وبدون نقاش ، لذلك بقي البنيان العقلي الروسي كما هو وبالتالي فقد استمرت ظاهرة اللاسامية في الاتحاد السوفييتي بدون انقطاع . ومما يزيد هذه الظاهرة ويسعرها هو الدور التنويري لليهود ، فالعقلية اليهودية تختلف جذريا عن العقلية الروسية فهي لا تقبل الامور الا بعد فحصها وتدقيقها ، لذلك فقد

رفض العقل اليهودي المعطيات الدوغماتية للحكم السوفييتي وحاول خلق حركة ابداع مستمرة مما زاد من اضطهاد اليهود في الاتحاد السوفييتي ، ان اليهـود السوفييت حاولوا ويحاولون دائما تطوير ثقافتهم اليهودية المبدعة المعبرة عن شخصيتهم القومية، انهم بهذا الدور (يزلزلون) أهداف السلطة السوفييتية في خلق فكر ببغائي مستكين .

ويسعر العداء لليهود في مجتمع شيوعي سوفييتي اعتناق النظرية الماركسيـة ، فماركس لاسامي والعقلية الروسية الكلاسيكية لاسامية ايضا ، لهذا تأخذ اللاساميـة في الاتحاد السوفييتي كل أبعادها . ان المؤلف هنا لا يتورع عن التشهير بالعقليـة الروسية كعقلية تبعية سهلة الانقياد (ص ٦٦) ، حتى يبرر وظيفته كمحرض للصهيونية وحتى يسلط الضوء على الظروف البائسة لليهود السوفييت ، التي هدفها الرئيسي هو تهجير اليهود السوفييت الى اسرائيل .

برنارد د. وينريب في مقالته : اللاسامية في الاتحاد السوفييتي(١٩) يقسم الامـر الى قسمين اللاسامية الكلاسيكية وهو يرجعها في ذلك كحال سابقه الى العقلية الروسية والمذهب الشيوعي واللاسامية المستحدثة . اي التي بدأت بعد قيام دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ . وهو يرى ان سبب اللاسامية المستحدثة يعود الى دوافع سياسية . فالاتحاد السوفييتي يحلم بالسيطرة على المنطقة العربية لذلك فهو يساعد العرب ضد اسرائيل ليصبح قريبا الى قلوبهم ، انه في سعيه لتأمين مناطق نفوذ له مستعد لمجاراة الفكر العربي الشوفيني . لذلك فان المؤلف يستعمل تعبيرا جديدا هو اللاساميـة الرسمية في الاتحاد السوفييتي ، او اللاسامية كظاهرة معترف بها .

ان رفض الاتحاد السوفييتي للممارسات الصهيونية التي يقوم بها العملاء الصهاينة هو ما يسميه الصهاينة باللاسامية ، فالعناصر الصهيونية تريد نشر واحياء كل الافكار الصهيونية سواء عن طريق المدارس الخاصة باليهود ، او المسارح اليهودية(٢٠) وتعميم لغة اليديش بل نشر مؤلفات زعماء الصهاينة بين اليهود، كي يبقى اليهود قريبين الى امتهم العالمية وقريبين الى أرضهم ــ فلسطين ــ ان رفض الاتحاد السوفييتي لهذه الممارسات يحيل اليهود في نظر بن آمي ، الى شعب وهمي في الاتحاد السوفييتي ذو حقوق وهمية وحياة وهمية .

ان ظاهرة العداء للسوفييت والمعسكر الشرقي ونصرة الحركة الصهيونية تشكـل تيارا نشيطا في الغرب يقوده الصهاينة او انصارهم . ولا شك ان مواقف ريمون آرون وهربرت ماركيوز وناحوم شومسكي بحاجة الى شرح وايضاح، حيث أن مواقـف الاخيرين تغوي وتخدع أحيانا بعض المثقفين العرب حتى من ادعياء اليسـار .

---

١ ــ مجلة **السياسة اليوم** ، اذار نيسان ١٩٧٠.

٢ ــ فرنسوا شاتليه في **مقدمته للمسالة اليهودية.**

٣ ــ **المرجع السابق .**

٤ ــ جان ماري دوميناك في **اسرائيل في ضميـر الشعوب** ، ص ١٢٤ .

٥ ــ **المسالة اليهودية** طبعة Aubier ، ص ٥٦.

٦ ــ **المسالة اليهودية** ، طبعة Aubier ص ٩٣٠.

٧ ــ اوجست كرونو : **كارل ماركس وانجلـز حياتهما واعمالهما المجلد ٢** ص ٢٦٧ .

٨ ــ فكرة ارض الميعاد : مورداخاي روشفـالد مجلة **ديوجين** رقم ٨٢ ، ص ٨٠ .

٩ ــ كورنو : **المرجع نفسه** ص ٢٦٩ .

١٠ ــ **ماركس والمسالة اليهودية** ، لمزراحي . جاليمار ، ١٩٧٢ .

١١ ــ **وجوه ماركس اليهودية .**

١٢ ــ ايزيابرلين : **ثلاث مقالات حول الوضـع اليهودي** ــ كالمان ليفي ١٩٧٢ .

١٣ ــ كان ماركس يدعو لاسال بالزنجي للسخرية

والمزاح وليس انطلاقا من اعتبارات عنصرية ، نجد هذا الاثبات في مقالة السوفييتي دالين : **ماركس وجوبينو** ص ١٤ مطبوعات النقد الجديد.

١٤ — لينين في رسالة الـى كريجـانوفسكي : استنادا الى كتاب : **لينين ونضاله ضد عملاء الصهاينـة في الحركة العمـالية** ، مطبوعات الشيوعي ١٩٧١ .

١٥ — **المرجع السابق** .

١٦ — **المرجع السابق** ، ص ١٦ .

١٧ — ستالين ، **الماركسية والمشكلة القومية**، ص ١٢ — ١٣ .

١٨ — **اليهود في الاتحاد السوفياتي** ، مـؤلف جماعي تحت ادارة كوشان — كالمـان ليفـي ١٩٧١ .

١٩ — وينريب ، مقالة في **الكتاب السابق نفسه**، **ص ٣٩٩** .

٢٠ — بن آمي ، **اليهود في الاتحاد السوفياتي** ، نايار ١٩٦٨ .

مأساة قبرص وازمة الشرق الاوسط

الدكتور سامي منصور

تم تقسيم جزيرة قبرص بين تركيا واليونان بصرف النظر عـن الصياغة الدستورية لتغطية هذه العملية ، وذلك وفقا لمخطط امريكي مرسوم بعناية يهدف في جوهره الى احكام الضوابط على الحركة العربية من مواجهة اسرائيل خلال الفترة القادمة .

قيمة قبرص الاستراتيجية

لم يكن انقلاب قبرص الذي وقع في ١٥ يونيو ١٩٧٤ يهدف قبرص بقدر ما يهدف العرب، وقبرص مجرد وسيلة أو ضحية على هذا الطريق. ويوضح ذلك أهمية قبرص في المنطقة. فقبرص هي ثالث جزر البحر الابيض المتوسط بعد سيسل وساردينيا وهي أكبر جزر النصف الشرقي للبحر الابيض المتوسط حيث تبلغ مساحتها ٩٢٥١ كيلومترا مربعا. وتقع جزيرة قبرص في موقع يجعلها حلقة الوصل في المواصلات البحرية والجوية بين العالم العربي واوربا الى جانب حلقة الاتصالات بين الدول العربية مع بعضها وخاصة دول المواجهة مع اسرائيل . وأظن ان ما حدث مع قفل المجال الجوي القبرصي دليل عملي على أهمية الموقع الجغرافي للجزيرة بالنسبة للعالم العربي . فهي تبعد حوالي ٦٠ ميلا عن سوريا ، كما تبعد ١٤٠ ميلا عن الشاطىء اللبناني . وتصل المساحة بينها وبين بور سعيد مدخل قناة السويس من البحر الابيض المتوسط حوالي ٢٤٠ ميلا . كما أنها لا تبعد أكثر من ١٦٠ ميلا عن اسرائيل و ١٢٠ ميلا عن تركيا .

وهي تتمتع بموقع استراتيجي بالغ الاهمية سواء للعرب او للاتحاد السوفياتي او لحلف الاطلنطي بصفة عامة والاسطول السادس الامريكي على وجه خاص . فنظرة على البحر الابيض المتوسط من وجهة نظر العسكرية الامريكية توضح ان هناك قاعدة امريكية في « روتا » باسبانيا ، واخرى في سيجونيلا في سيسل . وقد ظهر من العمليات العسكرية في اكتوبر ان هذه القواعد الامريكية بعيدة جدا عن التأثير في ارض المعركة بالسرعة اللازمة والفاعلية المطلوبة . ولما كان مستحيـــلا ومكاريوس رئيسا لقبرص استخدام القاعدة البريطانية الجوية في عملية الجسر الجوي لامداد اسرائيل بالسلاح ، فلم تجد الحكومة الامريكية سوى ميناء سودا بجزيرة كريت . وقد كان بالفعل هو الميناء الرئيسي للامداد العسكري الامريكي لاسرائيل خلال حرب اكتوبر ، خاصة وانه واحد من أهم موانىء العالم الطبيعية . وقد كان السماح باستخدامه هو السبب الرئيسي وراء الدعم الامريكي للحكم العسكري في اليونان رغم احتجاجات حلفاء امريكـــا في حلف الاطلنطي على ذلك . ولم يكن أمام أمريكا سوى تجاهل هذه الاحتجاجات حيث لا يوجد موقع آخر مناسب يمكن منه مد اسرائيل بالعون العسكري السريع والمستمر ، اذ ليس هناك من جزر أخرى سوى جزيرة مالطة ، وهي لا يمكن استخدامها حيث ان هناك نوعا من الاتفاق على منع الاتحاد السوفييتي من الحصول على تسهيلات بحرية في الجزيرة مقابل الا تستخدم الحكومة الامريكية قواعد الجزيرة سواء البحرية او الجوية . وبالفعل فان الولايات المتحدة ركزت سفن اسطولهـــا السادس جنوب جزيرة كريت لمواجهـــة

الغواصات السوفييتية على وجه خاص والوجود السوفييتي في البحر الابيض على وجه عام . ولولا سماح العسكرية اليونانية للاسطول السادس باستخدام ميناء « سودا » بجزيرة كريت لما أمكن الولايات المتحدة الاحتفاظ بصفة دائمة بحاملتين للطائرات في البحر الابيض . اذ لا بد من ميناء قريب لتقديم التسهيلات الى السفن الحربية الامريكية للاستمرار في الوجود بالمنطقة . وكان استخدام كريت هو أخف الاعباء الاقتصادية على الحكومة الامريكية ، وان كانت تطمع في استخدام قبرص حيث ان موقعها أقرب بكثير من كريت ، كما ان ظروفها اكثر ملاءمة في ظل الخلاف بل الصدام الطائفي للعمل الامريكي ، خاصة وان العيون الامريكية معلقة على ما يطلق عليه بأزمة الطاقة. فقبرص الى جانب التوفير في الوقود من أفضل المواقع الاستراتيجية في البحر الابيض لتحقيق المخطط الامريكي الذي يهدف الى نقطتين رئيسيتين هما الدعم العسكري لاسرائيل وحصر الوجود السوفييتي في البحر الابيض وبالتالي في منطقة الشرق العربي . وقد قامت الولايات المتحدة بتجربة عملية لكشف قيمة قبرص الافضل من كريت في شهر ابريل الماضي — ١٩٧٤ — حين نزلت القوات البحرية في الجزيرة وذلك تحت غطاء غير حربي وهو القيام بعملية ازالة الالغام من قناة السويس ، والعمل على اعادة فتح المر المائي الخطير بين البحر الابيض والبحر الاحمر .

الفشل والبدائل

ولما كانت الحكومة الامريكية قد تعهدت في البيان المشترك الذي صدر عقب زيارة الرئيس الامريكي نيكسون لاسرائيل بأن الحكومة الامريكية قد تعهدت بأن تقدم المساعدات والدعم العسكري لاسرائيل وفق خطة مرسومة للمدى الطويل . واذا كانت الحكومات الامريكية المتعاقبة قدمت لاسرائيل كل ما أرادت بل وأكثر مما طلبت الا ان الجديد في الامر هو ان الدعم سوف يتم وفق خطة للمدى الطويل . اي ان الحكومة الامريكية لا بد أن تضمن طرق امداد ودعم اسرائيل لسنوات طويلة بحيث تكون مفتوحة بأمان وباستمرار .

وفي اطار الوفاء بما نص عليه البيان المشترك الامريكي الاسرائيلي بعد زيارة نيكسون وقع انقلاب قبرص ضد الرئيس مكاريوس .

ولمدة ٣ ساعات بدا الموقف وكأن الانقلاب قد نجح . وقتل الرئيس مكاريوس . وقتل مكاريوس مسألة بالغة الحيوية بنفس قدر حيوية الاستيلاء على الجزيرة ، خاصة بعد ان مات جريفاس . اذ لم تعد هناك على الجزيرة شخصية قبرصية واحدة يمكن ان تجمع عليها كلمة الشعب القبرصي كله ويكون له هذا القدر من الاحترام والتأثير على الجماهير . ولذلك كان هدف الانقلاب بجانب الاستيلاء على الحكم هو التصفية الجسدية للرئيس مكاريوس .

وفشل الانقلاب القبرصي في تصفية مكاريوس جسديا ، وان كان قد نجح في الاستيلاء على الحكم وبعد يومين من مقاومة رجال مكاريوس خضعت الجزيرة تقريبا لحكم الانقلاب باستثناءات محدودة . وقد ساعدت بريطانية على تحقيق استقرار الانقلاب واجهاض مقاومة رجال مكاريوس بنقل الرئيس الشرعي القبرصي الى لندن ، وبالتالي ابعاده عن موطن الاحداث سواء كان ذلك بموافقته او بالحاح بريطاني ، فهو كان الحل الامثل والبديل المطروح بعد فشل محاولة قتله . فخروجه من الجزيرة يعني تركيز كل الجهود لمنع عودته التي اصبح لا يمكن ان تتم الا على راس قوة مسلحة !..

فقد كان الدور البريطاني في الخطة هو تهدئة الامور ، وتضييع الوقت حتى يستقر الانقلاب ويصبح حقيقة معترفا بها . وخلال اليومين غيرت الولايات المتحدة موقفها

واعلنت مصادرها الاعلامية انها تنوي التفاهم مع الانقلابيين بقيادة سمبسون القفاز الذي اختفت اصابع الانقلابيين فيه . وقد سمعت في انقره من اكثر من مصدر ان سمبسون ليس فقط كان صيدا يسهل التضحية به بل انه اختير بالذات ليضحى به بعد ذلك .

وبحكم ان الانقلاب قامت به القوات اليونانية — الضباط — في الحرس الوطني القبرصي فقد كانت هناك شبهة او احتمال انضمام قبرص الى اليونان . ولو كان ذلك قد تم — وهو في اعتقادي لم يكن مطروحا في الخطة — لكان وضع الجالية القبرصية التي من أصل تركي يصبح هو المشكلة . ووقتها كان يمكن مناقشة الوضع على اساس اما هجرة الجالية الى تركيا او منحها قدرا من الحقوق داخل البلاد . وكان معروفا ان ذلك سوف يلاقي رفضا تركيا ، اذ هي لا تريد ان يتكرر للجالية التركية ما حدث من مذابح وتهجير بعد ضم جزيرة كريت الى اليونان ، وهي أحداث لا تريد تركيا ان تنساها وحقا ما كان يجب ان تنساها .

وقد وضعت امريكا ذلك في حسبانها وحساباتها طبعا وهي الدولة الخبيرة بشؤون تركيا عضو حلف الاطلنطي والحليف الدائم للولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ولكنها أيضا تصورت انه يمكن مساومة تركيا وايجاد حل يرضيها على اساس الاعتدال وهي ليست مشكلة .

الاطار العام للانقلاب

وجرى الانقلاب في اطار عام تحدده الاحداث التالية التي ساهمت في تنفيذه ، وفي تشكيل الصورة التي انتهى اليها الموقف :

● كانت الخلافات بين اليونان وتركيا قد وصلت الى حد التهديد باستعمال القوة بسبب مصايد بحر ايجه التي تعمل فيها السفن التركية . ويقال ان الخلاف ليس بسبب المصايد ولكن نتيجة دراسات كشفت عن وجود بترول في هذه المنطقة وكلتا الدولتين تتصارعان على الاستيلاء على هذا المصدر الجديد للطاقة .

وأيا كان السبب فالمؤكد ان الصدام بين تركيا واليونان ما كان يمكن ان يصل الى حد الحرب ، بل كان سوف يبقى محصورا في نطاق حرب السياسة والاعلام والتهديد باستخدام القوة . والمعروف ان قوة البلدين في داخل حلف الاطلنطي وللولايات المتحدة في كل منهما كلمة مسموعة ، بل ان الازمة نفسها تكاد تكون مصطنعة بين البلدين .

● كانت العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة تبدو وكأنها في أزمة شاعت الصحف التركية المبالغة فيها الى حد تصويرها على انها « حرب الافيون » بين تركيا والولايات المتحدة . اذ انه تم اتفاق في العام الماضي على ان توقف تركيا زراعة الافيون الذي يعتبر أفضل انواع الافيون في العالم ، وذلك مقابل تعويض امريكي — باعتبار امريكا المستورد الرئيسي له — قدره ٣٥ مليون دولار . واكتشفت تركيا ان التعويض لم يكن كافيا حيث يزيد دخل زارعي الافيون على ١٥٠ مليون دولار ، كما ان الحكومة لم تستطع ايجاد زراعة بديلة تعوض فارق الخسارة في الداخل .

والاهم من ذلك ان تركيا اكتشفت ان الحكومة الامريكية قامت بشراء بذور الافيون التركي لتقوم هي بزراعته في المزارع الامريكية ، كما ان اسرائيل قامت بشراء بذور الافيون التركي أيضا لزراعته في اسرائيل .

وظهر أمام تركيا ان منعها من زراعة الافيون كان مجرد لعبة في منافسة خرجت منها تركيا بمجرد ٣٥ مليون دولار بينما ترى الافيون التركي على وشك الزراعة — في

سبتمبر — في امريكا واسرائيل معا وتفقد هي السوق مع انهــا المصدر الرئيسي له . ولذلك قررت العودة الى زراعته مما اغضب — ! — الحكومة الامريكية ولكن ليس الى حد اسقاط حكومة اجويت رئيس وزراء تركيا الذي رسمت له الاجهزة التركية صورة الرجل الذي يقف في مواجهة امريكا ويقول لها لا مع ان العملية مجـرد خلاف حول صفقة !..

● ان اليونان بسبب الحكم العسكري في شبه قطيعة مع الدول الاوروبية اعضـــاء حلف الاطلنطي ، والتي ترى التمسك بالشكل الديمقراطي للحكم حتى ولو كان في جوهره ديكتاتوريا .

بينما كانت الحكومة الامريكية ترى ان الحكم العسكري الذي قدم اليها موانىء جزيرة كريت لدعم اسرائيل عسكريا خلال حرب اكتوبر يستحق من حليفاتها التأييد ويستحق منها مكافأة ولتكن جزيرة قبرص او على الاقل جزء منها .

● مكاريوس كان مشغولا بعملية طــرد الضباط اليونانيين مــن الحرس الوطنـــي القبرصي . وكان القرار قد أثار الحماس في قبرص وبدت الصورة وكان مكاريوس في قمة سلطته وقدرته على العمل . والحماس عادة يفقد الاشخاص قدرا من الحذر ورؤية ما يجري تحت أقدامهم .

في ظل هذا الاطار من الاحداث وقع انقلاب قبرص وان كان في الواقع هو ليس بانقلاب بل تدخل خارجي مسلح . فالانقلاب عادة تقوم به عناصر من ابناء الدولة ليس المهم مدى ولائهم لها . اما ما حدث في قبرص فكان تدخلا يونانيا بضباط مسلحين . وهكذا وقع ما يطلق عليه « الانقلاب القبرصي » وان كان في جوهره التدخل اليوناني لعـــزل مكاريوس ، وبعد فترة قد تمتد لسنوات يمكن ضم الجزيرة لليونان . الا ان نجـــاة مكاريوس أتاحت للمجتمع الدولي فرصة تحرك سياسي مع انه لا قيمة حقيقية له على واقع الاحداث الا انه على اية حال اعطى الشكل غير الشرعي للانقلاب واكد شرعية وجود مكاريوس رئيسا لقبرص .

الكشف عن الدور الامريكي

وأمام هذا الفشل . وخاصة ان اختيار سمبسون قــد اصبح اضحوكة كان لا بد للولايات المتحدة ان تتحرك باستعمال البدائل المطروحة في الخطـــة الشاملة لعملية قبرص .

فقام سيسكو مساعد وزير الخارجية الامريكية بالسفر الى لندن فانقرة فأثينا . وكان هدف التدخل الامريكي العلني هو : ١ — منع عودة مكاريوس رغم قرارات مجلس الامن حتى لا تعود قبرص دولة غير منحازة تمنع استخدام قواعدها لصالح حلف الاطلنطي . ٢ — تقسيم الجزيرة بين تركيا واليونان وذلك في اي اطار دستوري يمكن الوصول اليه كاتحاد فيدرالي او غير ذلك والمهم الا تعود قبرص دولة مستقلة استقلالا حقيقيا .

وظهر اثر الدور الامريكي في ان الغزو التركي قد بدأ بعد ساعات من مغادرة سيسكو لانقره . وكان التصور هو اعطاء الغزو التركي صفة التمرد على الولايات المتحدة ، وخاصة في ضوء الخلافات المصطنعة بين البلدين وادعاء ان الغزو يهدف الى اعـــادة الاوضاع الشرعية الى الجزيرة . ولم يكن طرح هذا التصور من باب الادعاء ولكنه كان يهدف الى منع اي مقاومة للغزو التركي للجزيرة، وخداع انصار مكاريوس حتى يساعدوا القوات التركية على احتلال جزء محدد مع سيسكو بالمناطق التركية في الجزيرة حتى الخط الاخضر دون تجاوز ذلك بأي شكل من الاشكال .

ولم يكن ممكنا بالطبع أن يصدق القبارصة ان تركيا التي كانت تهاجم مكاريوس حتى الامس سوف تتدخل بقواتها من أجل اعادته . ولذلك واجه الغزو التركي مقاومة عنيفة من القبارصة أدت الى ارتفاع معدل الخسائر بين القوات التركية الغازية بشكل كان مفاجأة حتى للقيادة التركية نفسها ولم تستطع تركيا ان تخفي الوجه الحقيقي لغزوها للجزيرة طويلا ، وذلك بحجة ان مكاريوس هاجم التدخل التركي . وبمجرد ان تم الغزو التركي أعلن بصورة تمثيلية تنازل سمبسون عن الرئاسة وتكليف كلاريدس رئيس البرلمان بالقيام بمهام الرئاسة بالنيابة . ولم تخف تركيا قبولها لتعيين كلاريدس الذي يمثل الجناح اليميني الاكثر ميلا نحو امريكا — ! — في مجموعة مكاريوس .

وفي نفس الوقت اتفق سيسكو في أثينا على نقطتين أساسيتين الاولى خاصة بمعالجة الغزو التركي للجزيرة اذ أصبح على اليونان أن تتصرف على أساس قبول الغزو ومن حقها أن تعطي ذلك أي شكل من الاشكال حتى ولو كان حشد القوات اليونانية على حدود تركيا وكأن اليونان سوف تغزو تركيا . ولكن يبدو ان تركيا لم تحسن القيام بدورها اذ انها كشفت التحرك اليوناني دون قصد . فلم تهتم بالحشد اليوناني على حدودها بالقدر الذي يبدو به حتى انها لم تعلن التعبئة العامة في الجيش التركي ؛ واكتفت باعلان حالة الاظلام التام التي قصد بها اشعار الجماهير التركية بأن هناك عملا عسكريا تركيا يجري في البحر الابيض .

وكانت النقطة الثانية التي اتفق عليها سيسكو هي ان يقـوم العسكريون باليونان باعادة السلطة الى المدنيين . وهو أول حدث من نوعه في التاريخ الحديث حيث ان التقليد ان يقوم العسكريون بالاستيلاء على السلطة بقوة السلاح من المدنيين انما ان يحدث العكس فهو أمر يستحق المتابعة . وخاصة وانه لم يتم محاسبة أو اقالة اي من قادة الدولة العسكريين الذين تركوا الحكم وعادوا الى الثكنات العسكرية .

وفي نفس اليوم حسب المصادر الموثوق بها في اثينا بعد مغادرة سيسكو لها فورا تم اتصال تلفوني مع كونستانتين كارامانيلس في باريس . ولو كانت عمليـة التغيير في اليونان طبيعية لما كان هناك مبرر للبحث عن رجل غادر اليونان منذ ١١ عاما اي قبل الانقلاب العسكري بأربعة أعوام على الاقل لخلاف مع الملك قسطنطين . وهناك عشرات من رؤساء الوزارات السابقين موجودين بأثينا ؛ الا ان اهمية كارامانيلس تعود الى انه رجل مقبول جماهيريا الى جانب أنه أحد رجال الولايات المتحدة في اليونان . ولم يعلن الاتصال بكارامانيلس في باريس الا بعد اسبوع من الاتصال به وقيل انه تم في يوم اعلانه حتى لا يحدث ربط بين عودته وبين وجود سيسكو في اثينا . وبذلك تعود اليونان الى مجموعة الدول الاوربية دون تحفظات من هذه الدول على شكل الحكم اليوناني . كما ان العسكرية اليونانية لم يكن أمامها الا ان تطيع الادارة الامريكية بعد فشلها في تنفيذ الخطة الاصلية لانقلاب قبرص ؛ الى جانب أنه كان في امكانها عصيان الولايات المتحدة وهي التي تتحكم في العسكرية اليونانية بالتدريب والتمويل والتسليح طوال ما يزيد عن ٢٥ عاما ! .

نتائج العملية القبرصية

وبذلك انتهت عملية قبرص الى :

أولا : تقسيم جزيرة قبرص وتحويل استقلالها الى استقلال شكلي يسمح للولايات المتحدة في اطار حلف الاطلنطي ان تستخدم قواعد الجزيرة لدعم اسرائيل وفقا للاتفاق الذي جاء في البيان المشترك بعد زيارة نيكسون لاسرائيل .

ثانيا : اعادة النظام المدني الى اليونان وبالتالي ضمان فترة هدوء نسبي في اليونان الى جانب عودة قدر كان مفقودا للتعاون في اطار حلف الاطلنطي بين اليونان وأعضاء الحلف .

ثالثا : خلق شخصية سياسية في تركيا تحقق قدرا من الاستقرار في فترة تفتقد فيها الولايات المتحدة الى الاستقرار بسبب محاكمة نيكسون . فان ما قام به أجويت رئيس وزراء تركيا والاطار الذي وضع فيه تحركه سواء في مشكلة الافيون او الغزو التركي قد جعله شخصية قوية تتفق عليها كل الاحزاب السياسية حتى احزاب المعارضة ، وهو أمر بالغ الاهمية في دولة مثل تركيا تعتبر خط المواجهة الاول للغرب مع الاتحاد السوفييتي .

ولعل وجود اجويت ومحاولة امريكا جعله شخصية قوية تركية بقدر ما هو أمر داخلي خاص بتركيا الا ان وجوده يستحق اهتماما عربيا حقيقيا . فموقفه من العرب ومشكلة الشرق الاوسط أمر لا يجب ان يضيع من الاذهان وسط تشعب الاحداث وتعددها .

فخلال حرب اكتوبر طلبت العناصر العربية في تركيا مع اليسار التركي من حكومة اجويت اعلان الوقوف مع العرب في حربهم المقدسة ضد الاستعمار الصهيوني المدعم من امريكا ، ولعل ابسط تعبير ممكن هو ان تسمح حكومة تركيا بفتح مراكز تطوع بالدم لارسالها الى الجيش السوري ووافقت حكومة اجويت ولكن العرب في انقرة فوجئوا بحكومة تركيا تفتح مراكز تطوع بالدم للعرب وبجوارها مراكز تطوع بالدم لاسرائيل !..

اكثر من هذا ان وزير خارجية تركيا حين عاد من مؤتمر لاهور لقادة الدول الاسلامية في أعقاب حرب اكتوبر تطوع للقول في مطار انقرة ودون أن يسأله اي من الصحفيين ان تركيا لن تقطع علاقاتها مع اسرائيل !..

رابعا : محاولة تأكيد الدور الامريكي الذي تقوم فيه بدور رجل البوليس في العالم وتدعي في أجهزة اعلامها انه دور رجل السلام .

والربط هنا مقصود بين دور كيسنجر في أزمة الشرق الاوسط ودور سيسكو في أزمة قبرص بدعوى انه دور من اجل السلام وهو في واقعه دور لتدعيم الاستعمار الامريكي في المنطقة على حساب قضايا الشعوب وفي مقدمتها شعب فلسطين . فكيسنجر باستمراره في العواصم العربية تاركا مقر عمله لاكثر من شهر لم يكن حبا في العرب ولكنه كان اداة لتحقيق المخططات الامريكية الاستعمارية في المنطقة العربية التي فشلت المحاولات الامريكية في تنفيذها في السنوات الماضية وأتيحت لكيسنجر الفرصة لتنفيذها .

وكان كيسنجر ومن بعده سيسكو يأملان في ان ما يتحقق في الشرق الاوسط من مكاسب لدعم اسرائيل يمكن ان تخدم نيكسون وتنقذه من المصير المحتوم بمحاكمته وادانته ولكن يبدو حتى الان ان ما تحقق لم يكن كافيا استعماريا لارضاء أصحاب القوى الحقيقية في الولايات المتحدة وهذا يؤكد احتمالات وقوع مزيد من الاحداث في المنطقة العربية قبل بداية محاكمة نيكسون .

وهكذا يتضح بجلاء ان انقلاب قبرص ثم الغزو التركي لها وتقسيم الجزيرة هو في الاساس موجه الى قلب قضية الشرق الاوسط وهو من خطة دعم امريكي لاسرائيل .

الوجـــود الامريكي في طرفي غزو قبرص

شكل الوجود الامريكي	اليـــونـــان	تركيـــــا
القـــواعـــــد	ميناء للاسطول الســـادس ومركز عمليات الاتصالات ومقر القـــوات الجوية ، بها ١٠ آلاف جندي امريكي	من خلال ٢٥ قاعدة امريكية للطيران والرادار والاتصالات ، يقوم ١٤ الف جندي وخبير امريكي بادارتها.
المساعدات الحربيــة منذ الحرب العاليــة الثانيـــــة	٤ بليون دولار ، ٦٠٪ مساعدات حربية : المعدل السنوي الحالي ١٠٠ بليون دولار .	٦ بليون دولار ، ٦٠٪ منهـــــا مساعدات حربية ، المعدل السنوي الحالي ١٠٠ بليون دولار .
الاستثمارات الامريكية	٣٧٥ مليون دولار .	١٥٠ مليون دولار .
التجــــارة	صـــادرات امريكا لها ٣٧٥ مليون دولار ، ووارداتها منها ١٠٠ مليون دولار .	صــــادرات امريكا لها ٣٥٠ مليون دولار ، ووارداتها منها ١٥٠ مليون دولار .

قراءة نقدية للكاتب الصهيوني الفرنسي روبير مزراحي

جوزيف سماحه

ان أي نقاش مع الكاتب الصهيوني «الاشتراكي» روبير مزراحي من خلال كتابه « ماركس والمسألة اليهودية » قد يؤدي ، عدا عن تبيان الطلاق التام بين مزراحي والاشتراكية ، الى اعتبار هذا الكاتب واحدا من التيار الصهيوني المتأثر بالافكار الماركسية والذي يحاول التوفيق بين نزوعه الصهيوني الفعلي و « ايديولوجيته الاشتراكية » المعلنة . الا ان أي اطلاع على الافكار السياسية التي يسوقها مزراحي في عدد آخر من الابحاث والمقالات سيؤدي الى نزع آخر الاقنعة « التقدمية » عن هـذا الوجـه الصهيوني . فمزراحي يطرح ، في عدد من مقالاته ، آراء تتجنب الاحزاب الصهيونية طرحها (من غاحال حتى المابام) . وهو كما سنرى ، يقطع صلته بما اتفق على تسميته « باليسار الصهيوني » ليدافع عن اسرائيل كما هي ، رافضا اخضاع أي تصرف من تصرفاتها للنقد ، وذلك بحجة انها موجودة في خطر الابادة . ويصل مزراحي ، في آرائه التي سنعرضها ، الى حد يفقد معه الكلام — كلامه — وظيفته الاساسية الدعاوية : الدفاع عن اسرائيل من منطلق اشتراكي ، تقدمي ، ثوري ، لا بل يفقد هذا الكلام كل وظيفته .

فالايديولوجية التي يفترض فيها ان تستعير من الواقع بعض ملامحه لتضخمها وتعظمها وتحلها محل الواقع نفسه — في ذهن البشر ، وأحيانا في سلوكهم — تقع في مأزق اذا ما امتنع الواقع عن تقديم أي عنصر قابل للتأويل والتفسير . وهـذا هو بالضبط المأزق الذي يقع فيه مزراحي ، وهو المأزق الذي يجعل من محاولات هذا الاخير لتجميل صورة اسرائيل عبثا لا طائل تحته ، ويدفع بهذه المحاولات الى الايغال في افتراقها عن الواقع حتى تصل الى حدها الاقصى ، حدها الكاريكاتوري المضحك .

سنكتفي ، فيما يتعلق بمزراحي ، باستعراض آرائه السياسية ، متجنبين نقاشها ، خالصين الى آرائه الواردة في كتاب « ماركس والمسـألة اليهودية » .

ان الهدف الذي نرمي اليه هو عرض رأي شبه متكامل لكاتب صهيوني يدعي الاشتراكية ، وفي الوقت نفسه ، تقديم ملامح رد ماركسي فعلي عليه . وهذه مهمة متواضعة لا تفترض الغوص في جزئيات كتاب « ماركس والمسألة اليهودية » اذ ان هكذا تحليل يستلزم كتابا آخر .

ان الدفعة الاولى من آراء مزراحي واردة في بحث له بعنوان « اللاسامية الكامنة » ، وهو فصل من كتاب صادر عن دار ماسبيرو بعنـوان « العرقية والمجتمع » (١٩٦٩) . هذا البحث ليس أكثر من سرد آراء واطلاق احكام بدون أي برهان او دليل — سوى بعض الملاحظـات الشـخصية — وفيـه يعدد مزراحي أشـكال اللاسامية الظاهرة والكامنة (سيعود في كتابه « ماركس والمسألة اليهودية » لتركيز الهجوم على اللاسامية الاشد خطرا : «اللاسامية اليسارية»). قلنا ان مزراحي في تقديمه لفرضياته يظن انه يقدم مسلمات لذا فانه لا يتحرج ابدا من اعتبار بعض المظاهر الخارجية كتعبير عن اللاسامية مستنـدا في ذلك الى تجربته الشخصية فحسب ، وهكذا نراه يدرج ضمن خصائص اللاسامية الكامنـة خاصية الضيق . فيقول « انه اذا ذكرت كلمة يهودي ، امام احدهم فتغيرت بعض ملامحه ، فهذا دليل على لاساميته الخطرة ». (لا يهتم مزراحي اذا كان تغير هذه الملامح يدل على تعاطف مع اليهود . فهو يرى حتى في هذا التعاطف لاسامية كامنة) . السمة الثانية من سمات اللاسامية الكامنة هي الصمت . اذا ما هاجم احدهم كافة

المظالم ونسي لسبب من الاسباب الاشارة الى المظالم التي لحقت باليهود فهو لاسامي مهما حاول ان ينفي هذه التهمة ، ومهما كانت درجة اندماجه في النضال التحرري ، وتعاطفه مع القضايا الثورية . لا بل انه يغطي بهذا الاندماج وهذا التعاطف موقفه اللاسامي .

واذا قام احد يدعي الدفاع عن اليهود ففسر « بخلهم » و « مكرهم » و « عدوانيتهم » بالاضطهاد الذي لقوه ، فهو ايضا لاسامي لانه يحدد اليهودي انطلاقا من خصائص «نفسية» مع انه اجتهد لرد هذه الخصائص الى ظروف موضوعية .

وحتى الذي يعترف بحسنات اليهود معاكسا بذلك كل التهم الموجهة ضدهم من قبل اللاساميين يعاني ايضا من « لاسامية كامنة » .

والديمقراطي التقدمي الذي يعامل اليهودي كما يعامل أي مواطن آخر ، هو لاسامي . ولاساميته كامنة في انه لا يعامل اليهودي كيهودي بل كفرنسي مثلا ، او كبريطاني ... ان رفض الخصوصية اليهودية سمة اساسية في اللاسامية الكامنة ، كما ان الاعتراف بهذه الخصوصية لا يسلم من تهمة اللاسامية . فمزراحي يوسع دائرة اللاسامية لتشمل كل من لا يقول رأي الصهاينة ، انطلاقا من ماركس ولينين الثوريين حتى هتلر وايخمان الرجعيين الفاشيين .

والملاحظ ان مزراحي يغيب أي تحليل علمي لظاهرة اللاسامية وذلك بردها الى موقف فردي وجداني يستطيع كل انسان ان يتخذه بغض النظر عن أية ظروف . وهكذا لا تعود اللاسامية مسألة تاريخية بل مسألة لصيقة « بالجوهر الانساني ». ومزراحي اذ يجعل من كل موقف — عدا الموقف الصهيوني — لاسامية كامنة فانه يمارس بذلك عملية ابتزاز مفضوحة ، محاولا الاستفادة من الاثر السيء الذي خلفته في نفوس الاوروبيين واليساريين منهم خاصة مجازر النازية ضد اليهود .

وهو ، لذلك ، يبدي اندهاشه من التحول الطارىء على اليسار في العالم . كما انه يتخوف من نجاح العرب في اقناع بعض اليسار الفرنسي بأن اسرائيل بلد خطر ، وذلك في دراسة قدمها عام ١٩٦٨ الى مؤتمر المثقفين اليهود الناطقين باللغة الفرنسية .

في هذه الدراسة يحشد مزراحي كمية من الاكاذيب والافتراءات تجعل بعض الصهاينة المشاركين يقنون في وجهه ويحاولون ، عبثا ، ارغامه على توجيه لوم بسيط الى اسرائيل بصدد سياستها حيال عرب الاراضي المحتلة ، الا انه يرفض توجيه هذا اللوم ويعلن التزامه غير المشروط بالدفاع عن اسرائيل الكلية البراءة والموجودة في خطر الابادة (لا ننسى اننا في عام ١٩٦٨ ، أي غداة الحرب التي يصر بعض الصهاينة على تسميتها بحرب الايام الستة للتدليل على جبروت اسرائيل ومقدرتها وتخاذل العرب وضعفهم) .

ليس غريبا ان يدعي صهيوني ان اسرائيل بلد كلي البراءة ، بل الغريب هو ان يطلق «اشتراكي» هذه الصفة على اسرائيل . والاغرب من كل شيء هو سيل المديح الذي يغدقه مزراحي على اسرائيل باسم الثورية والاشتراكية حتى .

وهو لا يتورع ، اذا ما اختلفت استهدافات اليسار العالمي كله عن استهدافات اسرائيل ، عن اتهام هذا اليسار : « ان اليسار الفرنسي ، واليسار في العالم ، لا يريد شيئا آخر غير ما تريده اسرائيل . واذا كان بوسعه الادعاء بأنه يريد غير ما تريده اسرائيل فانه لن يكون يسارا . والبرهان على ذلك سهل . اذ ان اسرائيل موجودة لتوجد فحسب لا لتسيطر ، واسرائيل موجودة لتكون سعيدة لا لتكون قوية ، واسرائيل موجودة كي يتحقق العدل لا الظلم ، واسرائيل موجودة كي لا يقضي البعض جوعا ، واسرائيل موجودة كي يتحقق السلام بين كل الجيران في كافة مناطق العالم ... واستطيع ان استمر هكذا الى ما لا نهاية » (ص ٢١٥) .

قلنا سابقا ان الواقع يظلم مزراحي كثيرا فلا يجد هذا الاخير بدا من اللجوء الى مثل هذه التهويمات . وهو لا ينسى ان يضفي على صهيونيته حلة جديدة . ولذا نراه يستعير من الماركسية ما يسمح له بجعل اسطورة الشعب المختار تطل مجددا على المسرح بحلة جديدة هذه المرة . « اسرائيل هي الكمال بعينه » وهي « في حالة العالم هذه ، كمال الاشتراكية ، وتحقيق لهذه الفكرة ». و « اسرائيل هي التحدي المطلق ». ولا يكتفي مزراحي بالخلط بين الماركسية واسطورة

الشعب المختار بل يذهب الى حد تصوير اسرائيل على انها مسيح العالم الثالث : « ان اسرائيل هي البرهان الواقعي ، الموضوعي ، على ان العالم الثالث يستطيع ان ينقذ نفسه اذا ما تسلم مقدراته بيده كما فعلت اسرائيل » و « كيف لا يخر العالم كله اعجابا ، ولا يصرخ : هذا هو الشكل الجديد ، هذا ما نريده ، فلنذهب كلنا ، لا الى القدس ، بل لنساعد هذا الشعب الذي يحقق مطامحنا » .

ولا ينسى مزراحي في معرض اشادته باسرائيل واشتراكيتها ان يعقد الاهاجي العصماء حول زيف وكذب وبهتان الاشتراكية العربية باعتبارهـــا ايديولوجية معدة لتخدير الجماهير العربية ومنعها من التحرك (انه لمن حسن حظ الامبريالية واسرائيل ومزراحي ان تسما من الجماهير العربية خاضع ، الى هذا الحد او ذاك ، لمفعول هذا المخدر) .

أما خلاصة رأي مزراحي في هذا الموضوع فهي « ان اسرائيل أكثر كمالا مما يتحمله العالم ، واذا اردتم ان نكون اكثر تواضعا ، انها اكثر كمالا مما يتحمله العالم العربي... ان الانجازات الاشتراكية والشيوعية في اسرائيل هي أكـثر تقدما مما في الاتحاد السوفياتي »(١).

وليس ضروريا تكرار القول بان هكذا آراء لا تشكل مادة صالحة للنقاش .

يبقى الان ان ننتقل الى كتاب مزراحي عـــن « ماركس والمسألة اليهودية » لنقـــوم بقـــراءة نقدية له .

من المعروف ان اليسار العالمي (الاحــزاب الشيوعية واليسار الجديد) لم يكن شديد الحماس مع قضية الشعب الفلسطيني وذلك لاسباب لا مجال لذكرها هنا . وجاء حزيران ، ليكشف بشكل ولا أوضح مدى ارتباط الدولة الصهيونية بالامبريالية الاميركية ، وضلوعها في التآمر على حركات التقدم في الوطن العربي وخارجه ، مما شكل مزيدا من التوضيح لليسار في العالم ودفعه الى القيـــام بمراجعة لمواقفه السابقة . ولم تمض هذه المراجعة دون اثر على الشبان اليهود المندمجين في نضالات الجماهير التي يعيشون بينها ، فاخذوا يوجهون اللوم الى اسرائيل وينتقدونها علنا ، مما شكل حرجا شديدا للدولة التي تعتبر نفسها ممثلة لكل يهود العالم ، ودفعها للرد على هذا الهجوم . فما ان تلوثت صورة اسرائيل الدولة « الاشـــتراكية الرائدة » حتى بادرت الصهيونية الى درء هذا الهجوم عن يسارها ، فأعادت طبع كتب بوروخوف ووزعتها بشكل مكثف بهدف حرف الوعي الثوري لليهود وتوجيهه لدعم دولة اسرائيل فحسب . وفي سياق هذه الحملة الدفاعية يأتي كتاب روبـــير مزراحي : « ماركس والمسألة اليهودية »(٢) ليجدد التقاليد البوروخوفية في دمج الصهيونية بالماركسية انما على قاعدة جديدة : قاعدة اعتبار كتـــاب « المسألة اليهودية » كتابا غير ماركسي . مزراحي « اشتراكي » فرنسي يرى بعينيه تعاطف الشباب اليهود مع المنظمات اليسارية الفرنسية ويحس بالبساط يسحب من تحت رجليه كصهيوني ، لذا يبادر الى الرد . موضوع كتابه : البرهنة عـــلى لا سامية كتاب « المسألة اليهودية » وبالتالي على « لاماركسيته ». غاية الكتاب الاساسية اعطاء « اليسار الصهيوني » سلاحا ايديولوجيا يواجه به اليسار الفعلي .

يرى الكاتب ان المسألة اليهودية مسألة لا يطرحها اليهود انما تطرح عليهم : انها محاولة من الغير لمعرفة اليهودي في ما هو عليه . ومن الواضح ان هذه المسألة قد تسد الطريق على أية ممارسة او أي تفكير يريد ان يكون تحرريا ، نتيجة لعلاقتها الوطيدة بالبنى الاجتماعية والبنى الحضارية للمجتمعات الانسانية . ويميز مزراحي ، في مستهل كتابه ، بين اللاسامية اليمينيـــــــة واللاسامية اليسارية كشكلين من أشكال الرد على المسألة اليهودية . فبالنسبة للفكر اليميني الليبرالي الذي يطلب دمج اليهود ، أي الغاءهم وتحويلهم الى مواطنين كغيرهم في الدولة البورجوازيـــة الديمقراطية ، لا تزال المسألة اليهودية مطروحة ، اذ ان الاندماج هو أحد اشكال مقاومة اليهود (ما من حاجة لتبيان الجوهر الصهيوني في هذه الاطروحة)(٣). وبالنسبة لافكار واحزاب اليسار، المسألة اليهودية موجودة ، اذ ان شرط انتماء أي يهودي الى هذه الاحزاب ، استبدال سعيه للتحرر الذاتي بعالمية غامضة وعداء للصهيونية (ص١٢).

« وليست المسألة اليهودية السؤال الغريب الذي يطرحه الآخرون على اليهود ، متسائلين عن هويتهم وحريتهم فحسب ، بل هي ايضا انكار وجود

المسألة اليهودية من الاســاس » (ص ١٣) . هكذا اذا ، هناك لا سامية في طرح السؤال ، ولاسامية في عدم طرحه .

ويطيل مزراحي قائمة متهميه . فيندد بلاسامية « قراصنة » الجبهة الشعبية (المؤيدة للصين ، حسب زعمه) التي طالما تغنت بتمييزها اليهـود عن الصهاينة ، مستشهدا باطلاقها سراح الاسرى غير اليهود (ص ١٤) . ويتحدث عن فشل الجبهة بحكم لاساميتها في اقامة أي تمييز بين اليهـود وسكان اسرائيل ، ويتحدث عن طرحها للجنسية المزدوجة الاميركية — الاسرائيلية ، مستــعملا اسلوب التحليل النفسي معيدا هذه الظواهر الى استفاقة عوامل مكبوتة ... (ص ١٤) . ويهاجم الذين يأخذون على اليهود تعاطفهم الادبي مع اسرائيل طالبا منهم مهاجمة اللبنانيين والتونسيين الذين يتعاطفون مع الفلسطينيين (كذا) .

يؤكد الكاتب ان اللاسامية في الوقت الحــاضر مقنعة ، يمينية كانت أم يسارية . وينتقل للاشارة الى عدم ضرورة فضح اللاسامية اليمينية تمهيدا للتركيز على ضرورة التنبه ومحاربة اللاساميــة اليســارية ، لانهــا أكثر خطــرا وأكثر تســترا ، فهي مناقضــة للايديولوجيــة التي ينتمي اليها اليســـار . هذا التنــاقض لا يجعلها مستحيلة ، اذ انه الســمة الاســاسية للحركــة الجدليــة للوعي وللتاريخ. بالاضافة الى ذلك ، يجب التركيز على محاربة اللاسامية اليسارية لانها ليست موقفا لفظيا فحسب ، بل هي ممارسة « وتبرير ايديولوجي لسياسة نضال عملية ضد أمن وحرية ووجود اليهود » وهي توجه سياسة كتل ودول واحزاب تستطيع ممارسة لاساميتها اذ انها ترفع شعار الديكتاتورية (٤)، في حين لا تستطيع الـــدول البورجوازية ممارسة لاساميتها اذ انها ترفـــع الشعارات الديمقراطية !!!

أن الكاتب اذ يوجه نقده لليسار ، يحــاول جاهدا ان يخفي مواقعه ، لينطلق مــن مواقع يسارية تهدف الى « المحافظة على وجود واستقلال الاقلية اليهودية في العالم ، واسرائيل في الشرق الاوسط » . والهدف الابعد هو تحرير الانسانية الذي يمر ضرورة عبر تحرير اليهود (لم يقــم الكاتب حتى الان اي تمييز طبقي في صفوف اليهود. يضعهم كلهم على قدم المساواة . وجهان لعملة واحدة . من جهة مزايدة على اليسار ومن الاخرى غرق في الوحول الصهيونية وغرف من أدبها وتهجها وتراثها) .

لا يناقش مزراحي في أن الاشتراكية العلمية هي مستقبل البشرية لكنه يضع لهذا شرطــا : ان تنتقى الاشتراكية من لاساميتها وكما رأينــا ، اللاسامية تهمة مطاطة عند مزراحي فهو مثلا يعيب على كل من اسحق دويتشر ومكسيم رودنسون ، لاساميتهما (ونعرف نحن مواقفهما المعتدلة مــن القضية الفلسطينية) .

الكاتب لا يطرح على نفسه مهمة محـــاربة اللاسامية اليسارية على صعيد سياسة الـدول والاحزاب بل يسعى للنفــاذ الى جــذور هــذه اللاسامية . الى النظرية الماركســية عينها !! (ص ٢٢) « ... وبامتحان الماركسية نفسهــا يجدر بنا أن نبـدأ نقـد السياســة اليساريــة اللاسامية » . والعودة الى الماركسية لنقدهـــا تبررها الموضوعة التالية : العداء المجرم لليهود — وللصهيونية بشكل عام — هو في علاقة سببية مع الماركسية كعقيدة ، او بالاحرى فيما اختص من الماركسية بالمسألة اليهودية . فبعد نقد الجذور اللاسامية عند ماركس نفسه ، لا يعود بوســع الماركسيين الاعــلان عن أنفســهم كماركســيين وكلاساميين في الوقت نفسه . « اللاسامية هــي نقطة خاصة في الماركسية ، وليست هي العقيدة بمجملها » (ص ٢٣) انها فعلا انتقائية صارخة . ايعقل ان يكون ماركس لاساميا بهذا القدر وتقدميا بهذا القدر ، الا يؤدي هذا الى تحطيم ايـــة استمرارية في التراث الماركسي(٥)؟

العودة الى الاساس ، التي يحاولها مزراحي، تتيح — حسب زعمه — امكانية التصحيح ، اذ المطلوب تصحيح الماركسية لا طرحهــا جانبا ، المطلوب لفظ هذه النواة اللاسامية غير الضرورية. النضال ضد لاسامية ماركس ذو أهمية قصوى ، اذ انه ليس نضالا من أجل تحرير اليهود فحسب بل من أجل تحرير الماركسية والانسانية .

هذا الفصل التعسفي بين الماركســية ونظــرة ماركس لليهود هو سمة اساسية من سمـــات الكاتب وكتابه .

لو شئنا ان نورد الصفات — الشتائم التــي يلصقها مزراحي « بالمسألة اليهودية » (كتــاب

ماركس ١٨٤٤) لخرجنا بقائمة طويلة : فهو كتاب غير علمي ولا اشتراكي بل رجعي ، وعاطفي ، ومجرم ، الخ ... وقد استخرج مزراحي هذه الصفات من خلال دراسة الكتاب ، مقسما دراسته الى لحظات ثلاث : ١) علاقة نص ماركس بنص برونو باور ، ٢) تحليل نص ماركس نفسه ، ٣) دراسة الاطار التاريخي للدراسة ، والمحدد بلاسامية القرن التاسع عشر الاشتراكية . وهي لاسامية لا عقلانية بقدر ما هي حقيقية .

باور لاسامي ، ويعتبر ان سبب اضطهاد اليهود هو اليهود أنفسهم . وماركس يرد عليه في نقاط عديدة « معتمدا » تجاهل هذه النقطة . ويرى مزراحي في هذا الحذف(٦) مظهرا من مظاهر اللاسامية عند ماركس . فماركس الذي يعتبر نقد باور لليهود ناقصا هو اذا لاسامي أكثر منه . قد يبدو هذا الكلام رائعا اذا ما حوكم من خلال المنطق الشكلي ، الا ان اخضاعه للمنطق الديالكتيكي يظهره متهافتا . فمزراحي يحرف مضمون كلام ماركس ، ويشوه ما عناه هذا بنقد باور الناقص لليهود . فباور كان ينتقد سعي اليهود للتحرر ، كيهود ، في دولة تقوم على الدين المسيحي ، الذي يعتبره باور تحقيقا ونفيا لليهودية . وهذا ، بالضبط ما اعتبره ماركس ناقصا ، اذ انه يربط تحرر اليهود بتحرر المجتمع لا من البنى الفوقية فحسب بل من الملكية الفردية التي أنتجت هذه البنى . باور يدعو الى التحرر الديني ، الى العلمنة التي ستحرر اليهود . وماركس يدعو للاشتراكية . صحيح اذا ان ماركس يتجاوز باور ، لكنه يتجاوزه في مجال تحرير اليهود وغير اليهود لا في مجال اضطهادهم .

ماركس — حسبما يقول مزراحي — يغفل كون اليهود مضطهدين ، كونهم اقلية مضطهدة ، فباور في هذا أفضل منه ، اذ انه يقر بهذا الاضطهاد ولو ربطه بارادة اليهودي . او يرى انه لا يمكن لليهودي ان يتحرر في ظل دولة مسيحية (فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر) ففي هكذا دولة يتحرر اليهود اذا ما انتفوا كيهود . وماركس يغفل موضوعة باور هذه . من الملاحظ ان مزراحي يرمي خارج الهدف . فماركس لم يعارض تحرر اليهود ، ولم يعارض تحرر المجتمع بكامله من الدين ، الا ليطرح التحرر الكامل من الملكية الفردية وما ينتج عنها . ولا يجد مزراحي — وهو « اشتراكي » — ما يرد به على أطروحة ماركس هذه غير التشكيك بنظرية البنى الفوقية الماركسية (الدين ، الايديولوجية ، المؤسسات) ...

وماركس لا يكتفي باغفال ذكر الاضطهاد الذي يلقاه اليهود ، بل ، لا يعمد الى طرح اي حل لهذا الاضطهاد . فالصهيوني مزراحي يعيب على ماركس انه لم يضع حلا خاصا لليهود . وهو في اصراره هذا يعتبر اليهود كلا جوهريا غير منقسم ولا متجزىء ، كان كما هو منذ الازل وسيبقى الى الابد ، مترفعا فوق التاريخ ، خارجا من اطار نظام الانتاج وتطوره . فهو يعتقد ان اليهود غير مندمجين لانهم متميزون ، الا انه يغفل الاسباب المادية التي جعلتهم يتميزون عن غيرهم في الماضي، والتي أتت الثورة البورجوازية لتخفف منها ولتدفعهم في طريق الاندماج. اسباب الانعزال هذه يحاول ماركس الغاءها اساسا (لا ماركس شخصيا، بل **الممارسة** المسترشدة بالماركسية) . وعلى كل حال ، فمزراحي يعتبر المطالبة باندماج اليهود لاسامية .

يشيد مزراحي بباور (من اليسار الهيغلي) على حساب ماركس . فالاول اشار الى تعلق الصهاينة « بارضهم » ولكنه اعتبرهم قاصرين عن تحقيق امالهم ، في حين لم يلتفت لهذا « التعلق » « فباور يتهم ، بقسوة ، اليهود المضطهدين بأنهم ليسوا صهاينة كفاية » . (ص ٣٢) . بينما يغفل ماركس هذه الاشارة الى امكانية « التحرر القومي لليهود » . ماركس لم يعتبر اليهود قومية حتى يطالب بتحررها ، ومزراحي يغفل الاشارة الى هذه الحقيقة ويطعن في تقصير ماركس عن دعم قومية لم يعترف بها اطلاقا (« ان القومية الخيالية لليهودي هي قومية التاجر ورجل المال ». هذا هو رأي ماركس في القومية اليهودية) . الا ان ماركس الذي لم يتكلم عن « التحرر القومي » لليهود ، تكلم عن تحرر البروليتارية اليهودية كجزء من البروليتارية الاوروبية في فرنسه ، وبريطانيه ، والمانيه ... اما كلام مزراحي فيوحي ان ماركس لم يتكلم عن اي شكل من أشكال تحرر اليهود . وفي هذا كل التشويه .

وحديث ماركس عن انقاذ المجتمع من اليهودية ، بمعنى الربح المادي والطمع الفردي ، يفهمه

مزراحي ككلام عن انقاذ المجتمع من اليهود كشعب، وهو يحاسب ماركس لانه لم يتوصل الى الاستنتاج المنطقي لهذه المقدمة : تجميع اليهود في ارض معينة ، ارضهم ، اسرائيل .

« لقد اراد ماركس ان يكون لاساميا ، انما بطريقة « ثورية » ، اي غير قومية » . (ص ٣٣) . وهو في لاساميته ، المؤكدة بعد كل هذه البراهين ، ينتمي الى المدرسة الفكرية التي ينتمي اليها باور (كذا) - كان باور يطالب بتحرير اليهود ، معتبرا اليهودية دينا . ويقول أن وسيلة تحرير اليهود هي الغاء دين الدولة التي تضطهدهم، والغاء الدين الذي يميزهم ، أي تحقيق الدولة العلمانية .

اما ماركس فيقول بضرورة تحرير الدولة ، وبما ان « الديني » و« السياسي » هما ميدانسان منفصلان ، متميزان ، فتحرير الدولة من اليهودية لا يكفي ، اذ يمكن للدين الاستمرار في « المجتمع المدني » . اذا ، علمانية الدولة لا تكفي ، اذ يمكن لها ان تتحرر دون ان يتحرر المواطن . التحرير السياسي للدولة قد يبقي على اضطهاد الانسان فعلى المجتمع ان يتحرر من اليهودية .

ماركس يرد على باور :

— التحرير السياسي لليهودي ممكن — ولكنه غير كاف : أ — قد لا يتحرر الانسان اذا ما تحرر المجتمع السياسي ، ب — يجب تحرير المجتمع من اليهودية .

وهذا معناه ، عمليا ، انه علينا لا ان نحرر اليهود ، بل أن نتحرر من اليهودية . وهذا ما يسميه مزراحي : اللاسامية ، منتهيا الى القول بتماثل موقفي ماركس وباور لجهة الغاء الدين اليهودي (ص ٤٤) .

يعتبر مزراحي ، عن سوء نية بالطبع ، تساؤل ماركس: ماذا علينا ان نقول حول المسألة اليهودية؟ مرادفا للقول : ماذا علينا ان نقول عن اليهود لتحريك الراي ضدهم ؟ (ص ٤٥) .

الفرق بين ماركس وباور هو ان الاول يسعى الى تدمير اليهود جذريا . فماركس يبحث عن اليهودي في الواقع لا في الطقوس الدينية ، وهو يجد اليهودية الواقعية في الحاجة العملية والمنفعة الفردية ، ويسعى لتحرير المجتمع من اليهودية مفهومة بهذا المعنى ، قائلا بأن التطور الجاري يلغي هذا الدور ويجعل الغاء اليهودية ممكنا ، وهذا ما يسميه مزراحي « بالتأكيد العوغمائي البحت » (ص ٤٨) .

ويتهم مزراحي ماركس انه ، فيما يختص بالمسألة اليهودية ، لا يميز بين البنى الفوقية والبنى التحتية (بكلامه عن المال ، اله اسرائيل المطاع، وبتوحيده بين اليهودية والتجارة ..) بل يوحدهما في سعيه لتدمير اليهودية ككل . (يظهر ان مزراحي يتناسى جملة ماركس الشهيرة : « ان المسألة اليهودية لم تستمر على الرغم من التاريخ انما بسببه ») .

وبجرة قلم يحول مزراحي كلام ماركس عن الاساس المادي لليهودية الى مجرد سعي من قبل هذا الاخير لتوحيد اليهودية والبورجوازية ، مقدمة لتدمير الاولى مع تدمير الثانية . يظهر من كل هذا ان مزراحي يتجاهل كتاب ابراهام ليون : « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » ، الذي يعتبر خير رد على ما يقدمه .

أما « تحليل ماركس المفسطائي » (ص ٥٠) فيقدمه مزراحي كالتالي : « اليهودية تعني المال، والمال يعني البورجوازية . البورجوازية يجب ان تدمر . اذا يجب الغاء اليهودية » .

ويمضي في تهجمه على ماركس متهما اياه « بالجهل » و « بالنمية » و « بالمثالية » و « بالانفعالية » ... وهو اذ ينفي كون جميع اليهود تجارا يبدو كمن يطعن في الهواء اذ ، لا حاجة للاثبات بان ماركس لم يقل بأن « جميع » اليهود تجار .

ويصل مزراحي الى ذروة التشويه لاطروحات ماركس حول المسألة اليهودية حين يدعي ان هذا الاخير تكلم عن « جوهر يهودي شرير » ، قافزا (اي مزراحي) فوق السمة الاساسية التي ميزت ماركس عن بقية دارسي المسألة اليهودية ، وهي ارجاع المسألة هذه الى وضعها الطبيعي ، ودراستها لا كظاهرة عاصية على التاريخ (كما يفعل كافة الكتاب المثاليين ، الصهاينة والفاشيين خاصة) بل كظاهرة افرزها التطور التاريخي ، فهي بالتالي لا تحلق فوق مسيرة التاريخ ، بل تندرج فيها وتخضع لها ، ومن هنا امكانية حلها. وقد ذكرنا سابقا ان مزراحي برفضه اندماج اليهود

يعتبرهم « جوهرا » لا يحول ولا يزول. هذا التحول في دراسة المسألة اليهودية ، والذي وضع ماركس اسمه يتحول عند مزراحي الى مجرد زي جديد يلبسه ماركس للخرافة اللاسامية القديمة ، خرافة اليهودي البخيل المقتر ...

« ان الغائية اللاسامية عند ماركس ، هي ذات صفات شاملة ، عقائدية ، تاريخية وكونية . وهي تقود الى المجزرة كخلاصة ». كيف ؟ بالمطالبة بالغاء اليهودية — مرة اخرى خلط بين الغاء اليهودية ، والغاء اليهود .

ويحاول مزراحي اثبات ما تقدم . فانطلاقا من كلام ماركس عن ان اليهودية ، كما يفهمها هو ، وجدت تحقيقها الاكمل في المجتمع البورجوازي (وبالتالي « بداية نهايتها ») يحاول مزراحي ان يقدم براهين تؤكد ان ماركس عنى بذلك ان « جوهر » اليهودية (واليهود) هو هو « جوهر » الرأسمالية (والرأسماليين) لذا فلا بد من تدمير اليهودية واليهود معتدمير الرأسماليةوالرأسماليين. وهكذا وحد ماركس ، وهنا خطره الداهم ، بين النضال التقدمي ضد الرأسمالية والنضال العنصري ضد اليهود .

« ان لاسامية ماركس اكثر عصرية من لاسامية باور . فماركس هو من اوائل اللاساميين الماديين والعلمويين Scientistes للقرن التاسع عشر فبالنسبة له ، مسؤولية اليهودي تتجاوز ببعيد الاضطهاد الذي يلقاه لتمتد الى كافة الاضطهادات مصدر كافة استلابات العالم الحديث ، عالم الانانية المادي والبورجوازية ، هو اليهودية . لا العقيدة فحسب ، بل اليهودي العملي الواقعي في جوهره الحقيقي ... بالنسبة لكارل ماركس اليهودي هو الشيطان في حلة جديدة ... » (ص ٦٢) .

وردا على هذه التهمة « المفبركة » لا يجد مزراحي غير تذكير ماركس بان ثمة تجارا غير يهود ، ويهودا غير تجار . ويخلط مزراحي في هذا المضمار بين نظرية ماركس ونظرية سومبارت(٧).

وبعدما يدين مزراحي نظرية سومبارت ظلنا انه يدين ماركس يخلص الى انه « لا يجوز لنا اعتبار ماركس منقذا بدون اخطاء » (ص ٦٥) ، اذ ان له وجها لاساميا متطرفا .

أما عن اسباب لاساميته ، فعلينا ان نعود الى ماركس نفسه ، في وضعيته التاريخية المحددة ، في شخصيته ومطالماته ... لاستكشافها . فضح الطابع اللاماركسي للمسألة اليهودية ، سلاح يشهره مزراحي في وجه ماركسيي اليوم ، الذين اخذوا في تطوير مواقفهم من قضية الشعب الفلسطيني . ويغفل مزراحي ان ماركسيي اليوم، مع ان بعضهم يرفض من حيث المبدأ ازالة الدولة الصهيونية ، لم يتوصلوا الى اتخاذ مواقف عدائية من الصهيونية (اي مواقف ماركسية فعلية) الا بعد تجارب عديدة جعلتهم « يكتشفون » ارتباط الصهيونية العضوي بالامبريالية ومخططاتها .

هل توجد ، لدى ماركس ، علاقة عضوية بين كره اليهود ، ونقد الرأسمالية ؟

ينتقل مزراحي هنا ، الى تحليل مخطوطات ١٨٤٤ لكونها كتبت في فترة كتابة المسألة اليهودية وردا على برونو باور نفسه. ويخرج مزراحي بنتيجة مفادها ان ماركس في هذه المخطوطات تجاوز لاساميته واحل فهما لعلاقة الرأسمال بالعمل المأجور ، وللاستلاب ... يتجاوز فهمه السابق المقتصر على اعتبار اليهودي مستغلا (بكسر الغين) وغير اليهودي مستغلا (بفتح الغين) . ويرد مزراحي هذا « التطور » السريع الى عوامل نفسية ، لا ارادية حتى . فماركس ، اذ كتب المسألة اليهودية افرغ حقده على اليهود ، وبواسطة الكتابة وعى لاساميته الباطنية ، وتخلص منها . (يتكلم الكاتب عن Cathasis بالمعنى الفرويدي) . وكلمة « افرغ » تأخذ هنا معناها المادي ، فماركس اذ « أفرغ » لاساميته تخلص منها نهائيا ، واسقط من ثم مفاهيمه المطهرة على أشياء حقيقية : فغابت الصورة الاسطورية لليهودي البورجوازي وحلت محلها صورة البورجوازي الواقعي العملي صاحب المصانع ... وغابت صورة اليهودي المضطهد (لاسباب ليس هو بريئا منها) لتحل محلها صورة البروليتاري المضطهد . لقد استبدل ماركس مفاهيمه المستندة الى الدين بمفاهيم كونية . ففي المخطوط الثاني كلام عن راس المال في صورته الاكثر تجريدا اي الاكثر بعدا عن اليهودي . وكرد اولي على مزراحي لا يسعنا الا ان نؤكد بأن ماركس لم يسبق له ، لا في المسألة اليهودية ولا في غيرها ، ان قصر الرأسمالية على اليهود حتى يجوز لنا اعتبار

المخطوطات تطويرا من هذه الناحية . ومن جهة اخرى غياب اليهود عن المخطوطات وحضورهم في المسألة اليهودية امر طبيعي، فماركس كان يدرسهم كحالة عيانية في هذا الكتاب ، وهذا الغياب او الحضور لا يحتمل تأويلا اكثر من هذا . ومزراحي نفسه يتحدث عن وجود صورة ايجابية لليهودي عند ماركس . ويدعي ان هذا الاخير اسقطها على البروليتارية (ص ٨٥) . ان اللفظية الوحيدة التي يفهمها ويتكلم بها مزراحي تدور حول اليهود، وهو يحاول ان يعيد قراءة الماركسية من خلال وجهة النظر هذه . وهكذا تصبح كافة كتابات ماركس عن رأس المال في أساسها كتابات عن اليهودي في صورته السيئة ، مرفوعة الى المستوى الكوني . وكذا الكتابات عن البروليتارية (اليهودي الايجابي) . ويقحم مزراحي علم النفس ، بصورة فجة ومجانية ، في هذه التحاليل. وينسى الجوانب الاساسية : النظرية والممارسة والعلاقة الجدلية الحية بينهما . ويصل مزراحي في الصفحة ٨٦ الى القول بأن رأس المال ، « المفهوم . المفتاح في الماركسية ... المنبثق من تأمل لاسامي في المسألة اليهودية ، وبالاصطدام الذي حصل عند ماركس بين الصورتين المتناقضتين لليهودي ، يأخذ شيئا فشيئا بنية تصورية حقيقية وبعدا كونيا » .

ويذهب مزراحي بعيدا في اختراع « مؤثرات يهودية » على فكر ماركس . ويحاول ، انطلاقا من الموضوعة الشهيرة : ماركس يهودي ، ان يفسر نقد ماركس لليهودية العملية ، فيحوله الى نوع من كره الذات والرغبة في تدميرها (في هذه الحالة يحصل التماهي مع صورة اليهودي الشرير) ، اما اذا حصل التماهي مع الصورة الايجابية لليهودي ، فيظهر لدى ماركس الاندفاع الثوري وخلاصة القول ان ماركس هو ثوري كيهودي ، لا كمادي جدلي ولا حتى كملحد في اضعف الايمان. ولا ينفك مزراحي يكرر مرات عديدات الفصل بين ثورية ماركس (ماركسيته في المخططات) ولاساميته (لا ماركسيته في المسألة اليهودية) ، جاعلا من المخطوطات وقد كتبت فيفترة كتابة المسألةاليهودية، لا تجاوزا لما سبق بل ادانة له (ص ٨٩) . ويبدو واضحا ان مزراحي ينحر الديالكتيك بأسم الديالكتيك ، اذ لا يبدو ممكنا تفسير ثورية المخطوطات و« رجعية » المسألة اليهودية وهما من نتاج سنة واحدة(٨). ويزيد مزراحي لغزا جديدا على هذه المعادلة عندما يؤكد ان ماركس انما كتب المخطوطات كيهودي !!

وبعد أن ينتهي مزراحي من « البرهنة » على ان اللاسامية النظرية لماركس ليست بالتالي ماركسية . فيعمد الى دراسة الوضع في المانيا اوائل ومنتصف القرن الماضي مظهرا الاضطهادات التي كان يلقاها اليهود. ويتجلى، في هذه الدراسة بالضبط ، الاسفاف الذي يقع فيه مزراحي ، فهو اذ يتحدث عن الاضطهادات لا يورد كلمة واحدة عن مستوى التطور الذي بلغته المانيا في تلك الفترة ولا عن الدور الاقتصادي الذي يلعبه قسم كبير من اليهود الالمان فالمعروف ان المانيا بلد تأخرت فيه الثورة الديمقراطية البورجوازية التي حققت المساواة السياسية الشكلية لجميع المواطنين، ونتيجة لهذا التأخر كان اليهود لا يزالون يلعبون بأغلبيتهم ، دورا هامشيا بالنسبة للانتاج ، دور المرابين الذين يمولون بعض المشاريع ، ولذا كان من السهل توجيه النقمة ضدهم. التحليل الوضعي، غير الجدلي ، لمزراحي يظهر العداء بين قطاعات من الشعب الالماني وقطاعات من اليهود ، كعداء معزول عن تطور القوى المنتجة وعلاقاتها وصراعاتها الطبقية المحتدمة . وهو يجعل من هذا الصراع لازمة لا يمكن تجاوزها (وهذه احدى المقولات الاساسية في الصهيونية العداء الابدي لليهودي غير مرتبط بظرف تاريخي واجتماعي) محدد وهو ، لتمرير خدعته هذه ، يعتم الجانب الاخر من الصورة ، الجانب الذي يظهر اندماج اليهود . فهناك العديد من الواقعات التاريخية تثبت ان حواجز الغيتو اليهودي كانت قد بدأت تتداعى تحت ضربات البورجوازية الصاعدة الساعية لتوحيد السوق ، وبمساعدة من قطاعات واسعة من اليهود وجدت لنفسها مصلحة في هذا التداعي .

« ففي هامبورغ ،عام ١٨١٨ ، امر الحاخام اسرائيل ياكوبسون بتعيين الاعضاء في الكنس اليهودية ، وان « ترتل الاناشيد باللغة الالمانية » وكان قد حذف قبل ذلك من الصلاة كل ما يذكر بصهيون . « شتوتغارت هي اورشليم ! » هكذا هتف احد زعماء اليهودية في المانيا »(٩).

ويتحدث الدكتور اسعد رزوق(١٠) عن المؤتمرات

الحاخامية Rabbinical conferences التي تتالت منذ منتصف القرن الماضي وبحثت في « كيفية التوفيق بين المعتقدات والممارسات الدينية من جهة ومتطلبات العصر الجديد الذي دخله اليهود من جهة ثانية » واشهر هذه المؤتمرات مؤتمر برونشفيك (حزيران ١٨٤٤) الذي ادخل تعديلات عدة منها ما « يسمح لليهودي بالزواج من مسيحية او اي انسان من معتنقي الديانات التوحيدية ، فيما لو اتاح القانون المدني امام الابوين فرصة تنشئة اولادهما على الدين اليهودي » ومؤتمر فرانكفورت (١٨٤٥ ، تموز) الذي قرر « ازالة صلوات العودة الى ارض الاباء والاجداد واعادة تأسيس الدولة اليهودية ، من الطقوس الدينية اليهودية » .

وفي زمن سابق لهذه المؤتمرات ظهرت حركة « الهسكالا » (الاستنارة) . « وبدأت مع موسى مندلسون[11] » (١٧٢٩ — ١٧٨٦) الذي ترجم التلمود الى الالمانية ليجعل تعلم العبرية ، وبالتالي التعلق بالتقاليد اليهودية ، غير ضروري . كما انه دعا الى اندماج اليهود في محيطهم الاوروبي وتخليهم عن اليهودية كمجموعة طقوس وعادات غريبة ، وحاول جعل الدين اليهودي دينا علمانيا لا تشوبه شوائب خرافية عن « شعب الله المختار » وما الى ذلك . كان هذا كله متماشيا مع روح العصر ، الذي كان يدعو الى المساواة وعدم التعصب الديني . واهم اتباع مندلسون دافيد فريدلندر (١٧٥٦ — ١٨٣٤) رئيس حركة الاصلاح الديني الذي حاول ازالة العوامل العنصرية والقبلية من الدين اليهودي وجعله دينا انسانيا يسهل الاندماج، كما انه دعا الى اعتماد اللغة الالمانية في الصلاة بدلا من العبرية »[12].

ويتكلم ابراهام ليون[13] (وهو افضل الذين شرحوا وجهة النظر الماركسية في موضوع المسألة اليهودية) في الموضوع نفسه قائلا : « غير ان اليهودية الغربية دخلت بشكل عام ، وابتداء من القرن التاسع عشر ، في طريق الاستيعاب التام . ففي نهاية القرن الثامن عشر ، وخلال ثلاثين سنة ، تحول نصف يهود برلين الى المسيحية . اما الذين بقوا امناء للدين اليهودي ، فقد دفعوا عن انفسهم تهمة تشكيل أمة متميزة . وكان « ريسر » ، احد ممثلي اليهود الالمان ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، يقول : « دون وطن ودولة ولغة ، ليس ثمة من امة ، ولهذا فان اليهودية قد كفت ، منذ زمن طويل ، عن تشكيل أمة » . وكتب استاذ يهودي من برلين ، عام ١٨٧٩ قائلا : « نحن المان ، المان فقط فيما يختص بالقومية » .

ويعود ليون فيقدم احصاء عن النسبة المئوية للزيجات المختلطة بين اليهود وغير اليهود ، من مجموع الزيجات اليهودية :

برلين من ١٩٠١ الى ١٩٠٤ ٣٥،٤٪
الى ١٩٠٥ ٤٤،٤٪
همبورغ من ١٩٠٣ الى ١٩٠٥ ٤٩،٥٪ (١٤)

اذا ، ما من احد يدعي ان المسألة اليهودية كانت قد صفيت في اوروبا الغربية عامة وفي المانيا بشكل خاص . الا ان الفرق بين التصور المادي الجدلي الفعلي والتصور الصهيوني المتستر بشعارات ماركسية هو في ان التصور الاول يقول بأن الثورة البورجوازية وضعت المسألة اليهودية ، كمسألة اقلية دينية مضطهدة ، على طريق الحل . وخلقت الامكانية المادية لانهاء هذه المسألة في شكلها القديم ، عبر اندماج البروليتارية اليهودية مع بروليتارية بلدان اوروبة الغربية في النضال الاشتراكي . اما مزراحي ، فهو وان لاحظ اجراءات ١٨٤٧ التي قدمت « تنازلات » ديمقراطية عديدة فانه يصر على ان الطابع المادي لليهود كان الغالب ، دون ان يأخذ بعين الاعتبار ، كاشتراكي مفترض ، ارهاصات المرحلة التاريخية المقبلة . (قد لا يلام مزراحي على تعاميه ، اذ انه يرى في اندماج اليهود مظهرا آخر من مظاهر اللاسامية . الحل الوحيد في رأيه هو الصهيونية) .

وبما ان الكاتب يعلم ان ماركس كتب « المسألة اليهودية » في فرنسا فانه ينتقل الى بحث وضع اليهود الفرنسيين ، مسجلا منذ البداية درجة تحررهم المتقدمة على يهود المانيا . ويأخذ يهود الالزاس واللورين كمثل للدراسة . وهذه المنطقة تقع على الحدود بين المانيا وفرنسا وقد تبادلت الدولتان السيطرة عليها تبعا لانتصار كل منهما وتزايد نفوذه . لذا فهي لا تصح كنموذج للدراسة. وبالاضافة الى هذا الوضع السياسي المضطرب تتميز هذه المنطقة بتخلفها الاقتصادي — الاجتماعي عن بقية اجزاء فرنسا البورجوازية . « لقد عبرت السياسة النابوليونية عن ارادة المجتمع البورجوازي في استيعاب اليهود بشكل كامل ،

غير ان صعوبات جمة اعترضت سبيل التحرر هذا ، في المناطق التي بقيت واقعة تحت هيمنة النظام الاقطاعي . هكذا ، بعكس يهود مدينة بوردو ، الذين اندمجوا تماما في الطبقة البورجوازية ، لم يختلف يهود الالزاس بشيء تقريبا من اسلافهم في العصور الوسطى . وأدت الفتن الفلاحية ، الموجهة ضد الربا اليهودي ، الى اجبار نابوليون على سن قوانين استثنائية ليهود الالزاس . واثبتت القوانين القضائية البرجوازية عدم جدواها في حالة المجتمع الاقطاعي »[١٥]. ان مزراحي الذي لا يسمه الا ان يلاحظ الاصلاحات التي أدخلتها الثورة الفرنسية على وضع اليهود ، يتعمد اللجوء الى مثال الالزاس واللورين للانتقاص من قيمة هذه الاصلاحات ، رافضا اخذ خصوصية الوضع في هذه المنطقة بعين الاعتبار (يمكن تبرير هذا الموقف لو لم يدع مزراحي الانتماء الى الاشتراكية « النتية ») .

وبعدها ، يبدأ مزراحي بتعداد كافة الاجراءات القمعية التي اتخذتها السلطات الاوروبية (ما قبل البورجوازية) ضد اليهود . فيتحدث ، صادقا هذه المرة ، عن منع اليهود من تعاطي الزراعة او التجارة ، وارغامهم على ممارسة التجارة — الربا خاصة — ويقدم في هذا المجال أدلة تبرهن وتقنع ، وهي ادلة تحفل بها كتابات ليون وغيره . الا أنه عندما ينتقل لاستعمال هذه الادلة في سياق حملته على ماركس متهما اياه بالحديث عن « طبيعة » اليهودي التجارية ، و« جوهره » المرابي ، يبدو جاهلا بالكلية تحليل ماركس ، وتحاليل الماركسيين من بعده (ليون على وجه الخصوص) . وهو في رده على الماركسية يقول ان اليهود انما مارسوا التجارة كنتيجة لعملية تاريخية معقدة ارغمتهم على ذلك ، ويبدو ، اذ يدعي هذا الرأي لنفسه ، اقرب الى الماركسية التي يهاجمها لانها ترفض هذا المنطق .

وينسب مزراحي الى ماركس « الفكرة التبسيطية القائلة بمجتمع يهودي موحد ومؤلف من تجار اغنياء ومستغلين » ، دون ان يكلف نفسه عناء سوق اي دليل على هذا الادعاء . ولا حاجة للتذكير مجددا بأن الذي تحدث عن اليهود كتجار فاحشي الغنى ، يحل الازدهار الاقتصادي (ومعه الاستغلال بالطبع) أينما حلوا ، هو سومبارت لا ماركس[١٦].

ينتقل مزراحي الان للحديث من الاطار التاريخي العقائدي الذي عايشه ماركس وتأثر به . فيتكلم اولا عن مفكرين اتخذوا مواقف ايجابية من اليهود. س. ج. دوهم Dohm هو مثال نموذجي على ما يسميه مزراحي بالموقف المتعاطف مع اليهود . ويورد مزراحي للتدليل على رايه فقرات من كتابات دوهم المذكور ، يظهر فيها هذا مثاليا غارقا في الاوهام ومتعصبا لليهود : « تلقى اليهود من الطبيعة وبدرجة متساوية ، ملكة التحول الى رجال أفضل واكثر سعادة ، واعضاء في الدولة اكثر نفعا ... » (ص ١٤٠) . ويستنتج مزراحي ان دوهم ، فيلسوف القرن الثامن عشر المستنير هو ، فيما اختص بالمسألة اليهودية ، اكثر ماركسية من ماركس نفسه !!! (صهيونية مزراحي تأبى عليه الاعجاب الا بمن يحدثه عن اليهودي الافضل والانفع ...) . ويستفيض مزراحي في الكلام عن مفكر آخر : ج. ج. هامان J. G. Haman وهو كاتب صوفي شديد الاعجاب بالتوراة وبخرافاتها ، سلبي بالنسبة ليهود الدياسبورا لانهم لا يمثلون ، حسب رأيه ، المثال الموسوي .

ويستعرض مزراحي ، في معرض الحديث عن الفلاسفة الالمان اللاساميين ، كلام كانط عن اليهودي — التاجر واستعداداته النظرية الخديعة، مظهرا ، اي مزراحي ، المغالطات التي وقع فيها هذا الفيلسوف الالماني اللاسامي الذي ينفي كون اليهودية دينا .

ينتقل مزراحي من ثم الى فيخته في خطابه الى الامة الالمانية وتمجيده لها واعتبارها هادية للامم . يتكلم فيخته عن سيطرة اليهود وكرههم للامم الباقية « وهذه هي وجهة النظر التي سيتبناها ماركس بعد خمسين عاما ، متفقا في ذلك مع الفكر الما قبل نازي » (ص ١٥٦) . ويقترح فيخته كحل للتخلص من اليهود ترحيلهم الى فلسطين . (اللاسامية والصهيونية وجهان لعملة واحدة) .

وبعد ان يمر مرورا سريعا بشوبنهاور يصل الى هيغل . ويأخذ مزراحي في تبيان لاسامية هيغل باستعراض المقابلات التي أقامها هذا بين الديانتين المسيحية واليهودية مفضلا الاولى على الثانية ، جاعلا من عيوبها محاسن ، على عكس ما يفعل بالنسبة للدين اليهودي . ويوغل هيغل في تهجمه

على اليهود مرددا جملة الاتهامات التي اصبحت تقليدية : فهم اشرار ، منبوذون ، مشوهون ، حاقدون ، مخادعون بطبيعتهم . ومع كل هذا فمزراحي يعتبر ان موقف هيغل هو لاسامي بشكل جذري انما اقل لاسامية من موقف ماركس (ص ١٦٥) .

ان الطابع العام ، للاستعراض الذي يقوم به مزراحي ، لمواقف الفلاسفة الكلاسيكيين الالمان من المسألة اليهودية ، هو تغييب التحليل الطبقي . اذ اننا نحاول عبثا ان نعثر على كلمة حول علاقة هذه الاطروحات اللاسامية بالصراعات الطبقية الدائرة في المانيه . وكأن هذه المذاهب الفلسفية نشأت في الخلاء كتعبير عن موقف « طبيعي » لدى الانسان يدفعه لكراهية اليهودي ، لا كتعبير عن بورجوازية المانية ناشئة ، بالتحالف مع الاقطاع والملاك العقاريين ، تسعى لحرف وجهة الصراع الطبقي وتسليطه على عدو ظاهر تختبىء وراءه مستفيدة من حقد جماهير البورجوازية الصغيرة عليه .

ويمضي مزراحي في استعراض آراء المفكرين والادباء الالمان في المسألة اليهودية ، بهدف الاحاطة بالاطار الثقافي لكتاب « المسألة اليهودية ». فيعرض آراء ارندت Arndt (١٧٦٨ — ١٨٦٠) وهو اشهر من ان يعرف فقد كان الشاعر المفضل لدى النازيين . ويعرض آراء شتال (١٨٠٢ — ١٨٦٢) — يهودي تنصر — وهو فيلسوف يميني رجعي ، كان المستشار الروحي لفريديريك غليوم الرابع ، بشر بنظام ملكي ديني مسيحي لا مكان لليهود فيه .

وبالطبع ، يعجز مزراحي عن ايجاد اي فارق بين المواقف العنصرية الرجعية لهكذا مفكرين وبين مواقف ماركس ، فيقول حرفيا : « ان ماركس انتهى ، وبصورة غريبة ، الى النتائج عينها التي توصل اليها شتال ... » (ص ١٧٤) (انها فعلا غريبة هذه الصورة !!) اما السبب في انتشار هذه اللاسامية في صفوف الالمان فيعيده مزراحي الى عمق نفوذ الايديولوجية اللوثرية ، هذا النفوذ الذي يفعل في نفوس الالمان بغض النظر عن انتمائهم الطبقي !! (ص ١٧٥) . واستنادا الى ما تقدم والى ان الانسان كفرد لا بد متأثر بايديولوجية الجماعة التي ينتمي اليها ، ينتهي مزراحي الى الاعلان : « علينا ان نؤكد ان ماركس هو لا سامي بقدر ما هو الماني »[١٧] (ص ١٧٦) . لقد سقط مزراحي فيما كان يعيب على ماركس السقوط فيه : اعتبار الجماعة وحدة ذات جوهر منفصل عن المكان والزمان ، وذات صفات دائمة غير متأثرة ولا منفعلة بالواقع . فمزراحي اذ يعزل اللاسامية عن الصراعات الطبقية في المانيه وعن سياسات الطبقات الالمانية الرجعية ، ويعتبرها شأنا « المانيا » في الصميم ، غير مرتبط بظرف موضوعي يمكن النضال ضده وتغييره ، يقع شاء أم أبى في فخ الفلسفة المثالية التي انتجت ، فيما انتجت ، فهمها لليهود كجماعة منعزلة ذات ماهية لا تتغير ولا تتبدل . هذه الافكار شكلت المقدمات النظرية لكل من الصهيونية والنازية .

ونظرا الى ان ماركس كان يعيش في فرنسا اثناء كتابة « المسألة اليهودية » فان مزراحي ينتقل ، لدراسة الاطار النظري الذي عايشه ماركس ، الى تبيان لاسامية الكتّاب الاشتراكيين الفرنسيين . فيبدأ بالاشتراكي الطوباوي فورييه Fourier فيعرض نظريته العامة ويظهر لاساميته . ليس المهم ان يكون فورييه ساميا أو لا (المرجح انه كان لاساميا) المهم هو المنهج التحليلي الذي يتبعه مزراحي للكشف عن اسباب لاسامية فورييه . فعلى عكس كافة الدراسات المادية الجدلية ، التي تستقرىء العامل الاقتصادي ، كعامل محدد في التحليل النهائي ، يذهب مزراحي من الاقتصاد الى عوامل أكثر جذرية حسب رأيه : الى الديانة المسيحية « ليست الاشتراكية الطوباوية لاسامية لانها اشتراكية او لانها طوباوية ، بل لانها دينية ولانها مسيحية » (ص ١٨٤). وهكذا يحل مزراحي التناقض في الافكار والمعتقدات محل التناقض في الواقع الاجتماعي المعاش ، ويروح يحلل أفكار فورييه اللاهوتية معتبرا اياها مصدر لاساميته . كل هذا يقترف باسم الاشتراكية !! وعلى المنوال نفسه يناقش مزراحي توسونلToussenel ، تلميذ فورييه ... بالنسبة لتوسونل تبدو محاولات مزراحي « مسلية » جدا . فهو لم يستطع ان يقدم ، حتى في النصوص التي اختارها بنفسه ، أي دليل على كره توسونل لليهود كيهود . فهذا الاخير يساوي بينهم وبين البريطانيين، والفينيقيين، والقرطاجيين ، والهولنديين ، وسكان جنيف ويعتبرهم جميعا تجارا غير جديرين بالاحترام .

ويقف منهم جميعا موقفا عنصريا . أما كيف يستخرج مزراحي من هذه العنصرية العامة ، عنصرية خاصة (اللاسامية) فأمر غير واضح ، لا بل مفبرك كليا .

وبالنسبة لبرودون ايضا ، «يكتشف» مزراحي الاصول الدينية للاساميته ، ويدخل معه في نقاش حاد حول التوراة وقصصها ، معتقدا ، او محاولا دفعنا للاعتقاد ان المعركة تدور فعلا في هذا الميدان . ولا ينسى مزراحي ان يشير الى ان لاسامية ماركس هي أخطر من لاسامية برودون لانها « وحدت » بين اليهود والرأسمالية .

بعد كل ما تقدم ، يعود مزراحي ليرفض وجود علاقة سببية بين المسيحية واللاسامية ، قائلا بأن اللاسامية هي ، في النهاية ، خيار شخصي مسؤول عنه صاحبه (انها المقدمة الضرورية لادانة ماركس) . ويقدم كمثال على ما يقول مفكرين اشتراكيين مسيحيين : قسطنطين بيكور Pecqueur واتيان كابيه Cabet ، فهذان يعرفان التوراة ويمتنعان عن مهاجمتها ومهاجمة اليهود ، لا بل يقدران تقديرا عاليا بعض المعاني الاشتراكية ، وحتى الشيوعية – الطوباوية بالطبع – للعناصر الرئيسية في المؤسسات السياسية والاجتماعية للعبرانيين .

يؤكد مزراحي ان اللاسامية خيار فردي كمقدمة للبرهنة على مسؤولية ماركس الشخصية (هذا الكلام يتضمن تغييب الظروف الموضوعية التي تفرز تيارات لاسامية في ظروف محددة).

مسؤولية ماركس عن اختياره الشخصي للاسامية مصدرها نمط علاقاته مع والديه . فقد حدث لماركس تماه identificationمع الاب المتحرر والمتحول عن اليهودية،واجتياف Interiorisation لصورة رديئة عن الام اليهودية المحافظة (لقد تأخرت في اعتناق البروتستانتية ، وكانت تردد دائما : من الافضل لكارل ان يجمع رأسمالا عوض ان يتأمل حول الرأسمال). هذا التماهي مع الاب ولد لدى ماركس عقدة الذنب ، اذ ان والده ينتمي الى ذلك الجيل من اليهود المتحالف مع الحكومة الالمانية الرجعية ، والصامت عن «مجازر» ١٨١٩ ضد اليهود . عقدة الذنب هذه مكبوتة بالطبع اذ ان التماهي مع الاب هو تماه « لاواع » ، كبت هذه العقدة لا يعني ، على الاطلاق ، الغاءها . فهي تظهر باشكال اخرى مناقضة للواقع في أغلب الاحيان . وهكذا تحول الشعور بالتواطؤ مع الرجعية الالمانية الى عقدة ذنب مكبوتة ، ظهرت على شكل حقد غريب على اليهود الرجعيين .

وتدخل عوامل اخرى في سياق هذا التحليل السيكولوجي . فماركس اذ عبر عن حقده على اليهود كان يعرف انه يخاطب جمهورا ثوريا « لاساميا » لا بل كان يسعى الى مخاطبة هذا الجمهور ، ليأخذ منه « بطاقة مرور » الى عالم الثوريين الفرنسيين « اللاساميين ». فماركس لم يكن يعتقد بامكانية التوفيق بين اليهودية والثورية وهذا هو مصدر حقده على اليهود ، وعلى اليهود الثوريين بشكل خاص : موزس هس مثلا . فهذا الاخير كان ثوريا وكان يفاخر بكونه يهوديا ، متهما الانتلجنسيا اليهودية بالجبن والهرب ، مما ولد ردة فعل عنيفة لدى ماركس ودفعه الى المزيد من الحقد على اليهود عامة ، وعلى هس هذا خاصة .

المدخل لمناقشة هذا التحليل النفسي لماركس هو قول مزراحي : « لا يمكن لعلم النفس ان يفسر عقيدة ما ، ولكن يمكنه ان يفسر موقفا انفعاليا ، عاطفيا كموقف ماركس من اليهود . اذا ، عملية فصل « المسألة اليهودية » عن التراث الماركسي مستمرة . وهي مرفوضة من قبل كافة الماركسيين مع ان العديدين بينهم يطرحون أسئلة حول أهمية هذا الاثر لماركس الشاب الخارج حديثا من اليسار الهيغلي . الا ان رفض اطروحة العزل المزراحية هذه لا يكفي . فالمطلوب هو دراسة جدية وعلمية توضح علاقة « المسألة اليهودية » كعمل من أعمال فترة الشباب ، مع مجمل النظرية الماركسية المتكونة في جدل عنيف مع الممارسة .

ونختتم عرضنا ومناقشتنا لكتاب مزراحي « ماركس والمسألة اليهودية » ، هذا الكتاب الذي اراده صاحبه كتابا سجاليا ، اقناعيا بدليل اسلوبه وطريقة عرضه ، بفقرتين تعبران عن وجهة النظر المزراحية في المسألة اليهودية .

جاء في الصفحة ٩٠ من الكتاب : « في القرن العشرين فقط ، ومع بوروخوف ، انتجت الحركة العمالية اليهودية ماركسية صهيونية ، ونظرية ماركسية لكل من المجتمع اليهودي وتاريخ

اللاسامية . لكن هذه الماركية غير موجودة لدى ماركس » .

وجاء في الصفحة ٣١ : « ليست الصهيونية ، في الواقع ، شيئا آخر ، غير الحركة السياسية للتحرر الذاتي ، عبر انهاء النفي والعودة الى ارض اسرائيل » .

الصهيونية ماركسية لكنها ليست ماركسية ماركس نفسه . هذا هو استنتاج مزراحي الاخير .

ونحن كماركسيين وكتقدميين عرب ، ملتزمين بالنضال ضد الصهيونية وسيدتها الامبريالية ، نؤيد مزراحي في شق من استنتاجه : براءة ماركس من الصهيونية . ونفترق عنه في تقييم مدى ماركسية هذه البراءة . ونفترق عنه ايضا في أشياء اخرى أهمها سنوات الظلم والقهر والتشريد التي انزلتها « اسرائيله » بالشعب الفلسطيني وبالامة العربية.

---

١ — كتاب « اسرائيل في الوعي اليهودي » *Israel dans la conscience juive*, P.U.F. ص ٢١٨ .

٢ — صادر عن دار غاليمار . عام ١٩٧٢ .

٣ — يتحدث مزراحي من الاجراءات اللاسامية للاتحاد السوفياتي ولديغول !!! ص ١٣ .

٤ — انه شعار « ديكتاتورية البروليتارية » بعد ان يمر بالمصفاة الصهيونية المزراحية .

٥ — في حلقة اجراها معهد الدراسات الماركسية حول اعمال التوسير ، واشترك فيها مزراحي، لم يظهر هذا كبير حماس لنظرية الانقطاع المعرفي Coupure épistemologique الالتوسرية ، مما يفقده أي تبرير لانتقائيته هذه.

٦ — لقد عرضنا لراي مزراحي في هذا النوع من اللاسامية .

٧ — رد ليون في كتابه المذكور آنفا على سومبارت ، ص ١١٥ — ١٢٢ .

٨ — اذ يؤكد مزراحي ماركسية المخطوطات يؤكد في الوقت نفسه افتراقه عن نظرية الانقطاع المعرفي الالتوسرية ليطرح رايا فيه كل الجدة : عزل « المسألة اليهودية » من سياق الفكر الماركسي . وتبدو نظرية التوسير أكثر منطقية من هذا العزل الاعتباطي .

٩ — احذروا الصهيونية . يوري ايفانوف ، ص ٤٩ — ٥٠ .

١٠ — في كتابه الدولة والدين في اسرائيل . دراسات فلسطينية — مركز الابحاث ص ١٩ حتى ٢٢ .

١١ — يشيد به مزراحي في الصفحة ١٣٨ من كتابه .

١٢ — اليسار الصهيوني . عزيز العظمة . دراسات فلسطينية . مركز الابحاث ، ص ٢٠.

١٣ — المفهوم المادي للمسألة اليهودية — دار الطليعة ، ص ١٥١ .

١٤ — المصدر السابق ، ص ١٦١ .

١٥ — المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

١٦ — مزراحي تلميذ لبوروخوف . والى هذا الاستاذ يعود الفضل في اكتشاف نظرية **الهرم المقلوب** القائلة بأن أكثرية اليهود تجار .

١٧ — يقول مزراحي فيما بعد أن لهذه الفرضية استثناءات ، فثمة أشخاص المان غير معادين لليهود . هذا الاقرار لا يفيد مزراحي شيئا اذ انه يعتبر هؤلاء اعداء للاسامية بقدر ما استطاعوا التفلت من تأثير « الحضارة الالمانية » .

مراجعات

Maxime Rodinson, **Israel : A Colonial - Settler State ?**
(Monad Press, New York, 1973).

ماكسيم رودنسون ، واحد من الاختصاصيين بشؤون الشرق الاوسط في الغرب، وهو رئيس كلية Partiques des Hautes Etudes وبروفسور في اللغتين العربية والاثيوبية القديمتين وفي علم الاثنولوجيا الشرق اوسطية ، في جامعة السوربون، وقد عاش ودرس في منطقة الشرق الاوسط لمدة سبع سنوات ، ولا يزال يرتبط بالمنطقة عبر علاقات مستمرة منذ الحرب العالمية الثانية . وينحدر رودنسون من عائلة يهودية راديكالية الاتجاه . وقد كان عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي خلال فترة امتدت من عام ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٥٨ . ويعتبر واحد من الكتاب المثقفين « الماركسيين المستقلين ».

والجدير بالذكر ان كتابه « اسرائيل : دولة استعمارية — استيطانية » ، الذي يرتكز على مصادر عديدة باللغات الاوروبية والعربية والعبرية، قد نشر للمرة الاولى في عدد خاص من مجلة « الازمنة الحديثة » التي يشرف على تحريرها جان — بول سارتر ، وذلك في أواخر عام ١٩٦٧ وفي نهاية حرب حزيران (يونيو) .

يحاول البروفسور رودنسون ، وقد وفق في ذلك، ان يتوصل الى وضع مدخل ، يرتكز على الوثائق، للمسألة المركزية والرئيسية التي يحددها في هذه الدراسة : هل يمكن تصنيف اسرائيل كدولة استعمارية — استيطانية ، وشعب فلسطين بالتالي ، كشعب يخضع للاستعمار الاسرائيلي ؟ مدخل المناقشة سليم ، الا ان نتيجتها جاءت مخالفة ، بل مناقضة ، للمدخل . كيف ؟ للاجابة ، لا بد من استعراض المدخل والهوة التي سقط فيها رودنسون .

للاجابة حول امكانية تصنيف اسرائيل دولة استعمارية — استيطانية ، يعود رودنسون الى مرتكزات الصهيونية وعقليتها خلال ظروف اوروبا القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، عندما كانت الرأسمالية تدخل عصر التوسع الكبير وبناء امبراطوريتها التي قادت في النهاية الى نشوب اول حرب عالمية امبريالية . فقد دخلت القوى الاوروبية دول العالم الثالث ، ونهبت ثرواته وسخرت شعوبه لاستغلال تلك الثروات لمصلحة تلك القوى عبر ضم الاراضي واستعمارها ، تحت شعار « بعثات الحضارة » . أما الصهيونية ، وذلك على عكس الاستعمار الاوروبي ، « فقد اتجهت الى تأسيس قاعدة اجتماعية بالاضافة الى مصادرة وضم الاراضي القومية » .

ويعرض رودنسون ، مرتكزا على مصادر تاريخية ومصادر صهيونية عديدة اخرى ، ان اسرائيل قد تأسست نتيجة لقهر استعماري ، وبررت انشاءها ايديولوجية سمو الاعراق العرقية « التي تتحدد بوجهات النظر الشوفينية حيال شعوب العالم المتخلف التي تؤمن البرجوازية الاوروبية الوطنية بها » .

ويظهر رودنسون في دراسته « اسرائيل : دولة استعمارية — استيطانية » ان الخطط التي وضعت لانشاء دولة يهودية في فلسطين العربية لم تلق رواجا بين صفوف اليهود انفسهم ، الى ان وجدت الامبريالية البريطانية نفسها مقتنعة كي تكفل قيام تلك الدولة « كي تبرر تدخلها المستمر في منطقة الشرق الاوسط » . ويثبت رودنسون ان الخطة الصهيونية ، على الرغم من اهدافها التحررية والانسانية التي جاهرت بها ، ارتكزت على تعاون الوكالات الصهيونية الوثيق بالضغط على بريطانيا

للوقوف ضد استقلال الشعوب العربية ، تلك الوكالات التي طالبت باقامة المستعمرات اليهودية وادخال الاقتصاد والتكنولوجيا الحديثين اليها وحرمان العرب منهما بعد طردهم من اراضيهم .

ويقع رودنسون في مغالطة كبيرة عند ذكره « ان قلة نادرة من الافراد اليهود » ، التي كانت خاضعة « للايديولوجية الستالينية » خلال فترة الانتداب ، قد عارضت الصهيونية . اذ كيف يمكن ان يعارض ، من يكون خاضعا للايديولوجية الستالينية ، الصهيونية التي وفرت الاساسين الايديولوجي والمادي لقيام دولة اسرائيل ، في حين ان تلك الايديولوجية اعترفت باسرائيل فور الاعلان عن قيامها ، واعتبرت ذلك خطوة الى الامام في وسط عالم متخلف ؟ من الاصح القول ان معارضة اليهود الستالينيين للصهيونية قد ارتكزت على ما كان قد بقي في رؤوسهم من مفاهيم الاممية الماركسية ، وليس على « الايديولوجية » الستالينية التي افسحت المجال لهم لتأييد انشاء دولة اسرائيل وفقا لسياسة ستالين الخارجية .

ويعود رودنسون ، في فصل آخر من كتابه ، الى التأكيد على طبيعة دولة اسرائيل الاستعمارية — الاستيطانية ، وخاصة من خلال نتائج حرب حزيران (يونيو) في عام ١٩٦٧ فاذا كانت اسرائيل قد تأسست عام ١٩٤٨ وفقا لقانون « ارض من دون شعب الى شعب دون ارض » الذي قبله العالم منذ ذلك الحين ، على الرغم مما لحق بالشعب الفلسطيني من تشرد وقهر وحرمان ، فان توسعها واحتلالها لاراضي ثلاث دول عربية اخرى بعد حرب حزيران (يونيو) لم يجر وفقا لهذا القانون . فقد سبق تأسيس دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ تشكيل قاعدة اجتماعية يهودية مؤلفة من المهاجرين اليهود الذين وفدوا الى فلسطين من كل ارجاء العالم وحلوا محل شعبها الذي شرد . ان اسرائيل ، حتى تلك الاونة ، « لم تصنف — وفقا لقانون العلاقات الدولية والمفاهيم السياسية السائدة — دولة ذات طابع استعماري » . الا ان ما حدث « خلال وبعد حرب حزيران (يونيو) يؤكد تلك الطبيعة » . فعند قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ طرد الشعب من فوق الاراضي الفلسطينية ، الا ان الشعب الذي احتلت اراضيه (شعوب ثلاث دول : سوريا ومصر والاردن) التصق بأرضه هذه المرة .

ولم يمنع هذا اسرائيل من الوقوع في تناقض مع الشعار الذي قامت وفقا له وهو : « ارض من دون شعب الى شعب من دون ارض » . فالتواجد الاقتصادي والسياسي والعسكري الاسرائيلي يمارس يوميا على شعوب الدول التي احتلت أراضيها خلال حرب حزيران (يونيو) . فالاقتصاد الرأسمالي البرجوازي الاسرائيلي يجد في اليد العاملة الفلسطينية الرخيصة والمتوافرة بكثرة في الضفة الغربية وغزة فرصة نادرة لاستغلالها في عملية تراكم ارباحه . كما وان العلاقة السائدة بين شعوب المناطق المحتلة وبين السلطات الاسرائيلية علاقة استعمارية ، من النوع الذي يسود أية علاقة بين سلطة استعمارية وبين شعب مستعمر .

بعد هذا المدخل الشيق ، والبحث الذي يرتكز على المنهجية العلمية في الاستقصاء والتأكد من طبيعة اسرائيل الاستعمارية — الاستيطانية ، ما هو الحل الذي يقترحه رودنسون لازالة الصبغة الاستعمارية — الاستيطانية عن دولة اسرائيل ؟ وبعبارة اخرى ، ما هي الاقتراحات «الرودنسونية» لحل الازمة العربية — الاسرائيلية ؟ اقتراحات رودنسون ، في الواقع ، ما هي الا امتداد « للايديولوجية » الستالينية التي اعترفت بدولة اسرائيل ، والتي لا تزال تنظر اليها وفقا لمفهوم أكثر تطورا — والمقصود اغوارا — لتلك الايديولوجية بعد ان اصبحت نظرية قطب دولي . فماذا يقول رودنسون ؟

رودنسون لا يعتقد بوجود حل «ثوري» للمسألة، ويحذر اولئك الذين « يحرضون على الانتقام والقتل من أبراجهم العاجية » ، ويدعو الى تطبيق حل ابيض « غير دموي » ، ويحث الفلسطينيين على عدم اتباع الصراع المسلح ، على الرغم من ان ذلك يؤدي حتما الى قبولهم بمسألة « تشريدهم » . ويأمل رودنسون بأن يتمكن مرور الزمن « من حل المسألة » ويعيد الى العرب حقوقهم . وكي يؤكد على صحة هذه المقارنة ، فهو يأتي على ذكر تقسيم ايرلندا — الستر الذي وقع اثناء كتابة رودنسون لدراسته هذه (أي في عام ١٩٦٧) ، والذي اعتقد عدد من المراقبين السياسيين آنذاك انه قد يؤدي الى حل المسألة الايرلندية . الا ان نهر العنف المتدفق في ايرلندا في هذه الايام يؤكد بطلان صحة تلك الادعاءات .

ولكن يبدو انه غاب (!!) عن ذهن رودنسون الكثير من الوقائع التاريخية الحديثة والمعاشة . ان عشرين سنة الصمت التي أمضاها الفلسطينيون بصبر ومعاناة ، وقبل انخراطهم في صفوف الثورة الفلسطينية ، لم توقف جريمة ارهاق دمهم ولم تمنع عملية حرق اجسادهم بقنابل النابالم التي تقذفهم بها الالة العسكرية الصهيونية .

وغاب (!!) عن ذهنه ايضا ان الثوريين الذين يدعمون الثورة الفلسطينية لا « يحرضونها » على ركوب موجة العنف بالطبع ، لان العنف يصدر في الاساس من اولئك الذين يقاومون عملية التحرر الوطني والذين يعارضون اتجاهاتها . ان قيادة واعية لحركة الثورة الفلسطينية ستتمكن من بلورة العنف وتحويله الى مصدر صراع في صفوف الشعوب المضطهدة ضد السلطات الاستعمارية — الاستيطانية . وهي — أي هذه القيادة — ستدرك بالطبع كيف يمكن ان تعبىء الجماهير العربية والرأي العام العالمي ضد استعداد اسرائيل الدائم لركوب موجة العنف عبر استعمالهـا لقوتها النوويـة الضاربة ، وعبر ارتكازها الدائم على الولايات المتحدة ، قاعدة الامبريالية في العالم . بل اكثر من ذلك ، ان العنف الذي تمارسه السلطات الصهيونية ذاتها سيؤدي الى خلق حركة ثورية بين صفوف اليهود الاسرائيليين الذيـن يخضعون للرأسمالية البرجوازية لمقاومة الايديولوجية الصهيونية وتأسيس فلسطين الاشتراكية . ان حركة التحرر الوطني الفلسطينية توجه صراعها في التحليل الاخير ضد الاستغلال والقهر ، وضد الطبقات المستغلة ، الصهيونية والعربيـة على حد سـواء ، وضـد الامبريالية في آن واحد .

لقد أكد الشعب الفلسطيني ، على أية حال ، قدرته على أن يلعب دورا طليعيـا بين صفوف الشعوب العربية ، الا أنه يلزمه بعض الوقت كي يتوصل الى ارساء دعائم قيادة سياسية ثورية ملائمة تقود نضاله ، وهو بالتالي ليس عاجزا عن تحقيق مثل هذا الهدف . ان نزيف الجرح الفلسطيني لن يتوقف الا عبر قيام فلسطين اشتراكية ، كجزء من الشرق الاوسط الاشتراكي ، حيث يتوفر المكان لاي كيان يهودي اجتماعي تقدمـي في المنطقة ، يمارس كامل حقوقه الديمقراطية في اللغة والتراث والدين والعمل الخ .. ، ويعيش مع العرب في سلام دائم ، ويلعب دوره في تطوير وتقدم المنطقة من أجل مصلحة الشعوب التي تعيش فوقها .

صحيح ان رودنسون قـد حدد طبيعة دولـة اسرائيل الاستعمارية — الاستيطانية ، الا انه لم يقترح طبيعة الدولة البديلة بعد ازالة تلك الصبغة . هل اشتراكية ، ام لا ؟ واذا كانت كذلك ، هل يتم تحقيق هذا عبر ثورة بيضاء « لا دموية » ، ام ان النضال المرير والشاق ، الذي لا بد وان يكون العنف احدى وسائله ، هو الذي سيحدد مرتكزات حل مسألة قهر الشعب الفلسطينـي والشعوب العربية الاخرى ؟

مصطفى كركوتي

Y. Porath, **The Emergence of the Arab - Palestinian National Movement 1918 - 1929**
(Frank Cass, London, 1947).

الدكتور بوراث ، المحاضر في تاريخ البلـدان الاسلامية في الجامعة العبرية في القدس ، هو مؤلف دراسة سابقة حول « طانيوس شاهين » وثورة الفلاحين في لبنان في القرن التاسع عشر (وقد صدرت الدراسة بالانكليزية في مجلة « الدراسات الاسيوية والافريقية ») ودراستين عـن الحركة الشيوعية في فلسطين (احداهما بالعبرية ، في هامزراح هاهاداش ، والاخرى بالانكليزية في مجلة « الدراسات الاسيوية والافريقية ») . والكتاب الحالي هذا هو ترجمة لاطروحة دكتوراه قدمت للجامعة العبرية في القدس وصدرت بالعبرية عام ١٩٧١ .

عنوان الكتاب مديح وطموح ، وحشد المراجع مؤثر للغاية ، بالنظر الى حرية الوصول الـى ارشيفات الهاغانا ، وأرشيفات الدولة الاسرائيلية ، والارشيفات الصهيونية المركزية ، بالاضافة الى

مكتب السجلات العامة في لندن، والمؤلفات المنشورة المختلفة بالعبرية والعربية والانكليزية والفرنسية . ولكن بعدما يشق القارىء طريقه عبر ٣٠٠ صفحة طويلة من متن الكتاب وما ينوف على الف حاشية ، فانه يدرك ان ما بحث فيه المؤلف هو ليس « بروز الحركة الوطنية الفلسطينية » بل مجرد وجه صغير ورسمي من اوجه تلك العملية . وهذا الوجه هو اتصالات اللجان التنفيذية العربية وزعمائها وعلاقاتهم برسميي الحكومة البريطانية ، ارتكازا الى استخدام ضيق جدا للمواد الارشيفية، وبصورة رئيسية وثائق الحكومة البريطانية التي هي بحوزة ارشيفات الدولة الاسرائيلية ، وتقارير المخابرات الصهيونية ــ ويعالج المؤلف كلا المصدرين بثقة زائدة وبالغاء تام للشك النقدي .

تقول ملاحظة الناشر على الغلاف الورقي للكتاب ان الكتاب « يرسم بالتفصيل تطور القومية الفلسطينية خلال العقد من الزمن الذي أعقب نهاية الحرب ... القدس ومكان فلسطين في التاريخ الاسلامي ، ويتفحص التأثيرين اللذين شكلا بروز القومية الفلسطينية ، والصهيونية ، والقومية العربية » ... رابطا هذه بـ « انبعاث القومية الفلسطينية في اعقاب حرب ١٩٦٧ » . وفرضية المؤلف هي ان الوعي القومي الفلسطيني ليس ظاهرة جديدة بل تعود اصوله الى الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى .

مقدمة الكتاب مكرسة لتفحص سريع لفلسطين تحت حكم الاتراك في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ويقدم المؤلف لنا لمحة عن البنية الاجتماعية مع كون الوجهاء والاعيان منغرسين بثبات واخلاص في خدمة البيروقراطية التركية . وتبرز ثلاثة معالم واضحة في روايته : اولا ، وجود كيان فلسطيني منفصل ، يتميز عن سورية والتحديدات السائدة لتلك المنطقة بكونه سوريا الجنوبية ليس الا . ثانيا ، الدور الصغير الذي لعبه عرب فلسطين في الحركة الشريفية والولاء المستمر للاتراك حتى الفتح البريطاني . ثالثا ، مقاومة الصهيونية التي يثبت الكتاب ، خلافا للاسطورة الصهيونية ، انها كانت موجودة بقوة ، قبل وعد بلفور والتدفق اليهودي الكبير الى فلسطين في العشرينات .

الفصول الثمانية التي يتألف منها هذا الكتاب معروضة بطريقة اتفاقية نوعا ما ، وتفتقر الى أية استمرارية تاريخية واضحة . فالفصل الاخير يبحث في الاوجه التنظيمية للحركة ، وفي اقامة اللجان الاسلامية المسيحية ، تكوينها وطرق نشاطها السياسي . ويأتي على ذكر البنية الاجتماعية لفلسطين والصفة غير التمثيلية للمؤتمرات الفلسطينية واللجان التنفيذية المختلفة التي كانت تعكس سيطرة وجهاء المدن والزعماء الدينيين وملاكي الاراضي الاثرياء . هذا الفصل كان من الافضل وضعه في بداية الكتاب بدلا من النهاية . وعوضا عن ذلك يطلقنا المؤلف ، في الفصل الاول ، في سيناريو معارضة عربية للصهيونية مع بداية الاحتلال البريطاني ومختلف تحركات « النادي العربي » واللجان الاسلامية المسيحية ، دون اي تفحص لتكوينها الاجتماعي وبنيتها وأساسها الاجتماعي . ويتفحص الفصل الثاني بروز توكيد ، بعد هزيمة الحكومة العربية في دمشق ، على شعار « فلسطين للفلسطينيين » بدلا من سعي مستمر الى الوحدة العربية ، وينكر صحة مفهوم سوريا الجنوبية بقدر ما يتعلق الامر بالزعماء الفلسطينيين العاملين . ولا تأتي رواية بوراث عن الفترة ما بين عام ١٩١٨ وعام ١٩٢٩ على ذكر دور عوني عبدالهادي وحزب « الاستقلال » اطلاقا . والفصل الثالث يواصل قصة الجهود العربية للتوصل الى تفاهم مع الانتداب عن طريق احداث تغيير في شروطه فيما يتعلق بالوطن القومي ، ويعرض المؤلف علينا رواية مفصلة بدقة لمباحثات الوفود العربية الاربعة وقصة المجلس التشريعي . ويحطم الفصلان الرابع والخامس استمرارية الرواية ، فالاول يبحث في تعيين الحاج امين مفتيا وفي اقدام البريطانيين على تأسيس « المجلس الاسلامي الاعلى » ، في حين يركز الثاني على معارضة آل النشاشيبي ، مقوماتها وصفتها العائلية والشخصية الملازمة لها . ويتخذ المؤلف موقفا يتكافأ فيه الضدان ، ففي حين يظهر بوضوح وجه « التعاون مع العدو » البريطاني والصهيوني لهذه المعارضة ، ويشير الى انعدام اتجاهها « الوطني » ، فان ثمة تعاطفا ضمنيا مع معارضتها للزعامة الوطنية العربية وللحسينيين ، وهذه صفة مميزة للكتابات الصهيونية حول الموضوع . ومع ان الفترة ما بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٩ تمتد ستة اعوام ، فان المؤلف يوجزها في ١٧ صفحة فقط . وتوصف الفترة

بأنها فترة غياب النشاط السياسي الجدي ، ويعود ذلكبصورة رئيسية الى التكتيكات المعوقة للمعارضة ، وتنتهي عام ١٩٢٨ في « المؤتمر السابع » ، الذي هو اتفاق حل وسط بين الجانبين ، ويفضي الى انتعاش النشاط السياسي ، مع انه لا يرتكز على دعوة الى الاستقلال ، بل الى المجلس التشريعي الذي كان قد رفض سابقا ، الامر الذي يعني قبولا بالانتداب . ويبحث الفصل السابع في ما يسميه المؤلف « حادث البراق » الذي ، كما يشير عنوانه ، تحصر معالجته ضمن هذه الخطوط الضيقة مستثنيا اي تفحص للقضايا الاوسع التي انطوى عليها الحادث وكانت اساس ثورة عام ١٩٢٩ .

ويبحث بوراث مطولا في مشكلة المجلس التشريعي المقترح ، لكن تقييمه متناقض . فهو يشدد أولا على ان عددا كبيرا من رسميي الحكومة البريطانية في فلسطين كانوا يعارضون « الاختبار » الصهيوني ويؤثرون انتهاج خط استرضائي أكثر نحو العرب ، لا لانهم كانوا موالين للعرب ، بل لاعتقادهم بأن هذا سيخدم المصالح الامبريالية البريطانية ويبقي فلسطين هادئة . الا انه يمضي ، بعد ذلك ، ليقول ان الرسميين البريطانيين في لندن كانوا موالين للصهيونية وانه لم تكن ثمة فرصة للتصديق على التشريعات المناهضة للصهيونية . ونجح العرب في مقاطعة المجلس التشريعي.ويقول لنا بوراث ان هذه كانت هي السياسة الصحيحة التي ينبغي اتباعها لان المجلس التشريعي كان سيكون عاجزا . وفي مكان لاحق من الكتاب يعكس بوراث موقفه ويقول ان العرب أضاعوا هذه الفرصة لاقامة شكل ما من اشكال الحكم التمثيلي . وهو يوجه الانتقاد الصحيح بأنه كانت هناك ازدواجية في موقف العرب، اذ في حين انهم قاطعوا الجهاز الاعلى للحكم ، فقد كانوا مستعدين للخدمة والتعاون على المستويات الادنى (فالمفتي نفسه بوصفه رئيسا « للمجلس الاسلامي الاعلى » كان موظفا ذا راتب من موظفي الحكومة) .

وتتصل احدى النقاط الصحيحة الاخرى بموقف القيادة العربية من اعمال العنف . فان بوراث يقول ان العرب ، حتى عام ١٩٣٦ ، لم يقوموا بأية محاولة لايقاف الصهيونية بالقوة ، وان القيادة كانت معارضة لاعمال العنف من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٢٩ . وكان ما ارادته القيادة العربية هو التوصل الى تفاهم مع الانتداب بشرط ان يغير موقفه من الوطن القومي . وكان لعرب فلسطين ، كما يقول بوراث بصواب ، فرصة لتحقيق هذا التغيير بواسطة العنف في العشرينات ، عندما كانت جذور الصهاينة في البلاد ضعيفة ، وهي فرصة افضل بكثير مما كانت لهم عندما حاولوا ذلك فعلا في أواسط الثلاثينات . وهو يعطي كمثل ثورة عام ١٩٢٩ وكتاب باسفيلد الابيض الذي نجم عنها . ثم ينتقل ليقول ان الفلسطينيين لم يعارضوا الانتداب بل وعد بلفور فقط . وكدليل على هذا يذكر المؤتمر السابع عام ١٩٢٨ ، حيث اطلقت دعوة الى مجلس تشريعي (كان قد رفض لبضعة اعوام خلت) في حين لم يؤت على ذكر الاستقلال ولا وعد بلفور . وبالطبع ، ثمة شيء من الحقيقة فيهذه الملاحظة . فالمؤتمرات الفلسطينية الاولى كانت قد دعت الى الاستقلال والى الوحدة مع سوريا ، ولكن بعد هزيمة الحكومة العربية في دمشق واعتلاء فيصل العرش في العراق ، راحت القيادة التقليدية للهيئة التنفيذية العربية تعمل من اجل حل مماثل لفلسطين مرتبطة ببريطانيا العظمى . وكان نمو معارضة آل النشاشيبي ، التي كانت مستعدة تمام الاستعداد للتوصل الى تفاهم مع الامبريالية البريطانية ، قد أحدث تحركا حادا الى اليمين في القيادة الفلسطينية ، ادى الى غياب اية مطالبات بالاستقلال في المؤتمر السابع (وهو احد اكثر المؤتمرات رجعية فيما يتعلق بالمعارضة ، ويقدم بوراث تحليلا للتسويات التي جرى ترتيبها بين الهيئة التنفيذية والمعارضة والتي ادت الى هذا المؤتمر) .

ربما كان الوجه الاكثر امتاعا من اوجه الكتاب هو انه يزودنا ببعض المعلومات عن المحاولات الصهيونية لشراء مختلف الوجهاء العرب ، ولاثارة الخلافات ومنع اقامة جبهة متحدة في المعسكر العربي . ويخبرنا الكتاب عن نجاح كالفاريسكي في اقامة الجمعيات « الوطنية الاسلامية » ، التي وجدت واستمرت بمعونة مالية من الصهاينة وانتهت عندما انقطعت هذه المعونة . كما يخبرنا عن المحاولات الناجحة في منع التعاون بين المعارضة والهيئة التنفيذية حول عقد المؤتمر السابع . ويؤتى أيضا على ذكر الدعم الصهيوني لراغب النشاشيبي

في انتخابات رئاسة البلدية ويعود الفضل في نجاحه للاصوات اليهودية . ويلاحظ بورات ان بعض الوجهاء العرب كان لهم مواقف مزدوجة من الحركة الصهيونية ، فقد كانوا مستعدين لبيع اراضيهم وقبول القروض والرشاوى في حين انهم ، من الناحية الاخرى ، طلبوا من الحكومة ان تفرض حظرا على بيع الاراضي وكانوا يعارضون الهجرة اليهودية . ويعتمد بورات اعتمادا استثنائيا على الادلة الصهيونية وأحيانا يوجه اتهامات بعيدة الاثر (مثل رشوة موسى كاظم الحسيني) ، من الصعب القبول بها دون ادلة مؤيدة بالشواهد .

ومعالجة الكاتب الموجزة لانتفاضة عام ١٩٢٩ غير مرضية نوعا ما . فان بورات يتجاهل تجاهلا تاما الاهمية الاسلامية الخاصة للبراق والاستفزازات الصهيونية التي كانت السبب المباشر للثورة (تظاهرات جماعة « بيطار » الصهيونية) . كما انه لا يضع الثورة في نطاقها الاوسع ، وهو زيادة الهجرة الصهيونية وتجريد الفلاحين من اراضيهم وطردهم منها (حتى انه لا يأتي على ذكر حوادث شهيرة مثل وادي الحوارث) . ومع هذا فهو يعتبر ، بحق ، انها اسهمت في صعود المفتي وتجسمت — بقدر ما يتعلق الامر بجماهير الفلاحين — في تهديد الحرم الشريف ، والتهديد الصهيوني كله لعرب فلسطين .

ان ما يفتقر اليه الكتاب عامة هو اطار نظري وتفحص للايديولوجيا الوطنية التي تقدمت بها القيادة السياسية التقليدية في محاولاتها للتعاون مع الامبريالية البريطانية في وجه الخطر الصهيوني الذي يهدد البلاد . والشيء المفقود هو دراسة للخلفية الاجتماعية والاقتصادية لنشوء هذه الايديولوجية والطبقة التي عبرت عنها ، ولتأثير الهجرة الصهيونية على البنية الطبقية المتغيرة للمجتمع الفلسطيني ، ولتجريد الفلاحين من اراضيهم ، ولتأثير الشعارات الصهيونية المتصلة بغزو الارض وكسب العمال ، وللتنافس الذي قدمته الصناعة اليهودية للطبقة البورجوازية الفلسطينية الفتية التي شوه نموها كله تدفق رؤوس الاموال اليهودية . ان غياب اي تفحص كهذا للبنية الاقتصادية والزراعية في الاعوام العشرة الاولى من الانتداب ، ولنمو قيادة بديلة في الجناح اليساري من حزب الاستقلال المتمثل بحمدي الحسيني وجماعته التي كانت تعارض كلا من القيادة التقليدية للحركة الوطنية وآل النشاشيبي ، والتي سعت الى التعاون مع الحزب الشيوعي الفلسطيني الفتي ، لا يسمح لنا بالتوصل الى اي استنتاج حول الاعوام العشرة الاولى من الصراع السياسي الذي خاضه الفلسطينيون تحت الانتداب ارتكازا الى هذا الكتاب .

لا بد من كلمة اخيرة حول الموقف السياسي للمؤلف نفسه ، اذ انه في الصفحات القليلة الاخيرة يكرر الاسطورة الصهيونية (والاستعمارية) التقليدية بأن الصهيونية حملت عددا من المنافع لعدد من قطاعات السكان العرب ، تشمل ملاكي الاراضي والوجهاء ، والطبقات الدنيا . والمواد المقدمة في كتابه هذا لا تقيم الدليل على هذه الاسطورة بحال من الاحوال ، فضلا عن انها تفسد عملا جديا يستند الى ابحاث مستفيضة ، يدحض الكثير من الاساطير الصهيونية (فان بحثه لمحاولات العرب التمييز بين الصهيونيين والجالية اليهودية التي كانت تقيم في فلسطين في أوائل العشرينات هو بحث ممتع ، ويستنتج ان اللاسامية كانت غريبة عن الحركة الوطنية الفلسطينية ، علما بأنها لم تمتنع عن التأثر بها بين أمور أخرى استوردتها من الغرب ، ويأتي على ذكر أمثلة عن التعاون بين الحركة العربية واليهود المناهضين للصهيونية : ففي عام١٩١٩ كان هناك وفد يهودي في المؤتمر السوري العام ، وفي عام ١٩٢٠ وقعت جماعة من اليهود السيفارديين في فلسطين على عريضة مناهضة للصهيونية نظمها العرب ، وفي عام ١٩٢٣ دعت جماعة من اليهود السيفارديين الى اجتماع في كنيس وهاجمت الصهيونية وحكم الاشكينازيين).

بعد حرب ١٩٧٣ بشهرين ، ألقى بورات محاضرة حول « الدولة الفلسطينية » على «رابطة المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة وكندا » ، رفض فيها رفضا تاما حقوق الفلسطينيين في تقرير المصير الوطني ، حتى في الضفة الغربية ، على اساس ان حسين هو جار افضل لاسرائيل ، ورفض البحث في الظلم الذي سببه تأسيس دولة اسرائيل بقوله ما معناه : « علي ان اهتم بنفسي اولا » . وهكذا، فمع ان بورات لا يطرح سؤال غولدا مئير « من هم الفلسطينيون ؟ » ، بل على العكس يدعم بالوثائق وجود حركتهم الوطنية، ومعارضتهم للصهيونية حتى

قبل الحرب العالمية الاولى ، ومطالباتهم بتقرير المصير الوطني ، فان اسهامه في دعم المخابرات الاسرائيلية مما يتعلق بالعرب بوجه عام وبالفلسطينيين بنوع خاص ، يقوده الى التغاضي عن نتائج البحث الذي قام هو به الذي يؤكد الوجود الفلسطيني والحقوق الفلسطينية .

موسى خليل

ناجي علوش . **حرب الشعب .. وحرب الشعب العربية**
(دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤)

بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ وفشل برنامج الانظمة العربية على صعيد الحرب الوطنية ضد الامبريالية والصهيونية ، طرحت على امتداد الساحة العربية برامج وطنية اكثر جذرية على الصعيد الطبقي والسياسي لمواجهة الهجمة الامبريالية والصهيونية والرجعية التي تتوجت بهزيمة حزيران . واكثر البرامج ثورية كان ما طرحته المقاومة الفلسطينية على صعيد الساحة الفلسطينية ــ العربية ، اذ شكل هذا البرنامج محورا سياسيا لاستقطاب الجماهير العربية وذلك بدفع الصراع العربي ــ الاسرائيلي خطوة جديدة الى الامام انطلاقا من الالتزام بالكفاح المسلح كمقدمة لخوض غمار حرب الشعب طويلة الامد ضد العدو القومي والوطني والطبقي .

وكان طرح هذه المقولات « الجديدة » مقتصرا على الصعيد النظري رغم الخطوات الملموسة التي خطتها الجماهير العربية في مجال الكفاح الشعبي المسلح . ونتيجة هذا الوضع نشأت تيارات عفوية تقدس النزعة التجريبية وترفض النظرية مما افسح المجال الواسع للوقوع بسرعة في اخطاء سياسية وقتالية تعتبر للوهلة الاولى بديهية . وبالمقابل نشأت اوهام نظرية عديدة تقدس النزعة « العقلانية » كنقيض للنزعة التجريبية . الا ان نضال المقاومة الفلسطينية وتراكم تلك النضالات على مدى سنوات بدأ يعطي ثماره النظرية ويساهم الى هذا الحد او ذاك في صياغة نظرية عمل ثورية تتناسب مع خصوصية الصراع العربي ــ الاسرائيلي وتنسجم مع الاتجاه العام لنضال الجماهير العربية ضد الامبريالية والرجعية .

وتأتي محاولة الاستاذ ناجي علوش الاولية ضمن هذا السياق رغم عدم موافقتنا على الخط الاستراتيجي العام فيما يتعلق بفصل « حرب الشعب العربية » الذي سنأتي على ذكره في نهاية عرض مضمون الكتاب .

لماذا حرب الشعب ؟ يعطي ناجي علوش ، في البداية ، صورة عامة عن هدف الكتاب فيقول : « ان شعبنا مطالب ان يعرف ماذا تعني حرب الشعب في هذه الايام ، لاسباب عديدة منها ان شعبنا مطالب بأن يخوض حرب شعب اولا ، ولانه مطالب بأن يخوض هذه الحرب ، فان عليه ان يعرف ماذا تعني . ثم لان هناك محاولات كثيرة لتشويه مفهوم حرب الشعب ، اما قصدا وعن سوء نية ، او عن حسن نية ثانيا. وهناك ــ ثالثا ــ محاولات لنقل التجارب الاخرى نقلا حرفيا ، مما يقود الى تشويه قضية حرب الشعب كلها . وهنالك رابعا محاولة خلق تناقض حاد ومفتعل ما بين حرب الشعب والحرب النظامية . احيانا بافتراض ان الحرب النظامية تلغي حرب الشعب ، وفي أحيان اخرى بافتراض ان حرب الشعب تلغي الحرب النظامية » . (ص ٦) .

ينطلق ناجي علوش من هذا المدخل ليبدأ في تحديد معنى حرب الشعب فيقول : « ان حرب الشعب تعني أول ما تعني ان جماهير الشعب المضطهدة طبقيا او التي يضطهدها عدو خارجي ، او التي يضطهدها عدوان داخلي وخارجي ، كما يحدث الان في فيتنام، تقوم بحرب واسعة النطاق». (ص ٨) .

وحرب الشعب ليست أسلوبا تكتيكيا لمواجهة العدو القومي والطبقي فقط بل أضحت ضرورة عسكرية وسياسية لانزال الهزيمة بالاعداء . ويشرح علوش هذه النقطة فيقول : « حرب الشعب ضرورية في هذا الوقت من القرن العشرين ، بسبب تطور قوى الامبريالية ، وتطور الاسلحة عموما وأسلحة

الدمار الشامل خصوصا ، وبسبب قدرة الامبرياليين على التدخل في كل مكان وفي أسرع ما يمكن » . (ص ١٠) .

ويطرح ناجي علوش دوافع قيام الشعب في حربه الشعبية ضد العدو وهي عديدة، منها « عندما يكون هنالك شعب مضطهد ليس له جيش نظامي » او « عندما يهزم جيش وطني امام قوى خارجية او أمام مؤامرة داخلية » او « عندما تكون هنالك حكومة ثورية » او « عندما يكون هنالك بلد متخلف يواجه دولة أمبريالية متقدمة » وايضا « عندمـــا تواجه القوى الثورية ، في بلد ما ، تحالف الطبقات الحاكمة » ... لكل هذه الاسباب تقوم الجماهير الشعبية في حربها الثورية ضد الاعداء الامبرياليين والرجعيين .

حرب الشعب والحرب النظامية : لعل موضوع علاقة وتناقض حرب الشعب والحرب النظامية هو من أكثر الموضوعات التي دار حولها النقاش في صفوف المقاومة الفلسطينية والجماهير العربيــة وخاصة بعد هزيمة الانظمة العربية في حربهـــا النظامية الثالثة مع العدو الصهيوني والامبريالي . ووصلت حدة التناقض بين أطراف حركة التحــرر الوطنية العربية الى درجة ان البعض سفه حرب الشعب واعتبر ان معركتنا مع العدو لا يمكن ان تتم وتستمر الا بأسلوب الحرب النظامية والبعض الاخر استبعد امكانية استغلال الحرب النظامية ضد العدو وشدد على ضرورة عزل حرب الشعب عن أي شكل من اشكال الحرب النظامية .

لذلك حاول ناجي علوش في كتابه ان يوجــز الاختلاف والتشابه بين حــرب الشعب والحــرب النظامية وان يحدد العلاقة والتناقض بين النمطين والاسلوبين في مقاتلة العدو . هذا دون ان ينسى الفرق الشاسع بين خصوصية كل مــن الجيشين في مجالات التكوين والتشكيل والنظام والعلاقات الداخلية والتسليح والتكتيك والتربية السياسية والطابع العسكري للحــرب النظامية والطابــع السياسي للحرب الشعبية ، خالصا الى القول ، استنادا الى مقولة ماو تسي تونغ ، ان هنالك ثلاثة اشكال للتعاون بين جيش الشعب والجيش النظامي « الاول : هو التعاون الاستراتيجي ، الثاني : هو التعاون في الحملات ، والثالث : هو التعاون في المعارك » (ص ١٩) .

الا ان هناك عدة شروط لامكانية التعاون بين جيش الشعب والجيش النظامي ، اول هذه الشروط الطبيعة الطبقية للجيش النظامي ، ثانيها البرنامج السياسي للقيادات النظامية وموقفها من العدو ، ثالثها علاقة الجيش النظامي بجماهير الشعب ومدى استعداده لخوض المعارك والدفاع عــن مصالح البلاد .

انطلاقا من هذه الشروط نستطيع ان نحدد على ضوء ذلك لمن الدور الاساسي في الحرب ؟ وفي أي مرحلة يلعب هذا الجيش الدور الاساسي وذاك الدور الثانوي . ويقول ناجي علوش حول هذه النقطة : « عندما لا يكون الجيش جيش الجماهير ، وعندما لا تكون قيادات الجيش ملتزمة بقضيــة الجماهير ، فلا تستطيع العصابات ان تلعب دورا ثانويا ، ولا يجوز ان تقبل بالدور الثانوي . ان عليها ان تلعب الدور الاساسي لتخلق الجيش شبه النظامي الذي يستطيع ان يحقق اهداف الجماهير . ولكن عندما لا يوجد مثل هذا الجيش ، فان حرب العصابات تلعب الدور الاساسي » . (ص ٢٠ — ٢١) .

خصائص وأشكال حرب الشعب : ان لحرب الشعب خصائصهـــا وأشكالها التي تميزها عــن خصائص وأشكال الحرب النظامية . وأولى سمات حرب الشعب انها تعتمد بالدرجــة الاولى على الانسان قبل التكنولوجيا وتهتم قبل كل شيء بالوعي الثوري وضرورة ايجاد التنظيم الثوري ، وثاني سمات حرب الشعب انها تمتاز بنضال طويل الامد على عكس الحرب النظامية التي تعتمد على القتال الخاطف والصاعق . وثالث سماتها انهـــا حرب شاملة تطال كل مجالات وحياة الوطن السياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية . ورابع سماتها انها تتطلب برنامجا سياسيا وعسكريا سليمـــا . وخامس سماتها انها عبر النضال والممارسة تكتشف وتحدد نظرية عمل ثورية تلائم ظروف البلاد والمرحلة التي تمر بها وتتكون عبر النضال نفسه قيادة ثورية ملتزمة ببرنامـــج الشعب الوطني والتحــرري . وسادس سماتها انها تعتبر حربا سياسية قبل ان تكون عسكرية كما هو حاصل بالجيوش النظامية التقليدية .

ومن خصائص حرب الشعب كما يقول علوش ايضا : « ان قوات حرب الشعب (عصابات ،

شبه نظامية أو نظامية) قوات مؤمنة ايمانا صادقا وعظيما بقضيتها » (ص ٤٨) كما « ان قوات حرب الشعب منضبطة طوعا . لقد اختارت ان تنضبط بوعيها ، ولذلك فأساس انضباطها طوعي وليس قسريا » . (ص ٤٩ — ٥٠) .

هذه هي خصائص حرب الشعب اما اشكالها فهي متنوعة تتحدد على اساس الظروف والعوامل للبلد المعين انطلاقا من القوانين العامة لهذه الحرب السياسية طويلة الامد . اذ ان اشكال القتال في حرب الشعب تتحدد على اساس البيئة (المجتمع البشري) والتضاريس (طبيعة الارض) والمرحلة التي تعيشها الثورة (نوع تنظيمها وأسلحتها) والعدو (طبيعته ، قوته ، اسلحته) .

ويوافق ناجي علوش « حرص الجنرال جياب على التأكيد بتنوع أشكال القتال في حرب الشعب الا انه يؤكد دائما ان جوهر الحرب الشعبية يقوم على اساس تضافر القوى السياسية والقوى المسلحة واقتـران الكفـاح المسلح بالكفـاح السيـاسي والانتفاضات الجماهيرية بالحرب الثورية ، وحرب الغوار بالحرب النظامية » . (ص ٥٧) .

وتتصف حرب الشعب بأنهـا حرب ديناميكية ومتحركة . « وهذه الحرب الديناميكية تحتاج الى اليقظة دائما ، والى الحركة دائما ، والى الروح الهجومية دائما ، لانها اذا فقدت حس اليقظة ، واذا فقدت القدرة على الحركة ، وتحولت من الروح الهجومية الى الروح الدفاعية ، أخذت بالتقلص والانحدار » . (ص ٥٩) .

وتتصف حرب الشعب ايضا بأنها حرب دفاعية وهجومية . « ويجب أن نفرق دائما بين الدفـاع والهجوم في القتال والروح الهجومية في الثورة . ان الروح الهجومية هي روح الثورة ، ولكن الهجوم والدفاع شكلا قتال ، واذا كان الهجوم في الثورة هو الاساس ، فان الدفاع شكل آخر » . (ص٦٠).

وتمر حرب الشعب في مراحل متعددة من عمرها الطويل كما حصل في الصين وفيتنام . اذ اجتازت الثورة ثلاث مراحل مهمة حققت الانتصارات للشعب والهزائم للعدو الامبريالي والرجعي . وهذه المراحل الثلاث هي : أولا ، مرحلة الدفاع الاستراتيجي . ثانيا ، مرحلة توازن القوى (بين الثورة والعدو). ثالثا ، مرحلة الهجوم المضاد الاستراتيجي العام .

وكل مرحلة من هذه المراحل لهـا مهمات خاصة هجومية ودفاعية تكتيكية ... ولقد استطاعت كل من الثورتين الصينية والفيتنامية اجتياز كل مرحلة على حدة ثم الانتقال الى المرحلة التالية ، وفي بعض الحالات اضطرت « للتراجع » عن مرحلـة والعودة الى مرحلة سابقة او « للمراوحة » في نفس المكان وتأجيل عمليـة الانتقال الى مرحلـة لاحقة ... ويضيف ناجي علوش : « ولكن الثورات لا تمر بهذه الحالات حتما ، ولا تمـر بها دون تعرجات وذبذبات . فقد تصل ثورة من الثورات مرحلة ثم تتراجع لسبب او لآخر » . (ص ٦٤) .

حرب الشعب العربية : يربط ناجي علوش بين قضية فلسطين وحرب الشعب ويرفض «كل الدعاوى التي تؤكد ان فلسطين بلد صغير ، وليس فيهـا جبال وغابات ... الخ هي دعـاو واهمة او مضللة ، هدفها استبعاد حرب الشعب والتقليل من أهميتها » (ص ٦٥) . ثم يعود ليؤكد الارتباط المصيري بين تحرير فلسطين وتحرير الامة العربية من هيمنة الامبريالية . فينطلق من فشل شعار فلسطينية الثورة العربية ليقول بأن قضية فلسطين قضية عربية لان فلسطين جزء من الامة العربية ثم يؤكد من جديد على أهمية دور الجماهير العربية في قضية تحرير فلسطين ... ولكل هذه الاسباب يعتبر علوش ان حرب الشعب هي حرب عربية على امتداد الوطن العربي .

ويشدد ناجي علوش بعد ذلك على شراسة حرب الشعب العربية وضراوتهـا . فيعدد الاسبـاب والعوامل :

أولا ، « ان الاحتـلال الصهيوني في فلسطين استعمار استيطاني ومواجهة الاستعمار الاستيطاني ليست كمواجهة الاحتلال العسكري »· (ص ٦٧). ثانيا ، « ان الدوائر الصهيونية العالمية التي ساهمت مساهمة كبرى وفعالة في انشاء دولـة الاحتلال الصهيوني ، قوة عالمية كبيرة ، لها وزنها في السياسة الدولية والاقتصـاد الدولي ، وفي شؤون الحرب والسلام » . (ص ٦٨) . ثالثا ، « ان الامبريالية العالمية تعرف حق المعرفة ان قيام قوة في المنطقة العربية قادرة على مواجهة دولة الاحتلال الصهيوني ، سيعنـي سقوط الوجـود الامبريالي في المنطقة » . (ص ٦٨) .

رابعا ، « ان تطور اسلحة الحرب التقليدية (غير النووية) ، والامكانات الكبيرة التي تملكها الصهيونية والامبريالية في هذا المجال ، ستزيد من شراسة الحرب ، ومـن امكاناتها التدميرية » . (ص ٦٩) .

ويخلص ناجي علوش الى القول ان اية حرب شعبية عربية ستكون نتائجها ايجابية رغم شراستها وذلك بسبب رقعة الوطن العربي الواسعة وتنوع تضاريسها اولا وامكانات الوطن العربي الزراعية والمعدنية الكبيرة ثانيا وعدد سكان الوطن العربي والخزان البشري الضخم ثالثا وامتلاك الـدول العربية قوات عسكريـة واسلحة حديثة رابعـا واخيرا .

ثم يتكلم بعد ذلك عن دور الثورة الفلسطينية في دفع الحرب الشعبية العربية الى امام أي عن الشروط الفلسطينية للثورة العربية ويربط هـذه الشروط الخاصة بالشروط العامـة اي الشروط العربية للثورة الفلسطينية . وكيف ان مواجهة العدو للثورة الفلسطينية تحمل في طياتها امكانات الامتداد الى كامل رقعة الوطن العربي وبالتالي امتداد حرب الشعب العربية لتشمل كافة جماهير الامة العربية .

ملاحظات سريعة : هذا باختصار أهم ما ورد في الكتاب . ولا شك بأن الفصل الاخير (حرب الشعب العربية) يعتبر الاهم لانه يعالج مشاكل راهنة ويلقي بعض الاضواء على تفكير ناجي علوش ولو بشكل غير كاف . وقبل وضع ملاحظاتنا السريعة على الخطوط العامة للموقف الاستراتيجي الذي يطرحه علوش لا بد من التأكيد على ان الخلاف ليس على جوهر الموضوع المطروق (حرب الشعب او حرب الشعب العربية) بل على كيفية فهم شروط الثورة العربية الاشتراكية وخصائص حركة التحرر الوطني العربية في المرحلة الراهنة وتكتيك النضال من اجل تحقيق هذه الاهداف الاستراتيجية وبالتالي تحديد نظرية العمل الثورية التي تتطابق مع واقعنا العربي المجزأ .

يتميز اسلوب ناجي علوش في عرض موضوعات الثورة العربية بنزعتين :

الاولى ، ذاتية ، اذ يقوم بعملية اسقاط ما يدور في ذهنه على الواقع لا العكس . فيرى الواقع كما يتصوره هو لا كما هو في الحقيقة . فهو مثلا عندما يتكلم عن (حرب الشعب العربية) لا يأخذ بعين الاعتبار الواقع العربي المجزأ الى مجموعة اقطار وتأثيرات « القطرية » على تكتيك الثورة العربية. وعندما يتكلم عـن نتائج حرب الشعب العربيـة الايجابية يستند الـى الرقعة الجغرافية وعـدد السكان والامكانات الزراعيـة والطبيعية وامتلاك الدول العربية للاسلحة وينسى ان يتكلم عن الدور الاهم في الموضوع (نمط الانتاج السائد في الوطن العربي) ودور الطبقات الاجتماعية انطلاقا من الظروف العربية الراهنـة في مواجهة الامبريالية والصهيونية واخيرا التمايـز الاجتماعي وبالتالـي السياسي بين قطر عربي وآخر .

ان اهمال هذا الموضوع (القطرية والتجزئة) مؤداه الفعلي اضفاء طابع ذاتي على أي تحليل نتقدم به مهما حاولنا ان نلبسه للواقع . فالقطرية والتجزئة السياسية حقيقة قائمة ساهمت الرجعية والاستعمار والامبريالية في تحقيقها لخدمة مصالحها، والجماهير العربية ترفض هذا الواقع المفروض على الوطن العربي وتناضل من اجل كسر هذه الحواجز، الا ان مرور عشرات السنين على مثل هذه التجزئة خلق نوعا من التمايز الاجتماعي واختلافا في أنماط الانتاج السائد في كل قطر وتفـاوتا في مستوى التطور بين قطر وآخر . كل هذه الظروف المستجدة تتطلب بالدرجة الاولى فهما ديالكتيكيا لهذا الوضع دون السقوط في تحليلات قطرية معزولة عن مجمل الوطن العربي وأيضا دون السقوط في افكار عامة جدا تنبسط على كامل الوطن العربي ولا تحـدد خصوصية وضع كل قطر عربي وتأثيره على بعض او جميع الاقطار .

الثانية ، ميكانيكية . حاول ناجي علوش ان يثبت فشل شعار « فلسطنة » الثورة العربية الا أنه وقع في فخ تأكيد هذا الشعار عندما رأى الثورة العربية من منظار فلسطينـي أحادي الجانب . وبالتالي عزل التأثير المتبادل ما بـين نضالات الجماهير العربية في مواجهة الامبريالية على صعيد الوطن العربي وبين نضالات الجماهير الفلسطينية والعربية في مواجهة الصهيونية . وذلك بسبب نسيان الاوضاع الكيانية والتجزئـة الاستعماريـة وخصوصية التناقض في كل قطر عربي اي نسيان العلاقة الديالكتيكية بين التناقض القومي العـام

والتناقض الوطني الخاص وظروف النضال فـي الاقطار العربية .

ان عدم وضوح هذه النقطة تعيدنا الى تحديد مسألة الحلقة المركزية في الصراع او التنـاقض الرئيسي الذي تواجهه الامــة العربية ... ان التناقض الرئيسي الذي نواجهه الامة العربية يكمن قبل كل شيء في الامبريالية. والامبريالية في مواجهتها لحركة التحرر الوطني العربية تعتمد على قاعدتين : الاولى ، اسرائيل وهي محصورة ضمن قطر عربي واحد (فلسطين) تواجه مجموعة مـن الاقطـار العربية المحيطة بها جغرافيا . الثانية ، الرجعية العربية وهي منبسطة على امتداد الاقطار العربية وبالتالي مواجهتها ضرورة تاريخية لتصفية ركيزة أساسية من ركائز الامبريالية .

ان اي اخلال في هذا الميزان معناه العمل على تغليب وجه من الامبريالية على الاخـر وتأجيـل الصراع بارادة ذاتية لا موضوعية مع الوجه الاخر. وهنا بالضبط تكمن خصوصية التناقض في الثورة العربية حيث تواجه عدوا متعددّ الرؤوس لم يسبق لاي ثورة في العالم ان واجهته في مرحلة واحدة .

ان تعدد مهام الثورة العربيـــة في فترة زمنية واحدة يعني اولا تعدد النضالات على صعيد الوطن العربي وثانيا عــدم عزل النضالات عن بعضهـــا البعض وثالثا تحديـــد التأثيرات المتبادلة بـين النضالات القطرية ضد الانظمة ووظيفتها السياسية والعسكرية ضد اسرائيل وايضا النضال الفلسطيني ضد اسرائيل ووظيفته السياسية والعسكرية في مواجهة الانظمة .

وعلى اساس هذا التحديد يمكن كشف جوهـر النضــال العربي ضــد الامبرياليـــة وقواعدهـــا وخصوصية هــذا التناقض في الظـرف العربـي الراهن ... وهنا نستطيع ان نقول بأن شعـار فلسطينية الثورة العربية صحيح عندما يكون الهدف من ذلك منع احتواء الانظمة للثورة الفلسطينية وفي الوقت نفسه ان هذا الشعار خطأ عندما يكون الهدف منع الجماهير العربية من المشاركة في تحرير فلسطين ان عبر التوجه نحو اسرائيل او عبـر التوجه نحو اسقاط الانظمـــة القائمة التابعـــة للامبريالية .

اذن هناك نضال قومي عام يشمل الوطن العربي بأكمله وهو نضال موجه ضد الامبريالية . ويكتسب هذا النضال خصوصية في كل قطر عربي على حده تميزه عن غيره من النضالات لتصب جميع هــذه النضالات في مواجهة اسرائيل . وهناك ايضـــا خصوصية للنضال الفلسطيني كجبهة صدامية ضد اسرائيل تجد شروط انتصارها بنمو حركة التحرر الوطني العربية .

هذه الملاحظات السريعـــة ليست كافية لتحديد صحة الموقف الراهن مــن الصراع الدائر ضــد الامبريالية في ارجاء الوطن العربي . الا انها تشكل مدخلا لفهم الخلاف مع ما قاله ناجي علوش في طروحاته حول حرب الشعب العربية .

وليد نويهض

شحادة يوسف . الواقع الفلسطيني والحركة النقابية ، (مركز الابحاث . م. ت. ف. ، بيروت ، ١٩٧٣)

ما زالت الدراسات السوسيولوجية جديدة على الواقع الثقافي العربي ، وهي ما زالت تبدو ، بالرغم من ضروراتهـــا وفوائدها العملية الملحـــة السياسية والاجتماعية ، ترفا لم يحن أوانه بعد . لقد كان علم الاجتماع في بلادنا ، وما زال ، هو علم الاجتماع الجامعي ، النظري ، البعيد عن الواقع ،والمغترب عنه كليـــا ، خارج الجدران الجامعية السميكة ، بدأت البذرة تنمو : دراسات تتناول جوانب مختلفة من حياتنا بالدراسة الجادة ، لم يعد التأمل كافيا لفهم المجتمع السابق . صار من الضروري ان نفهم الواقع على حقيقته ، وكما هو فعلا ، حتى نستطيع ان نتحكم به وان نخضعه لسيطرتنا . ما السبب ؟ بالاضافة الى تنامي وعينا نتيجة الاحتكاك الثقـــافي بالغرب ، هناك ايضـــا الضرورات العملية . فبنتيجة التحولات الاجتماعية، وبالتالي الثقافية ، العميقة ، التي شملت قطاعات واسعة من مجتمعاتنا. وبنتيجة الحاجة الى دراسة الضرورات المستجدة والمرحلة العالية التي وصلتها حركة التحرر القومـــي العربية فيصراعها ضـــد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، بدأت التيارات والدراسات السوسيولوجيـــة الجديدة تجد أرضا خصبية وتقبلا اجتماعيا ، وبالتالي تأثيرا ، ما كانت

لتجده قبل سنوات قليلة خلت . لقد صار لهـا ضرورة اجتماعية وظرفا اجتماعيا ما كان سابقا .

الجهد الذي بذله الدارس لا يعني الريـادة فحسب ، انه يعني كذلك الدعوة الى مواصلة الطريق نحو مزيد من التفهم لواقعنا الفلسطيني والعربي ، ونحو ارساء اسس البحث العلمي التي لا تعني بحال غير ارساء اسس البحث العلمي ، اسس العقلانية والتجديد والثورة . مراجعة ومناقشة الدراسات الميدانية ، كمثل كتابنا تتطلب دراية كاملة بمعطيات الموضوع وظروفه وشروطه . انطلق شحادة يوسف ، كما يبدو ، من الصفر ، قـام بالكثير من الاحصاءات والاستطلاعات حتى استطاع الوصول الى جملة حقائق ، مما اضطره الى صرف وقت اضافي كان وفره لو ان الطريق كانت ممهدة امامه . هـذا يؤكد ضرورة الاطلاع على معلوماته ، الموضوعة تحت تصرف الباحثين في مكتبة مركز الابحاث ببيروت ، كما قال الدكتور انيس صايغ المدير العام لمركز الابحاث ، في تمهيده للدراسة .

وبالرغم من الجهد الكبير الذي بذله ، والملاحظ في سياق هذه الدراسة الصغيرة (حوالي مائة صفحة عدا الجداول في الملاحق) ، فانه يؤكد بتواضع كبير : لم يحاول البحث تقديم دراسة وصفية للحركة النقابية ، « بل عمد الى تسجيل بعض الملاحظات النقدية انطلاقا من تصور للتنظيم الجماهيري الثوري الذي يتناسب مع مهمات النهوض بواقع الحياة الفلسطينية » (ص ١١ ــ ١٢) .

في الفصل الاول « بعض خصائص الواقع الفلسطيني» ، يبذل الباحث جهدا اضافيا واضحا، لدراسة الاثار الاجتماعية لنكبة ١٩٤٨ على المجتمع الفلسطيني . ان اكبر تأثير لنكبة ١٩٤٨ ، يمكن تحديده في تحطم البنية الاجتماعية والتوزع الجغرافي ، اي انعدام المؤسسة السياسية الواحدة ، والبنيان الاقتصادي ــ الاجتماعي الواحد . لقد ولد هذا الوضع خصائص سلوكية وتنظيمية جديدة . ولقد تمثلت اهم الخصائص السلوكية الجديدة في « الانهيار الفجائي للاساس المادي للمجتمع عام ١٩٤٨ ، ثم في محاولة التخلص من الوضع المادي الجديد » (ص ١٥) ، نجم عن هذا التغير الفجائي « حدوث فجوة هائلة بين التغيرات المادية والثبوت النسبي في البنيان الفوقي المتمثل في المفاهيم والعادات والقيم القديمة . وأدى هذا الوضع الى توترات على المستوى النفسي والفكري » (ص ١٥) . ويسوق الباحث نتيجة سريعة ، لا استطيع ان اقطع بصحتها او عدمه ، اذ بالرغم من معقولية السياق الذي أتت فيه فكرته القائلة ان الفلسطينيين نتيجة للتناقض القائم بين رغبتهم في الخلاص من واقع نكبتهم ، وبين ادراكهم العميق لصعوبة تحقيق هذه الرغبة ، تولدت لديهم ظاهرة سلوكية « تتميز بالحماس السريع والاندفاع حتى الذروة لدى كل بارقة أمل في العودة ، وبالخمود السريع والانكماش حتى الانطواء ، في اعقاب كل صدمة » (ص ١٦ــ ١٧) . لكن الا يمكننا تعميم هذه الفكرة لتشمل مجتمعات اخرى بالاضافة الى المجتمع الفلسطيني ؟!

ويمكن حصر ثلاث خصائص بنيوية للواقع الفلسطيني تتعلق بالوحدة الجغرافية ، والمؤسسة الاجتماعية ، ثم البنية الطبقية . لقد كان المخيم الاطار الجغرافي ــ المجتمعي للعلاقات الاجتماعية. ويمتاز هذا المجتمع بطابعه الخاص « وتركيبه الاجتماعي ــ الاقتصادي الخاص . فمن جهة يصعب وصف المخيم بالمدينة او بالقرية او حتى بالحي الفقير . ومن جهة اخرى لا يوجد بين السكان تمايزات اجتماعية حادة . ليس في المخيم ملاك ارض او رأسمال بل جميعهم يكادون يتساوون في الفقر ؛ ومن يتوفر لديه رأس المال يغادر المخيم اما الميسورون نسبيا من موظفين وباعة فان التمايز بينهم وبين باقي الاهالي ليس صارخا ولا يصل ، بحكم طبيعة العلاقات ، الى التناقض » (ص ١٩) . هذا التكوين الخاص للمخيم، لم يغير العلاقات القديمة ، التي لم تواجه ما يتحداها جذريا ، ونتيجة للشروط المعيشية القاسية ، ظلت العائلة تمثل نوعا من الضمانة والحماية الاجتماعية لافرادها .

على صعيد اخر ، كان تحطم البنية الاجتماعية والتوزع الجغرافي عام ١٩٤٨ يعني تفككا طبقيا للمجتمع الفلسطيني، وحتى في الضفة والقطاع اختل البنيان الطبقي القديم ، فلم يعد هناك طبقات فلسطينية بالمعنى التقليدي : لـم يعـد هنـاك بورجوازية فلسطينية ، « بل اصبح هناك «بورجوازيون» فلسطينيون موزعون في عدة أقطار،

علاقاتهم مع البورجوازيات المحلية وقطاعات الشعب المحلي الاخرى . كما اسهم الوضع الاقتصادي العربي بدوره في تحديد افاق النمو الطبقي الفلسطيني . ولدى دراسة الاحصاءات ، يفسر الباحث ظاهرة نمو قطاع الخدمات لدى الفلسطينيين . ضعف الصناعة العربية ، تخلف الزراعة ، وفي الوقت ذاته كانت دول النفط تسير باتجاه نهضة تحديثية ، وكانت وكالة الغوث بحاجة لموظفين . هذا الوضع حدد الطبقات التي يمكن ان تنمو : الطبقة الوسطى (معلمون ، ممرضون ، موظفو بنوك وشركات وادارة) وفئات عمالية غير بروليتارية . ولان العمل في قطاع الخدمات يتم ضمن مشروعات فردية صغيرة ومبعثرة تجعل من هذا القطاع قطاعا مفككا ، ويصبح سلوك العمال في هذا القطاع فرديا لكون العلاقة بين العامل وصاحب العمل ذات طبيعة فردية .ويلاحظ الباحث بذكاء ان عدد العاملين في قطاع الخدمات ، بالاضافة الى انه يكاد يستوعب نصف العاملين الفلسطينيين ، في تزايد مستمر ، بينما القطاعات الاقتصادية السياسية وهي الزراعة والصناعة والتجارة في تناقص مستمر . لذلك يمكن القول ان النتيجة الثانية تمثلت بالتفكك الطبقي القديم، ونمو الطبقات الوسطى وعمال الخدمات . (يغفل الكاتب الاشارة الى الدلالة السياسية الكبيرة لهذا الوضع ومؤثرات نموه ، بالرغم من اهميتها البالغة !) .

هذه الخاصة الثانية تؤدي الى خاصة ثالثة واساسية هي الخصائص التنظيمية، فلان البنية الطبقية للمجتمع الفلسطيني هي على هذا الشكل، فقد ادى ذلك الى تعزيز موقف سلبي من قبل الفلسطينيين تجاه التنظيم ، فظروف العمل والتعاقد ، تتعزز قناعة العاملين بان استمرارهم في العمل متوقف على رضا صاحب العمل، ويصبح العامل مضطرا الى ان يلجأ الى السلوك الذي يضمن ذلك الرضا ، في سوق تنتشر فيه البطالة والعرض الرخيص ، وكما يعزز صعوبة التنظيم ايضا ذلك التوزع الجغرافي للشعب الفلسطيني الذي يعني ايضا التشتت الجغرافي من جهة ، والخضوع لقوانين واوضاع عمل تختلف من قطر لاخر .

هذا يساعد على تحديد طبيعة ونوعية التنظيم : أقرب ما يكون الى التنظيم السياسي — الاجتماعي « سياسي بمعنى التنظيم الجماعي لقطاعاتنا الشعبية لكي تكون اكثر وعيا وفعالية في خدمة قضيتها . واجتماعي بمعنى العمل المنظم للقطاعات او المهن المختلفة ،لتحصيل حقوقها .. » (ص ٣٧ — ٣٨) .

ويجب الا نغفل ابدا الدور الهام الذي أدته المقاومة الفلسطينية المسلحة للمجتمع الفلسطيني الذي يتلخص في اعادتها له نوعا من الهيكلية السياسية « حيث اصبح للفلسطينيين قيادتهم ومؤسساتهم الذاتية » (ص ٣٩) .

(الملاحظ ان هذا الفصل الاول الذي جاء غنيا بالتحليل الذكي ، الدقيق الملاحظة . وبالرغم من كونه مليئا بالتعميمات ، ولكنها كانت نتيجة ملاحظة موضوعية وبحث علمي ، ولم تكن نتيجة تأمل نظري من بعيد) .

يخصص الباحث الفصل الثاني « العمل النقابي والعمل السياسي » لدراسة شروط العمل النقابي ، ويثبت بدءا الفكرة القائلة ان التنظيم النقابي هو السلاح الاجتماعي والسياسي للطبقة العاملة ما دامت خارج السلطة لتحقيق اكبر المكاسب المطلبية، ولكي تظل ، في الوقت ذاته ، في صلب العملية الاجتماعية . وبعد مقدمة عن النقابات في المجتمعات الغربية : وضعها ، دورها ، حجمها ، واساليب السلطة في تنفيس وامتصاص طاقاتها الثورية ، يتناول الباحث بسرعة ظروف العمل النقابي ومهماته في المجتمعات المتخلفة ، مؤكدا أيضا الفكرة الرائجة والقائلة انه يصعب جدا امكان عزل العمل النقابي عن مضمونه السياسي ، لاختلاف الوضع بين المجتمعات المتخلفة والمتقدمة . فلان ازمة المجتمعات المتخلفة هي ازمة التنمية ، لذلك تغدو الازمة التي تواجهها انظمتها « هي ازمة سياسية في جوهرها، اي ازمة خيار سياسي حول طبيعة النظام السياسي والاقتصادي — الاجتماعية » (ص ٥٠).

الحركة النقابية في المجتمعات المتخلفة تواجه عموما قضيتين مترابطتين : قضية مبدئية تتمثل بحق القطاعات الشعبية بحرية التنظيم والاجتماع، وطرح القضايا والمشاكل الخاصة بها ، ومناقشة السياسات الاقتصادية والاجتماعية للدولة ،والحق في ممارسة الاساليب الديمقراطية (الاضراب

والتظاهر والاعلان) ، للتعبير عن مواقفها وكوسيلة للحصول على مطالبها . والقضية الثانية قضية مادية تعبر عن نفسها بالمطالب المهنية المختلفة ... » (ص ٥٣) .

ما هو دور النقابات والتنظيمات الجماهيرية في معركة التحرر الوطني والثورة المسلحة ؟ يؤكد الباحث على ان النقابة معنية بالصراع : أ ـ لكونها تمثل قطاعا شعبيا ، ب ـ لان مختلف القضايا الاجتماعية تصبح مرهونة بنتيجة الصراع المحتدم بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة ، اي ان المسألة الستراتيجية ـ حسم الصراع وتقرير المصير السياسي ـ تمتص في هذه المرحلة كافة القضايا الاخرى (ص ٥٥) . وهذا ينطبق كليا على الظروف الفلسطينية . ان مسألة القهر القومي وطغيان القضية السياسيةعلى غيرها في العمل النقابي صارخة الوضوح ، حتى في مرحلة ما قبل النكبة عام ١٩٤٨ . « قبل عام ١٩٤٨ ، كان يستحيل حل المسألة الاجتماعية في ظل الاستعمار البريطاني والغزو الصهيوني المتزايد . وفي الواقع الذي حصل بعد النكبةوما حصل من تفكك وانهيار للمجتمع الفلسطيني ، بات واضحا انه من غير الممكن اصلا حل المسألة الاجتماعية في ظل هذا الواقع وخارج الارض الفلسطينية » (ص ٥٩) . لقد جعل هذا الواقع النضال النقابي الفلسطيني يختلف كلية عن غيره من النضال النقابي في البلدان النامية الاخرى ، فالعمل السياسي ، في الاخيرة ، لاحق على العمل النقابي . في الواقع الفلسطيني، النضال المطلبي ثانوي ، حيث « العمل النقابي لاحق على العمل السياسي » (ص ٦١) .

(تنبغي الاشارة الى ان هذا الفصل الثاني مليء بالتعاميم وبالنتائج النظرية الكبيرة ، التي كان من الضروري التوقف حيالها والتأني في الحكم عليها ، وما يغفر للكاتب هو ان طبيعة الدراسة وحجمها لا يحتملان كثيرا من التشعبات والتفرعات الجانبية) .

في الفصل الثالث « حول الحركة النقابية الفلسطينية » ، يناقش الباحث اسباب تميزالحركة النقابية الفلسطينية وخصوصياتها : تجزؤها نتيجة التوزع الجغرافي للشعب الفلسطيني ، بالاضافة الى طبيعة النظام الصهيوني الذي يواجهه ، والانظمة الاخرى التي « لجأ » الى مجتمعاتها ، فصارت القوانين التي تسن في فلسطين لا توضع كي تطبق عليه ، والقوانين الاخرى في المجتمعات العربية لا تنطبق عليه ـ يستثنى من ذلك سوريا جزئيا ـ ، والفلسطينيون ليسوا مستهدفين بها على كل حال .

من هنا تجد الحركة النقابية الفلسطينية نفسها حيال اوضاع شديدة الخصوصية ، كما تجد نفسها مطالبة باستنباط وسائلها الخاصة للتعامل مع الاوضاع السياسية ـ الاجتماعية السائدة . خصوصية هذا الوضع النقابي وتميزه « ميز ايضا مهمة النقابة الفلسطينية تجاه الثورة » (ص ٦٥). ولان الفلسطينيين مفصولون عن المجتمع الصهيوني وخارج مؤسساته ، فان الجانب « السلبي » للنضال النقابي ، بمعنى استخدام النضال المطلبي كسلاح سياسي لاضعاف النظام ، يكاد يكون معدوما في الساحة الفلسطينية (باستثناء الاردن) .

بهذا ، تتحدد ملامح التنظيم النقابي المطلوب ، في انه « تنظيم جماهيري يتصدى لمهمة سياسية ـ اجتماعية تهدف الى تنظيم اوسع القطاعات الشعبية وتنسيق جهودها لتدعيم الثورة وتصعيدها» (ص ٦٦) ، ولذلك تغدو مهماته كما يلي : ١ ـ مهمة سياسية ، اعداد الجماهير لخوض النضال السياسي الذي يكمل العمل القتالي للثورة . ٢ ـ مهمة اجتماعية ، تهدف الى اقامة تجربة حياتية جديدة . ٣ ـ مهمة مطلبية . ٤ ـ مهمة تنظيمية .

ويظل القسم الاهم من الدراسة ، بتقديري الشخصي، هو قسم « ملاحظات نقدية حول واقع الحركة النقابية الفلسطينية » ، حيث يحصر الباحث ملاحظاته في ملاحظتين اثنتين ، الاولى ، هي ضعف البنية التنظيمية، وتتمثل في ١ ـ قلة عدد الاعضاء ، ٢ ـ ضعف التماسك الداخلي ، ٣ ـ التداخل بين الولاء النقابي والولاء التنظيمي . اما الثانية ، فعلى صعيد النشاط العام ، حيث « نلاحظ ان هذا النشاط يتركز على الاعلام الخارجي على حساب التوجه نحو التجمعات السكانية » (ص ٩٠) ، مع ان المفروض ان يحصل العكس ، على اعتبار ان « المهمة التاريخية التي يمكن لتنظيماتنا الجماهيرية ان تؤديها تأتي من خلال اسهام هذهالتنظيمات في اقامة تجربة حياتية

جديدة والخطوات العملية على هذا الطريق تظهر من خلال المؤسسات التي تقيمها والممارسات العامة التي تقوم بها وسط التجمعات السكانية » (ص ٩٠).

ويقسم الباحث القسم الخاص « حول اتحاد العمال » الى قسمين :

أ ــ على الصعيد التنظيمي، وفيه يلاحظ بذكاء بالغ ان الازمة التنظيمية لاتحاد العمال ، بالرغم من ادراك قيادته نفسها لطبيعة الازمة وخطواتها الجادة لتجاوزها وحلها، نابعة ايضا من البنية التنظيمية للاتحاد ، لان « البناء التنظيمي يجعل دور القاعدة ضئيلا قياسا بالدور الذي يعطيه للقيادات » (ص ٩٧) ، ولما كانت مهام اتحاد عمال فلسطين مغايرة لمهام الاتحادات العمالية في الاقطار الاخرى، اي ليست مهمات نقابية بحتة ، حيث ان « الاتجاه النقابي التقليدي هو الذي يضفي على البناء التنظيمي للنقابات طابعا بيروقراطيا » (ص ٩٨) ، لذلك يجب ان تنعكس الاية لدينا : من القاعدة الى القمة لتحقيق التجربة الحياتية الثورية الجديدة .

ب ــ وعلى صعيد السياسات القطرية ، حيث يفرض اختلاف الاوضاع العربية الا يكون للاتحاد سياسة واحدة على الصعيد المطلبي في مختلف فروعه ، وحيث ان للتنظيم نفسه مهامه الثورية بين التجمعات السكانية ، لذلك يقترح الباحث ثلاثة مستويات لسياسة الاتحاد : ١ ــ سياسة عامة لكل الاتحاد . ٢ ــ سياسة عامة لكل قطر . ٣ ــ سياسة قطرية « تتعلق بالنشاطات المطلبية والسياسية والاجتماعية داخل كل فرع ، قيادة وقاعدة ، ولكن باشراف الاتحاد مركزيا لكي تظل السياسات الفرعية منسجمة مع سياسات واهداف الاتحاد العامة » (ص ١٠٢) .

ملاحظات اخيرة : كما ذكرت قبل قليل ، لا تأتي اهمية بحثنا الحالي من ريادته في ميدان البحوث السوسيولوجية الميدانية فحسب ،بل من تأثيره كذلك على الحركة الثورية نفسها . ان دراسة الوضع الاجتماعي ، بما في ذلك البنى الطبقية ، دراسة موضوعية ، تقدم خدمة كبيرة للحركة الثورية والسياسية الفلسطينية والعربية ، من حيث ان البنية الطبقية للشعب الفلسطيني تحدد الى حد بعيد طبيعة الاداة السياسية وتطلعات جماهير الشعب بشكل عام ، وبالتالي برنامج العمل الوطني .ذلك ان معرفة الوضع الاجتماعي ــ الطبقي ــ المهني للسكان ، تلقي ضوءا قويا على نوعية تفكيرهم وتطلعاتهم ، وافاق حركتهم السياسية . (دلالة تناقص عدد العاملين في قطاعات الانتاج وتزايد عدد العاملين في قطاع الخدمات مثلا) .

مسؤولية الباحث الشخصية عن عدد من الهنات تظل محدودة ، لعديد من الاسباب ، اهمها ندرة المراجع والاحصاءات والدراسات السابقة من جهة ولان مثل هذه البحوث والدراسات تتطلب مجموعة من الباحثين « وعقلا جماعيا » يوجهها من جهة ثانية ، لان جماعية البحث لا تتيح التخصص فحسب ، بل تتيح كذلك تناول البحث من جميع جوانبه ومعالجته من مختلف زواياه .

الملاحظة الاخرى التي يمكن توجيهها للبحث هي قصر القسم التطبيقي ، وخلو الاستقصاءات العملية منه . فلقد جاء القسم الخاص باتحاد العمال قصيرا ، ومبتسرا ، مع أن اهمية البحث وريادته ، تأتي من دراسته للمشكلات العملية ، الفعلية ، التي يعاني منها التنظيم النقابي الفلسطيني ومن الحلول المقترحة . وكان هذا يتطلب جهدا اضافيا يجب بذله ، بالرغم من دقة الباحث وتوجهاته الصائبة عموما . وهذا يعيدنا الى الملاحظة الاولى ، وهي جماعية مثل هذه الاعمال ، حيث سيصبح البحث اكثر غنى وثراء ، واقل خطأ : كان من الممكن مثلا اجراء مسح ميداني للمشكلات الفعلية التي تعاني منها الاتحادات النقابية الفلسطينية ، وعلى رأسها اتحاد العمال ، للوصول الى تصور شامل للحل ايضا ، ولافضل السبل التي تستطيع بها هذه الاتحادات دفع العملية الثورية لحركة التحرر القومي العربية والفلسطينية . هذا يعني ضرورة تبني جهة ما لعملية دراسة الواقع الفلسطيني . ولقد كنت اقترحت في كتابي عن تاريخ القضية الفلسطينية ، وفي مقالات اخرى ، ضرورة جماعية العمل لاعادة كتابة التاريخ الفلسطيني : من اجل فهم افضل للمجتمع وللواقع الفلسطيني .

ما رأي مركز الابحاث ..؟

محمد حافظ يعقوب

ثقافة

الياس خوري

الرواية والرسالة السياسية

بين روايتي فيصل حوراني « **المحاصرون** » ورشاد ابو شاور « **البكاء على صدر الحبيب** » أكثر من علاقة . فهما ينطلقان من نفس البداية ، محاكمة حركة المقاومة سياسيا داخل شكل روائي ، وان اختلفا كثيرا في الموقف السياسي ، او في طريقة صياغة المواقف التفصيلية داخل عملهما الروائي .

لذلك ، وقبل الشروع في مناقشة هذين العملين ، لا بد من التوقف قليلا ، امام نقطة الانطلاق. فالرواية، بوصفها عالما مركبا من العلاقات ، لا بد لها وان تعيش المستوى السياسي بشكل مباشر او غير مباشر . غير أنها ليست رسالة سياسية بمعنى التحليل السياسي ، فالمضمون السياسي ، للرواية الكلاسيكية ، رواية الشخصيات ، يأتي من داخل شبكة العلاقات التي يستطيع العمل الروائي تقديمها . فهو حين يحمل هما سياسيا مشروعا ، يقوم بوضع هذا الهم ، او باستخراجه من داخل العلاقات الاجتماعية التي يستطيع الاطلال عليها بشكل تفصيلي او دقيق . اما عندما تصبح العلاقات الاجتماعية مجرد غطاء مكشوف ، لرسالة سياسية واضحة يحق لنا عندها ان نتساءل ، لماذا الشكل الروائي ؟ ان المضمون السياسي الذي يتناسى بشكل شبه كامل الاستقلالية النسبية للابداع الادبي ، يسقط في منزلق الاستعارة الشكلية ويفقد قدرته على الاقناع . يصبح مجرد موقف سياسي ، خاضع للنقاش . من هنا يثير الكثير من الضجيج او لا يثيره ابدا ، وهذا يعود الى طبيعة المرحلة السياسية الراهنة . ان المستوى الادبي هو شكل من اشكال الممارسة النضالية ، لكنه حين يقبل الاطار الادبي السائد ، وبرفض العلاقة الاجتماعية المحددة ، فانه يتحول الى منشور دعائي ، يمكن مناقشة قيمته السياسية في مكان آخر . أما الشكل الادبي الحقيقي ، فانه حين يضع نصب عينيه كتابة وثيقة متكاملة عن مرحلة نضالية محددة ، فانه يطرح من خلال هذه المرحلة حياة المناضلين الحقيقية وعلاقاتهم وهمومهم المباشرة وغير المباشرة ، وهو بذلك يتجاوز الاطار الى طرح جوهري للمسألة التي يعالج ، يستطيع عبر هذا الطرح أن يطال حتى القارىء الذي لا يهمه الاطار السياسي المباشر .

لكننا هنا ، امام عملين من طبيعة مختلفة . يستطان رسالتها الايديولوجية على الاطار الروائي. لذلك تغيب الرواية ، وتفقد الرسالة السياسية قيمتها ، لانها لو كتبت بطريقة اخرى لكانت اكثر تأثيرا وأثرا .

المحاصرون

يضع فيصل حوراني بطله « خالد فتحي عزيز » داخل حصار شامل . وحول هذا البطل ، حول حياته وعلاقاته وبطولاته ، تدور احداث الرواية . انه فدائي مضطهد ، يكتشف تصور العمل الفدائي واخطاءه . لذلك يعزل عن كل عمل مباشر . رؤيته السياسية بالغة الوضوح . يتنبأ بالكارثة قبل وقوعها . فهو مع مشروع روجرز رافضا سياسة التطرف . ثم حين يلتقي بسميرة زوجة ابي الملاحم ، تتحول الرواية في بنائها الى الذروة ، حيث تختلط

---

* فيصل حوراني : **المحاصرون** . الطبعة الاولى . دمشق ، تموز ، ١٩٧٣ .

* رشاد ابو شاور : **البكاء على صدر الحبيب** . اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين ــ دار العودة ، بيروت .

الممارسة السياسية بالحب . ويعلو صوت الرسالة الايديولوجية حتى يغطي على جميع شبكة العلاقات الاجتماعية التي حاول المؤلف نسجها في بداية روايته — طفولة خالد ودراسته الجامعية — تستحيل العلاقات هنا الى سلسلة من الخطب ورباطة الجأش والموقف البطولي . ثم تعود في القسم الاخير من الرواية الى توتر درامي في وصف حياة الاعتقال والتعذيب الذي يتعرض له المقاتلون بعد مذابح جرش وعجلون .

صيغة الغائب والتداعيات الشخصية :

صيغة المفرد الغائب ، هي الصيغة الغالبة على البناء الروائي بأسره . انه الجواب المباشر على البطل الفرد ، الذي يتمحور العمل الروائي على شخصيته . لذلك يكثر التذكر والتداعي ، داخل الفلاش باك الذي يقوم هو بصياغة البنية الروائية. تاركا لصيغة المفرد لتقوم في الحركة البنائية . ولا تشمل هذه الصيغة خالد وحده ، بل تمتد في بعض الاحايين الى سميرة — البطلة الثانية في الرواية . اما الحوار او التأملات الذاتية ، فانها تصبح هنا مجرد علامات ، او فواصل يتوقف عندها العمل بأسره ليستجمع قاعدته الاجتماعية ، أي انها اطار لعلاقات من طرف واحد ، محورها الاساسي شخصية خالد الطاغية . أما اطراف الحوار الاخرى فانها مجرد انعكاسات سلبية او ايجابية لافكار هذا البطل . تقود هذه التقنية الفنية مباشرة الى رواية الافكار . فالعلاقات الاجتماعية والممارسة النضالية ، ليست سوى حافز فكري ، يسمح للبطل باسقاط مواقفه السياسية اسقاطا . لذلك لا تأخذ العلاقات الانسانية مداها الكامل . تتوقف دائما عند نقطة وظيفية . فهي جزء من عالم واحد لا يتعدد . ان الاتجاه التوحيدي الغالب حول البطل — النموذج ، يحيل السرد والحوار الى مجرد مداخل لعالم متكامل لا نعلم شيئا عن آلية تكامله . فثورة خالد على الواقع السياسي الذي ينتمي اليه هي ثورة بدون تاريخ . نتعرف من خلال السياق الروائي على بعض النتف التي لا تعطي فكرة متكاملة . لذلك يفرض علينا المؤلف انحيازا مسبقا الى بطله . من هنا تضيع البنية الروائية بأسرها ، ويصبح الاسقاط الفكري — الايديولوجي ، هو المبرر الوحيد لمتابعة القراءة . فأنت مجبر سلفا على اتخاذ موقف صريح من صراعات خالد . وهذا الموقف هو الذي يحدد متابعة القراءة او التوقف عنها . لذلك يحاول المؤلف في تداعيات حياة بطله اضاءة بعض الجوانب الذاتية — الطفولة ، ذكريات الدراسة ، السجون التي دخلها — ثم يضيف بعد العلاقة العاطفية بسميرة . تخدم هذه الاضاءة هدف رسم اطار تاريخي مقبول لكنها تفشل في استنطاق الشخصيات أشياءها بصورة طبيعية . فيغلب الانفعال وتضيع الرؤية الاجتماعية .

البطل — النموذج :

خالد فتحي عزيز ، هو نموذج البطل الايجابي ، لا يخطىء ولا ينزلق . انسان ثوري متكامل . في الطرف الاخر تقع شخصية ابي الملاحم . انه الخطأ مجسدا . ازدواجية الالوان الواضحة هذه ، البطل الايجابي والبطل السلبي ، تبرز خارج الرواية . نستطيع ان نتقبل هذه الشخصية او ان نرفضها . غير أننا لا نستطيع مناقشتها . انها حالة ايديولوجية . لا تتخلى عن صفتها هذه الا في السجن جزئيا . هناك نكتشف الى جانب خالد ، بطولات المقاتلين الاسرى ، حيث تعلو النبرة الانسانية اليومية ويخفت صوت الادعاء الفكري . واذا كانت خاتمة الرواية مليئة بالتفجر والتحدي ، فان هذا التفجر لا يبرر السياق العام لمجمل العمل الروائي. فالنموذج في رواية واقعية ، يصبح في افضل الحالات بديلا موضوعيا عن الواقع . لذلك يجعل من تفتيت الواقع داخل العمل الفني مبرره الوحيد. فتغيب الرواية الجدلية . وتصبح الممارسة النضالية حالة جامدة. لذلك يضطر المؤلف الى تصوير ابطاله السلبيين بشكل كاريكاتوري ، دون ان يفسح لهم مجالا للدفاع عن أنفسهم . يرفضهم دفعة واحدة ملغيا حيوية الشخصية في الرواية . ان طريقة الاسقاط المسبقة هذه ، لا تسمح سوى بقراءة واحدة للعمل الفني. القراءة من خلال عيني المؤلف. لذلك تتسطح الشخصيات ولا يبقى سوى الرسالة السياسية — الايديولوجية .

الاسقاط السياسي المباشر :

« أدركت بالتجربة ان العمل الذي نقوم به من خارج الارض المحتلة لم يكن يستحق العناء الذي نبذله ، ولا يصح ان يصبح عملنا الاساسي » . بهذه النبرة الاسقاطية يقوم فيصل حوراني على لسان بطله بتقييم تجربة المقاومة . هنا نصل الى صلب

المسألة التي تطرحها الرواية . فالادب الانتقادي ليس مبررا فقط انه مشروع دائما، يستمد مشروعيته المبدئية هذه من ضرورة كونه تلخيصا مكثفا للتجربة الجماعية . لكن هـذه المشروعية ليست خـارج ضوابطها الداخلية . وهذه الضوابط هي ضوابط فنية على الاقل . لكن حوراني يخرج عـن هذا الضابط الفني الاسـاسي الذي اختاره ويصـل مباشرة الى **الموقف الواحد الثابت** . هنا يتحول العمل الادبي الى بيان سياسي مباشر . وتسقط البنية الروائية نهائيا .

البكاء على صدر الحبيب :

ينطلق ابو شاور في روايته الجديدة هـذه من الحالة التي تولدت بعد هزيمة ايلول ١٩٧٠ في الاردن . يبني روايته انطلاقـا من تطوير حالـة سيكولوجية معينة في اكثر من اتجاه واحد ، ليصل الى نهاية رومانسية عادية جدا . يمحور روايته حول بطلين : زياد وغالي . زياد المؤلف المسرحي المقموع وغالي الفدائي المسحوق الذي جاب العالم على ظهر سفينة ثم عاد ليموت في اشتباكات أيار ٧٣ في لبنان . وبين هذين البطلين ، يقع عالم ضيق من الالم والحرقة وخيبات الامل . عالم ابو شاور في روايته الاخيرة رومانسي وانفعالي ، يلتقط بعض اللحظات التي تستطيع ان تتطـور بشكل مركب ومتكامل ثم يدعها تفلت من يده ليغرق مجددا في عالمه . أي انه لا يسمح للحظاته بالتطور يقمعها في سبيل خدمة رؤية سياسية مسبقة . يريد اسقاطها بأي ثمن على روايته .

صيغة المفرد والعالم المتشابك :

تبدأ الرواية بشكل رومانسي مقبول . المرض والحنين الى الارض . « اريد ان اتنفس بلا توقف ، ان أملأ رئتي بالهواء النقي ، ان اجلس عند قمة احد الجبال ، اتمدد على التراب ، اتمرغ علـى التراب ، هكذا كنت افعل في اريحا » . ثم يبدأ العالم الواحد بالتداخل . زياد في شوارع دمشق يعود ليلتقي بفجر . وغالي الذي هاجر في البحار يعود الى الوطن من جديد . يترك المؤلف لبطليه حرية الكلام بصيغة المفرد . لكن الكلام لا يلخص التجربة الذاتية الا من اطرافها . فالعلاقة مـع البحار الزنجي برونو ، تتحول الى علاقة باهتة وعادية جدا . وقلق البحر والهجرة يتحول مع هذه الرواية الى مجرد صدى لا حياة له . ثـم تبدأ العلاقات تتشابك . زياد يجدد علاقته بفجر وغالي يذهب الى بيروت ليلتقي بهناء في لهب المعارك حيث يسقطان برصاص الرجعية . فيتزوج زياد فجـر ويبكي على صدر حبيبته . « انت تبكي . دفنت رأسي في صدرها ورحلت » . هكذا يسدل المؤلف ستارا ميلودراميا حزينا على نهاية روايته .

البناء الروائي :

يعتمد البنـاء الروائي أساسا علـى تقطيـع المشاهد ، وروايتها بصيغة المفرد . هنا يمتزج الواقع بالحلم . ان هذه التقنية ليست جديدة في الرواية العربية . استعملها جبرا ابراهيم جبرا في « السفينة » ونجيب محفوظ في « ميرامار » . لكن الجديد هنا ، هو أن الشخصيات جميعها هي صدى لافكار المؤلف . أي انها تنطلق من معادلة مبسطة ، فتستجمع جميع عناصرها لتصب في النهاية داخل اطار محدد سلفا . فغياب الحركة الاجتماعية بشكل كامل عن البنية الروائيـة ليست مصادفة . انه تلخيص لازمة الرواية الرومانسية التي تريد ان تكون واقعية ، فتسقط واقعيتها في الحشو كما في المقطع السادس . او في المفاصل التقليدية ــ فجر ليست عذراء ــ ثم تتهاوى البنية الروائية لتصل الى مجموعة من القصص القصيرة يوحدها جـو التأملات الصارخ ، وارادة الوصول الـى نهاية محددة . فتتهاوى البنية الروائية ، ولا يبقى سوى الاسقاط السياسي الذي لا يجد الا تبريرا شكليا وغير مقنع . عند هذه النقطة تتحول الشخصيات الى مجرد نماذج يريد بها المؤلف الوصول الى غاية محددة سلفا . ونصبح أمام عالم ضيق لا يتسع للحظة شعرية حقيقية واحدة . ولا يسمح لاحد ابطاله ولو للحظة بالخروج من النمطية والنتائج المعروفة سلفا . نتوقف عن القراءة . لا جديد في البنية الروائية . الجو مفتعل في مجمله والادب الانتقادي يتحول الى احجيات مـن نمط واحد . وتضيع رحلة غالي وسط الانفعال الرومانسي .

الثابت السياسي :

حين نحاول البحث عن ثابت فني يضم هذا العمل الروائي فاننا نكتشف ثابتين :

الاول هو التأملات الكثيرة التي تحاول توحيد العمل الروائي ، وتصل الى استعمال صيغـة اليوميات .

الثاني هو محاولة بناء خيوط تجمع خط الرواية بأسرها كقضية الزواج التي يطرحها الطبيب مع زياد ثم تنتهي الرواية بزواج زياد وفجر .

غير ان الثوابت الفنية تبقى غير قادرة على ضم العمل اليها . وهذا يعود الى عدم قدرة المؤلف على تحريك شخصياته بشكل مقنع . فنعود ثانية الى صدى صوت المؤلف على لسان ابطاله . ويغيب الثابت الفني لمصلحة ثابت سياسي مسبق . هنا نصل الى المناقشة الاساسية . فما معنى وجود الابطال طالما كانت تجربتهم متشابهة الى حد التطابق . اما رحلة غالي فانها لا تضيف سوى المزيد من التفاصيل على هذا التطابق . هكذا يصل المؤلف الى الثابت السياسي الوحيد ، ويبدأ باطلاق أحكامه بشكل شبه مجاني . يريد الوصول الى الواقع فيضيع في الايديولوجيا. يفتت الواقع ويمزق أوصاله ، لينتهي بمصالحة ذاتية على الطريقة الرومانسية التقليدية . وتتهاوى جميع التنظيرات السياسية أمام فجاجتها وعدم قدرتها على الاقتناع. فالاسقاط السياسي حين يصبح مجردا عن علاقات اجتماعية متكاملة ، داخل البنية الروائية ، يصبح بلا مبرر حقيقي ، وتسقط جميع محاولات الاقتناع .

حول الرواية « الفلسطينية » :

تسمح هذه المعالجة النقدية الاولية ، بطرح العديد من الاسئلة على خط تطور الرواية « الفلسطينية » . فبينما وصلت هذه الرواية مع حبيبي وكنفاني الى قدرة على استنطاق الواقع والتغلغل في أعماقه من منظور العملية الثورية نفسها ، نجد أنفسنا فجأة أمام منحدر روائي يعود الى الوراء . وكأن على التجربة الادبية ان تنطلق دائما من العدم . فالروايتان اللتان نعالج تسقطان في مسألتين أساسيتين :

١ — **الموقف الواحد** : يعبر هذا الموقف الواحد عن نفسه داخل بنية روائية واقعية مبدئيا . أي أن المقياس الاساسي لتقييم هذه البنية هو في قدرتها على الاحاطة الشاملة بالعلاقات التي تعبر عنها . لكننا هنا أمام موقف اسقاطي لا يتزحزح . الشخصيات لا تتطور والواقع الموضوعي حين يتحول ، فانه يبقى ضمن مسار معروف سلفا . هذا الموقف الواحد حاولته الرواية العربية بطريقة افضل . اذ أتت البنية الشعرية لتتزاوج ولو بشكل جزئي مع البنية الروائية . لكننا هنا نفتقد الشعر. نحن أمام منحدر نثري . يشبه النثر الصحفي . لا توجد لحظة شعرية واحدة . هكذا أضاع ابو شاور شخصية غالي ولم يستطع حوراني تطوير اطارات طفولة خالد . فبقينا أمام صورة مشوهة لرواية الموقف العربية .

٢ — **الواقع المحطم** : حين يريد العمل الروائي ان يتحول الى شهادة على مرحلة كاملة ، فان عليه على الاقل التخلي عن المسبقات الجامدة . نحن هنا لسنا سوى أمام سلبيات المقاومة . حتى الفرح الجماهيري والموت الجماعي نفتقده في هذين العملين . الموقف السياسي وحده هو المهيمن . حتى في هذا الموقف ، فان النقد الشامل دون الوصول الى قدرة على التقييم الموضوعي ، يصبح مجرد تفتيت للواقع . تكسير المرآة لا يؤدي الى تكسير العالم . فالرؤية حين تجمد أمام موقف مسبق وبطريقة يائسة بشكل مطلق او نسبي ، تضيع على نفسها فرصة الاقتناع وتتحول الى شهادة شخصية سيكولوجية .

لا تريد هذه الملاحظات الايحاء تلميحا او تصريحا باعتراض على ضرورة النقد السياسي . لكنها تريد التأكيد على ان الشكل الادبي لا يحتمل حالة سيكولوجية فردية . فالرواية الواقعية عالم متكامل وليست مجرد لحظات انفعالية يسقطها الكاتب وهو يتناسى التضحيات الجماهيرية التي تبقى أساس كل امتداد فني نحو الممارسة الثورية .

المهرة في الممارسة

داخل تجربة أيلول المأساوية ، ترتفع الشهادة الادبية ، لتنقل المعاناة الحقيقية لالاف المناضلين الذين صنعوا التجربة بدمائهم . وحين تأتي القصة القصيرة لتنقل هذا البعد ، فانها تتداخل مع الواقع، بحيث تصبح التجربة الفنية ايقاعا واقعيا، يمتزج بعناصر البنية الفنية ، ليشكل في النهاية شهادة على واقع دموي ، ومجموعة يحي يخلف « المهرة » هي مجموعة من اللحظات الواقعية ، التي تلتف حول الجراح ، وتقوم بحركتها الخاصة من داخل الممارسة العملية ، اي ان المحاولة القصصية تنفلت هنا من عالم الذكريات الفلسطينية، لتحاول الانغراس داخل الممارسة السياسية . هذه المحاولة التي استطاع الادب الفلسطيني قصة وشعرا الوصول اليها من خلال مزج المصير العربي بالمصير الفلسطيني ، يأتي يخلف ليحاول اضافة بعد الممارسة المباشرة في سبيل الوصول الى هذه النقطة المحددة .

المدى الواقعي: جميع قصص المجموعة تنطلق من الواقع المباشر . وهي حين تقوم بمحاولة مزج هذا الواقع بعنصري الحلم والرمز ، فانها تستخدمها في بلورة هذا المدى وليس في سبيل خلق توازياته . من هذا المنطلق نستطيع ان نفهم استخدام مقاطع من الحكاية الشعبية الفلسطينية ، او اللجو الى الحلم . ففي قصتي «الطائر الاخضر» و «الحلم»، نكتشف هذه التقنية التي لا هم لها سوى الوصول الى الواقع . ففي « الطائر الاخضر » ، يلجأ المؤلف الى زمنين : زمن الواقع الموضوعي ، الذي ينطلق منه الحدث القصصي وزمن الذاكرة الذي يأتي ليقيم خلفيات الزمن الاول . ويأتلف هذان الزمنان داخل لحظة واحدة . فهما يشكلان خطا واحدا يريد الوصول الى اللحظة الاساسية . لحظة اللقاء بغالية شقيقة شوكت الذي استشهد في المجزرة . هنا يتجمع كل مساء الحدث القصصي وتبدأ عملية استرجاع اللحظات . لذلك يأتي السرد من داخل الزمنين وان كان يتوكأ اكثر على زمن الذاكرة ، في تداعياته القريبة من التأمل او الحلم . الهدير .. المدينة .. الضوء .. اشارات المرور .. الماكسي .. تغمض عينيك ، تطبقهما كما لو انك ترى العالم للمرة الاخيرة .. تنز عرقا ساخنا من جلدك .. » هذا السرد الذي يتداخل مع الحوار آتيا في غالب الاحيان بصيغة المخاطب ، يشل دينامية الحوار ، عبر بحثه عن دينامية خاصة يمكننا ان نسميها دينامية الانفعال المباشر . « أحسست بالدماء تندفع في كل اتجاه ، وطافت عيناك في ارجاء القاعة الواسعة ، ولكن كم هو العالم صغير من خلال الغبش » . واخيرا في اللحظة التي يكاشف فيها الواقع نفسه تأتي مقاطع الحكاية الشعبية لتقوم بانقاذ الحركة القصصية من الوقوع في اسر التوجه الرومانسي . « انا الطائر الاخضر ، مرت ابوي ذبحتني ، ابوي أكل من لحمي ... واختي للمتني ... ولما طلع القمر . صرت طير اخضر » . وفي قصة «الحلم» يعاود يخلف اللجوء الى هذه التقنية ولكن دون الحكاية الشعبية ، تاركا الواقع كما هو في المه ومأسويته . فحياة المناضل الهارب تصبح جحيما حين يلقى القبض على الرجل الذي يأويه في منزله. هنا يلعب السرد الدور الاساسي، لكنه حين يمتزج بالتحليل الذهني الذي ينطلق من لحظة الانفعال . وحين يمتزج السرد بزمن الذكريات او بالزمن الموضوعي المتسارع فانه يأخذ صيغة المخاطب. هنا تأتي هذه الصيغة لتقيم مسافة بين الكتابة والتلقي . لكنها لا تستطيع الوصول الى جميع ابعاد المدى الواقعي . فالمسافة التي يحاول النص خلقها بين المؤلف والبطل ، والتي توحي بقدرة اكبر على رسم حركة القصة ، لا تزال تقنيا بعيدة عن الاحاطة الواقعية ، لانها تتوقف عند الانفعال كثيرا وتهمل عالم الاشياء . او حين تصل اليه تدمجه فورا بالعالم الداخلي .

الواقع ــ البعد الاسطوري : في قصة « يوميات المواطن سين » ، نكتشف بنية قصصية ناضجة وقادرة على الحركة ، من منطق بالغ البساطة .

يحي يخلف : **المهرة** ، منشورات وزارة الاعلام ــ الجمهورية العراقية ــ ١٩٧٤ .

تبدأ باكتشاف مجموعة من الشخصيات والاحداث من خلال ذاكرة الراوي ــ الشخصية الاساسية . تتوحد هذه الاحداث والشخصيات في عالم غريب واسطوري . يتحول هذا العالم ويتطور للوصول الى نوع من القصة التعليمية التي لا تسقط في شرك الشعارات السياسية الجاهزة . يأتي التعليم بسيطا ومباشرا ومليئا بالدلالات . الجد المناضل القديم الذي يموت . الوالد الذي يصنع الكرابيج ويجن . والام التي تموت حين يسرق ابنها اساورها ليشتري بندقية . ويرتفع صوت المؤلف دائما ليشد مفاصل حكايته حتى نصل الى القمع والاصرار على النضال . ثم يتحرك الجسد من داخل الصورة ويبتسم للشاب الذي اصبح مناضلا :

« يوميات مواطن بلا بندقية

يوميات بندقية في مدينة منهوكة الارض ...

يوميات عرض في مدينة لا ينقذها الا غابة من البنادق »

« يوميات المواطن سين » هي اكثر قصص المجموعة قدرة على الايحاء ، لانها بابتعادها عن الواقع ، تلجأ الى ادوات من داخل الواقع نفسه ــ الحكاية ــ لتقيم داخلها تداعيات واقعية، تنطلق من الحدث مازجة اياه ببعد اسطوري ، لنصل الى التعليمية . ان خلو القصة من الشعارات السياسية الجاهزة يجعلها اقرب الى الموقف السياسي الحقيقي . فالالتزام ليس شعارا انه موقف حقيقي .

اليوميات النضالية في قصتي « المهرة » و « لحن الثورة » ، نتعرف على لون جديد من اليوميات النضالية . تدور القصة داخل قواعد المقاتلين ، فتأتي حاملة ايقاع حياتهم اليومية . تخرج الرموز من داخل هذه الحياة متوكئة على مرجع واقعي واضح الملامح ، لتقوم بمهمة اساسية هي **الايصال**، فنحن لا نشاهد من حياة المقاتلين سوى الجانب القتالي المباشر . في « لحن الثورة » يكتب خالد نقده الذاتي بجسده الذي تحول الى عبوة ناسفة.

وفي « المهرة » تأتي العلاقة بالارض من خلال اللغم الذي ينفجر في النهاية ، واذا كانت العلاقة بالارض عبر اللغم مبررة ، لان اللغم هو الطريق الوحيد الباقي امام الفلسطيني ، لاقامة العلاقة بارضه ، فان اقتصار هاتين القصتين على المعنى السياسي وحده . ومعاملتهما لهذا المعنى بشكل رومانسي مباشر افقدها القدرة على نقل التجربة حية . فالحياة اليومية في القواعد ، تستحق احاطة اكثر شمولا ، وموقفا بعيدا عن الرومانسية الثورية التي تستطيع ان تشكل نقطة انطلاق فقط، ثم تأتي ضرورة تجاوزها .

الرمز الكامل تحمل قصة « يد ايلول ذات الاظافر » ، بعدا رمزيا وحيد الجانب. تنطلق من الرمز ، وتقيم علاقاتها داخل هذا الرمز، هكذا يغطي الرمز الواضح كل شيء. وتصبح القصة خالية من الحدث المباشر . فالحدث الواقعي هو ترجيع ماض فقط . اما الحاضر فانه المرأة ــ الرمز . ان هذا الوضوح الرمزي ، يجعل السؤال عن معنى استخدام الرمز مشروعا . فاذا كان الرمز مجرد غطاء للواقع ، فانه يصبح تعقيدا ذهنيا ، يحتال على الشعر بالقصة . وحين يتضح لا يعلق بالذاكرة سوى حجبه للدلالة الواقعية .

في المقابل تأتي قصة « موت بائع الياسمين » لتستولد الرمز من العلاقات الواقعية . فيأتي الرمز مقنعا وقادرا على احاطة بائع الياسمين بحنان بالغ . « اقترب كاتب الاستدعايات من الجثة الهامدة ، واخذ نفسا عميقا ، وقال باستغراب : ولكن رائحته زكية » .

داخل نقطة الانطلاق الواضحة ــ الممارسة ــ تأتي مجموعة « المهرة » ، لتؤشر الى امكانية ولادة . فالادب الفلسطيني الذي يغرس نفسه داخل هموم النضال بشكل مباشر ، يستطيع ان يضيف كثيرا على انتاجنا الادبي . و « المهرة » تشير الى امكانية هذه الاضافة . عبر الومضات التي تحفل بها قصص المجموعة ، خاصة في « يوميات المواطن سين » .

ادب الحرب الوثائقي

تقدم لنا المجموعة القصصية التي كتبها حنا مينة ونجاح العطار شكلا جديدا من اشكال الممارسة الادبية . فقصص المجموعة هي محصلة لمحاولة الاقتراب من الحياة اليومية لحرب تشرين . وهذا واضح في مقدمة الكتاب . « وهذه الاحداث ، في القصص التي يضمها هذا الكتاب ، نتاج واقع وذات في آن ، واقع حرب تشرين التحريرية وذاتنا حيال هذه الحرب. الخامات من الاخرين، والصياغة منا ، تسجيلية في بعض سطورها ، وابتكارية في بعضها الاخر ، لكنها ، كلها ، امينة لما صار ، او مقصرة دونه أحيانا » .

الاطار الجامد والحركة الداخلية :

تقدم قصة الجبل التي كتبها حنا مينة ، اطارا عاما للقدرة على التسجيل والابتكار . فهو ينطلق من حادث حقيقي احتلال المرصد الاسرائيلي في جبل الشيخ . تبدأ القصة داخل اسلوبية مينة . القدرة على جمع العناصر الشعبية داخل اطار عام . فهو يبحث بين جنود الوحدة السورية عن اللحظة الانسانية . يتوقف طويلا عند القتال ، وعند الشكل الذي أخذته المعارك واقعيا . لكنه في الوقت نفسه، يحاول توحيد هذا الاطار الجامد الصارم داخل الحياة الداخلية للجنود . الذكريات ، والاحلام . لذلك تبدأ القصة بلوحة العنب : « كرامون نحن أبا عن جد ، وخمورنا مشهورة . بأيدينا نصنعها ، عندما ، في أواخر الصيف ، ينضج العنب . انه لا ينضج الا مرة في العام ، لكنه ينضج كل عام ، فيكون لنا معه موعد وعرس » . يشكل هذا الجو الداخلي الحميم خلفية الاطار العسكري الصارم الذي يصف بطولة الجنود وهم يقاتلون . غير ان هذا الوصف يصل الى تقريرية مباشرة ، تفقد هذا الاطار قدرته على التبلور داخل حالة جماعية في قلب المعارك العسكرية . فالاخلاص التاريخي يدفع بالمؤلفين بعيدا عن البنـاء القصصي المتماسك ، ويغرق المجموعة بأسرها داخل اطارات عسكرية فنية ، لا تقدم سوى شهادة عادية للحرب الاخيرة.

الشهادة والتسجيل :

تقدم قصة نجاح العطار « عندما يقاتل الرجال.. ويغنون في ضوء القمـر » ، مثالا على القصـة التسجيلية في هذه المجموعة . لكـن تسجيليتها استنطاقية ، أي انها نتيجة حوارات مع الطبيب والمرض والجنود الجرحى . لذلك تتركز حـول الوصف ، وحول عقد المقارنات مع ظروف هزيمة حزيران . لذلك تأتي الشهادة ساخنة ، تتخلى عن جميع الخلفيات والاطر ، لا تتوقف الا عند البطولة بمعناها المباشر. من هنا منشأ قدرتها على التسجيل وعجزها عن الشهادة . أي أنها تبقى ضمن الجو الساخن والعاطفي الذي جاء مع الحرب ، ولا تحاول استكشاف خلفيات هـذا الجو ، فرحـه ومأساويته في آن.أما بنية القصة القصيرة فتضمحل نهائيا . نحن أمام شكل يقترب مـن الريبورتاج الصحفي الجيد . يذهب الى المواقع ويقابل الناس ويسجل احاديثهم . أما اللحظات الانسانية الحقيقية التي تجري على ألسنة الجنود فانها تبقى بدون التقاط حقيقي . فحنا مينة ونجاح العطار يعملان على الخامة الانسانية وحدهـا . أي ان البنـاء القصصي هو آخر هموم هذه المجموعة ، لذلك تبقى الشهادات ، مجرد لحظات بحاجة الى اعادة انتاج، ضمن سياق أدبي آخر . أي ضمن بنية قصصية أكثر اقناعا . اننا حين نتوقف عند هذه النقطة ونشدد عليها انطلاقا من تثميننا للدور الذي يمكن ان يلعبه الادب في نقل الحياة الداخلية للحرب . لكننا هنا ، لا نزال أمام بدايات تسجيلية بحاجة الى المراجعة . أمام القصص الاخرى « الابتكارية » ، فانها مجرد لحظات انفعالية ، تتوقف أمام الموضوع دون أن تستطيع دخوله بشكل مقنع .

الكتابة الجماعية :

النقطة الاساسية في هذه المجموعة ، هي محاولة الشروع في كتابة قصة مشتركة . هذه الطريقة في الكتابة لا تزال غائبة ومستبعدة في ممارستنا الادبية. غير أننا حين نقرأ القصة الوحيدة المشتركة في هذه

---

* حنا مينة ونجاح العطار : **من يذكر تلك الايام** . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق — ١٩٧٤ .

المجموعة « السمكة الطائرة » تصاب بخيبة أمل حقيقية . فالقصة هي مجرد ريبورتاج صحفي عادي جدا بصوتين ، يبقى في حدود وصف المعارك الجوية وسيكولوجية الطيار. أما الجهد المشترك والوصول فعلا الى طريقة مشتركة في الكتابة ، فهذا غائب بشكل شبه كامل عن هذه القصة . اما موضوع الكتابة الجماعية او المشتركة ، فيبقى موضوعا أساسيا ، يطرح نفسه ، من خلال ضرورة البحث عن أشكال الممارسة الادبية الجماعية داخل افق الممارسة الثورية . لكن البقاء عند حدود كتابة مشتركة بهذا الشكل الانطباعي ، فانه لا يقدم شيئا الى صلب المسألة التي يعيد هذا الكتاب طرحها . فالاطار العام الذي تطرحه مجموعة قصصية سريعة، تريد محاولة التأريخ لحدث سياسي — عسكري هام ، يبقى خارج مجاري الممارسة الادبية لروائي مثل حنا مينة ، حاول في رواياته البحث من ضمن منظور محدد ، عن الرواية الواقعية .

لا يزال الادب العربي ، بعيدا عن ما يسمى أدب الحرب . فعلى الرغم من الحروب والمعارك التي خضناها في الربع الاخير من هذا القرن ، فنحن لا نزال غير قادرين على ابداع ادب ينقل الهموم اليومية للمعركة في اطار انساني شامل . فالكتابة عن الحرب ، لا تزال في مجملها كتابة انطباعية ، تتوقف عند الظاهرة مهملة جذورها . لذلك تتخلى عن المسألتين : البناء الادبي الحقيقي ، والتعبير الواقعي عن المعركة من داخلها . فنبقى على اطراف المسألة ، غير قادرين على الاحاطة بطرفي المعادلة. فتأتي الكتابة قريبة من أسلوب الاعلام السياسي المباشر . وتبقى التجربة الانسانية الحية في الحياة نفسها . أي ان القصة او الرواية ، حين تتوقف عند حدود مباشرة ، تفقد قدرتها على الانطلاق من لحظة ممارسة حية لتقوم بربطها بجميع أبعادها الانسانية . التفسير الممكن لغياب هذه الظاهرة ، هو طبيعة المجتمع العربي ، الذي لا يستطيع تعبئة جميع قواه في المواجهة مع العدو . غير ان هذا التفسير على صحته المبدئية ، يجب ان لا يحجب القصور الذاتي الذي نعاني . فالانفعال وحده لا ينتج أدبا حقيقيا يستطيع المخاطبة الانسانية . لان هذا الادب لا ينتج الا من داخل المخاطبة نفسها .

ان الطموح المشروع الذي تعبر عنه مجموعة حنا مينة ونجاح العطار ، يمكن ان يقود الى نتائج فنية حقيقية . لذلك فنحن حين نتعامل مع هذه التجربة القصصية نتعامل معها من منظور مستقبلها. فهي حين تطرح الكتابة من داخل الممارسة في اطار مشترك ، فان هذا الطرح بحد ذاته هو علامة ايجابية . لكن الموقف التسجيلي الانطباعي وحده ، لا يستطيع الوصول الى نتائج فنية . لذلك تبقى هذه التجربة ، علامة بحاجة الى العودة مجددا نحو الابتعاد عن المباشرة ، في سبيل الوصول الى ممارسة ادبية حقيقية .

الحكاية الشعبية الفلسطينية

لا تزال دراسة عناصر « الثقافة الشعبية » بشكل علمي غائبة عن مكتبتنا . لذلك فان أهمية كتاب نمر سرحان « الحكاية الشعبية الفلسطينية » مزدوجة ، لانه من جهة اولى يسد نقصا فادحا في المكتبة العربية ، ولانه في تناوله لموضوع بحثه يتبع طريقة علمية اكاديمية ، تحاول عدم الوقوف عند الظواهر وحدها ، بل تقوم بمحاولة تفسير لهذه الظواهر في مستوياتها الثقافية والسياسية والاجتماعية . والحكاية الشعبية الفلسطينية هي جزء من تراث ثقافي شعبي لا يزال ضائعا في اكثريته الساحقة ، لان ميدان الدراسات الاتنولوجية لا يزال غائبا بشكل شبه كامل عن اهتماماتنا الثقافية.

في مقدمة الكتاب يوضح المؤلف منهجه : « ان المنهج الذي اتبع في دراسة الحكايات التي اعتمدت عليها هنا هو منهج وظيفي ، يقصد محاولة استقراء حياة الشعب العربي الفلسطيني وآماله وتطلعاته

نمر سرحان : **الحكاية الشعبية الفلسطينية** . مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ايار ١٩٧٤ .

وبنيانه النفسي من خلال تفهم المرويات التي ابتدعها وجدانه » انطلاقا من هذا المنهج الوظيفي يحدد المؤلف في مدخل دراسته مفاهيمه الاساسية :

١ — الحكاية الشعبية هي انتاج جماعي تراكم عبر الاجيال والذي حقق فيه الانسان كثيرا من مواقفه ورسب الجانب الكبير من معارفه .

٢ — يتميز اسلوب الحكاية الشعبية **بالشكل المفتوح** ، مما يترك للراوي حرية كبيرة في التصرف.
٣ — خضوع الحكاية الشعبية لفكرة محددة، تتجمع جميع العناصر في سبيل الوصول اليها .

وبعد أن يميز المؤلف بين **الحدوثة** التي تعيش في بيئة الاطفال **والحكاية** التي هي استرجاع للواقع اساسا والنسج عليه **والاسطورة** التي يقصد بها اساطير الخلق والالهة وانصاف الالهة . يصل الى بنية الحكاية الشعبية نفسها ، فيميز داخل هذه البنية بين ثلاثة عناصر :

١ — **الموتيفة** — الجزئية : وهي اصغر عنصر روائي في الحكاية . يعتمد اساسا على نقل معرفة او قيم معينة .

٢ — **الانماط** : وهي التتابعية الخاصة لمجموعة من الموتيفات التي تحدد كيفية سير الحكاية الشعبية .

٣ — **الواقعة** : وتمثل حدثا واحدا يعتمد في استكمال معناه على السياق الذي يشكل جزءا منه . لذلك يمكن للواقعة الانضمام الى قصص مختلفة .

بعد هذه التحديدات المنهجية ، يشير المؤلف الى النظريات العديدة التي حاولت دراسة نشوء الحكاية الشعبية : نظرية بربيه الذي يعتقد بتعدد اصول الحكاية الشعبية وبنجي الذي يرجع الحكاية الى اصل هندي — بوذي ثم انتشر عن طريق العرب او المغول . ثم يقوم المؤلف بمحاولة ارجاع بعض الحكايات الشعبية الى عصور مختلفة .

ان النقطة الهامة التي تسطفت في المقدمة ، هي تحليل عناصر الحكاية الشعبية نفسها ، لانه عبر هذه الخطوة الاولية ، نستطيع التقدم في البحث لمحاولة ارجاع الحكايات الى العصور المختلفة ، وبعد ذلك محاولة تحليلها بوصفها احدى الاشكال الثقافية الاولى ، والتي كانت منتشرة في الوسط الشعبي « الفلاحي » بشكل خاص .

التحليل الداخلي : ينتقل المؤلف بعد ذلك الى تحليل العناصر الداخلية للحكاية الشعبية ، فيتوقف عند ثلاث ظاهرات : البطل ، حكايات الخوارق ، المرأة .

أ — **البطل في الحكاية الشعبية** : ينطلق الكتاب في دراسته للبطل من مجموعة كبيرة من النماذج . لكنه يعود هنا فيركز أساسا على وظيفة الحكاية الشعبية « وبهذا المفهوم ، تكون وظيفة الحكاية الشعبية هي التعويض عن عدم مقدرة الانسان على تحقيق رغبات معينة ، كان من الصعب عليه تحقيقها » . انطلاقا من هذا الفهم الوظيفي يتحدد البطل عبر خمس مسائل :

١ — تبرز الحكاية الشعبية الابطال وحدهم دون الاخرين .

٢ — الابطال هم نماذج بشرية وليسوا شخصيات بعينها .

٣ — يتخطى البطل — النمط حدود الواقع بالخيال .

٤ — تحاول الحكاية الخرافية دائما أن تضع بديلا للواقع المؤلم .

٥ — تعكس الحكاية الشعبية مسألة الفقر ، ومسألة الصراعات الطبقية .

يصل المؤلف الى مفاهيمه هذه انطلاقا من دراسة تحليلية لمجموعة هائلة من قصصنا الشعبية ، عبر دراسة القاسم المشترك الذي يوحدها .

ب — **حكاية الخوارق** : يحدد المؤلف مفهوم حكايات الخوارق بوصفها « الحكايات التي تتضمن جزئيات ذات مضمون خارق للعادة » . ثم يتوقف عند ثلاث ظواهر :

١ — الغيلان : حيث يثبت رأي الاخوين جريم في كونها انتاجا آريا كاملا . ثم يميز بين الغول الشرير والغول الطيب من خلال القصص التي يقوم بتحليلها حتى يصل الى نتيجة علمية . فقصص الغيلان تتضمن جزئيات واقعية وجزئيات متخلفة عن الواقع. ثم يستنتج استنتاجا وظيفيا : « الا يجوز لنا الاعتقاد ، بأن الوجدان الشعبي قصد بالغول ، اولئك الاشياخ والمتنفذين المستغلين ، طوال عصور الظلام في بلادنا منذ افول مجد الدولة العباسية وعبر فترات الحكم الاجنبي . كذلك كل رموز الاستغلال واضطهاد الانسان للانسان » .

٢ ـ الجن : في المعتقد الشعبي أنها مخلوقات سبقت خلق آدم .

٣ ـ السحر : المبثوث في ثنايا الحكاية الشعبية والذي يشير الى الخوارق والى الخيال الشعبي .

ج ـ **المرأة** : تنظر الحكاية الشعبية الى المرأة أساسا من زاوية الجنس . فهي اسيرة تركيبها الطبيعي . فالمرأة تخضع للرجل ، لذلك نجد في الكثير من الحكايات الشعبية قصص ضرب النساء . ثم يقوم المؤلف برد ظاهرة شيوع قصص التنافس بين النساء على الرجل الى كون الرجل هو المنتج الوحيد في المجتمع . ثم يتوقف عند ظاهرة الام التي تبرز في اغلب القصص الشعبية اما حنونة تعطف على بنيها . كما تظهر في المقابل بشكل امرأة متحكمة لا يهمها سوى سعادتها الشخصية . وتصور الحكايات العجوز بأنها امرأة شريرة ، لانها تحاول فرض سيطرتها على ابنها وزوجته .

وبعد هذه الظاهرات الثلاث ، يتوقف المؤلف عند ثلاثة انماط من الحكاية الشعبية :

١ ـ **الحكاية المرحة** التي هي احدوثة تروي حكاية نادرة أو سلسلة من النوادر وهي متعددة الاهداف : تسري على سامعيها ، انتقاد الحاكم الظالم ، وعظ ديني ، سخرية مجردة وانتقاد بعض الآفات الاجتماعية .

٢ ـ **حكاية الحيوان** وهي حكايات قصيرة كذلك، ترتكز على حوارات الحيوانات ، لها مغزى تعليمي غالب ، او تقوم بتفسير بعض الظاهرات الطبيعية في عالم الحيوان ، كما تشرح ظاهرات معروفة كالعداوة بين الكلب والقط مثلا ، وفي بعضها ترمز الحيوانات للانسان .

٣ ـ **الارث الاسطوري** ، لا يوجد آلهة متعددة في الارث الاسطوري الفلسطيني ، لذلك هنالك حكايات اسطورية ترتكز على الانبياء والاولياء الصالحين . وهي تشمل ابناء الديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام . ويرى المؤلف وظيفة الحكاية الاسطورية بأنه « يظهر انه قد انبثق عن الوجدان الشعبي وبتأثير معتقدات دينية رسمية حكايات تعكس معتقدات شعبية توضح ذلك المعتقد الديني المقرر » .

اما القسم الاخير من الكتاب فهو مجموعة كبيرة من الحكايات الشعبية ، جرى جمعها بطريقة مباشرة من الرواة . وهي في حوالي ٨٠ صفحة قطع كبير . هذا القسم بالغ الاهمية ، لانه يجمع النصوص كما هي دون تحوير او تعديل ، ويسمح بذلك للباحثين بمتابعة دراسة هذا الموضوع انطلاقا من معطيات كتاب نمر سرحان .

ان اهمية هذا الكتاب تدفعنا الى طرح ثلاث مسائل :

١ ـ يقدم المنهج الوظيفي ، بعض التفسيرات الاولية ، استنادا الى الوظيفة المفترضة للحكاية الشعبية . لكن تصور هذا المنهج يبدو واضحا ، حين نحاول دراسة الحكاية الشعبية بوصفها لحظة في تطور الوعي . اي ينبغي دراسة تطور الحكاية الشعبية ـ تاريخيا ـ وربط هذا التطور بنيويا بالوعي الشعبي ، او فيما يسمى العناصر الديمقراطية في الثقافة الشعبية . لا تهدف هذه الملاحظة الى التقليل من قيمة المجهود التحليلي الممتاز الذي قام به نمر سرحان ، لكنها تشير الى ضرورة متابعة هذا النوع من الدراسات على قاعدة منهجية متقدمة .

٢ ـ كذلك يظهر تساؤل حول مدى فلسطينية الحكاية الشعبية . فالظاهر ان اغلب الحكايات الشعبية التي جمل تجميعها داخل البيئة الفلسطينية منتشرة في سوريا ولبنان . فما هي الفروق الصغيرة او الكبيرة التي تميز الحكاية الفلسطينية ؟ هل هي فروق في الانماط بشكل كامل ام هي مجرد فروق في الواقعة ؟ ان اهمية هذا السؤال كبيرة . ونحن لا نقول ان مهمة سرحان في كتابة هذا هو الاجابة عليه . لكنه سؤال لا بد وان يواجه اي تطوير لهذا الكتاب ، باتجاه دراسات اكثر عينية للحكاية الشعبية .

٣ ـ اما المسألة الثالثة البالغة الاهمية ، فهي ان كتاب سرحان لا يسد فقط نقصا في المكتبة العربية ، لكنه يستطيع بالقضية التي طرحها أن يلعب دورا هاما داخل الادب الفلسطيني والعربي. فاستعمال أسلوب الحكاية الشعبية بدأ في الرواية الفلسطينية مع اميل حبيبي في « سداسية الايام الستة » وهو قادر على ايحاء اشكال لا حصر لها يستطيع الادب المناضل الاستفادة من « عناصرها الديمقراطية » في تطوير اشكاليته .

ان النقطة الهامة التي يشير اليها هذا الكتاب ، هي ضرورة دخول الفكر الفلسطيني ميدان البحث التراثي الشعبي ، لانه ميدان هام وبالغ الدلالات.

يضيء الكثير من الجوانب الغامضة وله انعكاسات هامة على جميع المستويات — التربوية والادبية والسياسية .

قمر جرش
كان حزينا

داخل مجزرة ايلول يرتفع الصوت الشعري . الدم الذي يغطي الطرقات والساحات ، يصبح على الورق كذلك صراعا دمويا حادا . يتوقف داخل اللحظة الدموية ، دون ان يستطيع التقاط أنفاسه ، فيخرج مشحونا برومانسية متفجعة ، وارادة على كتابة مراثي الزمن النضالي دون التخلي عن الاصرار النضالي نفسه ، داخل عرس الدم الفلسطيني ، تتكون الممارسة النضالية العربية . وهنا يحاول الشعر اختراق لحظة الرعب للوصول الى الغنائية النضالية . يتابع المناصرة في مجموعته الجديدة « قمر جرش كان حزينا » الخط الذي بناه لنفسه في مجموعتيه السابقتين . فالنبرة الاجتماعية المقاومة التي كانت ترتفع في قصائده لتشكل عالما رفضيا للواقع العربي الراهن ، تتابع هنا ، وان كانت تميل اكثر الى اللهجة الرومانسية التحريضية التي شكلت في السابق التيار الثاني داخل لغته الشعرية . فالشاعر لا يزال يصر على الانتساب الى الشعر « المقاوم » . يتعامل مع الشعر بوصفه سلاحا نضاليا واغنية نضالية . لذلك لا نتعجب من خفوت البحث التشكيلي في بنية قصيدته . انه يبحث عن الفاعلية اساسا . لذلك يرتفع الصوت المباشر في شعره ، ليشير الى المشكلات ، رافعا اصبع الاتهام : « لا تتولي : هم الموت انهم في الزمان .. الحقير علامات شؤم تزول » .

غير ان اصبع الاتهام حين يرتفع ، فانه يقف على ارض الحنين والغربة . فالحنين الى الارض — الخليل — يبقى هنا في خلفية جميع القصائد ،

الارض هي النبع الذي منه ينفجر الشعر :

« عابرا نحو نبعك اني رحلت وطفت كل ...
البلاد — عن الوهج الساحلي عابرا وعدت ..
اشيل الاياب » .

يتشكل هذا الحنين الى الارض ، داخل عالم التشابيه التروية . فالشعر لا يزال تشبيها ، يقترب من الصورة الشعرية ، ثم يتابع في حلقة الحنين الرومانسي ، حيث تأتي الام لتشكل امتداد الارض ، فتنتصب الدموع خيمة من الاحزان . بين الارض والام يتكامل الشوق الفلسطيني داخل الهاجس الاساسي : الحرقة والحزن . لذلك يصبح للشعر لحنا حزينا . ينتصب الحس الجماعي ، وتأتي الام لتصبح ام الجميع :

« امي تبكيك كما لو كانت امك — امي الفلاحة
تنصب خيمة حزن — فلقد قتلوا وائل »

الموت الجماعي داخل المجزرة ، يصبح الموت احتفالا جماعيا ، فيأتي الشعر ليوحد اللغة بالاجساد التي تتساقط . هنا يأخذ الانتساب الى الارض مدلوله الواقعي . لكن اللحظة الشعرية ، تبقى بعيدة عن العرس الجماعي . تحاول ان تنتقل بين لحظة الموت ولحظة التأمل . فتأتي صدى للموت . « كاتبت الموت وكاتبني هذا الاسبوع » : لكن لحظة الموت ، تعود وتوحد الجميع فيداخلها ، فيرتفع صوت الامل المباشر . يعتمد هذا الامل في تكونه وحركته على رصف اللحظات خلف بعضها ، وحين يلجأ الى الصورة ، فانه يتوقف عندها لحظة ليشير الى الفصل الذي يأتي . هكذا تصبح القصيدة تتابعية في بنيتها ، لا تبحث عن اكثر من الدلالة المباشرة . تصبح شعارا سياسيا يغني المرحلة :

« في الزمن الاتي ، نولد في الزمن الاتي

عز الدين المناصرة : **قمر جرش كان حزينا**
دار ابن خلدون — بيروت — الطبعة الاولى — نيسان ١٩٧٤ .

المح طيف حبيبي يولد في جسدي قمحا

وبحارا ودموع

يتناسل اطفالا يبكون صباحا

من وخز الجوع » .

هذه الغنائية التي يبحث عنها الشاعر ، تعود الى صفائها القديم في قصيدته « وحيدا ذات مساء » . هنا يعود اللحن الشعري وقد استكمل الامساك باللحظة الفعلية ، ويجري الشعر ، امتدادا طويلا من الرغبة والانتظار والنداء داخل الحلم الثوري ، يصبح لايقاع الكلمات بعدا خاصا داخل الوزن الشعري ، وداخل ايقاع القصيدة الشامل :

« اعيدوا الي شفاهي

اعيدوا انتظاراتنا في المحطات عبر اللهيب

اعيدوا الي الحبيب الحبيب

الشعر والاصوات المتعددة تتعدد الاصوات ، داخل الحركة الشعرية الفلسطينية . فالشعر الفلسطيني الطليعي ، يقوم بمراجعة ادواته الفنية من اجل الوصول الى القصيدة المتعددة الاصوات، حيث تعلو النبرة الدرامية ، وتصبح فلسطين لحظة عربية شاملة . ففي شعر دحبور الاخير ، محاولة للوصول الى هذه البنية المركبة ، دون التخلي عن فرح البدايات الاولى ، حيث كان الشعر نشيدا، ينطلق من المخيم ليــــدين ، او ليمتد امتــدادا رومانسيا فاجعا ، او ليصوغ اهجيــة شعريــة يمتزج فيها الحقد باللهب . هذا التعدد داخــل الحركة الشعرية الواحدة ، هو دليل قدرة الحركة هذه على تجاوز اطاراتها السابقة . لكن المناصرة في مجموعته الاخيرة ، بقي مصرا علــى نقطــة المنطلق . يحاول ان يطور ادواته الشعرية مــن داخل هذه النقطة ، حيث يبقى الصوت المباشر ، واحتجاجية الادانة الجماعية . غيــر انــه حين يتوحد بالجراح بشكل كامل ، يعود الى غنائيته الجميلة ، فيعطينا شعرا بالغ الشفافية والدلالة . « قمر جرش كان حزينا » . محطة اخــرى في شعرنا الفلسطيني . لحظة اخرى تدلل على قدرة الممارسة على تطعيم الشعر العربي بدلالاتهــا الفنية . وهو بوصفه كذلك يحمــل امكانيــة التجاوز . وصولا الى القصيدة . المناصرة فــي مجموعته يعود من جديد الى عالمه الشعري باحثا عن القصيدة الشاملة . من هنا فهو يشير الــى امكانية الوصول الى الشكل الشعري المتوتر حيث تأتلف غنائيته بالبحث التشكيلي .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

البيان المصري الاردني

دخلت مسألة التمثيل الفلسطيني ومصير الاراضي الفلسطينية المحتلة مرحلة دقيقة وحرجة في الشهر الماضي بصدور البيان المصري – الاردني المشترك (١٨/٧) الذي انتهت به محادثات الملك حسين والرئيس السادات في الاسكندرية . فقد أعلن الجانبان « ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي للفلسطينيين باستثناء الفلسطينيين المقيمين في المملكة الاردنية الهاشمية . ويتفق الجانبان على وجوب اشراك منظمة التحرير الفلسطينية مستقلة في اعمال مؤتمر جنيف في المرحلة المناسبة تأكيدا لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . كما اتفق الجانبان على ضرورة التوصل الى اتفاق فك الارتباط على الجبهة الاردنية كخطوة أولى نحو الحل السلمي العادل » .

ومن منطوق البيان كان واضحا ان مصر قد اتخذت موقفا جديدا ازاء مسألة التمثيل الفلسطيني ودور الاردن في هذه المسألة . فمنظمة التحرير الفلسطينية حسب هذا البيان لم تعد هي الممثلة الوحيدة للشعب الفلسطيني وانما يشاركها في هذا التمثيل النظام الاردني الذي فاز بحصة الاسد ليس في حجم وعدد من « يمثلهم » فحسب ، وانما من حيث الاهمية السياسية لمسألة تمثيل الفلسطينيين المقيمين في المملكة الاردنية ، باعتبار ان المعنيين هنا هم المقيمون في فلسطين الوسطى (الضفة الغربية) التي لما يزل النظام الاردني يعتبرها جزءا من مملكته . كذلك فقد فوض البيان – على الاقل راهنا وفي المدى المنظور – النظام الاردني بالتصرف بمصير ارض فلسطين الوسطى من خلال مفاوضات مع اسرائيل تستهدف ايجاد تسوية ما بخصوص هذه الارض ، تسوية طرفاها الاردن واسرائيل وبمعزل عن ارادة منظمة التحرير. ولا يمكن ان يفهم الا كذلك تعبير « فك الارتباط على الجبهة الاردنية » الذي ورد في البيان . فهذا الاصطلاح المستحدث الذي دخل قاموس الشرق الاوسط بعد حرب تشرين استخدم اساسا لمعالجة التحام القوات العربية والاسرائيلية على الجبهتين المصرية والسورية ، حيث تداخلت مواقع هذه القوات نتيجة عمليات حرب تشرين العسكرية ، وهذا الامر لا ينطبق من قريب او بعيد على الجبهة الاردنية التي كانت بمنأى عن هذه العمليات بسبب امتناع النظام الاردني عن الاشتراك في الحرب .

لقد وجدت حركة المقاومة نفسها بسبب هذا البيان وتبعاته المستقبلية امام حالة جديدة ابرز ملامحها انها وضعت في موضع التناقض ، بالنسبة لفهم مسألة التمثيل الفلسطيني ومستقبل الارض الفلسطينية المحتلة ، مع مصر التي تعتبر من حلفاء المقاومة . وكان واضحا من خلال النشاط السياسي الذي قامت به حركة المقاومة بعد حرب تشرين ان حركة المقاومة تعلق اهمية كبيرة على هذا التحالف للاستفادة من المعطيات والحقائق الجديدة التي أفرزتها حرب تشرين لتحقيق « الممكن الوطني » الذي تجسد في البرنامج المرحلي ذي النقاط العشر الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة والذي محوره الاساسي النضال ، عسكريا وسياسيا ، من اجل اقامة سلطة الشعب الوطنية على الارض الفلسطينية التي سوف تجلو عنها اسرائيل . غير ان صدور البيان المشترك الذي أعطى النظام الاردني « حق » التصرف بمصير هذه الارض الفلسطينية اسقط موضوعة التحالف الاساسية ، وجعل جدية هذا التحالف نفسه في موضع تساؤل .

كان بيان الاسكندرية محبطا اذن من حيث انه جاء مخيبا لما راهنت عليه بعض القيادات الفلسطينية ، استراتيجيا ، بالنسبة لما يمكن ان تقوم به مصر من دور فاعل ومؤثر في موازين القوى الراهنة تجاه مصير الاراضي الفلسطينية المحتلة ، غير انه بالاضافة الى ذلك فقد اعطى الدعم والتغطية لموقف النظام الاردني في تحركه السياسي الهادف الى اعادة سلطته (او تسلطه) على فلسطين الوسطى او اجزاء منها بموجب مشروعه القديم (المملكة العربية المتحدة) الذي لم يعلن النظام الاردني رسميا تخليه عنه ، مما يفتح الباب واسعا امام النظام للتصرف — بمظلة البيان المشترك والمباركة المصرية — بقسط وافر من مستقبل القضية الفلسطينية .

بجانب ذلك ، فقد وجه بيان الاسكندرية طعنة الى انجاز ضخم حققته حركة المقاومة بنضالها العسكري والسياسي طوال السنوات الماضية تمثل في اثبات وحدة الشعب الفلسطيني في مختلف أماكن تجمعاته ، في الوطن وفي المهجر ، ووحدة حقوقه ومصالحه ، وبالتالي وحدة تمثيله . وقد جاءت هذه الطعنة من خلال تقسيم الشعب الفلسطيني قسمين (ربما شعبين) : من هم في المملكة الاردنية الهاشمية (بضفتيها) ومن هم خارجها . وفي تقديرنا ان هذا هو أخطر ما في البيان . لانها السابقة الاولى — تاريخيا — التي يصدر فيها بيان رسمي عربي يجزىء الشعب الفلسطيني ويجعله اثنين . حتى النظام الاردني بكل دعاواه بحقه في تمثيل الفلسطينيين المقيمين في الاردن كان ينطلق في هذه الدعاوى من اعتبار الفلسطينيين المقيمين في ضفتي الاردن مواطنين اردنيين مستندا الى « وحدة » الشعبين التي تمت بمؤتمر اريحا في العام ١٩٤٨ . وهذه السابقة الخطيرة ان كرست يمكن ان تفتح الباب واسعا للتشكيك في مصداقية تمثيل المنظمة لـ « وحدة الشعب الفلسطيني » ، وهي مصداقية اكتسبتها المنظمة من خلال نضالها الطويل ، ولكن دخل فيها ايضا الاجماع العربي في هذا الصدد .

هذه ابرز ملامح الحالة الجديدة التي وجدت المقاومة نفسها في مواجهتها بعد صدور بيان الاسكندرية . واذا كانت هذه الحالة قد بدت في مظهرها انها **مفاجئة** ، فمن المفيد ان نشير الى حوار جرى بين السادات والصحافيين في ٧/١٥ سئل فيه السادات : هل يعقد المؤتمر الرباعي — المصري ، السوري ، الاردني ، الفلسطيني — قبل انعقاد مؤتمر القمة العربي في الرباط ، فكان جوابه « بالتأكيد » ، في الوقت الذي كانت المنظمة تعارض هذا المؤتمر والاشتراك فيه ما دامت مطالبها بالنسبة للاردن لم تتحقق . هذا التأكيد يفسر حاجة الرئيس المصري الى اجماع عربي على زعامته وقيادته للعالم العربي باتجاه التسوية التي يعتقد السادات ان مفتاحها بيد الولايات المتحدة . وبذلك فالموقف المصري الاخير هو محاولة اثبات هذه الزعامة التي ارادها السادات ان تسري على حركة المقاومة ايضا ، واذا اخذت هذه الحقيقة بعين الاعتبار واضيف اليها ان التصور الاميركي للتسوية في الشرق الاوسط يدخل في حسابه الدور الاردني ، ما دام النظام الاردني لم يستنفد بعد مهماته ضمن الاستراتيجية الاميركية في المنطقة العربية ، يمكن ان يفهم ان الموقف المصري الجديد كان استجابة — ان لم تكن مباشرة فهي غير مباشرة — لهذا التصور الاميركي .

اما بالنسبة للموقف الاردني فيفسر من خلال ادراك حقيقة واحدة هي استحالة اقرار النظام بأن منظمة التحرير هي الممثلة **الوحيدة** للشعب الفلسطيني ، لان النظام بتسليمه بهذه الحقيقة يضع نفسه بنفسه في موضع التساؤل عن وجوده ذاته ما دام تمثيله لا يشمل ثلاثة ارباع من يعتبرهم مواطنيه . ان الرعوية الاردنية في حال تسليم النظام بأن منظمة التحرير هي الممثلة الوحيدة للفلسطينيين بمن فيهم « الفلسطينيون الاردنيون » تصبح بحاجة الى نقاش . وربما هذا هو جانب مما قصده الاخ فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة ، بتصريحه لصحيفة « النهار » (٧/١٨) بقوله « ان علم السياسة بكل ما فيه من ضرورات المرونة لا يجد بيننا وبين النظام الاردني الذي يرئسه الملك حسين اي صورة من صور المصالحة الا اذا سلم الملك بشروط تؤدي في الواقع الى زوال النظام الاردني من الوجود » .

بجانب هذه الحقيقة ، فان الشكل الاميركي للتسوية ، وان كانت تفاصيله غير مصممة بعد ، فان احد أسسه المهمة — كما يبدو حتى الان — مبنية على عدم التفريط بالنظام الاردني وادخاله

في اللعبة ، والاعتماد عليه في مهمة المحافظة على بقاء المصالح الاميركية في المنطقة . واذا اعتبر تسلم الشعب الفلسطيني لمقاليد ارض محررة يقيم عليها سلطته الوطنية بكل ما سوف تحمل هذه السلطة من تراث ثوري ودعم من دول المعسكر الاشتراكي ، مناقضا لمصالح الولايات المتحدة في المنطقة فان ابقاء التسلط الاردني على الارض الفلسطينية يعتبر جزءا مهما من الاستراتيجية الاميركة . وقد نشر مراسل « معاريف » الاسرائيلية (٧/٢٥) في واشنطن تصريحات ادلى بها كيسنجر الى مجموعة من الزعماء اليهود ابلغهم فيها بأن اقامة دولة فلسطينية أمر مناقض لمصالح الولايات المتحدة وان واشنطن ستعترض على أي مبادرة في هذا الاتجاه .

كانت ردة الفعل الفلسطينية تجاه البيان المصري ـ الاردني حاسمة وواضحة ، فقد اصدرت جميع فصائل حركة المقاومة بيانات شجبت فيها بيان الاسكندرية . أما منظمة التحرير فقد صرح الناطق الرسمي باسمها (٧/٢١) بان اللجنة التنفيذية عقدت دورة طارئة اثر صدور البيان المصري ـ الاردني المشترك وقد درست اللجنة هذا البيان على ضوء محتواه والمعلومات المتوفرة . واضاف الناطق ان اللجنة التنفيذية تؤكد تمسكها بالاسس التالية : « ١ ـ ان الشعب الفلسطيني في سائر أماكن تواجده وحدة غير قابلة للقسمة او التجزئة والثورة الفلسطينية كحركة تحرير وطني تناضل منذ انطلاقتها من أجل تكريس هذه الوحدة وحمايتها . ٢ ـ ان قرارات المجلس الوطني التي أكدت حق شعبنا في اقامة سلطته الوطنية المستقلة المناضلة على كل جزء من الارض الفلسطينية يجري دحر الاحتلال عنها ، ان هذه القرارات تتعارض مع أية دعوات لاقتسام ارضنا وطمس هويتها الوطنية تحت أية تسمية كانت كنك الارتباط او من خلال أية مشاريع تصفوية . ٣ ـ ان قرارات المجلس الوطني اكدت على رفض طمس حقوق شعبنا الوطنية والقومية ، او التعامل مع قضية شعبنا كقضية لاجئين ، وضمن هذا الاطار أكدت القرارات رفضها للتعامل مع قرار ٢٤٢ على اي مستوى عربي او دولي بما في ذلك مؤتمر جنيف . ٤ ـ ان اقتطاع جزء من شعبنا وادعاء تمثيله من جانب أية دولة عربية يقود الى نتائج خطيرة ويفتح الباب واسعا أمام مشاريع التوطين التصفوية خارج التراب الوطني الفلسطيني . ٥ ـ ان منظمة التحرير الفلسطينية ممثل شعبنا الشرعي والوحيد ولا يحق لاية جهة عربية او دولية ان تقرر أية خطوة تتعلق بمصيره وارضه بمعزل عنها كما نصت على ذلك قمة الجزائر » . وقال الناطق الرسمي ان اللجنة التنفيذية ستصدر بيانا شاملا بعد انتهاء دورة اجتماعاتها .

في هذه الاثناء طلبت الحكومة الاردنية (٧/٢٠) من الامين العام لجامعة الدول العربية تأجيل اجتماع مؤتمر القمة العربي المقرر عقده في الرباط في ٣ ايلول (سبتمبر) وكان القصد من تأجيل المؤتمر واضحا هو اكتساب الوقت للقيام بتحركات سريعة تحت غطاء البيان المصري ـ الاردني من أجل التوصل الى خلق واقع جديد لمصلحة النظام نفسه بحيث يوضع مؤتمر القمة في حال انعقاده المؤجل أمام هذا الواقع الجديد . وقد ادركت قيادة المقاومة القصد من هذا التأجيل فأبرق الاخ ابو عمار الى أمين عام جامعة الدول العربية يطلب « ضرورة الاسراع في عقد مؤتمر القمة العربي لمواجهة هذه التطورات ولمراجعة المواقف العربية الخاصة بمقررات مؤتمر القمة العربي السادس بالجزائر المتعلقة بالشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية وقضية التحرير المقدسة ، خاصة وان هنالك محاولات تجري في الخفاء لوضع الامة العربية امام واقع جديد يمس جوهر وكيان ووجود الشعب الفلسطيني » (وفا ٧/٢٢) . وفي ٧/٢٤ أصدرت اللجنة التنفيذية بيانا علقت فيه على بيان الاسكندرية وتأجيل القمة العربية وقد جاء فيه « ١ ـ ان البيان المصري ـ الاردني ينتقص حق شعبنا الفلسطيني في تقرير مصيره وسيادته الكاملة على ارض وطنه ويمس وحدة تمثيله ... وعليه فان اللجنة التنفيذية تعلن باسم شعبنا الفلسطيني في سائر أماكن تواجده رفضها لهذا البيان ولكل ما يترتب عليه من نتائج تمس حقوق شعبنا وقضيته . ٢ ـ ان ما تضمنه البيان من محاولة لتجزئة الشعب الفلسطيني يخدم عمليا الحل الاميركي ـ الصهيوني ـ الهاشمي الذي يرمي الى حرمان شعبنا من حقوقه واقتسام وطنه وطمس شخصيته الوطنية المستقلة الواحدة وضرب ثورته ، وبالتالي تمرير مشروع المملكة العربية المتحدة التصفوي المشبوه . ٣ ـ ان

البيان المصري — الاردني يمثل خروجا على الاجماع العربي الرسمي والشعبي الذي اقر ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني كما يتناقض مع مقررات مؤتمر القمة العربي السادس في الجزائر ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور ومؤتمر القمة الافريقي في الصومال ومؤتمر القمة لدول عدم الانحياز في الجزائر ومواقف سائر البلدان الاشتراكية والصديقة . ٤ — ان الدعوة الى تحقيق ما يسمى بفك الارتباط على الجبهة الاردنية التي شهدت تواطؤ وخيانة النظام الاردني خلال حرب تشرين المجيدة مع العدو انما يستهدف تجديد اقتسام وطننا بين حكم الاردن والعدو الصهيوني ومنع الثورة الفلسطينية من تحقيق اهداف شعبنا في هذه المرحلة ببعث كيانه الوطني واقامة سلطته الوطنية المستقلة كخطوة على طريق استمرار النضال لتحرير كامل التراب الفلسطيني واقامة الدولة الديمقراطية الفلسطينية . ٥ — ان ادعاء النظام العميل في الاردن تمثيل جزء من شعبنا يهدف الى تنفيذ مؤامرة التوطين الاستعمارية ... ٦ — ان الدعوة لتاجيل انعقاد مؤتمر القمة محاولة مكشوفة لضرب استمرار التضامن العربي على اساس قرارات قمة الجزائر وكسب الوقت لتمرير مشاريع مشبوهة تفرض واقعا جديدا على شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية ...»

على الصعيد العربي ، كان موقف سوريا واضحا منذ البداية فقد طالبت بأن يعقد مؤتمر القمة في موعده في برقية وجهها وزير خارجيتها الى رياض في ٧/٢٢ . وقد وصف الاخ زهير محسن ، رئيس الدائرة العسكرية في المنظمة هذا الموقف بقوله « عبرت سوريا مباشرة عن رد فعلها الاولي من خلال البرقية التي أرسلها السيد عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السورية ، الى الامين العام لجامعة الدول العربية ، معربا فيها عن رفض سوريا القطعي والشديد لاقتراح الاردن تأجيل مؤتمر القمة العربي . وواضح ان طلب تأجيل مؤتمر القمة مرتبط ارتباطا وثيقا ومباشرا بما تم في الاسكندرية وما تضمنه البيان المصري — الاردني » (النهار ٧/٢٦) . وذكرت « وفا » (٧/٢٥) ان الرئيس حافظ الاسد اكد للاخ ابو عمار خلال اجتماعه به في اليوم نفسه موقف سوريا الثابت من ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني طبقا لقرارات مؤتمر قمة الجزائر . وقد عبر الرئيس الاسد عن هذا الموقف علنا في ٧/٣٠ في مؤتمر اتحاد الصحافيين العرب المنعقد في دمشق بقوله « عندما نتحدث عن حقوق الشعب العربي الفلسطيني ينبغي ان نؤكد ان صاحب الرأي الاول في تقرير هذه الحقوق هو شعب فلسطين نفسه ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية التي اعترفنا بها جميعا وحرصنا على ان تأخذ دورها في المجالات العربية والدولية . وأحب أن يعلم كل من يرغب في اقرار السلام في هذه المنطقة ان عليه اولا وقبل كل شيء ان يناقش مسألة الحق الفلسطيني مع منظمة التحرير الفلسطينية » .

وكان واضحا كذلك موقف الجزائر فقد صرح السيد محمد يزيد ، السفير الجزائري في بيروت ، (٧/٣٠) بـ « ان موقف الجزائر ثابت لا يحتاج الى توضيح أو تأكيد . انما نكرر ان الجزائر اعترفت منذ سنوات عدة وقبل مؤتمر القمة العربي الاخير الذي انعقد في الجزائر بأن منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها ورئيس لجنتها التنفيذية هم الممثلون الشرعيون الوحيدون للشعب الفلسطيني حيثما وجد داخل الارض المحتلة او خارجها » .

كذلك أصدرت وزارة الخارجية الليبية بيانا (٧/٢٩) جاء فيه ان الجمهورية العربية الليبية « تؤيد تأييدا مطلقا البيان الذي أصدرته منظمة التحرير الفلسطينية والذي حددت فيه موقفها من البيان المصري — الاردني »، ودعا البيان « الشعب العربي في كل مكان ، ومنظماته الشعبية واتحاداته ونقاباته وهيئاته وأفراده لاعلان تأييدها الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية » .

على الجانب الاخر ، التقطت اسرائيل الاشارة وتبنت الحكومة الاسرائيلية قرارا في ٧/٢١ منسجما مع بيان الاسكندرية . وقد جاء في هذا القرار ما يلي بالنسبة للاردن « ان الحكومة الاسرائيلية ستقوم بالخطوات اللازمة لتبدأ مع الاردن مفاوضات من أجل التوصل الى اتفاق سلام . وهذا السلام سيرتكز على وجود دولتين مستقلتين على جانبي نهر الاردن . من جهة اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة ، ومن جهة ثانية ، شرق اسرائيل ، دولة اردنية فلسطينية تتقرر حدودها مع اسرائيل في المفاوضات . وفي هذه الدولة سيجد الكيانان المستقلان ، الفلسطيني والاردني ، تعبيرا عن

أنفسهما ، وذلك في اطار السلام وعلاقات حسن الجوار مع اسرائيل » . وقد كان قرار الحكومة الاسرائيلية استجابة فورية لبيان الاسكندرية .

اما بالنسبة لصيغة « فك الارتباط » على الجبهة الاردنية ، فعلى الرغم من الاقتراحات الاردنية بسحب القوات العسكرية عشرة كيلومترات عن جانبي النهر ، الا ان الصيغة الاسرائيلية هي الصيغة التي صرح بها رابين الى صحيفة « يديعوت أحرونوت » (٧/٢٦) بقوله « ان اسرائيل تقبل التفكير في فك ارتباط عملي لاجغرافي مع الاردن » وأوضح رابين انه يعني ان تظل القوات الاسرائيلية على نهر الاردن مع امكان اعادة مناطق واسعة من الضفة الغربية الى الادارة المدنية الاردنية . والظاهر ان هذه الصيغة تحظى بالموافقة الاميركية فقد أوردت « معاريف » (٨/١) ان كيسنجر وافق على ما عرضته اسرائيل من انه من غير المقبول الموافقة على فصل القوات في الجبهة الاردنية كما يقترح الاردن ، وتفضل اسرائيل التوصل الى تسوية تشمل عودة الادارة المدنية الاردنية الى بعض مناطق الضفة الغربية من دون ان تغيب عنها الوجود العسكري الاسرائيلي .

لقد كانت الحملة الفلسطينية على البيان مركزة وحاسمة ، وازاء ذلك ظهرت « توضيحات » مصرية ظهرت كأنها تراجع عن مضمون البيان ، فقد أدلى اسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصرية ، بتصريح نشرته « الاهرام » (٧/٩) قال فيه « ان المقصود بالنص الوارد في البيان المشترك من ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي لشعب فلسطين ما عدا الفلسطينيين من رعايا المملكة الاردنية الهاشمية ، المقصود هو ان المنظمة تمثل كل الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة » . وذكر فهمي « ان الطرف الاردني متفق على ان الضفة الغربية كانت وديعة لدى الاردن كما ان قطاع غزة وديعة لدى مصر حتى يقرر أصحابها مصيرهم بحرية وينالوا حقوقهم الوطنية المشروعة » . وقد رد الاخ فاروق القدومي في تصريح للنهار (٧/٢٠) على ما ذكره فهمي ، بقوله « ان الملك حسين سيتمسك بحرفية نص البيان وليس بتفسير السيد فهمي . كما ان اعطاء الاردن حق اجراء فك ارتباط يتنافى مع تفسير السيد فهمي لان ذلك معناه ان الملك حسين يمثل الضفة الغربية والشعب فيها وليس فقط الضفة الشرقية » . وقد تأكد تمسك الاردن بنص البيان بعد « التوضيح » الثاني الذي قدمه فهمي لبيان الاسكندرية . فقد ذكرت « الاهرام » (٨/٥) ان فهمي ابلغ أحد موظفي الدائرة السياسية في منظمة التحرير ، موقف مصر الذي يتلخص في النقاط التالية : ● ان مصر ملتزمة بعدم عودة الضفة الغربية الى السلطات الاردنية المدنية والعسكرية لان هذه الاراضي ارض الشعب الفلسطيني وعلى ممثليه الشرعيين ان يحددوا عند فك الارتباط في الجبهة الاردنية دورهم في تحمل مسؤولياتهم الوطنية والقومية والدولية . وهذا ما التزم به الملك حسين في محادثاته مع الرئيس السادات . ● ان مصر كما أكد السادات لا تنوب عن الفلسطينيين كما ترفض ان ينطق باسم الشعب الفلسطيني أينما وجد غير ممثلي الشعب الفلسطيني . ● ان مصر تؤيد تماما اقامة سلطة وطنية فلسطينية مستقلة على أي ارض تجلو عنها اسرائيل سواء من خلال مؤتمر جنيف او بالعمل العسكري في حال مماطلة العدو دعما لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية . ● ان رفض مصر مشروع المملكة العربية المتحدة معروف منذ اعلانه عام ١٩٧٢ وقد أكد السادات هذا الموقف أمام المؤتمر الشعبي الفلسطيني الذي عقد في القاهرة . ● ان مصر رحبت وتبنت اقتراح عقد مؤتمر ثلاثي يضم مصر وسوريا وفلسطين في القاهرة للبحث في هذه النقاط .

غير ان هذا التوضيح المصري قوبل بتأكيد اردني ينقض ما ورد فيه ، فقد صدر تصريح لمصدر أردني رسمي (٨/٦) جاء فيه « ان الحكومة الاردنية قابلت التصريحات التى أدلى بها السيد اسماعيل فهمى ... حول الضفة الغربية وفك الارتباط على الجبهة الاردنية باستغراب » وقال المصدر الاردني « وفى هذه المناسبة تود الحكومة الاردنية ان تؤكد التزامها في ما اتفق عليه في محادثات الاسكندرية... حسب ما تضمنه بيان الاسكندرية المشار اليه بكل وضوح . ولا يسع الحكومة الاردنية الا ان تشير الى الاختلاف الواضح بين ما جاء في التصريحات الاخيرة للسيد اسماعيل فهمي وما تضمنه بيان الاسكندرية » . وقد أكد هذا الموقف الاردني زيد الرفاعي ، رئيس وزراء الاردن ووزير خارجيته ، في تصريح له لوكالة « رويتر » (٨/٧) قال فيه

ان حكومته تعتبر نفسها ممثلة للاردن بضفتيه وقد تمثل المنظمة الفلسطينيين في مناطق اخرى . وذكر انه لم يطلع بعد على تصريح فهمي . واضاف « اذا ثبت ادلاؤه بمثل هذا التصريح فانه يكون مخالفا للبيان المشترك الموقع خلال زيارة الملك حسين لمصر، والذي فهمنا ان مصر لا تزال ملتزمة به » .

وبهذا الفهم لبيان الاسكندرية بدأ النظام الاردني تحركاته السياسية برخصة من هذا البيان ، وكانت زيارة الرفاعي ثم الملك حسين الى الولايات المتحدة .

منظمة التحرير والاصدقاء في المنظومة الاشتراكية

في الوقت الذي كان البيان المصري — الاردني المشترك يشير الى شكل من أشكال التسوية التي تسقط من حسابها منظمة التحرير وتطلق يد النظام الاردني في التصرف بمستقبل القضية الفلسطينية ، كانت منظمة التحرير تحقق على الصعيد الدولي انجازا كبيرا في تحالفاتها مع دول المنظومة الاشتراكية خلال الزيارة التي قام بها وفد من المنظمة برئاسة الاخ ابو عمار الى الاتحاد السوفياتي وبولندا والمانيا الديموقراطية في الفترة من ٣٠ تموز الى ٩ آب . فنتائج هذه الزيارة التي تحققت على صعيد تعزيز علاقات حركة المقاومة بالمعسكر الاشتراكي وامكانات الدعم السياسي والمادي الذي سوف تتيحه هذه العلاقات المعززة ، وتكريس اعتراف قيادة هذا المعسكر بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، كل ذلك سوف يجعل موقف حركة المقاومة اكثر صلابة ، وبالتالي اوفر حظا في النجاح لدى تصديها لهذا الشكل من التسوية المثلثة الاطراف (اميركية — اسرائيلية — هاشمية) والتي تخدم أساسا المصالح الاميركية في المنطقة وتضمن للوجود الاسرائيلي فيها قاعدة ثابتة من الدوام والاستمرار. فأمام التنازلات الكبيرة التي بدأت بتقديمها بعض الجهات العربية لمصلحة التوجه الاميركي نحو التسوية والاذعان للشروط الاميركية التي وصل منحدرها السحيق بالتسليم بوضع مصير الارض الفلسطينية تحت تصرف النظام الاردني وبتمزيق وحدة الشعب الفلسطيني ، كان على حركة المقاومة ان تخوض معركتها لمواجهة هذه التسوية التصفوية مستفيدة من حلفائها الدائمين في المعسكر الاشتراكي الذين لهم هم ايضا مصلحة في الوقوف في وجه التسلل الاميركي في المنطقة ، الامر الذي يفرض تصليب مواقف المقاومة وتدعيم وجودها المادي ومساندة نضالها السياسي على كل صعيد ، محلي ودولي . التحالف هنا اذن مبني على اساس صلب ما دام موضوعه واحدا هو الوقوف في وجه الهجمة الامبريالية والتصدي لمخططاتها الرامية الى المحافظة على المصالح الامبريالية في المنطقة وتوسيع هذه المصالح وخلق الظروف الموضوعية المناسبة لتكريسها وتجذيرها . وقد اتخذ هذا التحالف ، مرحليا ، موضوعة اساسية له هي اجهاض شكل التسوية الاميركية والتأثير في موازين القوى لتصبح هذه التسوية منسجمة مع مصلحة الشعب الفلسطيني ، باعتبار ان هذه المصلحة ، راهنا وفي المدى التاريخي ، متناقضة جذريا مع المصالح الامبريالية ، وكذلك ، وكجزء من موضوعة التحالف الاساسية هذه ، تأكيد دور الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير في أن يكون عنصرا فاعلا مؤثرا في تقرير مصير المنطقة ، باعتبار واحد هو ان هذا الشعب بحكم تراثه النضالي الثوري وامكانات التفجير التغييرية التي يختزنها ، سوف يكون العنصر الاكثر حسما في النضال ضد الاستعمار وفي ضرب مصالحه .

من هنا فان تكريس اعتراف دول المنظومة الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، بمنظمة التحرير ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني يخدم اغراض موضوعة التحالف هذه ، ذلك ان تعزيز الاعتراف وما يترتب على ذلك من دعم للمنظمة يتيح لها الدفاع عن شرعية تمثيلها للشعب الفلسطيني سوف يقف جدارا صلبا في وجه الشكل الاميركي من التسوية الذي تناهضه حركة المقاومة حتى الموت ، كذلك يعطي حركة المقاومة زخما واندفاعا في نضالها المناهض للقوى المحلية المستسلمة للتيار الاميركي . وفي الرسالة التي تلقاها الاخ ابو عمار من ليونيد بريجنيف في ١١ تموز يدعوه فيها الى زيارة الاتحاد السوفياتي ، أكد الزعيم السوفياتي ان اية تسوية تتجاهل حقوق الشعب الفلسطيني لن ترى النور وان الاتحاد السوفياتي يقف بقوة ضد أية تسوية في الشرق الاوسط تهدف الى منع الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره بنفسه وفوق أرضه ، كذلك أكد الاتحاد السوفياتي بشكل قاطع رفضه لاي طرف غير الثورة لتمثيل الشعب الفلسطيني من أجل ضمان حقوقه

الوطنية المشروعة واقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة . (« فلسطين الثورة » ٧/١٧) . وفي هذه الرسالة بالاضافة الى البيانات الصادرة عن الزيارة الى الدول الثلاث والمحادثات التي تمت في أثنائها تأكيد لموضوعة التحالف التي أشير اليها والتي هي ملتقية مع البرنامج المرحلي لمنظمة التحرير .

ان ابرز ما جاء في البيانات الصادرة عن الزيارة هو الاعتراف بالمنظمة ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، وقد اشار البيانان الصادران عن زيارة الوفد الفلسطيني الى كل من موسكو ووارسو الى ذلك في صيغة غير مباشرة ، فقد جاء في البيان عن زيارة موسكو ما يلي : « أشار الجانبان بارتياح عميق الى اهمية المقررات التي اتخذت في مؤتمر القمة العربي في الجزائر في نوفمبر عام ١٩٧٣ ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور في فبراير عام ١٩٧٤ ، تلك المقررات التي نصت على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب العربي الفلسطيني » ، كذلك ورد في البيان الصادر عن زيارة بولندا النص التالي « كما عبر [الجانب البولندي] عن ارتياحه لاعتراف مؤتمر القمة العربي السادس في الجزائر ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني » . غير ان هذه الصيغة غير المباشرة لا تنتقص من قيمة الاعتراف استنادا الى المعطيات التالية : (١) ان الزيارة الى الاتحاد السوفياتي تمت بدعوة رسمية من قمة السلطة السوفياتية (الرسالة موجهة من بريجنيف وسلمت للاخ ابو عمار بواسطة السفير السوفياتي في لبنان — وفا ٧/١١) وهي المرة الاولى التي تتم فيها مثل هذه الدعوة بعد أن كانت الدعوات السابقة توجه من لجنة التضامن السوفياتية . (٢) ان المحادثات في موسكو تمت مع رسميين سوفيات سواء في الحزب او في الحكومة وقد ذكر البيان السوفياتي — الفلسطيني ان اللقاء تم مع بوريس بوناماريوف ، عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، وروستيسلاف اوليانوفسكي ، نائب رئيس لجنة العلاقات الدولية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، وفاسيلي كوزنتسوف النائب الاول لوزير الخارجية السوفياتي . كذلك ذكرت « وفا » (٨/٢) ان الوفد الفلسطيني اجتمع بأندريه غروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ، وذكرت كذلك (٨/٣) ان الاخ ابو عمار اجتمع مع شخصية سوفياتية كبيرة مدة اربع ساعات . (٣) ان النص في البيان السوفياتي على موافقة الجانب السوفياتي « اثناء المباحثات وبناء على طلب اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية على اقامة مكتب تمثيلي للمنظمة في موسكو » ، وكذلك في البيان البولندي على ان الجانب البولندي « سيدرس بكل تفهم وبأخوية مسألة انشاء ممثلية لمنظمة التحرير الفلسطينية في وارسو » يجعل الاعتراف بالتمثيل الفلسطيني اعترافا واقعيا . (٤) ان اعتراف المانيا الديمقراطية بمنظمة التحرير الفلسطينية اعترافا صريحا ومباشرا يعطي تفسيرا واضحا للصيغة غير المباشرة التي وردت في البيان السوفياتي من واقع فهم طبيعة العلاقة التي تربط المانيا الديموقراطية والاتحاد السوفياتي . فقد ورد في البيان المشترك الفلسطيني — الالماني الديموقراطي ان الوفد الالماني في المحادثات « أكد أن جمهورية المانيا الديموقراطية تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني بموجب القرارات المختصة التي اتخذت في مؤتمر القمة العربي السادس في الجزائر (أيلول ١٩٧٣) ومؤتمر القمة الذي عقدته الدول غير المنحازة في الجزائر ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور (شباط ١٩٧٤) ومقررات مؤتمر القمة الافريقي المنعقد في مقديشو (حزيران ١٩٧٤) الخاصة بالقضية الفلسطينية » .

ان موقف الاتحاد السوفياتي من دعم منظمة التحرير تحول في مسيرة النضال الفلسطيني يدخله مباشرة بحكم ما حققه من تحالفات في دائرة الفعل المؤثر في تغيير موازين القوى ، ويجعله اكثر قدرة على المواجهة والتصدي للحلول التي تتعارض مع استمراريته .

حادثة الدكوانة

لماذا جرت العادة ان تتحول الاحداث الفردية التي يتعرض لها بعض افراد حركة المقاومة الى مشكلة ، الى قضية عامة تتجاوز أبعادها حقيقة مسببات الحادث المباشرة ، وتتضخم نتائجها وتصبح تبعاتها أكبر مما كان يمكن ان تكون عليه نتائج حادث فردي قد يحدث كل يوم ، كل ساعة ، بين

أي مواطن ومواطن سواء انتمى المواطنان الى جنسية واحدة ام اختلف انتماؤهما ؟ في اعقاب كل حادث (فردي يتحول الى مشكلة عامة) يقال ان « عناصر مدسوسة » على العمل الفدائي هي التي كانت وراءه ، او ان « فريقا ثالثا » هو الذي افتعل الحادث « لمصلحة اسرائيل والاستعمار الخ » ، او ان « العناصر غير المنضبطة » في حركة المقاومة هي التي تسببت في اثارة المشاكل . الى أي مدى تعتبر هذه « المبررات » أسبابا حقيقية لهذه الحالة وهل يمكن فعلا ان يتسبب « عنصر غير منضبط » في اشعال نار معركة يشارك فيها «عناصر منضبطة» تدفع هي دون غيرها ثمن النتائج من دمائها ومن سمعة حركة المقاومة التي تنتمي اليها ؟ لنفترض جدلا ان عنصرا مدسوسا استطاع ان يفتعل صداما بنية خبيثة وبقصد جر حركة المقاومة الى صدام اوسع لاهداف تخدم فعلا اسرائيل والاستعمار ، لنفترض ان ذلك يحدث فعلا ، فهل استدراج حركة المقاومة الى مثل هذا الصدام الواسع يتم بهذه السهولة وبهذه الخفة ؟ هل هي إستجابة غير ذات عقل ، آلية لا تقدر النتائج ، وفاقدة الوعي باحتمالات مثل هذه النيات الخبيثة ؟

في تقديرنا ان تلك هي مبررات تخفيفية لاسباب أعمق تغوص جذورها في طبيعة العلاقة بين حركة المقاومة من جهة وجملة الاوضاع العربية وتفصيلاتها من جهة اخرى . وهي علاقة لا تعود فقط الى الصلة المباشرة بين حركة المقاومة وهذه الاوضاع وانما هي تشكلت تاريخيا منذ كان الفلسطينيون في الشتات يعانون من نمط من العلاقة غير طبيعي تكثف متراكما بعد ظهور المقاومة . ونشير هنا الى حادث الدكوانة كمثل تفصيلي على هذا التعميم .

في ٧/٢٧ حدث خلاف في محلة الدكوانة القريبة من مخيم تل الزعتر في ضواحي بيروت بين العنصر الفدائي ابو الموت وأحد أعضاء حزب الكتائب اللبنانية (ابراهيم جدعون) انتهى بمقتل الفدائي واصابة الكتائبي اصابة خطيرة في رأسه . أجمعت المصادر كافة والاطراف جميعا على ان الحادث شخصي وليس له خلفيات لدى المقاومة ولا لدى الكتائب . وقد رافق الحادث اشتباك سريع جرى تطويقه من جانب حركة المقاومة والكتائب معا . بعد يومين اي في ٧/٢٩ اندلع الاشتباك مجددا في المنطقة (مخيم تل الزعتر والدكوانة) على نطاق واسع واستخدم في الاشتباك مختلف الاسلحة وأسفر عن مقتل عدد من الطرفين وجرح آخرين . بعد مفاوضات واتصالات كثيرة جرى ايقاف الاشتباك وتسيير دوريات مشتركة من حركة المقاومة والكتائب والامن اللبناني للفصل بين المتقاتلين ، بعد أن أعلنت الاطراف المعنية حرصها على عدم توسيع الاشتباك وأكدت مصلحتها في ايقافه . هذا باختصار « شكل » الحادث الذي كان يمكن ان يظل عاديا لو حدث بين مواطنين اثنين ليست لهما الصفة التي لابو الموت او لجدعون . غير ان الحادث تطور الى مشكلة وسفك دماء وأزمة بسبب من هذه العلاقة غير الطبيعية التي أشرنا اليها .

قبل أن نوضح ما نعني بهذه العلاقة يتحتم الاعتراف بأن وجود « العناصر غير المنضبطة » في حركة المقاومة لا يمكن ان يمارى فيه ، وان وضع حد لتصرفات هذه العناصر غير الاخلاقية وغير الثورية هو مطلب فلسطيني ثوري قبل ان يكون مطلبا للاخرين ، غير ان الاعتراف بهذا الواقع شيء ومحاولة الايهام بأن ما تتعرض له حركة المقاومة من عداء يكشف عن نفسه لمناسبة هذه الحوادث التي هي احيانا فردية في أساسها شيء مختلف تماما . ذلك انه أمر مناف للمنطق ذلك الذي يذهب الى ان عنصرا غير منضبط قادر ، وهو غير منضبط، على تحريك هذه البنادق جميعا وتوجيهها الى صدور الاخرين بهذه السهولة والخفة والسرعة الخارقة دون ان تكون ثمة اسباب كامنة اسفرت عن نفسها في هذه المناسبة . وهذه الاسباب كما أشرنا هي طبيعة العلاقة التي تتحكم بين الفلسطيني وجملة الاوضاع العربية وتفصيلاتها ايضا .

قبل نشوء المقاومة الفلسطينية كان الطرف الفلسطيني في هذه العلاقة ، في كثير من الساحات العربية ، هو الطرف الادنى ، ذاكرة سكان المخيمات في بعض الدول العربية تعج بقصص رجال الامن والمخابرات والدرك يقفون في الساحات يفرضون العقوبات الجماعية ويقتحمون البيوت يفتشون عن « المطلوبين » . بعد ظهور المقاومة ودخول البندقية الى المخيم الفلسطيني نشأت حالة جديدة انهت قصة الدركي الذي يجلد والفلسطيني الذي يلعق كعب الدركي . ولكن بموازاة هذه الحالة كانت محاولات تصفية حركة المقاومة تطرد

مع اطراد اتساع المقاومة ونموها واشتدادها . وقد نجحت واحــدة من هذه المحاولات في تعريب تصفية المقاومة في الاردن ، وجربت اكثر من واحدة في لبنان ، الامر الذي خلق حالــة في المخيمات عنوانها العريض **الدفاع** ، الدفاع ليس عن المقاومة وحقها في الوجود فحسب ، وانما الدفاع عن كل ما هو **انساني** حققته المقاومة للناس في المخيمات ، الدفاع عن الكرامة الانسانية التي استعيدت في ظل المقاومة .

ان « **الدفاع الفلسطيني** » اصبح جزءا مــن التركيبة الفلسطينية ، وهو شعور لا يجد تفسيره في الانسان الفلسطيني نفسه بقدر ما يوجد هــذا التفسير في بعض الممارسات العربيــة الموجهة ضد حركة الشعب الفلسطيني وبعضهــا ضد قضيته عموما . وهذا الشعور يشتد كلما ظهرت دلائل تشير الى ان هــذه الممارسات قد تدخــل دور الاحتمال ، عندها يصبح هذا الشعور اكثر ارهافا وحدة بل يتحول الى موقع الهجوم من منطق ان الهجوم خير وسائل الدفاع .

هل يمكن تفسير حادثة الدكوانة بهذا المنطق ؟ ان تاريخ العلاقة بين المقاومة والكتائب تحديدا يجعل هذا التفسير مقبولا . ولا تحاول الكتائب ان تنفي هذا التاريخ فقد كتبت صحيفة « العمل » الناطقة بلسان الكتائب (٧/٢٠) « لم نكن مع الفدائيين على وفاق في البداية وكادت علاقتنا بهم تكون علاقة عداء » كما كتبت في ٧/٢٤ « ما كان بيننا وبين الفلسطينيين مــن سوء فهم متبادل ، واختلافات واحقاد أحيانا يجب ان ننساه » . غير ان هذا النسيان المطلوب لم يكن سهلا على مــا يبدو ، ففي اول تجربة لهذه الدعوة الى النسيان كانت حادثة الدكوانة التي اضافت ممارسة جديدة الى مواقف الكتائب السابقة ، وفي الوقت نفسه وترت حس الدفاع الفلسطيني ، فخرجت من كونها حادثة فردية ولاسباب شخصية لتدخل في صلب نوع العلاقة بين الفلسطينيين والاوضاع العربية .

قبل أن نختتم نود ان نشير الى نوع العلاقة التي ترى الكتائب انها يجب أن تسود بين لبنان والمقاومة . في تصريح للشيخ بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب (نشرته « العمل » في ٨/١) يقول « انه من اجل المصلحة الفلسطينية ، ومصلحة المقاومة ، وبالطبع من اجل مصلحة لبنان ، يجب ان لا يكون على الاراضي اللبنانية الا سلطة واحدة مسؤولة هي السلطة اللبنانية ، ويجب الا يكون على الاراضي اللبنانية الا دولــة واحدة وجيش واحد ، وان نتعاون كلنا ، لبنانيون وفلسطينيون ، مع الحكومة اللبنانية ومع الجيش اللبناني حتــى تكون المسؤوليات واضحة ومحددة ومحصورة ، فلا تكون هناك مسؤوليات ضائعة ومائعة كما هو الحال الان » . وينطلق الجميل في قوله ذلك من تصورات كنائبية قوامها مــا يلي : (١) ان المقاومــة الفلسطينية موجودة في لبنان خلافا لارادة لبنــان « بارادة الغير حشرت المقاومة الفلسطينية في بلادنا وبارادة الغير نحمل عبء القضية وأوزارهــا » (العمل ٧/٩) . (٢) وجود المقاومة في لبنان كان نتيجة تنازلات قدمها لبنان « قدمنا لهم الارض ، والحرية على أوسع نطاق ، والحدود احيانا وبعضا من السيادة والمغفرة عند الاساءة . ولكن هل نذكر كيف كان ذلك ؟ كان كله تقريبا تنازلات تدريجية فرضت علينا فرضا » (العمل ٧/٢٣) . (٣) وجود مناطق في لبنان غير خاضعة لسلطة الدولة وانما لسلطة المقاومة . واكثر ما يجري التركيز هنا على المخيمات الفلسطينية التي وصفها الجميل بأنهــا « دويلات داخل الدولة » (مؤتمر صحافي في ٨/٧ نشرته « النهار » ٨/٨) . وللكتائب رأي خاص في المخيمات فهي « متمردة على الدولة والقانون » (العمل ٨/٢) وهي « ملجأ ومخبأ لكل الخارجين على القانون » (تصريح للجميل نشرته « العمل » ٨/١) .

ان اوضاع المخيمات بالتأكيد ليست بهذه الصورة وقد أكد الجميل (تصريح ٨/٧) انه سيدخــل المخيمات ليكون مع الفلسطينيين في حياتهم اليومية وليحاور الانسان الفلسطيني وليكون معه في آلامه وآماله واحساسه بالظلم ، وهذا التأكيد المقصود منه اقامة علاقة جديدة مــع الفلسطينيين ولكــي « تطمئن الجماهير الفلسطينيــة بعدما اطمــأنت قياداتها » ، سيظهر المخيمات الفلسطينية علــى حقيقتها ليست ملجأ للخارجين على القانون وانما أماكن يمارس فيها الفلسطيني كرامته الانسانية .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

كان أهم تطور طرأ على الصعيد الدولي في الشهر الماضي هو بلا شك اضطرار الرئيس نيكسون الى تقديم استقالته على اثـر افتضاح تورطـه الشخصي في فضيحة ووترغيت . وقد سادت في الاوساط الرسمية العربية أجواء قلقة نوعا مـا بسبب امكانية تعـرض سياسة التقارب المصرية الامريكية الى هزة نتيجة سقوط نيكسون ، يضاف الى ذلك ان جيرالـد فورد ـ الرئيس الامريكي الجديد ـ له تاريخ حافل كسياسي امريكي في الدعوة للدعم المطلق لاسرائيل في وجه الدول العربية وله علاقات وثيقة جدا بالاوساط الصهيونية النافذة في الولايات المتحدة . ويكفي ان نذكر هنا انه كان يدعو الحكومة الامريكية الـى الاعتراف رسميا بضـم القدس الى اسرائيل والاعتراف بها كعاصمة للبلد . الا أنه واضح من ناحية اخرى ايضا ان سياسة امريكا في المنطقة تستند اساسا الى تقييم الدوائر الحاكمة لطبيعة مصالحها الحيوية في منطقتنا ولافضل الاساليب المؤدية الى خدمتها . ومن المرجح ألا يعيد الرئيس فورد ومن حوله النظر في هذا التقييم الذي ورثوه عن نيكسون وعن آثار حرب اكتوبر ١٩٧٣ في المستقبل المباشر ، مما يعني استمرار السياسة الامريكية كما عهدناها بعد حرب اكتوبر على حالها مع اختلاف في بعض التفاصيل والجزئيات وأسلوب تنفيذ هذه السياسة . الا أن هذا لا يمنع كون هذه الاستمرارية مجرد مرحلة انتقالية يحتاج اليهـا الرئيس فورد الـى ان يثبت وضعه في الرئاسة ويتمكن من مؤسساتها الى أن يفرض تدريجيا تقييمه الخاص وتقييـم من هم حولـه لطبيعة المصالح الامريكية في المنطقة وأفضل السياسات لخدمتها . ومن جهة اخرى يجب الا نهمل ايضا احتمال ظهور فورد بمظهر الرئيس الضعيف نسبيا بحيث يتمكن شخص بارع وقوي مثل كيسنجر بالسيطرة علـى السياسة الخارجية الامريكية فيكون بالنسبة لفورد ما كانه دالاس بالنسبة لايزنهاور . على كل حال فقد سارع فورد الى الاعلان ان سياسة بلاده على الصعيد الدولي ستستمر علىحالها وخاصة بالنسبة للشرق الاوسط، واتخذ اجراءات سريعة لتأكيد هذا الاعلان فأبقى على وزارة نيكسون بدون أي تعديل وطلب من كيسنجر الاستمرار في تولي مهام وزارة الخارجية . على اثر ذلك جمع كيسنجر السفراء العرب في واشنطن ليؤكد لهم ان سياسة الرئيس الجديد لن تختلف عن سياسة الرئيس السابق . وذكرت اخبار صحفية ان هناك احتمالا بأن يقوم كيسنجر بجولة في الشرق الاوسط للتأكيد امـام الزعماء العرب على هذه النقطـة . كما اتصل كيسنجر بوزير خارجية مصر اثناء قيام الاخير بزيارة في باريس مؤكدا له ان المقابلة المقررة مسبقا بينهما ستتم بوقتها المحدد . اما الرئيس فورد فقد بعث برسائل عاجلة الى معظم الزعماء العرب بمن فيهم الملك فيصل والحسن الثاني والرؤساء السادات والاسـد . وبطبيعة الحال فقـد كانت أهم هذه الرسائل هي التي وصلت الى الرئيس السادات . وقد أكد فورد في رسالته : ١) الدعوة الموجهة من حكومة الولايات المتحدة الى السادات لزيارة امريكا في المستقبل القريب ، ٢) التزامه القوي بمتابعة الجهود الدبلوماسية من اجل تحقيق سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط ، ٣) التزامه التام باحترام كل التعهدات التي أخذتها الولايات المتحدة على نفسها في علاقاتها مع مصر ، ٤) تأييده الكامل لكل القرارات التي توصل اليها الرئيس السادات مع نيكسون وكيسنجر ، ٥) تصميمه على مواصلة تقوية العلاقات التي تجددت بين البلدين وتعميقها خاصة وان السلام في المنطقة لم يعد بعيد المنال على حد قوله . وقد بعث الرئيس السادات برسالة جوابية اعرب فيها عن أمله في ان تحرز العلاقات المصرية الامريكية تقدما يكون في مصلحة الشعبين ومصلحة احلال السلام العادل والدائم في الشرق الاوسط . وفي رسالته للرئيس الاسـد أكد فورد ايضا التزامه الثابت بالسياسة التي اتبعتها بلاده في علاقاتها الدولية وبضرورة الوفاء الكامل بكل التزامات بلاده في علاقاتها مع سوريا ، كما وعد بالعمل على تعزيز العلاقات بين البلدين . وذكرت أنباء صحفية ان وزير الخارجية السوري سيقوم بزيارة واشنطن في المستقبل القريب لاجراء محادثات مع كيسنجر حول المرحلة المقبلة من محادثات السلام في جنيف بالاضافة الى شؤون التعاون السياسي والاقتصادي بين البلدين . كذلك بعث فورد برسـالة مشابهة الى رئيس الوزارة الاسرائيلية رابين شدد

فيها على استمرار السياسة الخارجية الامريكية على حالها والتزام امريكا بكل تعهداتها نحـو اسرائيل وعزمها علـى مدها بالمعونات الماليـة والعسكرية الطويلة الاجل . وستكشف الاحداث في المستقبل القريب عن توجهات السياسة الامريكية في العهد الجديد .

اما التطور الهام الثاني فقد تمثل في زيارة وزير الخزانة الامريكي وليم سايمون الى كل من مصر والسعودية والكويت واسرائيل في مهمة هدفها متابعة الاتفاقات التي تمت بين الزعامات العربية والرئيس السابق نيكسون خلال زيارته الاخـيرة للمنطقة . اي ان سايمون جاء لينقل بعض هذه الاتفاقات على اقل تقدير الى حيز التنفيذ الفعلي ، هذا بالاضافة طبعا الى التداول في موضوع خفض اسعار النفط العربي الخـام والمطالبة بتـوظيف الاموال العربية البتروليـة في الاقتصاد الامريكي وتوابعه . وقد أعلن سايمون عشية سفره الى المنطقة بأن هدف زيارتـه هو تدعيم العلاقـات الاقتصادية بين الولايات المتحدة من ناحية ومصر والسعودية من ناحية اخرى كما أشار الى اعتقاده بأن اسعار النفط العالمية مرتفعة ولا بد ان تنخفض في المستقبل القريب كـما بين ان اسعار النفط وانتاجه سيكونان من المواضيع التي سيبحثها مع زعماء الدول العربية التي ينوي زيارتها. في القاهرة أجرى سايمون محادثات مع الرئيس السادات وكبار المسؤولين هناك وقد تناولت مباحثاته النقاط الهامة التالية وفقا لما ذكرته المصادر الصحفية المصرية والعالمية : أ) أهداف سياسة الانفتاح الاقتصادي المصرية ، ب) السياسة الاقتصادية الماليـة ، جـ) مشاكل التمويل التي تواجه مصر ، د) الاعباء التي يتحملها ميزان المدفوعات المصري ، ه) أسعار النفط ، و) جوانب التعاون بين البلدين في مجالات التجارة والصناعة والزراعة ، ز) ضمان استثمار رؤوس الاموال الامريكية في مصر ، ح) المساهمة الامريكية في عدد من مشروعات التعمير في مصر ، ط) اتفاق لمنع الازدواج الضريبي بين البلدين ، ي) التعاون في مجـال الاستثمار والمشروعـات المشتركة ، ك) وسائل تمويل المشروعات التي ستساهم رؤوس الاموال الامريكية في اقامتها في مصر وكيفية استخدام المعونة الامريكية لمصر البالغة ٢٥٠ مليون دولار لا اكثـر . وقد اعلن الرئيس السادات ان وجهات النظـر في المباحثات بـين سايمون وبين السلطات المصرية « كانت متفقة مئة في المئة » . وأسفرت زيارة سايمون لمصر عن :
١ ـ توقيع اتفاق لضمان الاستثمارات الامريكية في مصر وتشجيعها . وذكر سايمون ان الهـدف من هذا الاتفاق هو طمأنة هيئة الاستثمـارات الامريكية الخاصة على اموالها في مصر . ٢ ـ الاتفاق على تشكيل لجنة عمل امريكية مصرية على مستوى عال في مجالات التعاون الاقتصـادي والاستثماري وذلك بالاضافة الى اللجان التي تم تأليفها بالفعل في مجالات التعاون العـلمي والتكنولوجي والصحي والتبادل الثقافي والفني . ٣ ـ تشكيل لجان تعاون في كل من المجالات التالية: الاستثمار ، تطوير ميادين العمل الداخـلية والتصنيع ، التجارة الخارجية ، الزراعة ، اعادة تعمير قناة السويس وتطويرها . وختم سايمون زيارته بتصريح قال فيه ان زيارته لمصر تتمشى مع جهود بلاده الدبلوماسية الهادفة الى تأمين السلام الدائم في الشرق الاوسط اذ بدون السلام لا يمكن احراز أي تقدم اقتصادي كما ان التقدم الاقتصادي يزيد من فرص السلام . وأكد الوزير الامريكي ان مصر ستكون من بين الدول التي ستحصل عـلى أعلى نصيب من فائض الحاصلات الزراعية الامريكية وخصوصا القمح كما ان حكومة بلاده سـتعزز علاقاتها الاقتصادية والمالية مع مصر من خلال بنك الاستيراد والتصدير الامريكي .

على اثر ذلك انتقل سايمون الى تل ابيب حيث أعلن فور وصوله تعهد بلاده بتقديم كل المساعدات اللازمة الى اسرائيل بما ينسجم مع العلاقات الطيبة بين البلدين واستنادا الى التعهدات التي قدمها الرئيس (السابق) نيكسون . وذكرت انباء صحفية ان السلطات الاسرائيلية أبلغت سايمون عن حاجة اسرائيل الى أكثر من مليارَي دولار سنويا بمثابة مساعدات عسكرية واقتصادية لمواجهة مشاكلها الناشئة عن حرب اكتوبر . وصدر بلاغ مشترك عن الزيارة أكد : (أ) استمرار الدعم الامريكي القوي لامن اسرائيل وتطورها الاقتصادي ، (ب) ان المحادثات تشكل اول خطوة مثمرة وبناءة باتجـاه تنفيذ بنود البيان المشترك الذي وقعه الرئيـس (السابق) نيكسون ورابين خلال زيارة الاول للمنطقة. (ج) الاخذ بعين الاعتبار « الاعباء الدفاعية

الثقيلة التي تستمر اسرائيل في تحملها في نطاق مساعيها لحمل جيرانها على تحقيق سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط وتأثير ذلك العبء على الاقتصاد الاسرائيلي » . (د) تشكيل لجنة امريكية اسرائيلية مشتركة للاستثمار والتجارة ولجان فرعية للعمل في مجالات تشجيع استثمارات رؤوس الاموال والتجارة والمواد الاولية والابحاث العلمية .

في القسم الاخير من جولته الذي شمل الكويت والسعودية عبر سايمون عن ارتياحه الكامل لما أحرزه من نجاح في جولته ، هذا على الرغم من المعارضة القوية التي واجهها في الكويت بالنسبة لموضوع خفض أسعار النفط . أما فيما يتعلق بمحاولته حث السلطات الكويتية على توظيف رؤوس أموال البلاد في الولايات المتحدة فلم ترد أية أنباء حول رد الفعل الكويتي على هذه الدعوة . وذكرت الصحف الكويتية بهذه المناسبة ان سايمون يحاول اقناع الدول العربية المتورطة مباشرة بالنزاع مع اسرائيل بشراء أسلحة امريكية وتدريب قواتها على أيدي خبراء امريكيين . وفي السعودية أعلنت السلطات اثناء وجوده عزمها للمرة الاولى على بيع البترول بالمزاد على اساس القبول بافضل عرض لنفطهم بدلا من الاصرار على حد أدنى من الاسعار كما فعلت الكويت . وتخدم هذه الخطوة أهداف سايمون في محاولته خفض اسعار النفط العربي . وجدير بالاشارة هنا الى ان مسؤولا كبيرا في وزارة الخزانة الامريكية قام بتحذير الدول المنتجة للنفط من الاقدام على أية اجراءات خفض جديدة في انتاج البترول لانه « ستكون لذلك مضاعفات سياسية وأمنية هامة » . وقد اوضح المسؤول ان الولايات المتحدة تعتبر أي خفض جديد في انتاج النفط « عملا غير ودي » تجاهها وتجاه الدول الاخرى المستهلكة للبترول وأكد على ضرورة خفض اسعار النفط « لان الاسعار المرتفعة حاليا تهدد بدمار اقتصادي وسياسي كبير لعدد من الدول المستهلكة » . كذلك أشار الى قيام الولايات المتحدة وحكومات اخرى ببحث مسألة انشاء وكالة حكومية هدفها استدانة كميات كبيرة من المال من الدول المنتجة للنفط واقراضها لدول اخرى .

أما الحدث الهام الثالث فيتعلق بما يسمى « بفصل القوات » على الجبهة الاردنية وما يتفرع عنه من قضايا ومشكلات . وقد قام كل من وزير الدفاع الاسرائيلي آلون ورئيس الوزراء الاردني زيد الرفاعي بزيارة واشنطن من أجل اجراء محادثات مع كيسنجر حول الخطوة التالية التي يجب اتخاذها بالنسبة لمستقبل الضفة الغربية وقبل انعقاد مؤتمر السلام في جنيف ، المتوقع انعقاده في الخريف المقبل . وعشية زيارة آلون لواشنطن ذكرت انباء صحفية مصدرها العاصمة الامريكية نفسها ان خبراء وزارة الخارجية هناك يقومون باعداد مسودات لجدول اعمال من أجل الاتفاقات المحتملة بين اسرائيل ومصر من جهة واسرائيل والاردن من جهة اخرى . وذكرت هذه الانباء ان اعداد هذه الوثائق هو جزء من الاستعداد الامريكي لزيارتي كل من آلون والرفاعي الى واشنطن . وذكر آلون نفسه في مطلع زيارته انه سيبحث مع المسؤولين الامريكيين مسائل عديدة من أهمها امكانات استئناف المفاوضات في جنيف والتقدم خطوة خطوة في التسوية . أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فقال ان الهدف الاسرائيلي هو تسويتها ضمن اطار مفاوضات اسرائيلية اردنية من أجل اقامة دولة اردنية — فلسطينية شرقي اسرائيل حيث يقوم الفلسطينيون بتحديد كيانهم الذاتي داخلها . كما أكد استعداد اسرائيل للتفاوض مع الاردن بدون وضع شروط مسبقة. وفي الوقت نفسه كان كيسنجر قد صرح امام مجموعة من الزعماء اليهود الصهيونيين الامريكيين قائلا بأن اقامة دولة فلسطينية أمر يتناقض مع مصالح الولايات المتحدة وستعترض حكومته على أية مبادرة في هذا الاتجاه. ولا شك ان في هذين التصريحين تحديدا للاطار العام الذي دارت في داخله محادثات آلون وكيسنجر . وعاد الوزير الاسرائيلي الى تأكيد هذا الاتجاه في تصريح ادلى به بعد اجتماعه الى كيسنجر حيث قال ان حكومته تفكر في التفاوض مع الاردن لان الاردن مهم جدا بالنسبة لاية محادثات قد تجري في المستقبل . أما عن الفلسطينيين فقال « ان معظم الفلسطينيين اردنيون والاردنيون هم فلسطينيون » وان مشكلتهم يمكن ان تحل بالمفاوضات . اما كيسنجر فقال انه يوافق على تقييم آلون لمحادثاتهما ووصفه اياها بأنها كانت « بناءة وايجابية جدا » . وعلى اثر عودته الى تل ابيب صرح آلون قائلا ان المفاوضات مع الاردن في اعقاب محادثاته الاخيرة مع الزعماء الامريكيين باتت تبدو الان اكثر احتمالا مما كانت في السابق وان مثل هذه المحادثات غدت

أكثر احتمالا من استئناف المفاوضات مع مصر باعتبارها الخطوة المنطقية التالية في المفاوضات العربية الاسرائيلية . كما أوضح في تصريحه بأنه ناقش في واشنطن المشكلة الفلسطينية على ضوء البيان المصري — الاردني الاخير وقرار الحكومة الاسرائيلية محاولة تسوية هذه المشكلة في اطار المفاوضات مع الاردن . كذلك ادلى رابين بتصريح قال فيه ان اسرائيل تقبل التفكير بفك ارتباط « عملي » وليس « جغرافي » مع الاردن . واوضح بأنه يعني بقاء القوات الاسرائيلية على نهر الاردن مع اعادة مناطق واسعة من الضفة الغربية الى الادارة المدنية الاردنية . اما بالنسبة الى الانباء الصحفية التي ترددت حول محادثات آلون وكيسنجر فقد ذكرت : (أ) بان الوزير الامريكي وافق على تعذر فصل القوات على الجبهة الاردنية وفقا للمشروع الاردني الحالي . (ب) ان اسرائيل تريد التوصل الى اتفاق يؤدي الى عودة الادارة الاردنية الى بعض مناطق الضفة الغربية من دون ان يغيب عنها الوجود العسكري الاسرائيلي. (ج) أن كيسنجر وافق ان يكون مؤتمر جنيف مجرد اطار عام لاقرار النتائج التي تتوصل اليها المفاوضات الثنائية بين اسرائيل والدول العربية المعنية باشراف الامم المتحدة . (د) ان المسؤولين الامريكيين اشاروا على آلون باغتنام الظرف الحالي الذي يؤيد فيه الرئيس السادات مطمح الملك حسين في تمثيل أهالي الضفة الغربية والتحدث باسمهم ، ولاجراء مفاوضات مع الملك الان تجنبا لامكانية الاضطرار الى التفاوض مع منظمة التحرير وحدها في المستقبل . (هـ) ميل حكومة اسرائيل الى الاعتقاد بان الخطوة الهامة التالية على طريق التفاوض مع العرب تكمن في توقيع اتفاق بشأن مستقبل الضفة الغربية مع الملك حسين بدلا من اعتقادها السابق بأنها تكمن في التفاوض مع مصر . (و) ان كيسنجر وآلون قد أعدا بالفعل مسودة لاتفاق اسرائيلي اردني اثناء محادثاتهما وانه من المرجح ان تبدأ المفاوضات الاردنية الاسرائيلية اما بصورة مباشرة او من خلال وساطة كيسنجر قريبا . وجدير بالاشارة هنا الى ان مساعد كيسنجر في شؤون الشرق الاوسط الفرد آثرتون صرح في هذه الفترة قائلا ان حكومة بلاده تعتقد ان اكثر الطرق فعالية لتسوية القضية الفلسطينية هي تناولها من خلال بدء المفاوضات بين الاردن واسرائيل . كذلك عاد الى تأكيد الموقف الامريكي المعروف حول المشاركة الفلسطينية المستقلة في مؤتمر جنيف بقوله انه على المؤتمر نفسه ان يبت هذا الامر .

أما زيد الرفاعي فقد شرح هدف زيارته لواشنطن عشية سفره في تصريح قال فيه ان غرضه هو درس امكانات التوصل الى فصل للقوات في الجبهة الاردنية باعتبار ان هذه الخطوة تشكل المرحلة الاولى من الانسحاب الاسرائيلي من كل الاراضي المحتلة وتكملة لما حدث في جبهتي سيناء والجولان . وأكد الرفاعي انه اذا تبين من المحادثات مع كيسنجر ان فصل القوات في الجبهة الاردنية لن يوضع موضع التنفيذ فلن يكون هناك أي مبرر لاشتراك الاردن في مؤتمر السلام المقبل في جنيف لانه عندئذ تكون اسرائيل قد امتنعت مبدئيا عن الانسحاب من الضفة الغربية . اما اذا كان تطبيق فصل القوات ممكنا فسينتقل الاردن بالتنسيق مع مصر وسوريا ومنظمة التحرير الى مواجهة المرحلة المقبلة . وقد اجتمع الرفاعي الى كيسنجر في اوائل شهر آب والى وزير الدفاع الامريكي لبحث صفقات التسلح التي يريدها الاردن . وذكرت انباء صحفية ان كيسنجر اقترح على الرفاعي اتفاقا جزئيا مع اسرائيل يقوم على اساس انسحاب جزئي من الضفة الغربية واحتفاظ الاسرائيليين بمواقع لهم في شمال النهر وجنوبه . واثناء وجوده في واشنطن ، صرح الرفاعي بأن الملك حسين نفسه سيزور واشنطن في المستقبل العاجل لاستكمال المحادثات مع المسؤولين الامريكيين حول فصل القوات على الجبهة الاردنية وأكد ان اقتراح الاردن بانسحاب اسرائيل مسافة ١٢ كيلومترا الى ما وراء النهر ما زال مطروحا على طاولة المفاوضات . أما بالنسبة لموضوع تمثيل الشعب الفلسطيني فقد قال الرفاعي أن حكومته تعتبر نفسها ممثلة للاردن بضفتيه وان منظمة التحرير قد تمثل الفلسطينيين في مناطق اخرى . وهدد انه ما اذا قرر العرب جميعا اعتبار منظمة التحرير ممثلة الفلسطينيين في الضفة الغربية فان الاردن سيعفي نفسه كليا من المفاوضات . وجدير بالذكر ان زيارة الرفاعي والملك من بعده لم تكتملا بعد بسبب التطورات المفاجئة والمتسارعة التي طرأت على قضية ووترغيت في العاصمة الامريكية وسقوط نيكسون في هذه الاثناء.

كذلك لا بد من الاشارة الى النبأ الذي اذاعته شركة الاذاعة الوطنية الامريكية (ان بي سي) القائل بأن الملك حسين عقد اجتماعا سريا في ايار الماضي مع غولدا مئير لبحث مستقبل الضفة الغربية . وذكر النبأ ان مئير عرضت على الملك انسحابا تدريجيا من الضفة الغربية باستثناء بعض المواقع بما فيها المستوطنات الاسرائيلية في غور الاردن ونقاط أخرى لوحدات الجيش الاسرائيلي وذلك « من أجل ضمان أمن اسرائيل وحماية الملك من أعدائه بين الفلسطينيين » . هذا بالاضافة الى مطالبة اسرائيل بتغييرات طفيفة في الحدود مع الاحتفاظ بالقدس والسماح برفع العلم الاردني في جيب صغير داخل البلدة القديمة من المدينة المقدسة . وقد نفت مئير صحة النبأ (كما نفاها الاردن ايضا) الا ان اسحاق رابين لم ينفه بل قال انه لن يتأخر في عقد اجتماعات غير معلنة مع القادة العرب اذا اراد ذلك الجانب العربي .

التطور الرابع الهام كان على صعيد المزيد من التدهور في العلاقات المصرية السوفييتية الذي أخذ شكل طلب الاتحاد السوفييتي في الاسبوع الثاني من شهر تموز تأجيل الزيارة التي كان سيقوم بها اسماعيل فهمي الى موسكو في ١٥ منه . ولم تعلن اية أسباب رسمية سياسية لتبرير هذا الطلب .

أما التطور الخامس والاخير فكان قرار الحكومة الفرنسية اعادة النظر في قرارها السابق حول حظر شحن السلاح الى منطقة الشرق الاوسط على اثر الاحراج الذي تعرضت له فرنسا نتيجة اعلان الرئيس السادات عن وجود طائرات الميراج الليبية في مصر . ويذكر القارىء ان الحظر الفرنسي على شحن السلاح كان يطال اسرائيل في جوهره لانه لا يمنع توريد السلاح الى دول عربية كثيرة غير متورطة مباشرة بالنزاع مع اسرائيل كما جرى بالفعل بالنسبة لليبيا . وقد رفعت فرنسا هذا الحظر الان مما يعني انه باستطاعة اسرائيل الحصول على السلاح الفرنسي من حيث المبدأ على أقل تعديل ان هي ارادت ذلك . مع ذلك فقد زار وزير الخارجية المصري باريس وتباحث مع الرئيس جسكار دستان وسلمه رسالة من الرئيس السادات . وتناولت المباحثات موضوع التسوية السلمية في الشرق الاوسط ومستقبلها وتم الاتفاق اثناءها على تبادل الزيارات بين الرئيسين السادات ودستان قبل نهاية العام الحالي وتأكيد فرنسا انها لا تعتبر القضية الفلسطينية مجرد مشكلة لاجئين بل قضية سياسية قبل كل شيء .

صادق جلال العظم

(٣) المناطق المحتلة

[أ]

حركة الاستيطان : « لا نبتعد عن الحقيقة في شيء اذا قلنا ان السلاح الاقوى والاخطر الذي اتبعته الحركة الصهيونية ومن بعدها الكيان الاسرائيلي هو سلاح الاستيطان، وان كافة الاسلحة الاخرى سواء العسكرية منها او غير العسكرية تصب في خدمة السلاح الاول. فالاستيطان — جوهر الصهيونية — ينفي وجودا لخلق وجود آخر ، اما الاساليب الاخرى التي اتبعتها اسرائيل في صراعها مع العالم العربي فانها تعمل لقهر واذلال وتليين الوجود الاصيل تمهيدا لانتفائه من خلال سلاح الاستيطان .

كان من الطبيعي بعد حرب حزيران ١٩٦٧ والانتصار الذي يقارب الخيال الذي احرزته اسرائيل ، ان ترتقي حالة الاذلال والقهر ، بحالة ارقى ، حالة انتفاء الاصل ، فاشادت ما يربو على ٤٥ مستوطنة في المناطق العربية المحتلة ، كما واقامت ضواح يهودية في مدينة القدس وكذلك بالقرب من الخليل ، واخذت تلك المناطق تشهد الصور الاولى التي مرت على الشاشة الفلسطينية في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، الى ان جاءت حرب اوكتوبر ١٩٧٣ ووضعت اداة القهر الاسرائيلي (الجيش) في حجمها الطبيعي ، مما كان له الاثر الكبير على اداة الانتفاء. ومن هنا برز داخل الكيان الاسرائيلي ما يعرف هناك بـ « الازمة القومية » ، حيث وقف هذا الكيان امام خيارين : قبول التسوية المفروضة على المنطقة بعد حرب اوكتوبر وما يستتبع ذلك من تخل عن جميع الاستيطان الجديد منذ ١٩٦٧ مقابل الاعتراف بالكيان الاستيطاني القديم او رفض التسوية والاستمرار في المحافظة على الوضع الراهن . وبين هذين الخيارين تتعثر حركة الاستيطان . وقد كثر الحديث حول مصيرها ، بين مؤيد لاستمرارية وجودها رغم كل شيء ، وبين متحفظ تجاه استمرارية بعضها ، وبين مؤبن لها . ولعل نائبي الكنيست اوري افنيري واريك شارون يمثلان جناحي صورة الازمة « القومية » للكيان الاسرائيلي ، فالاول يرى ان التسوية السلمية تسير سيرا حثيثا ، وان النقاط الاستيطانية تعتبر بمثابة ألغام في طريقها ، وان اسرائيل تقف امام خيارين : ابقاء الالغام او فكها . ويرى ان الخيار الاول بمثابة جنون ، اما الخيار الثاني ، مع انه « محزن ... ويحدث أزمة قومية ليس لها مثيل » فلا مفر منه ، ويصب جام غضبه على اعضاء الحكومة السابقة ويطالبهم بتقبيل اقدام المستوطنين تغفيرا عن الخطيئة التي ارتكبوها بحقهم : « انني أقترح الزام جميع اعضاء الحكومة السابقة بالمرور على جميع المستوطنات ، حيث يسجدون امام المستوطنين ويطلبون منهم السماح والمغفرة ... ذلك ان كل واحد منهم مذنب ، ولذا ينبغي على كل واحد منهم تقبيل أقدام المستوطنين وطلب السماح الشخصي منهم» (هعولام هزيه ٧٤/٥/١٥). من الواضح ان افنيري يفتري على الحقيقة عند اقتصاره اتهامه على اعضاء الحكومة دون تطرقه لطبيعة الكيان الاسرائيلي . اما شارون فانه يرى عكس ما يراه زميله في الكنيست ، فهو يعتقد بأن النقاط الاستيطانية في المناطق بمثابة تجسيد للصهيونية وان التخلي عنها يعتبر بداية النهاية للمشروع الصهيوني ، ولذا فانه يدعو الى تعزيز ما هو قائم بمستوطنات جديدة ، ودفعه ذلك الى تزعم محاولة استيطانية فاشلة بالقرب من مدينة نابلس ، وانتقد اولئك الذين يرددون بأن قيام نقاط استيطانية جديدة في المناطق العربية بمثابة عمل غير شرعي لان شارون المنسجم مع نفسه والفكر الصهيوني يرى ان الكيان الاسرائيلي أقيم بنفس الطريقة « ... ما هو العمل غير الشرعي ؟! لقد أقيمت الدولة برمتها بصورة « غير شرعية » من الذي يقرر ويميز بين العمل الشرعي وغير الشرعي؟ ألم تقم كريات اربع بهذا الشكل ؟ كفار عتسيون ألم تقم كذلك ؟ كيشت في القنيطرة ألم تقم هي الاخرى كذلك ... » (معاريف ١٩٧٤/٦/٢١) .

وما بين هذين التفكيرين يسود تفكير آخر يرى في النقاط الاستيطانية القائمة بمثابة ورقة ضغط في يد المفاوض الاسرائيلي يمكن ان يستخدمها في حال اجراء المفاوضات في جنيف او غيرها للحصول على

أكبر قدر من التنازلات من الجانب العربي . أما على الصعيد الرسمي فلا زالت الحكومة تتصرف تجاه الموضوع وكأن حرب اوكتوبر لم تقع، ومشاريع التسوية التي تتطلب — على الاقل — التوقف عن اشادة مستوطنات جديدة ، غير قائمة ، او شبيهة بمشاريع التسوية التي اعقبت حرب حزيران ١٩٦٧. ذلك ان وتيرة الاستيطان لعام ١٩٧٤ لا زالت هي نفس وتيرة الاستيطان لعام ١٩٧٣ ، فهنالك محاولات استيطانية فاشلة من قبل هيئات غير رسمية وهنالك مشاريع استيطانية رسمية قائمة لتعزيز المستوطنات الراهنة بشبكة اخرى من المستوطنات . ففي مناسبة مرور سبع سنوات على الاحتلال الاسرائيلي للمناطق العربية ، قامت مجموعة استيطانية بابعاز من الهيئات اليمينية والدينية المتطرفة بقيادة اريك شارون بالتوجه الى مدينة نابلس لخلق مستوطنة هناك ، ووصلت المجموعة بالفعل واقامت مخيمات محاطة بسياج عند مشارف المدينة ، الا ان عناصر من الجيش الاسرائيلي احاطت بالمستوطنين بهدف طردهم من المنطقة . وحدث أخذ ورد بين الطرفين مشفوعا بالكلمات النابية الى ان صدرت الاوامر بطرد المستوطنين بالقوة . ومن الجدير بالذكر هنا ان القائد السابق شارون قد أمر الجنود بعدم اطاعة الاوامر العسكرية الصادرة ، الا ان هؤلاء لم يذعنوا له مع أنهم لم يجرؤوا على مسه بسوء بالرغم من أنه كان يستخدم يديه ضدهم . وكان نصيب هذه المحاولة الفشل كنصيب محاولات عديدة اخرى جرت طيلة سني الاحتلال لخلق واقع جديد بالقرب من مدينة نابلس . أما المحاولة الثانية فقد جرت في مدينة القنيطرة قبيل اعادتها لسوريا ، حين قامت مجموعة من المستوطنين ابان فترة الاعداد لاتفاق فصل القوات بمحاولة لخلق واقع جديد في المدينة بغرض تكريس احتلالها ، حيث أقاموا هناك مستوطنة « كيشت » الا ان هذه المحاولة فشلت في دفع حكومة اسرائيل بالتمسك بالبلدة الامر الذي اضطر مستوطني كيشت للانتقال غربا مسافة كيلومتر لاقامة مستوطنة هناك . وبمساعدة من قبل الحكومة هذه المرة . اما المحاولة الثالثة فتختلف عن المحاولتين السابقتين ، فلم يقم اعضاؤها بخلق الواقع الجديد ، بل اكتفوا بالتجمع في القدس بقيادة الحاخام اريه يوليوس وتقدموا طلبا لرئيس الوزراء يدعونه فيه للموافقة على اقامة مستوطنة يهودية في اريحا « لانها بمثابة فريضة ... وهي بدون شك اهم الفرائض للدفاع عن أرض اسرائيل وتكاملها وصبغتها اليهودية » (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢١) .

أما المحاولة الرابعة فقد جرت صبيحة ٧٤/٧/٢٥ حين قامت مجموعة من المستوطنين يبلغ عدد افرادها حوالي ١٥٠ شخصا ومن بينهم ٣٥ عائلة مع اطفالها باستيطان نقطة قريبة من بلدة سبسطية العربية على بعد ١٠ كم شمال غرب نابلس دون موافقة سلطات الاحتلال . وسموا نقطة الاستيطان تلك التي اقاموا عليها المخيمات « الون موريا » . وقد انضم الى المستوطنين عدد كبير من المؤيدين والمشجعين يناهز الالفي شخص . من بينهم ١٨ عضو كنيست على رأسهم زعيم حركة حيروت مناحيم بيجن ، الامر الذي شكل تحديا سياسيا للسلطات المسؤولة . لم تستخدم الحكومة القوة لاحباط التظاهرة الاستيطانية الكبيرة التي لم يسبق ان شاهدتها المناطق المحتلة، بل احاطت المستوطنين ومؤيديهم بقوات من الجيش ، وحاولت انتهاج اسلوب الاقناع بغرض ترحيلهم ، واقترحت عليهم استيطان نقطة اخرى تقع بين الغور ومدينة نابلس، الا ان هؤلاء رفضوا ، الامر الذي صعد من حدة المنافسة بين الفريقين ، وانعكاسه على المجتمع الاسرائيلي . فقد قامت تظاهرات احتجاج يسارية ضد الاستيطان بالقرب من مزرعة اريك شارون الواقعة في منطقة كيبوتس « دوروت » في النقب ، اشترك فيها عناصر من حزب « موكيد » وعدد من اعضاء كيبوتسات حركة هشومير هتسعير ، وتصدت لها مجموعة من عناصر يمينية متدينة بالاضافة الى شارون نفسه ، وحدث اشتباك بالايدي بين الفريقين ، الا ان قوات الشرطة تمكنت من تفريق المتظاهرين ، وفي اليوم التالي عاد هؤلاء الى نفس المزرعة وقاموا بتظاهرة اخرى رافعين شعارات مناوئة للاستيطان ، مثل « يميت — حرب يوم الغفران » « سبسطية — الحرب القادمة » . كما وقعت تظاهرات ، وتظاهرات اخرى من بينها تلك التظاهرة التي قام بها طلبة حزب العمل في الجامعة العبرية في القدس ، والتي تصدت لها عناصر متدينة ، وحدث اشتباك بالايدي بين الفريقين .

عندما اتضح لسلطات الاحتلال ان حملة الاقناع لم تسفر عن شيء ، وان التكتل اليميني الديني المعارض ماض في العمل لاسقاط هيبة الحكومة ، أمر رئيس هيئة الاركان مردخاي غور قواته باخلاء المستوطنين بالقوة ، وفي صبيحة ٧٤/٧/٢٩ تم ترحيل المستوطنين بواسطة ٣٠ باصا وسط تبادل التهم والمسبات واللكمات في بعض الاحيان .

وعلى الصعيد الرسمي ، فان المسؤولين الاسرائيليين لا يتلكأون عن القيام بتأدية «الفرائض» ، ففي هضبة الجولان التي تضم ١٧ مستوطنة اسرائيلية منها ٨ كيبوتسات و٩ موشافات قررت الوكالة اليهودية اقامة اربع مستوطنات زراعية هذا العام في الهضبة تدعى : كيبوتس جيشور ، موشاف موردوت ، مركز حسفين وتل زيتيم ، ومن المقرر ان تكون المستوطنة الاخيرة تل زيتيم اول مستوطنة جديدة تشاد كما جاء على لسان عضو الكنيست يوسف بورج حيث سيتم تأهيلها من قبل عناصر الحزب الوطني المتدين . وعلى صعيد برنامج الخمسة اعوام القادمة ستشهد هضبة الجولان وفق تخطيط قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية تسع مستوطنات جديدة من بينها مدينة . هذا علاوة على أن العمل يجري الان لاضافة مبان جديدة لمستوطنة ماروم هجولان كبرى مستوطنات الهضبة التي يبلغ تعداد مستوطنيها ٣٠٠ شخص .

أما في غور الاردن فقد جرى عند منتصف شهر أيار الماضي تحويل مستوطنة مسوءاه الى مستوطنة مدنية ، ومن الجدير بالذكر هنا ان وزير السياحة موشيه كول قد ذكر في هذه المناسبة : « اننا نقيم مستوطنات ونؤهلها بالمدنيين بهدف ابقائهم هناك الى الابد ، ذلك لان هذه هي خريطة المستقبل للدولة » (هآرتس ٧٤/٥/١٥) بالاضافة الى ذلك اعلن المسؤولون الاسرائيليون عن اعتزامهم لاقامة مستوطنة جديدة في غوش عتسيون في الضفة الغربية ، كما واعلن قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ان نصيب غور الاردن خلال الاعوام الخمسة القادمة ٤ مستوطنات جديدة .

وتسير عجلة الاستيطان ايضا في سيناء ، فعند مشارف رفح يجري العمل على تعزيز المستوطنات القائمة هناك باضافة مبان جديدة اليها ، وكذلك يجري العمل عند شرم الشيخ حيث تقوم سلطات الاحتلال باشادة مبان جديدة في مستوطنة اوفيرا بغرض تحويلها الى مدينة ، وفي العريش جرى مؤخرا اقامة مستوطنة دائمة لمجموعة مستوطني ناحال سيناي ، على بعد حوالي ٣ كم شرقي العريش . وفيما يتعلق بالمشاريع المستقبلية لشمال سيناء فقد أعلنت سلطات الاحتلال انها تعتزم اقامة خمس مستوطنات جديدة خلال الاعوام الاربعة القادمة عند مشارف رفح .

المأزق ، العامل العربي : في اعقاب تصعيد العمليات الفدائية داخل الكيان الاسرائيلي ، أخذت تتبدى وتتكشف قضية العمل العبري ونقيضها العمل العربي ، هذه القضية التي كانت ولا تزال تشغل المجتمع اليهودي في فلسطين قبل وبعد قيام اسرائيل . ومن المعروف ان المجتمع الاسرائيلي تتنازعه وجهتا نظر اساسيتان تجاه هذه القضية ، الاولى تدعو الى اقتصار جميع الاعمال على اليد العاملة اليهودية لمصلحة المشروع الصهيوني ، والاخرى لا ترى ضررا على هذا المشروع في استخدام اليد العاملة العربية وتتفق مع وجهة النظر الاولى الشرائح الاجتماعية العمالية والمتدينة بزعامة مثقفين صهيونيين «مثاليين» وتتفق مع وجهة النظر الثانية الشرائح البرجوازية المستفيدة من مردود فائض القيمة التي تدرها اليد العاملة العربية الرخيصة مثل المقاولين وملاكي الاراضي وارباب الاعمال التي تحتاج الى جهد يدوي . اما الرسميون ، فبالرغم من أنهم يقفون مبدئيا مع وجهة النظر الاولى ، الا أنهم بسبب ضغط العناصر البرجوازية بالاضافة الى عوامل سياسية يتخذون موقفا وسطا بين وجهتي النظر المتصارعتين .

كان من نتيجة تصاعد الاعمال الفدائية مؤخرا داخل الكيان الاسرائيلي ان بدأت الدعوة الى اقتصار العمل على الايدي العاملة اليهودية تزداد، ولكن شحنت هذه المرة بكراهية تجاه العامل العربي بسبب التصور المشفوع بالخوف بأنه فدائي محتمل . ومن هنا جاءت ردة الفعل قوية ، فقد تعرض عدد كبير من العمال العرب في الجليل وكذلك عمال عرب دروز في ايلات للاعتداء عليهم بالضرب من قبل جماهير من المستوطنين . الا ان اسلوب الاعتداءات على العمال العرب لا ينطوي على حل لقضية « العمل العبري » ، فالطرف الاخر الاساسي هو شريحة البرجوازية التي تشغل العمال العرب ، ولذا فتح الصراع من جديد ضد تلك

الشريحة ، فقامت تظاهرات في اماكن معينة في الجليل وكذلك في النقب في « كريات ملاخي » ضد تشغيل العمال العرب ، وتشكلت لجنة اهلية هناك للعمل لمنع تواجد العمال العرب في الليل . وبالاضافة الى « خطورة » العمال العرب تكشفت هناك خطورة الفلاحين العرب الذين اخذوا يستأجرون قطعا من الاراضي الزراعية وخاصة الكيبوتسات والموشافات ، فقد ظهر ان هناك حوالي ٨٠٠ وحدة زراعية من مجموع ١٢ الف وحدة ، استأجرها الفلاحون العرب في الموشافات، ويقومون باستغلالها ، كما واستأجروا ايضا وحدات زراعية تابعة لحوالي مئة كيبوتس الامر « الذي اثار تخوف الهيئات المعنية من احتمال خلق وضع تعاد فيه معظم الاراضي الزراعية اليهودية الى أيدي العرب » (معاريف ٧٤/٥/٢٠) وازاء هذه « الخطورة » التي تفوق خطورة تشغيل العمال العرب ، تحركت وزارة الزراعة الاسرائيلية ، وأعلنت أنها ستتخذ « عقوبات صارمة » بحق الموشافات والكيبوتسات في جميع ارجاء البلاد التي أجرت أراضي الدولة التي بحوزتها لايدي الفلاحين العرب . ومن بين وسائل العقوبات وقف منح قروض التطوير للمستوطنات ، وهناك اقتراح بدعو الى مصادرة اراضي المستوطنة التي تؤجر اراضيها للعرب . ومن المعروف ان وسائل الاعلام الاسرائيلية درجت حتى حرب حزيران ١٩٦٧ على الصاق تهمة « الخيانة » بكل يهودي يقوم بتأجير ارضه للعرب ، اما الان فقد تضيف الى صفة الخيانة ذريعة الامن ، خاصة وان العمال العرب يتواجدون خلال الليل في محيط المستوطنة . واخذ دعاة عبرنة العمل يستغلون ذلك ويصبون جام غضبهم على المقاول اليهودي الذي يستحوذ على تفكيره استغلال اليد الرخيصة اكثر مما تستحوذ عليه حالة الامن ، فقد « اتضح انه ابان ساعات الظلام يكثر عدد عمال البناء من سكان غزة الذين يبقون للمبيت طيلة الليل . ان المستخدمين يستغلون هذا البيت لكي يوفروا حارسا اسرائيليا » . ولعل حالة الامن المتردية وتفاقم ترديها تحت ستار الظلام قد دفع صحفيا اسرائيليا الى مهاجمة مقاولين يهود من نوع اخر « ... » ففي مدينة اشكلون تطور « ترفيه » يجذب اليه خلال الليل اناسا من غزة بالذات : فعلى شاطىء البحر ، على الشاطىء المركزي لاشكلون اقام عدد من الشباب كوخا من التنك والاخشاب وحولوا المكان الى « ملتقى » بين شابات اسرائيليات وبين أشخاص موسرين من غزة يأتون اليه بواسطة سياراتهم تحت جنـاح الظلام » ومن الجدير بالذكر ان سلطات الامن قد وضعت حدا لتواجد اولئك « الموسرين » الذين يأتون ليلا الى شاطىء أشكلون الا انها لم تستطع وضع حد لتواجد العمال العرب داخل المستوطنات بفعل الضغط الذي تمارسه شريحة البرجوازية الاسرائيلية المستفيدة من تواجدهم . ولم يبق امام دعاة العمل العبري الا اعطاء « المثل » حتى لو أدى ذلك الى ضياع موسم الحصاد برمته، ويستدل على ذلك من حديث لاحد مستوطني كاليا في ملحق معاريف ٧٤/٥/١٧ حين قال : « لقد كانت لدينا مشكلة العمل العربي . اعتقد الان انه لم يكن من الافضل تسليم قطعة البندورا التابعة لنا لذاك العربي من اريحا لقطفها مقابل مبلغ الفي ليرة . اننا لسنا بحاجة الى العمل العربي . لم نستطع بقوانا الذاتية قطف القطعة ، ولذا **قلبنا الارض بواسطة الجرار** . اننا لسنا تجارا ، نعم ، لو كنت اقطن في المدينة لظننت ان ذلك بمثابة تبذير ، ولكن علينا ان لا نتعامل مع العامل العربي فوق اراضينا » .

رجال الهضبة يتصدون .. : خلال فترة اتفاقية فصل القوات بين سوريا واسرائيل ، واضطرار الاخيرة للتراجع عن اجزاء من هضبة الجولان بمقتضى الاتفاق ، اخذت وسائل الاعلام الاسرائيلية تكثر من الحديث لدرجة الاسفاف حول موقف سكان الهضبة الاصليين اي العرب الدروز، في محاولة لتصويره بأنه رافض لعودة الهضبة الى الوطن الام سوريا ، وان السكان هناك يؤيدون بقاءهم تحت الحكم الاسرائيلي ، مستغلة عناصر معينة في الهضبة نفسها يتزعمها الشيخ سليمان كنج ، وعناصر عربية في فلسطين المحتلة كانت قد ربطت مصيرها مع الاحتلال منذ مدة طويلة ويتزعمها كمال منصور والشيخ جبر معدي ومستغلة ايضا واقع فتح مجالات العمل امام من يرغب في ذلك من ابناء الهضبة في جميع ارجاء اسرائيل . ففي الوقت الذي اخذت تبرز فيه وسائل الاعلام الاسرائيلية موقف مستوطني الهضبة المتصدي لاي انسحاب اسرائيلي محتمل من الهضبة ، هذا الموقف الذي يعبر عن

« المثل العليا » للصهيونية ، اخذت في المقابل تبرز موقف الشيخ سليمان كنج « زعيم الطائفة الدرزية في الهضبة » موحية بأنه يعبر عن جميع السكان هناك . والحقيقة ان موقف هذا الشيخ لا يختلف في شيء عن موقف المستوطنين اليهود ، فالشيخ سليمان كنج يكرر رغبته في كل مناسبة يجريها مع صحفي اسرائيلي بضم الهضبة اليها ، ويدعو الاسرائيليين الى عدم الثقة بالسوريين « لان هدفهم هو التحصن في المواقع الاساسية الاستراتيجية في المناطق التي تعاد الى ايديهم لفتح حرب جديدة منها » كما ويبدي الشيخ تخوفه ، وربما يزيد في هذا المجال عن المستوطنين من أن لا يقوم السوريون باعادة السكان الاصليين الى القنيطرة بل « تأهيلها برجال منظمات التخريب وعناصر معادية اخرى وتحويلها الى قاعدة قاعدة انطلاق للمخربين ضد مستوطنات الجولان ». ويطالب الشيخ ازاء هذا الخطر تحصين القرى العربية الدرزية في الهضبة أسوة بأعمال التحصينات الجارية في المستوطنات اليهودية (انظر يديعوت احرونوت ٧٤/٦/١٠) . الى جانب اقوال الشيخ الذي يعتزم « الانسحاب » من الجولان في حالة انسحاب القوات الاسرائيلية منها ، كانت وسائل الإعلام الاسرائيلية لا تتوانى عن ترديد وترويج اقوال بعض الشخصيات داخل اسرائيل المعروفة بارتباطها مع الاحتلال والمشابهة لاقوال سليمان كنج ، الامر الذي دفع اهالي الهضبة للتحرك وابراز موقفهم الحقيقي الوطني في بيانين للرأي العام نشرا في صحيفة الاتحاد (٧٤/٥/١٠) وقع عليهما عدد من رجالات الهضبة مستنكرين فيها تلك التصريحات ومؤكدين انه لا قيمة لها على الاطلاق فقد جاء في البيان الاول : « ان اكثر ما يثير الاستغراب هو أن يصدر تصريح يتعلق بنا عن موظف يعطي نفسه حق الوصاية على اناس رفضوا الوصايات طوال تاريخهم الطويل المليء بالاحداث الجسام والامجاد التي ان كان يعرفها ويتجاهلها فتلك مصيبة ، وان كان يجهلها فعلا فالمصيبة اعظم اما اذا كان يرى في ادعائه الوصاية سبيلا للارتزاق فعليه ان يفتش عن طريق آخر ... » اما البيان الثاني فقد كان اشد لهجة ، فبعد أن تطرق الى عروبة سكان الهضبة ونضالهم ضد الاستعمار والتضحيات التي قدموها ومهاجمة اولئك النفر الذين يدعون الى انضمام الجولان الى اسرائيل ، جاء فيه : « ... لذلك نقول من جديد للمسؤولين في الحكومة والعملاء على السواء: اننا نرفض الاستعمار والظلم ، ونرفض أن يتكلم باسمنا عميل مشبوه ، ولا نرضى بأقل من الاستقلال وانسحاب الجيش الاسرائيلي وعودتنا الى الوطن الام سوريا ، فنحن لا يمكن ان نتخلى عن الوطن الام ، والوطن الام بدوره لا يمكن ان يتخلى عنا » .

عبد الحفيظ محارب

[٢]

بصدور البيان الاردني — المصري المشترك في النصف الثاني من شهر تموز (يوليه) الماضي ، عاد المستقبل السياسي للشعب الفلسطيني وأرضه المحتلة ، يستقطب الاهتمام الرئيسي في المناطق المحتلة . وقد زاد من خطورة الوقت الذي صدر فيه البيان المذكور ، قيام حركة دبلوماسية أردنية نشطة ، بهدف تحقيق « فك ارتباط » للقوات الاردنية والاسرائيلية على جانبي نهر الاردن . اي اعادة الضفة الغربية المحتلة تحت الحكم الاردني وتبديد الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني واقتسام أرضه . وقد ترافق بيان الاسكندرية ذلك مع محاولة جديدة قامت بها مجموعات من اليهود للاستيطان في قرية سبسطية قرب مدينة نابلس . وقد صحب ذلك كله ، توسيع لحملة العسف والاعتقالات من قبل سلطات الحكم العسكري الاسرائيلي لابناء الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة .

صدى البيان المصري — الاردني :

اعتبرت صحيفة الفجر التي غدت تصدر يوميا في القدس ، بيان الاسكندرية ، انه يمس مسا خطيرا

بنضال الشعب الفلسطيني ومصيره . وتساءلت الصحيفة عبر افتتاحية لها بعنوان : « لن يمثل الشعب الفلسطيني لسان أعجمي » ، عما هو القصد في الغموض الذي احتواه البيان ؟ وأضافت قائلة : كيف يمكن « لجلاد الشعب الفلسطيني وجزار ايلول ، قاتل الاطفال والنساء والشيوخ.. كيف يمكن لهذا ان يمثل اي فرد من ابناء الشعب الفلسطيني ؟ وهل النظام الهاشمي في نهاية الامر يمثل أحدا على الاطلاق ؟ » ثم ذكرت « الفجر » السادات بأقواله وآرائه السابقة بالملك حسين . وبعد ذلك قالت : ان الفلسطينيين « لن يسمحوا للسان أعجمي ان يتكلم نيابة عنهم » (الفجر ٧٤/٧/٢١) .

وفي مكان آخر من الصحيفة نفسها ، نشرت تعليقا مطولا حول بيان الاسكندرية جاء فيه : « ان البيان المشترك تكريس للدور الامبريالي وتنكر للحركة الفلسطينية ، كما انه تحول عن قرارات مؤتمر الجزائر وقرارات اتفاقيتي القاهرة وعمان وسائر القرارات الاخرى . وهو في نفس الوقت اشارة صريحة وواضحة لعمان بأن تأخذ زمام المبادرة وتبدأ في اجراء مفاوضات مع اسرائيل . ولكن هل يسمح الشعب الفلسطيني والشعوب العربية لمثل هذه المؤامرة ان تمر ؟ نحن متأكدون ان أحلام كل المخاتلين ستبقى في صدورهم لانهم في النهاية لن يجرأوا على مواجهة غضب الجماهير ». (الفجر ٧٤/٧/٢١) .

وكانت صحيفة القدس قد علقت على البيان المشترك غداة صدوره ، بالقول ان البيان المصري — الاردني قد « جعل خطوطه العريضة العمل من أجل فك الارتباط على امتداد نهر الاردن » . وقالت ان البيان اذ « أناط تمثيل الفلسطينيين في الاردن (أي في الضفتين) بالملك حسين ، فانه قد أناط بمنظمة التحرير الفلسطينية تمثيل الشعب الفلسطيني في الحقوق المشروعة التي تعني أمورا أكبر وأعمق ، مثل حل قضية اللاجئين حلا عادلا ، وحق تقرير المصير وتنفيذ مختلف القرارات التي أصدرتها المنظمة الدولية بشأن الشعب الفلسطيني أرضا ووجودا ومصيرا » . وأضافت الصحيفة قائلة ان البيان ذلك لن يكون نهاية المطاف ، وسوف تتبعه عدة لقاءات تضم الاسد والسادات وقادة الفلسطينيين « ولا شك ان تلك اللقاءات سوف توضح أمورا قد تبدو غير واضحة في البيان ، وستخطو بسياسة المصالحة والتنسيق ، خاصة بين الحكومة الاردنية ومنظمة التحرير ، خطوات ايجابية ومدروسة ومستوحاة من ظروف عربية ودولية » . (القدس ١٩٧٤/٧/١٩) .

وعادت « القدس » مرة اخرى للتعليق حول البيان المشترك ، بطرحها التساؤل التالي : « هل الشعب الفلسطيني هو شعب واحد أم شعوب فلسطينية ؟ » وأجابت الصحيفة على ذلك قائلة : « لقد تجزأ الوطن الفلسطيني ونرجو ان لا يتجزأ الشعب الفلسطيني » . غير ان الصحيفة في معرض شرحها لبيان الاسكندرية ذكرت بيان القمة السوفياتي — الاميركي الاخير ، وقالت انه لا يمكن فهم ذلك البيان الا بالعودة الى البيان الاخر الذي لم يتحدث عن حقوق وانما مصالح الشعب الفلسطيني . (القدس ٧٤/٧/٢٢) .

الا أن جريدة الشعب اليومية ، اختلفت في تقييمها ومعالجتها لبيان الاسكندرية عن زميلتها « القدس » . ففي شرح مطول للبيان تحت عنوان « أضواء على بيان الاسكندرية »، قالت الصحيفة : ان البيان يوحي بأن الضفة الغربية ستعود للحكم الاردني المباشر بوصفها جزءا منه ، « وضمن مخطط ما سمي بمشروع المملكة العربية المتحدة » . كما ان البيان يفوت « الفرصة على الفلسطينيين من اقامة السلطة الوطنية الفلسطينية على كل شبر يتم تحريره من فلسطين ». وأضافت الصحيفة: « ويبدو ان اهتمام بيان التجزئة في الاسكندرية بالنسبة لقضية العرب الاولى — كما يقولون — كانت جزءا كأي جزء احتواه البيان بما في ذلك الاهتمام (بقلق) لتطورات الوضع في قبرص ... ففي الوقت الذي يدعو البيان بقلق وحرارة الى وجوب الحفاظ على الوحدة الوطنية للشعب القبرصي في هذا الوقت يحرص البيان ... على تجزئة الشعب الفلسطيني الواحد » . وذكرت الصحيفة ان البيان قوبل « بالارتياح من قبل اميركا واسرائيل » . كما انه « يلغي بشكل أو بآخر اتفاقيتي القاهرة وعمان لعام ١٩٧٠ » . (الشعب ٧٤/٧/٢١) .

وفي اليوم التالي وعقب صدور بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي رفض بيان الاسكندرية، خصصت الصحيفة افتتاحيتها الرئيسية للاشادة ببيان اللجنة التنفيذية . وطالبت القوى

الوطنية بأن « تعلن رفضها وشجبها للبيان المصري — الاردني الاخير وان تتعجل انعقاد مؤتمر قمة عربي ، تطرح الاوراق فيه بصراحة ومن الجميع ، لتعرف هذه الامة من ظل في خندقها الشريف ومن أتعبه اللهاث فتخلف او ارتمى في منتصف الطريق ... » . (الشعب ٧٤/٧/٢٢) .

محاولة « فك الارتباط » على نهر الاردن :

كان من أهم ما تسلح به النظام الاردني في محاولته لاستعادة هيمنته على الضفة الغربية ، البيان المشترك الذي صدر في ٧٤/٧/١٨ في الاسكندرية ، عقب انتهاء زيارة الملك حسين ومحادثاته مع الرئيس السادات . وقد تزايدت احتمالات نجاح المحاولة الاردنية في هذا الصدد بوصول زيد الرفاعي الى واشنطن واجرائه محادثات منفصلة حول الموضوع مع ناظر الخارجية الاميركية هنري كيسنجر . وحفلت انباء صحف الضفة الغربية الصادرة في أوائل شهر آب (اغسطس) الماضي، بعناوين بارزة ومتعددة تتحدث عن قرب التوصل الى اتفاق حول هذا الموضوع. فتحت عنوان رئيسي في صفحتها الاولى — « حل وسط اميركي للاردن واسرائيل » — كتبت صحيفة القدس تقول ان كيسنجر قد تقدم بحل وسط الى كل من الاردن واسرائيل « يقوم على أساس وضع مطالب الدولتين في اطار واحد . أي ارضاء الاردن بانسحاب القوات الاسرائيلية ، وارضاء اسرائيل ، وذلك باقناع الملك حسين بالموافقة على عودة الادارة المدنية الى الضفة الغربية . وقد كشفت المصادر عن هذا التطور المفاجىء في التفكير الاميركي في نفس الوقت الذي توجه فيه زيد الرفاعي رئيس وزراء الاردن الى واشنطن ليبحث مع المسؤولين الاميركيين امكانية الفصل بين الاردن واسرائيل » . (القدس ٧٤/٨/٤) . وفي عدد آخر من الصحيفة ، ذكرت تحت عنوان رئيسي آخر ان المفاوضات بين الاردن واسرائيل سوف تبدأ في نهاية شهر آب (اغسطس) . وقالت : ان زيد الرفاعي كان خلال مفاوضاته مع المسؤولين الاميركيين « متصلبا فيما يتعلق بفصل القوات » . ونقلت الصحيفة عن صحيفة نيويورك تايمز الاميركية تفاصيل ما وصفته بالاتفاق المرحلي الموقت المتوقع التوصل اليه بين الاردن واسرائيل للفصل بين قواتهما ، والذي ينص:

— انسحاب القوات الاسرائيلية من مواقع حصينة في غور الاردن .

— عودة الادارة المدنية الاردنية الى المناطق التي تجلو عنها اسرائيل .

— يتسلم الاردن الادارة المدنية في مناطق الضفة الغربية التي لا تنسحب منها القوات الاسرائيلية .

وقالت الصحيفة انه يبدو ان اسرائيل ستوافق على هذه الصيغة . (القدس ٧٤/٨/٨) . وكانت « القدس » قد أشارت الى تفاصيل « فك الارتباط » في عدد يومها السابق ، تحت عناوين بارزة مثيرة . وقالت ان المرحلة الاولى من « فصل » القوات ستشمل مدينة أريحا التي ستوضع تحت ادارة مدنية أردنية . ونقلت عن مصادر اميركية قولها : ان الخطوة القادمة سوف تكون انسحاب القوات الاسرائيلية من بعض مناطق الضفة الغربية . (القدس ٧٤/٨/٧) .

وفي وقت سابق على زيارة الرفاعي لواشنطن وبعد صدور البيان المصري — الاردني المشترك ذكرت « القدس » نقلا عن «مصادر اميركية موثوقة» ان مصر « تعتبر التوصل الى اتفاق بين الاردن واسرائيل للفصل بين قواتهما ، نصرا لها تستطيع بواسطته الحصول على دعم اميركي سيؤدي الى انسحاب اسرائيلي سريع من سيناء. وقالت المصادر ان المساندة الاميركية لموقف القاهرة تعززت فعلا مؤخرا بفضل التنسيق القائم بين مصر والملك حسين وتوقف شحن الاسلحة السوفياتية الى مصر منذ ثلاثة اشهر وعدم تبادل زيارة بين مسؤولين مصريين وسوفيات في الفترة الاخيرة ... وأكدت هذه المصادر ان السادات مهتم بأن تكون المرحلة القادمة من المفاوضات بين الاردن واسرائيل بحيث تضم جهات فلسطينية ، كوسيلة للدفاع ضد الاتهامات الفلسطينية بأن السادات يعمل للتوصل الى اتفاق منفرد مع اسرائيل » . (القدس ٢٤/٧/٧٤) .

محاولة الاستيطان في سبسطية :

في الخامس والعشرين من شهر تموز (يوليه) الماضي قامت مجموعة من المستوطنين اليهود بمحاولة للاستيطان في قرية سبسطية قرب مدينة نابلس بالضفة الغربية . وقد أثارت هذه المحاولة اوسع ردود الفعل والغضب الشديدين لدى اوساط الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية . فقد ذكرت « القدس » ان موجة من السخط والاستياء البالغ، عمت أوساط المواطنين في المناطق المحتلة حينما

« عاود المتطرفون الاسرائيليون محـاولات انشاء مستعمرات في منطقة نابلس » خاصة وان على راس هؤلاء المستوطنين بعض الزعماء المتطرفين مثـل مناحم بيجن وأريك شارون وجيؤلا كوهين . وقالت ان محاولات استفزازية اخرى وقعت فـي المنطقة وذلك عندما وصل مئات من الاسرائيليين الى محطة المسعودية على طريق نابلس ــ جنين ، في الباصات والتكسيات يحملون الخيام والاسلاك الشائكة ومواد البناء المختلفة . وتسللوا الى المنطقة عن طريق وعرة غير مأهولة متحديـن مراكز المراقبة التـي وضعتها السلطات العسكرية وباشروا بنصب الخيام حيث قضوا ليلتهم فيها .

وقد أعرب رئيس بلدية نابلس الحاج معـزوز المصري باسم سكان المدينة عـن استنكار جميع السكان لهذه الاعمال الاستفزازية وقال ان الموضوع سيبحث مع رجالات نابلس وطولكرم وجنين باعتبار ان هذا التحدي موجه لجميع سكان المنطقة على السواء ، كما سيجري اتصالات مـع السلطات العسكرية لينقل لهـا مدى القلق والغليان الذي يسيطر على جميع السكان (القدس ٧٤/٧/٢٦) .

وفي اليوم التالي نقلت « الفجر » عن مراسلها الخاص في نابلس ، ان اجتماعا قد عقد في دار البلدية حضره رئيس بلدية نابلس ورئيس بلديـة طولكرم ورئيس غرفة تجارة نابلس « لبحث محاولات الاستيطان في منطقة نابلس من قبل جماعة مـن المتطرفين الصهاينة بقيادة الارهابي مناحيم بيجن والجنرال اريك شارون » . وقالت الصحيفة ان المجتمعين ارسلوا برقية الى وزير الدفاع الاسرائيلي والحاكم العسكري العام للضفة الغربية طالبوهما فيها بالتحرك بسرعة للقضاء على هذه المحاولة . كما ارسل المجتمعون الى سكرتير عام هيئة الامم المتحدة برقية جاء فيها : « ان محاولة الاسرائيليين اقامة مستوطنة في انحاء مختلفة من الاراضي العربية المحتلة تثير اساءة لمساعي السلام المبذولة . اننا نناشدكم ان تضعوا حدا لهذه المحاولات التي تثير مشاعر الناس » . وأرسل المجتمعون برقية ثالثة الى القنصل الاميركي والبريطاني والفرنسي جاء فيهـا : « ان محاولات اليهـود الاسـرائيليين اقامة مستوطنات في انحاء مختلفة مـن الاراضي العربية ما هي الا اساءة بالغة لمساعي السلام المبذولة . اننا نستنكر هذه المحاولات التي تثـير مشاعر الناس » .

وقالت « الفجر » ان اشتباكا بالايدي قد وقع بين المستوطنين ورجال الجيش الاسرائيلي الذين أقاموا حاجزا قرب قريـة بيتين . وعند مصنع الخمور على طريق رام الله ــ القدس جرح في الاشتباك اثنان من اليهود المتطرفين وتم احباط هذه العملية .

وقد عمت مدن وقرى الضفة الغربية موجة من السخط والاستنكار نتيجة لهذه المحاولات التي ان دلت على شيء فانما تدل على عدم رغبة الصهاينة في احلال السلام الدائم في المنطقة .

ومن ناحية اخرى جرت تظاهرة في شارع الملك جورج قرب عمارة السوبرسول بمبادرة مـن خلية طلاب حزب العمل في الجامعة العبرية بالاشتراك مع مجموعـة من سيح ــ اليسـار الصهيوني الجديد ــ وجماعة موكيد ، قوامها ما يزيد على ٥٠ شخصا ، احتجاجا على عملية الاستيطان التي قامت بها مجموعة من حزب الليكود بتأييد مـن المتدينين وجماعة ديان في سبسطية . وقد القى رئيس خلية الطلبة ابراهام جال كلمة ضد عملية الاستيطان . فما كان من جماعـة متطرفة كانت تحيط بالمتظاهرين الا ان انقضت عليه ، فأصيب بجروح في أعضاء جسمه ، نقل على اثرها الى احد المستشفيات . (الفجر ٧٤/٧/٢٧) .

وذكرت الشعب بعد ذلك ان مدينة نابلس عاشت يوم ٧/٢٨ جوا بالغ التوتر ، خاصة بعد أن منع المواطنون من التعبير عن مشاعرهم ، في الوقت الذي واصل فيه المستوطنون الاسرائيليون اصرارهم على الاستيطان في سبسطية . وقالت الصحيفة : استيقظ المواطنون يوم ٧/٢٨ وسيارات دوريات حرس الحدود الاسرائيلـي تجوب شوارع المدينة وعدد من الموظفين الرسميين الاسرائيليين يقومون بتحذير تجار المدينة من اغلاق محلاتهم والاضراب ، كما كان مقررا . وهدد الاسرائيليون مـن يغلق حانوته لن يسمح له بأن يعود لفتحه ومزاولة عمله التجاري . كما استمر وجود نقاط التفتيش التي اقامتها سلطات الاحتلال في الطريق الى المدينة وخاصة عند المدخل الجنوبي .

وواصل المواطنـون في مختلف انحاء الضفـة الغربية الاعراب عن مشاعرهم وتضامنهم مع موقف نابلس مؤكدين رفضهـم واستنكارهم للمحاولـة

الاستيطانية . وأمت بلدية نابلس وفود عديدة من مختلف المواطنين والهيئات الشعبية والنقابات . وأرسل الكثيرون برقيات الاستنكار والاحتجاج الى سلطات الحكم العسكري والمسؤولين الاسرائيليين . وفي قاعة بلدية نابلس ، اعتصم العديد من الشباب العربي واليهودي المناهضين للاحتلال ومن اعضاء الاتحاد الثوري وأنصار راكاح وطلبوا الاجتماع بأعضاء المجلس البلدي ، فتحدث اليهم رئيس البلدية .

وكان الحاج معزوز المصري على اتصال مستمر في هذه الاثناء بسلطات الحكم العسكري محاولا حثها على ترحيل المستوطنين الذين بلغ عددهم حوالي ١٣٥ شخصا ، بالاضافة الى ما يزيد على ألف مؤيد لهم استمروا في التوافد على المنطقة . وقالت صحيفة الشعب معقبة على انباء المحاولة الاستيطانية هذه: «ان المستوطنين يستغلون الوضع السياسي في اسرائيل لصالحهم . فحكومة اسرائيل توافق مبدئيا على الاستيطان في المناطق المحتلة ولكنها تصر على أن يكون ذلك بموافقتها المسبقة ، بالاضافة الى ان قسما من الشخصيات السياسية في حزب العمل يؤيد الاستيطان في كل مكان » . (الشعب ٧٤/٧/٢٩) .

أرقام عن المعتقلين في سجون اسرائيل

نشرت صحيفة الشعب أجزاء من المناقشة التي قدمها توفيق زياد في الكنيست ، حول تقرير وزير الشرطة الاسرائيلي عن الوضع في السجون . ومما جاء في هذه المناقشة ، ان عدد السجون والسجناء في اسرائيل والمناطق المحتلة هو عدد عال بالنسبة لعدد السكان . وحسب تقرير مصلحة السجون السنوي ١٩٧٤ ، يقبع في سجون اسرائيل ٢١٠٦ سجناء منهم ٦٤١ عربيا ، أي ٣١ ٪ من مجموع عدد السجناء . ومن أهالي المناطق المحتلة بلغ عدد السجناء ٢٤١٦ يقبعون في ١١ سجنا في نابلس ورام الله والخليل . وبين هؤلاء ١٨٥٢ معتقلا صدرت بحقهم احكام و٥٥٨ موقوفا ومعتقلا اداريا . واذ أضيف الى هذا العدد من زج بهم في السجون منذ أول السنة ، واكثر من ١٥٠ من معتقلي الجبهة الوطنية الفلسطينية من الضفة الغربية وقطاع غزة يصل العدد الى ٣٠٠ معتقل . وبالاضافة الى السجون التي بنت في السنوات الاخيرة تنوي الشرطة بناء سجون جديدة واجنحة جديدة .

وتطرق زياد الى ما يلقاه السجناء في السجون الاسرائيلية من تعذيب ووضع وسجن انفرادي واذلال ، واخفاء اماكن وجود السجناء عن أقاربهم ومحاميهم ، واعتداء السجناء العنصريين اليهود عليهم، دون ان تتخذ الشرطة أية اجراءات. يضاف الى ذلك تكليف السجناء المحكومين على جرائم اقترفوها ليكونوا سجانين على العرب من المناطق المحتلة .

وقال زياد: « ان هذا قليل من كثير يميز السجون الاسرائيلية ، ويستصرخ كل ذي ضمير قائلا : السجون في المناطق المحتلة تعج بالسجناء وبما لا يعد ولا يحصى من أخبار تعذيب السجناء » . واضاف : « انني لا اعرف اسماء جميع من لاقوا حتفهم اثناء التحقيق ولكني اذكر اسم فريد شطوش وأنور الشخشير واياد حبش . ولا أعرف أسماء جميع من اصبحوا ذوي عاهة جسمانية او نفسانية ، ولكنني اتذكر اسم عبد المطلب ابو رميلة وبدر دعنا . اما القائمة الكاملة فلا ريب في ان سيادة وزير الشرطة ووزير الدفاع يعرفانها » .

وذكر توفيق زياد ما تسلكه الشرطة من اساليب تعتبر استخفافا وازدراء بالسجناء ، فترغمهم على بناء سجونهم بأيديهم وعلى العمل لاجل المجهود الحربي ، كصنع شبكات تمويه ، مخالفة بذلك كل القيم الانسانية والعرف الدولي . واستشهد بمقال نشره دافيد ليبائي احد كبار المحاضرين في كلية القانون والخبير في القضاء الجنائي في مجلة هبراقليط والمحامي في مجلة غرفة المحامين ، وفيه يؤكد ان اساليب الشرطة غير انسانية وان اساليب التحقيق البولسي في جميع مراحلها حتى مثول المتهم أمام المحكمة هي اشبه بتعذيب محاكم التفتيش . ويقول ليبائي ايضا : « ان المتهمين يجابهون محققي الشرطة وحدهم ، ولا توجد اية هيئة عليا تراقب طرق التحقيق ، والمحققون انفسهم هم المعنيون بالمحافظة على قواعد اللعبة ، وان الشرطة تجري تحقيقاتها في غرف مغلقة في وجه الجمهور والصحافة والاقارب ، وحتى المحامي لا يجد سبيلا الى الاماكن التي يجري فيها التحقيق » . (الشعب ٧٤/٧/٢٤).

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

١ ــ عن الحرب الخامسة

الحديث عن الحرب ، الحرب العربية الاسرائيلية الخامسة ، كاد يكون من أبرز المواضيع التي طرحت للنقاش في اسرائيل خلال الاونة الاخيرة ، واشتركت فيه فئات عديدة ، رسمية وغير رسمية . واول ما يلفت النظر في هذا النقاش هو « المبادرة » له ، التي جاءت هذه المرة ، وعلى عكس مرات عديدة سابقة ، من المسؤولين الاسرائيليين قبل غيرهم ، خاصة وزير الدفاع ، شمعون بيريس ورئيس الاركان ، اللواء مردخاي غور ثم رئيس الحكومة نفسه ، يتسحاق رابين ، ثم تناقله عنهم مسؤولون اخرون وتبعهم زعماء الاحزاب والمعلقون السياسيون وغيرهم . اما ابرز من ساهم في اثارة هذا الموضوع فكان وزير الدفاع نفسه ، الذي راح يطلق التصريح تلو الاخر ، محذرا الاسرائيليين من امكان اندلاع الحرب خلال فترة قصيرة وذلك كما جاء في احدى تصريحاته الاخيرة ، « لان الدول العربية قررت، كما يبدو ، اعداد خيول الحرب مجددا . فلقد توقفت الاحاديث عن تسوية ، وبدلا من ذلك بدأ الزعماء العرب يتحدثون بصيغة الاملاء على اسرائيل ، بالاضافة الى استعدادات حربية جدية من جانبهم . فمن سوريا تصلنا دون انقطاع الاخبار عن النية في القتال ، وكذلك أطلق وزير الخارجية المصرية تجاهنا ثلاثة انذارات ، وكأن اسرائيل نعجة خائفة » (معاريف ، ٧٤/٨/٤) .

واضاف بيريس : « ان هذه النغمات الجديدة من التهديدات المرفقة بازدياد تدفق ادوات الحرب على الدول العربية ، والاسراع في استعداداتها الحربية ومحاولة ضم مملكة الاردن الى (المواقف) المجابهة لاسرائيل ، اشعلت الاضواء الحمراء لدينا، بل العالم العربي قد عاد الى غيه ، الى طريق التهديد السياسي والعسكري » (المصدر نفسه). واضاف بيريس ان ما يدفع العرب الى اتخاذ هذه المواقف ، بحسب رأيه هو ، شعورهم بالقوة عقب أزمة النفط واستمرار تدفق الاسلحة الروسية على بعض الدول في المنطقة وكذلك عدم تقديرهم لما يجري حقيقة داخل اسرائيل . « فالزعماء العرب يبدون اهتماما بالغا بالقراءة عن كل ما يجري ويكتب في اسرائيل منذ حرب يوم الغفران وحيث انهم غير مطلعين ، كما يبدو ، على طابع النظام الديمقراطي في الدولة فقد تولد لديهم ، بعد تلك القراءات ، سوء فهم بدأوا نتيجة له باسماع نغمات التهديد » (المصدر نفسه) .

ويبدو ، من ناحية اخرى ، من اقوال بيريس ، انه توقع ، مثل العديدين من الاسرائيليين ، ان يؤدي فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية الى حالة من الهدوء تستمر وقتا غير قصير ، تستطيع اسرائيل خلاله الاستمرار في مناوراتها للاحتفاظ بالاراضي المحتلة وتجميع قواها بينما ينصرف العرب الى حل مشاكلهم الداخلية ، بينما جاء الواقع مشيرا الى عكس ذلك ، اذ أن « اسرائيل بدأت المفاوضات مع العرب من خلال امال كبيرة . لقد تطلعنا نحو امكان حدوث تغيير في « المناخ » لدى الدول العربية وفي موقفها منا وآمنا ان العرب ــ وخاصة مصر ــ سيتجهون بعد فصل القوات الى تطوير بلادهم والاهتمام بمشاكلهم الداخلية . ولكن بدل استمرار نغمة وأمل التفاهم ، بدأ الاعلام العربي يعزف اناشيد الحرب المعروفة ويوجه التهديد ضدنا ، وليس التهديد فقط ، اذ أن النشاط هناك يعيدنا الى واقع جديد ــ وصعب » (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٨/٤) .

وكان رئيس الاركان الاسرائيلي ، اللواء مردخاي غور ، قد أدلى قبل ذلك بتصريحات مماثلة ايضا ، مشيرا الى انه « قد ينشأ قطعا وضع نكون نحن البادئين بالحرب فيه » (هآرتس ، ٧/٣٠/ ٧٤) ، وان « الحرب قد تتجدد على شكل حرب فعلية او قتال خلال مفاوضات ... في الجنوب والشمال وايضا في الشرق ، اذا استنتج الاردن انه سيكون مغبونا بسبب عدم القتال . كذلك قد تقوم سوريا ، التي تمتلك قوة عسكرية ... جدية للغاية باستئناف الحرب لوحدها ــ كما شنت لوحدها حرب الاستنزاف ضدنا بعد حرب يوم الغفران ... ومن الممكن ان تتجدد ايضا فترة « الحروب والاتفاقيات سوية » ، كما حدث بعد حرب الغفران . لقد وقعنا اتفاقيات فصل القوات

مع مصر وسوريا اثناء القتال ، وقد يستنتج العرب من ذلك ان أحسن الطرق للحصول على اتفاقيات تناسبهم هي أما حرب فعلية واما قتال يرافق المفاوضات » (المصدر نفسه) .

سبب الحرب : الفشل المتوقع في المرحلة المقبلة من محادثات جنيف

يبدو من تتبع التصريحات الاسرائيلية حول الحرب والمبررات التي ترافقها ، وكذلك من التعليقات التي نشرت تعقيبا عليها ، ان الاسرائيليين يتوقعون الفشل للمرحلة المقبلة من محادثات جنيف ، التي يفترض ان تبدأ خلال فترة قصيرة ، نظرا لعدم استعدادهم للاستجابة للطلبات التي قد تتقدم بها الدول العربية ، بشأن الانسحاب من المناطق المحتلة ، بحيث لن يبقى امام تلك الدول الا امكانية استئناف القتال . غير ان الاسرائيليين، مع وصولهم الى هذه النتيجة ، يبدون قلقا واضحا مما قد تجره في اعقابها من تطورات ، اذ يبدو ان الجيش الاسرائيلي ، بحسب رأي العديدين من المعلقين المعروفين ، لا يزال غير مستعد بما فيه الكفاية لخوض غمار حرب جديدة في المستقبل القريب ، نظرا للخسائر البشرية والمادية التي لحقت به خلال حرب تشرين ١٩٧٣ وفي اعقابها . كذلك يبدو ايضا ان الجمهور الاسرائيلي غير مستعد ، بحسب تقديرات المسؤولين الاسرائيليين، لتحمل نتائج حرب اخرى ولا يبدي حماسا واضحا لخوضها ، وهو الوضع الذي يدفع الزعماء الاسرائيليين الى اطلاق التصريحات حول خطر الحرب لتقوية الجبهة الداخلية وحثها على شد الاحزمة ، خاصةفي ضوء الاستعدادات والتصريحات العربية حول استئناف القتال اذا تعذر الوصول الى تسوية .

المفتاح في ايدي السوريين

يبدي الاسرائيليون ، في حديثهم عن الحرب المقبلة، اهتماما بالغا بموقف سوريا واستعداداتها العسكرية ، لاعتقادهم انه اذا ما استؤنفت الحرب فان سوريا هي التي ستبدأها ، وقد تستطيع حمل العراق والاردن ايضا ، وربما مصر على مشاركتها في القتال . ويزداد الاسرائيليون ايمانا برأيهم هذا في ضوء معارضتهم الانسحاب من هضبة الجولان من جهة والاستعدادات العسكرية السورية لمجابهة هذا الموقف من جهة اخرى . فأيتان هابر ، المراسل العسكري ليديعوت احرونوت (٧٤/٧/٢٩) يشير الى « ان الروس لم يتوقفوا ، عمليا ، عن تزويد السوريين بالاسلحة ولو ليوم واحد ، بما في ذلك ايام القتال نفسها . وفي نفس الوقت الذي امتنعوا فيه عن تزويد مصر (بالسلاح) لمتتوقف السفن والطائرات الروسية عن زيارة موانىء سوريا ومطاراتها » . وبعد أن يشير المراسل الى أن سوريا قد حصلت على كميات كبيرة من الاسلحة الحديثة ، بما في ذلك الطائرات ، ومن ضمنها ميغ — ٢٣ ، والدبابات والصواريخ والمدافع بعيدة المدى ، يختم مقالته بقوله : « خلاصة القول ، ان الصورة غير مشجعة . من المهم ان نعلم ان عدونا في الشمال قد تسلحت في الاونة الاخيرة باعتدة حربية كثيرة ، وبكميات حولتها الى أكبر مخزن للسلاح في الشرق الاوسط » (المصدر نفسه) . وفي نفس الوقت يشير شموئيل سيجف ، مراسل معاريف في امريكا ، الى انه « وفقا للمعلومات التي وصلت الى واشنطن ، ظهرت خلال الاسابيع الاخيرة اشارات متزايدة لتعاون مكثف بين جيوش الاردن وسوريا . بينما يبدون في الولايات المتحدة قلقا من حقيقة ان شحنات الاسلحة الروسية الى سوريا قد زيدت بهدف اعداد الجيش السوري للحرب ، اذا كان الرئيس الاسد ينوي ذلك حقا » (معاريف ، ٧٤/٧/٢٩) .

ويتفق معظم المعلقين الاسرائيليين فيما بينهم على انه لدى سوريا « عذر شرعي » لاستئناف القتال ، عندما تسنح لها الفرصة بذلك ، « فاذا وافقنا على ان اراء واضعي سياسة الحكومة هي نهائية وقاطعة فان اتفاق فصل القوات (بين اسرائيل وسوريا) هو المرحلة الوحيدة التي يمكن ان تؤخذ بالحسبان . وبعد ذلك — هكذا اعلن في مناسبات مختلفة وزير الدفاع شمعون بيريس ، ومن قبله سلفه ، موشي ديان — « لن تكون مرحلة ثانية ». وحتى اكبر الحمائم في الحكومة يوافقون على أننا لن نتحرك من الجولان ، وعلى أكبر حد يمكن ، ربما ، ان يتم انسحاب محدود ، حتى مقابل ثمن اقتلاع مستوطنة او اثنتين ، ولكن فقط في اطار اتفاق سلام نهائي . فهل هناك حقا من يعتقد ان سوريا ستتنازل عن هضبة الجولان او حتى عن معظمها ؟ » .

« ان الاستعدادات العسكرية المتزايدة في سوريا وتصريحات الاسد المتطرفة ... لا تترك مجالا للالتباس بهذا الشأن » (يوسف حريف — معاريف، ٧٤/٨/٢) .

ويؤيد يهوشواع تدمور (دافار ، ٧٤/٨/١) زميله ، حاريف ، في رأيه « اذ أن السوريين قد دفعوا المنطقة اكثر من مرة الى التدهور والى حرب كبيرة . لهذا من الممكن ان نضع سيناريو متشائم للغاية ، (يتم تنفيذه) في نهاية السنة ، عندما يقوم السوريون ، بمساعدة الروس ، بافشال محاولة تجديد خدمة قوة الطوارىء الدولية. ونتيجة لذلك سيحدث فراغ في منطقة الفصل ، والطرفان اللذان يتحسبان من هجوم ، سيحاولان مسابقة بعضهما البعض ، من خلال استغلال ميزات المفاجأة — فتقع الحرب . في البداية تنشب الحرب على الجبهة السورية ، وبعد ذلك تحاول سوريا جر مصر واشعال المنطقة بكاملها . الكل ممكن .

« ... والامكان الثاني ... قد يظهر للسوريين، مع انعقاد مؤتمر جنيف ، انه ليس لدى اسرائيل ما تقترحه بالنسبة للجولان . وحقا فقد قيلت هذه الاقوال للسوريين علنا ولكن دمشق لا تزال تأمل بأن يلين موقف اسرائيل مع انعقاد المؤتمر ، وربما يتم ذلك بتأثير الولايات المتحدة . اما اذا لم يحدث ذلك — فستحاول سوريا استغلال الخيار العسكري مع استمرار المفاوضات ، كما حدث اثناء محادثات فصل القوات . وستحاول في نفس الوقت ايضا تأمين تأييد زعامة البعث العراقي ، التي كانت ولا تزال تعتقد أن كل « حرب تحرير » عمل ايجابي ، وبعد ذلك تأييد الاردن ومصر » . وكان تدمور قد أعرب عن رأيه هذا في عدد سابق من صحيفته ايضا (دافار ، ٧٤/٧/٢٩) ، مضيفا الى أن سوريا قد تضطر لشن حرب جديدة « خوفا من أن تتوصل مصر الى اتفاق منفصل مع اسرائيل » .

ويعرب متتياهو بيليد (معاريف ، ٧٤/٨/٢) عن رأي مماثل لرأي زميليه السابقين ، حيث انه ليس لدى سوريا أي سبب يدفعها الى الهدوء والانتظار، لان المتحدثين الاسرائيليين قد أوضحوا لها بشكل كاف ان الشيء الوحيد الذي تستطيع ان تتوقعه في جنيف هو التوقيع ... على الاتفاقية المقترحة من قبل اسرائيل ، والتي تخلد الوضع الحالي في هضبة الجولان ...

« على السياسيين (الاسرائيليين) ان يتنبهوا الى الوضع القائم ، وهو أن سوريا تشعر بأنها ملزمة بشن حرب اخرى لكي تمنع ضياع هضبة الجولان المطلق ضمن اطار محادثات جنيف .

غير أن بيليد ، على عكس الاخرين ، يدعو الحكومة الاسرائيلية الى اعادة النظر في موقفها من الجولان ، حتى وان نجمت عن ذلك صعوبات ، لئلا يفشل مؤتمر جنيف وتنشب حرب جديدة . وبعد ان يشير بيليد الى المشاكل العديدة التي ثارت بين اسرائيل وسوريا في الماضي حول الحدود، يضيف : « ان الحدود السورية كانت صعبة بالنسبة لنا . لا بسبب جغرافيتها التي لا تختلف كثيرا عن تلك القائمة بالنسبة لجزء كبير من حدودنا مع الاردن ، وانما بسبب كثرة المشاكل التي بقيت بلا حلول في اتفاقية الهدنة (لسنة ١٩٤٩) ، التي وضعت لتكون مؤقتة للغاية ... كذلك ليس هناك أي تاكيد بأننا لن نكون ملزمين ، بعد حرب اخرى، ورغم كل ذلك بالعودة الى بحث مصير هضبة الجولان في مؤتمر دولي ما ، وعلينا ان نفكر مليا اذا كنا فعلا بحاجة الى حرب اخرى الان ، فقط بسبب رغبتنا في منع اي امكان للمباحثات حول مصير هضبة الجولان ... ليس هناك اي تبرير لعدم تخفيف الضغط المتصاعد في هضبة الجولان ، بواسطة طرح مصير الهضبة لنقاش موضوعي ضمن مباحثات جنيف » (المصدر نفسه) .

وفي نفس الوقت الذي يبحث فيه الاسرائيليون الموقف السوري ، لا يستبعدون ايضا اشتراك الدول العربية الاخرى المجاورة لاسرائيل في أية حرب جديدة قد تنشب في المنطقة ، ولكن كل المعلقين يتفقون فيما بينهم على أن حراجة الوضع على الجبهتين ، المصرية والاردنية ، لا تصل الى ما وصلت عليه اوضاع الجبهة السورية ، خاصة وان مصر والاردن ، بحسب رأي اولئك المعلقين ، لا تزالان حتى الان تتجهان لاستغلال الخيارات السياسية المفتوحة امامهما والوصول الى تسوية سلمية لحل ازمة المنطقة ، وان كان العديدون لا يستبعدون ان تنشب الحرب على هذه الجبهات ايضا ، اذا لم يتم تقدم ملموس في المجال السياسي .

« نصيحة » اسرائيلية للعرب : تعلموا من اخطائنا

في مقابل ما يعتبره الاسرائيليون تهديدات موجهة اليهم من العرب ، بدأ بعضهم ايضا باطلاق التهديدات ، او بأسداء « النصائح » للعرب لئلا يقعوا في الاخطاء التي وقعت بها اسرائيل . ففي هآرتس (٧٤/٧/٢٩) كتب احد معلقي الصحيفة، يوئيل ماركوس : « ان العرب يقعون اليوم في احد اخطاء اسرائيل الكبيرة . ان كل ما يحدث اليوم في الدول العربية يشبه نفس التطور الذي مر علينا بعد حرب الايام الستة : لقد ادار النجاح رؤوسهم . ان دلائل شبه المرض او شبه الظاهرة هذه معروفة لنا أكثر من اللزوم بحيث لا نستطيع الا ان نتطلع بنظرات مسلية الى تطور نمو «العربي المتبجح » . ربما لا توجد لديهم البومات النصر ، كما كان لدينا ، ولكن توجد لديهم كل الظواهر الخارجية للاوضاع (التي سادت اسرائيل) بعد الحرب السابقة : غطرسة ، ثقة بالنفس مبالغ بها وشعور « لا يوجد مثلنا » ، التي طغت علينا بعد حرب ١٩٦٧ . وتنشر هناك الكثير من المقابلات والقصص والاقوال ... حول الانتصار الكبير . هناك حركة سياحية كبيرة الى خط بارليف ، مثل الزيارات الجماهيرية الى المناطق عندنا ، وقد تحول الفشل الاسرائيلي على طول القناة الى منطقة سياحية ...

ويضيف :« لقد اقنع الزعماء والقادة العسكريون العرب أنفسهم بأنهم سيربحون فقط من عمليات استئناف القتال . انهم يتجهون الى تناسي الوقت الذي استهلكوه للتخطيط والتحضير لحرب السادس من اكتوبر . لو تعلموا مما حدث لنا في حرب يوم الغفران ، لتأكدوا ان الثقة بالنفس المبالغ بها لا يمكن أن تحل محل التخطيط والتفكير واليقظة » .

الجيش الاسرائيلي يعد ضربة وقائية « نظيفة » !

اضافة الى هذه التحذيرات ، يستفيض بعض المراسلين العسكريين في وصف الاستعدادات واسعة النطاق والاجراءات الجذرية التي اتخذها الجيش الاسرائيلي لمواجهة اي وضع جديد قد ينشأ في المنطقة ، خاصة اذا نشبت حرب جديدة (يعقوب ايرز — معاريف ، ١٩٧٤/٨/٢) .

ففي سلسلة من المقالات حول اوضاع اسرائيل الامنية — العسكرية نشرها المراسل العسكري لصحيفة هآرتس ، زئيف شيف ، في صحيفته يتبين ان الجيش الاسرائيلي قد انجز مرحلة اعادة بنائه بعد حرب تشرين ، وذلك باعادة تنظيم وحداته المقاتلة وانشاء وحدات جديدة . وقد تم ذلك على مرحلتين : « في المرحلة الاولى لم يجر تشديد على انسجام الوحدات ولا حتى على مستوى التدريب. وكانت هناك حاجة لتنازلات عديدة من الناحية المهنية » ، ولكن بعد ذلك « بدأت المرحلة الثانية لتحسين المستوى المهني واعطاء الاطر الجديدة مضمونا . وهذه هي المرحلة التي مر بها اليوم... وفي هذه المرحلة ينفذ الكثير لتحسين مستوى القادة. وقد اضيفت مواضيع عديدة الى الدورات » (هآرتس ، ٧٤/٨/١) . ولكن شيف يؤكد في نفس الوقت ان عملية « استخلاص دروس حرب يوم الغفران لا تزال الان على أشدها . ان ما نشر عن انتهاء عملية استخلاص الدروس في الجيش الاسرائيلي كان مبكرا للغاية ولهذا فانه غير دقيق. وعندما نشر ان عملية استخلاص الدروس قد انتهت ، كان القصد على ما يبدو أن قسم التدريب في هيئة الاركان العامة وزع على كبار القادة الكتاب الاول عن دروس (الحرب) . ولم يكن هذا الا نهاية مرحلة ، اذ طلب من القادة التقدم بملاحظاتهم ... وبعد ذلك ستنشر كتب ... اخرى .

وفي مقال اخر « هآرتس ، ٧٤/٨/٢) يضيف شيف : « ان حرب يوم الغفران قد انتهت في اواخر تشرين ١٩٧٣ ، ولكن القتال استمر حتى بداية حزيران ١٩٧٤ عندما اعلن عن ايقاف اطلاق النار على الجبهة السورية ، بعد توقيع اتفاقية فصل القوات . ففي البداية خاض الجيش الاسرائيلي حرب استنزاف على الجبهة المصرية وبعد ذلك على الجبهة السورية ، وفي الحالتين كان عليه الاحتفاظ بمجموعات كبيرة في حالة تأهب كامل لمواجهة حرب شاملة . اي أنه منذ شهرين فقط كان باستطاعة الجيش الاسرائيلي التفرغ بأكمله لمهام (اعادة) بنائه واستعداده .

« لا يوجد جيش في العالم يستطيع اعداد نفسه ... لحرب جديدة ، شاملة وطويلة الاجل ، بحيث يكون على الاقل على نفس مستواه قبل الحرب . ولا يعني هذا أن الجيش لا يستطيع خوض حرب اذا فرضت عليه ، ولكنه بالطبع سيكون اكثر استعدادا كلما طال الوقت ... » . ويضيف شيف

ان الجيش الاسرائيلي لا يزال حتى الان يعاني من نقص في العاملين في فروع الميكانيك والتسليح، ولم ينجز عملية تدريب ضباطه وجنوده الذين نقلوا من سلاح الى اخر . كذلك فان الجبهة الداخلية غير مهيأة لتحمل اعباء حرب جديدة ، بينما لم تستكمل اجراءات الدفاع عن الاهداف المدنية داخل اسرائيل .

ولكن زئيف شيف نفسه ، قد تحدث عن « ضربة وقائية » تعتزم اسرائيل توجيهها الى العرب ، ففي مقاله المنشور في هآرتس كتب : « على الجيش الاسرائيلي ان يبقي في يده امكانية ضرب العدو الذي يخطط لمهاجمته بصورة مفاجئة . والحقيقة ان اسرائيل اهتمت بأن توضح لواشنطن ان ما حدث عشية حرب الغفران يجب الا يعتبر التزاما للمستقبل . فلاسرائيل الحق في مفاجأة اعدائها ، وحتى بالقيام **بحرب وقائية** . وهذا لا يعني ان تجسد اسرائيل هذا الحق بأقل حالة ، بل ان الخططات لذلك قائمة ، ويتم فحصها » .

وتحدث شيف عن المحاذير الدولية المحيطة « بالحرب الوقائية الواسعة » ، فقال : « ولكن هناك شرطا آخر هو ان تكون الضربة « نظيفة لا تورط الولايات المتحدة ولا بجسر جوي آخر لاسرائيل . ومن هنا ، فان المقصود ليس حربا وقائية ، بل ضربة وقائية . ويبدو ان هذا هو التغير الرئيسي الذي طرأ على مصطلح الحرب الوقائية بعد حرب يوم الغفران » .

ومن ناحية ثانية ، تبدي اكثر من جهة في اسرائيل شكوكها بشأن الاهداف الكامنة وراء تصريحات المسؤولين الاسرائيليين حول احتمال وقوع الحرب خلال فترة قصيرة ، فيوسف حاريف يتساءل، مثلا ، في معاريف (٧٤/٨/٢) اذا لم تكن تلك التصريحات ضرورية « لتبرير تجنيد عمال الكراجات الذين يحتاجهم الجيش لتصليح اعتدته الحربية بأسرع ما يمكن ، او بسبب حاجته الى مهنيين آخرين ... وربما يعتقد شخص ما أن تلك التصريحات موجهة الى الولايات المتحدة لكي « يسهل » على وزير الخارجية ، ييغال ألون ، الحصول على الاسلحة بسرعة اكبر ... كذلك هناك من يعتقد ان هذا ضروري لوزير المالية ، يهوشواع رابينوفيتش لكي يحبب الى الجمهور نشاطه الابتزازي » الاخير في مجال الضرائب والدفعات الالزامية وتلك التي ستتبعها في المستقبل القريب » .

وفي يديعوت احرونوت (٧٤/٨/٢) يتساءل يشعياهو بن ــ بورات : « ... اما ان تكون تلك الانذارات المفاجئة انذارات حقيقية ، وعندئذ يجب الا نكتفي بخطب رئيس الحكومة ووزير الدفاع ورئيس الاركان وبتسريب معلومات تثير الاعصاب الى الصحف ، وانما ينبغي ادخال الدولة بأسرها، على كل اجهزتها العسكرية والمدنية ، الى حالة طوارىء شاملة وشديدة . او ان الانذارات التي يطلقها القادة تهدف الى صقل استعداد السكان نفسيا ، ولا ترتكز على تقديرات واقعية بشأن الحرب القريبة ، وفي هذه الحالة فانها ليست تصريحات زائدة فقط ولكن مبالغ بها ايضا ، بسبب تكرارها وتراكمها .

« ان الشك بأنه لم يتم تنسيق هنا وان مجرد خطأ قد وقع ، يزداد قوة على ضوء الواقع بأنه لم يتخذ اي اجراء لنقل الدولة الى حالة الطوارىء ... وحتى في هذا الاسبوع ، وبالرغم من الخطب التي تبشر بالسوء ، فقد استمررنا في العيش حسب الاساليب والاطر التي ميزت تلك الاسابيع التي تلت اتفاقيات فصل القوات في الجنوب والشمال، ولم يتخللها ، احيانا ، اي توتر امني . ان اي شيء جوهري لم يتغير في حياتنا ، رغم ان زعماء الدولة وقائد الجيش وجدوا من الضروري ادخالنا الى هلع الحرب القادمة .

« صحيح اننا تعرفنا اكثر خلال هذا الاسبوع على بعض الخطوات الهامة التي اتخذها جيش الدفاع الاسرائيلي . ولكن أية خطوة من تلك الخطوات ، التي يصفها المراسلون العسكريون ، لا تخرج عما كنا نفكر انه اتخذ او ينبغي ان يتخذ من خطوات في ضوء الدروس التي استخلصت ــ منذ مدة ــ من الحرب . وهذا ينطبق على الاستغلال الكامل لساعات الدوام في مكاتب الجيش ، تمديد فترة تجنيد الخبراء على اختلاف انواعهم في الاحتياط ، تعيينات جديدة في القيادة ، الاسراع في التحصينات ودفع العمل في ورش التسليح . وكذلك ــ مناورات التجنيد المفاجىء ، بكل الطرق وعلى كل المستويات ، في ضوء دروس التجنيد في يوم الغفران » .

وتجدر الاشارة ايضا انه على الرغم من كثرة الاحاديث عن الحرب ، فان هناك من يدعو الى التروي والسعي الى حل مشاكل المنطقة سلما ، حيث ان حربا جديدة لن تحل المشاكل المعلقة بين العرب واسرائيل . وفي هذا الصدد كتب ، مثلا ، ابراهام شفايتسر في هآرتس (٧٤/٨/٢) : « ان حربا اسرائيلية ــ عربية أخرى ليست الا تسلية باهظة الثمن وعديمة الفائدة بالنسبة للطرفين . انها لن تؤمن أي شيء لا يمكن الحصول عليه بطرق اخرى ، ولكنها ستزيد الصراع حدة وربما تسبب ادخال الاسلحة الذرية الى المنطقة ... على اسرائيل ان تكون مستعدة لتنازلات اقليمية ، ولكن الدول العربية يجب ان تقدم في مقابل ذلك تنازلات عملية معينة . انهم لم يحصلوا على شيء بالطرق العسكرية ، وحتى اسرائيل لن تستطيع استغلال الانتصار العسكري ، حتى ولو كان ساحقا مثل ١٩٦٧ . يوجد هنا تعادل تاريخي ، حان الوقت للمصادقة عليه باتفاق رسمي » .

٢ ــ الجيش الاسرائيلي .. والسباق مع الزمن !

يعمل الجيش الاسرائيلي الان بأوج نشاطه لتنفيذ خطة العمل الجديدة التي وضعها رئيس الاركان السابق بالوكالة وقائد الجبهة الشمالية اثناء الحرب ، العميد يتسحاق حوفي وهي « خطة الحد الاقصى التي تتطلب تجنيد كافة القوى حتى اخر « قطرة » » (معاريف ، ٧٤/٤/١) والتي نشرت خطوطها العريضة قبل بضعة أشهر وتتعلق بمجالات العمل الرئيسية للجيش الاسرائيلي والدروس التي تعلمها هذا الجيش من حرب تشرين ، وتتلخص الخطوط الرئيسية لتلك الخطة « بالتأهب والاستعداد ، المشتريات والتسلح ، انتاج محلي واستيعاب شبكات الاسلحة واستخلاص دروس الحرب وتطبيقها » (معاريف ، ٧٤/٧/٤) .

مهمات الخطة الجديدة

وتضع تلك الخطة الجيش الاسرائيلي امام سباق مستمر مع الزمن يضطره الى الاهتمام بمجالات نشاطه الرئيسية وتأجيل المهام الثانوية حيث ان هناك بنودا في خطة العمل تم تقديمها بثلاث او اربع سنوات في الخطة الخمسية الحالية .

يدعي الاسرائيليون انه تم تطبيق جزء كبير من بنود هذه الخطة وخصوصا في مجال استخلاص دروس الحرب وتطبيقها وزيادة قوة الجيش الاسرائيلي بالمعدات والسلاح وزيادة القوى البشرية واعادة الجيش الى وضع استعداد للحرب ، وذلك بالاسراع بالمشتريات من الولايات المتحدة وتوسيع الانتاج المحلي وايجاد الحلول للمشاكل التي برزت اثناء المعارك . ففي مجال استخلاص الدروس وتطبيقها ذكر رئيس الاركان في مقابلة له مع اذاعة الجيش ومجلة « بمحانيه » (٧٤/٦/٢٦) :

« تعلمنا الكثير من الدروس في التكتيك والسلاح وفي تقديري اننا تعلمنا القسم الاكبر . اتضح لي اثناء زياراتي (الى وحدات الجيش) ان معظم الدروس التكتيكية ــ الفنية قد نفذت ، ولكن المواضيع التي تشمل تنظيما على المستويات العليا وذات الصلة بين التكتيك والاستراتيجية فلا زلنا نعمل على تطبيقها . واعتقد ان اليوم الذي سنصل به الى استنتاجات واضحة ليس بعيدا » . واضاف في رد على سؤال اخر بأنه « يمكن القول باختصار انه في سلاحي المدرعات والمشاة وفي الوحدات الفنية تم تطبيق جزء كبير من الدروس ، اما على المستوى الاعلى فان الدروس لا تزال في مرحلة التطبيق وعندما نحصل على الامكانيات التي نريدها نستطيع اغلاق الدائرة » . وقال ايضا « ان خططنا العملياتية الحالية أي تنظيم الدفاع في كل المناطق وخطط الهجوم في جميع الاتجاهات تأخذ بالحسبان دروس الحرب الاخيرة » .

وقد اتخذت من اجل تنفيذ هذه الخطة عدة اجراءات كان من بينها ان حلت مشكلة سرعة التجنيد ، وذلك كي تصل قوات الاحتياط الى الجبهات بسرعة اكبر ووضع جيد ومعدات جاهزة. وتجري حاليا تجربة استدعاء الاحتياط بواسطة الراديو او وحدات خاصة للتأكد من ذلك . (دافار ، ٧٤/٦/٢٧) . كما وزيدت الفرق المقاتلة والوحدات الفنية في هذه السنة وذلك بالتشديد على التجنيد الاجباري بالنظر مجددا الى من تخلفوا عن تأدية الخدمة في السابق لاسباب مختلفة واستدعائهم « ودراسة بعض المراكز التي يمكن ان تشغلها الفتيات وزيادة الجيش الدائم بضم اعداد من

الاحتياط اليه من اجل سد النقص الناجم عن حرب تشرين والحرب التي تلتها . وزيدت ميزانية التدريب بأكثر من ضعفين عن السنة السابقة واستكملت مجالات التعاون بين الاسلحة البرية المختلفة وسلاح الجو » (معاريف ، ١٩٧٤/٤/١) .

وهناك بعض الدروس التنظيمية والفنية ، الناجمة عن الحرب يجري العمل لتطبيقها حاليا . فعلى اثر استنتاجات لجنة اغرانات ، هناك اتجاه لتحديد مهمة رئيس الاركان وتحديد صلاحياته وحدود المسؤوليات بينه وبين وزير الدفاع (معاريف ، ٧٤/٧/٥) ، واقيمت كذلك شعبة للتخطيط وهي شعبة جديدة انشئت بعد الحرب وعين العميد ابراهام تمير رئيسا لها . وقال رئيس الاركان انه ينبغي تشكيل هيئة قيادة تنسق بين القوات والاسلحة المختلفة (دافار ، ٧٤/٦/٢٧) كما وقدمت مؤخرا عدة اقتراحات لتشكيل قيادة عليا للقوات البرية وذلك على غرار القوات الجوية والقوات البحرية في الجيش الاسرائيلي ، وذلك لتستطيع قيادة كهذه ، مثلا ، التركيز والتنسيق والسعي لدمج اكثر بين سلاح المدرعات وسلاح المشاة .

أما الجانب الذي لقي اهتماما شديدا منذ بداية الحرب فهو الاسلحة التي بحوزة الجيش الاسرائيلي ، كما ونوعا ، وذلك بعد النقص الخطير في احتياطي السلاح الذي ظهر منذ اليوم الثالث للحرب ، وبعد أن اتضح ان الانتاج المحلي من الذخائر لم يستطع تلبية حاجات الجبهة ، حيث ان انتاج سنة كاملة كان يستهلك في يوم واحد من المعارك . هذا بالاضافة الى الكشف عن عيوب خطيرة في أسلحة الجيش الاسرائيلي منها سهولة احتراق الدبابات م — ٦٠ وعدم كفاءة صواريخ هوك المضادة للطائرات على اسقاط الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة وبسرعة كبيرة ، وشل السلاح الجوي الاسرائيلي بسبب القدرة الفائقة لصواريخ سام ، وخطورة الاعتماد على الطائرات المقاتلة لوحدها في صد الطائرات العربية .

ومن أجل التخلص من هذه العيوب والنواقص وغيرها واعادة الجيش الاسرائيلي الى توازنه ، أخذت اسرائيل تعمل بمساعدة من الولايات المتحدة على تزويد جيشها بأسلحة كثيرة وذات فاعلية أكبر منذ اليوم السابع من حرب تشرين ، فابتداء من ذلك اليوم وخلال شهر واحد فقط قدم الامريكيون الى اسرائيل ٢٢ الف طن من الاسلحة بواسطة الجسر الجوي ضمن ٦٧٠ رحلة (هذا بالاضافة الى الامدادات عن طريق البحر والتي تقدر بأكثر من هذا) (معاريف ، ٧٤/٥/٣١) . وشملت هذه الامدادات علاوة على الطائرات والدبابات والذخائر أنواعا من الاسلحة الحديثة لتشكل حلا ملائما للمشاكل التي برزت اثناء المعارك ، ومنها صواريخ موجهة تلفزيونيا مثل « مافريك » ، « ول آي » و« تاو » وقذائف « ذكية » وصواريخ مضادة لشبكات الرادار من طراز شرايك (معاريف ، ٧٤/٤/١٢) .

كما ويتضح من قائمة المشتريات التي حملها معه وزير الدفاع السابق موشي دايان لدى زيارته الاخيرة لواشنطن ، ومن المعلومات التي نشرت في الصحافة الامريكية والصحافة الاسرائيلية بشأنها والتي أخذت بعين الاعتبار الدروس التي استخلصتها اسرائيل بشأن نوعية السلاح الامريكي ، ان الطلبات الاسرائيلية الحالية لم يكن لها مثيل في السابق من ناحية الحجم والاهتمام بأنواع متطورة من الاسلحة لم تزود بها اسرائيل حتى الان ، ولكن معظم المحادثات دارت حول الحصول على اعداد اضافية من طائرات الفانتوم والسكايهوك(وخصوصا من النوع الجديد اف — ٤ — آي ودبابات م — ٦٠) وفيما يتعلق بالدبابات ، فانه بالاضافة الى الزيادة بمعدل الانتاج لدبابات الباتون ستدخل عليها تغييرات أساسية على ضوء دروس الحرب الاخيرة وستطلب اسرائيل بالطبع الحصول على اعداد من هذه الدبابات (معاريف ، ٧٤/٤/١٢).

وقد كشف موشي دايان في تصريحاته في الولايات المتحدة حقيقة ان الصواريخ الروسية المضادة للطائرات تفوق الصواريخ الاسرائيلية الامريكية الصنع ، لذا فمن الطبيعي الافتراض ان هذه المشكلة وجدت لها حيزا في محادثاته مع الامريكيين .

ان اسرائيل تملك شبكة صواريخ ارض — جو من نوع « هوك » تسلمتها في بداية الستينات ويشك على ضوء التحولات الكبيرة التي طرأت منذ ذلك الوقت ، في قدرة هذه الصواريخ على تلبية جميع الاحتياجات وقد دفع هذا ، موشي دايان ، للمطالبة بصواريخ احدث واكثر فاعلية تستطيع ، بعكس صواريخ الهوك ، اصابة الطائرات التي

تطير على ارتفاعات منخفضة وهي صـواريخ « تشابرال » المحمولة على آلية مجنزرة من طراز « اكس م — ٧٣٠ » ومدافع فولكان المضادة للطائرات ذات السبطانات الست التي تطلق النار في آن واحد (معاريف ، ١٩٧٤/٤/١٢) .

كذلك حاولت الصحافة الامريكية توقع ما تطلبه اسرائيل من الاسلحة ، بالاضافة الى ما ذكر وذلك استنادا الى معرفة حاجياتها . فذكرت مجلة « افييشن ويك » مثلا ، ان قائد السلاح الجوي الاسرائيلي السابق ، الجنرال هود ، زار الولايات المتحدة سرا قبل وزير الدفاع وحاول الحصول على جهاز انذار طائرة من طراز أ — ٣ — آي، يستطيع تحديد مكان اطلاق الصواريخ والتشويش على أجهزة الرادار التي توجه هذه الصواريخ وهو أحد الاجهزة المتطورة جدا في الولايات المتحدة والذي لم تحصل عليه أية دولة اجنبية حتى الان . واشارت ايضا الى طائرة التشويش الالكتروني « غرومان — براولر — آي ٦ — ب » وهي طائرة حديثة جدا ، طارت لاول مرة سنة ١٩٦٨ ، ومخصصة كلها للتشويش على الرادارات وتعطيل توجيه الصواريخ ومن مهامها شق الطريق امام الطائرات المهاجمة التي مهمتها تدمير بطاريات الصواريخ .

وقد ذكر أيضا اسم الصاروخ جو — أرض كوندور كسلاح قادر على تدمير بطاريات الصواريخ العربية عن بعد يزيد عن مدى هذه الصواريخ . واضافت أن الصفقات التي ستحصل عليها اسرائيل في المستقبل ستشمل ايضا صاروخ جو — أرض من طراز « سرام » كأحد الحلول لمواجهة شبكات الصواريخ العربية المضادة للطائرات وصاروخ ارض — ارض من طراز « لانس » الذي يحمل عددا من الصواريخ الصغيرة المضادة للدبابات والتي تنفصل عن الصاروخ الام فوق الهدف (معاريف ، ٧٤/٤/٢٢) .

وفيما يتعلق بمشكلة الصواريخ المضادة للدبابات ، التي حظيت باهتمام جزئي من جانب الجيش الاسرائيلي (بواسطة صواريخ تاو) ، فقد تتبنى اسرائيل النظرية الامريكية التي تقول انه يمكن الامتناع عن مواجهة الدبابات بالدبابات في معارك الدروع عندما يكون العدو مسلحا بشكل جيد وذلك بواسطة مهاجمته من الجو بطائرات عمودية تحمل صواريخ تاو . وتتميز هذه الطائرات بسرعة كبيرة وقد ثبتت فاعليتها في فيتنام . واحدى هذه الطائرات هي « بيل — يو — كوبرا » ، وقد طورت بأشكال مختلفة وهي « بلاك — هوك » و« سي — كوبرا » و« بلاك هاوند » وتستطيع كلها مواجهة الدبابات والمشاة . وذكر ان موشي دايان طلب الحصول على اعداد من هذه الطائرات (نفس المصدر) .

ويبدو ان هذا كله لم يف بحاجات اسرائيل في جميع المجالات ، وخصوصا تلك التي تصفها بالحساسة ، اذ واصلت طلب المزيد من السلاح فسافر وزير الدفاع الحالي شمعون بيريس الى واشنطن لاستكمال الاتفاقات حول صفقات السلاح للسنوات الخمس القادمة والتي تبلغ قيمتها ٧ر٥ مليار دولار .

وبالرغم من أن حرب تشرين اثارت نقاشا طويلا حول دور الطائرة في معارك المستقبل ، الا انه يبدو ، ان دوافع هذا النقاش الذي بدأ في اسرائيل قبل الحرب كانت للتأثير على تقسيم المبالغ التي تخصصها وزارة الدفاع لكل من القوات البرية والجوية (هآرتس ، ٧٤/٦/١٠) . ويتضح من قائمة الاسلحة التي تدمها وزير الدفاع الى واشنطن بأن سلاح الجو الاسرائيلي سيحصل في السنوات القادمة على الجزء الاساسي منميزانية وزارة الدفاع . ويبدو انه سيدخل في صفقة مشتريات كبيرة لاسلحة متطورة جدا ، ذلك ان صفقات الفانتوم ستنتهي سنة ١٩٧٦ على أبعد تقدير (نفس المصدر) .

وقد كشف العميد بنيامين بيلد قائد سلاح الجو الاسرائيلي (دافار ، ١٩٧٤/٦/٢٥) ، ان اسرائيل معنية بشراء طائرات ف — ١٤ (توم كات) وف — ١٥ (ايغل) . اما طائرة ف — ١٤ فتعتبر من طائرات الخط الاول التكتيكية لسلاح البحرية الامريكي . وهي من انتاج شركة ترومان الامريكية وحازت على مصادقة البنتاغون سنة ١٩٧٠ وهي طائرة متعددة المهام ذات مقعدين وتقوم بثلاث مهام رئيسية : الدوريات على ارتفاعات شاهقة ، واسقاط الطائرات المعادية ، وخدمة شبكة الانذار وتقديم الدعم للقوات البرية . وتبلغ سرعتها ضعفي سرعة الصوت وهي مسلحة بمدفع فولكان ٢٠ ملم وصواريخ جو — ارض من طراز « فينكس » وهي

ذات أجنحة متحركة . اما الطائرة الاخرى ف ــ ١٥ فقد طورتها شركة « دوغلاس » واجتــازت التجربة في تموز (يوليو) ١٩٧٢ ، وتنتظر الشركة المصادقة عليها من البنتاغون حتى يبدأ الانتــاج بمعدل طائرة كل شهر ، ثم زيادة الانتاج حتى يصل الى ١٢ طائرة شهريا الا انه سيمر وقت طويل حتى الوصول الى معدل الانتاج هذا . وهذه الطائرة بمقعد واحد ، وتزيد سرعتها عن ضعفي سرعة الصوت ومسلحة بمدفــع متعدد السبطــانات ، وصواريخ جو — جو وجــو — ارض وبأجهزة الكترونية متطورة جدا . ويعتقد الامريكيون ان هذه الطائرة افضل من الميغ ٢٣ بكثير ، ان لم تكن افضل من الميغ ٢٥ التي تعتبر اسرع طائرة في العالم .

الا ان الحاجة للتسلح الحديث الشامل لا تجد تعبيرا لها في الطائرات فحسب ، فقد تكلم العميد بنيامين بيلد حول بناء جهــاز استخبارات جوية (هآرتس ، ٧٤/٦/١٠) ، فقال : « ان السلاح الجوي لا يستطيع الاعتماد على المعلومات التي تصل من فترة لاخرى من القوات البرية او من نظرة خاطفة لطيار على ساحة المعركة . ومعنى ذلك اقامة استخبارات جوية مهمتها تأمــين وصول المعلومات المهمة دون توقف » . وأوضح العميد بيلد ابضا الحاجة الى اقامة شبكة اتصالات متطورة جدا . وذكر ان اسرائيل معنية ايضا برادار طائر من انتاج شركة بوينغ والذي يبلغ ثمنه ٣٥ — ٤٠ مليون دولار (نفس المصدر) .

مشاكل وعقبات :

ان كل هذه الاسلحة والاجهزة والتي ستشكل حلا للمشاكل التي برزت اثناء الحرب وخصوصا مشكلة بطــاريات الصواريخ العربيــة المضــادة للطائرات ، بما فيها جزء من الطائرات ، لا تزال حتى الان في مراحل مختلفة من التطوير . اما ما يمكن شراؤه الان فيجب الانتظار عدة اشهر حتى موعد التسلم .

وبالاضافة الى ذلك فهذه الاسلحة تتطلب قيادات جديدة وفنيين جــددا وتوسيع الجيش الدائــم لاستيعابها . فالجيش الاسرائيلي لا يزال يعاني من ثلاث مشاكل رئيسية ، هي : مشكلة النقص في القيادات والنقص في القوة البشرية والجيش الدائم ومشكلة الثقة . وفيما يتعلق بالنقص في القيادات تكلم رئيس الاركان عن النقص الخطير في القادة على مختلف المستويات والذي خلق فجأة فقال : « ان المشكلة ليست سهلة في صفوف قادة السرايا والكتائب ولكنها صعبــة بالذات على مستــوى القيادات العليا . والحقيقة ان معظم ذوي التجارب من القادة الميدانيين للجيش الاسرائيلي قــد سرحوا من الخدمة ولم يكلفوا بعمل ملائم في الاحتياط حتى الان باستثناء واحد او اثنين » . (يديعوت ، ١٩٧٤/٧/٤) . فقد تغير في الاشهر الاخيرة وجه القيادة العامة وذلك بسبب حرب يوم الغفران وما بعدها . فقد استقال من الجيش ، قبل الاوان ، جنرالات يتمتعون بالتجربة وهذا هو الجيل الثاني من القادة الكبار الذي يترك الجيش خلال سنتين اذ أنهى الجيل الاول خدمته في الجيش اثناء فتــرة رئاسة اليعازار للاركان وبسبب التغييرات الروتينية يومها استبدل معظم جنرالات القيادة العامة التي تتألف من رؤساء الشعب في رئاسة الاركان وقادة المناطق وقادة سلاح المدرعات وسلاح الجو ورئيس شعبة التدريب وقادة سلاحــي المشاة والمظليــين والسكرتيريين العسكريين لرئيــس الحكومة ووزير الدفــاع والناطــق الرسمــي بلســان الجيش الاسرائيلي .

ففي فترة اليعــازار سرح رئيس الاستخبارات العميد أهــارون ياريف ورئيس شعبة الطاقــة البشرية ، العميد شلومو لاهاط وقائدا سلاحي الجو والبحرية العميدان مردخاي هود وابراهام بوتسر وقائدا المناطق العميدان ارئيل شارون ورحبعــام زئيفي وكذلك العميد دان لنر قائد القوات المدرعة في سيناء .

وخرج الجيل الثاني من العمداء من هيئة رئاسة الاركان في الحرب الاخيرة وبعدها . فقد قتل العميد ابراهام مندلر في الحرب وتوفي العميد كلمان ماغين وسببت لجنة اغرانات في اقالة كل من اللواء دافيد اليعازار رئيس الاركان اثناء الحرب والعميد الياهو زعيرا رئيس الاستخبارات ، والعميد شلومو غونين قائد المنطقة الجنوبية . وبسبب خلافات في الرأي ولاسباب شخصية استقــال نائب رئيس الاركان العميد يسرائيل طال ورئيس شعبة العمليات العميد يتسحاق حوفي وبهذا لم يبق من العمداء الثلاثة عشر الذين شغلوا مناصب قبل الحرب سوى ستة فقط ، وفي المقابل فان القــادة الصغار يحتاجون

لسنتين او ثلاث سنوات لتأهيلهم لشغل المناصب العالية (معاريف ، ٧٤/٧/٥) . وقال رئيس الاركان (دافار ، ٧٤/٦/٢٧) « يمكن نظريا ترفيع ضباط صغار ولكن الترفيع السريع قد يؤدي الى ضرر خطير في نوعية الجيش لذا يجب بذل الجهود لتجنيد ضباط أكفاء وذوي تجارب قتالية في الجيش الدائم وذلك من الاحتياط ولو الى فترة محدودة الى ان يتم تأهيل الضباط الصغار » .

وهكذا فمع دخوله الى منصبه توجه وطلب من عدد من القادة الكبار العودة الى الجيش لفترة معينة ولكنه لم يلق استجابة في جميع الاحوال .

اما في مجال زيادة القوة البشرية والجيش الدائم فان القيادة العامة تبذل جهودا لتجنيد ضباط وجنود للخدمة الدائمة ولكن هذا يلاقي صعوبة كبيرة . وقد قامت القيادة العامة بمبادرة لتحسين الاجور لتشجيع الخدمة في الجيش الدائم (دافار ، ٢٧/ ٧٤/٦) . الا ان هذا لم يعط النتائج المرجوة ، فقد صرح العميد غدرون رئيس شعبة الطاقة البشرية انه في نصف السنة التي تلت الحرب تسرح من الخدمة الدائمة ٥١٩ ضابطا و٧٦٣ ضابط صف وجندي وفي المقابل فقد تجند في نفس الفترة ٥٦٤ ضابطا و٢٢٦٤ ضابط صف وجندي فقط . واضاف ان عدد الذين استجابوا لنداء رئيس الاركان في التجنيد في الجيش الدائم لم يكن كبيرا . وقد بلغ في نصف السنة الاخيرة ٢٦٨ ضابطا و٨٥١ ضابط صف وجندي يعود ذلك لاسباب نفسية واجتماعية . (نفس المصدر) .

وقال رئيس الاركان بالنسبة لمشكلة الثقة (بمحانيه ، ١٩٧٤/٦/٢٦) والتي وصفها بأنها أهم المشاكل انه « نتيجة للفترة التي تلت الحرب والتي قيل فيها الكثير حول الاخطاء والانجازات في الحرب اهتز في داخلنا عدد من الاسس المهمة جدا . علينا ان نبني هذه الاسس من جديد علينا ان نبني الثقة بالسلاح ، بالقيادة العليا ، بالقرارات الاستراتيجية السياسية . واستطيع ان اقول ان هناك حاجة الى حد معين للثقة بانفسنا وعدالة قتالنا الامر الذي اهتز مؤخرا بسبب عدد من الظواهر داخل وخارج البلاد . ويجب ثانيا ان نعيد بناء الثقة بين الجيش والشعب وهذا هو الاهم » .

وبناء عليه فالجيش الاسرائيلي بحاجة الى عدة سنوات من الراحة والهدوء ليستطيع استكمال بناء نفسه من جميع الوجوه على الصورة التي لخصها رئيس الاركان في مقابلته مع مجلة « بمحانيه » ١٩٧٤/٦/٢٦ والتي تبرز ان الجيش الاسرائيلي لم يعد النظر في استراتيجيته اذ ان كل هذه الدروس والاصطلاحات لا تتعدى اصلاح هذا التقصير او ذاك وعدم نجاعة هذا السلاح او ذاك واستبداله بما هو أفضل منه او عدم قيام تلك القيادة او ذلك الضابط بالمهمة كما يجب . وقد لخص رئيس الاركان الجديد الصورة الجديدة للجيش الذي تحتاجه اسرائيل في المستقبل بثلاث نقاط :

أ ــ الحاجة الى جيش تكون جميع الخيارات العسكرية والسياسية مفتوحة امامه ليستطيع تجسيد القوة الكامنة داخله .

ب ــ الحاجة الى جيش يكون فيه دمج تام بين المفاهيم الصحيحة والوسائل اللازمة ليستطيع بهذا تنفيذ ما يطلب منه .

ج ــ الحاجة الى جيش يكون عمليا جزءا من الشعب وفي داخله ثقة تامة وبينه وبين الشعب ايضا ثقة تامة .

٣ ــ زيارة ألون لاميركا والتغيير في البيت الابيض

يتابع الاسرائيليون باهتمام بالغ هذه الايام ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم في أماكن اخرى، التطورات الاخيرة في الولايات المتحدة ، وتنحي نيكسون ، ثم دخول جيرالد فورد الى البيت الابيض .

وقبل هذا التطور بيومين فقط أنهى ييغال الون نائب رئيس حكومة اسرائيل ووزير خارجيتها زيارته لاميركا التي استمرت اسبوعا ، التقى اثناءها وعقد ثلاثة اجتماعات مع وزير خارجية اميركا هنري كيسنجر ، كما اجتمع الى وزيري الدفاع والمالية الاميركيين ، والى اعضاء لجنتي الخارجية في مجلس النواب والشيوخ ، والى ثلاثة من اعضاء مجلس الشيوخ هم : سكوت وجاكسون وكنيدي ، كما

أجرى محادثة « عملية ومثيرة للغاية » مع جيرالد فورد ، لم تكن مقررة من قبل. (يديعوت احرونوت، ١٩٧٤/٨/٧) .

وهذه الزيارة التي قام بها الون لاميركا ، هي واحدة من مسلسل الزيارات الطويل ، والتي يقوم بها مسؤولون ورسميون اسرائيليون بكثافة قياسية، حيث انه بعد زيارة نيكسون لاسرائيل اثناء جولته الشرق اوسطية في اواسط شهر حزيران الماضي ، قامت لجنة مشتريات أسلحة اسرائيلية بزيارة لاميركا ، ثم قام شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي بزيارة مماثلة تلتها زيارة الون ، واخيرا زيارة لجنة مشتريات أسلحة جديدة ، وكل ذلك خلال شهر ونصف الشهر فقط . وتجيء جميع هذه الزيارات قبل زيارة ألون المقبلة لاميركا اثناء انعقاد الدورة المقبلة للجمعية العامة للامم المتحدة ، وزيارة رابين التي تليها .

والاهم بين زيارات المسؤولين الاسرائيليين الاخيرة لاميركا ، هي بالطبع زيارة الون ، نظرا لكونه نائبا لرئيس الحكومة اولا ، ثم لوزنه ولمكانته داخل الجسم السياسي الاسرائيلي ثانيا ، ولتوقيت الزيارة بعد انتهاء سلسلة اجتماعات الحكومة الاسرائيلية التي ناقشت خلالها مسألة « تحديد سياسة » الحكومة بشأن العديد من الامور والمواضيع ثالثا . ولانها تجيء بداية لما سماه الون « مسيرة حج يقوم بها وزراء خارجية دول المنطقة الى واشنطن بحثا عن السلام » (عل همشمار ، ١٩٧٤/٨/١) حيث تلي زيارة ألون زيارات يقوم بها وزيرا خارجية الاردن ومصر ومندوب عن الحكومة السورية ، رابعا .

وقبل ان يبد ألون زيارته ، كان رابين قد قال في مقابلة شاملة أجرتها معه جريدة يديعوت أحرونوت (١٩٧٤/٧/٢٦) ، وردا على سؤال حول هدف زيارة الون ، وما اذا كان يحمل معه افكارا جديدة: « ان زيارة وزير الخارجية للولايات المتحدة ، أقرت اثناء زيارة الرئيس الاميركي لاسرائيل ، وأقرت في ذلك الوقت سلسلة تحركات لتنفيذ ما تم التوصل اليه في المباحثات مع الرئيس الاميركي ، وسيكون هدف الزيارة في الاساس تبادل الاراء ووجهات النظر مع الولايات المتحدة . كذلك فاننا نأمل ان تكون لدى الولايات المتحدة ، صورة أوضح لموقف الدول العربية بخصوص المواضيع السياسية المختلفة .

ومن بين « النصائح » التي وجهت الى ألون قبل بدء زيارته لاميركا ، برزت نصيحة شموئيل سيغف مراسل معاريف في واشنطن ، الذي كتب سلسلة من ثلاث مقالات عن العلاقات الاميركية الاسرائيلية ، انهى آخرها (١٩٧٤/٧/٢٥) بالقول ان ضعف نيكسون يلزم اسرائيل بأمرين :

١ — اجراء بحث سريع ومستعجل حول المساعدات الاميركية والدعم الاميركي لاسرائيل .

٢ — التباطؤ في اتخاذ أية خطوات بشأن التسوية .

ومضى سيغف يقول : « ان من الافضل لاسرائيل ان تأخذ على نفسها الالتزامات واحدا واحدا ، وليس بجرعات كبيرة ... وفي اعتقاد مراقبين كثيرين في واشنطن ان اسرائيل سترتكب خطأ خطيرا ، اذا هي قدمت مشروعا شاملا بشأن نظرة اسرائيل للتسوية النهائية ، بدل التقدم قدما قدما ، وبوقفات طويلة بين كل حركة وحركة . ان ذلك ضروري ، وليس فقط لتخطي مرحلة عدم الوضوح في السياسة الاميركية ، بل ايضا لاختبار نوايا العرب . وهنا سيجد ألون ان الادارة الاميركية مستعدة أكثر من اسرائيل للقبول بالنوايا الطيبة للعرب كحقيقة قائمة ، الا انه ليس من الضرورة ان تتشابه نظرات الاميركيين ونظرات اسرائيل ، ويجب ان يشكل هذا الاحساس ضوءا يستنير به ألون لدى زيارته لواشنطن » .

العودة الى انتقاد الادارة الاميركية

كان أبرز ما في زيارة ألون لاميركا لقاءاته مع كيسنجر ، وأهمها ذلك الذي تم في كامب ديفيد يوم ١٩٧٤/٨/١ واستمر ثلاث ساعات ، ولم تتسرب عنه أية معلومات رسمية وان كانت معاريف (١٩٧٤/٨/٤) قد قالت انه أعدت في هذا اللقاء « مسودة اتفاق ممكن بين اسرائيل والاردن » .

ومن خلال متابعة المصادر الاسرائيلية ، يمكن القول بأن الجو اثناء هذه اللقاءات كان متوترا اكثر من مرة ، اذ ذكر موشي زاك (معاريف ١٩٧٤/٨/٩) ان الون قال لكيسنجر « اذا لم تحصل اسرائيل على السلاح الذي تحتاجه لمنع نشوب حرب ، فان

من المشكوك فيه ان تكون هناك فائدة من عقد مؤتمر جنيف في الظروف الحالية التي تشهد تهديـــدا بالحرب » .

« ولقد غضب وزير الخارجية الاميركي من هذا الكلام ، الذي رأى فيه انذارا ، رغم شرح ألون وقوله ان الهدف ليس الا تأكيد حقيقة ان اسرائيل تريد الذهاب الى « محادثات الجوار » مع الاردن كما يقترح كيسنجر ، لا تحت ضغط تهديد بالحرب ، او الغاء منطقة العزل التي تفصل بيننا وبين مصر ، وبيننا وبين سوريا ، وتتمركز فيها قوات الطوارىء النابعة للامم المتحدة ، وانما بعد ابعاد التهديد بالحرب واعادة التوازن بالسلاح ، ذلك الامـــر الذي تبنته الولايات المتحدة على مدى الســنوات الماضية » .

وانتقل سيغف بعد ذلك الى تحديد المواقف التي ثبت فيها — من وجهة نظر اسرائيل — تحرك وزارة الخارجية الاميركية بصورة لم تكن مرضية لاسرائيل، مشيرا بذلك الى النقد الدائم الذي توجهه اسرائيل الى الخارجية الاميركية ، في مقابل الامتداح الدائم لوزارة الدفاع ، ليصل بعد ذلك الى القول : « ... والان يطلب اولئك الموظفون والخبراء — في وزارة الخارجية الاميركية — ان تبدأ اسرائيل فورا اجراء مباحثات مع الاردن حول تسوية جزئية. ورغم انهم يعرفون ان تسوية جزئية كهذه قــد تؤدي الى اضعاف اسرائيل عسكريا وتخلق منطقة ضعيفة عند حدودها الشرقية ، الهادئة حاليا ، فانهم ، ومن ضمنهم وزير الخارجية كيسنجر ، يعتقدون بأنه من أجل التعجيل في المباحثات ، من الجدير المخاطرة بتسوية جزئية مع الاردن، والتوصل الى هذه التسوية عن طريق « محادثات الجوار » وليس بالضرورة في جنيف ... وهم — الموظفون والخبراء وكيسنجر — مستعدون ان يضيفوا الى ذلك جميع انواع المزاعم ، التي يصبح التنـــازل الاسرائيلي بموجبها لمصلحة الملك حسين ، وكأنه تنازل لمصلحة اسرائيل ، حيث انه يقطع أمـــام المخربين الفلسطينيين طريق اقامتهم لنفسهم قاعدة للعمل ضد اسرائيل » .

على ان أكثر ما يخشاه سيغف هو انتصـــار ارادة الادارة على ارادة الرئيس الجديد حيث « ان الدستور الاميركي لا يسمح بوجود فـــراغ دستوري ، ان هناك نائب رئيس يتحول الى رئيس عندما تحين اللحظة ، الا ان هناك مصـــاعب موضوعية تؤدي الى جعل الجهاز هو المتغـلب على كل ساكن في البيت الابيض قبل ترسيخ مكانته، وفي هذه الاثناء يكون الجهاز هو حاكم الرئيــس أكثر من كون الرئيس هو حاكم الجهاز ... وهذه هي الخطورة » .

علامات نجاح الزيارة ...

ورغم ما ذكر عن جو التوتر الذي ساد لقاءات ألون — كيسنجر ، فقد صدر العديد من التصريحات عن الون ، والتي تشير الى التوصل الى تفـــاهم مبدئي بشأن بعض القضايا ، وتشير من ناحية ثانية الى تأجيل البت بشأن ما لم يتم الاتفاق حـــوله من أمور .

فقد أعلن ألون اثر أحد لقاءاته مع كيسنجر « ان المباحثات مع الاردن لا تقل اهمية عن المباحثات مع مصر ، وان واشنطن هي مركز العالم الذي يمكن التوجه اليه لدى العمل من أجل السلام والتعايش مع الدول المجاورة . ان كل الفلسطينيين تقريبـــا اردنيون ، والاردنيون فلسطينيون ، ويمكن حل جميع المشاكل بالمباحثات ، وليس بالامكان العثور على أي حل عن طريق الحرب » (عل همشمار ، ١٩٧٤/٨/١) .

ولدى انتهاء مباحثات الون الرسمية في اميركا قال « ان للولايات المتحدة صلاحية القول لضيوفها السياسيين العرب الذين سيصلون لاجراء مباحثات في واشنطن ان اسرائيل لا تنوي تحويل اتفاقيتي الفصل بين القوات الى وضع دائم ، او الى وضع راهن جديد لفترة طويلة . ان اسرائيل مستعدة مبدئيا لاجراء مباحثات سواء كان الموضوع المطروح تسوية شاملة أم تسويات جزئية ممكنة في ظروف معقولة » . (عل همشمار ، ١٩٧٤/٨/٤) .

وقال ألون ايضا انه في مباحثاته ، لم يتم تحديد سلم الاولويات في المرحلة الثانية من المحادثات في الشرق الاوسط ، « الا انه جرى الحديث حول امكانية دخول الاردن في المباحثات كأمر طبيعي أكثر من السابق ، ولم نحدد أية اولويات بين مصر والاردن أو أية دولة اخرى ، لان هذا الامر يحتاج الى توضيح مع مندوبي الدول العربية ذاتها » .

وردا على سؤال حول ما اذا كان تم التطرق في المحادثات الى زيادة وزن منظمة التحرير الفلسطينية مؤخرا ، رد ألون انه « عندما يتم التطرق الى ذكر العوامل الفاعلة في الشرق الاوسط فانه من الطبيعي ذكر منظمة التحرير الفلسطينية ، الا ان الموضوع الفلسطيني بحث ضمن الاطار الصحيح ، بما يتناسب مع قرار حكومة اسرائيل حوله » .

وبعد ان اعرب ألون عن اعتقاده بأن مؤتمر جنيف سيعقد جلسته الثانية قبل نهاية السنة الحالية ، قال « ان ما يهمني هو ان لا يمارس مؤتمر جنيف اعماله تحت ضغط انتهاء فترة بقاء قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة ، تلك الفترة التي يجب تمديدها مرة كل ستة أشهر كما هو معروف ، واذا تم التأكيد بانه لن تستغل مسألة انتهاء الفترة الاولى بصورة سيئة ، فان واحدا من أحجار العثرة على طريق مؤتمر جنيف تكون قد أزيلت » . (المصدر السابق) .

واذا اعتبرنا ان قول ألون بأن محادثاته في واشنطن « لم تكن تستهدف اتخاذ قرارات ملزمة ، وانما اجراء مشاورات وتوضيحات وفحص الامكانيات والاحتمالات » ، وقوله « لقد أظهرت الولايات المتحدة تفهما للخطر المحدق بالمنطقة بسبب الاسلحة المرسلة من الاتحاد السوفياتي» (يديعوت أحرونوت، ١٩٧٤/٨/٧) فان من الممكن القول ان زيارة ألون قد حققت أهدافها ، خاصة اذا أضيف لما ذكر ، تلميحات استجابة اميركا لمطالب اسرائيل من الاسلحة .

... وعلامات فشلها

الا ان هناك مصادر اسرائيلية أخرى اوحت بأن أهداف زيارة ألون لم تتحقق بالكامل على الاقل، خاصة عبر التأكيد على انه لن يكون هناك أي تطور جديد هام قبل اجراء جولة جديدة من المباحثات بين اسرائيل واميركا .

فقد كتب شموئيل سيغف (معاريف،١٩٧٤/٨/٤) يقول : « خلقت الجولة الجديدة من المباحثات بين كيسنجر وألون فهما اميركيا — اسرائيليا مشتركا يقول بأنه يجب عدم تحديد أية تواريخ لاعادة انعقاد مؤتمر جنيف او لبذل اي جهد مع مصر او مع الاردن قبل ان تتم جولة جديدة من المشاورات بين واشنطن والقدس، ولم يحدد شكل هذه المشاورات، ولكن اتفق — بصورة غير ملزمة — على أحد اثنين : اما ان يحضر كيسنجر الى الشرق الاوسط وهو في طريقه الى الهند في شهر ايلول المقبل ، ويجتمع بزعماء حكومة اسرائيل وحكومات الدول العربية ، واذا لم يتم ذلك فستجرى المشاورات في الولايات المتحدة عندما يذهب ألون ووزراء الخارجية العرب الى نيويورك لترؤس وفود بلادهم الى دورة الجمعية العمومية للامم المتحدة » .

وبعد ذلك عاد ألون وصرح بأنه « في اعقاب الاتصالات الاولية ستكون هناك ضرورة لاتصالات اضافية ، لم يحدد اطارها بعد ، ولذا فان من الصعب القول الان ماذا ستكون الخطوة المقبلة ، وأين ستتم ، ولكن من الواضح تماما اننا سنضطر في الفترة القريبة المقبلة الى اتخاذ خطوات سياسية اضافية تتضح تفاصيلها خلال وقت قصير » . (معاريف ، ١٩٧٤/٨/٧) .

وسواء كان اتفاق وجهات نظر اسرائيل واميركا كاملا او جزئيا ، فان الاميركيين أعطوا لزيارة ألون أهمية أكبر من تلك الزيارات التي كان يقوم بها سلفه (ابا ايبن) وذلك « لان كل موظف في وزارة خارجية الولايات المتحدة كان يعرف وزن ابا ايبن الحقيقي » وكذلك « لان المباحثات التي اجراها ألون كانت اولية ، ولهذا فقد شملت تقريبا جميع المواضيع التي تشغل بال اسرائيل وجاراتها ، بدءا من مراحل تسوية ممكنة في سيناء ، وانتهاء بمشكلتي الفلسطينيين والقدس » . (دافار ، ١٩٧٤/٨/٦) .

ازمة نيكسون

وطوال فترة زيارة ألون لاميركا ، كان الموضوع الاهم الذي يشغل الاميركيين هو فضيحة ووترغيت ، واحتمالات تقديم نيكسون للمحاكمة وادانته في الكونغرس ومن ثم عزله .

ولم تكن هذه الحقيقة غائبة عن أي من اللقاءات التي اجراها ألون مع الاميركيين ، بل قد تكون هي سبب اللقاء غير المتفق عليه من قبل مع نائب نيكسون والرئيس الاميركي الجديد جيرالد فورد .

وقال شموئيل سيغف (معاريف ، ١٩٧٤/٨/٤) « لم تكن مشاكل نيكسون واحتمال ادانته وكذلك الاغلبية الضئيلة التي لحكومة رابين بعيدة عن

تفكير كيسنجر وألون ، واكثر من ذلك : لم يترك ألون فرصة الا وأكد فيها انه اذا ما تم التوصل الى أية اتفاقية فان الحكومة الاسرائيلية ستضطر الى اجراء انتخابات من أجل الحصول على تفويض جديد للتوقيع على تلك الاتفاقية » .

ولم يخف الاسرائيليون اهتمامهم البالغ — المشوب بشيء من الارتياح — لاحتمال تنحي او عزل نيكسون ، وتسلم فورد للرئاسة. كذلك فان المصادر الاسرائيلية أعربت عن قناعتها بضرورة التريث في السير على طريق التسوية الى ان يتجلي الموقف في اميركا .

وكتب حغاي ايشد (دافار ، ١٩٧٤/٨/٨) يقول : « ان الازمة الرئاسية في واشنطن ستؤدي بالضرورة الى تخفيف سرعة جهود السلام في الشرق الاوسط ، رغم رغبة وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر في استمرار « الاشغال كالعادة » ... ولقد ازداد مؤخرا الميل في القدس ، حتى بدون هذه الازمة ، لاختبار نوايا السلام العربية ، وخاصة نوايا الاردن ، بل حتى ونوايا كيسنجر نفسه حول هذا الموضوع » .

ثم عاد ايشد وكتب في اليوم التالي (دافار ، ١٩٧٤/٨/٩) يقول « ان مصير نيكسون هو سبب اضافي — غير اساسي ولا وحيد — جدير بأن يلزم اسرائيل بالانتظار وبعدم التسرع في خطواتها المقبلة على الصعيد السياسي . الان وقت التوقف والنظر والتطلع من جديد على الوضع الجديد في واشنطن وتأثيراته المحتملة » .

« الكثيرون يتنبأون بأنه لن يحدث تغيير على سياسة اميركا الخارجية بعد تعيين جيرالد فورد كرئيس للولايات المتحدة . كثيرون يتنبأون بأنه سيطلب من كيسنجر الاستمرار في منصبه وفي سياسته ، الحالية ، وان هذا سيستجيب ...

« يجب الافتراض ان الاتحاد السوفياتي سيكون الدولة الاولى التي ستعيد من جديد دراسة سياسة الوفاق . وقد تكون ساحة الشرق الاوسط احدى الساحات الاساسية في اعادة الدراسة هذه . وسيكون مرتبطا بذلك وبالضرورة اعادة دراسة العلاقات بين الدول العربية وبين الولايات المتحدة، وبشكل خاص علاقات القاهرة بواشنطن . ان العرب من جانبهم ينسبون للرئيس نيكسون شخصيا وزنا خاصا في تغيير السياسة الاميركية لصالحهم كما يفهمونها هم . ولسوف يرغبون في رؤية الرئيس الجديد في الممارسة ، وفي اتخاذ القرارات وفي تنفيذها ، وبطبيعة الحال فان السوفيات سيرون في هذا مناسبة لاعادة التقييم رسميا وعمليا لعلاقات الدول العربية بالولايات المتحدة ، بل وللبحث عن طرق جديدة تؤدى الى العرب .

واذا طلب الى كيسنجر البقاء في منصبه ، واستجاب لذلك ، فانه ستكون لكيسنجر نفسه مصلحة شخصية واضحة في اثبات ان « الاشغال عادية » ، وانه لم يحصل اي تغيير في السياسة الخارجية لاميركا . الا انه ليس بمقدور اسرائيل ، ان تكون شريكة لهذه المصلحة الشخصية، خاصة وانه وضعت ، حتى قبل ذلك ، علامات استفهام غير قليلة ، حول الاهداف الحقيقية لكيسنجر ازاء اسرائيل ، واذا كان ذلك بالنسبة الى الماضي ، فما بالك بالنسبة الى المستقبل ، ويمكن ان نرى في محادثات كيسنجر مع وزير الخارجية ييغال الون، وبما نتج عن هذه المحادثات من اصداء حتى الان ، مصدر قلق من اهداف كيسنجر في المستقبل » .

وذهبت دافار (٧٤/٨/٩) في افتتاحيتها الى المقارنة بين وضع كل من نيكسون وفورد ، ولاحظت « ان فورد على عكس نيكسون سيعمل على اعادة انتخابه لرئاسة الولايات المتحدة عام ١٩٧٦ ، ومن هذه الناحية ، فانه قد يكون للضغوطات الداخلية وزن اكبر مما لها حاليا » .

اما البروفيسور الاميركي مورغنتاو المقرب من « صقور » اسرائيل ، والمعروف بانتقاداته القاسية لتلميذه — سابقا — كيسنجر ، فقد تنبأ في محاضرة في اسرائيل ان يكون فورد اكثر تأييدا لاسرائيل من سلفه (معاريف ، ٧٤/٨/٩) . ووافقه على هذا الرأي العديد من الاسرائيليين عبر ما اتضح من متابعة الانباء والتعليقات الصادرة عن اجهزة الاعلام الاسرائيلية .

٤ — « الكيان الفلسطيني يشمل العرب في اسرائيل »

أدى اشتراك بعض الشبان الفلسطينيين من العرب في اسرائيل ، الذين التحقوا خلال السنين الماضية بالمنظمات الفلسطينية ، في العمليات الفدائية الاخيرة التي نفذت في شمال فلسطين ، (عمليتا معلوت ونهاريا ، واعتقال شابين من مجد الكروم كانا في طريقهما للقيام بعملية داخل اسرائيل) الى اثارة موجة من التساؤلات والتعليقات حول موقف العرب في اسرائيل ، والتحول الذي طرأ على مواقفهم خلال الفترة الاخيرة ، في اعقاب حرب تشرين ١٩٧٣ والتطورات السياسية الراهنة . وهو الوضع الذي دفع احد الصحافيين الاسرائيليين الى الاعتراف بأن « مسألة عرب اسرائيل ، مركزهم ومستقبلهم ، لم تعد مسألة سياسة داخلية ، وجدت حلا لها في الماضي بواسطة الحكم العسكري ، وفيما بعد بواسطة الخطط الخمسية لتطوير القرية العربية . من الان وصاعدا ، علينا ان نبحث بها في اطار نظرتنا الى المشكلة الفلسطينية » (ايلي أيال في ملحق معاريف، ٧٤/٦/٢١) . بينما يرى اخر أن الحرب الاخيرة أحدثت تحولا سياسيا لدى عرب اسرائيل . فقد عززت شعورهم بعروبتهم ، وازدادت مطالبهم في « اشراكهم بصورة عملية في هيئات الحكم واقرار السياسة » . فاعضاء الكنيست العرب المرتبطون بالمعراخ ، وعلى رأسهم سيف الدين الزعبي ، عرضوا مواقف سياسية لاول مرة في تاريخ اسرائيل ، مثل مطالبتهم باقامة حكومة بدون التكتل اليميني (ليكود) ، وضم وزير عربي الى الحكومة (داني روبينشتاين في دافار ، ٧٤/٣/٢٥) بعد أن كان نشاطهم في السابق محصورا في القضايا الداخلية . ويضيف الكاتب في مقال اخر ان العلاقة بين كلمتي « عرب اسرائيل » قد اهتزت بعد الحرب الاخيرة . « ففي الماضي كانت تعبيرا عن النصر والقوة والفائدة . اما اليوم فقد ارتفعت قيمة العربي وانخفضت قيمة الاسرائيلي ... » (دافار ، ٧٤/٣/٢٤) .

« الفلسطينيون الحقيقيون »

ويعترف اخر ان الكيان الفلسطيني يشمل العرب في اسرائيل أيضا ، الذين « هم فلسطينيون بكل معنى الكلمة ، وهم الفلسطينيون الاصليون ، لانه في عام ١٩٦٧ كان أبناء القدس القديمة ، نابلس والخليل — بمثابة اردنيين . وابناء غزة لم يحتجوا على شرعية الحكم المصري في القطاع . ولكنهم جميعا احتجوا على شرعية الحكم الاسرائيلي في تل ابيب وفي فلسطين السليبة كلها » . (الياهو عمبكام في يديعوت ارحونوت ، ٧٤/٧/١٢) .

بينما يرى ايلي ايال (ملحق معاريف ، ٦/٢١/ ٧٤) « ان غالبية عرب اسرائيل قد امتنعوا حتى حرب يوم الغفران عن استخدام عبارة دولة فلسطينية . اليوم أصبحوا فلسطينيين فخورين يؤيدون اقامة دولة فلسطينية . لقد تحركت فكرة ارتباطهم بالارض وبالقضية الفلسطينية فجأة ، واصبحت في نظرهم فكرة جذابة .

« ان بيانات جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الاميركي ، حول الحاجة الى اشراك الفلسطينيين في مؤتمر جنيف ، والاخبار بأن الرئيس نيكسون مستعد ايضا لتعديل قرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن ، لم تبعث شعارات الدولة الفلسطينية فحسب ، وانما أصبحت فكرة في متناول اليد ، وعلى عتبة التحقيق والتنفيذ . حتى ان الصحف الفلسطينية التي تصدر في القدس الشرقية ، والمنتشرة في الضفة وبين العرب في اسرائيل (في الناصرة توزع صحيفة « القدس » اكثر من صحيفة « الانباء » الحكومية) زادت اهتمامها بالفكرة الفلسطينية وبشكل حاد .

« في الايام المقبلة ستجري حكومة اسرائيل بحثا شاملا حول الموضوع الفلسطيني . وقد بدأ بعض الوزراء بالاستعداد للنقاش ، وبدراسة البدائل للمشكلة ، وتطورها وتاريخها . واليوم — خلافا لما كان عليه قبل سبع سنوات (قبل الايام الستة) وخاصة ليس بعد حرب يوم الغفران اصبحت القضية السياسية الفلسطينية مرتبطة بقضية عرب اسرائيل . ان المسألة التي تواجه الاختبار ، ليست صيغة « الدولتين بين البحر والصحراء » مقابل صيغة الدولة الفلسطينية في الضفة والقطاع، وانما مسألة نظرة مئة الف عربي في اسرائيل الى تلك الدولة الفلسطينية ايضا ، في حال قيامها ...

« هناك من يقول ان عرب اسرائيل سيواصلون

الاحتفاظ بالجواز الاسرائيلي اذا اقيمت الدولة الفلسطينية . وهناك من يقول انه اذا كانت هذه دولة منظمة ذات حكم ثابت ، مع جامعة ومؤسسات محترمة ، سيميل الشبان من بين العرب في اسرائيل الى الانضمام اليها ، وهكذا يضعون حدا لخيبة أملهم التي لا مخرج منها . ان الاحاديث في الماضي ، بأن عرب اسرائيل هم جسر للسلام ، قد تثبت على أنها كلام لا أساس له . اذا لم تتوفر لهم الاوضاع الملائمة ، والمواقع والنفوذ ، لن يتوفر الاحتمال بأن يكونوا مثل ذلك الجسر ».

الانضمام الى المنظمات الفدائية

يتفق معظم المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين على ان انضمام عدد من الشبان العرب في اسرائيل الى المنظمات الفدائية هو مشكلة في حد ذاته ، ولكنهم يختلفون حول الاسباب والعوامل التي أدت الى ذلك ، ثم حول مدى خطورة هذه الظاهرة . فطوليدانو ، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، يرى انه منذ حرب يوم الغفران ، قد طرأ ارتفاع في النزعة القومية لدى العربي الاسرائيلي . كذلك فان سيطرة العناصر الوطنية على القرية العربية تشكل ظاهرة تقلق اسرائيل اكثر مما تقلقها عشرات العرب الذين ينضمون الى منظمات « الارهاب » ، لان هذا يعني ان المواطنين العرب « بدأوا يفكرون بأسلوب لا نريدهم ان يفكروا به » . ويضيف طوليدانو : « حتى حرب يوم الغفران ، كانت تسيطر على معظم القرى العربية قوى ايجابية (اي متعاونة مع السلطة) ولكننا نفقد هذه السيطرة حاليا . يتوجب علينا ان نفعل شيئا ما ، ولا يجوز التسليم بهذه الظاهرة بل ينبغي القضاء عليها » (رأا ، ١٩٧٤/٧/٨) . اما « السبب الرئيسي في انضمام هؤلاء الشبان الى منظمات « التخريب » فهو كونهم عربا ، وشعورهم بأن انتماءهم العربي قد تغلب على نزعتهم الاسرائيلية » . ويضيف طوليدانو انه « لا حل لمشكلة الاقلية العربية في اسرائيل ، طالما ان هناك حربا بيننا وبين الدول العربية » . ولكن اذا شعر العرب ، بحسب رأيه ، ان اسرائيل تعاملهم معاملة حسنة ، فان عدد المنضمين من بينهم الى منظمات « الارهاب » سيقل . والاهم من ذلك « اننا نستطيع عندئذ تخفيض النزعة القومية الاخذة بالازدياد في الاونة الاخيرة في القرى العربية » .

يتفق المعلقون على خطورة هذه المشكلة ، ولكنهم يختلفون ، كما أشرنا ، حول الاسباب التي دفعت بهؤلاء الشبان الى الانضمام لمنظمات الفدائيين . فهناك من يدعي ان الخلفية الجنائية لاولئك الشبان هي التي دفعتهم الى ذلك . وفي هذا المجال يتحدث بايلون في مقالة له في ملحق دافار (٧٤/٦/١٤) عن « ٤٥٠ شابا عربيا هربوا من اسرائيل منذ حرب الايام الستة ، وقد عاد منهم او القي القبض عليهم عند تسللهم ، ٢٨٥ شابا . كثيرون منهم تركوا المدرسة الابتدائية او الثانوية ، وبعضهم ترك وراءه ملفات في الشرطة . كثيرون منهم انضموا الى منظمات « التخريب » الفلسطينية ، وقد انضم عشرات وربما اكثر الى هذه المنظمات داخل اسرائيل ، ومارسوا التجسس والتخريب . ان جزءا من الهاربين ومن اولئك المنضمين الذين لم يهربوا ، ينتمي الى الشباب الهامشي او الشباب الذي يعيش بضائقة في القطاع العربي ... »

أما ايلي أيال فيرى « ان حقيقة وجود ملفات جنائية لهؤلاء الشباب في الشرطة ، لا تقلل من مدى خطورة هذه الظاهرة ، اذ أن اكثرية اولئك العشرات من الشباب العربي الذين هربوا مؤخرا الى لبنان وانضموا الى منظمات المخربين ، ليسوا مجرمين جنائيين . على العكس ، معظمهم من المثقفين الذين أنهوا التعليم الثانوي على الاقل ، وهم يتحدثون اللغة العبرية بطلاقة ، ويعرفون اسرائيل ومشاكلها وزعماءها . ويتضح انه سيكون بالامكان في المستقبل القريب ، اكتشاف احدهم في كل خلية مخربين تحاول التسلل والضرب في اسرائيل » (ملحق معاريف ، ٧٤/٦/٢١).

ويصف أيال هؤلاء الشباب فيقول أنهم من مواليد اسرائيل ، او أنهم نشأوا هنا في ظل الدولة اليهودية ، ورغم ذلك قرروا في أحد الايام تركها من اجل الانضمام للمنظمات التي ترغب في ابادتها .

ويعارض أيال رأي اولئك الذين يعتقدون ان التطور الاقتصادي في القطاع العربي ، سيقضي على هذه الظواهر ، قائلا انه « سيخيب أمل كل من يتوقع بأن الانتعاش الاقتصادي والتقدم المادي كافيان لكي يصبح العربي مخلصا لفكرة الدولة اليهودية ... »

وباعتقاده فان الذي يسبب الضيق هو أن من يعرفون باسم الخبراء للشؤون العربية في اسرائيل، ينفون وجود حل معقول لمشكلة المئة الف شاب عربي (تتراوح اعمارهم بين ١٦ — ٣٠ سنة) في اسرائيل . كما أن كل وزير يتصرف بقضايا العرب في مجال اختصاصه ، حسب رغبته . ويعترف اولئك الذين يهتمون بالقضايا العربية ، انهم يعملون من خلال شعور ، وليس حسب سياسة عامة .

نشاط الحزب الشيوعي راكح

ازداد نفوذ الحزب الشيوعي الاسرائيلي — راكح ، في القطاع العربي ، وخاصة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ . ففي الانتخابات الاخيرة للكنيست حصل الحزب على أعلى نسبة من الاصوات بين عرب اسرائيل : ٤٨ الف صوت من بين ١٧٤ الف من أصحاب حق التصويت من العرب في الانتخابات للكنيست الثامن ، ١٩٧٣ ، مقابل ٢٥ صوت من بين ١٤١ الفا من أصحاب حق للتصويت في الكنيست السابع ١٩٦٩ (يوسي بايلون في ملحق دافار ، ٧٤/٧/١٩) . ويضيف بايلون التأييد لراكح في القطاع العربي بقوله انه « في الوقت الذي توقعت فيه المؤسسة الاسرائيلية تطف ثمار اهتمامها الصحيح بما يدعى « القطاع العربي » ، عندما كانت ترى نصب اعينها الفيلات الفخمة في القرى، والتقدم الواضح في مجال التعليم ، وازدياد عدد السيارات الخاصة تلقت صفعة على شكل تأييد متزايد لحزب راكح ، الذي يعتبر قليل الاخلاص للدولة . ان هذا الحزب الشيوعي ، الذي تطغى فيه المصلحة الطبقية ، ظاهريا ، على كل فكرة قومية ، يجمع داخله ، بسبب تطرفه المعادي للحكم ، جميع العناصر القومية المتطرفة في الشارع العربي » . ويتحدث كاتب اخر عن دور راكح بعد الحرب ، والنجاح الذي حققه في الانتخابات الاخيرة ، فيقول « ان احداث الحرب ، التي قوت على ما يبدو اتجاهات قومية في الشارع العربي ، عادت وجعلت من راكح ، اداة — وحيدة تقريبا — للتعبير عن تذمر واحتجاج العربي الاسرائيلي تجاه دولته » (داني روبينشتاين في دافار ، ٧٤/٣/٣١) . وروى الكاتب ان الجميع توقعوا نجاح راكح في الانتخابات الاخيرة . ولكن لم يكن واضحا مدى هذا النجاح ، وبين ايـة طبقات وفئات من الاقليات . أما سبب ذلك فهو حسب رأيه جو الحيرة الذي ساد الشارع اليهودي والخلاف بين احزابه ، في الوقت الذي ساد فيه العالم العربي ، الشعور بالفخر بنتائج الصراع الاخير ضد اسرائيل . ان شعارات راكح ايضا ، حول الحاجة الى الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، قد اكتسبت دلالة جديدة بعد الحرب ، لان الاعتراف بالفلسطينيين ومنظماتهم قد ساد العالم العربي كله ، وحتى جزءا محترما من بلدان العالم .

يبرز التأييد لراكح بشكل خاص في مدينة الناصرة ، حيث حصل الحزب في الانتخابات الاخيرة للكنيست على نحو ٦٠ ٪ من أصوات الناخبين في المدينة . كذلك يتمتع الحزب بتأييد في القرى العربية الكبيرة . فقد ظهر في نتائج الانتخابات ان راكح حصل على اغلبية مطلقة في عشرين قرية تقريبا . وبينها قرى كبيرة مثل ام الفحم (عدد سكانها ١٤ الف نسمة حصل راكح على ٥٥ ٪ من الاصوات) والطيبة (عدد سكانها ١٣ الف نسمة . حصل راكح على نسبة مشابهة) والطيرة (عدد سكانها عشرة الاف نسمة ، حصل راكح على ٦٠ ٪ من الاصوات) وعرابة (عدد سكانها ٧ الاف نسمة ، حصل راكح على ٨٠ ٪ من الاصوات) واماكن اخرى مثل يافة الناصرة ، كفر ياسيف ، كفركنا ، كفر قاسم ، حيث حصل راكح على اغلبية مطلقة ، واحيانا مذهلة .

ويصف بعض المعلقين الاسرائيليين هذا التأييد لراكح ، بأنه شهادة على ازدهار القومية العربية المتطرفة المعادية لاسرائيل ، اكثر من كونه شهادة على نجاح المذهب الشيوعي .

التعاون مع الجبهة الوطنية الفلسطينية

تتهم بعض الدوائر الاسرائيلية راكح بالتعاون مع الجبهة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية ، وقد أشار أهود يعرى في دافار (١٩٧٤/٧/٢) الى هذا التعاون ، معتمدا على تصريح لعربي عواد في القاهرة ، اعلن فيه بصراحة ان « هناك تعاون وثيق » بين الجبهة الوطنية الفلسطينية وبين راكح . ويصف يعرى الجبهة الوطنية بأنها « فرع من المخربين » ، اقيمت في المناطق في منتصف عام ١٩٧٣ ، بمبادرة الخلايا الشيوعية هناك . ويصف يعرى هذا « التعاون الوثيق » بأنه « ظـاهرة

خطيرة لم يسبق لها مثيل في الماضي : وتتلخص في ان حزبا سياسيا اسرائيليا ، له اتصال حقيقي مع عناصر شريكة في حركة المخربين . امامنا مناورة خطيرة جدا بمبادرة الشيوعيين من على طرفي « الخط الاخضر » (حدود الهدنة ١٩٤٩) — وتتمثل في دمج عرب اسرائيل بشكل نشيط (مع انه ليس عنيفا) في جهاز تنظيمات حركة « المخربين » . وبالطبع بشكل نشيط (مع انه ليس عنيفا) في جهاز تنظيمات حركة « المخربين » . وبالطبع فان الشيوعيين مهتمون بأن يتم هذا الدمج بتوجيههم الدائم وحسب اعتباراتهم وحاجياتهم . ولكنه ليس لهم ، بالضرورة ، سيطرة على التطور » .

ويقول يعرى انه لا يسعى لمعرفة نوع « التعاون الوثيق » بين راكح والجبهة ، وانه لا يعرف بالطبع ما هي انواع المساعدة التي يقدمها فيلنر ، طوبي ، ورجالهم ، لرفاقهم وراء « الخط الاخضر » ، ولكن يكفي ، مثلا ، ما ينشر في صحيفة راكح « الاتحاد » من تأييد لنضال المعتقلين في السجون ، واستنكار لعمليات الاعتقال والتعذيب ، وهدم البيوت ... كذلك فان راكح قد جند من أجل خدمة الجبهة ، حيث يقوم أعضاء الكنيست التابعين له ، بارسال المذكرات وتقديم الاستجوابات الى السلطة ، وصحفه تنشر الاخبار المليئة بالتحريض والكذب ، حول الاعتقالات . كذلك تعقد عناصره اللقاءات المتتالية مع عناصر « الجبهة » في الضفة الغربية. وان اذاعات « المخربين » تستقي معلوماتها من يسعى لتقوية صدى عمليات « الجبهة ورجالها . صحف راكح . « ان راكح هو مكبر الصوت الذي ولست متأكدا ابدا ان مساعدته تقتصر على المجال الدعائي فقط . » !

« ليس من الصعب ان نخمن ، انه حسب مفهوم راكح ، فان التعاون « الوثيق » مع الجبهة ، يهدف الى زيادة وزن الشيوعيين في شبكة القوى الفلسطينية. فيلنر وطوبي يعتبران سليمان نجيب، وحسين حداد ممثلي التيار الشيوعي في منظمة التحرير ، ويسعيان لتقوية مراكزهم داخل المنظمة ... » .

اما النتيجة الحقيقية ، حسب اعتقاد الكاتب ، فهي ان راكح سينقل تدريجيا نضال « الجبهة » ومجالات عملها الى القطاع العربي — الاسرائيلي . وبمدى معين يظهر كفرع وكذراع « للجبهة » في اسرائيل الصغرى ، حيث يستغل هنالك حصانته القانونية ومركزه السياسي . وعمليا ، فان الكتلة الشيوعية الاردنية — الفلسطينية — الاسرائيلية هي الوسط السياسي الوحيد ، الذي يعمل الان داخل الخط الاخضر ، ووراءه ، ووراء الخط البنفسجي (حدود وقف اطلاق النار ١٩٦٧) أيضا .

وينهي يعرى حديثه قائلا : « ان الامر المقلق ليس احلام راكح وشركاه حول زعامة شيوعية لحركة التمرد الفلسطيني ، بل تأثير هذه الاحلام العملي والسريع ، ففي الناصرة — كما في بيت ساحور — يقومون بمظاهرات من أجل المعتقلين من بين اعضاء المخربين ، وبتحريض العرب في اسرائيل بشكل دائم ، على أن يعتبروا أنفسهم جزءا نشيطا في الصراع القومي الفلسطيني . ثم هناك مسألة تقديم المساعدة من جانب حزب اسرائيلي ، لعناصر ترتبط بياسر عرفات . باختصار : محاولة تجنيد عرب اسرائيل في الحرب من اجل « تقرير المصير » للفلسطينيين »

وثيقة اتهام

قدمها الدكتور شاحك — رئيس عصبة حقوق الانسان والمواطن الاسرائيلية — الى لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الاميركي .

نص الشهادة المقدمة الى اللجنة الخاصة بالمنظمات والحركات العالمية التابعة للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب (الكونغرس) الاميركي . لمناسبة التحقيق في موضوع « حماية المدنيين في نزاع الشرق الاوسط بموجب القانون الدولي » في ٤ نيسان ١٩٧٤، واشنطن . ووضع الشعب الفلسطيني في المناطق التي احتلتها اسرائيل في ١٩٦٧ من وجهة نظر ميثاق جنيف فيما يتعلق بحماية المدنيين في وقت الحرب ١٢ آب ١٩٤٩ . (يعتمد النص على نشرة اللجنة الدولية للصليب الاحمر ، جنيف تموز ١٩٥٠. ص ١٥٣ — ٢١٧) .

مقدمة

سنقتصر البحث على بعض نواحي الوضع حيث تعترف حكومة اسرائيل نفسها ، صراحة ، بالحقائق الواردة .

١ — معاقبة الابرياء — العذاب الجماعي ، بنسف او تدمير البيوت

والمواد ذات الصلة من ميثاق جنيف .

المادة ٣٢

« توافق السلطات العليا للاطراف المعاهدة على أنه محظور على أي منهم اتخاذ اجراءات قد تؤدي الى تعذيب جسدي او افناء ناس تحت حمايتهم .

وهذا الحظر لا يقتصر فقط على القتل او التعذيب او الجلد او التشويه او التجارب العلمية التي لا يقتضيها العلاج الطبي لانسان تشمله الحماية وانما يتعداها الى كل أنواع القسوة سواء استعملها المدنيون او العسكريون .

المادة ٣٣

لا يجوز معاقبة اي انسان تحت الحماية لقاء جريمة لم يقترفها شخصيا . ويحظر كل أنواع العقوبات الجماعية وكذلك كل أساليب الارهاب والتخويف .

المادة ٥٣

يحظر على السلطة المحتلة تدمير اي ممتلكات شخصية تعود بشكل شخصي او جماعي للافراد او للدولة او لهيئات عامة اخرى او لمنظمات اجتماعية او تعاونية ، الا حيث تقتضي الضرورة العسكرية القصوى تدميرا كهذا .

شرح :

حينما يعتقل بعض مواطني المناطق المحتلة تقرر السلطات بشكل تعسفي نسف البيت الذي كان يقطنه المعتقل (او جعله غير قابل للسكنى) ويطرد من البيت كل الناس الساكنين فيه ، عادة بعد انذار قصير الامد ، بدون تهيئة مكان سكن اخر . واريد بشكل خاص ان اؤكد النقاط التالية :

أ — توقع هذه العقوبة القاسية على اناس بريئين تماما من أية جريمة ، حتى في اعين السلطات نفسها ، كما تظهر حقيقة عدم توجيه تهم لهم .

ب — كثيرون ، وفي الواقع اكثرية الناس المعاقبين بهذه الطريقة القاسية هم اناس عاجزون عن ارتكاب اية جريمة : اولاد وحتى اطفال ، مرضى وكبار السن والعجزة . وفي الحقيقة كلما كان الانسان اكثر براءة كلما شدد عقابه ، ولا أدل على ذلك من مصير طفل يلقى به الى قارعة الطريق .

ج — توقع العقوبة بدم بارد ، ليس فقط بدون « ضرورة قصوى » ، وانما عندما يكون الشخص المشتبه به نفسه في قبضة السلطات .

د — لا أحد يعرف لقاء أي نوع من التهم تنسف

بيوت اهالي المشتبه بهم . لذلك فالعقوبة تعسفية تماما .

هـ ـ وللمقارنة : لم يحدث ان نسفت بيوت او دمرت، في حوادث ارهاب او غيره ارتكبها مواطنون اسرائيليون ، حتى ولا بيوت الذين تثبت ادانتهم .

و ـ تنفذ هذه العقوبة بعد انذار قصير الامد، مهما كانت حالة الطقس سيئة ، مسببة بذلك آلاما جسدية هائلة .

ز ـ قد تحتوي البيوت المنسوفة عددا كبيرا من الناس نظرا لنظام « امتداد العائلة » المتبع في فلسطين . وهناك وقائع قذف فيها ثلاثون نسمة الى الشارع بنسف بيت واحد .

استنتاج :

هذا الاجراء الذي يمارسه الحكم العسكري للجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة يشكل خرقا واضحا للمواد ٣٢ ، ٣٣ و٣٥ لميثاق جنيف الرابع. ويشكل ، بالاضافة الى ذلك ، اقصى عقوبة وحشية قاسية يتحمل وطأتها في الاساس اطفال ونساء ومسنون وعجزة . ولا يمكن الا ان تسبب ألما هائلا ، جسديا ونفسيا ، ليس فقط للعائلات المطرودة من بيوتها وانما لكل الشعب بأسره .

٢ ـ ابعاد الافراد او طردهم

والمواد ذات الصلة من ميثاق جنيف الرابع (المدنيون) .

المادة ٤٩ (جزئيا)

يحظر النقل الاجباري او ابعاد الناس تحت الحماية في المناطق المحتلة ، بشكل فردي او جماعي ، الى بلاد القوة المحتلة او الى أية بلاد اخرى ، محتلة او غير محتلة ، بغض النظر عن الدوافع .

شرح :

لا يزال يطرد ، بشكل تعسفي ، وباستمرار ، مثقفون وزعماء فلسطينيون من المناطق المحتلة ويبعدون الى الاردن . والشخص المطرود او المبعد يكون عادة رب عائلة ، وبالنتيجة تتمزق العائلة .

وفي أكثر الحالات ، تمنع حتى الزيارات القصيرة بعد ابعاد كهذا . ويجري الابعاد على النحو التالي :

يعتقل الاشخاص المنوي ابعادهم ، خلال الليل. ويعطون وقتا قصيرا جدا لحزم امتعتهم وتمنع العائلة من الاتصال بمحام او بأي كان على الاطلاق. ثم يؤخذ هؤلاء الناس الى بقعة صحراوية جنوبي البحر الميت ، ويجبرون على عبور حدود الاردن . واذا توقفوا قرب الحدود تطلق عليهم النار حتى « يتحركوا » .

وأود أن اؤكد ، بشكل خاص ، النقاط التالية:

أ ـ **تمزيق العائلات .**

ب ـ توقيع العقوبة ، بشكل خاص ، بزعماء معروفين .

استنتاج :

ان هذا الاجراء الذي وافق عليه في ١٠ كانون اول جميع الوزراء الاسرائيليين بكل جدية ، وبدون أية معارضة او امتناع يشكل خرقا واضحا للمادة ٤٩ من ميثاق جنيف الرابع . وبما انه يمارس في الاساس ، ضد زعماء معروفين للشعب الفلسطيني القاطن في المناطق المحتلة فانه يشكل ، فوق ذلك ، وسيلة جماعية لارهاب شعب بأسره وتخويفه .

٣ ـ الاستيطان اليهودي في المناطق المحتلة

والمادة ذات الدلالة من ميثاق جنيف الرابع (المدنيون) المادة ٤٩ (جزئيا) .

« لا يجوز للقوة المحتلة ان تنقل اقساما من اهالي بلادها المدنيين الى المناطق التي تحتلها » .

شرح :

لقد اقامت الحكومة الاسرائيلية مستوطنات مدنية في المناطق المحتلة مثل :

كريات عربا (قرب الخليل) ـ الضفة الغربية، يميت وعدة قرى ـ شمالي سيناء او بيرا (شرم الشيخ) ـ جنوب سيناء ، اقسام من القدس الشرقية ، وغيرها .

وهذه المستوطنات تشكل نقل مدنيين اسرائيليين الى المناطق المحتلة .

فوق ذلك ، اود ان اؤكد النقاط الاضافية التالية :

أ ـ ان تلك المستوطنات (بالاضافة الى أنها خرق واضح لميثاق جنيف) مستوطنات عنصرية

شوفينية . وهي (رسميا) مخصصة لليهود فقط وبدون استثناء — ونعني اولئك المعترف بهم رسميا كيهود في اسرائيل .

ب — جميع العناصر التالية من السكان لا يسمح لها بالعيش في أي من هذه المستوطنات .

١ — كل اهالي المناطق المحتلة ، مثلا : لا يسمح لاي من سكان اورشليم ، ان لم يكن يهوديا ، ان يشتري او يستأجر بشكل مشروع مسكنا في رمات — حزقيل او في أي حي بني على أرض صودرت من سكان القدس العربية المحتلة .

٢ — كل مواطني اسرائيل وسكانها غير اليهود . فهذه ليست مستوطنات اسرائيلية وانما يهودية .

٣ — اي انسان في العالم ، ان لم يكن يهوديا . مثلا : ان مواطنا امريكيا يريد السكن ، مثلا ، في كريات عربا ، يطلب منه ان يثبت انه يهودي . فان اثبت ذلك فلا يسمح له بالسكنى وحسب وانما يعطى مالا ومساعدة . اما اذا لم يكن يهوديا فلن يسمح له بالسكن في تلك المستوطنات .

ج — ان هذه المستوطنات تدخل العرقية والعنصرية في أبشع صورها الى امكنة لم تكن تمارس فيها من قبل .

د — بادخال هذه العنصرية والعرقية فانهم يمارسون نوعا من الاضطهاد ضد اهالي المناطق المحتلة .

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

١ ـ الحرب الخامسة ؟

هل ستندلع الخامسة قريبا ؟ هذا هو السؤال الذي طرحه كل مواطن عربي على نفسه طوال الشهر الماضي بعد أن ساد الترقب المسلح منطقة الشرق الاوسط بسبب التصريحات الحربية الاسرائيلية ، والتحذيرات التي تلقتها الدول العربية من الاتحاد السوفياتي حول اعداد اسرائيل لهجوم مفاجيء على الدول المجاورة ، وقيام حكومة اسرائيل باستدعاء « تجريبي » لقواتها الاحتياطية واجراء مناورات عسكرية في الضفة الغربية اشتركت فيها القوات البرية والجوية . ولقد زادت من توتر الموقف ، تصريحات الزعماء الاسرائيليين حول رفض الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة، ورفض الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وتصلب موقف الحكومة الاسرائيلية بالنسبة الى مسألة انشاء دولة فلسطينية مستقلة على الاراضي الفلسطينية الذي قد يتم الانسحاب منها كجزء من ترتيبات السلام في المنطقة .

وقبل الحديث عن الحرب الخامسة ، لا بد من التأكيد على ان الحرب الرابعة لم تنته بعد ، لان القتال الذي دار في تشرين الاول ١٩٧٣ ، وخلال حربي الاستنزاف على الجبهتين المصرية والسورية، ثم توقف بسبب تدخل الدولتين الاعظمين ، لم يحسم الموقف ، ولم يحقق اهدافه ، ولم يبدل موازين القوى في المنطقة بشكل جذري . ولذا فان من المتعذر علينا ان نصف الوضع الذي نعيشه بأكثر من وضع هدنة بين معركتين في حرب واحدة . وهو اقرب الى الوضع الذي عاشته المنطقة في فترة الهدنة الاولى (١٩٤٨/٦/١٠ ــ ٤٨/٧/٩) او في فترة الهدنة الثانية (١٩٤٨/٧/١٩ ــ ١٥/ ١٩٤٨/١٠) خلال الحرب العربية ــ الاسرائيلية الاولى .

وسواء كان القتال المتوقع امتدادا للحرب الرابعة ، أم بداية لحرب خامسة ، فان من المؤكد ان اسرائيل لن تشنه من جهتها الا اذا توفرت لديها الدوافع الكافية ، والشروط الخارجية الملائمة وموازين القوى المطلوبة لتحقيق النصر السريع . فهل تمتلك اسرائيل مثل هذه العوامل ؟

ان دراسة الوضع الداخلي في اسرائيل تدل على ان الدولة الصهيونية لم تصب بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) بانهيار داخلي كامل ــ كما تقول بعض اجهزة الاعلام العربية ــ ولكنها اصيبت بخلل في التوازن النفسي الداخلي . وكان من الممكن ان يصل هذا الخلل الى الانهيار لو طالت الحرب مدة اكبر ، وانتقلت الضربات العربية الجوية والصاروخية الى عمق الارض المحتلة ، واوقعت في منشآت العدو الحيوية وقواه البشرية خسائر كبيرة ، او لو ان الجيش الاسرائيلي فشل في تحقيق الخرقين على محور سعسع ، وعند الدفرسوار . ولكن عدم توفر كل هذه العوامل ، اعاد الى التوازن النفسي الداخلي بعض ثباته ، ورمم قسما من الاسطورة الاسرائيلية .

ورغم هذا الترميم الذي بدأ مع بداية الجسر الجوي الاميركي ، ووصل الى ذروته مع اعادة احتلال الجولان ، ونقل قوات شارون الى الضفة الافريقية للقناة ، وتطويق الجيش المصري الثالث ، فان التوازن النفسي لم يعد في اسرائيل الى سابق عهده . ولا تستطيع اسرائيل القبول بمثل هذا الوضع ، الذي قد تتقبله أية دولة اخرى ، لان جوهر الفكرة الصهيونية وأساس اجتذاب المهاجرين اليهود ورؤوس الاموال اليهودية والاجنبية من الخارج مبنيان على ضمان توازن نفسي مستقر لا خلل فيه . من هنا ينبع اهتمام الحكومة الاسرائيلية المفرط باعادة التوازن النفسي الى سابق عهده ، عن طريق توجيه ضربة عسكرية محسوبة ومحدودة لدولة عربية مجاورة .

وبالاضافة الى هذا الدافع الداخلي للحرب ، فان هناك دافعا آخر يتمثل في الرغبة في احباط مؤتمر جنيف . ومن الواضح ان اسرائيل تخشى الذهاب الى جنيف ، لا لان مؤتمر جنيف سيحقق للعرب كل ما يبتغونه ، بل لان اسرائيل تخشى مجابهة السلام أكثر من خشيتها لمجابهة الحرب . فالسلام مهما كان نوعه سيحرم الصهيونية من ديناميكيتها ودوافعها ، وخاصة اذا ارتبط بانسحاب من الاراضي المحتلة ، واعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني . اما الحرب فهي مبرر بقائها ، ومصدر تماسكها الداخلي ، وتعاطف يهود العالم معها ،

وحصولها على المساعدات الاميركية واليهودية .

ان السلام يعني بالنسبة الى اسرائيل تحولها الى قلعة محاصرة ، محدودة المساحة ، عاجزة عن التوسع والتهديد واجتذاب المزيد من المهاجرين . وهو يهدد أحلام الصهيونية ، ويجرد اسرائيل من دورها القمعي في المنطقة ، فيحرمها بالتالي من امكانية ابتزاز المساعدات الاقتصادية والسياسية الاميركية التي تشكل مصدرا هاما من مصادر حياتها وتقدمها . لذا فان السلام يمثل بالنسبة الى اسرائيل والصهيونية — على المدى الاستراتيجي — خطرا حقيقيا لا يمكن ابعاده الا بالحرب .

وتدلنا كل هذه العوامل ، والوضع الاقتصادي المتدهور في اسرائيل ، على ان الدولة الصهيونية تملك الدوافع الداخلية لشن الحرب . ولكن الشروط الخارجية غير ملائمة تماما ، فالعالم كله ، والدولتان الاعظمان بصورة خاصة ، راغبتان في عقد مؤتمر جنيف ، وتضغطان في هذا الاتجاه . وليس من المنتظر ان يبدل رئيس الجمهورية الاميركي الجديد جيرالد فورد السياسة الخارجية لسلفه ريتشارد نيكسون في المستقبل القريب ، ويبدو هذا الامر واضحا من ضغط الادارة الاميركية على الدول العربية لايجاد حل للتناقض الفلسطيني — الاردني ، بشكل يسرع عملية الذهاب الى جنيف .

بيد ان التوجه الاميركي نحو السلام مهدد بالتوقف على المدى البعيد ، لان الرئيس جيرالد فورد غير محاصر داخليا بأية فضيحة ، وغير مضطر لرفع مستوى هيبته الداخلية عن طريق المنجزات الخارجية ، كما ان ضعف شخصيته سيجعله عرضة للخضوع لضغوط الاجهزة الاميركية ، ولضغوط المجموعة « الاقتصادية — العسكرية » التي تعارض سياسة الوفاق ، وتقف في وجه أي توجه نحو السلام او تهدئة بؤرات التوتر في العالم ، الامر الذي سيجعله اكثر استعدادا لزج الولايات المتحدة في مغامرات عسكرية في عدة أماكن من العالم . وبانتظار هذا التحول ، ستبقى الولايات المتحدة عامل ضغط على اسرائيل لمنعها من شن الحرب . وبالاضافة الى الموقف الاميركي فان من المعروف ان الدول الاشتراكية والدول الاوروبية تضغط — لاسباب متباينة — في سبيل التوجه نحو مؤتمر جنيف ، الذي سيؤدي نجاحه الى فتح قناة السويس ، وتخفيف حدة التوتر في المنطقة ، واستمرار تدفق النفط بدون معوقات .

والعامل الاخير هو القوة العسكرية اللازمة لشن الحرب . فعلى الرغم من الدعم التسليحي الاميركي الكبير لاسرائيل ، واعادة تسليح الجيش الاسرائيلي وتنظيمه ، فان ميزان القوى العسكري في الشرق الاوسط لم يمل الى جانب اسرائيل بشكل واضح ، نظرا لان الاتحاد السوفياتي أعاد تسليح الجيوش العربية (مصر وسوريه والعراق) وزود الجيش السوري ، بصورة خاصة ، بأسلحة متطورة (سام — ٩ وميغ — ٢٣) . وتدل دراسة تاريخ الحروب العربية — الاسرائيلية ، وأسس الاستراتيجية الاسرائيلية،على ان الدولة الصهيونية لا تشن الحرب الا اذا ضمنت التفوق الذي يسمح لها بتنفيذ أساليب الحرب الخاطفة . ومن المؤكد ان ميزان القوى الحالي لا يسمح لها بذلك .

من كل هذه العوامل نستنتج ان اسرائيل غير مستعدة اليوم لشن حرب واسعة النطاق ضد جاراتها العربية ، رغم وجود الدوافع الداخلية لذلك ، وسيتزايد هذا الاستعداد باستمرار مع تزايد التحول الاميركي الذي تحدثنا عنه ، ومع امتلاك طائرات « ف ١٤ » الاميركية التي طلبتها ، ووعدتها الولايات المتحدة بالحصول عليها .

والحرب الوحيدة التي يمكن ان تشنها اسرائيل هي حرب محدودة ضد لبنان لضرب قواعد الفدائيين وتصفيتها ، بالاضافة الى عمليات جوية ضد سورية ، لاختبار كفاءة السلاح الجوي السوري ، ودراسة المزايا التكنولوجية والتكتيكية للطائرة « ميغ — ٢٣ » والصاروخ « سام — ٩ » المضاد للطائرات . ولن تكون هذه العمليات في جوهرها سوى صورة مشابهة لعملية يوم ١٩٧٣/٩/١٩ الجوية التي قامت بها اسرائيل قبيل حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، لاختبار فاعلية شبكة الصواريخ « سام — ٦ » .

السلاح الجوي الاردني

تعتبر الاردن ، من الناحية الجغرافية ، دولة من دول المواجهة . ومع هذا لم يفتح الجيش الاردني الجبهة الشرقية في حرب ١٩٧٣ ، واكتفى بارسال اللواء المدرع الاربعين لدعم القطاع الجنوبي من الجبهة السورية . وبالرغم من الدعاية الواسعة

التي وافقت هذه المشاركة آنذاك، فقد بقي اشتراك الاردن في الحرب الرابعة رمزيا نظرا للفرق الهائل بين ما يملكه هذه القطر العربي من امكانات فعلية وما تدمه للمعركة بالفعل . اذ لم تكن المشاركة تعادل سوى ٢٥ ٪ فقط من قواته المدرعة ، ولم يشترك من فرقة المشاة الميكانيكية وفرقة المشاة وأنواع المدفعية الثلاثة اية وحدة .

وكان وراء محدودية المشاركة بنظرنا اكثر من عامل سياسي داخلي وخارجي ، بالاضافة الى عامل عسكري هام ، هو الردع النفسي الذي لم يتخلص منه الاردن بعد حرب ١٩٦٧ . وكانت المبررات العسكرية التي فسر بها الاردن موقفه ومحدودية مساعدته ضعف التغطية الجوية التي يستطيع الطيران الاردني تقديمها للقوات البرية عند فتح الجبهة الشرقية ، وضعف الدفاع الجوي المبني على صواريخ بريطانية الصنع من طراز « تايغر كات » ، وعدم استكمال نظام الدفاع الجوي المبني على هذه الصواريخ التي كان أكثرها خلال الحرب في المستودعات .

ولقد لوحظ بعد حرب ١٩٧٣ ان الاردن يحاول تعزيز دفاعه الجوي بطلب صواريخ ارض — جو « شابرال » التي سلمها الاميركيون لاسرائيل ، ولم يسلموها حتى الان للاردن . كما انه يحاول تقوية طيرانه ، فلقد طلب من الولايات المتحدة ٣٨ طائرة قاذفة مقاتلة من طراز «نورثروب ف — ٥ أي‌تايجر»، وبدأ باستلام بعضها ، وسينتهي من استلام البقية قبل نهاية عام ١٩٧٥ .

وفي ١١ آب (اغسطس) ١٩٧٤ ذكرت وكالة الانباء الاردنية الرسمية « ان الاردن سيمتلك قبل نهاية ١٩٧٥ قوة جوية ضاربة تزيد على ١٠٠ طائرة حديثة بين طائرات قاذفة ومقاتلة ، بما فيها اسراب عدة من طائرات « ف — ٥ » الاميركية الصنع ، وهي من احدث الطائرات المقاتلة في العالم » . ويمكننا تحليل هذا النبأ لتحديد طبيعة القوة الجوية الاردنية المنتظرة ، وحقيقة قوتها وفاعليتها ، وامكانية مشاركتها في اية حرب تحريرية مقبلة .

كان السلاح الجوي الاردني يملك عند اندلاع الحرب الرابعة ٥٢ طائرة مقاتلة فقط . وسيمتلك عند وصول الصفقة الجديدة حوالي ٩٠ طائرة لا اكثر من ١٠٠ طائرة . ولم تكن طائرات السلاح الجوي خلال فترة الحرب سوى ٢٠ مطاردة معترضة من طراز « ستارفايتر ف — ١٠٤ » و٣٢ طائرة هجوم أرضي هوكر هنتر . وتعتبر طائرة « ستارفايتر ف — ١٠٤ » طائرة معترضة جيدة ، تحمل مدفعا رشاشا « فولكان » عيار ٢٠ مم ، وصواريخ جو — جو « سايدوندر » وصواريخ جو — سطح « بولبوب » . وتصل سرعتها القصوى الى ٢ ماك. ولكنها طائرة قديمة حلقت لاول مرة في شباط (فبراير) ١٩٥٤ ، وظهرت فيها عيوب فنية أدت الى سقوط اعداد كبيرة منها في المانيا الغربية ، الامر الذي جعل الطيارين يطلقون عليها اسم « النعوش الطائرة » . وبالرغم من مرونة هذه الطائرة وسرعتها وطول مداها (١١٠٠ كلم) ، وقدرتها على المناورة ، فان اداءها أدنى بكثير من اداء الطائرات الحديثة الموجودة في المنطقة (« ميغ — ٢١ » و« فانتوم ف — ٤ ») ناهيك عن « ميغ — ٢٣ » و«تومكات ف — ١٤ » . ولذا فهي لا تستطيع مجابهة طائرة التفوق الحالية « فانتوم ف — ٤ » ، او طائرة التفوق المستقبلية « تومكات ف — ١٤ » التي ستحصل عليها اسرائيل، الامر الذي يجعلها عاجزة، اليوم وغدا ، عن القيام بمهماتها ضد سلاح الطيران الاسرائيلي الا اذا توفر لها خلال الاشتباك تفوق عددي محلي بنسبة لا تقل عن اثنين الى واحد .

ولا تدخل طائرات « الهوكر هنتر » في حسابات السيطرة الجوية ، لانها طائرات هجوم ارضي ، سرعتها أقل من واحد ماك ، ولا تستطيع القيام بمهماتها الا اذا تحققت لها تغطية جوية جيدة بطائرات التفوق المعترضة او المقاتلة القاذفة .

ويبدي الطيارون الاردنيون الذين تدربوا في الولايات المتحدة على الطائرات « نورثروب ف — ٥ اي تايجر » اعجابهم بهذه الطائرة ، التي يطلق عليها لقب « فانتوم البلاد النامية »، وينبع اعجابهم هذا من قدرة الطائرة على المناورة ، وامتلاكها لاجهزة حديثة متطورة ، ويمكن ان يكون حكمهم هذا صحيحا لو ان الطائرات « ف — ٥ » معدة للاشتباك بقتال جوي مع طائرات دولة نامية ، او ستشترك في القصف الجوي ضد عصابات لا تملك سلاحا جويا ، او ضد دولة لا تتمتع بالتفوق الجوي ، ولا تملك طائرات تفوق جوي ، ولكن هذا الحكم يسقط في الحالة الملموسة التي سيجابهها الطيران الاردني

اذا ما اشتبك مع الطيران الاسرائيلي الحالي او المستقبلي . وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بأن حصول الاردن على ٣٨ طائرة نافذة مقاتلة «فــ٥» لن يؤدي الى تبديل ملحوظ في ميزان القوى الجوية العربي — الاسرائيلي ، ولكنه يمكن ان يؤدي الى تبديل نسبي في ميزان القوى الجوية العربي — العربي . ويرجع اعتقادنا هذا الى ان الطائرة « ف — ٥ اي » التي هي تطوير اقوى للطائرة « ف — ٥ أ » لا تمتلك رغم حداثتها (١٩٧٢) ميزات طائرات التفوق من ناحية السرعة والمدى ، اذ ان سرعتها على ارتفاع ١١ كم تعادل ٥ر١ ماك فقط . ومداها الاقصى مع خزانات اضافية ٦٨٦ كيلومترا ، الامر الذي سيقلل من قيمتها القتالية ، وخاصة في النصف الثاني من السبعينات ، رغم تسليحها بصاروخين جو — جو سايدويندر ، و٣١٧٥ كغ من الحمولات الحربية لمهمات القصف .

واذا انتقلنا من المسألتين التكنولوجية والتكتيكية الى المسألة السياسية، وجدنا ان الاردن لا يستطيع — ولا يريد — لاسباب ايديولوجية الحصول على أسلحة سوفياتية ، ولا يتمكن من استغلال التنافس القائم بين الصناعة الحربية الاوروبية والصناعة الحربية الاميركية للحصول على اسلحة اوروبية متطورة ، لان وضعه الاقتصادي وحصوله على الاسلحة كمساعدات ، يجعله لا يشكل سوقا للتنافس الرأسمالي ، ويضطره لقبول الاسلحة الاميركية مهما كان نوعها .

وبما ان مصدر التسليح الاردني الوحيد ، والاجباري هو الولايات المتحدة ، وبما ان سياسة الولايات المتحدة المعلنة هي خلق اسرائيل الاقوى من جاراتها العربية ، فان من المستحيل ، منطقيا ، حصول الاردن على اسلحة برية او جوية ، قادرة على تبديل موازين القوى العربية — الاسرائيلية ، خاصة وان الاردن لا يشكل بوزنيه الاقتصادي والسياسي ، هدفا ثمينا تريد الامبريالية الاميركية اكتساب وده ، والقيام بالمناورة التكتيكية لتوطيد علاقاتها معه ، بغية اقتراض رؤوس امواله الفائضة ، او امتصاص جزء من رؤوس الاموال هذه بصفقات اسلحة ضخمة متطورة نسبيا ، كما هو الحال مع المملكة العربية السعودية . والشيء الوحيد الذي يمكن ان يكونه الاردن في هذا المجال، هو التحول الى سوق محدودة للاسلحة غير المتطورة ، التي تقدمها الولايات المتحدة كمساعدات عسكرية تحت ضغط المجموعة « الاقتصادية — العسكرية » الاميركية المسيطرة ، التي لا يهمها سوى تصريف الانتاج الحربي ، كتدبير من التدابير اللازمة لتنشيط الدورة الاقتصادية الاميركية ، وحمايتها من الوقوع في الازمات .

الطائرات الليبية والحرب الخامسة

دخلت اسرائيل الحرب الرابعة وهي تملك (حسب تعبير الرئيس أنور السادات) « السيادة الجوية » لا « التفوق الجوي » (اخبار اليوم ٧٤/٨/٣) . ويرجع السبب في ذلك الى ان سورية ومصر حصلتا قبل دخول المعركة على عدد كاف من طائرات « ميغ — ٢١ ، م ف » ، وأمنتا تغطية مسرحي العمليات بشبكتين من الصواريخ ارض — جو ، ودعمتا قواتهما الجوية قبيل الحرب وخلالها بأسراب عراقية وجزائرية وليبية ، الامر الذي حرم الطيران الاسرائيلي من جزء كبير من حرية عمله وخاصة في العمق . ولسنا هنا في معرض الحديث عن الدور الذي لعبه الطيران الذي قدمته هذه الدول الثلاث للمعركة ، ولكننا بصدد الحديث عن مستقبل هذا الدور في اي صراع مقبل . وبما ان طائرات الصف الاول في العراق والجزائر طائرات سوفياتية الصنع « ميغ — ٢١ » التي يمكنها الانتقال من العمق العربي الاستراتيجي الى العمق العملياتي دون ان يعارض الاتحاد السوفياتي ذلك ، والتي تستطيع الافادة فورا من اجهزة الصيانة والاعداد التكنولوجي الارضي للقتال فورا ودون اعداد مسبق بفضل وجود هذه الاجهزة في مصر وسورية بشكل مسبق ، فان حديثنا سيقتصر على الطيران الليبي الذي تتألف طائرات الصف الاول فيه من طائرات فرنسية الصنع من طراز « ميراج — ٥ » .

ان مسألة الدعم الجوي الليبي لدول المواجهة محكوم بمسألتين : الاولى تقنية وتتعلق بضرورة القيام ، بشكل مسبق ، بنقل الاجهزة الارضية ، الفرنسية الصنع ، واللازمة لاعداد طائرات الميراج ، الى مطارات دول المواجهة . ولقد ذكرنا هذا الموضوع بالتفصيل في العدد رقم ٢٢ (حزيران ١٩٧٣) من مجلة شؤون فلسطينية . اما المسألة الثانية فهي سياسية . وتتعلق بالشرط الفرنسي الذي ينص على عدم استخدام الطائرات الليبية في الصراع العربي — الاسرائيلي ، وعدم نقلها الى

دولة مشتبكة بهذا الصراع. ولقد أثير هذا الموضوع على نطاق واسع في فرنسة واسرائيل خلال شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٣ ، بسبب زيارة أسراب ليبية الى مصر . ثم سكتت العاصفة عندما أعلن الفرنسيون ان هذه الطائرات انتقلت الى مصر بدون تجهيزاتها الارضية ، وان هذا يعني عدم قدرتها على القيام بمهمات قتالية ، وان زيارتها عبارة عن زيارة ودية لا تحمل اي معنى عسكري . ولقد تحدثنا عن هذا الموضوع ايضا بالتفصيل في العدد المذكور آنفا من مجلة شؤون فلسطينية .

وعندما اندلعت حرب ١٩٧٣ شنت اسرائيل حملة اعلامية قوية حول اشتراك الطائرات الليبية في المعركة، وادعت انها اسقطت طائرة منها في سيناء، ونفت الحكومتان المصرية والليبية ذلك آنذاك ، وقيل ان طائرات الميراج التي حلقت فوق سيناء خلال الحرب ، دون ان تحمل نجمة داوود ، كانت طائرات حصلت عليها اسرائيل من افريقيا الجنوبية على اساس التعاون المتبادل بين الدول العنصرية المعادية لحركة التحرر العالمي . وطلبت الحكومة الفرنسية من اسرائيل ان تقدم الدليل على صحة ادعاءاتها ، بيد ان عجز تل ابيب عن تقديم هذا الدليل ، جعل باريس تكتفي بالتكذيب العربي للادعاء الاسرائيلي ، وطوي الموضوع عند هذا الحد .

وفي ٣١ يوليو (تموز) الماضي أعاد الرئيس انور السادات المسألة الى سطح الاحداث ، عندما بعث الى مجلس قيادة الثورة الليبية رسالة هامة نشرتها صحيفة النهار (١٩٧٤/٨/٧). وتقول الرسالة : « في ١٩٧٤/٦/١٢ ، فوجيء الفريق طيار حسني مبارك قائد القوات الجوية المصرية بخطاب من المقدم طيار صالح الفرجاني آمر السلاح الجوي الليبي يطالبه بعودة الطائرات الليبية الميراج مصحوبة بكامل وحداتها الى ليبيا . وكان تعليل طلبه انتهاء مهمتها القتالية في حرب رمضان والاحتياج الماس لاستخدامها في ليبيا .

وأكد في نهاية خطابه انها سوف تكون تحت تصرفنا في اي حالات طارئة مستقبلا .

وقد رد عليه قائد القوات الجوية المصرية بأن هذه القوة ما زالت مكلفة بمهمات قتالية ، واعتذر عن عدم تلبية طلبه الا بناء على قرار سياسي بين قيادات بلدينا لانها تمركزت في مصر بقرار سياسي في هذا المستوى ، كما طالب بأن يخطر قبلها بوقت كاف حتى يتمكن من اعفائها من مهماتها مكلفا تشكيلات اخرى هذه المهمات .

وفي خطاب مؤرخ ١٧ — ٦ — ١٩٧٤ موجه من المقدم ابو بكر يونس الى المشير احمد اسماعيل طالب بالمطالب نفسها. وكان رد المشير ان الموضوع يتطلب قرارا سياسيا في مستوى رئيسي جمهوريتي الدولتين ، خصوصا ان المعركة لم تنته بعد وقد ينشب القتال في اي وقت . وكان رد المقدم ابو بكر يونس على ذلك عنيف اللهجة الى الدرجة التي هدد فيها بأنه اذا لم تعد الطائرات فورا فسوف تعلنون على العالم اننا استولينا على هذه الطائرات .

ان الامر كله في نظرنا هو استمرار لاسلوب ممارسة الضغوط واسلوب ايجاد المشاكل لمصر . وان الحجج التي سيقت ، وبعدما عرضنا وجهة نظرنا ، لا تقنعنا ولاتقنع ايا من الشعبين المصري أو الليبي ، ومع ذلك فاننا نستجيب الى طلب عودة القوة الليبية ، وأرجو ان ترسلوا مندوبا للاتفاق مع قائد القوات الجوية على الجدول الزمني لعودتها بما يناسب متطلبات المعركة . »

ولسنا هنا في معرض تقييم اسباب ارسال هذه الرسالة ، او تحديد تطورات العلاقات المصرية — الليبية التي أدت الى هذا الوضع ، او معرفة الجهة التي تتحمل مسؤولية وصول الامور الى هذا المستوى ، فهذه مسألة تدخل في صميم القضايا الداخلية التي يعالجها الاشقاء المسؤولون في دولة الاتحاد . ولكننا نود فقط دراسة الانعكاسات العسكرية للرسالة على ميزان القوى العربي — الاسرائيلي في الحاضر والمستقبل .

لقد كشفت الرسالة قبل كل شيء ان طائرات « الميراج — ٥ » الليبية ووحداتها (تجهيزاتها الارضية وأطقم صيانتها) موجودة الان في مصر ، وانها كانت هناك خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) الماضية ، وانها لا تقوم بزيارة ودية ، ولكنها مكلفة بالاضافة الى ذلك بمهمات قتالية تعتبر استمرارا للمهمات القتالية التي نفذتها خلال الحرب . ولهذا الامر معنيان : عسكري وسياسي .

ويتمثل المعنى العسكري في القيمة القتالية لهذه الطائرات . فلقد اشترت ليبيا ١١٠ طائرات « ميراج — ٥ » من فرنسة ، واستلمت حتى حرب

تشرين الاول (اكتوبر) ٩٥ طائرة منها ، ثم استلمت بقية الطائرات في مطلع عام ١٩٧٤ . وتعتبر « الميراج — ٥ » أحدث مقاتلة — قاذفة فرنسية قبل ظهور طائرة التفوق الفرنسية «فـ-١». وتتمثل ميزاتها في سرعتها العالية (٢ر١ ماك على ارتفاع ١٢ كم) وقدرتها على المناورة على الارتفاعات المنخفضة ، وضخامة حمولتها الحربية (٤٢٠٠ كغ) ، وامكانية قيامها بعمليات القصف في الهجوم الارضي بالاضافة الى القيام بمهمات الاعتراض بعد تسليحها بالصواريخ جو — جو . وطول مداها القتالي (١٣٠٠ كم) . وتكمن اهميتها بالنسبة الى سلاح الطيران المصري في انها تغطي نقصا كبيرا في هذا السلاح ، ناجما عن طبيعة الطائرات المصرية السوفياتية الصنع وتقسيم عملها . اذ لا يوجد في سلاح الطيران المصري او السوفياتي نفسه طائرة قاذفة مقاتلة مماثلة ، قادرة على المشاركة في الهجوم الجوي والمطاردة والاعتراض . وهي افضل بكثير من طائرة الهجوم الارضي المصرية « سوخوي — ٧ م ف » لانها اسرع منها (٢ر١ ماك مقابل ١ر٢ ماك)، وتحمل من القنابل والقذائف الصاروخية اكثر منها بأربعة اضعاف ، ويزيد مداها القتالي عن مدى السوخوي ٣ مرات تقريبا . بالاضافة الى قدرتها على الاعتراض والمطاردة ، الامر الذي يسهل عملية ادارة القتال الجوي ، ولا يجبر غرفة العمليات الجوية على تأمين الحماية الجوية الدائمة « للميراج — ٥ » خلال قيامها بمهمات القصف .

واذا قارنا « الميراج — ٥ » مع طائرة « الميغ — ٢١ م ف » متعددة الاغراض — وهي احدث انواع طائرة « الميغ — ٢١ » وجدنا ان « الميغ — ٢١ م ف » تماثلها تقريبا بالنسبة الى المدى القتالي والسرعة ، وتتفوق عليها الى حد ما في مهمات الاعتراض ، ولكنها أضعف منها بكثير في مهمات القصف ، اذ لا تستطيع « الميغ — ٢١ م ف » ان تحمل سوى ٤ قنابل زنة ٢٥٠ كغ او اربعة صواريخ جو — ارض عيار ٢٢٠ مم او ٣٢٥ مم . وهذا يعني ان حمولتها الحربية تعادل ربع الحمولة الحربية « للميراج — ٥ » .

وليس لدينا معلومات عن عدد طائرات « ميراج — ٥ » الليبية التي قامت بمهمات قتالية خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) او بعدها . ومن المحتمل جدا ان يكون العدد ٣ — ٤ أسراب*، وان يكون عدد كبير من طياري هذه الاسراب من المصريين نظرا لحداثة السلاح الجوي الليبي وقلة عدد طياريه . ويمكننا ان نتصور مدى تأثير انسحاب الطائرات الليبية من مصر على القوة الجوية المصرية اذا عرفنا ان السرب قادر على ان يحمل في الطلعة الجوية الواحدة ٦٤ طنا من الحمولات الحربية ، وخاصة اذا كانت المطارات التي ينطلق منها قريبة من مسرح العمليات بشكل يجعل الطائرة قادرة على القيام بمهمتها دون ان تحمل معها خزانات وقود اضافية .

أما المعنى السياسي للرسالة فيتمثل في ردة الفعل الفرنسية المنتظرة . ومن المعروف انالحكومة الفرنسية درست بعد نشر الرسالة مسألة حظر السلاح بالنسبة الى منطقة الشرق الاوسط ، واعتبرت ان هذا الحظر غير مجدي ، لانه لم يمنع الطائرات الليبية من المشاركة الفعلية في حرب تشرين الاول (اكتوبر) . ولقد ظهر في فرنسة اتجاهان : ينادي اولهما بتوقيع العقوبات على ليبيا (عدم بيعها طائرات « ف — ١ » ، منع الذخيرة وقطع الغيار عنها ، توقيف تدريب طياريها.. الخ). وينادي الثاني بالغاء حظر الاسلحة عن الدول المشتركة في الصراع العربي — الاسرائيلي .

وبالرغم من الضغط الصهيوني وقوة التيار المنادي بتوقيع العقوبات على ليبيا ، فان من غير المنتظر ان تلجأ الحكومة الفرنسية الى تدبير حدي من هذا النوع ، لان تدبيرا كهذا يجعل الصناعة الجوية الفرنسية تخسر أسواق السلاح في الدول العربية الغنية (السعودية — الكويت — ليبيا) التي لا تميل الى تسليح جيوشها بأسلحة شرقية ، وتجعل هذه الاسواق تسقط بيد الصناعة الجوية الاميركية الداخلة في تنافس قوي مع الصناعة الجوية الفرنسية . لذا فليس أمام الحكومة الفرنسية في المستقبل سوى مخرجين . ١ — عدم التصرف ازاء هذه المخالفة بشكل عصبي ، والتأكيد

---

* تقدر المصادر الغربية ان الطائرات الليبية الداخلة في الخدمة الفعلية، والتي تشكل وحدات قتالية تعادل ٤ اسراب . ٦٤ طائرة ، وان الطائرات الاخرى لم تنظم بعد داخل وحدات قتالية بسبب نقص الكوادر الجوية والارضية .

على الدول العربية المستوردة للسلاح الفرنسي بضرورة التمسك بنصوص العقود ، مع وضع شروط تضمن لها مراقبة المخالفات بشكل أفضل ، ٢ — او الغاء الحظر الفرنسي بشكل نهائي .

ومن المؤكد ان لجوءها الى الغاء الحظر سيخلص فرنسة من القيود التي وضعتها بنفسها على تجارتها التسليحية ، وسيعزز قدرتها على منافسة الولايات المتحدة على اســواق الاسلحــة في المنطقــة ، وستستفيد البلدان العربية من هذا الالغاء أكثر من اسرائيل ، لان البلدان العربية الغنية التي تشتري الاسلحة — لحسابها او لحساب دول المواجهة — بأموالها ، ستتخلص من القيود التي تفرضها الولايات المتحدة الاميركية على التسليح لضمان تفوق اسرائيل ، وستجد الفرصة المناسبة للقيام باختيار اوسع، لا تحكمه سوى قوانين العرض والطلب ، على حين ان اسرائيل ستجد نفســـها عاجزة عن الاختيار ، نظرا لارتباطها نهائيا بالسلاح الاميركي، واضطرارها لشراء أسلحة اميركيةبأموال المساعدات الاميركية .

ان النتائج العملية والاثار البعيدة لنشر رسالة الرئيس السادات لم تظهر بعد ، وهي مرهونة بالموقف الذي ستأخذه الحكومة الفرنسية فيالمستقبل بعد زوال العاصفة ، والذي سيكون عبارة عن نتيجة الضغوط المتعاكسة التي تقوم بها الصهيونية والقوى المؤيدة لها من جهة ، ومؤسسات الصناعة الحربية الفرنسية وبصورة خاصة مؤسسة داسو للصناعات الجوية من جهة اخرى .

المقدم الهيثم الايوبي

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٧/١٦ ــ ١٩٧٤/٨/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	تاريخ العملية الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	خسائر العدو البشرية جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	خسائر المقاومة جريح	خسائر المقاومة مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١	٧/١٨	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مبنى نادي الشباب الصهيوني وتدميره	—	—	—	رقم٧٤/١٨٩	٧/١٩
٢	٧/٢١	٢٤٠٠	هرتسليا	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مستودع للاثاث المنزلي	—	—	—	رقم٧٤/١٩٠	٧/٢٣
٣	٧/٢٢	٢٣٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اتلاف محتويات فرع بنك هبوعليم في شارع الزهراء	—	—	—	رقم٧٤/١٩١	٧/٢٣
٤	٧/٢٢	—	أشدود(١)	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير قسم كبير في محطة توليد الكهرباء الرئيسية « أشكول » وقطع التيار الكهربائي عن منطقة القدس ــ تل ابيب	—	—	—	رقم٧٤/١٩٢	٧/٢٣
٥	٧/٢٣	—	جنين	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير واتلاف معظم محتويات مكتب العمل الصهيوني	—	—	—	رقم٧٤/١٩٣	٧/٢٣
٦	٧/٢٣	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير قسم كبير من محطة توليد الكهرباء الرئيسية في المنطقة الشرقية من تل ابيب الرئيسية الموزعة وانقطاع التيار الكهربائي عن معظم	—	—	—	رقم٧٤/١٩٤	٧/٢٤
٧	٧/٢٦	—	صفد	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير قسم من محركات ضخ المياه في المدينة	—	—	—	رقم٧٤/١٩٥	٧/٢٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٨	٧/٢٤	—	بين ايلات والعقبة(١)	كمين	اسلحة مختلفة	١	—	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم٧٤/١٩٦	٨/٢
٩	٨/ ٣	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اصابة سيارة عسكرية باضرار وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/١٩٧	٨/٤
١٠	٨/ ٤	—	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير عدد من المولدات الكهربائية والكابلات الرئيسية الموزعة وانقطاع التيار الكهربائي عن معظم انحاء فلسطين	—	—	—	رقم٧٤/١٩٨	٨/٥
١١	٨/ ٣	—	رمات جان	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في مصنع للبلاستيك وامتدادها للمستودعات	—	—	—	رقم٧٤/١٩٩	٨/٦
١٢	٨/ ٧	—	بين ابو عجيلة وجبل لبنى(٢)	كمين	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	٢٠ اصابة		تدمير باص لشركة ايجد ينقل مجموعة من الجنود	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٠	٨/٨
١٣	٨/ ٧	—	قصيعوت/بئر السبع	تفجير	ألغام	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٠١	٨/٨
١٤	٨/ ٨	١٠٠	بني براك/تل ابيب	قتل	رشاش متوسط	١	—	قتل احد ضباط المخابرات	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٢	٨/٨
١٥	٨/ ٨	٢١٠٠	كريات حاييم/حيفا	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في محتويات مبنى الادارات الحكومية في شارع غلوجوت رقم ١٧	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٣	٨/١١
١٦	٨/١٠	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء من مقهى يرتاده عدد من ضباط المخابرات	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٤	٨/١٢
١٧	٨/١١	—	جفعتايم/القدس	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		تدمير سيارة ايوم توف لنفي عميل المخابرات	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٥	٨/١٢
١٨	٨/١٠	—	بئر السبع	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير جزء من مجمع الكهرباء في المدينة وقطع التيار الكهربائي	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٦	٨/١٢
١٩	٨/١٠	٣٠٠	عكا	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		اصابة زورق للعدو اصابة مباشرة	—	—	غير محدد(٤)	رقم٧٤/٢٠٧	٨/١٠
٢٠	٨/١٣	١٠٠	بتاح تكفا(٥)	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير سيارة عيزرا داميسكي عميل المخابرات واصابة سيارات ومبنى باضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٨	٨/١٣
٢١	٨/١٣	—	نابلس	قتل	سكين	١	—	قتل احد جنود الحراسة في سجن نابلس المركزي	—	—	—	رقم٧٤/٢٠٩	٨/١٣
٢٢	٨/١١	—	طبريا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير قسم من مبنى احد المسابح على شاطىء بحيرة طبريا	—	—	—	رقم٧٤/٢١٠	٨/١٥

١ — اعترف العدو بأنه يجري تصليحات في المحطة المذكورة ويأمل اصلاح العطل في وقت قريب . راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل العدد ٥٩٠ ، ص ٤٨٧ بتاريخ ١٩٧٤/٧/٢٥ .

٢ — تمكنت المجموعة من قتل الضابط الاحتياط « يوسف بيرون » .

٣ — اعترف العدو بأن حادثا في المنطقة بين باص لشركة ايجد وسيارة شحن قد ادى الى مقتل خمسة جنود واصابة ستة آخرين بجروح . راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل العدد ٦٠٣ ، ص ٢٥٨ بتاريخ ١٩٧٤/٨/٩ .

٤ — تمكن أحد ثوارنا من العودة الى قواعده بعد اصابة زورق المجموعة وقد اعتبر الثوار الاخرين مفقودين .

٥ — ادعى العدو ان العبوة كان سببها نزاع بين الجيران على اماكن وقوف السيارات في باحة المنزل . راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٠٦ ، ص ٣٥٦ بتاريخ ١٩٧٤/٨/١٣ .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٧/١٦ ــ ١٩٧٤/٨/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	تاريخ العملية الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	خسائر العدو البشرية جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	خسائر المقاومة جريح	خسائر المقاومة مفقود	المصدر	تاريخه
١	٧/١٨	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	—	—	محاولة لاحراق بيت الشباب المسمى « دافيد ريمز »	—	—	—	ن٠عدد٥٨٥،ص٣٧٣	٧/١٩
٢	٧/٢١	—	هرتسليا	تفجير	عبوات حارقة	—	—	انــدلاع النــيران في مستودعات للاثاث	—	—	—	ن٠عدد٥٨٧،ص٤١٥	٧/٢٢
٣	٧/٢٤	—	ايلات	قتل	غير محدد	١	—	قتل الرائد الاحتيــاط « يوسف ميرون »	—	—	—	ن٠عدد٥٩٥،ص٦٠١	٧/٣١
٤	٣ /٨	—	رمات جان	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اندلاع النيران في مصنع للبلاستيك	—	—	—	ن٠عدد٥٩٩،ص١١١	٨/٥
٥	٩ــ٨/١٠	—	عكا(١)	اشتباك	اسلحة مختلفة	—	—					ن٠عدد٦٠٤،ص٢٨٤	٨/١٠
٦	٨/١٢	—	نابلس	قتل	ســـكين	١	—	قتل سجان اسرائيلي يدعى « ديب عساف » يعمل في سجن المدينة	—	—	—	ن٠عدد٦٠٦،ص٣٦٠	٨/١٣

ن٠ ــ نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

١ ــ اعترف العدو باغراق زورق مجموعة الفدائيين .

غازي خورشيد

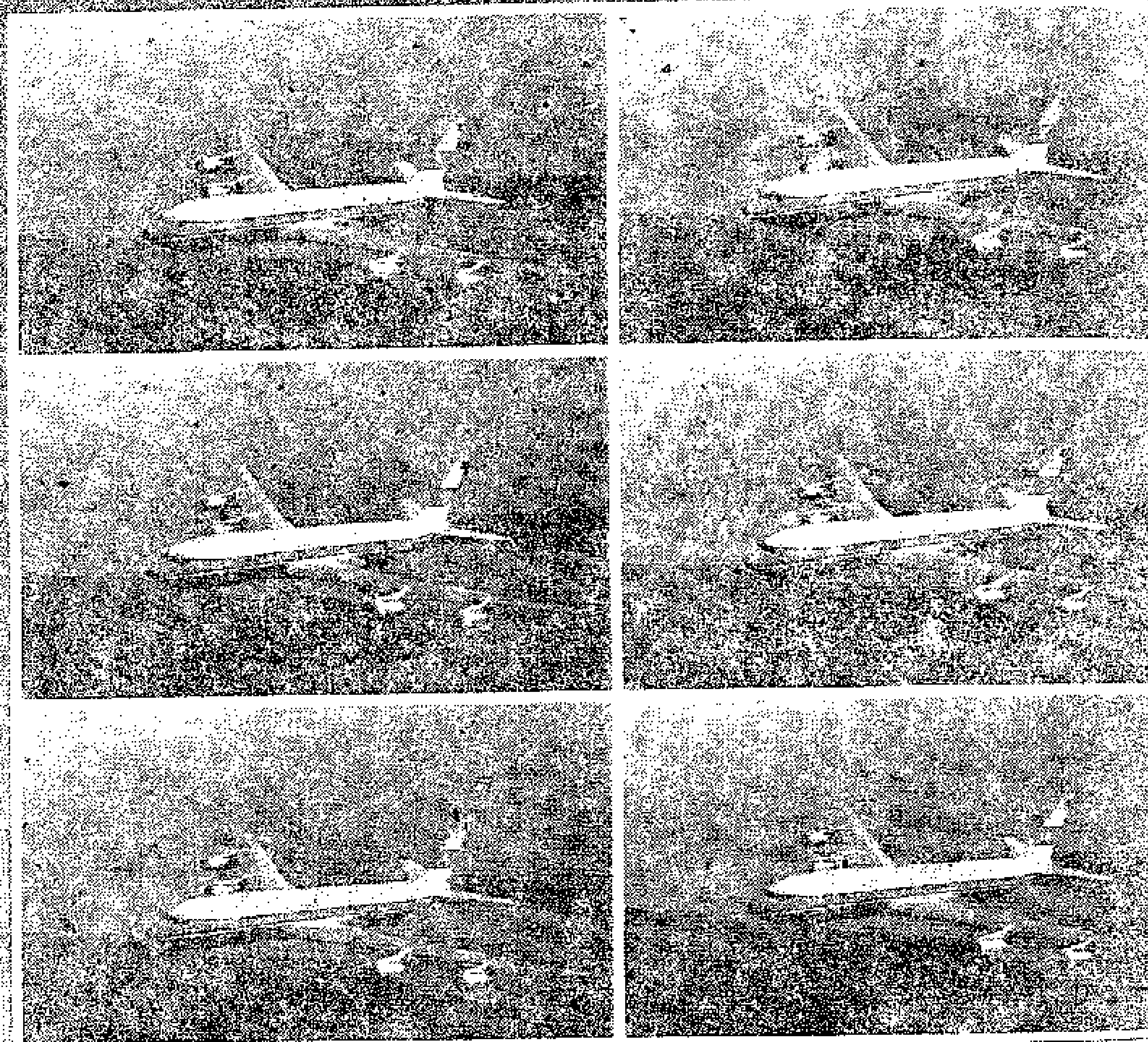
قضايا عربية

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات العربية والتقدمية ، تعالج الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والعلمية في الوطن العربي ، من خلال نظرة مستقبلية وبروح البحث العلمي .

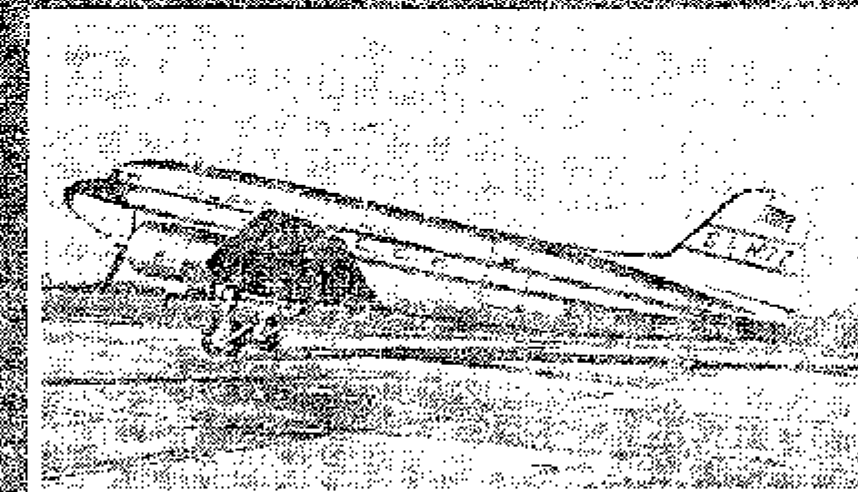
رئيس التحرير : الدكتور عبد الوهاب الكيالي

للاشتراكات يرجى مراسلة ادارة المجلة، ص.ب ٥٤٦٠، بيروت ــ لبنان

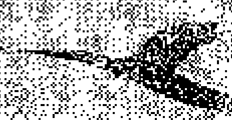
تقرأ في العدد الخامس :



وفي عام ١٩٧٤ بعد مرور ٢٠ عاماً [illegible]

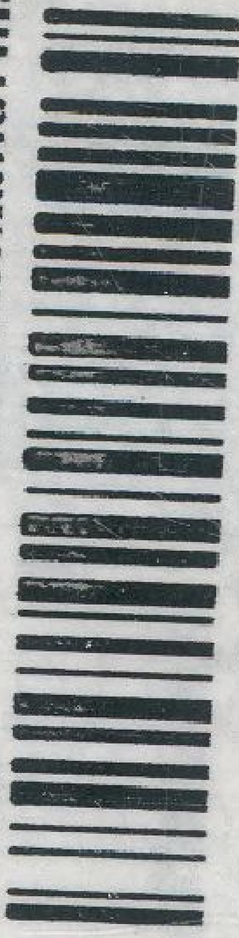






الخطوط الجوية الكويتية

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية



Bibliotheca Alexandrina
0535857